تفسير القرآن العظيم

المسمّى

تأويلات أهل السنة

جنة السـنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
مروان رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon
Email:
resalah@resalah.com
Web site:
http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٤م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر. ١

جنة السنة

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

تأويلات أهل السنّة

تصنيف

أبي منصور محمّد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي
(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلّد الرابع

مؤسسة الرسالة ناشرون

جنة السـنة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمَّ

اجعَلْني ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومنْ يقرَؤُهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

جنة السنة

سورة العنكبوت

[كلُّها مكيَّةٌ][١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ قولُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ هو، وإنْ كانَ في الظاهِرِ استِفهاماً فهو على الإيجابِ لا الاستِخْبارِ؛ إذْ حقيقةُ الاستِفْهامِ والاستِخْبارِ إنما تكونُ مِمَّنْ يَجْهَلُ الأمورَ، فَيَستَخبِرُ، ويَستَفهِمُ، لِيَعْرِفَ ذلكَ، فاللهُ، سُبْحانَهُ، يَتعالَى عنْ أنْ يَخفَى عليهِ شيءٌ. فهو على التَّقريرِ والإيجابِ منهُ[٢].

ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ على أحَدِ وجهَينِ:

[أحَدُهما][٣]: أي حَسِبَ الناسُ.

والثاني: أي لا يَحْسَبِ ﴿ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ ذَكَرَ الإيمانَ، ولم يَذْكُرْهُ بِمَنْ: باللهِ أو بِغَيرِهِ. وليسَ أحدٌ مِنَ الخلائقِ إلّا وهو يُؤمِنُ بأحدٍ، ويَكْفُرُ بِغَيرِهِ. وليسَ في الآيةِ بَيانُ الإيمانِ بِهِ أو بِمَنْ. إلّا أنَّ اللهَ تعالى سَخَّرَ الخَلْقَ على الفَهْمِ مِنَ الإيمانِ المُطْلَقِ المُرْسَلِ الإيمانَ باللهِ وبِرُسُلِهِ، وسَخَّرَهُمْ حتى فَهِموا مِنَ الكتابِ المُطْلَقِ كتابَ اللهِ، والدارِ الآخِرَةِ الجَنَّةَ.

وأمثالُ ذلكَ مِمّا فَهِموا مِنَ الكتابِ المُطْلَقِ كِتابَ اللهِ، وفَهِموا مِمّا ذَكَرْنا مِنَ الإيمانِ المُطْلَقِ الإيمانَ باللهِ تعالى وبِرُسُلِهِ، وفَهِموا أيضاً مِنَ الدينِ المُطْلَقِ دينَ اللهِ...

فيكونُ قولُهُ: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ باللهِ وبرُسُلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي لا يُبْتَلَونَ. والفِتْنَةُ، هي الابْتِلاءُ الذي فيهِ الشِّدَّةُ؛ يَمْتَحِنُ اللهُ عِبادَهُ باخْتِلافِ الأحوالِ: مَرَّةً بالضِّيقِ والشِّدَّةِ، ومَرَّةً بالسَّعَةِ والرَّخاءِ وبأنواعِ[٤] العِباداتِ ليكونَ ذلكَ عِلْماً لِلْخَلْقِ في صِدْقِ الإيمانِ بِهِ والكَذِبِ فيهِ، فَيَعْرِفوا صِدْقَ كلِّ مُخْبِرٍ عنْ نفسِهِ الإيمانَ باللهِ تعالى وكَذِبَهُ، إذْ قد يَجوزُ أنْ يكونَ في ما يُخْبِرُ، ويقولُ: آمَنْتُ، كاذباً.

فَجَعَلَ اللهُ تعالى العِلْمَ في صِدْقِهِمْ وكَذِبِهِمْ أعمالاً، تُظْهِرُ بها عندَهُمْ صِدْقَهُ ما لو كانَ الابْتِلاءُ والامْتِحانُ بِجِهَةٍ لِعِلَّةٍ لا تُظْهِرُ ذلكَ. وهو ما أخْبَرَ عنِ المُنافِقينَ، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

هذا يَدُلُّ أنَّ الفِتْنَةَ، هي المِحْنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ والبلاءُ وما قالَ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فإنما يَظْهَرُ صِدْقُ الرجلِ في إيمانِهِ بما يُصيبُهُ مِنَ الشِّدَّةِ. فأمّا السَّعَةُ والرَّخاءُ فهو يُوافِقُ طَبْعَهُ وَهَوَى[٥] نفسِهِ فلا يَظْهَرُ صِدْقُهُ بما يُوافِقُ طَبْعَهُ، وإنما يَظْهَرُ ذلكَ بِما يُخالِفُ طَبْعَهُ، ويَثْقُلُ عليهِ تَحَمُّلُ[٦] ذلكَ.

---

(١) في الأصل: ذكر أن سورة العنكبوت كلها مكية، ويقول قتادة: عشر آيات من أولها مدنية، وسائر الآيات مكية، في م: كلها مكية، ويقول قتادة: عشر آيات من أولها مدنية، وسائر الآيات مكية. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: وهو في. (٦) من م، في الأصل: يحتمل.

ثم قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ في قومٍ، أظْهَروا الإيمانَ باللسانِ، وأضمَروا الخِلافَ والكَذِبَ.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتْ في قومٍ، آمَنوا باللهِ وبرسولِهِ حقيقةً، ثم عُذِّبوا بأنواعِ العذابِ، فتَرَكوا الإيمانَ، وكَفَروا بِهِ. وفيهِمْ نَزَلَ [قولُهُ تعالى][1]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] فكيفَ ما كانَ ففيهِ أنَّ مَنْ أقرَّ بالإيمانِ، وقَبِلَهُ[2] يُمتَحَنُ بأنواعِ المِحَنِ بِمُوافقةِ الطَّبعِ ومُخالَفَتِهِ لِيَظْهَرَ صِدْقُهُ عند الناسِ، فَيُعامِلونَهُ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ما تقدَّمَ، أي[3] يَعلَمُ ظاهراً كائناً ما قد عَلِمَهُ غيرَ كائنٍ أنهُ يكونُ، ويَعلَمُهُ[4] موجوداً ما قد عَلِمَهُ غيرَ موجودٍ أنهُ يوجَدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا أيضاً يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: قد حَسِبَ الذينَ ما ذُكِرَ.

والثاني: لا يَحْسَبُ على النَّهْيِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ لا أحَدَ يَظُنُّ أنْ يَسْبِقَ اللهَ في عذابِهِ ونِقْمَتِهِ. لكنهمْ إذا رَأَوُا الكافِرَ والمُسْلِمَ في هذهِ الدنيا على السَّواءِ في نَعيمِها وسَعَتِها، ورأَوا أيضاً عندَ المَوتِ أنْ لم يُنْزَلْ على الكافِرِ عذابٌ كالمُسْلِمِ ظَنّوا أنْ لا بَعْثَ، وما بَينَهما باطلاً. ذلكَ ظَنُّ الذينَ كَفَروا؛ حَمَلَهُمْ ذلكَ على إنكارِ البعثِ كقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ حينَ خلَقَهُما إذا لم يكُنْ بَعْثٌ ﴿بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

وهُمْ قد عَلِموا أنَّ اللهَ، خَلْقَهُ إيّاهما، ليسَ بباطلٍ، ولكنْ صَيَّرَ خَلْقَهُما، إذا لم يَكُنْ بعثٌ باطلاً. فإذا أنكروا البعثَ ظَنّوا أنْ لا عذابَ، ولا جزاءَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أضافَ اللقاءَ إلى نفسِهِ، وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ المصيرِ/ ٤٠٣ - ب/ إليهِ كقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨ و...] وقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] وقولِهِ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] ونَحْوُهُ هذ كلُّهُ، لأنَّ خَلْقَ الدنيا وخَلْقَ العالَمِ فيها لا لَها، ولكنَّ المَقْصودَ بِخَلْقِها وخَلْقِ العالَمِ فيها الآخِرَةُ. فإنما صارَ خَلْقُ هذهِ الأشياءِ فيها حِكْمَةً بالآخِرَةِ؛ إذْ لو لَمْ تَكُنْ آخِرَةٌ كانَ خَلْقُ ما ذُكِرَ في هذهِ الدنيا لَعِباً باطلاً كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَهُمْ لا لِلرُّجوعِ إليهِ لَعِباً باطلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يقولونَ، ويُظْهِرونَ، والعَليمُ بما يُضْمِرونَ، ويُسِرُّونَ، لأنَّ القصةَ قصةُ المنافقينَ، أوِ السَّميعُ المُجيبُ، العَليمُ بِحَوائجِهِمْ وأُمورِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ وكذلكَ قولُهُ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقولُهُ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيها.

ففي هذا أنَّ اللهَ إنما امْتَحَنَ الخَلائِقَ لا لِحاجَةٍ لهُ في ما امْتَحَنَهُمْ في دَفْعِ مَضَرَّةٍ وجَرِّ نَفْعٍ. لكنْ إنما امْتَحَنَهُمْ لِحاجَةِ أنفسِهِمْ في دَفْعِ المَضارِّ وجَرِّ المَنافِعِ.

وكذلكَ إنما أنشأَ الدنيا وهذا العالَمَ فيها لا لِحاجَةٍ لهُ في إنشاءِ ذلكَ، ولكنْ لِحَوائِجِ أنفسِهِمْ.

وكذلكَ ما أنْشأَ مِنَ الخَلائقِ سِوى البَشَرِ؛ إنما [أنْشَأهُ لِلْبَشَرِ][5]، ولهُ سَخَّرَ جميعَ ذلكَ، وجَعَلَ البَشَرَ بحيثُ يَقْدِرُ على اسْتِعْمالِ جميعِ ذلكَ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ وحاجاتِهِمْ[6]، وهو ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ[7] مِنَ القرآنِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقالَ[9]: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ونَحْوَ ذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقيل. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: وليعلمه. (٥) في الأصل وم: أنشأ البشر.
(٦) في الأصل وم: وحاجتهم. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وقوله.

جنة السنة

فَعَلَى ذلكَ امْتَحَنَ هذا العالَمَ لحاجةِ أنفُسِهِمْ في دَفْعِ مَضارٍّ وجَرِّ مَنْفَعَةٍ. لذلكَ قالَ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي لِحاجةِ نَفْسِهِ ومَنْفَعَةِ نفسِهِ لا لِمَنْفَعَتِهِ أو لِحاجةِ اللهِ تعالى.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا تفسيرُ ما ذَكَرَ.

ثم المُجاهَدَةُ تكونُ مَرَّةً معَ الشيطانِ والجِنِّ، ومَرَّةً معَ أعدائِهِ مِنَ الإنسِ، ومَرَّةً مع هَوَى النَّفْسِ، ومَرَّةً في أمْرِ الدنيا. كلُّ ذلكَ مُجاهَدَةٌ في اللهِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] واللهُ أعلمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ كانَ ما عَمِلوا مِنَ الحَسَناتِ والصالحاتِ يُكَفِّرُ بها سَيِّئاتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنَّ جَزاءَهُمُ الذي يُجْزَوْنَ بتلكَ الأعمالِ أحْسَنُ مِنْ أعمالِهِمُ التي عَمِلوا لأنَّ قَدْرَ ذلكَ الجزاءِ عندَهُمْ أعْظَمُ وأحْسَنُ مِنْ قَدْرِ أعمالِهِمْ، إذْ ليسَ لأعمالِهِمْ عندَهُمْ كثيرُ قِيمَةٍ وقَدْرٍ؛ إذْ منهمْ مَنْ يُحْيي ليلةً بِدِرْهَمٍ وبما يَسُدُّ بهِ حاجَتَهُ في يومٍ وليلةٍ.

والثاني: أنَّ الأعمالَ التي يَعْمَلُها الناسُ[2] تكونُ على وجوهٍ: سَيِّئاتٍ تُكَفَّرُ بالتوبةِ أو بما يُعاقَبونَ عليها، وحَسَناتٍ يُجْزَوْنَ بها الثوابَ الجزيلَ، وإباحاتٍ يَعْمَلونَها[3] لِحَوائِجِ أنفُسِهِمْ [لا يُعاقَبونَ عليها][4] ولا يُثابونَ. فيقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهو الحَسَناتُ والخَيراتُ [التي][5] عَمِلوها.

[والثالثُ][6]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أنْ يُكَفِّرَ سَيِّئاتِهِمْ بِنَوعٍ مِنَ الحَسَناتِ، ويُثابوا[7] على أحْسَنِها، وهو ما قالَ: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ واللهُ أعلمُ بذلكَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وقُرِئَ أيضاً: إحْساناً[8].

قالَ الزَّجّاجُ: قولُهُ: ﴿حُسْنًا﴾ أجْمَعُ وأقْرَبُ لأنهُ يَرْجِعُ إلى حُسْنِ الشيءِ في نفسِهِ، وإلى[9] حُسْنِهِ عندَ ذلكَ الإنسانِ؛ يُقالُ: حَسُنَ كذا إذا كانَ في نفسِهِ حَسَناً. والإحسانُ هو ما يَحْسُنُ عندَ ذلكَ المَعْمولُ لهُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

قالَ الشيخُ رحمه الله: لكنَّ الإحسانَ هو اسْمُ ما حَسُنَ أيضاً في نفسِهِ؛ يقالُ: أحْسَنَ؛ فإذا أحْسَنَ فقد حَسُنَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إنْ كانَ هذا الخِطابُ لأهلِ الإيمانِ فيكونُ تأويلُ الآيةِ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بأنَّ[10] لهُ شريكاً[11] ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فلا تُشْرِكْ بي، وكقولِهِ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أي يَعْلَمُ بِخِلافِ ما يقولونَ.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بأنَّ لهُ شريكاً[12]، أي لكَ العِلْمُ بِخِلافِهِ بأنْ ليسَ لهُ شريكٌ.

وإنْ كانَ الخِطابُ لأهلِ الكُفْرِ [فهمْ][13] يقولونَ على اللهِ ما ليسَ لهمْ بهِ عِلْمٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أمَرَ بالبِرِّ للوالِدَيْنِ والإحسانِ إليهما والطاعةِ لهما ما لم يَكُنْ في طاعَتِهِما مَعْصِيَةُ الرَّبِّ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ تَجِبُ طاعَتُهما في كلِّ شيءٍ، وفي كلِّ ما كانَ عندَهما إحسانٌ، ولكنْ في ما كانَ في ذلكَ طاعةُ الخالِقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ لِتكونوا أبداً على حَذَرٍ في أعمالِكُمْ، لا تَعْمَلونَ في ما فيهِ مَعْصِيَةُ الرَّبِّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: المرء. (٣) في الأصل وم: يعملون. (٤) في الأصل وم: مما لا يُعاقبون عليه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: ويثابون. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/٣٩. (٩) الواو ساقطة من الأصل. (١٠) أدرج قبلها في الأصل: أي. (١١) في الأصل وم: شريك. (١٢) في الأصل وم: شريك. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما][1]: كأنهُ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولهُمْ سَيِّئاتٌ، لَنُكَفِّرَنَّ عنهُمْ سَيِّئاتِهِمْ بأعمالِهِمُ الصالحاتِ، ثم ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذينَ لا سَيِّئَةَ لهمْ، وهُمُ الأنبياءُ؛ إذْ أكْثَرُ ما ذُكِرَ في الكتابِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إنما أريدَ بهمُ الأنبياءُ، صَلواتُ اللهِ عليهِمْ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، على تَكفيرِ السَّيِّئاتِ عنهُمْ على ما ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ، وهو ما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

[والثاني][2]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي لَنَجْعَلَنَّهُمْ مِنَ الصالحينَ. فإنْ قيلَ: ما مَعْنى ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهُمْ قد عَمِلوا الصالحاتِ؟ قيلَ: مَعْناهُ ما ذَكَرْنا بَدْءاً: أنهمْ قد عَمِلوا الصالحاتِ، إلّا [أنَّ لهمْ][3] سَيِّئاتٍ، يُكَفِّرُها بالصالحاتِ، ثم لَيَجْعَلَنَّهُمْ في الصالحينَ الذينَ لا سَيِّئَةَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ناسٌ مؤمنونَ بألسِنَتِهِمْ؛ فإذا أصابَهُمْ بلاءٌ مِنَ الناسِ أو مُصيبةٌ في أنفُسِهِمْ وأموالِهِمُ افْتُتِنوا، فَجَعَلوا ذلكَ في الدنيا كعذابِ اللهِ في الآخِرَةِ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ وذلكَ على المُنافِقِ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: نَزَلَتِ الآيةُ في مَنْ حَقَّقَ الإيمانَ سِرًّا وعَلانِيَةً، إلّا أنهُ عُذِّبَ لأجْلِ إيمانِهِ باللهِ وبرسولِهِ، فَتَرَكَ الإيمانَ، وكَفَرَ. فَعَلى تأويلِ هذا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ على القَطْعِ مِنَ الأوّلِ والابْتِداءِ منهُ [وهو لِبيانِ][5] صَنيعِ المُنافقينَ وخَبَرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي جَعَلَ فِتْنَةَ الناسِ وتَعْذيبَهُمْ إيّاهُ في إعطاءِ ما سَألوهُ، وهو الكُفْرُ، كعذابِ اللهِ في إعطاءِ ما سألَ مِنْ أهلِ الكُفْرِ، وهو الإيمانُ، لأنَّ أهلَ الكُفْرِ إذا نَزَلَ بهِمْ عذابُ اللهِ، أوِ اشْتَدَّ بهِمْ خَوفُ نُزولِهِ عليهِمْ أعْطَوُا اللهَ ما سألَهُمْ مِنَ الإيمانِ والتوحيدِ، وهو ما قالَ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ جَعَلَ فِتْنَةَ الناسِ في تَرْكِ الإيمانِ كَعذابِ اللهِ في ذلكَ، أي جَعَلَ العذابَ الذي مِنَ الناسِ كأنهُ مِنَ اللهِ جاءَ، فَتَرَكَ الإيمانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَ لَيۡسَ/ ٤٠٤ ـ أ/ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإنْ كانتِ الآيةُ في مَنْ حَقَّقَ الإيمانَ باللهِ سِرًّا وعلانيَةً فَيَخْرُجُ هذا على التَّعْييرِ لهُ في تَرْكِهِ الإيمانَ بما عُذِّبَ بهِ لأنهُ كانَ يَقْدِرُ أنْ يُظْهِرَ الكُفْرَ لهمْ باللسانِ، فَيَدْفَعُ [العذابَ][6] عنْ نفسِهِ، ويكونُ في الحقيقةِ في السِّرِّ مؤمناً على ما ذَكَرَ ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وإنْ كانَتِ الآيةُ في المُنافقينَ فيقولُ: كيفَ أسْرَرْتُمُ الكُفْرَ والخِلافَ لهُ في القَلْبِ، وأنتمْ تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ عالِمٌ بما في صدورِ العالَمينَ؟ فَيُخْبِرُ رسولَهُ بما أضمَروا، وأسَرُّوا مِنَ الخِلافِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَ هذا: أنْ يَعْلَمَ كائناً ما قد عَلِمَ أنهُ سيكونُ، ويَعْلَمَ موجوداً ظاهراً ما قد عَلِمَ أنهُ يوجَدُ، ويَظْهَرُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ كأنهمْ قالوا ذلكَ لهمْ بَعْدَما عَجَزوا عنِ الطَّعْنِ في الحُجَجِ والآياتِ ما يُوجِبُ شُبْهَةً في ما عندَ الناسِ وبَعْدَ ما انْقَطَعوا عنِ اللَّجاجِ فيها والاحْتِجاجِ عليها. فلمّا عَجَزوا عنْ ذلكَ كلِّهِ فعندَ ذلكَ اشْتَغَلوا بما ذَكَروا، وقالوا للمؤمنينَ مِمّا ذَكَروا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي دينَنا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أنهم. (٤) في الأصل وم: ثم قال. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: من. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ يقولونَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ فإنهُ صوابٌ. فإنْ أصابكُمْ خطأٌ أو أخطأتُمْ في الاتّباعِ له فإنّا نَحمِلُ خطاياكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قالوا لِمَنْ آمَنَ: لا نُبْعَثُ نحنُ ولا أنتمْ فاتّبِعونا، وإنْ كانَ عليكُمْ شيءٌ فهو علينا. وهو قريبٌ منَ الأوّلِ.

[ويَحتَمِلُ][1] أنْ يقولوا لهمْ: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ فإنَّ اللهَ أمرَنا به، فإنْ أخطأتُمْ في ذلكَ فإنّا نَحمِلُ خطاياكُمْ، أو نَحوَهُ.

فهذا القولُ منهمْ مُتناقِضٌ [مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما:][2] لأنهمْ [ذَكَروا أنهمْ][3] كانوا يُخطِئونَ في [طَلَبِ][4] الاتّباعِ لهمْ دينَهُمْ إلّا أنْ يُريدوا بذلكَ ما ذَكَرْنا.

والثاني: إنما كانوا يَضْمَنونَ، ويَحمِلونَ خطاياهُمْ لا بإذْنِ مَنْ لهُ الطّلَبُ في [غَفرِ][5] الخطايا، ولكنْ بإذْنِ مَنْ عليهِ ذلكَ؛ إذْ[6] لا يَصلُحُ الضّمانُ إلّا بإذْنِ مَنْ عليهِ.

ثم أخبَرَ أنهمْ لا يَحمِلونَ ذلكَ حينَ[7] قالَ: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ما يَذكُرونَ مِنْ حَمْلِ خَطاياهُمْ، أي لا يَقْدِرونَ على حَمْلِها، أو كاذِبونَ في الدعاءِ إلى اتّباعِ سَبيلِهِمْ، أو كاذِبونَ أنّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ يَحمِلونَ أوزارَهُمْ بِضلالِ أنفُسِهِمْ ﴿وَأَثۡقَالٗا﴾ بإضلالِ غيرِهِمْ ودعائِهِمْ إليهِ كقولِهِ: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النحل: ٢٥].

وذُكِرَ في خَبَرٍ أنّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «ما مِنْ داعٍ دعا إلى هُدًى فأُتبِعَ عليهِ إلّا كانَ لهُ مِثْلُ أُجورِ مَنِ اتّبعَهُ، ولا يَنقُصُ مِنْ أجورِهِمْ شيءٌ» [مسلم ٢٦٧٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: افتِراؤُهُمْ اتّخاذُهُمُ الأصنامَ آلهةً؛ إذْ يكونُ الافتِراءُ في الفِعْلِ والقولِ جميعاً. وجائزٌ أنْ يكونَ افتِراؤُهُمْ ما ذَكَروا مِنْ حَمْلِ خَطاياهُمْ وما قالوا: إنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، أو تَسميتَهُمُ الأصنامَ التي عَبَدوها آلهةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ يَذكُرُ هذا النّبأَ لوجهَينِ:

أحَدُهما: تَصبيرُهُ رسولَهُ على أذى قومِهِ، لأنهُ ذَكَرَ أنّ نوحاً لَبِثَ في قومِهِ ألفَ عامٍ غيرَ خمسينَ عاماً، كانَ يَدعو إلى توحيدِ اللهِ، فلم يُجِبْهُ إلّا نَفَرٌ مِنْ أهلِهِ، فلم يَمنَعْهُ مِنَ الدعاءِ إلى دينِ اللهِ ما أوعَدوهُ مِنَ المَواعيدِ حينَ[8] ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] ونَحوَ ذلكَ مِنَ المواعيدِ.

فذلكَ لم يَمنَعْهُ مِنَ الدعاءِ، ولذلكَ قالَ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثاني: يَنقُضُ على المُتَقَشِّفَةِ مَذهَبَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ المَوعِظَةَ إنما لا تَنجَعُ في المَوعوظينَ لِتَفريطِ الواعِظِ وتَرْكِ استِعمالِ نَفسِهِ لذلكَ.

فيُقالُ: إنَّ نوحاً قد دعا قومَهُ ألفَ سَنَةٍ إلّا خَمسينَ عاماً، فلم يُجِبْهُ إلّا نَفَرٌ. فلا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ منهُ تَقصيرٌ أو تَفريطٌ. فَدَلَّ أنها لا تَنجَعُ ربما لِشَقاوَةِ الموعوظِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو المَطَرُ الشديدُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الطُّوفانُ كلَّ بلاءٍ، فيهِ الهلاكُ، والطُّوفانُ هو الذي أُرسِلَ عليهِمْ مِنَ الماءِ، فأغرَقَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾ أي نوحاً ﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي مَنْ دَخَلَ السَّفينةَ ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: جَعَلَها آيةً أنْ هَلَكَتْ كلُّ سَفينةٍ كانَتْ، وهي باقيةٌ إلى اليوم، على ما هي عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً﴾ لِمَنْ بَعْدَهُم، فتَمْنَعُهُمْ عن تكذيبِ الرسُلِ والعِنادِ معَهُمْ.

قالَ الزَّجّاجُ: الاِستِثناءُ يُخَرَّجُ على تأكيدِ ما تقدَّمَ مِنَ الكلامِ، كذِكْرِ الكُلِّ على إثْرِ ما تقدَّمَ مِنَ الكلامِ، أو كلامٌ نحوُهُ.

وقُلْنا نَحْنُ: إنْ كانَ ما تقدَّمَ مِنَ الذِّكْرِ كافِياً تماماً فَيُخَرَّجُ الثُّنْيا على إثْرِهِ مُخْرَجَ التأكيدِ لِما تقدَّمَ نحوَ قولِهِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ [الحجر: ٥٨ و٥٩]. قولُهُ: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ كافٍ تامٌّ مَفْهومٌ ألّا يَدْخُلَ فيهِ آلُ لوطٍ حينَ[1] ذَكَرَ الجُرْمَ، وآلُهُ غيرُ مُجْرِمينَ فهو كافٍ مَفْهومٌ لا يَحتاجُ إلى ذِكْرِ آلِ لوطٍ. لكنهُ ذَكَرَهُ على التأكيدِ لهُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤] وقولُهُ: ﴿مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥].

إذا قالَ: ﴿مُحْصَنَـٰتٍ﴾ يُفْهَمُ أنَّهُنَّ ﴿غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] لكنهُ ذَكَرَهُ على التأكيدِ. وإذا كانَ ما تقدَّمَ مِنَ الكلامِ مُجْمَلاً مُرْسَلاً فيُخَرَّجُ ذِكْرُ الثُّنْيا مُخْرَجَ تَحْصيلِ المُرادِ منهُ على إضمارِ حَرْفٍ: مِنْ فيهِ، كقولِهِ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كأنهُ قالَ: فَلَبِثَ فيهِمْ مِنَ الألفِ سنةٍ تِسْعَ مِئةٍ وخمسينَ. وكذلكَ قولُ الناسِ: لِفُلانٍ عَلَيَّ عَشَرَةُ دراهِمَ إلّا كذا؛ كأنهُ قالَ: لِفُلانٍ عليَّ مِنْ عَشَرَةِ دراهِمَ كذا، فهو على التَّحْصيلِ يُخَرَّجُ ذِكْرُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الطُّوفانُ كلُّ ماءٍ طافٍ فاشٍ مِنْ سَيلٍ أو غيرِهِ، وكذلكَ المَوتُ الجارِفُ يُسَمّى الطُّوفانَ وماءَ الطوفانِ، وهو ما ذُكِرَ في سورةِ الأعرافِ[2].

وقالَ بعضُهُمْ: هو الغَرَقُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ هو نَسَقٌ على قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ١٤] [أي][3]: وأرسلْنا إبراهيمَ أيضاً إلى قومِهِ، أو أنْ يكونَ نَسَقاً على قولِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [أي][4] وأنجينا إبراهيمَ أيضاً حينَ أُلْقِيَ في النارِ[5]، أو يقالُ: ذَكَرَ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ يَحتَمِلُ في حَقِّ الاِعتِقادِ، أي وحِّدوا اللهَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ الشِّرْكَ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ في حَقِّ المعامَلَةِ، أي إليهِ اصْرِفوا العِبادةَ ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي اتَّقوا عبادةَ مَنْ تَعْبُدونَ مِنَ الأوثانِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ في مَوضِعِ النَّهْيِ، أي ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ووَحِّدوهُ، ولا تَعْبُدوا غيرَهُ؛ يكونُ فيهِ نَهْيٌ عن مُخالَفَةِ ما تقدَّمَ مِنَ الأمْرِ: افْعَلوا كذا، واتَّقوا ما يُضادُّهُ، ويُخالِفُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي عبادةُ اللهِ خيرٌ لكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنَّ ذلكَ خيرٌ لكُمْ.

وجائزٌ ذِكْرُ إذْ مكانَ إنْ في اللغةِ، ويكونُ[6] قولُهُ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: إذْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ [أنَّ ذلكَ خيرٌ لكُمْ][7].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تَخْلُقونَ كَذِباً في تَسْمِيَتِكُمُ الأوثانَ آلهةً مَعْبودينَ، أي لَيسوا بآلهةٍ ولا مَعْبودينَ. أو يقالُ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي كَذِباً في صَرْفِ عبادَتِكُمْ إليها واسْتِحقاقِ العبادةِ، أي لا يَسْتَحِقّونَ العبادةَ، إنما المُسْتَحِقُّ للعبادةِ [اللهُ لا][8] مَنْ تَعْبُدونَ /٤٠٤ ـ ب/ وقالَ بعضُهُمْ: أي جَعَلْتُمْ كَذِباً مِنَ الآلهةِ لا حَقًّا، وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا.

ثم بَيَّنَ سَفَهَهُمْ في صَرْفِ العِبادةِ إلى الأصنامِ، وعَجْزَها [عنْ رِزْقِ مَنْ][9] يَعْبُدُها حينَ[10] قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات﴾ [الآية: ١٣٣].
(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنبياء: ٧١]. (٦) في الأصل وم: أو يكون. (٧) أدرجت هذه العبارة في الأصل قبل: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. (٨) في الأصل: الله دون، في م: دون. (٩) في الأصل وم: عمن. (١٠) في الأصل وم: حيث.

دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يقولُ، والله أعلَمُ: إنَّ في الشاهدِ لا يَخْدِمُ أحدٌ أحداً إلا لِما يَأمُلُ مِنَ النَّفعِ لهُ بالخِدمَةِ أو لِسابقةِ إحسانٍ، كانَ منهُ إليهِ. فالأصنامُ التي تَعبُدونَها لا يَملِكونَ أنْ يَرزُقوكُم، ولا يَنفعوكُم، ولا كانَ منها إليكُم سابقةُ صُنعٍ، فكيفَ تَعبُدونَها؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي اعبدوا الله الذي يَرزُقُكُم، ويَنفَعُكُم، ويَملِكُ ذلكَ لكُم، واترُكوا عِبادةَ مَن لا يَملِكُ ذلكَ.

[وقولُهُ تعالى:][١] ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ يَحتَمِلُ الوَجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما في ما تَقَدَّمَ: التوحيدُ والعِبادةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي اشكُروا لهُ في ما أنعَمَ عليكُم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: وإنْ يُكَذِّبوكَ في ما تُخبِرُ مِنْ نَبَإِ إبراهيمَ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رُسُلَهُم في ما أخبَروا عن إبراهيمَ بَعدَ انتِسابِ كلِّ فريقٍ منهمْ إليهِ وادِّعائِهِ نِحلَتَهُ ومَذهَبَهُ.

والثاني: وإنْ يُكَذِّبوكَ في ما تُبلِّغُ إليهِمْ مِنَ الرسالةِ [﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رُسُلَهُمْ في تَبليغِ الرسالةِ][٢].

[وقولُهُ تعالى:][٣] ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يُبَيِّنُ لهمْ أنها رسالةُ ربِّهِمْ بالحُجَجِ والبراهينِ والآياتِ، والله أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إنهمْ قد رَأَوا أنْ كيفَ أنشأَ اللهُ الخَلْقَ في الابْتِداءِ، وإنْ عَجَزوا عنِ الأسبابِ التي خَلَقَهُم، ولا احْتَمَلَ وُسعُهُم ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ يُعيدُهُم على ما أبْدَأهُمْ، وإنْ عَجَزَ وُسعُهُم عنِ احتِمالِ ذلكَ وإدراكِهِ. إذِ الأُعجوبةُ في الإعادةِ لَيسَتْ بأكثَرَ مِنَ الأُعجوبةِ في البدايةِ. بلِ الأُعجوبةُ في ابْتِداءِ الإنشاءِ أكثَرُ مِنَ الإعادةِ [إذِ الإعادةُ][٤] عندكُم أيْسَرُ وأهوَنُ مِنَ الابْتِداءِ. فَمَنْ قَدَرَ على الابْتِداءِ فهو على الإعادةِ أقدَرُ.

[وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [أي][٦] الابْتِداءُ والإعادةُ جميعاً يَسيرٌ[٧] لا يُعجِزُهُ شيءٌ؛ إذْ هو قادرٌ بذاتِهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ كانَ الأمرُ بالسَّيرِ والنَّظَرِ ليسَ هو سَيراً بالأقدامِ فيها، ولكنْ أمرٌ بإرسالِ الفِكْرِ [في ما][٨] فيها مِنَ الخَلائقِ والنَّظَرِ في بَدْءِ ما فيها مِنَ الخَلْقِ مُتقَناً مُحكَماً بالتَّدبيرِ والعِلمِ والحِكمَةِ بلا أسبابٍ لِيَعلَموا أنَّ التَّقديرَ في ابْتِداءِ الإنشاءِ والإعادةِ بالخارجِ عنِ احْتِمالِ وُسعِهِمْ وقواهُمْ خَطأً، وأنَّ الذي قَدَرَ على إنشاءِ الخَلْقِ وابْتِدائِهِ[٩] بلا سَبَبٍ ولا شيءٍ، وإنْ لم يَحتَمِلْ وُسعُهُمْ وبُنيَتُهُمْ وقواهُمْ ذلكَ، وعلى ذلكَ الإعادةُ والنَّشأةُ الأُخرَى، وإنْ [كانَتْ][١٠] خارجةً عنِ احْتِمالِ وُسعِهِمْ وقواهُمْ، قادرٌ عليها.

[ويَحتَمِلُ][١١] أنْ يُقالَ: انْظُروا، واعتَبِروا أنَّ بَدْءَ الخَلْقِ مِنَ الحكيمِ العالِمِ الذاتيِّ بلا إعادةٍ ورجوعٍ ليسَ بحِكمَةٍ في العَقلِ جميعاً. إنَّ [في][١٢] الحِكمَةِ والعَقلِ التَّفريقَ بَينَ الوَليِّ والعَدُوِّ وبَينَ الشاكِرِ والكافِرِ وبَينَ المُطيعِ والعاصي؛ إذْ قد سَوَّى بَينَهُمْ في الدنيا، وأشرَكَهُمْ فيها حتى جَعَلَ لِلكافِرِ ما لِلشاكِرِ والوَليِّ والعَدُوِّ والمُطيعِ والعاصي. فلابدَّ مِنَ الإعادةِ في دارٍ يُفرِّقُ بَينَهُمْ لِيَخرُجَ بَدْءُ إنشائِهِ[١٣] وخَلقُهُ الخَلقَ على الحِكمَةِ والتَّدبيرِ والعِلمِ لا على السَّفَهِ والعَبَثِ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في النشأةِ الأُولى والآخِرَةِ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ؛ إذْ هو قادرٌ بِذاتِهِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ يَحتَمِلُ هذا في الدنيا ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ في الدنيا، أي

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرجت في الأصل وم قبل: الابتداء. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وابتداء. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: إنشائهم.

جنة السنة

يَمتَحِنُهُ، ويَبتَليهِ بالشِّدَّةِ والضِّيقِ ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَمتَحِنُهُ بالسَّعَةِ والرَّخاءِ، فيكونُ التَّعذيبُ كِنايةً عنِ الشِّدَّةِ والضِّيقِ، والرَّحمةُ كنايةً عنِ السَّعَةِ والرَّخاءِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي تُرْجَعونَ.

ويَحتَمِلُ التَّعذيبَ في الآخِرَةِ والرحمةَ فيها، أي يُعَذِّبُ مَنْ يشاءُ في الآخِرَةِ مَنْ كانَ في الدنيا أهْلاً لهُ مُستَوجِباً، ويَرْحَمُ مَنْ يشاءُ مَنْ كانَ في الدنيا أهلاً لها مُطيعاً لها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ما أنتم بمُعجِزينَ اللهَ [إنْ كنتُم في الأرضِ أو][1] في السماءِ.

وعلى قولِ المُعتَزِلَةِ يكونونَ مُعجِزينَ اللهَ في الأرضِ على ظاهرِ مذهبِهِمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ قد أرادَ إبقاءَ الأخيارِ وأهلِ الصلاحِ، ثم يجيءُ كافرٌ، فَيَقْتُلُهُمْ قَبْلَ أجَلِهِمُ الذي أرادَ إبقاءَهُمْ إلى وقتٍ.

وكذلكَ يقولونَ: أرادَ اللهُ أنْ يَرزُقَهُمْ من رُشْدٍ ونِكاحٍ، لكنهمْ يطلبونَ الرِّزْقَ مِنْ حرامٍ، ويَزنونَ، وتُخلَقُ أولادُهُمْ مِنْ زِنًى، شاءَ، أو أبَى، لا يَقْدِرُ التَّخَلُّصَ عمّا يُريدونَهُ[2]. فأيُّ إعجازٍ يكونُ أشدَّ مِنْ هذا؟ فَنَعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هم يَعْلَمونَ؛ أعني الكَفَرَةَ، أنهمْ لا يُعجِزونَ اللهَ، ولا يَقْدِرونَ على إعجازِهِ، لكنهُ يَذْكُرُ أنهمْ[3] كانوا يَعْمَلونَ عملَ مَنْ هو مُعجِزٌ فائتٌ عنْ عذابِ اللهِ ونِقْمَتِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [الحج: ٥١] همْ يَعلَمونَ أنهمْ لا يَقْدِرونَ أنْ يَسْعَوا في آياتِهِ مُعاجِزينَ، لكنهمْ يَسْعَونَ في دَفْعِ آياتِهِ والإنكارِ لها سَعْيَ مُعاجِزٍ لها لا سَعْيَ خاضعٍ قابلٍ. فَعَلى ذلكَ الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ ما طَمِعْتُمْ مِنَ النَّصْرِ لكمْ والشفاعةِ، وليسَ لكمْ. ذلكَ لأنهمْ عَبَدوا تلكَ الأصنامَ لِما طَمِعوا شفاعَتَها عندَ اللهِ لهمْ والزُّلفَى [بقولِهِ تعالى][4]: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ [مريم: ٨١ و٨٢] وقولِهِمْ[5]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِهِمْ[6] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ونَحْوِهِ.

فيقولُ: ما لكُمْ ممّا طَمِعْتُمْ بِعبادَتِكُمْ تلكَ الأصنامَ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصيرٍ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ قولُهُ: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تَحتَمِلُ آياتُ اللهِ الآياتِ التي جاءَ بها الرُّسُلُ في إثباتِ الرسالةِ لهمْ. وتَحتَمِلُ آياتُهُ الآياتِ التي جَعَلَها لِوَحدانيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي كَفَروا بالبعثِ، وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ وجهَ تسميةِ البَعْثِ لِقاءَهُ.

وقالَ الحَسَنُ: آياتُ اللهِ دينُ اللهِ، وكذلكَ يقولُ: كلُّ آيةٍ في القرآنِ الدينُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿مِن رَّحْمَتِى﴾ أي مِنْ جَنَّتي. وتأويلُ هذا أنهمْ قد كَفَروا بالبَعْثِ. فإذا كَفَروا بهِ زَعَموا أنْ لا ثوابَ، ولا جزاءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِن رَّحْمَتِى﴾ أي مِنْ رُسُلي وكُتُبي لأنَّ اللهَ سَمّى رُسُلَهُ وكُتُبَهُ رَحمةً في غيرِ آيةٍ[8] مِنَ القرآنِ؛ أَيِسوا منهمْ حينَ[9] كَذَّبوهُمْ، وكَفَروا بهمْ، أيِسوا أنْ تُرسَلَ الرُّسُلُ، وتُنَزَّلَ الكتبُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ عليهِمُ الإياسُ مِنْ رَحمَتي بما كَفَروا بآياتِهِ ورُسُلِهِ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ﴾ كذا ليسَ في جميعِ الأوقاتِ وجميعِ المشاهدِ. ولكنْ جائزٌ أنْ يكونَ هذا ما كانَ جوابَ قومِهِ في مَشْهَدٍ إلّا كذا، أو

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يريدونهم. (٣) في الأصل وم: لأنهم. (٤) في الأصل وم: حيث قال. (٥) في الأصل وم: وقولهم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: آي. (٩) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

أنْ يكونَ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وإلّا لم يَحْتَمِلْ ألّا يكونَ منهمْ إلّا ما ذَكَرَ مِنَ الجوابِ، قد كانَتْ جَواباتٌ وأجوبَةٌ سِواهُ.

لكنْ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنّ ما كانَ جوابَ قومِهِ في مَشْهَدٍ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [وهو][1] ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] لا يَحْتَمِلُ إنْ لم يَكُنْ منهمْ إلّا هذا ولكنْ [تأويلَهُ ما ذَكَرْنا][2]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ/ ٤٠٥ ـ أ/ تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ حينَ القُوَّةُ فيها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذِكْرُ الآياتِ في ذلكَ جائزٌ[3] أنْ يكونَ ما ذُكِرَ في هذهِ السورةِ مِنْ أوّلِها إلى آخِرِها ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لِمَنْ ذَكَرَ. وجائزٌ أنْ يكونَ في ما ذَكَرَ خاصةً.

لكنْ ليسَ مِنْ شيءٍ إلّا وفيهِ آياتٌ مِنْ وجوهٍ: آيةُ الوَحْدانيّةِ وآيةُ الألوهيّةِ وآيةُ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وتَدْبيرِهِ وبَعْثِهِ؛ فهو آياتٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذِكْرُ الآياتِ للمؤمنينَ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: ذَكَرَ الآياتِ لهمْ لأنهمْ همُ المُنْتَفِعونَ بها دونَ مَنْ كَفَرَ.

والثاني: الآياتُ لهمْ على المُكَذِّبينَ بها والكافرينَ، أي حُجّةٌ لهمْ عليهمْ كقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ كذا، هو صِلَةُ قولِ[4] إبراهيمَ، وإليهِ يرجِعُ، وهو ما تَقَدَّمَ مِنْ دعائِهِ إياهُمْ حينَ[5] قالَ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآيةَ [العنكبوت: ١٦].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ مَعْبوداتٍ[6]، وسَمَّيْتُموها آلهةً، فهي ليستْ بآلهةٍ ولا مَعْبوداتٍ[7]، إنما هي أوثانٌ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اتّخاذُكُمُ[9] الأصنامَ مَعْبوداتٍ[10]، واجتِماعُكُمْ عليها إنما هي[11] مَوَدَّةُ الحياةِ الدنيا، لا مَوَدَّةٌ، لها عاقبةٌ، أو تدومُ، بل تَصيرُ في العاقبةِ عداوةً وبُغْضاً. وهو ما ذَكَرَ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ويَكْفُرُ بعضُهُمْ بِبَعْضٍ، ويَلْعَنُ بعضُهُمْ بَعْضاً كقولِهِ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقالَ بعضُهُمْ: يَتَبَرَّأُ المَتْبوعُ مِنَ الأتباعِ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقولِهِ: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] ونَحْوَهُ.

ثم أخبَرَ أنّ مَأْوَى الكُلِّ النارُ، وما لهمْ مِنْ ناصرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ، أو يَدْفَعُ عنهُمُ العذابَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا قولُ إبراهيمَ لِقومِهِ كقولِهِ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] وكقولِهِ: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣].

وقالَ بعضُهُمْ: هذا قولُ رسولٍ لقومِهِ الذينَ عَبَدوا الأصنامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: قولُهُ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي أظْهَرَ لهُ لوطٌ الإيمانَ مِنْ بَيْنِ غَيْرِهِ[12].

والثاني: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ في ما دعاهُ إليهِ، وهو الهجرةُ، أي في ما أخْبَرَهُ أنهُ أُمِرَ بالهجرةِ، فاسْتَصْحَبَهُ فيها.

---

(١) من م، في الأصل: و. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: ما ذكرت، في م: ما ذكرنا. (٣) في الأصل وم: فجائز. (٤) في الأصل وم: قصة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: معبودا. (٧) في الأصل وم: معبودا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: معبودا. (١١) في الأصل وم: هو. (١٢) في الأصل وم: غيرهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ قال أهلُ التأويلِ: هذا قولُ إبراهيمَ كقولِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ قولَ لوط.

ثم لم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ وقولِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ انْتِقالُهُ [إليهِ أو لِمكانٍ](١) أو شيءٌ مِمّا يوجبُ التشبيهَ، ممّا يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ. فكيفَ فُهِمَ مِنْ قولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقولِهِ(٢): ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ [البقرة: ٢٩ و...] وأمثالِهِ ممّا يُفْهَمُ مِنْ مَجيءِ الخَلْقِ وإتيانِهِمْ واسْتِوائِهِمْ، إذْ لا فَرْقَ بَيْنَ مَجيءِ أحدٍ(٣) إليهِ وبَيْنَ مَجيئِهِ إلى آخَرَ، هذا في الشاهِدِ سَواءٌ، فكيفَ فُهِمَ في الغائبِ في أحدِهِما ما لم يُفْهَمْ مِنَ الآخَرِ، وهما سِيّانِ في الشاهِدِ؟

فَدَلَّ أنهُ لا يجوزُ أنْ يُفْهَمَ منهُ في شيءٍ مِنْ ذلكَ ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ؛ إذْ(٤) أخبرَ أنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني لإبراهيمَ [ذكَرَ أنهُ وَهَبَ لهُ](٥) إسحاقَ ويَعقوبَ لِيُعْلَمَ أنَّ الوَلَدَ هبةُ اللهِ، وكذلكَ وَلَدُ الوَلَدِ لأنَّ يَعقوبَ كانَ وَلَدَ وَلَدِهِ حينَ(٦) قالَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] [وكُلُّ الوَلَدِ](٧) هبةُ اللهِ تعالى [ذكوراً كانوا أو إناثاً كما](٨) قالَ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ لم تَزَلِ النُّبُوَّةُ في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ مِنْ لَدُنْهُ إلى هذا الوقتِ: كانَ جميعُ أنبياءِ بني إسرائيلَ مِنْ وَلَدِ إسحاقَ، ونَبِيُّنا محمدٌ ﷺ كانَ مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ اخْتُلِفَ في الأجْرِ الذي أخبَرَ أنهُ آتاهُ إبراهيمَ في الدنيا:

قالَ بعضُهُمْ: هو ما وَهَبَ لهُ مِنَ الوَلَدِ في الكِبَرِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو ما سَخَّرَ لهُ الألْسُنَ بأجْمَعِها على الثَّناءِ الحَسَنِ حينَ(٩) نَسَبَ جميعَ أهلِ الأديانِ على اخْتِلافِ أديانِهِمْ ومذاهِبِهِمْ [إليهِ، وجَعَلَهُمْ](١٠) على دِينِهِ وسُنَّتِهِ وسِيرَتِهِ، وتَوَلّى كلٌّ بهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ ما أخبَرَ أنهُ آتى جميعَ المؤمنينَ، وأعطاهُمْ، وهو ما قالَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠] وما ذَكَرَ مِنْ ثوابٍ. فما مِنْ مؤمنٍ إلّا وقد آتاهُ اللهُ في الدنيا أجراً وثَواباً. فذلكَ الذي آتى إبراهيمَ. أو لا نُفَسِّرُ ما ذلكَ الأجْرُ الذي آتاهُ اللهُ. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على الوجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ [لو](١١) لم يُكرِمْهُ اللهُ بالنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ لكانَ هو أيضاً مِنَ الصالحينَ.

والثاني: ذَكَرَ الصلاحَ لهُ لِحَقيقةِ صَلاحِهِ(١٢)، أي يكونُ هو مِمَّنْ حَقَّقَ الصلاحَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ في موسى وهارونَ حينَ(١٣) قالَ: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٢] أي مِنْ عِبادِنا الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ، وغيرُهُمْ مِنَ المؤمنينَ لم يُحقِّقوا، أو يكونُ ما ذَكَرْنا، أي لو لم يكنِ الإكرامُ الذي أكرَمَهُ، وهو النُّبُوَّةُ، لكانَ مِنَ المؤمنينَ أيضاً.

وإلّا ليسَ في ذِكرِ الإيمانِ والصلاحِ لهمْ كبيرُ مَنْقَبةٍ وفَضيلةٍ عندَ الناسِ أنْ يُسَمّى بهذَينِ كلُّ مؤمنٍ ومُصْلِحٍ، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ ما جوزيَ بهِ](١٤) في الآخِرةِ.

وقَتادةُ يقولُ: آتاهُ اللهُ عافيةً وعَمَلاً وثَناءً حَسَناً. وقالَ: فَلَسْتَ تَلْقى أحداً مِنْ أهلِ المِلَلِ إلا يَرْضى بإبراهيمَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ما ذَكَرْنا أنهُ أعطى الوَلَدَ الطَّيِّبَ في كِبَرِ سِنِّهِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: المكان. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أخر. (٤) من م، في الأصل: إذ. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وكلهم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: إنهم. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لصلاحها. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ قال عمله ما جزى.

جنة السنة

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اذكُرْ لوطاً إذْ قالَ لِقَومِهِ. ثم ذِكرُهُ إياهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: انِ اذكُرْ نَبأَ لوطٍ وخَبَرَهُ ليكونَ لكَ آيةً على رسالتِكَ ونُبوّتِكَ، إذْ يَعْلَمونَ أنكَ لم تُشاهِدْهُ، ولا شَهِدْتَ زَمَنَهُ، فأخبَرْتَ على ما في كُتُبِهِمْ لِيَعْرِفوا أنكَ إنما عَرَفْتَ ذلكَ باللهِ.

والثاني: [انِ اذكُرْهُ][1] كيفَ صَبَرَ على أذى قومِهِ؟ وكيفَ عامَلَ قومَهُ مع سوءِ صَنيعِهِمْ مِنِ ارْتِكابِ الفواحِشِ والمَناكيرِ وسوءِ معامَلَتِهِمْ إياهُ؟ فاصْبِرْ أنتَ على أذى قومِكَ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إياكَ.

هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشبِهُ أنْ يكونَ مَعْنى ذِكرِ لوطٍ إيّاهُ. وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦] أي اذْكُرِ إبراهيمَ ونَبأَهُ أنْ كيفَ عامَلَ قومَهُ؟ وماذا قالَ لهمْ؟ وكيفَ صَبَرَ على أذاهُمْ؟ فعامِلْ أنتَ قومَكَ مِثْلَهُ، واصْبِرْ على أذاهُمْ كما صَبَرَ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قالَ لهمْ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمْ أنْ يُعارِضوهُ بقولِهِ[2]: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [فيقولوا][3] بل قد سَبَقَنا بذلكَ أحدٌ، فكانَ في ذلكَ/ ٤٠٥ - ب/ وجهانِ:

أحَدُهما: أن يكونَ ذلكَ آيةً لرسالتِهِ، وأنهُ إنما عَلِمَ باللهِ أنهُ لم يَسْبِقْهُمْ بها أحدٌ ممّا ذَكَرَ.

والثاني: أنهمْ يَعْبدونَ الأصنامَ، ويَرْتَكِبونَ فواحِشَ، ويقولونَ: إنا وَجَدْنا آباءنا كذلكَ يَفْعَلونَ، وإنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، لِيُعْلَمَ أنهمْ كَذَبَةٌ في قولِهِمْ: إنَّ آباءَهُمْ على ذلكَ حينَ[4] أخبَرَ أنهمْ لم يَسْبِقْهُمْ بها مِنْ أحدٍ. ولو كانَ آباؤُهُمْ على ذلكَ لَذَكَروهُ، وعارَضوهُ. فإذا لم يَفْعَلوا، ولم يَشْتَغِلوا بشيءٍ مِنْ ذلكَ، عُلِمَ[5] أنهمْ كَذَبَةٌ في ما يقولونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ وهو ما ذَكَرَ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي تَعْتَرِضونَ الطريقَ لِمَنْ مَرَّ بكُمْ لِعَمَلِكُمُ الخبيثِ لأنهُ ذَكَرَ أنهمْ إنما كانوا يَعْمَلونَ ذلكَ بالغُرَباءِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي تَقْطَعونَ السبيلَ على الناسِ مِنْ قَطْعِ الطريقِ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي وتَعْمَلونَ في مَجْلِسِكُمُ المُنْكَرَ. اخْتُلِفَ في هذا:

قالَ بعضُهُمْ: أي تَعْمَلونَ في مَجْلِسِكُمُ اللُّواطَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: حَذْفٌ بالحَصى ورَمْيٌ بالبُنْدُقِ وأمثالُهُ. لكنهُ يُخْبِرُ عن سُوءِ صَنيعِهِمْ في كلِّ حالٍ وكلِّ وقتٍ؛ يقولُ: إنكُمْ تَعْمَلونَ [الفواحِشَ][7] والمناكيرَ في كلٍّ: في الطريقِ والمجلِسِ وفي المَنْزِلِ، ما سَبَقَكُمْ بذلكَ كلِّهِ من أحدٍ مِنَ العالَمينَ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وقولُهُ[9] في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢] وقولُهُ[10] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] هذهِ الآياتُ في الظاهِرِ بَعْضُها مُخالِفٌ لِبَعْضٍ لأنهُ يقولُ في بَعْضِها: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وفي بَعضِها: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] فهو يُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ قولُهُ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم﴾ وقولُهُ[11]: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ إنما ذلكَ في ما بَيْنَهُمْ: يقولُ بعضُهُمْ لِبعضٍ: أخْرِجوهُمْ، وقولُهُ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ إنما قالوا ذلكَ لِلوطٍ. فإذا كانَ كذلكَ فليسَ في الظاهِرِ فيهِ خِلافٌ.

والثاني: [أنْ يكونَ قولُهُ][12] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ في مَشْهَدٍ وفي وقتٍ إلّا كذا، وقد كانَ منهمْ أجْوِبَةٌ أُخَرُ سِواهُ[13] في غَيرِ ذلكَ المَشْهَدِ وفي [غَيرِ][14] ذلكَ الوقتِ.

---

(١) في الأصل وم: اذكره ان. (٢) في الأصل وم: لقوله. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: ليعلم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ثم قال. (٩) في الأصل وم: وقال.
(١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: سواها. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

[والثالثُ](1): أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ﴾ آخِرَ جوابِ قومِهِ [وحاصِلَهُ](2) ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بنُزولِ العذابِ علينا. إنما قالوا ذلكَ لهُ اسْتِهزاءً وتكذيباً.

الآية ٣٠ ثم دعا لوطٌ ربَّهُ، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فأُجيبَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بِشارةٌ بالوَلَدِ في كِبَرِ سنِّهِ وسِنِّ زوجَتِهِ ما لم يُطْمَعْ مِنْ أمثالِهِما الوَلَدُ إذا بلَغوا ذلكَ الوقتَ، وهو ما ذكَرَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: ٧١] ويَحتمِلُ غيرَهُ.

[وقولُهُ تعالى](3): ﴿قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ كقولِهِ(4) في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] ولم يَذْكُرْ فيهِ بمَ أُرسِلوا؟ وبيَّنَ في هذا.

الآية ٣٢ [وقولُهُ تعالى](5): ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ﴾ ففي الآيةِ الدليلُ مِنْ وَجْهَينِ:

أحدُهما: يُخرَّجُ الخِطابُ على العُمومِ، والمرادُ منهُ الخُصوصُ لأنَّ الملائكةَ قالوا [قولاً](6) عامًّا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ولم يَكُنِ الأمرُ بإهلاكِ كلِّ أهلِ القريَةِ، ثم استثنَوا لوطاً وأهلَهُ، بعْدَما قالَ إبراهيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ حينَ(7) ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾.

والثاني: فيهِ جوازُ تأخيرِ البيانِ حينَ(8) لم يُبيِّنوا إلّا بَعْدَ سؤالِ إبراهيمَ إيّاهُم.

وفيهِ وجهٌ آخَرُ في امْتِحانِ المَلائكةِ بِمُختَلَفِ الأشياءِ لأنَّ هؤلاءِ أُمِروا بالبِشارةِ، وأُمِروا بإهلاكِ قومِ لوطٍ ليُعْلَمَ أنهم يُمتَحنونَ بِمُختَلِفِ الأشياءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] رُوِيَ عن أمِّ هانِئٍ عن النَّبِيِّ ﷺ: «أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قالَ: كانوا يَخذِفونَ أهلَ الأرضِ، ويَسْخَرونَ منهم» [الترمذي ٣١٩٠] فإنْ ثَبَتَ هذا كانَ تفسيراً لهُ، لا يُحتاجُ إلى غيرِهِ.

والنادي: قالَ أبو عَوسَجَةَ: المجلسُ، وأنديةٌ جماعةٌ، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ. قالَ أبو مُعاذٍ: النَّدِيُّ والنادي لُغتانِ؛ فَجمْعُ النادي أنديةٌ، وجَمْعُ النَّدِيِّ نُدِيٌّ كقراءةِ بعضِ الناسِ في سورةِ مريمَ ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] [نُدِيًّا: بالضَّمِّ](9) أي مَجالِسَ. وقراءةُ العامّةِ: نَدِيًّا مَجلِساً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ ظاهرُ هذا: أنهُ ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ بالواقِعِ مِنَ الفِعْلِ بِهِمْ، إنما(10) ساءَ ظَنُّهُ أنهمْ يَفْعَلونَ بهمْ لِما يَعلَمُ من قومِهِ(11) الخبيثَ مِنَ العَمَلِ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ هذهِ كلمةٌ تتكلَّمُ بها العَرَبُ عندَ انْقِطاعِ جَميعِ الحِيَلِ.

فَلوطٌ إنما قالَ ذلكَ لِما لم يَرَ [لِنَفْسِهِ حيلةً](12) يَدْفَعُ بها شرَّهُمْ وما قَصَدوا بهمْ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾؟ [هود: ٨٠].

[وقولُهُ تعالى](13): ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ هذا يدلُّ على أنهم قد قَصَدوهُمْ ولوطاً بالإهلاكِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ﴾؟ [هود: ٨١] دلَّ هذا أنهمْ قَصَدوهُمْ بالإهلاكِ حتى قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ وأنهمْ إنما أرادوا بالإخراجِ بقولِهِمْ: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] إخراجَ قَتْلٍ؛ إذْ لو كانَ إخراجاً مِنَ القريةِ، لا يُقتَلُ، لكانَ لا تكونُ لهُ النجاةُ منهم والأمْنُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(1) في الأصل وم: أو. (2) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) في الأصل وم: وقال. (5) في الأصل وم: ثم. (6) ساقطة من الأصل وم. (7) في الأصل وم: حيث. (8) في الأصل وم: حيث. (9) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٥٦. (10) من سخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكن. (11) من م، في الأصل: قوم. (12) في الأصل وم: نفسه. (13) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ وفي بعضِ الآياتِ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧] والغُبورُ فِعْلُها. ثم أخبَرَ أنهُ قَدَّرَ ذلكَ؛ دلَّ [أنَّ][1] أفعالَ العبادِ مَخلوقةٌ للهِ [مُقَدَّرةٌ][2] له، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً. والرِّجْزُ اسمُ كلِّ عذابٍ، فيهِ شِدَّةٌ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ﴾؟ [هود: ٧٧] أي شديدٌ، ثم ذَكَرَ أنهُ يَنزِلُ مِنَ السماءِ. فإنْ ثَبَتَ ما ذُكِرَ أنَّ جبريلَ ادخَلَ أحَدَ[3] جناحَيهِ تحتَ الأرضِ، فَرَفَعَ بهِ[4] قُرَياتِ لوطٍ إلى السماءِ حتى سَمِعَ أهلُ السماءِ صِياحَهُمْ وضَجَّتَهُمْ، ثم أرسَلَها، فهو نُزولُ العذابِ مِنَ السماءِ، وأنَّ قولَهُ: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] وأنَّ[5] السِّجيلَ لو كانَ مَكاناً، منهُ يَنْزِلُ، فهو في السماءِ على ما يَقولُ بعضُ الناسِ: إنهُ مَكانٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هو اسْمُ ذلكَ الحَجَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ آيةً بيِّنةً لِمَنْ عَقَلَ، وعَرَفَ السَّبَبَ [الذي لهُ][7] أهلَكَ قُرياتِ لوطٍ، كقولِهِ: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ﴾ ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ و١٣٨] لماذا أُهلِكوا؟ أي تَعقِلونَ.

هذهِ الأنباءُ والقِصَصُ ذَكَرَها اللهُ تعالى في القرآنِ الكريمِ، وكَرَّرَها، وأعادَها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لأنَّ الأنباءَ والقِصَصَ إنما تُذْكَرُ لِلْحِجاجِ على الكَفَرَةِ، فَتَكَرَّرُ، وتُعادُ لِيُحْتَجَّ بها عليهِمْ.

وأمّا الأحكامُ فإنما هي لأهلِ الإسلامِ خاصّةً، فهم يَطْلُبونَ ما عليهِمْ مِنَ الأحكامِ، فلا تَقَعُ الحاجةُ إلى التكرارِ والإعادةِ.

ثم الكَفَرَةُ كانوا على أصنافٍ ثلاثةٍ: منها أهلُ العِنادِ والمُكابَرَةِ، وأهلُ شَكٍّ وحَيرةٍ، وأهلُ اسْتِرْشادٍ. ومَنْ كانتْ هِمَّتُهُ الاسْتِرْشادَ يؤمِنُ بها بالبَداهَةِ وفي أوَّلِ ما وَقَعَ في مسامِعِهِ[8]، فلا تَقَعُ الحاجةُ إلى التكرارِ والإعادةِ.

وأمّا أهلُ العِنادِ والمُكابَرَةِ فإنها تُكَرَّرُ عليهِمْ لَعَلَّها تَنجَعُ فيهِمْ، فيؤمِنونَ بها [وكذا أهلُ الشَّكِّ والحَيرةِ][9].

وهذهِ الآياتُ كانَتْ آياتٍ وحُجَجاً لِلتَّوحيدِ والبعثِ والرسالةِ. وعلى ذلكَ جاءتِ الرسُلُ بالدعاءِ إلى التوحيدِ وإلى الإقرارِ بالبعثِ والإيمانِ بهِ وإلى الإيمانِ بالرسُلِ.

الآيتان ٣٦ و٣٧ فَشُعَيبٌ ﷺ/ ٤٠٦ ـ أ/ جَمَعَ هذهِ الخِصالَ الثلاثَ في قولِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ دَعاهُمْ إلى التوحيدِ بقولِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾. وفيهِ نَهيٌ عن عبادةِ مَنْ دونَهُ، ودعاهُمْ إلى الإيمانِ بالبَعْثِ بقولِهِ: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي خافوا عذابَ ذلكَ اليومِ. ونَهَى عنْ جميعِ المَعاصي بقولِهِ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ أي أرسَلْنا إلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيباً.

ومَدْيَنُ: قالَ بعضُهُمْ: اسْمُ رجلٍ نُسِبَ إليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: اسْمُ مَوضِعٍ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ أنَّ الرسُلَ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، قد خَوَّفوا الكَفَرَةَ بِعَذابٍ يَنْزِلُ بهِمْ في الآخِرةِ بِتَكذيبِهِمْ إيّاهُمْ وعِنادِهِمْ، فلم يَنْجَعْ ذلكَ فيهِمْ، فلم يَرْتَدِعوا عمّا هُمْ فيهِ حتى أوعَدوهُمْ بِنُزولِ ما قد شاهَدوا[10]، وعايَنوا، مِنْ آثارِ مَنْ قد أهلَكَهُمْ بِتَكذيبِهِمُ الرسُلَ ورَدِّهِمْ إجابَتَهُمْ، وهو ما قالَ ﴿وَعَادٗا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إحدى. (٤) في الأصل وم: بها. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: مسامعهم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: شاهدوه.

جنة السنة

﴿وَثَمُودَا﴾ أي أهلَكْنا عاداً وثموداً ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ ما تعرفونَ أنهمْ إنما أُهلِكوا بالذي أنتُمْ عليهِ، وهو التكذيبُ والرَّدُّ، بأخبارٍ تُصدِّقونها وبآثارٍ تُشاهِدونَها، وهو كما قالَ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ و:١٣٨] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ كما زَيَّنَ لكُمْ، وصَدَّهُمْ عنِ السبيلِ كما صَدَّكُمْ ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: أي كانوا يَحْسَبونَ أنهمْ على هُدًى وحقٍّ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي كانوا عالِمينَ بأنَّ العذابَ يَنْزِلُ بهمْ بما شاهَدوا، وعايَنوا مِنْ آثارِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ، وعَلِموا[١] بأنهمْ إنما أُهلِكوا بالذي هم عليهِ، لكنهمْ عانَدوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي هالِكِينَ في الضلالةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي كانوا بُصَراءَ عُلَماءَ في أنفسِهِمْ، يَعْرِفونَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، ليسُوا[٢] كَغَيرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ.

ألا تَرى أنهمْ قد طَلَبوا مِنْ رُسُلِهِمُ الحُجَّةَ والآيةَ على ما يَدْعونَ إليهِ حينَ[٣] ﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] وقالَ قومُ صالحٍ ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤] ونَحْوَهُ؟

وقالَ قَتادةُ: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي مُعْجَبِينَ بِضَلالَتِهِمْ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي أهلَكْنا قارونَ وفِرْعَونَ وهامانَ بِتَكْذيبِهِمْ موسى، فَتَهلِكونَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ بتكذيبِكُمْ[٤] محمداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ أي كَذَّبوهُ بَعْدَما جاءَهُمْ موسى بالبيِّناتِ على نُبُوَّتِهِ ورسالتِهِ كما جاءَكُمْ محمدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ جائزٌ أنْ يكونوا اسْتَكْبَروا، وأبَوا أنْ يَخْضعوا لموسى، أوِ اسْتَكْبَروا في الأرضِ؛ أي سَعَوا في الأرضِ بالفسادِ تَكَبُّراً واستِكْباراً ﴿وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ﴾ أي فاتِينَ عن عذابِ اللهِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي الحِجارةَ، وهمْ قومُ لوطٍ، وقومُ هودٍ أُهلِكوا بالريحِ العاصِفِ حينَ[٥] قالَ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ و٤٢].

قالَ أبو معاذٍ: الحاصِبُ عندَ العَرَبِ الريحُ التي فيها الزَّنانيرُ، وهيَ الصِّغارُ[٦] مِنَ الحَصَى.

[وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهمْ قومُ صالحٍ، وقومُ شُعَيبٍ[٨].

[وقولُهُ تعالى][٩]: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [وهمْ][١٠] قارونُ وأصحابُهُ.

[وقولُهُ تعالى][١١]: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [وهمْ][١٢] قومُ نوحٍ [وقومُ][١٣] فِرْعَونَ.

يَذْكُرُ إهلاكَ هذهِ الأممِ والجبابرةِ لأهلِ مكةَ ولِغَيرِهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ، وقد تواتَرَتْ عليهِمْ بذلكَ الأخبارُ، وظَهَرَتِ الأعلامُ والآثارُ، لِيَرْتَدِعوا عمّا همْ عليهِ، ولئلا يُعامِلوا رسولَهُمْ كما عامَلَ أولئكَ رُسُلَهُمْ، فَيُعَذَّبوا[١٤] كما عُذِّبَ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ في تَعْذيبِهِ إيّاهُمْ ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حينَ[١٥] كَذَّبوا الرُّسُلَ، وعانَدوا[١٦] آياتِ اللهِ وحُجَجَهُ وبراهينَهُ، وكابَروا[١٧]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وعلمهم. (٢) في الأصل وم: ليس. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: بتكذيبهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: صغار. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: وهؤلاء. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة ن الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فيعذبون. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: وكابروا. (١٧) في الأصل وم: وعاندوها.

جنة السنة

قال أبو عوسَجَة: قولُهُ: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٣٣] أي اغتمّ مِن ذلكَ؛ يُقالُ: سِئتُ بِفلانٍ، أساءَ سَوءاً، فأنا مَسوءٌ. وقولُهُ: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] أي لَزِقوا في الأرضِ. [وقولُهُ:][1] ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] أي قد عَلِموا، و المُسْتَبْصِرُ العالِمُ. وقولُهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أي صيحَ بهمْ، فماتوا[2].

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ضَرْبُ مَثَلِ الذينَ اتَّخذوا مِنْ دونِ اللهِ أولياءَ ببيتِ العنكبوتِ: هُمُ الرُّؤساءُ منهُمْ والمَتْبوعونَ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: مَثَلُ اتّخاذِكُمْ أولئكَ أولياءَ مِنْ دونِ اللهِ وما تأمُلونَ منهمْ كَمَثَلِ بيتِ العنكبوتِ، لا يَنْفَعُ، ولا يُغْني ما يُؤمَلُ مِنَ البيتِ مِنْ دَفْعِ الحَرِّ والبَرْدِ وغيرِهِ.

فَعَلى ذلكَ اتّخاذُكُمْ وأتباعِكُمْ هؤلاءِ أولياءَ مِنْ دونِ اللهِ مِثْلُ ما ذَكَرَ، لا يَنْفَعُ، ولا يُغْني، ولا يَدْفَعُ عنكُمْ ما يَنْزِلُ بكُم، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] ظاهِرُ ما ذَكَرَ مِنَ الأولياءِ أنْ يكونَ المتبوعونَ[3] منهمْ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الأصنامُ التي اتَّخذوها آلهةً ضَرْبَ مَثَلِ عبادَتِهِمُ الأصنامَ واتّخاذِهِمْ إياها آلهةً ببيتِ العنكبوتِ؛ وذلكَ أنَّ العنكبوتَ اتَّخذَتِ البيتَ رَجاءَ أنْ تَنْتَفِعَ [بِهِ كما يُنْتَفَعُ][4] بالبيوتِ في دَفْعِ الحَرِّ والبَرْدِ والسِّتْرِ والحِجابِ. فلمّا أنْ وَقَعَتِ الحاجةُ إليهِ لم تَنْتَفِعْ بما كانَتْ تأمُلُ منه في شيءٍ ممّا كانَتْ تأمُلُ.

فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ الذينَ اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً ومَعْبوداتٍ[5] رجاءَ أنْ يَنْفَعَهُمْ ذلكَ. فلمّا وَقَعَتِ الحاجةُ لم يَجِدوا ما كانوا يأمُلونَ مِنْ عبادَتِهِمْ [واتّخاذِهِمْ إياها][6] آلهةً.

بَلْ في بَيتِ العنكبوتِ لِلْعَنكبوتِ شيءٌ مِنَ المَنْفَعَةِ، وليسَ لأولئكَ العَبَدَةِ بتلكَ الأصنامِ شيءٌ، ممّا كانوا يأمُلونَ؛ فهيَ دونَ بَيتِ العنكبوتِ في المَنْفَعَةِ.

لكنَّهُ، واللهُ أعلَمُ، ضَرَبَ مَثَلَها ببيتِ العنكبوتِ لِما لا شيءَ أوهَنُ وأضْعَفُ عندَ الخَلْقِ مِنْ بيتِها. وهو ما شَبَّهَ أعمالَ الكَفَرَةِ بِرَمادٍ ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨] وبِسرابٍ ﴿بِقِيعَةٖ﴾ [النور: ٣٩] لِما ليسَ شيءٌ أضْيَعَ ولا أبْعَدَ في الوجودِ والقُدْرَةِ عليهِ في الوَهْمِ ممّا ذَكَرَ، فَشَبَّهَ أعمالَهُمْ بهِ.

فَعَلى ذلكَ تَشْبيهُ اتّخاذِ أولئكَ الأصنامَ آلهةً وأولياءَ مِنْ دونِ اللهِ ببيتِ العنكبوتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾ أي أضْعَفَ وأبْعَدَ مِنَ المَنْفَعَةِ بَيتُ العنكبوتِ.

فَعَلى ذلكَ عبادَتُهُمُ الأصنامَ واتّخاذُهُمْ إياها مَعْبوداتٍ[7] وآلهةً أوهَنُ وأبْعَدُ ممّا يأمُلونَ ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يَعْلَمونَ ضَعْفَها وعَجْزَها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ يقولُ[8]: إنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ عالماً بما يكونُ منهمْ مِنِ اتّخاذِهِمُ الأصنامَ مَعْبوداتٍ[9]، وإنّهُ عن عِلْمٍ أنْشأهُمْ[10] لا عَنْ غَفْلَةٍ وسَهْوٍ، لكنْ أنْشأهُمْ لِمَنافِعِ أنفُسِهِمْ ولحاجةٍ لهمْ لا لِحاجةٍ ومَنْفَعَةٍ لهُ في إنشائِهِ إياهُمْ[11]. وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ /٤٠٦ ـ ب/ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] وقالَ ههنا: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ العَزيزُ: قيلَ: إنهُ المَنيعُ، وقيلَ: إنهُ الذي يَذِلُّ كلُّ شيءٍ دونَهُ.

لكنَّ العَزيزَ عندَنا، هو الذي لا يَعْلو سُلْطانَهُ شيءٌ، ولا يَقْهَرُ مُلْكَهُ شيءٌ، ويَعْلو سُلْطانُهُ وإرادَتُهُ على جميعِ الأشياءِ، ويَقْهَرُها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم العبارة التالية: والعنكبوت هذه التي تغزل وهي دويبة كثيرة القوائم وعناكب جمع، والصواب إدراجها بعد: والبرد وغيره. (٣) في الأصل وم: المتبوعين. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: معبودا. (٦) في الأصل وم: إياها واتخاذهم. (٧) في الأصل وم: معبودا. (٨) في الأصل وم: والله أعلم. (٩) في الأصل وم: معبودا. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (١١) في الأصل وم: إياها.

جنة السنة

والحكيمُ عندنا، هو الذي لا يَلحقُهُ الخطأُ في التّدبير، والله أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ فإن قيل: ذَكَرَ أنهُ لا يَعْقِلُها إلّا العالِمونَ، والعَقلُ يَسبِقُ العِلْمَ بالشيءِ، إذْ بالعَقلِ يُعلَمُ ما يُعلَمُ، فكيف ذَكَرَ أنهُ لا يَعقِلُ إلّا العالِمونَ، ولم يَقُلْ: وما يَعلَمُها إلّا العاقلونَ؟ فهو، واللهُ أعلَمُ، لِوُجوهٍ:

أحدُها: أنّ الأمثالَ إنما تُضرَبُ لِتقريبِ ما يَبْعُدُ عنِ الأوهامِ ولِكَشفِ ما استَتَرَ مِنَ الأشياءِ على الأفهامِ، وتُجلّيها عمّا خَفِيَتْ. فلا يَعقِلُ الأمثالَ أنها لِماذا ضُرِبَتْ إلّا العالِمُ.

والثاني: أنّ العقولَ تَعرِفُ أسبابَ الأشياءِ ودَلائِلَها. أمّا أنْ تَعرِفَ حقائقَ الأشياءِ وأنفُسَها فلا. مِن نَحوِ المَسالِكِ والطُّرُقِ إلى البَلَدِ[1] تَعرِفُ مَسالِكَها وطُرُقَها التي بها يوصَلُ إليها. فأمّا أعيانُها[2] فلا. وكذا المَراقي التي بها تَعلو، وتَرتَفِعُ. فأمّا عَينُ العُلُوِّ فلا.

وأمّا العِلْمُ فإنهُ يُوصِلُ إلى مَعرفةِ حَقائِقِ الأشياءِ وأنفُسِها وصُوَرِها. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

والثالثُ: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي وما يَنتفِعُ بِما ذَكَرَ إلّا العالِمونَ، وهو كما قالَ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] نَفَى عنهُمْ هذهِ الحواسَّ، وإنْ كانَتْ لهمْ أنفُسُ تلكَ الحواسِّ، لِما لم يَستَعمِلوها في ما جُعِلَتْ، وأُنشِئَتْ، ولم يَنتفِعوا بها، فَنَفَى عنهمْ تلكَ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي ما يَنتفِعُ بما يَعقِلُ إلّا العالِمُ. فأمّا مَن لم يَنتفِعْ فلا يَعقِلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي لِعاقِبَةٍ، وهي البَعثُ، لأنهُ لم يَخلُقْهُما لأنفسِهِما. وكذلكَ لم يَخلُقِ الدُّنيا [للدُّنيا][3] ولكنْ إنما خَلَقَها للآخِرَةِ؛ إذْ بالآخِرَةِ يَصيرُ خَلقُها حِكمَةً وحَقًّا، لأنهُ لو لم يكُنْ خَلقُها لِعاقِبَةٍ كانَ خَلقُها عَبَثًا باطلاً، وهو ما قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] لأنّ كلَّ كافرٍ يظُنُّ أنهُ خَلَقَهُما باطلاً. ولكنْ لمّا تَرَكوا الإيمانَ بالبَعثِ، وأنكَروا البَعثَ، فإنهم ظَنّوا أنهُ خَلَقَهُما باطلاً؛ إذ لولا البَعثُ كانَ خَلقُهُما باطلاً عَبَثًا. فإنما صارَ خَلقُهُما حقًّا وحكمةً بالبَعثِ. فإذا أنكَروا ما بهِ صلاحُ خَلقِهِ إيّاهُما حِكمَةً وحقًّا فقد ظَنّوا الباطلَ بِخَلقِهِما. فَنَسألُ اللهَ التوفيقَ والصوابَ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أنهُ خَلَقَهُما لِتَدُلّا إلى الحقِّ لأنهما تدلّانِ على وَحدانيّةِ اللهِ ورُبوبيّتِهِ وتَعاليهِ عنِ الأشباهِ والشركاءِ وجميعِ الآفاتِ، أو أنْ يكونَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [الذي][4] للهِ عليهِمْ، أو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لبعضِهِمْ على بعضٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ صَيَّرَهُ آيةً لِمَن أقرَّ بها، وآمَنَ؛ إذْ هو المُنتفِعُ بها. فأمّا مَن أنكَرَ، وجَحَدَ، وكَذَّبَها، فهو آيةٌ عليهِ لا لَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأقِمْ بهِ الصلاةَ أي بالكتابِ الذي أوحَى إليكَ.

ويَحتَمِلُ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عليهِمْ، وأقِمْ بهِمُ الصلاةَ. فالخِطابُ، وإنْ كانَ لِرسولِ اللهِ فهو لكلِّ أحدٍ على ما ذَكَرْنا في سائرِ المُخاطباتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: أعينها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحدُهما: على الامْتِنانِ.

والثاني: على الإلْزام.

فأمّا وجهُ الامْتِنانِ فهو[(١)] أنْ جَعَلَ لكمُ الصلاةَ لِتَمْنَعَكُمْ[(٢)] عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ما لو [لم][(٣)] يَجْعَلْها لكمْ لا شيءَ يَمْنَعُكُمْ [عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ في مَنْ [مَنَّ][(٤)] عليهِمْ بِجَعْلِ الصلاةِ لهمْ لِما يَمْنَعُهُمْ][(٥)] عمّا ذَكَرَ.

وأمّا وجهُ الإلزام فإنهُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنّ الصلاةَ لو كانَ مَفْهوماً[(٦)] منها [النَّهْيُ بالنُّطْقِ][(٧)] لكانَتْ تَنْهَى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ على ما أضافَ التَّغريرَ والتَّزيينَ إلى الحياةِ الدنيا، أي لو كانَ هذا الذي كانَ مِنَ الدنيا، كانَ مَنْ لَهُ التَّغريرُ، كانَ ذلكَ تَغريراً. فَعَلى ذلكَ الصلاةُ لو كانَ منها حقيقةُ الأمْرِ والنَّهْيِ لَكانَتْ تَنْهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ.

والثاني: أُضيفَ النَّهْيُ إلى الصلاةِ لِما بها يُعْرَفُ ذلكَ؛ فقد تُضافُ الأشياءُ إلى الأسبابِ، وإنْ لم يكُنْ منها حقيقةُ ما أُضيفَ إليها، نَحْوَ ما يُضافُ الأمْرُ والنَّهْيُ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ؛ ونَحْوُهُ: يُقالُ: أمَرَنا الكتابُ بكذا، أوِ السُّنَّةُ بكذا، ونَهانا عنْ كذا، وإنْ لم يكُنْ منهما[(٨)] أمْرٌ حَقيقةً، ولا نَهْيٌ، لِما بهما يُعْرَفُ الأمْرُ والنَّهْيُ، وهما سَبَبا ذلكَ. فَعَلى ذلكَ جائزٌ إضافةُ النَّهْيِ إلى الصلاةِ أنْ يكونَ على السبيلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ في العباداتِ مِنْ أنْفُسِ تلكَ العباداتِ؛ وَوَجْهُ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنّ العِباداتِ إنما تكونُ بِجوارِحَ، تُغْلَبُ، وتُقْهَرُ، وتُسْتَعْمَلُ، فلا تُعْرَفُ تلكَ أنها للهِ إلّا بِتأويلٍ.

أمّا ذِكْرُ اللهِ إنما يكونُ باللسانِ والقَلْبِ، وهما لا يُغْلَبانِ، ولا يُقْهَرانِ، فهو يُعْرَفُ أنّ ذلكَ للهِ حَقيقةً، فهو أكْبَرُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ مِنْ سائرِ الأذكارِ التي ليسَتْ للهِ. فهذا ليسَ فيهِ كبيرُ حكمةٍ لأنّ ذلكَ يَعْرِفُهُ كلُّ أحدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ في النَّهْيِ عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ مِنَ الصلاةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ إياكُمْ أكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إياهُ لأنّ ذِكْرَهُ إياكُمْ رَحْمَةٌ ومَغْفِرَةٌ، وذلكَ مِمّا لا يَعْدِلُهُ، ولا يُوازيهِ شيءٌ. وأمّا العبدُ فإنهُ يَذْكُرُ ربَّهُ بأدْنى [شيءٍ][(٩)].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ما وَفَّقَ اللهُ العبدَ مِنْ ذِكْرِهِ إياهُ وطاعتِهِ لهُ أكْبَرُ مِنْ نَفْسِ ذلكَ الذِّكْرِ ونَفْسِ تلكَ العبادةِ.

وذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحفصةَ ﷺ أنّ الصلاةَ تأمُرُ بالمَعْروفِ، وتَنْهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ.

وعنِ الحَسَنِ يُحدِّثُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ لم تَنْهَهُ صلاتُهُ عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ لم يَزْدَدْ بها مِنَ اللهِ إلّا بُعْداً ولم يَزْدَدْ بها عندَ اللهِ إلا مَقْتاً» [الطبراني في الكبير ١١٠٢٥].

وعنْ سَلْمانَ الفارِسِيِّ [أنهُ][(١٠)] قالَ: ذِكْرُ اللهِ إياكُمْ أكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إياهُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ، ﷺ [أنهُ][(١١)] قالَ: لهذا وجهانِ:

أحَدُهما: يقولُ: ذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ مِمّا سِواهُ مِنْ أعمالِ البِرِّ. والآخَرُ يقولُ: ذِكْرُ اللهِ إياكُمْ أكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إياهُ [الطبري في تفسيرِهِ: ٢٠/١٥٨].

والضَّحّاكُ يقولُ: العبدُ يَذْكُرُ اللهَ عندَما أحَلَّ لهُ، وحَرَّمَ عليهِ، فيأخُذُ بِما أحَلَّ، ويَجْتَنِبُ ما حَرَّمَ عليهِ.

وقتادةُ يقولُ: لا شيءَ أكْبَرُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فتمنعكم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: موهوماً. (٧) في الأصل وم: النطق و النهي. (٨) في الأصل وم: منها. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وأصلُهُ: ما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [يَحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما: ما][1] قالَ بعضُهُمْ: تنهى، وتَمنَعُ، مادامَ [المُصلّي فيها][2] لا يَعمَلُ بالفَحشاءِ والمُنكَرِ.

والثاني: أنَّ الصلاةَ تأمُرُ بالمَعروفِ، وتَنهَى عنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ، أي لو كانَ لها النُّطقُ والأمْرُ والنَّهيُ لَكانَتْ تَنهَى عمّا ذُكِرَ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ/ ٤٠٧ ـ أ/ مَا تَصْنَعُونَ﴾ وَعيدٌ ليكونوا أبدا على حَذَرٍ ويَقَظَةٍ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الآيةُ تَخرُجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولا تُجادِلوهُمْ لا بالتي هي أحْسَنُ ولا بغَيرِها[3]، وهُمُ الذينَ لا يَقبَلونَ الحُجّةَ، ولا يُؤمِنونَ إذا لَزِمَتْهُمُ الحُجّةُ، وهُمْ أهلُ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ. والأوّلونَ يَقبَلونَ الحُجّةَ، ويُؤمِنونَ بها.

والثاني: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فقولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ ليسَ على الثُّنيا مِنَ الأوّلِ، ولكنْ على الابْتِداءِ؛ كأنهُ قالَ: إلّا الذينَ ظَلَموا منهمْ قولوا آمَنّا بالذي أُنْزِلَ إلينا إلى آخِرِ ما ذُكِرَ، أي قولوا لهمْ هذا، ولا تُجادِلوهُمْ؛ فإنكُمْ وإنْ جادَلْتُمْ إيّاهُمْ فلا يُؤمِنونَ، وهو كقولِهِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠] قولُهُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ ليس على الثُّنيا مِنَ الأوّلِ، ولكنْ على ابتداءِ نَهيٍ، أي لا تَخشَوهُمْ واخشَوني، فعلى ذلكَ يَحتَمِلُ الأولُ مِثلَهُ.

والثالثُ: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى آخرِ ما ذُكِرَ، هي المُجادَلَةُ الحَسَنَةُ التي أُمِروا بها لأنَّ ذلكَ ممّا يَقبَلُهُ العَقلُ والطَّبعُ، وبها جاءَتِ الكُتُبُ والرسُلُ، فلا سَبيلَ إلى رَدِّ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [أي جادِلوا] الذينَ يُصَدِّقونَ منهمْ، ولا يَكتُمونَ بَعْثَ محمدٍ وما في كُتُبِهِمْ مِنَ الحَقِّ. فأمّا الذينَ تَعلَمونَ أنهمْ يَكتُمونَ، ولا يُصَدِّقونَ، فلا تُجادِلوهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣ والأنبياء: ٧] والأوّلُ كقولِهِ تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤]. والمُجادَلَةُ الحَسَنَةُ هي التي جاءَ بها الكتابُ، ويُوجِبُها العَقلُ. ثم فيهِ دلالةُ جوازِ المُناظَرَةِ والمُجادلةِ مع الكَفَرَةِ في الدينِ. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ليسَ كما يقولُ بعضُ الناسِ: أي لا تَجوزُ المُناظَرَةُ معهمْ، وذلكَ لِجَهلِهِمْ بحُجَجِ الإسلامِ وبراهينِهِ ما يُنْهَونَ عنِ المُجادَلَةِ والمُناظَرةِ معهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: مَنْ لا عَهْدَ مَعَهُمْ فجادِلْهُمْ بالسيوفِ، ومَنْ كانَ مَعَهُ عَهْدٌ وكتابٌ فجادِلْهُ[4] بالحُجَجِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو مَنسوخٌ بقولِهِ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: مَنْ أدّى إليكُمُ الجِزْيَةَ فلا تُغلِظوا لهُ القولَ، وقولوا لهُ[5] قولاً حَسَناً، ومَنْ لم يُؤَدِّ فأغلِظوا [لهُ، وجادِلُوهُ بالسيفِ][6] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي كما أخبَرْناكَ في الكتابِ فَقُلْ لهمْ [ما ذَكَرْنا][7] أو جادِلْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فَيَتلونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ، فهمْ يُؤمِنونَ به على ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيهما. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل وم: فجادلهم. (٥) في الأصل وم: لهم.
(٦) في الأصل وم: لهم وجادلهم بالسيف، في م: لهم وجادلهم بالسيوف. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

يَتلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] فتكونُ هذهِ الآيةُ تفسيراً للأولى. وأمّا مَنْ لم يَتلُهُ(١) حقَّ تِلاوتِهِ [فلا يؤمنُ](٢) بهِ.

والثاني: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وانتفعوا بهِ، أي [يُؤمِنُ بهِ](٣) الذينَ أُوتوا مَنافعَ الكتابِ.

[وقولُهُ تعالى:](٤): ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي مِن أهلِ مكةَ ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وقد آمَنَ كثيرٌ منهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ إشارةً إلى قومٍ كانوا بِحضرتِهِ، فقالَ: ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ قالَ(٦) قتادةُ: لا يكونُ الجحودُ إلّا بَعْدَ مَعْرِفَةٍ؛ إنَّ اليهودَ والنَّصارى عَرَفوهُ كما عرَفوا أبناءَهُم، لكنهُمْ جَحدوهُ، وكلُّ مَنْ أنكرَ شيئاً فقد جَحدَهُ، عَرَفَهُ أو لم يَعْرِفْهُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ: أي ما كُنتَ تتلو مِن قَبْلِهِ أي مِنْ قَبْلِ هذا الكتابِ مِنْ كتابٍ، ولو كُنتَ تتلو ﴿لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فيقولونَ: إنَّ ما أَنبأتَهُمْ مِنَ الأنباءِ المُتقدِّمةِ أو كلامِ الحِكْمَةِ إنما [تلَقّفتَهُ، وأخذتَهُ](٧) مِنْ تلكَ الكُتُبِ المُتقدِّمةِ أو كُتُبِ الحكماءِ، ولو كُنتَ تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ يقولونَ: إنَّ ذلكَ مِنْ تأليفِكَ وَوَضعِكَ لأنَّ القرآنَ حُجَّةٌ عليهِمْ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرَ فيهِ مِنَ الأنباءِ المُتقدِّمةِ المُترجَمةِ بِغَيرِ لِسانِ المُتقدِّمِ ما عَمِلوا بأجمَعِهِمْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَعْرِفُها بِمُترجِمٍ، ولا شَهِدَها هو، ثم أنبأهُمْ على ما كانَتْ(٨)، فَعَلِموا أنهُ باللهِ عَرَفَها.

والثاني: هو آيةٌ مُعجزةٌ نَظْماً وَوَصْفاً، ما يَعلَمونَ أنهُ ليسَ مِنْ نَظْمِ البَشَرِ ولا وَصْفِهِ، فيقولُ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ فيهِ تلكَ الأنباءُ والحِكْمَةُ ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ فيقولونَ: مِنْ تأليفِكَ أو مِنْ نَظْمِكَ. فلو كُنتَ كذلكَ ﴿إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ بما ذَكَرْنا على عِنادٍ منهُمْ ومُكابرةٍ، ولا يَرْتابُ المُحِقُّونَ(٩). وإنْ كانَ كما ذَكَرْنا لَما عَرَفوا صِدْقَهُ بأشياءَ وبآياتٍ كانَتْ فيهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ يقولُ: قَبْلَ القرآنِ ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي لا تَكْتُبُهُ بِيَدِكَ، ولو كُنْتَ تَقرأُ كتاباً مِنْ قَبْلِهِ، أو كُنْتَ تكتُبُ بِيَدِكَ ﴿إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يقولُ: لاتَّهموكَ.

هذا قد ذَكَرْناهُ(١٠). ولكنْ نقولُ في قولِهِ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

يقولُ: بل هو اليَقينُ أنكَ لا تَقرأُ، ولا تَكتُبُ، عندَ الذينَ أُوتوا العِلْمَ، وهُمْ مؤمنو أهلِ الكتابِ مِنْ نَحْوِ عبدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ وأصحابِهِ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يَحتمِلُ القرآنَ؛ إذْ فيهِ آياتُ وَحدانيَّةِ اللهِ وحُجَجُهُ، وآياتُ البَعْثِ وحُجَجُهُ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مِنْ أوّلِ ما نَشأ إلى آخِرِ أمْرِهِ آيةً لِما ذُكِرَ مِنَ النورِ في وجهِ أبيهِ مادامَ في صُلْبِهِ، ثم في وجهِ أمِّهِ إذْ وَقَعَ في رَحِمِها، ثم مِنْ ضِياءِ الليلةِ التي وُلِدَ فيها، ثم مِنْ ظِلِّ السَّحابِ الذي أظَلَّهُ وقتَ ما خَرَجَ مِنْ وَطَنِهِ. وأمثالُ ذلكَ كثيرٌ، ما لا يُقدَرُ أحصاؤُهُ، واللهُ أعلمُ.

فذلكَ كلُّهُ يَدُلُّ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ، لا يَرْتابُ فيهِ إلّا المُبطِلُ المُعانِدُ المُكابِرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي أُوتوا مَنافعَ العِلْمِ، أي هو آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِ الذينَ أُوتوا مَنافعَ العِلْمِ. فأمّا مَنْ لم يُؤْتَ مَنافعَ العِلْمِ فلا.

---

(١) في الأصل وم: يتلوا. (٢) في الأصل وم: ولا يؤمنون. (٣) في الأصل وم: يؤمنون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: تلقفت وأخذت. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) من م، في الأصل: المحققون. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي أُوتوا مَنافعَ العِلْمِ، أي هو آياتٌ بيِّناتٌ في صُدورِ الذينَ أُوتوا مَنافعَ العِلْمِ. فأمّا مَنْ لم يُؤْتَ مَنافعَ العِلْمِ فلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ [الظالمونَ ظالمي][1] الآياتِ لِما لم يَضَعوها في مَوْضِعِها. ويَحْتَمِلُ الظالمونَ الكافرينَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفي بَعْضِ القراءاتِ: آيةٌ[2] مِنْ ربِّهِ على الوُحْدانِ؛ فكأنهمْ سألوهُ آياتٍ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ و٨] وكقولِهِمْ: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩١] ونَحْوَها مِنَ الآياتِ التي سألوها، فمَرّةً سألوهُ آياتٍ ومَرّةً سألوهُ آيةً.

فقولُ[3] مَنْ قالَ: اخْتيارُ قراءةِ آياتٍ على قراءةِ آيةٍ مُحالٌ؛ إذْ أُثْبِتَتْ أنها[4] قراءةٌ، فأخْبَرَ ﷺ على ما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾/ ٤٠٧ ـ ب/ أي مِنْ عندِهِ تَجيءُ الآياتُ، فكأنهمْ إنما سألوهُ آياتٍ قاهِرَةً تَقْهرُهُمْ، وتَضْطرُّهُمْ على القَبولِ والإقبالِ إليهِ، لا[5] آياتٍ يكونُ فيها[6] وجْهُ الاخْتيارِ، لكنْ سُؤالَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ، لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ. فقالَ: إنَّ اللهَ قد عَفا عَنْ هذهِ الأمّةِ عَنْ إنزالِ ما بهِ هلاكُهُمْ على إثْرِ سُؤالِ العِنادِ والمُكابَرَةِ، وإنْ كانَ في غيرِها مِنَ الأُمَمِ السالِفَةِ يَنْزِلُ عليهمُ الهلاكُ والعَذابُ على إثْرِ سؤالِ العِنادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ اللهَ أمَرَني بذلكَ، وأرْسَلَني إليكُمْ.

والثاني: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ليسَ عليَّ إلّا الإنذارُ لكُمْ، أُبيِّنُ النِّذارةَ. فأمّا غيرُ ذلكَ فليسَ عليَّ كقولِهِ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢] ونَحْوَهُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا يَدُلُّ أنهمْ إنما سألوهُ سُؤالَ عِنادٍ واسْتِهْزاءٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ حينَ[7] قالَ: إنَّ في ما أنْزَلَ عليهمْ مِنَ الكتابِ كِفايةً لِمَنْ كانَتْ هِمَّتُهُ الاسْتِرْشادَ والإنصافَ. وأمّا مَنْ كانَتْ هِمَّتُهُ العِنادَ والمُكابَرَةَ فلا.

[وقولُهُ تعالى:][8] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي [إنَّ][9] في ما أنْزَلَ مِنَ الكتابِ عليكَ لَرَحْمَةً أي رُشْداً وذِكْرى [أي][10] عِظَةً لِقومٍ يؤمنونَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ هذا يُقالُ لِوَجْهَيْنِ:

أحَدُهما: عندَ الإياسِ مِنْ قَبولِ الحُجَجِ والآياتِ؛ يقولُ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي حاكماً بيني وبينَكُمْ؛ أنا على الحَقِّ أمْ أنتمْ على الضلالِ: نَحْنُ أو أنتمْ؟

والثاني: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ عالماً في تَبليغِ ما أُمِرْتُ تَبليغَهُ إليكُمْ وإتيانِ ما أتَيْتُكُمْ بهِ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ كانَ اسْتِعْجالُهُمْ وسُؤالُهُمُ الآياتِ على عِلْمٍ منهمْ أنهُ لا يَنْزِلُ، ولا يأتيهِمْ، يَخْرُجُ مَخْرَجَ الاسْتِهْزاءِ بالرسلِ والتَّمْويهِ والتَّلْبيسِ على الأتباعِ والضُّعفاءِ لأنهمْ يَعْلمونَ أنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ، ولا يُهْلِكُ هذهِ الأمّةَ إهلاكَ اسْتِئْصالٍ وانْتِقامٍ كما أهْلَكَ الأُمَمَ المُتَقَدِّمَةَ بالعِنادِ والاسْتِهْزاءِ بالرُّسُلِ، إذْ قد أمْهَلَهُمْ إلى وقتٍ.

---

(١) في الأصل وم: الظالم ظالم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٥٢. (٣) من م، في الأصل: فقوله. (٤) في الأصل وم: إنه. (٥) في الأصل وم: إلا. (٦) في الأصل وم: في ذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فإنْ عَلِموا ذلكَ مِنَ الإمهالِ والتّأخيرِ سَألوا الرسولَ العذابَ الذي أوعَدَهُمْ والآياتِ القاهِرَةَ، وَوَعَدُوا الإيمانَ لو جاءَهُمْ، وأقسَموا على ذلكَ بِقولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٠٩] تَمْويهاً وتَلْبيساً على أتباعِهِمْ وضُعَفائِهِمْ، يُرُونَهُمْ أنهمْ على حقٍّ في الأيمانِ فيما يَدْعوهُمُ الرسولُ، وأنهُ لو أتى بآيَةٍ وحُجَّةٍ يؤمِنونَ بهِ، ويَتَّبِعونَهُ، وهُمْ في ما يَسْألونَ مِنَ الآياتِ والعذابِ عالمونَ أنهمْ مُعانِدونَ كَذَبَةٌ مُتَرَدِّدونَ مُلْبِسونَ مُمَوِّهونَ على الأتباعِ والسَّفَلَةِ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ الآية. فإنْ قالَ لنا مُلْحِدٌ: إنهُ حينَ[1] أخَّرَ عنهمُ العذابَ، وأمْهَلَهُمْ، عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَسْتَعْجِلونَ، أو لم يَعْلَمْ ذلكَ.

فإنْ قُلْتَ: على غيرِ عِلْمٍ منهمْ فقد أثْبَتَّ الجَهْلَ لهُ، وإنْ قُلْتَ: على عِلْمٍ منهُ ذلكَ فكيفَ أمْهَلَ ذلكَ، وقد عَلِمَ ما يكونُ منهمْ؟

قيلَ: إمهالُهُ العَذابَ عنهمْ، وضَرْبُ الأجَلِ رَحْمَةٌ منهُ لهمْ وفَضْلٌ؛ كأنهُ قالَ: ولولا رَحْمَتُهُ التي جَعَلَ لهمْ على نفسِهِ لَجاءَهُمُ العذابُ كما جاءَ الأُمَمَ الخاليةَ عندَ سؤالِهِمُ الرسُلَ العذابَ والآياتِ بالعِنادِ والاسْتِهْزاءِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] [حينَ لم يَسْتَأْصِلْهُمْ كما اسْتَأْصَلَ أولئكَ][2].

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ أي عذابَ جَهَنَّمَ مُحيطٌ يومَئِذٍ بالكافِرينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أنَّ أعمالَ أهلِ جهنَّمَ وأسبابَها التي تُوجِبُ لهمْ جهنَّمَ مُحيطةً بهمْ كقولِهِ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] الأعمالِ والأسبابِ التي تُوجِبُ لهُمُ النارَ، وإلّا لا أحَدَ يَصْبِرُ على النارِ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أسبابَ جهنمَ وأعمالَهُمُ التي تُوجِبُ لهمْ جَهَنَّمَ والنارَ مُحيطةً بهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ظاهِرٌ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ في الآيةِ بِشارةٌ ونِذارةٌ.

أمّا البِشارةُ فقولُهُ: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ وَعَدَ لهمُ السَّعَةَ في المكانِ المُنْتَقَلِ إليهِ والمُتَحَوَّلِ كما كانَ لهمْ في مُقامِهِمْ.

والنِّذارةُ والتَّحذيرُ، هي قولُهُ: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فلا تُقيموا في أرضِكُمْ.

ثم الأمْرُ بالخروجِ والهِجْرَةِ عن أرضِهِمْ إلى أُخْرى يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: لِما لا يَقْدِرونَ على إظهارِ دينِ اللهِ خَوفاً على أنفسِهِمْ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ، فأُمِروا بالخُروجِ والهِجْرَةِ عنها إلى أرضٍ، يَقْدِرونَ على إظهارِهِ والقِيامِ بهِ.

والثاني: أنْ كانوا يَقْدِرونَ على إظهارِ دينِهِمْ. لكنهمْ لا يَقْدِرونَ القِيامَ على تَغْييرِ المَناكيرِ عليهِمْ. والأمْرُ بالخروجِ منها إلى أرضٍ ليسَ بها مَناكيرُ، وإنْ كانَتْ بها، فَيَقْدِرونَ على تَغْييرِها والأمرِ بالمعروفِ فيها.

في مِثْلِ هذا جائزٌ أنْ يُؤمَرَ الناسُ بالتَّحَوُّلِ مِنْ أرضٍ إلى أُخْرى، إذا لم يَقْدِروا على تَغْييرِ المُنْكَرِ ودَفْعِهِ، وليسوا كالرُّسُلِ لأنَّ سائرَ الناسِ إذا كَثُرَ سَماعُهُمُ المُنْكَرَ يَخِفُّ[3] ذلكَ على قلوبِهِمْ، وتَميلُ إليهِ القلوبُ، وتَسْكُنُ، وتَطْمَئِنُّ، فَيُؤمَرونَ بالخروجِ عنها والتَّحَوُّلِ إلى أُخْرى لئلا تَميلَ، وتَسْكُنَ إليهِ قلوبُهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل: حيث لم يستأصل إليك، في م: حيث لم يستأصلهم كما استأصل إليك. (٣) من م، في الأصل: يخفف.

جنة السنة

وأمّا الرسلُ، وإنْ كثُر سَماعُهُمُ المُنْكَرَ فإنّ قلوبَهُمْ لا تَميلُ، ولا تَلينُ، ولا تَسْكُنُ إليهِ أبداً. بل تزدادُ لهُ شِدّةً وصَلابةً في ذلكَ وبُعْداً عن قلوبِهِم. لذلكَ اختَلَفَ أمْرُ الرسُلِ وغَيرِهِمْ[1] لا يُؤمَرونَ بالخروجِ، ولا يُؤْذَنُ لهمْ لِما هُمْ إنّما بُعِثوا إلى أهلِ الكُفرِ والمُنْكَرِ لِيَدْعُوهُمْ إلى دينِ اللهِ، لا يُحتَمَلُ أنْ يُؤذَنَ لهمْ بالخروجِ والهجرةِ إلى أُخرَى، وهُمْ إليهمْ بُعِثوا لِيَدْعُوهُمْ إلى دينِ اللهِ.

فقولُهُ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هو ما ذَكَرْنا: أُمِروا بالهجرةِ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ، ولا يَمْنَعَهُمْ عنْ ذلكَ خَوفُ ضيقِ العيشِ في غيرِها[2] لِما يُعْزَلونَ عن أموالِهِمْ وحِرَفِهِمْ وأهلِ قرابتِهِمْ ومَعونَتِهِمْ لِما وَعَدَ لَهُمْ، جَلَّ وعَلا، التَّوسيعَ عليهِمْ، لو خَرَجوا، أو هَرَبوا إشفاقاً على دينِهِمْ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ الحَسَنِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ فَرَّ بدينِهِ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ أُخرَى، وإنْ كانَتْ شِبْراً، أُوجِبَتْ لهُ الجنةُ، ويُبْعَثُ مَعَ أبيهِ إبراهيمَ ونَبِيِّهِ محمدٍ» [القرطبي في تفسيره: ٥/ ٢٩٧] أو نَحْوَهُ منَ الكلامِ.

وعلى مِثْلِ ذلكَ جاءَتِ الآثارُ مِنَ السَّلَفِ في تأويلِ الآيةِ: «إذا دُعِيتُمْ إلى المَعاصي فاذْهَبوا[3] في الأرض فإنّ أرضَ اللهِ واسعةٌ» [بنحوه الطبري في تفسيره: ٢١/ ٩].

وقالَ بعضُهُمْ: إذا عُمِلَ بالمَعاصي في أرضٍ فاهْرُبوا إلى أُخرَى فإنّ أرضَ اللهِ واسعةٌ. وهو ما ذَكَرْنا: أُمِروا بالهجرةِ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ، وَوَعَدَ لهمُ السَّعةَ والحَسَنَةَ في الدنيا، وفي الآخِرَةِ أعْظَمَ منها، وهو ما قالَ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا/ ٤٠٨ ـ أ/ فِي اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وقالَ في هذهِ الآيةِ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي إنّ أرضي واسعةٌ، فإنْ مُنِعتُمْ عنْ عبادتي في الأرضِ فاخرُجوا منها إلى أُخرَى فاعْبُدوني، ولا تَعْبُدوا غيري ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فلا عُذْرَ لكمْ بالمُقامِ في أرضٍ تُمْنَعونَ عن عبادتي وإظهارِ ديني ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨] عندَ ربِّهِمْ بما فيهِمْ مِنَ الضعفِ لِتَرْكِ الخروجِ والمُقامِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وكتمانِ الإيمانِ والعِبادةِ سِرّاً، وإنْ لم يَقْدِروا على إظهارِهِ. فأمّا مَنْ كانَتْ لهُ حِيلةُ الخُروجِ فلم يَعْذُرْهُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، على إثْرِ ما ذَكَرَ لئلّا يَمْنَعَهُمْ عنِ الخروجِ والهجرةِ خَوفُ ضيقِ العيشِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كلُّ نفسٍ تَذوقُ الموتَ إذا استَوفَتْ رِزْقَها، لا مَحالَةَ، ولا تَذوقُ قبلَ استيفائها رِزْقَها. فلا يَمْنَعْكُمْ خَوفُ ضيقِ العَيشِ، فإنها تذوقُ ذلكَ، لا مَحالَةَ، خَرَجَتْ أم[4] لم تَخْرُجْ، إذا استَوْفَتْ رِزْقَها. وهو ما قالَ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي لو كانَ المَكْتوبُ عليهِ القَتْلُ لَبَرَزَ، لا مَحالَةَ، حتى يُقْتَلَ. فَعَلى ذلكَ المَكْتوبُ عليهِ المَوتُ يَذوقُ، لا محالةَ، لو أقامَ، واللهُ أعلَمُ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي لَنُهَيِّئَنَّ لهمْ ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ يُقالُ: بَوَّأها، أنزَلَها، وهَيَّأها، وَلَنُثْوِيَنَّهُمْ[5] مِنَ الثَّواءِ، وهو الإقامةُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: هو مِنْ ثَوَيتُ إذا أقمْتُ بهِ، وبالباءِ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي لَنُنزِلَنَّهُمْ.

وقالَ أبو معاذٍ: بَوَّأها: هَيَّأها، والمَثْوَى المَنْزِلُ، والثاوي المُضيفُ.

[وقولُهُ تعالى][6] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي ثوابُهُمْ وجزاؤُهُمْ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي خَرَجوا، وصَبَروا على

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: أو أن يكون. (٢) في الأصل وم: غيره. (٣) في م: فاهربوا. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) هذه قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٥٥. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الهجرةِ، وعلى ربِّهِمْ تَوَكّلوا في الخروجِ والرِّزقِ. أو ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الطاعاتِ وأداءِ الفرائضِ، أو أنْ يكونَ الصبرُ كِنايةً وعبارةً عنِ الإيمانِ، أي الذينَ آمنوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ به يثِقونَ[1]، و يُفوِّضونَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] أي لكلِّ مؤمنٍ.

ومحمدُ بْنُ إسحاقَ يقولُ: أُنزِلَتِ الآيةُ بمكةَ في ضُعفاءِ مُسلِمي مكةَ، يقولُ: إنْ كُنتُمْ في ضيقٍ بمكةَ مِنْ إظهارِ الإيمانِ بها، فإنَّ أرضَ المدينةِ واسِعةٌ ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ بها علانيةً.

ثم خوَّفَ بالموتِ لِيُهاجِروا، فقالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ في الآخِرةِ.

ثم نَعتَهُمْ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الهجرةِ، وباللهِ يَثِقونَ في هِجْرَتِهِمْ. وذلكَ أنَّ أحدَهُمْ كانَ[2] يقولُ بمكةَ: كيفَ أهاجِرُ إلى المدينةِ، وليسَ لي بها مالٌ، ولا معيشةٌ؟ فوَعَظَهُمْ بما ذَكَرَ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يَجْعَلُ الآيةَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ إنهمْ أُمِروا بالهجرةِ مِنْ بَلْدَتِهِمْ والخُروجِ مِنْ مُقامِهِمْ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ، فاشتَدَّ ذلكَ عليهِمْ، وضاقَ بذلكَ ذَرْعُهُمْ لِضيقِ العيشِ هنالكَ لِما لم يَتَهَيَّأْ لهمْ، ولا يَتَأَتَّى لهمْ حَمْلُ أموالِهِمْ والمَكاسِبُ التي يَتَعَيَّشونَ في بلدِهِمْ، ويَكْسَبونَ بها.

فأخبَرَ أنَّ لهُ خلائِقَ رَزَقَهُمْ حيثما تَوَجَّهُوا وحيثما كانوا، لا يَحْمِلونَ معهمْ شيئاً مِنَ الرِّزقِ بل يَرْزُقُهُمْ حيثما كانوا. فَعَلَى ذلكَ هو يَرْزُقُكُمْ حيثما كنتُمْ، حَمَلْتُمْ مع أنفسِكُمْ شيئاً مِنَ الأموالِ والمَكاسِبِ أم[3] لم تَحْمِلوا. فلا تَضيقَنَّ صدورُكُمْ بِتَرْكِكُمُ الأموالَ والمكاسِبَ في بَلَدِكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على الصلةِ بما تَقَدَّمَ، ولكنْ على ابْتِداءِ تَذكيرٍ وتَنْبيهٍ للبَشَرِ لئلا يُعَلِّقوا قلوبَهُمْ بأسبابِ الرزقِ [لأنَّ للبشرِ فَضْلَ تَعَلُّقِ القلوبِ بأسبابِ المَعاشِ والرزقِ، والرزقَ ليسَ يَتَعَلَّقُ بأسبابٍ، بل يَرْزُقُ اللهُ بِسببٍ][4] وبِغيرِ سببٍ؛ إذ قد يَرْزُقُ، ويَبْسُطُ مَنْ ليسَ لهُ مِنَ الأسبابِ شيءٌ نَحْوَ ما ذَكَرَ مِنْ رزقِ الطيرِ والدوابِّ وغيرِ ذلكَ مِنَ البشرِ الذينَ يُرْزَقونَ بلا أسبابٍ ومَكاسِبَ.

ولذلكَ ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ، على إثْرِ ذلكَ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] يَبْسُطُ لِمَنْ يَشاءُ، وإنْ لم يَكُنْ لهُ سببٌ، ويَقْدِرُ على مَنْ يَشاءُ، وإنْ كانَ معهُ سَبَبٌ لئلا يُعَلِّقوا قلوبَهُمْ في الرزقِ بالأسبابِ والمَكاسِبِ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: إنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ أنْ يَبْسُطَ الرزقَ لمنْ يَشاءُ لأنهمْ لا يَجْعلونَ للهِ في الأسبابِ والمَكاسِبِ صُنْعاً، وإنما يَجْعلونَ منهُ خَلْقَ أصولِ الأشياءِ مِنَ الإنْباتِ والإخراجِ مِنَ الأرضِ. فأمّا غيرُ ذلكَ فهو كلُّهُ لِلْخَلْقِ على قولِهِمْ. فذلكَ النباتُ الخارجُ منها لِلْكُلِّ، ليسَ بعضُهُمْ بذلكَ أولَى مِنْ بعضٍ، فتذهبُ فائدةُ ما ذَكَرَ مِنَ البَسْطِ والتوسيعِ والتَّقْتيرِ على قولِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ على إثْرِ ما ذَكَرَ يُخَرَّجُ على [وجهَيْنِ:

أحدُهُما][5]: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ المُجيبُ لكلِّ ما يَدعونَ، ويَسْألونَ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِحوائِجِهِمْ حيثُ كانوا.

[والثاني][6]: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لِقولِهِمْ: إننا لا نَجِدُ ما نُنْفِقُ، ونَتَعَيَّشُ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما أضْمَروا، ونَحْوَهُ.

الآيات ٦١ و٦٢ و٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾][7] إنهمْ أعلَموا جميعا بالسِنَتِهِمْ أنَّ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما سَخَّرَ لهمْ مِنَ الشمسِ والقمرِ

---

(١) في الأصل وم: ويثقون. (٢) في الأصل وم: كما. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: وجوه أحدها. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وما نَزَّلَ مِنَ السماءِ مِنَ الماءِ وما أحيَى بِهِ الأرضَ، هو اللهُ، لا غيرُهُ. فَيُخرَّجُ قولُهُ: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ على إثرِ ما أعْلَموا بألْسِنَتِهِمْ، ونَطقوا بِهِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: [﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾][(1)] عمّا أعْلَموا بألسِنَتِهِمْ، ونَطقوا بِهِ إلى صَرْفِ الشكرِ والعِبادةِ إلى الأصنامِ التي يَعْلَمونَ أنها لم تَخْلُقْ شيئاً ممّا أعْلَموا بألْسِنَتِهِمْ.

والثاني: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي في تَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ آلهةً على عِلْمٍ منهمْ أنها ليسَتْ بآلهةٍ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إثرِ ما ذَكَرَ يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أمْرُهُ أنْ يَحْمَدَ رَبَّهُ في ما لم يُبْلَ بما بُلِيَ أولئكَ مِنَ التكذيبِ والعِنادِ والكُفرِ بربِّهِمْ.

والثاني: أمْرُهُ أنْ يَحْمَدَ رَبَّهُ لِما في ذلكَ إظهارُ سَفَهِهِمْ حينَ[(2)] أعْلَموا باللِّسانِ أنَّ ذلكَ كلَّهُ مِنَ اللهِ، وأنهُ خالقُ ذلكَ كلِّهِ. ثم صَرَفوا ذلكَ إلى غيرِهِ.

والثالثُ: [ما قالَ][(3)] بعضُهُمْ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارِهِمْ بذلكَ أنهُ خَلْقُ اللهِ وأنَّ ذلكَ كلَّهُ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [وجهانِ:

أحَدُهما][(4)]: أي لا يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ؛ نَفَى عنهمُ العقولَ لِما لم يَنْتَفِعوا بها كما نَفَى عنهمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ لِما لم يَنْتَفِعوا بتلكَ الحواسِّ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثاني: لم يَعْقِلوا لِما تَرَكوا النَّظَرَ والتَّفكُّرَ في الأسبابِ [التي][(5)] بها تُعْقَلُ الأشياءُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ كقولِهِ[(6)]: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠] ولو[(7)] كانَ الأمرُ على ظاهِرِ ما نَطَقَ بِهِ الكتابُ دونَ مَعانٍ، تُودَعُ فيهِ، وحِكْمَةٍ، تُجْعَلُ فيهِ على ما يَحْمِلُهُ بَعضُ الناسِ لَكانَ لأهلِ/٤٠٨ ـ ب/الإلحادِ في ذلكَ مَطْعَنٌ، لأنهُ يقولُ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ وهو خَلَقَها، فيقولونَ: لِمَ خَلَقَها لَهْواً ولَعِباً؟ وهو خَلَقَها، ولهمْ دَعْوَى التَّناقُضِ فيهِ حينَ[(8)] قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

فلو جَمَعَ بَينَ هذا وبَينَ الأوّلِ، وهو في الظاهِرِ مُتَناقِضٌ؛ إذْ يَذْكُرُ في بعضِها أنهُ لم يَخْلُقْهما وما بَينَهما باطلاً لَعِباً، ويَذْكُرُ في بعضِها أنَّ الحياةَ الدنيا لَهْوٌ ولَعِبٌ، وهو خَلَقَها.

لكنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ على ما تُقَدِّرونَ أنتمْ وعلى ما عندَكُمْ ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾. فأمّا ما عندَ أهلِ التَّوحيدِ وما في تقديرِهِمْ فهي حِكْمَةٌ وحَقٌّ. ثم هو ما ذَكَرَ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ عندَهُمْ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ رَأَوا أنهُ خَلَقَ الإنسانَ، وجَعَلَ بَدْأَهُ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم حَوَّلَها إلى عَلَقَةٍ، ثم إلى مُضْغَةٍ، ثم إلى الإنسانِ الذي صَوَّرَ إلى آخِرِ ما حَوَّلَهُ. فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَخْلُقَهُ، ويُحَوِّلَهُ مِنْ حالٍ إلى الأحوالِ التي ذَكَرَ، ثم يُفْنِيَهُ، بلا عاقبةٍ، تُجْعَلُ لهُ[(9)]، ولا مَنْفَعَةٍ، فيكونُ كما ذَكَرَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢] صَيَّرَ نَقْضَها الغَزْلَ مِنْ بَعدِ إحكامِها إيّاهُ بلا انْتِفاعٍ بِهِ لَهْواً ولَعِباً.

فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ الحياةِ الدنيا وخَلْقُ ما فيها مِنَ العالَمِ بَعْدَ إحكامِهِ وتَحْويلِهِ حالاً بَعْدَ حالٍ أو تَحْويلاً بَعْدَ تحويلٍ وإحكاماً بَعْدَ إحكامٍ لِلْفَناءِ خاصةً ما يُقَدِّرُ أولئكَ الكَفَرَةُ بلا عاقبةٍ تُجْعَلُ لهمْ، أو مَنْفَعَةٍ لَهْوٌ ولَعِبٌ وسَفَهٌ وباطلٌ على ما ظَنَّ أولئكَ وقَدَّروهُ.

فأمّا ما في تَقْديرِ أهلِ التوحيدِ وأهلِ الإيمانِ مِنَ العاقبةِ لهمْ فهو حِكْمَةٌ وحَقٌّ.

---

(١) في الأصل وم: أنى يصرفون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لهم.

جنة السنة

والثاني: مَعْنَى اللَّهْوِ واللَّعِبِ الذي ذَكَرَ على ما عندَهُمْ، هو أنَّ الجمعَ والتَّسْوِيَةَ بَينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ وبَينَ العاصي والمُطيعِ وبَينَ المُخالِفِ والمُوافِقِ سَفَهٌ باطلٌ. وقد سَوّى بَينَهُمْ في هذهِ الدنيا، وأشرَكَهُمْ جميعاً في نَعيمِها وسَعَتِها وشِدَّتِها وخَيرِها وشَرِّها؛ يَتَمَتَّعُ الوليُّ فيها كما يَتَمَتَّعُ العَدُوُّ، ويُبْتَلَى فيها المُطيعُ كما يُبْتَلَى العاصي.

فلو لو تَكُنْ دارٌ أُخرَى، فيها يُفَرِّقُ بينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ وبَينَ المُطيعِ والعاصي لَكانَ خَلْقُهُ إياهُمْ في الحياةِ الدنيا سَفَهاً وباطلاً؛ إذْ سَوّى بَينَهُمْ، وأشرَكَهُمْ جميعاً في هذهِ.

[ويُحْتَمَلُ][1] أنْ تكونَ الحياةُ الدنيا على ما اتَّخذوها هم، وعَمِلوا فيها، لَهْواً ولَعِباً، وأن[2] تُقابَلَ الحياةُ الدنيا بحياةِ الآخِرَةِ [خُلِقَتِ الحياةُ الدنيا][3] فانِيَةً مُنْقَطِعَةً، وخُلِقَتْ حياةُ الآخِرَةِ باقيَةً دائمةً.

فهو كما قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] أي مَتاعُ الدنيا قليلٌ عندَ مَتاعِ الآخِرَةِ، لأنَّ مَتاعَ الدنيا فانٍ مُنْقَطِعٌ ومَتاعُ الآخِرَةِ دائمٌ باقٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي هي دارُ الحياةِ، لا مَوتَ فيها، ولا انقِطاعَ، ولا فَناءَ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الدارَ الآخِرَةَ، هي الدارُ التي لا مَوتَ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةَ على المُعتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنَّ على اللهِ الأصْلَحَ لهمْ في الدينِ، لأنهُ أخبَرَ أنهمْ أخلَصوا الدينَ للهِ إذا رَكِبوا في الفُلْكِ، ولاشَكَّ أنَّ[4] ذلكَ أصلَحُ في الدينِ، ثم لم يُبْقِهِمْ على تلكَ الحالِ لِيَكونوا على ذلكَ الإخلاصِ. بل أخرَجَهُمْ منها، فعادوا إلى ما كانوا. فَدَلَّ ذلكَ أنْ ليسَ عليهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لهمْ في الدينِ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قولُهُ: ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ أي أنجاهُمْ لِيَكونوا على ما عَلِمَ منهمْ أنهمْ يكونونَ. وقد عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُمُ الكُفْرُ، فأنجاهُمْ إلى البَرِّ ليكونَ منهمْ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ، ويَختارونَ.

وكانَ إخلاصُهُمُ الدعاءَ في الفُلْكِ، لم يَكُنْ إخلاصَ اختِيارٍ، ولكنْ إخلاصَ دفعِ البَلاءِ عنْ أنفُسِهِمْ؛ إذْ لو كانَ ذلكَ إخلاصَ اختِيارٍ لا دَفْعَ البَلاءِ لكانوا لا يَتْرُكونَ ذلكَ في الأحوالِ كلِّها.

فهذهِ الآيةُ، وإنْ كانَتْ في أهلِ الكُفْرِ ففي ذلكَ أيضاً تَوبيخٌ لأهلِ الإسلامِ لأنهمْ لا يَقومونَ بالشُّكرِ للهِ وإخلاصِ العِبادةِ لهُ في حالِ السَّعَةِ والنِّعْمَةِ كما يكونونَ في حالِ الضِّيقِ، فَيُنَبِّهُهُمْ ليكونوا في الأحوالِ كلِّها مُخْلِصينَ العَمَلَ للهِ شاكرينَ لهُ لئلا يكونَ عَمَلُهُمْ على حَرْفٍ وجِهَةٍ كَعَمَلِ أهلِ النِّفاقِ وكَعَمَلِ أولئكَ الكَفَرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ قيلَ: يُكَذِّبونَ، وقيلَ: يَعْدِلونَ، وقيلَ: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُؤْفَنونَ، ويُحْمَقونَ، والمَأفونُ الأحمَقُ، والأفْنُ الحُمْقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي سوفَ يَعلَمونَ صدقي في قولي: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] كما عادوا إلى ما كانوا عليهِ إذا نَجّاهُمْ مِنَ الأهوالِ التي ابْتُلوا بها، أي سوفَ يَعلَمونَ ما أوعَدَهُمُ الرسلُ.

وفي قولِهِمْ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ وَجهٌ آخرُ، وهو أنْ يُقالَ: ما هذهِ المَحاسِنُ والأعمالُ [التي][5] تَعمَلونَ، وتَعُدّونَ مَحاسِنَ وصلاحاً في هذه الدنيا إلّا لهوٌ ولَعِبٌ لِما لا تَبْقَى، ولا يَنْتَفِعونَ بها إلّا ما ابْتُغِيَ بها وجهُ اللهِ والدارُ الآخِرَةُ. وهو ما قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي هي الباقيةُ الدائمةُ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ الاِستِفهامَ مِنَ اللهِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو أن. (٣) في الأصل وم: لهو ولعب لأنها خلقت. (٤) أدرج بعدها في الأصل: في. (٥) ساقطة من الأصل وم.

الإلزامِ والإيجابِ، أو يُخرَجُ مُخرَجَ الخَبَرِ لا على حقيقةِ الاسْتِفهامِ لأنهُ عالمٌ بذاتِهِ، يَعْلَمُ ما في باطِنِهِمْ وظاهِرِهِمْ وما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ بما كانَ، ويكونُ. لا يَسْتَفْهِمُ عبادَهُ، ولكنهُ يُخَرِّجُ على الخَبَرِ أو على الإلزامِ والإيجابِ.

فالخَبَرُ كأنَّهُ[1] يقولُ: قد رَأَوا، وعَلِموا أنَّ اللهَ جَعَلَ الحَرَمَ مَأْمَناً لهم، يأمَنونَ فيهِ، وكانَ الناسُ مِن حولِهِمْ يُتَخَطَّفونَ، ويَخافونَ.

والإلزامُ والإيجابُ أنْ يقولَ لهم: اعْلَموا أنَّ اللهَ جَعَلَ الحَرَمَ لكم مَأْمَناً، تأْمَنونَ فيه [وكانَ][2] الناسُ مِن حولِكُمْ على خَوفٍ يُسْلَبونَ، ويُسْبَوْنَ، ويُقْتَلونَ.

ثم يُخَرِّجُ تذكيرُهُ إياهُمْ هذا على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ اللهَ قد جعَلَ لكمُ الحَرَمَ مَأمَناً تأمَنونَ فيهِ لِتَعْظيمِكُمْ حَرَمَ اللهِ وبيتَهُ، والناسُ مِن حولِكُمْ على خَوفٍ، وأنتمْ تُشارِكونَ مَنْ حَوْلَكُمْ في الدينِ، فكيفَ تَخافونَ الاخْتِطافَ والاسْتِلابَ إذا دِنْتُمْ بِدينِهِ، واتَّبَعْتُمْ رسولَهُ؟ فإذْ أمَّنَكُمْ بِكونِكُمْ في حَرَمِ اللهِ وتَعْظيمِكُمْ بيتَهُ، ودَفَعَ عنكُمُ الاسْتِلابَ والاخْتِطافَ[3]، فكيفَ تَخافونَ ذلكَ إذا دِنْتُمْ بدينِهِ، واتَّبَعْتُمْ أمْرَهُ؟ بلِ الأمْنُ والسَّعَةُ إذا دِنْتُمْ بدينِهِ، فاتَّبَعْتُمْ أمْرَهُ، أكْثَرُ، وأحَقُّ. فكأنهمْ إنما تَرَكوا اتِّباعَ دينِهِ خَوفاً مِنَ الاخْتِطافِ[4] بقولِهِمْ[5]: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ فقالَ لهمْ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

[والثاني][6]: يَذْكُرُ هذا لهمْ: أنهُ قد أمَّنَكُمْ وصَرَفَ عنكُمْ مع عبادَتِكُمُ الأصنامَ وصَرْفِكُمُ الشُّكْرَ إليها عنهُ كلَّ مَكروهٍ وسوءٍ بكونِكُمْ[7] في مُجاوَرَةِ بيتِهِ وحَرَمِهِ. فإذا صَرَفْتُمُ العِبادةَ إليهِ، وشَكَرْتُمْ نِعْمَهُ [حَقَّ أنْ يُؤَمِّنَكُمْ، ويُوَسِّعَ عليكُمْ نِعَمَهُ][8] ويَدْفَعَ عنكُمْ ما لم يَدْفَعْ عَمَّنْ حولَكُمْ، وأنتُمْ شُرَكاؤُهُمْ في عبادةِ الأصنامِ واتِّخاذِكُمْ[9] إياها آلهةً. على [هذا][10] يُخَرَّجُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾/ ٤٠٩ - أ/ أي بما أوحَى إليكُمْ إبليسُ مِنَ الباطلِ يؤمنونَ، وهو ما أوحَى إليهِمْ أنَّ هؤلاءِ شُفَعاؤُكُمْ[11] عندَ اللهِ، وعبادَتُكُمْ إياهُمْ[12] تُقَرِّبُكُمْ إلى اللهِ زُلْفَى[13] كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي بما أوحَى إليكُمْ محمدٌ مِنَ اللهِ يَكْفُرونَ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالشِّرْكِ يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي بِتَوحيدِ اللهِ يكفُرونَ، أو أنْ تكونَ النعمةُ ههنا، هي القرآنُ، أو ما ذَكَرْنا، وهو محمدٌ ﷺ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاسْتِفهامِ مِنَ اللهِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ: على الخَبَرِ مَرَّةً، وعلى الإيجابِ تارةً.

والإلزامُ [مَعْناهُ][14]: اعْلَموا أنْ ليسَ أحَدٌ مِنَ المُفْتَرينَ أظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِباً بالخَبَرِ، أي قد عَلِمْتُمْ أنْ ليسَ أحَدٌ مِنَ المُفْتَرينَ أظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ، إذْ قد عَرَفْتُمْ بعقولِكُمْ قُبْحَ الافْتِراءِ والكَذِبِ في ما بَيْنَكُمْ؛ فلا كَذِبَ ولا افْتِراءَ أوحَشُ، وأقْبَحُ مِنَ الافْتِراءِ على اللهِ. فكيفَ افْتَرَيْتُمْ عليهِ، وهو أوحَشُ وأقبَحُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ كَذَّبَ برسولِ اللهِ أو بالقرآنِ الذي عَجَزوا عن إتيانِ مِثْلِهِ أو بالتوحيدِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي ظَهَرَ صِدْقُهُ ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ كأنهُ يقولُ: اعلَمْ أنَّ[15] جهنَّمَ مَثْوًى للكافِرينَ، يُذَكِّرُهُ على التَّصْبيرِ على أذاهُمْ والتَّسَلّي لهُ بما كانَ يَضيقُ صَدْرُهُ لِمَكانِ تَرْكِهِمُ الإيمانَ والإياسِ منهمْ.

---

(١) من م، في الأصل: إنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: والاختلاب. (٤) من م، في الأصل: والاختلاب. (٥) في الأصل وم: لقولهم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، في الأصل: بكونهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: واتخاذهم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) وهو ما قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (١٢) في الأصل وم: إياها. (١٣) وهو ما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. (١٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، في الأصل: أي.

جنة السنة

الآية ٦٩ وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ يُشبهُ أنْ يكونَ هذا صلةَ قولِهِ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ [الآية: ٦٤] أي ليسَ مَنْ أجْهَدَ نَفْسَهُ في طَلَبِ الدنيا والعَمَلِ لها إلّا [لاهياً ولاعباً][1] وأمّا مَنْ أجْهَدَ نفسَهُ للهِ، وطَلَبَ مَرْضاتَهُ، فهو حَقٌّ، ولهُ دارُ الحياةِ التي لا مَوتَ فيها ولا انْقِطاعَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على الابتِداءِ لا على الصِّلَةِ بالأوّلِ. يقولُ: والذينَ جاهَدوا أنفسَهُمْ في هَواها وشَهَواتِها وأمانِيِّها حقيقةَ ابْتِغاءِ مَرْضاةِ اللهِ وطَلَبِ الهدايةِ والدينِ وسَبيلِهِ ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

ذَكَرَ السبيلَ ههنا لِما سَبَقَ ذِكْرُ الجماعةِ؛ يقولُ: والذينَ جاهَدوا في اللهِ ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي لَنَهْدِيَنَّ كُلاً سَبيلاً، فيكونُ سَبيلاً لِلْكُلِّ.

وأمّا قولُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فإنَّ[2] السُّبُلَ على الإطلاقِ على [غيرِ][3] تقدُّمِ ذِكْرٍ مِنَ الهُدَى أو شيءٍ مِنَ الإضافةِ إلى اللهِ، فهي سبيلُ الشيطانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في التوفيقِ لهمْ في الإحسانِ والأعمالِ الصالحةِ، أو مَعَ المُحْسِنينَ في النَّصْرِ لهمْ والمَعونَةِ لهمْ على[4] أعدائِهِمْ، أو مَعَ المُحْسِنينَ يَحْفَظُهُمْ، ويَتَوَلاهُمْ.

ثم لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنَ الخَلْقِ مِنْ قولِهِ: ﴿لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وقولِهِ[5]: ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ وذوي الأجسامِ والجُثّاتِ. كيفَ فَهِمَ بعضُ الناسِ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...] [وقولِهِ][6]: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقولِهِ[7]: ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي﴾ [البقرة: ٢١٠] كذا ما يُفْهَمُ مِنَ اسْتِواءِ الخَلْقِ ومجيئِهِمْ وإتيانِهِمْ؟ فَلْيَعْلَمْ[8] أنَّ فَهْمَ ذلكَ ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ بعيدٌ مُحالٌ، وباللهِ العصمةُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لهو ولعب. (٢) في الأصل وم: إن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: على. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

جنة السنة

سورة الروم

كلُّها[1] مكيَّةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١و٢و٣ قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ وفي بَعْضِ القراءاتِ: غَلَبَتِ الرومُ بِفَتْحِ الغَينِ[2] على المُستقبَلِ.

يَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنهُ إنما يَذْكُرُ هذا لأنَّ المشركينَ كانوا يُجادلونَ المُسْلِمينَ، وهُمْ بمكةَ؛ يقولونَ: إنَّ الرومَ أهلُ الكتابِ، وقد غَلَبَتْهُمُ المَجوسُ، وأنتمْ تزعُمونَ أنكُمْ سَتَغْلِبونَ بالكتابِ الذي أُنْزِلَ على نَبِيِّكُمْ، فَسَنَغْلِبُكمْ كما غَلَبَتْ فارسُ الرومَ.

فأنزَلَ اللهُ هذهِ الآياتِ[3]: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ. لكنْ يَذْكُرُ في آخِرِهِ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فلا يُحتمَلُ فَرَحُ المؤمنينَ بِغَلَبَةِ الرومِ على فارسَ، ويُسَمَّى ذلكَ نَصْراً للهِ، وهمْ كُفّارٌ، وغَلَبَتُهُمْ عليهِمْ معصيةٌ. اللهمَّ إلّا أنْ يكونَ فَرَحُهُمْ بما يُظْهِرُ الإيمانَ بكُتُبِ اللهِ وتَصْديقِها والعَمَلِ بها، وهمْ كانوا أهلَ كُتُبٍ، ورسولُ اللهِ ﷺ كانَ بُعِثَ مُصَدِّقاً بكُتُبِ اللهِ وبرسُلِهِ أجمعينَ[4] فَفَرِحوا بذلكَ.

فإنْ كانَ كذلكَ فجائزٌ الفرحُ بذلكَ وتَسْمِيَتُهُ نَصْرَ اللهِ. وأمّا على الوجهِ الذي يقولونَ همْ فلا. وعندَهُمْ أنَّ في ذلكَ آيةً عظيمةً في إثباتِ رسالةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ ونُبُوَّتِهِ وصِدْقِهِ ما لم يَجِدِ الكُفّارَ فيهِ مَطْعَناً [وما يُمَكِّنُهُمْ نِسْبَتُهُ][5] إلى الكذبِ والافتراءِ على ما قالوا، وطَعَنوا في سائرِ الآياتِ والأنباءِ كقولِهِمْ[6] ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ المَطاعِنِ التي طَعَنوا في القرآنِ والأنباءِ المُتقدِّمَةِ حينَ[7] قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥و..] ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣].

فَمِثْلُها لم يَجِدوا في ما أَخْبَرَ مِنْ غَلَبَةِ الرومِ على فارسَ لأنهُ أَخْبَرَ عنْ غَلَبَةٍ ستكونُ، وسَتَحْدُثُ، لا عنْ غَلَبَةٍ قد كانتْ. ومِثْلُ هذا لا يُدْرِكُهُ البَشَرُ، ولا يُسْتَفادُ منهُ[8] إذْ لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ البَشَرِ، ولا يُدْرَكُ بالقياسِ السابقِ مِنَ الأمورِ.

فإذا كانَ على ما أَخْبَرَ دلَّ أنهُ باللهِ أُعْلِمَ ذلكَ، وبِوَحْيٍ منهُ إليهِ، فَعَرَفَ ذلكَ.

وهُمْ: جائزٌ أنْ يَسْتَدِلّوا بما كانَ مِنْ قَبْلُ مِنْ غَلَبَةِ فارسَ على الرومِ أنْ يقولوا: تَغْلِبُ فارسُ على الرومِ بما شاهَدوهُ مَرَّةً أو بِوجوهٍ[9] أُخَرَ، يَسْتَدِلّونَ بذلكَ: مِنْ نَحْوِ أنْ يَقولوا: إنهمْ أهلُ كتابٍ وعبادةٍ، يكونونَ مَشاغيلَ بالنظرِ فيها والعَمَلِ بِبَعْضِ ما فيها، لا يَتَفَرَّغونَ لِلْقِتالِ والحربِ، أو أنْ يقولوا: إنهمْ نَصارى؛ أعني أهلَ الرومِ، وليسَ في سُنَنِهِمْ ومَذْهَبِهِمُ القِتالُ والحَرْبُ، فَيَسْتَدِلّونَ بِمِثْلِ هذهِ الوجوهِ على أنْ لا غَلَبَةَ تكونُ لهمْ، ولا ظَفَرَ.

وأمّا أهلُ الإسلامِ، فليسَ لهمْ شيءٌ مِنْ تلكَ الوجوهِ، ولا بِغَيْرِها وَجْهُ الاستِدْلالِ بِغَلَبَةِ أولئكَ. فما قالوا ذلكَ إلّا وَحْياً مِنَ اللهِ وإعلاماً منهُ إيّاهُ. فكانَ في ذلكَ أعظمُ آيةٍ في صِدْقِ رسولِهِ وأكْبَرُها.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن سورة الروم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/٦٣. (٣) في الأصل وم: الآية. (٤) في الأصل وم: اجمع. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا النسبة. (٦) في الأصل وم: وقولهم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: منهم. (٩) من م، في الأصل: بوجوب.

فيكونُ فَرَحُ المؤمنينَ وذِكْرُ نَصْرِ اللهِ بإظهارِ تلكَ الآيةِ في تصديقِ رسولِهِ إذْ نَصَرَ رسولَهُ حيثُ أظْهَرَ صِدْقَهُ ورسالَتَهُ.

وقولُهُ ﴿غُلِبَتِ﴾، على الماضي لِما كانَ مِنْ غَلَبَةِ فارسَ على الرومِ. وغَلَبَتْ بالفتحِ على المُسْتَقْبَلِ، أي تَغْلِبُ الرومُ على فارسَ، وهو كقولِهِ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] على الأمرِ في المُسْتَقْبَلِ، و: رَبُّنا[1] باعَدَ بَيْنَ أسفارِنا على الخَبَرِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قيلَ: أقْرَبُ إلى أرضِ فارسَ. وقالَ بعْضُهُمْ: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أدْنى أرضِ/ ٤٠٩ ـ ب/ الشامِ. وقيلَ: الأرضُ التي تَلي فارسَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ[2]: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ وفي قولِهِ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٤و٥] وجوهٌ على المُعْتَزِلَةِ:

أحَدُها: يُقالُ لهمْ: وَعَدَ أنْ يَغْلِبَ الرومُ على فارسَ، وقد أرادَ أنْ يَخْرُجَ ما وَعَدَ حقًّا، صِدقاً أمْ لا؟

فإنْ قالوا: لا فقد أعْظَموا القولَ، وأفْحَشوا حينَ[3] زَعَموا أنهُ أرادَ ألّا يَفِيَ بما وَعَدَ أنهُ يكونُ.

وإنْ قالوا: نعمْ قيلَ: دَلَّ أنهُ أرادَ ما فَعَلوا، وإنْ كانَ الفِعْلُ منهمْ فِعْلَ مَعْصِيةٍ وخِلافٍ، إذْ مُحارَبَةُ كلِّ فريقٍ أصحابَهُمْ مَعْصِيةٌ، إذلم يُؤْمَروا بذلكَ، وإنما أُمِروا بالإسلامِ. فَدَلَّ أنَّ اللهَ مُريدٌ لِما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهمْ، وإنْ كانَ ما يكونُ منهمْ مَعْصِيةً.

والثاني: ما أخْبَرَ بِفَرَحِ المؤمنينَ بِغَلَبَةِ هؤلاءِ على أولئكَ على أيِّ جِهَةٍ كانَ فَرَحُهُمْ لإثباتِ آيةٍ عظيمةٍ على رسالةِ نبيِّهِمْ ونُبُوَّتِهِ على ما ذَكَرْنا، أو لأنهمْ كانوا أهلَ كُتُبِ اللهِ ودارسَتِها أحَبّوا غَلَبَتَهُمْ عليهِمْ، وفَرِحوا بذلكَ، ولا يُحْتَمَلُ أن يَفْرَحُوا بذلكَ، ولم يأمُرْهُمْ بذلكَ، ولا أرادَ منهمْ ذلكَ.

دَلَّ أنهمْ إنما فَرِحوا بذلكَ لِمَا أرادَ ذلكَ.

والثالثُ: في قولِهِ: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ دلالةُ أنَّ للهِ في فِعْلِ العبادِ صُنْعاً وتدبيراً حينَ[4] ذَكَرَ فِعْلَ بعضِهِمْ على بَعْضٍ، ثم سَمَّى نصرَ اللهِ. دلَّ أنَّ لهُ بذلكَ تدبيراً.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ قيلَ: البِضْعُ سَبْعٌ، وقيلَ: ما دونَ العَشْرِ فهو بِضْعٌ. وكذلكَ ذُكِرَ في الخَبَرِ أنَّ أبا بكرٍ ﷺ لمّا خاطَرَ المُشْرِكينَ، وبايَعَهُمْ في ذلكَ خَطَرَ[5] في سِنِينَ ذَكَرَها، فَمَضَتْ تلكَ المدةُ، ولم تَغْلِبِ الرومُ على فارسَ.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأبي بكرٍ «أما عَلِمْتَ أنَّ ما دونَ العَشْرِ بِضْعٌ كُلُّهُ، فَزِدْ في الأجَلِ، وزِدْ في الخَطَرِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٢١/١٨] فَفَعَلَ ذلكَ. فلم تَمْضِ تلكَ السُّنونَ حتى ظَهَرَتِ الرومُ على فارسَ.

وفي بَعْضِ الحديثِ[أنهُ][6] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ألَمْ تكونوا أحِقّاءَ أنْ تُؤَجِّلوا أجَلاً دونَ العَشْرِ، فإنَّ البِضْعَ ما بَيْنَ الثلاثِ إلى العَشْرِ، فَزايِدوهُمْ [في القمارِ][7] وما دُوهُمْ في الأجلِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢١/١٩] فَفَعَلوا حتى ظَهَرَتِ الرومُ على فارسَ.

ثم المسألةُ في المُخاطَرَةِ التي كانَتْ بينَ أبي بكرٍ وبينَ أولئكَ الكَفَرَةِ [تُخَرَّجُ على وَجهينِ:

أحَدُهما][8]: أنَّ مكةَ كانَتْ يومئذٍ دارَ حَرْبٍ. دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

وذلكَ كانَ قبلَ الهجرةِ. لَمّا أُمِرَ بالهجرةِ أيضاً إلى المدينةِ، ونَحْوُهُ كثيرٌ. وذلكَ كانَ كُلُّهُ قبلَ غَلَبَةِ الرومِ على فارسَ.

فإذا كانَتْ مكةُ يومئذٍ دارَ حَرْبٍ جازَتِ المُخاطَرَةُ بالعُقودِ في دارِ الحربِ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أهلِ الحربِ، وإنْ كانَ مِثْلُها في دارِ الإسلامِ غَيرَ جائزٍ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ١٥٥. (٢) في الأصل وم: قولهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: يخطر. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أحدها.

جنة السنة

وهذا يدلّ لأبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في إجازتِهِ عَقْدَ الرِّبا في دارِ الحربِ في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ أهلِ الإسلامِ، وإنْ كانَ مِثْلُهُ في دارِ الإسلامِ غَيرَ جائزٍ.

والثاني: جازَ ذلكَ يومئذٍ، وإنْ كانَتْ فيهِ جَهالةُ أسنانِ الإبلِ. والجهالةُ في العُقودِ إنما تُبْطِلُ العُقودَ لِخَوفِ وقوعِ التَّنازُعِ بينهمْ في أمثالِهِمْ، لا يُتَوَهَّمُ وقوعُهُ إنْ كانوا أهلَ شَرَفٍ وكَرَمٍ وأهلَ جُودٍ لا يُنازِعوا في أمثالِها.

فإذا كانَ التنازُعُ في مِثْلِها مُرْتَفِعاً مِنْ بينهِمْ جازَ ذلكَ أنْ يكونَ التنازُعُ بينَهُمْ في الدينِ. فأمّا في الأموالِ فَقَلَّما يَقَعُ لِما ذَكَرْنا.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: كانَ جائزاً ذلكَ في الجاهليةِ. فأمّا اليومَ فقد جاءَ النَّهْيُ عنِ القِمارِ فَنَسَخَهُ. وإنما عُرِفَ النَّهْيُ عنِ المَيْسِرِ، والمَيْسِرُ هو القِمارُ فيكونُ النَّهْيُ عنِ الشيءِ نَهْياً عمّا هو في معناهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ قَبْلَ غَلَبَةِ فارسَ على الرومِ ﴿وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ بَعْدِ غَلَبَةِ فارسَ على الرومِ. ويقالُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ حينَ ظَهَرَتِ الفارسُ على الرومِ ﴿وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ بَعْدَ ما ظَهَرَتِ الرومُ [على فارسَ. وجائزٌ][1] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ في خَلْقِهِ، أي التدبيرُ فيهِ ولَهُ الأمْرُ فيهِمْ، أي ليسَ لأحدٍ في الخَلْقِ أمرٌ ولا تدبيرٌ، وإنما ذلكَ لهُ كقولِهِ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] لهُ التدبيرُ فيهِمْ والأمْرُ.

وفي قراءةِ مَنْ قَرَأَ: ﴿غَلَبَتِ ٱلرُّومُ﴾ غَلَبَتِ بالنصبِ يكونُ قولُهُ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيُغْلَبُونَ﴾ حينَ يَتَظاهَرُ عليهمُ المُسْلِمونَ في آخِرِ الزمانِ حينَ تُفْتَحُ قِسْطَنطينيّةُ.

وفي حرفِ ابْنِ مسْعودٍ وحَفْصَةَ: في بَعْضِ سِنينَ قريباً.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ فرِحَ المؤمنون بِنَصْرِ اللهِ حينَ[2] نَصَرَ رسولَهُ بإظهارِ الآيةِ لهُ في إثباتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذَكَرَ العزيزَ على إثْرِ ما سَبَقَ لأنهُ عزيزٌ بذاتِهِ. فَهَلاكُ مَنْ هَلَكَ مِنْ عَبيدِهِ لا يُوجِبُ وَهْناً ولا نَقْصاً في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ، ليسَ كهلاكِ بَعْضِ عبيدِ مُلوكِ الأرضِ [وأتباعِهِمْ وحَشَمِهِمْ][3] لأنَّ مُلوكَ الأرضِ أعِزّاءُ بذلكَ. فإذا هلكَ ذلكَ ذَهَبَ عِزُّهُمْ. فأمّا ﷻ، إذْ هو عزيزٌ بذاتِهِ لا بشيءٍ، فَهَلاكُ مَنْ هَلَكَ مِنْ عَبيدِهِ لا يُوجِبُ نَقْصاً ولا ذُلّاً فيه.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ إنما يكونُ خُلْفُ الوَعْدِ في الشاهِدِ لأحدِ خِصالٍ ثلاثٍ:

إمّا الندامةُ: اسْتَقْبَلَتْهُ في ما وَعَدَ، فَتَمْنَعُهُ تلكَ الندامةُ عنْ إنجازِ ما وَعَدَ [وحِفْظِ الوَفاءِ لهُ].

وإمّا الحاجةُ: وَقَعَتْ لهُ في ما وَعَدَ، فتَمْنَعُهُ تلكَ الحاجَةُ عنْ وَفاءِ ما وَعَدَ وإنجازِ ما أطْمَعَ.

وإمّا العَجْزُ: يكونُ بهِ، لا يَقْدِرُ على إنجازِ ما وَعَدَ][4] فَيَحْمِلُهُ عَجْزُهُ عَنْ وفاءِ ما وَعَدَ وإنجازِهِ.

فإذا كانَ اللهُ سبحانَهُ يَتَعالى عنِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا كانَ ما وَعَدَ لم يَحْتَمِلِ الخُلْفَ منهُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِما لم يَنْظُروا، ولم يَتَفَكَّروا في الأسبابِ التي هِنَّ أسبابُ العِلْمِ بَعْدَ ما أعطاهُمْ أسبابَ العِلْمِ. لكنهمْ إذا تَرَكوا النَّظَرَ في الأسبابِ والتَّفَكُّرَ فيها لم يَعْلَموا، فلم يُعْذَروا بذلكَ لِتَرْكِهِمُ النَّظَرَ والتَّفَكُّرَ فيها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي [لا][5] يَنْتَفِعونَ بما عَلِموا، فَنَفَى عنهمُ العِلْمَ لِما لم يَنْتَفِعوا بهذهِ الحواسِّ، وإنْ كانَتْ لهمْ هذهِ الحواسُّ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: واتباعه وحشمة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يحتمِلُ قولُهُ: ﴿ظَٰهِرًا﴾ الأشياءَ في المنافعِ، ولا يَعْلَمونَ باطِنَ المَنافعِ بمَ؟ وكيفَ؟ نَحْوَ ما يُعلَمُ أنَّ الماءَ بهِ حياةُ الأشياءِ ويَعْلَمونَ أنَّ بالطعامِ قِوامَ الأبدانِ، ولكنْ لا يَعْلَمونَ قَدْرَ مَنفعَتِهِ وكَيفيَّتَهُ وما في سِرِّيَّةِ ذلكَ مِنَ المَنافعِ. وكذلكَ السمعُ والبصرُ واللسانُ، لا تُعْلَمُ حقيقةُ ذلكَ وكيفيَّتُهُ، وإنْ كانَ يُعلَمُ أنَّ بها يُسْمَعُ، ويُبْصَرُ، ويُتكلَّمُ، ويُفْهَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾ منافعَ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ﴾ عَنْ مَنافعِ ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ وإنما أُنْشِئَتْ مَنافعُ الدنيا لا لتكونَ لها، ولكنْ لِيَعْلَموا بها مَنافعَ الآخِرَةِ.

وابنُ عباسٍ والكَلْبِيُّ وهؤلاءِ يقولونَ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قالوا: يَعْلَمونَ مَعايِشَهُمْ وتِجاراتِهِمْ وحِرَفَهُمْ وجَميعَ الأسبابِ والمَكاسِبِ والحِيَلِ التي بها تقومُ أمورُ دنياهُمْ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي لا يؤمنونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ كلَّ اسْتِفْهامٍ مِنَ اللهِ وسُؤالٍ يُخَرَّجُ على الإيجابِ والإلزامِ. ثم الإيجابُ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنْ قد تَفَكَّروا، واعْتَبَروا، ونَظَروا، وعَرَفوا أنهُ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لكنهمْ عانَدوا، وكابَروا، ولم يَنْقادوا لِلْحقِّ، ولم يُقِرُّوا.

والثاني: يُخَرَّجُ على الأمرِ، أي تفَكَّروا، وانْظُروا، واعْتَبِروا، لِتَعلَموا أنهُ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

والثالثُ: على الخَبَرِ أنهمْ لم يَتَفَكَّروا، ولم يَنْظُروا. ولم يَعْتَبِروا. ولو تَفَكَّروا، واعْتَبَروا لَعَلِموا ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لكنهمْ لم يَتَفَكَّروا، ولم يَنْظُروا بَعْدَ ما أُعْطُوا أسبابَ العِلْمِ بهِ. فلم يُعْذَروا بِتَرْكِ التَّفَكُّرِ والنَّظَرِ والاعْتِبارِ.

وعلى هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾/ ٤١٠ ـ أ/ ويَعْلَموا ما حَلَّ بالمكَذِّبينَ بالتكذيبِ وما صارَتْ عاقبةُ أمْرِهِمْ، أو سِيروا في الأرضِ على الأمرِ لِتَعْرِفوا ما أصابَ أولئكَ بالتكذيبِ، أو لم يسيروا في الأرضِ على ما ذَكَرْنا لئلا يعلَموا عاقبةَ أولئكَ.

ثم قولُهُ: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الذي عليهِمْ مِنَ الشكرِ في ما أنْعَمَ عليهِمْ والتعظيمِ لهُ والتبجيلِ.

والثاني: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الذي للهِ عليهِمْ مِنَ الشكرِ لهُ في ما أنعَمَ عليهِمْ، أي ما يُحْمَدُ بِفِعْلِهِ عاقبةُ ما لولا تلكَ العاقبةُ لكانَ لا يُحْمَدُ، إذْ في الحكمةِ التفريقُ بَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ، وقد أشْرَكَهُمْ جميعاً في هذهِ الدنيا(1). ولو لم يَجْعَلْ داراً أُخْرَى يُفَرِّقُ فيها بَينَهما لكانَ لا يُحْمَدُ في ما أشْرَكَهُمْ فيها.

والثالثُ: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالبعثِ لأنهُ لو يكنِ البعثُ لكانَ خَلْقُهُ السمواتِ والأرضَ وما بينهما لَعِباً باطلاً لا حَقًّا كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ سُمِّيَ البعثُ لِقاءَ الربِّ والمَصيرَ إليهِ والرجوعَ إليهِ والبُروزَ إليهِ والخُروجَ، وإنْ كانوا في الأوقاتِ كلِّها بارزينَ لهُ خارجينَ صائرِينَ إليهِ راجعينَ، لأنَّ خَلْقَهُ إيَّاهُمْ إنما صارَ حكمةً لِذلكَ البعثِ، والمَقصودَ بِخَلْقِهِمْ ذلكَ البعثُ. لذلكَ سُمِّيَ البعثُ بما ذَكَرْنا.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهو يُخَرَّجُ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨].

---

(1) أدرج بعدها في الأصل وم: بين الولي والعدو.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ يُذكِّرُ أهلَ مكةَ، ويُوبِّخُهُمْ في تكذيبِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إيَّاهُ بما ذَكَرَ مِنَ القرونِ الماضيةِ أنهمْ مَعَ شِدَّتِهِمْ وقوتِهِمْ وبَطْشِهِمْ وكَثْرَةِ أتباعِهِمْ وحَواشِيهِمْ وأموالِهِمْ وطولِ أعمارِهِمْ وبُنيانِهِمْ لم[1] يَتَهَيَّأْ لهمُ الانْتِصارُ[2] والامْتِناعُ عن عذابِ اللهِ إذا حَلَّ بهمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ. فأنتمْ[3] يا أهلَ مكةَ دونَهُمْ في القوةِ والبَطْشِ والحواشي والأتباعِ، فكيفَ يَتَهَيَّأُ لكمُ الانْتِصارُ والامْتِناعُ عن عذابِ اللهِ إذا كَذَّبْتُمُ الرسولَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ على التقديمِ والتأخيرِ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مُتقدِّماً على قولِهِ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يقولُ: ما حَلَّ بهمْ مِنَ العذابِ، وعُذِّبوا في هذِهِ الدنيا بتكذيبِهِمْ، لم يَظْلِمْهُمُ اللهُ، ولكنْ ظَلَموا أنفسَهُمْ بما أساؤوا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ في تعذيبِهِمْ في الدنيا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ثم يكونُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ في الدنيا ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ في الآخِرةِ، فيكونُ في الدنيا ما عُذِّبوا تعذيبَ عِنادٍ ومُكابرةٍ، وما يُعذَّبونَ في الآخرةِ تعذيبَ كفرٍ وتكذيبٍ، وهو ما قالَ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ قومُكَ يا محمدُ، أي بَقُوا فيها أكثَرَ ممّا بَقِيَ الذينَ أُرسِلَتْ إليهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: عاشوا يَعْمُرونَ الأرضَ أكثَرَ ممّا عَمَروها، عَمِلوا بها أكثرَ ممّا عَمِلَ هؤلاءِ. وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي حَرَثوها. وقالَ القُتَبِيُّ ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي قَلَبوها للزراعةِ، ويُقالُ: البقرةُ المثيرةُ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١] وقولُهُ تعالى: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي جهنَّمُ.

وكذلكَ [قالَ][4] الكسائيُّ: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هي النارُ كقولِهِ: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] أي كانَتْ عاقبتُهُمُ النارَ بما كَذَّبوا بآياتِ اللهِ، واستَهْزَؤوا[5] بها.

وقولُهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ إلى الرسلِ بالتكذيبِ وأنواعِ الأذى. ويَحْتَمِلُ ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ إلى أنفسِهِمْ حينَ[6] أهلَكوها، وأوقَعوها في النارِ والسُّوأى: اسمٌ مِنْ أسماءِ النارِ [كالعُسْرَى والهاويةِ][7] ونحوِهِما [واليُسْرَى والحُسْنَى][8] مِنْ أسماءِ الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يُذكِّرُ أهلَ مكةَ، ويُخوِّفُهُمْ، أنَّ ما حَلَّ بأولئكَ [في][9] القرونِ الماضيةِ مِنَ الإهلاكِ والاسْتِئْصالِ إنما كانَ بتكذيبِ الآياتِ والاسْتِهزاءِ بها في هذهِ الدنيا. فأنتمْ يا أهلَ مكةَ إذ كَذَّبْتُمُ الآياتِ والحُجَجَ، واستَهْزَأْتُمْ بها يصيبُكُمْ ما أصابَ أولئكَ بالتكذيبِ. والآياتُ تَحْتَمِلُ حُجَجَ التوحيدِ وحُجَجَ الرسلِ في إثباتِ الرسالةِ وآياتِ[10] البعثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يَحْتَمِلُ بالآياتِ التي ذَكَرَ أو بما[11] أوعَدَهُمُ الرسلُ مِنَ العذابِ والإهلاكِ، فاستَهْزَؤوا بذلكَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ هذا في الظاهرِ دَعْوَى، لكنهُ قد بَيَّنَ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ ما يَلزَمُهُمْ بالإعادةِ[12] والإحياءِ مِنْ بعدِ الموتِ حينَ[13] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الروم: ٨].

---

(١) في الأصل وم: ولم. (٢) من م، في الأصل: الانتصاب. (٣) من م، في الأصل: كأنهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: واستهزاء. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة]. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٧ و٨ و٩]. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: أو آيات. (١١) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٢) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ﴾ وغيرِهِ[(١)] مِنَ الآياتِ ما أَلْزَمَهُمْ مِنَ الآياتِ أنهُ لو لم يكُنْ لهُ إعادةٌ وبعثٌ كانَ خَلْقُهُمْ عَبَثاً باطلاً خارجاً عنِ الحكمةِ. والقُدْرةُ في ابْتِداءِ الإنشاءِ، إنْ لم تكنْ أكثرَ فلا تكونُ دونَ الإعادةِ. فَمَنْ مَلَكَ، وقَدَرَ على الابْتِداءِ كانَ على الإعادةِ أقْدَرَ؛ إذ إعادةُ الشيءِ عندَكُمْ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِنِ ابْتِداءِ الإنشاءِ على ما ذَكَرَ[(٢)] في قولِهِ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ذَكَرَ الإعادةَ والإحياءَ بعدَ الموتِ والرجوعَ إليهِ لِما ذَكَرْنا أنَّ المَقصودَ في خَلْقِهِمْ في هذهِ الدنيا الإعادةُ والإحياءُ. لِذلكَ سَمَّى الإعادةَ الرجوعَ إليهِ والمَصيرَ والبُروزَ لهُ، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ صائرينَ إليهِ راجعينَ بارزينَ له خارجينَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الإبلاسُ هو الإياسُ، يُبْلِسُونَ: يأيَسُونَ في الآخرةِ عمّا كانوا يَطْمَعونَ بِعباداتِهِمْ تلكَ الأصنامَ والأوثانَ في هذهِ الدنيا حينَ[(٣)] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوَهُ.

يقولُ: يأيَسُونَ مِنَ الآخِرَةِ عمّا طَمِعوا بِعبادَتِهِمْ في الدنيا حينَ يَشهدونَ[(٤)] عليهِمْ، ويَتبرَّؤونَ منهمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: يأيَسُونَ مِنْ كلِّ خَيرٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الإبلاسُ هو الفَضيحةُ، أي يَفْتَضِحونَ بِما عَمِلوا. وقالَ بعضُهُمْ: المُبْلِسُ كلُّ مُنْقَطِعٍ رجاؤُهُ ساكتٍ كالمُتَحَيِّرِ في أمرِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: المُبْلِسُ كلُّ آيِسٍ حَزينٍ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ الأصنامَ التي عَبدوها، وسَمَّوها آلِهةً، لا تَشْفَعُ لهمْ ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا [وجوهاً]:

أحَدُها][(٥)]: أي الأصنامُ بهِمْ كافرونَ.

[والثاني][(٦)]: هُمْ يَكْفُرونَ بالأصنامِ إذا لم يَشْفَعوا لهمْ، وصاروا شهداءَ عليهِمْ.

[والثالثُ][(٧)]: كلٌّ يَكْفُرُ بصاحِبِهِ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ سَمَّى اللهُ تعالى ذلكَ اليومَ يومَ الجَمْعِ بقولِهِ:[(٨)] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩ والشورى: ٧] وسَمّاهُ[(٩)] يومَ الافتِراقِ [في هذه الآية][(١٠)] فهو يومُ الجَمْعِ في أوّلِ ما يُبْعَثونَ، ويُحْشَرونَ، ثم يُفَرِّقُ بَينَهُمْ تَفريقاً، لا اجْتِماعَ بينَهُمْ [بَعْدَهُ][(١١)] أبداً كقولِهِ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] فهو يومُ الجمعِ في حالٍ [ويومُ الافتِراقِ في حالٍ][(١٢)] ووقتٍ آخَرَ.

وبعضُ أهلِ التأويلِ يقولونَ: قولُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ العابدُ والمَعبودُ والتابعُ والمَتبوعُ بعدما كانوا مُجتَمِعينَ في الدنيا، وهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أخرى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ / ٤١٠-ب/ الآيةَ العنكبوت: ٢٥] فهذا تَفرُّقُهُمْ على قولِهِمْ[(١٣)].

والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمَنوا بكلِّ ما أُمِروا أنْ يُؤمِنوا به، وعَمِلوا بكلِّ ما أُمِروا أن يَعْمَلوا ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ والروضةُ كأنها اسْمٌ مِنْ أسماءِ الجِنانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُكْرَمونَ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّونَ. والحَبْرَةُ السُّرورُ، ومنهُ يُقالُ: كلُّ حبْرَةٍ يَتْبَعُها عِبْرَةٌ.

---

(١) في الأصل وم: وغيرها. (٢) من م، في الأصل: ذكرتم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: شهدوا. (٥) في الأصل وم: وجهين إحدهما. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، في الأصل: يقوم. (٩) في الأصل وم: وسمى. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: قولهم بعضهم.

جنة السنة

والزّجاج يقولُ: ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يتنعّمونَ، والحَبْرةُ النّعمةُ الحَسَنةُ، واللهُ أعلمُ بذلكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي جَحدوا توحيدَ اللهِ، وأنكروهُ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يَحتَمِلُ: كذّبوا بآياتنا [آياتِ][1] التوحيدِ وآياتِ الرسالةِ وآياتِ البعثِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي يُحضَرُ الأتباعُ والمَتبوعُ جميعاً في النارِ، ويُجمَعُ بَينَهُم كقولِهِ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وقولِهِ: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٨ و٣٩].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ قولُهُ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فَهِمَتِ الأمّةُ مِن قولِهِ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الصلاةَ، أي صَلُّوا للهِ. ولو كانتْ أفهامُ أهلِ زمانِنا هذا لكانوا لا يَفْهَمونَ سِوى التسبيحِ المَذكورِ.

ثم يَحتَمِلُ تَسميَتُهُمُ التسبيحَ صلاةً وفَهمُهُم منهُ ذلكَ لِوجهَينِ:

أحدُهما: لِما في الصلاةِ تسبيحٌ، فَسَمَّوها بذلكَ لِما فيها ذلكَ.

[والثاني][2]: لِما أنَّ التسبيحَ تنزيهٌ، والصلاةُ مِن أوّلِها إلى آخرِها تَنزيهُ الرَّبِّ لأنَّ فيها إظهارَ الحاجاتِ إليهِ والعَجزِ والضَّعفِ، ومنها تعظيمُ الربِّ وإجلالِهِ ووَصفُهُ بالجَلالِ والرِّفعَةِ. فَفَهِموا مِنَ التسبيحِ الصلاةَ لِما ذَكَرْنا لِما هي في[3] تنزيهِ الربِّ مِن أوّلِها إلى آخرِها.

ثم منهم مَن قالَ: إنَّ الصلواتِ الخَمسَ ذُكِرَتْ في هذهِ الآيةِ [والتي تَليها][4] بقولِهِ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ﴾ صلاةُ المَغربِ والعِشاءِ الآخِرَةِ ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ صلاةُ الفَجرِ ﴿وَعَشِيّٗا﴾ صلاةُ العَصرِ ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ صلاةُ الظّهرِ.

ومنهم مَن يقولُ: لا بل ذُكِرَتْ [فيهما أربعٌ][5] صَلَواتٍ ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ المغربُ ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ الفَجرُ ﴿وَعَشِيّٗا﴾ العَصرُ ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ الظهرُ. وأمّا العِشاءُ الآخِرَةُ ففي قولِهِ: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ٥٨] واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ على التقديمِ؛ يقولُ: سُبحانَ اللهِ، ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ فيكونُ الحَمْدُ كنايةً عنِ الصلاةِ كالتسبيحِ لِما فيها مِنَ التّحميدِ، أو يقولُ: لهُ يَحْمَدُ أهلُ السمواتِ والأرضِ[6]: حينَ يُمسونَ وحينَ يُصبِحونَ وحينَ يُظهِرونَ، أي إذا دَخلوا في المَساءِ والعِشاءِ والصُّبحِ والظُّهرِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ يُخبِرُ عن قدرتِهِ في إنشاءِ الأشياءِ مُبتَدِئاً لا مِن أصلٍ، لأنهُ قالَ: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ والمَيِّتُ ليسَ فيهِ الحياةُ، وكذلكَ ﴿ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ وليسَ في الحيِّ مَوتٌ. ولكنهُ يُخرِجُ هذا مِن هذا على ابْتِداءِ الحياةِ فيهِ وابْتِداءِ المَوتِ فيهِ مِن غيرِ أنْ كانَ فيهِ ما ذُكِرَ.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ أهلُ التأويلِ: قالَ بعضُهُم: يُخرِجُ الناسَ والدوابَّ والطيرَ مِنَ النُّطَفِ ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ﴾ يعني النُّطَفَ ﴿مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ مِنَ الناسِ والدوابِّ والطيرِ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ أي المُسلِمَ مِنَ الكافرِ ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي الكافرَ مِنَ المُسلِمِ.

ولكنْ يَجيءُ على هذا أنْ يقولَ: يُخرِجُ مِنَ المُسلِمِ ما لا يكونُ كافراً ومِنَ الكافرِ ما لم يَصِرْ مسلماً، لأنَّ ما يَخرُجُ لا يُوصَفُ بالإسلامِ ولا بالكُفرِ، ولا يُنسَبُ إلى واحدٍ منهما وقتَ الخُروجِ حتى يَبْلُغَ، فيكونُ منهُ فِعلُ الكُفرِ أو فِعلُ الإسلامِ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقدَّمَ.

وفي الآياتِ التي تَقدَّمَ ذِكرُها مِن نَحوِ قولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ الآيةَ وقولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [الروم: ٨ و٩] وأمثالِ ذلكَ ما يُذَكِّرُ، ويُخبِرُ أولئكَ الكَفَرَةَ عن قُدرتِهِ وسُلطانِهِ، والزَمَهُم ذلكَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: من. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيها أربع. (٦) أدرج قبلها في الأصل: وقوله.

جنة السنة

وفي الآية نَقضُ قولِ المُعتَزِلةِ لأنهم لا يَجعلونَ القُدْرَةَ على فِعْلٍ بعوضةٍ، فلا يكونُ لهمُ الاحتِجاجُ على أولئكَ الكَفَرَةِ في القُدْرَةِ على الإعادةِ والإنشاءِ بَعْدَ ما صاروا رَماداً، أو كلامٌ نَحْوَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي كذلكَ تُبْعَثونَ، وتُحْيَونَ، كما أُخرِجَ الحيُّ مِنَ المَيتِ والمَيِّتُ مِنَ الحَيِّ مِن غَيرِ أنْ كانَتِ الحياةُ في المَيِّتِ والمَوتُ في الحَيِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يَحتَمِلُ آياتِ وَحْدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ وحُججِهِ وآياتِ بَعْثِهِ وإحيائِهِ وآياتِ رسالةِ الرسلِ ونحوَها[1].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: نَسَبَ خَلْقَنا إلى الترابِ لأنّا إنما خُلِقْنا مِنْ أصلٍ، خُلِقَ ذلكَ الأصلُ مِنَ الترابِ، وهو آدمُ، وإنْ لم تكنْ أنفسُنا مخلوقةً مِن ترابٍ حقيقةً كما نَسَبَ خَلْقَنا إلى النُّطفةِ، وإنْ لم تُخلَقْ أنفسُنا كما هي مِنَ النُّطفةِ. لكنهُ أضافَ ذلكَ، ونَسبَهُ إلى النُّطفةِ لِما هي أصلُ ما خُلِقْنا منها.

والثاني: نَسَبَنا إلى الترابِ لما جَعَلَ أغذيَتَنا وما بهِ قِوامُ أنفُسِنا وأبدانِنا في الخارجِ مِنَ الترابِ. فإنما هو إخبارٌ بما بهِ قِوامُ أنفسِنا وأبدانِنا، وإنْ لم نُخلَقْ مِنَ الترابِ مِنَ الأصلِ. فَيُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنكمْ لا تَتَصَوَّرونَ خَلْقَ الجِسْمِ إنْ لم تُشاهدوا تلكَ الطِّينَةَ التي منها تكونُ الأجسامُ بعدَ مشاهدةِ طِينَتِها ومُعايَنَتِكُمْ إياها، ورأيتُمُ القُدْرَةَ لهُ على خَلْقِها قبلَ أنْ تُشاهِدوا طِينَتَها.

والثالثُ: نَسَبَ خَلْقَنا إلى الترابِ، وهو آدمُ على ما ذَكَرْنا. إلّا أنَّ قولَهُ: ﴿خَلَقَكُم﴾ أي قَدَّرَكُمْ مِن ذلكَ الأصلِ. والتخليقُ هو التقديرُ في اللغةِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ؛ وإنما قَدَّرَنا على تقديرِ ذلكَ الأصلِ. وذلكَ جائزٌ: نِسبَتُنا وإضافَتُنا إلى الترابِ، إنْ صَحَّ ما ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ؛ ذُكِرَ أنَّ مَلَكاً يأتي بِكفٍّ مِنْ ترابٍ، فَيَذُرُّهُ في تلكَ النُّطفةِ في رَحِمِ المرأةِ، فَيُخلَقُ منهُ حينئذٍ الولدُ.

فإنْ صَحَّ هذا فيكونُ خَلْقُ جميعِ الناسِ، وأصلُهُمْ مِن ترابٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي ثم إذا ذُرِّيَّةٌ مِن بَعْدِ بَشَرٍ تَنْبَسِطونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] أي يَبْسُطُ. أو ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ أي تَتَفرَّقونَ في حوائجِكُمْ في طَلَبِ أغذيَتِكُمْ وما بِهِ قِوامُ أنفسِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما][2]: أي مِن أجناسِكُمْ وأشكالِكُمْ ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ يقولُ: إنما جَعَلَ ما تَسكنونَ إليهِ، وتتآلَفونَ مِن جِنسِكُمْ وشَكْلِكُمْ ما تَعرِفونَ، لم يَجعَلْ في غَيرِ جِنسِكُمْ وشَكْلِكُمْ ما تعرفونَ كقولِهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي مِن جِنسِكُمْ وشَكْلِكُمْ مَنْ تَعرِفونَ صِدقَهُ وبَعْثَهُ وأمانَتَهُ ما لو كانَ مِن غَيرِ جِنسِكُمْ وشَكْلِكُمْ لا تَعرِفونَهُ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ قولُهُ: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي مِن جِنسِكُمْ ما تَسكُنونَ إليها [وتَستأنِسونَ بهمْ ما لو كانوا مِن غيرِ جِنسِهِمْ لا يكونُ ذلكَ: أنْ يَستأنِسَ كلُّ ذي شكلٍ بِشَكْلِهِ وجِنسِهِ.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنهُ أرادَ آدمَ وحوّاءَ، أي خَلَقَ زوجَتَهُ حواءَ مِن نفسِهِ، فَجَعَلَها لهُ سَكَناً يَسكُنُ إليها][3] ويَستأنِسُ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بَينَكُمْ وبَينَ الأزواجِ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: يَوَدُّها لِما جَعَلَها[4] لهُ موضِعاً لِقضاءِ شَهْوَتِهِ وحاجَتِهِ، وكذلكَ هي تَوَدُّهُ لذلكَ. ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي يَرْحَمُ بعضُهُمْ بعضاً، ويَتَحَنَّنُ إليهِ إذا نَزَلَ بواحدٍ منهما ما يَمْنَعُ قضاءَ الشَّهْوَةِ والحاجةِ.

---

(١) في الأصل وم: ونحوه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: جعل.

جنة السنة

والثاني: يَوَدُّ بعضُهُمْ بعضاً، ويرحَمُ بالطَّبْعِ والخِلْقَةِ؛ إذْ كلُّ ذي طَبْعٍ يَوَدُّ شَكْلَهُ وجِنْسَهُ إذا كانَ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ والسُّرورِ، ويَرْحَمُهُ إذا نَزَلَ بِهِ البَلاءُ والشِّدَّةُ.

هذا مَعْروفٌ عندَ الناسِ: أنْ يَتَراحَمَ بعضُهُمْ على بعضٍ في حالِ نُزولِ البلاءِ والشِّدَّةِ، ويَتَوادّوا[1] في حالِ السَّعَةِ والسُّرورِ.

وقالَ/ ٤١١ ـ أ/ الحسنُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾ أي الجِماعَ ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي الوَلَدَ. فكيفَ ما كانَ فهو يُخْبِرُ عن لُطْفِهِ ومِنَّتِهِ حينَ[2] جَعَلَ بينَ الزوجِ والزوجةِ المَوَدَّةَ والرحمةَ على عَدَمِ القرابةِ والرَّحِمِ وبُعْدِ ما بَيْنَهما، فصارا لِما ذَكَرْنا في المَوَدَّةِ والرحمةِ كالقَريبَيْنِ وذَوَي الرَّحِمَيْنِ وأقربِ القريبِ.

ثم [الآيةُ حُجَّةٌ][3] على المعتزلةِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ بينَهُمْ مَوَدَّةً ورحمةً، وذلكَ فِعْلُ الزَّوجينِ في الظاهِرِ.

ثم أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ، وأخبَرَ أنهُ جَعَلَ [ذلكَ آيةً، فَدَلَّ][4] أنَّ لهُ صنعاً في ذلكَ، فَيَبْطُلُ قولُهُمْ: أنْ ليسَ للهِ صُنْعٌ في فِعلِ العبادِ، ويَظَلُّ[5] اللطفُ الذي ذَكَرَ أنهُ جَعَلَهُ[6] بينَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ لما ذَكَرْنا مِنْ آياتِ وحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ وآياتِ البَعْثِ والنُّشورِ وآياتِ الرسالةِ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لِقومٍ يَنْتَفِعونَ، وهمُ المؤمنونَ، أو ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يَتَدَبَّرونَ[7]، ويَعْتَبِرونَ، فَيَنْتَفِعونَ[8].

فأمّا مَنْ لا يَتَفَكَّرُ، ويَتَدَبَّرُ، فلا يَنْتَفِعُ [بها، وهي ليسَتْ][9] بآياتٍ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ آياتِ وحدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ وآياتِ بَعْثِهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في خَلْقِ السمواتِ ورَفْعِها في الهواءِ وإقرارِها فيهِ آيةٌ لأنهُ غَيْرُ موهومٍ مِثْلُهُ مِنْ فِعْلِ الخَلْقِ وفي قدرتِهِمْ. وكذلكَ خَلْقُ الأرضِ وبَسْطُها وإقرارُها على الماءِ أو على الريحِ خارجٌ عنْ فِعْلِ الخَلْقِ ومِنْ قُدْرتِهِمْ غيرُ مَوهومٍ ذلكَ في أوهامِهِمْ وعقولِهِمْ مِنْ غَيرِ الواحدِ العالمِ القادرِ بذاتِهِ.

فإذا كانَ ما ذَكَرَ غَيْرَ مَوهومٍ في أوهامِهِمْ وعقولِهِمْ مِنْ غَيرِ اللهِ فهمْ إنما أنكروا البعثَ لِما يُعايِنوا ذلكَ، ولم يُشاهِدوهُ في أوهامِهِمْ بعدَ أنْ كانَ ذلكَ مَوهوماً مِنَ اللهِ مُشاهَداً مُعايَناً. لِمثْلِ هذا، واللهُ أعلمُ، يَذْكُرُ هذا. وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ كأنهُ يقولُ: وفي خَلْقِ اخْتِلافِ ألسنتِكُمْ آياتُهُ أيضاً، لأنَّ الألسنَ بحيثُ خِلْقَةُ الألسنِ غيرُ مُخْتَلِفَةٍ، ولكنْ إنما تَخْتَلِفُ بحيثُ النطقِ والتَّكلُّمِ بها لا يَقَعُ في التَّكلُّمِ بها والنُّطقِ والصوتِ تَشابُهٌ بحالٍ وخُروجٌ[10] عمّا يَقْدِرونَ مِنَ الكلامِ، وإنْ كانَتْ بحيثُ خِلْقَتُها واحدةٌ غيرُ مُخْتَلِفَةٍ.

فهذا على المعْتَزِلةِ لِقولِهِمْ: إنَّ أقوالَ العبادِ غَيْرُ مَخْلوقةٍ، لا صُنْعَ للهِ في ذلكَ. فلو لم يكُنْ لهُ في ما يَتَكلَّمونَ، ويَنْطِقونَ على اخْتِلافِ ذلكَ صنعٌ، فلا آيةَ تكونُ لهُ في ذلكَ، فَدَلَّ أنهُ إنما صارَ آيةً لهُ لِما لهُ صُنْعٌ في ذلكَ، وكذلكَ في ما تختلِفُ الألوانُ بِفِعْلٍ يكونُ مِنَ الخَلْقِ، و يَتَغَيَّرُ عندَ الغَضَبِ والسرورِ والفَرَحِ، ثم أخبَرَ أنَّ ذلكَ [مِنْ][11] آياتِهِ، دلَّ أنهُ خالقٌ لأفعالِهِمْ، حتى كانَ آيةً لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ عربيٌّ وأعجميٌّ ونَبَطيٌّ وتركيٌّ ونَحْوُهُ ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أبيضُ وأحمرُ وأسودُ ونَحْوُهُ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى][12]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ آياتٍ لِمنِ انْتَفَعَ بِهِ مِنَ العالَمينَ، أو آيةً لِمَنْ تَفَكَّرَ، وتَدَبَّرَ، مِنَ العالَمينَ. لأنهُ إذا تَفَكَّرَ، وتَدَبَّرَ، عَرفَ وجْهَةَ الآيةِ في ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ويوادهم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: دل. (٥) في الأصل وم: ويبطل. (٦) في الأصل وم: جعل. (٧) في الأصل وم: ويتدبرون. (٨) في الأصل وم: فيعرفون. (٩) في الأصل وم: به فهو ليس. (١٠) في الأصل وم: وخروجه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة في الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٢٣ وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لأنَّ النومَ يأخذُهم مِنْ غَيرِ أنْ يَعْرِفوا أنهُ مِن أينَ مأتاهُ ومَأخَذُهُ؟ ثم يَأخُذُ منهمْ جَميعَ مَنافعِ الأحياءِ مِنَ السمعِ والنطقِ والفهمِ والرؤيَةِ وجميعَ ما يُنْتَفَعُ بهِ قَبلَ ذلكَ.

ثم يَرُدُّ ذلكَ إليهمْ مِنْ غَيرِ أنْ عَرَفوا ذلكَ، فيعودونَ إلى ما كانوا مِنَ المنافِعِ والاكْتِسابِ لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على مِثْلِ هذا يَقْدِرُ على أخْذِ الروحِ ونفسِهِ وردِّهِ إليهِ، فهو أخو الموتِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] [سَمّى النومَ][1] الوفاةَ، وهو مِثْلُها[2] لِما ذَكَرْنا أنَّ جميعَ مَنافعِ الأحياءِ يَرْتَفعُ، ويزولُ بالنومِ، ثم يُرَدُّ إليهِ مِنْ غَيرِ أنْ يُشْعَرَ بذلكَ. فَمَنْ قَدَرَ [على هذا يَقْدِرُ][3] على الإحياءِ بعدَ الموتِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وجِهَةُ الآيةِ في ما يَبْتَغونَ[4] مِنْ فَضْلِهِ، وهو خَلْقُهُ تلكَ المَكاسبَ والتجاراتِ والحِرَفَ التي يَبْتَغونَ بها الرزقَ.

أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ ذلكَ منهمْ. ففيهِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العِبادِ. فهو على المعتزلةِ لإنكارِهِمْ خَلْقَ أفعالِهِمْ، أو أنْ تكونَ وِجْهَةُ الآيَةِ فيهِ ما عَرَّفَهُمْ تلكَ المكاسبَ والتجاراتِ والحِرَفَ، وعَلَّمَهُمْ إيّاها، وأحْوَجَهُمْ إليها لِيَصِلُوا إلى مَنافِعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يَنْتَفِعونَ بِسَمْعِهِمْ، أو لِقومٍ يُجيبونَ. والسمعُ يجوزُ أنْ يُعَبَّرَ بهِ عنِ الإجابةِ كقولِهِ ﷺ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [البخاري ٦٩٠] أي أجابَ اللهُ لِمَنْ دعاهُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يَعْقِلونَ. تَجوزُ العِبارةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] أي يَعْقِلونَ. ويُقالُ: لِقومٍ يَسْمَعونَ المَواعِظَ، فَيَقْبَلونَها فَيَنْتَفِعونَ بها.

الآية ٢٤ وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ للخوفِ والطَمعِ؛ تخافونَ سُلْطانَهُ وقدرَتَهُ أنْ يُصيبَكُمْ ذلكَ البَرْقُ، فَيَذْهَبَ بأبصارِكُمْ ﴿وَطَمَعًا﴾ ترجونَ رحمتَهُ بِصَرْفِهِ[5] عنكمْ.

والثاني: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي يُريكُمُ البَرْقَ تخافونَ، وتَطْمَعونَ [يَحْتَمِلُ وجهينِ:

أحَدُهما: يَخافُ][6] المسافرُ قَطْعَ سَيرِهِ ومَنْعَهُ عنهُ، ويَطْمَعُ[7] المُقيمُ برحمتِهِ ما يُكْثِرُ بهِ أنزالَهُ ومعاشَهُ.

والثاني: تَخافونَ الصَّواعِقَ، وتطمعونَ المَطَرَ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ هو ظاهرٌ، قد ذَكَرْناهُ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ، أو ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لو تَدَبَّروا، وتَفَكَّروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهما[8] قاما على شيءٍ غَيرِ موهومٍ، ذلكَ في أوهامِ الخَلْقِ قِيامُ شيءٍ مِنْ أفعالِهِمْ على مِثْلِهِ، وهو الهواءُ والماءُ والريحُ. فكيفَ حَمَلَهُمْ خروجُ شيءٍ مِنْ أوهامِهِمْ على إنكارِهِ وتكذيبِهِ، وهو البعثُ والإحياءُ بَعْدَ الموتِ؟ فمنْ قَدَرَ على أحدِهِما قَدَرَ على الآخَرِ.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: على التقديمِ، أي ثم إذا دعاكُمْ دعوةً إذا أنتمْ تخرجونَ مِنَ الأرضِ. والدَّعْوَةُ: هي النَّفْخَةُ الآخِرَةُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو ما ذُكِرَ: الدَّعْوَةُ تكونُ مِنَ الأرضِ مِنْ صخرةِ بيتِ المقدسِ. مِنْ هنالكَ تَسْمَعونَ الدعوةَ.

ثم اخْتُلِفَ في الدَّعْوَةِ والصَّيحَةِ والنَّفْخَةِ والصُّورِ ونَحْوِ ما ذُكَرَ: فمنهمْ مَنْ يقولُ على حَقيقةِ الدَّعْوَةِ والصَّيحَةِ والنَّفْخَةِ والصُّورِ على ما ذُكَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ ذلكَ إخبارٌ عنْ سرعةِ نَفاذِ الأمرِ وعِبارةٌ عنْ خِفَّةِ ذلكَ وهَولِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَآ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: مثله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ينتفعون. (٥) في الأصل وم: بصرفكم. (٦) في الأصل وم: يخافه. (٧) في الأصل وم: وتطمعون أي. (٨) في الأصل وم: أنه.

أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. ليسَ أنْ كانَ منهُ كافٌ ونونٌ.

لكنهُ ذُكِرَ بأخفِّ حروفٍ يُفهَمُ منهُ المَعنَى. فَعلَى ذلكَ ذِكرُ الصَّيحَةِ والنَّفْخَةِ والدَّعوَةِ والصُّورِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ دلالةٌ وإخبارٌ أنهُ قادرٌ على الإنشاءِ والإحياءِ بلا سَببٍ لأنهُ أخبَرَ إذا دعاكمُ دَعوَةً تَخرُجونَ. والدَّعوةُ ليستْ هي بِسببٍ للإحياءِ والإنشاءِ. بل أخبَرَ أنهُ يُخرِجُهُمْ إخراجاً. ثَبَتَ أنهُ ما ذَكَرْنا. وقد ذَكَرْنا في اختِلافِ الألسُنِ لولم يكُنْ ما يُسْمَعُ منهمْ وما يَنطِقونَ يُخلَقُ في الحقيقةِ، فإذنْ آياتُهُ عَبَثٌ، لأنَّ الحروفَ [لا][1] تَشهَدُ خَلْقَهُ ولا جِسْمَهُ ولا سَمْعَهُ ولا ما[2] احتَجَّ، فيكونُ بِمَعنى مَنْ يقولُ: للهِ آياتٌ في الكلامِ، احتَجَّ بها على عِبادِهِ الذينَ لم يُطْلِعْهُمْ عليهِ/ ٤١١ ـ ب/ ولا سَبيلَ لهمْ إلى الاطِّلاعِ عليها، وذلكَ بعيدٌ عنِ العقولِ، فَثَبَتَ أنَّ اللهَ قد خَلَقَ كلَّ نُطْقٍ على ما عليهِ، يَعرِفُهُ المُتَفكِّرُ بما يَرى مِنْ عَجْزِ المُتَفوِّهِ على التَّفَوُّهِ بهِ على التقطيعِ الذي يُقَدِّرُهُ في نَفْسِهِ وعلى الحَدِّ الذي يَجِبُ أنْ يكونَ عليهِ دونَ أنْ يَقَعَ في ذلكَ تَفاوُتٌ واختِلافٌ، فَيُعلَمُ أنَّ ذلكَ كانَ الآيةَ على ما كانَ عليهِ، بل باللهِ، جلَّ، وعَلا، ولا قوةَ إلَّا باللهِ.

وما ذَكَرَ مِنِ اختِلافٍ فإنا قد نَجِدُهُ يَتَغيَّرُ بالعبادِ نَحْوُ ما يَظْهَرُ عند شِدَّةِ السرورِ بالشيءِ غَيرُ الذي يَظْهَرُ عندَ شِدَّةِ الغَضَبِ مُتَولِّداً عنْ فِعْلِهِمْ.

ومِن قولِ المعتزلةِ أو عامَّتِهِمْ أنَّ المتولِّدَ هو فعلُ الخَلْقِ. فعلى ذلكَ القولِ يكونُ اللَّونُ فِعلاً بِتَخليقِ اللهِ.

وأمّا النومُ فَمَوضِعُ الاعتبارِ فيهِ ما في اللَّونِ، وإلّا فالاعتبارُ إنما هو بابتِغائِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ، أي ذلكَ بما رُكِّبَ فيهمْ مِنَ الحاجةِ وإنشائِهِمْ مِنَ الفاقةِ إلى ما ذَكَرَ مِنَ الأغذيةِ بأنَّ ابتِغاءَها [كانَ][3] فعلاً لِلْخَلْقِ. وقدِ احتَجَّ اللهُ ﷻ على العبادِ، فأخبَرَ أنهُ من آياتِهِ. ومُحالٌ أنْ تكونَ حُجَّتُهُ ما يَخلُقُهُ غَيرُهُ دونَ الذي يَخلُقُهُ، بل يَدُلُّ خَلْقُ كلٍّ على مُنْشِئِهِ مِن طريقِ الخِلْقَةِ والتدبيرِ. فَثَبَتَ أنَّ الابتِغاءَ مخلوقٌ بِخِلْقَةِ اللهِ، وإنْ كانَ فِعلاً لِلْخَلْقِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حَرفُ ﴿مَن﴾ إنما يُتَكَلَّمُ بهِ، ويُعَبَّرُ عمَّنْ لهُ المُلْكُ والتدبيرُ والتَّمييزُ. وحرفُ: ما عنْ مُلْكِ الأشياءِ نفسِها. فإذا كانَ مَنْ لهُ المُلْكُ في الشيءِ والتدبيرُ والأمرُ لهُ، فالأملاكُ أحَقُّ أنْ تكونَ لهُ.

يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، عنْ غِناهُ وسلطانِهِ وقدرتِهِ، أي مَنْ لهُ ما ذَكَرَ في السمواتِ والأرضِ، لا يُحتَمَلُ[4] أنْ يَمتَحِنَهُمْ، ويأمُرَهُمْ بأنواعِ العِبادةِ والطاعةِ لِحاجةِ نفسِهِ أو مَصلَحَةِ نفسِهِ؛ إذْ هو غَنِيٌّ عنْ ذلكَ، ولكنهُ إنما يَمتَحِنُهُمْ[5] ويأمُرُهُمْ بأنواعِ العِبادةِ وأنواعِ المِحَنِ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ وحاجاتِهِمْ ومَصالِحِهِمْ، فإذا كانَ لهُ ما ذَكَرَ مِنَ المُلْكِ لا يُحتَمَلُ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: القُنوتُ: القِيامُ، والقانِتُ: القائمُ. فإنْ كانَ هذا فتأويلُ ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي قائمٌ بتدبيرِهِ وأمْرِهِ في الوُجودِ والعَدَمِ والإبداءِ والإعادةِ، وفي كلِّ حالٍ، إنْ أوجَدَ وُجِدَ. وإنْ أعْدَمَ صارَ مَعدوماً، وإنْ أحياهُ حَيِيَ، ونَحوُهُ في كلِّ حالٍ يقومُ بِتَدبيرِهِ وأمْرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي مُطيعونَ. فإنْ كانَ على هذا فهو على طاعةِ الخِلْقَةِ لهُ والشهادةِ للهِ بالوَحدانيَّةِ والرُّبوبيَّةِ والتدبيرِ لهُ والعِلْمِ في ذلكَ لأنَّ اللهَ جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ وكلِّ شيءٍ وفي صورتِهِ ما يَشهَدُ لهُ بالوَحدانيَّةِ والربوبيَّةِ، ويدلُّ على تدبيرِهِ وعِلْمِهِ، فكلٌّ لهُ قانتٌ ومطيعٌ بالخِلْقَةِ والصفةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي خاضعونَ، فهو يرجِعُ إلى حالٍ دونَ حالٍ، وهو حالُ الخوفِ والضرورةِ؛

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) في الأصل وم: يمتحن.

جنة السنة

يَخضَعُ لهُ كلُّ كافرٍ ومُشركٍ في تلكَ الحالِ، وهو ما أخبَرَ عنهمْ مِنَ الخضوعِ لهُ إذا ركبوا الفلكَ حين[1] قالَ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقالوا[2]: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣ويونس: ٢٢] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الأحوالِ التي كانوا يَخضعونَ، ويُطيعونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يُخبرُ أنَّ مَن مَلَكَ، وقَدَرَ على بَدْءِ الخَلْقِ][3] وإعادتِهِ، لا يَحتَمِلُ أنْ يَخلُقَهُمْ، ويُنشِئَهُمْ لحاجةِ نفسِهِ أو مصلحتِهِ لأنهُ غنيٌّ بذاتِهِ، أو يَمتَحِنَهُمْ لِمَنفعَةِ نفسِهِ، أو يأمُرَهُمْ[4] لذلكَ. ولكنْ إنما يَبْدأُ، ويُعيدُ لحاجةِ أنفسِهِمْ، أو يَخبِرُ أنَّ مَن قَدَرَ على بَدْءِ الشيءِ يَملِكُ إعادتَهُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قالَ [بعضُهُمْ][6]: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [أي هو هَيِّنٌ عليهِ][7]: ابْتِداؤُهُ وإعادتُهُ كقولِهِ: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] وقولِهِ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩ و٢١] وتجوزُ العبارةُ مِنْ فَعَلَ نَحْوُ ما يُقالُ: اللهُ أكبَرُ، أي كبيرٌ، وأعظَمُ بِمَعْنى عظيم، ونحوُهُ كثيرٌ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي عليهِ هيِّنٌ؛ إذْ ليسَ شيءٌ أصْعَبَ على اللهِ مِنْ شيءٍ، أو شيءٌ أهْوَنَ عليهِ مِنْ شيءٍ، بلِ الأشياءُ كلُّها بِمَحلٍّ واحدٍ داخلٍ تحتَ قولِهِ: ﴿كُن﴾ [البقرة: ١١٧و..].

وإنما يُقالُ: أهْوَنُ وأيْسَرُ لِمَنْ كانَ فِعلُهُ بِسَبَبٍ، فيهونُ عليهِ إذا كَثُرَتِ الأسبابُ، ويَصْعُبُ عليهِ، إذا قَلَّتْ، وضَعُفَتْ.

فأمّا اللهُ ﷻ فهو[8] الفاعلُ للأشياءِ، وصانِعُها، والقادرُ عليها بِسَبَبٍ وبلا سَبَبٍ.

فلا جائزٌ أنْ يُقالَ [في حَقِّهِ][9]: شيءٌ أهْوَنُ عليهِ مِن شيءٍ. وإنما يجوزُ ذلكَ [في][10] مَنْ كانَ فِعلُهُ لا يكونُ إلّا بِسَبَبٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ في عقولِكُمْ وتقديرِكُمْ، أي إعادةُ الشيءِ في عقولِكُمْ وتدبيرِكُمْ أهْوَنُ مِنْ بَدْئِهِ، لأنَّ الخَلْقَ لا يَملِكونَ تصويرَ ما لمْ يَسْبِقْ لهُ المِثالُ والتَّصَوُّرُ ابْتِداءً.

وقد يكونُ تصويرُ الأشياءِ وتمثيلُها إذا سَبَقَ لهمْ مثالٌ رَأوهُ، وشاهَدوهُ. فَثَبَتَ أنَّ إعادةَ الشيءِ في عقولِكُمْ وتدبيرِكُمْ أهونُ مِنِ ابْتِدائِهِ. فإذا عايَنْتُمْ،، وأقرَرْتُمْ أنهُ قادرٌ على بَدْئِهِ فهو [على][11] إعادتِهِ أملَكُ وأقْدَرُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يعني على ذلكَ الشيءِ، أي إعادةُ ذلكَ الشيءِ أهونُ مِنْ بدئِهِ، لأنهُ في الابْتِداءِ يَنْقُلُهُ، ويُحَوِّلُهُ مِنْ حالِ النطفةِ إلى حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المُضْغَةِ، ثم مِنْ حالِ المُضْغَةِ إلى حالِ التصويرِ والنَّسَمَةِ إلى ما ينتهي إليهِ حتى يصيرَ خَلْقاً وصورةً. فَيُخبِرُ أنَّ إعادتَهُ ليسَتْ على التَّقديرِ و التَّحويلِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ ولكنْ كما ذَكَرَ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقولِهِ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وقولِهِ: ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٥٣ و..] [وقولِهِ][12]: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣] [وقولِهِ][13]: ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] وما ذكَرَ. فالإعادةُ لذلكَ الشيءِ أهونُ على ذلكَ الشيءِ مِنَ الابْتِداءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لهُ الصفاتُ العاليةُ. ثم يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ كلَّ موصوفٍ بالعُلُوِّ والرفعَةِ مِنْ دونِهِ، فهو المَوصوفُ بهِ في الحقيقةِ على ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ مَنْ حُمِدَ دونَهُ، فذلكَ الحمدُ لهُ في الحقيقةِ، راجعٌ إليهِ ذلكَ كقولِهِ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ الآيةَ [الروم: ١٨و..]

والثاني: لهُ الصفةُ العاليةُ ممّا تُخالِفُ صِفاتِ الخَلْقِ وشَبَهَهُمْ كقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا تُشْبِهُ صِفاتُهُ صِفاتِ المَخلوقينَ، ولا اشتبَهَتْ صفاتُ الخَلْقِ صفاتِهِ، وهو ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: الذي لا مِثْلَ لهُ، ولا شِبْهَ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣و..] واحدٌ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وقولهم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يأمره. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: و.

جنة السنة

والثالثُ: ولهُ الصفاتُ العاليةُ ممّا لا يُضادُّ [بعضُها](١) بعضاً: عالمٌ، لا جَهْلَ فيه، قادرٌ، لا عَجْزَ فيهِ، عزيزٌ، لا ذُلَّ فيهِ. وأمثالُ ذلكَ ممّا لا يدخُلُ في ذلكَ نُقصانٌ أو عيبٌ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، ليسَ كالخلقِ أنهمْ يُوصفونَ بالعِلْمِ بِجِهَةٍ وبشيءٍ وبالجَهْلِ بجِهَةٍ أُخرَى وبالقُدْرَةِ بِجِهَةٍ أُخرَى وبشيءٍ آخَرَ وبالعَجْزِ بِجِهَةٍ أُخرَى وبشيءٍ آخَرَ وبالعِزِّ بِجِهَةٍ أُخرَى وبشيءٍ آخَرَ وبالذُّلِّ بِجِهَةٍ أُخرَى وبشيءٍ آخَرَ.

فاللهُ ﷻ موصوفٌ بِصفاتٍ، لا يُضادُّ بعضُها بعضاً، ولا يدخُلُ في ذلكَ نُقصانٌ بِجِهَةٍ مِنَ الجهاتِ وفي حالٍ مِنَ الأحوالِ لأنهُ بذاتِهِ موصوفٌ بذلكَ لا بِغيرِهِ ولا بِسَببٍ.

وأمّا غيرُهُ فإنما يوصفونَ بذلكَ بأسبابٍ وبأعيانٍ(٢)، تكونُ لهمْ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يَلحَقُهُ /٤١٢ - أ/ الذُّلُّ والضَّررُ بمُخالَفَةِ خَلْقِهِ إيّاهُ وعِصيانِهِمْ لهُ، ليسَ كملوكِ الأرضِ إذا خالفَهمْ(٣) أتباعُهُمْ وحواشِيهِمْ ورعيَّتُهُمْ، يُذَلّونَ، ويَلْحَقُهُمُ الضَّرَرُ بإعراضِهِمْ عنهمْ، لأنَّ عِزَّهُمْ كانَ بهِمْ. فَبإعراضِهِمْ عنهمْ ومُخالَفَتِهِمْ إيّاهُمْ يُذَلّونَ.

فأمّا اللهُ سبحانَهُ [فهو](٤) عزيزٌ بذاتِهِ، لا يَلحَقُهُ الضَّررُ والذُّلُّ بِمُخالَفَةِ الخَلْقِ إيّاهُ.

[ويَحتَمِلُ](٥) أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المُنتقِمُ مِمَّنْ يُخالِفُ أمْرَهُ، ويَعْصيهِ، أو يُشرِكُ غَيْرَهُ في أُلوهيَّتِهِ وعِبادتِهِ(٦) و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ هو الذي لا يَلْحَقُه الخَطأُ في التدبيرِ.

يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أني، وإنْ خَلَقتُهُمْ وأنشأتُهُمْ على عِلْمٍ مني أنهمْ يُخالِفونَني، ويَعْصونَني، وأعَنْتُهُمْ بكلِّ أنواعِ المَعونةِ على عِلْمٍ مني بذلكَ منهمْ، فإنَّ فِعْلَهُ ليسَ بِخارجٍ عنِ الحكمةِ كما يكونُ في الشاهِدِ أنَّ مَنْ أعانَ عَدُوَّهُ بأنواعِ المَعونةِ، وهو يَعْلَمُ أنَّ معونتَهُ إيّاهُ تزيدُ لهُ قوةً في مُعاداتِهِ ومُخالفتِهِ فهو(٧) موصوفٌ [بالسَّفَهِ، غيرُ موصوفٍ](٨) بالحكمةِ لأنهُ يَسْعَى(٩) في إهلاكِ نفسِهِ، ويُعينُهُ على ذلكَ بِمعونتِهِ إياهُ. ومَنْ سَعَى في إهلاكِ نفسِهِ فهو غيرُ حكيمٍ.

فأمّا اللهُ سبحانَهُ حينَ(١٠) خَلَقَهُمْ، وأنشأهُمْ [فقد](١١) أعانَهُمْ بكلِّ أنواعِ المَعونةِ على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ مِنَ الخِلافِ لهُ والعِصيانِ والعَداوةِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ضَرَبَ لكمْ مثلاً مِنْ مِثْلِ خَلْقِكُمْ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يُبَيِّنُ لكمْ مثلاً مِنْ أنفسِكُمْ ما لو تَفَكَّرْتُمْ، وتأمَّلْتُمْ، لَظَهَرَ لكمْ سَفَهُكُمْ بِعِبادتِكُمُ الأصنامَ دونَ اللهِ أو تَسويَتِكُمُ(١٢) الأصنامَ باللهِ. ثم يُخرِّجُ ضربُ المَثَلِ بما ذَكَرَ على وجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ(١٣): ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي لم تُسَوُّوا أنتُمْ أنفسَكُمْ بالذي مَلَكَتْ أيمانُكُمْ في ما رُزِقْتُمْ حتى تكونوا أنتمْ وهمْ سَواءً في ذلكَ. فكيفَ زعَمتُمْ أنَّ اللهَ قد سَوّى نَفْسَهُ وما مَلَكَ مِنْ خَلْقِهِ في مُلْكِهِ وأُلوهيَّتِهِ؟

والثاني: يقولُ: هل تَرْضَونَ أنْ يكونَ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ شُركاءَكُمْ في ما تَمْلِكونَ مِنَ الأموالِ؟ فإذا لم تَرْضَوا بهِ فكيفَ زَعَمْتُمْ أنَّ اللهَ يَرْضَى أنْ يُشرِكَ مَماليكَهُ في مُلْكِهِ وسلطانِهِ؟

[والثالثُ](١٤): يقولُ: فإنْ لم تَرْضَوا لأنفسِكُمْ إشراكَ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ في مُلْكِكُمْ، ولم تُسَوُّوا مَماليكَكُمْ بأنفسِكُمْ في ذلكَ، فكيفَ رَضِيتُمْ ذلكَ للهِ، وسَوَّيْتُمْ نفسَهُ ومَماليكَهُ، وعَدَلْتُمْ بهِ دونَهُ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تَخافونَ مَماليكَكُمْ كما تَخافونَ أحراراً أمثالَكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: وباعتبار. (٣) في الأصل وم: خالفوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: وربوبيته. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يسبق. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: تسميتكم. (١٣) في الأصل وم: قولكم. (١٤) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

تخافونَ لائِمَتَهُمْ كما يخافُ الرجلُ لائمةَ أبيهِ وأخيهِ وأقاربِهِ. وبعضُهُمْ يقولونَ: تخافونَ عبيدَكُمْ أنْ يَرِثُوكُمْ [بعدَ الموتِ كما تخافونَ أنْ يَرِثَكُمُ](١) أحرارٌ مِنْ أوليائِكُمْ. وهو قولُ مُقاتِلٍ. لكنَّ الميراثَ ليسَ مِنَ الآيةِ في شيءٍ والأوَّلُ أشبَهُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ دلالةٌ أنَّ العبدَ لا يكونُ لهُ حقيقةُ المُلْكِ في الأشياءِ كالأحرارِ، لأنهُ أخبرَ أنهمْ ليسُوا همْ بسَواءٍ في الشِّرْكِ في ما رَزَقَ الساداتِ ومَلَكُوا على العِلْمِ انهمْ يَشْتَرِكونَ جميعاً في المنافعِ؟ دلَّ أنهمْ يَمْلِكونَ مَنافعَ الأشياءِ، ويُشْرِكونَ الأحرارَ فيها، ولا يَمْلِكونَ حقيقةَ الإملاكِ.

وكذلكَ يدلُّ قولُهُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الآيةِ [النحل: ٧٥] لمّا نَفَى عنهُ القدرةَ على شيءٍ، واللهُ اعلَمُ، يكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] أي يُغْنِهِمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ بالمَنافعِ لا بِحقيقةِ مُلْكِ الأشياءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهما]:(٢) أي نُبَيِّنُها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لقومٍ يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ.

والثاني: قولُهُ: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نُفَرِّقُ واحدةً بَعْدَ واحدةٍ على ما ذَكَرَ مِنْ أوَّلِ السورةِ إلى هذا المَوضعِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ كذا ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ كذا [الروم: ٢٠ ـ ٢٥].

والتَّفْصيلُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: التَّبيينُ.

والثاني: التفريقُ في الذِّكْرِ: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٣] بُيِّنَتْ، وفُصِّلَتْ؛ فُرِّقَتْ واحدةً بعدَ واحدةٍ.

فإنْ قال لنا قائلٌ: في هذهِ الآياتِ التي ذُكِرَتْ ما يَدُلُّ على إيجابِ البعثِ، قيلَ: في هذهِ التي ذُكِرَتْ دفعُ الشُّبْهَةِ التي لها أنْكروا البعثَ لأنهمْ رَأَوُا البعثَ مُمْتَنِعاً بالشُّبْهَةِ التي اعْتَرَضَتْ لهم.

ففي هذهِ الآياتِ دفْعُ تلكَ الشُّبْهَةِ التي رَأَوُا البعثَ مُمْتَنِعاً حينَ(٣) أراهُمْ بَدْءَ خَلْقِهِمْ وقيامَ السماءِ والأرضِ بالذي ذَكَرَ.

ثم إيجابُ البَعْثِ يكونُ بالأخبارِ الصادقةِ، وهي أخبارُ الرسلِ الذينَ(٤) ظَهَرَ صِدْقُهُمْ، أو بما ذَكَرْنا أنَّ خَلْقَ الخَلْقِ بلا عاقبةٍ، تُجْعَلُ لهمْ، لِلْفَناءِ خاصَّةً خارجٌ عنِ الحكمةِ [لِوجوهٍ:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا أنَّ بِناءَ البناءِ في الشاهدِ لِلنَّقْضِ والإفناءِ خاصَّةً بلا مَنْفَعَةٍ تُؤَمَّلُ في العاقبةِ سَفَهٌ خارجٌ عنِ الحكمةِ](٥) فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ الخَلْقِ لِلْفَناءِ خاصَّةً بلا عاقبةٍ، يكونُ خارجاً عنِ الحكمةِ.

والثاني: أنهُ لو لم يَجْعَلِ البعثَ وداراً أُخرى لِيُفَرِّقَ بينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ فيها، وقد سَوَّى بَيْنَهما في هذهِ الدارِ. وفي الحكمةِ أنْ يُفَرِّقَ، ولا يُسَوِّيَ بَينهما. فلو لم تكنْ دارٌ أخرى، فيها يُفَرِّقُ لكانَ ذلكَ خارجاً عنِ الحكمةِ.

والثالثُ: في الحكمةِ أنْ يُجْزَى المُحْسِنُ لإحسانِهِ والمُسيءُ في إساءَتِهِ، وقد يكونانِ في هذهِ الدنيا، ويَخْرُجانِ منها، لا يُصيبُ المُحْسِنَ جزاءُ إحسانِهِ ولا المُسيءُ جَزاءَ إساءتِهِ. فلا بدَّ مِنْ دارٍ أُخرى لِيُجْزَى فيها كلٌّ بعَمَلِهِ. وفي ما ذَكَرْنا إيجابُ البعثِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أنفسَهُمْ حينَ(٦) لم يَسْتَعمِلوها في ما أُمِروا بالإسْتِعمالِ فيهِ، بل صَرَفوها إلى غَيرِ ما أُمِروا بالاسْتِعْمالِ فيهِ، وظَلَموا حُجَجَ اللهِ وآياتِهِ وبراهينَهُ حينَ(٧) لم يَتَّبِعوها، ولم يَضَعوها مَوضِعَها حيثُ وضِعَتْ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، من الأصل: الذي.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ في عبادتِهِمُ الأصنامَ وصَرْفِها عنِ اللهِ إلى مَنْ لا يَستحِقُّ العبادةَ والشُّكرَ، وذلكَ لِهَواهُمْ لأنهُ ليسَ معهمْ حُجَّةٌ ولا برهانٌ كقولِهِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الحج: ٧١] أي حُجَّةً وبرهاناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي [لا أحدَ][١] سِوى اللهِ يَهْدي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ، أي مَنْ آثَرَ[٢] الضلالَ، واختارَهُ، أضَلَّهُ اللهُ: لا يَهديهِ[٣] سِواهُ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يَنصُرونَهُمْ[٤] في دفعِ عذابِ اللهِ عن أنفسِهِمْ. أو ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي مِنْ مانِعينَ، يَمْنعونَهُمْ[٥] عن عذابِ اللهِ. واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا الخِطابُ لرسولِ اللهِ لأنهُ ذَكَرَ الآياتِ في ما تَقدَّمَ حيثُ قالَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٠، . . .] كذا وكذا، ثم ذَكَرَ الذينَ اتَّبعوا أهواءَهُمْ بِغيرِ عِلْمٍ، ثم قالَ لرسولِهِ[٦]: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أنتَ ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: وعندَنا أيِ الخِطابُ بهِ وبِمِثْلِهِ لِكُلِّ أحدٍ كقولِهِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] [وقولِهِ][٧]: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] كأنهُ يُخاطِبُ كلَّ مَنِ انتَهى إليهِ هذا: أنْ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فَعلى هذا قولُهُ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ هو لكلِّ أحدٍ.

ثم الإقامةُ تَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أقِمْ: أي داوِمْ جَهْدَكَ وقَصْدَكَ.

والثاني: أقِمْ: أتْمِمْ، وأقِمْ ما ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى][٨]: ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحنيفُ مِنْ حَنَفِ القَدَمِ[٩] ومَيلِهِ؛ معناهُ: كُنْ مائلاً إلى الدينِ في كلِّ حالٍ وكلِّ وَقْتٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الإخلاصِ والإسلامِ لهُ[١٠].

ثم فَسَّرَ ذلكَ، فقالَ: [﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ هذا يَحتمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها:][١١]][١٢] ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي معرفةَ اللهِ التي جَبَلَ الناسَ عليها: أنْ يكونَ اللهُ يَجعَلُ في كلِّ صَغيرٍ وطفلٍ مِنَ المعرفةِ ما يَعرِفُ /٤١٢ ـ ب/ وَحدانيَّةَ ربِّهِ وربوبيَّتَهُ على ما جَعَلَ لهمْ مِنَ المَعرِفةِ ما فيهِ غِذاؤُهُمْ وقِوامُهُمْ مِنْ أخذِ ثَدْيِ أُمَّهاتِهِمْ في حالِ [صِغرِهِمْ وطُفوليَّتِهِمْ][١٣]. ولذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ [ﷺ][١٤]: «كلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانِهِ، ويُنصِّرانِهِ» [البخاري: ١٣٨٥] على ما جَعَلَ في الجبالِ مِنْ مَعرِفةِ التسبيحِ لربِّها والتحميدِ، لكنَّ أبَوَيهِ يُشَبِّهانِ ذلكَ عليهِ، ويَصرِفانِهِ.

والثاني: فَطَرَهُمْ، وجَبَلَهُمْ ما لو تُرِكوا وعقولَهُمْ لَكانوا على [ما][١٥] جُبِلوا، وفُطِروا، إذْ فُطِرَ كلٌّ[١٦] منهمْ، و جُعِلَ في خِلْقَةِ كلِّ دلالةُ وَحدانيَّةِ اللهِ ورُبوبيَّتِهِ. وكذلكَ قولُهُ: «كلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ» [البخاري ١٣٨٥] أي على الخِلْقَةِ التي تَدُلُّ، وتَشْهَدُ على وحدانيَّةِ اللهِ وربوبيَّتِهِ مالو تُرِكوا، وخُلِّيَ بَينَهُمْ وبَينَ عقولِهِمْ لأدْرَكوا.

والثالثُ: فَطَرَهُمْ على ما يَحتمِلونَ الامتِحانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: لا تَبديلَ لِدينِ اللهِ، سَمّاهُ خَلْقاً.

وعلى قولِ المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ بأنَّ فِعلَ العبدِ ليسَ بِمخلوقٍ، ويَحتالونَ في قولِهِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تَبديلَ لِما يَقَعُ بهِ الدعاءُ إليهِ، أو كلامٌ نحوُ هذا.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أحد. (٢) في الأصل وم: يؤثر. (٣) في الأصل وم: يهدي. (٤) في الأصل وم: ينصرهم. (٥) في الأصل وم: يمنعهم. (٦) في الأصل وم: لرسول الله. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: القوم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: صغره وطفوليته. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: كلا.

جنة السنة

فيُقالُ: إنَّ الدينَ هو ما يدينُ [به](١) المرءُ، وهو فِعْلُهُ، مأخوذٌ مِنْ دانَ يدينُ. ثم أخبرَ أنهُ خَلْقُ اللهِ. فَدَلَّ أنهُ مخلوقٌ.
وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لِما فيه دلالةُ وَحدانيَّةِ اللهِ وشهادةُ ربوبيَّتِهِ كقولِهِ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] أي(٢) لا تفاوُتَ في ما فيهِ دلالةُ الوَحدانيَّةِ والشهادةُ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أخبَرَ أنَّ ذلكَ الدينَ القَيِّمَ بالحُجَجِ والبراهينِ، ليسَ كدينِ أولئكَ الكَفَرَةِ اتِّباعَ الهَوَى، أو أنْ يكونَ الدينُ القَيِّمُ أي المُستَقيمُ على ما وَصَفَهُ اللهُ أنهُ الدينُ الحَنيفُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ فهذا يدلُّ على أنَّ الخِطابَ بقولِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لِكُلِّ حينٍ(٣) قالَ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي أقبِلوا إليهِ، وأنيبوا لهُ.

ثم الإنابةُ تَقَعُ على ما يَقَعُ بِهِ الأمرُ، لأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، أنيبوا إلى اللهِ بِما يَأمُرُكُمْ بهِ، واتَّقُوهُ عمّا نهاكُمْ عنهُ.
والتَّقْوَى مِنَ الإنابةِ كَهُوَ مِنَ البِرِّ كقولِهِ تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤٤] بما يأمُرُكُمْ بهِ، وتَتَّقُوهُ عمّا نهاكُمْ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها](٤): ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أي الزَموا، وداوِموا فِعلَها إلى آخِرِ [عُمُرِكُمْ](٥) ليسَ على أنْ يَقَعَ الأمرُ بها مَرَّةً واحدةً.

والثاني: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أتِمُّوها بِركوعِها وسُجودِها والقراءةِ وغَيرِ ذلكَ.

والثالثُ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أوفُوا إقامَتَها بأسبابِها التي جُعِلَتْ لها.

وفي الصلاةِ أحوالٌ ثلاثٌ: أحَدُها: الجَوازُ، والثاني: التمامُ والكَمالُ، والثالثُ: التزيينُ والتحسينُ.

ثم الجوازُ بحقِّ الأركانِ، والتَّمامُ والكمالُ بحقِّ الشُّعوبِ، والتزيينُ والتحسينُ بحقِّ الحواشي.

ويَجِبُ على كلِّ مُصَلٍّ خِصالٌ [ثلاثٌ](٦): صِدْقُ النِّيَّةِ، وحقُّ الإخلاصِ لهُ، والخُشوعُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أي لا تكونوا مِنَ المُشركينَ غيرَ اللهِ في الصلاةِ والعبادةِ، أي لا تُصَلُّوا لِغيرِ اللهِ، ولا تَعْبُدوا مَنْ دونَهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مَنْ دونَهُ في تَسْمِيَةِ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ(٧) لأنهمْ كانوا يُسَمُّونَ الأصنامَ التي يَعْبُدونَها آلِهةً، أو أنْ يكونَ صلَةَ قولِهِ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مُوَحِّدينَ مُقْبِلينَ على طاعتِهِ مُخْلِصينَ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لهُ غيرَهُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟(٨) دِينَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تكونوا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ ثم قولُهُ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ وقُرِئَ: فارَقوا فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: فارَقوا دينَهُمُ الذي جاءَتْهُمْ [بهِ](٩) الرسلُ.

[والثاني](١٠): فارَقوا دينَهُمُ الذي فُطِروا عليهِ، وهو ما جَعَلَ فيهِمْ مِنْ شهادةِ التوحيدِ لهُ والربوبيَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ يَحْتَمِلُ: وصاروا شِيَعاً، أي فِرَقاً وأحزاباً بَعدَها كانوا على ما فُطِروا، أو على ما جاءَتْهُمْ بهِ الرسلُ، أو كانوا شِيَعاً: ما يَتَشَيَّعُ، ويَتْبَعُ بعضُهُمْ بعضاً لأنَّ الشيعَةَ هُمُ الذينَ يَرْجِعونَ إلى أصلٍ واحِدٍ وأمرٍ واحِدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾، أي قَطَّعوا دينَهُمْ، وجَعَلوهُ قِطَعاً وفِرَقاً وأدياناً مِنْ نحوِ اليهوديَّةِ والمجوسيَّةِ والنَّصرانيَّةِ وغَيرِها ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كلُّ أهلِ دينٍ ومِلَّةٍ بما عندَهُمْ مِنَ الدينِ راضونَ بهِ فرحونَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما تنهون عنه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: والإلهية. (٨) في الأصل وم: فارقوا، وهي قراءة حمزة وغيره، انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٥١. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الذي فُطِرتُمْ عليهِ؛ وهو ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ واحدٍ شهادةَ الوحدانيّةِ لهُ والدلالةَ؛ يقولُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿مُّنِيبِينَ﴾ مُخلِصينَ كقولِهِ: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]. وقالَ قائلونَ: مُطيعِينَ، وقالَ قائلونَ: مُوَحِّدينَ.

وأصلُ الإنابةِ الرُّجوعُ، أي راجعينَ إليهِ عمّا كانوا فيهِ مِنَ الشِّرْكِ.

فالإنابةُ هي التوحيدُ، وإنْ كانتِ الإنابةُ الإخلاصَ فهو رجوعٌ عنِ الإشراكِ في العبادةِ، وإنْ كانتِ [الرجوعَ][1] عنِ العِصيانِ فهو الطاعةُ. وأصلُها[2] الرجوعُ عمّا كانوا فيهِ. ففيهِ وجوهٌ مِنَ الاحتِجاجِ على أولئكَ وتَنْبيهٌ وعِظَةٌ للمؤمنينَ:

أحَدُها:[3] الاحتِجاجُ عليهِمْ: أنهُ معلومٌ أنهم[4] كانوا لا يركبونَ السُّفُنَ والبِحارَ معَ المؤمنينَ، ولكنْ كانوا يركبونَ بأنفسِهِمْ. ثم أخبَرَ عمّا أخلَصوا لهُ الدُّعاءَ والتَّضَرُّعَ. دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ. فذلكَ يَدُلُّ على رسالتِهِ.

والثاني: فيهِ دلالةٌ أنهمْ قد عرَفوا وَحدانيّةَ اللهِ وألوهيّتَهُ حينَ[5] فزِعوا عندَ الشدائدِ والبَلايا إلى اللهِ أخلَصوا لهُ الدينَ. ثَبَتَ أنهمْ قد عرَفوا سَفَهَ أنفسِهِمْ في عبادَتِهِمُ الأصنامَ وترْكِهِمْ عبادةَ اللهِ تعالى.

والثالثُ: تصديقٌ[6] لقولِهِ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] لأنهمْ كانوا يسألونَ الرَّدَّ إلى الدنيا لِيُؤمِنوا بهِ كقولِهِمْ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧] فأخبَرَ أنهمْ يَعودونَ إلى ما كانوا [عليهِ][7] كما عادوا لمّا[8] كَشَفَ عنهمُ الضُّرَّ.

وأمّا العِظَةُ والتَّنبيهُ للمؤمنينَ فهو أنْ يكونوا[9] في الأحوالِ كلِّها على حدٍّ واحدٍ في حالِ الرَّخاءِ والشِّدَّةِ ذاكرينَ، لأنهمْ في حالِ الشِّدَّةِ والبَلايا أكثَرُ ذِكْراً لهُ وإنابةً مِنْ حالِ السَّعَةِ والرخاءِ، فَيُنَبِّهُهُمْ ليكونوا في كلِّ حالٍ ذاكرينَ لهُ مُنيبينَ إليهِ.

وفيهِ دلالةُ شِدّةِ سَفَهِ أولئكَ الكَفَرَةِ حينَ[10] أنابوا إليهِ، وأخلَصوا لهُ الدينَ عندما أصابَتْهُمُ[11] الشِّدَّةُ والبلاءُ، وأعْرَضوا عنهُ[12]، وأشرَكوا[13] في ألوهيّتِهِ عندَ السَّعَةِ.

وفي طِباعِ الخَلْقِ في الشاهدِ خِلافُ ذلكَ: أنَّ مَنْ ضَيَّقَ على آخرَ أمْرَهُ، وشَدَّدَهُ فهو يُعْرِضُ عنهُ، ويَبْغُضُهُ، ومَنْ أنْعَمَ عليهِ مِنْ ملوكِ الأرضِ، وأحْسَنَ، أطاعَهُ، وأحَبَّهُ لِشِدّةِ سَفَهِهِمْ عَكَسوا[14] طباعَهُمْ، وخالَفوا طِباعَ الناسِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي السَّعَةَ والرَّخاءَ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فإنْ قيلَ: ما فائدةُ ذِكْرِ هذهِ الآياتِ وأمثالِها، وهمْ كانوا لا يُؤمنونَ بها، ولا يَنْظُرونَ فيها؟

قيلَ: قد يَحتَجُّ عليهِمْ بِما لا يُقِرّونَ، ولا يَنْظُرونَ [فيهِ، أو يَنْظُرُ][15] في ذلكَ، فريقٌ، ويَعْرِفونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو على التقديمِ والتأخيرِ؛ يقولُ: إذا أذاقَهُمْ منهُ رَحْمَةً لئلا يَكْفُروا. أو: إنما أذاقَهُمْ منهُ رَحْمَةً لئلا يَكْفُروا، لكنهمْ كَفَروا. إلى هذا ذهبَ مُقاتِلٌ.

وعندَنا ما ذَكَرْنا: أذاقَهُمْ منهُ رَحْمَةً ليكونَ منهمْ ما قد عَلِمَ أنهمْ يَختارونَ، ويكونُ / ٤١٣ ـ أ/ منهُمْ، وهو الكُفْرُ.

ولا جائزٌ أنْ يذيقَهُمُ الرحمةَ لئلا يَكْفُروا، ويُعْلَمَ منهمْ أنهمْ يَختارونَ الكُفْرَ، ويكونُ منهمْ ذلكَ، فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وأصله. (٣) في الأصل وم: إما. (٤) في الأصل وم: لأنهم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: تصديقا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إذا. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل وم: حيث.
(١١) في الأصل وم: يصيبهم. (١٢) في الأصل وم: يعرضون. (١٣) في الأصل وم: ويشركون. (١٤) في الأصل وم: عكس. (١٥) في الأصل فيهما وأن ينظرون، في م: فيه أو أن ينظرون.

جنة السنة

ثم [في][1] الآيةِ دلالةُ نَقضِ قولِ المعتزلةِ في قولِهِمْ: إنَّ على اللهِ الأصلَحَ للعبادِ لهمْ في الدينِ، وقولِهِمْ: إذا عَلِمَ مِنْ أحدٍ منهمُ الإيمانَ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ ليسَ لهُ أنْ يَختَرِمَهُ[2]، ولكنْ عليهِ أنْ يُبْقِيَهُ إلى ذلكَ الوقتِ [لأنهُ لوِ اختَرَمَهُ[3] قبلَ ذلكَ الوقتِ][4] لَكانَ هو المانعَ إيمانَهُ.

فَيُقالُ: إنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ لمّا أخلَصوا دينَهُمْ للهِ في حالِ الشِّدَّةِ وخَوفِ الهلاكِ لم يُبْقِهِمُ اللهُ على ذلكَ الإخلاصِ والحالِ التي يُخلِصونَ الأمرَ لهُ أوِ الدينَ؛ بل وَسَّعَ عليهِمْ، وحَوَّلَهُمْ مِنْ تلكَ الحالِ حتى عادوا إلى ما كانوا.

دَلَّ أنْ ليسَ على اللهِ حِفظُ الأصلَحِ لِلخلقِ في الدينِ، وقد أمَرَ نَبِيَّهُ بِمُقاتلةِ الكَفَرَةِ مُطْلَقاً، ولعلَّهُمْ يُسْلِمونَ في وقتٍ لو تُرِكوا، أو[5] بعضٌ منهم. دَلَّ أنْ ليسَ ذلكَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ هو في الظاهرِ أمرٌ، ولكنهُ يُخرَّجُ على الوَعيدِ كقولِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وقد ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت: ٦٦] فهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ قال بعضُهُمْ: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا﴾ بل أنزَلْنا عليهِمْ سُلْطاناً حُجَجاً ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي يُبيِّنُ، ويُعْلِمُهُمْ أنَّ الذي هم عليهِ شِرْكٌ، ليسَ بِتوحيدٍ لأنهمْ كانوا يقولونَ: إنّا على التوحيدِ، وإنما نَعْبُدُ هذهِ الأصنامَ ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوَهُ.

فيقولُ: بل أنزَلْنا عليهِم ما يُبيِّنُ، ويُعلِمُ أنَّ ذلكَ شِرْكٌ، وليسَ بتوحيدٍ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخرَ؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي ما أنزلْنا عليهِمْ سلطاناً، فَيأمُرُهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أو يَأذَنُ لهمْ بذلكَ كقولِهِ: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤]. فَعَلى ذلكَ قولُهُ ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي لم نُنْزِلْ عليهِمْ سُلْطاناً يأمُرُهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ إذْ[6] كانوا يَدَّعونَ بذلكَ أمْرَ اللهِ كقولِهِمْ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ففيهِ وجهانِ على أولئكَ الكَفَرَةِ.

أحَدُهُما: ما ذَكَرْنا أنهم كانوا يَدَّعونَ بذلكَ الأمرَ مِنَ اللهِ، فَيُخبِرُ أنهم كَذَبَةٌ في قولِهِمْ: إنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ. بل لم يأمُرْهُمْ بذلكَ، ولا أنْزَلَ عليهِمُ الكتابَ أوِ السلطانَ في إباحةِ ذلكَ.

والثاني: يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في عبادتِهِمُ الأصنامَ لأنهم كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ، ويُسَمّونَها آلهةً بلا سُلْطانٍ ولا حُجَّةٍ، كانوا يطلُبونَ على ذلكَ. ثم كانوا يَطْلُبونَ مِنَ الرسولِ آياتٍ تَقْهَرُهُمْ، وتَضْطَرُّهُمْ على رسالتِهِ وما يُوعِدُهُمْ بَعْدَ ما آتاهُمْ مِنَ الآيةِ ما أعْلَمَهُمْ، وأنبأهُمْ، أنهُ رسولٌ. فالعبادةُ أعظَمُ وأكبَرُ للمعبودِ مِنَ الرسالةِ.

فإذا لم تطلُبوا لأنفسِكُمُ الحُجَّةَ والآيةَ القاهرةَ في إباحةِ ما تَعْبُدونَ مِنْ دونَ اللهِ فكيفَ تطلُبونَ مِنَ الرسولِ الآيةَ القاهرةَ في إثباتِ الرسالةِ؟.

وقال بعضُهُمْ: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ كتاباً، فيه عُذْرٌ لهمْ، فهو يَشْهَدُ بما كانوا بِهِ يُشركونَ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ إذا أُريدَ أنْ يُسَوّى بَينَ هذهِ الآيةِ والآيةِ التي قبلَها، وهي[7] قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] إلى آخرِهِ، ويَجمَعَ بَينَهما، يكونُ قولُهُ: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ مِنَ الأصنامِ التي يَعْبُدونها أنهُ يقولُ في هذهِ الآيةِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وفي الأولى يقولُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾.

فَوَجْهُ الجَمْعِ بَينَهما ما ذَكَرْنا أنْ يكونَ القنوطُ مِنَ الأصنامِ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يخترعه. (٣) في م: اخترعه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: أي.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: وهو.

جنة السنة

تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧] أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ عندما امْتَدَّ بِهِمُ الضُّرُّ والشِّدَّةُ، حينئذٍ يَيْأَسُونَ مِنْ رحمةِ اللهِ. والأَوَّلُ في ابْتِداءِ ما أصابَهُمْ مِنَ الضُّرِّ فَزِعوا إليهِ، وأنابوا لهُ. أو أنْ تكونَ إحدى الآيتَينِ في قومٍ والأُخرى في قومٍ آخَرينَ، لأنهمْ كانوا فِرَقاً وأحزاباً في الكُفرِ والشِّرْكِ:

منهمْ مَنْ كانَ يُشرِكُ في الأحوالِ كلِّها: في حالِ الضِّيقِ والسَّعَةِ.

ومنهم مَنْ كانَ يُشرِكُ في حالِ الضِّيقِ، فيُؤمِنُ في حالِ السَّعَةِ كقولِهِ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾. [هود: ٩ و١٠] وكقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

ومنهُمْ مَنْ كانَ يُخلِصُ الدينَ في حالِ الضُّرِّ والشِّدَّةِ، ويُعانِدُ، ويَتَمَرَّدُ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ونحوُهُ.

فكانوا فِرَقاً وأحزاباً على ما ذَكَرْنا. فجائزٌ أنْ تكونَ إحدى الآيتَينِ في فريقٍ وقومٍ والآيةُ الأُخرى في قومٍ آخَرينَ، أو ما ذَكَرْنا مِنِ اختِلافِ الأحوالِ يَقْنَطونَ عندَما يمتدُّ(١) بهمُ الضُّرُّ والشِّدَّةُ، ويُنيبونَ(٢) إليهِ عندما لم يَمْتَدَّ إليهِمْ ذلكَ، ولم يَتطاوَلْ، أو ما ذَكَرْنا مِنَ القُنوطِ مِنَ الأصنامِ والإنابةِ إلى اللهِ كقولِهِ: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧] وإلّا الآيتانِ في الظاهِرِ مُتناقضتانِ. ولكنَّ الوَجْهَ فيهما(٣) ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [أنْ يكونَ حُجَّةً](٤) على الكافرينَ كقولِهِ: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثم وَجْهُ الآياتِ لهمْ على كُفّارِ مكةَ مِنْ وجوهٍ: في إثباتِ الرسالةِ، وفي البعثِ، وفي(٥) إظهارِ سَفَهِهِمْ في عبادةِ الأصنامِ وإشراكِهِمْ إياها في عبادةِ اللهِ لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا يُنكِرونَ الرسالةَ والبعثَ، ويَرَونَ عبادةَ غيرِ اللهِ فالاحتِجاجُ عليهمْ بهذهِ الآيةِ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

فأمّا الاحتِجاجُ في إثباتِ الرسالةِ فهو مِنْ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنهمْ كانوا يُنكِرونَ الرسالةَ لأنهمْ بَشَرٌ، ولا يَرَونَ للبَشَرِ بعضِهِمْ على بعضٍ فَضلاً كقولِهِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٢٤ و٣٣] فيُريهِمُ الفضلَ لبعضِهِمْ على بعضٍ في الرزقِ مُوَسَّعاً على بعضٍ مُضَيَّقاً مُقتَّراً على بعضٍ. فإنْ ثَبَتَ عندَهمْ، وظَهَرَ الفضلُ لبعضٍ على بعضٍ في ما ذَكَرْنا فيجوزُ الفضلُ على بعضٍ في الرسالةِ.

والثاني: ذَكَرَهُ(٦) مُقابِلاً لقولِهِمْ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يُخبِرُ أنَّ الأمرَ ليسَ إليهمْ إنما ذلكَ [إلى اللهِ](٧) يختارُ مَنْ يَشاءُ لِما يَشاءُ مِنَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ وغيرِهِما كما يَختارُ التوسيعَ على مَنْ يَشاءُ والتضييقَ والتَّقْتيرَ على مَنْ يَشاءُ، وإنْ كانوا جميعاً يَتَمَنَّونَ السَّعَةَ، ويُحِبّونَها، ويَهْرُبونَ مِنَ الضيقِ والتقتيرِ. ولكنَّ الأمرَ في ذلكَ إلى اللهِ كلِّهِ.

والثالثُ: وَسَّعَ على بعضٍ، وضَيَّقَ على بعضٍ؛ فالجِهَةُ التي وَسَّعَ على بعضٍ غيرُ الجِهَةِ التي ضَيَّقَ على بعضٍ، فلا بدَّ مِنْ رسولٍ يُخبِرُ عنْ ذلكَ، ويُعْلِمُ ما على هذا وما على هذا، وما جهةُ التفريقِ بَينَهُمْ والتفضيلِ في الرزقِ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا الاحتِجاجُ عليهمْ في البعثِ بها فَمِنْ وجوهٍ أيضاً:

أحَدُها: أنهُ جَمَعَ في هذهِ الدنيا بَينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ، وسَوّى بَينَهما في التوسيعِ والتَّضْييقِ؛ إذْ وَسَّعَ على العَدُوِّ والوَلِيِّ [جميعاً، وضَيَّقَ على الوَلِيِّ](٨) وَوَسَّعَ على العَدُوِّ. وفي الحكمةِ والعقلِ التفريقُ بَينَهما في هذهِ الدنيا [لا الجَمْعُ والتَّسْوِيَةُ، وقد سَوّى بَينَهما في هذهِ الدنيا](٩) وجَمَعَ. فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرى، فيها يُفَرِّقُ بينهما، فَيَلْزَمُهُمُ البعثُ، واللهُ الموفقُ.

---

(١) في الأصل وم: امتده. (٢) في الأصل وم: ينسون. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم.
(٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: إليهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والثاني: أنهُ وَسَّعَ الرزقَ على مَنْ هو في تقديرِهِمْ وعقولِهِمْ [أنه لا يَجِبُ التوسيعُ][1] عليهِ؛ وهو السفيهُ/ ٤١٣ ـ ب/ الجاهلُ الذي في تقديرِ كلِّ ذي عقلٍ ولبٍّ أنْ يكونَ مَحروماً مُضيَّقاً، وضَيَّقَ على مَنْ هو في تقديرِ كلِّ أحدٍ وعَقْلِهِ أنْ يكونَ مُوَسَّعاً عليهِ مَرْزوقاً، وهو العاقلُ العارفُ بجميعِ أسبابِ السَّعَةِ والغِنى، وفي التقديرِ على خِلافِ هذا، فلا بدَّ مِن مكانٍ فيهِ يَظْهَرُ التفضيلُ للعقولِ والمعارفِ والرغبةُ فيها والرغبةُ عنْ أضدادِها ومَنْ هو أهلُ التوسيعِ ومَنْ هو أهلُ الحِرْمانِ إذْ قدِ اشْتَرَكوا في هذهِ.

والثالثُ: أنْ يَعْتَبِروا، ويَنْظُروا، بأنَّ مَنْ قَدَرَ على توسيعِ الرزقِ وبَسْطِهِ وتَضْيِيقِ الرزقِ وحرمانِهِ بالأسبابِ الخارجةِ عنْ تقديرِهِمْ وتدبيرِهِمْ وبِغَيرِ أسبابٍ قادرٌ على إحياءِ الأشياءِ الخارجةِ عنْ قدرتِهِمْ وتدبيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا وجهُ الاحتجاجِ عليهِمْ بِعبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ ففي ذلكَ تناقضٌ، وذلكَ بأنهمْ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[2]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وكانَتْ لا تَشْفَعُ في الدنيا، ولا تقرِّبُهُمُ الزُّلْفَى فيها في التوسيعِ والبسطِ ودفعِ الضيقِ، وفي الآخِرَةِ لا يُحْتَمَلُ [ذلكَ][3] لأنهمْ كانوا لا يؤمِنونَ. فهو تناقُضٌ وسَفَهٌ وسَرَفٌ في القولِ.

وهذهِ الآيةُ وغيرُها مِنَ الآياتِ تَنْقُضُ على المعتزلةِ لأنهمْ لا يَجْعلونَ للهِ في مكاسِبِ الخَلْقِ وحِرَفِهِمْ وتجاراتِهِمْ وجميعِ أسبابِهِمُ التي بها يرتزقونَ، ويَتَعَيَّشونَ صُنْعاً، وإنما يَجْعَلونَ ذلكَ في الخارجِ مِنَ الأرضِ.

فالناسُ في ذلكَ [في توسيعٍ][4] وتَضْيِيقٍ إذا لم يكنْ لهُ في تِلْكَ الأسبابِ والمكاسِبِ صُنْعٌ.

فَدَلَّ أنَّ للهِ في ذلكَ صُنْعاً حينَ[5] يقعُ منهُ البسطُ والتوسيعُ والتضييقُ والتقتيرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ما ذَكَرْنا: يكونُ للمؤمنينَ في ذلكَ آياتٌ على الكفارِ.

والثاني: لقومٍ يَنْتَفِعونَ بإيمانِهِمْ، والمُنْتَفِعونَ هُمُ المُنْتَفِعونَ بها. فأمّا مَنْ كَفَرَ فلا يَنْتَفِعُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في ذلكَ العِبْرَةُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو ألّا يُعَلِّقوا قلوبَهُمْ في الرِّزْقِ بالأسبابِ التي يكتسِبونَ بها، ولكنْ يَرَونَ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ؛ أنهُ يرزقُ بأسبابٍ وبِغَيرِ أسبابٍ، أو يذكُرَ هذا لهمْ على أنَّ مَنْ رَفَعَ الحاجةَ إلى آخَرَ، فلم يَقْضِها، فهو[6] يَرَى حِرْمانَها مِنَ اللهِ لا مِنْ ذلكَ الرجلِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَقَّهُۥ﴾ أي حاجَتَهُ[7] لا على حقٍّ كانَ له كقولِهِ: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩] أي مِنْ حاجةٍ؛ إذْ مَعلومٌ أنهُ لم يكُنْ لهمْ في بَناتِهِ حقٌّ، ولكنْ أرادوا بالحقِّ الحاجةَ. فَعلى ذلكَ الأوَّلُ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي سُدَّ المسكينِ حاجَتَهُ ومَسْكَنَتَهُ، وكذلكَ: ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَـَٔاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ الحقَّ الذي كانَ لهُ[8]. لكنْ لم يُبَيِّنْ ذلكَ الحقَّ في هذهِ الآيةِ، وبَيَّنَهُ[9] في آيةٍ أخرى بقولِهِ[10]: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] وما ذَكَرَ مِنَ المواريثِ بقولِهِ[11]: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ الآية: [النساء: ١١] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الحقوقِ، وحقُّ المسكينِ وابْنِ السبيلِ ما ذَكَرَ مِنَ الصَّدقاتِ والزكاةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي الإيتاءُ للأقْرَبينَ والمساكينِ والفقراءِ

---

(١) في الأصل: لا يوجب التوسع، في م: لا يوجب التوسع. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: حتى. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) من م، في الأصل صاحبته. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) في الأصل وم: وبين.
(١٠) في الأصل وم: كقوله. (١١) في الأصل وم: قوله.

جنة السنة

خيرٌ مِنَ الأبْعَدينَ والأغنياءِ وغيرِهِمْ. أو أنْ يكونَ قولُهُ [﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي][1] ذلكَ الإيتاءُ إذا أُريدَ وجهُ اللهِ [خيرٌ مِمّا لا][2] يُرادُ بهِ [وجهُ اللهِ][3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو المُنْقَطِعُ عنْ مالِهِ، يُعانُ حتى يَصِلَ إلى مالِهِ؛ وقيلَ: الضعيفُ يَنْزِلُ، فَيُحْسَنُ إليهِ إلى أنْ يَرْجِعَ، ويَرْتحِلَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي آتِ مَنْ ليسَتْ لهُ عندَكَ نعمةٌ فيكونَ ذلك مكافأةً لتلكَ النعمةِ، ولكنْ على إرادةِ وجهِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الفَلاحَ، هو البقاءُ، وقيلَ: النجاةُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] المُستقيمُ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] أي تائبينَ ﴿يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] يَيأسونَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: هذا في العَطايا التي يعطي بعضُهُمْ بعضاً، ويَهْدونَ لِيُصيبوا أكثَرَ ممّا أعْطَوا، وأَهْدَوا مُجازاةً ومكافأةً.

لذلكَ كأنهُ يقولُ: وما آتيتُمْ مِنْ عَطيّةٍ وهديّةٍ ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ لِتَزدادوا مِنْ أموالِ الناسِ، ولِتَلْتَمِسوا الفضلَ مِنْ أموالِهِمْ، يقولونَ: هذا رِباً حَلالٌ، لا وِزرَ فيهِ، ولا أجْرَ، فهو مُباحٌ للناسِ عامّةً، لا بأسَ بهِ.

وأمّا قولُهُ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] فهو للنبيِّ خاصّةً؛ يقولُ: لا تُعْطِهِ لِتُعطى أكثرَ منهُ ابْتِغاءَ الثوابِ في الدنيا، ولكنْ أعْطِ ابْتِغاءَ ثوابِ الآخِرَةِ. ويَسْتَدِلّونَ بإباحةِ ذلك بقولِهِ: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ولم يَقُلْ ما قالَ في الربا المُحَرَّمِ المَحْظورِ حينَ[5] قالَ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ذَكَرَ المَحْقَ هنالكَ، وههنا ذَكَرَ ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يزدادُ، ولا يَتضاعفُ.

لكنْ لو قيلَ: إنها في الربا المحظورِ كانَ جائزاً مُحْتَملاً، ويكونُ قولُهُ: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ كقولِهِ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] إذا لم تَرْبَحْ خَسِرَتْ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؟ [الأنفال: ٣٧] دلَّ أنها إذا لم تَرْبَحْ خَسِرَتْ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إذا لم يَرْبُ عندَهُ بِحَقِّهِ، وخَسِروا، واللهُ أعلَمُ.

لولا صَرْفُ أهلِ التأويلِ التأويلَ إلى الهدايا والعطايا التي يُبْتَغى بها الثوابُ في الدنيا، والمكافآتُ فيها أكْثَرَ ممّا أعطوا. وإلّا جازَ صَرْفُهُ إلى الربا المَعْروفِ بينَ الناسِ في العقودِ.

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «الهديةُ يُبْتَغى بها وجهُ الرسولِ وقضاءُ الحاجةِ، والصدقةُ يُبْتَغى بها وَجهُ اللهِ والدارُ الآخِرَةُ».

ثم بَيَّنَ ما الذي يَرْبو عندَ اللهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ثم اخْتُلِفَ فيهِ. [مِنهُمْ مَنْ][6] قالَ: هو ما يُزَكّونَ مِن زكاةِ المالِ، يريدونَ بهِ وَجهَ اللهِ، فهو الذي يَقْبَلُهُ اللهُ، ويُضاعِفُ عليهِ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: كلُّ صَدَقَةٍ أعطاها أرادَ وَجْهَ اللهِ، لم يُرِدْ بها الثوابَ في الدنيا، فهي التي تتضاعَفُ، وتزدادُ عندَ اللهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وكانَ مَجيءُ أنْ يُقالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ المُضْعَفونَ بِنَصْبِ العَينِ[8] لأنهُ هو يُضاعِفُ لهمْ. لكنَّ الزَّجّاجَ يقولُ: هو كما يُقالُ: الموسِرُ، هو الذي لهُ إيسارٌ، والمُقَوّى الذي لهُ القوةُ، ونَحْوُهُ. فَعَلى ذلكَ: المُضْعِفُ، هو الذي لهُ الضِّعْفُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: مما، في م: مما لا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) هذه قراءة أبيّ بن كعب، انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/٧٣.

جنة السنة

وعندنا، همُ المُضعِفونَ لأنهمْ همُ الذينَ جَعَلوا الآحادَ عَشَراتٍ والأضعافَ المُضاعَفةَ بِتَصَدُّقِهِمُ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ، فهمُ المُضعِفونَ لِأنفسِهِمْ ذلكَ.

ثم يجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بهذهِ الآيةِ على إباحةِ هذهِ المعاملاتِ التي تجري في ما بَينَ الناسِ لأنهُ أجازَ الهديَّةَ والعَطِيَّةَ على قَصْدِ الفَضْلِ والزيادةِ، وإنْ كانَ على شَرْطِ الزيادةِ لا يجوزُ. فَعَلَى ذلكَ المُعامَلَةُ تَجوزُ على قَصْدِ الزيادةِ والفَضْلِ، وإنْ كانَ على [شَرْطِ الزيادةِ [فلا يَجوزُ][1].

لكنَّ أبا حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، كَرِهَ هذهِ المُعامَلاتِ، ولم يَكْرَهِ الهديَّةَ على قَصْدِ طَلَبِ الفَضْلِ لوجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ ليسَ العُرْفُ في الناسِ في الهدايا إعطاءَ الفَضْلِ، وإنْ كانَ][2] قَصْدُ أولئكَ طَلَبَ الفَضْلِ، لا مَحالةَ، بل يُكافِئونَ مَرَّةَ الأكثَرِ / ٤١٤ - أ/ ولا يُكافِئونَ بعضاً، ويَحْرِمونَ بعضاً، فلا يُكْرَهُ. وأمّا المُعاملةُ فلا تكونُ إلّا على قَصْدِ ذلكَ الفَضْلِ، فلا يَرْضَونَ منهمْ إلّا حِفْظَ المَقْصودِ فيها. وأهلُ العَطايا والهدايا فَيَرْضَونَ بالثناءِ الحَسَنِ والشُّكْرِ لهمْ، وأهلُ المُعاملةِ لا.

رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، [أنهُ قالَ][3]: «مَنْ أُسْدِيَ إليهِ نِعْمَةٌ فَلْيُجازِهِ، وإلّا فَلْيَشْكُرْهُ، ولْيُثْنِ عليهِ» [تاريخ أصبهان: ٢/ ١٧١]. أو كلامٌ نحوُ هذا.

والثاني: أنَّ أهلَ المُعاملةِ يَشْتَرِطون قبلَ المُعاملةِ الزيادةَ، وإنْ كانوا لا يَشْتَرِطونَ في عَقْدِ المُعاملةِ.

ولا كذلكَ أهلُ العطايا والهدايا، بل يُعَرِّضونَ[4] تعريضاً. لذلكَ افْتَرَقا[5]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً، وأنتمْ تَعلَمونَ ذلكَ ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ وأنتمْ تَعلَمونَ أنْ لا رازِقَ لكمْ غَيرُهُ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ وأنتمْ تَعلَمونَ ألّا يملِكَ أحدٌ غيرُهُ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ يَمْلِكُ إحياءَكُمْ، ولا يَمْلِكُ أحدٌ مِمّنْ تَعْبدونَ دونَهُ مِنَ الأصنامِ ذلكَ، فكيفَ تَعبُدونَ دونَهُ؟ وهو قولُهُ: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: هؤلاءِ الذينَ تَعْبُدونَ شُرَكاؤُكُمْ في ما ذَكَرَ مِنَ الخِلْقَةِ والرِّزْقِ، فكيفَ تَعْبُدونَ، وتَتَّخِذونَ آلهةً دونَهُ؟

والثاني: هل مِنْ شركائِكُمُ الذينَ اشركتُموهُمْ[6] في عبادةِ اللهِ والوهِيَّتِهِ [مَنْ][7] يملكُ ما ذَكَرَ؟ يقولُ: لا يَمْلِكُ شيئاً ممّا ذَكَرَ على عِلْمٍ منكُمْ أنهُ[8] لا يَمْلِكُ ذلكَ، فيقولُ: فكيفَ تُشْرِكونَهُ[9] في الوهِيَّتِهِ؟.

ثم نَزَّهَ نفسَهُ، وبَرَّأها[10] مِنْ جميعِ العيوبِ التي وصَفَهُ [بها][11] الملحدونَ: فقالَ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لأنَّ حَرْفَ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ حَرْفُ تنزيهٍ عنْ جميعِ العيوبِ. والتَّعالي هو وصفُ تَبَرُّئِهِ مِنْ أنْ يَغْلِبَهُ شيءٌ، أو يَقْهَرَهُ؛ هو مِنَ العُلُوِّ، مُتعالٍ عنْ أنْ يغلِبَهُ شيءٌ أو يَقْهَرَهُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هو الشِّرْكُ والكُفْرُ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ مِنَ الأمورِ التي كانوا يَتَعاطَونَ مِنْ قطعِ الطريقِ والسَّرَفِ والظلمِ وأنواعِ أعمالِ السُّوءِ التي يَتَعاطَونَها. ذلكَ سَبَبُ شِرْكِهِمْ وكُفْرِهِمْ باللهِ. وبذلكَ كانَ يُغَطّي قلوبَهُمْ حتى لا تَتَجَلّى قُلوبُهُمْ للإيمانِ كقولِهِ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وكقولِهِ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ٧٧] ونَحْوَهُ. فإنْ كانَ هذا فهو على حقيقةِ تقديمِ الأيدي والكَسْبِ.

والثاني: يكونُ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ هو القَحْطُ وقِلَّةُ الأمطارِ والأنزالِ والضيقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يتعرضون. (٥) في الأصل وم: افترق. (٦) في الأصل وم: اشركتموها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنها. (٩) في الأصل وم: تشركونها. (١٠) في الأصل وم: وبراء. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ هو شِرْكُهُمْ وكُفْرُهُمْ وتعاطيهِمْ ما لا يَحِلُّ، أي ذلكَ القَحْطُ والضيقُ وقلةُ الأنزالِ والشدائدُ لهمْ لِشِرْكِهِمْ وكُفْرِهِمْ وأعمالِهِمُ التي اختاروها.

ويكونُ ذِكْرُ كَسْبِ الأيدي على المجازِ لا على الحقيقةِ، ولكنْ لِما باليدِ يُكْتَسَبُ، وبالقَدَمِ يُقْدَمُ؛ ذِكْرُ اليدِ كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ولعلَّهُ لم يُقَدِّمْ شيئاً، لكنهُ ذكَرَ أنهُ ظَهَرَ هذا[1] الشِّرْكُ والكفرُ بحقيقةِ كسْبِ الأيدي مِنْ أعمالِ السوءِ التي ذَكَرْنا. ذلكَ كانَ يمنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ وكشفِ الغِطاءِ عنْ قلوبِهِمْ.

وفي التأويلِ الآخَرِ: الفسادُ الذي ظَهَرَ مِنَ القَحْطِ وقِلَّةِ الأمطارِ والأنزالِ والضيقِ بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ، هو الشِّرْكُ والكُفْرُ وتعاطي ما لا يَحِلُّ لا على حقيقةِ كسْبِ الأيدي ولكن لِما ذكَرْنا.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: قالَ بعضُهُمْ: البَرُّ، وهو المَفازَةُ التي لا ماءَ فيها، والقُرى والأمصارُ. وقالَ بعضُهُمْ: أمّا البَرُّ فأهلُ العَمودِ، وأمّا البحرُ فهمْ أهلُ القُرى والريفِ. وقالَ بعضُهُمْ: [فسادُ][2] البَرِّ: قَتْلُ ابنِ آدمَ أخاهُ، [وفسادُ البحرِ][3] أخذُ المَلِكِ كلَّ سفينةٍ غَصْباً.

وجائزٌ: أنْ يكونَ لا على حقيقةِ إرادةِ البرِّ والبحرِ، ولكنْ على إرادةِ الأحوالِ نفسِها على ما ذَكَرْنا مِنَ القَحطِ والضيقِ وقِلّةِ الأنزالِ بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ مِنَ الشِّرْكِ والكُفرِ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ وهو الشِّرْكُ، وهذا أشْبَهُ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][4] قالَ: أفسَدَهُمُ اللهُ في بَرِّ الأرضِ وبَحْرِها بأعمالِهِمُ الخبيثةِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قالَ: يرجِعُ مَنْ كانَ بَعْدَهُمْ، ويَتَّعِظونَ بهمْ. وقتادةُ يقولُ: لعلَّ راجعاً يَرجِعُ، لعلَّ تائباً يَتوبُ، لعلَّ مُسْتَغيثاً يَسْتَغيثُ.

وأصْلُهُ لكي يُلْزِمَهُمُ الرجوعَ والتوبةَ عمّا عَمِلوا، ويَنْهاهُمْ[5] عَنْ ذلكَ كلِّهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ظَهَرَ الفسادُ في البرِ والبَحْرِ أي أجْدَبَ البَرُّ، وانقطعتْ مادّةُ البحرِ بذنوبِ الناسِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الرِّبا مِثْلُ ما يصنَعُ أصحابُ الرِّبا ﴿لِّيَرْبُوَا۟﴾ ليزيدَ، ويَكْثُرَ؛ يُقالُ: ربا مالُهُ أي كَثُرَ. والقُتَبِيُّ يقولُ: أي يزيدُكُمْ مِنْ أموالِ الناسِ مِنْ زكاةٍ وصدقةٍ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ: أنهُ ليسَ على حقيقةِ الأمرِ بالسَّيرِ في الأرضِ، ولكنْ كأنهُ يقولُ: لو سِرْتُم في الأرضِ، ونَظَرْتُمْ، لَرَأيتُمْ عاقبةَ مَنْ كانَ قَبلَكُمْ مِنَ المُشركينَ، وهكذا مِنَ الرسلِ وما حَلَّ بهمْ، فَيُنَبِّهُكُمْ، ويَمْنَعُكُمْ عَنْ تكذيبِ الرسلِ والشِّرْكِ باللهِ.

أو يكونُ هو على الأمرِ بالتَّفَكُّرِ[6] والنظرِ والاعْتِبارِ؛ كأنهُ يقولُ: تَفَكَّروا، واعْتَبِروا في ما سِرْتُمْ في الأرضِ، وانظُروا إلى ماذا صارَتْ عاقبةُ مُكَذِّبي الرسلِ مِنْ قَبْلُ، فَيَنْزِلَ بكُمْ بالتكذيبِ ما نَزَلَ بأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في قولِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس: ١٠٥ والروم ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: لا يَقْدِرُ أحدٌ على ردِّ ذلكَ اليومِ مِنَ اللهِ، ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يُرَدُّونَ مِنْ ذلكَ اليومِ إلى ابْتِداءِ المحنةِ كقولِهِمْ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ الآيةَ: [الأنعام: ٢٧]. وقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقد أخْبَرَ عنهم، فقالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟﴾ [الأنعام: ٢٨] فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يُرَدُّونَ إلى ما يَسْألونَ الرَّدَّ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: والبحر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وينبههم.
(٦) في الأصل وم: بالفكر.

جنة السنة

والثاني: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا إقامة لهمْ مِنَ اللهِ، ولا عفوَ، ولا توبةَ، إذا أتاهُمْ ذلكَ اليومُ كقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرّقونَ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] هو ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧ والتغابن: ٩] و﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١ و...] على اختلافِ الأحوالِ والأوقاتِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي مَنْ كفرَ فعليهِ جزاءُ كُفرِهِ، وعليهِ ضَررُ كُفرِهِ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلَهُ ثوابُ إيمانِهِ، ولهُ مَنفعةُ عملِهِ، ﷻ إنما امْتَحنَهُمْ بأنواعِ ما امْتَحنَ لِمَنافعِ أنفسِهِمْ لِحاجتِهِمْ لا لحاجةٍ أو لِمَنفعةٍ لهُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، والجاثية: ١٥] وقولُهُ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧] وهو ما ذكَرْنا أنهُ أمَرَهُمْ، ونَهاهُمْ، وامْتَحنَهُمْ، لِمَنافعِ أنفسِهِمْ ولِحاجتِهِمْ لا لحاجةٍ أو لِمَنفعةٍ لنفسِهِ. لِذلك كانَ ما ذكَرَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَمْهَدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَفترِشونَ، وقالَ أبو عوسَجةَ والقُتَبيُّ ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يَعمَلونَ، ويُوَطِّئونَ، وهو مِنَ المهادِ [والمِهادُ][1] في الأصلِ: الفِراشُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ هذا يدلُّ أنَّ الثوابَ والجَزاءَ، سَبيلُ وجوبِهِ الفضلُ [لأنَّ][2] في الحكمةِ [وجوبُهُ][3] لِما سَبَقَ مِنَ اللهِ إليهِم نِعَمٌ ما لَمْ يتهيَّأْ لهمُ القِيامُ بِشُكرِ / ٤١٤ ـ ب/ واحدةٍ منها فَضلاً أنْ يقوموا لِلكُلِّ. فإذا كان كذلكَ صارَ الثوابُ والجزاءُ، وجوبُهُ الفَضلُ لا الاسْتِحقاقُ والاسْتيجابُ.

وأمّا العُقوباتُ، فَوُجوبُها الاسْتِحقاقُ، إذْ في الحكمةِ وُجوبُها. لِذلكَ افْترَقا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَجزِيَهُمْ في الآخرةِ بالخَيراتِ التي عَمِلوها في الدنيا، وذلكَ مِنْ فَضلِهِ، بِهِ نالوا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ إنَّ في الرياحِ آياتٍ في نَفْسِها، وفيها بِشاراتٌ، أمّا الآياتُ فهي آياتُ سُلْطانِهِ وتدبيرِهِ مِنْ وجوهٍ: إنهُ أنشأَ هذهِ الرياحَ في الهواءِ في الأرضِ وفي الجبالِ وفي السماءِ، تُصيبُ الخَلائقَ، وتُميتُهُمْ، وتُودي بِهِمْ، وتُفزِعُهُمْ، وتُقرِّبُهُمْ، مِنْ غيرِ أنْ يَرَوها، أو يَقَعَ عليها البَصَرُ، ومِنْ غيرِ أنْ يُدرِكوها، أو يُدرِكوا كيفيَّتَها أو ماهيَّتَها، لِيُعلَمَ أنَّ مِنَ الأجسامِ ما هي [غيرُ][4] مُدرَكةٍ، ولا آخِذُ البصرُ عليها، وتُرى: منها طَيِّبَةٌ وخبيثةٌ وشديدةٌ كاسِرةٌ عاصِفةٌ، ويُعذَّبُ بها قومٌ [ويُنصرُ بها قومٌ][5] على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهلِكَ عادٌ بالدَّبورِ» [البخاري: ٣٢٠٥] ومِنْ بِشاراتِها ما تُلقِحُ الأشجارَ والنخيلَ، وتَشُقُّ الأرضَ، ويَنبُتُ النباتُ منها، وتَجمَعُ السحابَ، وتأتي بالمطرِ وتَجري بها[6] السُّفُنُ والفُلْكُ في البحارِ في الماءِ الراكِدِ [وفي مِثلِهِ لا تجري السُّفُنُ][7] والفُلْكُ لولا الريحُ. فذلكَ كلُّهُ مِنَ البِشارةِ وأنواعِ المَنافعِ [التي][8] جُعِلَتْ فيها؛ يُعلَمُ كلُّهُ بالأعلامِ والآثارِ أنها نافعةٌ أو ضارّةٌ مُهلِكةٌ.

ثم سَمّاها مُبَشِّراتٍ لِيُعلَمَ أنَّ البشارةَ قد تكونُ بِغَيرِ النطقِ والكلامِ مِنْ نحوِ الكتابِ والإشارةِ أوِ الرسالةِ، إذْ ليسَ للريحِ نُطقٌ ولا كلامٌ، ثم سَمّاها مُبَشِّرةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ هذا يدلُّ أنَّ هذهِ البِشارةَ والمَنافعَ التي جَعَلَها لهُمْ كانَتْ مِنْ رحمتِهِ فَضلاً لا اسْتيجاباً ولا اسْتِحقاقاً، وسَمّى ذلكَ كلَّهُ رحمةً، لأنهُ برحمتِهِ يكونُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قولُهُ: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ بتدبيرِهِ، أي بتدبيرِهِ تجري السفنُ في البِحارِ على ما

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بهم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ذكَرَ، أو أنْ يريدَ بأمرِهِ: تكوينَهُ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وكقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ ما يَصِلُ إليهِمْ مِنَ المَنافِعِ إنما يَصِلُ مِنْ فَضْلِهِ ورحمَتِهِ، لا يَصِلُ إليهِمْ بتلكَ الأسبابِ والمكاسِبِ لئلا يَرَوا ذلكَ مِنْ تلكَ الأسبابِ، ولكنْ يَرَونَ[1] ذلكَ مِنْ فَضلِ اللهِ ورحمتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي يَلزَمَهُمُ الشكرُ للهِ في ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ في هذهِ الآيةِ تَصْبيرُ رسولِ اللهِ ﷺ على أذى الكفَرَةِ حينَ[2] قالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وفيهِ أيضاً بِشارةٌ لِلمؤمنينَ ونِذارةٌ لأولئكَ الكفَرَةِ.

أمّا النِّذارةُ لهمْ [فهي][3] بقولِهِ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أخبَرَ أنَّ أولئكَ لمّا كَذَّبوا الرسلَ، وعامَلوهُمْ بما تُعامِلونَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ رسولَ اللهِ انتَقَمْنا[4] منهمْ جزاءَ معامَلَتِهِمْ. فَعَلى ذلكَ يَنْتَقِمُ منكمْ كما انْتَقَمَ مِنْ أولئكَ.

وأمّا البِشارةُ [فهي][5] للمؤمنينَ بقولِهِ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أخبَرَ أنَّ عاقبةَ الأمورِ تكونُ للمؤمنينَ.

وفيهِ أنَّ الرسلَ الذين كانوا مِنْ قَبْلُ؛ كانوا مِنَ البَشَرِ. فكيفَ تُنْكِرونَ رسالةَ محمدٍ، إذْ كانَ مِنَ البَشرِ؟

وفيهِ أنهُ قد أتى قومَهُ بالبيِّناتِ كما أتى أولئكَ الرُّسلُ قومَهُمْ بالبيِّناتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي كانَ حقّاً علينا جَعْلُ العاقبةِ للمؤمنينَ لا أنْ يكونَ عليهِ حقّاً نَصْرُ المؤمنينَ في الدنيا، ولكنْ جَعْلُ العاقبةِ للمؤمنينَ حقّاً كقولِهِ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والثاني: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالحُجَجِ التي أعطاهُمْ، أي كانَ حقّاً إعطاءُ الحُجَجِ لهمْ، والنصرُ والمَعونةُ بالحُجَجِ، أي إعطاءُ الحُجَجِ لهم.

وقالَ بعضُهُمْ: نَصْرُهُ إياهُمْ أنهُ أنجاهُمْ معَ الرسولِ، وأهلَكَ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ كأنهُ يُخبِرُ عنْ قُدرَتِهِ وسُلطانِهِ حينَ[6] أنشأَ الرياحَ بحيثُ يَجمَعُ السحابَ، ويُفرِّقُهُ، ويَبسُطُهُ، ويَجعَلُهُ قِطَعاً تُمطِرُ في مكانٍ، ولا تُمطِرُ في مكانٍ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ مَنْ قَدَرَ [على][7] أنْ يُسلِّطَ الرياحَ في جَمْعِ السحابِ وتَفريقِهِ يَملِكُ تَسليطَ الرياحِ على تعذيبِكُمْ.

أو يقولُ: إنَّ المعبودَ المُستَحِقَّ لِلعِبادةِ هو الذي يُرْسِلُ الرياحَ لِما ذَكَرَ والأمطارَ لا الأصنامُ التي تَعبُدونَ، إذْ تَعلَمونَ أنها لا تملكُ شيئاً مِمّا ذَكَرَ.

أو يَذْكُرُ نعمَهُ التي عليهِمْ لِيَستأدِيَ بذلكَ[8] شُكرَها.

أو يُطْمِعُهُمْ إيمانَ بعضٍ منهمْ بَعْدَ ما كانوا آيِسينَ مِنْ إيمانِهِمْ كما أطمَعَهُمُ المَطَرَ والسَّعَةَ بعدَما قَحَطوا، وكانوا آيِسينَ منهُ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؟

---

(١) من م، في الأصل: يريدون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فانتقمنا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بها.

جنة السنة

الآية ٤٩ ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي ترفعُهُ، وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: تجمَعُهُ كما يَسْتثيرُ الرجلُ العِلْمَ، فَيَجْمَعُهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: قِطَعاً، وقالَ بعضُهُمْ: يضمُّ بعضَهُ إلى بعضٍ، ويَحْمِلُ بعضَهُ على بعضٍ.

وقولُهُ: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ﴾ أي المطرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي مِن بَينِ السحابِ. ويُقرأُ: مِن خَلَلِهِ[١] [ومعناهُ][٢]: ثَقْبُهُ، وقولُهُ: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيِسين والإبلاسُ الإياسُ. ولذلكَ سُمّيَ إبليسُ [إبليسَ][٣] لأنهُ أويسَ مِن رحمةِ اللهِ.

الآية ٥٠ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي المَطَرِ؛ أرادَ بالرحمةِ المَطَرَ، سَمّى المَطَرَ رحمةً لأنهُ يكونُ برحمتِهِ، أو أنْ تكونَ الآثارُ، هي[٤] المَطَرُ نفسُهُ، جَعَلَهُ مِنْ آثارِ رحمتِهِ وأعلامِهِ.

ثم الأمْرُ بالنَّظَرِ والاعْتِبارِ بآثارِ رحمتِهِ يَحْتمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أمَرَهُمْ بالنَّظَرِ إلى ذلكَ لِيَعْلَموا أنهُ رحيمٌ كي يَرْغَبوا في ما رَغَّبَهُمْ، ويَرْجوا في ما أطْمَعَهُمْ، ودَعاهُمْ إليهِ، إذ قد ظَهَرَتْ آثارُ رحمتِهِ، فكلُّ رحيمٍ يَرْغَبُ في ما رغَّبَ، وأطْمَعَ.

[والثاني][٥] أنْ يكونَ الأمْرُ بالنَّظَرِ إلى آثارِ رحمتِهِ لأنَّ[٦] ذلكَ راجعٌ إلى مَنافعِ أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ وما بهِ قِوامُهُمْ لِيَستأدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ. وفي ذلكَ تقَعُ الحاجةُ إلى مَن يُعَرِّفُهُمْ تلكَ النِّعَمَ، ويُعَرِّفُهُمْ شُكْرَها، فيكونُ في ذلكَ الترغيبُ في قَبولِ الرسالةِ [وإثباتِ نُبُوّةِ رسولِهِ][٧].

[والثالثُ][٨]: أنْ يكونَ سَمّى المَطَرَ رحمَتَهُ لِما يَرْجِعُ ذلكَ إلى مَنافعِ أبدانِهِمْ وما بهِ قِوامُ أنفسِهِمْ لِيَعْرِفوا الرحمةَ، هي راجعةٌ إلى منافعِ دينِهِمْ وآخرتِهِمْ، وهي[٩] رسولُ اللهِ ، إذْ سَمّاهُ في غَيرِ موضعٍ رحمةً بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

[والرابعُ][١٠]: أنْ يأمُرَ بالنظرِ إلى ذلكَ المطرِ لِيُرِيَ[١١] كيفَ يُحْيي هذهِ الأرضينَ المَواتَ، ويُنْبِتُ فيها مِنْ ألوانِ النباتِ؟ وهذهِ الأشجارَ اليابسةَ كيفَ تَخْضَرُّ بعدَ يُبوسَتِها بهذهِ الأمطارِ؟ لِيَعْرِفوا أنَّ مَنْ مَلَكَ هذا، وقَدَرَ على ذلكَ، وهو خارجٌ عنْ وُسْعِهِمْ وتَقْديرِهِمْ لَقادرٌ على / ٤١٥ ـ أ/ إحياءِ المَوتى وبَعْثِهِمْ بَعْدَ المَماتِ، وإنْ كانَ خارجاً عَنْ تقديرِهِمْ ووَسْعِهِمْ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني بهِ الزرعَ والنباتَ الذي أخرجَ من الأرضِ بالمطرِ. قالَ بعضُهُمْ: رَأَوهُ يابساً، إذا أصابَتْهُ الريحُ الباردةُ ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي لأقاموا على كُفرِهِمْ إذا أصابَهُمْ ما ذُكِرَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] فَعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي يَقْنَطونَ مِنْ رحمتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُريدُ بالمَوتى أنفسَهُمْ ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ الصُّمَّ أنفسَهُمْ أيضاً، ولا تُسْمِعُ الكُفّارَ والضُّلّالَ ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كنايةً عنِ الكفارِ، وكذلكَ الصُّمُّ والعُمْيُ، وقد سَمّى اللهُ الكفارَ مَوتى وصُمّاً وعُمْياً في غيرِ موضعٍ منَ القرآنِ.

ثم في قولِهِ: ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ حكمةٌ، وهي ألّا يَقْدِرَ أنْ يُسْمِعَ ﴿ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ ولكنْ يَقْدِرُ أنْ يُفْهِمَ الأصمَّ الدعاءَ إذا أقْبَلَ، وأمّا إذا أدبرَ فلا يَقْدِرُ أنْ يُسْمِعَهُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٧٥. (٢) من م، في الأصل: في معناه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: إذ. (٧) في الأصل وم: وإثباته. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: وأنه.

جنة السنة

الآية ٥٣ وكذلكَ الحكمةُ في قولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي لا تَقدِرُ أنْ تَهْديَ العُمْيَ عن ضَلالَتِهِمْ [والأعمى هو][١] الذي يَعمى عنْ ضَلالَتِهِ، ويَظُنُّ أنهُ على الهُدى، وغيرُهُ على الضَّلالِ. فأمّا مَنْ كانَ مُقِرّاً بالضَّلالِ [فإنكَ لا تَقدِرُ][٢] أنْ تَهْدِيَهُ. يُخبِرُ عن شدةِ سَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ وعَماهُمْ في ضَلالَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ما تُسمِعُ إلّا مَن يؤمِنُ بآياتِنا. هذا يدلُّ على أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وقولَهُ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ هي المَواعِظُ لا نَفْسُ الهُدى لأنهُ[٣] قالَ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [أنْ يكونَ][٤] كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] أي إنما يَنتَفِعُ بإنذارِكَ مَنِ اتَّبَعَ الهُدى، أو إنَّ الذي يَقبَلُ النَّذارةَ مَنِ اتَّبَعَ الهُدى. فأمّا مَن لم يَتَّبِعِ الهُدى فلا يَنتَفِعُ. فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ما يَنتَفِعُ أو لا يَسمَعُ المَواعِظَ إلّا مَنْ يؤمِنُ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: قولُهُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي مِنَ النُّطفَةِ، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] أي ضعيفٍ ثم قولُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي إنساناً، يَقوى على أمورٍ وعلى أشياءَ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ أي شيخاً فانياً كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠، الحج: ٥].

[والثاني][٥]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي أطفالاً، لا[٦] على الخِلْقَةِ التي أنتمْ عليها اليومَ، ضُعَفاءَ لا تَقوَونَ على أشياءَ وأمورٍ، ولا يَقوى شيءٌ منكُمْ على شيءٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ثم جعلَكُمْ[٧] مِنْ بعدِ ذلكَ الضَّعْفِ أقوياءَ، تَقوَونَ على أشياءَ وأمورٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ ثم يَجعَلُكُمْ[٨] مِن بعدِ تلكَ القُوَّةِ والقدرةِ ضُعَفاءَ شيُوخاً، لا تَقدِرونَ على شيءٍ على ما يكونُ يَحْتَمِلُ هذينِ الوجهَينِ.

ثم فيهِ وجهانِ مِنَ الدلالةِ:

أحدُهُما: على البعثِ.

والثاني: على القُدرةِ على إنشاءِ الخَلْقِ والأشياءِ لا مِنْ أصولٍ.

أمّا الدلالةُ على البَعْثِ فَلأنهم كانوا يُنكِرونَ[٩] البعثَ وإنشاءَ الشيءِ لا مِنْ أصلٍ لِخُروجِ عنْ قِواهُمْ وتَقديرِهِمْ؛ يُخبِرُ أنَّ النُّطفَةَ، تَصيرُ عَلَقَةً، وليسَ فيها مِنَ العَلَقَةِ ولا مِنْ آثارِها شيءٌ. وكذلكَ العَلَقَةُ، تَصيرُ مُضغَةً، وليسَ فيها مِنْ آثارِ المُضغَةِ شيءٌ، وكذلكَ المُضغَةُ، تَصيرُ إنساناً، فيهِ عَظْمٌ وجلْدٌ وشَعْرٌ ولَحْمٌ، وليسَ شيءٌ مِنْ ذلكَ فيها. فمنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ فَيَقْدِرُ على خَلْقِ الشيءِ لا مِنْ أصلٍ، ويَقْدِرُ على البعثِ، إذْ كلُّ ما ذَكَرَ أقَرّوا بهِ، وهو خارجٌ عنْ قِواهُمْ وعنْ تقديرِهِمْ. فَلَزِمَهُمُ الإقرارُ بالبعثِ والإنشاءِ لا عنْ أصلٍ، وألا يُقَدِّروا قُدْرَتَهُمْ بقدرةِ اللهِ وقوتِهِ على ما شاهَدوا أشياءَ خارجةً عنْ قِواهُمْ وعنْ تقديرِهِمْ بِقُوَّةِ اللهِ وقدرتِهِ.

والثاني: أنَّ ما ذَكَرَ مِنْ تحويلِ النُّطفَةِ إلى العَلَقَةِ والعَلَقَةِ إلى المُضغَةِ والمُضغَةِ إلى الصورةِ والإنسانِ، لم يُحَوِّلْهُمْ، ولم يَنْقُلْهُمْ ليكونَ كما ذَكَرَ بلا عاقبةٍ تكونُ لهمْ ولا بَعْثٍ.

فلو لم يَكُنْ بَعْثٌ لكانَ ما ذَكَرَ مِنْ تحويلِ حالٍ إلى حالٍ عَبَثاً باطلاً على ما ذَكَرَ.

وكذلكَ في ما أحْدَثَ مِنَ الأطفالِ مِنَ القُوَّةِ والقُدرةِ بَعْدَ ما كانوا ضُعفاءَ، لا يَقوَونَ، ولا يَقدِرونَ على شيءٍ. إنهُ إنما أحْدَثَ فيهِمْ ليُمْتَحَنوا، ويَجْعَلَ لهمْ [عاقبةً][١٠] يُثابونَ، ويُعاقَبونَ، إذْ لو لم يَكُنْ بَعْثٌ ولا عاقبةٌ لكانَ فِعْلُ ذلكَ عبثاً باطلاً.

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل: فأما من كان، في م: فإنك تقدر. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وجائز. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: جعل. (٨) في الأصل وم: يجعل. (٩) من م، في الأصل: يقدرون. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

[وفيهِ القُدْرةُ][1] على إنشاءِ الشيءِ، وإحداثِهِ لا مِنْ شيءٍ، إذْ كانَ التركيبُ موجوداً على التَّمام، ولا قُوَّةَ بهِ[2]، ثم أحدثَ القُوَّةَ، ولا أصْلَ لها، ولا أثَرَ مِنْ آثارِها. دلَّ أنَّ تقديرَ قِوَى الخَلْقِ بِقِوَى اللهِ مُحالٌ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ بأحوالِهِمْ، والقديرُ عل إنشاءِ الأشياءِ لا مِنْ أشياءَ وعلى البعثِ بَعدَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: يُقْسِمُ المُجْرِمونَ أنهمْ لم يَلْبَثوا في قبورِهِمْ غيرَ ساعةٍ. وكذلكَ يقولونَ في قولِهِ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ الآية [المؤمنون: ١١٢ و١١٣].

لكنَّ الأشْبَهَ[3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ في الدنيا في المِحْنَةِ لا في القُبورِ.

اسْتَقْصَروا مُقامَهُمْ في الدنيا تكذيباً لِما ادُّعِيَ عليهِمْ مِنَ الزَّلَاتِ[4] والمَعاصي وأنواعِ الكُفْرِ. يقولونَ: إنا لَبِثْنا في الدنيا وَقْتاً، لا يكونُ منّا في مِثْلِ ذلكَ الوقْتِ وقَدْرِ تلكَ المدةِ [مِثْلُ هذهِ الزَّلَاتِ][5] والمَعاصي.

ألا تَرَى أنهمْ قد كَذَبوا في إنكارِهِمْ طولُ المُقامِ حتى[6] قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كذلكَ كانوا يُكَذِّبونَ في الدنيا أنْ لا بَعْثَ، ولا حَياةَ بَعْدَ الموتِ، ولا حِسابَ. ولولا هذا التكذيبُ لهمْ على إثْرِ قولِهِمْ: ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ لَكانَ[7] الظاهرُ أنهمْ قدِ اسْتَقْصَروا المُقامَ في الدنيا لِطولِ المُقامِ في الآخرةِ وشدةِ العذابِ في ذلكَ وهَوْلِهِ. لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، ما ذَكَرْنا أنهمْ يُقْسِمونَ أنهمْ ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ في الدنيا إنكاراً وجُحوداً لِما ادُّعِيَ عليهِمْ مِنَ الزَّلَاتِ[8] والمَعاصي.

يقولونَ: إنا لم نَلْبَثْ في الدنيا إلّا ساعةً، كيفَ عَمِلْنا هذهِ الزَّلَاتِ[9] وأنواعَ الشِّرْكِ والكُفرِ؟ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كذلكَ، كانوا يُكَذِّبونَ في الدنيا، ويُقْسِمونَ حتى[10] قالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] فذلكَ القَسَمُ منهمْ أنهمْ ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ كَذِبٌ وإنكارٌ لِلْمُقامِ كما كذَّبوا، وأنكروا الشِّرْكَ حين[11] ﴿قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ: قالَ الذينَ أُوتوا العِلْمَ في كتابِ اللهِ، أي أوتوا العِلْمَ بكتابِ اللهِ والإيمانَ بهِ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾.

وقالَ بعضُهُم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ في عِلْمِ اللهِ في الدنيا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: يقولُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ / ٤١٥ ـ ب/ في ما كَتَبَ اللهُ لكُمْ مِنَ الآجالِ إلى انقِضاءِ آجالِكُمْ وفَنائِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كُنْتُمْ تُنْكِرونَهُ، وتُكَذِّبونَهُ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على حَقيقةِ نَفْيِ العِلْمِ عنهمْ، لكنهمْ لا يُعْذَرون لِجَهْلِهِمْ بذلكَ لِما أُعْطوا أسبابَ العلمِ، لو تَفَكَّروا، أو تأمَّلوا، لَعَلِموا.

والثاني: على نَفْيِ الانْتِفاعِ بِعِلْمِهِمْ على ما نَفَى عنهمْ حواسَّ كانَتْ لهمْ لِما لم يَنْتَفِعوا بها. فَعَلى ذلكَ جائزٌ نَفْيُ العِلْمِ عنهمْ بذلكَ لِما لم يَنْتَفِعوا بما عَلِموا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ ليسَ على أنْ يكونَ لهمْ عُذْرٌ، فلا يَنْفَعُهُمْ، ولكنْ لا عُذْرَ لهمُ البَتَّةَ، أو أنْ تكونَ مَعْذِرَتُهُمْ ما ذَكَروا ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ فذلكَ مَعْذِرَتُهُمْ، فلا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ لأنهُمْ كذبةٌ في ذلكَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بهم. (٣) في الأصل: لا شبهه، في م: لا شبه. (٤) و(٥) في الأصل وم: الزلل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وإلا كان. (٨) و(٩) في الأصل وم: الزلل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل: وم: حيث.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاسْتِعْتابُ، هو الاسْتِرْجاعُ عمّا كانوا فيهِ، فهمْ لا يُطْلَبُ منهمُ الرُّجُوعُ عمّا كانوا عليهِ في ذلكَ الوقتِ. والعِتابُ في الشاهدِ أنْ يُعاتَبَ لِيَتْرُكَ ما هو عليهِ، ويرجعَ عمّا كان منهُ في ما مَضى، وذلكَ لا يَنْفَعُ للكَفَرةِ في ذلكَ اليومِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ [الروم: ٥١] أي رَأوا ذلكَ الزرعَ والنباتَ مُصْفَرّاً، أي يابساً لِما أصابَهُ مِنَ الريحِ والبَردِ ﴿لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ قيلَ: لأقاموا، وقيل: لَمالوا، وكلُّهُ يَرْجِعُ إلى مَعْنًى واحِدٍ، وهو ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ القُنوطِ، أي يَقْنَطونَ، ويَيْأسونَ مِنْ رحمتِهِ، ويَكْفُرونَ بربِّ هذهِ النِّعَمِ. وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ: إنكَ لا تُسْمِعُ المَوتى.

الآية ٥٨ وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ للكُفّارِ خاصّةً؛ يقولُ: قد بَيَّنّا لهمْ ما يَعِظُهُمْ، ويَزْجُرُهُمْ عمّا هُمْ فيهِ، ويَدْعُوهمْ إلى الإيمانِ والتوحيدِ، لكنهمُ اعْتادوا[1] العِنادَ والمُكابَرَةَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي جِئْتَهُمْ بالآيةِ التي سألوكَ أيضاً فلا يُصَدِّقونَكَ، ولا يَقْبَلونَ الهُدى ويقولونَ ما ذَكَرَ: ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ لِلْفَريقَيْنِ جميعاً للمؤمنِ والكافرِ ويكونُ التأويلُ، واللهُ أعلَمُ، ولقد ضَرَبْنا، وبَيَّنّا للناسِ لأفعالِهِمْ وأحوالِهِمْ مِنَ القَبيحِ والحَسَنِ مَثَلاً وشَبَهاً ما يَعْرِفونَ بهِ قُبْحَ كلِّ قَبيحٍ وحُسْنَ كلِّ حَسَنٍ وما بَيَّنَ لهمُ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ والعَدْلَ مِنَ الجَوْرِ لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ لم يَعْتَبِروا، ولم يَتأمَّلوا.

ثم رَجَعَ إلى وَصْفِ أولئكَ الكَفَرةِ، فقالَ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي بِزِيادةٍ في البَيانِ والوُضوحِ ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ أنَّ قولَهُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: لم يَعْلَموا لِما لم يتأمَّلوا، ولم يَنْظُروا، في أسبابِ العلمِ لكي يَعْلَموا، ولا عُذْرَ لهمْ في جَهْلِهِمْ. ذلكَ لِما أُعْطُوا أسبابَ العِلْمِ. لكنهمْ لم يَسْتَعْمِلوها. فمنهمْ جاءَ ذلكَ فلم يُعْذَروا.

والثاني: نَفَى عنهمُ العِلْمَ على وجودِ العِلْمِ لهمْ وكونِهِ لِما لم ينتَفِعوا بما عَلِموا على ما ذَكَرْنا مِنْ نَفْيِ الحواسِّ عنهمْ مَعَ وُجودِها وكَوْنِها لهمْ[2] لِما لم يَنْتَفِعوا بها، ولم يَسْتَعْمِلوها في ما جُعِلَتْ، وأُنْشِئَتْ لها. فعلى ذلكَ العِلْمُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فاصْبِرْ على تكذيبِهِمْ إيّاكَ بالعذابِ الذي وَعَدْتُ لهمْ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في العذابِ بأنهُ نازلٌ بهمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أي اصْبِرْ على أذاهُمُ الذي يؤذونَكَ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في النَّصْرِ لكَ والمَعونةِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: لا يَحْمِلَنَّكَ أذاهُمْ إيّاكَ حتى تَدْعُوَ عليهِمْ بالعذابِ والهلاكِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي لا يَسْتَفِزَّنَّكَ؛ ويقولُ: لا يَسْتَجْهِلَنَّكَ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أي لا يَحْمِلَنَّكَ أولئكَ الكَفَرةُ على الخِفّةِ والعَجَلةِ والجَهْلِ حتى تَدْعُوَ عليهِمْ بإنزالِ العذابِ والهلاكِ لهمْ، وهو، واللهُ أعلَمُ، مِنَ الاسْتِخْفافِ.

---

(١) في الأصل وم: اعتقدوا. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: تلك الحواس.

جنة السنة

جنة السنة

سورة[1] لقمان

كلُّها مكيَّةٌ إلّا آيتَينِ منها فإنهما نَزَلَتا بالمدينةِ:

إحداهُما: [قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الآية][2] [الآية:٣٤].

والأُخرى: قولُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية [الآية: ٢٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في غَيرِ مَوضِعٍ في ما تَقَدَّمَ وما ذُكِرَ فيهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ما بَشَّرَ بهِ الرسلُ المُتَقَدِّمَةُ أقوامَهُمْ مِنْ بِشاراتٍ. يقولُ: تلكَ البِشاراتُ[3] هي آياتُ الكتابِ أي هذا القرآنُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ التي في السماءِ، هذا الكتابُ. ومنهمْ مَنْ قالَ: تلكَ الآياتُ التي أُنزِلَتْ مُتفرِّقةً، فَجُمِعَتْ، فصارَتْ قرآناً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ سَمّى الكتابَ حكيماً كريماً[4] مجيداً[5] ونَحوَهُ. فَتَحتَمِلُ تسميتُهُ حكيماً وجوهاً:

أحَدُها: لإحكامِهِ وإتقانِهِ، أي مُحكَمٌ مُتقَنٌ، لا يُبدَّلُ، ولا يُغيَّرُ، وهو كما وَصَفَ ﷻ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

والثاني: سَمّاهُ حكيماً لأنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بهِ، وعَمِلَ بما فيهِ، يَصيرُ حكيماً مَجيداً كريماً.

والثالثُ: سَمّاهُ حكيماً لأنهُ مُنزَّلٌ مِن عندِ حكيمٍ كقولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ قولُهُ: ﴿هُدًى﴾ أي توفيقاً وعِصْمَةً ومَعونةً للمحسِنينَ، وكذلكَ، هو رحمةٌ في دفعِ العذابِ عنهمْ.

وأمّا ما يقولُهُ أهلُ التأويلِ: ﴿هُدًى﴾ أي بَياناً للمحسِنينَ، فهو بَيانٌ للكلِّ، ليسَ لبعضٍ دونَ بعضٍ، فلا يَحْتَمِلُ الهُدَى البَيانَ في هذا المَوضِعِ. ولكنْ ما ذَكَرْنا مِنَ المَعونةِ والتوفيقِ والعِصمةِ.

والمُحسِنُ ههنا جائزٌ أنْ يكونَ المؤمنَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]. الصَّبّارُ، هو المؤمنُ، سَمّى المؤمنَ صَبّاراً مَرّةً وشكوراً مَرّةً ومُحسِناً مَرّةً لأنهُ يَعتَقِدُ / ٤١٦ ـ أ/ بالإيمانِ كلَّ ما ذُكِرَ مِنَ الصَّبرِ والشُّكرِ والإحسانِ وكلِّ خيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضِعٍ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكران. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قوله، وترك الناسخان فراغاً، وكتبا في حاشيتهما: بياض.
(٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: البشارة. (٤) إشارة إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١].

جنة السنة

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ تأويلُ الهُدَى ما ذَكَرْنا في هذا المَوضعِ مِنَ التوفيقِ والعِصْمَةِ والمَعونةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ قد ذَكَرْناهُ أيضاً.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ على حقيقةِ الاشْتِراءِ نفسِهِ، ولكنْ على الإيثارِ والاخْتيارِ، لأنَّ الاشْتِراءَ مُنادَلَةٌ: أخذٌ وعطاءٌ، ولكنْ آثَروا، واختاروا الضَّلالَ معَ قُبْحِهِ عندَهُمْ على الهُدَى معَ حُسنِهِ.

فَعَلَى ذلكَ آثَروا لَهْوَ الحديثِ، واختاروهُ على الحقِّ وحكمةِ الحديثِ، واختاروا الفانِيَ على الباقي، فسَمّاهُ شراءً لذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على حقيقةِ الاشْتِراءِ، لكنهمُ اختَلَفوا:

فمنهُمْ مَنْ يقولُ: إنهُ اشْتِراءِ المُغَنِّيَةِ والمُغَنِّي؛ كانوا يَشْتَرون [القِيانَ][1] لِيَتَلَهَّوا بهمْ، ويَلْعَبوا.

ومنهمْ مَنْ قالَ: كانَ [النَّضْرُ بنُ الحارثِ][2] يَشْتَري، ويَكْتُبُ مِنْ لَهْوِ الحديثِ باطلَهُ[3] مِنْ حديثِ الأعاجمِ، فَيُحَدِّثُ بها قُرَيشاً، ويقولُ: إنَّ محمداً يُحَدِّثُكُمْ بأحاديثِ عادٍ وثَمودٍ، وأنا أُحَدِّثُكُمْ بأحاديثِ فارسَ والرومِ. فذلكَ اشْتِراؤُهُ لَهْوَ الحديثِ وإضلالُهُ الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ، لِيُعْرِضوا[4] عنِ القرآنِ والإيمانِ بمحمدٍ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ وكانَ إذا سَمِعَ شيئاً مِنَ القرآنِ اتَّخذَها هُزُواً. هكذا عادةُ الكَفَرَةِ وأهلِ النِّفاقِ، كانوا يَسْتَهْزِئونَ بالقرآنِ وبرسولِ اللهِ وأصحابِهِ. ثم أوعَدَهُمُ الوعيدَ الشديدَ حينَ[6] قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

وابْنُ مَسْعودٍ وابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما يقولانِ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: هو شِراءُ المُغَنِّيَةِ والغِناءِ، وقد رُوِيَ مَرْفوعاً، رُوِيَ عنْ أبي القاسمِ عَنْ أبي أُمامَةَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لا تَبيعوا المُغَنِّياتِ، ولا تَشْتَروهنَّ، ولا تُعَلِّموهنَّ، ولا خَيرَ في التجارةِ فيهنَّ، وثَمَنُهُنَّ حرامٌ» [الترمذي ١٢٨٢و٣١٩٥].

في مِثْلِهِ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية [فإنْ][7] ثَبَتَ هذا فهو تفسيرُ لَهْوِ الحديثِ الذي ذُكِرَ في الآيةِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ أي أعرَضَ مُتَعَظِّماً مُتَجَبِّراً ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ على التَّقريبِ[8]، فهو على تَرْكِ الاسْتِماعِ.

وإنْ كانَ على حقيقةِ النَّفْيِ فقد ذُكِرَ في كثيرٍ مِنَ الآيِ ذلكَ كقولِهِ[9]: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨و..] وذلكَ يَحْتَمِلُ الوجْهَينِ[10]، واللهُ أعلَمُ.

ثم أوعَدَهُ العذابَ الشديدَ حينَ[11] قالَ: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بجميعِ ما أُمِروا: بالإيمانِ بهِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بما تَعَبَّدوا منَ العَمَلِ بالطاعاتِ والصالحاتِ ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ كلُّ الجِنانِ التي وَعَدَ للمؤمنينَ نعيمٌ، يَتَنَعَّمونَ فيها.

الآية ٩ [وقولُهُ تعالى][12]: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ أي ما وَعَدَ للمؤمنينَ مِنَ الجَنّاتِ النعيمِ، هو حَقٌّ كائنٌ، لا مَحالةَ، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ السمواتِ بِعَمَدٍ لا تَرَونَها. وقيلَ: لعلَّ

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وباطله. (٤) في الأصل وم: فأعرضوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: التقرير. (٩) في الأصل وم: قوله. (١٠) في الأصل وم: وجهين. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

لها عَمَداً، لكنْ لا تَرَونَها. وقالَ بعضُهُمْ: خَلَقَها بلا عَمَدٍ. لكنَّ الأعجوبَةَ في ما خَلَقَها بِعَمَدٍ لا تَرَونَها، ليسَتْ بدونِ الأعجوبةِ في خَلْقِها بلا عَمَدٍ، لأنَّ رفْعَ مِثْلِها بِعَمَدٍ لا تُرَى أعظمُ في اللطفِ والقدرةِ مِنْ رفْعِها بلا عَمَدٍ؛ إذِ العَمَدُ لو كانَتْ بِمقدارِ الريشةِ أو الشَّعْرَةِ تُرَى. فَرَفْعُها مع ثِقَلِها وعِظَمِها وغِلَظِها على عَمَدٍ لا تُرَى، هو ألطَفُ مِنْ ذلكَ وأعظمُ في الأعجوبةِ ممّا ذَكَرْنا.

فأيُّهما كانَ ففيهِ دلالةٌ ألّا يجوزَ تقديرُ قُوَى الخَلْقِ بِقُوَى اللهِ تعالى وقدرتِهِ[1]، ولا سلطانِ الخَلْقِ بِسُلْطانِهِ. بل هو القادرُ على الأشياءِ كلِّها بما شاءَ، وكيفَ شاءَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد: ٣].

والرَّواسي هنَّ الثَّوابِتُ أي ثَبَّتَ الأرضَ بالجبالِ كقولِهِ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢] أي أثْبَتَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لا تَميدُ بكمْ؛ ذَكَرَ المَيْدَ، وهو المَيلُ والاضطِرابُ، وليسَ مِنْ طَبْعِ الأرضِ المَيلُ والاضطِرابُ، وإنما طَبْعُها التَّسَرُّبُ والتَّسَفُّلُ والانحدارُ. فلا يُدْرَى أنْ كيف حالُها في الابْتِداءِ؟ وما في سِرِّيَّتِها ما يَحْمِلُها على الاضْطِرابِ والمَيلِ حتى أثْبَتَها، وأرساها بالجبالِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بَثَّ: خَلَقَ، وقيلَ: بَثَّ: فَرَّقَ. وفيهِ أنهُ جَعَلَ الأرضَ مكاناً أو مَعْدِناً لكلِّ أنواعِ الدَّوابِّ المُمْتَحَنِ وغَيرِ المُمْتَحَنِ والمُمَيِّزِ وغيرِ المُمَيِّزِ، والسماءَ لم يَجْعَلْها[2] إلّا لِنَوعٍ مِنَ الخَلْقِ أهلِ العبادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي أنْبَتْنا فيها مِنْ كلِّ لونٍ، يَتَلَذَّذُ بهِ الناظرُ إليهِ ﴿كَرِيمٍ﴾ يَنالُ منهُ كلَّ ما أرادَهُ، وتَمَنّاهُ، إذِ الكريمُ، هو ما يُطْمَعُ منهُ نَيلُ كلِّ ما عِندَهُ، وأُريدَ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الكريمُ الحَسَنُ، أي أنْبَتْنا فيها مِنْ كلِّ لونٍ حَسَنٍ ما يَسْتَحْسِنُهُ الناظرُ، ويَتَلَذَّذُ بهِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] ما يُبْهِجُ، ويُسَرُّ بهِ كلُّ ناظرٍ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ يقولُ: ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما بَثَّ مِنَ الدَّوابِّ وما أنْبَتَ ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ؛ يقولُ: إنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وجميعَ [ما][3] فيهما، هو كلُّهُ خَلْقُ اللهِ، وأنهُ، هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ، وأنَّ الأصنامَ التي تَعْبُدونَها مِنْ دونِهِ لم تَخْلُقْ شيئاً مِنْ ذلكَ، ولا تَمْلِكُ خَلْقَ شيءٍ، فكيفَ تعبُدونَها مِنْ دونِهِ؟ وسَمَّيْتُموها آلهةً؟

وصَرَفْتُمُ العبادةَ والألوهيَّةَ عنِ الذي [هو][4] خالِقُكمْ وخالقُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما؟ وإنما اسْتَحَقَّ الألوهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ لِخَلْقِهِ ما ذَكَرَ [لا الأصنامُ][5]. فإذا لم يكُنْ منها خَلْقٌ فكيفَ سَمَّيْتُموها آلهةً، وعَبَدْتُموها دونَ اللهِ؟

هذا، واللهُ أعلَمُ تأويلُ قولِهِ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي لم يَخْلُقْ. يُخْبِرُ عن سَفَهِهِمْ في القولِ والفِعلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[6] وضَعوها في غَيرِ مَوضِعِها الذي أمَرَهُمُ اللهُ أنْ يَضَعوها، وهو وضْعُهُمْ إياها في عبادةِ الأصنامِ.

[والثاني][7]: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حدودَ اللهِ التي[8] حَدَّ لهمْ، لم يَحْفَظوها على [ما حَدَّ][9]، بل جاوَزوها.

---

(١) في الأصل وم: بقدرته. (٢) في الأصل وم: يجعل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فالأصنام. (٦) في الأصل وم: حيث في. (٧) الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: تلك الحدود.

جنة السنة

[والثالث][1]: سَمّاهُمْ ظَلَمَةً لِما ظَلَموا نِعَمَ اللهِ، ولم يَشْكُروها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في حيرةٍ بيّنةٍ وهلاكٍ بيّنٍ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الإصابةُ في القولِ والفِعْلِ في غيرِ نُبُوّةٍ. وقال بعضُهُمْ: أعْطى الفَهْمَ واللُّبَّ، وقيلَ: الفَهْمُ والفِقْهُ في الدينِ، وقيلَ: العِلْمُ. كأنهُ يقولُ: أعطيناهُ العِلْمَ والفَهْمَ بالكتبِ المُتَقَدِّمَةِ.

والفِقْهُ هو مَعْرِفةُ الشيءِ بنظيرِهِ الدالِّ على غيرِهِ، أو مَعْرِفَةُ ما غابَ بما شَهِدَ، أو مَعْرِفَةُ الخَفِيِّ الباطِنِ بالظاهِرِ ونَحْوُهُ.

والفلاسفةُ يقولونَ: الحكمةُ، هي المَعْرِفَةُ معَ العَمَلِ. والحكيمُ، هو الذي لهُ المعرفةُ والعِلْمُ والعَمَلُ جميعاً، فحينئذٍ يُسَمّى حكيماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ والحكمةُ، تَحْتَمِلُ الوجوهَ التي ذَكَرْنا، وقُلْنا له ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ في ما أعطاكَ مِنَ الحكمةِ وغيرِ ذلكَ مِنَ النِّعَمِ[2].

وهذا يدلُّ أنَّ للهِ في ما يَكتَسِبُ المَرْءُ مِنَ الحكمةِ /٤١٦ - ب/ والعِلْمِ صُنْعاً، إذْ لو لم يكُنْ لهُ [صُنْعٌ في ذلكَ لم يكُنْ][3] لِقولِهِ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ معنىً، إذْ هو [فَعَلَ][4] العبدَ وكَسْبَهُ.

ألا تَرى أنهُ أمَرَهُ أنْ يَشْكُرَ لهُ على ذلكَ [ولو لم يكُنْ لهُ صُنْعٌ في ذلكَ لكانَ لا][5] يأمُرُهُ بالشكْرِ لهُ على ما لا صُنْعَ لهُ في ذلكَ، إذْ يُخَرِّجُ ذلكَ مُخرجَ طَلَبِ الحَمْدِ والشُّكْرِ على ما لم يَفْعَلْ. وقد ذَمَّ مَنْ أحبَّ أنْ يُحْمَدَ بِما لم يَفْعَلْ. فلا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُ[6] بالحَمْدِ والشُّكْرِ على ما لم يَفْعَلْ، ولا صُنْعَ لهُ في ذلكَ.

دلَّ أنَّ لهُ فيهِ صُنْعاً، وهو يَنْقُضُ على المُعتزلةِ قولَهُمْ[7]: ليسَ للهِ في فِعْلِ العبدِ صُنْعٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ [اللهَ في][8] ما يأمُرُ عبادَهُ، ويَنْهاهُمْ، وفي ما امْتَحَنَهُمْ إنما يَمْتَحِنُهُمْ، ويأمُرُهُمْ، ويَنْهاهُمْ، لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجاتِهِمْ لا لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ أو لحاجتِهِ حينَ[9] قالَ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ حتى[10] يُتِمَّ النعمةَ، ويُديمَها لهُ. فهو بالشكرِ يَنْفَعُ نفسَهُ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنما ضَرَرُ كُفْرِهِ يَلْحَقُهُ دونَ اللهِ تعالى.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؟ أي غَنِيٌّ عن شُكْرِهِ وحَمْدِهِ ﴿حَمِيدٌ﴾ وإنْ لم يَحْمَدْهُ أحدٌ مِنْ خَلْقِهِ لأنهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ حميدٌ بِصنائِعِهِ وآلائِهِ. وإنْ لم يُحْمَدْ هو، ولم يُشْكَرْ على ذلكَ فلا يَنْفَعُهُ شُكْرُ أحدٍ ولا حَمْدُهُ، ولا يَضُرُّهُ كُفْرانُ أحدٍ، ولا تَرْكُ الشكرِ لهُ. وباللهِ الحَوْلُ والقوةُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾][11] وجوهاً:

أحدُها: ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[12] وَضَعوها في غيرِ مَوْضِعِها، وأوقَعوها في المهالِكِ بَعْدَ ما صَوَّرَها اللهُ أحْسَنَ تصويرٍ، ومَثَّلَها أحْسَنَ تمثيلٍ. وأعظَمُ الظُّلْمِ مَنْ عَمِلَ، وسَعَى في إهلاكِ نفسِهِ.

[والثاني][13]: ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ظَلَموا نِعَمَ اللهِ حينَ[14] صَرَفوا شُكْرَها إلى غيرِ مُنْعِمِها.

[والثالثُ][15]: ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ظَلَموا ظُلْماً عظيماً حينَ[16] لم يَقْبَلوا شهادةَ وَحْدانيّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ في ما جَعَلَها في خِلْقَتِهِمْ وبُنْيَتِهِمْ، إذْ جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ الشهادةَ على وَحْدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ. وذلكَ أعظَمُ الظلْمِ وأفحَشُهُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: النعمة. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: لكان. (٦) في الأصل وم: يأمر هو. (٧) في الأصل وم: في قولهم: بان. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: أو. (١٦) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ولم يَذْكُرْ ههنا بماذا وَصّاهُ؟ فجائزٌ [كَونُ](1) الوصيَّةِ بِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى حيثُ قالَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] وإحساناً(2). والإحسانُ، هو اسمُ ما حَسُنَ مِنْ فِعْلِهِ. وقولُهُ: ﴿حُسْنًا﴾ هو اسمُ ما حَسُنَ مِمّا كانَ يَفْعَلُهُ، وهما واحدٌ في الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي ضَعفاً على ضَعفٍ، أي كلّما مَضَى عليها وقتٌ ازدادَ فيها ضَعفٌ على ضَعفٍ وَوَجَعٌ على وَجعٍ. أمَرَ بالإحسانِ إليهما جميعاً، ثم ذَكَرَ ما حَمَلَتِ الأمُّ مِنَ المَشَقَّةِ والشِّدَّةِ، ولم يَذْكُرْ مِنَ الأبِ شيئاً. وقد كانَ للأبِ وقتَ احتِمالِ الأمِّ المَشَقَّةَ اللَّذَّةُ والسرورُ والفَرَحُ.

فجائزٌ أنْ يُقالَ: إنْ كانَ الأبُ بإزاءِ تلكَ المَشَقَّةِ التي احتَمَلَتِ الأمُّ مَعنًى ما يُؤمَرُ أنْ يَشكُرَ لهُ، ويُحسِنَ إليهِ فهو ما يَتَحَمَّلُ مِنَ الإنفاقِ عليها وعليهِ في حالِ الرَّضاعِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقولُهُ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦] أو ما لم يَجعَلْهُ مَطعوناً في الناسِ بحيثُ لم يُعرَفْ لهُ نَسَبٌ، يُنْسَبُ إليهِ، بل جَعَلَهُ مَعروفَ النَّسَبِ غيرَ مَطعونٍ في الخَلْقِ. ونَحْوُهُ.

ثم ذَكَرَ الفِصالَ، ولم يَذْكرِ الرَّضاعَ والمَشَقَّةَ في الإرضاعِ. والمَشَقَّةُ في الإرضاعِ لا في الفِصالِ. لكنّهُ ذَكَرَ تَمامَ الرَّضاعِ وكَمالَهُ، إذْ بالفِصالِ يَتِمُّ ذلكَ، ويَكْمُلُ. وفي ذِكْرِ التَّمامِ لهُ والكَمالِ ذِكْرُ الرَّضاعِ. وليسَ في ذِكْرِ الرَّضاعِ نفسِهِ ذِكْرُ تَمامِهِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أمَرَ بالشُّكرِ لهُ ولِوالدَيهِ. وحاصلُ الشكرِ إليهِ راجعٌ دونَ من يَشكُرُ لهُ؛ إذْ كلُّ مَنْ صَنَعَ إلى آخَرَ ما يَستَوجِبُ بهِ الشُّكرَ والثَّناءَ فباللهِ صَنَعَ ذلكَ إليهِ، وبِنِعَمِهِ كانَ منهُ ذلكَ. فكُلُّ مَنْ حُمِدَ دونَهُ أو شُكِرَ فراجِعٌ إليهِ في حَقيقةِ(3) ذلكَ.

ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: اشكرْ لي في ما تَشكُرُ والديكَ بإحسانِهما إليكَ، فإنهما ما أحسَنا إليكَ إلّا بِفَضلي ورحمتي كقولِهِ: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] أي اذكُروا اللهَ في ما تَذكُرونَ آباءَكُم بِصُنعِهِم، فإنهم إنما فَعَلوا ذلكَ بِفضلِ اللهِ.

[والثاني](4) أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ في ما أنعَمتُ عليكَ ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ في ما أحسَنا إليكَ، ورَبَّياكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ خَصَّ ذلكَ المصيرَ إليهِ، وإنْ كانوا في جميعِ الأوقاتِ صائرينَ إليهِ راجعينَ بارزينَ لهُ لِما المَقصودُ مِنْ إنشائِهِمْ في هذا ذاكَ، وصارَ إنشاؤُهُم وخَلْقُهُمْ في الدنيا حِكمةً بذاكَ ما لولا ذلكَ لَكانَ عَبَثاً باطلاً على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أمَرَ في الآيةِ الأُولى بالإحسانِ إليهما والبِرِّ لهما والطاعةِ. ثم بَيَّنَ أنْ لا في كلِّ أمرٍ يُطاعانِ، ولا في جميعِ ما يَأمُرانِ، ويَسألانِ، يُجابانِ. إنما يُطاعانِ، ويُجابانِ، في ما يُؤذَنُ لهما، ويُباحُ لهما، لا في ما لا يُؤذَنُ، ولا يُباحُ بِحالٍ. بل يُؤمَرُ بالخِلافِ لهما على إنتِفاءِ(5) المُعاداةِ فَضلاً أنْ يُطاعا، ويُجابا إلى ما يَدْعُوانِ، ويَأمُرانِ. وكذلكَ ذُكِرَ في الخَبَرِ: أنْ «لا طاعةَ لِلمخلوقِ في مَعصِيةِ الخالقِ» [ابن أبي شيبه في المصنف ١٢/٥٤٦] وإنما أمَرَ بِحُسْنِ المُصاحَبةِ لهما والمَعروفِ في ما لم يَكُنْ في ذلكَ مَعصِيةُ الخالقِ حينَ(6) قالَ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ قالَ بعضُهُم: اتَّبِعْ دينَ مَنْ أقبَلَ إليَّ، ورَجَعَ إلى طاعتي، وهو النَّبيُّ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي اتَّبِعْ سَبيلي وديني كقولِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) هذه قراءة أبي وغيره. انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/٣٩. (٣) من م، في الأصل: الحقيقة. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: اعتقاد. (٦) في الأصل وم: حيث.

فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ: جائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: اتَّبِعْ سَبيلي وديني ولا تَتَّبِعْ غَيري. [ويَحتَمِلُ أنِ اتَّبِعْ](١) سَبيلَ مَنْ أنابَ، ورَجَعَ إليَّ، ولا تَتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ لم يُنِبْ، ولم يَرْجِعْ إليَّ.

ثم أخْبَرَ برجوعِ الكلِّ إليهِ: مَنْ رَجَعَ، وأنابَ إليهِ، ومَنْ لم يرجِعْ، ولم يُنِبْ إليهِ، على الوعيدِ حينَ(٢) قالَ: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية. وهو كقولِهِ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] أي مَنِ اسْتَنْكَفَ ومَنْ لم يَسْتَنْكِفْ يُحشَرُ إليهِ جميعاً. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾.

لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ والقَولُ مِن لُقمانَ، كانَ لابنِهِ ابْتِداءً مِن غيرِ سُؤالٍ. لكنْ لا يُعْلَمُ ما كانَ السؤالُ وعمّا كانَ؟

فأمّا إنْ كانَ السؤالُ عنْ علمِهِ، فأخْبَرَهُ(٣) بما ذَكَرَ مِنْ حَبّةٍ مُسْتَتِرَةٍ(٤) مكنونةٍ في أخْفَى الأمكنةِ عنِ الخَلْقِ في ما لا يَطَّلِعُ أحدٌ منهم، ولا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الخلائقِ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي يَعْلَمُها اللهُ.

فإنْ كان على هذا ذَكَرَ فَيَلْزَمُهُمْ أنْ يكونوا أبداً مُراقِبِينَ أعمالَهُمْ وأحوالَهُمْ في جميعِ حالاتِهِمْ وأوقاتِهِمْ وجميعِ أمورِهِمْ لِما لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

[وأمّا إنْ كانَ](٥) السؤالُ عنْ قدرةِ اللهِ وسلطانِهِ فأخْبَرَ أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على اسْتِخراجِ تلكَ الحَبّةِ التي اسْتَتَرَتْ، واحْتَجَبَتْ عنِ الخَلْقِ بالحُجُبِ التي ذَكَرَ ما تَعْجَزُ الخَلائقُ عنِ اسْتِخراجِ مِثْلِها مِنْ مِثْلِ تلكَ الحُجُبِ والأمكنةِ، فَيَخافونَ قُدْرَةَ اللهِ، ويَهابونَ سُلْطانَهُ في الانْتِقامِ منهمْ في مُخالَفَةِ أمرِهِ ونَهْيِهِ.

[وأمّا إنْ كانَ](٦) السؤالُ عنِ الرِّزْقِ، فَيُخْبِرُ بهذا: أنَّ الشيءَ، وإنْ كانَ في مكانٍ لا يَبْلُغُهُ وَسْعُ البَشَرِ وحِيَلُهُمْ في اسْتِخراجِ ذلكَ منهُ والوصولِ إليهِ بحالٍ، فاللهُ سُبْحانَهُ بِلُطْفِهِ يَرْزُقُ الخَلْقَ /٤١٧ ـ أ/ بأشياءَ خارجةٍ عَنْ وَسْعِهِمْ وحِيَلِهِمْ ما لا يَقَعُ لهمُ الطمعُ في ذلكَ ليكونوا أبداً في حالٍ مُطْمَئِنّينَ في الرِّزْقِ، لا يُوَلِّهُمْ(٧) عجزُهُمْ ولا تَعَذُّرُ حِيَلِهِمْ عن ذلكَ، ولا يُعَلِّقونَ(٨) قلوبَهُمْ في الرزقِ بالأسبابِ التي بها يَكْتَسِبونَ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

[وأمّا إنْ كانَ](٩) السؤالُ عنْ جزاءِ ما يَعْمَلُ المَرْءُ مِنْ قليلٍ أو كثيرٍ وممّا عَظُمَ، ولَطُفَ، فَيُخْبِرُ أنهُ يجزي بقليلِ العَمَلِ أو كثيرِهِ. وكذلكَ يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ ذلكَ: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ في جَبَلٍ ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [أي يُجازِ بها](١٠) اللهُ، فيكونُ على هذا التأويلِ كقولِهِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

فأيُّ شيءٍ كانَ ففي ذلكَ دلالةُ وحدانيّةِ اللهِ ودلالةُ عِلْمِهِ وتدبيرِهِ ودلالةُ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ ودلالةُ الثقةِ بهِ والتوكُّلِ عليهِ في الرزقِ والتَّفْويضِ في الأمرِ في كلِّ ما خَرَجَ عنْ وَسْعِ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ في اسْتِخراجِ تلكَ الحبّةِ ﴿خَبِيرٌ﴾ بمكانِها. وتأويلُ هذا الكلامِ أي يَسْتَخْرِجُ تلكَ الحَبّةَ مِنَ الحُجُبِ التي ذَكَرَ والأستارِ التي بَيَّنَ اسْتِخراجاً، لا يَشْعُرُ بها أحدٌ، ولا يَعْلَمُ(١١) كيفيّةَ الاسْتِخراجِ منها ولا ماهيّتَهُ. واللطيفُ هو البارُّ. ثم يُخَرَّجُ هو على وجهَيْنِ:

أحدُهما: البارُّ(١٢) في ما أرسلَ مِنَ الرسلِ(١٣) وما أنزلَ مِنَ الكتبِ لِيَدُلَّهُمْ إلى ما يَهْتَدونَ إلى ما بهِ نجاتُهُمْ، والخبيرُ(١٤) بحوائِجِهِمْ.

والثاني: في اسْتِخراجِ أمورٍ، لا يَبْلُغُها وُسْعُ الخَلْقِ ولا عِلْمُهُمْ وحِيَلُهُمْ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: فأخبروه. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: التي ذكر. (٥) و(٦) في الأصل وم: أو أن يكون. (٧) في الأصل وم: يوليهم. (٨) في الأصل وم: وألا يعقلوا. (٩) في الأصل وم: أو أن يكون. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: أو يجازيها، في م: أي يجازيها. (١١) في الأصل وم: علم. (١٢) في الأصل: بار، ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: الرسول. (١٤) في الأصل وم: خبير.

جنة السنة

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحتَمِلُ الأمر بإقامةِ الصلاةِ وجهَين:

أحدُهما: الصلاةُ التي عَرَفَتْها العربُ، وهي المسألةُ والدعاءُ والثناءُ على اللهِ والتحميدُ لهُ والتمجيدُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٦] وهذهِ الصلاةُ المذكورةُ في هذهِ الآيةِ، هي الدعاءُ والاستِغفارُ والرحمةُ لهُ والمغفرةُ. فَعَلَى ذلكَ يُشبِهُ أنْ يكونَ الأمرُ بإقامةِ الصلاةِ هو الأمرَ بِمسألةِ الرَّبِّ حَوائجَهُ ومَغفِرَتَهُ ورحمَتَهُ ليكونَ أبداً في كلِّ حالٍ مُتضرِّعاً إلى اللهِ مُظهِراً حاجَتَهُ إليهِ ومُثنِياً عليهِ واصفاً عظمَتَهُ وجلالَهُ وكبرياءَهُ.

والثاني: أرادَ بهِ الصلاةَ المَعْروفةَ والمَعْهودةَ على شَرائِطِها التي جُعِلَت، وشُرِعَت. فإنْ كانَ هذا ففيها أيضاً ما في الأوّلِ مِنَ الدعاءِ والثناءِ على اللهِ تعالى والوصفِ لهُ بالعظمةِ والجَلالِ لأنها جُعِلَت مِن أوّلِها إلى آخرِها ذلكَ.

وإنْ كانَ أرادَ بالصلاةِ [الصلاةَ][1] المَعْروفةَ ففيهِ أنَّ الصلاةَ التي شُرِعَت لنا كانَت للأمَمِ المُتقَدِّمَةِ.

وعلى ذلكَ يُخرَجُ قولُ إبراهيمَ [حينَ قالَ][2]: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقولُ عيسى حينَ [3] قالَ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٣١] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المَعْروفُ اسمُ كلِّ بِرٍّ وخَيرٍ وكلِّ مُستَحسَنٍ في العقلِ والطبعِ، والمُنكَرُ اسمُ كلِّ شرٍّ وسُوءٍ وكلِّ[4] مُستَقبَحٍ في العقلِ والطبعِ. ثم يُخرَجُ قولُهُ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ على وجوهٍ:

أحَدُها: المَعْروفُ الذي جاءَتْ بهِ الرسُلُ، وشَرَّعوهُ للخَلْقِ، ودَعَوُا الخَلْقَ [إليهِ][5]. والمُنكَرُ هو الذي يُنكِرُهُ كلُّ عقلٍ صحيحٍ، ولا يَقْبَلُهُ، ويَستَقبِحُهُ كلُّ طبعٍ سليمٍ، يَعْرِفُ بالبَداهَةِ قُبحَهُ وفُحشَهُ[6].

[والثاني][7]: يُعرَفُ أنهُ معروفٌ أو مُنكَرٌ عندَ التأمُّلِ والتفَكُّرِ. فَكُلُّهُ يَرْجِعُ إلى واحدٍ إلى ما ذَكَرْنا بَدْءاً، لكنهُ يَختَلِفُ في ما ذَكَرْنا [بَدْءاً مِنَ السببِ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ مِنَ الأذى بالأمرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ [مِن][9] أهلِ السَّفَهِ منهم والفِسْقِ، فلا بدَّ مِن أنْ يُصيبَ الأذى مَنْ تَوَلّى ذلكَ. وهذا يدلُّ أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المُنكَرِ مِنَ اللَّوازِمِ، لا يَسَعُ تَرْكُهُ، وإنْ أصابَهُ الأذى في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ذلكَ مِن حَزمِ الأمورِ، والحَزمُ مِنَ الإحكامِ للشيءِ وإتقانِهِ، كأنهُ يقولُ: إنَّ ذلكَ مِن مُحكَمِ الأمورِ ومُتقَنِها، لأنَّ الشيءَ إذا حُزِمَ، وشُدِّدَ، يُؤمَنُ مِن سقوطِهِ وذهابِهِ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ.

وقالَ [بعضُهُمْ][10]: العَزمُ هو القطعُ والثباتُ على شيءٍ؛ يقولُ عَزَمْتَ على كذا أو على أمرِ كذا، إذا قَطَعَ تدبيرَهُ ورأيَهُ واضطِرابَهُ، وجعلَهُ بحيثُ لا يَرْجِعُ، ولا يَتَحَوَّلُ عنهُ لِلدُّنيا أو لأمرٍ مِن أمورِها، ولكنْ ثَبَتَ على ما عَزَمَ، وقَطَعَ، [هذا هو][11] العَزمُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قولُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ ولا تُصاعِرْ: بالألِفِ، وبِغَيرِ الألِفِ، كلاهُما لُغَتانِ[12].

ثم أهلُ التأويلِ، أو أكثَرُهمْ يقولونَ: قولُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُعْرِضْ بوجهِكَ عنِ الناسِ تَعَظُّماً وتَجَبُّراً وتَكَبُّراً، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ بَطَراً فَرِحاً بالمعصيةِ في الخُيَلاءِ والعظمةِ مُستَكبِراً جَبّاراً؛ عامتُهُمْ يُفَسِّرونَ بالإعراضِ التَّكَبُّرَ والتَّجَبُّرَ. وكذلكَ يقولُ الحَسَنُ: إنهُ قالَ: هو الإعراضُ عنِ الناسِ مِنَ الكِبْرِ استِحْقاراً لهمْ واسْتِخْفافاً بهمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الاصل وم: وحسنه. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل: بدءا، في م: من السبب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فهو. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٨٨.

والزَّجاجُ يقولُ: الصَّعَرُ، هو داءٌ يأخذُ البعيرَ، فَيَلْوي عُنُقَهُ. فَعَلَى تأويلِهِ يكونُ قولُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ أي لا تَلْوِ عُنُقَكَ ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

وأبو عوسَجَةَ يقولُ قريباً مِنْ ذلكَ، يقولُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ أي لا تَتَجَبَّرْ، وهو أنْ تَلْوِيَ عُنُقَكَ، فلا تَنْظُرَ إليهِمْ كِبْراً، ويقولُ: الصَّعَرُ هو اعْوِجاجٌ في العُنُقِ؛ يُقالُ: رجلٌ أَصْعَرُ، وبَعيرٌ أصعرُ، وبِهِ صَعَرٌ، ويُقالُ في الكلامِ: فلانٌ صَعَّرَ خَدَّهُ، إذا لَوَى رأسَهُ عنِ الناسِ، فلم يَنْظُرْ إليهِمْ كِبْراً منهُ، وقالَ كما قالَ الزَّجاجُ: إنَّ الصَّعَرَ داءٌ يأخُذُ البَعيرَ، فَيَلْوي عُنُقَهُ. وأصلُهُ الإعراضُ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ وأهلُ الأدبِ. ثم يُخَرَّجُ على وجهينِ:

أحدُهما: ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنْ حقيقةِ الإعراضِ تَكَبُّراً وتَعْظيماً لِأنفسِهِمْ اسْتِخفافاً بالناسِ واسْتِحقاراً لهمْ لِما لم يَرَوُا الناسَ أمثالاً وأشباهاً[١] لأنفسِهِمْ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ على حقيقةِ المَشْيِ على التَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ على ما ذَكَرْنا.

والثاني: ليسَ على حقيقةِ الإعراضِ بالوجهِ عنهمْ، ولا على حقيقةِ المَشْيِ بالأقدامِ، ولكنهُ كِنايةٌ عنِ الامْتِناعِ عنِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكرِ والتَّرْكِ لذلكَ لا على التَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ عليهِم والاسْتِخْفافِ بهِمْ، ولكنْ على الحَذَرِ والخَوفِ منهمْ.

فإذا كانَ الامْتِناعُ والإعراضُ عنِ الأمرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ، فلم يُعْذَروا في تَرْكِ ذلك لِما يَحْذَرونَ، ويَخافونَ منهمْ.

الآية ١٩ وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما:

أحَدُهما: على الأمرِ بِقَصْدِ المَشْيِ وخَفْضِ الصوتِ حَقيقةِ المَشْيِ وحقيقةِ الصوتِ.

والثاني: على الكِنايةِ عنْ كيفيَّةِ المُعاملةِ وماهيَّتِها في ما بينَ الناسِ.

فإنْ كانَ على حقيقةِ المَشْيِ والصوتِ فكأنهُ يقولُ: أي اقْصِدْ في المَشْيِ في الناسِ، ولا تَمْشِ مُتَكَبِّراً مُسْتَخِفًّا بهمْ مُسْتَحْقِراً لِتُؤذِيَهُمْ ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي لا تَرْفَعْ صوتَكَ فوقَ أصواتِهِمْ فَتُؤذِيَهُمْ بالصوتِ. ولكنْ لِيْنُهُمْ بالقولِ.

وقال بعضُهُمْ: امْشِ هَيْناً [لَيِناً][٢] ناكِسَ الرأسِ ناظراً حيثُ تمشي غيرَ ناظرٍ إلى ما [لا][٣] يَحِلُّ، ولا يَسَعُ، ولا رافِعِ صوتَكَ على الناسِ، فَتُؤذِيَهُمْ، فيكونُ صوتُكَ عندَهُمْ كصوتِ الحَميرِ.

وإن كانَ على الكِنايةِ عَنِ الأحوالِ في المُعاملةِ في ما بينَ الناسِ في الأمرِ بالمَعروفِ [والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ][٤] أي مُروا بالمَعْروفِ وانْهَوا / ٤١٧ ـ ب/ عنِ المُنْكَرِ، ولا تَطْلُبوا لأنْفُسِكُمْ في ذلكَ العُلُوَّ والرِّفْعَةَ ونَفاذَ القَولِ وقَبولَهُ. ولكنْ كونوا في ذلكَ عادِلينَ قاصِدينَ غَيرَ طالِبينَ العُلُوَّ والرِّفْعَةَ ونفاذَ القولِ وقَبولَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحَدُها[٥]: ما ذَكَرْنا، أي لا تَرْفَعْ صوتَكَ على الناسِ، فَتُؤذِيَهُمْ، كما يؤذي الحمارُ، فيكونُ صوتُكَ عليهِمْ كصوتِ الحمارِ [أو يذكُرُ هذا لأنَّ الحمارَ][٦] إنما يَصيحُ لِحاجةِ نفسِهِ وشَهْوَتِهِ، وسائرُ [أصحابِ][٧] الأشياءِ إذ صاحوا إنما يَصيحونَ لِحاجةِ أهلِها. فيقولُ[٨]: إنكُمْ إذا أَمَرْتُم بالمَعْروفِ، ونَهَيْتُم عنِ المُنْكَرِ، فلا تَفْعَلوا لِمَنْفَعَةِ أنفسِكُمْ أو لِحاجَتِكُمْ، ولكنْ قوموا لِلّهِ في ذلكَ.

[والثاني: ما][٩] ذَكَرْنا إذْ[١٠] خَصَّ صوتَ الحَميرِ، لأنهُ ليسَ مِنْ صوتٍ وفيهِ لَذَّةٌ ومَنْفَعَةٌ[١١] غَيرَ صوتِ الحَميرِ، فإنهُ ليسَ فيهِ لذَّةٌ ولا مَنْفَعَةٌ.

---

(١) في الأصل وم: وأمثالاً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. . (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م، فيذكر. (٩) في الأصل وم: أولما. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: ومعونة.

جنة السنة

[والثالثُ ما:](1) قيلَ: إنَّ أوّلَهُ زَفيرٌ، وآخِرَهُ شَهيقٌ [فَشَبَّهُ بِزَفيرِ](2) أهلِ النارِ وشَهيقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ قالَ [بعضُهُمْ](3) المُختالُ المُتكبِّرُ البَطِرُ. وقالَ بعضُهُمْ: المُختالُ الخَدّاعُ الغَدّارُ، والفَخورُ، يَحتَمِلُ الذي يَفْتَخِرُ بكثرةِ المالِ أو لِما لا يَرَى أحداً شَكلاً لنفسِهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ يَخرُجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: على الخَبَرِ، أي قَدْ رَأَوا، وعَلِموا أنهُ سَخَّرَ لهمْ ما ذَكَرَ.

والثاني: على الأمرِ، أي انظُروا، ورَوا أنهُ ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِيَنْتَفِعوا بجميعِ ما يَحتاجونَ إليهِ، ويَصِلوا إلى مُرادِهِمْ وحاجتِهِمْ وإلى قَضاءِ وَطَرِهِمْ كيفَ شاؤوا بما شاؤوا.

أو أنْ يَذْكُرَ قدرتَهُ وسلطانَهُ، أي إنَّ مَنْ مَلَكَ تَسخيرَ ما ذَكَرَ لنا، ومَكَّنَنا، وأَقدَرَنا على تدبيرِ اسْتِعمالِ ما سَخَّرَ لنا والانْتِفاعِ بهِ لَقادرٌ على البعثِ والإحياءِ بعدَ الموتِ، وأنهُ لا يُعجِزُهُ شيءٌ، أو أنْ يذكُرَ حكمَتَهُ وعِلْمَهُ أنَّ مِثْلَ هذا التسخيرِ لا يكونُ إلّا بحكمَتِهِ. ولو لم يكُنْ هنالكَ بعثٌ وعاقبةٌ لَكانَ خَلْقُ الخَلْقِ وتَسْخيرُ ما ذَكَرَ لَعِباً باطلاً. على ما ذَكَرْنا في غيرِ موضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَحتَمِلُ المَطَرَ والسحابَ والشمسَ والقَمَرَ ونَحوَها(4) ممّا جَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ حتى لا تَقومَ مَنافِعُ الأرضِ إلّا بِمَنافِعِ السماءِ [ويَحتَمِلُ](5) الملائكةَ لأنهمْ قدِ امْتُحِنوا ببعضِ ما يَقَعُ بِمنافِعِ البَشَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ قالَ: «سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ ما هذهِ النِّعَمُ(6) الظاهرةُ والباطِنَةُ؟ قالَ: أمّا ما ظَهَرَ يا ابْنَ عباسٍ فالإسلامُ وما سَوّى مِنْ خَلْقِكَ وما أَسْبَغَ عليكَ(7) مِنَ الرزقِ، وأمّا ما بَطَنَ [فما سَتَرَ مِنْ](8) مَساوِئِ عَمَلِكَ، فلم يَفْضَحْكَ بها» [السيوطي في الدرر المنثور ٦/٥٢٥].

فإنْ ثَبَتَ الخَبَرُ فلا تَقَعُ الحاجةُ إلى غَيرِهِ. فهو تأويلُ الآيةِ، وإلى هذا ذهبَ عامّةُ أهلِ التأويلِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ النعمةُ الظاهرةُ، هي ما ظَهَرَ مِنَ الحُسْنِ والطهارةِ، والنعمةُ(9) الباطِنَةُ ما سُتِرَ مِنَ الأنجاسِ والعيوبِ، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ في الخَبَرِ المَرْفوعِ، واللهُ أعلَمُ.

والأقذارُ ما لو ظَهَرَتْ لم يَدْنُ منهُ أحدٌ لِخُبْثِهِ ونَجاسَتِهِ.

وبعضُهُمْ يقولونَ: الظاهرةُ باللسانِ والباطِنةُ بالقلبِ. وقالَ مجاهدٌ: الظاهرةُ الإسلامُ والرزقُ، والباطنةُ ما سَتَرَ مِنَ الذنوبِ والعيوبِ، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ في الخَبَرِ المَرْفوعِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المُجادَلَةُ في اللهِ تَحتَمِلُ في توحيدِ اللهِ، أو في الرسالةِ أنهُ أرسَلَ أو لم يُرْسِلْ، أو في البعثِ أَيَبْعَثُ أم لا يَبْعَثُ؟ ونَحْوِهِ، أو يُجادِلُ في كتابِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أسبابُ العلمِ ثلاثةٌ: العقلُ [والكتابُ والسنةُ](10): يُتَفَكَّرُ، ويُنْظَرُ بالعقلِ، فَيُعْرَفُ [الكتابُ بِتأكيدِ ما يُعْرَفُ بالعقلِ، ويُعْلَمُ ما لاحَظَ العقلُ فيهِ، والسنةُ تُعَرِّفُ، وتُبَيِّنُ ما احْتُمِلَ في الكتابِ](11).

فلا(12) تَكُنْ مع الذينَ يُجادِلونَ رسولَ اللهِ [في اللهِ في شيءٍ](13) مِنْ ذلكَ وخاصةً أهلِ مكةَ، كانوا لا يؤمنونَ بالرسلِ

---

(١) في الأصل وم: أو ذكر: لما. (٢) في الأصل وم: فشبه زفير. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ونحو. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل وم: النعمة. (٧) في الأصل وم: عليكم. (٨) في الأصل وم: وستر. (٩) في الأصل وم: وأما النعمة. (١٠) في الأصل وم: والسنة والكتاب. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وبيان السنة والكتاب يبين. (١٢) في الأصل وم: فلم. (١٣) في الأصل وم: في الله شي، في م: في الشيء.

جنة السنة

والكتبِ؛ فكأنهُ يقولُ: ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادلُ في اللهِ، وهمْ يَعلمونَ انهُ ليسَ مَعَهُمْ[1] معقولٌ ولا بَيانٌ مِنَ السنةِ والكتابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟ كقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] [وقولِهِ في آياتٍ أخرَ][3]: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ و٢٣ و٢٤].

كأنهُ يقولُ لرسولِ اللهِ: أنْ قلْ لهمْ: تَتَّبِعونَ آباءَكُمْ، وتُقلِّدونَهُمْ، وإنْ ظَهرَ لكُمْ، وتبيَّنَ، أنَّ الشيطانَ يَدعوهُمْ إلى عذابِ السعيرِ؟ وأنهمْ مِنْ أصحابِ السعيرِ؟ وتتَّبِعونَ آثارَهُمْ، وتقتدونَ بهمْ، وإنْ ظَهرَ لكُمْ، وتبيَّنَ أنَّ الذي أدعوكُمْ إليهِ[4]، وجئتُكُمْ [بهِ][5] أهدى ممّا عليهِ آباؤكُمْ، إذْ تتَّبعونَ آباؤكُمْ، وإنْ ظَهرَ لكُمْ، وتبيَّنَ أنَّ آباءَكُمْ كانوا لا يَعقِلونَ شيئاً، ولا يَهتدونَ.

حتى إنْ قالوا: نعمْ نَتَّبِعُهُمْ، وإنْ كانوا كما ذَكَرْتَ، فإنهُ يَظهرُ، ويَتبيَّنُ عِنادُهُمْ ومُكابرَتُهُمْ عندَ اتِّباعِهِمْ [إياهُمْ حينَ][6] ظَهرَ الحقُّ لهمْ، فلم يَتَّبِعوهُ، بلِ اتَّبعوا أهواءَهُمْ.

ويَظْهرُ كِذْبُهُمْ في قولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] أو في قولِهِمْ: [﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠]][7] بل في آبائِهِمْ مَنْ هو على خِلافِ ما هم عليهِ [أو في قولِهِمْ: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤]][8].

وإنْ قالوا: لا نَتَّبِعُهُمْ إذا كانوا على ما ذَكَرْتَ فعِندَ ذلكَ يَفْتَرِنُ، ويَثْبُتُ عِندَهُمْ بالحججِ والبراهينِ.

وفيهِ دلالةٌ: أنَّ أهلَ الفترةِ يُعذَّبونَ، ويُؤاخذونَ بِتَركِهِمُ الدينَ والشرائعَ، لأنَّ هؤلاءِ الذينَ أخبرَ أنهمْ مِنْ أصحابِ السعيرِ، هُمْ أهلُ الفترةِ ما بَينَ عيسى وبَينَ محمدٍ.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي بل كانَ الشيطانُ يَدْعوهُمْ إلى عذابِ السعيرِ.

ومحمدُ بْنُ اسحاقَ يقولُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُعرِضْ بوجهِكَ تكبُّراً عن فُقراءِ الناسِ إذا كلَّموكَ و﴿مَرَحًا﴾ أي فَخراً بالخُيَلاءِ والعَظَمةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] أي بَطِرٍ مَرِحٍ فَخورٍ في نِعَمِ اللهِ، لا يأخُذُ بالشُّكرِ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [أي امشِ][9] رُوَيداً؛ لا تَختَلْ في مَشيِكَ، ولا تَنظُرْ حيثُ لا يَحِلُّ، ﴿وَٱغْضُضْ﴾ أيِ اخفِضْ ﴿مِن صَوْتِكَ﴾ أي مِن كلامِكَ. يأمُرُ لقمانُ ابْنَهُ بالاقتِصادِ في المَشْيِ والمنطِقِ.

ثم ضَرَبَ للصوتِ الرَّفيعِ مَثَلاً، فقالَ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ لِشِدَّةِ صوتِهِمْ.

وقولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني الشمسَ والقَمَرَ والنجومَ والسَّحابَ والرياحَ ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وسَخَّرَ لكمْ ما في الأرضِ أي الجبالَ والأنهارَ والبحارَ [وما فيها مِنَ][10] السُّفُنِ والأشجارِ والنَّبْتَ عاماً بعامٍ [والدوابَّ.

وقولُهُ تعالى:][11] ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ تَسْوِيَةَ الخَلْقِ والرزقَ والإسلامَ ﴿وَبَاطِنَةً﴾: أي ما سَتَرَ مِنَ الذنوبِ مِنِ ابْنِ آدمَ، فلم يَعلَمْ بها أحدٌ، ولم يُعاقِبْ فيها. فهذا كلُّهُ مِنَ النِّعَمِ. فالحمدُ للهِ على ذلكَ حَمْداً كثيراً كما هو أهلُهُ.

وقالَ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في زَعْمِهِ أنَّ للهِ البناتِ أي الملائكةَ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي لا بَيانَ مَعَهُ مِنَ اللهِ بما يقولُ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ لهُ، فيهِ حُجَّةٌ.

---

(١) في الأصل وم: معه. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: وقال في آية أخرى. (٤) في الأصل وم: أنا عليه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: إن أباءهم على ما هم عليه. (٨) في الأصل وم: ونحوه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فيها. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ مِنْ جهةِ العقلِ ﴿وَلَا هُدٗى﴾ أي ولا بيانٍ مِنْ جهةِ السنةِ ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ مِنَ اللهِ، فيهِ حُجَّةٌ لهُ، وأسبابُ العِلْمِ هذهِ، فلمْ يكُنْ لهُ شيءٌ ممّا ذُكِرَ، وباللهِ العصمةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: المَرَحُ النشاطُ، وهذا لا يكونُ إلّا مِنَ الكِبْرِ لأنهُ يَتَبَخْتَرُ ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ أي امْشِ مَشْياً رفيقاً ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ /٤١٨ ـ أ/ أي ارْفُقْ لا تَصُوتُ صَوتاً شَديداً، وهذا أيضاً مِنَ التَّبَخْتُرِ ﴿وَأَسۡبَغَ﴾ أي أوسَعَ، والسابغُ الواسِعُ التامُّ الطويلُ العَرِيضُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الأصْعَرُ مُعْرِضُ الوَجْهِ ﴿أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أقبحُها؛ عِرْفَةُ قُبْحِ رفعِ الصوتِ في المخاطبةِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَجۡهَهُۥٓ﴾ أي نفسَهُ، كأنهُ قالَ: ومَنْ يُسْلِمْ نفسَهُ للهِ، ويَجْعَلْها سالمةً لهُ لم يَجْعَلْ لأحدٍ فيها شِرْكاً ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في عملِهِ إلى نفسِهِ، أي لا يَسْتَعْمِلُها إلّا في طاعةِ اللهِ وفي ما أمَرَ بهِ؛ فإذا فَعَلَ ذلكَ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي فقدِ اسْتَمْسَكَ بأوثَقِ العُرا وأثْبَتِها على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولا انقطاعَ، ولا زوالَ؛ لأنها تَثْبُتُ بالحُجَجِ والبراهينِ لا بالهَوَى. فكلُّ شيءٍ يَثْبُتُ بالحُجَّةِ فهو ثابتٌ أبداً، لا زوالَ لهُ، ولا انقِطاعَ، وكلُّ شيءٍ يَثْبُتُ بالهَوَى فهو يَزولُ، ويَنْقَطِعُ عنْ قريبٍ لِزوالِ الهَوَى.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي يُسْلِمُ وجهَ أمْرِهِ للهِ. فالوَجْهُ عِبارةٌ وكنايةٌ عنْ أمْرِهِ، أي يُسْلِمُ أمْرَهُ إلى اللهِ، ويُفَوِّضُهُ إليهِ، أو أنْ يكونَ كِنايةً عنْ نفسِهِ، فتأويلُهُ ما ذَكَرْنا بَدْءاً،

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: ﴿يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ﴾ أي دِينَهُ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي يُخْلِصُ دينَهُ للهِ كقولِهِ: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: ١٤٨] أي لكلِّ أهلِ دِينٍ ومَذْهَبٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ إلى نفسِهِ في عملِهِ[1]، لا يَسْتَعْمِلُها إلّا في ما أُمِرَ بالاسْتِعْمالِ فيهِ، وهو طاعةُ اللهِ، لا يُوقِعُها في المَهالِكِ.

[والثاني][2]: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ إلى الناسِ بالمَعْروفِ والبِرِّ.

[والثالثُ][3]: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي عالمٌ كما يُقالُ: أحْسَنَ أي عَلِمَ.

وبعضُ أهلِ التأويلِ يقولُ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أخْلَصَ عَمَلَهُ للهِ ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي مؤمنٌ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [طه: ١١٢] وهو قولُ ابنِ عباسٍ.

ومُقاتِلٌ يقولُ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أخلَصَ دينَهُ للهِ ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ اسْتَمْسَكَ بأوثَقِ العُرا وأثْبَتِها لأنهُ إنما يَثْبُتُ بالحُجَّةِ والبرهانِ لا بالهَوَى والتَّمَنّي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: وإلى اللهِ تَدْبيرُ عاقبةِ الأمورِ وتَقْديرُها لا إلى الخَلْقِ.

والثاني: إلى مَنْ لهُ التَّدْبيرُ والتَّقْديرُ تَرْجِعُ عاقبةُ الأمورِ.

[والثالثُ][4]: أنْ يَخُصَّ رُجوعَ عاقبةِ الأمورِ والمَصيرِ والرُّجوعَ إليهِ والبُروزَ لهُ والخروجَ، وإنْ كانوا في جميعِ الأوقاتِ كذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ المَقْصودَ مِنْ خَلْقِ هذا العالمِ [العالمُ][5] الثاني، والمَقْصودَ مِنْ خَلْقِ الدنيا الآخِرةُ؛ إذْ بهِ يَصيرُ حكمةً وحقّاً. فَخَصَّ ذلكَ لهُ، وأضافَهُ إليهِ لِذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: عمل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

[والرابع][1]: يذكُرُ ذلكَ لِما لا يُنازَعُ في ذلكَ اليومِ، وقد نُوزِعَ في هذهِ، ولذلكَ قالَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ حُزناً، تتلَفُ، وتَهلِكُ فيهِ كقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] فيُخرَّجُ قولُهُ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ على [وجوهٍ:

أحدُها][2]: على التّخفيفِ عليهِ والتّيسيرِ، وليسَ على تَرْكِ الإشفاقِ والحزنِ عليهِمْ لأنَّ رسولَ اللهِ كادَتْ نفسُهُ تَهلِكُ إشفاقاً عليهِمْ وحُزناً على كُفرِهِمْ، فيُخرَّجُ ذلكَ على التّخفيفِ عليهِ والتّسلّي.

والثاني: قولُهُ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ لا يَحزُنْكَ تكذيبُهُ إياكَ، فذَكَرَ كُفرَهُ لأنهُ بتكذيبِهِ ما يصيرُ كافراً، وهو سَبَبُ كُفرِهِ كقولِهِ: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الآية [المائدة: ٤١] كانَ رسولُ اللهِ يَحزَنُ، ويَهتَمُّ بتكذيبِهِمْ إياهُ في ما يقولُ، ويُخبِرُ عنِ اللهِ، فيقولُ: لا يَحزُنْكَ تكذيبُهُمْ إياكَ فإنهمْ إلينا يَرجِعونَ، فنَجزيهِمْ، ونُكافِئُهُمْ جزاءَ التكذيبِ.

والثالثُ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ أي فإنَّ ضَرَرَ ذلكَ الكُفرِ عليهِ[3] لا عليكَ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢] ونَحوُهُ مِنَ الآياتِ يأمُرُ[4] رسولَهُ ألا[5] يَحزَنَ على كُفرِ مَنْ كَفَرَ فإنَّ ضَرَرَ ذلكَ يَلحَقُهُ دونَكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ هذا وعيدٌ، أي إلينا مرجِعُهُمْ، فنُنبِّئُهُمْ بما غَفَلوا عنهُ، واختاروهُ في الدنيا، فيَحفَظونَهُ، ويتذَكّرونَ ما عَمِلوا، أي نَجزيهِمْ، ونُكافِئُهُمْ جزاءَ أعمالِهِمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالمٌ بما كانَ منهُمْ، وما جَزاؤُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي في الدنيا لأنَّ مَتاعَ الدنيا قليلٌ، أي [يُمتَّعونَ، ويُنعَّمونَ][6] بذلكَ القليلِ ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يذكُرُ هذا مقابلَ ما ذَكَرَ لأهلِ الجنةِ حينَ[7] قالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] فيُخبِرُ أنَّ أهلَ النارِ يُضطَرّونَ، ويُدفَعونَ إلى النارِ، لا أنهمْ يدخُلونها اختياراً كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿غَلِيظٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ كِنايةً عنِ امْتِدادِهِ وطولِهِ، وجائزٌ أنْ يكونَ كِنايةً عن شِدّتِهِ وألَمِهِ وجراحَتِهِ كقولِهِ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية: [المؤمنون: ١٠٤] وقيلَ: يَغلُظُ عليهِمُ العذابُ لوناً[8] بَعدَ لونٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أخبَرَ رسولَهُ أنكَ لو سألتَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ يقولونَ ذلكَ، ويُجيبونَكَ: اللهُ خَلَقَها.

ثم يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إثْرِ إقرارِهِمْ لهُ بالتّوحيدِ لهُ والتّفرُّدِ بالخَلْقِ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أمَرَ رسولَهُ بالحَمْدِ لهُ لِما لا يَحتاجُ إلى إقامةِ الحجّةِ على وَحدانيّةِ اللهِ ورُبوبيّتِهِ سِوى إقرارِهِمْ؛ إذْ قد أقَرّوا لهُ بالوَحدانيّةِ في ما ذَكَرَ. فعَلى ذلكَ يَلزَمُهُمْ ذلكَ في كلِّ شيءٍ: دَقَّ، أو جَلَّ، فيَقَعُ الأمرُ بالحَمْدِ لهُ على ذلكَ.

[والثاني][9]: يأمُرُ رسولَهُ بالحَمْدِ لهُ لِما أنجاهُ، وخَلّصَهُ، وسَلّمَهُ، مِمّا ابْتُلوا هُمْ، وفُتِنوا مِنَ التكذيبِ وعبادةِ الأصنامِ بعدَ إقرارِهِم بالوَحدانيّةِ لهُ والألوهيّةِ.

فحَمْدُهُ على أفضالِهِ عليهِ ورحمتِهِ وعِصمَتِهِ لهُ بَينَ أولئكَ الكَفَرةِ. على هذينِ الوجهَينِ يُخرَّجُ تأويلُ الحمدِ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويكونُ قولُهُ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَقطوعاً مفصولاً مِنْ قولِهِ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إذْ لو لم يُجعَلْ مفصولاً منهُ لَخَرَجَ الأمرُ بالحمدِ لهُ في الظاهرِ على ما لَمْ يَعلَمْ أولئكَ، وذلكَ لا يَصِحُّ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: يخبر. (٥) في الأصل وم: أي لا. (٦) في الأصل وم: يتمتعون ويعمرون. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: لون. (٩) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

ثم قولُهُ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا أنهُ نَفَى عنهمُ العلمَ[1] لِما لم يَنْتَفِعوا بِما عَلِموا على ما نَفَى عنهمُ حَوَاسَّ، كانَتْ لهمْ، لِما لم يَنْتَفعوا بها مِنْ نَحْوِ البَصَرِ والسَّمْعِ واللسانِ ونَحْوِه. فَعَلَى ذلكَ العلمُ.

والثاني: لا يَعْلَمون لِما تَركوا النَّظَرَ والتَّفَكُّرَ في أسبابِ العِلْمِ.

[والثالثُ][2]: أنْ يكونَ قولُهُ ههنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ عبادَتَهُمُ الأصنامَ لا تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى، ولا[3] تَشْفَعُ لهمْ لأنهمْ إنما كانوا يعبدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تُزْلِفَهُمْ إلى اللهِ ورَجاءَ أنْ يكونوا لهمْ شُفَعاءَ عندَ اللهِ بقولِهِمْ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِهِمْ[4]: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

[والثالثُ][5]: أنْ يكونوا لم يَعْلَموا بِجَزاءِ أعمالِهِمُ التي عَمِلوها في الدنيا، في[6] الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كأنهُ يُخبِرُهُم، ويَذْكُرُ أنَّ ما يأمُرُهُم بهِ، ويَنهاهُمْ عنهُ، وما يَمْتَحِنُهُمْ مِنْ جَميعِ أنواعِ المِحَنِ، لا لِحاجةِ نفسِهِ أو لِدَفْعِ المَضَرَّةِ عنْ نَفْسِهِ، ولكنْ لِحاجةِ أنفُسِ المُمْتَحَنينَ ولِمَنْفَعَتِهِمْ ولدفعِ المَضَرَّةِ عنهمْ؛ إذْ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ وسُلْطانُهُ المَبْلَغَ الذي ذَكَرَ حتى كانَ لهُ جميعُ[7] ما في السمواتِ والأرضِ لا[8] يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَ الخَلْقَ، ويَنْهَى، أو يَمْتَحِنَ، لِحاجةِ نفسِهِ ولكنْ لحاجةِ الخَلْقِ في جَرِّ المَنْفَعَةِ ودفعِ المَضَرَّةِ.

[ويَحْتَمِلُ أنهُ][9] يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ عليهمْ لِيَسْتَأْدِيَ بهِ شُكْرَهُ حينَ[10] سَخَّرَ لهمْ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وحقيقةَ مُلْكِ ذلكَ كلِّهِ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الغَنِيُّ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، أو غَنِيٌّ عَمَّنِ استَغْنَى عنهُ، ﴿الْحَمِيدُ﴾ /٤١٨ ـ ب/ قيلَ: أهْلُ أنْ يُحْمَدَ، ويُشْكَرَ لذاتِهِ، وقيلَ: ﴿الْحَمِيدُ﴾ في فِعالِهِ وصَنائِعِهِ. ويكونُ ﴿الْحَمِيدُ﴾ بِمَعْنَى الحامِدِ، ويكونُ بِمَعْنَى المَحْمودِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذِكْرُ هذا الكلامِ ابْتِداءً مِنْ غَيرِ أمْرٍ أو سؤالٍ أو خِطابٍ سَبَقَ مِنَ القومِ حتى ذَكَرَ هذا.

لكنّا ما نَعْلَمُ سَبَبَ ذلكَ، وما قِصَّتُهُ، وما أمْرُهُ، حتى أنْزَلَ هذا.

لكنَّ ابنَ عباسٍ ﷺ، يقولُ: إنَّ اليهودَ أعداءَ اللهِ، سَألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الرُّوحِ، وما هو؟ فَنَزَلَ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ لا عِلْمَ لي بهِ، وتَلا قولَهُ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] أي [يَسيراً مِنْ][11] عِلْمِ اللهِ. فلما قرأ عليهِمْ هذهِ الآيةَ قالوا: كيفَ تَزْعُمُ هذا، وأنتَ تَزْعُمُ أنَّ مَنْ ﴿يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فكيفَ يَجْتَمِعُ هذا: عِلْمٌ قليلٌ وخيرٌ كثيرٌ؟

قالَ: فَنَزَلَ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يقولُ: تُبْرَى الشجرةُ أقلاماً: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فتكونُ كلُّها مِداداً، يُكْتَبُ بها عِلْمُ اللهِ، لانْكَسَرتِ الأقلامُ، ولَنَفِدَ المِدادُ، ولم يَنْفَدْ عِلْمُ اللهِ؛ فما[12] أعطاكُمْ مِنَ العِلْمِ قليلٌ، وما[13] عندَهُ مِنَ العِلْمِ كثيرٌ.

إلى هذا يَذْهَبُ أكثرُهُمْ، ولكنَّ غيرَ هذا كأنهُ أشْبَهُ بسببِ نزولِهِ وذِكْرِهِ، وهو يُخرَّجُ على وَجْهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [القمان: ٢٦] أنهُ بَلَغَ مُلْكُهُ وسُلْطانُهُ ما لو صارَ ما ذَكَرَ مِنَ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: على حقيقة العلم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: و. (٧) من م،في الأصل: الجميع. (٨) من م، في الأصل: ولا. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل: يسيروا في، في م: يسير في. (١٢) في الأصل وم: في ما. (١٣) في الأصل وم: في ما.

جنة السنة

الأشجارِ كلِّها أقلاماً والبِحارِ كلِّها مداداً، فَكُتِبَ بها أسماءُ خَلْقِهِ ومُلْكِهِ وسُلْطانِهِ لَنَفِدَ ذلكَ كلُّهُ، ولم يَنْفَدْ خَلْقُهُ، ولم يَبْلُغوا غايةَ ذلكَ.

[والثاني][1]: ذَكَرَ هذا [في وصفِ][2] القرآنِ لِقولٍ، كانَ مِنَ الكَفَرَةِ في قِلَّتِهِ في نفسِهِ وصِغَرِ ما كُتِبَ فيهِ، أنْ يقولوا: كيفَ يَسَعُ في هذا المقدارِ عِلْمُ الكُتُبِ السالِفَةِ المُتَقَدِّمَةِ، وهي أوقارٌ، وهي جُزْءٌ؟ فَيُخْبِرُ، واللهُ أعلمُ:

أنهُ جَمَعَ في هذا مِنَ المَعاني والعِلْمِ والحِكمةِ ما لو فَسَّرَهُ، وبَيَّنَ ما أودعَ فيهِ، وضَمَّنَهُ ما لو جَعَلَ ما في الأرضِ مِنَ الشجرِ أقلاماً والبحارِ مداداً، فَكُتِبَ فيه ما أودَعَ فيهِ، وضَمَّنَهُ، لَتَعَذَّرَ ذلكَ كلُّهُ، ولم يَنْفَدْ ما جَمَعَ فيه، وضَمَّنَهُ. هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلَهُ وسَبَبَ نزولِهِ، واللهُ أعلَمُ، بذلكَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ هذا لأنَّ نَفَراً مِنْ قريشٍ قالوا للنَّبِيِّ: إنَّ اللهَ خَلَقَنا أطواراً: نُطْفَةً، عَلَقَةً، مُضْغَةً، عَظْماً، لَحْماً، ثم تَزْعُمُ أنا نُبْعَثُ خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدةٍ. فقالَ ﷺ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ أيُّها الناسُ جميعاً على اللهِ في القُدْرَةِ إلا كَبَعْثِ نَفْسٍ واحدةٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولِهِمُ الذي قالوهُ: إنا لا نُبْعَثُ ﴿بَصِيرٌ﴾ بأمرِ الخَلْقِ والبَعْثِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قالَ هذا لِما قد أقَرُّوا بِبَعْثِ [نفسٍ][3] واحدةٍ لَمّا انْتَهَى إليهِمُ الأخبارُ ممّا كانَ مِنَ الأُمَمِ السالفةِ مِنَ الإحياءِ بَعْدَ المَماتِ، وتواتَرَتْ على ذلكَ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] [وقولُهُم حينَ][4] قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ الآية [النساء: ١٥٣] وقولُهُ[5]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦] وقولُهُ: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] [فكأنهمْ أقَرُّوا][6] بِبَعْثِ هؤلاءِ لَمّا تَواتَرَتِ الأخبارُ بذلكَ، وأنْكَروا بَعْثَ سائِرِهِمْ، فقالَ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ جميعاً ﴿إِلَّا﴾ كَبَعْثِ نفسٍ واحدةٍ؛ [إذا ثَبَتَ لواحدةٍ][7] ففي الكلِّ كذلكَ.

أو أنْ يَذْكُرَ هذا لأنَّ الأسبابَ إنما تَخْتَلِفُ في الأمورِ على الخَلْقِ، وتَعْسَرُ لِخِصالٍ ثلاثٍ: إمّا لِعَجْزٍ أو لِجَهْلٍ أو لِشُغْلٍ.

فإذا كانَ اللهُ سبحانَهُ يَتَعالى عنْ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ، أو يُخْفَى عليهِ شيءٌ، أو يَشْغَلَهُ شيءٌ عنْ شيءٍ صارَ[8] خَلْقُ الكلِّ عليهِ وبَعْثُ الكلِّ كَخَلْقِ نفسٍ واحدةٍ وكَبَعْثِ نفسٍ واحدةٍ.

أو أنْ يَذْكُرَهُ[9] لأنَّ الواحدَ والكلَّ والقليلَ والكثيرَ ما كانَ، وما يكونُ تحتَ قولِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧و..] مُعَبَّرٌ [عنهُ][10] بـ: ﴿كُن﴾ مُتَرْجَمٌ بِهِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ أو نونٌ. لكنهُ ذَكَرَ ﴿كُن﴾ لأنهُ أوجَزُ حرفٍ في كلامِ العربِ وأقْصَرُ كلامٍ يُتَرْجَمُ بِهِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ أو نونٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ كأنهُ قد كانَ مِنْ أولئكَ قولٌ[11] أو كلامٌ في ذلكَ، حتى قالَ: ﴿سَمِيعٌ﴾ لِذلكَ ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوالِ الخَلْقِ وبأمورِهِمْ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ وعِلْمَهُ وتَدْبيرَهُ، وفيهِ دلالةُ البعثِ.

أمّا قُدْرَتُهُ [فهيَ][12] لَمّا أدخَلَ الليلَ [في النهارِ][13] والنهارَ في الليلِ، ثم حَفِظَهما على حدٍّ واحدٍ وعلى ميزانٍ واحدٍ على غَيرِ تَفاوُتٍ يَقَعُ في ذلكَ ولا تَغَيُّرٍ. فَمَنْ قَدَرَ على ذلكَ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: لهذا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وكقولهم حيث. (٥) في الأصل وم: وكقوله. (٦) في الأصل وم: مكانهم فاقروا. (٧) في الأصل وم: إذ ثبت لواحد. (٨) في الأصل وم: فصار. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (١٢) و(١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الشمسِ والقمرِ وما يَقْطعانِ في يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ مَسيرَةَ خَمْسِ مِئةِ عامٍ ما لا يُتَصَوَّرُ ذلكَ في أوهامِ الخَلْقِ، ولا في تقديرِهِمْ قَطْعُ ذلكَ المقدارِ مِنَ السَّيرِ في مِثْلِ تلكَ المدةِ.

ودلَّ إنشاءُ أَحدِهِما وإحداثُهُ بَعْدَ ما ذَهَبَ الآخَرُ بِرُمَّتِهِ وكُلِّيَّتِهِ حتى لا يَبْقَى لهُ أثرٌ على أنهُ قادرٌ على الإحياءِ بَعدِ الموتِ، وبَعْدَما ذَهَبَ أثرُهُ.

ففي ذلكَ دلائلُ مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: دلالةُ قُدرَتِهِ حينَ[1] أدخَلَ أحدَهُما في الآخَرِ، وحَفِظَهُما كذلكَ على حدٍّ واحدٍ وتقديرٍ واحدٍ على غيرِ تَغْييرٍ وتَفاوُتٍ يَقَعُ في ذلكَ.

دلَّ ذلكَ على قُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وتدبيرِهِ. ودلَّ إنشاءُ كلِّ واحدٍ منهما بَعْدَ ما ذهَبَ الآخَرُ على القدرةِ على البَعْثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى الوقتِ الذي جُعِلَ لهُ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتأخَّرُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ظاهراً وباطناً. هذا وعيدٌ ليكونوا أبداً خائفينَ حَذِرينَ مُتَيَقِّظينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلكَ الذي ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الخَلْقِ وإنشاءِ ما ذَكَرَ وتَسْخيرِهِ[2] وصُنْعِهِ في الليلِ والنهارِ والشمسِ والقمرِ وجميعِ ما ذَكَرَ صُنْعُ الإلهِ الحقِّ المُسْتَحِقِّ لِتَسْمِيَتِهِ الألوهيَّةَ والعبادةَ. أو ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ لأنهُ هو الذي يَسوقُ إليكُمْ هذهِ النِّعَمَ والمَنافِعَ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ لا تَنْفَعُكُمْ عبادَتُكُمْ إيّاها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ كقولِهِ[3] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقولُهُ: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ هي النعمةُ التي ذَكَرَها[4] في هذهِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لمّا جَعَلَ لهمُ الفُلْكَ بحيثُ تَجري على وَجْهِ الماءِ مع أحمالٍ ثقيلةٍ، ومِنْ طَبْعِها التَّسَرُّبُ في الماءِ والانْحِدارُ فيه، جَعَلَها[5] بحيثُ تَسْتَمْسِكُ على وَجْهِ الماءِ، وتَجري، لِيَصِلوا إلى حوائجِهِمْ ومَنافِعِهِمْ في أمْكِنَةٍ مُتباعِدَةٍ مُمْتَنِعَةٍ ما لولا السفنُ لم يَصِلوا إلى ذلكَ بحالٍ.

والثاني: ما ذَكَرَ فيه مِنْ ريحٍ طَيِّبَةٍ[6] بها تَجري السُّفُنُ في البحارِ، وماؤها راكدٌ ساكنٌ، فَتَعْمَلُ تلكَ الريحُ عَمَلَ جَرَيانِ الماءِ [في حالِ سُكونِهِ][7] وذلكَ نِعْمَتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ آياتِ وحدانيَّتِهِ وآياتِ قُدْرَتِهِ وسلطانِهِ وآياتِ نِعَمِهِ.

أمّا آياتُ نِعَمِهِ فما[8] ذَكَرَ، وآياتُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ ما ذَكَرْنا مِنْ قُدْرَتِهِ وسلطانِهِ أنْ جَعَلَ الفُلْكَ والسُّفُنَ [تَجري][9] بحيثُ تَسْتَمْسِكُ، وتَحْتَبِسُ، فلا تَتَسَرَّبُ، ولا تَنْحَدِرُ مع أحمالٍ ثقيلةٍ. ومِنْ طَبْعِ ذلكَ كلِّهُ التَّسَرُّبُ/ ٤١٩ ـ أ/ والانْحِدارُ وما ذَكَرَ مِنْ إجرائِها بالريحِ الطَّيِّبَةِ.

ولو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لا فِعْلَ واحدٍ لكانَ يَمْنَعُ عَن جِرْيَتِها. دلَّ أنهُ تدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

وقولُهُ تعالى ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الصَّبّارُ، هو المؤمنُ، والشَّكورُ كذلكَ، والصبرُ[10] كِنايةٌ عنِ الإيمانِ، والشُّكرُ كِنايةٌ عنِ الإيمانِ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] ذَكَرَ الصَّبْرَ مكانَ قولِهِ: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ لأنهُ ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] والشُّكرُ كِنايةٌ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: لمن ذكر ذلك. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: ذلكَ. (٥) في الأصل وم: فجعلها. (٦) ادرج بعدها في الأصل وم: التي. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وسكونه. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم،

جنة السنة

عنِ الإيمانِ كقولِهِ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقولُهُ: ﴿تَشْكُرُوا﴾ أي تؤمِنوا.

ويَحتمِلُ [قولُهُ][1]: ﴿صَبَّارٍ﴾ على بَلاياهُ ﴿شَكُورٍ﴾ على نَعْمائِهِ، أو جَعَلَ الآياتِ لِمَنْ ذَكَرَ لأنهُ هو المُنتفِعُ بها دونَ غَيرِهِ[2] أو ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ في ما أصابَهُمْ في البَحْرِ مِنَ الشدائدِ والأهوالِ و﴿شَكُورٍ﴾ في ما دَفَعَ عنهُم، وأنجاهُم مِن تلك الأهوالِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ هو سَوادٌ مِن كَثْرَةِ الماءِ ومُعْظَمِهِ. وقيلَ: يَصيرُ المَوجُ كالظُّلَّةِ فوقَ السفينةِ: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وجائزٌ أنْ تكونَ الظُّلَلُ التي ذَكَرَ على التَّمثيلِ لا على التَّحقيقِ كِنايَةً عن حَيرَتِهِمْ في الدينِ كقولِهِ: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠]

وهو على التَّمثيلِ لا على التَّحقيقِ؛ يُخبِرُ عن حَيرَتِهِمْ في الدينِ وتَيهِهِمْ فيهِ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

ثم يَذكُرُ أهلُ التأويلِ أنَّ الآيَةَ في أهلِ الكُفرِ كانوا يُخلِصونَ الدعاءَ للهِ والدِّينَ لهُ عندما [اشْتَدَّ بهِمُ الخَوفُ على الهلاكِ][3] عندَ معايَنَتِهِمُ الأهوالَ[والشدائدَ في][4] البِحارِ، لأنَّ أهلَ الإسلامِ يُخلِصونَ لهُ الدعاءَ والدينَ في الأحوالِ كُلِّها. فهيَ فيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي حَسَنُ القولِ بِلِسانِهِ، كافرٌ بِقَلْبِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي عَدْلٌ أي بَقِيَ على الإيمانِ والإخلاصِ الذي كانَ منهُ في تلكَ الأهوالِ، لم يَعُدْ إلى الكُفرِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [وَسَطٌ، والوسَطُ][5] العَدْلُ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ قيلَ: الخَتّارُ الغَدّارُ. وقالَ بعضُهُمْ: الخَتّارُ هو الذي بَلَغَ في الغَدْرِ غايَتَهُ ونهايَتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠] العُلُوُّ يَتَّجِهُ وجهَينِ:

أحدُهُما: العُلُوُّ القَهْرُ والغَلَبَةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي غَلَبَ، وقَهَرَ، وقولِهِ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] فَعَلى ذلكَ يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿الْعَلِيُّ﴾ القاهِرُ[6] الغالبُ.

والثاني: أنْ يكونَ العُلُوُّ الارْتِفاعَ. فإنْ كانَ الارْتِفاعَ فهو يَرْتَفِعُ، ويَتَعالى عن أنْ يَحتمِلَ [ما يَحتمِلُ][7] الخَلْقُ مِنَ التَّغْييرِ والزَّوالِ وغَيرِ ذلكَ ممّا يَحتمِلُ الخَلْقُ ﴿الْعَلِيُّ﴾ ارتَفَعَ، وتَعالى عنِ احتمالِ ما يَحتمِلُ الخَلْقُ.

و﴿الْكَبِيرُ﴾ أي تَكَبَّرَ عنْ أن يَلْحَقَهُ شيءٌ ممّا يَلْحَقُ الخَلْقَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يَحتمِلُ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ في الجهةِ التي[8] لهُ عليكُم، وأَوفوا لهُ ذلكَ، أوِ اتَّقوا مُخالَفَةَ ربِّكُم ومَعْصِيَتَهُ، أو اتَّقوا نَقِمَةَ ربِّكُم وعذابَهُ.

لكنهُ يَختلِفُ الأمْرُ بالاتِّقاءِ في المؤمنِ والكافرِ؛ يكونُ للكافرِ: اتَّقوا الشِّرْكَ وعبادةَ غيرِ اللهِ، وفي المؤمنِ: اتَّقوا مُخالفةَ اللهِ في جميعِ ما يأمُرُكُمْ، ويَنهاكُمْ، واتَّقوا عبادةَ غيرِ اللهِ أوِ الشِّرْكَ في حادثِ الوقتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ يَذكُرُ هذا على الإياسِ وقَطْعِ طَمَعِ بَعْضِهِمْ عن بعضٍ بالوُصْلَةِ التي كانَتْ بَينَهُمْ في الدنيا.

يُخبِرُ أنَّ ذلكَ كلَّهُ مُنقطِعٌ في الآخِرَةِ لِهَولِ ذلكَ اليومِ واشتغالِ كلٍّ بِنَفْسِهِ حتى لا يَنْفَعَ أحدٌ صاحِبَهُ، وخاصَّةً ما ذَكَرَ مِنَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غيرهم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: والله أعلم. (٥) في الأصل وم: الوسط. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: الذي.

جنة السنة

الوَلَدِ لِوالِدِهِ والوالدِ لِوَلَدِه ممّا لا يَحتَمِلُ قلبُ واحدٍ منهما، أنْ يَلْحقَ المَكروهُ بالآخَرِ، ولا يَصْبِرُ ألّا يَدْفعَ ذلكَ عنهُ بكلِّ ما بهِ وُسْعُهُ وطاقَتُهُ لِلشَّفَقةِ والمَحبَّةِ التي جُعِلَتْ[1] فيهِمْ.

ثم أخبَرَ ألّا يَنفعَ أحدُهما صاحبَهُ لاشتِغالِهِ بنفسِهِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «كلُّ نَسَبٍ وسَبَبٍ فهو مُنْقَطِعٌ إلّا نَسَبي وسَبَبي» [بنحوه أحمد ٤/ ٣٢٣] ونَسَبُهُ دِينُهُ الذي دعانا إليهِ، وعَلَّمَناهُ، وسَبَبُهُ شَفاعَتُهُ يومَ القيامةِ. فذلكَ كلُّهُ مُنْقَطِعٌ إلّا هذينِ فإنهُ مَنْ تَمسَّكَ بدينِهِ فإنهُ يَشفَعُ [لهُ][2] يومَ القيامةِ في ما قَصَّرَ، وفَرَّطَ. فأمّا مَنْ لم يَقْبَلْ دينَهُ، ولم يُجِبْهُ إلى ما دَعاهُ، فإنهُ ليسَ لهُ واحدٌ مِنْ هذينِ مِنَ الأسبابِ والأنسابِ، مُنْقَطِعٌ كقولِهِ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقالَ بعضُهُمْ قولُهُ: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ قالَ هذهِ الآيةُ في الكفارِ. فأمّا المؤمنونَ فَيَنفَعُ الوالدُ ولَدَهُ والوَلَدُ والدَهُ في الآخِرةِ؛ [يَنفَعُ الوالدُ][3] ابنَهُ بِفَضلِ عملِهِ، وكذلكَ [يَنفعُ الولدُ أباهُ][4] كقولِهِ: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في ما ذَكَرَ مِنَ الإياسِ وقَطْعِ طَمَعِ بعضِهِمْ عن بعضٍ، أو ما ذَكَرَ مِنْ قيامِ [الساعةِ][5] وكَونِها أنها تكونُ، لا مَحالَةَ، أو في الثوابِ والعقابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ: على التَّحقيقِ [والتَّمثيلِ.

أمّا التَّحقيقُ فألّا][6] تَشغَلَنَّكُمُ الحياةُ الدنيا ولَذّاتُها، ولا تُلهِيَنَّكُمْ عن ذِكرِ اللهِ وعنِ الآخِرةِ، ولا تَغتَرّوا بها فإنها لَعِبٌ ولَهْوٌ على ما ذَكَرَ أنها لَعِبٌ ولَهْوٌ على ما هي عندَكُمْ، لأنها [عندَكُمْ إنما][7] أُنشِئَتْ، وخُلِقَتْ، لها لا للآخِرةِ.

فالدنيا على ما هي عندَهُمْ لَعِبٌ ولَهْوٌ، وأمّا على ما هي عندَنا فهي[8] حقٌّ، ليسَتْ بباطلٍ، لأنها أُنشِئَتْ للآخِرةِ وبالِغةٌ[9] إليها.

وأمّا التَّمثيلُ [فقدْ][10] أضافَ التَّغريرَ إليها لأنَّ ما كانَ منها مِنَ التَّزيينِ والتَّحسينِ في الظاهرِ وإظهارِ بَهْجَتِها وسُرورِها ولَذّاتِها، لو كانَ ممَّنْ لهُ التَّمييزُ والعقلُ والفَهْمُ وحقيقةُ التَّزيينِ والتَّحسينِ كانَ تغريراً. فَعَلى ذلكَ ما كانَ منها على الظاهرِ، وهو تغريرٌ، على التَّمثيلِ.

[ويَحتَمِلُ][11] أنْ يكونَ ما ذَكَرَ ألّا تَغتَرّوا بالحياةِ الدنيا وما فيها مِنْ لَذّاتِها [على النَّهيِ][12] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قيلَ: الغَرورُ: الشيطانُ لا يَغُرَّنَّكُمْ: يقولُ[13]: إنَّ اللهَ كريمٌ رحيمٌ جَوادٌ، لا يُعذِّبُكُمْ، أو يقولُ: إنَّ اللهَ غَنيٌّ قادرٌ، لا يأمُرُكُمْ بأمرٍ، ولا يَنهاكُمْ [عنْ شيءٍ][14] إذْ إنما يأمُرُ، ويَنهى في الشاهدِ مَنْ كانَ مُحتاجاً. فأمّا الغَنيُّ فلا يأمُرُهُ، أو نَحوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ عنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه [أنهُ][15] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «مَفاتيحُ الغيبِ خَمسٌ لا يَعلَمُها إلّا اللهُ» [البخاري ٤٦٢٧] وعَدَّ هذهِ الخَمسةَ التي ذُكِرَتْ في هذهِ الآيةِ.

وكذلكَ رَوى أبو هُريرةَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][16] قالَ: «خَمسٌ لا يَعلَمُهُنَّ إلّا اللهُ: قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ» [البخاري ٤٦٢٧ و٤٦٩٧ و٤٧٧٧].

فإنْ ثَبَتَ هذا فهو ما ذَكَرَ، ويَرجِعُ ذلكَ إلى مَعرفةِ حقيقةِ ما ذَكَرَ.

---

(١) من م، في الأصل: جعلته. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يدفع إلى. (٤) في الأصل وم: الوالد على أبيه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: عندهم أنها إنما. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: وبلغه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ويقول. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وإلا فجائزٌ أنْ يُقالَ: إنهُ يُعلِمُ بَعْضَ هذهِ الأشياءِ بأعلام: مِنْ نَحْوِ المطرِ متى يُمطِرُ؟ أو ما في الأرحامِ أنهُ ولَدٌ، وأنهُ ذَكَرٌ أو أُنثى، وإنْ لم يُعلِمْ ماهيَّةَ ما في الأرحامِ نَحْوَ ما يُعلِمُ المُنَجِّمَةُ بذلكَ بالحسابِ وبأعلامٍ، يُخَرِّجُ ذلكَ على الصدقِ ممّا أخبروا. رُبَّما.

ألا تَرى أنَّ إبراهيم، صلواتُ اللهِ عليهِ، قالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] لمّا نَظَرَ في النجومِ، أي سَأسْقَمُ؟ ورُوِيَ أنَّ أبا بَكْرٍ الصديقَ ﷺ قالَ: إني أُلقِيَ إليَّ أنَّ ذا بَطْنُ جاريةٍ. وكانَ كما ذَكَرَ.

فلا يُحتَمَلُ [أنْ يكونَ][1] أبو بكرٍ يَعْلَمُ ذلكَ لِما أُلْقِيَ إليهِ، ورسولُ اللهِ لا يَعْلَمُ إلّا الساعةَ، فإنهُ لا يُطْلِعُ عليها أحداً، إلّا أنْ يُقالَ: /٤١٩ ـ ب/ إنَّ رسولَ اللهِ لم يُؤْذَنْ لهُ بالتكلّمِ والقولِ بِشَيءٍ إلّا مِنْ جِهَةِ الوَحْيِ مِنَ السماءِ.

فأمّا الاشتِغالُ بِمِثْلِهِ فلا، لأنَّ الاشتِغالَ بِمِثْلِهِ تَضييعٌ لكثيرٍ ممّا امْتُحِنَ [بهِ][2] وتَرْكٌ لِبَعْضِ ما يُؤْمَرُ، ويُنْهَى، أو لِما يُخَرِّجُ ذلكَ مُخْرَجَ التَّطَيُّرِ والتَّفاؤلِ واكْتِسابِ الرزقِ على غَيرِ الجهةِ التي جُعِلَتْ، وأُبيحَتْ لهمْ، فكانَ المَنْعُ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي وقتُ الساعةِ كقولِهِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ و٤٣ و٤٤] أخبَرَ أنهُ ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وذَكَرَ لرسولِ اللهِ أنك ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

أمّا ما سِوَى ذلكَ فليسَ إليكَ.

[ويَحتَمِلُ][3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي عندَهُ علمٌ بماهيَّةِ الساعةِ وأهوالِها ولم يَذْكُرْ ماهيَّتَها وَحَدَّها وقَدْرَها، فأخبَرَ أنهُ يعلَمُ هو ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ سَمَّى المَطَرَ غَيثاً، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ سَمّاهُ غَيثاً لِما بِهِ يكونُ للناسِ غِياثٌ في ما بِهِ قِوامُ أنفسِهِمْ ودُنياهُمْ، وسَمّاهُ في مَوضِعٍ رَحْمَةً[4] وفي مَوضِعٍ مُبارَكاً[5].

فَتَسْمِيَتُهُ رَحْمَةً لِما بِهِ نَجاةُ أنفسِهِمْ وأبدانِهِمْ. وذلكَ صورةُ الرحمةِ، وسَمّاهُ مُبارَكاً لِما بِهِ يَنمو، ويزدادُ كلُّ شيءٍ، إذِ البركةُ هي اسْمُ كلِّ خيرٍ، يَنْمو، ويزدادُ بلا اكْتِسابٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِنِ انْتِقالِ النُّطفَةِ إلى العَلَقَةِ وانْتِقالِ العَلَقَةِ إلى المُضْغَةِ [وتَحَوُّلِ ما في الرَّحِمِ][6] مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخرى وقَدْرِ زيادةِ ما فيهِ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ ساعةٍ ونَحْوُ ذلكَ لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ.

وأمّا العِلْمُ بأنَّ فيهِ ولداً، وأنهُ ذَكَرٌ أو أُنثى فجائزٌ أنْ يُعلِمَ ذلكَ غيرَهُ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ كَتَمَ ذلكَ، وأخفاهُ، لِيكونوا في كلِّ حالٍ على حَذَرٍ وخوفٍ وعلى يَقَظَةٍ، إذْ لو كانَ أطْلَعَهُمْ على ذلكَ لكانوا آمِنينَ إلى ذلكَ الوقتِ، فيعملونَ[7] بكلِّ ما يُريدونَ، ويَشاؤونَ. فيكونُ في ذلكَ ارْتِفاعُ المحنةِ، فليسَ ذلكَ عليهِمْ ليكونوا أبداً في كلِّ وقتٍ وكلِّ حالٍ على حَذَرٍ وخوفٍ ويَقَظَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ ذُكِرَ أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الباديةِ، يُقالُ لهُ: الوارثُ بنُ عَمْرِو بنِ حارثةَ بنِ مُحارِبٍ، جاءَ النبيَّ ﷺ فقالَ: إنَّ أرضَنا أجدَبَتْ، فَمَتى الغيثُ؟ وتركْتُ امْرأتي حُبْلَى، فماذا تَلِدُ؟ وقد عَلِمْتُ أينَ وُلِدْتُ،

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ﴾ [الروم: ٥٠]. (٥) بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩]. (٦) في الأصل وم: وتحوله. (٧) من م، في الأصل: فيعلمون. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ففي أيِّ [أرض](1) أموتُ؟ وقد علِمْتُ ما عمِلْتُ اليومَ، فماذا أعْمَلُ غداً؟ ومتى الساعةُ؟ فأنزلَ اللهُ تبارك، وتعالى، في مسألةِ المُحاربيِّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ لا يَعْلَمُها غيرُهُ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِنْ ذكرٍ أو أُنثى ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ برَّةٌ أو فاجرةٌ ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِنْ خيرٍ وشرٍ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في سَهْلٍ أو جبلٍ أو برٍّ أو بحرٍ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ بهذا الذي ذُكِرَ كلِّهُ. فقالَ النبيُّ: أينَ السائلُ عنِ الساعةِ؟ فقالَ المحاربيُّ: ههنا. فقرأَ النبيُّ، صلواتُ اللهِ عليهِ، هذهِ الآيةَ [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٣٠].

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: قولُهُ ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: ٣٢]أي ما استَظْلَلْتَ بهِ، والظُّلَّةُ السحابةُ.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ جمعُ ظُلَّةٍ، يريدُ أنَّ بعضَهُ فوق بعضٍ، فَلَهُ سَوادٌ مِنْ كَثْرَتِهِ، والبَحْرُ ذو ظِلالٍ لأمواجِهِ. والخَتَّارُ الغَدّارُ، والخَتْرُ أقبحُ الغَدْرِ وأشدُّهُ.

وقالَ أبو عَوْسَجَةَ: الخَتَّارُ الكَذّابُ الغَدّارُ، يُقالُ: خَتَرَ يَخْتِرُ خَتْراً فهو خاتِرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى﴾ [لقمان: ٣٣] أي لا تُغْني. نَقولُ: جَزَى يَجْزي جزاءاً، فهو جازٍ، أي أغْنَى، وأجزى يُجْزي مِثْلَهُ، وأجزاني عنْ كذا وكذا، أي كفاني. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، وقالَ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بِنَصْبِ الغَينِ الشيطانُ، والغُرورُ بضمِّ الغَينِ الباطِلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

جنة السنة

[سورة السجدة

مكيَّةٌ][1] إلّا ثلاثَ آياتٍ منها فإنها نزلَتْ بالمدينةِ

وهي قولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾

إلى قولِهِ: [﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الآيات: ١٨ و١٩ و٢٠]][2].

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قد ذكَرْنا تأويلَهُ في صَدْرِ الكتابِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكتابُ المُطلَقُ كتابُ اللهِ، والدينُ المُطلَقُ دينُ اللهِ والسَّبيلُ المُطلَقُ والطريقُ المُطلَقُ سَبيلُ اللهِ وطَريقُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنهُ مُنزَلٌ مِنَ اللهِ، لأنهُ أُنزِلَ على أيدي الأُمَناءِ البَرَرَةِ، لم يُغَيِّروهُ، ولا بَدَّلوهُ، ولا حَرَّفوهُ. أو يقولُ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنهُ ليسَ بِمُختَرَقٍ ولا مُختَرَعٍ ولا مُفتَرًى مِنْ عندِ الرسولِ، بل مُنزَلٌ مِن عندِ ربِّ العالمينَ. أو ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شَكَّ فيهِ على ما يَقولُ الناسُ لكلِّ مُحكَمٍ مِنَ الأمرِ مُبَيَّنٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ العالَمُ هو اسْمُ جِنْسٍ مِنَ الخَلْقِ، وجَوهَرٌ منهُ. والعالَمينَ: جَمْعُهُ، فَيَدْخُلُ في ذلكَ الأوَّلونَ والآخِرونَ الذينَ يكونونَ.

ففيهِ أنهُ ربٌّ لكلِّ ما كانَ، ويكونُ كقولِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣] أخبَرَ أنهُ مالِكُه، وهو بَعْدُ لم يَكُنْ؛ أعني ذلكَ اليومَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ قولُهُ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هو اسْتِفهامٌ وشَكٌّ في الظاهِرِ.

لكنهُ مِنَ اللهِ يُخَرَّجُ على تَحقيقِ إلزامٍ وإيجابٍ أو تَحقيقِ نَفْيٍ على ما لو كانَ ذلكَ مِنْ مُستَفهِمٍ ومُستَرشِدٍ، كيفَ يُجابُ لهُ، ويقالُ فيهِ؟ فإنما يُقالُ لِلْمُستَفهِمِ: لا أو بَلَى.

فَعَلَى ذلكَ هو مِنَ اللهِ على تَحقيقِ إثباتٍ وإيجابٍ أو تَحقيقِ نَفْيٍ؛ إذ لا يَحتَمِلُ الاسْتِفهامَ والسؤالَ كقولِهِ: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤] كأنهُ قالَ: ليسَ للإنسانِ ما تَمَنَّى.

فَعَلَى ذلكَ كأنهُ قالَ ههنا: بل يقولونَ افْتَراهُ. ثم رَدَّ ما قالوا: إنهُ افْتَراهُ، فقالَ: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ليسَ بِمُختَرَعٍ ولا مُختَرَقٍ ولا مُفتَرًى مِنْ محمدٍ. بل مُنزَلٌ مِنْ عندِ اللهِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أو ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ليسَ بكلامِ البَشَرِ، ولا في وُسْعِهِمْ إتيانُ مِثْلِه. فهو الحقُّ منهُ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ /٤٢٠ ـ أ/ الآية [فصلت: ٤٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي لِتُنذِرَ بالكتابِ الذي أُنزِلَ ﴿قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: على الجَحْدِ أي لِتُنذِرَ قوماً لم يأتِهِمْ نذيرٌ، وهمْ أهلُ الفَترَةِ الذينَ كانوا بَينَ عيسى ومحمدٍ ﷺ.

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أن سورة ﴿الٓمٓ﴾ و﴿تَنزِيلُ﴾ السجدة، نزلت بمكة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الذينَ قد أتاهُم نذيرٌ مِن قَبلِكَ، وهمْ آباؤُهم وأجدادُهُم الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِ، الذينَ قد أتاهُمْ نذيرٌ مِنْ قبلِهِمْ(١)، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: لِتُنْذِرَ قوماً لكي تُلْزِمَهُمْ بِهِ حُجَّةَ الاهْتِداءِ.

والثاني: لِتُنْذِرَ قوماً على رجاءِ وطَمَعِ أنْ يَهْتَدوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذا أيضاً قد ذَكَرْناهُ في ما تقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وفي هذا أيضاً قد ذَكَرْنا تأويلاتٍ كثيرةً. لكنَّا نَذْكُرُ فيهِ حَرْفاً لم نذكُرْهُ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الذِّكْرِ، وكأنهُ أصوبُ وأقربُ إلى الحقِّ، وهو أنَّ ذلكَ حَرْفٌ وكلامٌ، لم يجعَلِ اللهُ تعالى في العقولِ والأفهامِ سَبيلَ الدَّرْكِ لهُ والمَعْرِفةِ، أعني لِقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لأنهُ ذَكَرَ ذلكَ الحَرْفَ في مَوضعٍ آخَرَ، وأمَرَهُ أنْ يَسألَ بِهِ خبيراً حيثُ قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

ولو كانَ ذلكَ الحَرْفُ ممّا لِعُقولِ البَشَرِ وأفهامِهِمْ سَبيلُ الوصولِ إلى معرفتِهِ ودَرْكِهِ لأدْرَكَهُ عقلُ رسولِ اللهِ ربِّ العالَمِينَ، وفَهِمَهُ مِنْ غيرِ أنْ يَسْألَ بهِ الخَبيرَ: مَنْ كانَ: اللهُ أو جبريلُ. فإذا أمَرَهُ بالسؤالِ عنهُ دلَّ أنهُ بالعَقْلِ والفَهْمِ، لا يُدرِكُ، ولا يَعْرِفُ، ولا بالسَّمْعِ عنِ اللهِ. ولم يُذْكَرْ عنِ الرسولِ أنهُ فَسَّرَ ذلكَ، أو قالَ فيهِ، أو سألَهُ أحدٌ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يقولُ: أهلُ التأويلِ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ يَنْفَعُكُمْ في الآخِرَةِ ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ [يَدْفَعُ عنكُمْ عذابَهُ].

[ويَحْتَمِلُ](٢) أن يكونَ قولُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ أو ربٍّ والٍ يلي أمْرَكُم سِواهُ ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾](٣) [ولا جَعَلَ لكمُ الأصنامَ التي تَعْبُدونَها شُفَعاءَ، وأنتمْ تَعْلَمونَ ذلكَ. فكيفَ تَعْبُدونها دونَهُ؟

[ويَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرَهُ](٤) على الوَعيدِ لهمْ إذْ ليسَ لأولئكَ وَلِيٌّ ولا ناصرٌ](٥) ولا شَفيعٌ، لا [هي ولا غَيرُها](٦).

وأمّا المُؤمِنونَ(٧) فإنهُ وَليُّهُمْ كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [أي أفلا تتفكّرونَ](٨) في ما ذُكِرَ مِنْ صُنعِهِ، فَتُوَحِّدوهُ(٩)، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي هو يقضي القضاءَ وحدَهُ مِنَ السماءِ إلى(١٠) الأرضِ. وعندنا أنهُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي هو يُكَوِّنُ الأمرَ، ويُدَبِّرُهُ،(١١) أو يَجْعَلُ الخَلْقَ بحيثُ يَقْبَلونَ الأمرَ والنهيَ، ويَحْتَمِلونَ المِحنةَ، أو هو يُخْرِجُ الأمرَ كلَّهُ على الحكمةِ والتَّدْبيرِ.

والثاني: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يُوَلّي مَنْ يُدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ نَحْوَ ما وَلّى مَلَكَ المَوتِ قَبْضَ أرواحِ الخَلْقِ، و نَحْوَ ما وَلّى ملائكتَهُ أمْرَ الأمطارِ والنباتِ وغَيرَ ذلكَ.

فجائزٌ أنْ يكونَ الأوّلُ: يُوَلّي ملائكتَهُ أمْرَ ما بينَ السماءِ والأرضِ. فإنْ كانَ الأوَّلَ فليسَ [في](١٢) ذِكْرِ السماءِ والأرضِ حدٌّ ولا تقديرٌ، يُدَبِّرُ ذلكَ، ولا يُدَبِّرُ ما سِوى ذلكَ. لكنْ ذَكَرَ هذا لِما إلى ذلكَ يَنْتَهي تدبيرُ البَشَرِ وعِلْمُهُمْ. وأمّا ما سِوَى ذلكَ فلا. وإنْ كانَ الثانيَ فهو على التَّحْديدِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ يقولُ: يَصْعَدُ المَلَكُ إليهِ

---

(١) في الأصل وم: قبله. (٢) في م، أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: ويذكر. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: هو ولا غيره. (٧) في الأصل وم: للمؤمنين. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فتوحدونه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: ويدبر. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

في يوم واحدٍ من أيام الدنيا ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ كانَ مِقدارُ ذلكَ اليوم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أنتُم، لأنَّ ما بَينَ السماءِ والأرضِ مَسيرَةَ خَمسِ مئةِ عامٍ. فَيَنْزِلُ مَسيرَةَ خَمسِ مئةِ عامٍ، ويَصْعَدُ مَسيرَةَ خَمسِ مئةِ عامٍ، وذلكَ مِقدارُ مَسيرةِ أَلفِ سَنةٍ في يومٍ واحدٍ مِنْ أيامِ الدنيا. وذَكَرَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

فجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ وَصْفَ يومِ القيامةِ. فَيُخَرَّجُ ذلكَ لا على التَّحديدِ والتَّقديرِ. ولكنْ على التَّعظيمِ لذلكَ اليومِ والوصفِ لهُ بما يَعْظُمُ في قلوبِ الخَلْقِ، وهو ما وَصَفَهُ اللهُ بالعَظَمَةِ كقولِهِ: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

أو أنْ يكونَ [على][1] التَّحديدِ والتَّقديرِ أنْ كانَ حقيقةً لاختِلافِ أحوالِهِ وأوقاتِهِ على اختِلافِ الأمورِ؛ يكونَ أَلْفَ سنةٍ ذِكْرُ حالٍ ووقتٍ لأمرٍ، وخمسينَ ألفَ سنةٍ، [ذِكْرُ][2] حالٍ أُخرى لأمورٍ أُخَرَ على ما سَمَّى ذلكَ اليومَ مَرَّةً ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧ والتغابن: ٩] ومَرَّةً يومَ التفريقِ [بقولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]][3] و﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١، والمرسلات: ٣٨] و﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦ و...] و﴿يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] ونَحوَهُ.

ومعلومٌ أنَّ ذلكَ اليومَ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِه، ليسَ بِيَومِ الجَمْعِ ولا بِيَومِ الافتِراقِ ولا بِيَومِ الحِسابِ ولا بِيَومِ البَعْثِ، ولكنْ بِجَميعِ ذلكَ كلِّهِ لاختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ لأمورٍ مُختلفةٍ.

فَعَلَى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الأوَّلُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ، ويكونَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلكَ كقولِهِ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨، ...][وقولِهِ][4] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥، ...][وقولِهِ][5] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] ونَحوَهُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي صَنَعَ ما ذَكَرَ مِنْ هذهِ الأشياءِ ﴿عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً: عالِمُ ما غابَ عنِ الخَلْقِ ﴿وَالشَّهَٰدَةِ﴾ و﴿عَٰلِمُ﴾ ما يُسِرُّونَ[6]، وما يُعلِنونَ و﴿عَٰلِمُ﴾ ما يكونُ، ويَحْدُثُ، ﴿وَالشَّهَٰدَةِ﴾ ما قد كانَ، ومَضَى، أو ﴿عَٰلِمُ﴾ ما يُغَيِّبُ بَعْضُ مِنْ بعضٍ ﴿وَالشَّهَٰدَةِ﴾ ما يُشْهِدُونَ ويُظْهِرونَ، أو عالِمُ ما يَغيبُ عنِ الخَلْقِ كَبَقِيَّةِ [منافعِ الأشياءِ][7] الظاهرةِ وماهِيَّتِها نَحوَ ما غابَ عنهمُ المَعْنَى المُضمَرُ المُودَعُ في الطعامِ والشرابِ والأغذيةِ جميعاً: الذي بِهِ حياةُ أنفسِهِمْ وقِوامُهُمْ، وكذلكَ السمعُ والبَصَرُ والفَهْمُ والعقلُ، لا يُدْرَكُ المَعنَى الذي بِهِ يُسْمَعُ، ويُبْصَرُ، ويُفْهَمُ، ويُدْرَكُ، وما بِهِ تَحْيَى أنفسُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾ في هذا المَوضعِ: المُنْتَقِمُ مِنْ أعدائِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ على أوليائِهِ، أو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي لهُ رحمةٌ، يَسَعُ الخلائقَ في رحمتِهِ، أو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي يَعِزُّ مَنْ عَزَّ، و﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي برحمتِهِ يَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ في قولِهِ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قالَ: مِنْ مُنتَهَى أمرِهِ مِنْ أسفَلِ الأرَضينَ إلى مُنتَهَى أمرِهِ في السمواتِ، مِقدارُ خَمسينَ ألفَ سنةٍ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ذلكَ نُزولُ الأمرِ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ ومِنَ الأرضِ إلى السماءِ في يومٍ واحدٍ، فذلكَ مِقدارُهُ ألفُ سنةٍ.

لكنَّ قولَهُمْ[8]: مِنْ مُنتَهَى أمرِهِ مِنْ أسفَلِ الأرَضينَ إلى مُنتَهَى أمرِه فوقَ السمواتِ كذا فاسدٌ، لأنهُ لا يَجوزُ أنْ يكونَ لأمرِهِ[9] أو لِمُلْكِهِ نهايةٌ أو حَدٌّ، والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [بالتَّحريكِ والجَزمِ][10] جميعاً، كلاهُما لُغَتانِ [وهو يَحْتَمِلُ وجهينِ: أحَدُهما][11]: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي عَلِمَ كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ، أي[12] كيفَ يَخْلُقُ مِنْ غيرِ أنْ يُعَلِّمَهُ أحدٌ[13]، أو أعانَهُ عليهِ أحدٌ؟ وفي الشاهدِ لا يَقدِرُ أحدٌ، ولا يُمكِنُ لهُ صُنْعُ [شيءٍ إلَّا][14] بِمُعَلِّمٍ يُعَلِّمُهُ ذلكَ أو بِمُعينٍ، يُعينُ على ذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يشهدون. (٧) من م، في الأصل: النافع من الأشياء. (٨) في الأصل وم: قوله. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بالجزم والتحريك، انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/٩٨. (١١) في الأصل وم: ثم يحتمل قوله. (١٢) من م، في الأصل: إن. (١٣) من م، في الأصل: أحدا. (١٤) من م، في الأصل: شيء.

جنة السنة

يُخبِرُ عن جَهلِهِمْ وسَفَهِهِمْ بِتَقديرِ قُدرَةِ اللهِ وقُوَّتِهِ بِقِوَى أنفُسِهِمْ وقُدرَتِهِمْ في إنكارِهِمِ البَعْثَ لِخُروجِهِ عن تَقديرِ الخَلْقِ وامْتِناعِهِ / ٤٢٠ - ب/ عن وُسْعِهِمْ. يقولُ: لا تُقدِّروا قُدرَةَ اللهِ بِقُدرَةِ أنفُسِكُمْ وقِواكُمْ كما لم تُقَدِّروا عِلْمَهُ بِعِلْمِكُمْ؛ إذْ يَعْلَمُ هو بذاتِهِ بلا مُعَلِّمٍ، وأنتمْ لا تَعْلَمونَ إلّا بِمُعَلِّمٍ. فَعَلَى ذلكَ هو قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وأنتمْ لا تَقْدِرونَ إلّا بِغَيرٍ أو سَبَبٍ.

ويَحتَمِلُ هذا الوجْهُ وجهاً آخَرَ، وهو أنَّ قولَه: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [أي أعلَمَ كلَّ شيءٍ[1]] مِن خَلْقِهِ ما بِهِ صَلاحُهُمْ[2] وفَسادُهُمْ، وما يُؤتَى، وما يُتَّقَى. [ويُستَعْمَلُ لازماً ومُتَعَدّياً، وفي الأصلِ[3] هو مُتَعَدٍّ، وأنَّ المُرادَ منهُ العِلْمُ المُكْتَسَبُ الذي يَحصُلُ بالتَّعَلُّمِ. وأمّا اللازمُ فيكونُ تَحصيلُ العِلْمِ بنفسِهِ. وغَيرُهُ[4] يُستَعْمَلُ في الأمْرَينِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ][5]

والثاني: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أحكَمَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، وأتقَنَهُ، ثم يُخَرَّجُ هذا على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أتقَنَ وأحكَمَ في ما فيهِ مِنَ المَصالِحِ والمَعاني وفي كلِّ شيءٍ مِنَ التَّسوِيَةِ والتَّفرِقَةِ وفي الجَمْعِ والتَّصويرِ.

والثاني: ﴿أَحْسَنَ﴾ أي أتقَنَ وأحكَمَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ في الشهادةِ على وَحدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ، أي جَعَلَ في كلِّ أثَرِ وَحدانِيَّتَهُ ورُبوبِيَّتَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ لم يَخْلُقِ الإنسانَ في خَلْقِ البَهائِمِ وصورَتِها، ولا البَهائِمَ في خَلْقِ الإنسانِ. وقَتادَةُ يقولُ: كلُّ شيءٍ مِن خَلْقِهِ حَسَنٌ على ما خَلَقَ، وعَلِمَ كيفَ يَخلُقُهُ؟ وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا بَدْءاً.

ثم مَن قَرَأَ: خَلْقَهُ بالجزمِ فيكونُ معناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي أحسَنَ خَلْقَ كلِّ شيءٍ. ومَن قرَأَ: خَلَقَهُ بالتحريكِ فمعناهُ[6]: أحسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ[7].

ثم للمعتزلةِ في هذهِ الآيةِ أدنَى تَعَلُّقٍ: يقولونَ[8]: أخبَرَ أنهُ أحسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، والكُفرُ وشَتْمُ ربِّ العالمينَ ونَحوُهُ، كلُّهُ قبيحٌ وسَفَهٌ، دلَّ أنهُ لم يَخلُقْهُ وأنهُ ليسَ بخالقِ ذلكَ[9].

يُقالُ لهمْ: إخوانُكُمُ الزَّنادِقَةُ يُعارِضونَكُمْ، ويقولونَ: إنَّ الخنزيرَ والنَّجاساتِ وجميعَ السِّباعِ الضارَّةِ والمؤذيةِ وجميعَ الخَبائِثِ؛ كلُّها قبيحةٌ، فاللهُ ليسَ بخالقِ [لها][10] فِيمَ تَدْعونَ قولَهُمْ وسؤالَهُمْ في ذلكَ؟

فإنْ زَعَمْتُمْ في الأوَّلِ في الكُفرِ والشَّتمِ وجميعِ فِعْلِ الشرورِ أنهُ ليسَ بِخَلْقٍ لهُ لأنهُ قبيحٌ ضارٌّ مؤذٍ يَلْزَمُكُمْ مَذهَبُ الزنادقةِ في ما يقولونَ، ويَذْكُرونَ، في إثباتِ خالقٍ سِواهُ لأنهُ قبيحٌ ضارٌّ مؤذٍ.

ويقالُ لهمْ: إنَّ اللهَ، جلَّ، وعلا، سَمَّى إبليسَ باطلاً [فهو][11] إذنْ لم يَخلُقْهُ لأنهُ أخبَرَ أنهُ لم يَخلُقِ السمواتِ والأرضَ وما بَينَهُما باطلاً.

ثم يُقالُ لهمْ: إنا نقولُ: إنهُ خَلَقَ فِعْلَ الكُفرِ [مِنَ الكَفَرَةِ قبيحاً، وخَلَقَ فِعْلَ الشَّرِّ][12] والشَّتمِ مِنَ الشريرِ والشاتِمِ قبيحاً في ما خَلَقَ فِعْلَ الشَّرِّ على ما هو وعلى ما عَرَّفَهُ [وعَلَّمَهُ][13].

فلا عَيبَ يَلْحَقُ في جَعْلِ [ما][14] هو قبيحٌ قبيحاً كَمَنْ يَعْلَمُ الكُفرَ لِيُعَلِّمَهُ قبيحاً على ما هو، وكذلكَ جميعُ الشرورِ.

فَعَلَى ذلكَ ليسَ في خَلْقِ ما هو قبيحٌ عيبٌ على ما لم يكُنْ في تَكَلُّفِ مَعرِفَةِ القبيحِ لِيَعْرِفَهُ قبيحاً على ما هو حقيقةُ عَيبٌ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: مصالحهم. (٣) في نسخة الحرم المكي: الحاصل. (٤) المقصود: غيره من الأفعال. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي. انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/٩٨. (٧) في الأصل وم: منه وخلقه. (٨) من م، في الأصل: يكونون. (٩) في الأصل وم: لذلك. (١٠) من م، ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

هذا إذا كانَ التأويلُ على ما يَذهبونَ هم إليهِ. فأمّا إذا كانَ ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿أَحْسَنَ﴾ أي عَلِمَ أو عَلَّمَ فليسَ يَدْخُلُ في ذلكَ الشيءِ ممّا ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ قالَ عامَّتُهُمْ: يَعْني آدمَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ أي نَسْلَ آدمَ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي آدمَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ ذلكَ نعتُ وَلَدِهِ وذُرِّيَّتِهِ، لأنَّ الأعجوبةَ في خَلْقِ وَلَدِهِ في الأرحامِ في ثلاثِ ظُلُماتٍ، مِنَ النطفةِ؛ إنْ لم يكُنْ أكثرَ مِنْ خَلْقِ آدمَ مِنْ طينٍ فلا[1] تكونُ أقلَّ، لأنَّ صُنْعَ الأشياءِ الظاهرةِ الباديةِ وتَسْوِيَتَها [في الشاهدِ أيسَرُ وأدونُ مِنْ صُنْعِها][2] إذا كانَتْ مُسْتَكِنَّةً. وظاهرُهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ آدمَ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ذُرِّيَّتَهُ، لأنَّ النسلَ هو الوَلَدُ والذُّرِّيَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السُّلالَةُ، هي الصَّفْوَةُ مِنَ الماءِ، والخالصُ مِنْ كلِّ شيءٍ. وقالَ بعضُهُمْ: السُّلالَةُ، هي مِن السَّلِّ؛ سَلَّ السيفَ، أي أخرَجَهُ، ونَزَعَهُ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي اسْتَخْرَجَ مِنَ الظَّهْرِ، وسَلَّ منهُ، ونَزَعَ، والمَهينُ الضعيفُ، يقالُ: مَهَنَ يَمْهَنُ مَهانَةً فهو مَهينٌ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي جَمَعَهُ، وقَوَّمَهُ، ورَكَّبَ بَعْضَهُ على بَعْضٍ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ هو الرِّيحُ، وبالنَّفْخِ يَتَفَرَّقُ في الجَسَدِ، ولذلكَ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ تركيبِ الجَوارحِ والأعضاءِ، أو جَعَلَهُ بحيثُ يَحْتَمِلُ المِحْنَةَ والأمْرَ والنَّهْيَ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي جَعَلَ فيهِ الروحَ، وذَكَرَ النَّفْخَ لِما ذَكَرْنا على تحقيقِ النَّفْخِ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ ذَكَرَ، جَلَّ، وعلا، جميعَ ما يُوصِلُ إلى العلومِ الغائبةِ والحاضرةِ جميعاً، ويُدْرِكُ، ويُوجِدُ السبيلَ إليها، وهي السمعُ والبصرُ والقَلْبُ في الإنسانِ، لأنهُ بالسمعِ يُوصِلُ إلى ما غابَ عنهمْ مِنَ العِلْمِ، يَسْمَعونَ ما عندَ غيرِهِمْ، وكذلكَ بالبَصَرِ يَرى، ويَبْصُرُ ما عندَ غيرِهِ، وبالقَلْبِ يَفْهَمُ، ويَحْفَظُ، ويُمَيِّزُ بينَ ما يُؤتَى، وما يُتَّقَى. يُبَيِّنُ أنهُ قد أعطاهُمْ ما بهِ يُدْرِكونَ، ويَصِلونَ إلى ما غابَ عنهمْ، ويَفْهَمونَ، ويُمَيِّزونَ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الحواسِّ.

ثم قالَ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي لا تشكرونَ][4] قَطُّ، لأنهمْ يقولونَ: إنما خاطبَ بهِ أهلَ مكةَ، أو يقالُ: إنهمْ يَشكرونَ قليلاً، لكنهمْ يُفْسِدونَ، ويَنْقُضونَ ما يَشْكُرونَ بِكُفْرانِهِمْ مِنْ بَعْدُ.

وأمّا أهلُ الإسلامِ، وإنْ كانَ شُكْرُهُمْ لِما ذَكَرَ مِنْ هذهِ الحواسِّ قليلاً فإنهمْ قدِ اعْتَقَدوا في أصلِ العَقْدِ الشكرَ لهُ في جميعِ نِعَمِهِ. والكافرُ اعْتَقَدَ الكُفرانَ لهُ. وإلّا يَجيءُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ للمؤمنينَ، ولهمْ يُقالُ ذلكَ لا لِلْكَفَرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ هذا القولُ منهمْ يُخَرَّجُ على الاسْتِفْهامِ والسؤالِ: أإنا نُبْعَثُ؟ ونُخْلَقُ خَلْقاً جديداً؟ وعلى الإيجابِ والتَّحقيقِ: إنّا نُبْعَثُ، لا مَحالَةَ، فلا يَلْحَقُهُمْ بذلكَ لائمةٌ ولا تَغْييرٌ لو كانَ على الظاهرِ المُخْرَجِ منهمْ. لكنهمْ إنما قالوا ذلكَ اسْتِهْزاءً وإنكاراً لِلْبَعْثِ.

دليلُهُ ما قالَ على إثْرِهِ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ وإلّا ظاهرُ ذلكَ القولِ منهمْ على أحدِ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهُما: اسْتِفْهاماً أو إيجاباً. وهو ما أخْبَرَ عنِ المُنافقينَ حينَ[5] قالَ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]. هذا القولُ منهمْ حَقٌّ وصِدْقٌ، لكنهمْ لَمّا أضْمَروا خِلافَ ذلكَ لم يَنْفَعْ ذلكَ لهمْ حينَ[6] قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧ والحشر: ١١].

فَعَلَى ذلكَ القولِ منهُمْ في الظاهرِ ما ذَكَرْنا، لكنهمْ إنما قالوا ذلكَ اسْتِهْزاءً وإنكاراً لِلْبَعْثِ وجُحوداً.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ هذا الحَرْفُ في الظاهِرِ ليسَ هو بِصِلَةٍ للأولِ لأنهُ إنما يُقالُ عن سؤالٍ سابقٍ في تَوَفِّي الخَلْقِ وقَبْضِ أرواحِهِمْ: مَنْ[1]؟ فيُقالُ عند ذلك ﴿يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الصِّلَةِ بالأولِ لأنهمْ أنكروا البَعْثَ وإحياءَ آبائِهِمْ مِنَ الترابِ لِما لا يَروْنَ للهِ القدرةَ على ذلكَ. فَيَذْكُرُ أنهُ مَكَّنَ، وأقْدَرَ عبداً مِنْ عَبيدِهِ على قَبْضِ أرواحِ جَميعِ الخلائقِ مِنَ المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَمَهُ أحدٌ أنهُ كيفَ يَقْبِضُ؟ وكيفَ يُمْكِنُ لهُ ذلكَ. فَيُخْبِرُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا ألا يَقْدِرُ على إحياءِ / ٤٢١ ـ أ/ الخَلْقِ بَعْدَ ما صاروا تُراباً ورَماداً؟ بل قادرٌ على ما يَشاءُ، وكيفَ شاءَ، ومَتَى شاءَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

ثم قولُهُ: ﴿يَتَوَفَّـٰكُم﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ يَتَوَفَّى العَدَّ، أي يَجْعَلُهُمْ وفاءً لِعَدِّها كقولِهِ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] وجائزٌ أنْ يكونَ التَّوَفِّي مِنَ الاستيفاءِ ووفاءِ التَّمامِ، أي يَسْتَوفِيَ الرُّوحَ كلَّهُ، فلا يَبْقَى في الجَسَدِ منهُ شيءٌ.

ثم في الآيةِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العبادِ لأنهُ أخبرَ أنَّ مَلَكَ المَوتِ يَتوفّاهُمْ، ويُميتُهُمْ، وقد أخبرَ أنهُ خَلَقَ المَوتَ والحياةَ. فَدَلَّ أنَّ جميعَ ما يَفْعَلُ العبادُ، هو خَلْقُ اللهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ضَلَلْنا: أي بَطَلْنا، وصِرْنا تُراباً. وقالَ غيرُهُ: هَلَكْنا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ضَلَلْنَا﴾ بالضادِ إذا صِرْنا في القُبورِ، وبُلِينا فيها. ويُقالُ: ضَلِلْنا بالكسرِ مِنَ الضَّلالِ، ويُقالُ: ضَلِلْتُ عنِ[2] كذا، إذا لم يَدْرِ أينَ هو[3]، ويُقالُ: صَلَلْنا بالصادِ[4]، وهو مِنْ صَلَّ اللحمُ، أي أنْتَنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يَصْعَدُ في قولِ القُتَبِيِّ وأبي عوسَجَةَ. ويَعْرُجُ أي يَخْبِسُ. و﴿نَسْلَهُۥ﴾ أي وَلَدَهُ. وقالا: السلالةُ الخالصُ مِنْ كلِّ شيءٍ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقولُ: واللهُ أعلَمُ، لو تَرَى يا محمدُ ما نَزَلَ بالمُجْرِمينَ يومئذٍ مِنَ العذابِ وفي ما هم فيهِ مِنَ الحالِ الشديدةِ والهَوانِ بالتكذيبِ الذي كانَ منهمْ وإساءتِهِمْ إليكَ لَرَحِمْتَهُمْ، ولم تَتَكَلَّفْ مُكافأةَ إساءتِهِمْ وتكذيبِهِمْ[5] لِعِظَمِ ما نَزَلَ مِنَ العذابِ والشدائدِ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ندامةً وحَسْرَةً وحُزْناً على ما كانَ منهمْ.

على مِثْلِ هذا يُخَرَّجُ التأويلُ، وإلّا ليسَ في ظاهِرِ الآيةِ جوابُ قولِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فجوابُهُ ما ذَكَرْنا ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ بالحُجَجِ والبراهينِ عِياناً بَعْدَ ما كُنا أبْصَرْناها في الأُولَى بالدلالةِ ﴿وَسَمِعْنَا﴾ أي قَبِلْنا، وأجَبْنا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الأُولَى إذِ المِحْنَةُ ﴿نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

والثاني: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ صِدْقَ الرسلِ، وأيْقَنّا بِما وَعَدونا، وأوعَدونا في الدنيا، ﴿وَسَمِعْنَا﴾ سَماعَ إيقانٍ وعِيانٍ ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي لو شِئْنا لآتينا كلَّ نفسٍ ما عِنْدَنا مِنَ اللُّطْفِ الذي لو كانَ منهمُ الاختيارُ لذلكَ لاهْتَدَوا. لكنْ لم نُعْطِهِمْ ذلكَ اللطفَ لِما لم نَعْلَمْ منهُمْ كونَ ذلكَ الاختيارِ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: شاءَ أنْ يُعْطِيَ كلَّ نفسٍ ما بهِ تَهْتَدي، وقد أعطاها، لكنها لم تَهْتَدِ. فقولُهُمْ، مُخالِفٌ للآيةِ لأنهمْ يَقولونَ: شاءَ أنْ تَهْتَدِيَ كلُّ نفسٍ، وآتَى كلَّ نفسٍ ما بهِ تَهْتَدي، لكنها لم تَهْتَدِ، ولكنهمْ يقولونَ: المَشيئةُ هنا مَشيئةُ الجَبْرِ والقَسْرِ. فيُقالُ لهمْ: زَعَمْتُمْ أنهُ قد شاءَ أنْ يَهْتَدوا، وآتاهُمْ ما بِهِ يَهْتَدونَ، فلم يَهْتَدوا، ولم تُنْفَذْ مَشيئَتُهُ. فأنَّى يَقْدِرُ، ويَمْلِكُ؟ إنْ شاءَ مَشيئةً تَقْهَرُهُمْ، وتَجْبُرُهُمْ حتى يَهْتَدوا، وكيفَ يُؤْمَنُ على ذلكَ، فذلكَ بعيدٌ على قولِكُمْ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: إنه. (٢) في الأصل وم: شيء. (٣) في الأصل وم: ذهب. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/٩٩. (٥) من م، في الأصل: إليك لرحمتهم.

جنة السنة

فيقالُ لهمْ أيضاً: إنَّ الإيمانَ والتوحيدَ في حالِ القَهْرِ والقَسْرِ لا يكونُ إيماناً لأنَّ القَهْرَ والجَبْرَ يرفَعُ الفِعْلَ عن فاعِلِهِ، ويُحَوِّلُهُ عنهُ. فكيفَ يَصِحُّ تأويلُكُم على هذا؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أي لكنْ وَجَبَ القولُ مِنّي بما عَلِمْتُ أنهُ يكونُ منهمْ، ويَحْدُثُ ما يَسْتوجِبونَ جَهَنَّمَ، وهو ما عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَختارونَ الرَّدَّ والتكذيبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ في هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنهُ قد عَصَمَ ملائكَتَهُ عن عَمْدِ ما يَسْتوجِبونَ بهِ جَهَنَّمَ بَعْدَ قولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] حينَ[1] خَصَّ الجِنَّ والإنْسَ في ما يَمْلأُ بهما جَهَنَّمَ.

فإنْ قيلَ: إنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] قيلَ: هُمْ أصحابُ النارِ في تعذيبِ غَيرِهِمْ، وليسوا هُمْ بأصحابِها في ما يَنْتَهي إليهمُ العذابُ. ولِلّهِ أنْ يَجْعَلَ، ويَمْتَحِنَ مَنْ يَشاءُ على تَعْذيبِ مَنْ شاءَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ النِّسْيانُ الذي ذَكَرَ منهمْ ليسَ هو نِسْيانَ غَفْلَةٍ وسَهْوٍ، لأنهُ لا كُلْفَةَ تَلْزَمُ في حالِ السَّهوِ والغَفْلَةِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: تَضْييعُ وتَرْكُ تَصْديقِ الرسلِ[2] بما أوعَدوهُمْ بهِ وتكذيبُهُمْ ورَدُّ الحُجَجِ والآياتِ كذلكَ.

والثاني: ﴿نَسِيتُمْ﴾ أي جعلتُمْ ذلكَ كالمَنْسِيِّ [لو كُنْتُمْ[3] تكْتَرِثونَ بِلِقاءِ اللهِ.

وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: أي جَعَلْناكُمْ كالمَنْسِيِّ مِنْ رحمتِهِ وفضلِهِ، لا نَكْتَرِثُ إليكمْ، ولا نَعْبأُ بِكُمْ كما جَعَلْتُمْ أنتُمْ آياتِهِ وحُجَجَهُ وما دعُوكُمْ إليهِ كالمَنْسِيِّ][4] المَتْروكِ الذي لا يُكْتَرَثُ إليهِ.

والثاني: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي نَجزيكُمْ جزاءَ نِسْيانِكُمْ[5] وتَضْييعِكُمْ.

ويجوزُ تَسْمِيَةُ الجزاءِ باسْمِ أصلِهِ وأوَّلِهِ، وإنْ لم يَكُنِ الثاني في الحقيقةِ سَيِّئَةً ولا اعْتِداءً. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ذوقوا عذابَ الخُلْدِ بما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ، وتَعْتَقِدونَ المذهبَ لِلْخُلودِ والأبَدِ، لأنَّ كلَّ ذي مذهبٍ ودينٍ إنما يَعْتَقِدُ المذهبَ، ويَخْتارُهُ لِلأَبَدِ.

فَعَلى ذلك جَعَلَ تعذيبَهُمْ في النارِ لِلأبَدِ.

وأمّا مَنْ يَرْتَكِبُ المَآثِمَ والزَّلاتِ مِنَ المؤمنينَ فإنما يَرْتَكِبُ عندَ شدةِ الحاجةِ وغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ وفي وقتِ ارْتِكابِهِ لا للأبَدِ. لذلكَ افْتَرَقا.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ أي يُحَقِّقُ الإيمانَ باللهِ، وبآياتِهِ الذينَ إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّداً للهِ حقيقةً.

ثم يَحْتَمِلُ ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [وجهَيْنِ:

أحدُهما[6]]: حقيقةُ السجودِ عندَ تِلاوةِ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ السجودِ.

والثاني: يكونُ ذِكْرُ خرورِ الوجهِ والسجودِ كِنايَةً عنِ الخُضوعِ لها والانْقيادِ والاسْتِسْلامِ والقَبولِ لها.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: بها. (٣) في نسخة الحرم المكي: تكونوا. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: وترككم أي نجعلكم كالمنسي من رحمته وفضله لا يكترث إليكم ولا يعبأ بكم كما جعلتم أنتم آياته وحججه وما دعوكم إليه كالمنسي المتروك الذي لا يكترث إليه والثاني. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فأحَدُهما: على حقيقةِ السجودِ عندَ تذكيرِ الآياتِ لهمْ والتّلاوةِ عليهم. والثاني: على الكنايةِ عنِ القَبولِ لها والاستِسْلامِ. وإلّا ليسَ مِنْ كُلِّ ذي مَذْهَبٍ مِنْ أهلِ الكُفْرِ مِنْ عَبَدَةِ الأوثانِ وغيرِهِمْ إلّا ويَدّعي الإيمانَ باللهِ وبآياتِه، ويَزْعُمُ أنَّ الذي هو عليهِ، هو الإيمانُ بهِ والمُؤْتَمِرُ بأمْرِهِ.

ألا تَرى أنهُ كيفَ أخبَرَ عنهمْ حينَ[1] قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؟ [الأعراف: ٢٨].

كانوا يَدّعُونَ في جميعِ ما يَعْمَلونَ أنّ اللهَ تعالى أَمَرَهُمْ بذلكَ وأنهمْ مؤمنونَ بهِ مؤتَمِرونَ بأمْرِهِ. فأخبَرَ أنهُ إنما يَحقّقُ[2] الإيمانَ باللهِ وبالآياتِ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ لا أولئكَ الذينَ يَدّعونَ ذلكَ، وليسُوا هُمْ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ التسبيحُ هو تَنزيهُ الرَّبِّ وتَبرِئتُهُ مِنْ[3] جميعِ ما قالتِ المَلاحِدَةُ فيهِ ونَسَبوهُ إليهِ ممّا لا يَليقُ بهِ. يقولُ: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ذَكَروهُ بِمَحاسِنِهِ ومَحامِدِهِ، وبرَّؤوهُ، ونَزَّهوهُ، عنْ جميعِ ما وَصَفَهُ أولئكَ، ونَسَبوهُ إليهِ. هذا، واللهُ أعلَمُ، هو التسبيحُ بحمدِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا أحَدَ يَخطُرُ ببالِهِ أنْ يَسْتَكبِرَ على اللهِ أو على أمرِهِ. ولكنْ كانوا يَسْتَكبِرونَ على رُسُلِهِ / ٤٢١ - ب/ لِما [لا][4] يَرونَهُمْ أهلاً لذلكَ، أو أنْ يكونوا يَسْتَكبِرونَ على [ما][5] يَدْعونَ إليهِ، ولا يَجيبونَ لذلكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ رُوِيَ عنْ أنَسِ بنِ مالكٍ ﷺ، أنها نَزَلَتْ في أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، لكنِ اختَلَفَتْ فيهِ الرواياتُ:

ذُكِرَ في بعضِها أنها نَزَلَتْ في نَفَرٍ مِنْ عُمّالِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، كانوا يَعْمَلونَ بالنهارِ، فإذا جَنَّ عليهِمُ الليلُ اضطَجَعوا بَيْنَ المَغرِبِ والعِشاءِ، فناموا. فلما نَزَلَ هذا اجْتَنَبوا عنْ ذلكَ.؟

وذُكِرَ عنهُ أنهمْ كانوا يُصَلّونَ بَيْنَ المَغرِبِ والعِشاءِ، فنَزَلَتِ الآيةُ فيهِمْ.

فإنْ كانَ هذا فنُزولُ الآيةِ لذلكَ يُخَرَّجُ مُخرَجَ المَدْحِ لهمُ والثناءِ الحَسَنِ، وإنْ كانَ الأوّلَ فهو على النَّهْيِ والتوبيخِ لذلكَ.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِها: قالَ بعضُهُم: هو التَّيَقُّظُ والصلاةُ بَيْنَ المَغرِبِ والعِشاءِ الآخِرَةِ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ: هو التَّجافي عنِ المَضاجعِ لصلاةِ العِشاءِ والفَجْرِ[6]، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ بذِكْرِ اللهِ كلّما استَيقَظوا ذكَروا اللهَ إمّا صلاةً وإمّا قِياما وإمّا قُعوداً، لا يزالونَ يَذْكُرونَ اللهَ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ بِقيامِ الليلِ والصلاةِ فيهِ. وهذا أشبَهُ التأويلاتِ لأنهُ قالَ: ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ والتَّجافي عنِ المَضاجِعِ إنما يكونُ في الوقتِ[7] الذي يُضطَجَعُ فيهِ، وفيهِ يَقَعُ الامْتِداحُ والثناءُ الحَسَنُ لأنهُ وقتُ الغَفْلَةِ والنومِ فيهِ.

وأمّا سائرُ الأوقاتِ فليسَ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي يَعْبدونَ ربَّهُمْ. ويَحْتَمِلُ حقيقةَ الدعاءِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿خَوْفًا﴾ مِنْ عذابِ اللهِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في رَحْمَتِهِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿خَوْفًا﴾ أي يَخافونَ التَّقْصيرَ في العِبادةِ ﴿وَطَمَعًا﴾ أي يَطْمَعونَ في إحسانِهِ. وإحسانُهُ في العَفْوِ والتَّجاوُزِ. وهكذا عَمَلُ المؤمنِ بَيْنَ الخَوفِ والطَّمعِ؛ يَخافُ التقصيرَ فيهِ، ويَطْمَعُ في إحسانِهِ.

ذُكِرَ عنِ الحَسَنِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، [أنهُ][8] قالَ: «قالَ ربُّكُمْ ﷻ: وعِزَّتي وجَلالي، لا أجْمَعُ على عبدي خَوفَينِ، ولا أجْمَعُ أمْنَينِ، فإذا خافَني في الدنيا أمَّنْتُهُ يومَ القيامةِ، وإذا أمِنَني في الدنيا أخَفْتُهُ يومَ القيامةِ، ثم قرَأ قولَهُ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الآيةَ» [البزار: في كشف الأستار ٣٢٣٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يتحقق. (٣) في الأصل وم: له عن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: يصليهما. (٧) في الأصل وم: وقت. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يَحتَمِلُ الزكاةَ المَفروضةَ، ويَحتَمِلُ صدقةَ التَّطوُّعِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِنَ القِوى والأسبابِ البَليَّةِ ﴿يُنفِقُونَ﴾ أي يَعْمَلونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ذُكِرَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، [أنهُ][1] قالَ: «قالَ ربُّكُمْ: أعْدَدتُ لِعبادي الصالِحِينَ ما لا عَينٌ رأَتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشرٍ» [البخاري ٣٢٤٤] هذا عِلْمُ[2] النفسِ: أنها لا تَعْلَمُ أمثالَ[3] ما أحَسَّتْ، وعايَنَتْ، وشاهَدَتْ. فأمّا العقلُ فإنهُ جائزٌ أنْ يَعْلَمَ، ويَخطِرَ مالم يَرَ لهُ مِثالاً، واللهُ أعلَمُ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: يَدعونَ ربَّهُمْ أمناً وإياساً لا على الخوفِ والطَّمعِ على ما ذَكَرَ، لأنهمْ، لا يَخْلُو، إمّا أنْ يكونوا أصحابَ الصغائرِ أو أصحابَ الكبائرِ. فإنْ كانوا أصحابَ الصغائرِ فهمْ أَمِنوا على قولِهِمْ: [إنهُ لا يَسَعُ][4] لهُ أنْ يُعَذِّبَ على الصغيرةِ على قولِهِمْ. وأصحابُ الكبائرِ هُمْ آيِسونَ مِنْ رَحمَتِهِ، إذْ لا يَسَعُ [لهُ أنْ يَغْفِرَ لهمْ][5] على قولِهِمْ. فقولُهُمْ مُخالِفٌ لِظاهِرِ الآيةِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي لا يَضَعونها بالأرضِ، يُقالُ: تَجافَى جنْبي إذا لم يَضطَجِعْ، ولم يَنَمْ، وجافَيتُ جَنْبي، أي لم ألزِقْهُ في الأرضِ.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي تَرتَفِعُ عنِ الأرضِ[6].

الآيات ١٨ و١٩ و٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [إلى قولِهِ: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾][7] إنَّ أهلَ التأويلِ يقولونَ: نَزَلَتِ الآيةُ في شأنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ والوليدِ بنِ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، كانَ بَيْنَهُ وبَينَ عليٍّ ﷺ كلامٌ وتَنازُعٌ حتى قالَ لهُ عليٌّ: إنكَ فاسِقٌ وأنا مؤمِنٌ، فَنَزَلَتِ الآيةُ في جميعِ المؤمِنينَ والفاسِقِينَ؛ يُخْبِرُ أنْ ليسَ بَيْنَهُمُ استِواءٌ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا، ونَزَلَ لِقولِ قائلٍ منْ أولئكَ الكَفَرَةِ الفَسَقَةِ لِلمؤمِنينَ: إنَّ مَنْزِلَتَنا ومَنْزِلَتَكُمْ وقَدْرَنا وقَدْرَكُمْ في الآخِرةِ عندَ اللهِ سَواءٌ. فنَزَلَتِ الآيةُ لذلكَ أنهما لَيسا بِسَواءٍ، فَبَيَّنَ مَنْزِلَةَ المؤمِنِ عندَ اللهِ وقَدْرَهُ وما ذَكَرَ مِنَ الثوابِ لهُ ومَنْزِلَةَ الفاسِقِ وما[8] ذَكَرَ مِنَ الخُلودِ في النارِ أبداً كقولِهِ: ﴿الٓمٓ﴾﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ١ و٢]. وكقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية [الجاثية: ٢١]. أو نَزَلَ[9] ذلكَ على الابْتِداءِ: إنكمْ تعرفونَ في عُقولِكُمْ أنْ ليسَ المؤمنُ المُصَدِّقُ في الشاهِدِ في المَنْزِلَةِ والقَدْرِ عندَهُ كالخارجِ عنْ أمْرِهِ والمُكَذِّبِ لهُ. فكيفَ تطمَعونَ الاستِواءَ عندَ اللهِ، وأنتمُ الفَسَقَةُ الخارجونَ عنْ أمْرِ اللهِ، وأولئكَ همُ الصادقونَ لهُ؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم الخوارجُ والمُعْتَزِلَةُ يقولونَ: لو كانَ الفاسِقُ مؤمناً على ما تقولونَ لم يكُنْ لِما ذَكَرَ مَعنًى. فَدَلَّ أنَّ الفاسِقَ لا يكونُ مؤمِناً حينَ[10] ذَكَرَ أنهما لا يَستَويانِ، وأنَّ المؤمنَ، مأواهُ الجنةُ، والخلودُ لهُ فيها، والفاسِقُ مقامُهُ في النارِ، خالدٌ[11] فيها على ما ذَكَرَ. فلو كانَ على ما تقولونَ لَكانا يَستَويانِ، أو كلامٌ نَحوُ هذا.

فَيُقالُ لهمْ. إنّا وأنتُمْ نَتَّفِقُ أنَّ هذا الفاسِقَ المَذكورَ في الآيةِ ليسَ بمؤمنٍ، وأنهُ لا يَستَوي المؤمِنُ [والفاسِقُ][12] لأنهُ ذَكَرَ الفِسْقَ مُقابِلَ الإيمانِ. دليلُهُ آخِرُ الآيةِ حيثُ قالَ: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

ذَكَرَ التكذيبَ، والتكذيبُ هو مُقابِلُ الإيمانِ والتصديقِ. وكلُّ فِسْقٍ، كانَ مذكوراً مُقابِلَ الإيمانِ، هو كُفْرٌ وتكذيبٌ، فهو لا يَكُونُ مُؤمِناً. ولكنْ هاتوا فِسقاً ذُكِرَ لا مُقابِلَ الإيمانِ، ولكنْ مُقابِلَ غيرِهِ مِنَ العِصيانِ والمساوئِ، ويكونُ لهُ هذا الوعيدُ الذي ذَكَرَ في هذا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عمل. (٣) في الأصل وم: الأمثال. (٤) في الأصل: لأنه لا يسمح، في م: لأنه لا يسع.
(٥) في الأصل وم: أن يغفر. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: و﴿نُزُلًۢا﴾ [السجدة: ١٩] من النزولِ، والنزولِ ما يجعل للرجل ما يأكله، وينفقه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يذكر. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: خالدين. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ألا ترى أنّ السؤالَ المذكورَ مُقابِلَ الإيمانِ كُفرٌ كقولِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾؟ [غافر: ٥٨].

فَعلَى ذلكَ الفِسقُ المَذكورُ مُقابِلَ الإيمانِ كُفرٌ، لا يَقعُ فيهِ استِواءٌ بحالٍ. وأمثالُ الفِسقِ المذكورِ، لا يُقابِلُ الإيمانَ. فجائزٌ أنْ يَقعَ فيهما استِواءٌ، وهو أنْ يُغفَرَ لهُ ذنبُهُ، ويُكفَّرَ عنهُ سَيِّئتُهُ، ويُدخَلَ الجنةَ حينَ[1] قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الآية [الأحقاف: ١٦] هو في مشيئةِ اللهِ، إنْ شاءَ عذَّبَ، وإنْ شاءَ تَجاوزَ عنهُ.

وأصحابُ الحديثِ يقولونَ: إنَّ جميعَ الطاعاتِ إيمانٌ بهذهِ الآيةِ لأنهُ قالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾.

ثم فَسَّرَ ذلكَ المؤمِنَ، فقالَ: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وَعَدَ لهمُ الجنّاتِ بالإيمانِ وعَمَلِ الصالحاتِ. فَيقالُ: إنَّ الوَعْدَ المُطلَقَ هو لِمَنْ آمَنَ، وعَمِلَ الصالحاتِ.

فأمّا مَنْ آمَنَ، ولم يَعمَلْ مِنَ الصالحاتِ شيئاً فلا[2] نقولُ: إنَّ لهُ ذلكَ الوَعدَ/ ٤٢٢ ـ أ/ المُطلَقَ، ولكنْ لهُ الوعدُ الذي ذَكَرْنا.

وفي الآيةِ دلالةٌ: أنْ قد يَعمَلُ المؤمِنُ غَيرَ الصالحاتِ، وهو مؤمنٌ، لأنهُ لو لم يكُنْ منهُ غيرُ عَمَلِ الصالحاتِ لم يكُنْ لِشَرْطِ العَمَلِ الصالحِ لهُ مَعنًى، دلَّ أنْ يكونَ مِنَ المؤمِنِ غَيرُ العَمَلِ الصالحِ. وذلكَ على المُعتزلةِ والخوارجِ.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ اختُلِفَ في العذابِ الأدنى: قالَ بعضُهُمْ: هو القَتلُ يومَ بَدرٍ، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: هو الجوعُ في السِّنينَ التي كانَتْ لهمْ فيها، والضِّيقُ والشِّدّةُ، ومنهُمْ مَن يقولُ: هو المصائبُ التي تُصيبُهُمْ، وأمثالُ ذلكَ كثيرةٌ.

لكنَّ ذلكَ العذابَ، ليسَ هو عذابَ الكُفرِ، لأنَّ عذابَ الكُفرِ في الآخِرةِ أبداً دائماً، لا زَوالَ ولا انْقِطاعَ. فأمّا عذابُ الدنيا لهمْ [فهو][4] عذابُ عِنادِهِمْ وما يكونُ منهمْ مِنَ الجناياتِ في حالِ كُفرِهِمْ، يُعَذَّبونَ في الدنيا لِيُذَكِّرَهُمْ ذلكَ العذابُ في الآخِرةِ العذابَ الدائمَ لِيَمنَعَهُمْ ما[5] بهِ يُعَذَّبونَ في الدنيا عن عذابِ الآخِرةِ.

وكذلكَ ما أعْطَى لهمْ مِنَ اللَّذّاتِ والنعيمِ في الدنيا، وإنْ كانَ مُنقطِعاً، لِيُذَكِّرَهُمْ[6] ذلكَ النعيمُ وتلكَ اللذاتُ لذاتِ الآخِرةِ ونِعَمَها الدائمةَ. ولذلكَ رَغَّبَ اللهُ خَلْقَهُ إلى طَلَبِ الآخِرةِ، وأخبَرَ أنَّ لهمْ فيها مِنَ اللَّذّاتِ كذا في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ كقولِهِ[7]: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ الآية [الزخرف: ٧١] ونحوُهُ كثيرٌ. والعذابُ الأكبرُ هو عذابُ الآخِرةِ، وهو عذابُ الكُفرِ والتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يُلْزِمَهُمْ حُجَّةَ الرجوعِ عمّا همْ فيهِ مِنَ التكذيبِ لئلا يقولوا ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ قولُهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي [لا][8] أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ وَوَقَعَ لهُ المعرفةُ والعِلمُ أنها آياتُ ربِّهِ ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بعدَ ما عَرَفَها، وعَلِمَ بها. ليسَ أحدٌ أظلَمَ مِنْ ذلكَ المُذكَّرِ[9] بآياتِهِ ما ذَكَرْنا. إنهمْ يُذَكَّرونَ لِيَقعَ لهمْ أنها آياتُهُ.

ثم يَحتَمِلُ آياتِ وحدانيّتِهِ وآياتِ الرسالةِ وآياتِ البَعثِ أو آياتِ القرآنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جُرْمُهُمْ ههنا جُرْمُ كُفرٍ؛ يَنتَقِمُ منهمُ انْتِقامَ الكُفرِ والتكذيبِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لأنا. (٣) و(٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عما. (٦) من م، في الأصل: ليذكر. (٧) في الأصل وم: حيث قال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: التذكير

جنة السنة

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ اختُلِفَ فيه:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي مِنْ أنْ تَلْقاهُ يومَ القيامةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن﴾ لِقاءِ موسى التوراةَ، فإنَّ اللهَ ألْقَى التوراةَ عليهِ حقّاً، فتلَقّاها[1] عِياناً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ ليلةَ أُسْرِيَ بهِ؛ قد رُوِيَ مِثْلُ هذا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قد أُسْرِيَ بهِ، وعُرِجَ إلى السماءِ، فقالَ لهُ موسى: كذا وكذا أشياءَ، ذُكِرَتْ في أمْرِ الصلاةِ وغيرِهِ.

فلا نَدري أثبَتَ ذلكَ أم لا؟ أو إنْ ثَبتَ فكيفَ كانَ ذلكَ؟ [أأُوحِيَ][2] لهُ، فقالَ ما ذَكَرَ، أم رأى ذلكَ في المنامِ، ورُؤْيا الأنبياءِ حقٌّ، أو كيفَ كانَ؟ [فالأمْرُ للهِ][3] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: جَعَلْنا موسى هُدًى لِبَني إسرائيلَ، يَجْعَلُ الهاءَ كِنايةً عن موسى. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ﴾ أيِ الكتابَ الذي أُوتِيَ موسى هُدًى لِبَني إسرائيلَ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: البَيانُ: أي جَعَلْناهُ بَياناً لهمْ، يُبيِّنُ ما لهمْ وما عليهِمْ وما للهِ عليهِمْ.

والثاني: ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي دعاءً لِبَني إسرائيلَ، يَدْعونَ الخَلْقَ بهِ إلى توحيدِ اللهِ وألوهيَّتِهِ.

الهُدَى المَضافُ إلى الخَلْقِ يُخَرَّجُ على هذينِ الوجهَيْنِ: على البَيانِ والدعاءِ.

والهُدَى المَضافُ إلى اللهِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ أربعةٍ: على البَيانِ وعلى الدعاءِ [اللّذَيْنِ ذَكَرْنا][4] وعلى وجهَيْنِ آخَرَيْنِ:

أحدُهُما: التوفيقُ والمَعونَةُ، والثاني: على خَلْقِ فِعْلِ الاِهتداءِ منهمْ.

على هذه الوجوهِ الأربعةِ تُخَرَّجُ إضافةُ الهُدَى إلى اللهِ، وإلى الخَلْقِ على الوجهَيْنِ اللّذَيْنِ ذَكَرْناهُما.

فإنْ قيلَ: كيفَ خَصَّ موسى أنهُ جَعلَهُ هُدًى لِمَنْ ذَكَرَ؟ وذلكَ قد يكونُ في غيرِهِ، وهو ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ شهادةَ وَحْدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ. قيلَ: ذلكَ إنما يُدْرَكُ بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ، وأمّا في ما ذَكَرَ فَيُدْرَكُ بالبَديهَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعونَ الناسَ بِما أمَرَهُمْ، وهو التوحيدُ، أو ﴿يَهْدُونَ﴾ أي يُبيِّنونَ لهمْ بالذي أمَرْنا: مالهمْ وما عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: لِما[5] ﴿صَبَرُوا۟﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي لِما صَبَروا على البلاءِ وتعذيبِ فرعونَ إياهُمْ وأذاهُ إياهُمْ، أي آمَنوا، ودَعَوا غيرَهُمْ إلى ذلكَ على الخَوفِ كقولِهِ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ﴾ الآية [يونس: ٨٣]. وقالَ بعضُهُمْ: لِما صَبَروا على الطاعاتِ.

وقد قُرِئَ ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ بالتشديدِ، ومعناهُ، واللهُ أعلَمُ، أي إنما يَهدونَ لمّا كانَ منهمُ الصبرُ على ذلكَ، أي بالصبرِ الذي كانَ منهمْ هَدَوا أولئكَ [وقالَ بعضُهُمْ ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ أي لم يَرْكَنوا إلى الدنيا، ولا اشْتَغَلوا بها، ولكنْ صَبَروا على ما أُمِروا، وكُلِّفوا، واللهُ أعلَمُ][6].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أنها مِنَ اللهِ، وأنها آياتُهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إنَّ أهلَ الأديانِ جميعاً والمذاهبِ على اختِلافِ أديانِهِمْ ومذاهبِهِمْ اتَّفَقوا أنَّ الدينَ الذي جاءَ مِنَ اللهِ واحدٌ، وأنَّ الدينَ الذي أمَرَ اللهُ أنْ يَدينوا بهِ واحدٌ. لكنَّ [كُلّاً][7] منهمُ ادَّعى أنَّ الذي هو عليهِ دينُ اللهِ، وأنَّ الأمْرَ بهِ مِنَ اللهِ، وقَعَ ما يَدينُ هو بهِ، وغيرَهُ على باطلٍ على غيرِ دينِ اللهِ الذي أمَرَ بالديانةِ بهِ. وكذلكَ[8] قالَ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآيةَ [الأعراف: ٢٨].

(١) في الأصل وم: فلقيها. (٢) في الأصل وم: أنه أوحى (٣) في الأصل وم: لأمر الله. (٤) في الأصل وم: الذي ذكرنا أيضاً. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ١٠٤. (٦) أدرجت في الأصل وم: بعد: أنها من الله وأنها آياته. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: ولذلك.

جنة السنة

فأخبرَ أنهُ يَفصِلُ بينَهُمْ، ويُبيِّنُ الذي أمرَ أنْ يَدينوا بهِ في الدنيا بيانَ الاحتجاجِ عليهِمْ، وإلّا فقد أبانَ لهمْ، وأظهَرَ الدينَ الذي أمَرَهُمْ أنْ يدينوا بهِ بالحُجَجِ والآياتِ، وعَرَفوا[1] ذلكَ. لكنهمْ كابَروا، وعانَدوا، وكَتَموا ذلكَ، ولَبَسوهُ[2] على الناسِ والأتباعِ، ويُبيِّنُ ما كَتَموا في الدنيا، ولَبَسوا في الآخِرةِ، فَيُظهِرُ عِنادَهُمْ ومُكابرَتَهُمْ احتِجاجاً عليهِمْ، وإنْ كانَ الحقُّ قد بانَ لهمْ، وظَهَرَ في الدنيا. هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشبِهُ أنْ يكونَ تأويلُ[3] الآيةِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أوَ لم يُبيِّنْ لأهلِ مكةَ؟ أوَ لم يَكفِهِمْ مِنَ الهدايةِ والبيانِ ما أهلَكْنا مِنْ قَبلِهِمْ مِنَ القرونِ ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ فَيَرونَ ما حَلَّ بهِمْ ومَنْ أهلكَ ومَنْ نَجا منهمْ، فَيَقَعُ الاعتِبارُ لهمْ بِمَنْ ذَكَرَ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُما: زَعَموا أنَّ آباءَهُمْ على ما هُمْ عليهِ، وأنهمْ يُقلِّدونَهُمْ في ذلكَ، وأنهمْ أُمِروا بذلكَ.

فَيُخبِرُهُم[4] أنكُمْ أولادُ مَنْ نَجا منهمْ لا أولادُ مَنْ أُهلِكوا لأنهمُ استُؤصِلوا. فلا يُحتَمَلُ أنْ يكونوا أولادَ مَنِ استُؤصِلوا. فدلَّ أنهمْ أولادُ مَنْ نَجا منهمْ [وإنما نَجا منهمْ][5] المُصدِّقُ لا المُكذِّبُ.

فَيُخبِرُهُمْ[6] أنْ كيفَ لا اتَّبَعْتُمْ آباءَكُمُ الذينَ نَجَوا منهمْ؟ وهُمُ المُصدِّقونَ دونَ الذينَ / ٤٢٢ ـ ب/ أُهلِكوا بالتكذيبِ والعِنادِ

والثاني: يَعتَبِرونَ، فَيَعلَمونَ أنَّ هلاكَهُمْ واستِئصالَهُمْ كانَ بالتكذيبِ والعِنادِ معَ الرسلِ والخِلافِ لهمْ، فَيَمنَعُهُمْ ما حلَّ بهمْ بالتكذيبِ والخِلافِ للرسلِ عنْ تكذيبِ رسولِ اللهِ ومجادَلَتِهِمْ إيّاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أفلا يُبصِرونَ ذلكَ حيثُ يمشونَ في مَساكِنِ أولئكَ، ويَمُرُّونَ فيها. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ما حدثَ لهمْ مِنْ أولئكَ، وما حلَّ بهمْ، وبِمَ نَزَلَ ذلكَ بهِمْ؟ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أفلا يَعقِلونَ لِماذا أُهلِكوا أوِ استُؤصِلوا؟ فَيَمتَنِعوا[7] عنْ ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعيدَ الذي أوعَدَ لهمْ؟ وقيلَ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ التوحيدَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

هذهِ الآيةُ ذُكِرَتْ في الاحتِجاجِ عليهِمْ لإنكارِهِمُ البَعْثَ. والأولى ذُكِرَتْ لإنكارِهِمْ نُزولَ العذابِ بالتكذيبِ والخِلافِ للرسلِ؛ فَيُخبِرُهُمْ إنَّ مَنْ قَدَرَ على سَوقِ [الماءِ][8] إلى الأرضِ المَيْتَةِ اليابِسَةِ وإحيائِها لَقادرٌ على إحيائِكُمْ بعدَ الموتِ؛ إذِ الأعجوبةُ والقُدرةُ في إحياءِ الأرضِ المَيْتَةِ اليابِسَةِ: إنْ لم يكُنْ أكثَرَ، فلا تكونُ دونَ[9] ما أنكَروا. فكيفَ أنكَرْتُمُ القُدرةَ على إحياءِ المَوتى، وقد عايَنْتُمْ ما هو أكثَرُ أو مِثلُهُ؟

والأرضُ الجُرُزُ: قالَ أبو عَوسَجَةَ: هي التي لا نَبتَ فيها، وأرَضونَ أجرازٌ [وأراضٍ أجرازٌ][10] وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: الأرضُ الجُرُزُ اليابِسَةُ التي لا نَبتَ فيها، وجَمعُها أجرازٌ، ويُقالُ: سِنونَ أجرازٌ إذا كانَتْ سِني جَدْبٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الأرضُ الجُرُزُ التي تأكُلُ نَباتَها، أي يَحترِقُ فيها. يُقالُ: امرأةٌ جَرْزاءُ إذا كانَتْ أكولةً، أو كلامٌ نحوُهُ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ مِنَ الزَّرعِ الذي ذَكَرَ أنهُ يَخرُجُ مِنَ الأرضِ اليابِسَةِ ﴿أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ قدرتَهُ في إخراجِ ما ذَكَرَ ممّا فيهِ غذاؤكُمْ وغِذاءُ ما سَخَّرَ لكمْ مِنَ الأنعامِ.

[ويَحتَمِلُ أنْ][12] يَذكُرَ نِعمَهُ؛ يقولُ: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ نِعمَهُ، فكيفَ تكفُرونَهُ، وتَعبُدونَ غيرَهُ، وتَصرِفونَ الشُّكرَ إلى غيرِهِ؟

وذُكِرَ عنْ عمرَ رضي الله عنه، أنهُ قالَ: الأرضُ الجُرُزُ التي لا نَباتَ فيها.

(١) في الأصل وم: وعرفوه. (٢) في الأصل وم: ولبسوا. (٣) في الأصل وم: تأويلا. (٤) في الأصل وم: فيخبر. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: فيخبر. (٧) في الأصل وم: فيمتنعون. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: دونه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ كانوا يقولونَ، ويتحدَّثونَ: إنَّ لنا يوماً أو شكَ أنْ نَستريحَ فيهِ [ونتنعَّمَ فيهِ][1] يَعْنونَ يومَ القيامةِ، فقالَ كُفّارُ مكةَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؟ وهو القضاءُ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنهُ كائنٌ. فإنْ كانَ البَعْثُ والقيامةَ حقاً صَدَّقْناهُ يومئذٍ وآمنّا.

الآية ٢٩ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لهمْ ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يومَ القضاءِ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ بالبَعْثِ لِقولِهِمْ: لو كانَ البَعْثُ الذي تقولونَ حقاً صَدَّقْناهُ يومئذٍ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يقولُ: لا يُناظَرُ بهِمْ بالعذابِ حينَ يُعَذَّبونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ كانوا يَتَذاكرونَ، وهمْ بمكةَ، فَتْحَ مكةَ لهمْ، فكانَ ناسٌ مِنْ أهلِ مكةَ إذا سَمِعوا ذلكَ منهمْ هَزِئوا منهمْ، وسَخِروا، ويقولونَ لهمْ: متى فَتْحُكُمُ الذي تزعُمونَ. فَنزلَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ يا أصحابَ محمدٍ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنها تُفْتَحُ عليكُمْ. لكنَّ هذا بعيدٌ لأنهُ يقولُ على إثْرِهِ ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ولو كانَ فتحُ مكةَ لكانَ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ، ولهمْ نَظِرَةٌ وإنظارٌ. دلَّ أنهُ يَبْعُدُ صَرْفُهُ إلى فَتْحِ مكةَ. والأوَّلُ أشْبَهُ أنْ يكونَ لِما ذُكِرَ مِنْ تَرْكِ قَبولِ الإيمانِ والإنظارِ، وفي الدنيا يُقْبَلُ ذلكَ كلُّهُ، فَظَهرَ أنَّ الأولَ أشبَهُ [لِما][2] كانَ السؤالُ عنِ الساعةِ أو عنِ المُحاكمةِ إلّا أنْ يَثْبُتَ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ أنهُ لمّا فَتَحَ اللهُ مكةَ أقامَ النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ ذلكَ اليومَ، وانْهَزَمَ المُشركونَ، فَخَرجوا مِنْ مكةَ. وأقامَ مَنْ أقامَ بها، فأمَّنَهُ النَّبيُّ ﷺ.

فأدْلَجَ خالدُ بْنُ الوليدِ تلكَ الليلةَ دُلْجَةً في سَبْعِ مئةِ رجلٍ، ومعهُ أبو قَتادةَ الأنصاريُّ، وأسْرَوْا في أسْفَلِ مكةَ حتى سَقَطوا مِنْ وراءِ الحَرَمِ، فوجَدوا الذينَ كانوا يَهْزَؤونَ بأصحابِ محمدٍ، ويقولونَ: متى فَتْحُكُمْ هذا؟ فوقَ جَبَلٍ، وقد تَحَصَّنوا فيهِ. فلما رَأوا خالدَ بْنَ الوليدِ قالوا: هذا خالدُ بْنُ الوليدِ وإخْتُهُ، وقد كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ في الجاهليةِ إخْتَةٌ، فقالَ لهمُ ابْنُ الوليدِ: مالَكُمْ؟ قالوا: أسْلَمْنا. قالَ: إنْ كُنْتُمْ قد أسْلَمْتُمْ فَانْزِلوا، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بعضٍ، فقالَ رجلٌ منهمْ: أطيعوني، ولا تَنْزِلوا إليهِ، فَوَ اللهِ لَئِنْ نَزَلْتُمْ إليهِ لَيُهْلِكَنَّكُمْ إنهُ لَخالدُ بْنُ الوليدِ وإخْتُهُ، قالوا: واللهِ ما علينا سَبيلٌ، لقد أسْلَمْنا، ثم نَزَلوا، وَوَضَعَ عليهِمْ خالدُ بْنُ الوليدِ السلاحَ، واعْتَزَلَ أبو قَتادةَ، فقالَ: مَعاذَ اللهِ أنْ أراهِنَ[3] على شيءٍ ممّا ههنا؟ فَبَلَغَ ذلكَ النبيَّ، فَبَعَثَ إليهِمْ عليَّ بْنَ أبي طالبٍ بالدِّيَةِ مِنْ غَنائِمِ خَيْبَرَ، فَوَداهُمْ[4] بالدِّيَةِ، حتى بَعَثَ إليهِمْ بِرَوْعَةِ الخَيْلِ، حينَ راعوهُمْ، ومَساقي الكلابِ كانوا كَسَروها، فَوَداهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ كلَّ شيءٍ. فذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

الآية ٣٠ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ محمدُ إلى مدةٍ ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ بهمُ العذابَ أيِ القَتْلَ وهلاكَهُمْ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ هلاكَكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى ذلكَ اليومِ ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ بهِمْ فَتْحَ مكةَ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ هلاكَكَ.

[ويَحتَمِلُ][6] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تُكافِئْهُمْ لِأذاهُمْ إياكَ ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ مكافاتَنا إياهُمْ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾. واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ][7].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أنراعين. (٤) في الأصل: وم: فوداهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

[سورة الأحزاب

مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ظاهِرُ الخِطابِ، وإنْ كانَ لِرسولِ اللهِ ﷺ فهو للناسِ عاماً. ألا ترى أنهُ قالَ على إثرِهِ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ خاطَبَ بِهِ الجماعةَ، وقد خاطَبَ رسولَهُ في غَيرِ آيَةٍ مِنَ القرآنِ، والمُرادُ بِهِ غَيرُهُ؟ فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ هذا كذلكَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ المُرادُ بالخِطابِ أيضاً [هو][2] خاصَّةً. لكنْ إنْ كانَ ما خاطَبَ بِهِ ممّا يَشتَرِكُ فيهِ غَيرُهُ دَخَلَ في ذلكَ الخطابِ وفي ذلكَ النَّهيِ.

وإنْ كانَ ممّا يَتفَرَّدُ بِهِ مِنْ نَحوِ تَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ وما تَضَمَّنَتْهُ الرسالةُ[3]، وإنْ خافَ على نفسِهِ القَتلَ والهَلاكَ، فإنَّ عليهِ ذلكَ، لا مَحالَةَ، كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

وأمّا أهلُ التأويلِ فَمِمّا اختَلَفوا فيهِ: [ما][4] قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ، وذلكَ أنَّ نَفَراً مِنْ أهلِ مكةَ: أبو سُفيانَ بْنُ حَرْبٍ /٤٢٣ ـ أ/ وعِكرِمةُ بْنُ أبي جَهْلٍ وأبو الأعوَرِ السُّلَميُّ، وهؤلاءِ قَدِموا المدينةَ، فَدَخَلوا على عبدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ رأسِ المُنافِقينَ بَعْدَ قَتلَى أُحُدٍ، وقد أعطاهُمُ النَّبيُّ الأمانَ على أنْ يُكَلِّموهُ. فقالوا للنَّبيِّ، وعندَهُ عُمَرُ بْنُ الخطابِ ﷺ: ارْفُضْ ذِكْرَ آلِهتِنا اللّاتِ والعُزّى ومَناةَ، ونَدَعُكَ وربَّكَ، فَشَقَّ ذلكَ على النَّبيِّ ﷺ، فأنزَلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وفيهِمْ نَزَلَ [قولُهُ تعالى][5]: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وفي بعضِ الرواياتِ قالوا ذلكَ، وعندَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ائْذَنْ لي في قَتلِهِمْ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ، إني قد أعطَيتُهُمُ الأمانَ. فإنْ كانَ على هذا فالنَّهيُ عن نَقضِ العَهْدِ والأمانِ.

وإنْ كانَ على الأوّلِ فالنَّهيُ عنِ اتِّباعِ ما طَلَبوا منهُ مِنْ رَفضِ آلِهتِهِمْ والعبادةِ لها.

وبعضُهُمْ يقولونَ: إنَّ أهلَ مكةَ نَحوَ شَيبَةَ بْنَ رَبيعَةَ وهؤلاءِ قالوا لهُ: إنا نُعطيكَ يا محمدُ كذا مِنَ المالِ، ونُزَوِّجُكَ كذا كذا امرأةً كثيرةَ المالِ، فارفضْنا وآلهتَنا، وإلّا قَتَلَكَ المُنافِقونَ: فُلانٌ وفلانٌ [وفلانٌ، وعَدُّوا][6] نَفراً، فأنزَلَ اللهُ تعالى الآيةَ في ذلكَ بالنَّهيِ عنِ اتِّباعِ ما طَلَبوا منهُ، ودَعوةِ إليهِ، وأمْرِهِ بالتَّوَكُّلِ عليهِ[7] في تَرْكِ الاتِّباعِ لهم.

وأصْلُهُ ما ذَكَرنا أنَّ النَّهيَ والأمْرَ، وإنْ كانَ خاصًّا[8] في ما ذُكِرَ، فهو، وإنْ كانَ مَعصوماً، فالعِصْمَةُ لا تَمنَعُ الأمْرَ والنَّهيَ، بلِ العِصْمَةُ إنما تَنفَعُ إذا كانَ ثَمَّةَ نَهيٌ وأمْرٌ، إذ لولا النَّهيُ والأمْرُ لكانَ لا مَعنًى لِلعِصْمَةِ، ولا مَنفَعَةَ لها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في تَرْكِ تَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في اتِّباعِ ما دَعَوكَ إليهِ، وطَلَبوا منكَ، أو في غَيرِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: ﴿عَلِيمًا﴾ بما كانَ، ويكونُ منهمْ، أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ عليكَ بَعْثَكَ، لا على جَهْلٍ ﴿حَكِيمًا﴾ في ذلكَ، أي بَعْثُهُ إياكَ إليهِمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ

---

(١) في الأصل وم: ذكر أن سورة الأحزاب نزلت بالمدينة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الرسل. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عدوا. (٧) في الأصل وم: على الله. (٨) في الأصل وم: خاصة.

جنة السنة

والرَّدِّ، لا يُخرجُهُ عنِ الحكمةِ، ليسَ كملوكِ الأرضِ: إذا أرسلَ بعضُهُمْ إلى بعضٍ رسالاتٍ وهدايا على عِلْمٍ مِنَ المُرْسِلِ أنَّ المَبعوثَ إليهِ، يَرُدُّ الرسالةَ والهديَّةَ، يكونُ سَفيهاً[1] لأنهمْ يَبْعَثونَ، ويُرْسِلونَ لِحاجةِ أنفسِهِمْ؛ أعني أنفسَ المرسِلينَ، فإذا أرسَلوا على عِلْمٍ منهمْ بالرَّدِّ والتكذيبِ كانَ ذلكَ سَفَهاً خارجاً عنِ الحِكمةِ.

فأمّا اللهُ سُبْحانَهُ، فإنما يُرْسِلُ الرسُلَ، ويَبْعَثُهُمْ لِمَنفَعَةِ أنفسِهِمْ وحاجتِهِمْ، فَعِلْمُهُ بالرَّدِّ والتكذيبِ لا يُخرِجُهُ عنِ الحكمةِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا يَحتَمِلُ الخُصوصَ لهُ بهِ على ما ذَكَرْنا، ويَحتَمِلُ العُمومَ على ما ذَكَرْنا في آيةٍ أُخرى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] يدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ خاطَبَ بهِ الكلَّ، واللهُ أعْلَمُ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُ على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي اعتَمِدْ على اللهِ في تبليغِ الرسالةِ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً يَحفَظُكَ، ويَمْنَعُهُمْ عنكَ كقولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنها[2] نَزَلَتْ في رجلٍ، يُقالُ لهُ: ابنُ مَعْمَرٍ، وكانَ مِنْ أحفَظِ الناسِ وأوعاهُمْ، فقالوا: إنَّ لهُ قَلْبينِ: قَلْبٌ يَسْمَعُ، وقَلْبٌ يَحفَظُ، ويُبْقي، فَنَزَلَ: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

ويقولُ بعضُهُمْ: كذلكَ: إنها نَزَلَتْ في ابنِ مَعْمَرٍ، وكانَ يُسَمَّى ذا قَلْبينِ لِحِفْظِهِ الحديثَ حتى إذا كانَ يومُ بدرٍ، وهُزِمَ المُشركونَ، وكانَ فيهِمُ ابنُ مَعْمَرٍ، تَلَقّاهُ أبو سُفيانَ بنُ حَرْبٍ، وهو مُعلِّقٌ إحدى نَعْلَيهِ بيدِهِ، والأخرى في رِجْلِهِ، فقالَ لهُ: يا ابنَ مَعْمَرٍ ما فَعَلَ الناسُ؟ قالَ: انهزَموا، فقالَ لهُ: ما بالُ نَعْلِكَ في يدِكَ، والأُخرى في رِجْلِكَ؟ فقالَ: ما شَعَرْتُ إلّا أنهما جميعاً في رِجْلَيَّ، فَعَرَفوا يومئذٍ أنْ لو كانَ لهُ قَلْبانِ ما نَسِيَ نَعْلَهُ في يَدِهِ، ونَحْوُهُ قد قيلَ. ولكنْ لا نَدْري سَبَبَ نُزولِ هذهِ الآيةِ.

[ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ سُئِلَ عنْ هذهِ الآيةِ][3] فقالَ: كانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يُصَلّي يوماً، فَخَطَرَتْ خَطرةٌ، أي وَقَعَ في قَلْبِهِ، فقالَ المنافقونَ الذينَ يُصَلّونَ معهُ: ألا تَرى أنَّ لهُ قَلْبَينِ: قَلْباً مَعَكُمْ، وقَلْباً معهُمْ؟ فأُنزِلَتْ هذهِ الآيةُ.

وهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ سَبَبَ نُزولِ الآيةِ، أو أنْ يكونَ نُزولُها[4] في المُنافقينَ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يُصَلّونَ مع النَّبِيِّ والمؤمنينَ، ويُرُونَ المُوافَقَةَ لهمْ مِنَ أنفسِهِمْ، ويقولونَ: نَشْهَدُ إنكَ لَرَسولُ اللهِ، ثم يَرجِعونَ [إلى أولئكَ الكَفَرةِ][5] فيقولونَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] ونحوَهُ. فَذَكَرَ هذا ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ أي دِينَينِ في جوفِهِ: الإيمانَ والنِّفاقَ أو ﴿قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ قَلْباً لهذا وقَلْباً للآخَرِ.

[ويَحتَمِلُ أنها][6] نزلَتْ في المُشركينَ الذينَ يُقِرُّونَ بالوَحدانيَّةِ لِلّهِ وأنهُ، هو الخالقُ، كقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ويَعْبُدونَ الأصنامَ معَ هذا: فنقولُ، واللهُ أعلَمُ: لم يَجْعَلِ [اللهُ لِرَجُلٍ][7] قَلْبَينِ في جَوفِهِ: قَلْباً للشِّرْكِ وقَلْباً للإيمانِ والتوحيدِ، ولكنْ جَعَلَ قَلْباً واحداً لأحدِ هذينِ: أي قَلْباً لِقَبولِ الشِّرْكِ [أو الإيمانِ][8].

وبعضُهُمْ: يقولُ: هو على التمثيلِ، أي كما لم يجعلْ لرجلٍ واحدٍ قَلْبينِ، فكذلكَ لا يكونُ المُظاهِرُ[9] مِنِ امْرَأتِهِ؛ لا تكونُ امرأتُهُ أُمَّهُ في الحُرْمَةِ، ولا يكونُ دَعِيُّ الرجلِ ابْنَهُ.

[وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ

---

(١) في الأصل وم: سفها. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: كذلك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل وم: نزول. (٥) في الأصل: إلا أولئك، في م: إلى أولئك. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: الرجل. (٨) في الأصل وم: وقلبا لقبول الإيمان. (٩) في الأصل وم: الظاهر.

جنة السنة

أَبْنَاءَكُمْ﴾](١)؛ يقولُ: نَزَلَ في النبيِّ وزَيدِ ابْنِ حارثةَ؛ كانَ النَّبِيُّ تَبَنَّاهُ، وكانوا يُسَمُّونَهُ زَيدَ بْنَ محمدٍ، فجاءَ النَّهيُ عن ذلكَ، فقالَ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ إلى هذا ذَهبَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ.

وبعضُهُمْ يقولُ: تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي لم يَجْعَلْ للرجلِ نَسَبَينِ، يُنْسَبُ إليهما.

وأصلُهُ عندَنا أنَّ قولَهُ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ ما ذَكَرْنا، ولم يَجْعَلْ أزواجَكُمُ اللائي تَسْتَمْتِعونَ بهنَّ بالتَّشبيهِ بالأُمّهاتِ كالأُمّهاتِ، أي لم يُحِلَّ لكمْ ذلكَ، ولم يُبِحْ، ولم يُشْرِعْ ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي لم يَجْعَلِ النَّسَبَ(٢) ذلكَ، ولم يُشَرِّعْ. وإنْ كانَ قد يكونُ في النَّسَبِ الفاسدِ، نَحوَ الجاريةِ بَينَ اثْنَينِ، إذا وَلَدَتْ، فادَّعياهُ جميعاً، ونَحْوَ النِّكاحِ الفاسدِ والمِلْكِ الفاسدِ، لم يَجْعَلْ كذا، أي لم يُحِلَّ، ولم يشَرِّعْ، كقولِهِ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي لم يُشَرِّعْ، ولم يُحِلَّ ذلكَ. وإنْ كانَ يكونُ لو فَعَلوا.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي لم يُشَرِّعْ ذلكَ النَّسَبَ، ولم يُحِلَّ ذلكَ في الإسلامِ ما كانَ في الجاهليةِ لا أنهُ لا يكونُ ذلكَ في ما لم يُشَرِّعْ في الفاسدِ من النَّسَبِ على ما ذَكَرْنا أنَّ النَّسَبَ ثَبَتَ في النِّكاحِ الفاسدِ، وإنْ لم يُشَرَّعْ.

والحَسَنُ يقولُ في قولِهِ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ قالَ: كانَ الرجلُ يقولُ: إنَّ نَفْساً تأمُرُني بكذا، ونَفْساً تأمُرُني بكذا. فَنَزَلَ ذلكَ.

والحِكْمَةُ في ما لم يَجْعَلْ لِلْواحِدِ قَلْبَينِ، وجَعَلَ لهُ سَمْعَينِ وبَصَرَينِ، لأنَّ الإدراكَ بالسَّمْعِ والبَصَرِ إنما يكونُ بالمُشاهَدَةِ فَيَخْرُجُ ذلكَ مُخْرَجَ معاوَنَةِ بَعْضِهِمْ بعضاً، وما يُدْرَكُ [بالقَلْبِ يكونُ](٣) بالاجتهادِ.

وقد يَخْتَلِفُ القَلْبانِ في ما يَجْتَهِدانِ في شيءٍ، فَيُناقِضُ أحَدُهُما صاحبَهُ؛ إذْ يجوزُ أنْ يَرى أحَدُهما خِلافَ ما يَراهُ الآخَرُ. وأمّا السَّمْعانِ والبَصَرانِ لا يكونانِ(٤) كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ/ ٤٢٣ - ب/ فِي جَوْفِهِۦ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ سَبَبُ ذلكَ ما ذُكِرَ مِنِ ادِّعاءِ مُسَيلِمَةَ الكَذّابِ الرسالةَ لنفسِهِ، وتَواطُؤِ أصحابِهِ على ذلكَ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ما جَعَلَ اللهُ أنْ يُرْسِلَ رجُلَينِ رسولاً إلى خَلْقِهِ؛ مُخْتَلِفَي الدينَينِ مُتَضادَّي(٥) الشرائعِ، يدعو كلُّ واحدٍ إلى دينٍ غيرِ الآخرِ وإلى شريعةٍ يُضادُّ بعضُها بعضاً: محمداً رسولَ اللهِ ﷺ ومُسَيلِمَةَ الكذّابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهُما: على النَّهْيِ الذي ذَكَرْنا، أي لا تُشَبِّهوا أزواجَكُمْ بِظهورِ الأُمَّهاتِ، ولا تُحَرِّموهُنَّ على أنفسِكُمْ كَحُرْمَةِ الأُمَّهاتِ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

والثاني: أنْ لم يَجْعَلِ اللهُ لكمْ أزواجَكُمْ حَراماً أبداً كالأُمَّهاتِ، وإنْ جَعَلْتُمْ أنتُمْ. ولكنْ جَعَلَهُنَّ لكمْ بحيثُ تَصِلونَ إليهنَّ بالاسْتِمْتاعِ إلى ما تَصِلونَ إليهنَّ، وتَسْتَمْتِعونَ بهنَّ بَعدَ هذا القولِ.

يَذْكُرُ هذا على المِنَّةِ والنِّعْمَةِ لِيَسْتَأْدِيَ بهِ[شُكْرَهُ](٦) لِما أَبْقَى لهمُ الاسْتِمْتاعَ بهنَّ بَعدَ هذا، ولم يَجْعَلْهُنَّ لهمْ كالأُمَّهاتِ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما](٧): ما جَعَلَ أدعياءَكُمْ أبناءَكُمْ في [حقوقِ النَّسَبِ](٨) إلى الآباءِ؛ وهو ما ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنهُ إذا ادَّعى الرجلُ منهمْ [رجلاً وَرِثَهُ](٩) مع أولادِهِ فهو شيءٌ كانوا يَفْعَلونَهُ في الجاهليةِ، دُعِيَ إليهِ، ونُسِبَ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما جَعَلَ ما كُنْتُمْ تَدْعونَ الأبناءَ في الجاهليةِ للعَوْنِ والنُّصْرَةِ أبناءَكُمْ في الإسلامِ في ما جَعَلوا.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: سبب. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يكون. (٥) في الأصل وم: متضاد. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ورثه منهم.

جنة السنة

والثاني: ما جَعَلَ أدعياءَكُمْ أبناءَكُمْ في حقِّ النِّسبةِ كما ذُكِرَ أنهمْ كانوا يقولونَ لِزَيدِ بنِ حارثةَ: زيدَ بنَ محمدٍ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ إنما هو قولٌ، تقولونَهُ بألسِنَتِكُمْ في ما بينَكُمْ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ إنهمْ لَيسوا بأبنائِكُمْ.

الآية ٥ أو إنَّ قولَهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ تأويلُهُ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي انسبُوهُمْ إليهمْ إنْ عَلِمْتُموهُمْ ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ فانسُبوهُمْ إلى آبائِهِمْ مِنْ أسماءِ مَواليكُمْ أو إخوانِكُمْ أو بَني[2] عمِّكُمْ مِثلِ عَبدِ اللهِ وعُبيدِ اللهِ وعبدِ الرحمنِ وأشباهِ تلكَ الأسماءِ وأسماءِ مَواليكُمْ.

[ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ][3] قولُهُ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي سَمُّوهُمْ إخواناً، وذلكَ أعظَمُ في القلوبِ وآخَذُ مِنَ التسميةِ بالآباءِ والنسبةِ إليهمْ؛ وذلكَ لأنَّ[4] الحاجةَ إلى معرفةِ الآباءِ والنسبةِ إليهمْ إنما تكونُ عندَ الكتابةِ والشهادةِ وعندَ الغَيبةِ، وأمّا عندَ الحَضرَةِ فلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ هذا في شأنِ زَيدِ بنِ حارثةَ، وهو كانَ مَولَى رسولِ اللهِ، وكانوا يُسَمُّونَهُ زَيدَ بنَ محمدٍ، فَنُهوا عنْ ذلكَ؛ فيقولُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ فانسُبوهُمْ إلى مَواليهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ مِنَ الوِلايةِ كقولِهِ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وقولِهِ[5]: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ليسَ عليكُمْ جُناحٌ بالنسبةِ إلى غَيرِ الآباءِ إذا كُنتُمْ مُخطِئينَ غَيرَ عارفينَ الآباءَ: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ إنما الجُناحُ والحَرَجُ عليكُمْ إذا كُنتُمْ عامِدينَ لذلكَ عارفينَ لهمْ آباءً؛ كأنهُ أباحَ التَّبَنِّيَ والتَّآخِيَ في ما بَينَهُمْ، ولم يُبِحِ النِّسبةَ إلى غَيرِ الآباءِ وإيجابَ الحقوقِ في ما بَينَهُمْ.

وكذلكَ رُوِيَ في بعضِ الخَبرِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُؤاخي بينَ الرجلَينِ. فإذا [ماتَ][6] أحَدُهُما وَرِثَهُ الباقي منهما دونَ عَصَبَتِهِ وأهلِهِ فكانَ الزبيرُ أخا عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ، فَمَكثوا بذلكَ ما شاءَ اللهُ أنْ يَمكُثوا حتى نَزَلَتِ الآيةُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ يقولُ: إذ دَعَوْتَ الرجلَ لِغَيرِ أبيهِ، وأنتَ تَرَى أنهُ كذلكَ.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يقولُ: لا تَدْعوهُ لِغَيرِ أبيهِ مُتَعَمِّداً؛ فأمّا الخَطأُ فإنَّ اللهَ يقولُ: لا يُؤاخِذُكُمْ بِهِ، ولكنْ ما أرَدْتَ بِهِ العَمْدَ، وهو مثلُ الأوّلِ.

وذُكِرَ أنَّ عُمَرَ ﷺ، سَمِعَ رجلاً، يقولُ: اللهمَّ اغفِرْلي خَطَئي، فقالَ لهُ عُمَرُ: اسْتَغفِرِ اللهَ العَمْدَ، فأمّا الخَطأُ فقد تَجَوَّزَ لكَ عنهُ. وكانَ يقولُ [ﷺ][7]: «ما أخافُ عليكُمُ الخَطأَ، ولكنْ أخافُ العَمْدَ، وما أخافُ عليكُمُ العائلةَ ولكنْ أخافُ عليكُمُ التكاثُرَ، وما أخافُ عليكُمْ أنْ تَزَوَّدوا أعمالَكُمْ، ولكنْ أخافُ عليكُمْ أنْ تَستَكثِروها» [بنحوه أحمد ٢/٣٠٨].

وذُكِرَ أنَّ ثلاثةً لا يَملِكُ عليها ابنُ آدمَ: الخطأُ والنِّسيانُ والاستِكراهُ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ أنهُ قالَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الخَطأُ ههنا هو ما جَرَى على اللسانِ مِنْ غَيرِ قَصْدٍ، والعَمْدُ ما يَجري على قَصْدٍ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى:][8] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لِما فَعَلوا.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: النَّبِيُّ أولى بهمْ مِنْ بَعضِهِمْ بِبَعضٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي لا يَقتُلْ بعضُكُمْ بعضاً؛ إذْ لا يَقتُلُ نفسَهُ [وقولِهِ][9]: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي يُسَلِّمْ بعضُكُمْ على بعضٍ، ليسَ أنهُ يُسَلِّمُ الرجلُ على نفسِهِ، ولكنْ ما ذَكَرْنا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ابن. (٣) في الأصل وم: أو أن يقول. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بعضِهِمْ مِن بعضٍ.

ثم يَحْتَمِلُ: هو أَوْلى بهِمْ مِنْ أنفسِهِمْ مِنَ الطاعةِ والاحْتِرامِ لهُ والتعظيمِ، أي هو أَوْلى أنْ يُعَظَّمَ، ويُحْتَرَمَ، ويُطاعَ مِن غيرِهِ، أو أنْ يكونَ أَوْلى في الرحمةِ والشفقةِ لهمْ، أي أرحمُ بهمْ، وأشفقُ مِن أنفسِهِمْ، وهو على ما وصَفَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ والرأفةِ حينَ[1] قالَ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وليسَ مِنَ الناسِ [مَنْ][2] يَعِزُّ عليهِ ما يَفْعَلُهُ مِنَ الإثمِ، أو أنْ يجوزَ ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أحَبُّ إليهِمْ مِن أنفسِهِمْ وأولادِهِمْ مَحَبَّةَ الاختيارِ والإيثارِ، ليسَ مَحَبَّةَ المَيلِ مِنَ القَلْبِ، لأنَّ مَيلَ القَلْبِ يكونُ بالطبعِ، وذُكِرَ في الخَبَرِ: «ليسَ يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى أكونَ أنا أحَبَّ إليهِ مِنْ نفسِهِ ووَلَدِهِ وأهلِهِ» [البخاري ١٥] أو كلامٌ نَحْوُ هذا. أو أنْ يكونَ أولى بهِمْ في الآخِرَةِ بالشفاعةِ لهمْ، فَينجونَ مِنَ النارِ بهِ لا بأعمالِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وذُكِرَ في بعضِ الحروفِ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو أبٌ لهمْ ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وهو حَرْفُ أُبَيٍّ وابنِ مَسْعودٍ وابنِ عباسٍ ﵃ قولُهُمْ[3]: وهو أبٌ لهمْ في الرحمةِ والشَّفَقَةِ أو في ما يَلْزَمُ مِنَ الطاعةِ والتعظيمِ والاحْتِرامِ ونَحْوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ في الحُرْمَةِ أي لا يَحِلُّ لهمْ أنْ يَتَزَوَّجوهُنَّ أبداً كالأُمَّهاتِ، ولكنْ يَجِبُ أنْ يكونَ ذلكَ بَعْدَ وفاتِهِ. فأمّا في حياتِهِ، إذا طَلَّقَهُنَّ فيجبُ أنْ يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ لأنهُ إذا قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٢٨] ولو لم يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ لم يكنْ لِما ذَكَرَ لهنَّ مِنَ التَّمْتيعِ والتَّسْريحِ مَعْنىً.

وهذهِ الحُرْمَةُ يَجِبُ أنْ تكونَ بَعدَ الموتِ، وهي ما قالَ: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [الأحزاب: ٥٣] إنما شَرْطُ هذا بَعْدَهُ لِيَكُنَّ أزواجَهُ في الآخِرَةِ [ويَحْتَمِلُ][4] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي حُرْمَةُ أزواجِهِ مِن بَعْدِهِ أبداً، إنما شَرْطُ هذا بَعدَهُ ليكُنَّ أزواجُهُ في الآخِرَةِ، ومَنْزِلَتُهُنَّ[5] كَمَنْزِلَةِ أُمَّهاتِهِمْ يَسْتَوجِبْنَ ذلكَ لِحُرْمَةِ رسولِ اللهِ ومَنْزِلَتِهِ قَبْلَهُمْ.

وأمّا الباطِنِيَّةُ فإنهمْ يقولونَ في قولِهِ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ دلالةٌ أنهُ ليسَ يُريدُ أزواجَ النَّبِيِّ.

ألا تَرى /٤٢٤ ـ أ/ أنهُ يَحِلُّ للناسِ نِكاحُ أولادِهِنَّ؟ ولو كُنَّ أُمَّهاتٍ لم تَحِلَّ لأنهمْ يَصيرونَ إخْوَةً وأخواتٍ.

فإذا حَلَّ ذلكَ دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، هذا قولُهُمْ.

لكنَّ الجوابَ لذلكَ ما ذَكَرْنا أنهُ جائزٌ أنهُ سَمّاهُنَّ أُمَّهاتٍ، أي مَنْزِلَتُهُنَّ كَمَنْزِلَةِ الأُمَّهاتِ لِحُرْمَةِ رسولِ اللهِ ومَنْزِلَتِهِ.

وذلكَ جائزٌ لأنهُ ذَكَرَ الشهداءَ أحياءً عندَهُ، وإنْ كانوا في الحقيقةِ مَوتى لِفَضْلِ الكرامةِ لهمْ والمَنْزِلَةِ عندَ اللهِ.

فَعَلى ذلكَ ذَكَرَ الأُمَّهاتِ لأزواجِهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حُكْمِ اللهِ كقولِهِ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] أي حُكْمَ اللهِ عليكمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾][6] في ما أُنْزِلَ مِنَ الكِتابِ، وهو الذي [ذَكَرَ على إثْرِهِ[﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾][7] وهو كقولِهِ:][8] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨١] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ المكتوبَ عليهِمُ الذي ذَكَرَ على إثْرِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ المَواريثَ في بَدْءِ الأمرِ لم تَكُنْ تَجْري إلّا في ما بَينَ المؤمنينَ والمُهاجرينَ مِنَ القراباتِ والأرحامِ. فإنْ كانَ مؤمناً، لم يُهاجِرْ، لم يَرِثِ ابنَهُ ولا أباهُ ولا أخاهُ المُهاجِرَ وسائرَ قراباتِهِ، إذا ماتَ أحدُهُما إلّا أنْ يكونا مؤمنَينِ مُهاجِرَينِ. فعندَ ذلكَ يَتَوارَثونَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قوله. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: ومنزلتهم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: ذلك. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وكذلك.

فَعَلى ذلكَ التأويلِ يكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ الذينَ لم يُهاجِروا مِنَ المؤمنينَ أنْ تُوصوا لهمْ شيئاً. فيقولُ قائلُ هذا التأويل: إنَّ هذا نُسِخَ بالآيةِ التي ذَكَرَها في سورةِ الأنفالِ، وهو قولُهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الآية: ٦] ولم يَذْكُرْ فيهِ الهجرة إذا كانوا مسلمينَ.

وأمّا الكافرُ فإنهُ لا يَرِثُ المُسْلِمَ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قال: «لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكافرَ ولا الكافرُ المُسْلمَ» [البخاري ٦٧٦٤]، وقالَ: «لا يَتوارَثُ أهلُ مِلَّتَينِ» [الترمذي ٢١٠٨].

وقالَ بعضُهُمْ: تأويلُ قولِهِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ مِنَ الأقربينَ منهمْ، أي أولو الأرحامِ مِنَ المؤمنينَ والمهاجرينَ الأقربُ فالأقربُ منهمْ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ مِنَ الأبعدينَ في المَواريثِ، أيِ الأقربُ منهُمْ، بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ مِنَ الأبْعَدينَ ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ على الأبعدينَ وصيَّةً أو شيئاً[1]. فذلكَ مَعْروفٌ. فصارتِ المَواريثُ للقَراباتِ الدنيا[2] مِنَ المؤمنينَ دونَ الأبْعَدِينَ. فتكونُ الآيةُ التي في الأنفالِ وهذهِ سَواءً على هذا التأويلِ بل يكونُ الأقْرَبُ فالأقْرَبُ، والأدنى فالأدنى أولى بالمَواريثِ مِنْ غَيرِهِمْ.

وبعْضُهُمْ يقولُ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ ناسِخَةً لِما كانَ منهمْ مِنَ التَّوارُثِ بالمُواخاةِ، لأنَّ النَّبِيَّ كانَ يُؤاخي بينَ رجلَينِ، فإذا ماتَ أحدُهما وَرِثَهُ الباقي منهما دونَ عَصَبَتِهِ حتى نُسِخَ ذلكَ بالآيةِ التي ذَكَرَ. فَعلى ذلكَ يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ هو أنْ يَصْنَعوا إلى الذينَ آخَى بينَهُمْ مَعْروفاً.

ثم اخْتُلِفَ في أولي الأرحامِ المَذْكورينَ في الآيةِ: قالَ بعْضُهُمْ: همُ الذينَ ذَكَرَهُمْ في قولِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] على آخِرِ ما ذُكِرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لَيسوا هُمْ، وإنّما الذي ذَكَرَ في ذلكَ همُ الذينَ يُبَيِّنُ لهمْ حَدَّ مَوارِيثِهِمْ: فأمّا غَيرُهُمْ فإنما هُمْ في قولِهِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فإنما يَرِثُ الأقْرَبُ فالأقرَبُ منهمْ.

وكذلكَ يقولُ أبو حنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ أُولي الأرحامِ إنما يَرِثُ الأقْرَبُ فالأقْرَبُ منهمْ كالعصباتِ؛ لأنَّ الابْنَةَ لا شَكَّ أنها أقْرَبُ مِنِ ابْنِ العَمِّ، ثم يكونُ النصفُ للابْنَةِ والبقيةُ لِابْنِ العَمِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: في اللَّوحِ المَحفوظِ بَيانُ المؤمنينَ: بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ في المَواريثِ مِنَ الذينَ كانوا يَتوارَثون. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي في التوراةِ مَكتوباً أنْ يَصْنَعَ بنو إسرائيلَ إلى بَني لاوِي بْنِ يَعْقوبَ مَعْروفاً لِيَعودَ الغِنى على الفَقيرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: خَصَّ هؤلاءِ لأنَّ أهلَ الشَّرْعِ مِنَ الرسلِ، همْ هؤلاءِ، كقولِهِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآية: [الشورى: ١٣]. لكنهُ قد ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى ما يَدُلُّ أنَ غَيرَ هؤلاءِ كانَ لهمْ أيضاً شَرْعٌ كقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الآية [النساء: ١٦٣].

وجائزٌ أنْ يكونَ تَخصيصُ هؤلاءِ بأخْذِ الميثاقِ لأنهمْ همْ أولو العَزْمِ مِنَ الرسلِ حينَ قالَ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أو أنْ يكونَ لا على التَّخصيصِ لِمَنْ ذَكَرَ، ولكنْ على إرادةِ الكُلِّ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في أخْذِ الميثاقِ: قالَ بعضُهُمْ: أخَذَ ميثاقَهُمْ على أنْ يُبَشِّرَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، يُبَشِّرُ نوحٌ بإبراهيمَ، وإبراهيمُ بموسى، وموسى بِعيسى، وعيسى بمحمدٍ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: أخَذَ ميثاقَهُمْ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وأنْ يَدْعُوا إلى عبادةِ اللهِ تعالى، وأنْ يَنْصَحوا لِقومِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ أخْذِ الميثاقِ منهُمْ لِما ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أخَذَ منهمُ الميثاقَ في

---

(١) في الأصل وم: شيء. (٢) في الأصل وم: الأدنى.

جنة السنة

تبليغ الرسالةِ إلى قومِهِم لِيَسْأَلَهُمْ عن صِدْقِهِمْ أنهمْ قد بَلَّغوا ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ لأنَّ تبليغَ الرسالةِ إلى الفراعنةِ منهمْ وأعداءِ اللهِ صَعْبٌ [شديدةٌ مخاطرةٌ][1]، فيهِ هَلاكُ النفسِ وفَواتُ الروحِ، وهو ما قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ :[المائدة: ٦٧].

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ الصدقُ، أكثرُهُ إنما يَنْفَعُ في الأنباءِ والأخبارِ كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣] وهو ما أَخْبَرَهُمْ وأَنْبَأَهُمْ مِنَ القرآنِ وغيرِهِ، وقولِهِ [2] في آيةٍ أُخرى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿صِدْقًا﴾ في نَبَئِهِ ﴿وَعَدْلًا﴾ في حُكْمِهِ.

ثم صِدْقُهُ في النَّبَإِ، وعَدْلُهُ في الحُكْمِ [ما][3] سَمّى القرآنَ مَرَّةً صِدْقاً ومَرَّةً عَدْلاً ومَرَّةً حقاً.

فالحقُّ يَجْمَعُ الأمْرَيْنِ: النَّبَأَ والحُكْمَ جميعاً، والصِّدْقُ في النَّبَإِ خاصَّةً، والحُكْمُ في العَدْلِ.

ثم يَحْتَمِلُ سُؤالُهُ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهمُ الرسُلُ، ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: يَسْأَلُهُمْ عن تبليغِ ما أمَرَهُمْ بالتَّبليغِ إلى قومِهِمْ وعن إنباءِ ما ولَّاهُمْ مِنَ الأنباءِ أنْ يُنْبِئوا أولئكَ: هل بَلَّغْتُمْ؟ وهل أنبأتُمْ أولئكَ؟

والثاني: يَسْأَلُهُمْ عن إجابةِ أولئكَ لهمْ: هل أجابوكُمْ إلى ما دَعَوْتُمْ؟ لأنَّ منهمْ مَنْ أجابَهُمْ، وصَدَّقَهُمْ، ومنهمْ مَنْ لمْ يُجِبْ، ولمْ يُصَدِّقْ، فَيُخَرَّجُ السؤالُ عَمَّنْ أجابَ على التقريرِ وعَمَّنْ[4] لمْ يُجِبْ على التَّنْبيهِ والتوبيخِ.

وهو يسألُ الفريقَيْنِ جميعاً: الرسلَ عنِ التبليغِ والمُرْسَلَ إليهِمْ عنِ الإجابةِ كقولِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] واللهُ أعلَمُ.

[[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بِتَرْكِهِمُ الإجابةَ والتَّصديقَ، واللهُ أعلَمُ][6].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اشْكُروا ما أنْعَمَ اللهُ عليكُمْ، وأحْسِنوا صُحْبَةَ نِعَمِهِ في النَّصْرِ لكُمْ والدفعِ عنكُمْ.

ثم الأمْرُ في تَذْكيرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ [فيهِ][7] وجوهٌ مِنَ الحكمةِ والدلالةِ:

أحَدُها: تذكيرٌ لنا في مُقاساةِ أولئكَ السَّلَفِ والصحابةِ[8] وعظيمِ ما امْتُحِنوا في أمْرِ الدينِ [حتى بَلَّغوا الدينَ][9] إلينا لكي لا نُضَيِّعَهُ نحنُ، بلْ يُلْزِمُنا أنْ نَحْفَظَهُ، ونتمَسَّكَ بهِ، ونتحَمَّلَ / ٤٢٤ ـ ب/ فيهِ كما تحَمَّلَ أولئكَ.

والثاني: فيهِ آيةٌ لهمْ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا جميعاً هُمْ وأعداؤُهُمْ، فجاءَتْهُمُ الريحُ والملائكةُ، فأهْلَكَتْهُمْ دونَ المؤمنينَ. وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَ عادٌ بالدَّبورِ»[البخاري ٣٢٠٥] وذلكَ آيةٌ عظيمةٌ.

والثالثُ: يُذَكِّرُهُمْ ما آتاهُمْ مِنَ الغَوْثِ عندَ إياسِهِمْ مِنْ أنفُسِهِمْ وإشرافِهِمْ على الهلاكِ وخُروجِ أنفسِهِمْ مِنْ أيديهِمْ لأنَّ العدوَّ قد أحاطوا بهِمْ. قالَ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وبَلَغَ أمْرُهُمْ وحالُهُمْ ما ذَكَرَ حتى[10] قالَ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ١٠].

[ويَحْتَمِلُ][11] أنْ يُذَكِّرَ لِما كانَ منهمْ مِنَ العهدِ والميثاقِ ألا يُوَلّوا الأدبارَ، ولا يَهْرُبوا كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ١٥].

يُذَكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ التي كانَتْ عليهِمْ في النصرِ لهمْ على عَدُوِّهِمْ والدفعِ عنهمْ وحالَهُمْ ما ذَكَرَ في الآيةِ.

وذلكَ كانَ يومَ الخَنْدَقِ [إذ تَحَزَّبَ الأعداءُ على][12] المؤمنينَ في ثلاثةِ أمكنةٍ، يُقاتِلونَهُمْ مِنْ كلِّ وجهٍ شَهْراً، فَبَعَثَ اللهُ عليهِمْ بالليلِ ريحاً باردةً، وبعثَ الملائكةَ، فَغَلَبَتْهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: شديد مخاطرة. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ومن. (٥) ساقطة من الأصل.
(٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: في الصحابة. (٩) من م، ساقطة من الأصل.
(١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: تخربوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يَذْكُرُ أنهُ لا عن غَفْلَةٍ وسَهْوٍ تَرَكَكُمْ هنالكَ حتى أحاطَ بكمُ العدوُّ، ولكنْ أرادَ أنْ يَمْتَحِنَكُمْ مِحْنَةً عظيمةً، أو يقولُ: إنهُ بَصيرٌ عليمٌ، فَيَجْزيكُمْ جزاءَ عملِكُمْ وصَبْرِكُمْ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ فوقِ الوادي ومِنْ أسْفَلَ منهُ. وقيلَ: أحاطوا بهِمْ مِنَ النواحي جميعاً. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ كنايةً عنِ الخوفِ، أي أُحيطَ بهِمْ حتى خافوا على أنفسِهِمُ الهلاكَ. وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، [أنهُ][1] قالَ: هذا وَصْفُ المُنافقينَ ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي شَخَصَتْ ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ لِشِدَّةِ خوفِهِمْ كقولِهِ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] وأمثالَ هذا؛ قد وصَفَهُمْ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ ما وَصَفَ ههنا. وهذا يُشبِهُ أنْ يكونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا وَصْفُ حالِ المؤمنينَ: شَخَصَتِ الأبصارُ، وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ لمّا اشْتَدَّ بهِمُ الخوفُ، لمّا أحاطوا بهِمْ مِنْ فَوقِهِمْ ومِنْ أسفَلَ [منهم][2].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ على التمثيلِ، أي كادَ يكونُ هكذا، أو جائزٌ أنْ يكونَ على التحقيقِ، وهو[3] أنْ تزولَ عنْ أمكِنَتِها، وتَبْلُغَ[4] ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ قالَ بعضُهُمْ: ظَنَّ ناسٌ مِنَ المنافقينَ ظُنوناً مُخْتَلِفَةً؛ يقولونَ: هَلَكَ محمدٌ وأصحابُهُ ونَحْوَهُ مِنَ الظُّنونِ الفاسدةِ[5] وكقولِهِ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] ونَحْوَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ الظَّنُّ مِنَ المؤمنينَ؛ ظَنّوا باللهِ ظُنوناً لِتَقْصيرٍ أو لِتَفْريطٍ كانَ منهمْ نَحْوَ قولِهِ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] وكقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٥].

الآية ١١ وقولُهُ[6] تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بالقتالِ وأنواعِ الشدائدِ ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ قيلَ: جُهِدوا جَهْداً شديداً.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هما واحدٌ، وهمُ المُنافقونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المنافقونَ همُ الذينَ أضمَروا الخِلافَ لهُ، وأظْهَروا الوِفاقَ [على][7] إبانةِ الحقِّ وظهورِهِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ همُ الذينَ كانوا مُرتابينَ في ذلكَ، لم يَتَبَيَّنْ لهمْ ذلكَ، ولم يَنْجَلِ، قالوا هذا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: الذي وَعَدَ لهمْ فُتوحُ البلدانِ؛ قالوا لمّا أحاطَ بهِمْ، أعني بالمؤمنينَ، الكفارُ، قالَ ذلكَ المُنافقونَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ قيلَ: يَثْرِبُ المدينةُ. ويُقالُ: يا أهلَ يَثْرِبَ: يا أهلَ المدينةِ.

ورُويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ، أنهُ قالَ: «مَنْ قالَ للمدينةِ يَثْرِب فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ ثلاثاً، هي طابَةٌ» [ابن عُدَيّ في الكامل ٩/ ١٦٥].

ثم قالَ بعضُهُمْ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ إنما قالَهُ أهلُ النِّفاقِ لبعضِهِمْ ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ وجهَينِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهي. (٤) في الأصل وم: بلغت. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: السوء. (٦) في الأصل وم: ثم قال. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

أحدُهما: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مِنَ الفتحِ والنَّصرِ ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾.

والثاني: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ لِما يَقَعُ عندَهُم أنهمْ يَصِلونَ إلى ما كانوا يَطْمَعونَ، ويَأْمُلونَ، لأنهمْ كانوا يَخرُجونَ رَغْبَةً في الأموالِ وطَمَعاً فيها، وهو ما وصَفَهُمْ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا القولُ مِنَ المؤمنينَ لأهلِ النِّفاقِ. فإنْ كانَ مِنَ المؤمنينَ لأولئكَ فالوجهُ فيهِ أنهمْ أرادوا أنْ يَطْرُدوهُمْ لِفَشَلِهِمْ وجُبْنِهِمْ لئلا يَهْزِموا جنودَ المُسْلِمينَ بانهزامِهِمْ لأنهمْ قومٌ هَمُّهُمُ الانهزامُ، فإذا انْهَزَموا همُ انْهزَمَ غيرُهُمْ. فالمَعْنَى، إذا كانَ مِنَ المؤمنينَ لهمْ، غيرُ المَعْنَى، إذا كانَ [مِنْ][1] أهلِ النِّفاقِ ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف ٦٧] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ بالرجوعِ إلى المدينةِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ خاليةٌ مِنَ الناسِ، ليسَ فيها أحدٌ، فَنَخافُ السَّرَقَ عليها والأخذَ والمُكاثَرَةَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا أردوا بالعَورةِ دخولَ العدوِّ عليها إذا كانوا في الجُنْدِ[2] أي يدخُلُ علينا مَكروهٌ ممّا[3] يُحْزِنُنا، ويَهُمُّنا، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، فأكْذَبَهُمُ اللهُ في قولِهِمْ، وقالَ: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بلِ اللهُ يَحفَظُها على ما وَعَدَ حتى لا يَدْخُلَ عليهِمْ مكروهٌ ممّا[4] يَخافونَ، ولا يُصيبُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يُريدونَ ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ مِنَ القِتالِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما: أي لو [دَخَلَ الكُفّارُ][5] عليهِمْ مِنْ أطرافِ المدينةِ ونَواحيها، ثم دَعَوهُمْ[6] إلى الشِّرْكِ لأجابوهُمْ ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي لم يَمْتَنِعوا عن إجابَتِهِمْ، بل لأجابوهُمْ بهِ كما دُعُوا.

[والثاني][7]: أنهمْ لو كانوا في بيوتِهِمْ، فَدَخَلوا عليهِمْ مِنْ نَواحيها، ثم سُئلوا الأموالَ وما تَحْويهِ أيديهِمْ لأتوها. أي أعْطَوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ يُخْبِرُ عنْ نِفاقِهِمْ وخِلافِهِمْ لهُ في السِّرِّ أنهمْ يُعْطونَ لأولئكَ ما يُريدونَ مِنَ الأموالِ أو الدينِ، ويُوافِقونَهُمْ، ولا يُوافِقونَكُمُ البَتَّةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ أناسٌ قد غابوا عن وَقْعَةِ بَدْرٍ وما أعْطَى اللهُ أصحابَ بَدْرٍ مِنَ الفَضيلةِ والكَرامةِ، فقالوا: لَئِنْ شَهِدْنا قِتالاً لَنُقاتِلَنَّ، فَساقَ اللهُ ذلكَ حتى كانَ في ناحيةِ المدينةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ / ٤٢٥ ـ أ/ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ وذلكَ أنهمْ كانوا عاهدوا الرسولَ على عَهْدِهِمْ بمكةَ على العَقَبَةِ يَميناً، واشْتَرَطَ عليهِمْ لِرَبِّهِ ولنفسِهِ.

أمّا لِرَبِّهِ فأنْ[8] يَعْبُدوهُ، وألّا يُشْرِكوا بهِ شيئاً. واشْتَرَطَ لنفسِهِ أنْ يَنْصُروهُ، ويُعَزِّزوهُ، ويُعينوهُ، وأنْ يَمْنَعوهُ ممّا[9] يَمْنَعونَ منهُ أنفسَهُمْ ونساءَهُمْ وأولادَهُمْ.

فقالوا: فإذا فَعَلْنا ذلكَ فما لَنا يا نَبِيَّ اللهِ؟ قالَ: لكمُ النَّصْرُ في الدنيا، والجَنَّةُ في الآخِرَةِ. قالوا: قد فَعَلْنا.

فذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ ليلةَ العَقَبَةِ حينَ شَرَطوا النَّبِيَّ المَنَعَةَ ألّا يُوَلُّوا الأدبارَ مُنْهَزِمينَ ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي يُسْأَلُ مَنْ نَقَضَ العَهْدَ ومَنْ وَفاهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ مُجْزياً نَقْضاً أو وفاءً، يُجْزَونَ على وفاءِ العَهْدِ ونَقْضِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: العورة. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: لما. (٥) في الأصل وم: دخلوا. (٦) في الأصل وم: دعوا. (٧) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ما.

جنة السنة

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ قال أهلُ التأويل: إنْ قَضىَ عليكُمُ المَوتَ أو القَتلَ فلن يَنفعَكُم الفِرارُ. وقال بعضُهُم: إنْ جَعلَ القضاءُ آجالَكُمُ المَوتَ أو القَتلَ فلن[1] يَنفعَكُمُ الفِرارُ، بل يَنقضي.

وأصلُهُ: إنْ كانَ المَكتوبُ عليكُمْ [المَوتُ][2] أوِ القَتلُ فلن[3] يَنفعَكُمُ الفرارُ منهُ، بل يأتي، لا مَحالَةَ، كقولِهِ: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤] أي لا مَحالة، والمَكتوبُ عليهِمُ القَتلُ، وإنْ كانوا في بيوتِهِمْ لَبَرزوا فَيُقتَلونَ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال بعضُهُمْ: إنَّ الدنيا قليلٌ إلى آجالِكُم. وجائزٌ أنْ يكونَ معناهُ: ولَئِن نَفعَكُمُ الفِرارُ عنهُ فلا تُمتَّعونَ إلّا قليلاً كقولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ و٢٠٦].

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] مَنْ [تَبنَّيتُموهُمْ، واتَّخذتُموهُمْ][5] وَلَداً، ما جَعَلَهُمْ بِمَنزِلَةِ [وَلَدِ][6] الصُّلبِ، وكانوا يُورِّثونَ مَنِ ادَّعَوا ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ إنَّ قولَكُمْ على التشبيهِ والمَجازِ، ليسَ على التحقيقِ، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤]. وقولُهُ: ﴿أَقْسَطُ﴾ [الأحزاب: ٥] أعدلُ [وقولُهُ][7]: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عَدَلَتْ ومالَتْ: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] أي كادَتْ تَبلُغُ الحُلقومَ مِنَ الخوفِ، والحَناجِرُ جماعةُ الحَنجَرَةِ، وهي المَذبَحُ. وقولُهُ: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] شُدِّدَ عليهِمْ، وهُوِّلوا، والزلزالُ: الشدائدُ، وأصلُها مِنَ التحريكِ [وقولُهُ][8]: ﴿ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤] اللائي: ما لها واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ ذَكَرَ هذا على إثْرِ قولِهِ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُم، وإنْ فَرَرتُم مِنَ الموتِ أو القَتلِ، فإنَّ اللهَ، إنْ أرادَ بكُمْ سُوءاً أو هَلاكاً، لا يَملِكُ أحدٌ دَفعَهُ عنكمْ، أو إنْ أرادَ بكُمْ رَحمةً ونَجاةً وخيراً، فلا يَملِكُ أحدٌ مَنعَهُ عنكُمْ. وقد تَعلَمونَ أنكُمْ لا تَجِدونَ مِنْ دونِ اللهِ وَليّاً يَنفعُكُمْ ولا نَصيراً يَنصُرُكُمْ، ويَمنَعُكُمْ عن حُلولِ ذلكَ عليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ هُمُ المانِعونَ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هُمُ اليهودُ، أرسَلوا إلى المُنافقينَ، وقالوا: مَنْ ذا الذي يَحمِلُكُمْ على قَتلِ أنفسِكُمْ على أيدي أبي سُفيانَ ومَنْ مَعَهُ مِنْ أصحابِهِ؟ فإنهمْ إنْ قَدَروا عليكُمْ هذهِ المَرَّةَ ما استَبقَوا منكُمْ أحداً. فإنّا نُشفِقُ عليكُمْ، فإنما أنتمْ إخوانُنا، ونَحنُ جيرانُكُمْ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ المُنافقونَ، عَوَّقَ بعضُهُمْ بعضاً، ومَنَعَ عنِ الخُروجِ مَعَ رسولِ اللهِ إلى قِتالِ العَدوِّ. وفيهِ أمرانِ:

أحَدُهما: دلالةٌ على إثباتِ الرسالةِ لأنهمْ كانوا، يُسِرّونَ هذا، ويُخفونَهُ[9] في ما بينَهُمْ، ثم آخَذَهُمْ بذلكَ [لِيَعلَموا أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ][10] باللهِ تعالى.

والثاني: أنْ يكونوا أبداً على حَذَرٍ ممّا يُضمِرونَ مِنَ الخِلافِ كقولِهِ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ الآية [التوبة: ٦٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يأتونَ القِتالَ والحَربَ إلّا مُراءاةً وسَمْعَةً.

هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشبِهُ أنْ يُريدَ بالقَليلِ أنهمْ لا يأتونَ أنّي مَنْ يُريدُ القِتالَ والقِيامَ [معهمْ][11]، ولكنْ مُراءاةً وسَمْعَةً وإظهاراً للوِفاقِ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: أي بُخلاءَ على الإنفاقِ عليكُمْ، أي لا يُنفِقونَ عليكُمْ ولو[12] على سَبيلِ الخَيرِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: تبنيتموه واتخذتموه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويخفون. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ولا.

جنة السنة

وقالَ بعضُهم: الشُّحُّ أيضاً، هو الحِرْصُ؛ يقولُ: ﴿أَشِحَّةً﴾ أي حِراصاً على قِسْمَةِ الغَنيمةِ؛ يُخْبِرُ عن حِرْصِهِمْ في الدنيا ورُكونِهِمْ إليها ومَيْلِهِمْ فيها.

ثم أخْبَرَ عن خَسْيِهِمْ وفَشَلِهِمْ وشِدَّةِ خَوفِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ يُخْبِرُ أنهمْ لِخَسْيِهِمْ وفَشَلِهِمْ يَصيرونَ ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يُخْبِرُ عن شِدَّةِ حِرْصِهِمْ في قِسْمَةِ الغَنيمَةِ ورَغْبَتِهِمْ فيها أنهمْ أشَحُّ قومٍ وأسْوَؤُهُمْ مُقاسَمَةً؛ يقولونَ: أعْطوا، ما أعْطونا، قد شَهِدْنا مَعَكُمْ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١] ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا قولُهُمْ: أي إنّا أشَحُّ منكُمْ على رسولِ اللهِ وعلى دينِهِ، وأضَنُّ منكُمْ على الخيرِ، أي نحنُ أحْرَصُ عليهِ منكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي حِراصاً على الغَنيمةِ والنَّيْلِ منها.

ثم أخْبَرَ عنهمْ وعنْ خِلافِهِمْ لهُ حينَ[1] قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي عَمِلوها في الظاهِرِ ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي صُنْعُهُمُ الذي صَنَعوا على اللهِ يَسيراً أي لا يَضُرُّهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إحباطُ[2] أعمالِهِمْ وتَعْذيبُهُ إيّاهُمْ مَعَ كَثْرَةِ أتباعِهِمْ وأعوانِهِمْ على اللهِ [يَسيرٌ أي لا][3] يَشْتَدُّ عليهِ، ولا يَصْعُبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي يَحْسَبُ هؤلاءِ المُنافِقونَ أنَّ الأحزابَ لم يَذْهبوا مِنَ الفَرَقِ والجُبْنِ والفَشَلِ الذي فيهِمْ يومَ الخَنْدَقِ ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي يُقْبِلِ الأحزابُ ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ﴾ أي بألسنتِهِمْ كانوا بِمَنْزِلَةِ البَداءِ وإنهمْ تَرَكوا أوطانَهُمْ وديارَهُمْ ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾.

كانَ هَمُّهُمُ[4] التَّخَلُّفَ والفِرارَ مِنَ القِتالِ وطَلَبَ أخبارِ المؤمنينَ أنهمْ ما فُعِلَ بهِمْ نَحْوَ ما قالَ: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦ و٥٧].

هكذا كانَتْ عادتُهُمْ، ثم ابْتَلاهُمُ اللهُ بِما كانوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ للمؤمنينَ، ويُضْمِرونَ الخِلافَ لهمْ والعداوةَ بِفَضْلِ فَشَلٍ وجُبْنٍ، ما لم يَكُنْ ذلكَ في غَيْرِهِمْ.

فَفي ذلكَ تَحْذيرٌ للمؤمنينَ وزَجْرٌ عنْ مِثْلِ هذا الصَّنيعِ ومِثْلِ هذهِ المُعامَلَةِ لِئَلّا يُبْتَلَوا بِمِثْلِ ما ابْتُلِيَ أولئكَ.

وفيهِ أنهُ يُعامِلُ بعضُهُمْ بَعْضاً على الظاهِرِ الذي ظَهَرَ دونَ حقيقةِ ما يكونُ. وعلى ذلكَ يَجْري الحُكْمُ على ما عامَلَ رسولُ اللهِ وأصحابُهُ[5] أهلَ النِّفاقِ. وحُكْمُهُ على ما أظْهَروا دونَ ما أضْمَروا في الأنْكِحةِ والصِّهْرِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأحكامِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال بعضُهُمْ: ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [أي إلا][6] في ما يَدْفعونَ عن أنفسِهِمْ لو قَصَدوا. فأمّا الدَّفْعُ عنِ المؤمنينَ ودينِهِمْ فلا.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بالقليلِ [ألا يُقاتِلوا][7] البَتَّةَ حقيقةَ القِتالِ، وهو ما ذَكَرَ عنهُمْ حينَ قالَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] أي فساداً في أمْرِكُمْ، واللهُ أعلَمُ./ ٤٢٥ ـ ب/

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ حيثُما[8] كانَ يُباشِرُ القِتالَ بنفسِهِ، فَباشِروا معهُ القِتالَ [فَمَنْ باشَرَ مَعَهُ القِتالَ][9] آساهُ بأُسْوَةٍ حَسَنَةٍ، ومَنْ لم يَفْعَلْ فلم يُؤاسِهِ. وابْنُ عباسٍ يقولُ: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي سُنَّةٌ صالحةٌ أو نَحْوُهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حبط. (٣) من م، في الأصل: يسيرا ألا. (٤) في الأصل وم: همتهم. (٥) من م، في الأصل: أصحاب. (٦) من م، في الأصل: أي إلا قليلا أي. (٧) في الأصل وم: أي لا يقاتلون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

مِثلُ هذا إنما يُذكَرُ عن زلّاتٍ تكونُ إمّا مِنَ المنافقينَ وإمّا[1] مِنَ المؤمنينَ؛ فيقولُ: لكمْ في التَّأسّي برسولِ اللهِ الاقتِداءُ والقُدْوَةُ به. فهو يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي لقد كانَ لكمْ في رسولِ اللهِ قبلَ أنْ يُبعَثَ رسولاً وقَبْلَ أنْ يُوحى إليهِ في ما عَرَفْتُموهُ مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ وكَرَمِهِ وشَرَفِهِ وأمانتِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. فكيفَ تركتُمُ اتّباعَهُ إذْ[2] بُعِثَ رسولاً؟

الثاني: لقد كانَ لكمْ، أي صارَ لكمْ في رسولِ اللهِ إذْ[3] بُعِثَ رسولاً أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في ما أُنزِلَ إليهِ، وأُوحِيَ إليهِ، وفي ما شاهَدْتُموهُ مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ وكَرَمِهِ. فالواجبُ عليكم أنْ تَتَأسَّوا به.

والثالثُ: لقد كانَ لكمْ بالمؤمنينَ أُسْوَةٌ باسْتِوائِهِمْ لو اتَّبَعْتُمْ في ما شَرَّعَ لكُمْ رسولُ اللهِ، وسَنَّ، والأُسْوَةُ هي الاسْتِواءُ كقولِ الناسِ: فلانٌ أُسْوَةُ غُرَمائِهِ، أي يكونُ المالُ بينَهُمْ على الاسْتِواءِ. هذا واللهُ أعلَمُ، يُشبِهُ أنْ يكونَ تأويلَ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تكونُ في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ لِمَنْ خافَ اللهَ وآمَنَ باليومِ الآخِرِ وبِجَزاءِ الأعمالِ. فأمّا المُنافِقُ والذي لا يُؤمِنُ بالبعثِ فلا تكونُ فيه أُسْوَةٌ لهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي لقد كانَ لكمْ أُسْوَةٌ حسنةٌ ولِمَنْ كانَ يَرجو اللهَ واليومَ الآخِرَ، وأنْ يكونَ: لكمْ في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حسنةٌ وفي مَنْ كانَ يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ، واللهُ اعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذِكْرُ اللهِ يَحْتَمِلُ في نِعْمَتِهِ وإحسانِهِ؛ يَذكُرُهُ بالشكرِ لهُ وحُسْنِ الثناءِ، أو يَذكُرُ سلطانَهُ ومُلْكَهُ أو جلالَهُ وعظمَتَهُ وكِبرياءَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ حينَ[4] أخبرَهُمْ أنكُمْ ستَلْقَونَ كذا في قولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قالوا لمّا عايَنوا ما وَعَدَهُمْ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في ما أخبرَنا مِنَ الوحيِ قَبْلَ أنْ يكونَ وقَبْلَ أنْ نَلْقاهُ ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [أي وما زادهُمْ][5] ما رَأوا، وعايَنوا، في ما وُعِدُوا، وأُخْبِروا[6] إلّا إيماناً وتَصديقاً لرسولِ اللهِ ﷺ في وَعْدِهِ وخَبَرِهِ.

وقالَ قائلونَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد وَعَدَ لهمْ، وأخبرَ أنَّ يومَ الخندقِ يكونُ مِنَ الأحزابِ كذا والجنودِ كذا، وأنكُمْ سَتَلْقَونَ يومئذٍ كذا. فلما رَأوا ذلكَ، وعايَنوهُ، قالوا عندَ ذلكَ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ وتصديقاً لرسولِ اللهِ لأنَّ ذلكَ آيةٌ وحُجَّةٌ لرسالتِهِ، فهو يزيدُهُمْ تصديقاً لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي تَسليماً لأمرِ اللهِ وتفويضاً له. وقيلَ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ بما أصابَهُمْ يومَ الخندقِ ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ وتصديقاً إلى تَصديقِهِمُ الأوّلِ ويقيناً إلى يقينِهِمُ الأوّلِ ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمرِ اللهِ ذلكَ لأنَّ الأمرَ كانَ قضاءً، عليهِ[7] أنْ يُصيبَهُمْ. فَسَلَّموا للهِ أمرَهُ، وصَبَروا عليهِ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذينَ همْ عندَكُمْ مؤمنونَ ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ورجالٌ [لم يَصْدُقوا][8] وهمُ المُنافقونَ لأنَّ ظاهرَ هذا الكلامِ يَدُلُّ على أنَّ مِنَ المؤمنينَ الذينَ همْ في الظاهرِ عندَهُمْ مؤمنونَ لم يَصْدُقوا فأمّا مَنْ كانَ في الحقيقةِ مؤمناً فقد صَدَقَ عَهْدَهُ.

والثاني: ذَكَرَ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خَصَّ بعضَ المؤمنينَ بِصِدْقِ ما عاهَدوا، وهُمُ الذينَ خَرَجوا لذلكَ، لم يكُنْ بهمْ عُذْرٌ، فَوَفَوا ذلكَ العهدَ، وتَخَلَّفَ بعضٌ مِنَ المؤمنينَ لِلعُذْرِ، فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ وفاءُ ذلكَ العَهْدِ له[9] وصِدْقُهُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) و(٣) في الأصل وم: إذا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أخبر.
(٧) في الأصل وم: عليهم. (٨) من م، في الأصل: يصدقون. (٩) في الأصل وم: لهم.

جنة السنة

وكذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي وَفَى بِعَهْدِهِ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الوفاءَ أي يرتفعُ عنهُ](١) العُذْرُ، فَيَفي ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ وفاءَهُ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي هَلَكَ عليهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ذلكَ أي على شَرَفِ الهلاكِ.

[وقولُهُ تعالى](٢) ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ هذا يُقوّي التأويلَ الذي ذَكَرْنا: أَخْبَرَ في قولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أنَّ الذينَ خَلَّفَهُمُ العُذْرُ، فلم يَفُوا عَهْدَهُ، والذينَ، لا عُذْرَ بهِمْ، فَخَرَجوا، فَوَفَوا كُلُّهُمْ، لم يُبَدِّلوا عَهْدَ اللهِ تَبْديلاً لأنهُ إنما خَلَّفَهُم العُذْرُ، فلم يَفُوا.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ على ما وَفَوا ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ مِنَ المُنافقينَ مَنْ قد يتوبُ حينَ(٣) قالَ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي(٤) يُعَذِّبُ الذي ماتَ على نِفاقِهِ.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لم يَزَلْ غفوراً رحيماً ﴿رَّحِيمًا﴾ حينَ رَحِمَهُمْ، ولم يأخُذْهُمْ وقتَ ارْتِكابِهِمُ الجُرْمَ، ولكنْ أمْهَلَهُمْ، واللهُ اعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ أي رَدَّ كُفّارَ مكةَ يومَ الخَندقِ ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي غَنيمةً، أي رَدَّهُمْ بِغَيْظِهِمْ، لم يُصيبوا شيئاً مِنَ الغَنيمةِ.

فإنْ كانَ المرادُ مِنَ الخَيرِ الغَنيمةَ فجائزٌ أنْ يُستَدَلَّ [بالآيةِ](٦) على تَمَلُّكِ أهلِ الحربِ أموالَ المسلمينَ إذا أَحْرَزوها حينَ(٧) قالَ: ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي مالاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي سُروراً بما كانوا يأمُلونَ، ويَطْمَعونَ هلاكَ المؤمنينَ على أيديهِمْ لمّا أحاطوا بهِمْ، وضَيَّقوا عليهِمُ الأمْرَ حتى احتاجوا إلى الخَنْدقِ، فكانوا في أيديهِمْ. يقولُ: إنهمْ لم ينالوا ذلكَ السرورَ الذي كانوا يأمُلونَ، ويَرْجونَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ حينَ(٨) بَعَثَ عليهِمُ الريحَ، وسَلَّطَ عليهِمُ الملائكةَ حتى هَزَموهُمْ، حتى كُفُوا القتالَ والحَرْبَ مَعَهُمْ.

[وقولُهُ تعالى](٩): ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ لأنهُ قَويٌّ بذاتِهِ، لا يَلْحَقُهُ ذُلٌّ. وإنْ لَحِقَ أولياءَهُ الذُّلُّ والضَّعفُ، فَلَيسَ كَمُلوكِ الأرضِ إذا ذهبَ أصحابُهُمْ، أو دَخَلَ فيهِمْ ذُلٌّ وضَعُفَ ذَلَّ مَلِكُهُمْ لأنهُ عزيزٌ بِجُندِهِ وحَشَمِهِ فأمّا اللهُ سُبحانهُ فَقَويٌّ بذاتِهِ لا يَلْحَقُهُ ذلٌّ ولا ضَعْفٌ بذهابِ أوليائِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] كانَ رجالٌ فاتَهُمْ يومُ بدرٍ، فقالوا: لئنْ حضَرْنا قتالاً لَنَفْعَلَنَّ، ولَنَفْعَلَنَّ. فلما كانَ يومُ الأحزابِ قاتلوا. فذلكَ قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي ماتَ على ما شاهدَ اللهُ عليهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ يوماً آخَرَ، يكونُ فيهِ قِتالٌ، فَيُقاتِلُ على ما عاهَدَ اللهُ عليهِ ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ومنهُمْ مَنْ بَدَّلَ، فَيَرجِعُ ذلكَ على المُنافقينَ الذينَ ذَكَرْنا بَدْءاً.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] أي خاليةٌ. وأصلُ العَورةِ ما ذَهَبَ عنه السَّتْرُ والحِفظُ. فكانَ الرجالُ /٤٢٦ ـ أ/ سَتْراً وحِفظاً للبيوتِ. فإذا ذهبوا اعْوَرَّتِ البيوتُ. تقولُ العربُ: اعْوَرَ المَنزِلُ، أي ذَهَبَ سَترُهُ، وسَقَطَ جدارُهُ،

---

(١) في الأصل وم: بالوفاء أن يرتفع عند. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

واعورَّ الفارسُ إذا بدا فيهِ موضعُ خَلَلٍ لِلضَّرْبِ بالسيفِ. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأنَّ اللهَ حافِظُها، ولكنْ يُريدونَ الفِرارَ. وقولُهُ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي مِنْ جوانبِها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الكُفرَ لَآتوها[1] أي أعطوها مَنْ أرادَها[2] ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي بالمدينةِ. ومَنْ قرأها ﴿لَأَتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤] بِغيرِ مَدٍّ أرادَ لصاروا إليها.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُمْ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ مِنْ ناحيةِ العَدُوِّ، والعَورةُ الموضعُ الذي يُخافُ منهُ. وقولُهُ: ﴿أَقْطَارِهَا﴾ أي نَواحيها، الواحدُ قُطْرٌ ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي عُرِضَتْ عليهِمْ، وهو الكُفرُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] يقولُ: آذَوكُمْ بالكلامِ. يُقالُ: خطيبٌ سَليقٌ وسَلّاقٌ. وفيهِ لغةٌ أخرى: صَلَقوكُمْ بالصادِ[3]، وهو الضربُ. وأبو عوسَجَةَ يقولُ قريباً منهُ: سَلَقوكُمْ أي كلَّموكُمْ، فَضرَبوكُمْ بالسنةٍ حدادٍ أي طِوالٍ. السَّلْقُ الضَّرْبُ، والحاطبُ السَّلّاقُ، والمِسْلاقُ مِنْ هذا، وهو طولُ اللسانِ والجراءةُ على الكلامِ وقولُهُ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣] بِنَصْبِ[4] الميمِ لا يكونُ إلّا مِنَ القيامِ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ برفعِ الميمِ يكونُ مِنَ الإقامةِ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ. وأبو عُبَيدَةَ يقولُ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي ليسَ مُقامٌ لكمْ تقومونَ فيهِ ﴿لَا مُقَامَ﴾ أي لا إقامةَ لكمْ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: المَقامةُ المَجْلِسُ، ومقاماتٌ جمعُ المَقامِ موضعُ القَدَمَينِ، والمُقامُ الموضعُ الذي يُقيمُ فيه الرجلُ. وقالَ: ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ قالَ: المُتَعوِّقُ المُحتَبِسُ، والمُعَوِّقُ الذي يُعَوِّقُ غيرَهُ، أي يُحَبِّسُ. وقولُهُ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:١٩] أي حِراصاً على مانالكُمْ مِنَ الشَّرِّ. الواحدُ شحيحٌ. يُقالُ: شَحَّ يَشُحُّ شَحّاً، فهو شحيحٌ، أي حَرِصَ يَحْرَصُ حِرْصاً، فهو حريصٌ.

وقالَ غيرُهُ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بُخَلاءَ، لا يُنْفِقونَ عليكمْ أو في سَبيلِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ [الأحزاب: ٢٠] مِنْ شِدَّةِ الفَرَقِ [فهمْ هؤلاءِ المُعَوِّقونَ اليهودُ والمُنافِقونَ ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ والأحزابُ: همُ الفِرَقُ][5] أعداءُ رسولِ اللهِ وأصحابِهِ: ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ يقولُ: خارجونَ في الأعرابِ مِنَ الرَّهبةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ يَسألونَ عَنْ خَبَرِ المؤمنينَ ساعةً بَعدَ ساعةٍ جَزَعاً ورَهبةً. يقولُ اللهُ للمؤمنينَ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ أي مَعَكُمْ عندَ القِتالِ، هؤلاءِ الذينَ تقدَّمَ ذِكرُهُمْ: ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رَمْياً بالحجارةِ مِنْ ضَعفِهِمْ وفَرَقِهِمْ، وما ذَكَرْنا دَفْعاً عنْ أنفسِهِمْ، وأمّا غيرُهُ فلا.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ اليهودَ يهودَ بني قُرَيظَةَ ظاهَروا أبا سُفيانَ وأصحابَهُ على رسولِ اللهِ وعلى المؤمنينَ، ونَقَضوا العهدَ الذي كانَ بينَهُمْ وبينَهُ. فلَمّا انْهَزَمَ المُشركونَ تَحَصَّنَ بنوقُرَيظَةَ في حصونِهِمْ، ورَجَعَ النَّبِيُّ إلى المدينةِ، فجاءَهُ جبريلُ، فقالَ لهُ: يا محمدُ، واللهِ ما وَضَعَ أهلُ السماءِ أسلِحَتَهُمْ، وقد وَضَعْتُمُ انتمْ أسلِحَتَكُمْ، اخرُجْ على بني قُرَيظَةَ، فقالَ لهُ النَّبِيُّ: فكيفَ أصنَعُ بهِمْ، وهمْ في حصونِهِمْ[6]؟ قالَ: اخرُجْ إليهِمْ، فو اللهِ لَأَدُقَّنَّهُمْ بالخيلِ والرجالِ كما تَدُقُّ البَيضَةُ على الصَّفا، ولَأُخرِجَنَّهُمْ مِنْ حصونِهِمْ[7]. فنادى رسولُ اللهِ في الناسِ، وأمَرَ بالخُروجِ على بني قُرَيظَةَ، فَخَرَجوا، فَحاصَروهُمْ كذا كذا ليلةً حتى صالَحَهُمْ على حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ، فَنَزَلوا على حُكْمِهِ.

فَحَكَمَ سَعْدٌ أنْ يَقْتُلَ مُقاتِلَتَهُمْ، ويَسْبِيَ ذَرارِيَّهُمْ ونساءَهُمْ. فقيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ قالَ يومئذٍ: «يا سَعْدُ لقد حَكَمْتُ فيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ» [البخاري: ٣٠٤٣]. فأُخرِجَتِ المُقاتِلَةُ، فَقُتِلوا، وسَبَوا ذَرارِيَّهُمْ ونساءَهُمْ، فَقَسَّمَ أرضَهُمْ بينَ المُهاجِرينَ.

فقالَ قومُهُ والأنصارُ: آثَرْتَ المُهاجِرينَ بالعُقارِ دونَنا، فقالَ: إنكمْ ذَوو عُقارٍ، وإنَّ القومَ لا عُقارَ لهمْ، أو كلاماً نحوَ هذا.

فذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني الذينَ ظاهَروا أبا سُفيانَ والمُشْرِكينَ جميعاً على رسولِ اللهِ

---

(١) في الأصل وم: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١١٦. (٢) في الأصل وم: أراده. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١١٧.
(٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١١٤. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حصنهم. (٧) في الأصل وم: حصنهم.

وأصحابِهِ: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي مِن حُصونِهِمْ: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهُمُ المُقاتِلَةُ: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهمُ النساءُ والذَّراري.

الآية ٢٧ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أي لم تَملِكوها. اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي أرضُ مكةَ. وقالَ بعضُهُمْ: هي أرضُ الشامِ وقُراها. وقالَ بعضُهُمْ: هي أرضُ خَيبَرَ، أي سَيُورِثُكُمُ اللهُ إياها أيضاً. فأمّا أرضُ مكةَ فقد فتَحها، وترَكَها في أيدي أهلِها. وكذلكَ بلادُ الشامِ وقُراها.

وعنِ الحسنِ: هي أرضُ الرومِ وفارسَ وما فتَحَ اللهُ عليهِمْ. وأمّا خَيبَرُ فقد فتَحها، وقَسَّمها[2] بينَ ما ذكَرْنا، وجعَلَها فَيئاً.

فهو أشبهُ مِن غيرِهِ؛ ففيهِ أنّ مَن يَخلُفُ على[3] مُلكِ غيرِهِ وَقْفاً[4]، مَلَكَهُ الآخرُ، وانتَقلَ إليهِ، يُسمّى وارثاً بموتٍ أو بغيرِهِ حينَ قالَ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ الآية، وكذلكَ ما قالَ: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤]. إلى كذا، وقولُهُ: ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١١] أي[5] يَبقونَ فيهِ، ونَحوُهُ، وكقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] أي يَبقى مُلكُ السمواتِ والأرضِ، أي لا يُنازَعُ فيهِ، وكذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ [مريم: ٤٠] أي نَبقى فيها، والخلائقُ يَفنونَ.

ثم الفائدةُ في ذِكرِ هذا وأمثالِهِ لنا، إذْ همْ قد شاهَدوها، وعايَنوها، تُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: تعريفُ للآخِرِ هذهِ الأمّةَ أنّ أوائلَهُمْ [قاسَوا ما قاسَوا، وتحَمَّلوا][6] ما تَحمَّلوا مِنَ الشدائدِ والبلايا في أمْرِ هذا الدينِ حتى بَلَغَ هذا المَبلَغَ، فَنَجتَهِدُ نحنُ كما اجتَهَدَ أولئكَ في حِفظِ هذا الدينِ وفي أمْرِهِ.

والثاني: أمْرُهُمْ بالتأهُّبِ لِلعَدوِّ[7] حتى أُمِروا بالخَندقِ والتَّحصُّنِ بأشياءَ، ثم جاءَهُمُ الغَوثُ مِنَ اللهِ بِغَيرِ الذي أُمِروا لِيكونوا أبداً مُتأهِّبينَ مُستَعِدّينَ لذلكَ، ولا يَرجونَ النَّصرَ والظَّفَرَ مِن ذلكَ [إلّا][8] بفَضلِ اللهِ. ونَصَرَهُ على ما أخبَرَهُ: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ الآية [التوبة: ٢٥].

والثالثُ: ألّا يُؤيِسَهُمْ خُروجُ أنفُسِهِمْ مِن إيذائِهِمْ وإحاطةِ العدوِّ بهِمْ وكونُهُمْ في أيديهِمْ مِن روحِ اللهِ ورَحمتِهِ وغَوثِهِ إيّاهُمْ، لأنّ الخوفَ بَلَغَ بهِمُ المَبلَغَ الذي ذُكِرَ حينَ قالَ: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ و١١].

وفيهِ دلالةُ لإثباتِ الرسالةِ لِرَسولِ اللهِ لأنهُ وَعَدَهُمُ النَّصرَ، فكانَ على ما وَعَدَ لِيَعرِفوا صدقَهُ[9] في كلِّ ما يُخبِرُ، ويَعِدُ.

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أرادَ مِن فَتحٍ أو نصرٍ أو غَيرِهِ ﴿قَدِيرًا﴾.

وقالَ القُتَبيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أي قُتِلَ، وقَضى أجَلَهُ. وأصْلُ النَّحبِ النَّذْرُ. كانَ قومٌ[11] نَذَروا، إنْ لَقُوا العدوَّ[12]، أنْ يُقاتِلوا حتى يُقتَلوا أو يَفتَحَ اللهُ، فَقُتِلوا.

وقولُهُ: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦] حُصونِهِمْ. وأصلُ الصَّياصي: قُرونُ البقرِ لأنها تَمتَنِعُ بها، وتدفعُ عن أنفسِها. فقيلَ للحصونِ: صَياصٍ لأنها تَمنَعُ، والواحدةُ الصِّيصِيَةُ، وصِيصِيَةُ الديكِ عُرْفُهُ، والصِّيصِيَةُ خُفٌّ صغيرٌ يحوكُ به الحائكُ، وجَمْعُ ذلكَ كلِّهِ صَياصٍ، والأحزابُ الفِرَقُ، واحِدُها: حِزبٌ. ويُقالُ: حَزَبْتُ القومَ أي جَمَعْتُهُمْ، وحَزَّبْتُهُمْ، أي فَرَّقْتُهُمْ، وتَحزَّبَ القومُ إذا اجتَمَعوا، وصاروا حِزباً حِزباً، وتقولُ: هؤلاءِ حِزبي أي أصحابي وشِيعَتي، وتقولُ: حازَبَني مُحازَبَةً أي صاحَبَني مُصاحَبَةً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقسم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: وصفا. (٥) من م، في الأصل: أو.
(٦) في الأصل وم: قاسوا. (٧) في الأصل وم: مع العدو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: صدق. (١٠) ساقطة من م.
(١١) في الأصل وم: قوما. (١٢) من م، في الأصل: عدوا.

جنة السنة

وقولُهُ: ﴿بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي أنْ يكونوا في الباديةِ ﴿يَوَدُّوا﴾ أنْ يكونوا في الباديةِ مَعَ الأعرابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ هي[1] ما يَظْهَرُ عليها[2] المسلمونَ إلى يوم القيامةِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهنَّ جَلَسْنَ، يَتَخَيَّرْنَ الأزواجَ في حياةِ رسولِ اللهِ، فنَزَلَتِ الآيةُ توبيخاً لهنَّ وتَعْييراً على ذلكَ. لكنَّ هذا بَعيدٌ مُحالٌ، لا يُحْتَمِلُ أنْ تكونَ أزواجُهُ يَتَخَيَّرْنَ الأزواجَ، وهنَّ تَحْتَهُ في حياتِهِ. فذلكَ سوءُ الظَّنِّ بهنَّ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهنَّ طَلَبْنَ النَّفَقَةَ منهُ، فنَزَلَ ما ذكَرَ، وقيلَ: إنهنَّ قد تَحَدَّثْنَ بشيءٍ مِنَ الدنيا، ورَكَنَّ إليها /٤٢٦ ـ ب/ فنَزَلَ ما ذُكِرَ عتاباً لهنَّ وتَعْييراً. ونَحْوَ ذلكَ قد قالوا.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ، يَمْتَحِنُ رسولَهُ وأزواجَهُ بالتَّخْيِيرِ، واخْتِيارُ الفِراقِ منهُ ابْتِداءُ امْتِحانٍ من غَيرِ أنْ يكونَ منهنَّ شيءٌ ممّا ذَكَرُوا، ولا سَبَبٌ.

وعلى ذلكَ: «رُوِيَ في الخَبَرِ عن عائشةَ ﵂ [أنها][3] قالَتْ: لمّا أُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ بتَخْيِيرِ أزواجِهِ بَدَأَ بي، فقالَ: يا عائشةُ إني ذاكِرٌ لكِ أمْراً، فلا عليكِ ألّا تَسْتَعجِلي حتى تَسْتَأمِري أبَوَيكِ، قالَتْ: وقد عَلِمَ اللهُ، وقد عَلِمَ أنَّ أبَوَيَّ لم يكونا لِيأمُراني بِفِراقِهِ. قالَتْ: ثم قالَ: إنَّ اللهَ يقولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قولِهِ: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَقُلْتُ: أفي هذا أسْتَأمِرُ أبَوَيَّ؟ إني أُريدُ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ» [مسلم١٤٧٥]وفَعَلَ سائرُ أزواجِهِ مِثْلَ ما فَعَلَتْ.

وفي بعضِ الأخبارِ أنها «قالَتْ: بل أختارُ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخِرَةَ» [أحمد ٦/ ١٦٣] فَدَلَّ قولُها: لمّا أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ تَخْيِيرَ أزواجِهِ أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ ابْتِداءُ امْتِحانٍ مِن غَيرِ أنْ كانَ منهنَّ ما ذَكَروا مِنَ الرُّكُونِ إلى الدنيا.

والتَّحَدُّثُ بما ذُكِرَ فيهِ[4] وجوهٌ مِنَ الدلالةِ:

أحَدُها: إباحةُ طَلَبِ الدنيا وزينَتِها مِن وجهٍ يَحِلُّ، ويُحْتَمَلُ حينَ[5] قالَ: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لأنهُ لو لم يَكُنْ يَحِلُّ ذلكَ لهنَّ، وكنَّ مَنْهِيّاتٍ عنْ ذلكَ، لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يُفارِقُهُنَّ حتى لا يَخْتَرْنَ المَنْهِيَّ مِنَ الأمرِ، وقد كانَ يملكُ حَبْسَهُنَّ في مُلْكِهِ، حتى لا يَخْتَرْنَ ما ذَكَرَهُ مِنَ المَنْهِيِّ. دلَّ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ ذلكَ كانَ على وجهٍ يَحِلُّ، ويُحْتَمَلُ.

والثاني[6]: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يكنْ عندَهُ ما ذُكِرَ مِنَ الدنيا والزينةِ وما يُسْتَمْتَعُ بها، إذْ لو كانَ عندَهُ ذلكَ لما احْتُمِلَ أنْ يُخَيِّرَهُنَّ بالفِراقِ منهُ لِما ذُكِرَ، ولا هُنَّ يَخْتَرْنَ الفِراقَ منهُ، وعندَهُ ذلكَ فارَقْنَهُ. دلَّ أنهُ لم يكُنْ عندَهُ ما ذُكِرَ، ويَبْطُلُ قولُ مَنْ يقولُ: إنهُ كانَ عندَهُ الدنيا، ويُفَضِّلُ الغِنَى على الفقرِ بذلكَ.

والثالثُ[7]: أنَّ أزواجَهُ كُنَّ يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ في حياتِهِ إذا فارَقْنَهُ[8] لأنهنَّ إذا لم يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ لم يكُنْ لِقولِهِ[9]: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ معْنىً، لأنهنَّ، إذا لم يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ، وعندَهُ ما ذُكِرَ مِنَ الدنيا، يَحْمِلُهُنَّ ذلكَ على الفجورِ. فَدَلَّ أنهنَّ كنَّ يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ في حياتِهِ إذا فارَقَهُنَّ، وإنما لم يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ إذ ماتَ، فيكونُ لهُ حُكْمُ الحياةِ كأنهُ حيٌّ في حقِّ أزواجِهِ.

[فَعَلَى ذلكَ][10] يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] في الآخِرَةِ، لا تَحِلُّ لِغَيرِهِ، فتكونُ زوجَتَهُ في الجنةِ ثم اختَلَفَ الصحابةُ ﷺ في مَن خَيَّرَ امْرأتَهُ؟ فاختارَتْ:

قالَ بعضُهُمْ: إذا خَيَّرَها، فهي تطليقةٌ رَجْعيَّةٌ، وإذا اختارَتْ، فهي بائنةٌ، وهو قولُ عليٍّ ﵁.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: عليه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وفيه. (٧) في الأصل وم: وفيه دلالة. (٨) في الأصل وم: فارقن منه. (٩) من م، في الأصل: كقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُم: إذا اختارَتْ نفسَها، فهي ثلاثٌ، وإذا اختارَتْ زوجَها، فلا شيءَ. وقالَ بعضُهُم: إذا اختارَتْ زوجَها، فهي تطليقةٌ رَجعيةٌ، وإنِ اختارَتْ نفسَها فهي تطليقةٌ بائنةٌ.

وعندَنا أنَّ التَّخْييرَ نفسَهُ لا يكونُ طلاقاً. فإنِ اختارَتْ [زَوجَها فلا][1] شيءَ، وإذا اختارَتْ نفسَها، فهي بائنٌ.

أمّا قولُهُ: إذا اختارَتْ زَوجَها فلا[2] شيءَ لِما رُوِيَ عن عائشةَ، قالَتْ: خَيَّرَنا رسولُ اللهِ ﷺ فاخْتَرْناهُ، فلم يَعُدْ ذلكَ طلاقاً.

وأمّا قولُهُ: إذا اختارَتْ نفسَها، فيكونُ بائناً لأنهُ خَيَّرَها بَينَ أنْ تختارَ نفسَها لنفسِها وبَينَ أنْ تَختارَ نفسَها لزوجِها. فإنْ اختارَتْ نفسَها [لنفسِها]، فهي بائنٌ، لأنّا لو[3] جَعَلْناهُ رَجعياً، لم يكُنِ اختيارُها نفسَها لنفسِها، ولكن لزوجِها؛ إذْ لِزَوجِها أنْ يُراجِعَها شاءَتْ، أو أبَتْ. وكانَ التَّخْييرُ بينَ النفسَينِ على ما ذَكَرْنا.

وأمّا قولُ مَنْ يقولُ بأنَّ نفسَ التَّخْييرِ طلاقٌ، فهو باطلٌ لِما ذَكَرْنا مِن تَخْييرِ رسولِ اللهِ أزواجَهُ، فلم يكُنْ ذلكَ طلاقاً.

وأمّا [قولُ][4] مَنْ قالَ بالثلاثِ إذا اختارَتْ نفسَها، فهو كذلكَ عندَنا إذا ذُكِرَ في التَّخْييرِ الثلاثُ.

وأمّا قولُ مَنْ قالَ بالرَّجعيِّ، فهو إذا صَرَّحَ بالتطليقِ، فهو كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الإرادةُ ههنا إرادةُ الاختيارِ وإيثارِ[5] الحياةِ الدنيا وزينتِها لا مَيلُ القلبِ والرِّضا بهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ هو إرادةُ الاختيارِ والإيثارِ، وهو ما يُرادُ، ويُختارُ فِعلاً، لا مَيلُ القلبِ والرِّضا بهِ، لأنَّ كلَّ ممكنٍ فيهِ الشهوةُ مجعولٌ فيهِ هذهِ الحاجةُ، يَميلُ قلبُهُ، ويَركَنُ إلى ما يَتَمتَّعُ بحياةِ الدنيا ولذّاتِها، ويرضاهُ، ويُحِبُّ، فَدَلَّ أنهُ أرادَ إرادةَ الفعلِ والاختيارِ لا إرادةَ القلبِ ورضاهُ. ثم فيهِ ما ذَكَرْنا مِن حِلِّهِنَّ لِغَيرِ رسولِ اللهِ إذا اخْتَرْنَ الفِراقَ منهُ لِما ذَكَرَ أنهُ يُمتِّعُهُنَّ.

ومَعلومٌ أنهنَّ لا يَكْتَسِبْنَ بأنفسِهِنَّ حتى يَتَمَتَّعْنَ بذلكَ، ولم يكُنْ عندهنَّ ما يَتَمتَّعْنَ بذلكَ، فَدَلَّ أنهُ إنما يَتَمتَّعْنَ بأموالِ أزواجِهِنَّ، فَدَلَّ على حِلِّهِنَّ لِغَيرِهِ في حياتِهِ إذا فارَقْنَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ مَعلومٌ أنهنَّ إذا اخْتَرْنَ الحياةَ الدنيا وزينَتَها لا يُحتَمَلُ ألّا يُرِدْنَ اللهَ، لكنَّ إضافةَ ذلكَ إلى اللهِ لاختيارِهِنَّ المُقامَ عندَ رسولِهِ، فَيَدُلُّ ذلكَ أنَّ كلَّ ما أُضيفَ إلى اللهِ ورسولِهِ كانَ المُرادُ به رسولَهُ نَحْوُ ما قالَ: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] وقولِهِ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] وأمثالِ ذلكَ.

ثم الزهدُ في الدنيا يكونُ [على وجهَينِ][6]:

أحدُهما: تَرْكُ المكاسِبِ التي [بها][7] تَتوسَّعُ الدنيا، وتكونُ بها السَّعَةُ [وأنْ يؤثِرَها لِغَيرِهِ][8] على نفسِهِ، واختيارُ حالِ الضِّيقِ مِن غيرِ تَحريمِ ما أُحِلَّ، وطُيِّبَ لهُ.

والثاني: بَذْلُ ما عندَهُ لِغَيرِهِ، وإيثارُهُ على نفسِهِ، وجَعلُهُ أوْلَى بهِ منهُ لا في تحريمِ المُحلَّلاتِ والطَّيِّباتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي إذا اخْتَرْنَ المُقامَ عندَ رسولِ اللهِ يَصِرْنَ مُحسِناتٍ بذلكَ، فأعَدَّ لهنَّ ما ذَكَرَ، فيكونُ ذلكَ الاختيارُ منهنَّ الإحسانَ فاستَوجَبْنَ ما ذَكَرَ.

ويَحتمِلُ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ودُمْتُنَّ على ذلكَ، واكْتَسَبْتُنَّ الأعمالَ الصالحاتِ والإحسانَ حتى خُتِمْتُنَّ على ذلكَ، فأعَدَّ لَكُنَّ [ما ذَكَرَ لا نَفسَ][9] اختيارِ مُقامِكُنَّ معهُ، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: نفسها لا. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فهي بائن لأنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الأيثار. (٦) في م: بوجهين، في الأصل: وجهين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ويؤثرها لغيرها. (٩) في الأصل وم: لا بنفس.

جنة السنة

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الفاحشةُ المُبيِّنَةُ، هي النشوزُ البيِّنُ. وقالَ بعضُهُمْ: لا بلِ الفاحشةُ المُبيِّنَةُ، هي الزِّنى الظاهرُ ويُقالُ: مُبيَّنَةٍ [بالفتح][1] بشهادةِ أربعةِ عُدولٍ، ومُبيِّنَةٍ بالكسرِ أي مُبيِّنَةٍ ظاهرةٍ: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ الجَلْدُ والرَّجْمُ في الدنيا.

ولكنْ كيفَ يُعرَفُ ضِعفُ الرَّجمِ في الدنيا مَنْ لا يُعرَفُ حَدُّ رجمٍ واحدٍ إذا كانَ ذلكَ في عذابِ الدنيا، وإنْ كانَ في عذابِ الآخِرَةِ، فكيفَ ذَكَرَ فاحشةً مُبيِّنَةٍ، وذلكَ عندَ اللهِ ظاهرٌ بيِّنٌ؟.

وقالَ بعضُهُمْ: /٤٢٧ ـ أ/ ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ في الدنيا والآخرة: أمّا في الدنيا فَمِثْلَي حُدودِ النساءِ، وأمّا في الآخِرَةِ فَضِعفَي ما يُعذَّبُ بهِ سائرُ النساءِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ هذا صلةَ قولِهِ: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ إذا اختَرْنَ الدنيا، فَمَتى أتينَ بفاحشةٍ ضُوعِفَ لهنَّ مِنَ العذابِ ما ذُكِرَ. وإذا اختَرْنَ المُقامَ عندَ رسولِ اللهِ، والدارَ الآخِرَةَ آتاهُنَّ الأجرَ مرَّتَينِ. أو أنْ يكونَ إذا اختَرْنَ المُقامَ عندَ رسولِ اللهِ والدارَ الآخِرَةَ، ثم أتَيْنَ بفاحشةٍ، ضوعِفَ لهنَّ ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ لئلا يَحْسَبْنَ أنهنَّ إذا اختَرْنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخِرَةَ [لا يُعاقَبْنَ بما ارتَكَبْنَ مِنَ مَعْصِيَةٍ. بل هذا إخبارٌ لهنَّ أنكُنَّ، وإنِ اختَرْتُنَّ الدارَ الآخِرَةَ][2] ثم ارتَكَبْتُنَّ ما ذَكَرْتُ[3]، عُوقِبْتُنَّ ضِعفَ ما عُوقِبَ بهِ غيرُكُنَّ[4].

وإذا أطَعْتُنَّ اللهَ ورسولَهُ ضُوعِفَ لكنَّ الأجرُ مرَّتَينِ، واللهُ أعلَمُ.

والأشبَهُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ ضِعفِ العذابِ في الآخِرَةِ على ما يقولُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ لهنَّ الأجرَ كِفلَينِ؟ ومَعلومٌ أنَّ ذلكَ في الآخِرَةِ. فَعَلَى ذلكَ العذابُ.

وأمّا قولُهُ: مُبيِّنَةٍ عندَ الخَلْقِ، فقد[5] كانَتْ عندَ اللهِ مُبيِّنَةً ظاهرةً. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي عذابُهُنَّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ هَيِّناً، لا يَثْقُلُ عليهِ، ولا يَشْتَدُّ، لِمكانِ رسولِ اللهِ، بلْ على اللهِ يَسيرٌ هَيِّنٌ.

والثاني: أنَّ إتيانَكُنَّ الفاحِشَةَ ومَعْصِيَتَكُنَّ على اللهِ يَسيرٌ][6] أي لا يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ ولا تَبِعَةٌ، ليسَ كَمَعْصِيَةِ خواصِّ المَلِكِ لهُ في الدنيا، يَلْحَقُهُ الضَّرَرُ والذُّلُّ إذا عَصَوهُ، وأعرَضُوا عنهُ.

فأمّا اللهُ سُبحانَهُ فَعَزيزٌ بذاتِهِ، غَنيٌّ، لا يَضُرُّهُ عِصيانُ عَبيدِهِ، بل يَضُرُّونَ[7] أنفسَهُمْ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ في الآيةِ دلالةُ فَضيلةِ أزواجِ رسولِ اللهِ وعظيمِ قَدْرِهِ حينَ[8] خاطَبَهُنَّ مِنْ بَينِ غيرِهِنَّ مِنَ النساءِ كما خاطَبَ مريمَ بقولِهِ[9]: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ثم يَحْتَجُّ الشافعيُّ بقولِهِ: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ لتأويلِهِ قولَهُ[10]: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٩] يقولُ[11]: قولُهُ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ أي تَطليقَتانِ في دَفْعَةٍ واحدةٍ [مِنْ غيرِ][12] إحداثِ التطليقِ والفِعْلِ في ما بَينَهما.

ويَسْتَدِلُّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ أي أجرَينِ مِنْ غيرِ إحداثِ فِعْلٍ في ما بَينَهما، ولكنْ بِفِعْلٍ واحدٍ وقولِهِ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨] أي أجرَينِ.

لكنْ عندَنا يجوزُ الإيتاءُ بِمَعْنَى الإيجابِ، أي يوجِبُ الأجرَ مرَّتَينِ نَحوَ قولِهِ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: ١٤٨] أي أوجَبَ لهمْ ثوابَ الآخِرَةِ. فعلَى ذلك ما ذُكِرَ؛ ونَحْوُهُ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٢١. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ذكره. (٤) في الأصل وم: غيره. (٥) في الأصل وم: وإن. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: ضروا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يقول. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: بقوله. (١٢) من م، في الأصل: بمرة.

جنة السنة

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قالَ بعضُ[1] أهلِ الأدبِ: أحَدٌ أجْمَعُ في الكلامِ مِنْ واحدٍ لأنهُ يرجعُ إلى واحدٍ وإلى جماعةٍ، وقولُهُ: ﴿كَأَحَدٖ﴾ إنما يَرْجِعُ إلى الفردِ خاصةً، وإنما يُخاطِبُ بهِ الواحدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ اختيارَ الدنيا وزينتِها [ويحتملُ][2]: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ أيضاً نَقْضَ اختيارِ رسولِ اللهِ والدارِ الآخِرَه.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ مُخالَفَةَ اللهِ ومُخالَفَةَ رسولِهِ، وقولُهُ: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ فإنكُنَّ مَعْشَرَ أزواجِ النبيِّ [تَنْتَظِرْنَ الوَحْيَ][3] وتَصْحَبْنَ رسولَ اللهِ ﷺ بالليلِ والنهارِ، وتَرَيْنَ أفعالَهُ وصَنيعَهُ. فإنكُنَّ أحقُّ الناسِ بالتَّقْوى وتَرْكِ المَيْلِ إلى الدنيا والركُونِ إليها مِمَّنْ لا يَنْتَظِرُه[4]، ولا يَصْحَبُهُ، إلّا في الأوقاتِ مَرَّةً.

وأنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في الفضيلةِ على غيرِهِنَّ[5] مِنَ النساءِ لأنهنَّ يَكُنَّ أزواجَ رسولِ اللهِ في الآخِرَةِ، ويَرْتَفِعْنَ إلى دَرَجاتِ رسولِ اللهِ، ويكُنَّ معهُ. فإنكُنَّ لَسْتُنَّ كَغَيْرِكُنَّ مِنَ النساءِ في الفضيلةِ والدَّرَجةِ ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ مُخالفةِ رسولِ اللهِ واخْتِيارِ الحياةِ الدنيا وزينَتِها والمَيْلِ إليها والركونِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ قيلَ: فلا تَلِنَّ في القولِ ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ قال بعضُهُم: أي فُجورٌ وزِنًى: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي خَشِناً شديداً.

وقال بعضُهُم: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي نِفاقٌ. وهذا أولى لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ أحدٌ منهم يَطْمَعُ في أزواجِ رسولِ اللهِ نِكاحاً بحالٍ أو رَغْبةً فيهنَّ بعدَ عِلْمِنا منهم أنهم إذا عَلِموا مِنْ رسولِ اللهِ رَغْبةً في أزواجِهِمْ طَلَّقوهُنَّ لِيَتَزَوَّجَهُنَّ رسولُ اللهِ ﷺ فلا يُحْتَمَلُ بَعْدَما عُرِفَ منهم هذا أنْ يَطْمَعَ أحدٌ منهم، ويَرْغَبَ في أزواجِهِ نِكاحاً فضلاً أنْ يَرْغَبَ فُجوراً.

ولكنْ إنْ كانَ ذلكَ فهو مِنْ أهلِ النِّفاقِ. وجائزٌ أنْ يرغَبوا فيهنَّ نِكاحاً لأنهنَّ أعظَمُ الناسِ نَسَباً وحَسَباً وأكْرَمُهُمْ جمالاً وحُسْناً. فجائزٌ وقوعُ الرَّغْبَةِ فيهنَّ مِنْ أهلِ النِّفاقِ لِما ذَكَرْنا.

وأمّا مِنْ أهلِ الإيمانِ فلا يُحْتَمَلُ ذلكَ لِما ذَكَرْناهُ. يدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨] دلَّ أنهنَّ بحيثُ يُرغَبُ فيهنَّ، ويُطْمَعُ.

وقال بعضُهُم: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ يقولُ: فلا تَرْمِينَّ بقولٍ، يُقارِبُ الفاحشةَ ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي قولاً حَسَناً، لا يُقارِبُ الفاحشةَ. لكنَّ هذا بعيدٌ.

وأصلُهُ: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا تَقُلْنَ قولاً، تُعْرَفُ بهِ الرَّغْبَةُ في الرجالِ والمَيْلُ إلى الدنيا والرُّكُونُ فيها ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ ما يكونُ فيهِ تَغْييرٌ لِلْمُنْكَرِ والأمْرِ بالمَعْروفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قد قُرِئَ بكسرِ[6] القافِ وفتحِها. فَمَنْ قَرَأَ بالكسْرِ [وقِرْنَ][7] فهو مِنَ الوَقارِ، ومَنْ قَرَأَ بالفتحِ ﴿وَقَرۡنَ﴾ جَعَلَهُ مِنَ القَرارِ والسُّكونِ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قال بعضُهُم: ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قَبلَ أنْ يُبْعَثَ رسولُ اللهِ كانَتْ تَخْرُجُ نساؤُهُم مُتَبَرِّجاتٍ بزينةٍ مُظْهِراتٍ، فأمَرَ اللهُ أزواجَ رسولِهِ بالسِّتْرِ والحِجابِ عليهنَّ، وهو ما قالَ: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقالَ بعضُهُم: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قال: ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ التي وُلِدَ فيها إبراهيمُ، أُعْطِينَ وُفوراً كثيرةً، وكُنَّ يَتَبَرَّجْنَ في ذلكَ الزمانِ تَبَرُّجاً شديداً، وأمَرَ أزواجَهُ بالعِفَّةِ والتَّرْكِ لذلكَ. فَلَسْنا ندري ما أرادَ بالجاهليةِ؟ ومَنْ

---

(١) في الأصل وم: بعضهم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: تنظرن إلى. (٤) في الأصل وم: ينظر إليه. (٥) في الأصل وم: غيرها. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ١٢٤. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أرادَ بذلكَ؟ ألذينَ كانوا بِقُرْبِ خُروجِ رسولِ اللهِ وبَعْثِهِ، أمِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِ الأُمَمِ السالفةِ؟ والتَّبرُّجُ كأنهُ الخروجُ بالزينةِ على إظهارِ لها؛ أعني إظهارَ الزينةِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا تَلِنَّ بهِ، وقولُهُ: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي صحيحاً، وقولُهُ: وقِرْنَ في بيوتِكُنَّ بالكسرِ مِنَ الوَقارِ. ويُقالُ: وَقَرَ في مَنْزِلِهِ يَقِرُ وَقْراً[1]. وقَرْنَ في بيوتِكُنَّ بِفَتْحِ القافِ مِنَ القرارِ؛ وكأنهُ مِنْ قَرَّ يَقَرُّ أرادَ اقْرَرْنَ في بيُوتِكُنَّ، فَحَذَفَ الراءَ الأُولى، وحَوَّلَ فَتْحَها إلى القافِ كما يُقالُ: ظَلْنَ في مَوضِعِ كذا مِنِ اظْلَلْنَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] ولم يُسْمَعْ قَرَّ يَقَرُّ إلّا في موضعِ قُرَّةِ العَينِ. فأمّا في الاسْتِقرارِ فإنما هو قَرَّ يَقِرُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ لهنَّ بإيتاءِ الزكاةِ مِنْ حُلِيِّهِنَّ لأنهنَّ لا يَمْلِكْنَ شيئاً سِوَى ذلكَ ممّا[2] تَجِبُ في مِثْلِهِ الزكاةُ.

ألَا تَرَى أنهُ وَعَدَ لهنَّ التَّمْتِيعَ والسَّراحَ الجميلَ إذا أرَدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها؟ فلو كانَ عندَهنَّ شيءٌ مِنْ فُضولِ الأموالِ كُنَّ يُنْفِقْنَ، ويَتَمَتَّعْنَ، وإنْ لم يكُنْ عندَ رسولِ اللهِ ما يُمَتِّعُهُنَّ، ولا يَطْلُبْنَ ذلكَ مِنْ عندِهِ /٤٢٧ ـ ب/ فَدَلَّ ذلكَ أنهنَّ لا يَمْلِكْنَ شيئاً مِنْ ذلكَ. فيجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بظاهرِ هذهِ الآيةِ في إيجابِ الزكاةِ في الحُلِيِّ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أمَرَهُنَّ بإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ والطاعةِ للهِ ورسولِهِ لئلا يَغْتَرِرْنَ بما اخْتَرْنَ المُقامَ مع رسولِ اللهِ ﷺ، وإيثارَهُنَّ إيّاهُ على أنَّ ذلكَ كافٍ لهنَّ في الآخِرَةِ، ولا شيءَ عليهِنَّ سِوَى ذلكَ مِنَ العِباداتِ. بل إخبارٌ [لهنَّ][3]: وإنِ اخْتَرْتُنَّ المُقامَ معهُ، وآثَرْتُنَّ إياهُ على الدنيا وزينتِها فلا يُغْنيكُنَّ ذلكَ عمّا ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالَ بعضُهُم: إنَّ هذهِ الآيةَ مَقطوعةٌ عنِ الأُولَى، لأنَّ الأُولَى في أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهذهِ في أهلِ بيتِهِ. وهو قولُ الرَّوافِضِ، ويَسْتَدِلُّونَ بقَطْعِها عنِ الأُولى بوجوهٍ:

أحَدُها: «ما رُوِيَ عن أُمِّ سَلَمَةَ زوجِ النَّبِيِّ ﷺ، أنها قالَتْ: عَنَى بذلكَ علياً وفاطمةَ والحَسَنَ والحُسَينَ، وقالَتْ لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ، أخَذَ النَّبِيُّ ثوباً، فَجَعَلَهُ على هؤلاءِ، ثم تَلَا الآيةَ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مِنْ جانبِ البيتِ: [ألَسْتُ][4] مِنْ أهلِ البيتِ؟ قالَ: بَلَى إنْ شاءَ اللهُ» [البيهقي في الكبرى ٢/ ١٥٠].

وعَنِ الحَسَنِ بْنِ عليٍّ أنهُ خَطَبَ الناسَ بالكوفةِ، وهو يقولُ: يا أهلَ الكوفةِ اتَّقُوا اللهَ فينا، فإنّا أُمَراؤُكُم، وإنّا ضِيفانُكُمْ، ونحنُ أهلُ البيتِ الذي قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

[والثاني: ما][5] يقولونَ أيضاً: إنَ الآيةَ الأُولَى ذَكَرَها بالتأنيثِ حينَ قالَ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾. وهذهِ ذَكَرَها بالتذكيرِ. دلَّ أنها مَقطوعةٌ عنِ الأُولى.

[والثالثُ: ما][6] يقولونَ أيضاً: إنهُ وَعَدَ أنْ يُذْهِبَ عنهمُ الرِّجسَ، ويُطَهِّرَهُمْ تطهيراً وعْداً مُطْلَقاً غيرَ مُقَيَّدٍ.

وهذا الرجسُ الذي ذُكِرَ ممّا يَحتَمِلُ أزواجَهُ، مُمْكِنُ ذلكَ فيهنَّ غيرُ مُمْكِنٍ في أهلِ بيتِهِ ومَنْ ذَكَرَهُ.

[والرابعُ: ما][7] يقولونَ أيضاً: ما رُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: «تَرَكْتُ فيكُمْ بَعدي الثَّقَلَينِ: كتابَ اللهِ وعِتْرَتي أهلَ بيتي ما إنْ تَمَسَّكْتُم بهما لَيَرِدانِ بكُمُ الحَوضَ» [الترمذي ٣٧٨٦] أو كلامٌ نَحْوُ هذا، فَفَسَّرَ العِتْرَةَ بأهلِ البيتِ ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الوجوهِ.

وأمّا عندنا فهي غَيرُ مَقْطوعةٍ مِنَ الأُولى: إمّا أنْ يكونَ على الاشْتِراكِ بينهنَّ وبَينَ مَنْ ذَكَرَ مِنْ أولادِهِ؛ إذِ اسْمُ أهلِ البيتِ ممّا يَجمَعُ ذلكَ كلَّهُ في العُرْفِ، [وإما أنْ][8] تكونَ الآيةُ لهنَّ على الانْفِرادِ.

---

(١) في الأصل وم: وقورا. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

فأمّا أنْ يُخرِجَ أزواجَهُ عنْ أهلِ بيتِهِ، والبيتُ يَجْمعُهُمْ، فلا يَحْتَمِلُ ذلكَ.

وأمّا قولُهُمْ: إنهُ ذَكَّرَ هذهِ الآيةَ بالتذكيرِ، والأَوْلى بالتأنيثِ فعندَ الاخْتِلاطِ كذلكَ يُذكَّرُ باسمِ التذكيرِ.

وأمّا قولُهُمْ: إنَّ وعْدَهُ لهمْ منهُ خَرَجَ مُطْلَقاً غيرَ مُقَيَّدٍ، فكذلكَ كُنَّ أزواجَ رسولِ اللهِ، لم يأتِ منهنَّ ما يجوزُ أنْ يُنْسَبْنَ إلى الرِّجْسِ أوِ القَذَرِ إلّا في ما [غُوِلْنَ على رأيِهِنَّ وتَدْبيرِهِنَّ بالحِيَلِ، فأُخرِجْنَ في ما][1] أُخرِجْنَ.

وأمّا [قولُهُ: «الثَّقَلَيْنِ» فهما اللذانِ][2] تَرَكَهُما فينا بَعْدَهُ: الكتابُ والعِتْرَةُ. وعِتْرَتُهُ سُنَّتُهُ على ما قيلَ.

وقولُهُ: «أهلَ بيتي» كأنهُ قالَ: تركْتُ الثَّقَلَيْنِ كتابَ اللهِ وسُنَّتي بأهلِ بيتي، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وأمّا ما رُوِيَ عنْ أُمِّ سَلَمَةَ فإنهُ في الخَبَرِ بيانٌ على أنَّ أزواجَهُ دَخَلْنَ حينَ[3] قالَتْ له أُمُّ سَلَمَةَ: أَلَسْتُ مِنْ أهلِ البيتِ؟ قالَ: بَلَى إنْ شاءَ اللهُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ منْ وجوهٍ:

أحَدُها: ما يقولونَ: إنَّ اللهَ قد أرادَ أنْ يُطَهِّرَ الخَلْقَ كلَّهُمْ الكافرَ والمسلمَ، وأرادَ أنْ يُذْهِبَ الرِّجْسَ عنهمْ جميعاً. لكنَّ الكافرَ حينَ[4] أرادَ ألّا تُطَهِّرَ نفسُهُ، ولا يُذْهَبَ عنهُ الرِّجْسُ لم يَطْهُرْ. فلو كانَ على ما يقولونَ لم يكنْ لتخصيصِ هؤلاءِ بالتَّطْهيرِ ودفعِ الرِّجْسِ عنهمْ فائدةٌ ولا مِنّةٌ. دلَّ [أنهُ][5] إنما يُطَهِّرُ مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الطهارةِ وتَرْكَ الرِّجْسِ.

وأمّا مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الرِّجْسِ فلا يَحْتَمِلُ أنْ يُذْهِبَ عنهُ الرِّجْسَ، أو يريدَ منهُ غيرَ ما يَعْلَمُ أنهُ يَخْتارُ. وإنَّ التطهيرَ، لن يكونَ، إنما يكونُ باللهِ لا بما تقولُهُ المعتزلةُ حينَ[6] قالَ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إذْ على قولِهِمْ: لا يملكُ هو تطهيرَ مَنْ أرادَ، إذْ لم يَبْقَ عندَهُ ما يُطَهِّرُهُمْ. فذلكَ كلُّهُ يَنْقُضُ عليهمْ أقوالَهُمْ ومذهَبَهُمْ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ أيِ اتْلُونَ ما يُتْلَى في بيوتكنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحكمةِ.

والثاني: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ على حقيقةِ الذكرِ، أيِ اذْكُرْنَ ما مَنَّ اللهُ عليكُنَّ، وجَعَلَكُنَّ مِنْ أهلِ بيتٍ، تُتْلَى فيهِ آياتُ اللهِ والحكمةُ، وجَعلَ بيوتَكُنَّ موضعاً لِنزولِ الوحْيِ فيها، وخَصَّكُنَّ بذلكَ ما لم يَجْعلْ في بيتِ أحدٍ ذلكَ.

يُذَكِّرُهُنَّ عظيمَ ما أنعَمَ، ومَنَّ عليهنَّ ليستأدِيَ بهِ شُكْرَهُ لِيَعْرِفْنَ مِنَّةَ اللهِ ونِعَمَهُ عليهنَّ. وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ آياتِ القرآنِ، ويَحْتَمِلُ حُجَجَهُ وبراهينَهُ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قالتِ الفلاسفةُ: الحكيمُ، هو الذي يَجْمَعُ العلمَ والعملَ جميعاً. وقالَ بعضُهُمْ: الحكيمُ المُصيبُ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هي الإصابةُ. وقيلَ: هي وضعُ الشيءِ مَوضِعَهُ، وهي نَقيضُ السَّفَهِ.

وأصلُ الحكمةِ في الحقيقةِ، كأنهُ، هي الإصابةُ في كلِّ شيءٍ. والحكيمُ، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في الحُكْمِ ولا الغَلَطُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحكمةُ ههنا، هي السُّنَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ اللطيفُ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما][7]: [هو البارُّ، يُقالُ: فلانٌ لطيفٌ][8] إذا كانَ بارّاً.

والثاني: اللطيفُ، هو الذي يَسْتَخْرِجُ الأشياءَ الخفيَّةَ الكامنةَ ممّا لا تَتَوَهَّمُ[9] العقولُ اسْتِخْراجَها مِنْ مِثْلِها.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى آخرِهِ[10]؛ ذُكِرَ أنَّ أمَّ سَلَمَةَ زوجَ النَّبيِّ ﷺ وامرأةً، يُقالُ لها: أنيسةُ بنتُ كعبٍ، أتَيَتا رسولَ اللهِ ﷺ فقالتا: يا رسولَ اللهِ ما بالُ رَبِّنا يذكرُ الرجالَ في القرآنِ بالخيرِ، ولا يذكرُ النساءَ في شيءٍ؟ فنَزَلَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: في الثقلين اللذين. (٣) و(٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: تتوهمها. (١٠) في الأصل وم: آخر ما.

جنة السنة

ثم قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يدلُّ أنَّ الإسلامَ والإيمانَ هما في الحقيقةِ واحدٌ؛ أعني في حقيقةِ المَعْنَى واحدٌ، وإنْ كانا مُختلِفَينِ بجهةٍ لأنَّ الإسلامَ، هو أنْ يُجعَلَ[1] كلُّ شيءٍ للهِ سالماً خالصاً، لا يُجعَلُ لغيرِهِ فيهِ شِرْكاً ولا حَقًّا، والإيمانُ هو التصديقُ للهِ بشهادةِ كلِّ شيءٍ لهُ بالوَحدانيةِ والرُّبوبيةِ والألوهيةِ.

فَمَنْ جَعَلَ الأشياءَ كلَّها للهِ خالصةً سالمةً، والذي صَدَّقَ اللهَ بشهادةِ كُلِّيَّةِ الأشياءِ لهُ بالوَحدانيةِ والرُّبوبيةِ والألوهيةِ، واحدٌ، لأنَّ المُخلِصَ، هو الذي يَرَى [كلَّ شيءٍ للهِ خالصاً، والمُوَحِّدَ، هو الذي يَرَى][2] الوَحدانيةَ لهُ والرُّبوبيةَ في كلِّ شيءٍ، فهما في حقيقةِ المَعْنَى واحدٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ القُنوتُ، هو القيامُ في اللغةِ. رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عن أفضلِ الصلاةِ، فقالَ «طولُ القُنوتِ» وفي بعضِهِ: «طولُ القِيامِ» [مسلم ٧٥٦] فَثَبَتَ أنَّ القُنوتَ، هو القيامُ، فيكونُ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ، القائمينَ والقائماتِ بجميعِ أوامرِ اللهِ ومَناهيهِ. وكذلكَ يُخرَّجُ تأويلُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المُطيعينَ ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾][3] والمطيعاتِ للهِ، لأنَّ كلَّ قائمٍ بأمرٍ آخَرَ، فهو مطيعٌ لهُ؛ هذا، كأنهُ يقولُ، يكونُ في الاعْتِقادِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ إلى آخِرِهِ يكونُ في المعاملةِ في تصديقِ ما اعْتَقَدوا /٤٢٨ - أ/ وقَبِلُوا؛ يُصَدِّقونَ، ويُوفونَ بالأعمالِ في ما اعْتَقَدوا، وقَبِلُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ الصبرُ، هو كَفُّ النفسِ وحَبْسُها عنِ التَّعاطي في جميعِ المُحَرَّماتِ المَحْظوراتِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على أمرِ اللهِ وطاعتِهِ وعلى المآذي والمصائبِ؛ يَكُفُّونَ [أنفسَهُمْ][4] عن جميعِ ما لا يَحِلُّ فيهِ، ويَرَونَ ذلكَ مِنْ تقديرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخاشعُ المُصَلِّي، وقالَ بعضُهُمْ: الخاشعُ المتواضعُ. وأصلُ الخشوعِ: هو الخوفُ اللازمُ في القلبِ، وهو قولُ الحسنِ: يَخافونَ اللهَ في كلِّ حالٍ، ولا يَخافونَ غيرَهُ، ويَرْجُونَ اللهَ، ولا يَرْجُونَ غيرَهُ.

هكذا عَمَلُ المؤمنِ تكونُ حقيقةُ خوفِهِ ورجائِهِ منهُ. وأمّا الكافرُ فإنهُ لا يَخافُ ربَّهُ، ولا يَرْجُوهُ[5]، لأنهُ لا يَعْرِفُهُ، ولا يَخْضَعُ لهُ.

وعلى ذلكَ المعتزلةُ؟ إنما خوفُهُمْ مِنْ أعمالِهِمُ السيئةِ، ورجاؤُهُمْ منها؛ أعني مِنْ أعمالِهِمُ الحسنةِ لا مِنَ اللهِ حقيقةً. وكذلكَ على قولِهِمْ: لا يكونُ لأحدٍ رجاءٌ في شفاعةِ رسولِ اللهِ ﷺ إنما رجاؤُهُ في أعمالِهِ لقولِهِمْ: ليسَ للهِ في أفعالِ العبادِ شيءٌ مِنْ تَدْبيرِهِ ولا تَقْديرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي المُنْفِقينَ [والمُنْفِقاتِ][6] في طاعةِ اللهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ قد ذَكَرْنا[8] أنَّ هذا راجعٌ إلى حقيقةِ الفِعْلِ في الصيامِ والصدَقَةِ والصِّدْقِ في القولِ والمُعامَلَةِ والخُشوعِ منهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في القبولِ والاعْتِقادِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ في ما لا يَحِلُّ كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥ و٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي المُصَلُّونَ للهِ الصلواتِ الخَمْسَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ باللِّسانِ على كلِّ حالٍ. لكنَّ غيرَهُ، كأنهُ أولى بذلكَ؛ أيِ الذاكرينَ حقَّ اللهِ الذي عليهِمْ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: لغيره. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: القائمين المطعين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يرجون منه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: ذكر.

جنة السنة

الآية ٣٦ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ [المُعتزِليُّ][2]: دلَّتْ هذهِ الآيةُ على أنَّ الكُفرَ ممّا لم يقْضِهِ اللهُ، لأنهُ لو كانَ ممّا قضاهُ اللهُ لكانَ لا يكونُ لهمُ الخِيرَةُ والتَّخْيِيرُ. فإنْ قالَ: إنهُ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ دلَّ أنهُ ممّا لم يقْضِهِ اللهُ.

لكنْ يقولُ: إنَّ القضاءَ ههنا، ليسَ هو قضاءَ الخَلْقِ على ما فَهِمَ هو، ولكنَّ القضاءَ ههنا الأمْرُ [أوِ الحُكْمُ. فالأمْرُ][3] كقولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي أمَرَ ربُّكَ، وأوجبَ ألّا تعْبُدوا إلّا إيّاهُ.

[ويحتمِلُ][4] أنْ يكونَ الحُكْمَ كقولِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أي ممّا حَكَمْتَ.

فإذا كانَ القضاءُ يَحتمِلُ الأمرَ والحُكمَ على ما ذَكَرْنا، فيكونُ كأنهُ قالَ: وما كانَ لِمُؤمِنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي إذا أمَرَ اللهُ ورسولُهُ أمراً، أو إذا حَكَمَ اللهُ ورسولُهُ حُكْماً[5] ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وهكذا يكونُ في ما أمَرَ اللهُ ورسولُهُ بأمرٍ، أو حَكَمَ بحكمٍ ألّا يكونَ لأحدٍ التَّخْيِيرُ في ذلكَ.

وممّا يدلُّ أيضاً على أنَّ القضاءَ أيضاً ههنا، ليسَ هو القضاءَ الذي فَهِمَ المعتزلةُ حينَ[6] أضافَ ذلكَ إلى رسولِهِ أيضاً حينَ[7] قالَ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ ولا شَكَّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، كانَ لا يَمْلِكُ القضاءَ الذي هو قضاءُ خَلْقٍ. دلَّ أنَّ المعتزلةَ أخطأَتْ، وغَلِطَتْ، في فَهْمِ ذلكَ، وقَصُرَتْ عقولُهُمْ عن دَرْكِ ذلكَ، وأنَّ التأويلَ ما ذَكَرْنا نحنُ.

ثم أجمعَ أهلُ التأويلِ على أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ إنما نزلَ في زينبَ بنتِ جَحْشٍ؛ يَذْكُرونَ أنَّ النبيَّ ﷺ، كانَ أَعْتَقَ زيدَ بْنَ حارثةَ، وتَبَنّاهُ، وكانَ مَولًى لهُ، فَخَطَبَ لهُ زينبَ بنتَ جَحْشٍ، فقالَتْ زينبُ: إني لا أرضاهُ لنفسي، وأنا مِنْ أتَمِّ نساءِ قُرَيشٍ، وكانَتِ ابْنَةَ عمةِ رسولِ اللهِ ﷺ بنتَ ميمونةَ بنتِ عبدِ المطلبِ فقالَ لها النبيُّ ﷺ: قد رَضِيتُهُ لكِ، فزَوِّجي نفسَكِ منهُ، فأبَتْ ذلكَ، فنَزَلَ قولُهُ فيها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

لكنْ إنْ كانَ على [ما][8] يَذْكُرونَ مِنَ الخِطْبَةِ لها، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُجْبِرَها على النِّكاحِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ «ليسَ[9] لِلْوَلِيِّ مَعَ الثَّيِّبِ أمْرٌ» [أبو داوود ٢١٠٠] وقالَ النبيُّ ﷺ «البِكْرُ تُسْتَأْمَرُ في نفسِها، والثَّيِّبُ تُشاوَرُ» [بنحوه مسلم ١٤١٩] ثم تجيءُ الآيةُ في جَبْرِها على النِّكاحِ مِمَّنْ شاءَ، ولهُ الحُكْمُ بالنِّكاحِ لِمَنْ شاءَ على مَنْ شاءَ وليسَ لهمُ الخِيرَةُ في ذلكَ.

فأمّا بالخِطْبَةِ [فهي][10] دونَ الأمرِ والحكمِ مِنَ اللهِ، لا جَبْرَ في ذلكَ. ألا تَرى أنهُ ذُكِرَ: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا خَطَبَ أمَّ سَلَمَةَ، فقالَتْ: إنَّ أوليائي غُيَّبٌ، فقالَ: ليسَ أحدٌ مِنْ أوليائِكِ لا يَرْضى بي» [أحمد: ٦/ ٢٩٥] أو كلامٌ نَحْوُهُ، خَطَبَها، ولم يُجْبِرْها على ذلكَ؟

فَعَلى ذلكَ زينبُ، إلا أنْ يكونَ على الأمرِ والحكمِ على ما ذَكَرْنا، أو أن يكونَ سببُ نزولِ الآيةِ في مَنْ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ في خِطْبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ زينبَ بنتَ جَحْشٍ، ويكونُ الوعيدُ الذي ذَكَرَ فيهِ في غيرِهِ في ما فيهِ أمرٌ مِنَ اللهِ أو حكمٌ نَحْوُ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: «أنهُ صَلّى الفَجْرَ، فرَأى رجلَينِ جالِسَينِ، فقالَ لهما: ما بالُكما لم تُصَلِّيا معنا؟ فقالا: إنا قد صَلَّينا في رِحالِنا، فقالَ: إذا صَلَّيتُما، ثم أتيتُما المسجدَ، فَصَلِّيا معهُمْ، فتكونَ لكما سُبْحَةً» [بنحوه أبو داوود ٥٧٥] وإنما قالَ: فَصَلِّيا معهمْ لا في صلاةِ الفَجْرِ، ولكنْ في الصَّلَواتِ التي يُتَطَوَّعُ بعدَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ وإنْ كانَ هذا في المؤمنينَ فيكونُ الضلالُ، هو الخطأُ، كأنهُ قالَ: فقد أخطأَ خَطَأً بيِّناً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: المعتزلة. (٣) في الأصل: والحكم، في م: أو الحكم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أمراً. (٦) و(٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ويجوزُ هذا في اللغةِ نَحْوَ قولِ إخوةِ يوسفَ لأبيهم في تفضيلِهِ يوسفَ ﷺ، حينَ[1] قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] أي في خَطَإٍ بيِّنٍ حينَ[2] يُفَضِّلُ مَنْ لا مَنْفعَةَ لهُ منهُ على مَنْ منهُ مَنفَعَةٌ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

وإنْ كانَ في المنافِقينَ فهمْ في ضَلالٍ بيِّنٍ. فالضلالُ مِنَ المؤمنِ، لا يُفْهَمُ منهُ ما يُفهَمُ مِنَ الكافرِ والمُنافِقِ.

ألا تَرَى أنَّ الظلمَ مِنَ المؤمنِ، لا يُفْهَمُ منهُ ما يُفْهَمُ مِنَ المُنافِقِ أوِ الكافرِ؟

ألا تَرَى أنَّ آدمَ وحوّاءَ لمّا ارْتَكَبا، وقَرِبا تلكَ الشجرةَ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] لم يُريدا ظُلْمَ كُفرٍ؟ وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٥٣و الأعراف: ١٩].

فَعَلَى ذلكَ المَفهومُ مِنْ ضَلالِ المؤمنِ غَيرُ المفهومِ مِنْ ضَلالِ المنافقِ والكافرِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلامِ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاقِ حينَ[3] أعْتَقَهُ، لأنهُ ذُكِرَ أنَّ زيداً كانَ عربيًّا مِنْ أهلِ الكتابِ، أصابَهُ النَّبيُّ مِنْ سَبْيِ أهلِ الجاهليّةِ، فأعْتَقَهُ، وتَبَنّاهُ، فأنْعَمَ اللهُ عليهِ حينَ[4] أعطاهُ الإسلامَ، ووفَّقَهُ للهُدَى، وأنْعَمَ عليهِ الرسولُ حينَ[5] أعتقَهُ.

ويَحْتَمِلُ إنعامَ اللهِ عليهِ أيضاً في الإعتاقِ حينَ[6] وفّقَ رسولَهُ للعِتاقِ أو في خَلْقِ فِعْلِ الإعتاقِ مِنْ رسولِهِ وإجرائِهِ [على لسانِهِ.

والآيةُ حجّةٌ على قولِ][7] المعتزلةِ: ليسَ للهِ على زيدٍ ولا على جميعِ المسلمينَ في الإسلامِ إنعامٌ /٤٢٨ ـ ب/ ولا إفضالٌ لِوُجوهٍ:

أحَدُها: أنهمْ يقولونَ: قد أعطى كلّاً سَبَبَ ما يُلْزِمُهُمُ الإسلامَ، فهو القُوَّةُ؛ فهمْ إنما يُسْلِمونَ لا بِصُنْعٍ مِنَ اللهِ في ذلكَ. فَعَلَى قولِهِمْ: كانَ مِنَ اللهِ سببُ لزومِ الإسلامِ، فأمّا في الإسلامِ، فلا صُنْعَ لهُ فيهِ. فإذا كانَ كذلكَ فلا مِنَّةَ، تكونُ منهُ عليهِمْ، ولا إنعامَ[8].

والثاني: يقولون: إنهُ ليسَ للهِ أنْ يَفْعَلَ بالخَلْقِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ. ولا شَكَّ أنَّ الإسلامَ، لهمْ أصْلَحُ. فَعَلَيهِ إنْ يَفْعَلَ ذلكَ بهمْ؛ فهو فِعْلُ ما عليهِ أنْ يَفْعَلَ، ولا يجوزُ أنْ يَفْعَلَ غَيرَهُ. ومَنْ أدّى حَقّاً عليهِ، لا يكونُ في فِعْلِهِ مُنْعِماً ولا مُفْضِلاً، إنما هو مُؤَدّي حَقٍّ عليهِ.

والثالثُ: يقولونَ: إنهُ ليسَ مِنَ اللهِ إلى الأنبياءِ والمؤمنينَ جميعاً شيءٌ إلّا وقد كانَ ذلكَ منهُ إلى إبليسَ وأتباعِهِ وإلى جميعِ الفراعنةِ. فإذا كانَ قولُهُمْ ومذهبُهُمْ ما ذَكَرْنا لم يكُنْ للهِ على أحدٍ مِنْ أهلِ الإسلامِ في إسلامِهِمْ إنعامٌ، ولا إفضالٌ. واللهُ أخبَرَ أنَّ لهُ عليهِمْ في ذلكَ نِعْمَةً ومِنَّةً. وكذلكَ فُهِمَ منهُ ذلكَ في قولِهِ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أبْصَرَ امرأةَ زيدٍ، فأعْجَبَتْهُ، وَوَدَّها، فَفَهِمَ زيدٌ ذلكَ منهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ إني أُريدُ أنْ أُطلِّقَ فُلانَةَ، فإنَّ فيها كِبْراً، تتعاظَمُ عليَّ، وتُؤذيني بكذا. فعندَ ذلكَ قالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في طلاقِها، ولا تُطَلِّقْها.

لكنْ لا نقولُ نحنُ شيئاً مِنْ ذلكَ إلّا بِخَبَرٍ، ثَبَتَ عنْ رسولِ اللهِ، يُخْبِرُ أنهُ كانَ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ زيدٌ، اسْتَأذَنَ رسولَ اللهِ ﷺ في طلاقِها على ما يُطلِّقُ الرجلُ امرأتَهُ لِما يَمَلُّ منها بلا سَبَبٍ، يكونُ. فقالَ لهُ عندَ ذلكَ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ولا تُطَلِّقْ زوجَكَ بلا سَبَبٍ، يَسْتوجِبُ بهِ الطلاقَ، لأنهُ لا يَسَعُ للرجلِ أنْ يُطَلِّقَ زوجَتَهُ بلا سَبَبٍ، يَحْمِلُهُ على الطلاقِ مِنْ تَضْيِيعِ حدودِ اللهِ وتَرْكِ إقامتِها أو مَعْنًى نَحْوِهِ. فأمّا بلا سَبَبٍ يكونُ في ذلكَ، فلا يَسَعُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: إليه وعلى آل، في م: إليه وعلى قول. (٨) في الأصل وم: أنعامهم.

جنة السنة

أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي [أمسِكْ عليكَ][(١)] تزوُّجها ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ في تَرْكِ تزوُّجِها، فيكونَ هو مأموراً بِنِكاحِها كما كانَتْ هي مأمورةً بتزويجِها نفسَها منهُ. فيقولَ: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ في تَرْكِ الأمرِ للنَّبيِّ: ذلكَ في تَرْكِ ما نُدِبْتَ إليهِ، وأُمِرْتَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: بل تُخْفي في نفسِكَ حبَّها [وإعجابَكَ بها][(٢)] ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي ما اللهُ مُظْهِرُهُ في القرآنِ أي حُبَّها وتزوُّجَها.

وقالَ قائلونَ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ يا محمدُ: لَيتَهُ[(٣)] يُطلِّقُها ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي مُظهِرُهُ عليكَ متى يُنْزِلُ بهِ قرآناً. لكنَّ هذا بعيدٌ مُحالٌ، لا يُحتمَلُ أنْ يكونَ النبيُّ، يقولُ لزيدٍ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ ثم يُخفي في نفسِهِ: لَيتَهُ[(٤)] يُطلِّقُها حتى يتزوَّجَها هو.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ هذا القولُ نفسُهُ، هو الإبداءُ حينَ جعلَهُ آيةً تُتلَى بَعدَ ما أخفى رسولُ اللهِ ﷺ شيئاً في نفسِهِ ما لو لا ذِكْرُ اللهِ إيّاهُ ذلكَ لم يَعْلَمِ الخَلْقُ أنهُ أخفى شيئاً. ولا نَدري ما الذي أخفاهُ؟ [ولا نقولُ: إنَّ الذي أخفى][(٥)] كذا وكذا وكذا إلّا بِخَبَرٍ، يَجيءُ عنهُ، فيقولُ: إني أخفَيتُ في نفسي كذا. فعندَ ذلكَ يَسَعُ. فأمّا على الوَهْمِ فلا نَقولُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي تَستَحيي [مِمّا يقولُ][(٦)] الناسُ: إنهُ[(٧)] تَزوَّجَ امرأةَ ابنِهِ، وتَترُكُ نِكاحَها، واللهُ أحقُّ أنْ تَستَحيِيَ منهُ في تَرْكِ أمرِهِ إيّاكَ بالنكاحِ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي تَتَّقِي قالَةَ الناسِ؛ تَستَحيي منهم في أمرِ زينَبَ وما أُعْجِبْتَ [بهِ مِن][(٨)] حُسْنِها وحُبِّها ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [في][(٩)] ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾][(١٠)] على الابتداءِ على غيرِ إلحاقٍ بالأوّلِ في كلِّ أمرٍ وكلِّ شيءٍ كقولِهِ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي حاجةً أي جِماعاً.

فإنْ كانَ الجِماعُ، ففائدةُ ذِكْرِ الجِماعِ فيهِ لِيُعْلَمَ أنَّ حَليلةَ ابنِ المُتبنَّى تَحِلُّ للرجلِ وأنَّ الوَطَرَ هو عقدُ النكاحِ والجِماعُ جميعاً، وإنْ كانَ كلُّ واحدٍ منهما سَبَبَ الحَظْرِ أوِ المَنْعِ في نكاحِ حَليلةِ ابنِ الصُّلْبِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي قَضى هِمّةَ نفسِهِ، وبَلَغَ غايةَ ما هَمَّتْ نفسُهُ منها. فعندَ ذلكَ زوَّجْناكَها.

ذُكِرَ أنَّ زينَبَ بنتَ جحشٍ كانَتْ تَفخَرُ على سائرِ أزواجِ النَّبيِّ، فتقولُ: زَوَّجَكُنَّ آباؤُكُنَّ رسولَ اللهِ ﷺ واللهُ زَوَّجَني نَبيَّهُ [مِنْ][(١١)] فوقِ سَبْعِ سماواتٍ.

ففيهِ دلالةُ رسالتِهِ لأنهُ أخفى في نفسِهِ ما كانَ يَخْشى قالَةَ الناسِ في ذلكَ، واستَحيى منهم. وفي العُرْفِ أنَّ مَنْ أخفى شيئاً، يَستَحيي مِنَ الناسِ، إنْ ظَهَرَ عندَهُم، أنْ يَكتُمَ ذلكَ عنِ الناسِ، ولا يُظهِرَهُ.

فإذا كانَ رسولُ اللهِ، أظهَرَ ما كانَ يَخْشى قالَةَ الناسِ فيهِ، ولم يَكْتُمْهُ منهم، دلَّ أنهُ رسولُ اللهِ، إذْ لو كانَ غيرَ رسولِهِ لَكتَمَهُ، وأخفاهُ، ولم يُظهِرْهُ، لِما ذَكَرْنا مِنَ العُرْفِ في الناسِ مِن كِتمانِ ما يَستَحيُونَ منهم إذا ظَهَرَ.

وكذلكَ رُوِيَ عن عمرَ وعائشةَ أنهما قالا: لو كانَ رسولُ اللهِ كاتِماً شيئاً مِنَ القرآنِ لَكَتَمَ هذهِ الآيةَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإعجابها. (٣) و(٤) في الأصل وم: ليت أنه. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: هي إليك. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ في الآيةِ دلالةُ لزومِ الاتِّباعِ لرسولِ اللهِ ﷺ في كلِّ ما يُخبِرُ، ويأمُرُ بهِ، وفي كلِّ فعلٍ يَفعَلُهُ في نفسِهِ إلّا في ما ظَهَرَتِ الخُصوصيَّةُ.

فأمّا في ما لم تَظهَرْ فعلَى الناسِ اتِّباعُهُ في ما يُخبِرُ، ويَفعَلُ، لأنهُ قالَ: تَزَوَّجَ امرأةَ دَعِيِّهِ، ثم قالَ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ ولو كانَ يُخبِرُهُم بذلكَ خبراً لَحَلَّ لهم ذلكَ.

فَعَلَى ذلكَ إذ فَعَلَ هو ذلكَ، وأخبرَ[1] أنَّ ذلكَ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ في مِثْلِ فِعْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

[وفي قولِهِ: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ وجهٌ آخرُ][2]: ذَكَرَ قَضاءَ الوَطَرِ منهنَّ لأنَّ مِنَ النساءِ مَنْ لا يَحْرُمْنَ على بعضِ هؤلاءِ بالعَقْدِ، ولكنْ إنما يَحْرُمْنَ بقضاءِ الوَطَرِ. ومنهنَّ مَنْ يَحْرُمْنَ بالعَقْدِ نفسِهِ دونَ قَضاءِ الوَطَرِ.

فأخبرَ أنَّ أزواجَ الأدعياءِ، وإنْ قَضَوا منهنَّ الوَطَرَ، فإنهنَّ لا يَحْرُمْنَ عليهِم، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي ما كانَ بأمْرِ اللهِ مَفْعولاً. وكذلكَ ما قيلَ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، أي بأمرِ اللهِ تكونُ [وإنْ كانَتِ][3] الصلاةُ هي فعلَ العبادِ، فلا تكونُ أمْرَ اللهِ، ولكنْ بأمْرِ اللهِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي ما يكون بأمْرِ اللهِ مفعولاً. وكذا قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤] أي جاءَ ما يكونُ بأمْرِ اللهِ، وهو العذابُ الذي أُوعِدوا، لأنَّ أمْرَ اللهِ لا يَجيءُ.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ وجهَينِ:.

أحَدُهما: التكوينُ بكونِهِ، فيكونُ مُكَوَّناً كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

والثاني: على الإيجابِ واللُّزومِ أي ما يكونُ بأمرِ اللهِ يكونُ واجباً لازماً إذا أرادَ بهِ الإيجابَ والإلزامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ أي بَيَّنَ اللهُ كقولِهِ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا/ ٤٢٩ ـ أ/ وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النور: ١].

[والثاني][5]: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ أي أوجبَ اللهُ عليهِ، أي حَرَّمَ، وفَرَضَ لهُ، أي أحَلَّ لهُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢] يَحْتَمِلُ وجهَينِ: [البيانَ والإيجابَ][6] أي بَيَّنَ لكُمْ [وأوجَبَ][7] تَحِلَّةَ أيمانِكُم، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُهُم: هكذا كانت سُنَّةُ اللهِ في مَنْ كانَ قبلَهُ مِنَ الرسُلِ: داوُدَ وسُليمانَ، وهي[8] كَثْرَةُ النساءِ، فليسَ[9] ذلكَ ببديعٍ في رسولِ اللهِ محمدٍ.

وفي كَثْرَةِ نساءِ الرسلِ لهمْ آيةٌ عظيمةٌ، لأنهمْ آثَروا الفَقْرَ والضِّيقَ على السَّعَةِ والغِنَى[10]، وكَفُّوا أنفسَهُمْ عن جميعِ لذاتِها، وحَمَّلوا أنفسَهُمُ[11] الشدائدَ في العباداتِ والأمورِ العظامِ الثقيلةِ.

وهذهِ الأشياءُ كلُّها أسبابُ قَطْعِ قَضاءِ الشهوةِ في النساءِ والحاجةِ فيهنَّ. فإذا لم تُقطَعْ تلكَ الأسبابُ عنهم دلَّ أنهمْ باللهِ قَوُوا عليها.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي كذلكَ كانَتْ سُنَّةُ اللهِ في الذينَ [كانوا][12] قَبلَ محمدٍ؛ يَعْني داوُدَ النَّبِيَّ حينَ هَوِيَ المرأةَ التي فُتِنَ بها، فجمعَ اللهُ، تبارَكَ، وتعالى، بينَ داوُدَ وتلكَ المرأةِ. فكذلكَ يَجمَعُ بَيْنَ محمدٍ وبَيْنَ امرأةِ زَيدٍ؛ إذْ هَوِيَها كما فَعَلَ بداوُدَ، ولكنَّ هذا بعيدٌ.

وقيلَ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أنهُ لا يُحَرِّمُ[13] على أحدٍ في ما لم يُحَرِّمْ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وفيه وجه أخر وقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾. (٣) في الأصل وم: وإلا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ويحتمل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهؤلاء. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الغنائم، في م: الغناء. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يخرج.

جنة السنة

وجائزٌ أنْ تكونَ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ في حِلِّ نِكاحِ أزواجِ الأدعياءِ [في ما](١) يَحِلُّ لهمْ برسولِ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي ما كانَ بأمْرِ اللهِ وتَقديرِهِ ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الدَّعِيُّ [بالذي يُدَّعَى](٢) بعدَ ما يَكْبُرُ، والادِّعاءُ أنْ يكونَ الرجلُ، نَفَى وَلَدَهُ، ولم يَقْبَلْهُ، ثم ادَّعاهُ مِنْ بعدِ ذلكَ. هذا المعروفُ عندي. وقالَ في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] أي ما يَتَمَنَّوْنَ ويَشْتَهونَ. ويُقالُ: ظَلِلْنا اليومَ في ما ادَّعَينا، أي وَجَدْنا كلَّ ما اشْتَهَينا. يُقالُ: مِنْ هذا: ادَّعَيتُ أدَّعي ادِّعاءً. وقالَ: الوَطَرُ: الحاجةُ، والأوطارُ جَمْعٌ. والخِيَرَةُ: أي خُيِّرَتْ إليهمُ الخِيَرَةُ، وهو مِنْ قولِكَ: أيَّ شيءٍ تختارُ؟ ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي لم يَجْعَلْ إليكمْ إنْ شِئْتُمْ لم تَفْعَلوا. والقُنوتُ في الأصلِ: القيامُ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ يقولُ أهلُ التأويلِ: هو محمدٌ خاصّةً: فمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: إنْ كانَ هو المرادَ بهِ أنهُ في ما تَزَوَّجَ حَليلةَ دَعِيِّهِ زيدٍ مُبَلِّغٌ رسالاتِ ربِّهِ حينَ(٣) قالَ: ﴿لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾. وتبليغُ الرسالةِ يكونُ مَرَّةً بالخَبَرِ والقولِ، ومَرَّةً بالفِعْلِ، يُلْزِمُ الناسَ في اتِّباعِهِ في فِعْلِهِ كما يُلْزِمُ في خَبَرِهِ وأمْرِهِ إلّا في ما ظَهَرَتْ لهُ الخصوصيّةُ في فِعْلٍ ما.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ همُ الأنبياءُ الذينَ قالَ [فيهمْ](٤): ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِ بَعْثِهِمْ﴾، وقالَ ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾. فَسُنَّةُ اللهِ في محمدٍ كَسُنَّةِ أولئكَ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ في ما ذَكَرَ: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَخشَونَ اللهَ في تَرْكِ تبليغِ الرسالةِ، ولا يَخشَونَ أحداً سِواهُ في التبليغِ. ويكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ بِمَعْنَى سِواهُ على المُبالَغَةِ في الأمْرِ. وإلّا لو قالَ: ولا تَخشَونَ أحداً كافياً أي لا يَخشَونَ في ما يُبَلِّغونَ. لكنْ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا ألّا يَخشَوا أحداً في ما يُبَلِّغونَ سِواهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ بما يُصيبُهُمْ مِنَ الأذى والبلاءِ بالتَّبليغِ. يقولُ: لا يَرَونَ ذلكَ مِنْ أولئكَ، ولكنْ بتقديرٍ مِنَ اللهِ إيّاهُ، وإلّا كانوا يَخافونَ مِنْ أولئكَ. ألا تَرى [ما قالَ موسى وأخوهُ](٥): ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾؟ [طه: ٤٥] [وما](٦) قالَ موسى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ وقالَ(٧): ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣ و٣٤] ونَحْوَهُ؟

أو أنْ يكونوا(٨) في الابتداءِ خافوهُمْ، ثم أمَّنَهُمُ اللهُ، فلم يَخافوا، حينَ(٩) قالَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ قيلَ: شهيداً على تَبليغِ الرسالةِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ أبُوَّةً، تَحرُمُ بها حلائلُ الأبناءِ، ولكنْ(١٠) كانَ هو أباً لجميعِ المؤمنينَ حينَ(١١) قالَ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. إذا كانَتْ أزواجُهُ أُمَّهاتِنا فهو أبٌ لنا على ما ذَكَرْنا.

لكنِ التأويلُ فيهِ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أبُوَّةً تَحرُمُ بها حلائلُ الأبناءِ، ولكنْ أبُوَّةَ التعظيمِ لهُ والتَّبجيلِ، وأبُوَّةَ الشَّفَقَةِ والرَّحمةِ، وهو ما قالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية [الحجرات: ٢].

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: انهم قالوا. (٦) في الأصل وم: وحيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يكون. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وإلا. (١١) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وكذلكَ قولُهُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦] يَحتمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهما][1]: أولَى أنْ يُعظَّمَ، ويُكرَّمَ، ويُشرَّفَ، لِقولِهِ[2]: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

والثاني: ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي أشفَقُ عليهِمْ، وأرحَمُ بهِمْ مِنْ أنفسِهِمْ، وهو ما وَصَفَهُ، جلَّ، وعلا، مِنْ رحمَتِهِ حينَ قالَ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [يُخرَّجُ][3] على وجهَينِ:

أحدُهما: في حقِّ الانتِسابِ إليهِ، أي ليسَ هو أبا أحدِكُمْ، يُنسَبُ إليهِ، ويُدْعَى بهِ، لأنهُ ذُكِرَ أنهُمْ يقولونَ[4]: زيدُ بْنُ محمدٍ. إنه [لا][5] يجوزُ لِلنَّبِيِّ، ولا يجوزُ النسبةُ إليهِ ولا التَّسْمِيَةُ بهِ لِقولِهِ[6]: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٥].

والثاني: في حقِّ الكرامةِ؛ كأنهُ قالَ: ليسَ هو أبا أحدِكُمْ في حُرْمَةِ حلائِلِ الأبناءِ عليهِ أبناءِ[7] النبي ولا في حقِّ النسبةِ، وإنْ كانَ هو أباً لكمْ في الشفقةِ والرحمةِ والرأفةِ على ما ذَكَرْنا بَدْءاً ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ في[8] التعظيمِ لهُ والتبجيلِ في المُعاملةِ والمُصاحبةِ أو في الدَّعْوَةِ والتَّسْمِيَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أخبَرَ [أنهُ][9] ليسَ بأبي أحدٍ مِنْ رجالِكُمْ على ما ذَكَرْنا ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ لئلا يُعامِلوا رسولَهُ معاملةَ آبائِهِمْ، ولا يُصاحِبوهُ صُحْبَةَ غيرِهِ، ولكنْ لِيُعامِلوهُ[10] مُعامَلَةَ الرسلِ في التعظيمِ لهُ والتَّبْجِيلِ والإكرامِ، لأنَّ أبُوَّتَهُ وشَفَقَتَهُ دِينيَّةٌ [وأبُوَّةَ الآباءِ وشَفَقَتَهُمْ][11] دُنياويَّةٌ، ولأنَّ الرجلَ قد يَنْبَسِطُ مع والدِهِ في أشياءَ لا تَسَعُ مِثْلُها[12] مَعَ رسولِهِ ﷺ ولذا قالَ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ أي خَتَمَ بِهِ الرسالةَ، لا نَبِيَّ بَعْدَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَهُ، وأخبَرَهُ[13] أنهُ خاتمُ النَّبِيِّينَ لِما عَلِمَ، جَلَّ، وعلا، أنهُ يُسَمَّى غيرُهُ بَعدَهُ نبيًا على ما قالَتْهُ الباطِنيَّةُ: إنَّ قائمَ الزمانِ هو نَبِيٌّ. فأخبَرَ بهذا أنَّ مَنِ ادَّعَى ذلكَ لا يُطالَبُ بالحُجَّةِ والدَّلالةِ، ولكنهُ يُكَذَّبُ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا نَبِيَّ بَعْدِي» [مسلم ١٨٤٢] أخبَرَ أنَّ بهِ خَتَمَ النُّبُوَّةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ أي لم يَزَلِ اللهُ بِما كانَ ويكونُ وبِما بِهِ صَلاحُهُمْ عليماً.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ إنَّ[14] أهلَ التأويلِ يقولونَ: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ حالٍ وفي كلِّ وقتٍ ﴿ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ باللسانِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ أمْرِهِ بالذِّكْرِ كثيراً أي اذْكُروا نِعَمَهُ لِتَشْكُروا لهُ، واذْكُروا أوامِرَهُ لِيُؤْتَمَرَ، ونواهِيَهُ ومَناهِيَهُ لِيُنْتَهَى، ومَواعيدَهُ لِيُخافَ، وعِداتِهِ لِيُرْغَبَ، واذكروا عَظَمَتَهُ وجلالَهُ وكبرياءَهُ لِيُهابَ ﴿ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أي دائماً تَذْكُرونَ ما ذَكَرْنا لِيكونَ ما ذَكَرْنا؛ إذْ إنما يكونُ ذلكَ بالذِّكْرِ، واللهُ أعلَمُ /٤٢٩ ـ ب/.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ البُكْرَةُ، هي خَتْمُ الليلِ وابْتِداءُ النهارِ، والأصيلُ، هو خَتْمُ النهارِ وابْتِداءُ الليلِ. فكأنهُ أمَرَ بالذِّكْرِ لهُ والخَبَرِ في ابْتِداءِ كلِّ ليلٍ وخَتْمِهِ وابْتِداءِ كلِّ نهارٍ وانْقِضائِهِ لِيُتَجاوَزَ عنهمْ، ويُعْفَى ما يكونُ منهمْ مِنَ الزَّلاتِ في خِلالِ ذلكَ. [وعلى ذلكَ][15] ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ «مَنْ صَلَّى العشاءَ الأخيرةَ والفَجْرَ بالجماعةِ فكأنما أحْيَى لَيلَتَهُ» [بنحوه مسلم ٦٥٦].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: من كقوله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يدعونه ويسمونه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: كقوله. (٧) في الأصل وم: الأبناء. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ما ذكرنا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعاملوه. (١١) في الأصل وم: وشفقة. (١٢) في الأصل وم: مثله. (١٣) في الأصل وم: وأخباره. (١٤) في الأصل وم: أما. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ ليسَ على إرادةِ البُكْرَةِ والأصيلِ، ولكنْ على إرادةِ كلِّ وقْتٍ وكلِّ حالٍ؛ ليسَ مِنْ وقتٍ ولا مِنْ حالٍ إلّا وللهِ على عبادِهِ شُكْرٌ وصَبْرٌ؛ الشكْرُ لِنَعْمائِهِ، والصَّبْرُ على مَصائِبِهِ.

وقالَ بعْضُهُمْ: الأمْرُ بالذِّكْرِ لهُ بالبُكْرَةِ والأصيلِ، هو[1] الصلَواتُ الخمسُ؛ مِنَ الظهرِ إلى آخِرِ الليلِ أصيلٌ؛ فتدخُلُ فيهِ صَلَواتُ الظهرِ والعَصْرِ والمَغْرِبِ والعِشاءِ، وفي البُكْرَةِ صلاةُ الفَجْرِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أمّا صلاةُ اللهِ، فهي[2] الرحمةُ والمَغْفِرَةُ، وصلاةُ الملائكةِ الإستِغْفارُ وطَلَبُ العِصْمَةِ والنجاةِ كقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ الآية [غافر: ٧] وقولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية [غافر: ٨] وقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

جائزٌ أنْ يكونَ [الاستغفارِ للمؤمنينَ][3] خاصّةً، وجائزٌ أنْ يكونَ للكلِّ: الكافِرِ والمؤمنِ[4]، فإنْ كانَ هذا فيكونُ استِغْفارُهُمْ طلَبَ الأسبابِ التي بها يَسْتوجِبونَ المَغْفِرَةَ، وهو الهُدَى، كقولِ هودٍ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] وقولِ نوحٍ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] لا يَحْتَمِلُ أنْ يَسْتَغْفِروا، وهمْ كفارٌ، ولكنْ يطلبونَ منهُ التوبةَ عنِ الكُفْرِ، ليَسْتوجِبوا[5] المغفرةَ.

وكذلكَ استِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لهُ، وهو كافرٌ، ولكنْ كانَ يطلبُ لهُ مِنَ اللهِ أنْ يَجْعَلَهُ بحيثُ يَسْتوجِبُ المغفرةَ والرحمةَ، وهو الهُدَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: رَحِمَهُمْ حينَ[6] أخْرَجَهُمْ مِنْ أصلابِ آبائهِمْ قَرْناً فقَرْناً إلى أنْ بَلَغوا، وجائزٌ إخراجُهُ إيّاهُمْ مِنْ ظلماتِ الكُفْرِ إلى نورِ الهُدَى بدعاءِ الملائكةِ واستِغْفارِهِمْ لهمْ ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ لم يَزَلِ اللهُ بالمؤمنينَ رحيماً.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ تحيةُ الملائكةِ، عليهِمْ سلامٌ، كقولِهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] وتحيةُ بعضِهِمْ على بعضٍ سَلامٌ، لا غيرُ، ليسَتْ كتَحِيَّتِهِمْ في الدنيا: أطالَ اللهُ بَقاءَكَ، وكيفَ حالُكَ؟ ونَحْوَ ما يقولونَ في الدنيا، ويَسْأَلُ بعضُهُمْ بَعْضاً عنْ أحوالِهِمْ: يقولُ: ليسَتْ تحيةُ أهلِ الجنةِ ذاكَ، ولكنْ سَلامٌ كقولِهِ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥ و٢٦]. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ صَواباً وسَداداً، لا غيرَ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ليسَ أنْ يقولوا: سَلامٌ عليكُمْ، ولكنْ يقولونَهُ قولاً صَواباً وسَداداً، لا يُقابِلونَهُمْ بمِثْلِ ما خاطبوهُمْ. فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي صَوابٌ مِنَ الكلامِ وسَدادٌ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي حَسَناً.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿شَٰهِدًا﴾ على تبليغِ الرسالةِ، يَشْهَدُ لهمْ بالإجابةِ لهُ[7]، إذا أجابوهُ، ويَشْهَدُ عليهِمْ، إذا رَدّوهُ، وخالَفوهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿شَٰهِدًا﴾ على أُمَّتِكَ بالتصديقِ لهمْ. وقيلَ: ﴿شَٰهِدًا﴾ عليهِمْ بالبَلاغِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي يُبَلِّغُ إليهِمْ ما تكونُ لهمُ البِشارةُ إنْ أطاعوهُ، ويُبَلِّغُ إليهِمْ أيضاً ما يَسْتَوجِبونَ بهِ النِّذارةَ، إذا خالَفوهُ.

والبِشارةُ، هي إخبارٌ عنِ الخَيراتِ التي تكونُ في عواقِبِ الأمورِ الصالحةِ، والنِّذارةُ إخبارٌ عنْ أحزانٍ تكونُ في عَواقِبِ الأمورِ السَّيِّئَةِ، أو نَحْوُهُ مِنَ الكلامِ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيدِ اللهِ أو دارِ السلامِ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] أو إلى ما يَدْعو اللهُ إليهِ. وقولُهُ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ قيلَ: بأمْرِهِ.

---

(١) في الأصل وم: هي. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: المؤمنين. (٤) في الأصل وم: أو المؤمن. (٥) من م، في الأصل: يستوجبون. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: لهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وجَعَلْناكَ سِراجاً مُنيراً. فالسراجُ المُنيرُ، هو الرسولُ على هذا التأويلِ. وقالَ بعضُهُمْ: السراجُ المُنيرُ، هو القرآنُ؛ يقولُ: أرسَلْناكَ داعياً إلى اللهِ وإلى السراجِ المُنيرِ، وهو هذا.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ البِشارةَ إنما تكونُ بِفَضلٍ مِنَ اللهِ، لا إنهمْ يَسْتوجِبونَ بأعمالِهِمْ شيئاً مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هذا قد ذَكَرْناهُ في أوَّلِ السورةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ هذا يَحْتمِلُ أعْرِضْ عنهمْ، ولا تُكافِئْهُمْ بما يؤذونكَ، ويَحْتمِلُ(١): ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [أي اصْبِرْ على أذاهُمْ](٢).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعتمدْ باللهِ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كَفَى باللهِ مُعْتَمَداً، ويَحْتمِلُ(٣): ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً أو مانعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾(٤) ذُكِرَ أنَّ رجلاً جاءَ إلى ابنِ عباسٍ، فقالَ: كانَ بيني وبَينَ عمتي كلامٌ، فقلتُ: يومَ أتزَوَّجُ ابنتَكِ فهي طالقٌ ثلاثاً. فقالَ: تزَوَّجْها، فهي لكَ حَلالٌ، أمَا تقرأُ هذهِ الآيةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية؟ فَجَعَلَ الطلاقَ بعدَ النكاحِ. وليسَ في الآيةِ مَنْعُ وقوعِ الطلاقِ إذا أضافَهُ على ما بَعدَ النكاحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾(٥) تَحْتمِلُ المُماسَّةُ الجماعَ أي مِنْ قَبْلِ أنْ تُجامِعوهُنَّ، ويَحْتمِلُ مِنْ قَبْلِ أنْ تدخلوا بهِنَّ المكانَ الذي تَماسّونَهُنَّ، وإلّا لو دَخَلَ بها المكانَ الذي يَماسُّها، ثم طَلَّقَها وَجَبَ لها نصفُ الصَّداقِ؛ ويَدُلُّ على ذلكَ قولُ اللهِ حينَ(٦) قالَ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١] والإفضاءُ ليسَ هو الجماعَ نفسَهُ، ولكنْ: الدُّنُوُّ منها، والمَسُّ باليَدِ أو شِبْهُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ هذا يدلُّ على أنَّ العِدَّةَ مِنْ حَقِّ الزوجِ عليها حينَ(٧) قالَ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ ولا يجوزُ أنْ يَجْمَعَ بَينَ أختَينِ في مالَهُ مِنْ حقٍّ.

فَعَلَى ذلكَ ليسَ لهُ أنْ يَجْمَعَ بَينَ الأختَينِ في حقِّ العِدَّةِ التي لهُ قِبَلَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذهِ المُتْعَةُ مَنسوخةٌ بالآيةِ التي ذَكَرَ في سورةِ البقرةِ حينَ(٨) قالَ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ(٩) وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [الآية: ٢٣٧].

وقالَ بعضُهُمْ: هي التي وَهَبَتْ نفسَها بِغَيرِ صَداقٍ. فإنْ لم يَجِبِ الصَّداقُ وَجَبَتِ المُتْعَةُ.

وعندنا إنْ كانَ سَمّى لها صَداقاً فَليسَ لها إلّا نِصفُ الصَّداقِ، ولا تَجِبُ عليهِ المُتْعَةُ وجوبَ حكْمٍ، لكنْ إنْ فَعَلَها، ومَتَّعَها فهو أفضلُ وأحسَنُ. وإنْ كانَ لم يَفرِضْ لها صَداقاً، ثم(١٠) طَلَّقَها قَبلَ الدخولِ بها، فهي واجبةٌ على قَدْرِ عُسْرِهِ ويُسْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ/ ٤٣٠ ـ أ/ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: السَّراحُ الجميلُ، هو أنْ يُمَتِّعَها إذا سَرَّحَها.

وقالَ بعضُهُمْ: السَّراحُ الجميلُ هو أنْ يَبْذُلَ لها الصَّداقَ. وقالَ بعضُهُمْ: السَّراحُ الجميلُ، هو أنْ يقولَ: لا تُؤذوهنَّ بألسِنَتِكُمْ إذا سَرَّحْتُموهُنَّ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو أن يقول. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو أن يقال. (٤) في الأصل: تماسوهن، وهي قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٢٩. (٥) في الأصل: تماسوهن، وهي قراءة، انظر الحاشية السابقة. (٦) و(٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: تماسوهن. ، انظر معجم القراءات القرآنية ج ١/ ١٨٣. (١٠) في الأصل وم: حتى.

جنة السنة

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يَحتمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي ضمِنتَ أجورَهُنَّ، وقبِلْتَ. ويكونُ الإيتاءُ عبارةً عنِ القَبولِ والضَّمانِ.

وذلكَ جائزٌ نحوُ قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هو على القَبولِ [والضَّمانِ][1]: تأويلُهُ: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ وقَبِلوا[إقامةَ الصلاةِ وإيتاءَ][2] الزكاةِ: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ ليسَ على فِعْلِ الإيتاءِ بنفسِهِ، إذْ لا يَجِبُ إلّا بَعْدَ حَوَلانِ الحَولِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩] ليسَ على نفسِ الإعطاءِ ولكنْ حتى يَقْبلوا الجِزْيَةَ؛ إذِ الإعطاءُ إنما يَجِبُ إذا حالَ الحَولُ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي قَبِلْتَ أُجورَهُنَّ، وضَمِنْتَ.

والثاني: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ﴾ هنَّ لكَ إذا ﴿ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي قَبِلْتَ.

مَعْناهُ: إنا أحْلَلْنا لكَ إبقاءَهُنَّ إذا آتيتَ أجورَهُنَّ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ المَهْرَ قد يُسمَّى أجراً، فيكونُ قولُهُ: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] أي مهورَهُنَّ. فيكونُ الاستِمْتاعُ بهنَّ استِمْتاعاً في النكاحِ.

فَعَلى ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيكونُ الخُلوصُ لهُ بلا أجرٍ لا بلَفْظةِ الهِبَةِ، لأنهُ ذُكِرَ على إثْرِ ذِكْرِ حِلِّ أزواجِهِ بالأجْرِ. كأنهُ قالَ: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وأحلَلْنا لكَ أيضاً امرأةً ﴿مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بغَيرِ أجرٍ، لأنَّ خُلوصَ الشيءِ إنما يكونُ إذا خَلَصَ لهُ بلا بَدَلٍ ولا مُؤْنَةٍ.

فأمّا أنْ يكونَ الخُلوصُ بلفظةٍ دونَ لفظةٍ فَلا.

وبَعْدُ فإنهُ قد ذَكَرَ في آخِرِ الآيةِ ما يَدُلُّ على [ما][3] ذَكَرْنا. وهو قولُهُ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ دلَّ هذا أنَّ خُلوصَ تلكَ المرأةِ لهُ بَعْدَ ما[4] ذَكَرَ هذا لهُ خَرَّجَ مُخْرَجَ الامْتِنانِ عليهِ. فلا مِنَّةَ لهُ عليهِ في لفظةِ الهِبَةِ، إذْ ليستِ المِنَّةُ[5] في لفظةِ التَّزويجِ، فيقولُ[6]: وهبْتُ[7] مكانَ قولِهِ: زَوَّجْتُ.

دَلَّ أنَّ المِنَّةَ لهُ عليهِ في ما صارَتْ لهُ بلا مَهْرٍ لا في لفظةِ الهِبةِ.

[ويَحتمِلُ][8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الآخِرَةِ، أي لا تَحِلُّ لأحدٍ سِواكَ إذا تَزَوَّجْتَها، وصارَتْ مِنْ أزواجِكَ.

فأمّا أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بلفظةِ الهِبَةِ فلا؛ إذْ لا فَرْقَ بينَ أنْ يقولَ: وَهَبْتُ وبينَ أنْ يقولَ: زَوَّجْتُ.

وبَعْدُ فإنَّ كثيراً مِنَ الصحابةِ وأهلِ التأويلِ مِنْ نَحْوِ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ وابْنِ عباسٍ وغَيرِهما ﷺ، لم يَفْهَموا مِنْ قولِهِ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ بلفظةٍ دونَ لفظةٍ حتى رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ هنَّ المَوهوباتُ. فما بالُ الشافِعِيِّ في فَهْمِ ذلكَ ما ذُكِرَ؟

وبَعْدُ فإنهُ ليسَ مِنْ عَقْدٍ إلّا وهو يَحتمِلُ الانْعِقادَ بلفظةِ الهِبَةِ مِنَ البِياعاتِ والإجاراتِ وغيرِها. فَعَلى ذلكَ النكاحُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إيتاء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) في الأصل وم: تلك. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرجت في الأصل وم بعد: قوله. (٨) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي قد أحللنا لكَ ممّا ملكتْ يمينُكَ، وأحللنا لكَ أيضاً ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ ثم جائزٌ أنْ يكونَ حِلُّ بَناتِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الأعمامِ والأخوالِ للناسِ بهذهِ الآيةِ، لأنهنَّ لم يُذْكَرْنَ في المُحَرَّماتِ في سورةِ النساءِ، فيكونُ ذِكْرُ حِلِّهِنَّ لرسولِ اللهِ ﷺ ذِكْراً للناسِ كافّةً كما كانَ ذِكْرُ حِلِّ نِكاحِ حَليلةِ زيدِ بنِ حارثةَ لهُ حِلّاً للناسِ في أزواجِ حلائلِ [أدعيائِهِمْ حينَ](١) قالَ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ، أو أنْ تكونَ مَعْرِفَةُ حِلِّ نكاحِ(٢) بناتِ الأعمامِ والعماتِ ومَنْ ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] إذْ ذَكَرَ المُحَرَّماتِ في الآيةِ [السابقةِ](٣) على إبلاغِ ما كانَ بِنَسَبٍ وما كانَ بِسَبَبٍ. ثم قالَ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ فيكونُ ما وراءَ المَذكوراتِ مُحَلَّلاتٍ بظاهرِ الآيةِ إلّا ما كانَ في مَعْنَى المذكوراتِ في الحُرْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنْ قولِهِ: ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ الهجرةَ معَهُ حتى لا يَتَقَدَّمْنَ، ولا يَتأخَّرْنَ. بل دَخَلَ في قولِهِ ﴿مَعَكَ﴾ مَنْ هاجَرَ منهنَّ مِنْ قبلُ ومِنْ بَعْدُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما فرضنا على الناسِ في أزواجِهم، وهُنَّ أربعةُ نِسْوَةٍ، لا تَحِلُّ الزيادةُ على الأربعِ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وهنَّ الجواري والخَدَمُ، يُجوَّزُ الزيادةُ على ذلكَ، وإنْ كَثُرْنَ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ ممّا فَرَضَ اللهُ ألّا يَتَزَوَّجَ الرجلُ إلّا بِوَلِيٍّ ومَهْرٍ وشهودٍ. إلّا النَّبِيَّ خاصّةً فإنَّهُ يجوزُ لهُ أنْ تَهَبَ المرأةُ نفسَها بِغَيرِ وَلِيٍّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ فَرَضنا أي بَيَّنّا ما يجوزُ وما لا يجوزُ، أي بَيَّنَ ذلكَ في الأزواجِ، أو فَرَضنا أوجَبْنا عليهِمْ في أزواجِهِمْ مِنَ الأحكامِ والحقوقِ ونَحْوِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

عنِ الحَسَنِ [أنهُ](٤) قالَ: كانَ النبيُّ ﷺ، إذا خَطَبَ امرأةً لم يكُنْ لأحدٍ أنْ يَخْطُبَها حتى يَدَعَها النَّبِيُّ(٥)، وإذا تركَ خِطْبَتَها كانَ لغيرِهِ أنْ يَخْطُبَها، أو كلامٌ نَحْوُهُ. فَيُصْرَفُ تأويلُ الآيةِ إلى ما ذَكَرْنا. وكذلكَ كانَ يقولُ قَتادةُ: إنَّ الآيةَ في الخِطْبَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا في قِسْمَةِ الأيامِ بَيْنَهُنَّ؛ كانَ يُسَوّي بينَهُنَّ بِقَسْمِهِنَّ(٦)، فوسَّعَ اللهُ عليهِ في ذلكَ، فأحَلَّ لهُ، فقالَ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي مَنْ نسائِهِ، أي تَتْرُكُ مَنْ تَشاءُ منهنَّ، فلا تَأْتِيها ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فَتأتِيها ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يقولُ: مِمَّنِ اخْتَرْتَ مِنْ نِسائكَ أنْ تأتِيَها، فَعَلْتَ.

فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ على تركِ القَسْمِ إذا عَلِمْنَ أنَّ اللهَ قد جَعَلَ ذلكَ حَلالاً، وأنزَلَ فيهِنَّ الآيةَ ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إذا عَلِمْنَ أنَّ الرخصةَ جاءَتْ مِنَ اللهِ تعالى لهُ، كانَ [ذلكَ](٧) أطيَبَ لأنفسِهِنَّ وأقَلَّ لِحُزْنِهِنَّ مِنْ تركِهِ(٨).

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ أزواجَ رسولِ اللهِ ﷺ، اللائي كُنَّ تحتَهُ خَشِينَ أنْ يُطَلِّقَهُنَّ، فَقُلْنَ: يا رسولَ اللهِ اقْسِمْ لنا مِنْ نفسِكَ ومالِكَ ما شِئْتَ، ولا تُطَلِّقْنا. فَنَزَلَ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تَعْتَزِلُ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أنْ تَعْتَزِلَها(٩) بِغَيرِ طلاقٍ ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ﴾ أي تَرُدُّ، وتَضُمُّ ﴿مَن تَشَآءُ﴾ منهنَّ إليكَ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في تَرْكِ نكاحِ ما أباحَ لهُ مِنَ القَراباتِ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الإقدامَ على نكاحِ مَنْ يشاءُ ما أباحَ لهُ مِنَ القَراباتِ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ وفي الإقدامِ على نكاحِ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ لأنهُ على إثْرِ ذلكَ ذُكِرْنَ. يقولُ:/ ٤٣٠ ـ ب/ ﴿تُرْجِى

---

(١) في الأصل وم: النبي حيث. (٢) من م، في الأصل: النكاح. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: أو يتزوجها. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قسمين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ترك ذلك.
(٩) في الأصل وم: تعتزلن.

جنة السنة

مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ يَعني مِن بَناتِ العمِّ والعمةِ والخالِ والخالةِ، فلا تَتزوَّجُها ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ﴾ أي تَضُمُّ إليك ﴿مَن تَشَآءُ﴾ منهنَّ، فتَتزوجُها[١].

فنقولُ: خيَّرَ اللهُ رسولَهُ في نِكاحِ القَرابةِ؛ فذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ﴾ فتَزوَّجْها ﴿مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ منهنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ أي لا حرَجَ عليكَ في ذلكَ ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ يقولُ: أجدَرُ وأحرى ﴿أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾ أي النساءُ اللاتي عندكَ، واختَرْتَهنَّ ﴿وَلَا يَحۡزَنَّ﴾ إذا عَلِمْنَ [أنكَ][٢] لا تَتزوَّجُ عليهنَّ ﴿وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ مِنَ النفقةِ، وكانَ في نَفَقتِهِنَّ قِلَّةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ ذلكَ حينَ خيَّرَهُنَّ رسولُ اللهِ بَينَ اختيارِ الدنيا وزينتِها وبَينَ اختيارِ رسولِ اللهِ والدارِ الآخِرةِ، فاختَرْنَ رسولَ اللهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلمُ: إذا اختَرْنَ المُقامَ عندَ رسولِ اللهِ والدارَ الآخِرةَ فذلكَ[٣] ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ﴾ مِن قِلَّةِ النَّفَقةِ والجِماعِ ﴿وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ مِنَ النَّفَقةِ وغيرِهِ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ مِنَ النفقةِ والرِّضا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾:

قالَ قائلونَ: مِن بَعْدِ اختيارِهِنَّ رسولَ اللهِ والدارَ الآخِرةَ لأنَّ اللهَ تعالى لمّا خيَّرَهُنَّ بَينَ اختيارِ [الدنيا][٤] وزينتِها وبَينَ اختيارِ رسولِ اللهِ والدارِ الآخِرةِ، فاختَرْنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخِرةَ، قَصَرَهُ اللهُ عليهنَّ، فقالَ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي مِن بَعْدِ اختيارِهِنَّ المُقامَ معَكَ ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾.

فإنْ [كانَ][٥] على هذا فيُخرَجُ الحَظْرُ والمَنْعُ مُخرَجَ الجزاءِ لهنَّ والمُكافآتِ لِما اختَرْنَهُ على الدنيا وما فيها[٦] لئلا يُشرِكَ غيرُهُنَّ في قَسْمِهِنَّ منهُ.

ورُوِيَ عن عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: اشتَرَطْنا على رسولِ اللهِ ﷺ، لَمّا اختَرْناهُ والدارَ الآخِرةَ ألا يَتزوَّجَ علينا ولا يُبدِّلَ بنا مِن أزواجٍ. ثم استثنى ما مَلَكَتْ يمينُهُ لأنهنَّ لاحظَّ لهنَّ في القَسْمِ.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي مِن بَعْدِ المُسلِماتِ كتابياتٍ لا يَهوديّاتٍ ولا نَصرانيّاتٍ؛ ألّا تَتزوَّجَ يَهوديّةً ولا نَصرانيّةً، فتكونَ مِن أمهاتِ المؤمنينَ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ أي لا بأسَ أنْ تَشتريَ اليهوديّةَ والنصرانيّةَ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ حظرُ الكتابياتِ [على رسولِ][٧] اللهِ لِما ذَكَرَ خاصّةً.

وأمّا المؤمنونَ فإنهُ أباحَ لهم نِكاحَ الكِتابيّاتِ بقولِهِ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المائدة: ٥] فيكونُ حِلُّ الكِتابيّاتِ للمؤمنينَ دونَ النبيِّ بإزاءِ الزيادةِ والفَضْلِ الذي كانَ يَحِلُّ لرسولِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي مِن بَعْدِ المَذكوراتِ المُحلَّلاتِ لهُ في الآيةِ التي قَبلَ هذهِ الآيةِ مِن بَناتِ العمِّ والعمّاتِ وبَناتِ الخالِ والخالاتِ. يقولُ: لا يَحِلُّ لكَ النساءُ سِوى مَن ذَكَرَ أنْ تَتزوَّجَهُنَّ عليهنَّ، ولا [تُبدِّلَ بهنَّ][٨] ولو أعجبَكَ حُسْنُهُنَّ إلّا ما مَلَكَتْ يَمينُكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ﴾ [في الخَلْقِ][٩] أنْ تَتزوَّجَ عليهنَّ بَعْدَ اختيارِهِنَّ لكَ والدارَ الآخِرةَ على الدنيا وما فيها مِنَ الزينةِ.

[ويَحتمِلُ][١٠] أنْ يكونَ على التحريمِ نفسِهِ في الحكْمِ. وليسَ لنا أنْ نُفسِّرَ أيَّ تحريمٍ أرادَ: تحريمَ الحَظْرِ والمَنْعِ في الخَلْقِ أو تحريمَ الحكْمِ لأنَّ ذلكَ كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ، وقد كانَ عرَفَهُ أنهُ ما أرادَ بذلكَ، والاشتِغالُ بهِ فَضْلٌ.

---

(١) في الأصل وم: فتزوجها. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إن. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: قبلها. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لرسول. (٨) في م: تبديلهن. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

والتبديلُ بهنّ يُحتمَلُ في التطليقِ؛ يُطلّقُهنّ، فيتزوّجُ غيرَهنّ، ويَحتمِلُ بالموتِ إذا مِتنَ أيضاً. لم يُحِلّ لهُ أنْ ينكِحَ غيرَهنّ [بالتطليقِ أو الموتِ][1] واللهُ أعلمُ.

قالَ أبو عوسجةَ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تحبِسُ مَن تشاءُ منهنّ، ولا تقرَبُها.

وقالَ القُتَبيُّ: تُرجي أي تؤخّرُ، يُقالُ: أرجَيْتُ الأمرَ، وأرجأتُهُ، أي أخّرتُهُ، وكذلكَ قالوا في قولِهِ تعالى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] وقالَ بعضُهُمْ: احبِسْهُ، وقالَ بعضُهُمْ: أخّرْهُ، وقولُهُ: ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ﴾ أي تضُمُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي حفيظاً. وقيلَ: شاهداً.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ يَحتمِلُ النّهيُ وجهَين:

أحدُهما: لا تدخُلوا بيوتَ النّبيِّ بِغيرِ إذنٍ كما يدخُلُ الرجلُ على أمّهِ، وإنْ كُنّ هُنّ كالأمهاتِ لكمْ، بِغيرِ إذنٍ.

فيكونُ النّهيُ عنِ الدخولِ في بيتِهِ نَهياً عنِ الدخولِ بِغيرِ إذنٍ كقولِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ [النور: ٢٧].

والثاني[2]: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ ضَيفاً ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إلا أنْ تُدعَوا إلى طعامٍ لأنّ رسولَ اللهِ، كانَ إذا هيّؤوا لهُ شيئاً مِنَ الطعامِ دعا أصحابَهُ، فيأكلونَه. وكانَ لا يُمسِكُ، ولا يدّخِرُ فَضلَ الطعامِ لوقتٍ آخَرَ. فإذا نزَلَ بهِ ضَيفٌ، ولم يكُنْ عندَهُ ما يُقدّمُ إليهِ، استحْيَى، وشقّ عليهِ ذلكَ. فنُهوا عنِ الدُّخولِ عليهِ والنُّزولِ بهِ ضَيفاً لِما ذكَرْنا، وأُمِروا بالانتظارِ إلى أنْ يُدعَوا إلى الطعامِ. فعندَ ذلكَ يدخلونَ عليهِ، ويُضَيِّفونَهُم[3].

فإنْ كانَ الأوّلَ ففيهِ الأمرُ بالحجابِ والنّهيُ عنِ الدخولِ بِلا استِئذانٍ. وإنْ كانَ الثاني ففيهِ النّهيُ عنِ النُّزولِ بهِ ضَيفاً قبْلَ أنْ يُدعَوا لِما ذكَرْنا.

ويكونُ الأمرُ بالحِجابِ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ذكَرَ هذا لأنّ أناساً كانوا يتحيّنونَ طعامَ رسولِ اللهِ، وغِذاءَهُ، فإذا حضَرَ دَخلوا عليهِ بِغيرِ إذنٍ، فجلَسوا في بيتِهِ يَنتظِرونَ نُضجَ الطعامِ وإدراكَهُ. فنُهوا عنْ ذلكَ. وكانوا إذا أكلوا، وفرَغوا منهُ، جلَسوا في بيتِهِ يتحدّثونَ، ويستأنِسونَ، فنُهوا عنْ ذلكَ، وأُمِروا بالانتشارِ، والخُروجِ مِن عندِهِ وعندِ نسائِهِ. ولم يكُنَّ يَحتجِبْنَ قبْلَ ذلكَ منهمْ. فشقّ ذلكَ على النّبيِّ، واللهُ أعلمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمرُ بالانتشارِ والخروجِ مِن عندِهِ لِما كانَ لرسولِ اللهِ أمورٌ وعباداتٌ يَحتاجُ إلى القيامِ بها، إمّا بينَهُ وبينَ اللهِ، وإمّا[4] بينَهُ وبينَ غيرِهِمْ مِنَ الناسِ، فكانوا يُشغِلونَهُ عَنْ ذلكَ [فنُهوا عنْ ذلكَ][5] لِذلكَ وإمّا[6] لِما ذكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ الحاجةِ لهُ في أزواجِهِ والخَلْوةِ بهنّ وقتَ القَيلولةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ الدخولُ عليهِ بِغيرِ إذنٍ، أوِ الانتظارُ لِنُضجِ الطعامِ وإدراكِهِ، أو الجلوسُ بعْدَ فراغِهِمْ مِنَ الطعامِ والحديثِ، أو ما كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ورسولُ اللهِ أيضاً كانَ لا يَستَحيي مِنَ الحقّ. لكنّهُ يَستحيي أنْ يقولَ لهمْ: اخرُجوا مِنْ منزِلي، ولا تدخُلوا عليّ، ونَحوَهُ لِما يُفتَحُ ذلكَ في الخَلقِ: أنْ يقولَ الرجلُ لآخَرَ: لا تدخُلْ منزِلي، أوِ اخرُجْ مِن منزِلي، لِما يَرجِعُ ذلكَ إلى دناءةِ الأخلاقِ والبُخلِ.

فلمّا أنزَلَ اللهُ تعالى الآيةَ، وأمَرَ أنْ يقولَ لهم ما ذكَرَ، قالَ لهمْ، وأخبرَهُمْ بذلكَ، فلمْ يَستَحْيِ عندَ ذلكَ لما صارَ ذلكَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: ويضيفونه. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

مِنْ حقِّ الدِّينِ فَرْضاً عليهِ لازماً أنْ يُعَلِّمَهُمُ الآدابَ، ويُخبِرَ عمّا يَلزَمُهُمْ مِنْ حقِّ الدِّينِ، وكانَ قَبْلَ ذلكَ في حَقِّ المُلْكِ وحقِّ النفسِ. فلما أنزَلَ اللهُ الآيةَ، وأمَرَ بذلكَ، صارَ مِنْ حَقِّ الدِّينِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ اعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يَدَعُ، ولا يَترُكُ أنْ يُعَلِّمَهُمُ الحَقَّ والأدبَ، وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ الآية [البقرة: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ المَعْنَى الذي يكونُ أطْهَرَ [لِقلوبِ الرجالِ غيرَ المَعْنَى الذي يكونُ أطْهَرَ][1] لقلوبِهِنَّ. ذلكَ المَعْنَى الذي يكونُ أطْهَرَ لِقُلوبِهِمْ مِنَ الفُجورِ والهَمِّ لِقَضاءِ الشَّهْوَةِ وما تَدْعُوهُ النفسُ إليهِ، وأطهَرَ لقلوبِهِنَّ مِنَ العَداوةِ والضغينَةِ لا الفُجورِ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ.

وذلكَ أنهنَّ [قد عَرَفْنَ أنهنَّ][2] لا يَحْلِلْنَ لِغيرِهِ نِكاحاً لِما اخْتَرْنَهُ والدارَ الآخِرَةَ على الدنيا وزينَتِها، وقد أُوعِدْنَ بارتِكابِ الفاحشةِ العذابَ ضِعْفَينِ على ما ذَكَرَ[3] وذلكَ يَمْنَعُهُنَّ، ويَزْجُرُهُنَّ عنِ ارْتِكابِ ذلكَ.

فإذا كانَ كذلكَ؛ فإذا عَرَفْنَ مِنَ الداخِلينَ عليهنَّ والناظرينَ اليهنَّ نَظْرَةَ شَهْوَةٍ وَقَعَ في قلوبِهِنَّ لهمُ العَداوَةُ / ٤٣١ ـ أ/ والضَّغينَةُ. ويكونُ[4] السؤالُ مِنْ وراءِ الحِجابِ أطْهَرَ لقلوبِكُمْ مِنَ الفُجورِ والرِّيبَةِ وأطْهَرَ لقلوبِهِنَّ من العداوةِ والضَّغينَةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

[ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المَعْنَى][5] واحداً، وهو الرِّيبةُ والفُجورُ لِما مَكَّنَ فيهِنَّ مِنَ الشَّهَواتِ، ورَكَّبَ فيهِنَّ مِنْ فُضَلِ الدَّواعي إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ أزواجَ الرسولِ، لَمّا احْتَجَبْنَ بعدَ نزولِ آيةِ الحِجابِ والنَّهيِ[6] عنِ الدخولِ عليهِنَّ والنَّظرِ إليهِنَّ، قالَ رجلٌ: أنُنْهَى أنْ ندخُلَ على بَناتِ عَمِّنا وبناتِ عَمّاتِنا وبَناتِ خالِنا وبَناتِ خالاتِنا؟ أما واللهِ لئِنْ ماتَ لأتزوَّجَنَّ فُلانةَ، وذَكَرَ[7] امرأةً مِنْ نسائِهِ. فنَزَلَ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي لا يَحِلُّ لكمْ ﴿أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ لكنَّ هذا قبيحٌ، لا يَحْتَمِلُ أنْ [يكونَ أحدٌ][8] مِنَ الصحابةِ يقولُ ذلكَ، أو واحدٌ مِمَّنْ صَفا إيمانُهُ، وحَسُنَ إسلامُهُ، يَخْطُرُ[9] ببالِهِ ذلكَ، إلّا أنْ يكونَ مُنافقاً.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ﴾ في ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ ابْتِداءُ نَهْيٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ في نِكاحِ أزواجِهِ، فيكونُ أذاهُمْ رسولَ اللهِ في نِكاحِ أزواجِهِ مِنْ بَعدِهِ.

ولو كانَ لا يُحِلُّ أزواجَهُ للناسِ لِما يَذْكُرُ بعضُ أهلِ التأويلِ لأنهنَّ أمهاتٌ لم يَحْتَجْ إلى النَّهْيِ عنْ نِكاحِهِنَّ بعدَهُ؛ إذْ لا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ نِكاحِ الأمِّ.

ولكنْ كانَ [لا][10] يُحِلُّ لهمْ ذلكَ؛ وكانَ المَعْنَى في ذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ التعظيمِ والاحْتِرامِ، حتى نَهاهُمْ عنْ نِكاحِ أزواجِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وجَعَلَهُ في حُرْمَةِ أزواجِهِ على غَيرِهِ بَعدَ وفاتِهِ، كأنهُ حَيٌّ.

وكذلكَ جَعَلَهُ[11] في حَقِّ مالِهِ ومُلْكِهِ في مَنْعِ الميراثِ لِوارِثِهِ، كأنهُ حيٌّ، لم يَرِثْ مالَهُ وارِثُهُ، بل جَعَلَهُ[12] باقياً أبداً على مُلْكِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) وهو قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. (٤) في الأصل وم: ويقول. (٥) من نسخة الحرم المكي، في م: أو أن يكون ذلك، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: ونهوا. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أحداً. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: إن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) و(١٢) في الأصل وم: جعل.

جنة السنة

[وكذلكَ جَعَلَهُ][1] في حقِّ الرسالةِ والنُّبوّةِ، كأنهُ حيٌّ؛ لم تُنسَخْ شريعتُهُ بَعْدَ وَفاتِهِ بِشريعةٍ أُخرَى كما نُسِخَتْ شَريعةُ الأنبياءِ الذينَ كانوا قَبْلَهُ، وماتوا[2]، بِشريعةٍ أُخرَى، بل جَعَلَهُ، كأنهُ حيٌّ، في إبقاءِ شَريعتِهِ إلى يومِ القيامةِ.

فَعلَى ذلكَ جَعَلَهُ[3] في أزواجِهِ، كأنهُ حيٌّ، في حُرْمَةِ أزواجِهِ في الآخِرَةِ.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ تأويلُ قولِهِ عندَنا ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] أي هي لكَ خالصةٌ، لا تَحِلُّ لأحدٍ بَعْدَكَ. فتكونَ زوجَهُ[4] في الجنةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ يَحتَمِلُ أذى رسولِ اللهِ ونِكاحَ أزواجِهِ عندَ اللهِ عظيماً، أو عظيماً في العقوبةِ عندَ اللهِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي تُبدوا شيئاً، أو تُخفوهُ عنهمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي ما أبدَيتُم، وأخفَيتُم ﴿عَلِيمًا﴾ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ. يَذْكُرُ هذا ليكونوا على حَذَرٍ وخَوفٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ أي لا حَرَجَ، ولا مَأثَمَ، على النساءِ في دخولِ مَنْ ذَكَرَ عليهِنَّ بلا إذْنٍ ولا حِجابٍ مِنْ ﴿ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ ذَكَرَ هؤلاءِ، ولم يَذْكُرِ الأعمامَ ولا الأخوالَ. فقالَ بعضُهُمْ: إنما لم يَذْكُرْ هؤلاءِ، ولم يُبِحْ لهمْ في ذلكَ لأنهنَّ يَحْلُلْنَ بالنِّكاحِ لأولادِ الأعمامِ والأخوالِ؛ فإذا دخلوا عليهِنَّ، فَرَأَوهُنَّ مُتجرِّداتٍ مُتزيِّناتٍ، فَيَصِفونَهنَّ لأولادِهِمْ، وقد يَصِفُ الرجلُ لولدِهِ حُسْنَ المرأةِ وقُبْحَها، فَيَنزِلُ وصفُهُ إياهُنَّ لأولادِهِ مَنزِلَةَ رؤيتِهِنَّ[5] بأنفسِهِمْ، فَيَزيدُ لهمْ رَغْبَةً فيهنَّ أو رَغْبَةً[6] عنهنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما لم يَذْكُرِ الأعمامَ والأخوالَ لِما في ذِكْرِ المذكورِ مِنْ بَني الإخوةِ وبَني الأخواتِ غِنًى عنْ ذِكْرِ الأعمامِ والأخوالِ لأنهمْ جميعاً مِنْ جِنْسٍ واحدٍ ومِنْ نَوعٍ واحدٍ في مَعْنًى واحدٍ.

وقد يُكتَفَى بِذِكْرِ[7] طَرَفٍ مِنَ الجِنسِ، إذا كانَ في مَعْنَى المذكورِ، نَحْوَ ما ذَكَرَ مِنْ أجناسِ المُحَرَّماتِ على الإبلاغِ، وتَرَكَ مِنْ كلِّ جِنْسٍ شيئاً لم يَذْكُرْهُ؛ إذِ الذي لم يَذْكُرْهُ في مَعْنَى المَذكورِ.

ففي ذِكْرِ مَنْ ذَكَرَ غِنًى عنِ الذي لم يَذْكُرْ. فَعلَى ذلكَ في ذِكْرِ بَني الإخوَةِ وبَني الأخواتِ غِنًى عَنْ ذِكْرِ الأعمامِ والأخوالِ إذْ هُمْ في مَعْناهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لم يُبِحِ الدخولَ للأعمامِ والأخوالِ لأنهمْ إذا دخلوا عليهِنَّ، فَرَأَوهُنَّ مُتجرِّداتٍ، فَلَعَلَّ بَصَرَهُمْ، يَقَعُ على فُروجِهِنَّ، فَيَنظُرُ إليها بِشَهْوَةٍ، فَيَحْرُمْنَ على أولادِهِمْ، وهُمْ إذا تَزَوَّجوهُنَّ، لم يَعْلَموا أنهنَّ مُحرَّماتٌ عليهِمْ، فَمَنَعَ دخولَ الأعمامِ والأخوالِ عليهِنَّ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي النساءِ[8] المسلماتِ؛ يقولُ: خَصَّ النساءَ[9] المسلماتِ، وأباحَ لهنَّ الدخولَ عليهِنَّ بلا إذْنٍ وأنْ يَرَيْنَهُنَّ مُتزيِّناتٍ، ولم يُبِحْ ذلكَ لليهودياتِ والنَّصرانياتِ وأمثالِهِنَّ مَخافةَ أنْ يَصِفْنَ ذلكَ لأهلِ دينِهِنَّ، فيكونَ ذلكَ سَبَبَ افْتِتانِهِمْ بهنَّ والرَّغْبَةِ بهنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ نساؤهُنَّ قَراباتُهُنَّ، خَصَّ هؤلاءِ مِنْ بَينِ غَيرِهِنَّ مِنَ الأجنبياتِ. وذلكَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا مِنْ خَوفِ وَصْفِ الأجنبياتِ لأزواجِهِنَّ والمتَّصِلينَ بهنَّ مِنْ حُسْنِهِنَّ وزينَتِهِنَّ إذا رَأَينَهُنَّ مُتجرِّداتٍ مُتزيِّناتٍ، ولا يُخافُ ذلكَ مِنْ قَراباتِهِنَّ.

والثاني: خَصَّ القَراباتِ لِما بِهِنَّ ابْتِلاءٌ، وليسَ بالأجنبياتِ ذلكَ. وقد يُخَفِّفُ الحُكْمُ ربَّما في ما فيهِ الابْتِلاءُ، ويُغَلِّظُ في ما هو أخَفُّ منهُ أو دونَهُ[10]، إذا لم يَكُنْ فيه ابْتِلاءٌ.

---

(١) في الأصل وم: أزواجه وكذلك جعل. (٢) في الأصل وم: إذا ماتوا. (٣) في الأصل وم: جعل. (٤) في م: زوجته. (٥) في الأصل وم: رؤيتهم.
(٦) في الأصل وم: رهبة. (٧) من م، في الأصل من ذكر. (٨) في الأصل وم: نساء. (٩) في الأصل وم: نساء. (١٠) في الأصل وم: ودونه.

جنة السنة

وعلى ذلكَ جائزٌ أنْ يُقالَ: إنَّ الأعمامَ والأخوالَ لم يَذكُرْهُمْ[١] في الآيةِ، والرخصةَ لأنهُ ليسَ بهِمُ ابتلاءٌ، وبِمَنْ ذَكَرَ ابتلاءٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يَحتَمِلُ الإماءَ خاصَّةً كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥ و٦، والمعارج ٢٩ و٣٠] لم يَفهَموا منهُ سِوَى الإماءِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ المَفهومُ مِنَ[٢] قولِهِ: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ الإماءَ.

ويَحتَمِلُ الإماءَ والعَبيدَ جميعاً. فإنْ كانَ على الإماءِ والعبيدِ جميعاً، فذلكَ، واللهُ أعلمُ، لأنهُ[٣] أباحَ الدخولَ للعبيدِ على مَوْلَياتِهِمْ بلا إذنٍ، لأنهمْ إنما يدخلونَ عليهِنَّ عندَ حاجاتِهِنَّ إليهِمْ في أوقاتٍ مَعْلومةٍ، وهنَّ في تلكَ الأوقاتِ، يكُنَّ مُتأهِّباتٍ لدخولِهِمْ عليهِنَّ مُحتَجِباتٍ عنهُمْ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ أنَّ مُكاتِباً لعائشةَ أمِّ المؤمنينَ ﵂، كانَ يدخُلُ عليها. فلمّا أدّى، فَعُتِقَ، مَنَعَتْهُ مِنَ الدخولِ عليها، وهو لِما ذَكَرْنا أنهُ كانَ يدخُلُ عليها لِوَقْتِ حاجَتِها إليهِ، وهي كانت مُتأهِّبَةً لدخولِهِ عليها. إلّا لا يُحتَمَلُ أنْ يدخُلَ عليها، ويَراها مُتَجَرِّدَةً أو مُتَزَيِّنَةً بعدَ ما أُمِرْنَ بالاحتِجابِ.

فَعَلَى ذلكَ العبيدُ، لا يَحِلُّ لهمُ النَّظَرُ إلى مَوْلَياتِهِمْ، ولا يكونونَ مَحْرَماً لهنَّ. وإنِ احتَمَلَتِ[٤] الآيةُ العبيدَ فهمْ بالإذنِ يدخُلونَ لا بِغَيْرِ إذنٍ، فيكونُ الإذنُ مُضمَراً فيهِ.

ثم قولُهُ[٥] تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ في ما ذُكِرَ مِنْ إباحةِ دخولِ مَنْ لم يُبِحْ [دخولَهُ عليكُنَّ والنَّظرِ إليكُنَّ][٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾. هذا تَحذيرٌ وَوَعيدٌ لهنَّ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٦ [وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ ذُكِرَ في بعضِ الحديثِ أنهُ لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ / ٤٣١ ـ ب/ قيلَ [لهُ][٨]: يا رسولَ اللهِ هذا لكَ، فما لنا. فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] [قد بيَّنَ ما صلاتُهُ، وصلاةُ الملائكةِ، وهو ما ذَكَرَ مِنْ إخراجِهِمْ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ][٩] وهو دُعاؤُهُمْ إلى الهُدى والرُّشدِ.

وذُكِرَ عن كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ [أنهُ][١٠] قال: لمّا نَزَلَ [قولُهُ:][١١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ قُمْتُ إليهِ: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ: السلامُ قد عَرَفْناهُ، فكيفَ الصلاةُ عليكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنكَ حَميدٌ مجيدٌ. وبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيم إنكَ حميدٌ مجيدٌ» [البخاري: ٣٣٧٠].

ففي الآيةِ الأمرُ للمؤمنينَ أنْ يُصَلُّوا على النَّبيِّ. ثم لمّا سُئِلَ هو عن كيفيَّةِ الصلاةِ عليهِ وماهِيَّتِها[١٢] قالَ لهمْ: أنْ تقولوا: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ، وهو سؤالُ أنْ يَتَوَلّى الرَّبُّ الصلاةَ عليهِ.

وفي ظاهِرِ الآيةِ هُمُ المأمورونَ بِتَوَلّي الصلاةِ بأنفسِهِمْ عليهِ [لكنهُ، صلواتُ اللهِ عليهِ][١٣] لمّا أُمِروا بالصلاةِ عليهِ، وهي الغايةُ مِنَ الثناءِ، لَمْ يَرَ في وُسْعِهِمْ وطاقَتِهِمُ القِيامَ بغايةِ ما أُمِروا بهِ مِنَ الثناءِ عليهِ، فأمَرَهُمْ[١٤] أنْ يَكِلوا ذلكَ إلى اللهِ، ويُفَوِّضوا إليهِ، وأنْ يَسألوهُ لِيَتَوَلّى ذلكَ هو دونَهُمْ لِما [لم][١٥] يَرَ في وُسْعِهِمُ القِيامَ بغايةِ الثناءِ عليهِ. وإلّا ليسَ في ظاهِرِ الآيةِ سؤالُ الرَّبِّ أنْ يُصَلِّيَ هو عليه، ولكنْ فيها الأمرُ: أنْ صَلّوا أنتمْ عليهِ، و اللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: [ﷺ][١٦]: «كما صَلَّيتَ، وبارَكْتَ على إبراهيمَ وآلِهِ» تَخصيصُ إبراهيمَ مِنْ بَيْنِ غَيْرِهِ[١٧] مِنَ الرسلِ، يَحْتَمِلُ ما

---

(١) في الأصل وم: يذكر. (٢) في الأصل وم: في. (٣) في الأصل وم: احتمل. (٤) في الأصل وم: احتمل. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) في الأصل وم: دخول عليهن والنظر إليهن. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وماهيته. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: غيرهم.

ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ أنهُ ليسَ [أحدٌ][1] مِنْ أهلِ دِينٍ ومَذْهبٍ إلّا وهو يَدَّعي، ويَزْعُمُ، أنهُ على دينِهِ ومَذْهبِهِ وأنهُ يَتأسّى بِهِ. لذلكَ خَصَّهُ بالصلاةِ عليهِ مِنْ بينَ غيرِهِ[2] مِنَ الأنبياءِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا لهذا، ولكنْ لِمَعْنًى كانَ فيهِ وفي سِرِّيَّتِهِ لا نَعرِفُهُ نحنُ، فَخَصَّهُ بذلكَ مِنْ بينِ غيرِهِ[3]، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: [ﷺ][4]: «وبارِكْ على محمدٍ» البَرَكَةُ، كأنه اسْمُ كلِّ خيرٍ، يكونُ أبداً على النَّماءِ والزِّيادةِ في كلِّ وقتٍ. وقد ذَكَرْنا في ما تَقدَّمَ ما قيلَ في صلاةِ اللهِ عليهِمْ وصلاةِ الملائكةِ وصلاةِ المؤمنينَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: نَزَلتِ الآيةُ في اليهودِ حينَ قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] و[5] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وفي النَّصارى حينَ قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] و[6] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وفي مُشركي العَرَبِ حينَ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، والأصنامُ آلهةٌ، ونَحوَ ذلكَ، [وفي][7] أذاهُمْ رسولَ اللهِ حينَ شَجُّوهُ، وكَسَروا رُباعِيَّتَهُ، وقالوا: إنهُ مجنونٌ، وإنهُ ساحرٌ وأمثالَ ذلكَ.

فأنزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقولُ: عَذَّبَهُمُ اللهُ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

فأمّا تَعذيبُهُ إيّاهُمْ في الدنيا فَقَتْلُهُمْ[8] بالسيفِ؛ يَعْني مُشركي العَرَبِ [وتعذيبُ][9] أهلِ الكتابِ بالجزيةِ إلى يومِ القيامةِ. وفي الآخِرةِ النارُ.

وقالَ بعضُهُمْ قريباً مِنْ ذلكَ: إنَّ الذينَ يُؤذونَ اللهَ ورسولَهُ، هُمْ أصحابُ التصاويرِ، فَلَهُمْ ما ذُكِرَ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ أي يَنِمّونَ فيهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: [قولُهُ][10] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هُمُ الذينَ قَذَفوا عائشةَ بِصَفوانَ؛ آذَوا رسولَ اللهِ في زوجتِهِ عائشةَ حينَ قَذَفوها[11]، وهي بريئةٌ ممّا [قَذَفوها بِهِ][12] وقولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ صفوانَ وعائشةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتْ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، فَعَلَى هذا عذابُهُمْ في الدنيا الجلدُ، وفي الآخِرةِ النارُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا الوعيدُ في قاذِفِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ بِغَيرِ ما اكْتَسَبَ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إضافةُ الأذى إلى اللهِ على إرادةِ رسولِهِ خاصّةً، لأنَّ اللهَ لا يجوزُ أنْ يُقالَ إنهُ يَتأذّى بِشيءٍ، أو يُؤذيهِ شيءٌ، لأنَّ الأذى ضَرَرٌ يُلْحَقُ، واللهُ، يَتعالى عنْ أنْ يَلْحَقَهُ ضَرَرٌ أو نَفْعٌ، بل هو القاهِرُ الغالبُ القادرُ الغَنيُّ بذاتِهِ. ويكونُ المُرادُ بإضافةِ الأذى إليهِ رسولَهُ خاصّةً على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي يُخادِعونَ رسولَهُ، أو يُخادِعونَ أولياءَهُ، لأنَّ اللهَ لا يُخادَعُ [وهو][13] كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد ٧] أي تَنصُروا دينَ اللهِ يَنصُرْكُم، أو إنْ تَنصُروا رسولَهُ وأولياءَهُ يَنصُرْكُمْ. وأمثالُ ذلكَ كثيرٌ في القرآنِ؛ نَسَبَ ذلكَ إلى نفسِهِ على إرادةِ أوليائِهِ. فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ، وباللهِ العِصْمَةُ والتَّوفيقُ، إلّا أنْ يريدَ بالأذى؛ أعني ما ذُكِرَ مِنْ أذى اللهِ، المَعْصِيَةَ، فهو جائزٌ، وكذلكَ ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ، [أنهُ][14] قالَ: «مَنْ آذاني فقد آذى اللهَ» [الترمذي ٣٨٦٢] أي مَنْ عَصاني فقد عَصى اللهَ.

وفي الآيةِ بيانُ وقوعِ المُرادِ على الاختِلافِ والتَّفاوُتِ مِنْ لَفْظٍ واحدٍ، لأنهُ ذَكَرَ هٰهنا أذى رسولِ اللهِ، وعقَّبَ الوعيدَ الشديدَ مِنَ اللعنِ والعذابِ في الدنيا والآخِرةِ، وذَكَرَ في الآيةِ التي قَبْلَها حينَ[15] قالَ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ .. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وما ذَكَرَ مِنَ الأذى.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) و(٣) في الأصل وم: غيرهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: وأنه. (٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قذفوا. (١٢) في الأصل وم: قذفوا. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

ثم لا شكَّ أنَّ المَفهومَ مِنْ هذا الأذى المَذكورَ في هذهِ الآيةِ غَيرُ المَفهومِ مِنَ الأذى المَذكورِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وأنَّ أحدَهُما مِنَ المؤمنينَ والآخَرَ مِنَ الكُفّارِ، وإنْ كانَ ظاهِرُ اللفظِ في المَخرجِ واحداً.

وكذلكَ المَفهومُ مِنَ الظُّلمِ الذي ذَكَر في قولِهِ: ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٩] غَيرُ المَفهومِ مِنَ الظُّلمِ الذي قالَ آدمُ [وحوّاءُ][1]: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

والمَفهومُ مِنَ الضَّلالِ الذي قالَ موسى: ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] غَيرُ المَفهومِ مِنْ ضَلالِ فرعونَ وسائرِ الكَفَرةِ.

ومِثْلُ هذا كثيرٌ، لا يَجِبُ أنْ نَفهَمَ مِنْ أمثالِ هذا شيئاً واحداً، وإنْ كانَ اللفظُ لَفظاً واحداً، ولكنْ على اختِلافِ المَوقِعِ.

وفي الآيةِ دلالةُ عِصْمَةِ رسولِ اللهِ وألّا يكونَ منهُ ما يَستَحِقُّ الأذى بِحالٍ. وقد يكونُ مِنَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ما يَستوجِبونَ الأذى، ويَستَحِقّونَهُ حينَ[2] ذَكَرَ الأذى لِرسولِ اللهِ مُطلَقاً مُرسَلاً غَيرَ مُقيَّدٍ بشيءٍ حينَ[3] قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وذكَرَ أذى المؤمنينَ مُقيَّداً بِشَرطِ الكَسبِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾.

فَدَلَّ شَرْطُ الكَسْبِ على أنهمْ قد يَكتَسِبونَ ما يَستَحِقّونَ الأذى، ويكونُ منهمْ ما يَستوجِبونَ ذلكَ.

وأمّا الرسولُ فلا يكونُ منهُ ما يَستَحِقُّ ذلكَ، أو يُوجِبُ لهُ. ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

واللَّعنُ هو الطَّرْدُ في اللغةِ؛ طَرَدَهُمْ مِنْ رحمتِهِ، وبَعَّدَهُمْ عنها.

والبُهتانُ: قيلَ: هو أنْ يُقالَ ما ليسَ فيهِ [وقولُهُ][5] ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] قيلَ: تَحيَّرَ، وانقَطعَ حِجاجُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ نَزَلَ في قومٍ هَمُّهُمُ الزِّنى بالإماءِ، وكانتِ الحرائرُ يومئذٍ يَخرُجنَ بالليلِ [فَيطَّلِعنَ][6] على أذى الإماءِ. فكانَ ذلكَ يُؤذيهِنَّ[7]، ويَتأذَّينَ بذلكَ جداً، فَشكَونَ[8] ذلكَ إلى رسولِ اللهِ في ذلكَ، فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾.

ثم أُمِرنَ عند / ٤٣٢ ـ أ/ ذلكَ بإدناءِ الجِلْبابِ وإرخائِهِ عليهِنَّ لِيُعرَفْنَ أنهنَّ حرائرٌ، ونُهينَ أنْ يَتَشبَّهنَ بالإماءِ لئلا يُؤذَينَ.

الآية ٥٩ وهو قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ هذا في نساءِ المُهاجِرينَ؛ وذلكَ أنَّ المُهاجِرينَ قَدِموا إلى المدينةِ، وهي ضَيِّقَةٌ، ومَعَهُمْ نساؤهُمْ، فنزلوا مَعَ الأنصارِ في ديارِهِمْ، فَضاقتِ الدُّورُ عليهِمْ. فكانتِ النساءُ يَخرُجنَ بالليلِ إلى البَرّازِ، فَيَقضينَ حوائجَهُنَّ هنالكَ، فكانَ المُريبُ يَرصُدُ النساءَ بالليلِ، فيأتيها، فَيَتعرَّضُ لها.

وإنما كانوا يطلبونَ الولائدَ والإماءَ، فلم تُعرَفِ الأمةُ مِنَ الحُرَّةِ بالليلِ لأنَ زِيَّهُنَّ كانَ واحداً يومئذٍ، فَذَكَرَ نساءُ المؤمنينَ ذلكَ إلى أزواجِهِنَّ، وما يَلقَينَ بالليلِ مِنْ أهلِ الريبةِ والفُجورِ، فَذَكَروا ذلكَ لرسولِ اللهِ ﷺ، فَنَزَلَ فيهِمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

أمَرَ الحرائرَ بإرخاءِ الجِلْبابِ وإسدالِهِ عليهِنَّ ليكونَ عَلَماً بَينَ الحرائرِ والإماءِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) و(٣) و(٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يؤذيهم. (٨) في الأصل وم: فشكوه.

جنة السنة

ورُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ أنَّ جاريةً مَرَّتْ مُتَقَنِّعَةً، فَضَرَبَها بالدِّرَّةِ، وقالَ: اكْشِفي قِناعَكِ، ولا تَتَشَبَّهي بالحرائرِ.

وأَمَرَ الإماءَ بكشفِ ما ذَكَرَ، والحَرائرَ بسَتْرِ ذلكَ.

وقد أَمَرَ الحرائرَ في سورةِ النورِ بِضَرْبِ الخُمُرِ على الجُيوبِ بقولِهِ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [الآية: ٣١]. لئلا تَظْهَرَ الزينةُ التي على الجيوبِ، ونُهِينَ أنْ يُظْهِرْنَ، ويُبْدينَ زينتَهُنَّ للأجنبيِّينَ إلّا ما ظَهَرَ منها.

وأُمِرْنَ في هذهِ الآيةِ بإرخاءِ الجِلْبابِ وإسدالِهِ عليهِنَّ لِيُعْرَفْنَ أنهُنَّ حرائرُ، فلا يُؤْذَيْنَ بما ذَكَرْنا.

ثم اخْتُلِفَ في الجِلْبابِ: قالَ بعضُهُمْ: هو الرِّداءُ، والجَلابيبُ الأرْدِيَةُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ: أُمِرْنَ أنْ يَلْبَسْنَ الأرديةَ والمُلاءَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجَلابيبُ المَقانِعُ، الواحِدُ: جِلْبابٌ؛ يُقالُ: تَجَلْبَبي أي تَقَنَّعي، وهو الذي يكونُ فوقَ الخِمارِ.

وفي الآيةِ دلالةُ رُخْصَةِ خُروجِ الحَرائرِ لِلحوائجِ، لأنهُ لو لم يُجِزْ لهنَّ الخروجَ لم يُؤْمَرْنَ بإرخاءِ الجِلبابِ على أنفسِهِنَّ. ولكنْ نَهاهُنَّ عنِ الخُروجِ [بِغَيرِ جلبابٍ][1] فَدَلَّ أنهُ يجوزُ لهنَّ الخُروجُ للحاجةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عمّا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعَرُّضِ للنساءِ بالزِّنى والفُجورِ بهِنَّ، وأنهم هُمُ الفاعِلونَ لذلكَ بهِنَّ.

وأمّا المُسْلِمونَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَتَعَرَّضوا لشيءٍ مِنْ ذلكَ الفِعْلِ[2]، فقالَ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ومَنْ ذَكَرَ عن ذلكَ يَفْعَلُ بهمْ ما ذَكَرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ أهلَ النفاقِ كانوا يُرْجِفونَ أخبارَ العدوِّ، ويُذيعونَها، ويقولونَ: قد أتاكُمْ عَدَدٌ وعُدَّةٌ مِنَ العَدُوِّ كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] كانوا يُحَبِّبونَهُمْ، ويُضَعِّفونَهُمْ، لئلا يَغْزوا أولئكَ الكَفَرَةَ؛ يُسِرّونَ النفاقَ والخِلافَ لهمْ، ويُظْهِرونَ الوفاقَ، يُسِرّونَ في ما بَيْنَهُمْ، ويَتَناجَوْنَ الإثْمَ والعُدوانَ ومَعْصِيةَ الرسولِ، فنُهوا عن ذلكَ حينَ[3] قالَ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩] فنُهوا عن ذلكَ.

فقالَ هههنا: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عن صَنيعِهِمْ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لَنُسَلِّطَنَّكَ عليهمْ. [وقالَ بعضُهُمْ: لَنَحْمِلَنَّكَ عليهمْ][4]، وقالَ بعضُهُمْ: لَنُولِعَنَّكَ بهمْ. وكانَ الإغراءُ هو التَّخْلِيَةُ بينَهُ وبينَهُمْ حتى يُقاتِلَهُمْ بالسيفِ، ويَقْتُلَهُمْ، وكانَ قَبْلَ ذلكَ يُقابِلُهُمْ باللسانِ، ولم يَأْمُرْهُ بالمُقاتَلَةِ بالسيفِ إلى هذا الوقتِ.

الآية ٦١ [وقولُهُ تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾][5] أخبَرَ أنهمْ مَلْعونونَ ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي مَطْرودونَ أينما وُجِدوا، ولأنَّ اللَّعْنَ، هو الطَّرْدُ، ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ وأنهمْ يُقْتَلونَ تقتيلاً، وأنهمْ ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في ما لا تَعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هُمُ الزُّناةُ، والمنافقونَ [هُمُ المنافِقونَ][6]، والمُرْجِفونَ، لَيسوا بِمُنافقينَ، ولكنهم قومٌ كانوا يُحِبّونَ أنْ يُفْشُوا الأخبارَ، ويُقالُ للإرجافِ: هو تَشْييعُ الخَبَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُنافِقُ، هو الذي كانَ مع الكَفَرَةِ في السِّرِّ حقيقةً، والذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ، هو الذي في قَلْبِهِ رَيْبٌ واضطِرابٌ، لم يَكُنْ مع الكَفَرةِ لا سِرّاً ولا ظاهراً، والذي بَيْنَ الكافِرِ والمُنافِقِ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ السالفةِ الإهلاكُ مِنَ الكُفّارِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الوقت. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في أهلِ النفاقِ مِنَ الأُمَمِ السالفةِ ما ذُكِرَ في هؤلاءِ.

وقالَ مقاتلٌ: ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ في أهلِ بَدْرٍ حينَ أُسِروا، وقُتِلوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ السؤالُ عنها ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى حينَ[1] قالَ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧ والنازعات: ٤٢] وعن قيامِها، فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ففيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ رسولِهِ، لأنهُ حينَ سُئِلَ عنها، فَوَّضَ أمرَها وعِلْمَها إلى اللهِ على ما أمَرَهُ[2] بهِ.

ولو كانَ غيرَ رسولِ اللهِ لكانَ يُجيبُهُمْ، عَلِمَ، أو [لم][3] يَعْلَمْ على ما يَفْعَلُهُ طُلّابُ الرئاسةِ [في الدنيا إذا سُئِلوا عَنْ شيءٍ قالوا شيئاً، وإنْ لم يَعْلَموهُ[4]، لأنّ ذلكَ أبْقَى للرئاسةِ لهمْ. فإنْ لَمْ يَفْعَلْ ﷺ كما يَفْعَلُ أصحابُ الرئاسةِ][5] بل قالَ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ دلَّ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ مُبلِّغٌ إليهِمْ ما أُمِرَ بالتَّبليغِ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ هذا يُخَرَّجُ على الوعيدِ والتَّحذيرِ، وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: كأنهُ يقولُ: اعلَمْ أنّ الساعةَ تكونُ قريباً على الإيجابِ، لأنّ ﴿لَعَلَّ﴾ مِنَ اللهِ واجبٌ؛ فهو وكلُّ ما هو آتٍ [هو كائنٌ][6].

والثاني: على التَّراخي، أي اعْلَموا على رجاءِ أنها[7] قريبٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ لعنَهُمْ، أي طَرَدَهُمْ مِن رحمتِهِ لِما عَلِمَ أنهمْ يَختارونَ الكُفرَ على الإيمانِ، ويَختِمونَ عليهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾.

الآية ٦٥ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يَنْقُضُ على الجَهْمِيَّةِ قولَهُمْ وعلى أبي الهُذَيلِ العَلّافِ: أمّا على الجَهْمِيَّةِ فَلأنَّهُمْ[9] يَزعُمونَ أنّ الجنةَ والنارَ تَفْنَيانِ، ولهما النهايةُ وقالوا: لأنّا، لو لم تُجعَلْ لهما النهايةُ والغايةُ لَخرَجْنا عن عِلْمِ اللهِ، لأنّ الشيءَ غيرَ[10] المُتناهي خارجٌ عن عِلْمِهِ. لكنّ هذا بعيدٌ، جَهْلٌ منهمْ بربِّهِمْ؛ لأنّ عِلْمَهُ بالشيءِ غيرِ[11] المُتناهي أنهُ غيرُ مُتناهٍ، وعِلْمَهُ بالمُتناهي أنهُ مُتناهٍ، ولا يجوزُ أنْ يَخرُجَ شيءٌ عن عِلْمِهِ مُتناهياً كانَ أو غيرَ مُتناهٍ، وباللهِ العِصمةُ.

وأمّا العَلّافُ فَلأنَّهُ يقولُ: إنّ أهلَ الجنةِ وأهلَ النارِ، يَصيرونَ بِحالٍ في وقتٍ ما حتى إذا أرادَ اللهُ أنْ يزيدَ لأحدٍ منهمْ لَذَّةً أو نعمةً أو عذاباً لم يَملِكْ عليهِ أو كلامٌ نَحْوُ هذا. فَنعوذُ باللهِ من السَّرَفِ في القولِ على اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ما طَمِعوا في الدنيا، ورَجَوا مَنْ كَثرةِ الأسبابِ والحواشي أو عبادةِ الأصنامِ وغيرِها أنْ يَنفعَهُمْ ذلكَ، ويَنصُرَهُمْ في الآخِرةِ، بل ضَلَّ عنهمْ ذلكَ، وجُرِّموا / ٤٣٢ ـ ب/ على ما أخبرَ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤ و. .] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [كقولِهِ تعالى في آيةٍ][12] أُخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الفرقان: ٣٤]

وأصلُهُ ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] يُفعَلُ بهمْ في الآخِرةِ على ما كانوا في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ لا يزالُ الكَفَرةُ قائلينَ لهذا القولِ مُرَدِّدينَ لهُ في الآخِرةِ لِما رأَوا مِنَ العذابِ حينَ حلَّ بهمْ ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ الرسولُ المُطلَقُ رسولُ اللهِ، والسبيلُ المُطلَقُ هو دينُ اللهِ، [وهو المَعروفُ][13] في القرآنِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الهاء ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: فهو الكائن. (٧) في الأصل وم: أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) و(١١) في الأصل وم: الغير. (١٢) في الأصل: وقال في رواية، في م: وقال في آية. (١٣) في الأصل: هو العرف: في م: هو المعروف.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: السادةُ الملوكُ، والكُبَراءُ العلماءُ، وجائزٌ أنْ يكونَ السادةُ القادةَ، والكُبَراءُ [مَنْ][1] دونَهُمْ. والرسولا والسبيلا أثْبَتوا الألفَ فيهما عندَ الوقفِ، وأمّا عندَ الوصلِ فلا. وذلكَ أنَّ مِنْ عادةِ العربِ ألّا تقِفَ على الحركةِ، ولكنْ تزيدُ لها ألِفاً إذا كانَتْ فتحةً، وإذا كانَتْ كَسْرَةً ياءً.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ظنّوا أنْ يكونَ لهمْ بعضُ التَّسلّي والتَّفريجِ إذا رَأوا أولئكَ الذينَ أضَلّوهُمْ في زيادةٍ مِنَ العذابِ على ما يكونُ للرجلِ بعضُ التّسلّي إذا رَأى عَدُوَّهُ في بلاءٍ وشدةٍ. فلمّا لم يكُنْ لهمْ مِنْ ذلكَ تَسَلٍّ، بل كانَ لهمْ مِنْ ذلكَ زيادةُ عذابٍ وشدةٍ، قالوا[2] عندَ ذلكَ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا: أي عَذِّبْهُمْ عذاباً كبيراً طويلاً.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ يقولُ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ موسى كانَ لا يَغْتَسِلُ في ما يراهُ أحدٌ، فقالَ بَنو إسرائيلَ: إنَّ موسى آدَرُ، ويَرْوُونَ على ذلكَ عَنْ نَبيِّ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «إنَّ بَني إسرائيلَ طَعَنوا نَبِيَّ اللهِ موسى بذلكَ، فَذَهبَ ذاتَ يومٍ يَغْتَسِلُ، فوضعَ ثيابَهُ على حَجَرٍ، فَسَعَى الحَجَرُ بثوبِهِ، فَجَعَلَ موسى، يَعْدو في إثْرِهِ، ويقولُ: حَجَرُ، أي يا حَجَرُ ثوبي حتى مَرَّ بهِ على مَلَإِ بني إسرائيلَ، فَعَلِموا أنهُ ليسَ بهِ شيءٌ» [البخاري: ٢٧٨] فذلكَ قولُهُ: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ وكانَ موسى يَتَأذَّى بما كانوا يَطْعَنونَ. فَعلى ذلكَ رسولُ اللهِ. كانَ يَتَأذَّى إذا قالوا: زيدُ بنُ محمدٍ [فأمرَهُمُ اللهُ][3] أنْ يدعوهُ لأبيهِ بقولِهِ[4]: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] زيدُ بْنُ حارثةَ.

لكنَّ هذا التأويلَ بَعيدٌ، لأنَّ موسى كانَ يَدْعوهُمْ إلى سَتْرِ العورةِ، لا يُحْتَمَلُ أنْ يَطْمَعوا هُمْ منهُ الاغْتِسالَ معهمْ، وأنْ يَكْشِفَ عورتَهُمْ، أو أنْ يَنْظُرَ إلى عَورةِ أحدٍ، وهذا وَحْشٌ مِنَ القولِ، أو يُسَلَّطَ حَجَرٌ، فيذهَبَ بثيابِهِ حتى يراهُ الناسُ مُتَجَرِّداً، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: آذَوهُ لأنهُ كانَ خَرَجَ بهارونَ إلى بعضِ الجبالِ، فماتَ هارونُ هنالكَ، فَرَجَعَ موسى إليهِمْ وحْدَهُ، فقالَ بنو إسرائيلَ لموسى: أنتَ قَتَلْتَهُ. حينئذٍ قالَ[5] موسى: وَيلَكُمْ أيَقْتُلُ الرجلُ أخاهُ؟ فآذَوهُ. فذلكَ قولُهُ: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ فجاءَتْ بهِ الملائكةُ، فوضَعَتْهُ بينَهُمْ، فقالَ لهمْ: لم يَقْتُلْني أحدٌ إنما جاءَ أجَلي، فَمِتُّ، فذلكَ قولُهُ: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ.

وغيرُهُ كأنهُ أقْرَبُ وأشْبَهُ، وهو ما كانَ قومُ كلِّ رسولٍ؛ نَسَبوا رسولَهُمْ إلى الجنونِ مَرَّةً وإلى السِّحْرِ ثانياً، [وإلى الافْتِراءِ والكَذِبِ على اللهِ ثالثاً][6] ونَحْوُهُ على عِلْمٍ منهمْ أنهُ رسولُ اللهِ، ولا شَكَّ أنهمْ كانوا يَتَأذَّونَ بذلكَ جدّاً. ولِذلكَ قالَ: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ هذا في الأوّلِ لأنهمْ لو كانوا عَلِموا أنهُ ليسَ بهِ ما ذَكَروا لم يُؤذوهُ، فَدَلَّ أنَّ أذاهُمْ إيّاهُ في ما ذَكَرْنا وفي أمثالِ ذلكَ.

وكذلكَ ما نَهَى قومَ رسولِ اللهِ عنِ الأذى لهُ لِما نَسَبوهُ مَرّةً إلى الجنونِ وإلى السِّحْرِ ثانياً وإلى الافْتِراءِ والكذبِ على اللهِ ثالثاً لا في ما ذَكَرَ أولئكَ ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي مَكيناً في القَدْرِ[7] والمَنْزِلةِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتّقوا الشِّرْكَ في حادثِ الوقتِ ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي إيتوا بالتّوحيدِ في حادثِ الوقتِ لأنهُ إنما خاطَبَ بهِ المؤمنينَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فقالوا. (٣) في الأصل وم: فأمروا. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) في الأصل وم: فقال. (٦) من م، في الأصل: وأنه كذاب مفتر. (٧) من م، في الأصل: والقدرة.

جنة السنة

الآية ٧١ [وقولُهُ تعالى:](١) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي بالتوحيدِ، لأنهُ بالتوحيدِ تَصْلُحُ الأعمالُ، وتُذْكَرُ، وبهِ يُغْفَرُ ما كانَ مِنَ الذنوبِ، وبهِ يكونُ الفوزُ العظيمُ، وباللهِ التوفيقُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الخِيانةِ في ما بينَكُم وبينَ الخَلْقِ أي لا تَخونوا الخَلْقَ ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي صِدقاً وصَواباً، أي لا تَكْذِبوا، ولا تقولوا فُحشاً ونَحوَهُ.

ويَحتمِلُ قولُه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لا تَعصُوهُ، واعمَلوا بالمَعروفِ، وانتَهوا عنِ المُنكَرِ ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ومُرُوا الناسَ [بالمَعروفِ، وانهُوهُم](٢) عنِ المُنكَرِ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ قد تَكَلَّفَ أهلُ التأويلِ [في](٣) تفسيرِ هذهِ الأمانةِ(٤) قالَ بعضُهُم: هي كلمةُ الشهادةِ والتوحيدِ، ومنهمْ مَنْ قالَ: هي جميعُ الفرائضِ التي افْتَرَضَ اللهُ على عبادِهِ. ومنهم مَنْ قالَ: هي الصلاةُ والصيامُ والحجُّ وأمثالُهُ وجميعُ ما أُمِروا بهِ، ونُهوا عنهُ.

لكنَّ التَّكَلُّفَ والاشتِغالَ بالتَّكَلُّمِ في ماهِيَّةِ هذهِ الأمانةِ المذكورةِ المَعروضةِ على مَنْ ذَكَرَ فَضلٌ، لا يَجِبُ أنْ يُتَكَلَّفَ تَفسيرُها أنها كذا لأنها مُبهَمَةٌ، لا تُعلَمُ إلّا بالخَبَرِ الواردِ عنِ اللهِ تعالى أنها كذا، وأنْ يُجعَلَ ذلكَ مِنَ المَكتومِ، لا يُشتَغَلَ بتَفسيرِهِ(٥)، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم اختُلِفَ في ما ذُكِرَ مِنْ عَرضِ هذهِ الأمانةِ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ ومَا ذُكِرَ مِنْ إبائِها عنِ احتِمالِها والإشفاقِ.

قالَ بعضُهُم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومَنْ ذَكَرَ؛ أي خَلَقْنا خِلْقَةَ ما ذَكَرْنا(٦) مِنَ السمواتِ والأرضِ والجبالِ خِلْقَةً، لا تَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا(٧) مِنَ الأمانةِ ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ إباءَ خِلْقَةٍ؛ أي لم يَخلُقْ خِلْقَتَها بحيثُ تَحتَمِلُ ذلكَ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي خَلَقْنا خِلْقَةَ الإنسانِ خِلْقَةً تَحتَمِلُ ذلكَ. إلى هذا يَذهَبُ بعضُهُم.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ حقيقةُ العَرْضِ، إلّا أنهُ على التَّخييرِ بَينَ أنْ تَقبَلَ، وتَحتَمِلَ(٨)، و تَفِيَ بذلكَ، فيكونَ لها الثوابُ، أو لا تَفِيَ، فيكونَ لها العِقابُ في الآخِرةِ، وبَينَ ألّا تَحتَمِلَ(٩)، ولا تَقْبَلَ، فتكونَ كسائرِ المَواتِ تَفنَى بفَناءِ الدنيا، ولا ثوابَ لها في الآخِرةِ، وإلّا لم يَحتَمِلْ أنْ يَعرِضَ عليهِنَّ ما ذَكَرَ عَرْضَ لُزومٍ وإيجابٍ.

ثم بيَّنَ [أنهنَّ أبَينَ ذلكَ، وأشفَقنَ](١٠) منها، وقد وصَفَهُنَّ اللهُ بالطاعةِ لهُ والخُضوعِ في غيرِ آيةٍ(١١) مِنَ القرآنِ حينَ قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقالَ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآيةَ [الحشر: ٢١] وقالَ في آيةٍ [أخرى](١٢): ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ونَحوَهُ.

ولكنْ إنْ كانَ على حقيقةِ العَرْضِ فهو على التَّخييرِ الذي ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى](١٣) ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ﴾ فكانَ لهُ الثوابُ إنْ قامَ بها، وعليهِ العقابُ، إنْ لم يَقُمْ [بها](١٤) / ٤٣٣ ـ أ/.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ أي عرضَ على أهلِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ وأهلِ الجبالِ [الأمانةَ](١٥) فلم يَحمِلوها، إلّا الإنسانَ منهم فإنهُ حَمَلَها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قالَ الحَسَنُ: ظلوماً لِنفسِهِ جهولاً لِأمرِ ربِّهِ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي أبَينَ أنْ يَعْصِينَ اللهَ، وأشفَقنَ منهُ، أي لم يَعْصُوا قطُّ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي عَصَى الإنسانُ، فَيَجعَلُ الحَمْلَ كنايةً عنِ العِصيانِ والوِزْرِ؛ يقولُ لأنهُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وانهوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل: المذكورة في الآية. (٥) في الأصل وم: بالتفسير. (٦) في الأصل وم: ذكر. (٧) في الأصل وم: ذكر. (٨) في الأصل وم: يتحمل. (٩) في الأصل وم: يتحمل. (١٠) في الأصل وم: ما بين ذلك ويشفقن. (١١) في الأصل وم: آي. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ما ذُكِرَ في القرآنِ الحَمْلُ إلا في الوزْرِ والخَطايا كقولِهِ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ وقولِهِ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٢ ـ ١٣] وقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: ٢٥] وقولِهِ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢ و٣] ونَحْوُهُ كثيرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إلى أيِّ تأويلٍ مِنْ هذهِ التأويلاتِ التي ذَكَرْنا صَرفُ هذا إليهِ استقامَ، واللهُ أعلَمُ.

عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][١] قالَ: الأمانةُ العِبادةُ. قالَ اللهُ تعالى للسمواتِ والأرضِ والجبالِ: تأخُذْنَ العبادةَ بما فيها؟ قُلْنَ: يا ربِّ وما فيها؟ قالَ: إنْ أحسَنْتُنَّ جُزيتُنَّ، وإنْ أسأتُنَّ عوقِبْتُنَّ ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي خِفْنَ، وعَرَضَها[٢] على الإنسانِ، فَقَبِلَها، وهو قولُ اللهِ لِبَني آدمَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

أمّا خيانتُهُمُ اللهَ ورسولَهُ فَمَعصِيَتُهما، وأمّا خيانةُ الأمانةِ فَتَرْكُهُمْ ما افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ مِنَ العبادةِ.

وقَتادةُ يقولُ: أمَا واللهِ ما بِهِنَّ مَعْصِيَتُهُ. لكنْ قيلَ لهنَّ: أتَحْمِلْنَها؟ وتُؤدِّينَ حقَّها؟ قُلْنَ: لا نُطيقُ ذلكَ. فقيلَ للإنسانِ، وهو آدمُ. أتَحمِلُها. وتُؤدّي حقَّها؟ قالَ: نعمْ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ عَنْ حقِّها.

وفي حَرْفِ أُبَيٍّ [بْنِ كَعْبٍ][٣] وابنِ مَسْعودٍ وحَفْصةَ ﴿فَأَبَيْنَ﴾ أي فلم يُطِقْنَها.

وقالَ أبو مُعاذٍ: الإباءُ في كلامِ العربِ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: هذا، وهو العَجْزُ، والآخَرُ [ما قالَ فيهِ، وهو] قولُهُ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [البقرة: ٣٤، . . .] وعَصَى وتَرَكَ الأمرَ.

والحَسَنُ يقولُ: عُرِضَتِ الأمانةُ على السمواتِ وما ذُكِرَ، فقيلَ لهنَّ: أتأخُذْنَ الأمانةَ بما فيها؟ قُلْنَ: يا ربُّ وما فيها. قيلَ لهنَّ: إنْ أحسَنْتُنَّ جُزيتُنَّ، وإنْ أسأتُنَّ عُوقِبْتُنَّ. قُلْنَ: لا ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لِنَفْسِهِ ﴿جَهُولًا﴾ بربِّهِ، وهو مثلُ الأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ لِنَفْسِهِ في ركوبِهِ المَعْصِيةَ ﴿جَهُولًا﴾ بعاقبةِ ما تَحَمَّلَ.

والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا[٤] بَدْءاً أنهُ لا تُفَسَّرُ الأمانةُ أنها ما هي؟ وكيفَ كانَ ذلكَ العَرْضُ على ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ والجبالِ وإبائهِنَّ[٥] وإشفاقِهِنَّ، واللهُ أعلَمُ ما أرادَ بذلكَ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى﴾ مَنْ ذَكَرَ أي لِيُعَذِّبَ مَنْ عَلِمَ أنهُ لا يقومُ بِوَفائها، ويُضَيِّعُها؛ أعني الأمانةَ التي احْتَمَلَها، وإنما يُضَيِّعُها مَنْ ذَكَرَ مِنَ المُنافقينَ والمُشْرِكينَ، ويُثيبُ مَنْ لم يُضَيِّعْها، وقامَ بِوَفائها، وهمُ المؤمنونَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: السَّدادُ الإستِقامَةُ[٦]، تقولُ: سَدَّدَكَ[٧] اللهُ، وأرْشَدَكَ. وقالَ أبو عُبَيدةَ: السَّديدُ المُقْصِدُ[٨]، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، والقَصْدُ كأنهُ العَدْلُ، واللهُ أعلَمُ. [وصَلّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ أجْمَعينَ][٩].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وعرضت. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل، ذكر. (٥) في الأصل وم: واباؤهن. (٦) من م، في الأصل: والاستقامة. (٧) من م، في الأصل: أرشدك. (٨) في الأصل وم: القصد. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

[سورة سبإ

نزلت بمكة][١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال أهلُ التأويلِ: حَمِد نفسَهُ بأنْ صَنَعَ إلى خَلْقِهِ. ثم هو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على التعليمِ لِخَلْقِهِ: الحَمْدَ لهُ والثناء عليهِ لِآلائِهِ وإحسانِهِ على خَلْقِهِ؛ ما لو لا تَعليمُهُ إيَّاهُمُ الحَمْدَ لهُ والثناء عليهِ لم يَعْرِفوا ذلكَ.

والثاني: حَمِدَ نفسَهُ لمّا لم يَرَ في وُسْعِ الخَلْقِ القيامَ[٢] بغايةِ الحَمْدِ لهُ والثناءِ عليهِ على آلائِهِ وأياديهِ، فَتَوَلَّى ذلكَ بنفسِهِ، وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] فقالوا: [قد عَرَفْنا السلامَ عليك، فكيف الصلاةُ عليك؟ فقالَ][٣]: «أنْ تقولوا: اللهمَّ صلِّ عل محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ» [البخاري: ٣٣٧٠] إلى آخِرِهِ. فهذا تَفويضُ الصلاةِ على اللهِ، والدعاءُ لهُ أنْ يُصَلِّيَ هو عليهِ دونَهُمْ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ لم يَرَ فيهِمْ وُسْعَ القيامَ بحقيقةِ الصلاةِ عليهِ ولا بغايةِ الثناءِ، فأمَرَهُمْ أنْ يُفَوِّضوا ذلكَ إليهِ ليكونَ هو القاضيَ لذلكَ عنهمْ.

فَعَلَى ذلكَ الحَمْدُ لهُ. [وأصلُ الحَمْدِ][٤] هو الثناءُ عليهِ بجميعِ مَحامِدِهِ وإحسانِهِ بأسمائِهِ الحُسْنَى، والشُّكْرُ لهُ على جَميعِ نَعْمائِهِ وآلائِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: الحمدُ للهِ الذي لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، وهو المُسْتَحِقُّ لذلكَ لا الأصنامُ التي عَبَدْتُموها، وسَمَّيْتُموها آلهةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يَحمَدُهُ أهلُ الجنةِ إذا دَخَلوا الجنةَ كقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] وقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ونَحْوَهُ؛ يَحْمَدُهُ أولياؤهُ في الآخِرةِ، ويَحْمَدُهُ أولياؤهُ في الأولى كقولِهِ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي لهُ الحَمْدُ في إنشاءِ الآخِرَةِ لأنَّ إنشاءَ الدنيا وما فيها، إنما كانَ حِكْمَةً بإنشاءِ الآخِرَةِ. ولو لم يكُنْ إنشاءُ الآخِرَةِ لكانَ خَلْقُ ذلكَ كلِّهِ عَبَثاً باطلاً. فإنشاءُ الآخِرَةِ حينَ صارَ إنشاءُ الدنيا وما فيها مِنَ الخلائقِ حِكْمَةً. فأخبَرَ أنَّ لهُ الحَمْدَ على إنشائِهِ ما صارَ لهُ إنشاءُ الدنيا حِكْمَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قد تَقَدَّمَ مَعْنَى الحَكيمِ والخَبيرِ في غيرِ موضعٍ؛ وهو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التدبيرِ، وهو الواضعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

والفلاسفةُ يقولونَ: الحكيمُ هو الذي يجمعُ العِلْمَ والعَمَلَ[٥] جميعاً، وهو ما ذَكَرْنا، أوِ الحكيمُ لِما أحْكَمَ كلَّ شيءٍ، وأتْقَنَهُ حتى شَهِدَ كلُّ شيءٍ على وحدانيَّتِهِ، ودلَّ على إلهيَّتِهِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: والقيام. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: والعلم.

جنة السنة

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يُخبِرُ أنَّ الأرض مع كثافتِها وغِلَظِها لا تَحجبُ عنهُ[1] ما يَدخُلُ فيها، وما يَخرُجُ منها. وكذلكَ السماءُ مع صلابتِها وشِدَّتِها لا تَحجُبُ عنهُ[2] الخلائق، أو يُخبِرُ أنَّ كثرةَ ما ينزِلُ مِنَ السماءِ مِنَ الأمطارِ وما يَعرُجُ إليهِ مِنَ الدَّعواتِ والملائكةِ لا يَشغَلُهُ عنِ العلمِ بالأخرِ كما يُشغَلُ الخلائقُ، لأنهُ عالمٌ بذاتِهِ لا بِسَبَبٍ والخَلْقُ عالمونَ بأسبابِ فِعْلِهِمْ بِسَبَبٍ / ٤٣٣ ـ ب/ يَشغَلُهُمْ عنِ الأسبابِ الأُخَرِ.

فأمّا اللهُ سُبحانَهُ [فإنهُ][3] يَتعالى عن أنْ يَشغَلَهُ شيءٌ أو يُحجَبَ عنهُ شيءٌ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ أقسَموا باللاتِ والعُزَّى أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ بعدَ الموتِ، فأمَرَ اللهُ نبيَّهُ أنْ يُقسِمَ باللهِ الواحِدِ على[4] بعثٍ وقيامةٍ بقولِهِ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ على غيرِ هذا، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى حيثُ قالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]. أقسَموا باللهِ أنهُ لا يَبعَثُ مَنْ يموتُ، فأمَرَ رسولَهُ في هذهِ الآيةِ أنْ يُقسِمَ باللهِ الذي أقسَموا هُمْ [به][5] أنهُ يَبعَثُ، وهو قولُهُ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

وكانَ قَسَمُهُ بما أقسَمَ عندَهُمْ أصدقَ مِنْ قَسَمِهِمْ لأنهمْ لم يأخذوا عليهِ كَذِباً قطُّ، ولا اتَّهموهُ في شيءٍ.

يدلُّ على ذلكَ ما أخبَرَ اللهُ عنهمْ حينَ قالَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] أخبَرَ انهُمْ لا يُكذِّبونكَ في مَقالَتِكَ، ولكنَّ هَمَّهُمْ جُحودُ الآياتِ والإنكارُ لها، فيكونُ قَسَمُهُ مُقابلَ قَسَمِ أولئكَ في إنكارِهِمُ البَعْثَ لِيَعلَموا كَذِبَ أنفسِهِمْ في قَسَمِهِمْ بِقَسَمِ رسولِ اللهِ بِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بالخَفْضِ. وقد قُرِئ عالمُ[6] الغَيبِ بالرفعِ، وعَلّامُ[7] الغيبِ. فَمَنْ خَفَضَهُ جَعَلَهُ صفةً ونَعْتاً لِما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ ومَنْ رَفَعَهُ جَعَلَهُ[8] على الابتِداءِ، وجَعَلَ[9] الكلامَ [قَبْلَهُ][10] تاماً بقولِهِ: ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم استَأنَفَ، فقالَ: عالِمُ ﴿ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾.

وقد قُرِئَ بِرَفْعِ الزاي وبِخَفْضِها[11]: لا يَعْزِبُ، وكِلاهُما لُغَتانِ. والعزبُ في كلامِ العَرَبِ الغائبُ.

وقال بعضُهُمْ: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ أي لا يَبْعُدُ، وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، كقولِهِ[12] في الأُولى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

جائزٌ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ في جواهِرِ الأشياءِ وأجناسِها المُختَلِفَةِ لأنهُ أخبَرَ عن عِلْمِهِ بما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها وما يَصْعَدُ فيها وما يَنزِلُ، وذلكَ عِلْمُ جَواهِرِ الأشياءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ في الأفعالِ والأعمالِ؛ يُخبِرُ أنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، ولا يَغيبُ عنهُ شيءٌ مِنْ أفعالِهِمْ وأعمالِهِمْ لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ.

ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ الجزاءَ حيثُ قالَ: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؟

[ويَحتَمِلُ][13] أنْ يكونا واحداً إلّا أنهُ ذَكَرَ في الآيةِ الأُولى الداخلَ في الأرضِ والخارجَ منها وما يَنزِلُ مِنَ السماءِ وما يَعرُجُ فيها، ولم يذكُرْ في ذلك الساكنَ فيها والمُقيمَ وما يكونُ فيهما، فَذَكَرَ ذلكَ في قولِهِ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُخبِرُ عن إحاطةِ عِلْمِهِ بالأشياءِ كلِّها مِنَ الساكنةِ والمُقيمةِ والمُتحرِّكةِ والمُتقلِّبةِ فيهما، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: عند. (٢) في الأصل وم: عن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: بلى. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٤١. (٧) انظر المرجع السابق ج٥/ ١٤٢. (٨) في الأصل وم: يجعله. (٩) في الأصل وم: ويجعل.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٤٢. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ المَغْفِرَةُ، هي التَّغطِيةُ والسَّتْرُ.

ثم يكونُ السَّتْرُ بوجهَينِ:

أحَدُهما: يَسْتُرُ على المؤمِنِ الزَّلاتِ نفسَها ألا تُذكَرَ.

والثاني: يَسْتُرُ بالجزاءِ الحَسَنِ؛ إذا لم يُجزِ الزَّلاتِ.

هذا للمؤمنينَ: يَسْتُرُ عليهِمُ الزلاتِ مَرَّةً بِتَرْكِ ذِكْرِها ومَرَّةً بِتَرْكِ الجَزاءِ عليها وأمّا الكافِرُ فإنَّهُ إذا جُزِيَ على سَيِّئَةٍ فقد [أُظهِرَتْ، وأُفْشِيَتْ][1] ولم تُسْتَرْ عليهِ.

[ويَحتَمِلُ][2] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي سَتْرٌ، وهو أنهُ إذا أدخلَهُمُ الجنةَ أنساهُمْ زَلاتِهِمْ حتى لا يَذْكُروها[3] أبداً، لأنَّ ذِكْرَ زَلاتِهِمْ[4] يُنَغِّصُ عليهِمْ لَذّاتِهِم وتَنَعُّمَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قيلَ: الكريمُ الحَسَنُ. وجائزٌ أنْ يكونَ سَمّاهُ كريماً لأنَّ مَنْ نالَهُ [لَهُ][5] كَرَمٌ وشَرَفٌ كقولِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ يَحتَمِلُ حقيقةَ سَعْيِهِمْ في آياتِهِ بما ذَكَرَ كقولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] ذَكَرَ مُرورَهُمْ عليها وإعراضَهُمْ[6] عنها؛ فهو سَعْيٌ.

وجائزٌ على التمثيلِ، أي يَعْمَلونَ عَمَلَ مَنْ أعجَزَ الآياتِ للجحودِ لها والرَّدِّ والعِنادِ. والمُعْجِزُ هو المسابِقُ [كقولِهِ][7]: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١] أي مُسابِقينَ فائِتينَ، أي لا تُعْجِزونني، ولا [تَفوتونني].

وقولُهُ تعالى][8]: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرِّجْزُ العذابُ الأليمُ، أي مؤلِمٌ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: المُعاجِزُ الهاربُ؛ يَهْرُبُ كي يُعْجِزَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذينَ أُوتوا العِلْمَ هُمُ المؤمنونَ، مؤمنو أهلِ الكتابِ الذينَ أُوتوا العِلْمَ عِلْمَ التوراةِ والإنجيلِ وغيرِهما. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَعْلَمُ الذينَ أُوتوا مَنافِعَ تلكَ الكتبِ أنَّ ما أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ، هو الحَقُّ؛ الذينَ[9] أُوتوا العِلْمَ بتلكَ الكتبِ [يَجِدونَ بَعْثَهُ][10] وصِفَتَهُ فيها، يَعْلَمونَ أنهُ الحقُّ مِن ربِّكَ. لكنَّ بعضَهُمْ عانَدوا، ولم يؤمنوا بهِ، وبعضُهُمْ قد آمَنوا بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ هُمْ أصحابُ محمدٍ ﷺ أيِ الذينَ أُوتوا مَنافِعَ ما أُنزِلَ إليكَ، هُمْ يَعلَمونَ أنهُ هو الحقُّ مِن ربِّكَ. وأمّا مَنْ لم يُؤْتَ مَنافِعَ العِلْمِ فلا يَعْلَمُ ذلكَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: ويَعْلَمُ الذينَ أُوتوا العِلْمَ مِن قَبْلُ الذي أُنزِلَ إليكَ هو الحَقُّ؛ يَعْني القرآنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ قولُهُ: يَهْدي يَحتَمِلُ: يَدْعو، ويَحتَمِلُ: يَهْدي أي يُبَيِّنُ لهمْ صِراطَ العَزيزِ الحَميدِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ كانَ بعضُهُمْ يقولُ لِبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قولُهُ: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ يَحتَمِلُ أنْ قالوا: النبيُّ يقولُ: إذا تَفَرَّقَتْ جوارِحُكُمْ وأعضاؤكُمْ تكونونَ[11] خَلْقاً جديداً.

---

(١) في الأصل وم: أظهر وفشى. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: تذكرون. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: لربهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والإعراض. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: تفوتون عني. (٩) أدرج قبلها في الأصل: جميعاً، وفي م: بأجمعهم جميعاً. (١٠) في الأصل وم: لما يجدون نعته. (١١) في الأصل وم: تكونوا.

جنة السنة

فإنْ كانَ على هذا فهو، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ مِنْ أهلِ الدهرِ ذلكَ القولُ، لأنهمْ يقولونَ بِقِدَمِ العالَمِ، ولا يقولونَ بِفَنائِهِ، لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا فرقتَيْنِ: فرقةٌ تذهَبُ مَذهبَ أهلِ الدهرِ، وفرقةٌ يقولونَ بِحَدَثِ العالمِ، ويُقِرّونَ بَفنائِهِ، لكنهمْ يُنكِرونَ إحياءَهُ بَعْدَ الفَناءِ.

فإنْ كانَ مِنْ هؤلاءِ فيكونُ قولُهُ: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي إذا ذهَبَتْ أجسادُكُمْ[1]، وفَنِيَتِ اللحومُ والعِظامُ، وكُنتُمْ رَماداً ورُفاتاً ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي تكونونَ خَلْقاً جديداً. ويُخَرَّجُ ذلك على أحدِ وجهَيْنِ:

إمّا على اسْتِبْعادِ ذلكَ في أوهامِهِمْ وعقولِهِمْ، أي لا يكونُ ذلكَ، وإمّا[2] على التَّعَجُّبِ [والاسْتِهْزاءِ أنْ كيفَ][3] يكونُ ذلكَ؟ [وأنهُ لا يكونُ، فقالوا عندَ ذلكَ كما أَخْبَرَ عنهمْ.

الآية ٨ بقولِهِ][4]: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يقولونَ: أفترَى محمدٌ على اللهِ كذِبًا أمْ بِهِ جنونٌ؟ إذْ لم نَسْمَعْ ذلكَ مِنْ أحدٍ، ولا رَأينا ذلكَ أنهُ كانَ ما ذَكَرَ.

فرَدَّ اللهُ ذلكَ عليهِمْ، وقالَ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بالبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ هُمُ المُفْتَرونَ على اللهِ، هُمْ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ جزاءَ قولِهِمْ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يقولُ: بل هُمْ في ضلالٍ بعيدٍ. الضلالُ البعيدُ كأنهُ هو الذي لا يُرْجِعُ إلى الهُدَى أبداً.

فتكونُ الآيةُ في قولِهِمْ: عَلِمَ اللهُ أنهمْ يَخْتِمونَ على الضلالِ، ولا يُؤمِنونَ أبداً، فيكونُ في ذلكَ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾ وقولَهُ[5] ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ونَحْوَهُ أنهُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: /٤٣٤ ـ أ/ قد رَأَوا على الخَبَرِ. والثاني: على الأَمْرِ أنِ انْظُروا إلى ما بَيْنَ أيديهِمْ وما خَلْفَهُمْ مِنَ السماءِ والأرضِ.

ثم يقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ: حيثما قَدِمَ الإنسانُ رَأَى بَيْنَ يَدَيهِ مِنَ السماءِ مِثْلَ الذي[6] يَرَى خَلْفَهُ. وكذلكَ الأرضُ.

وقَتادةُ يقولُ: لِيَنْظُروا كيفَ أحاطَتْ بهِمُ السماءُ والأرضُ، وهما واحدٌ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خَسَفْنا بِمَنْ قَبْلَهُمْ ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً مِنَ السماءِ كما أنْزَلْنا[8] على مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ بالتكذيبِ والعِنادِ. يَذْكُرُ هذا على إثْرِ قولِهِمْ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي لو نَظَروا إلى ما بَيْنَ أيديهِمْ وما خَلْفَهُمْ مِنَ السماءِ والأرضِ لَعَرَفوا أنهُ رسولُ اللهِ وأنهُ صادقٌ وأنَّ ما يقولُهُ: إنهُ بَعْثٌ بَعْدَ الموتِ، وإنَّ العذابَ يَنْزِلُ بقولِهِ لا عنْ جُنونٍ، ولكنْ عنْ عِلْمٍ وعَقْلٍ ومَعْرِفَةٍ؛ لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ السماءِ على ما أنْشَأَ مِنْ سَعَتِها وغِلَظِها وشِدَّتِها، وكذلكَ الأرضُ، قَدَرَ على البَعْثِ وخَسْفِ مَنْ يَشاءُ أنْ يَخْسِفَ وإسقاطِ السماءِ على مَنْ يَشاءُ أنْ يُسْقِطَ، أو يقولُ: لو نَظَروا لَعَرَفوا أنهُ لم يُنْشِئْ ما ذَكَرَ مِنَ السماءِ والأرضِ عَبَثاً باطلاً، ولكنْ أنْشَأهُما على الحِكْمَةِ. وإنما يصيرُ إنشاؤُهما حكمةً بالبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ ومَصيرُهُمْ إليهِ. وأمّا لِلْفَناءِ خاصةً فلا يكونُ حكمةً، واللهُ أعلَمُ ما أرادَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ المُنيبُ: قيلَ: هو المُطيعُ للهِ، وقيلَ: هو المُقْبِلُ على أمرِ اللهِ. والمُنيبُ، كأنهُ هو المؤمنُ لأنهُ هو المُصَدِّقُ بالآياتِ [فإذا كانَ المؤمنُ، هو المُصَدِّقُ بالآياتِ][9]، فيكونُ، هو المُنْتَفِعُ بها [فتكونُ الآيةُ [لهُ][10] وأمّا المُكَذِّبُ فلا يَنْتَفِعُ بها][11] فلا تكونُ الآيةُ لهُ في الحقيقةِ.

---

(١) من م، في الأصل: أجسادهم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: أن يكون، في م: أن كيف. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فقال عند ذلك. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في م: السماء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنزل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من م. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي عِلْماً كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَضْلًا﴾ أي نُبُوَّةً. وقال بعضُهُمْ الفضلُ، هو المُلْكُ الذي آتاهُ اللهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الفَضْلِ أنهُ آتاهُ، هو ما ذَكَرَ على إثْرِهِ مِنْ تَسْخيرِ الجبالِ والطيرِ والتسبيحِ معهُ وإلانَةِ الحديدِ لهُ بلا نارٍ ولا شيءٍ حتى اتَّخَذَ منهُ ما شاءَ أنْ يَتَّخِذَ مِنَ الدُّروعِ[1] وآلاتِ الحَرْبِ، وقد آتى اللهُ داوودَ مِنَ الفَضْلِ ما لو تَكَلَّفْنا عَدَّهُ وإحصاءَهُ ما قَدَرْنا عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ قيلَ: سَبِّحي معهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ مَنْ نَصَبَ الطيرَ جَعَلَها مُسَخَّرَةً لهُ، كأنهُ قالَ: سَخَّرْنا لهُ الطيرَ، ومَنْ رَفَعَها جَعَلَهُ على النداءِ: يا طيرُ[2] أوِّبي مَعَهُ، أي سَبِّحي معهُ.

ثم اخْتُلِفَ في تَسْبيحِ الجبالِ والطيرِ: قالَ بعضُهُمْ: تسبيحُ خِلْقَةٍ لا تَسْبيحُ قولٍ ونُطْقٍ لِما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ شيءٍ الشهادةَ لهُ بالوَحْدانيةِ والألُوهيَّةِ.

لكنْ ذَكَرَ ههنا: أنْ سَبِّحي معهُ. ولو كانَ تَسْبيحَ خِلْقَةٍ لم يكُنْ لِذِكْرِ التسبيحِ مع داوودَ فائدةٌ لأنَّ تَسْبيحَ الخِلْقَةِ، يكونُ كانَ معهُ داوودُ، أو لم يكُنْ.

ولكنْ جائزٌ أنْ يَجْعَلَ اللهُ تعالى في سِرِّيَّةِ[3] الجبالِ مِنَ التسبيحِ ما يَفْهَمُ منها داوودُ، ولم يَفْهَمْ ذلكَ غيرُهُ على ما ذَكَرْنا في قيلِ النملةِ لسائرِ النملِ حينَ[4]: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ الآية [النمل: ١٨] جَعَلَ اللهُ تعالى في سِرِّيَّةِ النَّمْلِ مَعْنَىً، ألقى ذلك في مَسامِعِ سُليمانَ، فَفَهِمَ منها ذلكَ، ولم يُلْقِ[5] ذلكَ في مَسامِعِ غَيرِهِ مِنَ الجنودِ.

فَعَلَى ذلكَ تَسْبيحُ الجبالِ والطيرِ، و اللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ جَعَلَ لهُ آيةً لِنُبُوَّتِهِ لمّا ألانَ الحديدَ بلا نارٍ ولا سَبَبٍ يُلَيِّنُهُ حتى كانَ يَعْمَلُ منهُ ما شاءَ، ولم يَجْعَلْ في وُسْعِ أحدٍ مِنَ الخلائقِ سِواهُ اسْتِعمالَ الحديدِ إلّا بالنارِ وأسبابٍ أُخَرَ ليكونَ لهُ في ذلكَ آيةً.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وقُلنا لهُ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: السابغاتُ هي][6] الدُّروعُ. وقالَ بعضُهُمْ: هي الواسِعاتُ، وقيلَ: هي الطِّوالُ. فكأنهُ أمَرَهُ[7] أنْ يَتَّخِذَ مِنَ الدُّروعِ ما يُؤْخَذُ مِنَ الرأسِ إلى القدمِ ما يَصْلُحُ لِحربِ العدوِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانتِ الدُّروعُ قَبْلَ ذلكَ صفائحَ مَضْروبَةً، فَسَرَدَ نَبِيُّ اللهِ حَلَقَها بَعْضَها إلى بعضٍ. والسَّرْدُ المَساميرُ والحَلَقُ. يقولُ[8]: قَدِّرِ المَساميرَ في الحَلَقِ: لا تُدِقَّ المَساميرَ، وتُوَسِّعَ[9] الحَلَقَ، فَتَسَلْسَلَ، ولا تُضَيِّقِ الحَلَقَ، وتُعَظِّمِ المَساميرَ، فَتَقْصَمَ، وتَكْسَرَ، ولكنْ سَوِّها[10] لِتكونَ أحْكَمَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي في النَّسْجِ[11]، أي لا تَجْعَلِ المساميرَ دِقاقاً، فَتُغْلَقَ، ولا غِلاظاً، فَتَكْسَرَ الحَلَقَ. ومنهُ قيلَ لِصانِعِ الدُّروعِ: سَرّادٌ وزَرّادٌ كما يُقالُ: عَرّاطٌ وسَرّادٌ وزَرّاطٌ. والسَّرْدُ الخَرْزُ أيضاً.

وقالَ غيرُهُما[12]: السَّرْدُ: الخَرْزُ[13] في طَبَقِ الحَلَقِ، وإدخالُ الحَلَقِ بَعْضَها في بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ في ما ذَكَرَ مِنْ عَمَلِ الدُّروعِ. ويَحْتَمِلُ في غَيرِهِ مِنَ الأعمالِ ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو على الوعيدِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: الدرع. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/١٤٦. (٣) في الأصل وم: سيرته. (٤) في الأصل وم: حيث قال. (٥) من م، في الأصل: يبق. (٦) من م، في الأصل: في. (٧) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: بقوله. (٩) في الأصل وم: وتوقع. (١٠) في الأصل وم: مستوياً. (١١) في الأصل وم: التسبيح. (١٢) في الأصل وم: غيره. (١٣) في الأصل وم: الخروق.

جنة السنة

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ كأنهُ يقولُ: سَخَّرْنا لِسليمانَ الريحَ كما ذَكَرْنا في آيةٍ أُخرى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي تجري بهِ الريحُ، في غُدُوِّها مَسيرةَ شَهرٍ، وفي رَواحِها مَسيرةُ شَهرٍ. وذلكَ آيةٌ لهُ؛ فمِثْلُها مِنَ الآيةِ كانَ لرسولِ اللهِ حين[1] أَسْرَى في ليلةٍ واحدةٍ مَسيرةَ شَهرَينِ ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وما كانَ لِسُليمانَ مِنَ المُلْكِ الأعوانُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ بنفسِهِ حين[2] قال: «نُصِرتُ بالرُّعْبِ مَسيرةَ شَهرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] أعظمُ ممّا كانَ لِسليمانَ، فلا يكونُ دونَهُ.

وما كانَ لأبيهِ داوودَ مِنْ إلانةِ الحديدِ لهُ بلا سَبَبٍ[3]، كانَ لمحمدٍ انْشِقاقُ القَمَرِ، وذلكَ أعظَمُ في الآيةِ مِمّا ذَكَروهُ.

وما كانَ لِموسى مِنِ انْفِجارِ العيونِ مِنَ الحَجَرِ، كانَ لمحمدٍ مِنْ أصابعِهِ حتى ذُكِرَ أنهمْ كانوا ألفاً وأربعَ مئةِ نَفَرٍ، شَرِبوا جميعاً منهُ، ورَوُوا. فذلكَ إنْ لم يكُنْ أعظَمَ مِنْ آيةِ [موسى][4] فلا يكونُ دونَهُ.

وما كانَ لِعيسى مِنْ إحياءِ اللهِ المَوتى وإجرائِهِ على يَدَيهِ، كانَ لمحمدٍ مُقابلَ ذلكَ كلامُ الشاةِ المَصْلِيَّةِ المَسمومةِ التي أخبَرَتْهُ أني مَسْمومَةٌ، فلا تَتَناوَلْ مني لمّا أرادَ التَّناوُلَ منها.

فآياتُهُ كثيرةٌ حتى لم يُذكَرْ لأحدٍ مِنَ الأنبياءِ والرسلِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، آيةٌ إلّا ويُمْكِنُ أنْ يُذكَرَ لمحمدٍ[5] مُقابلَ ذلكَ مِثْلُها أو أعظَمُ منها.

ثم يَحتَمِلُ مُلْكُ سُليمانَ وأبيهِ لئلا يَحسُدوا محمداً ﷺ على ما أعطاهُ اللهُ لهُ مِنَ المُلْكِ والشَّرَفِ لِيَعرِفوا أنهُ ليسَ هو المخصوصَ بالمُلْكِ والشَّرَفِ، ولكنْ لهُ في ذلكَ شُرَكاءُ وإخوانٌ، أعطاهُمُ اللهُ مِثْلَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ قيلَ: النحاسُ، وقيلَ: الصُّفْرُ. قيلَ: أُسيلَتْ لهُ [لِيَعْمَلَ بها][7] ما أَحَبَّ كما أُلينَ لأبيهِ الحديدُ، فَعَمِلَ[8] بهِ ما أَحَبَّ مِنَ الدُّروعِ وغيرِها بلا سَبَبٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ قيلَ: بأمرِ[9] ربِّهِ، أي سَخَّرَ اللهُ الجِنَّ لهُ، وأمَرَهُمْ بطاعتِهِ في جميعِ ما يأمُرُهُمْ، شاؤوا أو كَرِهوا.

ويُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على التَّسْخيرِ لهُ، فيكونُ الإذْنُ كِنايةً عنِ التَّسْخيرِ.

والثاني: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي بأمرِ ربِّهِ أي أمَرَهُمْ رَبُّهُمْ أنْ يُطيعوهُ في جميعِ ما يَأمُرُ، ويَنْهَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي عَصاهُ في ما أَمَرَهُ بهِ: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [إنما أضافَ][10] أَمْرَهُ إلى نفسِهِ [لأنَّ اللهَ تعالى أَمَرَهُمْ أنْ يَعْمَلوا لهُ إذا اسْتَعْمَلَهُمْ في ما اسْتَعْمَلَهُمْ][11] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَحاريبُ، هي المساجدُ. وقالَ بعضُهُمْ: هي القُصورُ. والمَحاريبُ هي أشرَفُ المَواضِعِ، ذَكَرَها كِنايةً[12] عنْ غيرِها، واللهُ أعلَمُ/ ٤٣٤ ـ ب/.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي التَّماثيلُ كهيئةِ تماثيلِ الرجالِ، يُصَوِّرونَ في المساجدِ تماثيلَ الرجالِ العُبّادِ والملائكةِ والنَّبِيِّينِ والرجالِ المُتواضِعينَ لكي إذا رآهُمُ الناسُ صُوَراً عَبَدوا عبادَتَهُمْ، وتَشَبَّهوا بهِمْ، أو تكونُ تماثيلَ لا رأسَ لها نَحْوَ الأواني والكيزانِ ونَحْوَها، أو تكونُ التماثيلُ يومئذٍ غيرَ مَنْهِيٍّ العملُ بها

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وما ذكر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: جميعا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يعمل به. (٨) في الأصل وم: فيعمل. (٩) من م، في الأصل: بإذن. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما ذكر يحتمل إضافة. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: لما يأمره ما يستعملهم، في م: لما يأمره ما يستعملهم في ما يستعملهم. (١٢) في الأصل وم: مكان.

جنة السنة

فأمّا اليومَ فقد نُهُوا عنِ العَمَلِ بها مَخافَةَ أنْ يَدْعُوَ ذلكَ إلى عبادةِ غيرِ اللهِ.

ولذلكَ غرَّ إبليسُ قوماً حتى عَبَدوا الأصنامَ. وإلا ليسَ مِنَ الأصنامِ ولا فيها ما يَغْتَرُّ بِهِ المرءُ على عبادتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي قِصاعٍ كالجَوابِ كهَيئةِ حياضِ الإبلِ حتى يَجْلُسَ على القَصْعَةِ الواحدةِ ألفٌ وزيادةٌ، يأكلونَ منها. وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي كالجَوْبَةِ مِنَ الأرضِ التي تُحْفَرُ للماءِ؛ يَصِفُ عِظَمَ ذلكَ. ففيهِ أنهمْ كانوا يَجتَمِعونَ في الأكلِ، لا يَنْفَرِدونَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي كانوا يَتَّخِذونَ لهُ قُدوراً عِظاماً في الجِبالِ التي لا تُحرَّكُ مِنْ مكانِها[1] ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي ثابتاتٍ كما ذَكَرَ. والجبالُ الرواسي أي الثوابتُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ هي القُدورُ العِظامُ التي أُفْرِغَتْ إفراغاً وأُكْفِئَتْ لِعِظَمِها إكفاءً، وهما واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي اعمَلُوا لِآلِ داوودَ شُكْراً لأنهُ ذُكِرَ أنهُ ليسَ مِنْ زمانٍ في ليلٍ ونهارٍ إلّا ويكونُ مِنْ آلِ داوودَ [صائمٌ بالنهارِ ومُصَلٍّ][2] بالليلِ أو كلامٌ نَحْوُهُ، فأُمِروا بالشُّكرِ لهمْ. وقالَ بعضُهُمْ: كأنهُ قالَ: اعْمَلُوا يا آلَ داوودَ شُكْراً لِما أعطيتُكُمْ مِنَ المُلْكِ والفضلِ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي قليلٌ مِنْ عبادِيَ المؤمنُ[3]، والشَّكورُ كِنايةٌ عنِ المؤمنِ على ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]. أي لكلِّ مؤمنٍ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي أذَبْنالهُ عَينَ النُّحاسِ. والشَّكورُ، هو الفَعولُ، والفَعولُ والفَعّالُ، هما[4] اللذانِ يُكثِرانِ الفِعْلَ. فكانَ الشَّكورُ، هو الذي يَعتَقِدُ الشُّكرَ لربِّهِ، ويَشْكُرُ معَ الاعتِقادِ والمُعامَلةِ جميعاً.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ دلَّ هذا على أنَّ موتَهُ كانَ بِحَضْرَةِ أهلِهِ ومَشْهَدٍ منهمْ حيثُ ذَكَرَ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.

ثم يذكُرُ بعضُ أهلِ التأويلِ انهُ سألَ ربَّهُ أنْ يُعْمِيَ على الجنِّ مَوتَهُ حتى يَعْلَمَهُ الإنسُ [﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن﴾][5] ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ أعني الجنَّ ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

وبعضُهُمْ يقولُ: سألَ ربَّهُ أنْ يُعْمِيَ على الجنِّ موتَهُ حتى يَفْرَغوا مِنْ بناءِ بيتِ المقدسِ، فَدَأبوا حَولاً يَعْمَلونَ. فلمّا فَرَغوا مِنْ بنائِهِ خرَّ سُليمانُ مَيْتاً مِنْ عصاهُ، وكانَ مُتَّكِئاً عليها.

وبعضُهُمْ يقولُ: لمّا حَضَرَهُ الموتُ، وكانَ على فِراشِهِ في البيتِ، لم يكُنْ على عصاهُ، فقالَ: لا تُخبِروا الجنَّ بِمَوتي حتى يَفْرَغوا مِنْ بناءِ بيتِ المقدسِ، وكانَ بَقِيَ عَمَلُ سنةٍ، فَفَعَلوا، فلمّا فَرَغوا مِنْ بنائِهِ خرَّ [عندَ][6] عَتَبَةِ البابِ. فعندَ ذلكَ عَلِمَتِ الجنُّ بِمَوتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ في حَرفِ ابْنِ مسعودٍ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ وهمْ يَدْأبونَ لهُ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ﴾ تَبَيَّنَ[7] للإنسِ أنَّ[8] الجنَّ لو كانوا يَعْلَمونَ الغَيبَ مالَبِثوا في العذابِ المُهينِ لأنهمْ كانوا يَدَّعونَ عِلْمَ الغيبِ، فابْتُلُوا بذلكَ.

ودلَّ قولُهُ تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ على أنهمْ كانوا لا يَدْنونَ منهُ لأحدِ وجهَيْنِ:

إمّا لِهَيبَتِهِ وسلطانِهِ على الناسِ، فإنْ كانَ ذلكَ طاعَ لهُ كلُّ شيءٍ، [وخضَعَ لهُ][9] الجنُّ والطيرُ والوَحْشُ وغيرُ ذلكَ، وإمّا لِما كانَ يُكثِرُ العبادةَ للهِ والخضوعَ لهُ بتوحيدِهِ[10]، ويَنْفَرِدُ بنفسِهِ، لم يَجتَرِئوا أنْ يَدْنُوا منهُ، وإلّا لو دَنَوا منهُ لَرأوا فيهِ آثارَ الموتِ[11] اللّهمَّ إلّا أنْ يكونَ ما ذَكَرَ بعضُهُمْ: أنهُ قالَ: لا تُخبِروا أحداً بِمَوتي، وأمَرَهُمْ أنْ يَكْتُموا موتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: مكان. (٢) في الأصل وم: صائما بالنهار ومصليا بالليل. (٣) في الأصل وم: المؤمنين. (٤) من م، في الأصل: هو. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تبينت. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٩) في الأصل وم: وخضعوا له من. (١٠) في الأصل وم: يتوحد. (١١) في الأصل وم: الموتى.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ قيلَ: المِنسَأةُ العَصا؛ سُمّي مِنسَأةَ مِنَ النَّساءِ لأنهُ كانَ بها يُؤَخِّر ما أرادَ تأخيرَهُ، وبها يدفعُ ما أرادَ دَفْعَهُ.

ثم في إمساكِهِ العَصا أحَدُ وجهَينِ: إمّا لِضعفِهِ في نفسِهِ، كانَ يَتَقَوّى بها في أمورِ ربِّهِ، وإمّا يُمْسِكُها لِخُضوعِهِ إلى ربِّهِ وطاعتِهِ لهُ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ الأنبياءَ ﷺ كانوا لا يَشْغَلُهُمُ المُلْكُ وفَضْلُ الدنيا ولا الحاجةُ ولا الفَقْرُ عنِ القيامِ بأمرِ اللهِ وتبليغِ الرسالةِ إلى الناسِ، وهما شاغِلانِ لِغيرِهِمْ.

وهُمْ كانوا فريقَينِ: [فريقٌ][(1)] قد وَسَّعَ عليهِمُ الدنيا نَحْوُ سليمانَ وإبراهيمَ وغيرُهُما، وفريقٌ، قد اشتَدَّتْ بهِمُ الحاجةُ والفَقْرُ، وكِلاهُما مانِعانِ شاغِلانِ عنِ القِيامِ بأمورِ اللهِ وتَبليغِ الرسالةِ، لِيُعْلَمَ أنهمْ [ما أخذو][(2)] مِنَ الدنيا ما أخذوا للدنيا، ولكنْ أخذوهُ[(3)] لِلْخَلْقِ، وللهِ قاموا [في ما قاموا][(4)]. لِذلكَ [لم يَشْغَلْهُمْ ذلكَ][(5)] عنِ القيامِ بِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ودلَّ قولُهُ: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنهُ كانَ يأمُرُهُمْ، ويَسْتَعْمِلُهُمْ في أمورٍ شاقَّةٍ وأعمالٍ صعبةٍ حينَ[(6)] ذَكَرَ لَبْثَهُمْ في ذلكَ لَبْثاً في العذابِ المُهينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ تَحْتَمِلُ الآيةُ التي ذَكَرَ لهمْ في مساكنِهِمُ الجَنَّتَينِ اللَّتَينِ ذَكَرَهُما:

إحداهُما: عَنِ اليَمينِ، والأُخرى عنِ الشمالِ. ويكونُ لهمْ فيهما عِبْرَةٌ، فَتَحْمِلُهُمْ على الشكرِ لربِّهِمْ عليهما والحَمْدِ لهُ والثناءِ في تلكَ النِّعَمِ، أو تُذَكِّرُهُمْ قُدْرةَ خالقِهِمْ وسُلطانَهُ وهَيبَتَهُ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الخوفِ مِنَ العَواقِبِ والعِقابِ على خِلافِهِ ورجاءِ الثوابِ على طاعتِهِ، فلم يَتَذَكَّروا.

ويَحْتَمِلُ[(7)] أنْ تكونَ الآيةُ التي ذَكَرَ لهمْ في تبديلِ الجَنَّتَينِ اللَّتَينِ كانَ لهمْ فيهما كلُّ سَعَةٍ وخِصْبٍ وكلُّ ألوانِ الفواكِهِ والجواهِرِ في غيرِ مُؤْنَةٍ تَلْحَقُهُمْ، لأنهُ قالَ في غيرِ آيةٍ[(8)] مِنَ القرآنِ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] فأخبَرَ ههنا لهمْ أنَّ لهمْ في تبديلِ جَنَّتَيهِمْ جَنَّتَينِ آيةً، لو اعتَبَروا، واتَّعَظوا، [لَما وَقَعَتْ][(9)] لهمُ الحاجةُ إلى النظرِ في آياتِ مَنْ تَقَدَّمَ منهمْ، بلِ العِبْرةُ في ذلكَ لهمْ أكثَرُ، لأنهمْ عايَنوا هذا على ما عايَنوا مِنْ أنواعِ النِّعَمِ، ثم غُيِّرَ ذلكَ، وبُدِّلَ عليهمْ. ومَنْ[(10)] تَقَدَّمَ منهمْ إنما يَعْرِفونَ ذلكَ عن خَبَرٍ يَبْلُغُهُمْ لأنَّ أصلَهُمْ قد هَلَكَ. وهذا على المُشاهدةِ والمُعاينةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قيلَ: عنْ يَمينِ الوادي وشمالِهِ. ويَحْتَمِلُ عن يَمينِ الطريقِ وشِمالِهِ، فيكونُ عن يَمينِهِمْ وشمالِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ كأنهُ قالَتْ لهمُ الرسلُ: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ إذ ذَكَرَ أنهُ بَعَثَ فيهمْ كذا كذا رسولاً. ثم وَصَفَ بلدةَ سَبَإٍ أنها طَيِّبَةٌ حينَ[(11)] قالَ: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾: يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ طِيبِها سَعَتَها وكَثْرَةَ رِيعِها ومِياهِها وألوانَ ثِمارِها وفَواكِهِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي إنَّ ربَّكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ في ما رَزَقَكُمْ، وأنْعَمَ عليكُمْ ربٌّ غفورٌ لِذنوبِكُمْ، أو يُقالُ: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي سَتورٌ، يَسْتُرُ عليكُمْ ذُنوبَكُمْ، ولا يَفْضَحُكُمْ، إذا صَدَّقْتُموهُ، وأطَعْتُموهُ، وشَكَرْتُمْ نِعَمَهُ.

ذُكِرَ أنَّ المرأةَ منهمْ كانَتْ، تَحْمِلُ/ ٤٣٥ ـ أ/ المِكْتَلَ على رأسِها، والمِغْزَلَ بيدِها، فتدخُلُ البستانَ، فَيَمْتَلِئُ مِكْتَلُها مِنْ ألوانِ الفواكِهِ والثمارِ مِنْ غَيرِ أن تَمَسَّ شيئاً بِيَدِها لِكَثْرَةِ رِيعِها ونُزُلِها. واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لما يأخذوا. (٣) في الأصل وم: أخذوا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: آي. (١٠) في الأصل وم: فلا تقع. (١١) في الأصل وم: وما. (١١) في الأصل وم: حيث.

ثم ذِكْرُ سَبَبِ تبديلِ الجنّتين اللّتينِ كانَتا لهمْ وبما كانَ التبديلُ:

الآية ١٦ هو ما قالَ: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ أهلُ سَبَإٍ إذا أمْطَروا يأتيهِمُ السيلُ مِنْ مَسيرَةِ شهرٍ أياما[1] كثيرةً، فَعَمَدُوا، فَسَدُّوا العَرِمَ، وهو الوادي ما بينَ الجنّتينِ، بالصَّخْرِ[2] والقِيرِ، وجَعَلوا عليهِ الأبوابَ. فلمّا عَصَوا ربَّهُمْ، فأعْرَضوا عنهُ، وكفَروا نِعَمَهُ، سَلَّطَ اللهُ تعالى [عليهِمْ][3] على ذلكَ السَّدِّ الذي بَنَوْا الفارةَ، فَنَقَبَتِ العَرِمَ فَغَشِيَ الماءُ أرضَهُمْ، فَعَقَرَ أشجارَهُمْ، وأدَّ أنعامَهُمْ، ودَفَنَ مَجارِيَهُمْ، وذهبَ بجنّتِهِمْ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: العَرِمُ هو المُسَنَّياتُ، واحِدتُها[4] عِرَمَةٌ، فذهبَ السيلُ الذي أرسَلَ عليهمْ بالمُسَنَّياتِ، فَيَبِسَتْ جنّاتُهُمْ، وأبْدَلَ لهمْ مكانَ الثمارِ والأعنابِ ما ذَكَرَ مِنَ الخَمْطِ والأثْلِ والسِّدْرِ بقولِهِ[5]: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾: الأُكُلُ هو قليلُ الثَّمرِ، والخَمْطُ الأراكُ.

وقالَ بعضُهُمْ: [الخَمْطُ][6] شَجَرُ الغَضاةِ، وهي شجرةٌ ذاتُ شوكٍ، والأثْلُ قيلَ: هو شبيهٌ بالطَّرْفاءِ إلّا أنهُ أعظمُ منهُ، والسِّدْرُ، هو مَعْروفٌ عندَهُمْ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ قريباً مِنْ ذلكَ؛ قالَ: الأُكُلُ الحَمْلُ، والخَمْطُ عندي السِّدْرُ وحَمْلُهُ، وقيلَ[7]: الخَمْطَةُ، وتقولُ: هذا شَجَرٌ، لهُ خَمْطَةٌ، أي ريحٌ طَيِّبَةٌ، والخَمْطُ أنْ تأخُذَ شيئاً مِنْ هنا وثَمَّةَ، وتَخْلِطَهُ، والأثْلُ شَجَرٌ أيضاً، لا حَمْلَ فيهِ.

والزَّجّاجُ يقولُ: الأثْلُ هو الثَّمرةُ التي فيها المَرارةُ [تَذهبُ تلكَ المَرارةُ][8] بطَعْمِها، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ نِعَمَهُ، ولم يَشْكُروا ربَّهُمْ عليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ للهِ في نِعَمِهِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ قيلَ: متواصِلَةً بعضُها ببعضٍ مِنْ أرضِهِمْ إلى الشامِ، على كلِّ ميلٍ قريةٌ وسوقٌ، وكُلُّ شيءٍ فيها [﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾][9] ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ مِنَ الجوعِ والعطشِ والسِّباعِ وكلِّ ما يُخافُ منهُ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ القُرى الظاهرةِ كانَتْ لهمْ مع الجِنانِ التي ذَكَرْنا بَدْءاً، فيكونَ هذا موصولاً بالأوّلِ، ولكنْ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنهُ لمّا غَيَّرَ عليهِمْ ذلكَ، وأبْدَلَ، ضاقَ بهِمُ الأمرُ، فَمَشَوا إلى رسلِهِمْ، فقالوا: ادْعُوا ربَّكُمْ فَلْيَرُدَّ علينا ما ذهَبَ عنا، ونُعْطيكُمْ ميثاقاً أنْ نَعْبُدَ اللهَ، ولا نُشْرِكَ بهِ شيئاً.

فَدَعَوْهُ، فَرَدَّ اللهُ عليهِمْ، وجَعَلَ لهمْ ما ذَكَرَ مِنْ قُرًى ظاهرةٍ، فذَكَّرَهُمُ الرسلُ ما وَعَدوا ربَّهُمْ، فأبَوا، فَغَيَّرَ ذلكَ.

فَسَبَأٌ: ذُكِرَ أنَّ رجلاً سألَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ ﷺ أخْبِرْني عن سَبَإٍ أجبَلٌ هو أمْ أرضٌ؟ قالَ: فقالَ لهُ: لم يكُنْ جبلاً ولا أرضاً، ولكنْ كانَ رجلاً مِنَ العربِ، وَلَدَ عشرَ قبائلَ فأمّا سِتٌّ فَتَيامَنوا، وأمّا أربعٌ فَتَشاءَموا.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ سبأٌ رجلاً، اسْمُهُ سَبَأٌ، وسَبَأُهُمُ الذينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ في سورةِ النملِ بقولِهِ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] وقالَ بعضُهُمْ: هو اسْمُ قَرْيَةٍ.

وفي قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ دلالةُ خَلْقِ الأفعالِ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ بينَهُمْ وبينَ القُرى المباركةِ قُرًى ظاهرةً. والقُرى ما اتَّخَذَها أهلُها.

ثم أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ ذلكَ، والجَعْلُ منهُ خَلْقٌ. دلَّ أنهُ خَلَقَ أفعالَ العبادِ. وأخْبَرَ أنهُ قَدَّرَ السيرَ فيها، والسيرُ، هو فِعْلُ العبادِ، والتقديرُ، هو الخَلْقُ أيضاً. دلَّ أنهُ خَلَقَ سَيْرَهُمْ، وخَلَقَ اتِّخاذَهُمُ القُرى. وذلكَ على المعتزلةِ لإنكارِهِمْ خَلْقَ أفعالِ العبادِ

---

(١) في الأصل وم: أيام. (٢) في الأصل وم: بالصخرة. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: واحدها. (٥) في الأصل وم: حيث قال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قال. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: قُرًى متواصِلَةً بعضُها ببعضٍ؛ يسيرون مِنْ قريةٍ إلى قريةٍ، وينْزلونَ فيها مِنْ غيرِ أنْ تقَعَ الحاجةُ، أو يَلْحقَهُمْ مؤْنةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ نِعَمُها بيّنَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ يَحْتمِلُ قولُهُ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي قدَّرْنا فيها السَّيْرَ لِتَسيروا فيها، أو على الأمْرِ، أي قدَّرْنا فيها السَّيْرَ، وقُلْنا لهمْ سيروا في ما أنْعَمَ اللهُ عليكُمْ، وتقلَّبوا فيها لياليَ وأياماً آمِنينَ مِنَ الجوعِ والعَدُوِّ وكلِّ آفةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي جَعَلْنا ما بينَ القَرْيَةِ والقَرْيَةِ مِقْداراً واحداً.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فيهِ لُغاتٌ مِنْ خمسةِ أوجهٍ:

أحَدُها: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾. [والثاني][1]: بَعِّدْ؛ وكلاهما[2] على الدُّعاءِ والسُّؤالِ. والثالثُ: بَعُدَ [والرابع][3]: بُعِدَ. قالَ أبو معاذٍ: ولولا تغييرُ الكتابةِ لكانَ يجوزُ بُوعِدَ [والخامسُ: باعَدَ][4].

ومَنْ قرأَ: ربَّنا باعَدَ فَعَلى الخَبَرِ، وكذلكَ بَعُدَ، ومَنْ قرأ: بَعُدَ بينَ أسفارِنا يُخَرَّجُ على الشكايةِ عمّا بَعُدَ مِنْ أسفارِهِم

فأمّا على السُّؤالِ والدُّعاءِ فهو، واللهُ أعْلَمُ، لأنهمْ سَئِموا، ومَلّوا لِكثْرَةِ ما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ، ورَفَعَ عنهمُ المُؤَنَ، وطالَ مُقامُهُمْ فيها، سَألوا ربَّهُمْ أنْ يُحَوِّلَ ذلكَ عنهمْ سَفَهاً منهُمْ وجَهْلاً. وكانوا كقومِ موسى حينَ أنْزَلَ عليهِمُ المَنَّ والسَّلْوى، ورَفَعَ عنهمُ المَؤُنَةَ، سَئِموا، ومَلّوا. في ذلكَ قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ [البقرة: ٦١] وما ذكَروا. فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ.

ومَنْ قرأَ: ربَّنا بَعُدَ بَينَ أسفارِنا فَعَلى الشكايةِ [شَكوا إلى ربِّهِمْ][5] لِما ذَهَبَ عنهمُ السَّعَةُ والخِصْبُ، وأصابَهُمُ الجَهْدُ والمَؤُنَةُ.

وأمّا قولُهُ: باعَدَ فَعَلى الخَبَرِ. فكأنَّهُ [كانَ فيهمْ ذلكَ][6] كلُّهُ: فيهِمْ مَنْ سَألَ تحويلَهُ، وفيهِمْ مَنْ شَكا إذا زالَ ذلكَ، وتَحَوَّلَ، وفيهِمْ مَنْ أخْبَرَ بزوالِهِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ موسى لِفرعونَ حينَ[7]: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لا أنهُ كانَ أحدَهما. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ وما يُشْبِهُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أهْلَكْناهُمْ كلَّ إهلاكٍ حتى صاروا عِظَةً وعِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ يقولُ[8]: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ الناسِ على حقيقةِ الحديثِ، يَتَحدَّثونَ بأمْرِهِمْ وشأنِهِمْ [وكذلكَ قولُهُ][9]: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فَرَّقْناهُمْ كلَّ تَفريقٍ أي في كلِّ أوجُهِ التفريقِ حتى وَقَعَ بعضُهُمْ بمكةَ، وبعضُهُمْ بالمدينةِ، وبعضُهُمْ بالشامِ، وبعضُهُمْ بالبَحْرَينِ وعُمانَ، ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يَحْتمِلُ أنْ يكونَ الصَّبّارُ والشَّكورُ، هو المؤمنُ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ في ذلكَ لَعِبَراً وعِظاتٍ لِكلِّ مؤمنٍ أو آياتٍ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاءِ والمَحارِمِ ﴿شَكُورٍ﴾ لِنِعَمِ اللهِ.

ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: في الاعْتِقادِ لهُ.

والثاني: في المعاملةِ؛ يَعْتَقِدُ الصبرَ لِرَبِّهِ على جميعِ أوامِرِهِ ونواهيهِ والشكرَ لهُ على جميعِ نعَمائِهِ، والمعاملةُ: أنْ يَصْبِرَ على ذلكَ، ويَشْكُرَ لهُ في نِعَمِهِ.

---

(١) في الأصل وم: و، أدرج في معجم القراءات القرآنية ثمانية وجوه، انظر ذلك ج٥/ ١٥٤ و١٥٥ و١٥٦. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: شكا على ربه. (٦) في الأصل وم: كانت فيهم وذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ اختُلِفَ في ظَنِّهِ:

قالَ بعضُهُم: ظَنَّ فيهِم ظَنّاً، فوافَقَ ظَنُّهُ فيهِم حينَ قالَ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] مَنْ عَصَمْتَ مني﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٨ و١١٩] إلى آخرِ ما ذَكَرَ. فقد صَدَّقَ ما ظَنَّ فيهِم.

وقالَ بعضُهُم: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ وذلكَ أنَّ إبليسَ خُلِقَ مِنْ نارِ السَّمومِ، وخُلِقَ آدمُ مِنْ طينٍ، ثم قالَ إبليسُ: إنَّ النارَ سَتَغْلِبُ الطينَ؛ فَمِنْ ثَمَّةَ صَدَّقَ ظَنَّهُ / ٤٣٥ ـ ب/ فقالَ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ و٤٠ وص: ٨٢ و٨٣]

[قالَ اللهُ تعالى][1]: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ ثم استثنى عبادَهُ المُخلَصينَ، فقالَ: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني عبادَهُ المُخلَصينَ، فإنهم لم يَتَّبِعوهُ؛ [هُمُ الذينَ قالَ فيهِم][2]: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] وقالَ قائلونَ: ﴿مِّنَ﴾ ههنا صِلَةٌ، كأنهُ قالَ: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذينَ هم في الحقيقةِ. فأمّا مَنْ كانَ عندَكُم مِنَ المؤمنينَ في الظاهرِ فقدِ اتَّبعوهُ، لأنهُ لا كلُّ مؤمنٍ عندَنا هو في الحقيقةِ مؤمنٌ. [ويَحتَمِلُ][3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ في ما دعاهُم إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: واللهِ ما ضَرَبَهُم بالسيفِ، ولا طَعَنَهُم بالرمحِ، ولا أكرَهَهُم على شيءٍ، وما كانَ منهُ إلا غُرورٌ أو أمانيُّ وَوَسوَسةٌ، دعاهُم إليها، فأجابوهُ.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي حُجَّةٍ؛ ليسَ لهُ حُجَّةٌ عليهِم، أي لم يُمَكَّنْ [لهم][4] مِنَ الحُجَّةِ، ولكنْ إنما مَكَّنَ لهمُ الوساوِسَ والتَّمويهاتِ. ثم جَعَلَ اللهُ للمؤمنينَ مُقابِلَ ذلكَ حُجَجاً، يدفَعونَ بها شُبَهَهُ وتَمويهاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: لِيَعْلَمَ كائناً ما قد عَلِمَهُ غائباً عنهم.

[والثاني: لِيَعْلَمَ حقَّهُ مِنَ الخَلْقِ وَوَجَهَ ما قد عَلِمَهُ غائباً عنهم. فإنْ كانَ لهُ وجودٌ][5] عَلِمَ وجودَ ذلكَ منهم، وما [ليسَ لهُ وجودٌ][6] يَعْلَمُهُ موجوداً، والتَّبَعِيَّةُ تقعُ على [وَجْهِ][7] إعلامٍ لا على آخَرَ. بل هو عالمٌ في الأحوالِ كلِّها][8].

والثالثُ: يُكَنِّي بالعِلْمِ معلومَهُ، أي ليكونَ المَعلومُ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المُوقَنُ بهِ. وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ مِنَ الإيمانِ والشِّركِ، وغيرُهُ مِنَ الأعمالِ ﴿حَفِيظٌ﴾ عالمٌ بِهِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهم[9] آلهةٌ: الملائكةُ والأصنامُ ومَنْ عَبَدوهُم مِنْ دونِهِ، هل يَمْلِكونَ لكم شيئاً مِنْ دَفْعِ ضُرٍّ أو جَرِّ نَفْعٍ؟ فيقولونَ[10]: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولا أصغَرَ مِنْ ذلكَ ولا أكبَرَ، فكيفَ تُسَمّونَهُم آلهةً؟

أو يقولُ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهم[11] آلهةٌ، فَلْيَكْشِفوا عنكُمُ الضُّرَّ الذي نَزَلَ بكم مِنَ الجوعِ وغيرِهِ كقولِهِ: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

فالجوابُ لذلكَ أنْ يقولوا: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ولا أصغَرَ ولا أكبَرَ. فكيفَ تَذكُرونَ ما ذُكِرَ؟

---

(١) في الأصل وم: يقول الله. (٢) في الأصل وم: الذين قال. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في نسخة الحرم المكي: الوجود. (٦) في نسخة الحرم المكي: لهُ الوجودُ. (٧) ساقطة من نسخة الحرم المكي. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أنه. (١٠) في الأصل وم: فيقول. (١١) في الأصل وم: أنه.

جنة السنة

يَذكُرُ، واللهُ أعلَمُ، سَفَهَهُمْ وفَرَطَهُمْ في عِبادتِهِمْ مَنْ يَعلَمونَ أنهُ لا يَضُرُّ، ولا يَنفَعُ، وتَسميتِهِمْ إيّاها آلهةً.

[وقولُهُ تعالى](١): ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ يَعني في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وحِفظِهِما. مَنْ يَعبُدونَ مِنْ دونِهِ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

[وقولُهُ تعالى](٢) ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي مِنْ عَونٍ في ذلكَ. فكيفَ سَمَّيتُموهُمْ(٣) آلهةً وشُركاءَ في العبادةِ؟

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لا يَملِكُ أحدٌ الشفاعةَ لأحدٍ إلّا لِمَنْ أَذِنَ لهُ لِلشفاعةِ لهُ. فهو لم يأذَنْ بالشَّفاعةِ لأحدٍ مِنَ الكَفَرةِ، فذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ولِقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] أو يَذكُرُ أنَّ مَنْ تَرجونَ منهمُ الشفاعةَ بالمَحلِّ الذي ذَكَرَ، هُمْ مِنَ المحلِّ الذي ذَكَرَهُمْ مِنَ الخوفِ والفَزَعِ، فكيفَ ترجون شَفاعتَهُمْ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [وقولِهِ](٤): ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فكيفَ يَملِكونَ الشفاعةَ لكمْ؟ أو نَحْوَهُ مِنَ الكلامِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ليسَ لهذا الحَرفِ في ذا الموضِعِ صِلَةٌ، يُوصَلُ بها، ولا تَقدَّمَ بعطفٍ عليهِ، وعلى الابتِداءِ لا يَستقيمُ.

فبعضُ أهلِ التأويلِ، يقولُ: كانَ بينَ عيسى ومحمدٍ فَترةُ زمانٍ طويلٍ لا [يجيءُ فيها](٥) الرسلُ، فلما بَعَثَ اللهُ محمداً، وكلَّمَ جبريلَ بالرسالةِ إلى محمدٍ، سَمِعَ الملائكةُ ذلكَ، فَظنّوا أنَّ(٦) الساعةَ قامَتْ، فَصَعِقوا ممّا سَمِعوا. فلما انحَدَرَ جبريلَ جَعَلَ كلَّما يَمُرُّ [قريباً](٧) منهمْ جَلّى عنهمْ، وكَشَفَ. فقالَ بعضُهُمْ لبعضٍ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي الوحيَ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ الوحيُ إذا نَزَلَ مِنَ السماءِ نَزَلَ كأنهُ سِلسِلةٌ على صخرةٍ، قالَ: فَيَفزَعُ الملائكةُ بذلكَ، فَيَخِرّونَ سُجَّداً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قالَ: انجَلى عنْ قلوبِهِمُ [الفزَعُ](٨) ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قيلَ: جُلِّيَ، وكُشِفَ الغِطاءُ. قالَ الكسائيُّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ مُشتَقَّةٌ مِنَ الفزَعِ كما تقولُ: هَيبَةٌ في قلبِهِ، ورِقَّةٌ، وفَزَعٌ، وكلُّهُ(٩) واحدٌ.

ومَنْ قرأَ: فُرِّغَ بالراءِ، أي أُفرِغَ(١٠)، وتُرِكَ فارغاً، مِنَ الخوفِ والشُّغْلِ، وهي قراءةُ [ابْنِ مسعودٍ](١١).

قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ يقولُ: يُخبِرونَ بالأمرِ الذي جاؤوا بِهِ، ولا يقولونَ إلّا الحَقَّ، لا يَزيدونَ، ولا يَنقُصونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يَملِكونَ إنشاءَ ذَرَّةٍ في السمواتِ والأرضِ، وما لهمْ في إنشاءِ ما فيهما مِنْ شِرْكٍ، وما لهمْ في إنشاءِ ذلكَ مِنْ عَونٍ، فكيفَ تَعبُدونَهُمْ، وتُسَمّونَهُمْ آلهةً؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ ذلكَ الفَزَعُ منهمْ، وذلكَ القولُ منهمْ في القيامةِ؛ فَزِعوا لِقيامِها. وقد قُرِئَ: حتى إذا فَزَّعَ بنصبِ(١٢) الفاءِ، أي حتى إذا فَزَّعَ اللهُ، أي كَشَفَ اللهُ عن قلوبِهِمُ الفَزَعَ، وجَلّى ذلكَ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: سميتموها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل يجري، في م: يجري فيها. (٦) في الأصل وم: أنها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: كل. (١٠) في الأصل وم: أخرج. (١١) أدرج في غريب القرآن للسجستاني أنها قراءة الحسن وأيوب وغيرهما ولم يذكر أن ابن مسعود قد قرأها ص ٢٨٤. انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٥٩. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٥٨.

جنة السنة

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا في الظاهرِ، وإنْ كانَ اسْتِفهاماً فهو على التقريرِ والإيجابِ، لأنا قد ذَكَرْنا أنَّ كلَّ اسْتِفهامٍ كانَ مِنَ اللهِ فهو على التقريرِ والإيجابِ.

ثم لو كانَ ذلكَ مِنَ [أنْ][1] يكونَ منهُ الاسْتِفهامُ لَكانَ جوابُ قولِهِ[2]: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ قولَهُمْ[3]: اللهُ يَرْزُقُنا كقولِهِ: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقولِهِ[4]: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فيقولُ لهمْ: فإذا عَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ هو رازِقُكُمْ فكيفَ صَرَفْتُمْ عبادتَكُمْ عنهُ إلى مَنْ تَعْلَمونَهُ أنهُ لا يَمْلِكُ شيئاً مِنْ رِزْقِكُمْ؟ كقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ وحفصةَ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ قالوا اللهُ، قالَ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ﴾ مِنَ مَطَرٍ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ النَّباتَ. فإنْ أجابوكَ، فقالوا: اللهُ، وإلّا، فَقُلْ: اللهُ يَفْعَلُ ذلكَ لكمْ، فكيفَ تعبدونَ غيرَهُ؟ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ يقولُ ذلكَ رسولُ اللهِ لأهلِ مكةَ: إنّا لَعَلَى هُدًى، أو إنكمْ لَعَلَى هُدًى، أو إنّا وإيّاكمْ لَفي ضلالٍ مُبينٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: معناهُ: وإنّا لَعَلَى هُدًى، وإنكُمْ[5] لفي ضلالٍ مبينٍ. ولكنْ ليسَ هذا في ظاهِرِ هذا الكلامِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على تعريضِ الشَّتْمِ لهمْ بالضلالِ والكِنايةِ لذلكَ كما يقولُ الرجلُ لِآخَرَ في حديثٍ أو خَبَرٍ يجري بَيْنَهما: إنَّ أحَدَنا لَكاذبٌ في ذلكَ، أي أنتَ كاذبٌ في ذلكَ، لكنهُ تعريضٌ منهُ ذلكَ، ليسَ بِتَصْريحٍ.

وقالَ قتادةُ: هذا قولُ محمدٍ وأصحابِهِ لأهلِ الشِّرْكِ، واللهُ أعلَمُ: [ما][6] نحنُ وأنتمْ على أمرٍ واحدٍ، واللهِ إنَّ أحَدَ الفريقَينِ لَمُهْتَدٍ، والفريقَ الآخَرَ في ضلالٍ مُبينٍ؛ فأنتمْ تَعْلَمونَ أنّا على هُدًى لِما أقَمْنا مِنَ الدلائِلِ والحُجَجِ والبراهينِ على ذلكَ، وأنتمْ لا.

وقالَ بعضُهُمْ: قالَ ذلكَ لأنَّ كفارَ مكةَ قالوا للنبيِّ وأصحابِهِ: تعالَوا نَنْظُرْ في مَعايِشِنا / ٤٣٦ ـ أ/ مَنْ أفضلُ ديناً؟ أنحنُ أمْ أنتمْ؟ فَعَلَى ذلكَ نكونُ في الآخِرَةِ. فَرَدَّ اللهُ تعالى ذلكَ عليهمْ في قولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [الجاثية: ٢١].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال بعضُهُمْ: قالَ ذلكَ لأنهمْ كانوا يُعَيِّرونَ رسولَ اللهِ ﷺ [وأصحابَهُ][7] ويُوَبِّخونَهُمْ في طَعْنِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدوها وذِكْرِهُمْ إياها بالسوءِ وما يَدَّعونَ عليهِ مِنَ الافْتِراءِ بأنهُ رسولُ اللهِ، فيقولونَ لهمْ: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ نحنُ ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كقولِهِ في سورةِ هودٍ: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [الآية: ٣٥].

ويَحْتَمِلُ[8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ أي عمّا تَدَيَّنّا مِنَ الدينِ أو عمّا عَمِلْنا مِنَ الأعمالِ ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنتمْ أي عمّا تدينونَ مِنَ الدينِ كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وكقولِهِ: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وإنما يُقالُ هذا بعدَ ظُهورِ العِنادِ والمُكابَرَةِ. فأمّا عندَ الابْتِداءِ فلا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وصِلَةُ قولِهِ: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾.

كأنهمْ قالوا لرسولِ اللهِ وأصحابِهِ: إنا لَعَلَى هُدًى وأنتمْ على ضلالٍ مُبينٍ. فقالَ عندَ ذلكَ جواباً لهمْ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: قومه. (٣) في الأصل وم: يقولون. (٤) في الأصل وم: ثم قال. (٥) في الأصل وم: وإياكم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

رَبُّنَا﴾ أي يَجْمَعُ بينَنا [﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَنَا﴾][1] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مَنْ مِنّا على الهُدَى؟ ومَنْ مِنّا على الضَّلالِ؟ أنحنُ أمْ أنتم؟ ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي وهو الحاكمُ العَليمُ ما ظَهَرَ وما بَطَنَ حقيقةً.

والمُفاتَحَةُ، هي المُحاكَمَةُ؛ يُقالُ: هَلُمَّ حتى نُفاتِحَكَ إلى فلانٍ أي نُحاكِمَكَ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي يكشفُ كلَّ خَفِيٍّ منّا وكلَّ ستيرٍ وباطنٍ، فَيَجعَلُهُ ظاهراً بَينَنا لِيَظْهَرَ الذي هو على الحقِّ مِنَ الباطلِ، والهُدَى مِنَ الضلالِ ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي الكاشِفُ المُظْهِرُ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ يَعْلَمُ الظاهرَ والباطنَ جميعاً، والإعلانَ والإسرارَ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي أروني الذينَ ألحقتُمْ باللهِ شركاءَ في تَسمِيَتِكُمُ الأصنامَ آلهةً، أو ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ في العبادةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ للذينَ عَبَدوا الملائكةَ، وأشرَكوا فيها، كأنَّ فيهِ إضماراً؛ يقولُ: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ هل خَلَقوا شيئاً؟ أمْ هل رَزَقوا؟ أمْ هل أحيَوا؟ أمْ هل أماتوا؟ فإذا عَرَفْتُمْ أنهمْ لم يَخلُقوا، ولم يَرزُقوا، ولا يَقدِرونَ ذلكَ، وعَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ، وهو الرازقُ. فكيفَ أشرَكْتُمْ مَنْ لا يملكُ ذلكَ في أُلوهيَّتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ منهمْ مَنْ يقولُ: ﴿كَلَّا﴾ ردّاً على قولِهِمْ: ﴿شُرَكَآءَ﴾ أي ليسوا بشركاءَ ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ المُتفرِّدُ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو رَدٌّ على قولِهِ: [﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠ والأحقاف: ٤]][3] هل خَلَقوا شيئاً؟ أم هل رَزَقوا شيئاً؛ يقولونَ[4]: ﴿كَلَّا﴾ أي لم يَخلُقوا، ولم يَرزُقوا ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هو المُتفرِّدُ بذلكَ، واللهُ الموفقُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فُزِّعَ﴾ أي ذُهِبَ [وقالَ القُتَبِيُّ: فُزِّعَ خُفِّفَ][5].

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمدُ ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا﴾ بالجنةِ لِمَنِ اتَّبَعَكَ[6] ﴿وَنَذِيرًا﴾ لِمَنْ [خالَفَكَ، وعصاكَ][7].

وقولُهُ: ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ قال بعضُهُمْ: أي ما أرسَلْناكَ إلّا جامعاً للناسِ على الهُدَى داعياً إليهِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي ما أرسَلْناكَ إلّا إلى الناسِ جميعاً: إلى العَرَبِ والعَجَمِ وإلى الإنسِ والجنِّ، ليسَ كسائرِ الأنبياءِ؛ إنما أُرسِلُوا إلى قومٍ دونَ قومٍ وإلى بلدةٍ دونَ بلدةٍ.

وكذلكَ رُوِيَ عن نبيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أُعطِيتُ أربعاً لم يُعْطَهُنَّ نبيٌّ قبلي:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا «بُعِثْتُ إلى الناسِ جميعاً» عامَّةً «إلى الأحمرِ والأسودِ والعربِ والعَجَمِ.

والثاني: جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مَسْجِداً وطَهوراً.

[والثالثُ: نُصِرْتُ بالرعبِ][8] مسيرةَ شهرينَ.

[والرابعُ: أُحِلَّتْ ليَ][9] الغنائمُ» [بنحوه البخاري: ٣٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يُصدِّقونَ. ويَحتَمِلُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَنتَفِعونَ بما يَعلَمونَ[10] أو لا يَعلَمونَ حقيقةً لِما لم يَنظُروا إلى الحُجَجِ والآياتِ، وقد[11] مُكِّنَ لهمْ لو نَظَروا، وأُعلِموا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الاصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) من م، في الأصل: خفف. (٦) في الأصل وم: اتبعه. (٧) في الأصل وم: خالفه وعصاه. (٨) في الأصل وم: وأرعب لنا عدونا. (٩) في الأصل: وأحلت له، في م: وأحلت لي. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: وألا يعلمون. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا القولُ منهم إنما يقولونَ على الاستِهزاءِ والسخريةِ، ليسَ على الاسْتِرْشادِ، على أنهُ لا يكونُ ذلكَ، وأنهُ كَذِبٌ، كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] أخبَرَ أنَّ أولئكَ يَستَعجِلونَ بها لِتَركِهِمُ الإيمانَ بها استِهزاءً منهُم، والذينَ آمنوا خائفونَ منها لإيمانِهِمْ بها أنها كائنةٌ، لا محالةَ.

لكنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لم يُجِبْهُمْ ما يُجابُ المُستَهزِئُ، ولكنْ أجابَهُمْ ما يُجابُ المُسْتَرْشِدُ بلطفِهِ وكرمِهِ وجودِهِ.

الآية ٣٠ حينَ[1] قالَ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي لكم ميعادُ الذي وَعَدَكُمْ محمدٌ أنهُ كائنٌ، لا محالةَ، وهو يومٌ: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ وهكذا الواجبُ على كلِّ مَسؤولٍ، إذا كانَ سائلُهُ يَسألُهُ سؤالَ استِهزاءٍ أنْ يُجيبَهُ جوابَ ما يُجابُ المُسْتَرْشِدُ لا ما يُجابُ المُستَهزِئُ، ولا يَدَعَ علمَهُ وحكمتَهُ لِسَفَهِ السفيهِ ولا لِهُزْءِ الهازئِ، ولكنهُ يحفظُ حكمتَهُ وعلمَهُ وعقلَهُ، ولا يَشْتَغِلُ بجوابِ مِثلِهِ، وباللهِ العِصمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إنْ كانَ على طَلَبِ التأخيرِ وطَلَبِ التقديمِ ففيهِ تَعْيِيرٌ وتوبيخٌ لهمْ؛ كأنهُ يقولُ: ليسَ لكمْ مِنَ الخَطَرِ والقَدْرِ والمَنْزِلَةِ ما يُؤخِّرُ لكمْ ما[2] تَسْتأخِرونَ أو يُقَدِّمُ لكمْ ما تَسْتَقْدِمونَ. وإنْ كانَ على تحقيقِ تَرْكِ التأخيرِ وتَرْكِ التقديمِ فكأنهُ[3] يقولُ: مِيعادُكُمْ يومَ لا تَمْلِكونَ تأخيرَهُ إذا جاءَ ولا تقديمَهُ عن وقتِهِ ولا دَفْعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كأنَّ هذا القولَ منهم، واللهُ أعلَمُ، خَرَجَ عن مُخاصَمَةٍ وَقَعَتْ بينَهمْ وبينَ المؤمنينَ في شأنِ القرآنِ أو في شأنِ محمدٍ، فَتحاكموا على الكتابِ على اتِّفاقٍ منهم على ما في كُتُبِهِمْ. فلما خَرَجَ ذلكَ على مُوافقةِ قولِ المؤمنينَ ومُخالفةِ قولِ أولئكَ قالوا عندَ ذلكَ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وإلّا على الابْتِداءِ مِنْ غَيرِ تَنازُعٍ وخصومةٍ، كانَ بينَهُمْ، غيرُ مُستَقيمٍ.

ويذكُرُ بعضُ أهلِ التأويلِ [عن][4] ابنِ عباسٍ وغيرِهِ أنَّ رَهطاً بَعَثَتْهُمْ قريشٌ إلى المدينةِ إلى رؤساءِ اليهودِ [والنصارى][5] يَسألونَهُمْ عن محمدٍ وبعثِهِ، فأخبَروهُمْ أنهُ كائنٌ وأنهُ مَبعوثٌ. فلما رَجَعوا إليهِمْ، فأخبَروهُمْ أنهمْ قد عَرَفوهُ، وهو عندَهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ، فعندَ ذلكَ قالوا ما قالوا.

ثم كأنهُ اشْتَدَّ ذلكَ على رسولِ اللهِ ﷺ وثَقُلَ عليهِ، فقالَ لهُ على التَّعْزِيَةِ والتَّصبيرِ على ذلكَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي [مَحبوسونَ عندَ ربِّهِمْ][6] على محاسَبَةِ ما كانَ منهمْ مِنَ العِنادِ والمُكابَرَةِ والتكذيبِ، أي لو رأيتَ[7] ما فيهِمْ مِنَ الذُّلِّ والهَوانِ والخُضوعِ لَرَحِمْتَهُمْ، ولأَخَذَتْكَ الرأفةُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي يَلومُ بعضُهُمْ بعضاً، فيقولونَ ما ذَكَرَ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾ أي السَّفَلَةُ والأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ أي القادةِ منهم والرؤساءِ ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ في ما صَرَفْتُمونا عنْ دينِ اللهِ، وصَدَدْتُمونا عنهُ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بهِ تابعينَ لهُ، لأنهمْ كانوا يَصْدُرونَ لآرائِهِمْ، ويَقْبَلونَ قولَهُمْ لِما هُمْ كانوا أهلَ شَرَفٍ / ٤٣٦ ـ ب/ ومعرفةٍ، والسَّفَلَةُ لا.

فيقولونَ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ نَتَّبِعُ رأيَ أنفسِنا، فنؤمِنُ بهِ. لكنْ قُلْتُمْ لنا: أنهُ كذبٌ، وإنهُ افْتَراهُ، وإنهُ سِحرٌ، فنحنُ صَدَّقْناكُمْ في ذلكَ.

الآية ٣٢ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لا. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: رأيتم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

قولُهُ: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ﴾ هو على التقرير، أي نحنُ لم نَصُدَّكُم، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ استِفهاماً، ولكن أنتم بأنفسِكُمْ تَرَكْتُمُ اتِّباعَهُ. [يُخبِرُ اللهُ ﷻ أنَّ الرؤساءَ][1] كانوا يقولونَ للأتباعِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] أخبَرُوهم[2] أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُم. ثم أخبَرُوهُمْ أنكمْ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] ونحنُ بَشَرٌ، فكيفَ اتَّبَعْتُمونا، وأطَعْتُمونا؟ ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ في اتِّباعِكُم ما اتَّبَعْتُموهُ.

[ويَحتَمِلُ][3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [وجهَينِ:

أحَدُهما][4]: أي لولا تَلْبِيسُكُمْ علينا وتَمويهُكُمْ أنَّ الرسلَ كَذَبَةٌ، وأنهمْ سَحَرَةٌ في ما يقولونَ، ويَدْعُونَ، وأنهمْ يَفْتَرونَ على اللهِ، وإلّا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

والثاني: لولا مَنْعُكُمْ إيانا عنِ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ مِنْ أمورِهِمْ والتأمُّلِ في الحُجَجِ والآياتِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

هذا قولُ الأتباعِ للرؤساءِ.

ثم أجابَ لهمُ الرؤساءُ، فقالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ يقولونَ، واللهُ أعلَمُ: إنْ صَدَدْناكُمْ، ومَنَعْناكُمْ عنِ اتِّباعِهِمْ ظاهِراً وعَلانيَةً [فما مَنَعَكُمْ أنْ تَتَّبِعوهُ][5] سِرّاً مِنْ غيرِ أنْ نَطَّلِعَ، ونَعْلَمَ نحنُ بذلكَ. أوَ ما ذَكَرْنا مِنْ قولِنا[6]: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؟ [المؤمنون: ٣٤] وقد عَرَفْتُمْ أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فأطَعْتُمونا، وتركْتُمْ طاعةَ الرسلِ لأنهمْ بَشَرٌ.

الآية ٣٣ فأجابَ لهمُ الأتباعُ، فقالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [بل بِمَكْرِكُمْ إيّانا وقولِكُمْ في الليلِ والنهارِ][7]: إنهمْ كَذَبَةٌ، سَحَرَةٌ، وخِداعِكُمْ إيانا أنهمْ[8] بَشَرٌ مِثْلُكُمْ تَرَكْنا اتِّباعَهُمْ؛ إذ تأمُرونَنا أنْ نَكْفُرَ باللهِ [ونَجْعَلَ لهُ أنداداً، [ويَحتَمِلُ أنْ قالوا][9]: بل مَكْرُكُمْ في الليلِ والنهارِ؛ إذْ تأمُرونَنا أنْ نَكْفُرَ باللهِ][10] أي مِنْ تَخويفِكُمْ إيّانا وهَيبَتِكُمْ لنا مِنَ الأخذِ على البَغْتَةِ والغَفْلَةِ تَرَكْنا اتِّباعَهُمْ في السِّرِّ، إذا ظَهَرَ، وبَلَغَكُمُ الخَبَرُ بهِ.

هذهِ مُناظَراتُ أهلِ الكُفرِ في ما بينَهم يومئذٍ، ورَدُّ بعضِهِمْ على بعضٍ، ولَعْنُ بعضِهِمْ بعضاً، يَذْكُرُها في الدنيا لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ ولئلا يقولوا يومئذٍ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فإنْ قيلَ: إنهمْ كانوا لا يؤمنونَ بهذا القرآنِ ولا بالبعثِ فكيفَ يُلْزِمُهُمْ ذلكَ، وهم لا يَستَمِعونَ لهُ؟

قيلَ: إنهمْ مُكِّنوا مِنَ الاستِماعِ والنَّظَرِ فيهِ، فَلَزِمَتْهُمُ[11] الحُجَّةُ، وإنْ لم يَستَمِعوا لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أسَرَّ الرؤساءُ الندامةَ بِصَرْفِ الأتباعِ وصَرْفِ أنفسِهِمْ عن دينِ اللهِ واتِّباعِ الرسلِ ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾. وقيلَ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ الأتباعُ والرؤساءُ جميعاً وقولُهُ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ مِنَ[12] الإسرارِ والإخفاءِ؛ أخفَى بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أخفَى الكَفَرَةُ الندامةَ عنِ المؤمنينَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أظْهَروا، وهو [مِنَ][13] الأضدادِ، ويُقالُ: أسْرَرْتُ الشيءَ أخفَيْتُهُ، وأظْهَرْتُهُ. وأمّا غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ فإنهمْ قالوا: هو مِنَ الإخفاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الأغلالُ جماعةُ الغُلِّ، وهو ما يُجْعَلُ في اليدِ، ثم تُشَدُّ اليدُ إلى العُنُقِ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يُجْزَونَ إلّا جزاءَ عَمَلِهِمْ في الدنيا.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ المُتَكَبِّرُ. وقالَ آخَرونَ: المُتْرَفُ هو الذي يجمعُ أصنافَ المالِ مع العِنادِ والتَّكَبُّرِ. وقالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفونَ الرؤساءُ منهمْ.

---

(١) في الأصل: لأن الرؤساء عنهم، في م: لأن الرؤساء منهم. (٢) في الأصل وم: اخبروا. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فمتى منعناكم. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: وأنهم. (٩) من نسخة الحرم المكي، في م: أو يقولون. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فيلزمهم. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

وهذا يَنقُضُ على المُعتَزِلةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ لا يَفعَلُ إلّا ما هو أصلَحُ[1] في الدينِ. ولا شَكَّ أنَّ هؤلاءِ المُترَفينَ إنما قالوا ما قالوا، أو فَعَلوا ما فَعَلوا لِسَعَتِهِمْ وبَسْطِهِمْ في المالِ. فلو لم يكُنْ ذلكَ لهمْ ما فَعَلوا ذلكَ. دلَّ أنَّ المَنعَ لهمْ عن ذلكَ أصلَحُ لهمْ مِنَ البَسْطِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ المُترَفُ ما ذُكِرَ؛ قالَ بعضُهُمْ: المُترَفُ المُتَجبِّرُ. وقالَ بعضُهُمْ: المُترَفُ الذي يَجمَعُ معَ الكِبْرِ والعِنادِ الأموالَ. وقالَ بعضُهُمْ: مُترَفوها أغنياؤها، وكلُّهُ واحدٌ. وفيهِ رَدُّ قولِ المُعتَزِلةِ في الأصلَحِ على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ يُخَرَّجُ قولُهُمْ ذلكَ لِوَجهَينِ:

أحدُهُما: قالوا ذلكَ: إنا أُوتينا في الدنيا الأموالَ والأولادَ، فلا يُعَذِّبُنا في الآخِرَةِ، على ما يَزْعُمونَ.

[والثاني: قالوا][2] ذلكَ: إنكَ لو كُنتَ بُعِثْتَ رسولاً على ما تَزعُمُ فنحنُ أولَى بالرسالةِ منكَ لأنّا أكثَرُ أموالاً وأولاداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ هذا أيضاً يَنقُضُ على المُعتَزِلةِ ومَنْ يقولُ بأنَّ اللهَ لا يَبسُطُ على أحدٍ الرِّزقَ إذا لم يكُنْ في البَسْطِ إصلاحٌ لهُ وخيرٌ، وكذلكَ لا يَقْتُرُ على أحدٍ ذلكَ إذا لم يكُنْ في التَّقْتيرِ خيرٌ.

وعندنا ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ وإنْ لم يكُنْ خيراً لهُ، وكذلكَ يَقْتُرُ على مَنْ يَشاءُ، وإنْ كانَ شرّاً لهُ على ما نَطَقَ ظاهرُ الآيةِ، ليسَ عليهِ حِفْظُ الأصلَحِ ولا الخيرُ، واللهُ اعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يَنتَفِعون بِعِلمِهِمْ، أو لا يَعْلَمونَ حقيقةً؛ لمّا تَرَكوا النَّظَرَ والتَّفَكُّرَ في أسبابِ العلمِ [لم يَعْلَموا][3] فلا يُعْذَرونَ لِما مُكِّنَ لهمُ العِلْمَ بهِ.

وقولُهُمْ: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قالوا ذلكَ لِما لم يَرَوا في الحكمةِ أنْ يُحسِنَ أحدٌ إلى عدوِّهِ، والسَّعَةُ هي مِنَ الفضلِ والإحسانِ، ثم رَأَوا لأنفسِهِمْ ذلكَ؟، ظَنّوا أنهمْ أولياءُ اللهِ، وأنَّ الرسلَ حينَ[4] ضُيِّقَتْ عليهِمُ الدنيا إنما ضُيِّقَتْ عليهمُ الدنيا لأنهمْ ليسوا بأولياءِ اللهِ، لذلكَ قالوا ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وهذا القولُ منهمْ لإنكارِهِمُ البعثَ فلو[5] كانوا مُقِرِّينَ بهِ لَكانوا لا يقولونَ ذلكَ، ويَعْلَمونَ أنَّ السَّعَةَ في الدنيا والضِّيقَ فيها بِحَقِّ الإمْتِحانِ. وأمّا إذا كانَ بعثٌ ودارٌ أُخرَى لِلْجَزاءِ ففي الحكمةِ أنْ يُجزَى الوَليُّ جزاءَ الولايةِ والمُسيءُ مِنَ العَدُوِّ جَزاءَ الإساءةِ والعَداوةِ. وأمّا الدارُ التي هي دارُ امْتِحانٍ وابْتِلاءٍ فيجوزُ ذلكَ بحقِّ الإمْتِحانِ في الحكمةِ. ولذلكَ خَرَجَ الجوابُ لهمْ [في

الآية ٣٦ قولِهِ][6]: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أي يَبْسُطُ الرزقَ لا لِفَضلٍ وقَدْرٍ لهُ ونِعْمةٍ عندَهُ، ويَقْتُرُ على مَنْ يَشاءُ لا لِعَداوةٍ وجِنايةٍ كانَتْ منهُ إليهِ، بحقِّ الإمْتِحانِ.

ألا تَرَى أنهُ قد وَسَّعَ على بعضِ المؤمنينَ، وضَيَّقَ على بعضٍ[7]؟ فَظَهَرَ أنَّ التوسيعَ لأهلِ السَّعَةِ ليسَ لِفَضلٍ لهمْ وقَدْرٍ أو نعمةٍ، كانَتْ لهمْ عندَهُ، حتى يكونَ ذلكَ منهُ مُكافأةً لذلكَ، وكذلكَ التَّضْييقُ لأهلِ الضيقِ لم يكُنْ لِجِنايةٍ أو إساءةٍ كانَتْ منهمْ إليهِ لِما ذَكَروا، ولكنْ لِما ذَكَرْنا.

ألا تَرَى أنهمْ إذا رأوا أنهُ وَسَّعَ على بعضٍ، وقَتَّرَ على بعضٍ، هلّا عَلِموا أنهُ يملكُ أنْ يُوَسِّعَ على مَنْ قَتَرَ عليهِ [ويَقْتُرَ على مَنْ وَسَّعَ عليهِ][8]؟

فيكونُ في ذلكَ ترغيبٌ في التوحيدِ واختيارٌ لهُ وتَحْذيرٌ عَنِ الكُفْرِ وعَمّا هُمْ فيهِ؛ إذْ يملكُ التقتيرَ على مَنْ وَسَّعَ عليهِ،

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: له. (٢) في الأصل وم: أو أن يقولوا. (٣) في الأصل وم: ليعلموا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: فلان. (٦) في الأصل وم: حيث قال. (٧) أدرج في الأصل وم بعدها: أولئك. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والتوسيعَ على مَنْ قَتّرَ عليهِ، فَيُبْطِلُ هذا كلُّهُ قولَهُمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ الآيةِ، ويُبيِّنُ أنَّ التقتيرَ والتوسيعَ، ليسَ لِفَضْلٍ ولا قَدْرٍ ولا نِعْمةٍ ولا جِنايةٍ ولا ذَنْبٍ، ولكنْ لِلامْتِحانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ ولكنْ ما ذَكَرَ حينَ قالَ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي ذلكَ /٤٣٧ ـ أ/ يُقرِّبُ عندَنا زُلْفَى: مَنْ آمَنَ[1] بهِ، سَواءٌ أكانَ لهُ مالٌ وَولَدٌ أم لم يكُنْ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾.

مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ بِتَفْضيلِ الغِنَى على الفَقْرِ بهذهِ الآيةِ؛ يقولُ: أخْبَرَ أنَّ لهمْ جزاءَ الضِّعْفِ إذا آمنوا، وعَمِلوا الصالحاتِ بالأموالِ التي أعطاهُمْ. وأمّا الفقيرُ فليسَ لهُ ذلكَ، إذْ ليسَ لهُ عندَهُ ما يُضاعِفُ لهُ، أو كلامٌ يُشْبِهُ هذا.

وأمّا عندَنا فإنَّ قولَهُ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لهمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بالصالحاتِ والحَسَناتِ التي عَمِلوها لأنَّ اللهَ وَعَدَ أنْ يَجْزيَ كلَّ مَنْ عَمِلَ بحَسَنَةٍ أو صالحةٍ عَشْرَ أمثالِها، وذلكَ جزاءُ الضِّعْفِ لهُ، وذلكَ للغنيِّ والفقيرِ جميعاً.

وذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ التكَلُّمَ في فَضْلِ الغِنَى على الفَقْرِ أو الفَقْرِ على الغِنَى كلامٌ، لا مَعْنَى لهُ، لأنهما شيئانِ، لا صُنْعَ لأحدٍ في ذلكَ، يُمْتَحَنانِ في تلكَ الأحوالِ [بأمْرَينِ][2]:

أحدُهُما: بالشكْرِ، والآخَرُ بالصَّبْرِ.

فَمَنْ وَفَى بِما امْتُحِنَ هو في تلكَ الحالِ، فهو أفضلُ مِمَّنْ لم يَفِ بذلكَ، وبهِ يَسْتوجِبُ [الفَضْلَ إنِ اسْتوجَبَ][3] فأمّا بنفسِ تلكَ الحالِ فلا.

ولكنْ مَنْ يُفَضِّلُ الغِنَى على الفَقْرِ يَذْهبُ إلى أنَّ اللهَ تعالى سَمّى الضِّيقَ بَلاءً وشَرّاً وشِدَّةً في غَيرِ موضعٍ مِنَ القرآنِ، وسَمّى السَّعَةَ خَيراً ونِعْمَةً وحَسَنَةً في غَيرِ موضعٍ؛ ولا شَكَّ أنَّ الخَيرَ والحَسَنَةَ أفضلُ وأحمدُ مِنَ الشَّرِّ والسَّيِّئةِ. فلو لم يكنْ هذا شَرّاً وسَيِّئةً في الحقيقةِ لم يُسَمِّهِ بذلكَ، وهذا خيراً لم يُسَمِّهِ.

ومَنْ يقولُ بِتَفْضيلِ الفَقْرِ يَذْهبُ إلى أنَّ الغنيَّ إذا أعْطَى، وبَذَلَ، إنمّا اسْتوجَبَ ذلكَ الفَضْلَ لِما يُفْقِرُ نَفْسَهُ، ويَحوجُ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ مِنْ [سالبِ النعمةِ وخِزْيِهِ][4]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي يَسْعَونَ في آياتِنا سَعْيَ مَنْ يكونُ مُعاجزاً، لا سَعْيَ مَنْ لا يكونُ، وهو ما قالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤] أي يَعْمَلونَ عَمَلَ مَنْ يَحْسَبُ أنهُ يَسْبِقُ، وهو كقولِهِ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ مُخادَعَةِ اللهِ لِعِلْمِهِ أنهُ لا يُخادَعُ. ولكنْ كأنهُ قالَ: يَعْمَلونَ عَمَلَ مَنْ يُخادِعُ اللهَ لا عَمَلَ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ لا يُخادَعُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ إنما كانَ سَعْيُهُمْ في الآياتِ: في آياتِ الوَحْدانيّةِ، أو آياتِ الرسالةِ، لِيُسْقِطوا عن أنفسِهِمْ مَؤُنَةَ ذلكَ وقبولَها والعَمَلَ بها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

قالَ القُتَبيُّ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لم يُرِدْ [ما ذَكَرَ][5] أهلُ النَّظَرِ، واللهُ أعلَمُ: أنهمْ يُجازَوْنَ عنِ الواحدِ بواحدٍ مِثْلِهِ [لا اثْنَينِ. وكيفَ يكونُ هذا، واللهُ يقولُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] [ويقولُ][6]: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾؟ [النمل: ٨٩ والقصص: ٨٤] ولكنهُ أرادَ ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أنَّ ما هو مِثْلُهُ] يُضَمُّ إلى مِثْلِ ما بَلَغَ، وكأنَّ الضِّعْفَ الزيادةُ[7]، أي لهمْ جَزاءُ الزيادةِ.

ويجوزُ أنْ يُجْعَلَ الضِّعْفُ في مَعْنَى جميعٍ، أي جَزاءِ الأضعافِ، ونَحْوِهِ.

---

(١) في الأصل وم: أتى. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: صاحبه النعمه ويخزيه. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: في ما يرى. (٦) في م: و. (٧) في الأصل وم: الزائدة.

[قالَ أبو عَوسَجةَ][1]: ﴿فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا﴾ [ص: ٦١]. أي [اجْعَلْ مِثْلَهُ وخَبْطاً مُضاعفاً، أي][2]ضُمَّ إليهِ خَبْطاً آخَرَ [قَدْرَهُ. وقولُهُ][3] ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ هي الدُّنُوُّ؛ يُقالُ: تَزَلَّفْتُ إليهِ، ومنهُ أزْلَفْتُهُ أدْنيتُهُ.

وقالَ القُتَبيُّ: أي قُرْبَةً ومَنزِلَةً عندَنا، وهو واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ ذَكَرَ الأموالَ والأولادَ، ثم ذَكَرَ ﴿بِٱلَّتِي﴾ بالتأنيثِ. قالَ بعضُهُمْ: هذا مِنْ مَقاديمِ الكلامِ، كأنهُ قالَ: وما أموالُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عندَنا زُلْفى، ولا أولادُكُمْ ولا ذلكَ، لِغَلَبِ فِعْلِ الآدَمِيِّينَ فِعْلَ الأموالِ.

قالَ أبو مُعاذٍ: يَجوزُ أنْ نَجمَعَ الأموالَ والأولادَ، ثم نقولُ: التي لأنكَ تقولُ: ذَهبَتِ الأموالُ، وهَلَكَتِ الأولادُ كقولِهِ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ [الحجرات: ١٤] [وقولِهِ][4]: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ [إبراهيم: ١٠] ونَحْوُهُ كثيرٌ في القرآنِ. فَعَلى ذلكَ عندَ الجمعِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ في الدنيا والآخرةِ، لأنَّ ما أنفَقَ العبدُ لو كانَ اللهُ أخلَفَهُ لهُ في الدنيا ما أحصى أحدُكُمْ مالَهُ، ولا يَجِدُ مكاناً يَجْعَلُهُ فيهِ، أو كلامٌ هذا مَعْناهُ.

وقالَ آخَرُ: كلُّ نَفَقةٍ كانَتْ في طاعةِ اللهِ فإنَّ اللهَ يُخلِفُها في الدنيا، أو يَدَّخِرُها لِوَلِيِّهِ في الآخرةِ.

ومجاهدٌ يقولُ: إذا أصابَ أحدُكُمْ مالاً فَلْيَقْصِدْ في النفقةِ، ولا يَتأوَّلَنَّ قولَهُ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ فإنَّ الرزقَ مَقسومٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ إذا كانتِ [النفقةُ][5] في غَيرِ إسرافٍ ولا تَقْتيرٍ.

وهذهِ التأويلاتُ: ، كلُّها ضعيفةٌ، لأنَّ الآيةَ، كانَتْ، واللهُ أعلَمُ، في مَنْعِ أولئكَ الإنفاقَ مَخافَةَ الفقرِ وخَشْيَةَ الإنفاقِ، لأنها نزلَتْ على إثْرِ قولِ الرجلِ: إنَّ ربَّكُمْ يَبسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ، ويَقْتُرُ لهُ، يقولُ، واللهُ أعلَمُ: تَعلَمونَ أنَّ اللهَ، هو الباسطُ لكُمْ والمُوَسِّعُ عليكُمْ وعلى الخَلْقِ الرزقَ، وهو المُقْتِرُ أيضاً على مَنْ شاءَ التقتيرَ عليهِ. فإذا كُنْتُمْ تَعلَمونَ انهُ، هو الفاعلُ لذلكَ، فكيفَ تَمتَنِعونَ عنِ الإنفاقِ خَشْيَةَ الفقرِ؟ فهو القادرُ على البَسْطِ والخَلَفِ لِما أنفَقْتُمْ، وهو القادرُ على التقتيرِ مِنْ غَيرِ إنفاقٍ كانَ منكُمْ.

[ويَحتَمِلُ][6] أنْ يَذكُرَ هذا لِيَقْطَعوا أطماعَهُمْ عن الخَلَفِ مِنَ الناسِ والبذلِ لهمْ في ما يُنْفِقونَ على ما يُنْفِقُ الرجلُ مِنَ النفقةِ، فَيَطْمَعُ مِنَ الناسِ البِرَّ لهُ والمعروفَ مكافأةً لِما أنْفَقَ.

فيقولُ: اقْطَعوا الطمعَ مِنَ الناسِ في ما تُنْفِقونَ، فإنَّ اللهَ، هو المُخْلِفُ لذلكَ لا الناسُ.

وما يَحتَمِلُ ما قالَ ابنُ عباسٍ: إنهُ يُخلِفُ في الآخرةِ؛ إذْ لو أعطى لكلِّ رجلٍ، أنْفَقَ في الدنيا، خَلَفاً، ما أحصى أحَدُكُمْ مالَهُ، ولا [عَلِمَ][7] أينَ يَجعَلُهُ؟.

هذا هكذا: إذا كانَ الخَلَفُ مِنْ نوعِ ما أنْفَقَ وأعطى. فأمّا إذا جازَ أنْ يكونَ الخَلَفُ مِنْ نوعِ ما أنْفَقَ ومِنْ غَيرِ نوعِهِ مِنْ نحوِ ما يدفَعُ عنِ المَرْءِ وعنِ المُتَّصِلينَ بهِ مِنْ أنواعِ البلايا والشدائدِ، ويُعطيهِ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ مِنَ السلامةِ له في نفسِهِ ودينِهِ والصحةِ وغَيرِ ذلكَ ممّا لا يُحْصى. فذلكَ كلُّهُ بَدَلٌ وخَلَفٌ عمّا أنْفَقَ؛ وذلكَ انهُ إذا عَلِمَ في سابقِ عِلْمِهِ انهُ يُنْفِقُ جُعِلَ ذلكَ في الأصلِ خَلَفاً عمّا أنفَقَ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُويَ أنَّ «صِلَةَ الرحِمِ تزيدُ في العُمْرِ» [أحمد ١/ ١٤٣ وابن عساكر ٥/ ٢١٠] إنْ عُلِمَ انهُ يَصِلُ رحمَهُ زادَ في عُمْرِهِ في الأصلِ ما لو يَعْلَمُ انهُ لا يَصِلُ رحمَهُ لكانَ يَجعَلُ عُمْرَهُ دونَ ذلكَ: فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جعلت مثله وخبط مضاعف أي قد . (٣) في الأصل وم: قد قتلا قال.
(٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ورُوِيَ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ [أنهُ قالَ: قالَ][1] قالَ: رسولُ اللهِ ﷺ «كلُّ معروفٍ صَدَقَةٌ وما أنْفَقَ المرءُ على نفسِهِ وأهلِهِ، أو وَقَى بهِ عِرْضَهُ، فهو لهُ صدقةٌ. وكلُّ نفقةٍ أنفقَها المؤمنُ فَعَلَى اللهِ، خَلَفَها ضامنٌ، إلا نَفَقَةً في معصيةٍ أو نَفَقَةً في مَبْنانٍ» [الدارقطني ٢٨٧٢] أي لا يُحتاجُ إليه.

الآيتان ٤٠ و٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[2] جَمِيعًا﴾ الملائكةَ ومَنْ عَبَدَهُمْ ﴿ثُمَّ يَقُولُ[3] لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ إنهُ[4] قالَ لهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ليسَ يقولُ[5] للملائكةِ في ما خاطَبَهُمْ ربُّهُمْ لمّا خوطِبوا بقولِهِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ حينَ[6] ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ فجوابُهُمْ أنْ يقولوا: بَلَى، أو: لا.

فأمّا أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [وأنتَ أعلمُ][7] مِنّا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ جواباً لذلكَ. فلا يُحتَمِلُ إلّا أنْ يقولَ: إنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ ادَّعَوا على الملائكةِ الأمرَ لهمْ بالعِبادةِ إياهمْ دونَ اللهِ. فهنالكَ يَحتَمِلُ أنْ يقولَ: أهؤلاءِ عنْ أمرِكُمْ عَبَدوكُمْ؟

فعندَ ذلكَ ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ ونحنُ بُرَآءُ منهمْ، ما أمَرْناهُمْ بعِبادَتِنا، وأنت أعلَمُ مِنّا /٤٣٧ ـ ب/ ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ بل كانوا أطاعوا أمْرَ الجِنِّ والشياطينِ في ذلكَ، إذْ لو كُنّا أمَرْناهُمْ بذلكَ لم نَكُنْ أولياءَكَ، ولا كُنْتَ أنتَ وَلِيَّنا مِنْ دونِهِمْ.

وهذا كما يقولُ لِعيسى حينَ[8] ﴿قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد كانَ عَلِمَ ﷻ أنهُ لم يَقُلْ ذلكَ، ولكنْ كانَ أولئكَ ادَّعَوا عليهِ الأمرَ والقولَ لهمْ في ذلكَ، فَذَكَرَ ذلكَ لِعيسى تَعْييراً لهمْ وتوبيخاً على صَنيعِهِمْ وإظهاراً لِكَذِبِهِمْ في دَعْواهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ هُمْ كانوا لا يَقْصِدونَ عِبادةَ الجِنِّ، ولكنْ لِما بأمرِهِمْ كانوا يَعْبُدونَ ما يَعْبُدونَ؛ نَسَبَ العِبادةَ إليهمْ كقولِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] وهو كقولِ إبراهيمَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] وهمْ كانوا لا يَقْصِدونَ بِعِبادَتِهِمُ الشيطانَ، لكنهمْ لَمّا عَبَدوا مَنْ دونَهُ بأمرِ الشيطانِ نَسَبَ العبادةَ إليهِ كأنهمْ عَبَدوهُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا يَمْلِكونَ[9] يومَ القِيامةِ ما أَمَّلوا، أو طَمِعوا مِنْ عِبادَتِهِمْ لأولئكَ مِنَ التَّقريبِ لهمْ إلى اللهِ زُلْفَى والشفاعةِ لهمْ عندَهُ لِقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِهِمْ[10] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

يقولُ: لا يملكُ بعضُهُمْ[11] لبعضٍ ما أمَّلوا، أو طَمِعوا مِنْ عبادَتِهِمْ لأولئكَ ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [أي كُنْتُمْ تُكَذِّبونَ][12] الرسلَ بما أوعَدَكُمْ بها في الدنيا.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قد ذَكَرْنا الآياتِ والبَيِّناتِ في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يريدُ كلُّ رسولٍ أنْ يَصُدَّ قومَهُ عمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ. لكنَّ هذا القولَ مِنْ أولئكَ الرؤساءِ إغراءُ الأتباعِ على الرسلِ؛ يقولونَ: ألا تَرَوْنَ أنَّ واحداً قد خالَفَ الآباءَ في دينِهِمْ، ويريدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عن دينِ آبائكُمْ ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي ما يدعو محمدٌ إليهِ ليسَ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) و(٣) في الأصل وم: نحشرهم ... ثم نقول، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٦٥. (٤) في الأصل وم: لأنه. (٥) في الأصل وم: قول. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يملك. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: بعضكم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي لَمّا جاءَ الحَقُّ[1]، وهو القرآنُ[وما فيهِ مِنَ التوحيدِ والبيانِ][2] والإيضاحِ لهُ أنهُ الحقُّ، وأنهُ مِن عندِ اللهِ، وهو الآياتُ والبراهينُ التي جاءَت لهُ أنهُ حقٌّ، وأنهُ مِن عندِ اللهِ جاءَ لا أنهُ مُفترًى وإفكٌ وسِحرٌ [على][3] ما تَزعُمونَ. ولِما تَزعُمونَ. ولم يَزَلْ طَعنُ أولئكَ الكَفَرَةِ في الآياتِ والحُجَجِ بأنها سِحرٌ وأنها افتِراءٌ[4] يُلَبِّسونَ بذلك على أولئكَ الأتباعِ والسَّفَلَةِ، ويُمَوِّهونَ عليهِمْ، ويَفترونَ، لئلا يَتَّبِعوهُ، ويَستَسلِمونَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ [قولِهِ][5]: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

وقولُهُم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. يقولُ: واللهُ أعلَمُ: جواباً لقولِهِم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فتُخبِرُهُم أنَّ ما يقولُ محمدٌ إفكٌ مُفترًى، وما أرسَلْنا إليهِمْ أيضاً مِن قَبلِهِ رسولاً يُخبِرُهُمْ [أنَّ الكُتُبَ][6] كَذِبٌ مُفترًى، وظهورُ الكذبِ في القولِ أو الخَبَرِ إنما يكونُ بأحَدِ هذينِ الأمرَينِ: إمّا بكتابٍ أو نَبِيٍّ. وهمْ لا يُؤمِنونَ بكتابٍ ولا نَبِيٍّ. فكيفَ يَدَّعونَ عليهِ الكَذِبَ والافتِراءَ؟

يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ عقولِهِمْ وعِنادِهِمْ بَعدَ ما خَصَّهُمْ ﷺ، وفَضَّلَهُمْ على غيرِهِمْ مِنَ البَشَرِ حينَ[7] بَعَثَ الرسولَ منهمْ ومِن أنفسِهِمْ والكتابَ على لسانِهِمْ وبِلُغَتِهِمْ بَعدَ قَسَمِهِمْ أنهُ لو بَعَثَ إليهِمْ نذيراً أو رسولاً اتَّبَعوهُ حينَ[8] قالوا ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] لم يُؤمِنوا بهِ، ولم يَعرِفوا مِنَّةَ اللهِ عليهِمْ وخُصوصِيَّتَهُمْ في ما خَصَّهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يُذَكِّرُ رسولَهُ، ويُصَبِّرُهُ على تكذيبِ أولئكَ لهُ؛ يقولُ: قد كذَّبَ الذينَ كانوا مِن قَبلِهِمْ رُسُلَهُمْ، لَستَ أنتَ بأوَّلِ مُكَذَّبٍ، بل كُذِّبَ إخوانُكَ مِن قَبلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ يقولُ، واللهُ أعلمُ: لم يَبلُغْ هؤلاءِ الذينَ كَذَّبوكَ عُشرَ أولئكَ في القوةِ والغِنَى والفَضلِ والعِلْمِ والأتباعِ والأعوانِ وغيرِ ذلكَ. معَ ما كانوا كذلكَ لم يَقوموا في دَفعِ العذابِ الذي نَزَلَ بهمْ بالتكذيبِ عن أنفسِهِمْ.

فقومُكَ الذينَ همْ دونَ أولئكَ بما ذُكِروا أحقُّ ألّا يَقوموا لِدَفعِ العذابِ عن أنفسِهِمْ إذا نَزَلَ بهمْ بالتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أليسَ وَجَدوا عذابي حقّاً؟

قالَ الزَّجّاجُ: هو نَكيري بالياءِ، لكنْ طُرِحَتِ الياءُ لأنهُ آخِرُ الآيةِ وخَتمُها، فأُبقِيَتِ الكسرةُ علامةً لها، أو كلامٌ يُشبِهُ هذا.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: نكيري عُقوبتي. وقالَ القُتَبِيُّ: أي إنكاري.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بكلمةِ الإخلاصِ والتوحيدِ. وقالَ بعضُهُمْ: أي بطاعةِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بكلمةٍ واحدةٍ كقولِ الرجلِ لِصاحبِهِ: أُكَلِّمُكَ كلمةً واحدةً، واسْمَعْ مني كلمةً، لكنَّ الواحدةَ التي وَعَظَهُمْ بها عندَنا ما ذَكَرَ على إثرِهِ حينَ[9] قالَ: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ بها[10] جميعاً ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ وتَنظُروا في ما بَينَكُمْ هل رَأى أحدٌ منكُمْ جنوناً بهِ قطُّ؟

وقالَ بعضُهُمْ: يريدُ بالـ﴿مَثْنَىٰ﴾ أنْ يَتَناظَرَ الرجلانِ في أمرِ النَّبِيِّ ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ [أنْ يَتَفَكَّرَ كلُّ واحدٍ][11] فإنَّ في ذلكَ ما يَدُلُّ على أنَّ النَّبِيَّ ليسَ بمجنونٍ ولا كَذّابٍ على ما يَزعُمونَ.

---

(١) من م، في الأصل: بالحق. (٢) في الأصل وم: والتوحيد من البيان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: مفترى. (٥) في الأصل وم: وما. (٦) في الأصل وم: أنه. (٧) في الأصل وم، حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بهما. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أي تفكروا قط.

جنة السنة

ثم كانَ الذي حَمَلَهُمْ على أنْ يَنْسُبوهُ إلى الجنونِ وجوهاً.

أحَدُها: أنهمْ رَأَوهُ قد خالَفَ الفراعنةَ والجبابرةَ الذينَ كانوا يَقْتُلونَ مَنْ خالَفَهُمْ على الغَضَبِ في أدْنى شيءٍ بلا أعوانٍ ولا أتباعٍ لهُ، فقالوا: لا يُخاطِرُ بهذا إلّا مَنْ بهِ جنونٌ، فَنَسَبوهُ إلى الجنونِ.

والثاني: أنهمْ رأَوهُ قد خالَفَ دينَهُمْ ودينَ آبائِهِمْ جُمْلَةً مِنْ بَيْنِهِمْ، فقالوا: لا يُحْتَمَلُ أنْ يُصيبَ [أحدُ دِينِنا][1] بِعَقْلِهِ مِنْ بَيْنِ الكُلِّ، لا يُصيبُ أحدٌ ذلكَ. فاتَّهموهُ [بِجُنونِ][2] العقلِ.

والثالثُ: أنهُ كانَ في حالِ صِغَرِهِ وصِباهُ، لم يَرَوهُ اشْتَغَلَ بشيءٍ مِنَ اللعبِ، أو خالَطَ الصِّبْيانَ في شيءٍ مِنْ أمورِهِمْ، بلِ اعْتَزَلَهُمْ مِنْ صِباهُ إلى أوانِ[3] الوقتِ الذي بَلَغَ، فقالوا: إنَّ بهِ جُنوناً، وإلّا لم يَعْتَزِلِ الناسَ كلَّ هذا الاعْتِزالِ.

ثم أخْبَرَ أنكُمْ لو تفكَّرْتُمْ، ونَظَرْتُمْ، عَرَفْتُمْ[4] أنْ ليسَ بِصاحِبِكُمْ جنونٌ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخِرَةِ، إنْ عَصَيْتُمْ أي رسولَ اللهِ إليكُمْ ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخِرَةِ؛ إنْ عَصَيْتُمْ عوقِبْتُمْ في الآخِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ألا يَتَفَكَّرُ الرجلُ منكُمْ وحدَهُ أو مع صاحِبِهِ، فَيَنْظُرَ أنَّ مَنْ[5] خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينَهما، الذي خَلَقَ هذهِ الأشياءَ وحدَهُ، أنهُ واحدٌ، لا شريكَ لهُ؟ وإنَّ محمداً لَصادقٌ في قولِهِ: إنَّ اللهَ واحدٌ، لا شريكَ [لهُ][6] وما بهِ جُنونٌ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ/ ٤٣٨ ـ أ/ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ما[7] قالَ بعضُهُمْ: إنهُ ﷺ سألَ قومَهُ أنْ يَوَدُّوا قرابَتَهُ، وألّا يُؤذوهُمْ كقولِهِ: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وما قالَ في آيةٍ أُخْرى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]. يقولُ: ما سألْتُكُمْ مِنْ أجرٍ، يعني المَوَدَّةَ في القُرْبى، فهو لكمْ، أي الذي سألْتُكُمْ هو لكمْ، وهو المَوَدَّةُ في القُرْبى واتِّخاذُ السبيلِ إلى ربي.

والثاني: قولُهُ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي لم أسألْكُمْ على تبليغِ الرسالةِ إليكُمْ أجراً منكُمْ، فَيَمْنَعَكُمْ ثِقَلُ ذلكَ الأجرِ وغُرْمُهُ عليكُمْ عنِ الإجابةِ كقولِهِ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أجري إلّا على اللهِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بأني نذيرٌ، وما بي جُنونٌ، أو ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بأني لم أسألْكُمْ عليهِ أجراً أو ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ صَنيعِكُمْ ﴿شَهِيدٌ﴾ عالمٌ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ وهذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

يَحْتَمِلُ ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يَقْضي بالحقِّ، أو ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يَتَكَلَّمُ بالوحيِ، [أو ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي][8] يُلقيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ كلُّ شيءٍ غابَ عنِ الخَلْقِ، وقد ذَكَرَ ذلكَ في غيرِ موضعٍ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ الأوثانُ والأصنامُ التي عَبَدوها ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا تَخْلُقُ شيئاً، ولا تُحْييهِ، ولا تُميتُهُ، كقولِهِ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ما يُبْدِئُ الشيطانُ الخَلْقَ، فَيَخْلُقُهُمْ، وما يُعيدُ خَلْقَهُمْ في الآخِرَةِ، فَيَبْعَثُهُمْ بعدَ الموتِ، بلِ اللهُ يَفْعَلُ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: دينا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: آن. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم (٥) في الأصل وم: في. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أنه سأل. (٨) في الأصل وم: و.

جنة السنة

[ويحتمل][1] أن يكون قوله: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي حُجَجُ الحق ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وما يُظهِرُ الباطلُ، أي لا يَقذِفُ بحُجَجِ الحقِّ.

قالَ بعضُهُم: [قولُهُ: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾][2] هو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨] إلى آخرِ الآيةِ. قالَ: يَزْهَقُ الباطلُ، ويَثبُتُ الحقُّ، أي نَقذِفُ بالحقِّ على الباطل، فَيَهْلِكُ الباطلُ، ويَثبُتُ الحقُّ، وهو أيضاً ما ذَكَرَ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ بكسرِ اللامِ[3] ونصبِها، كلاهما لُغتانِ. قالَ الكسائيُّ: تقولُ العربُ: ضَلَّ يَضِلُّ ضَلالةً، وضَلَّ يَضَلُّ بالخفضِ والنَّصبِ جميعاً.

ثم قولُهُ: ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ فإنما[4] يكونُ ضَرَرُ ضلالي على نفسي، لا يكونُ على اللهِ مِن ذلكَ شيءٌ كقولِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦ والجاثية: ١٥].

والثاني: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ فإنما يكونُ ذلكَ على نفسي، ولا يكونُ على أنفسِكُمْ مِن ضَلالي شيءٌ كقولِهِ: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ هذا يُخرَّجُ أيضاً على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى طاعةِ اللهِ وشرائعِ الدينِ ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ في ذلك، أي فَبِوَحْيِهِ اهْتَدَيتُ إلى ذلكَ.

والثاني: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى دينِهِ فبِهِدايتِهِ وبتوفيقِهِ إيايَ وعِصمَتِهِ اهْتَدَيتُ.

أضافَ الهِدايةَ إلى اللهِ والضلالَ إلى نفسِهِ، فهو لِما ذَكَرْنا: أنْ كانَ مِنَ اللهِ إليهِ لُطفٌ في ذلكَ [ليسَ ذلكَ][5] في الضلالِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ يجيءُ أنْ يكونَ المَعْنَى فيهما واحداً لأنهمْ يقولونَ: إنهُ لا يكونُ مِنَ اللهِ سِوَى [الأمرِ][6] والنَّهيِ، فلا يكونُ منهُ إليهِ في الهدايةِ إلّا كما كانَ منهُ في الضلالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي مُجيبُ الداعي كقولِهِ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سَمِيعٌ﴾ لِمَقالَتِكُمْ لمحمدٍ [حينَ قُلْتُمْ][7] لهُ: لقد ضَلَلْتَ حينَ تركْتَ دينَ آبائكَ ﴿قَرِيبٌ﴾ أي مُجيبٌ لهُ. وقيلَ: سَميعُ الدعاءِ، قريبُ الإجابةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: وذلكَ أنهم بَعَثُوا بَعْثَينِ قاصِدينَ تخريبَ الكعبةِ، فلما بَلَغَا[8] البيداءَ خُسِفَ بأحدِهما، والآخَرُ يَنْظُرُ، فانْفَلَتَ[9] منهم [لِيُخبِرَ عنهم][10]، فتَحَوَّلَ وَجْهُهُ في قَفاهُ[11]. وذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ مِنَ الخَسْفِ والعذابِ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ مِنَ عذابِ اللهِ ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي مِن تحتِ أقدامِهِمْ تَخْسِفُ بهمُ الأرضُ.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِن تخريبِ الكعبة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤] وهمْ أصحابُ الفيلِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ أُمِّ سَلَمَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: أنهُ [قالَ][12] «يَغزو هذا البيتَ جيشٌ حتى إذا كانوا بالبيداءِ خُسِفَ بهمْ، فلا يَنفَلِتُ عنهمْ إلّا واحدٌ يُخبِرُ عنهمْ، قالَتْ: يا رسولَ اللهِ، وإنْ كانَ فيهمُ المُكْرَهُ؟ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ، يُبْعَثُونَ على نِياتِهِمْ» [البخاري: ١٩٠١].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/١٦٨ (٤) في الأصل وم: فما. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث قالوا. (٨) في الأصل وم: بلغوا. (٩) في الأصل وم: وينفلت. (١٠) في الأصل وم: يخبر. (١١) أدرج بعدها في الأصل و: فيخبرهم بما لقوا. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقال بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ وهو عندَ الموتِ يَفْزعونَ منهُ، ولا فَوتَ لهمْ عنهُ ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي [مِنْ على ذلكَ][1] المكانِ.

والحسَنُ يقولُ: ﴿فَزِعُوا۟﴾ مِنَ القبورِ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ يقولُ: ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ عندَ ذلكَ ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وهو المكانُ القريبُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ عندَ القيامةِ يَفْزَعونَ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ[2]، ولا يَفوتونَ اللهَ.

الآية ٥٢ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ هو[4] كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤] وكقولِ فرعونَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ إنهمْ سَألوا الرَّجْعَةَ والرَّدَّ أنْ يَنالوهُ: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قالَ: مِنَ الآخِرةِ إلى الدنيا.

وقالَ بعضُهُمْ: أي لا سَبيلَ لهمْ إلى الإيمانِ في ذلكَ الوقتِ، وقد كَفَروا بهِ مِنْ قبلُ في حالِ الدَّعةِ والرَّخاءِ ولم يؤمنوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي مِنْ حيثُ لا يُنالُ، ولا يكونُ، فذلكَ البعيدُ كقولِ اللهِ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] أي مِنْ حيثُ لا يكونُ أبداً، ليسَ على إرادةِ حقيقةِ المكانِ.

وقتادةُ يقولُ: هو عندَ الموتِ وعندَ نُزولِ العذابِ بهِمْ. ليسَ مِنْ أحدٍ بَلَغَ ذلكَ الوقتَ إلّا وهو يؤمنُ، ويَتَمنّى الإيمانَ. لكنْ لا يَنْفعُ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨] على ما ذَكَرَ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: ذلكَ[5] أنهمْ كانوا في الدنيا يُكَذِّبونَ[6] في الآخِرةِ، ويَكْفُرونَ بالغيبِ، ويَرْجُمونَ بالظَّنِّ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يَتَكلَّمونَ بالإيمانِ مِنْ مكانٍ، تَباعَدَ عنهمْ، فلا يُقْبَلُ منهمْ، وقد غابَ عنهمُ الإيمانُ عندَ نُزولِ العذابِ، فلم يَقْدِروا عليهِ.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ قَبولِ التوبةِ والإيمانِ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ أو عندَ مُعايَنَتِهِمْ إيّاهُ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ يقولُ: كما عُذِّبَ أوائِلُهُمْ مِنَ الأممِ الخاليةِ مِنْ قَبلِ هؤلاءِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ مِنَ العَذابِ والقيامةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ أهلٍ أو مالٍ أو زَهْرةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هو قولُهُمْ: هو ساحرٌ، هو شاعرٌ، كاهنٌ.

والتّناوُشُ عندَ عامّةِ أهلِ التأويلِ التّناوُلُ. وقالَ بعضُهُمْ: الرَّجْعَةُ والرَّدُّ إلى الدنيا. قالَ أبو عَوسَجَةَ: التّناوُشُ التّناوُلُ مِنْ مَوضعٍ بَعيدٍ، لا يكونُ مِنْ قريبٍ.

والقُتَبيُّ يقولُ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي تَناوُلُ ما أرادَ بُلوغَهُ وإدراكُ ما طَلَبوا مِنَ التوبةِ مِنَ المَوضعِ الذي لا تُقْبَلُ فيهِ /٤٣٨ ـ ب/ التوبةُ.

قالَ أبو مُعاذٍ والزَّجّاجُ: التّناوُشُ في كلامِ العربِ: الطلبُ، تقولُ: ناوَشْتُ إليهِ، أي طَلَبْتُ منهُ، لكنَّ هذا ليسَ مِنْ بابِ التّناوُشِ.

---

(١) في الأصل وم: على. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وأفزعهم ذلك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: وذلك. (٦) في الأصل وم: يكونون. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِن اخْتِلافِهِمْ؛ منهمْ من قالَ: بَينَ الإيمانِ والتوبةِ، ومنهمْ مَنْ قالَ: بَينَ شَهَواتِهِمُ التي كانَتْ لهمْ في الدنيا.

لكنْ [إنْ][1] كانَ على الإيمانِ والتوبةِ؛ فإنما حِيلَ بَينَهُمْ وبينَ القَبولِ للإيمانِ والتوبةِ [وإنْ كانَ][2] نفسُ الفعلِ، قد أتَوا بِهِ، وإنْ كانَ على الشَّهَواتِ فهو على حقيقةِ حَيلولةِ الفعلِ، وكذلكَ إنْ كانَ على تخريبِ البيتِ على ما يقولُهُ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ بأمثالِهِمْ وأشباهِهِمْ، فهو، واللهُ أعلَمُ، بأشباهِهِمْ وأمثالِهِمْ في التكذيبِ والجُحودِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ شِيعةِ الرجلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مِنَ العذابِ بأنهُ غَيرُ نازلٍ بهمْ.

وقالَ [بعضُهُمْ][3]: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مِنَ البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ المماتِ. وشَكُّهُمْ ورَيبُهُمْ لِما اسْتَبْعَدُوا الإحياءَ بَعْدَ الهلاكِ وبَعْدَ ماصاروا رَماداً. فهذِهِ[4] الحُجَّةُ أنْكَروا، ثم رَأَوا[5] خَلْقَ الشيءِ لِلفناءِ خاصةً لا لِعاقبةٍ وحكمةٍ، فارْتابوا في ذلكَ [واللهُ أعلمُ بالصوابِ][6].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإلا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فمن. (٥) في الأصل وم: يروا. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

[سورة فاطر](١)

وهي نزلت بمكة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما ذُكِرَ في القرآنِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلّا وذُكِرَ على إثْرِهِ التعظيمُ للهِ والإجلالُ لهُ، وذُكِرَ(٢) ما أنْعَمَ بهِ على الخَلْقِ لِيُلْزِمَهُمُ الشكرَ لهُ والثناءَ عليه نَحْوُ ما ذُكِرَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] ونَحْوُ ما قالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبإ: ١] ونَحْوُ قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: ١] وقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [الكهف: ١][وقولِهِ](٣) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية [الإسراء: ١١١].

جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ الحَمْدِ لهُ ذُكِرَ على إثْرِهِ ما يُوجِبُ التَّعظيمَ لهُ والتَّبجيلَ والثَّناءَ عليهِ والشُّكرَ لهُ تعليماً منهُ الخَلْقَ الثَّناءَ على ذلكَ والشكرَ لهُ، وباللهِ المَعونةُ والقوةُ على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الفاطرُ، هو المُبْتَدِئُ أو البادِئُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ مِنْ أهلِ الأدبِ. وكذلكَ ذُكِرَ عنِ ابْنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما، أنهُ قالَ: ما أدري ما فاطرُ السمواتِ والأرضِ، حتى جاءَ أعرابيانِ، فاخْتَصَما في بئرٍ، فقالَ أحدُهما: أنا فَطَرْتُها، أنا بَدَأْتُها. فعندَ ذلك عَرَفْتُ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ويجيءُ أنْ يكونَ الفاطرُ، هو الشاقُّ، أي شَقَّ السمواتِ كلَّها مِنْ واحدةٍ وكذلكَ الأرضينَ كقولِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] أي انْشَقَّتْ كما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥] أي الشاقُّ.

لكنَّ جميعَ ما أُضيفَ إلى اللهِ مِنَ الشَّقِّ والفَطْرِ والجَعْلِ وغيرِهِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ كلُّهُ على اخْتِلافِ الألفاظِ عبارةٌ عنِ الخَلْقِ، أي [هو](٤) خالقُ ذلكَ كلِّهِ.

وأصلُ الخَلْقِ في اللغةِ هو التَّقديرُ، خَلَقْتُ أي قَدَّرْتُ. وكذلكَ قالَ الكسائيُّ: إنَّ الفَطْرَ في كلامِ العربِ هو الشَّقُّ؛ مَعْناهُ أنهُ شَقَّ مِنَ السماءِ سِتَّ سَمواتٍ ومِنَ الأرضِ مِثْلَهُنَّ. ومنهُ الحديثُ: «حتى تَفَطَّرَتْ قَدَماهُ دماً» [بنحوهِ البخاري ١١٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ ففي ظاهرِ الآيةِ جَعَلَ جميعَ الملائكةِ رُسُلاً. فإنْ كانَ على ذلكَ فكأنهُ وَلَّى كلَّ واحدٍ منهمْ أمراً مِنْ أمورِ الخَلْقِ والعِبادِ. وإنْ كانَ على البعضِ فيكونُ تأويلُهُ: جاعلٌ مِنَ الملائكةِ رُسُلاً، أوفي الملائكةِ رُسُلاً.

ثم أخبرَ عنِ الملائكةِ أنهمْ أُولو أجْنِحَةٍ، تَمْنَعُهُمْ عنْ بعضِ العملِ، ولا تَزيدُ لهمْ نَفْعاً، بل تُنْقِصُ.

وأمّا ما ذَكَرَ مِنْ عَدَدِ الأجْنِحَةِ للملائكةِ، فذلكَ لا يَمْنَعُهُمْ عنِ الطيرانِ، بل تَزيدُ لهمْ قوةً ومَقْدِرَةً على ذلكَ.

ثم قالَ: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ قال بعضُهُمْ: يزيدُ في الملائكةِ على أربعةِ أجْنِحَةٍ ما يَشاءُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنْ خَلْقِ الأجْنِحَةِ والزيادةِ(٥).

---

(١) من م، في الأصل: ذكر السورة التي يذكر فيها الملائكة. (٢) في م: على. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: في الزيادة.

جنة السنة

وذُكِرَ أنَّ لإسرافيلَ سِتَّةَ أجنحةٍ ولجبريلَ سِتَّ مئةِ جناحٍ[١]. ذُكِرَ عن ابنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ قالَ: رأى][٢] رسولُ الله ﷺ، جبريلَ، ولهُ سِتُّ مِئةِ جَناحٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي الصوتَ الحَسَنَ، وقالَ بعضهُمْ: الشَّعْرَ الحَسَنَ، فهو في ما ذَكَروا مِنَ الزيادةِ في الأجنحةِ أشبَهُ وأقربُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مَنَ الزِّيادةِ والابْتِداءِ؛ لا يَصْعُبُ عليهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ عنِ ابنِ عباسٍ. مِنْ عافيةٍ.

وقالَ قَتادةُ: أي مِنْ خَيرٍ، وقالَ مُقاتِلٌ وغيرُهُ: أي مِنْ رزقٍ كقولِهِ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨] أي رزقٍ، وكلُّهُ واحدٌ، إذِ الخَيرُ يَشتَمِلُ على العافيةِ والرزقِ، وكذلكَ كلُّ واحدٍ منْ ذلكَ.

وقالَ بعضُهمْ: الرحمةُ الغَيثُ والمطرُ، وهو ما ذَكَرْنا؛ كلُّهُ يرجِعُ إلى واحدٍ منْ ذلكَ.

ثم قولُهُ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على تَسفيهِ أحلامِ الكَفَرَةِ في عبادتِهِمُ الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونها مِنْ دونَ اللهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، تَعلَمونَ أنتمْ أنهُ ليسَ لكمْ ممّا تَعْبُدونَ مِنَ دونِ اللهِ جَرُّ نَفعٍ أو خَيرٍ، ولا كَشْفُ ضُرٍّ عنكُمْ أو سوءٍ. فكيفَ تَعبُدونها؟ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآيةَ: [الزمر: ٣٨] أي تَعلَمونَ أنهنَّ لا يَملِكْنَ ذلكَ، واللهُ هو المالكُ لذلكَ كلِّهِ، فكيفَ صَرَفْتُمُ[٣] العبادةَ إليها عنهُ؟

[والثاني][٤]: يقولُ: إنكمْ تَعلَمونَ أنَّ ما تَعبُدونَ مِنَ الأصنامِ مِنْ دونَ اللهِ، لا يرزقونَكُمْ، ولا منها تَبتَغونَ الرزقَ، ولا كانَتْ منها إليكمْ سابقةُ نعمةٍ.

فإنما يَعْبُدُ لإحدَى هذهِ الوجوهِ مَنْ يَعْبُدُ: إمّا لِسابقةِ نعمةٍ أو نَيلِ رزقٍ أو جَرِّ نَفْعٍ أو كَشْفِ ضُرٍّ أو دَفعِ سوءٍ أو طَمَعٍ أو لِعاقبةٍ.

فإذا لم يكنْ مِنْ ذلكَ [مِنَ][٥] الأصنامِ، ومِنَ اللهِ ذلكَ كلُّهُ، فكيفَ صَرَفْتُمْ عبادتَكُمْ عنهُ إليها؟ كقولِهِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

هذا إذا كانَ قولُهُ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ راجعاً إلى الكَفَرَةِ. وإذا كانَ راجعاً إلى المؤمنينَ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: فيهِ قَطْعُ الطَمَعِ مِنَ الخَلْقِ، والإياسُ عمّا في أيديهِمْ، وألا يَرْجوا مَنْ دونَهُ، ولا يخافوا غَيرَهُ.

بل فيهِ الأمرُ بأنْ يَرَوا ذلكَ كلَّهُ مِنَ اللهِ، وأنهُ هو المالكُ لذلكَ دونَ الخَلْقِ.

والثاني: [فيهِ][٦] قَطْعُ طَمَعِ الرزقِ مِنَ المكاسِبِ والأسبابِ التي يَكْتَسِبونها. والأمرُ فيها، أعني المكاسبَ، [وأن يَروها][٧] تَعَبُّداً، وأنْ يَرَوا أرزاقَهُمْ مِنْ فَضْلِ اللهِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: إذا فَتَحَ اللهُ لأحدٍ رحمةً يَقْدِرُ عبدٌ [أنْ يُمْسِكَها][٨] وإنْ أمسَكَ هو قَدَرَ [العبدُ][٩] أنْ يُرْسِلَ، إنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ إذا جَعَلَ لأحدٍ أجلاً، وضَمِنَ لهُ الحياةَ ووفاءَ الرزقِ إلى مُضيِّ الأجلِ، فيجيءُ عدوٌّ مِنْ أعدائِهِ، فَيَقْتُلُهُ قَبْلَ انْقِضاءِ أجلِهِ واسْتيفاءِ رزقِهِ. فذلكَ مَنَعَ على قولِهِمْ عنْ وفاءِ ما ضَمِنَ وما جَعَلَ لهُ مِنَ المدةِ /٤٣٩ ـ أ/ والأجلِ.

وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ: ما يَفْتَحِ اللهُ على الناسِ مِنْ رحمةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قد ذكَرْنا [تأويلَهُ][١٠] في غيرِ موضعٍ.

---

(١) في الأصل وم: أجنحة. (٢) في الأصل وم: يقول أرى. (٣) في الأصل وم: صرفهم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي يرونها. (٨) في الأصل وم: في أن يمسك ذلك. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو صِلَةُ ما تقدَّمَ، ثم هو على التقريرِ والإيجابِ، وإنْ خُرِّجَ مُخرجَ الاستِفهام في الظاهرِ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكمْ تَعلَمونَ أنهُ هو رازقُكُمْ دونَ مَنْ تعبُدونَهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فَما الذي حَملَكُمْ على إفكِكُمْ وكذِبِكُمْ [أنَّ إلهَتَكُمْ شريكاتُهُ][1]، وأنها آلهةٌ، وأنها شفيعاتُكُمْ[2] عند اللهِ، وأنَّ عبادتَكُمْ إياها تُقرِّبُكُمْ إلى اللهِ زُلْفَى [ألَها][3] كتابٌ أو رسولٌ؟ وأنتمْ لا تؤمِنونَ بكتابٍ ولا رسولٍ فمِنَ أينَ تُؤفَكونَ، وتُكذِّبونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ معلومٌ أنهمْ كانوا لا يُكذِّبونَهُ في قولِهِ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] ولا في قولِهِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] لأنهمْ كانوا يَعلَمونَ أنهُ ليسَ مِنْ خالقٍ غيرُ اللهِ، ولا فاتحَ رحمةٍ سِواهُ، إذا كانَ هو مُمسِكَها، ولا مُمسِكَ لها، إذا كانَ هو مُرسِلَها.

ولكنْ إنما يكونُ تكذيبُهُمْ إيّاهُ في ما يُخبِرُ أنهُ رسولُ اللهِ إليهِمْ. كَذَّبوهُ في الرسالةِ أو في ما يُخبِرُ أنهُ أُوحِيَ إليهِ مِنَ اللهِ كَذِباً أو في ما يُخبِرُ عنِ البعثِ بَعْدَ الموتِ أنهُ كائنٌ وأمثالِ ذلكَ. فأمّا في ما ذكَرْنا فلا.

وهو تَعزيةٌ منهُ لِرَسولِهِ لِيَصْبِرَ على تكذيبِهِمْ إيّاهُ لِيَعْلَمَ أنهُ ليسَ بأوّلِ مُكذَّبٍ. بل قد كانَ إخوانُهُ مِنْ قَبْلُ [قد كُذِّبوا مِن قَبْلُ][4] في ما أخبَروا قومَهُمْ عنِ اللهِ، فَصَبروا على ذلكَ، فاصْبِرْ أنتَ أيضاً كقولِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٣٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإلى اللهِ يرجعُ تدبيرُ الأمورِ، أي لا تَدْبيرَ للخَلْقِ في ذلكَ. أو يُقالُ: إلى اللهِ يَرجِعُ الحكْمُ في الأمورِ، هو الحاكمُ فيها، كقولِهِ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] واللهُ أعلمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي البعثَ، إنهُ كائنٌ، لا محالَةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في ما وَعَدَ مِنَ الثوابِ على الطاعاتِ، وَوَعْدُهُ حقٌّ في ما أوعَدَ مِنَ العِقابِ على السَّيئاتِ أنهُ يكونُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ مَعْنى قولِهِ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ واللهُ أعلمُ، أي لا تَشْغَلَنَّكُمُ الحياةُ الدنيا عنْ ذِكْرِ الحياةِ الآخِرَةِ، ولا تُنسِيَنَّكُمُ الحياةُ الدنيا الحياةَ الآخرةَ.

[ألا إنَّ][5] الدنيا لا تغُرُّ أحداً في الحقيقةِ [وهي ليسَتْ][6] بِلَعِبٍ ولا لَهْوٍ، ولا هي غارَّةٌ، ولكن يَغتَرُّ أهلُها بها لِما غَفَلوا عمّا جُعِلَتْ لهُ[7]، وأُنشِئَتْ. وهو ما ذَكَرْنا أنها جُعِلَتْ زاداً للآخرةِ وبُلْغَةً إليها. فَمَنْ لم يَجْعَلْها زاداً للآخرةِ ولا بُلْغَةً إلى الوصولِ للآخِرَةِ، ولكنْ جَعَلَها في غيرِ ما جُعِلَتْ له[8]، وأُنشِئَتْ للحياةِ[9] فيها والمُقامِ بها، صارَتْ لِعِباً ولَهْواً، وصارَتْ غُروراً، إذْ صَيَّرَها[10] كالمُنْشَأةِ لِنَفْسِها لا للآخِرَةِ.

وهذا كما قالَ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤و١٢٥].

أخبَرَ أنَّ السورةَ كانَتْ تزيدُ لأهلِ الإيمانِ إيماناً ولأهلِ الكُفرِ والنِّفاقِ رِجساً وعَمىً. والسورةُ لا تزيدُ رِجساً ولا عَمىً في الحقيقةِ، لأنهُ وصفَ القرآنَ بأنهُ نورٌ وأنه هُدًى ورحمةٌ وبُرهانٌ. ولكنْ صارَ رِجساً وعَمىً لِمَنْ أعْرَضَ عنهُ، وكَذَّبَ، وردَّهُ. وأمّا مَنْ تَلَقّاهُ بالقَبولِ، وأقْبَلَ عليهِ، ونَظَرَ إليهِ بالتعظيمِ والإجلالِ لهُ والخضوعِ، فهو لهُ نورٌ وهُدًى ورحمةٌ.

---

(١) في الأصل وم: أنها شركاؤه. (٢) في الأصل وم: شفعاؤكم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وإلا. (٦) في الأصل وم: وكذلك هي. (٧) في الأصل وم: هي. (٨) في الأصل وم: هي. (٩) في الأصل وم: وهي الحياة. (١٠) في الأصل وم: صيروها.

جنة السنة

فَعلَى ذلكَ الدنيا وما فيها مِنَ النِّعَمِ واللَّذاتِ إذا جعَلَها [في غيرِ ما جُعِلَتْ لهُ][١] وأُنشِئَتْ، صارَتْ لَعِباً ولَهْواً وغُروراً. بل لو حُمِدَتْ هي على ما أُنشِئَتْ مكانَ ما ذُمَّتْ لكانَ حقًّا وصِدْقاً [لأنهُ تعالى][٢] سَمَّى نَعِيمَها حسنةً وخيراً وصَلاحاً ونَحْوَهُ. فلا جائزٌ أنْ تُذَمَّ الحسنةُ والخَيرُ، بل حَقُّ الذمِّ على أهلِها لأنهم[٣] اغْترّوا بها، وصَيَّروها في غَيرِ ما صُيِّرَتْ، وجُعِلَتْ، لِغَفلَتِهِمْ عمّا جُعِلَتْ لهُ[٤] وصَرْفِهِمْ إياها إلى غَيرِ الذي صُرِفَتْ[وجُعِلَتْ لَهُ][٥].

وعلى ذلكَ لا يجوزُ ذَمُّ الغِنَى والسَّعَةِ والصحةِ والسلامةِ لأنَّ ذلكَ كلَّهُ نِعَمٌ مِنَ اللهِ، أنْعَمَها على الناسِ فيجبُ أنْ يَنظروا إلى ما عليهِمْ للهِ مِنَ الشكرِ في ذلكَ، فَيُؤَدُّوهُ، وكذلكَ العِزُّ والثناءُ الحسنُ ونَحْوُهُ، لا يَجبُ أنْ يُذَمَّ شيءٌ مِنْ ذلكَ، بل يُذَمُّ مَنْ لم يَعرِفْ أنَّ العِزَّ فيمَ؟ إنما في طاعةِ اللهِ والعبادةِ لهُ، لا في مَعاصِيهِ.

فهؤلاءِ سَمَّوا مَعْصِيةَ اللهِ عِزًّا لِجَهْلِهِمْ في العِزِّ.

وكذلكَ الثناءُ الحَسَنُ يَجبُ أنْ يَحْمَدَ [المرءُ][٦] ربَّهُ، ويَشْكُرَ لهُ في ما يَسْتُرُ على الخَلْقِ فَضائِحَهُ ومساوِئَهُ، حينَ يُثْنوا عليهِ ما لو بَدا ذلكَ منهُ [وأظهرَهُ لم يَهرُبوا][٧] منهُ فَضلاً أنْ يُثْنوا عليهِ، ويَحْمَدوهُ. فيجبُ أنْ يَشْكُرَ [المرءُ][٨] ربَّهُ، ويُثْنِيَ [عليهِ لأنه سَتَرَ عليهِ][٩] مَعاصيَهُ وفَضائِحَهُ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الغَرورُ بِفَتْحِ الغَينِ، هو الشيطانُ؛ يقولُ: لا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الشيطانُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وُجوهاً:

أحَدُها: لا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ أي بكرمِهِ وجُودِهِ؛ يقولُ: إنهُ كريمٌ وجَوادٌ غَفورٌ، يَتَجاوَزُ عنكُمْ، ويَعفو عنكمْ معاصِيَكُمْ، ومَساوِئَكُمْ.

والثاني: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي بِغِناهُ؛ يقولُ إنهُ غنيٌّ، ما بِهِ حاجةٌ إلى عبادَتِكُمْ إيّاهُ في ما أمَرَكُمْ بِهِ، ونَهاكُمْ عنهُ.

والثالثُ: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي لا يَغُرَّنَّكُمْ عنْ طاعةِ اللهِ وعبادتِهِ، فَتَعْصُوهُ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: الباءُ مكانُ عنْ كقولِهِ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي عنها؛ إذْ لا يُشْرَبُ بالعينِ، وإنما يُشْرَبُ عنها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ ما يَدْعو الشيطانُ الخَلْقَ إليهِ في الظاهرِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ الشفقةِ والنصيحةِ كما يَدْعو الأولياءُ، لأنهُ يَدْعوهُمْ إلى قضاءِ شَهَواتِهِمْ ولَذّاتِهِمْ وما تَهْوَى أنفسُهُمْ، وإنْ كانَ يَضْمُرُ، ويَقْصِدُ بهِ هلاكَهُمْ.

ألا تَرَى أنه[١٠] كيفَ أظهرَ لآدمَ وحواءَ مِنَ الشفقةِ لهما[١١] والنصيحةِ حينَ قالَ: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠ و٢١] ونَحْوَهُ؟ وكانَ قَصْدُهُ بذلكَ ما ذَكَرَ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ الآيةَ [الأعراف: ٢٠] هذا كانَ يَضْمُرُ، ويَقْصِدُ في دعائِهِ إيّاهما إلى التناوُلِ مِنْ تلكَ الشجرةِ التي نهاهُما ربُّهما [عنهُ][١٢] فَعلَى ذلكَ في ما يَدْعو الناسَ بهِ إلى قضاءِ شَهَواتِهِمْ وحاجاتِهِمْ في الظاهرِ، فهو يَقْصِدُ بذلكَ هلاكَهُمْ لِمُخالَفَتِهِمُ المَولَى ما يُظْهِرُ، ويُبدي لهمْ.

لذلكَ قالَ: إنهُ عدوٌّ لكمْ، ليسَ بِوَليٍّ ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي كونوا عنْ دعائِهِ وأمْرِهِ على حَذَرٍ كما يَحْذَرُ المرءُ دُعاءَ عَدُوِّهِ.

---

(١) في الأصل وم: غير ما جعلت. (٢) في الأصل وم: لأنها. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: هي. (٥) في الأصل وم: وجعلهم بها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وأظهر لهربوا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: انها. (١١) في الأصل وم: لهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى][1] ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أهلَ طاعتِهِ. وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عوسَجَةَ: حِزْبُهُ أنصارُهُ والحِزبُ الأنصارُ. [وقال بعضُهُمْ: جُنْدُهُ][2] وقالَ بعضُهُمْ: حِزْبُهُ وُلاتُهُ الذين يَتولّاهُمْ، ويَتولّونَهُ، وكلُّهُ واحدٌ.

ثم بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ خصَّ[3] حِزْبَهُ بالدعاءِ لهم لِما أنَّ حِزْبَهُ هُمُ[4] المُجيبونَ لهُ والمُطيعونَ. فأمّا غيرُ حِزْبِهِ فلا يُجيبونَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] وكانَ يُنْذِرُ مَنِ اتّبعَ الذّكرَ ومَنْ لم يَتّبِعِ الذّكرَ. لكنْ خصَّ بإنذارِهِ مَنِ اتّبعَ الذّكرَ لِما أنَّ مُتّبِعَ الذِّكرِ، هو المُنتفِعُ بهِ دونَ مَنْ لم يَتّبِعْ. لِذلكَ خصَّهُ[5]، واللهُ أعلَمُ.

فَعَلَى ذلكَ ما خصَّ بدعائِهِ/ ٤٣٩ ـ ب/ حِزْبَهُ لأنَّ حِزْبَهُ هُمُ المُجيبونَ لهُ والمُطيعونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قَصَدَ بِدعائِهِ حِزْبَهُ إلى ما يَدْعوهمْ ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وإلّا لو كانَ أظْهَرَ لهمُ الدعاءَ إلى عذابِ[6] السَّعيرِ ما أجابوهُ، ولا أطاعوهُ. ولكنْ دعاهمْ إلى أعمالٍ تُوجِبُ لهمُ السَّعيرَ، أو لِيكونَ لهمْ عذابُ السَّعيرِ [كقولِهِ: [﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]][7].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهو ظاهرٌ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ قولُهُ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِما عَمِلوا مِنْ غيرِ الصالحاتِ بَعدَ إيمانِهِمْ، أو مَغفِرَةٌ لذنوبِهِمْ في الإيمانِ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لإيمانِهِمْ وأعمالِهِمُ الصالحاتِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ ليسَ لهذا الحَرْفِ في ذا المَوْضعِ جوابٌ. فجائزٌ أنْ يكونَ جوابُهُ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ على التقديمِ لهُ، كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أفَمَنْ زُيِّنَ لهُ سوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حسناً، فلا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهمْ حَسَراتٍ، فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ.

[ويَحتَمِلُ][8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فَلَزِمَهُ كَمَنْ قُبِّحَ لهُ، فانْتَهى عنهُ؟ ليسا بِسَواءٍ كقولِهِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ذُكِرَ أنَّ قولَهُ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ نَزَلَ في عُمَرَ بنِ الخطابِ، وقولَهُ: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في أبي جَهْلٍ.

فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ، وأنْ يكونَ ما ذَكَرْنا[9] بَدْءاً على التقديمِ والتأخيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ مِنَ الضلالِ [والهُدى][10]؛ يُضِلُّ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ، ويَهْدي مَنْ عَلِمَ منهُ أنه يَختارُ الهُدى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ هذا يَحتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهما][11]: أي لا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهمْ حَسَراتٍ إشفاقاً على ما يَنْزِلُ بهمْ بِتَرْكِهِمُ الإيمانَ لأنَّ رسولَ اللهِ كادَ يُهلِكُ نفسَهُ إشفاقاً عليهِمْ، فَنَهاهُ عَنْ ذلكَ[12].

والثاني: على تخفيفِ الحُزْنِ عليهِ ودفعِهِ عنهُ وتَسْلِيَتِهِ إيّاهُ لأنهُ كانَ يَشتَدُّ بهِ الحزنُ لِمكانِ كُفْرِهمْ وتكذيبِهِمْ إيّاهُ وتركِهِمُ الإيمانَ بهِ، ليسَ على النَّهْيِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ في ما تَقَدَّمَ مِقْدارَ ما حَفِظْنا فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ اللهَ تعالى على عِلْمٍ بِصَنيعِهِمْ؛ أنْشَأَهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ بما يكونُ منهمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: لكنه. (٤) من م، في الأصل: هو. (٥) في الأصل وم: خص. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أصحاب. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ذكر (١٠) في الأصل وم: إلى الهدى. (١١) في الأصل وم: وجوها أحدها. (١٢) أدرج بعدها في الأصل: كقوله وقوله.

جنة السنة

والثاني: ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فلا تُكافِئْهُمْ، ولا تَشْتَغِلَنَّ بشيءٍ ممّا يكونُ منهم، ولكنْ فَوِّضْ ذلكَ إلى اللهِ، وأَسْلِمْ إليهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ أي كذلكَ نُحْيِي المَوتَى، وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنْ كانَ يُريدُ القوةَ والمَنَعَةَ بِعبادةِ الأصنامِ ومَنْ عَبَدوا دونَهُ ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فَبِعبادةِ اللهِ وطاعتِهِ [تلكَ العِزَّةُ][1] في الدنيا والآخِرةِ، أي فَمِنْ عندِهِ اطْلُبوا ذلكَ [وهو كقولِهِ][2]: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] أي مِنْ عندِهِ اطْلُبُوا ذلكَ في الدنيا والآخِرةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ أي العِزَّ والتَّعَزُّزَ ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فباللهِ يكونُ عِزُّ الدنيا والآخِرةِ [لا][3] بالأصنامِ التي عَبَدْتُموها. وقد كانَ منهُمْ بعبادتِهِمُ الأصنامَ طَلَبُ الأمْرَيْنِ: طَلَبُ العِزِّ كقولِهِ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] وطَلَبُ القوةِ والمَنَعَةِ كقولِهِ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] فأخبَرَ أنَّ ذلكَ إنما يكونُ باللهِ وبطاعتِهِ. فَمِنْ عندِهِ اطْلُبوا لا مِنْ عندِ مَنْ تَعبُدونَ دونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ قائلونَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ هو الوَعْدُ الحَسَنُ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ هو إنجازُ ما وَعَدَ مِنَ[4] الوَعْدِ الحَسَنِ، وَوَفَى ذلكَ[5].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ هو كلمةُ التوحيدِ وشهادةُ الإخلاصِ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي إخلاصُ التوحيدِ للهِ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ الذي تَكَلَّمَ بهِ. فَعَلَى هذا التأويلِ[6] يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ إليهِ ما لَمْ يُخْلِصْ ذلكَ للهِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ هو كلمةُ التوحيدِ على ما ذَكَرْنا ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي يَرْفَعُ اللهُ العَمَلَ الصالحَ لصاحِبِهِ؛ يَعْني لصاحبِ الكلامِ الطَّيِّبِ. فَعَلَى هذا التأويلِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ إليهِ دونَ العَمَلِ الصالحِ.

وبعضُ أهلِ التأويلِ [يقولونَ: يَرْفَعُ كلامُ][7] التوحيدِ الطَّيِّبُ العَمَلَ الصالحَ إلى اللهِ، وبهِ يَتَقَبَّلُ الأعمالَ الصالحةَ.

وظاهرُ الآيةِ أنْ يكونَ العَمَلُ الصالحُ، هو الذي يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ، لكنَّ الوجهَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ، ما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ.

وبعضُهُمْ يقولُ: إنَّ العَمَلَ الصالحَ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: الذينَ يَعْمَلونَ السَّيِّئاتِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ مَكْرِهِمُ السَّيِّئاتِ، هو مَكْرُهُمْ برسولِ اللهِ وأذاهُمْ إياهُ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

ويَمْكُرُ اللهُ بهمْ في الدنيا بالهلاكِ والقَتْلِ، وفي الآخِرةِ بالعذابِ الشديدِ الذي قالَ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخِرةِ ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي هو يَهْلِكُ، مِنَ البَوارِ، وهو الهَلاكُ، وهو قَتْلُهُمْ بِبَدْرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ خَلَقَكُمْ أي قَدَّرَكُمْ مع كَثْرَتِكُمْ مِنْ أوَّلِ أمرِكُمْ إلى آخِرِ ما تَنْتَهونَ إليهِ مِنَ الترابِ الذي خَلَقَ آدَمَ منهُ، إذِ الخَلْقُ في اللغةِ التقديرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي قَدَّرَكُمْ أيضاً مع كَثْرَتِكُمْ وعِظَمِكُمْ مِنْ تلكَ النُّطْفَةِ [يُخْبِرُ عن علمِهِ وتدبيرِهِ في تقديرِهِ إيّانا

---

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عند الله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في م: أي إذا أنجز ما وعده. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: الانجاز الوعد الحسن وعد. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: يرفع الكلام.

جنة السنة

معَ كَثْرَتِنا مِنْ ذلكَ الترابِ ومِنْ تِلْكَ النطفةِ][1] وإنْ لم نكُنْ نحنُ على ما نحنُ عليهِ مِنْ ذلكَ الترابِ والنطفةِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

[ويحتمِلُ][2] أنْ تكونَ إضافَتُهُ إيانا إلى ذلكَ الترابِ والماءِ، وإنْ كانَ ذلكَ أصلَنا ومَبادِئَ أمورِنا، وكانَ المَقصودُ بخَلْقِ ذلكَ الترابِ والماءِ أصلُ[3] هذا الخَلْقِ، هو[4] العاقبةُ.

وقد تُذْكَرُ، وتُضافُ العواقبُ إلى المَبادِئِ، وتُنْسَبُ إليها، إذا كانَ المقصودُ مِنَ المَبادِئِ العواقبَ. ولهُ نظائرُ ووجوهٌ[5] كثيرةٌ، وقد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي خَلَقَكُم مِنْ ذلكَ ذَكَراً وأُنثى، ليَسْكُنَ بعضُكُمْ[6] إلى بعضٍ، أو جعَلَكُمْ أزواجاً أصنافاً. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: واللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نفسٍ واحدةٍ، ثم جَعَلَكُمْ أزواجاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما تَحْمِلُ مِنْ أُنثى مِنْ أوّلِ ما تَحْمِلُ إلى آخِرِ ما تَنْتَهُونَ إليهِ إلّا بِعِلْمِهِ السابقِ. وكذلكَ لا تَضَعُ كلُّ حاملٍ مِنْ أوّلِ ما تَضَعُ إلى آخِرِ ما تَنْتَهُونَ إليهِ إلّا بِعِلْمِهِ السابقِ أنها تَحْمِلُ كذا في وَقْتِ كذا مِنْ كذا وأنها تَضَعُ كذا في وَقْتٍ كذا. يُخْبِرُ عنْ علمِهِ السابقِ مِنْ أوّلِ مُنْشَئِهِمْ إلى آخِرِ ما يكونونَ، ويَنْتَهونَ إليهِ أنهُ كانَ كلُّهُ بذلكَ التقديرِ الذي كانَ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي ما يُطَوَّلُ مِنْ عُمُرٍ، وإنْ طالَ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي ما نُقِصَ، وقُصِّرَ مِنْ ذلكَ / ٤٤٠ ـ أ/ ولا[7] يُطَوَّلُ إلّا في كتابٍ، أي إلّا كانَ ذلكَ كلُّهُ في الكتابِ مُبيَّناً هكذا مُطَوَّلاً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي مَنْ كَثُرَ عُمُرُهُ، وطالَ، أو قَلَّ عُمُرُهُ، فهو يُعَمَّرُ إلى أجَلِهِ الذي كُتِبَ لهُ.

ثم قالَ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ كلَّ يوم وكلَّ ساعةٍ حتى يَنْتَهِيَ إلى آخِرِ أجلِهِ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ في اللَّوحِ المَحفوظِ مكتوبٌ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَهُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. قالَ صاحبُ هذا [القولِ][8] إنَّ كتابَ الآجالِ حينَ كتبَهُ اللهُ في اللوحِ المحفوظِ على اللهِ هَيِّنٌ.

وقالَ آخرُ قريباً مِنْ هذا في قولِهِ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ في جَرْيِ الليلِ والنهارِ والساعاتِ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى كَتَبَ لكلِّ نَسَمَةٍ عُمراً تَنْتهي إليهِ. فإذا أجْرَى عليها الليلَ والنهارَ أَنْقَصَ ذلكَ عُمُرَها، حتى [يَبْلُغَ][9] ذلكَ أجلَها. فمَنْ قُضِيَ لهُ أنْ يُعَمَّرَ حتى يُدْرِكَهُ الكِبَرُ، أو عُمِّرَ دونَ ذلكَ، فهو بالغٌ ذلكَ الأجلَ الذي [قُضِيَ لهُ، وكانَ ذلكَ][10] في كتابٍ يَنْتَهونَ إليهِ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقولُ قائلٌ: إنَّ حِفْظَ ذلكَ على اللهِ بِغَيرِ كتابٍ يَسيرٌ هَيِّنٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إنَّ عِلْمَ ما ذُكِرَ وتَقْديرَهُ مِنْ أوّلِ ما أنْشَأَهُمْ وتَغْييرَ أحوالِهِمْ إلى آخِرِ ما يكونونَ، ويَنْتَهونَ إليهِ، يَسيرٌ، أي لا يَخْفَى عليهِ [شيءٌ][12].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فيهِ وجوهٌ مِنَ المُعْتَبَرِ:

أحَدُها: يذكُرُ ألّا يَسْتَوِيَ في الحكمةِ الخَبيثُ مِنَ الرجالِ والطَّيِّبُ منهمْ كما لا يَسْتَوي المالحُ مِنَ الماءِ والأُجاجُ، والعَذْبُ منهُ والسائغُ، وقدِ اسْتَوَى الطَّيِّبُ مِنَ الرجالِ والخَبيثُ في مَنافِعِ الدنيا ومَأْكَلاتِها. وفي الحكمةِ التَّفريقُ بينَهما والتَّمييزُ. دَلَّ أنَّ هنالكَ داراً تُميِّزُ بينَهما، وتُفرِّقُ، إذ قد يُسْتَوَى في منافِعِ [الدنيا][13] وحُطامِها. وفي الحكمةِ التَّفريقُ والتَّمييزُ لا الجَمْعُ والاسْتِواءُ. وذلكَ يَدُلُّ على البعثِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: والأصل. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: جهة. (٦) في الأصل وم: بعضه. (٧) من م، في الأصل: ومن. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: فيهِ أنَّ المُنْشَأَ مِنَ الأشياءِ في هذهِ الدنيا والمخلوقَ لم يُنْشِئْهُما اللهُ تعالى لِحاجةِ نفسِهِ، ولكنْ لِحوائجِ الخَلْقِ ومَنافِعِهِمْ وما يكونُ لهمُ العِبْرَةُ في ذلكَ؛ إذْ مَنْ أنشأَ شيئاً لِحاجةِ نفسِهِ أنشأَ ألَذَّ الأشياءِ وأحلاها وأنفعَها لهُ لا مُرًّا مالحاً أجاجاً ما لا يَنْتَفِعُ بهِ.

يُخْبِرُ عَنْ غِناهُ عمّا أنشأَ مِنَ الأشياءِ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يُنْشِئْها، لحوائجِ نفسِهِ، ولكنْ لِما ذَكَرْنا.

وهو على المعتزلةِ في قولِهِمْ: إنهُ لم يَخْلُقْ شيئاً، لا يَنْتَفِعُ بهِ، وإنهُ لا يَفْعَلُ إلا[1] ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ؛ إذْ قد أنشأَ ماءً أجاجاً مالحاً، لا يُنْتَفَعُ بهِ، ليكونَ لهمُ العِبْرَةُ في ذلكَ.

والثالثُ: فيهِ تَرْغيبٌ في إيمانِ الخَبيثِ الكافرِ، ودَفْعُ الإياسِ مِنْ توحيدِهِ[2]، وقَطْعُ الرجاءِ عنْ [عَوْدِهِ إلى الكُفْرِ حينَ][3] أخبَرَ عمّا يأكلونَ مِنَ الماءِ المالحِ الأجاجِ والعَذْبِ السائغِ جميعاً اللحمَ الطَّرِيَّ [ما حَقَّ][4] مِثْلِهِ إذا أُلْقِيَ فيهِ أو في مِثْلِهِ اللحمُ الطَّرِيُّ أنْ يَفْسُدَ[5] مِنْ ساعتِهِ. ويُذَكِّرُهُمْ أيضاً عنْ قدرتِهِ: أنَّ مَنْ قَدَرَ على حِفْظِ ما ذَكَرَ مِنَ اللحمِ الطَّرِيِّ في الماءِ الذي لا يُقْدَرُ على الدُّنُوِّ منهُ والقُرْبِ [مِنَ الخوضِ فيهِ والذَّوقِ منهُ][6] فَضْلاً أنْ يكونَ فيهِ حِفْظُ ما ذَكَرَ مِنَ الإفسادِ؛ فَمَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

والرابعُ: يَذْكُرُ نِعَمَهُ التي أنعَمَها عليهِمْ حينَ[7] قالَ: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يَذْكُرُ عِظَمَ نِعَمِهِ وقُدْرَتَهُ حينَ[8] جَعَلَ البحارَ مُسَخَّرَةً مُذَلَّلَةً، يَقْدِرونَ على اسْتِخراجِ ما فيها مِنَ الحِلَى والجواهِرِ والوصولِ إلى المَنافِعِ التي هي وراءَ البِحارِ وقَطْعِها بِسُفُنٍ أنشأَها لهمْ، وأجراها في الماءِ.

بلِ الأعْجوبَةُ في إجراءِ السُّفُنِ بالرِّياحِ في المياهِ الراكدةِ الساكنةِ أعْظَمُ وأكثرُ مِنْ جَرَيانِها على جَرْيَةِ الماءِ لأنها في الماءِ الجاري لا تَجْري إلّا على الوجهِ الذي يجري الماءُ، وفي البحارِ تجري بريحٍ واحدةٍ مِنَ الأسْفَلِ إلى الأعْلَى ومِنَ الأعلَى إلى الأسْفَلِ حيثُ شاءَ[9]. دلَّ أنَّ الأعْجوبَةَ في هذا أكثرُ وأعظَمُ. ومَنْ مَلَكَ هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

[ويَحْتَمِلُ][10] أنْ يكونَ المَثَلُ الذي ذَكَرَ في البَحْرَينِ: أحَدُهما عذبٌ ماؤُهُ [والآخَرُ][11] أُجاجٌ ماؤُهُ، يكونُ لِلْعَمَلِ الصالحِ، وهو التوحيدُ، ولِلْعَمَلِ السَّيِّءِ، وهو الكُفْرُ؛ يقولُ[12]: كما لا يَسْتَوي في الفَضْلِ الماءُ العذبُ والماءُ المالحُ، فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوي العَمَلُ الصالحُ والعَمَلُ السَّيِّءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قالَ بعضُهُم: مَواخِرَ تَجريانِ؛ إحداهما مُقْبِلَةٌ، والأخرَى مُدْبِرَةٌ بريحٍ واحدةٍ، وتَسْتَقْبِلُ إحداهُما الأُخرَى. وقالَ بعضُهُمْ: المَواخِرُ هي التي تَشُقُّ الماءَ، وتَقْطَعُهُ؛ مِنْ مَخَرَ يَمْخُرُ، وقد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ ما يُصابُ بالأسبابِ والمَكاسِبِ إنما هو فَضْلُ اللهِ، إذ قد يَكْتَسِبُ [المرءُ، ولا يكونُ لهُ منهُ سَبَبٌ][13] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يَذْكُرُ هذا لأهلِ مكةَ لإنكارِهِمُ الصانعَ وإنكارِهِمُ البَعْثَ وإنكارِهِمُ الرسُلَ لأنهم كانوا فِرَقاً ثلاثاً[14]: منهُمْ مَنْ يُنْكِرُ الصانعَ والتوحيدَ، ومنهُمْ مَنْ يُنْكِرُ البَعْثَ، ومنهُمْ مَنْ يُنْكِرُ الرسُلَ.

ففي الآيةِ دلالةُ إثباتِ الصانعِ وتوحيدِهِ، وفيها دلالةُ البَعْثِ والإنشاءِ بَعْدَ المَوتِ، وفيها دلالةُ إثباتِ الرسالةِ.

أمّا دلالةُ إثباتِ الصانعِ والوَحْدانيّةِ [ففي][15] اتّساقِ الليلِ والنهارِ والشمسِ والقمرِ وما ذَكَرَ وجَرَيانِها وجَرَيانِ الأمورِ

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: بهم. (٢) في الأصل وم: توحيدهم. (٣) في الأصل وم: عودهم إليه حيث. (٤) في الأصل وم: مما حقق.
(٥) في الأصل وم: يفيد. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: شاؤوا.
(١٠) في الأصل وم: أو. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: بقوله. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا يكون منه شيء. (١٤) في الأصل وم: ثلاثة. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

كلُّها على سَنَنٍ واحدٍ وميزانٍ واحدٍ وقَدْرٍ واحدٍ مِنْ أوَّلِ ما كانَ إلى آخِرِ ما يكونُ مِنْ غَيرِ زيادةٍ أو نُقْصانٍ يدخُلُ فيهِ [أو تقديمٍ أو تأخيرٍ يكونُ فيه][1] يدُلُّ على أنَّ لِذلكَ كلِّهِ صانعاً مُدَبِّراً، أنشأَ، ودَبَّرَ كلَّ شيءٍ على ما كانَ، وحَفِظَهُ[2] كلَّهُ على ميزانٍ واحدٍ، إذْ لو كانَ [كلُّ واحدٍ منها][3] بنفسِهِ لكانَ لا يجري على حدٍّ واحدٍ، بل يَتَفاضَلُ [على غَيرِهِ][4] وكذلكَ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لكانَ يَتَقَدَّمُ، ويتأخَّرُ، ويتَغَيَّرُ، ويَمْتَنِعُ، ويَذْهَبُ [بعضُها][5] رأساً على ما يكونُ فِعْلُ العَدَدِ مِنَ الملوكِ؛ إنَّ ما أرادَ [هذا نفاهُ الآخَرُ][6] ومَنَعَهُ، وما أرادَ هذا نَفْيَهُ وإبطالَهُ أرادَ الآخَرُ إثباتَهُ، وذلكَ مَعْروفٌ فيهِمْ: مِنْ مُخالفةِ بعضِهِمْ[7] بعضاً. فَدَلَّ اتِّساقُ ما ذَكَرْنا وجَرَيانُهُ على تدبيرٍ واحدٍ أنَّهُ فِعْلُ واحدٍ وتدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ، وباللهِ القوةُ.

ودَلَّ ذهابُ الليلِ وتَلَفُهُ بِكُلِّيَّتِهِ حتى لا يَبْقَى لهُ أثَرٌ، وكذلكَ ذهابُ ضَوءِ النهارِ ونورِهِ، وكذلكَ الشمسُ والقمرُ، وإتيانُ الآخَرِ بَعْدَ تَلَفِهِ أنهُ بَعْثٌ، إذْ لو لم يكُنْ بعثٌ [كانَ تدبيرُ ذلكَ][8] كلِّهِ لَعِباً باطلاً، وأنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على الإحياءِ بَعْدَ الموتِ، وأنهُ لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

فإنْ ثَبَتَ ما ذَكَرْنا لا يَحْتَمِلُ أنْ [يَتْرُكَ اللهُ تعالى عبادَهُ][9] سُدًى، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ[10]، ولا يَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ. فلابُدَّ مِنْ رسولٍ يأمُرُ، ويَنْهى، ويُخْبِرُ عمّا لهُمْ وعليهِمْ.

[وفي الآيةِ][11] أنَّ مُدَبِّرَ ذلكَ كلِّهِ عليمٌ حكيمٌ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾][12] يُخبِرُ أنَّ الذي فَعَلَ ذلكَ كلَّهُ هو ربُّكُمُ الذي لهُ المُلْكُ؛ يقولُ: الذي فَعَلَ هذا كُلَّهُ ربُّكُمْ لا الأصنامُ التي عَبَدْتُمْ دونَهُ، وسَمَّيْتُموها آلهةً. فكيفَ صَرَفْتُمُ العبادةَ إليها والألُوهِيَّةَ؟ وما تَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ لا يَمْلِكونَ ما ذَكَرَ حينَ[13] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ يُسَفِّهُ أحلامَهُمْ في عبادةِ مَنْ عَبَدوا دونَهُ على علمٍ منهُمْ أنهُمْ [لا][14] يَمْلِكونَ ما ذَكَرَ، وصَرْفِهِمُ العبادةَ عَنِ اللهِ على عِلْمٍ منهمْ أنَّ ذلكَ كلَّهُ مِنَ اللهِ. وهو المالكُ لذلكَ.

الآية ١٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾][15] /٤٤٠ ـ ب/ يُخْبِرُ عن عَجْزِ مَنْ [عَبَدوهُمْ حينَ][16] قالَ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ على حقيقةِ الدعاءِ ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ حقيقةً ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي لو سَمِعوا دُعاءَكُمْ ما يَمْلِكونَ إجابَتَكُمْ في دَفْعِ ضُرٍّ وسوءٍ ولا في جَرِّ نَفْعٍ.

[ويَحْتَمِلُ][17] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي تَعبدوهُمْ ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي لا يُجيبوكُمْ إلى ما تَقْصِدونَ بعبادَتِكُمْ إياهُمْ، وإنْ تقولوا ما قَبِلوا ذلكَ عنكُمْ ولا نَفَعَكُمْ فيهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يُنْكِرونَ يومَ القيامةِ أنْ يكونوا [شُرَكاءَكُمْ، أو أمَرُوكُمْ][18] بذلكَ كقولِهِ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] وقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية [سبأ: ٤٠ و ٤١] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا يُنَبِّئُكَ أحدٌ مثلَ الذي أنبأكَ الخبيرُ في الصِّدْقِ والحقِّ.

[ويَحْتَمِلُ][19] أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا يكونُ نَبَأُ أحدٍ مِثْلَ نَبَإِ الخبيرِ، فاعْمَلْ بهِ، وأقْبِلْ عليهِ، ولا تُقْبِلْ على نَبَإِ غيرِهِ، واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ وجهانِ مِنَ اللُّطفِ:

أحدُهما: يُتْلِفُ [أحَدَهما][20] حتى يُذْهِبَ أثَرَهُ، ويأتي بالآخَرِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وحفظ. (٣) في الأصل وم: ذلك. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الآخر نفيه. (٧) في الأصل وم: بعض. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يتركهم. (١٠) في الأصل وم: ينهى. (١١) في الأصل وم: وفيه. (١٢) في الأصل وم: ثم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم. ثم. (١٦) في الأصل وم: عبدوه حيث. (١٧) في الأصل وم: أو. (١٨) في الأصل وم: شركاءهم أو أمروهم. (١٩) في الأصل وم: أو (٢٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

[والثاني][١]: يزيدُ في هذا، ويُنْقِصُ مِنَ الآخر، ويُدْخِلُ مِنْ ساعاتِ هذا في ساعاتِ الآخَرِ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الثَّنَوِيَّةِ في قولِهِمْ: إنَّ مُنْشِئَ الخيرِ غيرُ مُنْشِئِ [الشَّرِّ][٢] وقولِهِمْ[٣]: إنَّ النورَ مِنْ مُنْشِئِ الخيرِ، والظُّلمَةَ مِنْ مُنْشِئِ الشَّرِّ. فلو كانَ ما ذَكَروا لكانَ إذا ذهبَ النورُ وجاءتِ الظُّلْمَةُ صارتْ هي الغالبةَ[٤]، والنورُ [هو المَغْلوبَ][٥] في يَدِها. وكذلكَ النورُ إذا جاءَ، وذَهَبَتِ الظُّلْمَةُ، صارَتْ هي مقهورةً مَغْلوبةً في يدِ النورِ، والنورُ هو الغالبَ عليها. فإذا صارَ مَغْلوباً مَقْهوراً في يدِ صاحِبِهِ يجيءُ ألّا يَقْدِرَ على اسْتِنْقاذِ نفسِهِ مِنْ يَدِهِ أبداً على ما يكونُ مِنْ عادةِ الأعداءِ إذا غَلَبَ بعضُهُمْ بعضاً، وقَهَرَ بَعْضُهُمْ بعضاً أنْ يُهْلِكَ [عَدُوَّهُ][٦] ويَتَخَلَّصَ منهُ. فإذا لم يكُنْ، ولكنْ جاءَ كلٌّ منهما في وقتِهِ بعدَ ذهابِ [أثَرِ الآخَرِ][٧] على التقديرِ الذي ذَكَرْنا، دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ وتَدبيرُ واحدٍ، لا تدبيرُ عددٍ. وباللهِ الحَوْلُ والقوةُ.

والقُتَبِيُّ يقولُ: القِطْميرُ هو الفُوقَةُ التي تكونُ فيها النَّواةُ. وأبو عوسَجَةَ يقولُ: هو القِشْرَةُ الرفيعةُ التي تكونُ بَيْنَ لحمِ الثمرةِ وبَيْنَ نَواتِها، واحِدُهُ وجَمْعُهُ سَواءٌ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فيهِ وجوهٌ مِنَ الدَّلالةِ:

أحَدُها: أنهُ إنما أمَرَكُمْ، ونَهاكُمْ، وامْتَحَنَكُمْ بأنواعِ المِحَنِ لِحاجَتِكُمْ وفَقْرِكُمْ إليهِ لا لحاجةٍ وفَقْرٍ لهُ في ذلكَ. فإنِ ائْتَمَرْتُموهُ، وأطَعْتُموهُ، فإلى أنفسِكُمْ تَرْجِعُ مَنْفَعَةُ ذلكَ، وإنْ عَصَيْتُمْ فَعَلَى أنفسِكُمْ يَلْحَقُ ضَرَرُ ذلكَ كقولِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

والثاني: يقولُ: تَعْلَمونَ أنَّ فَقْرَكُمْ وحاجَتَكُمْ إلى اللهِ لا إلى الأصنامِ التي تَعْبُدونَها، واتَّخَذْتُموها آلهةً، فكيفَ صَرَفْتُمُ العبادةَ والشُّكْرَ إلى مَنْ تَعْلَمونَ أنكمْ [لا][٨] تحتاجونَ إليهِ، ولا تَفْتَقِرونَ؟

والثالثُ: يأمُرُهُمْ بقَطْعِ أطماعِهِمْ مِنَ الخَلْقِ لأنهُ خاطَبَ الكُلَّ، وأخبرَهُمْ[٩] أنكُمْ جميعاً فقراءُ إلى اللهِ الطامعَ والمَطْموعَ فيهِ، فاقْطَعوا طَمَعَكُمْ ورجاءَكُمْ عَنِ الخَلْقِ، واطْمَعوا ذلكَ مِنَ اللهِ فإنهُ ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ والخَلْقُ جميعاً فقراءُ إليهِ، يُؤْيِسُهُمْ مِنَ الطَّمَعِ والرجاءِ مِنَ الخلقِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يُخْبِرُ عَنْ غِناهُ وقُدْرَتِهِ لو شاءَ أذهَبَكُمْ [لِتَعْلَموا أنهُ لم][١٠] يُنْشِئْكُمْ، ولا أمَرَكُمْ، ولا نَهاكُمْ لِحاجةِ نفسِهِ ولا لِمَنْفَعَةٍ لهُ، ولكنْ لِحاجةِ أنفسِكُمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَيْنِ:

أحَدُهما: لا يَعِزُّ، ولا يَثْقُلُ عليهِ ذهابُكُمْ وفناؤُكُمْ لِحاجةِ نفسِهِ، فذهابُكُمْ وفناؤُكُمْ وبَقاؤُكُمْ عليهِ واحدٌ.

والثاني: لا يَصْعُبُ عليهِ، ولا يَعِزُّ إذهابُكُمْ وإحداثُكُمْ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، يُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ كأنَّ هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٢] يُؤْيِسُهُمْ لِيَقْطَعوا أطماعَهُمْ يومئذٍ عَنْ تناصُرِ بعضِهِمْ بَعْضاً وتَحَمُّلِ بعضِهِمْ مُؤَنَ بعضٍ وشفاعةِ بعضِهِمْ لبعضٍ على ما كانوا يَفْعَلونَ في الدنيا، كانَ يَنْصُرُ بعضُهُمْ بعضاً في الدنيا إذا أصابَهُمْ شيءٌ، ويَفْدي بعضُهُمْ بعضاً، ويَشْفَعُ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ.

كانوا يَحْتالونَ مثلَ هذهِ الحِيَلِ في الدنيا لِيَدْفَعوا عنِ المُتَّصِلينَ بهمُ الضَّرَرَ. فأخْبَرَ أنْ ليسَ لهمْ ذلكَ في الآخِرةِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] ومثلُهُ[١١] كثيرٌ؛ يُؤْيِسُهُمْ مِنْ أنْ يكونَ لهمْ في الآخرةِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ويقولون. (٤) في الأصل وم: المغلوبة. (٥) في الأصل وم: هي المغلوبة. (٦) في الأصل وم: ولا. (٧) في الأصل وم: أثره. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وأخبر. (١٠) في الأصل وم: لتعلمون أنه. (١١) الواو ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحدُهما: إنما يَنتَفِعُ بالإنذارِ الذين يَخشَونَ ربَّهُم بالغيبِ. فأمّا [مَن](١) لا يَخشَى ربَّهُ فإنهُ لا يَنتَفِعُ بهِ. ولا(٢) كانَ مُنذِرَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكرَ ومَنْ لم يَتَّبِعْ ومَنْ خَشِيَ ربَّهُ ومَنْ لم يَخشَ؟.

والثاني: كأنهُ يقولُ: إنكَ تُنذِرُ غيرَ الذي اتَّبَعَ الذِّكرَ وغيرَ الذي خَشِيَ ربَّهُ، فإنما يَتَّبِعُ إنذارَكَ، ويقبَلُهُ الذي خَشِيَ ربَّهُ، واتَّبَعَ ذِكرَهُ(٣)، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي مَنْ عَمِلَ خيراً فإنما يَعمَلُ لنفسِهِ، أو مَنْ جاءَ بالتوحيدِ والأعمالِ الصالحةِ فإنما يُصلِحُ أمرَهُ، وعَمَلُهُ يُثابُ عليهِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ فائدةَ ذِكرِ المصيرِ إليهِ في ذلكَ اليومِ، وإنْ كانوا صائرينَ إليهِ في كلِّ وقتٍ.

الآيات ١٩ ـ ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ ضَرَبَ هذا المثلَ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: شَبَّهَ الأصنامَ التي يَعبُدونها بالأعمَى والظُّلمةِ والميتةِ والحرورِ حقيقةً(٤) لأنها كذلكَ عُميانٌ، موتَى، ولا نورَ فيها؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ تعلمونَ الذينَ تَعبُدونَ مِن دونَ اللهِ عُمياناً، ولا بَصَرَ لهمْ، ولا نورَ، ولا حياةَ، ولا شيءَ مِن ذلكَ، وأنَّ اللهَ هو البصيرُ، ومنهُ يكونُ كلُّ خيرٍ ونفعٍ فكيفَ اخترْتُمْ عبادةَ مَنْ هذا سبيلُهُ على عبادةِ اللهِ تعالى؟ وباللهِ الهدايةُ والعصمةُ.

والثاني: شَبَّهَ أولئكَ الكَفَرَةَ بالعُميانِ والظُّلمةِ والموتِ وما ذَكَرَ، والمؤمنَ بالبصيرِ والنورِ والظِّلِّ والحياةِ، ليسَ على إرادةِ حقيقةِ البَصَرِ والحياةِ وما ذَكَرَ لأنَّ لهمْ بَصَراً يُبصِرونَ، وهمْ أحياءُ، فيقولونَ: نحنُ بُصَراءُ وأحياءُ، وأنتمُ العُميانُ والأمواتُ وما ذَكَرَ، لكنْ شَبَّهَهُمْ بالعُميانِ والموتَى لأنهُ لا حُجَّةَ لهمْ ولا بُرْهانَ على عبادتِهِمُ الأصنامَ، وهمْ يَعلَمونَ أنهُ لا حُجَّةَ لهمْ ولا بُرْهانَ على ذلكَ مِن كتابٍ أو رسولٍ أو نَحوِهِ، إنما هو هَوًى، يَهْوَونَ ذلكَ.

وللمؤمنينَ في عبادتِهِمُ اللهَ حُجَّةٌ وبُرهانٌ. فَمَنْ كانَ لهُ حُجَّةٌ في عبادتِهِ فهو بَصيرٌ، حيٌّ، نورٌ. ومن ليسَ لهُ ذلكَ فهو أعمَى مَيْتٌ.

والثالثُ: يَذكُرُ هذا دلالةً على البَعثِ لأنهمْ يَعلَمونَ أنَّ الخَلقَ ليسُوا(٥) كُلُّهُمْ على حَدٍّ واحدٍ وحالةٍ واحدةٍ، بل فيهمُ العُميانُ والبُصراءُ، وفيهمُ الأحياءُ والأمواتُ، وفيهمْ ما ذَكَرَ. وقدِ استَوَوا جميعاً /٤٤١ ـ أ/ في مَنافعِ هذهِ الدنيا. وفي الحكمةِ التفريقُ بَينَهُمْ لا الجَمعُ، فلا بُدَّ مِن دارٍ أُخرَى سِوَى هذهِ تُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ، إذْ في الحكمةِ والعقلِ التفريقُ لا الجَمْعُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [دلَّ قولُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ على أنَّ قولَهُ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾](٦) إنما أرادَ بهِ الكافِرَ. ثم أخبَرَ أنَّ رسولَهُ لا يُسمِعُهُ(٧) لِما لا يَقدِرُ على ذلكَ، وليسَ عندَهُ ذلكَ؛ إذْ لو كانَ [الهُدَى](٨) بياناً مُبَيَّناً أو دُعاءً على ما تقولُهُ المعتزلةُ لكانَ يُسمِعُ، ويُبَيِّنُ، ويَقدِرُ على ذلكَ.

فإنْ لم يَقدِرْ رسولُ اللهِ على ذلكَ دلَّ أنَّ عندَ اللهِ [لُطفاً وشيئاً](٩) لم يُعطِهِمْ. فإذا أعطاهُمْ ذلكَ اهتَدَوا، وآمَنوا، وكذلكَ هذا في قولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] ولو كانَ [الهُدَى](١٠) بياناً على ما تقولُهُ المعتزلةُ لَهَدَى مَنْ أحَبَّ، وقد أحبَّ فلم يَهْتَدِ، دلَّ أنَّ عندَ اللهِ [شيئاً لم يعطِهِ، ولو](١١) أعطَى ذلكَ لاهتَدَى ولم يكُنْ ذلك عندَ رسولِهِ، وهو التوفيقُ والعصمةُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والا. (٣) من م، في الأصل: ذكر. (٤) في الأصل وم: وحقيقة. (٥) في الأصل وم: ليس.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يسمع. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: لطف وشيء. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: شيء ولم أعطى.

جنة السنة

وهذا يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ قد أعطى كلَّ كافرٍ ما بهِ يَهْتَدي، لكنهُ لم يَهْتَدِ. ثم لا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ على القَسْرِ والقَهْرِ، دلَّ أنهُ لا يَحْتَمِلُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ليسَ عليكَ إلا الإنذارُ باللسانِ كقولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] وأنتَ لا تُؤاخَذُ بِتَرْكِهِمْ قبولَ الإنذارِ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية: [الأنعام: ٥٢] وقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآية [النور: ٥٤].

[والثاني][1]: الإنذارُ بالسيفِ بأمرِهِ إيّاهُ بالقتالِ معهمْ حتى يؤمنوا. وإنْ كانَ على هذا فهو يَحْتَمِلُ النسخَ، يؤمَرُ بالقتالِ في وَقْتٍ [ولا يُؤمَرُ في وَقْتٍ][2]. وأمّا النِّذارةُ باللسانِ فهي[3] لا تَحْتَمِلُ النسخَ أبدا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالتوحيدِ، أي أرسلْناكَ لِتَدْعُوَ الناسَ إلى توحيدِ اللهِ، أو أرسلْناكَ بالحقِّ الذي لِلهِ عليهِمْ وما لِبَعْضٍ على بَعْضٍ، أو أرسلْناكَ بالحَقِّ أي لِلحقِّ، وهو البَعْثُ الذي هو كائنٌ، لا مَحالَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً بالجنةِ لِمَنْ آمَنَ، وأجابَكَ، ونذيراً بالنارِ لِمَنْ عَصاهُ، وخالَفَ أمْرَهُ، وتَرَكَ إجابَتَكَ. هذا يدلُّ على أنهُ لم يُرِدْ في قولِهِ: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] أنهُ نذيرٌ خاصّةً، ليسَ بِبَشيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ [منْ][4] أصنافِ الخَلْقِ على اخْتِلافِ جواهِرِهِمْ وأجناسِهِمْ[5] إلا وقد خَلا لهمْ نذيرٌ، يأمُرُ، ويَنْهى، ويَمْنَعُ، ويُبيحُ، كقولِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ الآية [الأنعام: ٣٨] أخبَرَ أنَّ الخَلْقَ على اخْتِلافِ أصنافِهِمْ وجواهِرِهِمْ أُمَمٌ أمثالُ[6] البَشَرِ، يَتَحمَّلونَ ما يَتَحَمَّلُ البَشَرُ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والنِّذارةِ والبِشارةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ راجعٌ إلى الجِنِّ والإنسِ خاصّةً، ليسَ إلى الكُلِّ، لأنهما هما المَخْصوصانِ بالخِطابِ والنُّطْقِ والعَقْلِ وغَيرِ ذلكَ. وفيهما ظَهَرَ بَعْثُ الرسُلِ والنُّذُرِ، ولم يَظْهَرْ ذلكَ في غَيرِهما. فكأنهُ قالَ: وإنْ مِنْ أُمّةٍ مِنْ هذينِ [الجوهَرَينِ][7] مِنَ القُرونِ إلّا خَلا فيهما نذيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ يُعَزّي رسولَهُ، ويُصَبِّرُهُ على تكذيبِ قومِهِ إيّاهُ؛ يقولُ: لَسْتَ أنتَ بأوّلِ مُكَذَّبٍ مِنَ الرسلِ، بل كُذِّبَ إخوانُكَ الذينَ مِنْ قَبْلُ بَعْدَ ما جاؤوا بالبَيِّناتِ وبالزُّبُرِ، أي بالكُتُبِ المُنيرةِ مع ما جاؤوهُمْ بذلكَ، فكذَّبوهُمْ، فَصَبروا على تكذيبِهِمْ. فاصْبِرْ أنتَ على تكذيبِ قومِكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي ثم أخَذْتُ الذينَ كَذَّبوا رسُلَهُمْ بالتكذيبِ، فآخُذُ قومَكَ على تكذيبِهِمْ إياكَ أيضاً. يَذْكُرُ هذا لهُ لِيُصَبِّرَهُ على ذلكَ، ويَنْفِيَ حُزْنَهُ على تكذيبِهِمْ إيّاهُ، أو يَذْكُرُ هذا زَجْراً لقومِهِ عنْ تكذيبِهِمْ إيّاهُ [لئلا يَنْزِلَ][8] بهِمْ مِنَ العذابِ ما نَزَلَ بأولئكَ بالتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فكيفَ كانَ إنكاري؟ وقالَ بعضُهُمْ: عذابي؟

ودلَّ قولُهُ: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [على أنَّ][9] قولَهُ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] أي منيرُ السمواتِ [والأرضِ][10] بما سَمّى الكتابَ في غَيرِ آيةٍ[11] مِنَ القرآنِ نوراً، هو نورٌ بما يُنيرُ القلوبَ والصدورَ.

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وأصنافهم. (٦) في الأصل وم: أمثالهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فينزل. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: آي.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَر، فيهِ فوائدُ مِنَ الحكمةِ:

أحَدُها: أنهُ جَعَلَ ﷻ، طَبْعَ الماءِ مِمّا يلائِمُ، ويُوافِقُ طِباعَ هذهِ الثمراتِ على اخْتِلافِ جواهِرِها وألوانِها حتى تكونَ حياةُ كلِّ شيءٍ منها وقِوامُهُ بهذا الماءِ. وكذلكَ جَعَلَ طبعَ هذا الماءِ ملائماً مُوافِقاً طِباعَ جميعِ الخلائقِ مِنَ البَشَرِ والدوابِّ والطيرِ والوَحْشِ وجميعِ الحيوانِ على اخْتِلافِ جواهِرِهِمْ وأصنافِهِمْ وغِذائهِمْ حتى صارَ هو غذاءً وحياةً لهمْ وقِياماً به لِيُعْلِمَ أنَّ مَنْ مَلَكَ هذا، وقَدَرَ [على][1] توفيقِ هذا على اخْتِلافِ ما ذَكَرْنا مِنَ الجواهرِ والأغذيةِ وتدبيرِهِ، لا يُعْجِزُهُ إنشاءُ شيءٍ مِنْ لا شيءٍ، ولا يَخْفى عليهِ شيءٌ.

وفي ذلكَ دلالةُ البعثِ: أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ وتدبيرُهُ وعِلْمُهُ هذا المَبْلَغَ، لا يُعْجِزُهُ، ولا يَخْفى عليهِ شيءٌ.

والثاني: أنهُ أنشأَ ما ذَكَرَ مِنَ مُخْتَلِفِ الأشياءِ والجواهرِ بهذا الماءِ، وجَعَلَهُ سَبَباً لحياةِ ما ذَكَرَ مِنَ البَشَرِ والدوابِّ وغيرِهِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ في ذلكَ الماءِ الذي أنشأَ ذلكَ منهُ، وجَعَلَهُ سبباً لحياتِهِمْ مِنْ أثَرِ ذلكَ فيهِ أو مِنْ جِنْسِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يكُنْ إنشاءُ هذهِ الأشياءِ بهذا الماءِ ولا جَعْلُهُ سبباً لها على الاسْتِعانةِ بهِ والتقويةِ، بل إعلاماً لِلْخَلْقِ أسبابَ مطالبِ الغِذاءِ والفَضْلَ لهمْ. إذْ لو كانَ على الاسْتِعانةِ وجَعْلِهِ سَبَباً لهُ في إنشاءِ ذلكَ لكانَ تكَوُّنُ تلكَ الأشياءِ المُنْشَأةِ [مُشاكِلاً للماءِ مُشابِهاً][2] له. دلَّ أنهُ جَعَلَ ذلكَ سَبَباً لِلْخَلْقِ في الوصولِ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ الأغذيةِ لهمْ مِنْ غيرِ أنْ يَرَوا أرزاقَهُمْ مِنْ تلكَ الأسبابِ والمكاسِبِ، ولكنْ مِنْ فَضْلِ اللهِ.

والثالثُ: [أنهُ][3] أنشأَ هذهِ الفواكهَ والثمراتِ مُخْتَلِفَةً ألوانُها وطُعومُها ممّا عَلِمَ مِنَ البَشَرِ مِنَ المَلالةِ والسآمةِ مِنْ نوعٍ واحدٍ ولونٍ واحدٍ لِيُتِمَّ نِعَمَهُ عليهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ الشُّكْرَ عليها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أنشأَ الجبالَ أيضاً مُخْتَلِفَةً مِنْ بِيضٍ وحُمْرٍ وغرابيبَ كما أنشأَ الثمراتِ والدّوابَّ والحيوانَ كُلَّها مُخْتَلِفَةً.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ وَصْفٌ، وَصَفَها بالسَّوادِ لِلطُّرُقِ التي أنشأها في الجبالِ.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ كاخْتِلافِ الجبالِ والثمارِ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمعُ غِرْبيبٍ، وهو الشديدُ السَّوادِ؛ يُقالُ: أسودُ غِرْبيبٌ، وهو [ما قالَ][6] القُتَبيُّ وأبو عَوسَجَةَ. ورجلٌ غِرْبيبُ الشَّعْرِ أي أسودُ الشَّعْرِ؛ ومأخَذُهُ مِنَ الغرابِ لأنهُ أسودُ، والجُدَدُ الخُطوطُ والطَّرائقُ في الجبالِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجُدَّةُ [الخُطَّةُ، والجُدَدُ][7] جمعُ الخُطوطِ؛ يُقالُ: جَدَدْتُ أي خَطَطْتُ؛ يُقالُ: ثوبٌ جديدٌ، وثيابٌ جُدُدٌ [﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾][8] أي طرائقُ مُخْتَلِفَةُ ألوانِها /٤٤١ ـ ب/ بعضُها بِيضٌ، وبعضُها غرابيبُ، وهي سودٌ.

يُذَكِّرُهُ[9] قُدْرَتَهُ وتَدْبيرَهُ أنَّ الجبالَ مع غِلْظَتِها وشدتِها وارْتِفاعِها جَعَلَها بحيثُ يُتَطَرَّقُ منها في صعودِها وهُبوطِها، فَمَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفى عليهِ شيءٌ. أو يُذَكِّرُهُ نِعَمَهُ عليهِمْ حينَ[10] سَخَّرَها لهمْ لِيَقْضُوا فيها حوائِجَهُمْ في ما بَعُدَ عنهمْ، وصَعُبَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنَّ الذي يَحِقُّ على العالِمِ باللهِ أنْ يَخْشاهُ لِما يَعْلَمُ مِنْ سُلْطانِهِ وهَيْبَتِهِ وقُدْرَتِهِ وجَلالِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مشاكلة للماء مشابهة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وكذلك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: والخطة الجدد. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يذكر. (١٠) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

والثاني: أنَّ العالِمَ بالبعثِ، هو[1] المؤمنُ بهِ، وهو يَخشَى مُخالَفَةَ اللهِ في أوامِرِهِ ونواهيهِ لِما يَعلَمُ مِنْ نَقْمَتِهِ وعذابِهِ مَنْ خالَفَهُ، وعَصَى أمْرَهُ، فأمّا مَنْ لم يَعلَمْ بالبَعْثِ، ولم يؤمِنْ بهِ، فلا يخافُهُ؛ كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] ونَحْوُهُ.

[والثالثُ][2]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ عِبادَهُ مِنْ جملةِ المؤمنينَ. يقولُ: واللهُ أعلَمُ: إنما يَخشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ المؤمنونَ بهِ المُصَدِّقونَ عذابَهُ ونَقْمَتَهُ. فأمّا مَنْ لم يُؤمِنْ بهِ فلا يَخافُهُ كما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥و. .] إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِّ مؤمنٍ، ويكونُ الصَّبّارُ والشَّكورُ كِنايةً عنِ المؤمنِ. فَعَلَى ذلكَ هذا مُحتَمَلٌ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: على التَّقديمِ والتَّأخيرِ: [إنَّ أشَدَّ][3] الناسِ للهِ خَشْيَةً أعْلَمُهُمْ باللهِ.

والخَشْيَةُ قالَ الحَسَنُ: هي الخَوفُ الدائمُ اللازمُ في القَلْبِ غَيرُ مُفارِقٍ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: العزيزُ المُنتَقِمُ مِنْ أعدائِهِ، والغَفورُ لذنوبِ المؤمنينَ.

وقال بعضُهُمْ: ﴿عَزِيزٌ﴾ في مُلكِهِ، ومَنْ دونَهُ ذليلٌ ﴿غَفُورٌ﴾ سَتورٌ على ذنوبِ المؤمنينَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحتَمِلُ مِنْ تلاوةِ الكتابِ ههنا ما ذكَرَ في آيةٍ أُخرَى حينَ قالَ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] وأقاموا فيها مِنَ الأمْرِ بالصلاةِ والأمْرِ بالزكاةِ.

[ويَحتَمِلُ][4] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي يَتَّبِعُونَ الكتابَ في ما فيهِ ممّا لهمْ وممّا عليهِمْ، يَتَّبعونَهُ[5] كُلَّهُ مِنَ الإقدامِ على الحلالِ والاجْتِنابِ عنِ الحرامِ. والمُنْتَفِعونَ بكتابِ اللهِ هُمُ الذينَ اتَّبَعوا ما فيهِ مِنْ إقامةِ الصلاةِ [والإنفاقِ مِمّا][6] رُزِقوا.

فأمّا مَنْ تَلا، ولم يَتَّبِعْ ما فيهِ، فكأنَّهُ لم يَتْلُ، وهو كما نَفَى عنهمْ هذهِ الحواسَّ مِنَ البَصَرِ والسَّمْعِ [والنُّطقِ وغَيرِها][7] لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بها، وإنْ كانَتْ لهمْ تلكَ الحواسُّ حقيقةً، وأثْبَتَها للمؤمنِ لِما انْتَفَعَ بها، وإنْ لم تَكُنْ لهمْ حقيقةً. فَعَلَى ذلكَ يَحتَمِلُ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في كلِّ حالٍ وكُلِّ وَقتٍ، لا يَترُكونَ الإنفاقَ على كلِّ حالٍ كقولِهِ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣ و١٣٤] أي يُنفِقونَ على كلِّ حالٍ.

ويَحتَمِلُ[8]: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي يَتَصَدَّقونَ الصدقةَ ظاهراً وباطناً أي ما ظَهَرَ للناسِ، وعَلِموا بهِ، وما خَفِيَ عنهُمْ، واسْتَتَرَ، لِما قَصَدوا لها بها وَجْهَ اللهِ لا مُراآةَ الخَلْقِ. فَمَنْ قَصْدُهُ بالخيراتِ وجهَ اللهِ لا مُراآةَ الخَلْقِ فَعِلْمُهُمْ بهِ وجَهْلُهُمْ سَواءٌ لا يَمْتَنِعُ عنْ ذلكَ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ سَمَّى ما يَبْذُلُ العبدُ للهِ تِجارةً، وإنْ كانَ ذلكَ لهُ في الحقيقةِ لُطفاً منهُ وإحساناً

الآية ٣٠ وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ إيفاءِ الأجرِ لهمْ على أعمالِهِمْ حينَ قالَ: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ وذلكَ ليسَ في الحقيقةِ أجراً لِما يَسْتوجِبونَ الأجْرَ قِبَلَهُ بتلكَ الأعمالِ لِما عليهِمْ مِنَ الشُّكرِ في ما أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ حتّى يَتَضَرَّعوا[9] عندَ شُكرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ فيكونَ[10] ذلكَ أجراً لهمْ. لكنَّهُ، عَزَّ، وعلا، بِفَضْلِهِ وإنعامِهِ وَعَدَ لهمُ الثوابَ والأجْرَ على إحسانِهِمْ وأعمالِهِمُ الصالحاتِ إفضالاً منهُ، وسَمَّى ذلكَ تجارةً، كأنْ ليسَ ذلكَ لهُ في الحقيقةِ، ترغيباً منهُ الخَلْقَ على ذلكَ وتحريضاً لهم في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل: أي، في م: أي أشد. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: يتبعون. (٦) في الأصل وم: وانفاق ما. (٧) في الأصل وم: واللسان وغيره. (٨) في الأصل وم: أو يحتمل. (٩) في الأصل وم: وحتى يتضرعون. (١٠) في الأصل وم: حتى يكون.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ذلكَ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿غَفُورٌ﴾ أي سَتورٌ لِمساوِئِهِمْ ﴿شَكُورٌ﴾ أي مُظهِرٌ لحسناتِهِمْ بإدخالِ إياهُمُ الجنة لِيَعلَمَ [كلٌّ][2] أحدٍ أنهُ كانَ مُحسِناً لا مُسيئاً، أو ﴿غَفُورٌ﴾ يَتجاوزُ عن مَساوِئِهِمْ ﴿شَكُورٌ﴾ يَقبَلُ اليَسيرَ مِنَ العَمَلِ القليلَ منهم، يَجْزيهِمْ على ذلكَ الجَزيلَ مِنَ الثوابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: أي لن تَكسُدَ، يُقالُ: بارَتِ التجارةُ تبورُ، فهي بائرةٌ، إذا كَسَدَتْ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ مِنَ الإيفاءِ؛ يُقالُ: أوفيتُهُ حقَّهُ، أي أعطيتُهُ [إياهُ][3] كلَّهُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمدُ ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآنُ ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مُوافِقاً للكُتُبِ التي قَبْلَهُ.

ثم يكونُ وِفاقُهُ إيَاها بأحدِ شيئينِ: إمّا في الأخبارِ والأنباءِ؛ أي تُوافِقُ الأنباءُ والأخبارُ التي في القرآنِ أنباءَ الكتبِ المُتقدِّمةِ وأخبارَها، ويُصَدِّقُ بعضُها بعضاً. فكذلكَ كانتِ الكتبُ كلُّها داعيةً إلى توحيدِ اللهِ والعبادةِ لهُ والطاعةِ.

[وإمّا في][4] الأحكامِ. فإنْ كانتِ المُوافَقةُ في الأحكامِ ففيها الناسخُ والمَنسوخُ.

ألا تَرى أنَّ في القرآنِ ناسخاً ومنسوخاً؟ ثم أخبَرَ أنهُ لو كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. ولو كانَ الناسخُ والمَنسوخُ مُختلِفاً[5] في الحقيقةِ لكانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ على ما أخبَرَ. دلَّ أنَّ بَيْنَهما وِفاقاً[6]، ليسَ باختلافٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ محمداً يُصَدِّقُ ما قبلَهُ مِنَ الكتبِ والرسلِ، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ جميعَ الكتبِ والرسلِ إنما تدعو الخَلْقَ إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي لَخبيرٌ بَصيرٌ بما بهِ مصالحُهُمْ، أو ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي على علمٍ وبَصيرةٍ منهُ بتكذيبِ القومِ رسُلَهُمْ بعثَ الرسلَ إليهِمْ، لا عنْ جَهْلٍ منهُ بذلكَ. وذلكَ، لا يُخرِجُهُ عنِ الحكمةِ كما قالَ بعضُ الملاحدةِ أنْ ليسَ بحكيمٍ مَنْ بَعَثَ الرسُلَ إلى مَنْ يَعلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ويَرُدُّ رسالتَهُ. فهكذا لو كانَ بَعْثُ الرسُلِ لِحاجةِ المرسِلِ، ولِمَنفَعَةٍ يكونُ إرسالُهُ وبَعْثُهُ [الرسُلَ][7] إلى مَنْ يَعلَمُ أنهُ يكذِّبُهُ، ويَرُدُّ رسالتَهُ.

فأمّا اللهُ ﷻ فَيَتعالى عن إرسالِ الرسُلِ لحاجةٍ لهُ أو لِمَنفَعَةٍ، بل لحاجةِ المبعوثِ إليهِ والمُرسَلِ، لم يَخرُجْ علمُهُ بردِّهِ وتكذيبِهِ عنِ الحكمةِ. والتوفيقُ باللهِ.

[ويَحتَمِلُ][8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يُخرَّجُ على الوَعيدِ، أي عالمٌ بأحوالِهِمْ وأفعالِهِمْ ليكونوا أبداً على حَذَرٍ ومُراقبةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ هو مِمَّنْ أخبَرَ أنهُ اصْطفاهُ للهُدى مِنْ مُتَّبِعي محمدٍ، وهمْ أصحابُ الكبائرِ في قولِ المعتزلةِ[9]، وقالَ بعضُهُمْ: همْ أصحابُ الصغائرِ، [وهو قولُ بعضِ الخوارجِ][10] وقالَ بعضُهُمْ: همْ أصحابُ الكبائرِ والصغائرِ جميعاً. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو في الناسِ جميعا؛ المُتَّبِعُ لهُ، وغيرُ المُتَّبِعِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو المُنافقُ الذي أظهَرَ المُوافَقَةَ لِرسولِهِ، وأضمَرَ الخِلافَ لهُ، وقالَ بعضُهُمْ: همُ اليهودُ والنَّصارى، فقد آمَنوا بهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، فلَما بُعِثَ كَفَروا بهِ، وقالَ بعضُهُمْ: همُ المُشركونَ، وقد أقسَموا أنهمْ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] فهؤلاءِ / ٤٤٢ ـ أ/ كُلُّهُمْ في النارِ. وما ذَكَرَ مِنَ الاصْطفاءِ والاختيارِ على قولِ هؤلاءِ يكونُ لرسولِ اللهِ حينَ بعثَهُ[11] إليهمْ لِيَدعُوَهُمْ إلى توحيدِ اللهِ.

---

(١) و(٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: خلافاً. (٦) في الأصل وم: وفاق. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بعض. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بعث.

جنة السنة

والأشبهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مِنْ أمَّتِهِ مِنْ مُتَّبِعي الرسولِ ما رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ أبي الدَّرداءِ ﷺ، إنْ ثَبَتَ، [أنهُ][1] قالَ: تلا رسولُ اللهِ ﷺ وسلَّمَ هذهِ الآيةَ، فقالَ: «أمّا السابقُ بالخيراتِ فيدخلُ الجنةَ بِغَيرِ حسابٍ، وأمّا المُقْتَصِدُ فَيُحاسَبُ حِساباً يسيراً، ثم يدخُلُ الجنةَ، أمّا الظالمُ لنفسِهِ فَيُحْبَسُ حتى يَظُنَّ أنهُ لنْ يَنْجُوَ، ثم تنالُهُ الرحمةُ، فيدخُلُ الجنةَ، ثم قالَ رسولُ اللهِ: وهمُ الذينَ قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] [بنحوه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٢/١٣٧] وكذلكَ رُوِيَ عنْ أنسٍ وعائشةَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فإنْ ثَبَتَ عنهُ فهو تأويلُ الآيةِ.

وتفسيرُ الظالمِ: مِنْ أهلِ التوحيدِ والمِلَّةِ. [وتفسيرُ المُقْتَصِدِ ما][2] قالَ بعضُهُمْ: هو الذي يَخْلِطُ عملاً صالحاً بعملٍ سَيِّءٍ كقولِهِ: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] وقالَ بعضُهُمْ: هو الذي يقومُ بأداءِ الفرائضِ والأركانِ، وأما غيرُهُ فلا.

والسابقُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ﴾ كلِّها، لا تقصيرَ منهِ ولا نُقصانَ.

[والثاني][3]: ﴿سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ﴾ فيه تقصيرٌ ونُقصانٌ.

وقد ذَكَرْنا هؤلاءِ الفِرَقَ الثلاثةَ في غَيرِ مَوضعٍ: [قالَ في مَوضعٍ][4]: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ الآية ثم قالَ: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [وقالَ][5]: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٠ و١٠٢ و١٠٦]. فالذينَ اعترَفوا بذنوبِهِمْ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ والآخرونَ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾. وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ السَّٰبِقُونَ﴾ ﴿أُولَٰٓئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ و١١ و١٢] وقالَ: ﴿وَأَصْحَٰبُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ الْيَمِينِ﴾ ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧ و٢٨] إلى آخرِ ما ذَكَرَ [الواقعة: ٤٠] وقالَ: ﴿وَأَصْحَٰبُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١].

ففي ظاهرِ هذا أنَّ أصحابَ الشمالِ المُكَذِّبونَ حينَ ذَكَرَ في آخِرِ السورةِ الفِرَقَ الثلاثةَ حينَ [قالَ][6]: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٢]. ففي ظاهرِ هذا أنَّ الظالمَ لنفسِهِ هو المُكَذِّبُ والكافرُ في قولِهِ: ﴿وَأَصْحَٰبُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١] في ظاهرِ ما ذَكَرَ في سورةِ التوبةِ أنهُ مِنْ أهلِ التوحيدِ حينَ[7] قالَ: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ﴾ يَحتَمِلُ بِعِلْمِ اللهِ، ويَحتَمِلُ بِمَشيئَةِ اللهِ، وقيلَ: بأمْرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: هذا الذي أورَثْناهُمْ مِنَ الكتابِ هو الفضلُ الكبيرُ كقولِهِ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] أو يقولُ: إدخالُهُمُ الجنةَ فَضْلٌ منهُ كبيرٌ.

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ﴾ قالَ: إنَّ سابِقَنا سابقٌ، وإنَّ مُقْتَصِدَنا ناجٍ، وإنَّ ظالِمَنا مغفورٌ لهُ.

وقالَ عثمانُ بْنُ عفانَ ﷺ: ألا إنَّ سابِقَنا أهلُ الجهادِ منّا، وإنَّ مُقْتَصِدَنا أهلُ حَضَرِنا، وإنَّ ظالِمَنا أهلُ بَدْوِنا.

وابنُ عباسٍ ﷺ يقولُ: الظالمُ لنفسِهِ كافرٌ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][9] قالَ: الظالمُ لنفسِهِ المُنافقُ، وهو هالكٌ، أمّا السابقُ والمُقْتَصِدُ فقد نَجَيا.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ذَكَرَ التَّحَلِّيَ فيها بالذهبِ واللؤلؤِ ولِبْسِ الحريرِ [وليسَ للرجالِ رَغْبَةٌ في هذهِ الدنيا في التَّحَلِّي بذلكَ ولا لِبْسَ الحريرِ][10] اللهمَّ إلا أنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والمقتصد. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

يكونَ للعربِ رَغْبَةٌ في ما ذَكَرَ، فَخرجَ الوَعْدُ لهمْ بذلكَ، والترغيبُ في ذلكَ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الخِيامِ فيها والقِبابِ والغُرُفاتِ، وتلكَ أشياءُ تُستَعْمَلُ في حالِ الضرورةِ في الأسْفارِ وعندَ عَدَمِ [وجودِ][1] غيرِهِ مِنَ المنازِلِ والغُرَفِ عندَ ضِيقِ المَكانِ.

فأمّا في حالِ الاختيارِ ووجودِ غيرِهِ فلا. لكنهُ خَرَّجَ ذلكَ لِما لهمْ في ذلكَ مِنْ فَضْلِ رَغْبَةٍ.

ألا تَرى أنهمْ قالوا: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؟ [الزخرف: ٥٣] ذَكَروا ذلك لِما لِذلكَ عندَهُمْ فَضلُ قَدْرٍ ومَنزلةٌ ورغبةٌ في ذلكَ، أو ذَكَرَ[2] هذا لهمْ في الجنةِ؛ أعني الذهبَ والفضةَ والحريرَ، وما ذَكَرَ ليسَ على أنَّ هذا ممّا يُشاهَدُ بحالِهِ، أو يُماثِلُهُ في الجوهرِ على التحقيقِ سوى مُوافَقةِ الاسْمِ لِما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ فيها؛ يعني في الجنةِ «ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [البخاري ٣٢٤٤] [على ما][3] ذَكَرَ أيضاً أنَّ ما في الجنةِ لا يُشْبِهُ ما في الدنيا، ولا يُوافِقُهُ إلّا في الاسْمِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال بعضُهُمْ: إنما يقولُ هذا الظالمُ لنفسِهِ [الذي ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾][4] إنهمْ يُحْبَسونَ على الصراطِ حَبْساً طويلاً، أو يُحاسَبونَ حساباً شديداً، فيطولُ حُزْنُهُمْ بذلكَ، ثم يُؤذَنُ لهمْ بالدخولِ في الجنةِ. فعند ذلكَ [يقولونَ ذلكَ][5] ويَحْمَدونَ ربَّهُمْ على إذهابِ ذلكَ الحَزَنِ عنهمْ.

وقال بعضُهُمْ: لا، ولكنْ يقولُ كلُّ مُسْلِمٍ إذا دَخَلَ الجنةَ لِما يَخافُ كلُّ مُسْلِمٍ في الدنيا، ويَحْزَنُ على تَبِعاتِهِ ومَساوِئِهِ لِما لا يَدْري إلى ماذا يكونُ مَصيرُهُ ومَرْجِعُهُ؟ وأينَ مُقامُهُ في الآخِرةِ؟ فلّما أُدْخِلَ الجنةَ أَمِنَ ما كانَ يَخافُهُ في الدنيا، ويَحْزَنُ عليهِ، وسَلِمَ مِنْ تلكَ الأخطارِ، حَمِدَ ربَّهُ عندَ ذلكَ.

وقال بعضُهُمْ: ذلكَ الحمدُ إنما يكونُ منهمْ لَمّا ذَهَبَ عنهمْ غَمُّ العيشِ والخُبْزِ الذي كانَ لهمْ في الدنيا؛ إذْ كلُّ أحدٍ يهتمُّ لعيشِهِ في الدنيا. فلّما دَخَلَ الجنةَ ذهبَ ذلكَ عنهُ، فعندَ ذلكَ يَحْمَدُ ربَّهُ.

وقال بعضُهُمْ: يَحْمَدونَ ربَّهُمْ لِما يأمَنونَ الموتَ عندَ ذلكَ. وذُكِرَ في الخَبَرِ «أنهُ يُؤتَى بالموتِ يومَ القيامةِ على صورةِ كبشٍ فَيُذْبَحُ بينَ أيديهِمْ، فعندَ ذلكَ يأمَنونَ الموتَ» [بنحوه البخاري ٤٧٣٠] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ لِمساوِئِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهمْ ما يَسْتَوجِبونَ المَغْفِرَةَ ﴿شَكُورٌ﴾ لِحسناتِهِمْ حينَ[6] قَبِلَها منهمْ، وأعطاهُمُ الثوابَ.

وقالَ أهلُ [التأويلِ][7]: ﴿لَغَفُورٌ﴾ لِذنوبِهِمْ ﴿شَكُورٌ﴾ يعطيهِمُ الجزاءَ الجزيلَ بالعَمَلِ القليلِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سَمّى الجنةَ][8] دارَ المُقامةِ لِما [لا][9] يُتَمَنّى التَّحَوُّلُ منها ولا الانتِقالُ ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ليسَ مِنْ صاحبِ نعمةٍ في هذهِ الدنيا، وإنْ عَظُمَتْ إلّا وهو يَمَلُّ منها، ويَسْأَمُ، ويَتَمَنّى التَّحَوُّلَ منها والانتِقالَ. وكذلكَ ليسَ مِنْ لَذّةٍ وإنْ حَلَتْ في هذهِ الدنيا إلّا وهي تُعْقِبُ بآفةٍ. فأخبَرَ أنَّ نعيمَ [الآخِرةِ][10] ولَذّاتِها ممّا لا يُتَمَنّى، ولا يُبْتَغى التَّحَوُّلُ منها، ولا لَذّتُها [تَعْقُبُها آفةٌ؛ فلا تَعَبَ][11] ولا إعياءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وذلكَ أنَّ مَنْ حَلَّ بِقرابَتِهِ وبالمتَّصلينَ بشيءٍ في هذهِ الدنيا مِنْ آفاتِها يَهْتَمُّ لِذلكَ، ويَتَكَلَّفُ دفعَ ذلكَ عنهمْ. فأخبَرَ أنهمْ إذا حَلّوا في دارِ المُقامةِ لا يَهيبُهُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يذكر. (٣) في م: على ما ذكرنا وما. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: تعقب آفة ولا تعباً ولا إعياء.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠] شَكَرَ لهمْ ما كانَ [منهمْ إليهِ][(١)] وغفَرَ لهمْ ما كانَ منهمْ مِنْ ذَنْبٍ. وفي حديثٍ رُفِعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قالَ: «شكَرَ اللهُ للمؤمنِ اليسيرَ مِنَ الحَسَناتِ، وغفَرَ لهُ الذنوبَ العِظامَ».

والنَّصَبُ الأذى. ويُقالُ: اللَّغْبُ واللُّغوبُ التعبُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموتِ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيَسْتريحوا مِنْ عذابِها ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾/ ٤٤٢ ـ ب/ نَقْضُ قولِ الجَهْمِ وأبي الهُذَيلِ المُعْتزليِّ:

أمّا قولُ الجَهْمِ فهو[(٢)] انْقِطاعُ العذابِ عَنْ أهلِ النارِ. فأخبَرَ اللهُ أنهُ لا يُخَفَّفُ عنهمُ العذابُ. فلو كانَ يَحْتَمِلُ الانْقِطاعَ لَاحْتَمَلَ التخفيفَ. فإذا أخبَرَ أنهُ لا يُخَفَّفُ عنهمْ. دلَّ أنهُ لا يَنْقَطِعُ. وكذلكَ قولُ مالكٍ لهمْ ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] لمّا طلبوا التخفيفَ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

وأمّا أبو[(٣)] الهُذَيلِ فإنهُ يقولُ: إنَّ العذابَ قد يَفْتُرُ على أهلِ النارِ، ويَصيرُ بحالٍ لو أرادَ اللهُ أنْ يزيدَ في عذابِهِمْ شيئاً ما قَدَرَ عليهِ، وكذلكَ يقولُ في لَذّاتِ أهلِ الجنةِ: إنها تَصيرُ بحالةٍ، وتَبْلُغُ مَبْلَغاً لو أرادَ اللهُ أنْ يزيدَ لهمْ شيئاً منها ما قَدَرَ عليهِ. فظاهرُ الآيةِ، [يُكَذِّبُهُ، ويَرُدُّ قولَهُ حينَ][(٤)] قالَ: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ لِنِعَمِهِ وجاحدٍ وَحْدانيَّتَهُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَصيحونَ فيها. وقالَ بعضُهُمْ: الاصْطِراخُ: الاسْتِغاثةُ، أي يَسْتَغيثونَ. واصْطِراخُهُمْ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

يَفْزَعونَ أوّلاً إلى كُبَرائِهِمُ الذينَ اتَّبَعوهُمْ في الدنيا، يَطْلُبونَ منهمْ دفعَ بعضِ ما هُمْ فيهِ مِنَ العذابِ والتخفيفِ عنهمْ حينَ[(٥)] قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ فأجابوا لهمْ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقالوا[(٦)] في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ الآية [غافر: ٤٨].

فلمّا أيِسوا، وانْقَطَعَ رجاؤُهُمْ بالفَرَجِ مِنْ عندِهِمْ، فَزِعوا عندَ ذلكَ إلى خَزَنَةِ جهنَّمَ، [وقالوا][(٧)]: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٤٩ و٥٠].

فلمّا أيِسوا منهمْ، وانْقَطَعَ رجاؤُهُمْ، فَزِعوا إلى مالكٍ يطلبونَ منهُ أنْ يَسْأَلَ ربَّهُ لِيَقْضِيَ عليهمْ بالمَوتِ، حينَ[(٨)] قالَ: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فلمّا أيِسوا سألوا ربَّهُمُ الإخراجَ عنها لِيَعْمَلوا غيرَ الذي عَمِلوا[(٩)] ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاحتجَّ عليهمْ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ فيها مِنَ العُمُرِ مِثْلَ العُمُرِ الذي يَتَّعِظُ فيهِ مَنْ يَتَّعِظُ؟ فهلّا اتَّعَظْتُمْ فيهِ ما اتَّعَظَ مَنِ اتَّعَظَ فيهِ، وقد أعمَرْناكُمْ مِثْلَ ما أعمَرْنا أولئكَ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

[وقولُهُ تعالى][(١٠)]: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: جاءَكُمُ الرسولُ، أنْذَرَكُمْ هذا، فقد كَذَّبْتُموهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي الشَّيبُ؛ ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي قد رأيتُمْ، وعايَنْتُمْ تَغْييرَ الأحوالِ في أنفسِكُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنْ حالِ الصِّغَرِ إلى الكِبَرِ مِنَ الشبابِ إلى المَشيبِ، والرَّدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ فهلّا اتَّعَظْتُمْ بهِ كما اتَّعَظَ أولئكَ ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

---

(١) في الأصل وم: منه إليهم. (٢) في الأصل وم: لأنه يقول. (٣) في الأصل وم: على قول أبي. (٤) في الأصل وم: يكذبهم ويرد قولهم حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: حيث قالوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: حين قالوا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحدُهما: على الوَعيدِ والتَّخويفِ، أي هو عالمٌ بالأشياءِ التي لم يَمْتَحِنْها بِمِحَنٍ، ولا أمرَها بأمورٍ، ولا نَهاها[1] بِمَناوِ فالذينَ امْتَحَنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، وأمَرَهُمْ بأوامِرَ، ونَهاهُمْ[2] بِمَناوٍ أحَقُّ أنْ يكونَ عالِماً بهِمْ.

والثاني: أنهُ على عِلْمٍ بما يكونُ مِنْ خَلْقِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ، خَلَقَهُمْ، وبَعَثَ إليهِمُ الرسلَ، مِنَ التكذيبِ لهمْ والرَّدِّ عليهِمْ لا عَنْ سَهْوٍ وجَهْلٍ بِما يكونُ منهمْ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما بَعَثَ إليهِمُ [الرسُلَ لِحاجةِ أنفسِ المَبْعوثِ إليهِمْ][3] ولِمَنْفَعَةِ لهمْ في ذلكَ لا لِحاجةِ المُرْسِلِ والباعثِ ولِمَنْفَعَةٍ لهُ.

لِذلكَ خُرِّجَ البَعْثُ إليهِمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ للرسالةِ على الحكمةِ.

وفي الشاهِدِ [دليلٌ][4] على السَّفَهِ لأنَّ في الشاهِدِ إنما يَبْعَثُ الرسُلَ إلى مَنْ يَبْعَثُ لحاجةِ نفسِهِ ولِمَنْفَعَةٍ لهُ في ذلكَ، فَخُرِّجَ البَعْثُ إليهِمْ على عِلْمٍ منهُ بالتكذيبِ والرَّدِّ عليهِ سَفَهاً وباطلاً، ومِنَ اللهِ حكمةً وحقّاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وكانَ ذاتُ الصدورِ، همُ البَشَرُ؛ خَصَّهُمْ بِعِلْمِ ما يكونُ منهمْ لأنهمْ أهلُ تَمْييزٍ وبَصَرٍ وامْتِحانٍ، فَيُخَرَّجُ ذلكَ مُخرَجَ الوَعيدِ لهمْ والتحذيرِ.

وأمّا غيرُهُمْ مِنَ الدَّوابِّ ونَحوِها فلا مِحْنَةَ عليهِمْ، ولا تَمْييزَ لَهُمْ، لذلكَ خَصَّ هؤلاءِ بذلكَ، إذْ كانَ عالماً بالكُلِّ بذاتِ الصدورِ وغيرِ ذاتِ الصدورِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فإنْ كانَ المُخاطَبونَ بهِ أصحابَ رسولِ اللهِ وأُمَّتَهُ، فَيُخبِرُ أنهُ جَعَلَهُمْ خَلائفَ مَنْ [تَقَدَّمَ منهمْ مِنَ القرونِ][5] والأمَمِ الماضيةِ بَعْدِ ما أُهْلِكوا، أوِ اسْتُؤْصِلوا.

وإنْ كانَ المُخاطَبونَ بهِ بني آدمَ كُلَّهُمْ فَيُخبِرُ أنكُمْ خَلائفُ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ مِنَ الجِنِّ والملائكةِ، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ الجِنَّ كانوا سُكّانَ الأرضِ قَبْلَ بَني آدَمَ، فَجَعَلَهُمْ[6] خَلائِفَ الجِنِّ.

ثم للحكمةِ[7] في جَعْلِ بعضٍ خَلائِفَ الجِنِّ وإنشاءِ قَرْنٍ بعدَ فَناءِ آخَرَ، وإفناءِ آخَرَ بعدَ إنشاءِ آخَرَ وجوهٌ.

أحدُها: أنْ يَعْرِفوا أنهُ إنما أنْشَأهُمْ لعاقبةٍ تُقصَدُ، وتُتأمَّلُ، حينَ[8] أنشأَ قَرْناً، ثم أفناهُمْ، ثم أنْشأَ غيرَهُمْ، ولم يكُنْ في إنشائِهِمْ إلّا هذا، [ما][9] كانَ إنشاؤهُ إيّاهُمْ للفناءِ، إذْ مَنْ بَنى في الشاهِدِ بِناءً لِلنَّقْضِ والفَناءِ لا لِعاقبةٍ تُقْصَدُ بهِ كانَ في بنائِهِ عابِثاً سفيهاً. فَعَلى ذلكَ إنشاءُ هؤلاءِ في هذهِ الدنيا، لو لم يكُنْ لِعاقِبةٍ، كانَ الإنشاءُ لِلْفَناءِ، وذلكَ عَبَثٌ غيرُ حكمةٍ.

والثاني: أنْ يَعْرِفوا أنَّ الدنيا ليستْ هي بدارِ القرارِ والمُقامِ، إنما هي مَجْعولةٌ زاداً للآخرةِ وبُلْغَةً إليها ومَسْلَكاً لها ومَنْزِلاً يُنْزَلُ فيها، ثم يُرْتَحَلُ، كالمَنازِلِ المجعولةِ لِلنُّزولِ فيها في الأسفارِ والتَّزَوُّدِ منها ثم الارْتِحالِ لا لِلْمُقامِ فيها.

فَعَلى ذلكَ الدنيا جُعِلَتْ لِما ذَكَرْنا لئلا يَطْمَئِنّوا إليها، ولا يَرْكَنوا إليها، ويَعْملوا عَمَلَ مَنْ يُريدُ الارتِحالَ لا عَمَلَ المُقيمِ فيها.

والثالثُ: أنْ يَعْرِفوا أنَّ الآلامَ التي جُعِلَتْ فيها واللذاتِ، ليستْ بدائمةٍ أبداً، بل على شَرَفِ الزَّوالِ والتَّحَوُّلِ، لأنَّ في الحياةِ لَذَّةً، وفي الموتِ ألَماً. فلا دامَتِ اللذَّةُ والألَمُ، لأنهُ أحْيَى قَرْناً، ثم أفناهُمْ، ثم أحْيَى قَرْناً آخَرَ وأفناهُمْ. فلا دامَتِ اللذةُ ولا الآلامُ. ولكنِ انْقَضَيَنا لِيَعْلَموا أنهما لا يَدومانِ أبداً، ولكنْ يزولانِ.

والرابعُ: أنْ يَعْتَبِروا بِمَنْ تَقَدَّمَ منهمْ مِنَ القرونِ أنهُ على ماذا يكونُ الثناءُ الحَسَنُ، ويَبْقَى الأَثَرُ والذِّكْرُ الجَميلُ؟ وبأيِّ عَمِلٍ يَنْقَطِعُ؟ ويَفْنَى ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: نهاهم. (٢) في الأصل وم: ونهى. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: الأرض فإن كان المخاطبون. (٦) في الأصل وم: فجعلوا. (٧) في الأصل وم: وجه الحكمة. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَمَنْ كانَ مِنْ مُتَّبِعي الرسُلِ ودُعاةِ الخَيرِ والتوحيدِ والطاعةِ، فَيَبْقى لهُ أثَرُ الخَيرِ والثناءُ الحَسَنُ والذِّكْرُ الجَميلُ. ومَنْ كانَ مِنْ أتباعِ أهلِ الكُفرِ والشَّرِّ لم يَبْقَ لهمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ لِيَعْلَموا بالذي يُبْقِي لهمُ الثناءَ الحَسَنَ، ويُعْقِبُ لهمُ الذِّكْرَ، لا الذي يَقْطَعُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي عليهِ ضَررُ كُفرِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ الآية، أي لا يزيدُ كُفرُهُمْ باللهِ وبرسولِهِ وعبادَتِهِمُ الأصنامَ إلّا مَقْتاً وخساراً لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَها رَجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ يومَ القيامةِ ورَجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ[1] عبادَتُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لا يزيدُ ذلكَ لهمْ إلّا مَقْتاً مِنْ ربِّهِمْ وخساراً.

[ويَحتَمِلُ أنْ][2] تكونَ أعمالُهُمُ التي عَمِلوا في هذهِ الدنيا مِنْ صِلَةِ الأرحامِ والقُرَبِ التي رَجَوا منها الرِّبْحَ والنَّفْعَ في الآخِرَةِ، لا يزيدُ ذلكَ لهمْ: ﴿إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظاهِرُ قولِهِ ﴿أَرُونِى﴾ /٤٤٣ ـ أ/ أمْرٌ لكنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على الإعجازِ: أي [يَعْجِزُ، ولا][3] يَقْدِرُ ما تَعْبُدونَ مِنْ دونِه خَلْقَ السمواتِ والأرضِ ولا اشتِراكَهُ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ولا إنزالَ كتابٍ مِنَ السماءِ لِيأمُرَهُمْ بذلكَ، بلِ اللهُ هو الخالقُ لِذلكَ كلِّهِ، وهو القادرُ عليهِ، فكيفَ صَرَفْتُمُ العِبادةَ عنهُ والألوهيَّةَ إلى مَنْ هو عاجزٌ عنْ ذلكَ كلِّهِ؟

والثاني: على التَّنْبيهِ والتَّعْييرِ لهمْ والتَّسْفيهِ لأحلامِهِمْ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ الأصنامَ التي تَعبُدونَها دونَ اللهِ، وتُسَمُّونَها آلهةً، لم يَخْلُقوا شيئاً مِمّا ذَكَرَ ولا لهمْ شِرْكٌ في ذلكَ، ولا لَكُمْ كتابٌ يُبيحُ لكُمْ ذلكَ، ويَأذَنُ لكُمْ، وتَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو الفاعلُ لذلكَ كلِّهِ حينَ قالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ولا لهمْ كتابٌ في ذلكَ لأنَّ الكتابَ جِهَةُ [وصولِ الرسولِ إليهِ][4]، وأنتُمْ لا تؤمِنونَ بالرسولِ، فكيفَ عَبَدْتُموها؟ وترَكْتُمْ عبادةَ مَنْ تَعلَمونَ أنهُ الفاعلُ لِذلكَ والقادرُ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَحتَمِلُ جواهِرَ الأرضِ نفسَها، ويَحتَمِلُ الخارجَ منها مِمّا بهِ مَعاشُهُمْ وقِوامُهُمْ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يَحتَمِلُ في جَواهِرِها، ويَحتَمِلُ ما يَنْزِلُ منها مِمّا بهِ مَعاشُهُمْ وأرزاقُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي على حُجَّةٍ وبَيانٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ يَحتَمِلُ وعْدُهُمُ الذي ذَكَرَ [بعضُهُمْ لبعضٍ][5] ما قالَهُ القادةُ منهمْ والرؤساءُ للأتباعِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [وقالوا][6]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وما لَبَسوا هُمْ على الأتباعِ مِنْ أمرِ[7] الكتابِ والرسولِ: أنهُ[8] ساحرٌ، كذّابٌ، وأنهُ مُفتَرٍ، وأمثالَ ذلكَ مِمّا يَكثُرُ عَدَدُهُ. فذلكَ كلُّهُ منهمْ تَغْريرٌ للأتباعِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾

يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فإنْ كانَ على هذا، فيقولُ: تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ، هو رافِعُ السمواتِ والأرضِ، والمُمْسِكُ لهما، والمانعُ أنْ تَزولا عنْ مكانِهِما، لا يَقْدِرُ أحدٌ على إعادَتِهِما ولا إمساكِهِما سِواهُ. فكيفَ تَعبُدونَ مَنْ لا يَملِكُ ذلكَ؟

[ويَحتَمِلُ][9] أنْ يكونَ ذلكَ قولَهُ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية [مريم: ٩٠] كادَتْ تَتَفَطَّرُ[10]،

---

(١) في الأصل وم: تقرب. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل: لا يعجز أو، في م: لا يعجز. (٤) في الأصل وم: وصوله إليه الرسول.
(٥) في الأصل وم: لبعضهم بعضا. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل: أم. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: أو.
(١٠) في الأصل وم: أن يتفطرن.

وتَنشَقُّ، حينَ قالوا: للهِ ولدٌ، ولهُ شريكٌ. فإذا قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦و..] كادَتا تَزولانِ[1] مِن مكانِهِما، وتَسقُطُ عليهِمْ بعظيمِ ما قالوا في اللهِ، سُبحانَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على الصِّلَةِ بشيءٍ ممّا ذَكَرْنا، ولكنْ على الابْتِداءِ. فإنْ كانَ على الابْتِداءِ، فهو يُخبِرُ عن قُدرتِهِ وسُلطانِهِ حينَ[2] رَفَعَ السماءَ، وأمسَكَها في الهواءِ مَعَ غِلَظِها وشِدَّتِها بِلا عَمَدٍ مِن تَحتُ ولا شيءٍ مِن فَوقُ، يَمنَعُها عنِ الانْحِدارِ والزّوالِ عن مكانِها والإقرارِ على ذلكَ والتَّقريرِ.

وفي الشاهِدِ أنْ ليسَ في وُسْعِ أحدٍ مِنَ الخَلائِقِ إمساكُ الشيءِ في الهواءِ ولا إقامَتُهُ إلّا بأحدِ هذينِ السَّبَبَينِ إمّا مِن تَحتُ وإمّا مِن فَوقُ. وكذلكَ الأرضُ حيثُ دَحاها، وبَسَطَها على الماءِ، ومِن طَبْعِها التَّسَرُّبُ والتَّسَفُّلُ في الماءِ لا القرارُ عليهِ حيثُ لا يُحفَرُ مكانٌ منها إلّا ويَخرُجُ منهُ الماءُ. فَدَلَّ تقريرُ الأرضِ على الماءِ، وإمساكُ السماءِ في الهواءِ بلا شيءٍ يُقِرُّهما، ويَمنَعُها عنِ التَّسفيلِ والانْحِدارِ، أنهُ الواحدُ القادرُ بذاتِهِ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿حَلِيمًا﴾ حينَ[3] لم يُرسِلِ السمواتِ عليهِمْ بِعَظيمِ فِرْيَتِهِمْ على اللهِ والقولِ فيهِ بما لا يليقُ بهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] وحين[4] لم يَجعَلْ عقوبتَهُمْ في الدنيا ﴿غَفُورًا﴾ حينَ[5] سَتَرَ عليهِمْ ذلكَ، ولم يَفضَحْهُمْ في الدنيا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ هو قَسَمُهُمْ باللهِ، ومَعناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنَّ العَرَبَ كانَ مِن عادتِهِمْ أنهمْ كانوا يَحلِفونَ بالآباءِ والطَّواغيتِ، لا يَحلِفونَ باللهِ إلّا في ما عَظُمَ أمْرُهُ، وجَلَّ قَدْرُهُ، تأكيداً لِذلكَ كانَ قَسَمُهُمْ باللهِ جَهْدَ إيمانِهِمْ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ قيلَ: رسولٌ ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ فيهِ دلالةُ أنهمْ قد وَقَعَتْ لهمُ الحاجةُ، ومَسَّتْهُمُ الضرورةُ إلى رسولٍ، يُبيِّنُ لهمْ أمْرَ الدينِ وما مصالِحُهُمْ؟ وما لهمْ؟ وما عليهِمْ؟ حينَ[6] أقسَموا، وعاهَدوهُ أنهمْ لو جاءَهُمْ نذيرٌ لاتَّبَعوهُ، واقتَدَوا بِهِ. ثم تَرَكُهُمْ لذلكَ العَهْدِ لِما لم يَرَوهُ أهلاً لِذلكَ، لِما كانَ هو دونَهُمْ في أمْرِ الدنيا، استِكباراً منهُمْ عليهِ، ولذلكَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وإنْ تَرَكوا اتِّباعَهُمْ، نَقَضوا عَهْدَهُمْ لَمّا رأوا مذاهبَ الناسِ مُختَلِفةً، فَظَنّوا أنَّ الاختلافَ يرفَعُ مَنْ بَيْنَهُمْ بهِ. فإنْ لم يَرْتَفِعْ تَرَكوا اتِّباعَهُ، أو لِمَعنًى آخَرَ لا نَعلَمُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ قال بَعضُهُمْ: يَعنونَ اليهودَ والنصارى.

وجائزٌ أنْ يكونوا أرادوا بذلكَ الأمَمَ جميعاً، لكنهم لم يَرَوُا الحقَّ إلّا لواحدةٍ منها، فقالوا: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ يَحتَمِلُ مَكْرُهُمْ ما مَكَروهُ[7] برسولِ اللهِ مِن أنواعِ المَكْرِ حينَ هَمّوا بقتلِهِ وإخراجِهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

ويَحتَمِلُ أيضاً ما ذُكِرَ أنهُ لَمّا خَرَجَ، ودَعا الناسَ إلى توحيدِ اللهِ أقْعَدوا على الطرقِ والمَراصِدِ ناساً يقولونَ لِمَنْ قَصَدَ رسولَ: إنهُ ساحرٌ، وإنهُ كذّابٌ، وإنهُ مجنونٌ؛ يَصُدّونَ الناسَ بذلكَ عنهُ، فذلكَ كَيدُهُمْ ومَكْرُهُمْ بهِ. وقد كانَ منهمْ برسولِ اللهِ مِن أنواعِ المَكْرِ سِوى ذلكَ ممّا لا يُحصى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ هو في الدنيا مِن أنواعِ العذابِ والقتلِ الذي نَزَلَ بهِمْ. ويَحتَمِلُ أن يكونَ ذلكَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: ان تزولا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) و(٤) و(٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: مكرهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قالَ بعضُهُم: ما يَنْظُرونَ إلّا سُنَّةَ الأوّلينَ؛ وسُنَّةُ الأوّلينَ، هي الاستِئْصالُ والإهلاكُ عندَ العِنادِ والمُكابَرةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ما يَنْظُرونَ بإيمانِهِمْ إلّا سُنَّةَ الأوّلينَ؛ وسُنَّةُ الأوّلينَ الإيمانُ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ، وإنْ كانَ لا يُقْبَلُ، ولا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ وهي الاستِئْصالُ عندَ العِنادِ والمُكابرةِ ﴿تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ وإنِ اختلَفَتْ جِهَةُ الإهلاكِ والاستِئْصالِ كقولِهِ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠] وقولِهِ: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] لا شكَّ أنَّ نَفْسَ القولِ منهمْ مُخْتَلِفٌ في الكُفْرِ، وسَبَبُهُ مُتَفَرِّقٌ.

ثم أخبَرَ أنَّ قولَ هؤلاءِ ضاهَأ قولَ أولئكَ [وأنَّ قلوبَهُم تشابَهَتْ][(1)] وإنْ كانَ سببُ ذلكَ سُنَّةً، لا تُحَوَّلُ، ولا تُبَدَّلُ، وهي الاستِئْصالُ، وإنْ كانتْ جِهَةُ ذلكَ وسَبَبُهُ مُخْتَلِفاً.

والثاني: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ التي سَنَّ فيهِمْ، وحَكَمَ ﴿تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ مَدْفعاً ولا مَرَدّاً، أي لن يَجِدوا إلى دَفْعِ ما سَنَّ فيهِمْ، وحَكَمَ مِنَ العذابِ والهلاكِ / ٤٤٣ ـ ب/ [مَدْفَعاً ولا مَرَدًّا][(2)] كقولِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١]

والثالثُ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ وهي إيمانُهمُ الذي يؤمنونَ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ وعندَ نُزولِهِ بهمْ ﴿تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي يؤمنونَ لا مَحالَةَ. ولكنْ لا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ في ذلكَ الوَقْتِ.

والرابعُ: إنَّ كلَّ سُنَّةٍ سَنَّ في كلِّ قومٍ وكلِّ أمّةٍ، وإنِ اختلَفَتْ، لنْ تَجِدَ لذلكَ تَحْويلاً ولا تَبْديلاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: قد ساروا في الأرضِ، ونَظَروا إلى ما حَلَّ بأولئكَ بالتكذيبِ والعِنادِ. لكنْ لم يَتَّعِظوا بهم، ولم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ.

والثاني: على الأمْرِ: أنْ سِيروا في الأرضِ، وانْظُروا ما الذي نَزَلَ بأولئكَ، واتَّعِظوا بهم، وامْتَنِعوا عن مِثْلِ صَنيعِهِمْ.

والثالثُ: أنهمْ، وإنْ ساروا في الأرضِ، ونَظَروا في آثارِهِمْ، لم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي إنهم كانوا أكثرَ عدداً وأشدَّ قوةً وبَطْشاً منكُمْ، ثم لم يُمَكَّنْ لهمْ دَفْعَ ما نَزَلَ بهمْ، وحَلَّ. فأنتمْ يا أهلَ مكةَ مع قِلَّةِ عَدَدِكُمْ وضَعْفِكُمْ لا تقدِرونَ على دَفْعِ ذلكَ عن أنفسِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الإعجازُ في الشاهِدِ يكونُ بوجهَينِ:

أحَدُهما: الامْتِناعُ؛ يقولُ: لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يمتَنِعَ عنهُ ومِنْ عذابِهِ.

والثاني: القَهْرُ والغَلَبَةُ؛ يقولُ: لا يُسْبَقُ منهُ بالقَهْرِ والغَلَبَةِ. بل هو القاهِرُ والغالِبُ على خَلْقِهِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ مِنَ المَعاصي والمَساوِئِ ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي على ظَهْرِ الأرضِ. وَوَجْهُهُ اكْتِفاءٌ بِما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الأرضِ، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] أي عَلِمَ الناسُ، وفَهِموا مِنْ ذِكْرِ الظَّهْرِ ظَهْرَ الأرضِ لِما على ظَهْرِ الأرضِ يُكْتَسَبُ ما يُكْتَسَبُ.

ثم قولُهُ: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُرادُ بالدابَّةِ المُمْتَحَنونَ المُمَيَّزونَ، وهم بنو آدمَ خاصّةً، لأنهمْ أهلُ اكْتِسابٍ وإخراجٍ؛ إذْ قد ذَكَرَ الإهلاكَ بِما يَكْتَسِبونَ، وهمْ أهلُ الاكْتِسابِ دونَ غيرِهِمْ مِنَ الدَّوابِّ.

---

(1) في الأصل وم: وشابهت قلوب بعضهم بعضا. (2) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا ردا.

جنة السنة

وقال بعضُهُم: [المرادُ](١) كلُّ دابّةٍ مِنَ البَشَرِ [لا غيرِهِ](٢) لأنَّ غَيْرَهُ مِنَ الدَّوابِّ إنما أُنْشِئَ لِلْبَشرِ وحَوائجِهِمْ لا لِحاجةِ الدَّوابِّ(٣) أو لِمَنْفَعةٍ لها حينَ(٤) قالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقالَ(٥): ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

فإذا كانَ غَيرُهُ مِنَ الأشياءِ مُنشأً لهُمْ، فإذا أُهْلِكوا هُمْ أَهلِكَ ما كانَ مُنشأً لِحوائجِهِمْ ولِمَنافِعِهِمْ، ولا يكونُ إهلاكُ ما ذَكَرْنا مِنَ الدَّوابِّ خُروجاً عنِ الحكمةِ كما(٦) تقولُ الثَّنَوِيَّةُ: إنهُ ليسَ مِنْ فِعْلِ الحكيمِ الأمْرُ بذبحِ أَسْلَمِ الدَّوابِّ والانْتِفاعِ بِلَحْمِها. قيلَ: هكذا إذا كانَتْ تلكَ مُنْشَأَةً لأنْفُسِها ولِمَنافِعِها. فأمّا إذا كانَ ما ذَكَرْنا أنها مُنْشَأَةٌ لنا ولِمَنافِعِنا فجائزٌ الانْتِفاعُ بها مَرَّةً بعينِها ومَرَّةً بِلَحْمِها، ولا يكونُ فِعْلُ ذلكَ ولا الأمْرُ بهِ غَيرَ حكمةٍ.

ثم الفَرْقُ بينَ إباحةِ الانْتِفاعِ بِلَحْمِ أَسْلَمِ الدوابِّ وحَظْرِ لَحْمِ الضارَّةِ منها والمُضِرَّةِ لأنهُ جَعَلَ حِفْظَ ما ليسَ بضارٍّ ولا مُضِرٍّ إلينا، وعلينا جَعَلَ مؤْنَتَها والذَّبَّ عنها ودَفْعَ [الضَّرَرِ عنها](٧).

فأمّا الضارَّةُ منها والمُضِرَّةُ فهي مُمْتَنِعَةٌ بِنَفْسِها مُتَحَمِّلَةٌ مؤْنَتَها. كذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي لم يُؤاخِذْهُمْ بما كَسَبُوا على ظَهْرِها لِمَا جَعَلَ لهمْ مِنَ المُدَّةِ أحَبَّ أنْ يَنْقَضِيَ ذلكَ، ويَفِيَ بما جَعَلَ لهمْ مِنَ المُدَّةِ وما ضَرَبَ لهمْ مِنَ الوقتِ.

[وقولُهُ تعالى](٨): ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي عن بَصيرةٍ وعِلْمٍ بِكَسْبِهِمْ وصَنيعِهِمْ وما يكونُ منهمْ ضَرَبَ لهمُ المُدَّةَ والوقتَ الذي يَنْتَهُونَ إليهِ، ويَبْلُغونَ آجالَهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ.

بل لم يَزَلْ عالماً بما يكونُ منهمْ. لكنْ لمّا كانَ ضَرَرُ ذلكَ الذي عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ راجعاً إليهمْ أنشأَهُمْ، وجَعَلَ لهمُ المدةَ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

قال القُتَبِيُّ: ﴿أَسَاوِرَ﴾ [فاطر: ٣٣] جمعُ سِوارٍ، وهو الذي تَجْعَلُهُ المرأةُ في مِعْصَمِها. والنَّصَبُ الشِّدَّةُ والتَّعَبُ، واللُّغوبُ الإعياءُ، لَغَبْتُ بنفسي ألْغَبُ لُغوباً، فأنا لاغِبٌ، والغَبْتُ غيري أي كَلَّفْتُهُ حتى أعْياهُ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ، والاصْطِراخُ صِياحُ الضَّجَرِ، والمَقْتُ البُغْضُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وغيره. (٣) في الأصل: أنفسنا، في م: أنفسها. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) في الأصل وم: الضر. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

سورة[1] يس

كلها نزلت بمكة[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢ قولُهُ تعالى: ﴿يسٓ﴾ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: يا إنسانُ، يَعْني محمداً، أُقسِمُ بهِ، يا محمدُ، إنَّ هذا القرآنَ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ، وهو بِلسانِ الحَبَشَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: وهو بلسانِ طَيْءٍ

وقَتادةُ يقولُ: قَسَمٌ أُقْسِمُ بالقرآنِ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ويقولُ: كلُّ حَرْفِ هجاءٍ في القرآنِ، هو مِنْ أسماءِ القرآنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ فَواتِحِ السُّوَرِ. وقالَ بعضُهُمْ: [هو مِنَ الفَواتِحِ][4] يَفْتَتِحُ بها كلامَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: [هو][5] مِنْ أسماءِ الرَّبِّ.

وعنْ مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ وكَعْبٍ ﷺ [أنهما][6] قالا: ﴿يسٓ﴾ قَسَمٌ، أَقْسَمَ اللهُ بهِ، يا محمدُ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآيتان: ٣ و٤].

دَلَّ أنَّ الخِطابَ بهِ على إثْرِ قولِهِ: ﴿يسٓ﴾ على أنهُ هو المُرادُ بقولِهِ: ﴿يسٓ﴾ إذْ لا يَسْتَقِيمُ الخِطابُ بقولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلّا على سَبْقِ خِطابٍ لهُ وذِكْرِ اسْمٍ.

وقالَ عِكْرِمَةُ: هو حرفٌ مِنْ حروفِ الهِجاءِ [افْتَتَحَ بهِ السورةَ][7] كسائِرِ حروفِ الهجاءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ حروفِ الهجاءِ التي أَقْسَمَ اللهُ بها بما يَتْلُو تلكَ الحروفَ مِنَ القرآنِ والآياتِ والكتابِ؛ إذْ مِنْ عادةِ العربِ القَسَمُ بكُلِّ ما عَظُمَ خَطَرُهُ، وجَلَّ قَدْرُهُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ أَقْسَمَ بالقرآنِ، وهمْ كانوا يُنْكِرونَ القرآنَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ؟ قيلَ: [بوجوهٍ:

أحَدُها:][8] أنهمْ، وإنْ كانوا يُنْكِرونهُ، فقد عَظُمَ قَدْرُهُ، وجَلَّ خَطَرُهُ عندَهُمْ بما عَجِزوا عنْ إتيانِ مِثْلِهِ بَعْدَ قَرْعِ أسماعِهِمْ بقولِهِ: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإسراء: ٨٨] ونَحْوِهِ.

والثاني: أَقْسَمَ بهِ، وإنْ كانوا يُنْكِرونَهُ، لِما أنَّ قَسَمَهُ بهِ يَحْمِلُهُمْ على السؤالِ عنهُ؛ إذْ كانوا لا يُقْسِمونَ إلّا بِما عَظُمَ قَدْرُهُ، وجَلَّ خَطَرُهُ، فيقولونَ[9]: ما هذا القرآنُ [الذي][10] أَقْسَمَ ربُّنا بهِ؟

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الآية: ٥] فكأنهُ [جوابٌ][11] على سؤالٍ خَرَجَ [منهمْ: ما][12] هذا؟ إنهُ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

[والثالثُ][13]: أنْ يكونَ القَسَمُ بهِ وبِغَيرِهِ مِنَ الأشياءِ التي عَظُمَ خَطَرُها عندَهُمْ على إضمارِ القَسَمِ بربِّ هذهِ الأشياءِ وبِإِلهِها. هذا على قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ القَسَمَ باللهِ حقيقةً لا بتلكَ الأشياءِ مُسْتقيمٌ، وعلى قولِ مَنْ يَجْعَلُ[14] القَسَمَ بها لا على الإضمارِ وما ذَكَرْنا.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) أدرج بعدها في الأصل: وهي اثنتان وثمانون آية. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فواتح. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الذي افتتح به السور. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: على. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل: يقول أن.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي المُحْكَم ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] على ما وَصَفَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ المُحْكَمُ بالحَلالِ والحَرامِ والوَعْدِ والوَعيدِ مِنْ غَيرِ أنْ يكونَ فيهِ اختِلافٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: /٤٤٤ ـ أ/ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ لأنهُ مَنْ تَمَسَّكَ بهِ، وعَمِلَ بما فيهِ يَصيرُ حكيماً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يَقُلْ: إنكَ لَرسولُ اللهِ، وكِلاهُما سَواءٌ، غَيرَ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذينَ آمَنَ[(١)] بهِمْ مَنْ قَبْلَكَ[(٢)]، وصَدَّقوا بهِمْ، زيادةٌ، ليسَتْ[(٣)] في قولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المستقيمُ القائمُ بالحُجَجِ والبراهينِ، ليسَ بالهَوَى كسائرِ الأديانِ والسُّبُلِ. وقالَ بعضُهُمْ: المستقيمُ: المُسْتَوي، أي مُسْتَوٍ على [مَعْنَى][(٤)]: أنَّ مَنْ سَلَكَهُ أفضاهُ إلى اللهِ، وبَلَّغَهُ إلى دارِ السَّلامِ.. وقالَ بعضُهُمْ: المُسْتَقيمُ أي اسْتِقامَ بالحقِّ والعَدْلِ والصدقِ، لا زَيْغَ فيهِ، ولا جَوْرَ، ولا عُدولَ، ولا اعْوِجاجَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ وصْفَ النُّبُوَّةِ والرسالةِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها، ويَحْتَمِلُ وصفَ الدينِ، وذلكَ [قولُ عامَّةِ][(٥)] أهلِ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي ذلكَ القرآنُ الذي أقْسَمَ بهِ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي مِنْ عندِهِ نَزَلَ، وأُحْكِمَ. سَمَّى نفسَهُ عَزيزاً رَحيماً عظيماً لَطيفاً ظاهراً باطناً أوّلاً آخِراً.

وفي الشاهدِ مَنْ وُصِفَ بالعِزِّ لا يوصَفُ بالرحمةِ، ومَنْ وُصِفَ بالعَظَمَةِ لا يوصفُ باللَّطافةِ، ومَنْ وُصِفَ بالظاهِرِ لا يُوصَفُ بأنهُ باطِنٌ، ومَنْ وُصِفَ بالأوّلِ لا يُوصَفُ بالآخِرِ لِيُعْلَمَ أنَّ المَعْنَى الذي وُصِفَ بهِ الخَلْقُ غَيرُ الذي وُصِفَ بهِ الرَّبُّ، تبارَكَ، وتعالى، لأنَّ مَنْ وُصِفَ مِنَ الخَلْقِ بواحدٍ ممّا ذَكَرْنا لم يَسْتَحِقَّ الوصفَ بالآخَرِ. إنَّ ما وُصِفَ بِهِ الرَّبُّ، تَبارَكَ، وتعالى، غَيرُ ما وُصِفَ بِهِ الخَلْقُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: لِتُنْذِرَ قوماً مِثْلَ الذي أُنْذِرَ آباؤُهُمْ مِنَ الآياتِ التي أقامَها، فلم يَقْبَلوها ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أُمِّيّونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي لِتُنْذِرِ قوماً أُمِّيِّينَ، لم يُنْذَرْ آباؤُهُمْ. يقولُ قائلٌ: لم تكُنِ النِّذارةُ لِلأُمِّيِّينَ مِنْ قَبْلُ؛ كأنهُ يقولُ: لِتُنْذِرَ قوماً أُمِّيِّينَ، لم يُنْذَرْ آباؤُهُمُ الأُمِّيّونَ مِنْ قَبْلُ. كذلكَ قالَ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] وهو كقولِهِ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦] وقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] أي لم نُرْسِلْ إليهِمْ قبلَكَ نذيراً.

وأصْلُهُ أنهُ يُخْبِرُ أنهُ لا تَنْجَعُ في هؤلاءِ النِّذارةُ كما لم تَنْجَعْ في آبائِهِمْ. بل هُمْ غافِلونَ.

ثم الإنذارُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بالنارِ في الآخِرَةِ والتعذيبِ بها، ويَحْتَمِلُ بالآياتِ التي أقامَها في الدنيا والقَتْلِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيلَ: هو قولُهُ لإبليسَ حينَ قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقالَ[(٦)]: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] أي حَقَّ ذلكَ القولُ، وَوَجَبَ.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ في الذينَ ذَكَرَهُمْ[(٧)] بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ نَفَراً هَمّوا بِرَسولِ اللهِ: قَتْلِهِ وأذاهُ، فأهْلَكَهُمُ اللهُ يومَ كذا إلّا واحداً أو اثْنَيْنِ.

---

(١) في الأصل وم: آمنوا. (٢) في الأصل وم: قبل. (٣) في الأصل وم: ليس ذلك. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: عامة قول. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: ذكره.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في جميعِ مُكَذِّبيهِ ورادّي رسالتِهِ، وَناسِ أتباعِهِ، ولا شَكَّ أنَّ أكثَرَ مَنْ بَعَثَ هو إليهِمْ كانوا كذلكَ لهمْ في الآخرةِ، أو في قومٍ خاصٍّ عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً. الا تَرى أنهُ قالَ على إثْرِ ذلكَ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ [الآية: ١٠].

ثم في قولِهِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [ص: ٨٥ وهود: ١١٩] وقولِهِ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية ٧] نَقضٌ على المعتزلةِ وردٌّ عليهِمْ لأنهُ وَعَدَ ﷻ أنهُ يملأُ جهنَّمَ بِمَنْ ذَكَرَ، فيقالُ لهمْ: أأرادَ أنْ يَفِيَ بما وَعَدَ أم لا؟ فإنْ قالوا: لم يُرِدْ، فيقالُ: أرادَ إذَنْ أنْ يُخلِفَ ما وَعَدَ، وذلكَ وَحشٌ مِنَ القولِ وسَرَفٌ. وإنْ قالوا: أرادَ أنْ يَفِيَ بما وَعَدَ لَزِمَهُمْ أنْ يقولوا: أرادَ أفعالَهُمُ التي فَعَلوا، فيَلزَمُهُمْ قولُنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ على التَّمْثيلِ، ويُحتَمَلُ على التحقيقِ.

فإنْ كانَ على التَّمْثيلِ فهو وَصْفُهُ إياهُمْ بالبُخلِ والكَفِّ عنِ الإنفاقِ على الفقراءِ والمساكينِ وأهلِ الحاجةِ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] نَهاهُ عنِ البُخلِ والكَفِّ عنِ الإنفاقِ كَمَغلولِ اليَدِ، لا يَقْدِرُ على الإنفاقِ، ليسَ على إرادةِ غُلِّ اليَدِ حقيقةً، ولكنْ على تَرْكِ الإنفاقِ. فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ وَصْفاً لهمْ بالبُخلِ وتَرْكِ الإنفاقِ عليهِمْ.

وإنْ كانَ على حقيقةِ الغُلِّ [في الأعناقِ][1] فيَحتَمِلُ ما قالهُ أهلُ التأويلِ: إنَّ أبا جَهْلٍ، لَعَنَهُ اللهُ، حَلَفَ لَئِنْ رأى محمداً لَيَدْمَغَنَّهُ، فأتاهُ أبو جَهْلٍ، وهو[2] يُصَلّي، ومعهُ حَجَرٌ، لِيَدْفَعَ بهِ النَّبيَّ ﷺ، فَيَبِسَتْ يَدُهُ إلى عُنُقِهِ، والتَزَقَ الحَجَرُ بيدِهِ. فلمّا رَجَعَ إلى أصحابِهِ، قالَ رجلٌ: أنا أقْتُلُهُ، فأخَذَ الحَجَرَ، فلمّا دَنا منهُ، طَمَسَ اللهُ بَصَرَهُ، فلم يَرَ النَّبيَّ ﷺ وسَمِعَ قراءتَهُ، فَرَجَعَ إلى أصحابِهِ، فلم يُبْصِرْهُمْ حتى نادَوهُ.

الآية ٩ فذلكَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في الآخِرةِ إنْ كانَ على التحقيقِ، وهو كقولِهِ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١ و٧٢] وقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ونَحْوُ ذلكَ ممّا ذَكَرَ.

فيكونُ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ سَنَجعَلُ، وذلكَ[3] جائزٌ في الكلامِ كقولِهِ لِعيسى حينَ[4] قال: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي يقولُ لهُ يومَ القيامةِ، فهو بعيدٌ غيرُ مَقولٍ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [الآيتان: ٨ و٩] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ في الآيةِ[5]، أي سَنَجعَلُ لهمْ في الآخِرةِ ذلكَ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ عَلى[6] ذلكَ لهمْ في الدنيا[7] مِنْ قَصْدِهِمْ برسولِ اللهِ ما قَصَدوا حتى لم يَجِدوا السبيلَ إليهِ لا مِنْ بَيْنَ يَدَيهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ولا مِنْ جِهَةٍ مِنَ الجِهاتِ.

[ويَحتَمِلُ][8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ على التَّمْثيلِ، أي جَعَلْنا بَينَهُمْ وبَينَ الحقِّ مِنْ أمامٍ ومِنْ خَلْفٍ، فأغْشَينا أبصارَهُمْ، فلا يُبصِرونَ الحقَّ أبداً. وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ إنَّ الغُلَّ يكونُ طَرَفُهُ في العُنُقِ، وطَرَفُهُ الآخَرُ في اليدِ، فتكونُ اليدُ اليُمنَى مَغلولةً إلى العُنُقِ. وعلى ذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ أنهُ قَرَأَ إنا جَعَلْنا في أيمانِهِمْ[9] أغلالاً. وفي بعضِ الحروفِ: في أيديهِمْ[10] أغلالاً.

---

(١) في الأصل وم: والأعناق. (٢) و(٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: الآخرة. (٦) في الأصل وم: فعلى. (٧) من م، في الأصل: الآخرة. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/١٩٧. (١٠) انظر المرجع السابق والصفحة.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: رافِعو رؤوسِهِمْ إلى السماءِ، لأنهُ كذلكَ يكونُ إذا غُلَّ عُنُقُ المرءِ إلى الذقْنِ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَنْظُرَ في الأرضِ. ولذلكَ قيلَ للإبلِ إذا شَرِبَتِ الماءَ أَقْمَحَتْ، أي رَفَعَتْ رَأْسَها.

وقالَ بعضُهُمْ: الإقماحُ، هو غَضُّ البَصَرِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: المُقْمَحُ الذي يُرْفَعُ رأسُهُ، ويُغَضُّ بَصَرُهُ، ويُقالُ: غاضَ طَرْفَهُ بَعْدَ رَفْعِ رأسِهِ، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جُمِعَتْ أيديهِمْ إلى أعناقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قد قُرِئَ[1] بالرَّفْعِ والنَّصْبِ والخَفْضِ جميعاً [فَمَنْ قَرَأَها بالرَّفْعِ فهو على الابْتِداءِ][2] ومَنْ قَرَأَها بالخَفْضِ فهو على النَّعْتِ كقولِهِ: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ تنزيلِ العزيزِ الرحيمِ. ومَنْ قَرَأَ بالنصبِ فَعَلَى القَطْعِ، لأنَّ الكلامَ قد تَمَّ دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بالغَيْنِ والعَيْنِ جميعاً[3]. فَمَنْ قَرَأَ بالغَيْنِ فهو مِنَ الغِشاوةِ. ومَنْ قَرَأَ بالعَيْنِ فهو مِن قولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٣٦] وهو مِنَ الإعراضِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وجهانِ مِنَ الاستِدْلالِ على المعتزلةِ: /٤٤٤ ـ ب/

[أحدُهما][4]: لقولِهِ: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أضافَ إلى نفسِهِ، وإنْ كانَ منهمْ صُنْعٌ.

[والثاني][5] يجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بخلقِ أفعالِهِمْ منهمْ.

الآية ١٠ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾][6].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ ومَنْ لم يَتَّبِعْ ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ ومَنْ لم يَخْشَ. أو إنما يَنْتَفِعُ بالذِّكْرِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وخَشِيَ الرحمنَ. فأمّا مَنْ لم يَتَّبِعِ الذِّكْرَ، ولم يَخْشَ الرحمنَ، فلا يَنْتَفِعُ.

[ويَحْتَمِلُ][7] أنْ يكونَ فيهِ إخبارٌ بإنذارِهِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وليسَ فيهِ نَفْيٌ عن إنذارِ مَنْ لم يَتَّبِعْ، ولا تَخْصيصٌ منهُ بالإنذارِ أحَدَ الفريقَيْنِ دونَ الآخرينَ، واللهُ أعلَمُ.

والذِّكْرُ يَحْتَمِلُ القرآنَ، ويَحْتَمِلُ غَيْرَهُ مِنَ الذِّكْرَى كقولِهِ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ بالغيبِ بالآثارِ والأخبارِ التي انْتَهَتْ إليهِمْ مِنْ غَيْرِ مُشاهدةٍ وَقَعَتْ لهمْ، أو بالغَيْبِ بما رَأَوهُ مِنْ آثارِ سلطانِهِ وقدرتِهِ هابوهُ، وخَشُوا عذابَهُ ونِقْمَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ تَحْتَمِلُ البِشارةُ عمّا سَلَفَ مِنَ الذنوبِ والأجرامِ إذا رَجَعوا عنها أو عَنْ تَقْصيرٍ كانَ منهمْ في الفِعْلِ في خِلالِ ذلكَ، وإنِ اعْتَقَدوا في الجملةِ ألّا يُخالفوا ربَّهُمْ في فِعْلٍ ولا في قولٍ، إذْ كلُّ مؤمنٍ يَعْتَقِدُ في أصلِ إيمانِهِ تَرْكَ مُخالفةِ الرَّبِّ في كلِّ الأحوالِ، وإنْ تَخَلَّلَ في بعضِ أحوالِهِ تَقْصيرٌ أو مُخالَفَةُ الرَّبِّ بِغَلَبَةِ شَهْوةٍ أو طَمَعٍ في عَفْوِهِ ورَحْمَتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ قيلَ: حَسَنٍ، ويَحْتَمِلُ تَسْمِيَتَهُ كريماً لِما يُكَرَّمُ مَنْ نالَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، يَذْكُرُ هذا ليس في مَوضِعِ الاحتِجاجِ عليهِمْ، ولكنْ على أنهُ هو مُحْيِيهِمْ إذا ماتوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ [مِنْ خَيرٍ أو][9] شرٍّ في حياتِهِمْ عَمِلوهُ[10] ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ونَكْتُبُ أيضاً آثارَهُمْ، وهو ما سَنُّوا مِنْ سُنَّةِ خَيرٍ أو شرٍّ، فاقْتُدِيَ بهمْ بعدَ موتِهِمْ على ما ذُكِرَ

---

(١) انظر المرجع السابق والصفحة. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرانية ج٥/١٩٨. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: وعملوه.

جنة السنة

في الخَبَرِ: أنَّ «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ مِن غَيرِ أنْ يُنْقَصَ مِن أجورِهِمْ شيءٌ. ومَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ مِن غَيرِ أنْ يُنْقَصَ مِن أوزارِهِمْ شيءٌ» [مسلم ١٠١٧] وهو كقولِهِ أيضاً: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي خُطاهُمُ التي خَطَوها في الخَيرِ والشَّرِّ. وقالَ قتادةُ: لو كانَ اللهُ مُغْفِلاً شيئاً مِن شأنِكَ يا ابنَ آدمَ أغفَلَ ما تُعْفِي الرياحُ مِن هذهِ الآثارِ..

ورُوِيَ على هذا عنِ ابنِ عباسٍ وأبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنهما [أنهما][1] قالا: «إنَّ الأنصارَ كانت منازِلُهُم بعيدةً منَ المسجدِ، فأرادا أنْ يَنتقِلوا قريباً مِنَ المَسْجِدِ، فَنَزَلَ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: إنَّ آثارَكُم تُكْتَبُ، فَلِمَ تَنتقِلونَ؟» [الترمذي ٣٢٢٦] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو دليلٌ لِمَنْ يقولُ الآثارَ بالخُطا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي كلَّ [شيءٍ][2] مِن أعمالِهِمْ مِن خَيرٍ وشَرٍّ مُحصىً محفوظٌ ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يَحتَمِلُ: ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في الكتابِ الذي نَكْتُبُ [فيهِ][3] أعمالَهُمْ في الدنيا كقولِهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي بكتابِهِمُ الذي كُتِبَتْ أعمالُهُمْ فيه.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؟ الآيةَ [الإسراء: ٧١] ويَحتَمِلُ ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ في أُمِّ الكتابِ، وهو اللوحُ المَحفوظُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يَحتَمِلُ الأمرُ لِرسولِهِ بضربِ مَثَلِ أصحابِ القريةِ لِقومِهِ وَجْهَين:

أحَدُهما: أنَّ الخَبَرَ قد كانَ بَلَغَ هؤلاءِ؛ أعني خَبَرَ أصحابِ القريةِ التي بعثَ إليهِمُ الرسُلَ وما نَزَلَ بهِم بتكذيبِهِمُ الرسلَ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إيّاهُم، إلّا أنهم قد نَسُوا ذلكَ، وغَفَلوا عنهُ، فأمَرَهُمْ بالتذكيرِ لهمْ والتَّبيينِ لِيَحذَروا مِن مِثْلِ صَنيعِهِمْ وسوءِ معامَلَتِهِمْ رسولَهُمْ.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ لم يكُنْ بَلَغَهُمْ خَبَرُ أولئكَ وما نَزَلَ بهِمْ بسوءِ مُعامَلَتِهِمُ الرسولَ، فأمَرَهُ أنْ يُعلِمَ قومَهُ ذلكَ، ويُبَيِّنَ لهمْ. فَيَسألونَ عنْ ذلكَ أهلَ الكتابِ، فَيُخبِرونَهُمْ بما كانَ في كُتُبِهِمْ، فَيَعرِفونَ صِدقَ رسولِ اللهِ في ما يُخبِرُهُمْ، فيكونونَ في حَذَرٍ مِن مِثْلِ صَنيعِهِمْ ومُعامَلَتِهِمُ الرسُلَ.

وعلى ذلكَ تُخَرَّجُ هذهِ الأنباءُ والقِصصُ المذكورةُ في الكتابِ على هذينِ الوجهَينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ اخْتُلِفَ فيه:

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ عيسى ابنَ مَرْيَمَ كانَ بَعَثَ إليهِمْ أوّلاً رسولاً، فأتاهُمْ، ودَعاهُمْ إلى التوحيدِ، وأقامَ على ذلكَ حُجَجاً وبَراهينَ، فَكَذَّبوهُ، وقالوا: ما نَعْرِفُ ما تقولُ.

ثم بَعَثَ مِن بَعْدِهِ رسولَينِ، فقالَ لهما ذلكَ الرسولُ: إنهمْ سَيُكَذِّبونَكُما كما كَذَّبوني قَبلَكُما، وسَيقولونَ لكما: إذا دَعَوتُماهُمْ إلى التوحيدِ، ماذا تُحْسِنانِ؟

فإنْ قُلْتُما: نُبرِئُ الأكْمَهَ والأبرَصَ، قالوا: فينا مَنْ يُحْسِنُ ذلكَ. فإنْ قُلْتُما: نَشفي المريضَ، قالوا: فينا مَنْ يُحْسِنُ ذلكَ ونَحْوَهُ. ولكنْ قولا أنتما: [نَحنُ][4] نُحْيِي المَوتَى، وأنا أقولُ لهمْ: إني [لأُحْسِنُ ذلكَ، وهو][5] قولُهُ: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قَوَّينا، وشَدَّدْنا بثالثٍ. فَفَعلوا ذلكَ. فقالوا عندَ ذلكَ: قد تَواسَيتُمْ علينا بهذا الكلامِ، تَواطَأتُمْ، أو كلاماً نَحْوَهُ. فأُخِذوا، وعُذِّبوا، وأُهلِكوا، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لا أحسن أنا فهو. (٦) في الأصل وم: كلام.

جنة السنة

ومِنهم مَنْ يقولُ: بَعَثَ أولاً رسولَينِ[١]، فكَذَّبوهما، فبَعَثَ بثالثٍ بعدَ ذلكَ ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي عَزَّزْنا الرسولَينِ بثالثٍ، أي قَوَّيناهما.

وقرأ بعضُهُمْ: عَزَزْنا بالتخفيفِ[٢]، أي غَلَبْنا. لكنْ ذُكِرَ أنهمْ قُتِلوا جميعاً، وأُهْلِكوا؛ أعني الرسُلَ، فكيفَ يكونُ الغالبُ مَقتولاً مُهلَكاً؟ ويجوزُ أنْ يكونَ المَقتولُ مُقَوّياً؟ دلَّ أنَّ قراءةَ مَنْ يَقرأُ بالتخفيفِ [ضعيفةٌ، والأولى][٣] أقوى وأقرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

الآية ١٥ [وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ وكذلكَ قولُ أهلِ مكةَ[عنْ رسولِ][٥] اللهِ: إنهُ ساحرٌ، وإنهُ مَجنونٌ، وإنهُ مُفتَرٍ مُختَلِقٌ وقولُهُمْ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ لمّا أيِسوا مِنْ إيمانِهِمْ وتَصديقِهِمْ إياهُمْ فزِعوا إلى اللهِ، وتضرَّعوا إليهِ [وقالوا: إنَّ][٦] اللهَ أعلَمُ بما نُطلِعُكُمْ[٧] بأنا إليكُمْ مُرسَلونَ بالحُجَجِ والآياتِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليسَ علينا مِنْ تَركِ إجابتِكُمْ لنا وَرَدِّ الرسالةِ شيءٌ، إنما ذلكَ عليكُمْ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ دَلَّ هذا القولُ منهمْ على أنهُ قد نَزَلَ شيءٌ مِنَ العذابِ والشِّدَّةِ حتى تَشاءَموا بهمْ. ذلكَ، ولمْ تزلْ عادةُ الكَفَرَةِ التَّطَيُّرَ بالرسُلِ عندَ نزولِ البَلاءِ بِهِمْ كقولِهِ: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]. وقولِهِ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٣١].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: شُؤمُكُمْ معكُمْ حيثما كُنتُمْ ما دُمتُم على ما أنتمْ عليهِ مِنَ العِنادِ والتَّكذيبِ.

ويَذكُرُ أهلُ التأويلِ أنَّ القريةَ كانتْ أنطاكيةَ، وأنَّ الذي بَعَثَ هؤلاءِ الرسُلَ عيسى، صَلَواتُ اللهِ عليهمْ أجمَعينَ، ولكنْ لا نَعلَمُ ذلكَ، وليسَ لنا إلى مَعرفةِ ذلكَ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَشاؤُمُكُمْ معكُمْ أينَ كُنتُمْ؟ وحيثُما كُنتُمْ ما دُمتُمْ على ما أنتُم عليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ فلم تَقبَلوا التذكيرَ، ونَحوَهُ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ [وهو][٨] أنَّ الذي أصابَكُمْ كانَ مكتوباً في أعناقِكُمْ إنْ وُعِظتُمْ باللهِ / ٤٤٥ ـ أ/ تَطَيَّرْتُمْ بنا؟ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ هذا الرجلَ يُسمّى حَبيباً النجارَ، وهو مِنْ إسرائيلَ، كانَ في غارٍ يَتعبَّدُ. فلما سَمِعَ بالرسُلِ نَزَلَ، وجاءَ، فقالَ ذلكَ ما قالَ. لكنْ لا ندري مَنْ كانَ؟ وليسَ لنا إلى مَعرفةِ اسْمِهِ حاجةٌ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ رَغبَتَهُ في الرسُلِ وفي دِينِهِمْ، فَدَعاهُمْ إلى اتِّباعِ الرسُلِ، أو أنْ يكونَ كانَ مؤمناً مُسلِماً مُختَفياً. فلما بَلَغَهُ خَبَرُ إهلاكِ الرسُلِ جاءَ يَسْعى إشفاقاً عليهِمْ لئلا يُهلَكوا؛ أعني الرسُلَ، فقالَ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: رسولاً. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٥/ ١٩٩. (٣) في الأصل وم: ضعيف والأول. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: لرسول. (٦) في الأصل وم: أو أن يقولوا. (٧) في الأصل وم: أطلعكم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٢١ [وقال:][1] ﴿اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي اتَّبِعوا الهُدَى، والهُدَى ممّا يَجِبُ أنْ يُتَّبَعَ، ولا يَسألُكُمْ على اتِّباعِ الهُدَى أجراً، فَيَمنَعَكُمُ الأجرُ عنِ اتِّباعِ الهُدَى.

[ويَحتَمِلُ][2] أنْ يقولَ: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ واعلَموا أنهمْ مُهتَدونَ حينَ[3] لا يَسألونَكُمُ الأجرَ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدنيا ولا العِزِّ؛ إذ كلُّ مَنْ لا يسألُ هذا فهو مُهتَدٍ[وكلُّ مَهتَدٍ][4] مُتَّبَعٌ، وهذا يَدُلُّ أنَّ طَلَبَ الأجرِ في ذلكَ ممّا يَجعَلُ صاحبَهُ مَعذوراً في تَركِ الإتِّباعِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] أي لا يَسألُكُمْ أجراً حتى يَمنَعَكُمْ ثِقَلُ الأجرِ عن إجابَتِهِ واتِّباعِهِ.

وهذا يَنقُضُ، ويُبطِلُ قولَ مَنْ يُبيحُ أخذَ الأجرِ على تَعليمِ القرآنِ والعِلمِ لأنهُ إذا كانَ لهُ ألّا يُعَلِّمَ إلّا بالأجرِ كانَ لهُ ألّا يُعَلِّمَ بِكُلِّ أجرٍ. ففي ذلكَ إبطالُ الدينِ وجَعلُ الرُّخصَةِ لهمْ في تَركِ ذلكَ، وذلكَ سَمجٌ قَبيحٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الاحتِجاجِ عليهِمْ بَعْدَ سؤالٍ كانَ مِنْ أولئكَ لهُ في الرجوعِ إلى عِبادةِ مَنْ يَعْبُدونَهُ دونَ اللهِ، فقالَ: إنكمْ تَعبُدونَ هذهِ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تُقَرِّبَكُمْ تلكَ إلى اللهِ زُلفَى، ومالي [لا][5] أعبُدُ الذي ترجونَ أنتمُ الزُّلفَى والقُربَةَ منهُ؟

والثاني: على التَّذكيرِ والتَّنبيهِ لهمْ؛ أنتمْ تَعلَمونَ أنَّ الذي فَطَرَنا، وخَلَقَنا، هو المُستَحِقُّ لِلعبادةِ، لا مَنْ لم يَفطِرْ، ولم يَخلُقْ، ثم تَعلَمونَ أنَّ اللهَ، هو فَطَرَنا، وخَلَقَنا [لا][6] الأصنامُ التي تَعبُدونها، ومالي لا أعبدُ الذي فَطَرَنا؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ يقولُ:

أأتَّخِذُ مِنْ دونِ اللهِ مَعبوداً؟ لو أرادَ اللهُ بي ضُرّاً لم يَملِكْ ذلكَ المعبودُ دَفعَ ذلكَ عني، ولو نَزَلَ[7] بي شِدَّةٌ أو بلاءٌ منهُ لم يَقدِرْ [على][8] استِنقاذي منهُ، ولو طَلَبْتُ منهُ جَرَّ نَفعٍ لم يَقدِرْ على جَلبِهِ إليَّ، وأترُكُ عِبادةَ مَنْ أعلَمُ أنَّ ذلكَ منهُ، وهو المالكُ لِذلكَ كلِّهِ: مِنْ جَرِّ نَفعٍ ودَفعِ ضُرٍّ وبَلاءٍ؟ وفي الحِكمةِ العبادةُ لِمَنْ يَملِكُ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي لو فَعَلْتُ ذلكَ فإذَنْ كنتُ في ضلالٍ مُبينٍ. فَذُكِرَ أنهُ لمّا قالَ لهمْ ذلكَ أُمِرَ بِقَتلِهِ.

الآية ٢٥ فَعِندَ ذلكَ قالَ: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي اشهَدوا لي. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ حقيقةَ السماعِ، أيِ اسمعوا قَولي وإيماني: لا يَمنَعُني عنهُ ما تُخَوِّفونني، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي أُوجِبَتْ لهُ الجنةُ: وأُرِيَ الثوابَ. فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ الآية. ويَحتَمِلُ دخولُ الجنةِ ما ذُكِرَ للشهداءِ [ﷻ بقولِهِ][9]: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿فَرِحِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩ و١٧٠] أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أنْ يُقالَ لهُ في الآخِرَةِ كقولِهِ لِعيسَى ابنِ مريَمَ: ﴿يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] وإنما هو أن يُقالَ لهُ يومئذٍ. فَعَلى ذلكَ يَحتَمِلُ الأوَّلُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ قيلَ: إنهُ[10] نَصَحَهُمْ حَيّاً ومَيْتاً، ولم يَترُكْ نُصحَهُمْ لِمكانِ ما عامَلوهُ، وفَعَلوا بهِ مِنَ السوءِ وأنواعِ التعذيبِ. ولكنْ تَمَنَّى، وقالَ[11]: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ أي يكونونَ[12] يَعلَمونَ ما [أُعطِيتُ بالإيمانِ بربي][13] والتصديقِ برُسُلِهِ لِيُعطَوا مثلَ ما أُعطِيتُ[14].

وهكذا الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ ألّا يَترُكَ نُصحَهُ لِجُملَةِ المؤمِنينَ، وإنْ لَحِقَهُ منهمْ أذًى أو سُوءٌ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم.
(٧) من م، في الأصل: أنزل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أنهم. (١١) في الأصل وم: أي.
(١٢) في الأصل وم: يكونوا. (١٣) في الأصل وم: أعطي هو بالإيمان بربه. (١٤) في الأصل وم: أعطي هو.

جنة السنة

وقال قتادة: ولا يُلْقَى المؤمنُ إلّا ناصحاً، ولا يُلْقَى غاشّاً لِما عايَنَ مِنْ كرامةِ اللهِ ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ تمنّى، واللهُ أعلَمُ، أنْ يَعلَمَ قومُهُ ذلكَ: اعْلَموا أنَّ أهلَ الإيمانِ ليسوا بأهلِ غِشٍّ أو بِغالةِ العِبادةِ. وقالَ: قيلَ لِرُوحِهِ: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فيَتَمَنّى رُوحُهُ أنْ يَعلَموا إلى ما صارَ هو ليؤمِنوا بالرسُلِ، ولا يُكَذِّبوهُمْ.

الآية ٢٨ وقولُهُ: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي مِنْ بَعْدِ قَتْلِ هذا الرجلِ ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِنَ الملائكةِ، أي لم نُنْزِلْ على قومِهِ في إهلاكِهِمْ بعدَ صنيعِهِمْ بمكانِهِمْ وإهلاكِهِمْ إيّاهُ جُنداً مِنَ السماءِ. ولكنْ أُهلِكوا بصيحةٍ واحدةٍ، أي لم يَفعَلْ بهِمْ كما يَفعَلُ ملوكُ الأرضِ إذا قُتِلَ رسُلُهُمْ، وأهلَكَ أولياؤُهُمْ، يَبْعَثونَ بجنودٍ لاسْتِئصالِ مَنْ فَعَلَ ذلكَ بهِمْ، ولكنْ أهْلَكَهُمْ بِصَيْحَةٍ واحدةٍ.

الآية ٢٩ ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي قَدْرَ صَيْحةٍ واحدةٍ، أي أُهلِكوا بِقَدْرِ صَيْحَةٍ واحدةٍ في سُرْعَتِها. ويَحتَمِلُ الإهلاكُ بالصَّيْحةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ قيلَ مَوتى مِثْلَ النارِ إذا خَمَدَتْ، وطُفِئَتْ، لا يُسْمَعُ لها صوتٌ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في تَرْكِهِمُ الإيمانَ وتكذيبِهِمُ الرسُلَ واسْتِهزائِهِمْ بهِمْ.

والحَسْرَةُ: قالَ بَعضُ أهلِ الأدبِ: الغايةُ مِنَ الندامةِ؛ إذا بَلَغَتِ[1] الندامةُ غايَتَها؛ يُقالُ: حَسْرَةٌ، ويُقالُ: حَصْرَةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الحَسْرَةُ الحُزْنُ والتَّحَزُّنُ والتَّنَدُّمُ، وهو واحدٌ.

ثم قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي يا حَسْرَةَ الرسُلِ على ذلكَ المؤمنِ المقتولِ على الإيمانِ بهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: يا حَسْرَةَ أولئكَ الكَفَرَةِ على أنفسِهِمْ إذا عايَنوا العذابَ على ما كانَ منهمْ مِنَ الاسْتِهْزاءِ على الرسُلِ كقولِهِ: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١] وقولِهِ: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فإنْ قِيلَ: كيفَ احْتَجَّ عليهِمْ بالرجوعِ إليهِمْ، وهُمْ كانوا يُنْكِرونَ البعثَ والرجوعَ بعدَ الموتِ؟ قيلَ[2]: يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ألم يَرَوا؟ أي قد رأى أهلُ مكةَ هلاكَهُمْ في الدنيا، و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أحياءً، فَيُخبِرونهمْ أنهمْ بماذا أُهلِكوا في هذهِ الدنيا، وبماذا عُذِّبوا، [فهلّا][3] يَعْتَبِرونَ، ويَنظرونَ، أنهمْ إنما أُهلِكوا بتكذيبِ الرسُلِ، فَيَرْتَدِعوا عن ذلكَ.

الآية ٣٢ [بقولِهِ تعالى][4]: ﴿وَإِن كُلٌّ﴾ يعني الأمَمَ كلَّها؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: وما كُلٌّ ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ في الآخرةِ، أو يقولُ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أبداً حتى يومِ القيامةِ، وهما واحدٌ.

[والثاني][5]: أنْ يكونَ ذلكَ يُخَرَّجُ على إبطالِ قولِ أهلِ التناسُخِ حينَ[6] قالوا: إنَّ الأرواحَ إذا خَرَجَتْ مِنْ أبدانِ قومٍ دَخَلَتْ في أُخرى، فيقولُ، واللهُ أعلَمُ، رَدّاً عليهِمْ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: إذ لم يَرَوا رُوحاً[7]، خَرَجَ مِنْ جَسَدِ هذا، ودَخَلَ في آخَرَ.

[والثالثُ][8]: أنْ يكونَ ذلكَ يُخَرَّجُ على نَقْضِ قولِ قومٍ، وهو ما ذُكِرَ / ٤٤٥ ـ ب/ عن ابنِ عباسٍ ﵄ أنهُ سُئِلَ، فقيلَ: إنَّ ناساً يقولونَ إنَّ عليّاً مَبعوثٌ قبلَ يومِ القيامةِ، فقالَ[9]: بئسَ القومُ نحنُ إذنْ كُنّا أنكحْنا نساءَهُمْ، وقَسَمْنا ميراثَهُمْ، ثم تلا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

و[الرابعُ][10]: أنْ يكونَ على إيجابِ البَعْثِ أنَّ مَنْ كَذَّبَ الرسُلَ ومَنْ صَدَّقَهُمْ ومَنْ عَمِلَ ما يُحمَدُ عليهِ وما يُذَمُّ،

---

(١) في الأصل وم: انتهت. (٢) في الأصل وم: فهو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: روحها أخبر أنه. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ثم قال. (١٠) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

قدِ استَوَوا جميعاً في هذهِ الدنيا، فلا بدَّ مِنْ دارِ أُخرى يُمَيِّزُ [فيها بينَ][1] المُصَدِّقِ وبَينَ المُكَذِّبِ وبينَ المحمودِ والمذمومِ.

يُؤَيِّدُ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿لَدَيْنَا﴾ و﴿عِندَنَا﴾ [ونحوَهما][2] مِنَ الظروفِ خَصَّها بهذا الإسْمِ، وإنْ كانوا في جميعِ الأوقاتِ كذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ المَقصودَ مِنْ إنشاءِ هذهِ تلكَ ومِنْ هذا العالَمِ الفاني ذلكَ العالَمُ الباقي؛ إذْ لو لم تكُنْ تلكَ ولا ذلكَ العالَمُ الباقي لم يَكُنْ إنشاءُ هذهِ حِكْمَةً، لأنهُ يحصُلُ الإنشاءُ والخَلْقُ على الإفناءِ خاصَّةً. وإحداثُ الشيءِ للإفناءِ خاصَّةً لا لعاقبةٍ تُقْصَدُ عَبَثٌ باطلٌ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي آيةُ البعثِ لهمْ ما رَأَوُا الأرضَ المَيْتَةَ في وقتٍ يابسةً، لا نَباتَ فيها، ولا شيءَ، ثم رَأَوها حَيَّةً مُخضَرَّةً مُتَزَيِّنَةً بأنواعِ النباتِ مُتَلَوِّنَةً بألوانِ الخارجِ منها، فَيُخْبِرُ إنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا لَقادِرٌ على إحياءِ المَوتى بَعدَ ما بَلِيَتْ أجسادُهمْ، وصاروا رَماداً، وإنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَصْعُبُ عليهِ شيءٌ. فهذهِ آيةٌ ظاهرةٌ على البَعثِ مُشاهَدَةٌ مَحسوسةٌ.

وفيهِ آيةٌ يُحتاجُ إلى أنْ يُستَخرَجَ منها الحِكْمةُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أنهُ لمّا أخرَجَ مِنَ الأرضِ حَبّاً، وجَعَلَ غذاءَهُمْ فيهِ مِنْ غَيرِ أنْ يَستَوجِبوا ذلكَ منهُ، دلَّ أنهُ إنما جَعَلَ ذلكَ لِيَمْتَحِنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ على عِلْمٍ منهُ أنَّ منهمْ مَنْ يَشْكُرُ، ومنهمْ مَنْ يَكْفُرُ، وقد سَوَّى بَينَهُمْ في هذهِ بينَ الكافرِ منهمْ وبينَ الشاكِرِ، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى، فيها يَقَعُ التَّمْييزُ بَينَهُمْ: الثوابُ للشاكِرِ، والعقابُ للكافرِ، إذْ في الحكمةِ التفريقُ لا الجَمْعُ. وعلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ الجِنانِ لهمْ والنخيلِ والأعنابِ وتَفْجيرِ العُيونِ وغَيرِهِ.

الآيتان ٣٤ و٣٥ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ وما][3] ذَكَرَ في آخِرِهِ: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ربَّ هذهِ النعمِ كلِّها؟

[ويحتَمِلُ][4] أنْ يكونَ وَجهُ الدلالةِ فيهِ مِنْ وَجهٍ آخَرَ، وهو أنهُ لمّا أنشأهُمْ، وعَلِمَ ما يَصلُحُ لهمْ مِنَ الغِذاءِ وما لا يَصلُحُ لهمْ وما يكونُ لهمْ مِنْ غِذاءٍ وما لا يكونُ قَبْلَ أنْ يُنْشِئَهُمْ، دلَّ أنهُ عالمٌ بذاتِهِ قادرٌ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ شيءٌ. أو أنْ يكونَ لمّا أنشأَ هذهِ الأشياءَ التي ذَكَرَ لهمْ لا يَحتَمِلُ أنْ يَترُكَهُمْ سُدىً، لا يَمْتَحِنَهُمْ بشيءٍ، ولا يأمُرَهُمْ بشيءٍ، ولا يَنْهَى عنْ شيءٍ. فإنْ ثَبَتَتِ المِحْنَةُ ثَبَتَ البَعثُ، وظَهَرَ الثوابُ والعِقابُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ الفواكِهِ والثمارِ وغَيرِها آيةُ الوَحدانيَّةِ لهُ والأُلوهيَّةِ، ودلالةُ الجودِ والكَرَمِ لهُ لِيَرْغَبوا فيه، ويَطْمَعوا منهُ، ودلالةُ العَدْلِ لهُ والسلطانِ لِيهابوهُ، ودلالةُ البَعْثِ لِما ذَكَرْنا، ودلالةُ أنَّ هذهِ النِّعَمَ منهُ لِيَشكُروهُ حينَ[5] قالَ في آخِرِهِ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ الأزواجَ هي التي لها مُقابِلٌ مِنَ الأشكالِ والأضدادِ ممّا لِلْخَلْقِ فيهِ وممّا لا صُنْعَ لهمْ فيهِ حينَ[6] قالَ: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ويُستَدَلُّ بذلكَ على خَلْقِ أفعالِ العبادِ، وهو ما قالَ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ ومِنَ الأزواجِ ما يكونُ فِعْلاً لهمْ [نحوَ الحركةِ والسكونِ والاجتماعِ والافتراقِ ونَحوِ ذلكَ][7] وقد أخبَرَ أنهُ خَلَقَ كلَّها. دلَّ أنهُ خالقُ أفعالِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾: في ذلكَ آياتٌ مِنْ وجوهٍ

---

(١) في الأصل وم: بينهما. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث.
(٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحدُها: آيةُ القُدرةِ على البَعْثِ والإحياءِ بعد الموتِ.

والثاني: آيةُ الوَحدانيَّةِ لهُ والألوهيَّةِ.

والثالثُ: آيةُ العِلْمِ الذاتيِّ لهُ والتدبيرِ الأزليِّ.

أمّا دلالةُ البعثِ فهو ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ ما هو ليلٌ نهاراً ومِنْ جَعْلِ ما هو نهارٌ ليلاً بعدَ ذهابِ أثَرِ هذا بكُلِّيَّتِهِ حتى لا يَبْقى منهُ شيءٌ. ومَجيءُ الآخَرِ وانتِزاعُ هذا مِنْ هذا، وإدخالُهُ في الآخَرِ، دلالةٌ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ؛ لهُ[1] قدرةٌ ذاتيَّةٌ لا مُكْتَسَبَةٌ مُسْتفادةٌ.

فَمَنْ قَدَرَ على هذا قادرٌ على الإحياءِ بعدَ الموتِ [إذِ الإحياءُ بعدَ الموتِ][2] ليسَ بأبعدَ ممّا ذَكَرْنا مِنْ جَعْلِ الليلِ نهاراً وجعلِ النهارِ ليلاً.

والأعجوبةُ في هذا، إنْ لم تَكُنْ أكثرَ؛ أعني في جَعْلِ الليلِ نهاراً وجَعْلِ النهارِ ليلاً وإدخالِ أحدِهما في الآخَرِ، ليسَتْ[3] بدونِ الإحياءِ بَعدَ الموتِ. فإذا كانَ كذلكَ دلَّ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ ليسَ بإقدارٍ مِنْ غَيرِهِ، فلا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وأمّا دلالةُ الوحدانيَّةِ فهي[4] إنشاءُ الدهرِ مِنْ أوّلِ إنشائِهِ إلى آخِرِ ما يَنْتَهي إليهِ، وإجراؤُهُ على مَجْرًى واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ مِنَ الليلِ والنهارِ وإدخالِ هذا في هذا وهذا في هذا [كلُّ هذا][5] دلالةٌ أنهُ فِعْلُ [واحدٍ؛ إذْ لو كانَ فِعْلَ][6] عَدَدٍ لكانَ إذا أتَى أحَدُهما بالليلِ غَلَبَ على الآخَرِ فلا يَقْدِرُ المَغلوبُ على إتيانِ النهارِ بَعْدَ ذلكَ وغَلَبَةِ صاحبِهِ وقَهْرِهِ. وكذلكَ مُنْشِئُ النهارِ إذا غَلَبَ مُنْشِئَ الليلِ لَهَمَّ بهِ على إبانَةِ[7] بالآخرِ وغَلَبَتِهِ عليهِ، ويَمْنَعُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ عن إدخالِ شيءٍ ممّا أنْشأهُ هو في ما أنْشأَ الآخَرُ. فإذا لم يَكُنْ ما ذَكَرْنا دلَّ أنهُ واحدٌ، وهو ردٌّ على الثَّنَويَّةِ.

وأمّا دلالةُ العِلْمِ الذاتيِّ لهُ والتَّدْبيرِ الأزليِّ فهي[8] إجراءُ الدهرِ مِنْ أوّلِ ما أنْشأهُ على تقديرِ حاجةِ أهلِهِ؛ أعني حاجةَ أهلِ الدهرِ، وعلى تقديرِ مَنافِعِهِمْ واتِّساقِهِ على أمرٍ واحدٍ على غَيرِ تَغَيُّرٍ وتَفاوُتٍ يَقَعُ في ذلكَ أو تفاضُلٍ إلى ما يَنْتَهي إليهِ أو تَنْتَهي حاجَتُهُمْ ومَنافِعُهُمْ. دلَّ أنهُ كانَ، ولم يَزَلْ عالماً بِحَوائِجِهِمْ ومَنافِعِهِمْ حينَ[9] أجْرَى الدهرَ على تقديرِ حوائِجِهِمْ وتَدْبيرِ منافِعِهِمْ، وأنَّ لهُ عِلْماً ذاتيّاً وتدبيراً أوَّليّاً لا عِلْماً مُكْتَسَباً ومُسْتَفاداً، وأنَّ لهُ القُدْرَةَ والسلطانَ حينَ[10] لم يَقْدِرْ أحدٌ أنْ يَدْفَعَ ظُلْمَةَ الليلِ عن نفسِهِ إذا احْتاجَ إلى النهارِ، ولا مَلَكَ دَفْعَ النهارِ إذا وَقَعَتِ الحاجةُ في الليلِ، ولا [قَدَرَ][11] أحدٌ أنْ يأتيَ بأحدِهِما مَكانَ الآخَرِ بل في وَقْتٍ آخَرَ. بل أظْلَمَ الليلُ [على الخلائِقِ][12] كلِّهِمْ، وسَتَرَ عليهِمْ كلَّ شيءٍ، شاؤوا، أو أبَوا، وأضاءَ لهمُ النهارُ كلَّ مَسْتورٍ عليهِمْ، وأبدَى لهمْ كلَّ مُخْتَلِفٍ، شاؤوا، أو أبَوا.

دَلَّ أنهُ بالقُدرةِ الذاتيَّةِ كانَ ذلكَ؛ والسُّلْطانُ الذّاتيُّ غيرُ[13] مُكْتَسَبٍ مُسْتفادٍ [والعِلْمُ الذاتيُّ][14] لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ في حالٍ مِنَ الأحوالِ.

وهذا يُبْطِلُ قولَ الفلاسفةِ: إنَّ العقلَ دَرّاكٌ بنفسِهِ كالنارِ: حارَّةٌ بِطَبْعِها، مُحْرِقَةٌ بِذاتِها، فلو كانَ يُدْرِكُ بنفسِهِ لكانَ لا جائزٌ أنْ يكونَ [أدْرَكَ ما][15] هنالكَ، أو يَشْتَبِهَ عليهِ شيءٌ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

وإذا حِيلَ بَينَهُ وبَينَ الدَّرَكِ دلَّ أنهُ دَرّاكٌ بِغَيرِهِ، فَيُدْرِكُ على قَدْرِ ما تَجَلَّى لهُ الأمْرُ، وانكشَفَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَسۡلَخُ﴾ أي نَنْزَعُ ﴿مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾.

وقولُهُ تعالى: /٤٤٦ ـ أ/ ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ أي داخِلونَ في الظُّلْمَةِ؛ يُقالُ: أظْلَمَ فلانٌ إذا دَخَلَ في الظُّلْمَةِ.

---

(١) في الأصل وم: وله. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ليس. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ليلة. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل: الخلائق، في م: والخلائق. (١٣) في الأصل وم: لا. (١٤) في الأصل وم: إذ فاعلم. (١٥) في الأصل وم: ولا درك.

جنة السنة

ثم سورةُ ﴿يسٓ﴾ نَزَلَتْ كلُّها بمكةَ [في](١) مُحاجَّةِ أهلِ مكةَ في إنكارِهِمُ التوحيدَ وإنكارِهِمُ البعثَ والقدرةَ على الإحياءِ بعد ما صاروا رَماداً وإنكارِهِمُ الرسالةَ. وهُمْ كانوا طَبَقاتٍ على هذهِ المذاهِبِ المُختلِفَةِ: منهمْ مَنْ أنكرَ التوحيدَ، ومنهمْ مَنْ أنكرَ البَعْثَ، ومنهمْ مَنْ كانَ يُنْكِرُ الرسالةَ ونَحْوَها.

فَبيَّنَ اللهُ تعالى في هذهِ السورةِ، وذَكَرَ فيها، الحُجَجَ على مُنْكِري التوحيدِ وعلى مُنكِري [البَعْثِ وعلى مُنكِري](٢) الرسالةِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ وفيهِ دلالةُ القدرةِ على البَعْثِ على ما بيَّنّا في ما تقدَّمَ.

وفي قولِهِ: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ دلالةُ الوحدانيةِ لهُ، لأنهُ أخرَجَ ما ذَكَرَ مِنَ النباتِ والجناتِ الأعنابَ والنخيلَ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنَ الأرضِ مَنافعَ مِنَ السماءِ تتَّصِلُ بالأرضِ.

فَدَلَّ اتصالُ مَنافِعِ السماءِ بِمَنافِعِ الأرضِ على بُعْدِ ما بَيْنَهما على أنَّ مُنْشِئَهُما ومُدَبِّرَهُما واحدٌ. إذ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَكانَ فيهِ تدافُعٌ وتَمانُعٌ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِ ذوي العَدَدِ مِنَ التَّغالُبِ والتَّدافُعِ والتَّمانُعِ في العُرْفِ، واللهُ أعلَمُ.

وما ذَكَرَ أيضاً مِنَ الليلِ [والنهارِ](٣) على تَضادِّهِما واختلافِهِما في رَأْيِ العَيْنِ وسَلْخِ أحدِهما مِنَ الآخَرِ وإدخالِهِ في الآخَرِ دلالةُ الوَحْدانيَّةِ ودلالةُ البعثِ ودلالةُ العِلْمِ الذاتيِّ الأزَليِّ.

أمّا دلالةُ الوَحْدانيَّةِ فهي(٤) ما جَمَعَ في الليلِ والنهارِ على تَضادِّهِما واختلافِهِما مَنافِعَ الخَلْقِ وحوائجَهُمْ، كأنهما شَكْلانِ. فَدَلَّ ذلكَ على أنهما فِعْلُ واحدٍ لا عَدَدٍ [إذْ لو كانَ فِعْلَ عددٍ](٥) لَكانَ فيهِ تدافعٌ وتَمانُعٌ على ما ذَكَرْنا مِنْ مَنْعِ كلِّ واحدٍ منهما الآخَرَ ودَفْعِهِ عنْ إنفاذِ أمْرِهِ في ذلكَ واتِّساقِ تدبيرِهِ. فَدَلَّ الدوامُ على ذلكَ واتِّساقُ الأمرِ على سَنَنٍ واحدٍ ومَجْرًى واحدٍ أنهُ فعلُ واحدٍ.

وأمّا(٦) دلالةُ البعثِ فما(٧) ذَكَرْنا مِنْ إذهابِ أحدِهما وإقرارِ الآخَرِ بعدَ ذهابِ آثارِ كلِّ واحدٍ منهما بكلِّيَّتِهِ.

ودلَّ إجراؤُهما مَجْرًى واحداً مِنْ أوَّلِ ما أنْشأهما إلى آخِرِ ما يَنْتَهي ذلكَ، ويَنْتَهي العالَمُ على منافِعِهِمْ وحَوائِجِهِمْ، أنهُ عالِمٌ بذاتِهِ مدبِّرٌ بِنفسِهِ وأنَّ لهُ عِلْماً ذاتياً وتدبيراً أزليًا لا مُكْتَسَباً مُستَفاداً.

[وأمّا دلالةُ الرسالةِ فإنَّ أهلَ مَكَّةَ لم يكونوا يَعرفونَ التوحيدَ، فَعَرَّفَهُمْ، وأتاهُمْ بحُجَجِهِ وبراهينِهِ، دلَّ أنهُ باللهِ عَرفَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ](٨).

وعلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ جَرَيانِ الشمسِ والقَمَرِ وتَسْخيرِهِما لِمنافِعِ هذا العالَمِ وحوائِجِهِمْ وقَطْعِهِما في يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ مَسيرةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ.

فَدَلَّ ذلكَ كلُّهُ على أنه واحدٌ، لا شريكَ لهُ، قادرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وعالِمٌ، مُدَبِّرٌ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

وعلى ذلكَ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] دلالةُ الوَحْدانيَّةِ والقُدْرةِ والعِلْمِ والتدبيرِ مِنْ حيثُ جَعَلَ أطرافَ الأرضِ كلَّها على تَباعُدِ ما بَينَها مُتَّصِلةً بِمَنافِعِ الخَلْقِ وحَوائِجِهِمْ بأسبابٍ، أنشَأها لهمْ، وعَلَّمَهُمْ [اتِّخاذَ السُّفُنِ](٩) لِيَصِلوا إلى تلكَ المَنافِعِ والحَوائِجِ. فَدَلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ، إذْ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَكانَ في ذلكَ تَمانُعٌ على ما ذَكَرْنا، وأنهُ عالِمٌ بذاتِهِ مُدَبِّرٌ. ولِذلكَ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] أي ذلكَ الذي ذَكَرَ كلُّهُ تقديرُ الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ. والعليمُ الذي لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. وباللهِ القوةُ.

الآية ٣٨ ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وفي بعضِ الحروفِ: والشمسُ تَجْري لا مُسْتَقَرَّ(١٠) لها [فَعَلَى هذا القولِ أي تَجْري أبداً، لا مُسْتَقَرَّ لها، ولا قَرارَ. ومَنْ قَرَأَ ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾](١١) أي لِنهايةٍ لها و غايةٍ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فيه. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) أدرجت في الأصل وم قبل تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/٢٠٨. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ثم اختُلِفَ في تلكَ النهايةِ؛ فمنهُمْ مَنْ يقولُ: نِهايَتُها وغايَتُها هي[١] ذهابُ هذا العالَمِ وانقِضاؤهُ وتبديلُ عالمٍ آخَرَ كقولِهِ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] وقولِهِ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] فذلكَ نِهايَتُها.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: مُستَقرُّها، هو نُزُولُها[٢] في كلِّ يومٍ في مَنزِلٍ لِما ذَكَرَ أنَّ لها منازلَ[٣]، تنزِلُ كلَّ يومٍ في مَنزِلٍ، ثم تَطْلُعُ مِنْ مكانٍ آخَرَ. وكذلكَ قالَ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: نِهايَتُها ما ذُكِرَ في الخَبَرِ أنها إذا غَرَبَتْ تُرْفَعُ إلى السماءِ السابعةِ، فَتَخِرُّ للهِ ساجِدَةً تحتَ العرشِ، ثم يُؤذَنُ لها بالطلوعِ؛ ذُكِرَ في الخَبَرِ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لمّا يَأذَنُ لها بالطلوعِ والارْتِفاعِ يأتيها جبريلُ بِحُلَّةٍ مِنْ ضَوءِ العَرْشِ على مِقدارِ ساعاتِ النهارِ في طُولِهِ في الصيفِ وقِصَرِهِ في الشتاءِ وما بَينَ ذلكَ في الخريفِ والربيعِ، فَتَلْبَسُ تلكَ الحُلَّةَ كما يَلْبَسُ أحدُكُمْ ثوبَهُ».

وذُكِرَ في القمرِ كذلكَ مِنَ الحَبْسِ والسجودِ للهِ. إلّا أنهُ ذُكِرَ فيهِ أنَّ جبريلَ يأتيهِ بِحُلَّةٍ مِنْ نورِ العرشِ. وفي بعضِ الأخبارِ بِكَفٍّ مِنْ نورِهِ، فَيَلْبَسُ تلكَ الحُلَّةَ أو ذلكَ الضوءَ والنورَ كما يَلْبَسُ أحدُكُمْ ثوبَهُ.

فذلكَ قولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] ذَكَرَ لِلشَّمْسِ ضِياءً ولِلْقَمَرِ نُوراً كما ذُكِرَ في الخَبَرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: مُستَقرُّها جَرَيانُها في البَحْرِ الذي خَلَقَ اللهُ دونَ السماءِ، بَحْرٌ مَكْفوفٌ جارٍ، فيهِ تَجري الشمسُ والقَمَرُ والجواري الكُنَّسُ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي تَجري في مكانٍ، وتَسيرُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ العزيزُ: الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ويَعِزُّ مِنْ أنْ يَغْلِبَهُ شيءٌ. والعليمُ: الذي يَعِزُّ مِنْ أنْ يَخفَى عليهِ شيءٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: العزيزُ الذي أظهَرَ أثَرَ الذُّلِّ في غَيرِهِ، ولا يُرَى أحدٌ إلّا وأثَرُ الذُّلِّ والحاجةِ فيهِ ظاهِرٌ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي [قَدَّرنا لهُ][٤] منازِلَ: تَزدادُ، وتَستَوي، وتَنتَقِصُ. وكذلكَ جَعَلَ للشمسِ منازلَ أيضاً، تَزدادُ، وتَنتَقِصُ، وتَستَوي. لكنْ جَعَلَ منازلَ القَمَرِ في تَغْيِيرِهِ في نفسِهِ يَتَغَيَّرُ، ويَزدادُ، ويَستَوي، ويَنتَقِصُ.

وأمّا الشمسُ فإنهُ جَعَلَ تَغْيِيرَها في الزيادةِ والنُّقصانِ في الأزمنةِ والأوقاتِ. فأما في نفسِها فليسَ فيها تَغْيِيرٌ ولا نقصانٌ، فهو، واللهُ أعلَمُ، لمّا ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ القَمَرَ سَبَباً للوصولِ إلى معرفةِ الأوقاتِ والحسابِ والحجِّ بقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وعلى ذلكَ جَعَلَ طُلوعَهُ وغُروبَهُ مُخْتَلِفاً في الليلِ والنهارِ وفي كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ، وأمّا الشمسُ فإنها في نفسِها على حالةٍ واحدةٍ؛ لا زيادةَ فيها، ولا نُقصانَ، ولا تَغْيِيرَ إلّا في الوقتِ الذي تَنْكَسِفُ، وكذلكَ طُلوعُها وغُروبُها في وقتٍ واحدٍ، لا يَختَلِفُ، ولا يَتَغَيَّرُ، إلّا في أزمِنَتِها وأوقاتِها، فإنهُ يأخُذُ هذا مِنْ هذا، وهذا مِنْ هذا.

وأمّا الأيامُ فإنهُ لم يَجعَلْ فيها تَغْيِيراً، فهي، واللهُ أعلَمُ، لِما يَشتَدُّ على الناسِ حِفْظُها، ولا جَعَلَها[٥] سَبَباً لِتَعريفِ الأوقاتِ والحسابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ قيلَ: إنهُ عُودُ الكِباسةِ القديمِ الذي قد أتى عليهِ حَولٌ، فاستَقْوَسَ، ودَقَّ شِبْهَ القَمَرِ آخِرَ ليلةٍ يَطْلُعُ بها[٦] أو أوَّلَ ليلةٍ. قالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَ القَمَرَ بالعُرجونِ القديمِ، وهو العِذْقُ اليابسُ المُنْحَني القديمُ الذي أتى عليهِ الحَولُ، وهما واحدٌ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: نزوله. (٣) في الأصل: منزل، في م: منزلا. (٤) في الأصل وم: قدرناه. (٥) في الأصل وم: جعل. (٦) في الأصل وم: به.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ الشمسِ ههنا كِنايةً عن نفسِهِ والقَمَرَ كِنايةً عنِ الليلِ. الا تَرى أنهُ ذَكَرَ الليلَ والنهارَ على إثْرِ ذلكَ [حينَ قالَ][1]: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يُخْبِرُ أنهُ لا يُدْرِكُ هذا هذا ولا سابقٌ[2] لهذا.

[وجائزٌ أنْ][3] يكونَ ذَكَرَهما كِنايةً عنِ الليلِ والنهارِ، ولكنْ على بَيانِ حقيقةٍ[4] ألّا يُدْرِكَ / ٤٤٦ ـ ب/ ضَوءُ هذا هذا [ولا ضَوءُ هذا هذا][5] فَيَغْلِبَهُ، ولكنْ يكونُ هذا في وَقْتٍ، وهذا في وَقْتٍ آخَرَ، لا يَجْتَمِعانِ في وقتٍ واحدٍ، أو يَذْكُرَ أنهُ لا يُغْلَبُ[6] هذا على هذا ما دامَ في سُلْطانِهِ، ولا هذا على هذا ما دامَ سُلْطانُهُ قائماً؛ يُخْبِرُ عن قُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وتَدْبيرِهِ.

وأمّا قُدْرَتُهُ فهي[7] وما ذَكَرَ مِنْ تقديرِ الشمسِ والقَمَرِ والليلِ والنهارِ وحِفْظِهِما حتى لا يَغْلِبَ أحَدٌ صاحبَهُ، فَيَذْهَبَ بِهِ؛ دلَّ حِفْظُهُ إيّاهُما وما ذَكَرَ [مِنْ تقديرِهِ][8] إيّاهما على ما قَدَّرَ أنهُ إنما كانَ بِقُدْرَةٍ ذاتيّةٍ.

ودَلَّ إجراؤُهُ إيّاهما على مَجْرًى واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ مُنْذُ أنْشأهُما، وقَدَّرَهُما إلى آخِرِ ما يَنْتَهي إليهِ هذا العالَمُ أنهُ كانَ بِعِلْمٍ ذاتيٍّ وتدبيرٍ أزَليٍّ لا مُسْتَفادٍ ولا مُكْتَسَبٍ.

وهذا يَنْقُضُ على الثَّنَوِيَّةِ مَذْهَبَهُمْ أنَّ مُنْشِئَ الظُّلْمَةِ غيرُ مُنْشِئِ النورِ، لأنهُ لو كانَ اثْنَينِ على ما يقولونَ لَكانَ إذ غَلَبَ هذا هذا، وجازَ سلطانُهُ، مَنَعَهُ مِنْ أنْ يأتِيَ الآخَرُ. فإذا لم يَكُنْ دلَّ أنه فِعْلُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني الشمسَ والقَمَرَ. قالَ بعضُهُمْ: أي في دَوَرانِهِ واسْتِدارَتِهِ يَجْرونَ على ما ذَكَرْنا، لا يَمْنَعُ هذا هذا. وعلى هذا التأويلِ هو الدورانُ الذي تَدورُ عليهِ الشمسُ والقَمَرُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ تَحْتَ السماءِ في الهواءِ بَحْرٌ مَكْفوفٌ، فيهِ تَطْلُعُ الشمسُ، وفيهِ تَغْرُبُ. وكذلكَ القمرُ. فإنْ كانَ على هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ على حقيقةِ السباحةِ والعَومَةِ. ويُرْوى في ذلكَ خَبَرٌ على ما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبيُّ وأبو عوسَجَةَ: ﴿نَسْلَخُ﴾ أي نُخْرِجُ، والعُرْجُونُ: عُرْجُونُ النخلةِ مِثْلُ العُنقودِ مِنَ العِنَبِ، والعراجينُ جماعةٌ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ مِنَ السِّباحةِ.

الآيات ٤١ و٤٢ و٤٣ ثم قولُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ اخْتُلِفَ في ذلكَ الفُلْكِ:

قالَ بعضُهُمْ: هي السفينةُ [التي حُمِلَ فيها نوحٌ وأتباعُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بهِ السُّفُنَ كلَّها التي يُحْمَلُ عليها، ويُرْكَبُ، والفُلْكُ: يُقالُ: هو واحدٌ وجماعةٌ. فإنْ كانَ المُرادُ بالفُلْكِ السفينةَ المُشارَةَ، وهي سفينةُ][9] نوحٍ كانَ قولُهُ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ غيرَها مِنَ السُّفُنِ [التي اتُّخِذَتْ للركوبِ. وإنْ كانَ المُرادُ بهِ غيرَها مِنَ السُّفُنِ][10] كانَ قولُهُ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إنما هي الأنعامُ التي يركبونَ عليها في المَفاوزِ والبَراري كقولِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] ونَحْوَهُ.

ثم إن كانَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ السُّفُنَ كانَ في ذلكَ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلةِ في قولِهِمْ: أفعالُ العبادِ لَيْسَتْ بِمَخْلوقةٍ حينَ[11] أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ السُّفُنَ، والسُّفُنُ إنما تُسَمّى سُفُناً بعدَ ما اتُّخِذَتْ، ونُحِتَتْ، فأمّا قَبْلَ ذلكَ فهي تُسَمّى خَشَباً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مَعْنَيَيْنِ:

أحَدُهُما: أنّا حَمَلْنا مَنْ أنتم مِنْ ذُرِّيّتِهِمْ في الفُلْكِ المَشحونِ وهُمُ الذينَ حَمَلَهُمْ مع نوحٍ في سَفينتِهِ.

---

(١) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (٢) في الأصل وم: سابقا. (٣) من م، في الأصل: وجامعان لا. (٤) من م، في الأصل: حقيقتهما. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يغلبه. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: وتقديره. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

والثاني: أنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّةَ قومِكَ في أصلابِ آبائِهِمْ وأرحامِ أمّهاتِهِمْ في الفُلْكِ، نَسَبَهُمْ إليهِمْ لِما أنهمْ أصْلٌ لهؤلاءِ كقولِهِ: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] وإنما نَسَبَنا إلى آدمَ لأنهُ أصلُنا، وهو المَخلوقُ مِنَ الترابِ.

فَعَلى ذلكَ هذا. لكنَّ الفائدةَ في التأويلِ الأوّلِ غَيرُ الفائدةِ في التأويلِ الثاني.

فإنْ[1] كانَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا﴾ مَنْ أنتمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ هذا فَفائدتُهُ أنكمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ نَجا منهمْ مِنْ آبائِكُمْ، وهُمُ الذينَ آمنوا برسولِهِمْ، وصَدَّقوهُ، لا مَنْ كَذَّبَ بهِ. فكيفَ لا اتَّبَعْتُموهُمْ؟ لأنَّ العَرَبَ مِنْ عادتِهِمْ أنهمْ لا يَزالونَ مُحتجِّينَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وإنْ كانَ المُرادُ المَعنى الثاني فيقولُ: إنَّ في آبائكُمْ مَنْ قد صَدَّقَ الرسُلَ، وآمَنَ بهمْ، ومنهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ. فكيفَ اتَّبَعْتُمُ الذينَ كَذَّبوهُمْ دونَ الذينَ صَدَّقوهُمْ؟

ثم جهةُ الآيةِ في الفلكِ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ موضِعٍ: إمّا في تذكيرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ حينَ[2] سَخَّرَ لهمْ ما في البِحارِ والبَراري حتى يَصِلوا إلى قضاءِ حَوائِجِهِمْ ومَنافِعِهِمْ في الأمكِنَةِ النائيَةِ البَعيدةِ بالسُّفُنِ التي أنشأها لهمْ والأنعامِ التي خَلَقَها لهمْ، [وإمّا في ما][3] يُخبِرُ عنْ قُدرتِهِ وسلطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على تَسخيرِ هذا وإيصالِ هذا بهذا، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ شيءٌ، [وإمّا في ما][4] يُخبِرُ عنْ وَحدانيّتِهِ ورُبوبيّتِهِ، إذْ لو كانَ ذلكَ فِعْلَ عَدَدٍ لامتَنَعَ، ولم يَتَّصِلْ، ولم يَصِلوا إلى قضاءِ حَوائِجِهِمْ، [وإمّا في ما][5] يُخبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ بعبادتِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدوها حينَ[6] قالَ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الآية، يُخبِرُ أنّا لو شِئْنا إغراقَهُمْ لا تَملِكُ الأصنامُ التي يَعْبُدونَها الإغاثةَ لهم والاستِنقاذَ مِنْ ذلكَ كقولِهِ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وكقولِهِ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ مِنْ ربكَ؛ أي لو شاءَ لأهْلَكَهُمْ، واستأصَلَهُمْ بالعِنادِ والتكذيبِ للرسولِ كما فَعَلَ بأوائِلِهِمْ. لكنْ برحمتِهِ أخَّرَ عنْ هؤلاءِ ذلكَ، وجَعَلَ لهمْ مَتاعاً إلى حينٍ. وذلكَ منهُ رحمةٌ. والذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ عندَ رؤيتِهِمْ بأسَ اللهِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤] [أخبَرَ][7] أنهُ لم يَنفَعْهُمْ ذلكَ حينَ[8] قالَ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر: ٨٥] ولكنْ يرحَمُ هؤلاءِ لِمكانِ رسولِ اللهِ؛ فَقَبِلَ إيمانَهُمْ عندَ رُؤيتِهِمْ بأسَ اللهِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الآية دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ لقولِهِمْ في الأصْلَحِ لِما لا يَخلو إمّا أنْ يكونَ إغراقُهُ إيّاهُمْ أصلَحَ لهمْ في الدينِ [وإما][9] إبقاؤهُ إيّاهُمْ.

فإنْ كانَ إغراقُهُ إيّاهُمْ أصلَحَ لهمْ في الدينِ [فلم يُغرِقْهُمْ، فقد فَعَلَ بهمْ ما ليسَ ذلكَ بأصلَحَ لهمْ. وإنْ كانَ إبقاؤهُ إيّاهُمْ أصلَحَ لهمْ في الدينِ مِنْ إغراقِهِمْ فلا يكونُ ذلكَ رحمةً لأنَّ لهُ أنْ يَفعَلَ ذلكَ، ولا يَفعَلَ بهمْ غيرَهُ. وقد أخبَرَ أنَّ إبقاءَهُ إيّاهُمْ رَحمةٌ منهُ لهمْ، فَدَلَّ أنهُ ليسَ عليهِ حِفظُ الأصلَحِ على عبادِهِ في الدينِ][10] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما كانَ مِنْ عُقوباتِ اللهِ ووقائِعِهِ في مَنْ كانَ قَبلَكُمْ مِنْ عِنادِهِمْ في آياتِهِ وتكذيبِهِمْ رُسُلَهُ؛ يقولُ: اتَّقوا ذلكَ، واحذَروا نُزولَهُ عليكُمْ. فَسَمّى ﴿بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ لأنهُ مَضى بينَ أيديهِمْ ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ مِنْ أمرِ الساعةِ وعذابِها [سَمّاهُ خَلْفاً لأنهُ لم يَجِئْ][11] بَعْدُ [وما][12] وراءَهُمْ غَيرُ مأتِيٍّ؛ يقولُ: احذَروا ذلكَ.

وقالَ قائِلونَ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ هو عقوباتُ الآخِرةِ، هيَ بينَ أيديهِمْ [سَتأتيهِمْ، وسَتَنْزِلُ بهِمْ][13] ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما مَضى مِنَ العقوباتِ التي نَزَلَتْ بِمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فصارَ ذلكَ وراءً وخَلْفاً؛ يقولُ: احذَروا أيضاً ما تَسُنّونَ أيضاً لِمَنْ بَعْدَكُمْ كقولِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ ما عَمِلَ هو ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ ما سَنَّ لِغيرِهِ مِنْ بعدِهِ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: سمى خلف لأنه. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ستأتي بهم وستنزل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي إذا فَعَلْتُم ذلكَ اسْتَوجَبْتُمُ الرحمةَ بفضلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، في قومٍ خاصٍّ اعْتادوا العِنادَ والمُكابَرَةَ في ردِّ الآياتِ والإعراضِ عنها لمَا كانَ سُؤالُهُمُ الآياتِ [سُؤالَ تعَنُّتٍ][1] لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ. ولو كانَ سُؤالُهُمْ سُؤالَ اسْتِرْشادٍ لكانَ قد أنْزَلَ لهمْ مِنَ الآياتِ وآتاهُمْ ما يُلْزِمُهُمْ قبولَها والتَّمَسُّكَ بها.

ثم الإعراضُ والعِنادُ يكون بوجهَيْنِ:

أحَدُهما: يُعْرِضُ لِما لم يُوقِعْ[2] لهُ التَّرْكُ التأمُّلَ والنظرَ فيها.

والثاني: يُعْرِضُ عنها إعْراضَ عِنادٍ بعدَ التَّحقُّقِ والتَّيقُّنِ/ ٤٤٧ ـ أ/ والعِلْمِ أنها آياتٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَنفِقُوا﴾ أي صِلُوا[3] الأرحامَ والقَراباتِ على حقيقةِ الإنفاقِ. ويَحْتَمِلُ أنِ اقْبَلوا الإنفاقَ، وهو الزكاةُ كقولِهِ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ و٧] أي لا يَقْبَلونَ الإيتاءَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ بهذا قالتِ المعتزلةُ في قولهمْ: إنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ إلّا ما هو أصلَحُ لِلْخَلْقِ[4] في الدينِ؛ يقولونَ: لو كانَ الإنفاقُ والرزقُ أصْلَحَ لهم في الدينِ لَرَزَقَهُمُ اللهُ على ما رَزَقَنا.

فَيُقالُ للمعتزلةِ: أمْرُهُ إيّاهُمْ بالإنفاقِ على مَنْ ذَكَرَ لا يَخْلو مِنْ أنْ تكونَ النفقةُ لهمْ والرزقُ أصْلَحَ في الدينِ، ثم لم يَرْزُقْهُمْ، ولم يُوَسِّعْ عليهِمْ، أو[5] أنْ يكونَ المَنْعُ أصْلَحَ لهمْ، وتَرْكُ الإنفاقِ.

فإنْ كانَ الأوَّلُ فقد تَرَكَ فِعْلَ ما هو أصلَحُ في الدينِ. [وإنْ كانَ][6] الثاني فقد أمَرَ هؤلاءِ بِفِعْلِ ما هو ليسَ بأصْلَحَ.

فكيفَ ما كانَ ففيه بَيانُ أنْ ليسَ على اللهِ فِعْلُ[7] الأصْلَحِ للخَلْقِ في الدينِ إنما عليهِ ما تُوجِبُهُ الحكمَةُ وحِفْظُ ما يكونُ حكمَةً.

وهؤلاءِ لم يَنْظُروا إلى [ما تُوجِبُهُ][8] الحكمَةُ.

وفي الحكمةُ الامْتِحانُ والابْتِلاءُ: هذا بالسَّعَةِ وهذا بالشِّدَّةِ والضِّيقِ. ثم أوجَبَ على مَنْ وَسَّعَ عليهِ في فُضولِ مالِهِ حقًّا لهذا الفقيرِ والمُضَيَّقِ عليهِ. وبَيَّنَ ذلكَ الحقَّ، وبَيَّنَ قَدْرَهُ وحدَّهُ لِيَسْتأدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ، وضَيَّقَ على هذا، يَطْلُبُ منهُ الصبرَ على ذلكَ أنْ مَنَعَ هذا حقَّهُ. وإلّا لم يَسْبِقْ مِمَّنْ وَسَّعَ عليهِ ما تَسْتَوجِبُهُ تلكَ النعمةُ والسَّعَةُ، ولا مِمَّنْ ضَيَّقَ عليهِ ما يَسْتَوجِبُ ذلكَ. ولكنْ محنةٌ يَمْتَحِنُهُمْ بها: هذا بالشِّدَّةِ والضِّيقِ، وهذا بالسَّعَةِ والكَثْرَةِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أغنياءَ، لا فَقيرَ فيكُمْ، ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ فُقَراءَ، لا غَنِيَّ فيكُمْ، ولكنهُ ابْتَلَى بعضَكُمْ ببعضٍ لِيَنْظُرَ كيفَ عَطْفَ الغنيِّ؟ وكيفَ صَبْرَ الفَقيرِ».

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا كلامُ الكَفَرَةِ للمؤمنينَ. لم يَكْتَفوا بذلكَ القولِ الذي قالوهُ، ولكنْ نَسَبوهُمْ إلى الضلالِ والجهلِ. وقالَ بعضُهُمْ: هذا القولُ مِنَ اللهِ جوابٌ لهمْ لِقولِهِمْ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ليسَ بِصِلَةٍ لِما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ، وكأنهُمْ خُوِّفوا بِتَرْكِ الإنفاقِ بالعذابِ، فقالوا عندَ ذلكَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الآية ٤٩ ثم قالَ تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي ما يَنْظُرونَ لإيمانِهِمْ إلّا ذلكَ الوَقْتَ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ:

---

(١) في الأصل: تعنت، في م: تعنتا. (٢) في الأصل وم: يقع. (٣) في الأصل وم: صلة. (٤) في الأصل وم: له. (٥) في الأصل وم: وإما.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: حفظ. (٨) في الأصل وم: توجيه.

إنهمْ إذا بلغوا ذلكَ الوقتَ، وعايَنوا ذلكَ، فعندَ ذلكَ يؤمنونَ. لكنْ لا يَنفعُهمُ الإيمانُ في ذلك الوقتِ لِقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يُخبِرُ عن سُرعةِ قيامِ الساعةِ وغَفْلَةِ أهلِها عنها كقولِهِ: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٢].

وعلى ذلكَ رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][(١)] قالَ: «تقومُ الساعةُ والرجلانِ يَتبايَعانِ الثوبَ، فلا يَطْوِيانِهِ حتى تَقومَ الساعةُ» [البخاري ٦٥٠٦].

وعنْ أبي هُريرةَ ﷺ في قولِهِ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [أنهُ قالَ][(٢)]: «تقومُ الساعةُ والناسُ في أسواقِهِمْ يَحْلِبونَ اللِّقاحَ، ويَذْرَعونَ الثيابَ، ويَتبايعونَ، وهمْ في حاجاتِهِمْ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٦٢]. وعنِ الزُّبيرِ بْنِ العَوّامِ ﷺ [أنهُ قالَ][(٣)]: «إنَّ الرجلَينِ لَيَتبايعانِ إذْ نادى مُنادٍ قد قامتِ الساعةُ» [بنحوه الدر المنثور ٧/ ٦٢]. ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وَصِيَّةً. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ وأُبَيٍّ: أي يَسْتَطيعونَ وَصِيَّةً. وقولُهُ تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يحتملُ ما ذَكَرْنا أنَّ الساعةَ تقومُ، وهم على ما كانوا عليهِ مِنَ البِياعاتِ والخُصوماتِ والمُنازَعةِ، وعلى ذلكَ جاءتِ [الأخبارُ][(٤)].

ويَحْتَمِلُ ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ في الساعةِ والبَعْثِ أنها لا تقومُ، ولا تكونُ، لأنهمْ كانوا [يَخْتَصِمونَ فيها][(٥)].

ودَلَّ قولُهُ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أنَّ اسْتِطاعةَ الفِعْلِ أنها لا تَتَقَدَّمُ الفعلَ، لكنها [تُقارِنُهُ، وتُجامِعُهُ][(٦)]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ قد ذَكَرْنا القولَ في الصُّورِ في غيرِ مَوضِعٍ واخْتِلافَهُمْ في ذلكَ:

قالَ قائلونَ: الصُّورُ، هو شِبْهُ القَرْنِ، يُنْفَخُ فيهِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ [أنهُ قالَ][(٧)]: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عنِ الصُّورِ، فقالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فيهِ» [الترمذي ٣٢٤٤] فإنْ ثَبَتَ فقد كُفِينا مَؤُنةَ الاشْتِغالِ بغَيرِهِ.

وقالَ قائلونَ: هو على التمثيلِ لا على التحقيقِ، لكنهُ ذَكَرَ النَّفْخَ لِسُرعةِ أمرِها وقيامِها؛ إذْ ليسَ شيءٌ أسْرَعَ نَفاذاً، ولا أخَفَّ مِنَ النَّفخِ؛ فهو عبارةٌ عنْ سُرْعَتِها ونَفاذِها كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وهو قولُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

قالَ أهلُ التأويلِ: يُنفَخُ في الصورِ ثلاثٌ بَينَ كلِّ نَفْخةٍ ونَفْخةٍ مُهْلَةٌ كذا كذا سنةً يقولونَ: في النَّفْخةِ الأولى يموتُ[(٨)] فيها كلُّ شيءٍ مِمّا خَلَقَ اللهُ كقولِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

ثم يُنْفَخُ ثانياً، فَيَحْيَونَ بها، ويَخْرُجونَ مِنْ قبورِهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

ويُنْفَخُ ثالثاً، فَيَجْتَمِعونَ عندَ ربِّهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

والنَّسْلُ هو سُرْعَةُ الخروجِ أي يُسْرِعونَ.

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: النَّسْلُ هو المَشْيُ ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يَمْشونَ، لكنهُ مَشْيٌ مع سُرْعَةٍ، وهما واحدٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل تقاربها وتجامعها، في م: تقارنها وتجامعه. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: سمعت.

جنة السنة

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يُنْكِرُ عذابَ القَبْرِ بهذِهِ الآيةِ. يقولُ: المَرْقَدُ مَوضِعُ الراحةِ، والراقدُ هو الذي يكونُ في راحةٍ. فلو كان لهمْ عذابٌ، أو كانوا في عذابٍ لم يكونوا في رَقْدَةٍ ولا راحةٍ. دلَّ أنهُ لا يكونُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: يكونُ في القَبْرِ عذابٌ، إلا أنهُمْ لمّا عايَنوا عذابَ الآخِرَةِ وأهوالَها صارَ عذابُ القَبْرِ لهم كالرُّقادِ عندَ عذابِ الآخِرَةِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: يَنامونَ نَومَةً قَبْلَ البَعْثِ، ثم يُبْعَثونَ، ومثلَ هذا.

وجائزٌ أنْ تكونَ النفسُ التي تَخْرُجُ عندَ النومِ تلكَ النفسَ في حالِ المَوتِ. فَتَجِدُ تلكَ ألَمَ ذلكَ كما تَجِدُ النفسُ التي تَخْرُجُ مِنَ النائمِ ألَمَ عذابٍ يُصيبُهُ، وتَجِدُ لذةً أيضاً إذا كانَتْ لذّةٌ. وتَرَى في النومِ أهوالاً وأفزاعاً، وذلكَ مَعْروفٌ. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ يُعَذَّبونَ بما ذَكَرْنا. فإذا بُعِثوا قالوا عند ذلكَ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ والمَرْقَدُ هو المَوضِعُ الذي يُنامُ فيهِ. أو أنْ يكونوا في عذابٍ؛ أعني في القبورِ. لكنهُمْ إذا عايَنوا عَذابَ الآخِرَةِ، وشاهدوا أهوالَها، هانَ ذلكَ العذابُ الذي كانَ لهمْ في القَبْرِ وسَهُلَ عندَ عذابِ الآخِرَةِ، فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا قولُ الملائكةِ لهم عندَ قولِهِمْ: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾. وقالَ بعضُهُمْ: [هو][1] قولُ المؤمنينَ لهم عندَ قولِهِمُ الذي قالوا.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ أيضاً قولَ أولئكَ الكَفَرَةِ، يُقِرّونَ بالبَعْثِ/ ٤٤٧ ـ ب/ عندَ مُعايَنَتِهِمُ البَعثَ؛ يقولونَ: هذا الذي وَعَدَ لنا المُرسَلونَ، وقد صَدَقوا في ذلكَ، ونَحْنُ كَذَّبْنا فيهِ. لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ تصديقُهُمْ إياهُمْ بذلكَ في ذلكَ الوَقْتِ، [وهو][2] كإيمانِهِمْ عندَ معايَنَتِهِمْ بأسَ اللهِ، وهو قولُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] فعلى ذلكَ هؤلاءِ. لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يَحْتَمِلُ على حَقيقةِ الصَّيْحَةِ؛ يَجْعَلُ اللهُ تعالى الصَّيْحَةَ عَلَماً لِلإحياءِ والبَعْثِ، لا أنْ تكونَ الصَّيْحَةُ سبباً للإحياءِ والبَعْثِ. ويَحْتَمِلُ لا على حَقيقةِ الصَّيْحَةِ، ولكنْ على قَدْرِ الصَّيْحَةِ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما كانَتْ إلّا قَدْرَ صَيْحَةٍ واحِدَةٍ، أي البَعْثُ. لكنهُ ذَكَرَ الصَّيْحَةَ لأنَّ الصَّيْحَةَ أسْرَعُ شيءٍ، وأيْسَرُ على الخَلْقِ مِنْ غَيْرِهِ على ما ذَكَرْنا في النَّفْخِ في الصورِ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] ذَكَرَ هذا لأنهُ أخَفُّ شيءٍ على الخَلْقِ وأهْوَنُهُ عليهِمْ، فَيُعَبِّرُ بهِ عنهُ، ويُكَنَّى بما ذَكَرَ لِيَعْلَموا خِفَّةَ ذلكَ على اللهِ وسُهولَتَهُ وهَونَهُ، وأنهُ لَيسَ يَثْقُلُ عليهِ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ذُكِرَ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ في البَعْثِ، فإذا كانَ ذلكَ في البَعْثِ [فيكونُ عندَ][3] ذلكَ إحضارُهُمْ عندَ اللهِ. وأمّا الأوَّلُ فإنما هو في الهَلاكِ والمَوتِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الظُّلْمُ في اللغةِ هو وَضْعُ الشيءِ في غَيْرِ مَوضِعِهِ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: فاليومَ لا تُوضَعُ نفسٌ في غَيْرِ مَوْضِعِها في الدنيا. أو يكونُ الظُّلْمُ عبارَةً عنِ النُّقصانِ، كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: فاليومَ لا تُنْقَصُ نفسٌ عما اسْتَوجَبَتْ، بل[4] تُوفَّى كقولِهِ: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] [أي لم تَنْقُصْ منهُ][5] أو يقولُ: فاليومَ لا يُحَمَّلُ على نفسٍ ذنبُ غَيرِها، ولا يوضَعُ عليها وِزْرُ غَيرِها، بل تُجْزَى كلُّ نفسٍ جزاءَ عَمَلِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ يُخْبِرُ، واللهُ أعلَمُ، عن شُغُلِ أهلِ الجنةِ؛ إنهم وإن

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: و. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فعند. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

كانوا مشغولينَ في النعيم فإنَّ ذلكَ الشُّغلَ يَحجُبُهُمْ عنْ غَيرِهِمْ منَ الأشياء. وكذلكَ جميعُ الخلائقِ؛ إنهمْ إذا شُغِلوا في شيءٍ حُجِبوا عنْ غَيرِهِ، ومُنِعوا.

فأمّا الله، سبحانَهُ، فيَتعالى عنْ أنْ يَشْغَلَهُ شيءٌ، أو يَحْجُبَهُ شيءٌ عنْ شيءٍ.

ثم إنَّ الاشْتِغالَ في الدنيا مِمّا يَضُرُّ أهلَها، ويُؤذي. فأخْبَرَ أنَّ شُغُلَ أهلِ الجنة ممّا لا يَضُرُّهُمْ، ولا يُؤذي حينَ[1] قالَ: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ قيلَ: ناعِمونَ بما هُمْ فيهِ، وقيلَ: مُعْجَبونَ[2] في ذلكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ يَتَفَكَّهونَ، ويُقالُ للمُزاحِ فُكاهةٌ، و﴿فَٰكِهُونَ﴾ أرادَ ذوي فُكاهةٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ مِنَ الفُكاهةِ، فكِهونَ[3] مِنَ السرورِ، والمُفاكَهَةُ المُمازَحَةُ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: شُغُلُهُمْ في افْتِضاضِ العَذارى، وقيلَ: شُغُلُهُمْ في كلِّ نعيمٍ وفي كلِّ كرامةٍ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ يُخبِرُ أنَّ أهلَ الجنةِ، وإنْ كانوا لا يُحجَبونَ عنْ شيءٍ، ولا يُمْنَعونَ شيئاً، فإنهمْ إذا كانوا معَ أزواجِهِمْ لا يَقَعُ عليهِمْ بَصَرُ غَيرِهِمْ، فَيُنَغِّصُ ذلكَ [عليهِمْ][4] وهو كما ذَكَرَ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] يُخبِرُ أنهمْ إذا كانوا معَ أزواجِهِمْ لا يَطَّلِعُ عليهِمْ غيرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ. و﴿ظِلَٰلٍ﴾ جمعُ ظِلٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ الاتِّكاءُ على الأرائكِ إنما هو للراحةِ. فيُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، عنْ غايةِ راحتِهِمْ ونهايةِ كرامتِهِمْ، وإلّا ليسَ في الاتِّكاءِ على الأرائكِ فَضلُ كَرامةٍ ومَنزِلةٍ، ولكنْ يَذْكُرُ عنْ راحتِهِمْ وتَنَعُّمِهِمْ كقولِهِ: ﴿فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقالَ القُتَبِيُّ: الأرائكُ: السُّرُرُ في الحِجالِ، واحِدُها أريكةٌ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الأرائكُ الوسائدُ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][5] قالَ: الأريكةُ الحَجَلَةُ، وهي بلغةِ أهلِ اليَمَنِ، يُسَمّونَ الحَجَلَةَ أريكةً.

الآية ٥٧ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ قيلَ: الفاكهةُ، هي التي تُؤكَلُ على الشَّهْوَةِ لا على الحاجةِ. يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ أهلَ الجنةِ إنما يأكُلونَ ما يأكُلونَ على الشَّهْوَةِ لا على الحاجةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ قيلَ: ما يَتَمَنَّونَ، وقيلَ: ما يَسْألونَ. وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ مِنَ الدَّعْوى، أي يُعطَونَ جميعَ ما يَدَّعُونَ لأنفسِهِمْ، ليسَ كالدنيا.

وقالَ أبو معاذٍ: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ما يَشْتَهونَ، ويَتَمَنَّونَ في الجنةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحَدُها[7]: يَرِدُونَ إليهِمْ، أعني الملائكةَ سلامَ اللهِ بِحَقِّ التَّبليغِ إليهِمْ سَلامَ اللهِ نَحْوَ ما يُبَلِّغُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ سَلامَ بعضٍ: أقْرِئْ فلاناً مني السلامَ. فَعلَى ذلكَ يقولونَ: إنَّ اللهَ قد أقْرَأَ علَيكُمُ السلامَ.

والثاني: أنْ يُسَلِّمَ عليهِمُ الملائكةُ بأمرِ ربِّهِمْ [كقولِهِ][8]: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ و ٢٤].

والثالثُ: أن يكونَ القولُ مِنَ اللهِ وَعْداً بالسلامِ لهمْ فيها مِنْ كلِّ آفةٍ وبلاءٍ، يكونُ في الدنيا كقولِهِ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦] ونَحْوُهُ.

وفي حرفِ أُبَيٍّ وابْنِ مَسْعودٍ: سلاماً قولاً بالنصبِ[9]؛ فهو، واللهُ أعلَمُ، كأنهما يَجْعَلانِ تمامَ الكلامِ في قولِهِ: ﴿يَدَّعُونَ﴾ ثم يَقْطَعانِ[10]: سلاماً قولاً منهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: معجبين. (٣) هذه قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢١٤. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وجهين: أحدهما. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ٢١٦. (١٠) في الأصل وم: ثم يقطع.

جنة السنة

وأمّا قراءةُ هؤلاءِ برَفْعِ السلامِ فَمَعْناها، واللهُ أعلَمُ: ولهمْ ما يَدَّعونَ سلامٌ؛ تَمَّ الكلامُ، وقُطِعَ[1] ﴿قَوْلًا مِّن﴾.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ كانَ أهلُ الجنةِ وأهلُ النارِ، يكونونَ مُختَلِطينَ، فَيُفَرِّقُ هؤلاءِ [عنْ هؤلاءِ][2] لأنهمْ يكونونَ[3] في الابتداءِ مَجموعينَ، ولذلكَ سَمّى ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧ والتغابن: ٩] ويومَ ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، ثم يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ كقولِهِ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ولذلكَ سَمّى ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١و..].

وأصلُ قولِهِ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ ليسَ على الأمرِ في الحقيقةِ أنِ افْتَرِقوا، ولكنْ على حقيقةِ التفريقِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وأصلُ الامْتِيازِ الافْتِراقُ والاعْتِزالُ، وبهِ يقولُ أبو عَوْسَجَةَ والقُتَبيُّ: إنَّ الامْتِيازَ، هو التَّفَرُّقُ والتَّنَحّي.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: عَهْدُ خِلْقَةٍ وبَيِّنَةٍ؛ إذْ قد جَعَلَ اللهُ تعالى في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ بَيِّنَةً[4] تَشْهَدُ على وحدانيتِهِ، وجَعَلَ العبادةَ لهُ، وصَرْفَها[5] عَمَّنْ دونَهُ، فَنَقَضوا ذلكَ العهدَ، وصَرَفوا العبادةَ إلى غيرِهِ والألوهيَّةَ.

والثاني: ما أخَذَ عليهِمْ مِنَ العَهدِ على ألْسُنِ الرسُلِ والأنبياءِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ.

والثالثُ: ما جَعَلَ فيهِمْ مِنَ الحاجاتِ والشَّهواتِ التي يَحْمِلُهُمْ قضاؤها مِنْ عندِهِ على صَرْفِ العبادةِ إليهِ والشكرِ لهُ على نَعْمائِهِ وجَعْلِ الألوهيَّةِ لهُ، ويَمْنَعُهُمْ صَرْفَها إلى غيرِهِ وجَعْلَها لِمَنْ دونَهُ، فَنَقَضوا ذلكَ كلَّهُ، وتَرَكوهُ.

فإنْ قيلَ: ذَكَرَ عبادةَ الشيطانِ، ولا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبادةِ الشيطانِ، ولا يَعْبُدُهُ، بل كلٌّ يَنْفِرُ[6] عنْ عبادتِهِ، ويَهْرُبُ منهُ [قيلَ: إنَّ هذا][7] يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحدُهما: يَحْتَمِلُ أنهُ يُريدُ مِنَ الشيطانِ المَرَدَةَ مِنَ الكَفَرَةِ والأئِمَّةِ منهمْ، الذينَ صَرَفوهُمْ عنْ عبادةِ اللهِ؛ سُمّوا شيطاناً لِما بُعِدوا عنْ رحمةِ اللهِ، شَطَنَ أي بَعُدَ كقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

والثاني: نَسَبَ تلكَ العبادةَ إلى الشيطانِ، وأضافَها إليهِ، وإنْ كانوا هُمْ لا يَقْصِدونَ بِعبادَتِهِمُ الشيطانَ لِما بأمْرِهِ يَعْبُدونَ [ما يعْبُدونَ][8] مِنَ الأصنامِ، فَنَسَبَ إليهِ بالأمرِ، أو لِما كانَ منهُ بِدايةُ الأمرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عداوتُهُ لنا ظاهرةٌ بَيِّنَةٌ في كلِّ شيءٍ حتى في المَأكَلِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ كقولِهِ /٤٤٨ ـ أ/ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٠] فهو يريدُ أنْ يُوقِعَنا، فهو عَدُوٌّ لنا.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي اعْبُدوني فإنَّ عِبادَتي هي[9] الصراطُ المُسْتَقيمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَضَلَّ﴾ أي أهلكَ، وهو ما أهلَكَ مِنَ القرونِ المُتَقَدِّمَةِ نَحْوَ عادٍ وثمودَ وقروناً غيرَ ذلكَ، والإضلالُ يكونُ الإهلاكَ في اللغةِ، ويَحْتَمِلُ على حقيقةِ الإضلالِ عنِ الهُدَى. ثم هو يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحدُهما: إنْ رأيتُمْ، وعَلِمْتُمْ أنهُ قد أهْلَكَ اللهُ خَلْقاً كثيراً بإبليسَ بما ضَلّوا بهِ، واسْتَأْصَلَهُمْ لذلكَ، فكونوا أنتُمْ يا معشرَ أهلِ مكةَ على حَذَرٍ منهُ لئلا يَنْزِلَ بكُمْ كما نَزَلَ بأولئكَ بِضَلالِهِمْ بهِ، واللهُ أعلَمُ ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ أنهُ فَعَلَ ذلكَ بهِمْ؟ يُخَرَّجُ على التَّعْييرِ والتوبيخِ لهمْ لِتَرْكِ هؤلاءِ والنظرِ في أمرِ أولئكَ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: يكون. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: ما. (٥) في الأصل وم: ويصرفها. (٦) في الأصل وم: يفر. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكنه. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: هو.

جنة السنة

والثاني: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: جُموعاً كثيرةً. وقالَ بعضُهُمْ: خَلْقاً كثيراً. وقالَ بعضُهُمْ أُمماً كثيرةً، وكلُّهُ واحدٌ.

وأصلُهُ مِنْ قولِكَ: جَبَلَهُمْ على كذا، أي طَبَعَهُمْ؛ ويُقرأُ: جُبْلاً وجُبُلًا وجِبْلاً وجِبِلاً بِرَفْعِ الجيمِ وخَفضِها وتشديدِ اللامِ[1].

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: الجِبِلَّةُ الخِلْقَةُ.

الآيتان ٦٣ و٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ادْخُلوها اليومَ بما كُنْتُمْ تَكْذِبونَ بها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي نَطْبَعُ على أفواهِهِمْ فلا يَتَكَلَّمونَ ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ كأنهمْ، واللهُ أعلمُ، لما أنكروا كُفْرَهُمْ وشِرْكَهُمْ وعَمَلَهُمُ الذي عَمِلوهُ في الدنيا كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وأمثالَهُ، عندَ ذلكَ يأذَنُ اللهُ سائرَ جوارحِهِمْ وأركانِهِمْ بالنطقِ والشهادةِ عليهِمْ بما عَمِلوا كقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ الآية [النور: ٢٤] وقولِهِ ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٠]. ثم تَنْطِقُ ألسِنَتُهُمْ حتى يُعاتِبوا الجَوارِحَ في شهادتِها عليهِمْ بقولِهِ: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وفيهِ أنَّ النطقَ والكلامَ الذي يكونُ مِنَ اللسانِ لا يكونُ، لأنهُ لسانٌ، أو لِنَفْسِ اللسانِ، ولكن لِلُطْفٍ يَجعَلُ اللهُ ذلكَ في اللسانِ، فَيَنْطِقُ. فحينما جَعَلَ ذلكَ اللطفَ والمَعْنَى وفي أيّةِ جارحةٍ ما جَعَلَ نَطَقَتْ، وتكَلَّمَتْ، ولو كانَ النُّطقُ والكلامُ لِنَفْسِ اللسانِ لكانَ يَجبُ أنْ يَنْطِقَ لسانُ كلِّ ذي لسانٍ لِما لهُ اللسانُ. فإذا لم يَنْطِقْ دلَّ أنهُ لِلُطْفٍ جَعَلَ ما فيهِ بهِ يَنْطِقُ، ويَتَكَلَّمُ. فحيثما جَعَلَ المَعْنَى واللطفَ نَطَقَ، وتكَلَّمَ. وكذلكَ السمعُ والبَصَرُ وكلُّ جارحةٍ منهُ منَ اليَدِ والرجلِ وغيرِهما، جَعَلَ لُطفاً ومَعْنًى، بهِ يُسْمَعُ السمعُ، وبهِ يُبْصِرُ البصرُ، وبهِ تأخذُ، وتَقْبِضُ اليدُ، وبهِ تمشي، وتذهَبُ الرجلُ. فأينما جَعَلَ ذلكَ اللطفَ وذلكَ [المَعْنَى كانَ منهُ ذلكَ ما كانَ مِنَ السمعِ والبَصَرِ وغيرِهِ وكذلكَ][2] الأطعمةُ والمياهُ، ليسَ الغِذاءُ في عَينِها، ولكنْ في لُطْفٍ، جَعَلَ اللهُ فيها لُطفاً ومَعْنًى، يَصيرُ ذلكَ غذاءً لهمْ.

ألا تَرَى أنَّ عَينَ الطعامِ [لا يَبْقَى في المَعِدَةِ][3] فَيُرْمَى بهِ، ويُنْتَفَعُ بما فيهِ مِنَ الغِذاءِ؟ واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا﴾ أعْيُنَ الضُّلّالِ، [فلم يُبْصِروا][4] الطريقَ، فأنّى يُبْصِرونَ، وقد فَقَأْنا أعْيُنَهُمْ؟

وقالَ بعضُهُمْ: لو نشاءُ لَحَوَّلْنا أبصارَهُمْ مِنَ الضَّلالةِ إلى الهُدَى. فلو [طَمَسْنا، أي حوّلْنا الكُفرَ عنهُمْ][5] لاسْتَبَقوا الصِّراطَ؛ يقولُ: لأبصَروا طريقَ الهُدَى.

ثم قولُهُ[6]: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يقولُ: فَمِنْ أينَ يُبْصِرونَ الهُدَى إنْ لم أُعَمِّ عليهِمْ طريقَ الكُفرِ؟

الآية ٦٧ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي لأقْعَدْناهُمْ على أرجُلِهِمْ لا يَتَقَدَّمونَ، ولا يَتَأخَّرونَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على خِلافِ هذا، على التمثيلِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو طَمَسْنا أعْيُنَهُمْ، وأعْمَيناهُمْ، فاسْتَبَقُوا الطريقَ ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟ أي لا يُبْصِرونَ الطريقَ. فَعلَى هذا إذا طَمَسْنا أعْيُنَ القُلوبِ، فأعْمَيناها ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الهُدَى؟ أي لا يُبْصِرونَ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، على

---

(١) في الأصل وم: والتشديد انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ٢١٧. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: يبقى. (٤) في الأصل: فأبصروا، في م: فأبصروا فلم يبصروا. (٥) في الأصل وم: طمست أي حولت الكفر. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) و (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

التمثيلِ: لو حوّلنا ظاهرَ خِلقتِهم[1]، وصيّرْناها خنازيرَ وقِردَةً حتى ذهَبْنا بمنافعِ أنفسِهِمُ الظاهرةِ[2] ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾. فَعلَى ذلكَ إذا مَسَخْنا قلوبَهُمْ، وحوّلْناها عنْ مَكانِها ما انْتَفعُوا بها كما يُنْتَفِعونَ بظاهِرِ جوارِحِهِمْ[3] على التمثيلِ لا على التحقيقِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ دلالةُ أنَّ للهِ في ذلكَ صُنعاً، إذْ لو لم يكُنْ في ما يَختارونَ مِنَ الأفعالِ والأعمالِ صُنعٌ لم يكُنْ [لِتَوَعُّدِهِ إيّاهُم][4] على إذهابِ ذلكَ وتَحويلِهِ عن مَكانِهِ مَعنًى. فَدَلَّ أنَّ لهُ صُنعاً في ذلكَ وفِعلاً.

قالَ الحَسَنُ وقَتادةُ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فتَرَكْناهُمْ عُمياً، يَتَردَّدونَ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي لأَقْعَدْناهُمْ على أرجُلِهِمْ على ما ذَكَرَ ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يقولُ: واللهُ أعلَمُ: ما استطاعوا أنْ يَتقدَّموا، ويَتأخّروا.

وابْنُ عباسٍ ﷺ يقولُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ أي لو شاءَ غَيَّرَ أعيُنَ الضُّلّالِ، فلم يُبصِروا الطريقَ، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟ أي كيفَ يُبْصِرونَ؟ أو نَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

ومُقاتلٌ يقولُ: لو شاءَ طَمَسَ أعيُنَهُمْ ظاهرةً ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟ أي لا يُبْصِرونَ، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ آنفاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التمثيلِ على ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

ويَحتَمِلُ على التحقيقِ: أنَّ مَنْ قَدَرَ على الطمْسِ أوِ المَسْخِ وما ذَكَرَ مِنَ النَّكسِ لا يُعجِزُهُ شيءٌ عنِ البَعثِ وغيرِهِ؛ إذْ خَلْقُ الإنسانِ لِلطَّمسِ أو المَسْخِ خاصَّةً لا لعاقِبَةٍ تُقصَدُ ليسَ بحكمةٍ [فيكونُ فيهِ إثباتُ البَعْثِ][5] أو يَذْكُرُ أنهُ لو شاءَ لَطَمَسهُمْ، ولَمَسَخَهُمْ، لكنهُ تركَهُمْ، فلم يَطْمِسْهُمْ، ولم يَمْسَخْهُمْ، لِيَبْقَوا في النعمةِ، لِيَشكُروا نِعمَهُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي نُعَمِّرْهُ حتى يُدرِكَهُ الهَرَمُ والضَّعفُ؛ يقولُ: نَرُدُّهُ ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ الأوّلِ، لا يَعْقِلُ فيهِ كَعَقلِهِ الأوّلِ كقولِهِ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ[6] مَنْ فَعَلَ هذا، أو قَدَرَ على هذا، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ويَتَأدّى بهِ شُكْرَهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: المَطْموسُ هو الذي لا يكونُ بَينَ جفنَيهِ شَقٌّ ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي فتَحوَّزوا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: طَمَسْنا أعيُنَهُمْ، أي أعمَيناهُمْ، والمَسْخُ هو تَغْييرُ الصُّوَرِ والأبدانِ. وقولُهُ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي نُصَيِّرْهُ ضعيفاً بعد أنْ كانَ قوياً.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ نَزَلَ هذا، واللهُ أعلَمُ عندَ قولِهِمْ: إنهُ شاعرٌ، وإنهُ كذّابٌ. فأخبَرَ ﷻ أنهُ لم يُعلِّمْهُ الشعرَ تكذيباً لهمْ ورَدّاً عليهِمْ أنهُ شاعرٌ وأنَّ هذا القرآنَ شِعرٌ؛ جَعَلَ اللهُ عَجزَ رسولِهِ عنِ القِيامِ بإنشادِ الشعرِ بَعْضَ آياتِهِ، مِنْ آياتِ رسالتِهِ كما جَعَلَ عَجزَهُ عن تلاوةِ الكتابِ مِن قَبلُ وكتابتِهِ وخَطِّهِ بيمينِهِ آيةً من آياتِ رسالتِهِ لِيُعلِمَ أولئكَ الذينَ قَذَفوهُ بالشِّعْرِ والافتِراءِ مِنْ نَفْسِهِ والكَذِبِ على اللهِ وبالسِّحْرِ أنهُ إنما أخبَرَ عنْ وَحْيٍ مِنَ اللهِ لا ما يقولونَ هُمْ، وهُمْ على يَقينٍ وعِلْمٍ أنهُ ليسَ شاعراً، ولا ساحراً، ولا كذّاباً لِما لم يَرَوْهُ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ منهُمْ مِمَّنْ[7] يَعلَمُ ذلكَ، ولا كانَ عندَهُ مِنْ كُتُبِهِمْ [شيءٌ، ولا أخِذَ عليهِ][8] كَذِبٌ قَطُّ.

لكنهمْ نَسَبوهُ إلى ما نَسَبوهُ مِنَ الشِّعْرِ والسِّحرِ والكَذِبِ تَعَنُّتاً منهمْ وعِناداً، يُلْبِسونَ أمْرَهُ بذلكَ على أتباعِهِمْ وسَفَلَتِهِمْ لئلا تَذْهَبَ رِئاسَتُهُمْ ومَنفَعَتُهُمْ.

---

(١) من م، في الأصل: خلقهم. (٢) في الأصل وم: ظاهرة. (٣) في الأصل وم: جواهرهم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لتوعدهم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: في. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: منها أخذ ذلك ولا اخذ على، في م: منها أخذ ذلك على.

جنة السنة

وفي قولِهِ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ حينَ(١) أخبَرَ أنهُ لم يُعَلِّمْهُ الشِّعرَ، وقد أعطَى لهُ جميعَ أسبابِ الشِّعرِ، وقالَ في [حقِّ](٢) القرآنِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] إنهُ كانَ مِنَ اللهِ لُطفٌ سِوَى السَّبَبِ في ما أخبَرَ أنهُ قد عَلَّمَهُ.

دلَّ أنَّ التعليمَ/ ٤٤٨ ـ ب/ لهُ في ما كانَ منهُ بِلُطفٍ منهُ سِوَى السَّبَبِ لا بنفسِ السَّبَبِ؛ إذْ نفسُ السَّبَبِ قد كانَ لهُ في الأمرَينِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أنْ يُشغَلَ بشيءٍ مِمّا يُتَلَهَّى بهِ. والشِّعرُ في الأصلِ إنما جُعِلَ للتَّلَهِّي بهِ والتَّلَذُّذِ. ولذلكَ حِيلَ بَينَهُ وبَينَ طَبعِهِ على إنشادِ الشِّعرِ ليكونَ أبداً مُشتغِلاً بما هو حِكمةٌ وعِلمٌ وفي ما هو أمرُ اللهِ لا بما فيهِ التَّلَهِّي واللَّهوِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هذا القرآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ لِما نَسُوهُ مِن أمرِ اللهِ ووَعدِهِ ومِمّا لهمْ ومِمّا عليهِمْ؛ يُذَكِّرُهُمْ ما نَسُوهُ، وتَركوهُ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يُبَيِّنُ لهمْ مالَهُمْ وما عليهِمْ، أو يُبَيِّنُ لهمْ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى، أو يُبَيِّنُ لهمْ أنهُ مِنَ اللهِ جاءَ، ومِن عندِهِ نَزَلَ، لا مِن عندِ المخلوقينَ، أو ذِكرٌ لأهلِ الكتابِ، يُذَكِّرُهمْ ما(٣) نَسُوهُ مِمّا كانَ في كُتُبِهِمْ مِن بَعثِهِ(٤) وصِفَتِهِ وما عليهِمُ القيامُ بهِ، وما ليسَ.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ لِمُشركي العربِ أنهُ رسولٌ وأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِهِ جاءَ بهِ، وكلُّ كُتُبِ اللهِ ذِكرٌ مُبينٌ ورحمةٌ ونورٌ وشِفاءٌ على ما أخبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَن كانَ عاقلاً؛ يقولُ: لِيُنذِرَ بالقرآنِ مَن لهُ عقلٌ حيٌّ، فيؤمنَ ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي السَّخطةُ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في عِلمِ اللهِ لا يؤمنونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي مؤمناً، لأنَّ اللهَ ـ تبارَكَ ـ سَمَّى المؤمنَ حَيّاً في غيرِ آيةٍ والكافرَ مَيْتاً.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي لِتَقَعَ(٦) النِّذارةُ، وتَنفعَ مَن كانَ حَيّاً، أي مؤمناً على ما ذَكَرْنا، وإنْ كانَ يُنذِرُ الفريقَينِ جميعاً كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية: ١١] هو يُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكرَ ومَن لم يَتَّبِعِ الذِّكرَ. لكنَّ النِّذارةَ إنما تقَعُ، وتَنفَعُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكرَ، وخَشِيَ الرحمنَ خاصّةً كقولِهِ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. هو يُذَكِّرُهُمْ جميعاً، لكنَّ المَنفَعَةَ للمؤمنينَ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي مَن يطلُبُ بحياتِهِ الفانيةِ الحياةَ الدائمةَ ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ القولُ الذي قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣].

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضِعٍ أنَّ قولَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ونحوَهُ أنهُ في الظاهرِ حرفُ استِفهامٍ، لكنهُ مِنَ اللهِ على الإيجابِ والإلزامِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الخبَرِ أنْ قد رَأَوا ما خَلَقَ مِنَ الأنعامِ وما ذَكَرَ.

والثاني: على الأمرِ بالرُّؤيةِ(٧) والنظرِ في ما ذَكَرَ، أي فَلْيَرَوا.

فإنْ كانَ على الخبَرِ أنهمْ قد رَأَوا ما خَلَقَ اللهُ مِنَ الأنعامِ فهلّا تفكَّروا، واعتَبَروا في ما خَلَقَ لهمْ مِنَ الأنعامِ وغيرِها أنهُ لم يَخلُقْ لهمْ ذلكَ عَبَثاً باطلاً [ولكنْ لِحكمةٍ. ولو لم يكُنْ بَعثٌ على ما يقولونَ هُمْ كانَ خَلْقُ ذلكَ عَبَثاً باطلاً](٨).

[أو يقولُ: إنَّ مَن قَدَرَ على خَلقِ ذلكَ مِنَ الأنعامِ وتَسخيرِها ما لو تَرَكَها كلَّها؛ لم يُمِتْها لامتَلأتِ الأرضُ، لا يُحتَمَلُ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ، ولا يَقدِرَ على البعثِ والإحياءِ بعدَ الموتِ](٩).

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: فيما. (٤) في الأصل وم: نعته. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لتنفع. (٧) في الأصل وم: على الرؤية. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.

جنة السنة

أو يقولُ[1]: إنَّ مَنْ قَدَرَ على تَصويرِ ما ذَكَرَ مِنَ الأنعامِ وغَيرِهُ في الأرحامِ وتركيبِ ما رُكِّبَ فيها مِنَ الأعضاءِ والجوارِحِ في الظلماتِ لا يُحتَمَلُ أنْ يَخفى عليهِ شيءٌ، أو يُعجِزَهُ، أو يَفعَلَ ذلكَ على التدبيرِ الذي فَعَلَ بلا حكمةٍ.

أو يذكُرُ أنهُ خَلَقَ لهمْ مِنَ الأنعامِ، وذَلَّلَها لهمْ، وجَعَلَ لهمْ فيها مِنَ المَنافِعِ ما ذَكَرْنا بلا شُكرٍ يَلزَمُهُمْ، يَستأدي على ذلكَ شُكرَ ما أنعَمَ عليهِمْ. على هذا لو كانَ على الأمرِ بالرؤيةِ في ما خَلَقَ والنظرِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ يَحتَمِلُ ما عَمِلَتْ أيدي الخَلْقِ مِنَ الزراعةِ والغَرسِ وغَيرِ ذلكَ مما يَعْمَلُهُ الخَلْقُ؛ نَسَبَ ذلكَ إلى نفسِهِ.

ويَحتَمِلُ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ كقولِهِ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقولِهِ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] أي بِقُوَّتي ونَحوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قادرونَ على الانْتِفاعِ بها واستِعمالِها؛ يقولُ الرجلُ في ما لهُ فيهِ حقيقةُ المِلكِ: أنا غَيرُ مالكٍ عليهِ، إذا كانَ غيرَ قادرٍ على الانْتِفاعِ به، ولا مالكٌ على استِعمالِهِ.

وقيلَ: ﴿مَٰلِكُونَ﴾ أي ضابطونَ قادرونَ على إمساكِها؛ يقالُ: فلانٌ غيرُ ضابطٍ على إبلِهِ ودابَّتِهِ، وهما واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧٢ و٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ يُخبِرُ عنْ أنواعِ ما جَعَلَ لهمْ مِنَ الأنعامِ، وأنعَمَ عليهِمْ لِيَستأدِيَ بذلكَ شُكرَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٧٤ و٧٥ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ بَصَرِهِمْ لاتِّخاذِهِمُ الأصنامَ آلهةً وعبادَتِهِمْ إياها رَجاءَ النَّصرِ لهمْ وتركِهِمْ عبادةَ اللهِ على وجودِ المَعونةِ والنَّصرِ منهُ وجَعلِهِ كلَّ شيءٍ لهمْ.

ثم يكونُ رجاؤهُم ذلكَ[2] ما قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] [وقالوا][3]: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وذلكَ في الآخِرَةِ.

ويَحتَمِلُ رجاءُ النَّصرِ لهمْ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ في الدنيا دَفعَ[4] ما يَنزِلُ بهِمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ثم أخبَرَ أنَّ الأصنامَ التي يَعْبُدونها وما رَجَوا منها ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ وما رَجَوا مِنْ شَفاعَتِهِمْ والنَّصرِ لهمْ.

وأخبَرَ أنَّ ما عَبَدوا دونَهُ يَصيرُونَ أعداءً لهمْ بقولِهِ[5]: ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ [مريم: ٨١] هذا على تأويلِ بعضِهِمْ مِنْ أهلِ التأويلِ بِجَعْلِ الأصنامِ جُنداً عليهِمْ وأعداءً لهمْ على ما ذَكَرْنا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ أي المُشركونَ جُندٌ للآلهةِ التي يَعْبُدونها، أي هُمْ يَتَعَصَّبونَ[6] لها، ويقومونَ في دَفعِ مَنْ هَمَّ بها فَساداً وإهلاكاً؛ أعني أصنامَهُمُ التي كانوا يَعْبُدونها كقولِهِ ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في الآخِرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ كانَ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ لرسولِ اللهِ أقوالٌ مُختَلِفَةٌ: مَرَّةً كانَ منهُمْ ما ذَكَروا: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ومَرَّةً قالوا: إنهُ ساحِرٌ وإنهُ كَذّابٌ وإنهُ شاعرٌ، ومَرَّةً قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: ٣٢] ومَرَّةً قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] ومَرَّةً طَعَنوا فيهِ وفي ما أقامَ مِنَ الحُجَجِ.

---

(١) من م، في الأصل: يقولوا. (٢) في الأصل وم: بذلك. (٣) في الأصل وم: و. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) في الأصل وم: يقيضون.

جنة السنة

ولا نَدري أيّ قولٍ كانَ منهمْ لهُ؟ فَيحْزنَ عليهِ، حتى قالَ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي لا تَحزَنْ على قولِهِمْ فإنا نَعْلَمُ ما يُسِرّونَ وما يُعْلِنونَ، فَنحْفَظُ عليهِمْ ذلكَ، ونُكافِئُهُمْ على ذلكَ، أو نَعْلَمُ ما يُسِرّونَ وما يُعْلِنونَ، فَنَنصُرُكَ عليهِمْ، ونُعينُكَ.

[ويَحتَمِلُ][1] أنْ يكونَ حُزْنُهُ عليهِمْ إشفاقاً عليهِمْ لِما كانَ يعلَمُ نُزولَ العذابِ بهِمْ والهلاكَ لِعنادِهِمْ ومكابرتِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هذا يُخرَّجُ على الوجهَينِ:

[أحدُهُما: على الخَبَرِ أنْ قد رأى الإنسانُ أنّا قد خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفةٍ فلا يُفكِّرُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ الإنسانِ مُبْتدأً مِنْ نُطفةٍ [غيرُ قادرٍ][2] على إعادتِهِ.

والثاني][3]: على الأمرِ بالرُّؤيةِ، والنَّظَرِ، أي فَلْيَرَ الإنسانُ، ولْيَنظُرْ أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ الإنسانِ مُبتَدأً مِنْ نُطفةٍ قادرٌ[4] على إعادتِهِ أي إعادةُ الشيءِ في الشاهدِ أهْوَنُ، وأيْسَرُ مِنِ ابْتدائِهِ؛ إذْ قد يُحتَذَى، ويُصَوَّرُ، بَعدَ ما يَقَعُ البصرُ على الشيءِ، ويُرَى، ولا سبيلَ إلى احْتِذاءِ ما لم يَرَوا ولا تصويرِ ما لم يُعايِنوا.

احتَجَّ اللهُ عليهِمْ بالشيءِ الظاهرِ الذي يَعْلَمُ كلُّ [واحدٍ][5] أنهُ كذلكَ مِنْ غيرِ تَفكُّرٍ ولا تأمُّلٍ، والاحْتِجاجُ عليهِمْ بالأشياءِ التي لم يَذكُرْ أبْلَغُ وأكثرُ نَحْوُ خَلْقِ الإنسانِ مِنْ هذهِ النُّطْفَةِ على الصورةِ التي صَوَّرَها، والنَّسَمَةِ التي خَلَقَها فيها ما لوِ اجْتَمَعَ حكماءُ البَشَرِ كلُّهمْ لِيَعْرِفوا[6] كَيفيّةَ خَلْقِهِ منها مِنْ تركيبِ العَظْمِ والشَّعْرِ والعَينِ والبَصَرِ والسَّمْعِ والعَقْلِ وجميعِ الجوارحِ ما قَدروا /٤٤٩ ـ أ/ على دَرْكِ ذلكَ، أو لوِ اجْتَمعوا لِيَعْرِفوا[7] كيفيةَ غذائِهِمْ بالأطعمةِ والأشرِبَةِ التي جَعَلَها غِذاءً لهمْ، والقُوّةَ التي بها يَتَقوَّونَ[8] على كلِّ أمرٍ، أنْ كيفَ قَدَرَ، وقَسَمَ على السواءِ في الجوارحِ كلِّها الموادَّ التي [بها][9] يَنْمُونَ، ويَزيدونَ على الاسْتِواءِ ما لو زادَ في بعضِها مِنْ قِوَى ذلكَ الطعامِ والشرابِ دونَ بعضٍ، يَزدادُ قُوّةً على بعضٍ، ونَحْوُ ذلكَ مِنَ العجائبِ، ولا سَبيلَ إلى مَعْرِفةِ ذلكَ البَتَّةَ بَعْدَ طولِ التّفكُّرِ والتّأمُّلِ. لكنه احْتَجَّ بالشيءِ الظاهرِ لِيُدْرِكوا بالبديهةِ، ولا يُدْرِكونَ الآخَرَ إلّا بَعدَ التأمُّلِ والتّدبُّرِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي جَدِلٌ بَيِّنٌ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ لَمّا ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ لهُ ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما][10]: أي غَفَلَ عنِ القُدْرةِ في خَلْقِ نفسِهِ، مالو نَظَرَ، وتفكَّرَ، لَعَرَفَ أنهُ قادرٌ على الإعادةِ.

والثاني[11]: غَفَلَ عنِ الحكمةِ في ابْتِداءِ خِلْقَةِ نفسِهِ. ثم يُخَرَّجُ هذا على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ لو نَظَرَ، وتفكَّرَ في خَلْقِ[12] نفسِهِ أنهُ خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم حُوِّلَتِ النطفةُ عَلَقَةً، وحُوِّلَتِ العَلَقةُ مُضْغَةً، وحُوِّلَتِ المُضْغَةُ خَلْقاً وإنساناً تاماً مُتْقناً، ثم صُيِّرَ بحيثُ يأخُذُ في النقصانِ بَعدَ ما كانَ تاماً.

ثم مَنْ فَعَلَ هذا في الشاهدِ أنْ يُحكِمَ الشيءَ، ويُتْقِنَهُ، ويُتَمِّمَهُ، ثم يَهْدِمَهُ بلا عاقبةٍ، يَقْصِدُها[13]، كانَ غيرَ حكيمٍ. فَعَلَى ذلكَ كانَ ما أحْكَمَ اللهُ مِنَ الخَلْقِ، وأتقَنَهُ، وتَمَّمَهُ، ثم جَعَلَ يُنْقِصُ منهُ، ويُوهِنُهُ. فلو لم يكُنْ أعادَهُ[14]، وخَلَقَهُ ثانياً، كانَ خارجاً عنِ الحكمةِ، ولو نَظَرَ في ابْتِداءِ خَلْقِ نفسِهِ لَعَرَفَ أنَّ اللهَ يُعيدُهُ، ويُنْشِئُهُ ثانياً.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: لقادر. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وإن كان. (٤) في الأصل وم: لقادر. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أن يعرفوا. (٧) في الأصل وم: على أن يعرفوا. (٨) من م، في الأصل: ينفرون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وجوها: أحدها. (١١) في الأصل وم: والثالث. (١٢) في الأصل وم: حق. (١٣) في الأصل وم: يقصد به. (١٤) في الأصل وم: إعادته.

جنة السنة

والثاني: لو نَظَرَ، وتفكَّرَ في ابْتِداءِ خَلْقِ نفسِهِ أنهُ كيفَ دَبَّرَهُ في تلكَ الظلماتِ الثلاثِ، وقَدَّرَهُ على أَحْسَنِ تقديرٍ في ذلكَ، فلو نَظَرَ، وتفكَّرَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على تدبيرِهِ وتقديرِهِ في الظلماتِ الثلاث على ما دَبَّرَهُ، وقَدَّرَهُ، قادرٌ على إعادتِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي هو أهْوَنُ في عقولِكُمْ وتقديرِكُمْ، أهْوَنُ مِن ابْتِدائِهِ.

فإذا قَدَرَ على الابْتِداء فهو على الإعادةِ أقْدَرُ وأمْلَكُ، إنَّ ذلكَ في عقولِكُمْ أهْوَنُ وأيْسَرُ، وإلّا ليسَ في وصفِ اللهِ تعالى أنَّ شيئاً أهْوَنُ عليهِ مِنْ شيءٍ، بل الأشياءُ كلُّها تحتَ قولِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧ و. . .] مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ أو نونٌ أو شيءٌ مِن ذلكَ. لكنهُ عَبَّرَ بهِ لأنهُ أخفُّ الحروفِ[1] على الألسُنِ وأيْسَرُها[2]، وأقصرُ كلامٍ، وأوجزُهُ، يُؤدّى بهِ المَعْنى، ويُفْهَمُ منهُ المُرادُ.

والثالثُ: أنهُ خَلَقَ هذهِ الأشياءَ والجواهرَ كلَّها سِوَى البَشَرِ للبَشَرِ ولِمنافِعِهِمْ. فلو لم يكُنْ بَعْثٌ ولا نَشْأةٌ أُخرَى كان خَلْقُ هذهِ الأشياءِ لهمْ عَبَثاً باطلاً.

ويكونُ قولُهُ: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي غَفَلَ عن بَدْءِ خَلْقِهِ؛ إذْ بَدْءُ خَلْقِهِ إمّا أنْ كانَ مِنْ ماءٍ [وإمّا مِنْ][3] ترابٍ. فَعَلَى ذلكَ إذا أفناهُ يَصيرُ ماءً أو تُراباً، فَيُعيدُهُ منهُ على ما أنشأهُ منهُ بَدْءاً.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

الآية ٧٩ [وقولِهِ تعالى][4]: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ الباطنيّةِ وفسادِ مَذْهبِهِمْ [بوجهَين:

أحدُهما: حينَ][5] قالوا: إنَّ إعادةَ الخَلْقِ وإنشاءَهُ، ليسَ على هذهِ البُنْيَةِ والصورةِ التي أنشأها بَدْءاً، ولكنْ يُنْشِئُ نَفْساً روحانيّةً على خِلافِ ما شاهَدوها، وعايَنوها. فالآيةُ تُكذِّبُهُمْ، وتَنْقُضُ قولَهُمْ حينَ[6]: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أخْبَرَ أنهُ يُحيي العظامَ التي أنكروا هُمْ إحياءَها، واسْتَبْعَدوا ذلكَ. وعلى ذلكَ قالَ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

احتَجَّ عليهِمْ بِعِلْمِهِمُ النَّشأةَ الأُولَى ولإنكارِهِمُ[7] النشأةَ الأخرَى؛ فلو كانَ [البَدْءُ والإعادةُ][8] على خلافٍ، لم يكُنْ لِلاحْتِجاجِ عليهِمْ بذلكَ مَعْنىً. فَدَلَّ أنهُ يُنْشِئُهُمْ، ويُعيدُهُمْ على الهيئةِ الأولَى.

والثاني: يَنْقُضُ عليهِمْ قولَهُمْ أيضاً حينَ[9] قالوا: يُوصَلُ إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ مِنَ الذي يُعَلِّمُهُ الرسولُ، ويُخْبِرُهُ دونَ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ والتَّدَبُّرِ. فلو كانَ على ما يقولونَ[10] لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ولا لقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨] ولا لقولِهِ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] مَعْنىً. فَدَلَّ أنهُ قد يُوصَلُ إلى معرفةِ ذلكَ بالتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ كما يُوصَلُ بِخَبَرِ الرسولِ الذي قد أظْهَرَ صدقَهُ لِلخَلْقِ، فَتَلْزَمُهُ الحُجَّةُ في هذا كما تَلْزَمُهُ في ذلكَ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: هو نوعٌ مِنَ الشَّجَرِ، يُقالُ: المَرْخُ، كانوا يُورونَ منهُ النارَ. وقيلَ: هو الزيتونُ الذي يُسْرَجُ منهُ. وتأويلُهُ: أنَّ الشَّجَرَ الأخضَرَ، خُضرَتُهُ إنما تكونُ مِنَ الماءِ، والماءُ تُطْفِئُ النارَ، والنارُ تأكُلُ الحَطَبَ والخَشَبَ. فَمَنْ قَدَرَ على الجَمْعِ بينَ المُتَضادَّينِ وحَفِظَ كلَّ واحدٍ منهما عنْ صاحبِهِ ممّا السبيلُ منها التَّنافُرُ والتدافُعُ [فهو قادرٌ][11] على البَعْثِ، ولا[12] يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وقال بعضُهُم: قولُهُ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ هو أنشأ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ [ما

---

(١) في الأصل وم: حروفه. (٢) في الأصل وم: وأيسره. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، في الأصل: يقول. (١١) في الأصل وم: القادر. (١٢) في الأصل وم: وأنه لا.

جنة السنة

تتنزّهونَ بهِ][1] وتتلذّذونَ ما دامَ أخضرَ. فإذا أدركَ، وبلَغَ، تنتفِعونَ [بثمارِهِ وفواكِهِه][2] ثم يَصيرُ حَطباً، توقدونَ منهُ[3] النارَ، وتَصطلونَ. فمَنْ قدَرَ على ما ذكَرْنا لا يُحتمَلُ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ. أو مَنْ فعَلَ ما ذكَرَ لا يُحتمَلُ أنْ يَفعَلَهُ عَبَثاً باطِلاً.

فلو كانَ على ما قالهُ أولئكَ الكفَرَةُ: أنْ لا بَعْثَ، ولا نُشورَ، كانَ فِعلُ ذلكَ عَبَثاً باطِلاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ﴾ يذكُرُ، واللهُ أعلَمُ: أوَ ليسَ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ السمواتِ والأرضِ مُبتَدَأً لا مِن شيءٍ ولا أصلٍ لا يُحتمَلُ أنْ يُعجِزَهُ إعادةُ الخَلْقِ وبَعْثُهُمْ، أو يقولُ: إنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما فيهما لَقادرٌ على أنْ يَخلُقَ مِثلَهُمْ، وخَلْقُ المِثْلِ إعادةٌ، لأنهُ إنما يكونُ بعدَ هلاكِ الذينَ أنشأَهُمْ وبعدَ إماتَتِهِمْ، أو يَخلُقَ مِثْلَهُمْ مع بَقائِهِمْ سِواهُمْ. وفي ذلكَ ابتِداءُ خَلْقٍ وإعادةٌ، فيُلزِمُهُمُ الإقرارَ بالبعثِ والقُدْرَةِ على الإعادةِ.

ثم أخبَرَ عَنْ قدرتِهِ فقالَ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو خَلَقَ كلَّ شيءٍ مِن جواهِرِ الأشياءِ وأفعالِهِمْ، أو هو الخَلّاقُ في الدنيا والآخِرَةِ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: يَحتمِلُ العَليمَ ببَعْثِهِمْ، أو العَليمَ بمصالِحِهِمْ ومَعاشِهِمْ وما لا يَصلُحُ، أو العَليمَ بأحوالِهِمْ وأنفسِهِمْ ما ظَهَرَ منهمْ، وما بَطَنَ، وما أسَرّوا، وأعلَنوا.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ يَحتمِلُ إنما حالُهُ ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قد ذكَرْنا معنى هذهِ الآيةِ في ما تَقَدَّمَ أنَّ كلَّ ما كانَ ويكونُ أبَدَ الآبدينَ إنما يكونُ بـ ﴿كُن﴾ الذي كانَ مِن غيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ ونونٌ ﴿فَيَكُونُ﴾ أو شيءٌ مِن ذلكَ إنما هو إخبارٌ عن سُرعةِ نفاذِ أمرِهِ ومشيئتِهِ، أو إخبارٌ عن خِفّةِ ذلكَ عليهِ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما لا يَثقُلُ عليكُمْ قولُ ﴿كُن﴾ فعَلى ذلكَ لا يَثقُلُ على اللهِ ابتِداءُ خَلْقٍ ولا إعادتُهُ ولا شيءٌ مِن ذلكَ.

ثم نزَّهَ نفسَهُ، وبرّأها، وذكَرَ تعاليَهُ عمّا ظَنَّ أولئكَ مِنَ البَعْثِ في خَلْقِ شيءٍ وبُطلانِهِ.

الآية ٨٣ فقالَ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تَعالى، وتبَرّأَ عن أنْ يكونَ خَلْقُهُ على ما ظَنَّ أولئكَ حينَ[5] قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا / ٤٤٩ ـ ب/ بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]. ذلكَ ظَنُّ الذينَ كَفَروا، فكانَ ظَنُّهُمْ أنْ لا بَعْثَ، ولا نُشورَ.

ثم أخبَرَ أنهُ لو لم يكنْ ذلكَ لكانَ خَلْقُ ما ذَكَرَ عَبَثاً باطِلاً، فقالَ: [﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾][6] تعالى عَنْ أنْ يَلحَقَهُ في خَلْقِ شيءٍ عَبَثٌ أو فسادٌ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ الآية [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَ الخَلْقِ لا للرجوعِ إليهِ عَبَثاً باطِلاً.

[ويَحتمِلُ][7] أنْ يقولَ: يَتعالى [عن][8] أنْ يَثقُلَ عليهِ إعادةُ الخَلْقِ أوِ ابتِداؤُهُمْ، أو يَتعالى عن أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ القُتَبيُّ وأبو عوسَجَةَ: ﴿رَمِيمٌ﴾ أي باليةٌ؛ يُقالُ: رَمَّ العظمُ إذا بَلِيَ، فهو رَميمٌ ورِمامٌ كما يُقالُ: رُفاتٌ ورِفاتٌ. وقولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ قالا: أرادَ الزِّنادَ[9] التي تُوري بها الأعرابُ [النارَ][10] مِن شَجَرِ المَرْخِ والعَفارِ. والحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ [والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][11].

(١) يتنزهون بها. (٢) في الأصل وم: بثمارها وفواكهها. (٣) في الأصل وم: منها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: الزنود، في م: الوقود. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من م.

جنة السنة

سورة الصافات

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ و٢ و٣ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ اختُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ: الصافاتُ، هي الطيرُ إذا صفَّتْ أجنِحَتها بينَ السماءِ والأرضِ. وذُكِرَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ [أنهُ][١] قالَ: الصافاتُ والزاجراتُ والتالياتُ، كلُّها[٢] الملائكةُ. قالَ[٣]: الصافاتُ؛ اصْطفَّتْ الملائكةُ صَفًّا لِعبادةِ اللهِ ﷻ وتَسْبيحِهِ. وكذلكَ ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ وغيرِهِ.

إلّا أنَّ غيرَهما[٤]، يُفَسِّرُ الزاجراتِ والتالياتِ أيَّ ملائكةٍ هم. ولسْنا نَذْكُرُ عنِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباسٍ [هذا][٥] التفسيرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الزاجراتُ هُمُ الملائكةُ الذينَ يَزْجُرونَ السحابَ والأمطارَ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ هُمُ الملائكةُ يَتْلُونَ القرآنَ والوَحْيَ على الرسُلِ والأنبياءِ ﷺ.

وقالَ قتادةُ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ أقْسَمَ اللهُ ﷻ بِخَلْقٍ مِمَّنْ[٦] خلَقَ؛ قالَ: الصافاتُ الملائكةُ صفوفاً في السماءِ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ما ذَكَرَ اللهُ في القرآنِ مِنْ زَواجِرَ عَنِ المَعاصي والمَساوِئِ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾قالَ: ما يُتْلَى عليكُمْ في القرآنِ مِنْ أخبارِ الرسُلِ ﷺ وأنباءِ الأمَمِ التي كانَتْ قبلَكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ هُمُ الملائكةُ الذينَ يُصَلُّونَ للهِ ﷻ صفوفاً على ما ذَكَرَ، ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ هُمُ الملائكةُ المُوكَلونَ بأرزاقِ الخَلْقِ وسَوْقِها إليهِمْ سَوْقاً ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ هُمُ الملائكةُ المُوكَلونَ بالتسبيحِ والتَّحْميدِ وجميعِ الأذكارِ.

ثم وجْهُ القَسَمِ بالملائكةِ الذينَ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، أنه ﷻ قد عَظَّمَ شأنَ الملائكةِ وأمْرَهُمْ في قُلوبِ أولئكَ الكَفَرةِ حتى قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] وقالوا[٧]: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١] [وَصَفَهُمُ][٨] اللهُ ﷻ أنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ الآية[التحريم: ٦] وأنهم[٩] ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٦و الأنبياء١٩] وأنهم[١٠] ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] الخ.

عَظَّمَ اللهُ ﷻ أمْرَ الملائكةِ ﷺ [وشأنَهُمْ في][١١] قلوبِ أولئكَ الكَفَرةِ وصِدْقَهُمْ عندَهُمْ.

الآية ٤ لِذلكَ أقْسَمَ بهِمْ [دلالةً][١٢] على وحدانيّتِهِ بقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ على هذا وَقَعَ القَسَمُ. ثم أخْبَرَ عَنْ صُنْعِ ذلكَ الواحدِ الذي هو إلهُ الحُكْمِ وإلهُ الخَلْقِ جميعاً، وذَكَرَ نَعْتَهُ،

الآية ٥ فقالَ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ يُخْبِرُ عن وحدانيّتِهِ وتَفَرُّدِهِ حينَ[١٣] أنشأَ السمواتِ، وما ذَكَرَ، وجَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ على بُعدِ ما بَيْنَهما، ومَنافِعَ المَشارِقِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ المَغارِبِ على بُعدِ ما بَيْنَهما.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل و م: كلهم. (٣) في الأصل وم: قالا. (٤) في الأصل وم: غيره. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل وم: بم. (٧) في الأصل و م: وقولهم. (٨) في الأصل و م: وما وصفهم. (٩) في الأصل و م: و. (١٠) في الأصل و م: وقوله ﷻ. (١١) من م، في الأصل: شأنهم وفي. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

ولو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَمَنَعَ بعضٌ اتِّصالَ مَنافعِ بعضٍ ببعضٍ على ما يكونُ مِنْ فِعْلِ ذوي عَدَدٍ وغَلَبَةِ بعضٍ على بعضٍ. فإذْ لم يَمْتنِعْ ذلكَ، بلِ اتَّصلَ بعضٌ ببعضٍ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ، لا شَريكَ لهُ.

ثم تخصيصُ ذِكْرِ السمواتِ والأرضِ وما ذَكَرَ دونَ غيرِهِ منَ الخلائقِ لِما عَظُمَ قَدْرُ السماءِ في قلوبِهِمْ لِنُزُولِ ما يَنْزِلُ مِنَ الأمطارِ والبركاتِ وغيرِها، [وعَظُمَ قَدْرُ](1) الأرضِ بخروجِ ما يَخْرُجُ منها مِنَ الأنزالِ والأرزاقِ، ولِذلكَ يَخْرُجُ ذِكْرُهما، واللهُ أعلَمُ، في ما ذَكَرَ حينَ(2) قالَ فيهما: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] يُعَظِّمُ قَدْرَهُما في قلوبِهِمْ ودوامَهُما عندَهُمْ(3)، وإنْ كانَتا تَفْنَيانِ، ولا تدومانِ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قالَ أحدُ(4) المعتزلةِ، وهو جعفرُ بْنُ حَرْبٍ: فإنْ قالَ لنا قائلٌ: [إنَّ المُرادَ](5) مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أنهُ ربُّ أعمالِنا وأفعالِنا، فنقولُ(6) لهُ: إنْ أردتَ أنهُ ربُّ أعمالِنا وأفعالِنا فَبَلَى.

ثم قالَ: فيقالُ لهمْ: أتقولونَ: إنهُ خالقُ الكُفرِ وخالقُ الشَّرِّ، وإنْ كانَ يُقالُ في الجملةِ: [إنه](7) خالقُ أفعالِ الخَلْقِ، وربُّ كلِّ شيءٍ، وخالقُ كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ ذِكْرَهُ يُخَرَّجُ على تعظيمِ ذلكَ الشيءِ نَحْوَ ما يقالُ: ربُّ محمدٍ، وربُّ البيتِ، إنما هو تعظيمُ محمدٍ ﷺ، وتعظيمُ ذلكَ البيتِ خاصَّةً.

فَعَلَى ذلكَ وَصْفُنا إياهُ بالجملةِ: أنهُ خالقُ أفعالِ العبادِ وخالقُ كلِّ شيءٍ، يُخَرَّجُ على وصفِ البيتِ بالعظمةِ والجَلالِ وعلى الإشارةِ [إلى شيءٍ مِنَ الأشياءِ والتَّنصيصِ عليهِ](8) على تعظيمِ ذلكَ الشيءِ خاصَّةً.

لِذلكَ جازَ أنْ يوصَفَ أنهُ خالقُ أفعالِ العبادِ لِما ذَكَرْنا أنهُ يُخَرَّجُ على المَدْحِ والتعظيمِ وعلى الإشارةِ على المَذَمَّةِ لهُ وتعظيمِ ذمِّ ذلكَ الشيءِ. لذلكَ افْتَرَقا. واللهُ الموفِّقُ.

ثم يُقالُ لهمْ: قولُكُمْ: إنهُ مالكٌ لها، وليسَ بخالقٍ، هل يُقالُ لأحدٍ: إنهُ مالكٌ كذا، وما يُنْشِئُ ذلكَ، أو لم(9) يُمَلِّكْهُ؟ فإنْ ثَبَتَ أنهُ مالكُ الأعمالِ والأفعالِ ثَبَتَ أنهُ خالقُها؛ إذْ لا يُقالُ: [مالكٌ](10) كذا إلّا [لِقُدْرَتِهِ](11) على ذلكَ أو لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ للشمسِ ثلاثَ مئةٍ وسِتِّينَ مَشْرِقاً، تَطْلُعُ كلَّ يومٍ مِنْ كَوَّةٍ. وكذلكَ يقولونَ في المَغارِبِ: إنها تَغْرُبُ كلَّ يومٍ في كوَّةٍ. لكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ أرادَ بالمشارقِ والمَغارِبِ كلَّ شيءٍ يَشْرُقُ وكلَّ شيءٍ غاربٍ مِنَ الشمسِ والقمرِ والنجومِ والكواكبِ [وعلى ذلكَ](12) يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وأمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ يقولونَ: مَشْرِقُ [الشتاءِ](13) والصيفِ، وكذلكَ مَغْرِبُهُما.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ليسَ أنَّ هذهِ السماءَ التي نَراها، ونُعايِنُها هي سماءُ الدنيا، وغيرُها سماءُ الآخِرَةِ. ولكنْ سَمّاها سماءَ الدنيا لِدُنُوِّها مِنْ أهلِ الأرضِ وقُرْبِها منهمْ. وأهلُ الأرضِ، هُمُ الجِنُّ والإنسُ، ولهما جَرَى الخِطابُ في ذلكَ وفي غيرِهِ.

وعلى ذلكَ قولُ أهلِ التأويلِ: إنها إنما سُمِّيَتْ / ٤٥٠ - أ/ السماءَ الدنيا لِدُنُوِّها مِنْ أهلِها ولِقُرْبِها منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ أخبَرَ أنهُ ﷻ زيَّنَها بزينةِ الكواكبِ، وزَيَّنَ الكواكبَ نفسَها؛ أضافَها إلى نفسِها، وهي الزينةُ لها، لا غيرُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ قالَ ﷻ: إنا زَيَّنّا السماءَ الدنيا بزينةٍ، وهي الكواكبُ، أو قالَ: إنّا زَيَّنّا السماءَ بزينةٍ، فَسُئِلَ: ما هي؟ فقالَ: الكواكبُ.

---

(1) في الأصل وم: و. (2) في الأصل وم: حيث. (3) أدرج بعدها في الأصل وم: خرج ذكرهما. (4) في الأصل وم: بعض. (5) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (6) في الأصل وم: قيل. (7) ساقطة من الأصل وم. (8) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: التي تبني منها والتخصيص. (9) في الأصل وم: لتمليك من. (10) من م، ساقطة من الأصل. (11) في الأصل وم: للقدرة. (12) في الأصل وم: وغيرها. (13) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ كقولِهِ(١) ﷻ: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]

الآيتان ٨ و٩ وحِفظُهُ إيّاها ما ذَكَرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ ﴿دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾.

قالَ ابنُ عباسٍ وغيرُهُ: قولُهُ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ كانوا يَتَسمَّعُونَ، ولا يَسْمعونَ. وقالَ بعضُهُم: كانوا لا يَسْمَعونَ أخبارَ الملائكةِ وحديثَهُمْ في ما يَتَراجعونَ في ما بينَهُمْ مِن أمرِ اللهِ وهمُ الملأُ الأعْلَى.

[ومنهُم](٢) مَن يقولُ: إنهم كانوا لا يَسْمَعونَ. يَذْهَبُ إلى ما ذَكَرَ في سورةِ الجنِّ حينَ(٣) قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٨و٩] أخبَروا أنَّ مَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لهُ ما ذَكَرَ. دلَّ أنهم كانوا يَتَسمَّعونَ.

فإنْ قيلَ: كيفَ يُوَفَّقُ بينَ هذهِ الآيةِ وبينَ قولِهِ ﷻ ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ ﴿دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾.

الآية ١٠ ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [قيل:](٤) استثنى الخَطْفَةَ، وقالَ هناكَ(٥): ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ﴾ كذا [الجن: ٩].

ثم الخَطْفَةُ إمّا(٦) أنْ تكونَ على التمثيلِ أي مَوضِعِ الخَطْفِ [وإمّا](٧) على حقيقةِ الخَطْفةِ، وهي الاسْتِلابُ والأخذُ على السُّرعةِ، واللهُ أعلَمُ.

لكنْ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ التي [ذَكَرَها ﷻ في سورةِ الجنِّ](٨): ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الآيتان: ٨ و٩] في المؤمنينَ منهم.

ألا ترى أنهمْ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؟ [الجن: ١٣]

وأمّا ما ذَكَرَ في سورةِ الصافاتِ فهو في الكفارِ منهمْ والمَرَدةِ ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ مِنَ الشياطينِ الذينَ يَسْتَمِعونَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم [في](٩) قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ ثم قولِهِ ﷻ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ﴾ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ لمحمدٍ ﷺ لأنهُ كانَ يُخبِرُهُم أنَّ الجنَّ يَصْعَدونَ إلى السماءِ الدنيا، ويَسْمَعونَ مِن أخبارِ الملائكةِ وحديثِهِمْ في ما يَتَراجعونَ في ما بينَهُمْ مِن أمْرِ اللهِ في الأرضِ، ثم يُخبرونَ الكَهَنَةَ بذلكَ، فَيُخْبِرُ الكهنةُ أهلَ الأرضِ عن ذلكَ أنهُ يكونُ كذا كذا وفي يومِ كذا وكذا، وأنهُ انْقَطَعَ ذلكَ الوَحْيُ، ويُمْنَعونَ، فقالتِ الجنُّ ذلكَ، وأخبَرَهُمْ عن أنفسِهِمْ أنهم كذلكَ كانوا يَفْعَلونَ، فَصَدَّقوهُ على صنيعِهِمْ.

فإنْ قيلَ: كيفَ صارَ ذلكَ آيةً لهُ، وإنما أُخْبِرَ عن قولِ الجنِّ لهمْ، وبهِ ظَهَرَ ذلكَ، ومنهُ عُرِفَ؟ قيلَ: هكذا [كانَ](١٠) لكنَّ انْقِطاعَ الكَهَنَةِ مِن بَعدُ وحديثَهُمْ يدلُّ على أنَّ ذلكَ قد كانَ، ثم انْقَطَعَ ذلكَ بالرسالةِ والوَحْيِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: فلِماذا وُلِّيَ الملائكةُ حِفْظَ السماءِ وحَرَسَها كيفَ أغفَلوا ما دُلُّوا مِن حِفْظِها وحَرَسِها، وامْتُحِنوا حتى تَمَكَّنَ أولئكَ مِنَ الاسْتِماعِ والاخْتِطافِ وما ذَكَرَ؟ قيلَ: جائزٌ أنْ يَشْتَغِلوا، ويُمْتَحنوا بأمورٍ أُخَرَ سِوَى ذلكَ، فيُمكِّنَ ذلكَ لهُم ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ كانَتْ صِفَةُ الشياطينِ مِنَ الاسْتِماعِ منهمْ والخَطْفِ، وقد بَدَتْ [وعاينَتْ ممّا أصابَها](١١) مِنْ فِعْلِ ذلكَ مِنَ القَذْفِ والرَّمْيِ والاحْتِراقِ؟ قيلَ: إنَّ الشياطينَ، عادَتُهُم طَلَبُ الفِعْلِ في كلِّ وقتٍ؛ فجائزٌ أنْ يكونوا فَعَلُوا ذلكَ لِما كانوا يظنونَ، ويَقَعُ عندَهُم أنهم في غَفْلَةٍ وسَهْوٍ مِنْ أمورِهِمْ، وإنْ كانوا يَعْلمونَ ما يُصيبُ مِن فِعْلِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل و م: و. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل وم: ههنا. (٦) في الأصل و م: إلا. (٧) في الأصل و م: أو. (٨) في الأصل و م: ﷻ. (٩) و(١٠) ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل و م: وعاينت ما أصاب.

ثم جائزٌ أنْ يُسْتَدَلَّ بقولِهِ ﷻ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ الآية [الجن: ٩] لقولِ علمائنا في مَن حَلَفَ: ألّا يُكَلِّمَ فلاناً، فناداهُ مِن حيثُ لا يَسْمَعُهُ[١]، لا يَحْنَثُ. وإذا ناداهُ مِن حيثُ يَسْمَعُهُ حَنِثَ، وإنْ لم يَسْمَعْهُ لِما ذَكَرَ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ الآية. ومَعْلومٌ أنهمْ كانوا يَقْعُدونَ مِنَ الأرضِ إلى المَلأِ الأعلى لكنْ لا يَسْمَعونَ. ثم لم يَذْكُرْ ذلكَ منهمْ إلّا في المكانِ الذي يُسْمَعُ، دلَّ أنّهُ على ما ذَكَرْنا مِنَ الدلالةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ الأشرافُ منهمْ وأهلُ المَنْزِلَةِ والكَرامةِ، ويَحْتَمِلُ الجماعةَ، لأنَّ المَلأَ، هو اسمٌ للشَّيئَيْنِ: للجماعةِ منهمْ، واسمٌ لأهلِ الشَّرَفِ والمَنْزِلَةِ والكَرامةِ.

ثم لا ندري كيفَ سَماعُ الجِنِّ مِنَ الملائكةِ؟ وما سَبَبُ ذلكَ [إلّا][٢] أنْ تكونَ تلكَ الأخبارُ وما يريدُ اللهُ ﷻ إحداثَهُ في الأرضِ مكتوباً في كتابٍ، يَنْظُرونَ فيهِ، فَيَعْلَمونَهُ، أو يَتَحَدَّثُ الملائكةُ في ما بَيْنَهُمْ بذلكَ، فَيَسْتَمِعَ هؤلاءِ منهمْ ذلكَ، أو كيفَ جهةُ سَماعِهِمْ ذلكَ منهمْ، وما يُشْبِهُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ أنَّ الجِنَّ يَفْهَمُ كلامَ الملائكةِ، وإنِ اختَلَفَتْ جواهِرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ قيلَ: هي السمواتُ والأرضُ والجبالُ، وقيلَ: [هم][٣] الملائكةُ. وأكثرُهُمْ قالوا: قولُهُ: ﴿أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي السمواتُ والأرضُ كقولِهِ: ﷻ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ الآية [غافر: ٥٧].

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: سَلْهُمْ: اخَلْقُهُمْ[٤] وإعادَتُهُمْ أشَدُّ وأكْبَرُ وأعظَمُ؟ وإذا أقْرَرْتُمْ أنتمْ بِقُدْرَتِهِ على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ كيفَ أنْكَرْتُمْ قُدْرَتَهُ على إعادَتِكُمْ بَعْدَ ما مُتُّمْ، وكُنْتُمْ تُراباً ورُفاتاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ فَسَلْهُمْ ونَحْوَ ذلكَ ممّا أمَرَ اللهُ ﷻ رسولَهُ ﷺ، أنْ يَسْأَلَهُمْ، ويَسْتَفْتِيَهُمْ. يُخَرَّجُ مِنَ اللهِ ﷻ على وجوهٍ:

أحَدُها: على التَّقْديرِ عندَهُمْ والتَّنْبيهِ لهمْ.

[والثاني][٥]: على التَّعْييرِ لهمْ والتوبيخِ.

[والثالثُ][٦] على التَّعْليمِ [لِلنَّبِيِّ ﷺ جِهَةَ][٧] الحِجاجِ والمُناظَرَةِ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خصومِهِمْ.

وهكذا كلُّ سؤالٍ أوِ استِفْتاءٍ كانَ مِنْ خبيرٍ عَليمٍ لِمَنْ دونَهُ يُخَرَّجُ على هذهِ الوجوهِ. وكلُّ سؤالٍ أوِ استِفْتاءٍ كانَ مِنَ الجُهّالِ بِخَبيرٍ عَليمٍ يُخَرَّجُ على اسْتِرْشادٍ وطَلَبٍ للصوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ [وقولُهُ][٨]: ﴿سَلْهُمْ﴾ [القلم: ٤٠] [وقولُهُ][٩]: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ الآية: [الزخرف: ٤٥] [وقولُهُ][١٠]: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٢١١] [وقولُهُ][١١]: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] [وقولُهُ:][١٢] قلْ كذا. هذا كلُّهُ يُخَرَّجُ على التَّقْديرِ والتَّنْبيهِ وعلى تعليمِ الكُلِّ جِهَةَ[١٣] الحِجاجِ والمُناظَرَةِ لا على الأمرِ؛ لأنهُ لو كانَ الأمرَ لكانَ لا يقولُ ذلكَ المأمورُ بالتبليغِ: سَلْ، ولا تقُلْ، ولا شيئاً[١٤] مِنْ ذلكَ، ولكنْ يُبَلِّغُ إليهِ رسالتَهُ وأمْرَهُ أنْ يقولَ لكُمْ: افْعَلوا كذا، ولا تَفْعَلوا. فدلَّ أنَّ ذلكَ الأمرَ للكُلِّ في أمرِ نَفْسِهِمْ: أنْ قولوا لهمْ، وأنِ افْعَلوا بهِمْ كذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الآية أمَرَهُ أنْ يَسْتَفْتِيَهُمْ، ولم يَذْكُرْ أنهمْ ما أفْتَوهُ، ولا أجابوهُ ولا قالَ: إنهمْ لو أجابوكَ، وأفْتَوكَ بكذا، فقلْ لهمْ كذا، أو أجِبْهُمْ بكذا.

---

(١) في الأصل وم: يسمع. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن خلقهم. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: حجة. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: و. (١١) في الأصل و م: و. (١٢) في الأصل و م: و. (١٣) في الأصل و م: حجة. (١٤) في الأصل و م: شيء.

جنة السنة

فجائزٌ أنْ يكونَ الجوابُ ما ذَكَرْنا: أنكُمْ لو لم تُشاهِدوا خَلْقَ ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وغَيرِها سِوَى خَلْقِ أنفسِكُمْ، ثم شاهَدْتُمْ خَلْقَنا؛ أعني ما ذَكَرْنا مِنَ السمواتِ والأرضِ والجبالِ وغَيرِها، هل تُنْكِرونَ قدرتَهُ على خَلْقِ ما شَهِدْتُمْ، وعايَنْتُمْ أنهُ لم يَخْلُقْها / ٤٥٠ ـ ب/ إلا هو؟ كيفَ أنكَرْتُمْ قدرتَهُ على خَلْقِ ما شَهِدْتُمْ وعايَنْتُمْ أنهُ لم يَخلُقْها إلا هو؟ كيفَ أنكَرْتُمْ قدرتَهُ على إعادتِكُمْ وبَعْثِكُمْ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ يذكُرُ، واللهُ أعلَمُ، ضَعْفَهُمْ وشِدَّةَ ما خَلَقَ مَنْ سِواهُمْ؛ إنكم تعلَمونَ ضعفَ أنفسِكُمْ وعَجْزَها وشِدَّةَ مَنْ سِواكُمْ وقُوَّتَها وصَلابَتَها [ثم إنها مع شِدَّتِها وقُوَّتِها وصَلابتِها][1] أخضَعُ للهِ وأطْوَعُ منكُمْ، نَحْوُ ما ذَكَرَ مِنْ طاعَتِها لهُ وخُضوعِها حينَ[2] قالَ ﷻ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقالَ[3] ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ونَحْوَ ذلكَ مِمّا يَكثُرُ، واللهُ أعلَمُ.

[ويذكُرُ في قولِهِ][4] ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ بَدْءَ خَلْقِهِمْ، وأصلَهُ الذي خُلِقوا هم منهُ: إنكُمْ إنما عَرَفْتُمُ ابْتِداءَ خَلْقِكُمْ وأصْلَكُمُ الذي منهُ خُلِقْتُمْ أنهُ تُرابٌ أو طينٌ بإخبارِ الرسلِ وبقولِهِمْ، وأنتمْ يا أهلَ مكةَ، مِمَّنْ لا يؤمنونَ بالرسلِ، فكيفَ صَدَّقْتُمُ الرسلَ بما أخبَروا عنْ أصلِكُمْ وبَدْءِ خَلْقِكُمْ، ولم تُصَدِّقوهُمْ بما يُخْبِرونَكُمْ مِنْ إعادتِكُمْ وبَعْثِكُمْ بَعدَ موتِكُمْ؟ فإذْ صَدَّقْتُموهُمْ في ذلكَ لَزِمَكُمُ التصديقُ لهمْ في كلِّ ما يُخْبِرونَ، ويقولونَ، واللهُ أعلَمُ.

أو يقولُ: إنهُ أنشأَ مِنْ تِلكَ النفسِ الواحدةِ التي خَلَقَها مِنْ تُرابٍ مِنَ الخَلْقِ ما لو تَرَكَهُمْ جميعاً، لم يُفْنِهِمْ، ولم يُمِتْهُمْ، لامْتَلأتِ الدنيا منها. فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ما تَمْتَلِئُ الدنيا منهُ، مِنْ نفسٍ واحدةٍ، لا يُحْتَمَلُ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ مِنَ البَعْثِ والإعادةِ وغَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][5] أنْ يقولَ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾: إنهُ[6] قد أنشأَ مِنْ تلكَ النفسِ ومِنْ ذلكَ الأصلِ قَرْناً بعد قَرْنٍ؛ بَعدَ إفناءِ كلِّ قَرْنٍ أنشأَ قَرْناً آخَرَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المقصودُ مِنْ إنشائِهِمُ الإنشاءَ ثم الإفناءَ والنَّقْضَ خاصةً، لا عاقبةَ تُقْصَدُ بالإنشاءِ والإفناءِ؛ إذْ في الشاهدِ مَنْ كانَ مَقصودُهُ في البناءِ البناءَ والنَّقْضَ خاصةً كانَ غَيرَ حكيمٍ.

فإذا عَرَفْتُمُ اللهَ ﷻ أنهُ حكيمٌ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مُرادُهُ مِنْ إنشائكُمْ وإفنائكُمْ ذلكَ خاصةً، لا غَيرُ. وذلكَ يُزيلُ الحِكْمةَ، ويُوجِبُ السَّفَهَ. تَعالَى اللهُ عَنْ ذلكَ وعنْ جميعِ ما يَصِفُهُ المَلاحِدَةُ عُلُوّاً كبيراً.

[ويَحْتَمِلُ][7]: أنْ يقولَ: إنكُمْ عَرَفْتُمْ أنكمْ إنما أنشأَكُمْ مِنْ تلكَ النفسِ التي أنشأها مِنْ تُرابٍ أو طينٍ على اتِّفاقٍ منكُمْ، فإذا مُتُّمْ، وفَنِيتُمْ، صِرْتُمْ تُراباً أو طيناً، فكيفَ أنكَرْتُمْ إعادتَهُ إياكُمْ مِنْ تُرابٍ أو طينٍ؟ وقد أقْرَرْتُمْ أنَّ أصْلَكُمْ مِنْ تُرابٍ أو طينٍ، واللهُ أعلَمُ، على الوجوهِ التي ذَكَرْنا يجوزُ أنْ يُخَرَّجَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ بالنصبِ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: عَجِبْتَ منهمْ إنكارَهُمْ ما أنْكَروا بَعْدَ كَثْرةِ قِيامِ الآياتِ والحُجَجِ عليهِمْ في ذلكَ، وهم يُنْكِرونَ، ويَسْخَرونَ.

[والثاني][8]: يقولُ: عَجِبْتَ، ويَسْخَرونَ لِما أنكَ بِزَعْمِهِمْ لَعَظيمٍ ما يَنْزِلُ بهمْ مِنَ العذابِ والشدائدِ وما يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنَ الأمورِ المهمةِ، وهم يَسْخَرونَ، واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ][9]: يقولُ: بل عَجِبْتَ لِما تَدْعوهُمْ أنتَ إلى ما بهِ نَجاتُهُمْ وفَلاحُهُمْ، وهم يَسْخَرونَ، ونَحْوَ ذلكَ يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ، بما كانَ يُعْجِبُهُ.

وفي بعضِ الحروفِ: بل عَجِبْتُ بالرفعِ[10]، وكذلكَ ذُكِرَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ، ﷺ أنهُ كانَ يَقْرَأُ بالرفعِ: بل عَجِبْتُ. فإنْ ثَبَتَ ذلكَ، وصَحَّتْ إضافةُ العَجَبِ إلى اللهِ، فهو في الشاهدِ، وإنْ كانَ لظهورِ عظيمِ ما قالوا خَفِيًّا عليهمْ مُسْتَتِراً، عندَ ذلكَ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: أو أن يذكر لقوله. (٥) في الأصل و م: أو. (٦) و(٧) في الأصل و م: أي. (٨) في الأصل و م: أو. (٩) في الأصل و م: أو. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٣١.

جنة السنة

يَقَعُ لهمُ العجبُ، فهو في اللهِ ﷻ وإنْ كانَ لا يُحتَمَلُ أنْ يَخفَى عليهِ شيءٌ، فذلكَ لِعظيمِ ما كانَ منهمْ مِنَ الإنكارِ مِنْ قدرتِهِ على الإنشاءِ والجُحودِ في ذلكَ، فيكونُ ما ذُكِرَ مِنْ حَرْفِ التَّعَجُّبِ منهُ كنايةً عنِ الإنكارِ والدفعِ لِقَولِهِمْ. وذلكَ كما أضافَ الامْتِحانَ إلى نفسِهِ، وإنْ كانَ في الشاهِدِ لا يُسْتَعْمَلُ إلا في اسْتِظهارِ ما خَفِيَ عليهِمْ، واسْتَتَرَ منهمْ، فهو مِنَ اللهِ يُخَرَّجُ على الأمرِ والنَّهيِ؛ أعني الامْتِحانَ. وإنْ كانَ في الشاهِدِ بينَ الخَلْقِ فلا يكونُ إلّا لِما ذَكَرْنا.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ إضافةُ العَجَبِ إلى اللهِ على إرادةِ الإنكارِ منهُ عليهِمْ والدفعِ لِقَولِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ أنْكَرَ هذهِ القراءةَ، وقالَ: لا تجوزُ إضافةُ التَّعَجُّبِ إلى اللهِ ﷻ لِما هو لم يَزَلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ، وهو في الشاهِدِ إنما يكونُ لظهورِ عظيمٍ مِنَ الأمرِ قد جَهِلوهُ. لكنَّ هذا، وإنْ كانَ في الخَلْقِ ما ذُكِرَ، فهو مِنَ اللهِ على غيرِ ذلكَ على ما ذَكَرْنا مِنْ إضافةِ الامْتِحانِ إليهِ والابْتِلاءِ، وإنْ كانَ بينَ الخَلْقِ لِما ذَكَرْنا.

وقد ظَهَرَتْ إضافةُ [العَجَبِ](١) إليهِ بقولِهِ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] وهو يُخَرَّجُ على الإنكارِ عليهِمْ والرَّدِّ على تعظيمِ إنكارِ ما قالوا، وأنكروا، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ قالَ في قولِهِ ﷻ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ في ما أضافَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أي عَجِبْتَ مِنْ هذا القرآنِ حينَ أعطاكَ إياهُ، ويَسْخَرُ منهُ أولئكَ الكَفَرَةُ.

ويَحتَمِلُ مَعنًى [آخرَ](٢) وهو أنْ يُقالَ: إنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي جَعَلْتُ ما أنزَلْتُ عليكَ مِنَ القرآنِ والوحيِ أمراً عَجَباً، أو أنْ يُقالَ: كانَ إنكارُهُمْ رسالَتَكَ وتكذيبُهُمُ الآياتِ أمراً عَجَباً، وهم يَسْخَرونَ، ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ابْنُ عباسٍ يقولُ: وإذا وُعِظوا لا يَتَّعِظونَ. والمَوعِظةُ والتذكيرُ واحدٌ. وقتادةُ يقولُ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بالمَوعِظةِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٧١] أي لا يَنْتَفِعونَ بتلكَ الحواسِّ، وإنْ كانتْ لهمْ تلكَ، كَمَنْ لا حاسَّةَ لهُ. فَعَلَى ذلكَ قولُ قتادةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ تذكيرِ(٣) ما نَسُوا مِنَ الآياتِ والحُجَجِ؛ يقولُ: إنهمْ، وإنْ ذُكِّروا ما نَسُوا مِنَ الآياتِ، غَفَلوا عنهُ، فلا يَتَذَكَّرونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ هذهِ الآياتُ وأمثالُها ذَكَرَها، واللهُ أعلَمُ، لقومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ أبداً: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿أَوَ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾](٤) يُخبِرُ عَنْ عِنادِهِمْ ومكابرَتِهِمُ الآياتِ، ويَذْكُرُ سَفَهَهُمْ.

ثم في ذِكْرِ ما ذَكَرَ مِنْ عِنادِهِمْ وسَفَهِهِمْ وجَعْلِهِ آياتٍ مِنْ آياتِ القرآنِ تُتْلَى أبداً وجهانِ مِنَ الحِكْمَةِ:

أحَدُهُما: صَيَّرَ ذلكَ آيةً لِرسالتِهِ ﷺ لأنهُ معلومٌ أنهمْ كانوا على [ما](٥) أخْبَرَ منهمْ مِنَ العِنادِ والسَّفَهِ، وعلى ذلكَ خُتِموا، وقُبِضوا. دَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ، وبِوَحْيِهِ عَلِمَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، على ما رَأى سَلَفُنا مِنْ سَفَهِ أولئكَ وعِنادِهِمْ وماقاسَوا منهمْ وما لَحِقَ بهمْ مِنَ الأذى والضَّرَرِ والسُّوءِ لئلا يَضيقَ صَدْرُنا مِنْ سَفَهِ مَنْ تَسَفَّهَ علينا مِنْ أهلِ الفَسادِ والفِسْقِ، وألّا نَتْرُكَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المُنْكَرِ لِسَفَهِ السفيهِ ولا لأذى المُؤذي ولا لِسوءِ(٦) يُقالُ.

بل يَجِبُ علينا أنْ نَتَأَسَّى بِسَلَفِنا، ونَقْتَدِيَ بهمْ، وإذا أصابَنا منهمْ ما أصابَ أولئكَ مِنَ الأذى والسَّفَهِ، وإنْ عانَدوا، وكابَروا، وظَهَرَ(٧) منهمْ كلُّ فِسْقٍ وسُوءٍ على ما فَعَلَ أولئكَ، واحْتَمَلوا منهُمْ ما كَرِهوا، نَحْمِلُ مِنْ سُفَهائنا مثلَهُ، واللهُ أعلَمُ، ولو(٨) لم يَكُنْ في ذِكْرِ(٩) سَفَهِهِمْ وعِنادِهِمْ ما ذَكَرْنا مِنَ الحِكْمَةِ لَكانَ لا مَعنًى لِذِكْرِ سَفَهِ أولئكَ وعِنادِهِمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: التذكير. (٤) في الأصل و م: إلى آخر ما ذَكَرَ. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل و م: سوء. (٧) في الأصل و م: وظهروا. (٨) في الأصل وم: وإلا. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: من.

جنة السنة

وجائزٌ /٤٥١ ـ أ/ أنْ يكونَ الشيءُ سَفَهاً باطلاً في نفسِهِ، ويكونَ حكمةً ودليلاً لِغَيْرِهِ، واللهُ أعلَمُ، على ما قالَ بعضُ الناسِ: إنَّ الكذبَ نفسَهُ، يَحْسَبونَ أنْ يكونَ دليلَ الصِّدْقِ، وكلامَ السَّفَهِ والباطلِ دليلُ الصِّدْقِ والحِكْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي وإذا أُنْزِلَ عليهِمْ آيةٌ على سؤالٍ منهمْ يَسْخَرونَ، ويَسْتَهْزِئونَ؛ يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ أنهمْ، وإنْ سألوا الآياتِ فإنهمْ لا يَسْألونَ سؤالَ اسْتِرشادٍ، ولكنْ سؤالَ عِنادٍ وهُزْءٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر: ١٤و١٥] وكقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

الآية ١٥ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كانَ هذا تَلْقيناً[2] لأولئكَ الكفرةِ الرُّؤساءِ مِنَ الشيطانِ اللَّعينِ حتى يُمَوِّهوا على أتباعِهِمْ عندما ظَهَرَ، وكثيرٍ مِنَ الآياتِ لِما كانوا يَعْلَمونَ أنْ لا كُلُّ أحدٍ يَعْرِفُ السِّحْرَ، ويَتَهيَّأُ [لهُ][3] إتيانُهُ وفِعْلُهُ، يُلْبِسونَ بذلكَ على أتباعِهِمْ لِتَقَعَ عندَهُمْ أنها السِّحْرُ لا الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

ولو كانَ ذلكَ سِحْراً حقيقةً لكانَ مِنْ آياتِ الرسالةِ. فكيفَ إذا كانَ آيةً [؟ وذلكَ][4] لِما كانوا يَعْلَمونَ أنهُ لم يَخْتَلِفْ إلى أحدٍ مِمَّنْ لهُ مَعْرِفةٌ بالسِّحْرِ قطُّ.

فَدَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ[5] على ما ذَكَرْنا أنَّ ما أنْبَأَ، وأخْبَرَ مِنْ أنباءِ الأمَمِ الخاليةِ وأخبارِهِمْ، يَدُلُّ على رسالَتِهِ لِما عَلِموا أنهُ لم يَخْتَلِفْ إلى أحدٍ مِمَّنْ لهُ المَعْرِفةُ بتلكَ الأنباءِ والأخبارِ، ولا نَظَرَ في كُتُبِهِمْ لِيَعْرِفَ ذلكَ.

ثم أخْبَرَ على ما كانَ في كُتُبِهِمْ. دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ وبوحْيٍ منهُ إليهِ عَلِمَ. فَعَلى ذلكَ لو كانَ سحراً فكيفَ إذا كانَتْ آيةً عظيمةً مُعْجِزَةً؟.

وقالَ الزَّجاجُ: حَرْفُ العجبِ إنما يكونُ عندَ ظهورِ العَجَبِ مِنَ الأمْرِ وغَيْرِ[6] عظيمةٍ. فأمّا ما أُضيفَ إلى اللهِ فهو على الإنكارِ منهُ والرَّدِّ على مَنْ أنْكَرَ عظيماً مِنَ الأمرِ ظاهراً، أو كلامٌ نَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي شديدٌ. وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قيلَ: مُلْتَزِقٍ، وقيلَ: مُلْتَصِقٍ، الذي يَلْتَصِقُ، إذا لُمِسَ. وقولُهُ تعالى: ﴿دُحُورًا﴾ قيلَ: مطروداً، وهو مَطْرودٌ. وقولُهُ تعالى: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ قيلَ: مُضيءٌ، وقيلَ: [هَوى بِثُقوبِهِ][7]. ثم قولُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَسْخَرونَ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يَطْلُبونَ مِنْ أتباعِهِمُ السُّخْرِيَّةَ؛ يعني القادةَ على الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٦ و١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهمْ يقولونَ ذلكَ وما تَقَدَّمَ على العِنادِ والتَّعَنُّتِ وعِلْمٍ منهمْ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً، وإنْ بَيَّنَ لهمْ جِهَةَ الإحياءِ والقُدْرَةِ عليهِمْ. لذلكَ اكْتَفى بقولِهِ: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهمْ كانوا يقولونَ ذلكَ، ولم يَذْكُرْ شيئاً مِنَ الحِجاجِ سِوى قولِهِ: ﴿نَعَمْ﴾ [وقولِهِ:][8] ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغِرونَ ذليلونَ كقولِهِ ﷻ ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ يَحْتَمِلُ قَدْرَ زَجْرَةٍ واحدةٍ؛ يُخْبِرُ عن سُرْعَةِ قِيامِها ومُرورِها. ويَحْتَمِلُ على حقيقةِ الزَّجْرةِ. لكنْ يُخْبِرُ عن خِفَّةِ ذلكَ وهَوْنِهِ عليهِ كقولِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧و. .] مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ أو نونٌ أو شيءٌ مِنْ ذلكَ، لكنهُ أخفُّ كلامٍ على الألسنِ، يُؤدّى بهِ المَعْنى، ويُفْهَمُ به المُرادُ من ذلكَ.

فعلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ إخباراً[9] عنْ خِفَّةِ ذلكَ عليهِ وهَوْنِهِ مِنْ غَيرِ أنْ جَعَلَ الزجرةَ سَبَبَ الإحياءِ أو سَبَباً مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: تلقين. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل و م.
(٥) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٦) في الأصل و م: وقيل. (٧) في الأصل: هو وثقوبه، في م: هوى بقوته. (٨) من م، في الأصل: قوله. (٩) في الأصل و م: إخبار.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ماذا يُؤمَرونَ؟ وعَنْ ماذا يُنهَونَ؟ لأنَّ الذي أصابَهُمْ في الآخِرةِ إنما كانَ لِتَركِهِمُ الأمرَ في الدنيا. فإذا عايَنوا ما كانوا يُوعَدونَ في الدنيا بِتَركِهِمُ الأمرَ بِهِ؛ يَنْظُرون إلى ماذا يُؤمَرونَ، ويُنهَونَ عنهُ؟ واللهُ أعلَمُ، أو يَنظُرون كالمُتَحوّزينَ لأنهمْ كانوا يُنكِرونَ البعثَ، ويُكَذِّبونَهُ. فإذا عايَنوا تَحَيَّزوا، وتاهوا، وضَجِروا. وهكذا الأمرُ المُتعارَفُ في الخَلقِ أنَّ مَنْ أنكَرَ شيئاً، أو كَذَّبَهُ، ثم أُخبِرَ بِهِ، وأُعلِمَ حتى تَيَقَّنَهُ[١]، وتَحقَّقَ عندَهُ ما أنكَرَ تَحيَّزَ، وزُجِرَ.

فَعلَى ذلكَ هؤلاءِ لمّا أنكَروا ذلكَ في الدنيا، وكَذَّبوهُ، ثم عايَنوا ذلكَ، وتيقَّنوهُ[٢]، تَحيَّزوا، وضَجِروا بِهِ، يَنْظرونَ نَظَرَ المُتَحيِّزِ الضَّجِرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ هذا كلامٌ: يُقالُ عندَ الوقوعِ في الهلاكِ. وقولُهُ: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يومُ الحسابِ ويومُ الجزاءِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣].

ويَحتَمِلُ: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي هذا يومُ الذي يَنْفَعُ كلَّ مَنْ معَهُ الدينُ دينُهُ. والدينُ المُطلَقُ، هو دينُ اللهِ، وكذلكَ السبيلُ المُطلَقُ، هو سَبيلُ اللهِ، أي ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي هذا يومُ الدين الذي يَنْفَعُ مَنْ كانَ معهُ دينُ اللهِ. وكذا السبيلُ المُطلَقُ، هو سَبيلُ اللهِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قولُهُ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي يَومُ القَضاءِ والحُكمِ كقولِهِ[٣] ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يَقْضي بَينَهُمْ ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥] واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي يَفْصِلُ، ويُفَرِّقُ بينَهُمْ أي بَينَ الكُفّارِ وأهلِ الإيمانِ وبَينَ الخبيثِ والطَّيِّبِ. كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ الآية [الأنفال: ٣٧] وقولِهِ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] وقولِهِ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ فالزوجُ اسمٌ لِشَكْلِهِ واسمٌ لِضِدِّهِ واسمٌ لهما جميعاً.

يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أشكالَهُمْ وقُرَناءَهُمْ مِنَ الجنِّ والإنسِ والشياطينِ. يأمُرُ الملائكةَ [أنْ يَجمَعوا][٤] بَينَ مَنْ كانوا[٥] يَجتَمِعونَ في هذهِ الدنيا، ويَستَحِبّونَ الاجتِماعَ معهمْ؛ أنْ يُجمَعوا في عذابِ الآخِرةِ على ما كانوا يَستَحِبّونَ الاجتِماعَ في الملاهي والطَّرَبِ في هذهِ الدنيا، ويَجتَمِعونَ على ذلكَ.

فَعلَى ذلكَ تَجمَعُ بَينَ أولئكَ وبَينَ قُرَنائِهِمْ جهنمُ، ويُقرَنُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ في العذابِ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وكقولِهِ: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١و٧٢] ونَحوُهُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ كقولِهِ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] ونَحوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قَتادةُ وغيرُهُ: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يُدانُ بَعضُ الناسِ مِنْ بَعْضٍ في المَظالِمِ والحُقوقِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ يَحتَمِلُ الوَقفُ لِلحسابِ، ويَحتَمِلُ ﴿مَسْئُولُونَ﴾ أي مُحاسَبونَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][٦] قالَ: إنَّ دونَ الحِسابِ يومَ القيامةِ كذا كذا مَوقِفاً، في كلِّ مَوقِفٍ يُوقَفونَ مِقدارَ كذا عاماً، ثم تلا هذهِ الآيةَ.

[ولا][٧] يَحتَمِلُ السؤالَ عمّا فَعلوا، ولكنْ يُسألونَ لماذا فَعَلوا؟ ويَحتَمِلُ الوقوفُ [ما فَتَنَ][٨] بعضُهُمْ بَعضاً

---

(١) في الأصل و م: تيقن به. (٢) في الأصل و م: تيقنوا به. (٣) من م، في الأصل: قوله. (٤) في الأصل: أي يجمع، في م: أن يجمع.
(٥) في الأصل وم: كان. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: و. (٨) في الأصل و م: فتنوا إلى.

جنة السنة

والمُخاصمةَ في ما بينَهُمْ والمُراجعةَ كقولِهِ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ كذا ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ كذا [الأعراف: ٣٨و٣٩] على ما أخبَرَ أنهُ يجري في ما بينَهُمْ مِنَ الخصومةِ ومُراجَعةِ القولِ واللائمةِ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي مالَكُمْ لا تُناصَرونَ، أي مالكُمْ لا تَنصُرُكُمُ الأصنامُ التي عَبَدْتُموها في الدنيا رَجاءَ النَّصرِ والشفاعةِ كقولِكُمْ[1]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِكُمْ[2]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

الآية ٢٦ فَيُخبِرُ عن إياسِهِمْ مِنْ نَصرِ ما عَبَدوا على رَجاءِ النَّصرِ لهمْ والشفاعةِ بقولِهِ[3]: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ /٤٥١ ـ ب/ أي خاضِعونَ، ذليلونَ للهِ لمّا عَلِموا ألّا يكونَ النَّصرُ والعَونُ إلّا منهُ. فعندَ ذلكَ يَستَسْلِمونَ لهُ. وقالَ بعضُهُمْ: يَستَسْلِمونَ في عذابِهِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أقبَلَتِ الإنسُ على الجنِّ. وقالَ بعضُهُمْ: أقبَلَتِ الإنسُ على الشياطينِ.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ قِبَلِ الخيرِ والطاعةِ، فَتَنْهونَنا، وتَثَبِّطونَنا عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ قِبَلِ الدينِ والتوحيدِ مِنْ حيثُ يُحتَرَسُ، وهو الأوَّلُ، وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ قِبَلِ الحقِّ[5] ونَحوِهِ.

الآية ٢٩ فَرَدَّ عليهِمْ أولئكَ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يقولونَ: إنكُمْ[6] تركتُمُ الإيمانَ بأنفسِكُمْ وباختيارِكُمْ، لا إنا مَنَعْناكُمْ مَنْعاً عنهُ.

الآية ٣٠ وقالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي ما كانَ لنا عليكُمْ مِنْ حُجَّةٍ أو برهانٍ ألزَمْناكُمْ [بهِ][7] بل أطَعْتُمونا طوعاً، واستَجَبْتُمْ لنا لِما دَعَوناكُمْ.

فهذهِ المُناظرةُ والمُجادَلةُ في ما بينَهُمْ كمُناظرةِ إبليسَ في مَوضعٍ آخَرَ حيثُ قالَ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي دَعَوتُكُمْ بلا[8] حُجَّةٍ ولا برهانٍ فاستَجَبْتُمْ لي.

فَعَلى ذلكَ يقولُ هؤلاءِ ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ باختيارِكُمْ تَرْكُ الإيمانِ بلا سُلطانٍ ولا حُجَّةٍ عليكُمْ ومناظرةِ القادةِ مَعَ الأتباعِ حينَ[9] قالَ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [الأعراف: ٣٩] ونَحوَهُ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي مِنْ جهةِ القُوَّةِ، أي إنكم على الحقِّ، وإنكمْ مؤمنونَ ونَحوَ ذلكَ.

ويَحتَمِلُ لا على حقيقةِ اليمينِ، ولكنْ تأتونَنا من كلِّ جهةٍ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧] أي مِنْ كلِّ جهةٍ لا على حقيقةِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي لم يكُنْ لِاتِّباعِكُمْ إيّانا وطاعتِكُمْ لنا حجةٌ أو برهانٌ أقَمْناهُ عليكُمْ في ما دَعَوناكُمْ إليهِ اتِّباعاً مِنْ غيرِ أنْ ألزَمْناكُمْ، فلا تلوموننا، ولكنْ لوموا أنفسَكُمْ ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي بِطُغيانِكُمُ اتَّبَعْتُمونا لا بِما ذَكَرْتُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا قولَ الأكابرِ منهمْ والمَتبوعينَ لِلأصاغرِ والأتباعِ منهمْ: أنْ حَقَّ علينا قولُ ربِّنا. قالَ بعضُهُمْ: أي وَجَبَ علينا وعليكُمْ عذابُ ربِّنا.

---

(١) في الأصل وم: كقوله. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) في الأصل وم: كقوله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: الجن. (٦) في الأصل وم: إن. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: فلا. (٩) في الأصل و م: حيث. (١٠) في الأصل و م: ثم قالوا.

جنة السنة

ويُشبِهُ أنْ يكونَ القولُ الذي أخبَروا أنهُ حقٌّ عليهِمْ، هو قولُهُ ﷻ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ يَحتَمِلُ أن تكونَ هذهِ المُعاتَبَةُ التي ذُكِرَتْ كانَتْ بينَ الأتباعِ والمَتْبوعينَ مِنَ الإنسِ كقولِهِ ﷻ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ كذا [وكقولِهِ:][١] ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ كذا [سبإ: ٣٣و٣٢] وكقولِهِ: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ﴾ كذا [الأعراف: ٣٨].

ويُشبِهُ أنْ يكونَ بينَ الإنسِ والشياطينِ.

ثم قولُهُ: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ حينَ اختَرْتُمُ الغِوايَةَ والضلالةَ، وعرَفْتُمْ أنا لَسْنا على الهُدى، ولم نُقِمْ عليكُمُ الحُجَّةَ، فاتَّبَعْتُمونا على عِلْمٍ منكُمْ أنَا على الغِوايةِ، فأغْويناكُمْ حينَئِذٍ. والإغواءُ الإضلالُ، والغَوايَةُ الضلالُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أخبَرَ عنهمْ جميعاً: الأتباعُ والمَتْبوعونَ، يَشتَرِكونَ في العذابِ ليسَ أنْ يَشتَرِكوا في نوعٍ مِنَ العذابِ. ولكنْ يُجمَعونَ جميعاً، ثم لهمُ العذابُ على قَدْرِ عِصيانِهِمْ وجُرْمِهِمْ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: المُجْرِمُ هو الوَثّابُ في المَعصِيَةِ الفادِحِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي كانوا إذا قيلَ لهمْ: قولوا ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا على هذهِ الكلمةِ، ولكنْ يَستَكبِرونَ على أتباعِ القائلينَ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ كقولِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وكقولِهِمْ: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] كانوا يأنَفونَ، ويَستَكبِرونَ على أتباعِ رسولِ اللهِ ﷺ لِذلكَ قالوا ما قالوا.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنِ استِكبارِهِمُ استِكباراً على هذهِ الكلمةِ حقيقةً، فيُخرَّجُ استِكبارُهُمْ عليها إنكاراً لهذهِ الكلمةِ وجُحوداً لها بقولِهِمْ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ [وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ ثم جَمَعوا في هذا مُتَضادَّيْنِ، لأنَّ الشاعرَ، هو الذي [يَبلُغُ][٣] في العلمِ غايَتَهُ، والمجنونَ، هو الذي يَبلُغُ في الجهلِ غايَتَهُ. ثم جَمَعوا بينَهُما في رسولِ اللهِ ﷺ وكذلكَ قولُهُمْ: ساحرٌ، ومجنونٌ: الساحرُ، هو الذي يَبلُغُ في علمِ الأشياءِ غايَتَهُ، والمَجنونُ [هو الذي يَبلُغُ في الجَهلِ غايَتَهُ][٤]. دلَّ أنهمْ إنما يقولونَ عن عنادٍ وتَعَنُّتٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾: ﴿بِالْحَقِّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بالحَقِّ الذي للهِ عليهِمْ وما لبعضِهِمْ على بعضٍ.

وأصلُ الحقِّ أنَّ كلَّ ما يُحمَدُ على فِعلِهِ، هو الحقُّ، وكُلُّ ما يُذَمُّ عليهِ، هو باطلٌ.

[وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ صَدَّقَ إخوانَهُ مِنَ المُرسَلينَ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ هي الطيورُ التي صَفَّتْ بينَ السماءِ والأرضِ ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ مِنَ الزَّجرِ؛ يُقالُ: زَجَرْتُ الإبلَ زَجْراً، أي صِحْتُ لهُ، والزَّجْرُ الصياحُ ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ كما تقولُ: تلَوْتُ القرآنَ، أي قرَأْتُ، وتَلَوْتُ: تَبِعْتُ. والتالي: التابعُ. والقَذْفُ: الرَّمْيُ. يُقذَفونَ: يُرْمَوْنَ. ودُحوراً أي مُباعَدَةً؛ دَحَرْتُهُ أي باعَدْتُهُ، وطَرَدْتُهُ. واصِبٌ: دائبٌ. وخَطِفَ الخَطْفَةَ، أي استَلَبَ الشيءَ، والخَطفَةُ الاستِلابُ السريعُ. ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي اتَّبَعَهُ ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ الشهابُ: الكوكَبُ، والثاقبُ الشديدُ الضَّوءِ والحَرِّ؛ يُقالُ: ثَقَبَتِ النارُ، أيِ التَهَبَتْ، واشتَدَّ حرُّها، وأثقَبْتُها أي أوقَدْتُها، وسَخِرتُ،

(١) في الأصل و م: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: في الجهل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

واستَسْخَرتُ كقولِهِمْ: وَقَرَ، واستَوقَرَ، واحدٌ. ويَسْخَرُ بِهِ، وسُخْرِيَّةٌ بالتشديدِ، وسَخَّرتُ فلاناً، أي استَعْمَلْتُهُ بِغيرِ أجْرٍ. و﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي قد ذَلُّوا، وأعطوا بأيديهِمْ؛ يُقالُ: استَسْلَمَ إذا أعطى بيدِهِ، واستَلَمْتُهُ: تَرَكْتُهُ، لم أُغْنِهِ، ولم أنصُرْهُ. ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ واشكالَهُمْ؛ تقولُ العربُ: زَوَّجْتُ أي إذا قَرَنْتُ واحداً بآخَرَ، وهُمْ قُرناؤُهُمْ مِنَ الشياطينِ. [وزوجُ الشيءِ شَكْلُهُ، ويُقالُ لِضِدِّهِ، فهو اسمٌ لهما جميعاً][1]. [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي تَخدعونَنا، وتَمنعونَنا عن طاعةِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ على الإضمارِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قولوا: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ: أنهمْ إذا قيلَ لهمُ: اتركوا عبادةَ الأصنامِ، واصْرِفوا عبادَتَكُمْ إلى الإلهِ الذي هو في الحقيقةِ إلهٌ، وهو المالكُ لِجَرِّ النَّفعِ ولِدَفعِ الضُّرِّ، وهو اللهُ: جَلَّ، وعَلا. ويَدُلُّ [على هذا][3] قولُهُمْ: ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أي نَترُكُ عبادةَ آلهتِنا لقولِ شاعرٍ مجنونٍ؟ واللهُ أعلَمُ.

ذُكِرَ أنَّ نفَراً مِنْ رُؤساءِ قريشٍ أتَوا أبا طالبٍ، فقالوا: مايريدُ منا ابْنُ أخيكَ؟ فَدَعا بِهِ «فقالَ: ما تريدُ منهمْ يا ابْنَ أخي؟ فقالَ لهُ: يا عَمِّ إنما أريدُ منكُمْ كلمةً تَمْلِكونَ بها العَرَبَ، وتَدينُ لكمْ بها العَجَمُ» [أحمد ١/ ٢٢٧ / ٤٥٢ ـ أ/] وفي بعضِ القصةِ أنهُ قالَ: «أريدُ منكُمْ كلمةً يَدينُ لكمْ بها العَرَبُ، ويُؤدِّي إليكُمْ بها العَجَمُ الجِزْيَةَ. فقالوا: وما هي؟ فقالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ. فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] وذُكِرَ أنهمْ قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؟

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

والآيةُ في مَنْ يُقِرُّ بالصانعِ، ليسَتْ[4] في مَنْ يُنْكِرُ الصانعَ رأساً مِنْ نَحوِ الدَّهْرِيَّةِ وغيرِها، حينَ[5] نَفَى الألوهيَّةَ لِمَنْ دونَهُ، وأثْبَتَها للهِ ﷻ بقولِهِ: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ولو كانَ ذلكَ مَعَ أهلِ الدهرِ لَكانَ لا مَعْنَى لِنَفْيِ الألوهيَّةِ لِغيرِهِ، بل يُحتاجُ إلى تَثْبيتِها فَحَسْبُ. فدلَّتِ[6] الآيةُ [على أنها][7] في مَنْ يُقِرُّ بالصانعِ، لكنهُ يُشْرِكُ غيرَهُ فيها، وهُمْ مُشركو العَرَبِ وغيرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخبَرَ عنْ رسولِهِ ﷺ وصِدْقِهِ حينَ[8] قالَ: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ وهو كلُّ آياتِهِ مِنَ التوحيدِ والإسلامِ والرسالةِ، وكلُّ فِعلٍ يُحْمَدُ فاعِلُهُ عليهِ، ولا يُذَمُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذينَ كانوا قَبْلَهُ في جميعِ ما جاؤوا بِهِ مِنَ الحَقِّ.

الآيات ٣٨ و٣٩ و٤٠ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ بالتكذيبِ والرَّدِّ لِذلكَ كلِّهِ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم استَثْنَى المؤمنينَ حينَ[10] قالَ ﷻ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهمْ لا يَذوقونَ العذابَ الأليمَ. و﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾][11] مُستَثْنىً مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أو لا يكونُ لهذا حَقُّ الاستِثْناءِ مِنَ الأوَّلِ. ولكنْ [يكونُ على][12] الابْتِداءِ. وذلكَ[13] جائزٌ في اللغةِ سائغٌ في اللسانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ ثم بَيَّنَ ما أعَدَّ لِلْمُخْلَصينَ، فقالَ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ يَجْمَعُ بينَ قولِهِ: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] وبينَ قولِهِ: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾؟

قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: يعني المَعْلومَ حينَ يَشْتَهونَهُ يُؤتَونَهُ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ للكثيرِ الذي لا يُحْسَبُ، ولا يُعَدُّ لِكَثْرَتِهِ، هو في نفسِهِ مَعْلومٌ مَحْدودٌ[14]، وأنْ يريدَ بالمَعْلومِ أنهُ صارَ ما وُعِدوا في الدنيا لهمْ في الآخِرَةِ مَعْلوماً مَعْروفاً عندَ الوصولِ إليهِ؛ كانَ ذلكَ لهمْ مَوْعوداً، فإذا وَصَلوا إليهِ صارَ مَعْلوماً مَحْدوداً.

---

(١) أدرجت في الأصل و م بعد: تمنعوننا عن طاعة الله واللهُ أعلَمُ. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل و م: لهذا. (٤) في الأصل و م: ليس. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل و م: فدل. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: حيث. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: حيث. (١١) في الأصل وم: لو كانوا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل و م: محدودا.

جنة السنة

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي مُعَظَّمون مُشرَّفونَ.

الآيات ٤٣ و٤٤ و٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ يُخبِرُ أنَّ لهمْ في الجنةِ ما يَستَحِبونَ، ويَختارونَ، في الدنيا مِنَ الجلوسِ على السُّرُرِ على المُواجَهَةِ والمُقابَلَةِ والشربِ على ذلكَ. والكاسُ: قيلَ: كلُّ إناءٍ و قَدَحٍ، فيهِ شرابٌ، فهو كأسٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ المَعينُ: قالَ بعضُهُمْ: هو الجاري، وكأنهُ يُخبِرُ أنَّ خُمورَ أهلِ الجنةِ تجري في الأنهارِ كقولِهِ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥] وقالَ بعضُهُمْ: المَعينُ، هو الظاهرُ الذي يَقَعُ البَصَرُ عليهِ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠] أي ظاهرٍ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ذُكِرَ أنَّ خُمورَهُمْ في الآخرةِ بيضاءُ، لأنَّ [في][١] البَياضِ يَظْهَرُ كلُّ ما فيهِ مِنَ الأذى والآفةِ، ويُرى. فأمّا في غيرِهِ مِنَ الألوانِ فإنهُ قَلَّما يَظْهَرُ، وقَلَّما يُرى إلّا بجهدٍ. أو ذُكِرَ أنها بيضاءُ لأنَّ البَياضَ[٢] مِنَ الألوانِ [المُستَحسَنةِ في][٣] الطباعِ كلِّها، وهو المُختارُ عندنا.

قالَ الزَّجاجُ: إنَّ الخَمْرَ لَذَّةٌ للنفسِ الروحانيَّةِ لا للجَسدانيَّةِ. ألَا تَرى أنَّ الخَمْرَ يَشرَبُها الناسُ، وتَظْهَرُ كراهةُ ذلكَ في وجوهِهِمْ مِنَ العُبوسَةِ وغيرِها. ثم معَ هذا يَعودونَ، ويَشرَبونَ. دلَّ أنها لَذَّةٌ لا لهذهِ النفسِ الجَسدانيَّةِ ولكنْ للنفسِ الروحانيَّةِ، أو كلامٌ نَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ويَنزِفونَ[٤]: بنصبِ الياءِ وكَسرِ الزاي، ورَفعِها ونَصْبِ الزاي.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا آفةَ فيها، ولا ضَرَرَ، ولا أذىً ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ مَنْ قَرَأها يُنزَفونَ برفعِ الياءِ ونَصبِ الزاي فيقولُ: لا تَنزِفُ الخمرُ عقولَهُمْ، أي لا تَذهَبُ بها، أي لا يَسكرونَ كما يُسكَرُ بِشُرْبِ خمورِ الدنيا. ومَنْ قَرَأها: يَنزِفونَ [فيقولُ: يَفنونَ][٥] شرابَهُمْ. وتأويلُ هذا[٦] الكلامِ أنَّ أهلَ الدنيا إذا أخذوا في الشُّرْبِ لا يَترُكونَ شُربَهُمْ إلّا لإحدى[٧] الخَلَّتَينِ: إمّا لِذَهابِ عقولِهِمْ، وذلكَ عندَ شدةِ سُكرِهِمْ، وإمّا لِفَناءِ الشَّرابِ[٨]. لإحدى هاتينِ الخَلَّتَينِ يَترُكونَ شُربَهُمْ؛ فيُخبِرُ أنَّ أهلَ الجنةِ لا تُذهِبُ عقولَهُمُ الخَمرُ، ولا يُفنونَ شرابَهُمْ، ولا كانَ فيها آفةٌ ولا ضَرَرٌ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿مَّعِينٍ﴾ ظاهرٍ لا يَتَحَرَّكُ، ويُقالُ: الجاري ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي سُكْرٌ ولا ضَرَرٌ. ولا يكونُ الاغتِيالُ إلّا مِنَ الخديعةِ. و الغَيلُ في الأولادِ، وهو[٩] أنْ تُرضِعَ المرأةُ ولَدَها، وفي بطنِها آخَرُ. والمَغُولُ[١٠] المُتَلَوِّنُ. ولِذلكَ[١١] سُمِّيَتِ الغُولُ غُولاً لأنها تَتَلَوَّنُ، والغِيلانُ جميعٌ ﴿يُنزَفُونَ﴾ التَّزيفُ[١٢] السكرانُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا تَغتالُ عقولَهُمْ، فتَذهَبُ بها. يقالُ: الخَمْرُ غَولٌ لِلحِلْمِ، والحَرْبُ غَولٌ للنفوسِ.

والغَولُ: العدوُّ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي لا تَذهَبُ خمرُهُمْ، وتَنقَطِعُ، وتَذهَبُ عقولُهُمْ. والخَمْرُ التي جَعَلَها اللهُ لأهلِ الجنةِ في الآخِرةِ هي للذي لم يَشرَبْها في الدنيا، ولم يَتَناولْ منها، ولا تَلَذَّذَ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي غائلةٌ، أي لا يَيجَعُ منها الرأسُ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي لا يَسكَرونَ؛ تَنزِفُ عقولَهُمْ، فتَذهَبُ [بها][١٣].

وفي قولِهِ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بنصبِ اللامِ دلالةٌ أنهُ قد كانَ مِنَ اللهِ ﷻ لُطفٌ، بِهِ استَوجَبوا الإخلاصَ والخُصوصِيَّةَ. وهو يَنقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: البيضاء. (٣) في الأصل و م: المستحسن. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٢٣٥. (٥) في الأصل و م: أي يفنى. (٦) من م، في الأصل: هذه. (٧) من م، في الأصل: لأحد. (٨) في الأصل و م: الشرب. (٩) في الأصل وم: وهي. (١٠) في الأصل و م: والمغلول. (١١) في الأصل و م: وكذلك. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي لا يَنْظُرْنَ إلى غيرِ أزواجِهِنَّ، ومعناهُ [أنَّ اللهَ تعالى جَبَلَ][1] البشرَ على الغِيرَةِ؛ فلا يَسْتَحِبُّ الرجالُ أنْ تنظرَ أزواجُهُمْ إلى غيرِهِمْ، ولا النساءُ أنْ يَنْظُرَ أزواجُهُنَّ إلى غيرِهِنَّ.

فأخبرَ ﷻ عن أزواجِهِمْ أنهنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غيرِ أزواجِهِنَّ حُبّاً لأزواجِهِنَّ وطَلَباً لِمَرْضاتِهِنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: واسعاتُ العُيونِ في الجَمالِ، لأنَّ السَّعَةَ في العَينِ إذا جاوَزَتِ[2] الحدَّ فُحْشٌ، ولا يكونُ فيهِ جَمالٌ، ولكنْ يكونُ فيهِ قُبْحٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عِينٌ﴾أي حِسانُ العُيونِ، والعِينُ جماعةُ العَيناءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي مَسْتورٌ، لا يُصيبُهُ مَطَرٌ ولا ريحٌ ولاغُبارٌ ولا شمسٌ ولا شيءٌ مما يُصيبُ في الدنيا كقولِهِ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦و٧٤] واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عِينٌ﴾ أي حِسانُ العُيونِ، العِينُ جماعةُ العَيناءِ، واللهُ أعلَمُ. وقولُهُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي قد خُبِئَ، وكُنَّ مِنَ الحرِّ والقرِّ والمَطَرِ، فلم يَتَغَيَّرْ، وهو مثلُ الأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ هو كَبَيضِ النَّعامِ الذي يَكُنُّهُ[3] الريشُ مِنَ الريحِ وغَيرِهِ، فهو أبيضُ إلى الصفرةِ فكأنهُ يَنْزِفُ، فذاكَ المَكْنونُ.

وقالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَهُنَّ بالبَياضِ الذي يكونُ بينَ القِشْرِ وبينَ اللِّحاءِ، وهو أبيضُ شيءٍ يكونُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. لكنَّ فيهِ وَصْفَهُنَّ بالجمالِ والبهاءِ والحبِّ لأزواجِهِنَّ.

وقالَ بعضُهُمْ: البَيضُ المَكْنونُ، وهو المَصونُ، هو وَصْفُهُنَّ بالصَّونِ والصِّيانةِ كقولِهِ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٥٠ و٥١ و٥٢ و٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾][4] ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنَّ رجلَينِ شريكَينِ، كانَ لهما ثمانيةُ آلافِ دينارٍ، [وذُكِرَ أنهما كانا أخوَينِ، وَرِثا ثمانيةَ آلافِ[5] دينارٍ][6] فاقْتَسَما / ٤٥٢ ـ ب/ وذُكِرَ أربعونَ ألفَ درهمٍ.

فَعَمَدَ[7] أحدُهما إلى مالِهِ، فاشترى بِهِ قصوراً وبُستاناً وفُرُشاً وجَواريَ ونساءً، فأنفَقَهُ في أمرِ الدنيا، و عَمَدَ الآخرُ إلى مالِهِ، فأنفَقَهُ في طاعةِ اللهِ وطَلَبِ مَرْضاتِهِ، وطَلَبَ بعملِهِ [النِّعْمَةَ][8] الدائمةَ في الآخرةِ، وهذا مؤمنٌ، والآخرُ كافرٌ طاغٍ.

ثم أصابَ الذي [أنفقَ مالَهُ][9] في طاعةِ اللهِ وطَلَبِ مَرضاتِهِ حاجةٌ شديدةٌ، فقالَ: لو أتيتُ صاحبي هذا، [لعلّي أنالُ منهُ مَعْروفاً][10]. فأتاهُ، فَسَألَهُ، فأبى أنْ يُعطيَهُ شيئاً، وقالَ له: ما شأنُكَ؟ وما فَعَلْتَ بمالِكَ؟ فأخبَرَهُ بما فَعَلَهُ بِهِ. فقالَ لَهُ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مُحاسَبونَ.

فَرَجَعَ، فَقَضَى لهما أنْ يُوفيا، فنَزَلَتْ فيهما﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو المؤمنُ حينَ أدخَلَهُ اللهُ الجنةَ ﴿كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعثِ بعدَ الموتِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي لَمُحاسَبونَ.

الآيتان ٥٤ و٥٥ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ كأنهُ قالَ لأصحابِهِ: هل أنتمْ مُطَّلِعونَ في النارِ؟ [لِتَنْظُروا حالَهُ][12]، ثم أخبرَ أنهُ اطَّلَعَ ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ذَكَرَ اطِّلاعَهُ، ولم يَذْكُرِ اطِّلاعَ أصحابِهِ. فجائزٌ أنْ يكونَ أخبَرَ عنِ اطِّلاعِ كلِّ واحدٍ منهمْ في نفسِهِ أنهُ اطَّلَعَ ﴿فَرَءَاهُ فِى

(١) في الأصل و م: جبل الله ﷻ. (٢) في الأصل وم: جاوز. (٣) في الأصل و م: يمكنه. (٤) في الأصل و م: إلى آخر ما. (٥) في م: ألف. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل و م: فتعمد. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: أنفقه. (١٠) في الأصل و م: لعله أن ينال منه بمعروف. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل: لنظر ماله، في م، لينظر ما حاله.

جنة السنة

﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي وَسَطِ الجحيم. وإنْ كانوا جميعاً مُطّلِعينَ إليهِ فيها، كقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الإنشقاق: ٦] وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الإنفطار: ٦] وإنْ كانَ خاطبَ إنساناً فكأنه[1] خاطبَ بهِ كلَّ إنسانٍ في نفسِهِ.

فعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أنه[2] أخبرَ عنِ اطّلاعِ كلٍّ منهمْ، واللهُ أعلَمُ، وكانوا جميعاً مُطّلِعينَ.

ثم في الآيةِ شيئانِ[3] عجيبانِ:

أحَدُهُما: ما ذُكِرَ من اطّلاعِ أهلِ الجنةِ على أهلِ النارِ [أنّ النارَ][4] تكونُ قريبةً مِنَ الجنةِ حتى يَنْظُرَ بعضُهُمْ إلى بعضٍ [فيَرَوا كم][5] تكونُ بعيدةً منها. إلا أنَّ أبصارَ أهلِ الجنةِ تكونُ أبْعَدَ وأبْصَرَ ممّا تكونُ في الدنيا.

فجائزٌ أنْ يَجْعَلَ اللهُ ﷻ أبصارَ أهلِ الآخرةِ أبْصَرَ وأبْعَدَ حتى لا يَمْنَعَهُ بُعدُ المسافةِ والمَكانِ عنِ النَّظَرِ والرُّؤيةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أن يُعَرِّفَهُ في النارِ [والنارُ تَحرُقُهُ، وتُغَيِّرُ][6] وجْهَهُ ولونَهُ وجميعَ أعلامِهِ وسِيماهُ.

لكنْ جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ يُعَرِّفُهُ بأعلامٍ [تُجعَلُ لهُ][7] فَيَعْرِفُهُ بتلكَ الأعلامِ، وذلكَ على اللهِ ﷻ يَسيرٌ هَيِّنٌ.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: يَجعَلُ اللهُ ﷻ لأهلِ الجنةِ كُوىً فيها: إذا أرادَ أنْ يَنْظُرَ أحدُهُمْ إلى مَنْ في النارِ فَتَحَ اللهُ لهُ كَوَّةً، يَنْظُرُ إلى مَنْ شاءَ مِنْ مَقْعَدِهِ إلى النارِ، فَيَزدادُ بذلكَ شُكراً، وهو قولُهُ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي في وَسَطِ الجحيمِ كقولِهِ ﷻ ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢] أي وَسَطَهُ.

الآية ٥٦ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي هَمَمْتَ لَتُغْويني. وكذا في حرفِ ابنِ مسعودٍ ﴿لَتُرۡدِينِ﴾ لَتُغْويني.

وقالَ الكِسائيُّ: تاللهِ، و: باللهِ، و: واللهِ، و: اللهِ بِغيرِ واوٍ لُغاتٌ. يُخْبِرُ أنَّ باللهِ يكونُ على الأسفِ مَرْجِعُها إلى سَفاهٍ: يقولُ: لولا أنَّ اللهَ أنْعَمَ عليَّ بالهُدَى، ولولا أنَّ اللهَ رَحِمَني، فهداني، المَعْنى واحدٌ، يقولُ لهُ: اتْرُكْ دينَكَ، واتْبَعْني.

و﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي لَتُهْلِكُني؛ يُقالُ: رَدَيتُ فلاناً، أي أهْلَكْتُهُ، والرَّدَى الموتُ والهلاكُ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبيِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمَدِينُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لَمُحاسَبونَ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: لَمَجزيّونَ. والدينُ الجزاءُ.

وقالَ [بعضُهُمْ][9]: ﴿بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ أي مستورٌ، لا يُصيبُهُ غُبارٌ ولا وَسَخٌ، وقولُهُ: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي هَمَمْتَ، وأرَدْتَ أنْ تُهْلِكَني، وتُغْوِيَني، لو أجَبْتُكَ، واتَّبَعْتُكَ، في ما دَعَوتَني إليهِ، وسَألْتَني.

الآية ٥٧ ثم أخْبَرَ أنهُ ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ معهُ.

وهذا على المعتزلةِ لِقولِهِمْ: إنَّ عليهِ هِدايةَ كلِّ أحدٍ، ما لو مَنَعَهُ عنهُ كانَ جائراً في منعِ ذلكَ.

وهذا الرجلُ أخْبَرَ أنهُ بنعْمَتِهِ ورَحْمَتِهِ اهْتَدى ما اهْتَدَى، وأنهُ لو لم يكُنْ منهُ إليهِ نعمةٌ لكانَ مِنَ المُحْضَرينَ فيها. فهو أعرَفُ بربِّهِ مِنَ المعتزلةِ.

وكذلكَ الشيطانُ وجميعُ الكَفَرةِ أعرَفُ بنعمةِ ربِّهِمْ مِنَ المعتزلةِ لأنهمْ قالوا: ﴿أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٢١] [وقالوا][10]: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأعراف: ٤٣و٥٣] ومثلُهُ كثيرٌ في القرآنِ.

---

(١) في الأصل و م: فإنما. (٢) في الأصل و م: إنما. (٣) في الأصل و م: سببان. (٤) في الأصل و م: أنها. (٥) في الأصل و م: فيرون أن. (٦) في الأصل: والنار مما تحرقه وتفنى، في م: ما يحرقه ويفنى. (٧) من م، في الأصل: يجعله. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

إنهمْ جميعاً رَأَوُا الهدايةَ لهمْ منَ اللهِ نعمةً ورحمةً، ولم يُعْطِ الكَفَرَةَ ذلكَ.

والمعتزلةُ يقولونَ: بل هَدَى كلَّ كافرٍ ومشركٍ [لكنهمْ لم يَهْتَدوا][1].

وأهلُ الجنةِ قالوا أيضاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ومثلُهُ كثيرٌ في القرآنِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥٨ و٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ على الإيجابِ والإلزامِ [أي لا نموتُ إذا دَخَلْنا الجنةَ. ويَحْتَمِلُ][2] على الاستِفْهامِ وسُؤالِ بعضِهِمْ بعضاً: ألا نموتُ؟ ولا نُعذَّبُ؟ وإذا لم نَمُتْ، ولم نُعذَّبْ، فإذنْ كانَ [فَوزُنا][3] فوزاً عظيماً.

وكذلكَ ذَكَرَ أبو مُعاذٍ عنِ الكسائيِّ أنَّ هذا استِفهامُ يَقينٍ، وفي القرآنِ كثيرٌ مثلُهُ. وقالَ قد يكونُ الاستِفْهامُ على التَّعْجيبِ، ويكونُ [على اليَقينِ، ويكونُ على][4] الجهالةِ. ويكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [إلا بِمَعْنى بعدَ، إذِ المَوتَةُ الأُولَى][5] قد مَضَتْ [ولا يُتَصَوَّرُ تَذَوُّقُها][6] ثانياً.

الآيتان ٦٠ و٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي لِمِثْلِ هذهِ العاقبةِ التي أعْطينا نحنُ، وظَفِرَ بها، يَعْمَلُ العاملونَ، لا لِمِثْلِ ما فيهِ صاحبُهُ الذي في النارِ.

الآية ٦٢ ثم قولُه[7] تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ مِنَ المَنزِلِ أو المُقامِ، أيِ المُقامُ الذي نَزَلْنا فيهِ خيرٌ ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أنْ يكونَ مِنَ الأنزالِ، أي مالَنا مِنَ الطعامِ[8] والمآكلِ والمَشْرَبِ خيرٌ ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟

قالَ بعضُهُمْ، أعني بعضَ الكفارِ لبعضٍ لَمّا خُوِّفوا بها: هل تَدْرونَ ما الزَّقُّومُ؟ هو التمرُ والزُّبْدُ، فقالوا: بهذا الذي يُخَوِّفُنا بِهِ محمدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ محمداً يُخَوِّفُنا بِشجرةٍ في النارِ [والنارُ][9] مِنْ طَبْعِها أنْ تُحْرِقَ الشجرَ، وتأكلَهُ، فكيفَ تكونُ في النارِ الشجرةُ؟ تكذيباً منهمْ وإنكاراً لها.

الآيات ٦٣ و٦٤ و٦٥ فَبَيَّنَ اللهُ ﷻ تلكَ الشجرةَ [وأخبرَ][10] عنْ حالِها، فقالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أخبرَ أنَّ تلكَ الشجرةَ خَرَجَتْ مِنْ أصلِ الجحيمِ، وأُنْشِئَتْ، والشجرةُ التي أُنشِئَتْ مِنَ النارِ، لا تأكُلُها النارُ، ولا تَحْرِقُها، كما تأكلُ غيرَها مِنَ الأشجارِ التي لم تَنْشَأْ منها.

ومثلُ هذا جائزٌ أنْ يكونَ الشيءُ الذي يكونُ مَنْشَؤُهُ وبَدْؤُهُ مِنْ[11] شيءٍ، لا يُهْلِكُهُ كونُهُ في ذلكَ [الشيءِ، كالسمكِ][12] الذي يكونُ أصلُ نشوئِهِ في الماءِ، وكذلكَ جميعُ دوابِّ البحرِ، وإنْ كانَ غيرُها مِنَ الدوابِّ في البَرِّيَّةِ تَهْلِكُ فيها، وتَتْلَفُ.

فَعَلَى ذلكَ الشجرةُ المُنْشَأةُ [في النارِ، لا تُهْلِكُها][13] النارُ، ولا تَحْرِقُها، وإنْ كانَ غيرُها مِنَ الأشجارِ تأكُلُها، وتَحرِقُها، واللهُ أعلَمُ.

والجَحيمُ: قيلَ: هو معظمُ النارِ وغِلَظُها؛ يقالُ: جَحَمْتُ النارَ، أي أعْظَمْتُها؛ يقالُ: نارٌ جَحيمةٌ أي عظيمةٌ

---

(١) في الأصل و م: لكنه لم يهتد. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: ليس. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: عن. (٥) في م: أي بعد موتتنا الأولى إلا بعد إذ موتة الأولى، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: لا يذوقون (٧) في الأصل و م: قال. (٨) في الأصل و م: العظام. (٩) من م، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل و م: و. (١١) أدرج بعدها في الأصل و م: كل. (١٢) في الأصل: السمك، في م: كالسمك. (١٣) في الأصل: منها لا تهلكها، في م: منها لا يهلكه.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ نوعاً مِنَ الحَيَّاتِ يُسَمَّينَ شياطِينَ، لها رؤوسٌ سودٌ، قِباحٌ، له عُرْفٌ كَعُرْفِ الفَرَسِ. وطَلْعُ تلكَ الشجرةِ، وثَمَرتُها لِقُبْحِها وسَوادِها كرؤوسِ[1] تلكَ الحَيَّاتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو نوعٌ مِنَ/ ٤٥٣ ـ أ/ النباتِ في الباديةِ يَستَقبِحُهُ الناسُ أشدَّ الاستِقباحِ، شَبَّهَ طَلْعَ تلكَ الشجرةِ وثَمرَتَها بذلكَ النباتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ جبالاً بمكةَ سودٌ قِباحٌ، يَستَقبِحُها أهلُ مكةَ، سَمَّوها شياطينَ، شَبَّهَ ثمارَ تلكَ الشجرةِ و طَلْعَها برؤوسِ تلكَ الجبالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ حقيقةُ [رؤوسِ][2] الشياطينِ، لأنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ الشياطينَ في قلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ فَضلَ بُغضٍ وقُبحٍ و نِفارٍ منها، وإنْ لم يَرَوْها، ولم يُعايِنوها، فَشَبَّهَ طَلْعَ تلكَ الشجرةِ برؤوسِ الشياطينِ لِفَضلِ إنكارِهِمْ وبُغضِهِمْ إياها حقيقةً.

وفي ذلكَ آيةٌ عظيمةٌ لرسالتِهِ ﷺ لأنهم لم يَرَوُا الشياطينَ بِبَصَرِهِمْ، ولا عَرَفوهُمْ مُعايَنَةً، وإنما عَرَفُوهُمْ بأخبارِ الرسُلِ ﷺ ممّا استَنْكَروها، واستَقْبَحوها، وهمْ لا يؤمنونَ بالرسلِ ﷺ فإذا قَبِلوا أخبارَ رُسُلِ اللهِ فيهِمْ لَزِمَهُمْ أنْ يَقْبَلوا قولَهُ في الرسالةِ وفي جميعِ ما أخبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿فِتْنَةً﴾ يعني بهِ الشجرةَ التي أُنْشِئَتْ مِنْ أصلِ الجَحيمِ، وهي شجرةُ الزَّقُّومِ عذاباً للظالمينَ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي يُعذَّبونَ ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي عذابَكُمْ ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذريات: ١٣و١٤].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ أي تلكَ الشجرةَ الزَّقُّومَ ﴿فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ في الدنيا [وجهَينِ]:

أحَدُهما: الفتنةُ[3] بها لهمْ هي إنكارُهُمْ إياها مِنَ الجهةِ التي ذَكَروا أنَّ النارَ تَحرِقُ، وتأكُلُ الشجرَ، فكيفَ يكونُ فيها شجرٌ؟ إنكاراً لها وتكذيباً بها.

والثاني: ما ذكَرَ بعضُهُمْ: أنَّ الزَّقُّومَ، هو الزُّبْدُ والتمرُ، صارَ ذلكَ فِتْنَةً لِما ذَكَرْنا وسَبباً لِعذابِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي مِنَ الشجرةِ الزَّقُّومِ، ذَكَرَ أنها ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ جائزٌ أنْ يُشَدِّدَ اللهُ عليهمُ الجوعَ حتى يأكُلوا منها، فيَملَؤوا[4] بطونَهُمْ منها كقولِهِ: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] وهي الإبلُ التي تملأُ بطونَها مِنَ السّامِ[5]، لا يُغْني ذلكَ الشربُ، وهو الحميمُ ولا يدفَعُ عنهمُ العطشَ الذي يكونُ بهِمْ.

فَعَلى ذلكَ ما جَعَلَ طعامَهُمْ مِنْ تلكَ الشجرةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣و٤٤] إنهمْ، وإنْ مَلَؤوا بطونَهُمْ فإنَّ ذلكَ لا يدفَعُ عنهمُ الجوعَ كقولِهِ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧]واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ثم إنَّ على تلكَ الشجرةِ التي جَعَلَ طعامَهُمْ منها خَلْطاً مِنْ حَميمٍ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي ثم إنَّ مَرَدَّهُمْ، أي ثم إنهمْ يُرَدُّونَ إلى الجَحيمِ لا أنهمْ يَرْجِعونَ بأنفسِهِمْ، ولكنْ يُرَدُّونَ فيها كقولِهِ: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [النحل: ٢٩] هم لا يَدْخُلونَ فيها، ولكنْ يُدْفَعونَ فيها كقولِهِ ﷻ ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

---

(١) في الأصل و م: برؤوس من. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وجهة الغصة. (٤) في الأصل وم: فيملؤون. (٥) في الأصل وم: المسايم، السام: الدقل، وهو أردأ أنواع التمر.

جنة السنة

[وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: ثم إنَّ مَقيلَهُمْ لإلَى الجَحيمِ](١) والجَحيمُ، هو معظمُ النارِ على ما ذَكَرْنا؛ يُقالُ: نارٌ جاحمةٌ أي عظيمةٌ.

الآية ٦٩ [وقولُهُ ﷻ](٢): ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي وَجَدوا آباءَهُمْ ضالِّينَ.

الآية ٧٠ [وقولُهُ تعالى](٣): ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فيهِ أنَّ ماذُكِرَ مِنَ العذابِ للأتباعِ منهمْ لا لِلْمَتبوعينَ. ولم يذكُرْ عذابَ المَتبوعينَ في الآيةِ حينَ(٤) قالَ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُسْرِعونَ، وهو شِبْهُ الهَرْوَلَةِ والإسراعِ، وهو قولُ القُتَبِيِّ وأبي عوسَجَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: يُهْرَعونَ أي يَسْعَوْنَ، وهما واحدٌ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ولقد ضَلَّ قبلَ قومِكَ يا محمدُ مِنَ الأولينَ أكثَرُهُمْ مِنَ الأممِ الخاليةِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ، فهلمَّ جرّاً إلى محمدٍ ﷺ وعلى آدَمَ [وعلى](٥) مَنْ بَيْنَهما مِنَ النَّبِيِّينَ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي لقد أرسَلْنا في الذينَ ضَلّوا قبلَ قومِكَ مُنْذِرينَ يُنْذِرونَهُمْ؛ ما مِنْ قومٍ إلّا بُعِثَ إليهِمْ نذيرٌ كما أرسَلْنا إلى قومِكَ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: انظُرْ كيفَ صَنَعْنا بِمَنْ أنذَرْنا بالعاقبةِ، فلم يؤمِنْ، ولم يَقْبَلْ، ولم تَنْفَعْهُ النِّذارةُ.

الآية ٧٤ [وقولُهُ تعالى](٦): ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استَثْنى المُخْلَصينَ منهمْ، وهمُ الذينَ نَفَعَتْهُمُ النِّذارةُ، وقَبِلوها، فَنَجَوا ممّا ذُكِرَ مِنْ عذابِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. ويَحْتَمِلُ أنهُ(٧) سَمّاهُمُ المُخْلَصينَ لِما اصْطَفاهُمْ، وأخلَصَهُمْ لِعبادتِهِ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: حينَ دَعا ربَّهُ، فقالَ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] فكأنَهُ دعا ربَّهُ بالهلاكِ على قومِهِ، فأجابَ اللهُ دعاءَهُ، وهو ما قالَ ﷻ ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ [﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٥]](٨).

ثم [بَيَّنَ اللهُ تعالى](٩) أنَّ الرسُلَ ﷺ هم مَخصوصونَ بأمْرَيْنِ(١٠) مِنْ بَيْنِ غَيرِهِمْ مِنَ الناسِ:

أحَدُهما: أنْ ليسَ لهمُ الدعاءُ على قومِهِمْ بالهلاكِ وسؤالِ العذابِ عليهِمْ إلّا بعدَ مَجيءِ الإذْنِ لهمْ مِنَ اللهِ ﷻ بالدعاءِ عليهِمْ. فنوحٌ ﷺ إنما دَعا ربَّهُ بإنزالِ الهلاكِ عليهِمْ بالإذْنِ مِنْ ربِّهِ.

والثاني: لم يكُنْ لهمُ الخُروجُ مِنْ بينِ أظْهُرِهِمْ عندَ نزولِ العذابِ بهمْ إلّا بإذْنٍ مِنَ اللهِ ﷻ على ذلكَ. ولِذلكَ جاءَ العِتابُ لِيونسَ ﷺ والتَّعْييرُ لَمّا خَرَجَ مِنْ بينِهِمْ عندَ نزولِ العذابِ بهمْ بلا إذْنٍ كانَ مِنْ ربِّهِ حينَ(١١) قالَ ﷻ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

هما خَصْلَتانِ(١٢) لهمْ خاصّةً، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، وأمّا لِغَيرِهِمْ مِنْ أهلِ الدينِ فلهمْ أن يَدْعُوا على الفَجَرةِ والفَسَقَةِ منهمْ باللَّعْنِ والهلاكِ، فلهمْ أنْ يَفِرّوا منهمْ، وأنْ يَخرُجوا مِنْ بينِ أظْهُرِهِم لِفِسْقِهِمْ وفُجورِهِمْ، وكانَ هذا يُعَدُّ مِنْ صالحِ الأعمالِ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ وهو الربُّ، تبارَكَ، وتعالى، ذَكَرَ المُجيبينَ على الجماعةِ أنا نَفْعَلُ كذا، وفَعَلْنا كذا، وهو كلامُ الملوكِ في ما بَيْنَهُمْ.

ثم كلُّ فِعْلٍ، يُضافُ إلى اللهِ تعالى [مِمّا يُنْسَبُ إلى غَيرِهِ في الجملةِ](١٣) فإنهُ يُزادُ فيهِ شيءٌ(١٤)، يكونُ فاصلاً بَينَهُ(١٥)

---

(١) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ واللهُ أعلَمُ. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أنهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أمر. (١٠) في الأصل وم: بهما. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: فضلتان. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: فيه غيره أو ينسب. (١٤) في الأصل و م: شيئاً. (١٥) أدرج قبلها في الأصل و م: وذلك.

وبينَ فِعْلِ غيرِهِ [دَفْعاً لِوَهْمِ المُشابهةِ والشَّرِكةِ عنْ قلوبِ الناسِ كما يُقالُ: إنهُ عالمٌ لا كالعلماءِ ونَحْوَ][1] ما قالَ ﷻ في موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] [ونحْوَ قولِهِ: [﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]][2]. ممّا يُكثِرُ ذلكَ، لأنهُ قادرٌ على وفاءِ ما وَعَدَ، وأخبَرَ، وإنجازِ ذلكَ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، وغَيرُهُ مِنَ الخلائقِ، لَعَلَّهُمْ لا يَقدِرونَ على وفاءِ ذلكَ والقيامِ بإنجازِ ما وَعَدوا. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تَحتَمِلُ نَجاتُهُ مِنَ الكَربِ العظيمِ: هو دعاؤُهُ قومَهُ إلى توحيدِ اللهِ ﷻ سَبْعَ مئةٍ وخمسينَ سنةً وما قاساهُ منهمْ منْ أنواعِ الأذى مِنَ التكذيبِ وغيرِهِ، فأنجاهُ اللهُ مِنْ كَرْبِ ذلكَ حينَ أهلَكَهُمْ. ويَحتَمِلُ الكربُ العظيمُ[3] الهَولَ الشديدَ، وهو الغَرَقُ، أغرَقَ قومَهُ، وأنجاهُ منهُ. سَمّاهُ عظيماً لِشِدَّةِ ما أصابَهُمْ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي جَعَلْنا ذُرِّيَّةَ نوحٍ ﵇ مِنْ بَينِ سائرِ وَلَدِ آدمَ وذُرِّيّاتِهِمْ، وأهْلَكَ غيرَهُمْ. ولِذلكَ كانَ بَقِيَ نَسْلُهُ إلى يومِنا هذا، وهَلَكَ نَسلُ غيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧٨ و٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ أنهُ تَرَكَ في الآخِرينَ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ مِنَ السَّلامِ حينَ[4] قالَ ﷻ ﴿سَلَٰمٌ / ٤٥٣ ـ ب/ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أبقَينا [على نوحٍ][5] السلامَ الحَسَنَ في الآخِرينَ حتى يُثْنوا عليهِ جميعاً [ويُصَدِّقوهُ، ويقولوا][6] فيهِ خَيراً وحُسْناً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ ما قالَهُ بعضُهُمْ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [أي يُسَلِّمُ عليهِ][7] جميعُ العالَمينَ في جميعِ الأوقاتِ كما سَلَّمَ عيسى على نفسِهِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وما سَلَّمَ [اللهُ تعالى بنفسِهِ][9] على يَحيى ﵇ حينَ[10] قالَ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

ذَكَرَ السلامَ عليهما في أوقاتٍ ثلاثةٍ وفي [كلِّ][11] يومٍ في الأوقاتِ كلِّها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنا هكذا نَجزي كلَّ مُحسنٍ؛ فَجَزاءُ اللهِ بإحسانِهِ إلينا [الثناءُ][12] الحَسَنُ في العالَمينَ. رَغَّبَ الناسَ في الإحسانِ إمّا إلى الخَلْقِ وإمّا إلى أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و ليسَ في ذِكْرِهِ أنهُ مِنَ المؤمنينَ كثيرُ منفعةٍ لهُ، وهو مِنْ أولي العَزْمِ مِنَ الرسلِ. لكنْ يَحتَمِلُ ذِكْرُهُ إيّاهُ مِنَ المؤمنينَ وجوهاً:

أحدُها: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَبلَ الرسالةِ أي[13] قبلَ أنْ يُبْعَثَ رسولاً أي لم يَصِرْ مؤمناً قَبلَ الرسالةِ.

والثاني: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بكَ يا محمدُ. يَذكُرُ هذا لِيُبَشَّرَ بهِ ﷺ نوحٌ ﵇ والرسلُ ﵈ جميعاً، فيؤمِنَ[14] بعضُهُمْ ببعضٍ.

والثالثُ: أنهمْ كلَّهُمْ مِنْ عبادِنا المُحَقِّقينَ المُوقِنينَ بِقلوبِهِمْ[15] ما اعْتَقَدوا بلسانِهِمْ[16]. وهكذا كانَ الرسلُ كلُّهُمْ موقنينَ ما اعتَقَدوا، وأعطَوا بلسانِهِمْ. وهكذا يَعتَقِدُ كلُّ مؤمنٍ في أصلِ إيمانِهِ واعتِقادِهِ ألّا يَعْصِيَ ربَّهُ، وألّا يُخالِفَهُ في شيءٍ مِنْ أمورِهِ ونواهيهِ. لكنهُ لا يَفي ما اعتَقَدَهُ فِعلاً، بل يَقَعُ ربما في مَعاصيهِ وفي مُخالفةِ أمرِهِ ونَهْيِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٨٢ و٨٣ و٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي إبراهيمُ ﵇ مِنْ شيعةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ يقولُ: على دينِهِ ومنهاجِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ شيعةِ نوحٍ، أي إبراهيمُ مِنْ شيعةِ نوحٍ ﵇ على ما تَقَدَّمَ [مِنْ][17] ذِكْرِ نوحٍ ﵇ حينَ[18] قالَ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ [الصافات: ٧٥] إلى آخِرِ ذلكَ أنَّ إبراهيمَ

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: نحو، في م: ونحو قوله: عالم لا كالعلماء ونحوه، مدرجة بعد ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويصدقون ويقولون. (٧) في الأصل وم: إليه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل و م. (١٥) في الأصل وم: أي وفاء. (١٦) في الأصل وم: بلسانه. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

مِن شيعتِهِ: على دينِهِ ومِنهاجِهِ. [وقال][1]: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مِنْ جميعِ ما يَمْنَعُهُ مِنَ الإجابةِ لربِّهِ في ما دعاهُ والصَّبْرِ على ما امْتَحَنَهُ، وابْتَلاهُ، واللهُ أعلَمُ. وعلى ذلكَ سَمّاهُ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] جميعَ ما أُمِرَ بِهِ، وامْتُحِنَ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ في الآخرةِ؛ يقولُ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] أخبَرَ أنهُ في الآخِرةِ يكونُ مِنَ الصالحينَ وذلكَ سلامةُ قلبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٥ و٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ قد اختلَفَ سؤالُ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، [لأبيهِ وقومِهِ][2]: مَرَّةً قالَ لهمْ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] ومرَّةً قالَ: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥]

ثم ذَكَرَ في غيرِ [هذينِ المَوضِعَينِ][3] إجابتَهُمْ إيّاهُ حينَ[4] ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] و﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] ولم يذكُرْ ههنا شيئاً، قالوهُ لهُ.

ثم مَعلومٌ أنهُ لا بهذا اللسانِ أجابوهُ بما أجابوهُ، ثم ذِكْرُهُ على اختِلافِ الألفاظِ والحروفِ لِيُعلَمَ أنَّ تَغْييرَ الألفاظِ وتبديلَ الحروفِ لا يُغَيِّرُ المَعْنَى. وكذلكَ جميعُ القِصصِ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ، ذَكَرَها[5] مُكَرَّرَةً مُعادةً مُختلِفَةَ الألفاظِ والحروفِ، والقِصةُ واحدةٌ، لِيَدُلَّ أنَّ المأخوذَ والمَقصودَ مِنَ الكلامِ مَعْناهُ لا لَفْظُهُ وحُروفُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿أَئِفْكًا﴾ أي أكَذِباً تَسْمِيَتُكُمْ[6] الأصنامَ التي تعبدونَها مِنْ دونِ اللهِ؛ يقولُ: [كَذِبٌ؛ تلكَ][7] ليسَتْ بآلهةٍ، دونَ اللهِ تَعْبُدونَها[8]. أو يقولُ: ﴿أَئِفْكًا﴾ أي أكَذِباً: الآلهةُ التي اتَّخَذْتُموها آلهةً دونَ اللهِ: تريدونَ أنْ تتَّخِذوا آلهةً، وهو قريبٌ [مِنَ][9] الأوَّلِ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنْ[10] يَفعَلَ بكُمْ إذا اتَّخَذْتُم دونَهُ آلهةً، وصَرَفْتُمُ العبادةَ والشكرَ عنهُ إلى مَنْ دونَهُ، وقد تعلمونَ أنهُ هو المُنْعِمُ عليكُمْ هذهِ [النِّعَمَ][11] وهو أسْدَى إليكُمْ هذا[12] الإحسانَ، وهو تعالى، أدّاها إليكُمْ. أو يقولُ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنهُ يَرْحَمُكُمْ، ويَفعَلُ بكُمْ خيراً في الآخِرةِ بعدَ تَسْمِيَتِكُمُ الأصنامَ وعِبادَتِكُمْ إياها دونَ اللهِ بعدَ عِلْمِكُمْ أنهُ هو خالِقُكُمْ، وهو سَخَّرَ لكُمْ جميعَ ما في الدنيا، وهو أنْشأها لكُمْ، فماذا تَظُنّونَ بهِ أنْ يَفعَلَ بكُمْ؟ أنْ يَرْحَمَكُمْ، ويَسوقَ إليكمْ خيراً، أي لا تَظُنّوا[13] بهِ ذلكَ، ولكنْ ظُنّوا جَزاءَ صَنيعِكُمْ.

الآيتان ٨٨ و٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي سأسْقَمُ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] للحالِ. فَعَلى ذلكَ قولُ إبراهيمَ ﷺ ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [على حقيقَتِهِ][14] وهو صادقٌ؛ إذْ ليسَ مِنَ الخَلْقِ أحدٌ إلّا وبهِ سُقْمٌ ومَرَضٌ، وإنْ قَلَّ. فَعَلى ذلكَ قولُ إبراهيمَ ﷺ وقولُ مَنْ قالَ: إنَّ إبراهيمَ ﷺ كَذَبَ ثلاثاً:

أحَدُها: هذا ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وذلكَ وَحْشٌ مِنَ القولِ سَمِجٌ، لا جائزٌ أنْ يُنْسَبَ الكَذِبُ إلى رسولٍ [مِنْ رُسُلِ اللهِ][15] تعالى [أو نَبِيٍّ][16] مِنْ أنبيائِهِ ﷺ ولا[17] يَقَعُ قَطُّ في وَجْهٍ مِنَ الوجوهِ.

ويَذكُرُ أهلُ التأويلِ أنَّ قومَهُ أرادوا أنْ يَخرُجوا بإبراهيمَ إلى عيدِهِم، فَنَظَرَ إبراهيمُ نَظْرَةً في النجومِ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ لِيُخَلِّفوهُ، ويَتْرُكوهُ، لِيُكَسِّرَ أصنامَهُمُ التي يَعْبُدونَها على ما فَعَلَ مِنَ الكَسْرِ والنَّحْتِ.

---

(١) في الأصل و م: وقيل لذكرها. (٢) في الأصل و م: بقوله. (٣) في الأصل و م: هذا الموضع. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل و م: يذكرها. (٦) في الأصل و م: متمسككم. (٧) في الأصل و م: كذباً ذلك. (٨) في الأصل و م: عبادته. (٩) ساقطة من الأصل و م.
(١٠) في الأصل و م: أي. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل و م: هو. (١٣) في الأصل و م: تظنون. (١٤) ساقطة من الأصل و م.
(١٥) في الأصل و م: الله ﷺ. (١٦) في الأصل و م: وهو. (١٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ويذكُرونَ أنهُ إنما نَظَرَ في النجومِ لأنَّ قومَهُ كانوا يعلَمونَ(١) بالنجومِ، ويَسْتَعْمِلونَ علمَ النجومِ. فإنْ كانَ ذلكَ فهو، واللهُ أعلَمُ، أرادَ أنْ يُرِيَ مِنْ نفسِهِ المُوافقةَ لهم لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ عندَ ذلكَ، وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وقولِهِ ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٦و٧٨] ونَحْوِهِ.

قالَ ذلكَ على إظهارِ المُوافقةِ لهمْ مِنْ نفسِهِ، ليكونَ إلزامُ الحُجَّةِ عليهِمْ. والصرفُ عمّا همْ عليهِ أهوَنُ وأيسَرُ، إذْ هكذا الأمرُ بالمعروفِ في الخَلْقِ: أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يَصْرِفَ آخرَ عنْ مذهبٍ أو دينٍ لو(٢) أظْهَرَ مِنْ نفسِهِ المُوافَقَةَ لهُ [في ذلكَ، ثم رامَ صَرْفَهُ ومَنْعَهُ عنْ ذلكَ كانَ على ذلكَ أقْدَرَ وأمْلَكَ مِنْ أنْ يُرِيَ لهُ المخالَفَةَ](٣).

الآية ٩٠ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ أي أعْرَضوا عنهُ ذاهبينَ إلى حاجاتِهِمْ وحيثُ يريدونَ أنْ يذهبوا، واللهُ أعلَمُ](٤).

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ أي فَراغَ إلى ما اتَّخذوها(٥)، وسَمَّوها آلهةً؛ ذَكَرَ على ما عندَهُمْ وعلى ما اتَّخذوا همْ، وإلّا لم يكونوا آلهةً. وكذلكَ قولُ موسى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗا﴾ [طه: ٩٧] أي انْظُرْ إلى إلهِكَ الذي هو عندَكَ، وإلّا لم يكُنْ هو بإلهٍ(٦).

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ كانَ الطعامُ(٧) موضوعاً بينَ يَدَيها. لِذلكَ قالَ: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾.

الآية ٩٢ وقالَ(٨): ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ بِحوائجِكُمْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ أنهُ مَنْ فَعَلَ بها ما فَعَلَ كقولِهِ: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩و٦٢و٦٣] عنْ مَنْ فَعَلَ بهمْ هذا. سَفَّهَ قومَهُ في عبادَتِهِمُ الأصنامُ، وهي لا تأكُلُ، ولا تَنطِقُ، ولا تَمْلِكُ دفعَ مَنْ قَصَدَ بها ضَرَراً. فكيفَ تَطْمَعونَ شفاعَتَها لكمْ في الآخِرَةِ، وهي لا تَمْلِكُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ. وهو كقولِهِ: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢و٧٣].

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي مالَ، ورَجَعَ عليهِمْ. وقولُهُ: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ وفاءً(٩) لِيَمينِهِ التي كانَتْ منهُ حينَ(١٠) قالَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ بالقوةِ. وقد يُعَبَّرُ /٤٥٤ ـ أ/ باليَمينِ عنِ القوةِ كما يُعَبَّرُ باليَدِ عنِ القوةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي باليدِ اليُمْنى نفسِها(١١) على ما يَعْمَلُ المرءُ [أكثرَ](١٢) أعمالِهِ باليمينِ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ ظاهرُ هذا أنهمْ أقبَلوا عليهِ وقتَ ما كَسَرَها، وفَعَلَ بها ما فَعَلَ. لكنْ في آيةٍ أُخرَى ما يدلُّ أنَّ إقبالَهُمْ عليهِ كانَ بعدَ ما خَرَجَ مِنْ عندِها، وغابَ. وكانَ بعدَ ذلكَ بزمانٍ.

ألا تَرَى أنهمْ ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾؟ [الأنبياء: ٥٩و٦٠] ولو كانوا أقبَلوا عليه يَزِفّونَ، وهو عندَها حاضرٌ [لم يحتاجوا إلى](١٣) أنْ يقولوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ بل يقولونَ: إنَّ إبراهيمَ فَعَلَ ذلكَ بها، ولا كانَ لقولِ إبراهيمَ ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَزِفُّونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يمشونَ إليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: يُسْرِعونَ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ.

---

(١) في الأصل و م: يعملون. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أنه إذا. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عليهم ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي ضربهم ضرباً باليمين. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: اتخذتموهم. (٦) في الأصل وم: إله. (٧) في الأصل وم: طعاماً. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) في الأصل و م: مألوفا. (١٠) في الأصل و م: حيث. (١١) في الأصل و م: نفسه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: يحتجوا على.

جنة السنة

وأصلُ الزَّفيفِ كأنهُ المشيُ بسرعةٍ على ما يُسْرِعُ في المشيِ المَرءُ إذا أصابَهُ شيءٌ أو فُعِلَ بِهِ أمرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يُسَفِّهُهُمْ بعبادتِهِمْ ما يَنْحِتونَ بأيديهِمْ، ويَتَّخِذونَها بأنفسِهِمْ على علمٍ منهمْ أنها لا تَمْلِكُ نَفْعاً ولا ضَرّاً. والذي نَحَتَها أولَى بالعبادةِ لهُ: أولَى بالعبادةِ[1] إنْ كانَتْ تجوزُ العبادةُ لِمَنْ دونَهُ مِنْ ذلكَ المَنْحوتِ؛ إذْ هو يَمْلِكُ شيئاً مِنَ النَّفْعِ والضَّرَرِ، والمَنْحوتُ لا. فإنْ لم تَعْبُدوا الناحتَ لها والمُتَّخِذَ، وهو أقربُ وأنفعُ، فكيفَ تَعْبُدونَ ذلكَ المنحوتَ الذي لا يَمْلِكُ شيئاً؟ وتَرَكْتُمْ عبادةَ الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ أعمالَكُمْ؟

ثم مِنْ أصحابِنا[2] مَنْ احتَجَّ على المعتزلةِ بهذهِ الآيةِ في خَلْقِ أفعالِ العبادِ؛ يقولونَ: أخبرَ ﷺ عنْ خَلْقِ أنفسِهِمْ وعنْ خَلْقِ أعمالِهِمْ حينَ[3] قالَ:

الآية ٩٦ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ لكنهمْ يقولونَ: ليسَ فيهِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِهِمْ[4]. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷺ ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ وهمْ لا يَعبدونَ النحتَ، إنما يَعْبُدونَ ذلكَ المَنْحوتَ. فَعَلَى ذلكَ لم يَخْلُقْ أفعالَهُمْ وأعمالَهُمْ. ولكنْ خَلَقَ المَعْمولَ نفسَهُ، واللهُ أعلَمُ.

لكنَّ الاحتِجاجَ عليهِمْ مِنْ وجهٍ آخَرَ في ذلكَ كأنهُ أقرَبُ وأولَى، وهو أنْ صَيَّرَ ذلكَ المَعْمولَ خَلْقاً [لنفسِهِ حينَ[5] أضافَهُ إلى نفسِهِ بقولِهِ][6]: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [أي مَعْمولَكُمْ][7] لأنهُمْ إنما يعبدونَ ذلكَ المَعْمولَ: خَلْقَ اللهِ.

دلَّ أنَّ عَمَلَهُمُ الذي عَمِلوا بِهِ مَخْلوقٌ. لِذلكَ قُلْنا: إنَّ فيهِ دلالةَ خَلْقِ أعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إنما صارَ التَّوّابُ والمُتَطَهِّرُ [مَحْبوبَ اللهِ][8] لِحُبِّهِ التوبةَ والتَّطَهُّرَ، وصارَ المُعْتَدي غيرَ محبوبٍ لِحُبِّهِ[9] الاعتِداءَ. فَعَلَى ذلكَ: المعمولُ صار مخلوقاً بِخَلْقِهِ عملَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [كأنهُ قالَ بعضُهُمْ لبعضٍ: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾][10] لِيُجْمَعَ فيهِ الحَطَبُ، فَتَعْظُمَ فيهِ النارُ، فَتَصِيرَ جَحيماً، ثم ألقُوا إبراهيمَ في الجَحيمِ. والجَحيمُ قد ذُكِرَ أنهُ مُعْظَمُ النارِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي الهالِكِينَ. يقولونَ: ما أنْظَرَهُمُ اللهُ بعدَ ذلكَ حتى أهْلَكَهُمْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذاهبٌ إلى ربي بقلبي وعملي ونِيَّتي، وذلكَ في الآخِرَةِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أو إلى ما أَذِنَ لي [وقد أمَرَهُ][11] بالهجرةِ إلى مكةَ، أو ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ﴾ ما فيهِ رِضَى ربي أو طاعةُ ربّي ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَيُنْجيني ممّا رأيتُ مِنْ قومي، وقالَ بعضُهُمْ: سيهديني الطريقَ. وذلكَ جائزٌ قولُ موسى ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] لمّا تَوَجَّهَ إلى مَدْيَنَ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ قولُ إبراهيمَ ﷺ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي ذاهبٌ إلى أمرِ ربّي أي مُتَوَجِّهٌ إلى ما أمَرَني ربي أنْ أتَوَجَّهَ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ذلكَ الطريقَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لدينِهِ. وذلكَ مَنْ[12] هاجَرَ مِنَ الخَلْقِ لِيُعَلِّمَ[13] دينَهُ. وقد ذُكِرَ في حرفِ حَفْصَةَ: أني مهاجرٌ إلى ربّي سَيَهْديني، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: من أن يعبد. (٢) من م، في الأصل: أصحاب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الأفعال. (٥) في نسخة الحرم المكي حيث. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لله تعالى بقولكم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل و م: محبوباً. (٩) في الأصل و م: لبغضه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل و م: أي وقد أمر. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أي.

جنة السنة

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كأنهُ قال: ربِّ هَبْ لي غلاماً، واجْعَلْهُ مِنَ الصالِحينَ. دليلُ ذلكَ ما ذُكِرَ لهُ مِنَ البِشارةِ لهُ بالغلامِ على إثْرِ ذلكَ أنَّ سؤالَهُ كانَ سُؤالَ الغلامِ.

ثم فيهِ دليلُ جوازِ سؤالِ الوَلَدِ الذَّكَرِ ربَّهُ. لكنهُ يَسْألُ[1] بشَرْطِ الصلاحِ والطِّيبِ كما سألَ الأنبياءُ:

سألَهُ إبراهيمُ ﷺ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقالَ زكريّا ﷺ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] وما ذكَرَهُ، وحكَى عنهمْ مدحاً لهمْ وثناءً عليهم حينَ[2] قالَ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] يجبُ على [كلِّ مَنْ يسألُ ربَّهُ الولَدَ أنْ يَسألَهُ بهذِهِ][3] الشرائطِ التي سألَها[4] الأنبياءُ ﷺ. فيكونُ سؤالُهُمُ الولَدَ على ذلكَ سؤالاً للهِ ﷺ وما يَصْلُحُ لِقيامِهِ لأمرِهِ وعبادَتِهِ.

فأمّا أنْ يسألَهُ إيّاهُ لَذّةً لنفسِهِ وسروراً لهُ في الدنيا فلا.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وجهَينِ:

أحدُهما: أي هَبْ لنا مِنْ أزواجِنا وذُرِّياتِنا ما تَقَرُّ بهِ أعيُنُنا.

[والثاني: أي][5] هَبْ لنا مِنْ أزواجِنا مِنَ الوَلَدِ والذُّرِّيَّةِ ما تقرُّ بهِ أعيُنُنا على ماسألَ زكريّا ﷺ حينَ[6] ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

ثم فيهِ دلالةُ أنَّ الولدَ هِبَةُ اللهِ لهمْ وعَطاءٌ لهمْ. ولذلكَ قالَ [زكريّا ﷺ][7]: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [وقالَ ﷺ:][8] ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] وقد ذكَرْنا[9] هذا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ [أعني المَعْنى الذي بهِ][10] صارَ الولدُ هِبَةً مِنَ اللهِ تعالى.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ يَصيرُ حَليماً إذا بَلَغَ مَبْلَغَ الامْتِحانِ بالأعمالِ والأمرِ والنَّهْيِ، أي بَشَّرْناهُ بغلامٍ حَليمٍ، يَحْلُمُ في ما امْتُحِنَ إذا بَلَغَ مَبْلَغاً يُمْتَحَنُ فيهِ.

قالَ قتادةُ: إنَّ اللهَ ﷺ لم يذكُرْ أحداً، ولا وَصَفَهُ بالحُلْمِ سِوى إبراهيمَ وَوَلَدَهُ الذي بَشَّرَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي بَلَغَ بحيثُ يَقْدِرُ أنْ يَسْعَى معهُ إلى حيثُ أُمِرَ أنْ يَسْعَى، ويَمْشِيَ معهُ، وهي الهجرةُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي بَلَغَ بحيثُ يَعْمَلُ، ويُمْتَحَنُ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقد عَرَفَ حُرْمَةَ ذَبْحِ بَني آدمَ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وقُرِئَ بالنصبِ والرفعِ جميعاً[12]، فيهِ دلالةُ أنَّ رُؤيا الأنبياءِ والرسلِ ﷺ على حقٍّ تَخرُجُ كالأمْرِ المُصَرَّحِ.

ألا تَرَى أنهُ لمّا قالَ لهُ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقد عرَفَ حُرْمَةَ ذَبحِ بَني آدمَ وقَتْلَهُم قالَ لهُ ولدُهُ ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولو لم يكنْ أمراً لم يَقُلْ: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولا قالَ لهُ إبراهيمُ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقد عَرَفَ حُرْمَةَ ذَبحِ بني آدمَ وقَتْلَهُمُ الذي لا يَسَعُ الإقدامُ عليهِ والعملُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ لأبيهِ: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دلالةٌ أنْ لا كلَّ مأمورٍ بأمرٍ مِنَ اللهِ، شاءَ اللهُ أنْ يَفعَلَ ما أمَرَهُ حينَ[13] أخبَرَ ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: يسأله. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما يسأله على هذه. (٤) في الأصل وم: سألته. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) من م، في الأصل: ذكر. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: يعني لما. (١١) في الأصل وم: عندنا. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٤٢. (١٣) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقد ذَكَرْنا أنَّ إبراهيمَ ﷺ كانَ مأموراً بالذَّبحِ. فإذا أُمِرَ هو بالذَّبحِ أُمِرَ هذا أنْ يَصْبِرَ على الذبحِ، ولا يَجْزَعَ. ثم أخبرَ أنهُ يَصْبِرُ إنْ شاءَ اللهُ. دلَّ أنْ لا كلَّ مأمورٍ للهِ بأمرٍ، شاءَ منهُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ [ولكنْ شاءَ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ][1] مِمَّنْ عَلِمَ أنهُ يختارُ ذلكَ الفِعْلَ / ٤٥٤ ـ ب/ ويَفْعَلُهُ، ومَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ لا يَفْعَلُ ذلكَ لا يجوزُ أنْ يَشاءَ[2] ذلكَ منهُ [وعلى ذلكَ][3] قولُ موسى ﷺ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وهذا على المعتزلةِ لِقولِهِمْ: إنَّ اللهَ تعالى إذا أمَرَ أحداً بأمرٍ شاءَ أنْ يَفْعَلَ ما أمَرَهُ بهِ، لكنهُ تركَهُ لِمَا لم يَشأْ هوَ، واللهُ أعلَمُ. وقد بيَّنَّا فسادَ قولِهِمْ في غيرِ موضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَسۡلَمَا﴾ اسْتَسْلَما لأمرِ اللهِ في ما أمَرَهما: هذا بالذَّبحِ، وهذا بالبَذْلِ والطاعةِ في ذلكَ، أو أَسْلَمَ هذا ابنَهُ، وهذا نفسَهُ للهِ ﷻ وأصلُهُ: أَسْلَما نفسَيهما لأمرِ اللهِ وإطاعتِهِ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي صَرَعَهُ، وكَبَّهُ على وجهِهِ. فيهِ أنهُ لم يُضْجِعْهُ كما يُضْجِعُ المرءُ ما يريدُ أنْ يذبَحَهُ مِنَ الشِّياهِ وغيرِها. ولكنهُ أضْجَعَهُ على وجهِهِ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما أرادَ أنْ يُنَفِّذَ أمرَ اللهِ، ويَقْدِرَ على[4] ما أمَرَ بهِ، فَلَعَلَّهُ لو أضجعَهُ على ما يُضْجِعُ غيرَهُ مِنَ الذَّبحِ نَظَرَ كلُّ واحدٍ منهما إلى وجهِ الآخرِ، فَيَتَرَحَّمُ هذا بتَرْكِ ذَبْحِهِ، وهذا يَنْظُرُ في وجهِهِ، فَيَجْزَعُ، ويَتْرُكُ طاعتَهُ.

أو على ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ وَلَدَهُ قالَ لإبراهيمَ ﷺ كذا، فَفَعَلَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٠٤و١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ يجوزُ أنْ يُحْتَجَّ بهذهِ الآيةِ على المُعتزلةِ لِقولِهِمْ: إنَّ اللهَ ﷻ إذا أمرَ أحداً يجوزُ ذلكَ الفعلُ منهُ، وأرادَ أنْ يَفْعَلَ ما أمَرَ بهِ.

ونحنُ نقولُ: يَجوزُ أنْ يُريدَ غيرَ الذي أمرَ بهِ، يريدُ أنْ يكونَ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ، ويَخْتارُهُ، حينَ[5] قالَ ﷻ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ ولم يكُنْ منهُ بحقيقةِ ذَبْحِ الولدِ، وقد أمَرَهُ بِذَبْحِهِ.

فلو كانَ في الأمرِ إرادةُ كونِ ما أمَرَهُ بهِ لكانَ لا يُصَدِّقُهُ في الوفاءِ بالرُّؤيا. ولم يكُنْ ذلكَ منهُ حقيقةً.

لكنهمْ يقولونَ: إنَّ الأمرَ بالذَّبحِ لم يكُنْ إلّا ما كانَ منهُ مِنْ ذَبْحِ الكبشِ مِنْ ذلكَ أرادَ، فكانَ ما أرادَ، ومذهَبُهُمُ الاحْتِيالُ لِدَفْعِ ما ذَكَرْنا.

لكنْ نقولُ: إنَّ الأمرَ بالذَّبحِ إنما كانَ بِذَبْحِ الولدِ حقيقةً لا بِذَبْحِ الكبشِ. دليلُهُ [في وجهَينِ:

أحدُهُما:][6] قولُ إبراهيمَ حينَ[7] قالَ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ وقالَ[8] ولَدُهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ لو لم يَجْعَلِ الأمرَ مِنَ اللهِ لهُ بالذَّبحِ أمراً بالذَّبحِ على ذَبْحِ الولدِ حقيقةً لَكُنّا نُجَهِّلُهُما في قولِهِما أوامرَ[9] اللهِ وفي تَسْمِيَتِهِما ما يُسَمِّيانِ، فلا نُجَهِّلُهما في ذلكَ. فَدَلَّ أنَّ الأمرَ كانَ على حقيقةِ ذَبْحِ الولدِ لا على ذَبْحِ الكبشِ على ما يقولونَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ إبراهيمَ وَوَلَدَهُ ﷺ قد مُدِحا، وأُثْنِيَ عليهما بالصنيعِ الذي صَنَعا: هذا بإضجاعِهِ إيّاهُ وهذا بالبذلِ لهُ نفسَهُ لهُ [والطاعةِ لهُ][10] في ذلكَ.

فلو كانَ الأمرُ منهُ لهما لا غيرَ الإضجاعِ والبذلِ لذلكَ لهُ [لم][11] يكُنْ لهما في ذلكَ الصنيعِ فَضْلُ مدحٍ، ولا فَضْلُ ثناءٍ ومَنْقَبَةٍ؛ إذْ لِأحدِهما[12] إضجاعُ الولدِ لذلكَ وللآخَرِ البذلُ لهُ. فإذا مُدِحا، وأُثْنِيَ عليهما في صَنيعِهِما الذي صَنَعا، وصارَ لهما مَنْقَبَةٌ عظيمةٌ إلى يومِ القيامةِ حتى سُمِّيَ هذا ذَبيحَ اللهِ وهذا وَفِيَّ اللهِ حينَ[13] قالَ اللهُ ﷻ ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٧].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: يشاء. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: الفعل وكذلك.
(٤) أدرج بعدها في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل و م: حيث. (٦) في الأصل و م: وجوه أحدها. (٧) في الأصل و م: حيث. (٨) في الأصل و م: وقول. (٩) في الأصل وم: وأمر. (١٠) و(١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لكل أحد. (١٣) في الأصل وم: حيث.

فلو كانَ الأمرُ بالذَّبحِ ذَبحَ الكبشِ فَداهُ عنهُ؛ إذْ لا يُسَمَّى الفداءُ إلّا بعدَ إبدالِ غَيرٍ عنهُ وإقامةِ غَيرٍ مُقامَهُ. دلَّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

لكنّهُ إذا أضجَعَهُ ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ على [ما ذَكَرْنا][1] صارا مَمْنوعَينِ عنْ ذلكَ الفعلِ غَيرَ تارِكَينِ أمرَ اللهِ ﷻ على [ما][2] ذُكِرَ في القصةِ أنَّ الشَّفْرَةَ قد انقَلَبَتْ عنْ وَجْهِها، فلم تَقْطَعْ. فَمَنْ أُمِرَ بأمرٍ، ثم مُنِعَ عمّا أُمِرَ بهِ، وحِيلَ بينَه وبينَ ما أُمِرَ بهِ، لم يَصِرْ تاركاً للأمرِ، ولا كانَ موصوفاً بالتركِ لهُ. لذلكَ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يجوزُ أنْ يُستَدَلَّ بهذهِ الآيةِ [في مسائلَ][3] لأصحابِنا:

إحداها: في المرأةِ إذا أسلَمَتْ [نفسَها لزوجِها، ولم يكُنْ هنالكَ][4] ما يَمْنَعُ الزوجَ عنِ الاستِمْتاعِ بها والجماعِ، صارتْ مُوفيةً مُسَلِّمَةً ما على نفسِها إلى زوجِها، فاستَوجَبَتْ بذلكَ كَمالَ الصَّداقِ، ولَزِمَتْها العِدَّةُ؛ إذ لا تَملِكُ سِوَى ما فَعَلَتْ، وإنْ لم يُجامِعْها زوجُها.

[والثانيةُ][5] في مَنْ عندَهُ أمانةٌ، إذا سَلَّمَها إلى صاحبِها، وصَيَّرَها بحالٍ يَقْدِرُ على أخذِها وقَبْضِها، يصيرُ مُسَلِّماً خارجاً منها يوماً، وإنْ لم يَقْبِضْها الآخرُ، ولم تَقَعْ في يدِهِ.

[والثالثةُ][6]: في البائعِ إذا سَلَّمَ المَبيعَ إلى المُشتري، وخَلَّى بَيْنَهُ وبَينَ ذلكَ، يصيرُ مسلِّماً إليهِ خارجاً مِنْ ضمانِ ذلكَ وعُهْدَتِهِ، وإنْ لم يَقْبِضْهُ المُشْتري.

ونَحْوُها[7] مِنَ المسائلِ ممّا يَكْثُرُ إحصاؤُها إذْ ليسَ في وُسْعِهِمْ إلّا ذلكَ المِقدارُ مِنَ الفِعْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ لو كانَ هذا القولُ بعدَ ذَبْحِ الكبشِ، ففيهِ حُجّةٌ لقولِ أصحابِنا حينَ[8] قالَ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ مَنْ أوجبَ على نفسِهِ ذَبْحَ ولدِهِ يَخرُجُ منهُ بذَبْحِ الكَبْشِ لِما أَخبَرَ أنهُ قد صَدَّقَ الرُّؤْيا بِذَبْحِ الكَبْشِ. فَعَلَى ذلكَ يصيرُ هذا مُوجباً على نفسِهِ ذَبْحَ كبشٍ، لا غيرُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ قولُهُ: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ قَبْلَ ذبحِ الكَبْشِ بإضجاعِهِ إيّاهُ وإسلامِهِ لذلكَ ففيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ بَذَلَ تَسْليمَها نفسَهُ منزلةَ إتيانِ غيرِ ذلكَ، لا أنهُ تَرَكَ ذلكَ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ إنَّ الأمرَ بذَبحِ الوَلَدِ الذي أُمِرَ بهِ إبراهيمُ مِحْنَةٌ عظيمةٌ.

ويقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي النعمةُ العظيمةُ أي في الفداءِ الذي فَدَى لإبراهيمَ ﷺ نعمةٌ عظيمةٌ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ وهو الكَبْشُ. قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: سَمّاهُ عظيماً لأنهُ كانَ يَرْعَى في الجنةِ أربعينَ خريفاً. ويقولُ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ الكَبْشُ في نفسِهِ عظيماً.

الآيتان ١٠٨و١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي تَرَكْنا عليهِ في الآخِرينَ الثناءَ الحَسَنَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ ذلكَ السلامَ الذي ذَكَرَ على إثْرِهِ حيثُ قالَ ﷻ: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تَرَكَ ذلكَ فينا لِنُسَلِّمَ عليهِ وعلى جميعِ المُرْسَلينَ كقولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠و١٨١] [وكقولِهِ ﷺ][9]: «قد أُمِرْنا أنْ نُثْنِيَ، ونُسَلِّمَ على جميعِ الأنبياءِ والمرسلينَ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٢/١١٦] وكقولِهِ: «اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ» [البخاري ٣٣٧٠] ويكونُ الأنبياءُ ﷺ [يُسَلِّمُ][10] بعضُهُمْ على بعضٍ كما كانَ بعضُهُمْ مِنْ شِيعةِ بعضٍ، أو أنْ يكونَ ذلكَ السلامُ مِنَ اللهِ لهمْ أمْناً مِنْ كلِّ خوفٍ وسلامةً مِنْ كلِّ خُبْثٍ.

---

(١) في الأصل وم: ذكر. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لمسائل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) و(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل و م: ونحوه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل و م: كقوله. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كذلكَ نَجزي كلَّ مُحسِنٍ أي نَترُكُ لهُ السلامَ والثناءَ الحَسَنَ في الآخِرِينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجوهاً:

أحَدُها: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَبلَ أنْ نُوحِيَ إليهِ وَقَبلَ أنْ نَبعَثَهُ[1] رسولاً.

[والثاني][2]: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ في قَولٍ وفِعلٍ وفاءً ما عليهِ.

[والثالثُ][3]: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ بمحمدٍ ﷺ والأنبياءُ جميعاً بعضُهُمْ يُصَدِّقُ بعضاً، ويؤمِنُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كانَ سألَ ربَّهُ الولدَ بقولِهِ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

فاستَجابَ اللهُ دعاءَهُ، وبَشَّرَهُ بما ذُكِرَ، ثم أخبَرَهُ أنهُ نَبِيٌّ مِنَ الصالِحينَ.

يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ / ٤٥٥ ـ أ/ أي نبيّاً مِنَ السَّلَفِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] أي نَبِيّاً نُصَيِّرُهُ، ونَجعَلُهُ مِنَ الأنبياءِ كقولِهِ ﷺ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٦].

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ البِشارةُ في وِلادةِ[4] الولَدِ الذي سألَ ربَّهُ، ويَحتَمِلُ أنْ بَشَّرَهُ[5] بنُبُوَّتِهِ، أو بَشَّرَهُ[6] بهما بالوِلادةِ وبالنُّبُوَّةِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ البركةُ هي اسْمٌ لكلِّ خَيرٍ لا يَزالُ على الزِّيادةِ والنَّماءِ. وقيلَ: إنَّ البركةَ شيءٌ مِن عَطاءٍ[7]، كانَ، لا تَبِعَةَ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ أي مؤمِنٌ مُصَدِّقٌ ﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي كافرٌ، وهو ما قالَ ﷺ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقالَ إبراهيمُ ﷺ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أخبَرَ أنَّ في ذُرِّيَّتِهِ مَنْ لا يَنالُ عَهدَهُ كما ذَكَرَ ههنا أنَّ في ذُرِّيَّتِهِ مُحسِناً[8]، وهو مؤمنٌ ﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ أي كافرٌ ظاهرٌ مُبينٌ.

[ويَحتَمِلُ][9] أنْ يكونَ قولُهُ ﷺ ﴿مُحْسِنٌ﴾ إلى نفسِهِ، أو ﴿مُحْسِنٌ﴾ إلى الناسِ، وهو إسحاقُ «وما رُوِيَ أنَّ رجلاً سألَهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ: أيُّ الناسِ أكرَمُهُمْ حَسَناً؟ قالَ: يوسفُ صِدِّيقُ اللهِ بْنُ يعقوبَ إسرائيلِ اللهِ بْنِ إسحاقَ ذَبيحِ اللهِ بْنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ» [بنحوه البخاري٣٣٥٣] فهو ذاكَ. وإلّا فلا حاجةَ لنا إلى مَعرِفَةِ ذلكَ أنهُ فُلانُ بْنُ فُلانٍ، إذْ لو كانَ إلى بَيانِ ذلكَ حاجةٌ لَبَيَّنَ، وأزالَ الإشكالَ واختِلافَ الناسِ في ذلكَ. والتكلمُ فيهِ فَضلٌ، إذ لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ بالناسِ حاجةٌ إلى معرِفَةِ ذلكَ وبيانِهِ، ثم لا يُبَيِّنُ لهمْ، ولا يُعَرِّفُ ذلكَ. فَدَلَّ تَرْكُ التنازُعِ لذلكَ: على أنْ لا حاجةَ لَهمْ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: الذِّبحُ الكَبْشُ واسْمُ ما يُذبَحُ، والذَّبحُ بِنَصْبِ الذالِ مصدرُ ذَبَحتُ. هذا قولُ القُتَبِيِّ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الذَّبحُ بالنصبِ هو الفعلُ، وهما واحدٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الإحسانُ المُبينُ العظيمُ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ المِنَّةِ عليهِما الرسالةَ والنُّبُوَّةَ التي أعطاهُما والآياتِ والحُجَجَ التي أعطاهُما، وخَصَّهُما بهِما الذي أبقَى لهُما الذِّكرَ والثناءَ الحَسَنَ عليهِما في الآخِرِينَ لِقولِهِ ﷺ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١١٩و١٢٠].

---

(١) في الأصل و م: نبعث. (٢) في الأصل و م: ويحتمل. (٣) في الأصل و م: أو. (٤) في الأصل و م: الولادة. (٥) و(٦) في الأصل و م: بشر لهما. (٧) في الأصل و م: أعطى. (٨) في الأصل و م: محسن. (٩) في الأصل و م: و.

جنة السنة

وإنما أوجبَ عليهمْ ذِكْرَ المِنَنِ والنِّعَمِ التي خصَّهُمْ بها، وفضَّلَهُمْ من بَينِ غَيرِهِمْ. وأمّا أنْ يُوجِبُ عليهمْ ذكرَ كلِّ ما مَنَّ عليهِمْ، وأنْعَمَ عليهِمْ، فذلكَ ليسَ في وُسْعِ أحدِ القِيامُ بذكرِ جميعِ ما مَنَّ عليهِ، وأنْعَمَ، والشكرَ لها.

وإنما يَجِبُ القيامُ بِذِكْرِ ما خُصُّوا بها ظاهراً، وإنْ كانَ بالجملةِ أخذَ عليهمْ أنْ يَروا[1] جَعْلَ النِّعَمِ والمِنَنِ مِنَ اللهِ، جَلَّ، وعَزَّ، فضلاً منهُ وإنعاماً، لاحقاً عليهِ بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ما خُصّوا بها مِنَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ والآياتِ والحُجَجِ التي جَعَلَتْ[2] لهمُ الخصوصَ. فأمّا في كلِّ ما مَنَّ عليهمْ مِنْ[3] نِعَمٍ فلا على ماذَكَرنا أنْ ليسَ في وُسْعِ أحدِ القِيامُ بشكْرِ كلِّ[4] نِعَمِهِ في عُمُرِهِ، وإنْ طالَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي مِنَ الغَرَقِ. ولكنْ جائزٌ أن يكونَ ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي نَجاهُمْ منهُ ما ذُكِرَ مِنْ قَتْلِ الرجالِ واسْتِحياءِ النساءِ حينَ[5] قالَ: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٤١] وما استَعْبَدوهمْ، واستَخْدَموهمْ؛ نَجاهُمُ اللهُ مِنْ ذلكَ الذُّلِّ وأنواعِ البلايا والشدائدِ التي كانت عليهمْ كقولِهِ ﷻ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] فأنجاهُمُ اللهُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ، وهو الكَرْبُ العظيمُ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ بالحُجَجِ والآياتِ التي أعطاهُمْ، أو ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ حينَ[6] أنجاهُمْ، وأهْلَكَ فِرْعونَ والقِبْطَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ التوراةَ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهُما: اسْتَبانَ لكلِّ مَنْ عَقَلَ[7]، ونَظَرَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ، لأنَّ التوراةَ نزلَتْ ظاهراً في الألواحِ ليستْ[8] كالقرآنِ لا يُعْرَفُ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ بَعْدَ التأمُّلِ والنَّظَرِ لأنهُ نَزَلَ في الأوقاتِ الخاليةِ التي [لا][9] يَطّلِعُ عليها[10] أحدٌ سِرّاً[11] عَنْ ظَهرِ القلبِ.

والثاني: اسْتَبانَ لكلِّ مَنْ نَظَرَ فيها ما [لَهُ وما عليهِ][12] و ما يُؤْتَى، وما يُتَّقَى.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي مَنْ سَلَكَهُ أمضاهُ إلى مَقصودِهِ، وبَلَّغَهُ إلى الصراطِ المستقيمِ لِما بالحُجَجِ والبراهينِ قامَ، لا بِهوى الأنفسِ.

الآيتان ١١٩و١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ أبْقى لهمُ الثناءَ الحَسَنَ في الآخِرينَ، وهو السلامُ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢١ وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنا كذلكَ نُبْقي، ونَتْرُكُ لكلِّ مُحْسِنٍ الثناءَ الحَسَنَ في الآخِرينَ كما تَرَكْنا لهؤلاءِ، وهو المَعْروفُ في الناسِ أنَّ كلَّ مُحْسِنٍ صالحٌ، وإنْ ماتَ فإنهُ يُذْكَرُ بالخيرِ بَعْدَهُ، ويُثْنى[13] عليهِ بالثناءِ الحَسَنِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ الوجوهَ التي ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [قبلَ الرسالةِ، و][14] ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمحمدٍ ﷺ و﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ قَولاً وفِعْلاً والقِيامَ بوفاءِ ما وَجَبَ بِعَقْدِ الإيمانِ وعُهْدَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذا يَنْقُضُ على الباطنيّةِ مَذْهَبَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الرسلَ ﷺ سِتَّةٌ: آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، وما سِوَاهُمْ أئمَّةٌ. وفي الآيةِ إخبارٌ أنَّ إلياسَ كانَ مِنَ المرسلينَ. هذا كلُّهُ يَنْقُضُ قولَهُمْ، ويَرُدُّ مَذْهَبَهُمْ.

---

(١) في الأصل: سددوا، في م: يردوا. (٢) في الأصل و م: وقعت. (٣) في الأصل وم: كل. (٤) في الأصل وم: أحسنَ. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: العقل. (٨) في الأصل وم: ليس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عليه. (١١) في الأصل: سترا، في م: سيرا. (١٢) في الأصل وم: لهم وما عليهم. (١٣) في الأصل وم: ويثنون. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٢٤ وقولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادةَ [غيرِ اللهِ][1] أو يقولُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تخشَونَ اللهَ، ولا تخافونَهُ في ترككُم عبادتَهُ واشتغالِكُم بعبادةِ غيرِه. أو ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ نقمةَ اللهِ في مُخالَفَتِكُم أمرَهُ ونهيَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٥ وقولُه تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ البَعْلُ ههنا الرَّبُّ بلسانِ قومٍ.

وذَكَرَ ابْنُ عباسٍ ﷺ أنهُ سُئِلَ عن قولِهِ ﷻ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قالَ: فقالَ رجلٌ: مَنْ يَعرِفُ الآثارَ؟ فقالَ أعرابيٌّ: بَعْلُها، أي ربُّها، فقالَ ابْنُ عباسٍ: كفاني الأعرابيُّ جوابَها.

لكنْ لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي ربّاً إلّا أنْ يكونَ ذَكَرَهُ[2] أنهُ بلسانِ قومٍ، فيقولُ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ ربّاً تعلَمونَ أنهُ لا يَضُرُّ، ولا يَنفعُ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ عبادةَ مَنْ تعلَمونَ أنهُ يَملِكُ ذلكَ؟

وقالَ بعضُهُمْ: البَعْلُ السَّيِّدُ ههنا، وكذلكَ يقولُ في قولِهِ: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] سيِّدي.

وقالَ بعضُهُمْ: البَعْلُ هو اسمُ الصَّنمِ ههنا، يقولُ: أتَعبُدونَ صَنَماً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾؟

وأصلُ البَعْلِ الزَّوجُ: كأنهُ يقولُ لهمْ: أتَدْعُونَ مَنْ لهُ أزواجٌ وأشكالٌ، وتَذَرونَ مَنْ لا أزواجَ ولا أشكالَ؟ واللهُ المُوفِّقُ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ أوّلُ هذهِ [الآيةِ][3] يَمانيٌّ، وآخِرُها مِضريٌّ، وهو قولُهُ: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يُسَمّونَ كلَّ صانعٍ خالقاً. والخَلْقُ هو التَّقديرُ في اللغةِ، يُضافُ إلى الخَلْقِ على المَجازِ، وإنْ كانَتْ حقيقةُ التقديرِ للهِ ﷻ ذَكَرَ على ما عَبَدَهُمْ / ٤٥٥ ـ ب/ لا على حقيقةِ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ، ﷻ ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي أحكمَ وأتقَنَ على ما ذَكَرَ: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] أي جَعَلَ في كلِّ شيءٍ شهادةَ وَحدانيَّتِهِ[4] وربوبيَّتِهِ، أو ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لِما ذَكَرَ أنهُ خَلَقَهُمْ، وخَلَقَ آباءَهُمُ الأوَّلينَ.

الآية ١٢٦ [وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنهمْ قالوا][5]: مَنْ أحسَنُ الخالقينَ؟ [فقالَ عندَ][6] ذلكَ ما ذَكَرَ، ونَعتَهُ ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

الآية ١٢٧ ثم أخبَرَ عنهمْ أنهمْ كذَّبوهُ معَ ما ذَكَرَ لهمْ، وهو ما قالَ ﷻ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾. ولم يَذكُرْ في ماذا؟ لكنْ فيهِ بيانُ أنهمْ إنما يُحضَرونَ النارَ والعذابَ، لأنَّ أهلَ اللَّذاتِ هُمُ المُحضَرونَ أنفسُهُمُ العذابَ، يُحضَرونَ كَرْهاً لا بأنفسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وقولِهِ: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٢] ونَحوَهُ.

الآية ١٢٨ ثم استَثنى العِبادَ المُخلَصينَ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ منهمْ أنهمْ لا يُحضَرونَ النارَ.

الآيتان ١٢٩و١٣٠ وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ أبقى لهمُ الثناءَ الحَسَنَ.

[قرأَ بعضُ القراءِ: سلامٌ على آلِ ياسينَ بهمزةٍ مفتوحةٍ ممدودةٍ مكسورةِ اللامِ. وقرأَ الباقونَ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ بكسرِ الهمزةِ وسكونِ اللامِ[7]. فلهُ وجهانِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ جمعَ إلياسَ، ومعناهُ سلامٌ على إلياسَ وأمتِهِ المؤمنينَ كقولِهِ: رأيتُ المُحمَّدينَ، يريدُ محمداً وأمتَهُ.

والثاني: أنْ يكونَ إلياسُ بلُغتَينِ: إلياسُ وإلياسينُ كما يُقالُ: ميكالُ وميكائيلُ. فيكونُ على هذا الوجهِ السلامُ على إلياسينَ، فيكونُ مُوافقاً لِما جاءَ في القرآنِ الكريمِ مِنَ السلامِ على الأنبياءِ والرسلِ وآلِهِمْ.

وعلى القراءةِ الثانيةِ يكونُ السلامُ على آلِ ياسينَ وقومِهِ، فكأنَّ هذهِ القراءةَ أحقُّ، ومَنْ قرأَ على آلِ ياسينَ جَعَلَ الأولَ

---

(١) من م، في الأصل: غيرهم. (٢) في الأصل و م: ذكر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وحدانية الله. (٥) في الأصل وم: وأنه ربهم رب الخلائق فقالوا. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر غريب القرآن على حروف المعجم/ ١٣١و١٣٢ ومعجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٤٦.

اسماً وياسينَ مضافاً إليهِ، وآلُ الرجلِ أتباعُهُ وقومُهُ. فيكونُ المرادُ منهُ آلَ إلياسَ، فيكونُ السلامُ على آلِ إلياسَ، وإنْ لم يَذْكُرْ في ما سَبَقَ مِنَ الأنبياءِ ﷺ السلامَ على آلِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ بالآلِ سائرَ الأنبياءِ، لأنَّ الأنبياءَ بعضُهُمْ مِنْ آلِ بعضٍ، فإنَّ الآلَ، هو الشيعةُ وأهْلُ النصرِ، فيكونُ على هذا التأويلِ السلامُ على جميعِ الأنبياءِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ أنَّهُ قرأَ: سلامٌ على آلِ ياسينَ وقالَ: أرادَ بالآلِ: آلَ محمدٍ ﷺ وياسينَ محمداً ﷺ وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿يسٓ﴾ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فذكر سائرَ الأنبياءِ في ما تقدَّمَ بالسلامِ، وذكَرَ هَهنا محمداً وآلَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ: سلامٌ على إدريسَ وفي بعضِ الحروفِ: إدراسينَ. وقد رُوِيَ أنَّ إلياسَ هو إدريسُ النَّبِيُّ ﷺ ولهُ اسْمانِ. وإدراسينُ كأنها لغةٌ في إدريسَ.

وعنِ ابْنِ مسعودٍ أنهُ قرأَ: وإنَّ إدريسَ لَمِنَ المُرْسَلينَ مكانَ قولِهِ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الآيات ١٣١ ـ ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يُذَكِّرُ أهلَ مكةَ، ويَعِظُهُمْ بما نَزَلَ بالمُكَذِّبينَ مِنَ الأممِ الماضيةِ مِنَ العذابِ والهلاكِ. إنَّ مَنْ أَهْلِكَ [منهمْ][(١)] إنما أُهْلِكَ بتكذيبِ الرسلِ وعِنادِهِمْ، ومَنْ نَجا منهمْ إنما نَجا بتَصْديقِهِمْ والإجابةِ لهمْ. وإياكُمْ وتكذيبَ محمدٍ ﷺ فَيَنْزِلُ بكمْ كما نَزَلَ بأولئكَ.

وقولُهُ[(٢)] ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ أي على مَنْ هَلَكَ مِنْ مُكَذِّبي الرسلِ بالليلِ والنهارِ، فتعلمونَ إنهمْ لَمِنَ المُرْسَلِينَ. هذا يَنْقُضُ على الباطنيَّةِ [أيضاً][(٣)] قولَهُمُ الذي[(٤)] قالوا: إنَّ الرسلَ ليسوا إلّا سِتَّةً. لا يَعُدُّونَ يونُسَ ولُوطاً ﷺ منهمْ، فَيُخالفونَ ظاهرَ الآيةِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهمْ يقولونَ: ليسَ مِنَ المُرسَلينَ، وباللهِ العصمةُ.

الآيتان ١٣٩و١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ذَكَرَ هَهنا الأباقَ وفي سورةِ الأنبياءِ الذهابَ، وهو قولُهُ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] فَمِنَ الناسِ مَنْ يَجْعَلُ هذا غيرَ الأوَّلِ، يعني [الأباقَ غيرَ الذهابِ][(٥)].

لكنْ جائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرَ الأباقِ، وذِكْرَ الذهابِ، وإن كانَ في رأيِ العينِ في ظاهرِ اللفظِ مُختلِفاً. فهما في المَعْنى واحدٌ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ مِنْ قومِهِ بدينِهِ لِيَسْلَمَ لهُ، أو أَبَقَ لِخَوفٍ على نفسِهِ مِنْ قومِهِ، أو أبَقَ على ما أوعَدَ قومَهُ مِنْ نزولِ العذابِ بهمْ إذا لم يُؤمِنوا بهِ. وكانَ الرسلُ، صلواتُ اللهِ عليهمْ، يَخْرُجونَ مِنْ بينِ أظْهُرِ قومِهِمْ إذا خافوا نزولَ العذابِ بهمْ إلّا يونُسَ خَرَجَ مِنْ بينِهِمْ قَبْلَ أنْ يَأتِيَهُ الإذْنُ مِنَ اللهِ ﷻ بالخروجِ مِنْ بَيْنِهِمْ.

لذلكَ صارَ وقتٌ، جاءَ العتابُ لهُ والتَّعْييرُ، لِما يقولُهُ عامةُ أهلِ التأويلِ مِنَ الخُرافاتِ التي يَذْكُرونَ، ويَنْسُبونَ إليهِ ما لا يجوزُ نِسْبَةُ ذلكَ إلى أجْهَلِ الناسِ بربِّهِ وأخَسِّهِمْ فضلاً [مِنْ][(٦)] أنْ تَجوزَ نِسْبَةُ ذلكَ إلى نَبِيٍّ مِنْ أنبيائِهِ ورسولٍ مِنْ رسلِهِ.

الآية ١٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ ذُكِرَ في القصةِ أنهُ ﷺ لمّا أبَقَ إلى سفينةٍ، فَرَكِبَها، أرادَ أنْ يَعْبُرَ البحرَ، فَجَعَلَتْ تَكَفَّأُ، وتَقِفُ، وكادَتْ[(٧)] تَغْرَقُ، فقالَ القومُ بعضُهُمْ لبعضٍ: إنَّ فيكمْ رجلاً مُذنباً [ذنباً][(٨)] عظيماً، وكانوا يَعْرِفونَ مِنْ عادتِها مِنْ قَبْلُ [أنها][(٩)] كانتْ إذا رَكِبَها مُذنبٌ [تَفْعَلُ ذلكَ، وتَغْرَقُ][(١٠)] وتَسْرُبُ في الماءِ. فلم يَعْرِفوا مَنْ هو ذلكَ [المذنبُ][(١١)] فاسْتَهاموا مِراراً، فَساهَمَ يونُسُ في كلِّ مرةٍ. فلمّا رأى ذلكَ يُونُسُ ﷺ قالَ لهمْ: ياقومُ ألْقوني في البحرِ حتى لا تَغْرَقوا جميعاً، فأبَوا، وقالوا: لا نُلْقي [نَبِيّاً][(١٢)] مِنْ أنبياءِ اللهِ في البحرِ، فألقَى هو نفسَهُ فيهِ، ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل و م: وقال. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: اخلى، في م: حتى. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أباقة الذي ذكروا ذهابه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يغرق. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ثم قولُهُ: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ قالَ [بعضُهُم:][1] فكانَ مِنَ المَغلوبينَ في القُرعَةِ والاسْتِهامِ، أي خَرَجَتِ القُرعَةُ عليهِ، والمُدْحَضُ[2] هو الذي لا حُجَّةَ لهُ في ما يريدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قالَ بعضُهُم: هو مليمٌ، أي مذنبٌ. وقالَ بعضُهُم: مِنَ المَلامَةِ، أي كانَ يلومُ نفسَهُ في ما صَنَعَ مِنَ الخُروجِ مِنْ بينِهِمْ بلا إذْنٍ مِنَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٤٣و١٤٤ وقولُهُ ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ لربِّهِ قبلَ ذلكَ ومِنَ المُصَلِّينَ له ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ [يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾][3] ولِذلكَ قيلَ: مَنْ[عَمِلَ للهِ][4] تعالى في حالِ الرَّخاءِ نَفَعَهُ اللهُ بذلكَ في حالِ البَلاءِ، ويَرفَعُهُ إذا عَثَرَ، واللهُ أعلَمُ.

قيلَ في الحكمةِ: إنَّ العملَ الصالحَ يَرْفَعُ صاحبَهُ إذا عَثَرَ، وإذا وَجَدَ مُتَّكَأً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ في بطنِ الحوتِ، وهو قولُهُ: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبياء: ٨٧و٨٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ العَراءُ: قيلَ: هي الأرضُ الصحراءُ التي لا شَجَرَ فيها، ولا نَبتَ، ولا كُرَّ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: العَراءُ الأرضُ التي لا ظِلَّ فيها، والمُدْحَضُ المَغلوبُ، ومُليمٌ أي أتى أمراً يُلامُ عليه.

وقالَ القُتَبِيُّ: العَراءُ هي الأرضُ التي لا يُرى[5] فيها شَجَرٌ ولا غيرُهُ، كأنهُ مِنْ عَرِيَ الشيءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ذُكِرَ أنَّ الحوتَ لمَّا نَبَذَهُ بالعراءِ لم يكُنْ بهِ شَعْرٌ ولا جِلْدٌ ولا ظُفرٌ، ولا شيءٌ، [ويَحتَمِلُ][6] سقيمٌ مِنَ السَّقَمِ، وهو المَرَضُ، أي مريضٌ لِما مَسَّهُ ببطنِ الحوتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قالَ بعضُهُم: هي شجرةُ القَرْعِ، أنبتَ عليهِ ليأكلَ منهُ، ويَستَظِلَّ بها. وقالَ بعضُهُم: كلُّ شجرةٍ تَنبَسِطُ على وجهِ الأرضِ ممّا تَتَّسِعُ [أطرافُها إذا مُدَّتْ، وأصلُها][7] واحدٌ، فهو يَقطينٌ مِنَ البِطِّيخِ والعُرْجونِ وغيرِهِما. والأشبهُ أنْ تكونَ شَجَرَةَ القَرْعِ لأنها أسْرَعُ الأشجارِ نَبْتاً وامْتِداداً وارْتِفاعاً في السماءِ في مدةٍ لطيفةٍ ووقتٍ قريبٍ، والوُصولُ إلى الانْتِفاعِ بها أكْلاً واسْتِظلالاً بها ما لا يكونُ مِثْلُ ذلكَ في مِثْلِ تلكَ المدةِ مِنَ الأشجارِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ أنهُ قيلَ: «يارسولَ اللهِ إنكَ لَتُحِبُّ القَرْعَ، قالَ: أجلْ، هي شجرةُ أخي يُونُسَ، وهي تزيدُ في العَقْلِ» [بنحوه البخاري٢٠٩٢].

فهذا يدلُّ إنْ ثَبَتَ أنها كانَتْ شَجَرَةَ القَرْعِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم فيهِ لُطفٌ مِنَ اللهِ ﷻ حينَ[8] أنبتَ عليهِ شجرةً في وقتٍ لطيفٍ، لا يَنْبُتُ مِثْلُها إلّا بعدَ مُدَّةٍ طويلةٍ[9] ووقتٍ مَديدٍ، وأبقى عليهِ الضَّعفَ وقتاً طويلاً ممّا يُرْفَعُ ذلكَ، ويزولُ في وقتٍ يَسيرٍ في العُرْفِ لِيُذَكِّرَهُ ما أنْعَمَ عليهِ، ويقومُ بِشُكْرِهِ، وهو كما ذَكَرَ في قصةِ صاحبِ موسى الحمارَ حينَ[10] قالَ ﷻ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أبْقى طعامَهُ وشرابَهُ، وحَفِظَهُ وقتاً طويلاً [فلم يُغَيِّرْ ما][11] طَبْعُهُ التَّغَيُّرُ في وقتٍ يسيرٍ، وغَيَّرَ ما طَبْعُهُ البقاءُ، لُطفاً منهُ.

فَعَلى ذلكَ أنْبَتَ على يُونُسَ شَجَرَةً في وقتٍ لطيفٍ ممّا لا يَنْبُتُ مِثْلُها إلّا في وقتٍ طويلٍ، وأبْقى ذلكَ الضعفَ الذي كانَ بهِ والسَّقَمِ ممّا سَبيلُهُ الزَّوالُ والارْتِفاعُ في وقتٍ يَسيرٍ لُطفاً منهُ لِتَذكيرِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل و م: المدحضين. (٣) في الأصل و م: ما ذكر. (٤) في الأصل وم: عامل الله. (٥) في الأصل وم: يوارى. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: أطرافه إذا مد أصله. (٨)في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل و م: لطيفة. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل و م: غير متغيرهما.

جنة السنة

الآية ١٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ هذا يَحْتمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: ما ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاسْتِفهامِ إذا أُضيفَ إلى اللهِ فهو على التَّقْريرِ/٤٥٦ ـ أ/ والإيجابِ، ليسَ على حقيقةِ الاسْتِفْهامِ.

فَعَلَى ذلكَ حرفُ الشَّكِّ: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ بل يزيدونَ، أو يقولُ: ويزيدونَ لِما يَتعالَى عنِ الشَّكِّ.

والثاني: قولُهُ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ حتى يَزيدوا كقولِهِ ﷻ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] أي حتى يُسْلِموا، أو كأنهُ وقتَ ما بَعَثَهُ إليهِمْ كانوا مئةَ ألفٍ، ثم ازدادوا بَعدَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يكونونَ[١] مئةَ ألفٍ، وقولُهُ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عندَ الناسِ. فمعناهُ أنَّ مَنْ نَظَرَ إليهِمْ لا يَظُنُّ دونَ مئةِ ألفٍ، ولكنْ يَظُنُّ مئةَ ألفٍ وزيادةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٨ [وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيلَ: آمنوا بهِ، فلم يُهْلَكوا، ولكنْ أخَّرَ عنهُمُ العذابَ إلى وقتِ موتِ حَتْفِهِمْ. كقولِهِ[٣] في آيةٍ أُخرى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أخبَرَ ههنا أنهُ لم يَنْفَعْ قوماً إيمانُهُمْ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ إلا قومَ يونُسَ، وكذلكَ ذَكَرَ ﷻ في آيةٍ أُخرى أنهُ لم يَنْفَعْ الإيمانُ عندَ مُعاينةِ العذابِ حينَ قالَ ﷻ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

ثم لا يُدْرَى أنهُ إنما يَقْبَلُ إيمانَ قومِ يُونُسَ لأنهمْ آمَنوا عندَ خُروجِ يُونُسَ ﵇ مِن بَينِ أظْهُرِهِمْ قبلَ أنْ يُقْبِلَ العذابُ عليهِمْ لِما كانوا يَعلمونَ أنَّ الرسولَ متى ما خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ بَعدَ ما أوعَدَهُمْ بالعذابِ أنَّ العذابَ يَنْزِلُ بهِمْ، لا محالةَ، فآمَنوا بهِ [قبلَ أنْ يُعاينوا العذابَ][٤] أو أنْ يكونَ العذابُ قد أقبَلَ عليهِمْ، فَعايَنوهُ، فعندَ[٥] ذلكَ آمَنوا.

فإنْ كانَ الأوّلَ فهو بأنهمْ إنما آمَنوا بهِ عندَ خروجِهِ منهمْ، فهو مستقيمٌ؛ قَبِلَ إيمانَهُمْ لأنهمْ لم يؤمِنوا عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ، ولكنْ إنما آمنوا قَبْلَ ذلكَ.

وإنْ كانَ الثانيَ فجائزٌ أنْ يكونَ قَبِلَ إيمانَهُمْ، ونَفَعَهُمْ إيمانُهُمْ، وإنْ عاينوا العذابَ، لِما عَرَفَ، جَلَّ، وعلا، أنَّ إيمانَهُمْ كانَ حقّاً، وهمْ صادقونَ في ذلكَ، مُحَقِّقونَ، لم يكونوا دافعينَ العذابَ عنْ أنفسِهِمْ إلّا بالإيمانِ حقيقةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ الاسْتِفْتاءُ والسؤالُ يُخَرَّجُ على أربعةِ أوجُهٍ: إنْ كانَ الاسْتِفْتاءُ والسؤالُ مِنْ عَليمٍ خَبيرٍ لأهلِ الجهلِ فيكونُ تَقْريراً وتنبيهاً، إذا لم يكونوا أهلَ عِنادٍ، وإنْ كانوا أهلَ عنادٍ فهو تسفيهٌ وتوبيخٌ، وإذا كانَ الاسْتِفْتاءُ مِنْ جاهلٍ مُصَدِّقٍ طالبِ رشداً[٦] لِعليمٍ خبيرٍ يكونُ اسْتِرْشاداً وطَلَباً للصوابِ، وإذا كانَ مِنْ مُعانِدٍ مُكابرٍ فهو يُخَرَّجُ على الاسْتِهْزاءِ بهِ كقولِهِمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] إنما قالوا[٧] ذلكَ اسْتِهْزاءً بهِ.

ثم ما ذَكَرَ مِنَ الاسْتِفْتاءِ لهؤلاءِ إنما يكونُ تَسْفيهاً منهُ لهمْ في قولِهِمْ: للهِ ﷻ وَلَدٌ، والملائكةُ بناتُ اللهِ، سُبْحانَهُ، ونَحْوَهُ مِنَ الفِرْيَةِ العظيمةِ التي لا فِرْيَةَ أعظَمُ منها، ولا كَذِبَ أكبَرُ منهُ، لأنَّ دَرْكَ الأشياءِ ومَعْرِفَتَها إنما يكونُ في الشاهدِ بأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها المُشاهدةُ، والثاني الخَبَرُ، والثالثُ: الاسْتِدْلالُ بما شاهدوا، وعايَنوا، على ما غابَ عنهمْ.

ثم معلومٌ عندَهمْ أي عندَ هؤلاءِ أنهمْ لم يُشاهدوا اللهَ حتى عَرَفوا الوَلَدَ، ولا كانوا يؤمنونَ بالرسلِ حتى يكونَ عندَهُمُ

---

(١) في الأصل و م: يزيدون. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: وقال. (٤) في الأصل و م: فإن لم يعاينوا. (٥) أدرج قبلها في الأصل و م: عند معاينتهم. (٦) في الأصل و م: رشد. (٧) في الأصل و م: قال.

الخَبَرُ بما قالوا، ونَسَبوا إليهِ مِنَ الوَلَدِ وغَيرِهِ؛ إذِ الخَبَرُ إنما يُوصَلُ إليهِمْ[1] بالرسلِ، وهمْ لا يؤمنونَ بهِمْ، ولا كانوا شاهدوا ما يَبتَدِلُونَ [بِهِ][2] على ماقالوا فيهِ، ونَسَبوا إليهِ، حتى يَدُلَّهُمْ[3] ذلكَ على ذلكَ.

فَسَفَّهَهُمْ في قولِهِمُ الذي قالوا فيهِ وما نسبوا إليهِ أنهمْ كَذَبَةٌ في ذلكَ؛ إذْ أسبابُ العلمِ بالأشياءِ ما ذَكَرْنا، ولم يكُنْ لهمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

الآيات ١٥٠ ـ ١٥٣ ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ وقالَ ﷻ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾؟ يقولُ: أختارُ لنفسي ما تأنفونَ أنتمْ منهُ؟ وتَنْسُبونَ إليكمْ ما تَسْتَنْكِفونَ أنتمْ عنهُ؟

يُسَفِّهُهُمْ في قولِهِمْ ونِسْبَتِهِمْ إلى اللهِ ما قالوا فيهِ، ونَسَبوا إليهِ إلى آخرِ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ تصبيرُ رسولِ اللهِ على أذاهُمْ وتَرْكِهِمُ الإيمانَ بهِ والاتِّباعَ [لَهُ][4] لأنهمْ [معَ عِلْمِهِمْ][5] أنهُ خالِقُهُمْ ورازِقُهُمْ وقديمُ الإحسانِ إليهِمْ قالوا فيهِ ماقالوا.

الآية ١٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي مالَكُمْ تحكُمونَ بلا حُجَّةٍ ولا عِلْمٍ؟

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ [هذا][6] الحُكْمَ جورٌ وظُلْمٌ؟ كقولِهِ: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢].

الآية ١٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ أي ألكمْ حُجَّةٌ وبيانٌ على ما تَزْعُمونَ، وتقولونَ في اللهِ، سُبحانَهُ.

الآية ١٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ائْتوا بكتابٍ مِنْ عندِ اللهِ، فيهِ ما تذْكُرونَ مِنَ الوَلَدِ وغيرِهِ.

الآية ١٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الجِنَّةَ همُ الملائكةُ لِقولِ أولئكَ الكَفَرَةِ: [إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ][7] وما قالوا في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي علمتِ الجنُّ الذينَ وَصَفوا لهُ بناتٍ[8] إنهمْ لَمُحْضَرونَ النارَ وعذابَ اللهِ، ويُحاسَبونَ على قولِ مُجاهدٍ وغيرِهِ.

[ويَحْتَمِلُ الذينَ رَأَوا][9] أولئكَ، أعني الأتباعَ، أنهمْ ملائكةُ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٥٩ و١٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قولُهُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ نَزَّهَ نفسَهُ عمّا وَصَفَهُ الذينَ تقدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وتبرَّأَ مِنْ جميعِ ما قالوا فيهِ. ثم استَثْنى ﷻ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فلسنا ندري ما موضِعُ الثُّنْيا ههنا على إثْرِ ما ذُكِرَ مِنَ التنزيهِ لِنَفْسِهِ. ويَحْتَمِلُ الاسْتِثْناءُ وجهَينِ:

أحَدُهما: [﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي مَنْ أَخْلَصَ منهمْ، وآمَنَ، فإنهُ غيرُ بريءٍ ممّا يَصِفُهُ [هؤلاءِ][10] لِما يجوزُ أنْ يَسْلَمَ منهمْ نفرٌ، فَيَصِفونَهُ بما يَليقُ بهِ، لأنَّ المؤمنَ والمُخْلِصَ لا يَصِفُ ربَّهُ إلّا بما يليقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: ما][11] قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استَثْنى مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ النارَ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهمْ لا يُحضَرونَ النارَ والعذابَ على [ما][12] سَبَقَ استِثْناءُ هؤلاءِ الذينَ أخْلَصوا مِمَّنْ يُحضَرُ في ما تقدَّمَ، واللهُ أعلَمُ، وهو على التقديمِ والتأخيرِ.

الآيات ١٦١ ـ ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ لِقولِهِ، واللهُ أعلَمُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لا يَمْلِكونَ [أنْ][13] يَفْتِنوهُمْ، وإنْ يُضِلّونَ[14] إلّا مَنْ هو في عِلْمِ اللهِ أنهُ يختارُ

---

(١) في الأصل و م: إليه. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: دلهم. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بنين. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: والذين. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.
(١٤) في الأصل وم: يضلوهم.

جنة السنة

الضلالة، وما يُصْلِيهِ النارَ [إلّا][1] على حقِّ المَعْرِفَةِ [له][2] لا حقيقةِ الإضلالِ. وهو ما ذَكَرَ ﷻ في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] وما أخبر أنه ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ٩٩و١٠٠] واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ[3] ﷻ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلّا مَنْ كُتِبَ عليهِ في اللوحِ أنهُ يَصْلي الجَحيمَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إلّا مَنْ قَضى اللهُ عليهِ أنْ يَصْلِيَ النارَ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ][5] الجِنَّ الذينَ عُبِدوا [ويَحْتَمِلُ][6] الملائكةَ، ويَحْتَمِلُ الأصنامَ التي عُبِدَتْ؛ إذْ قد يُنْسَبُ إليهِنَّ الإضلالُ لِقولِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ يَحْتَمِلُ هذا منهمْ، أعني الملائكةَ/ ٤٥٦ ـ ب/ وجْهَينِ:

أحَدُهما: قالوا ذلكَ تَبْرِئَةً لأنفسِهِمْ مِنْ أنْ يأمُروا بالعبادةِ لهمْ، أي لم نَتَفَرَّغْ نحنُ لِعبادةِ هؤلاءِ طَرْفَةَ عينٍ، فكيفَ نأمُرُ هؤلاءِ بِعبادَتِنا؟ كقولِهِمْ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١] أي نحنُ في طَلَبِ [الصوابِ][7] ولا شَكَّ، فكيفَ نَتَفَرَّغُ لذلكَ؟.

[والثاني][8]: أنْ يقولوا: إنَّ وِلايَتَكَ التي والَيْتَنا شَغَلَتْنا عنْ جميعِ ما ذَكَروا[9]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ أحداً مِنْ عبادي، ما ظَنُّكُمْ هذا الذي تَعْبدونَ إلّا مَنْ تَوَلّاكُمْ بِعَمَلِ أهلِ النارِ.

وذُكِرَ عنْ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ عنِ الحَسَنِ أيضاً أنهما قالا في قولِهِ: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يقولُ: ما أنتُمْ بِمُضِلِّينَ بآلهتِكُمْ أحداً إلّا مَنْ قَدَّرَ أنْ يُصْلى الجَحيمَ، وهو قريبٌ مما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى][10]: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [مكاناً مَعْلوماً مَحْدوداً][11] لا يَبْرَحُ منهُ، ولا يُفارِقُهُ[12]، ويَحْتَمِلُ ﴿مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي عِبادةٌ مَعْلومةٌ نَحْوَ ما «ذَكَرَ حَكيمُ بْنُ حِزامٍ: قالَ [: كنا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: هل تَسْمَعونَ ما أَسْمَعُ؟ قُلْنا: يا رسولَ اللهِ ما تَسْمَعُ؟ قالَ: أَسْمَعُ أطيطَ السماءِ، وما تُلامُ أنْ تَئِطَّ ما فيها مَوضِعُ قَدَمٍ إلّا وفيهِ مَلَكٌ راكعٌ أو ساجدٌ»][13] [الترمذي ٢٣١٢] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٦٥و١٦٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي يُصَلّونَ صفوفاً، لا يُصَلّي أبناءُ آدمَ [إلّا][14] صفوفاً. ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي قائمونَ صفوفاً وراكعونَ صفوفاً وساجدونَ صفوفاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أي مُصَلّونَ على ما قالَ أهلُ التأويلِ، ويَحْتَمِلُ حقيقةَ التسبيحِ أي يُنَزِّهونَ اللهَ تعالى عمّا تقولُ فيهِ المُلْحِدَةُ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي عابدونَ دائماً وأبداً، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٦٧ و١٦٨ و١٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: إنَّ أهلَ مكةَ كانوا يقولونَ قبلَ أنْ يَبْعَثَ محمداً ﷺ: قاتَلَ اللهُ اليهودَ والنصارى، كَذَّبوا أنبياءَهُمْ، لو أنهمْ ذَكَروا أنْباءً مِنَ الأوَّلينَ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قد قالوا كذلكَ، وأكَّدوا القولَ فيهِ بالقسمِ باللهِ تعالى؛ أخبَرَ اللهُ عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] أي نُفُوراً مِنْ رَبِّهِمْ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: لهم، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: يحتمل مدرجة قبل مكاناً. (١١) في الأصل وم: مكان معلوم محدود. (١٢) في الأصل وم: يفارق. (١٣) من الدر المنثور ج٧/ ١٣٦، في الأصل وم: بينما رسول الله ﷺ، ولا مما نحن فيه ولكن أمر آخر. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُوعِدُهُمْ أنْ يَنْزِلَ بهمُ العذابُ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ على ما نَزَلَ بالأوَّلينَ مِنَ العذابِ بِعبادَتِهِمُ الأصنامَ وتكذيبِهِمُ الرسلَ ﷺ فيقولونَ عندَ ذلكَ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي خَبَراً مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ أنهمْ على ماذا أُهْلِكوا؟ لو عَلِمْنا أنهمْ أُهلِكوا بما يَذْكُرُ محمدٌ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فَقَصَّ اللهُ تعالى عليهِمْ خَبَرَ الأوَّلينَ أنَّ العذابَ إنما أُنْزِلَ بهمْ بما ذَكَرَ محمدٌ ﷺ فلم يَقْبَلُوا، وكَفَروا بهِ، عِناداً منهمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منهمُ احْتِجاجاً: أنَّ آباءَنا قد عَبَدوا الأصنامَ، فَفَعَلوا ما نحنُ فاعلونَ، ثم لم يَنْزِلْ بهمُ العذابُ. فلو كانَ صَنيعُهُمْ غيرَ مَرْضِيٍّ عندَ اللهِ تعالى، وإنْ كانوا غيرَ مأمورينَ بهِ، ما تَرَكَهُمْ على ذلكَ.

وهو كقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الاحْتِجاجِ الباطلِ.

فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُمُ الذي قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي لم يُهْلَكُوا بما نَحْنُ فيهِ، [وإنما يَذْكُرُ ذلكَ لِشيءٍ][1] آخَرَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بِنَصْبِ اللامِ على ظاهرِ ما قالوا [ويجيءُ][2] أنْ يكونَ مِنَ المُخْلِصينَ بكسرِ اللامِ[3] أي لو كانَ كذا لَكُنّا[4] نُخْلِصُ لهُ التوحيدَ والعبادةَ. لَكُنّا المُخْلَصينَ أنْ يُخْلِصَنا اللهُ لو كانَ كذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخْبَرَ أنهمْ كَفَروا لَمّا آتاهُمُ التِّبْيانُ، وأنَّ أولئكَ المُتَقَدِّمينَ إنما أُهْلِكوا لِما ذَكَرَ محمدٌ ﷺ لكنهمْ عانَدوا، وكابَروهُ، وكَفَروا بهِ.

الآية ١٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ علمَ عِيانٍ ومُشاهدةٍ [كما عَرَفَهُمْ][5] عِلْمَ خَبَرٍ بالحجَّةِ والآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٧١ ـ ١٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الرسلَ ﷺ كانوا مَنْصورينَ. لم يُقْتَلْ رسولٌ قطُّ. فإنما قُتِلَ الأنبياءُ ورُسُلُ المرسَلينَ الذينَ يُبَلِّغونَ رسالةَ الرسُلِ إلى قومِهِمْ، ويُخْبِرونَ عنهمْ. فأمّا الرسُلُ أنفسُهُمْ فهمْ لم يُقْتَلوا ولا قُتِلَ أحدٌ منهمْ، عَصَمَهُمُ اللهُ تعالى عنِ الناسِ، وعمّا هَمُّوا بهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ لِما نَصْرُ العاقبةِ لهمْ؛ إذْ لم يكُنْ رسولٌ إلّا وقد كانَتِ العاقبةُ لهُ، وإنْ غُلِبَ في الابْتِداءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ بالحُجَجِ والآياتِ والبراهينِ. إنهمْ يَغْلِبونَ بِحُجَجِهِمْ وآياتِهِمْ، ويَرْفَعونَ بها الشُّبَهَ والتَّمْويهاتِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَسْتَدِلُّ صاحبُ التأويلِ الأوَّلِ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ وفي بعضِ القراءاتِ: قُتِلَ معهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] أخْبَرَ أنهمْ، وإنْ قُتِلوا، فإنهمْ لم يَهِنوا، ولم يَضْعُفوا. ثم قالَ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] ثم أخْبَرَ أنهُ آتاهُمُ اللهُ ذلكَ حينَ[6] قالَ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ [ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾][7] [آل عمران: ١٤٨] واللهُ أعلَمُ.

دلَّ، وإنْ غُلِبوا، وقُتِلوا، فَهُمُ المَنْصورونَ.

ثم قولُهُ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ ذَكَرَ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ بِحَرْفَينِ، ومَعْناهما واحدٌ على التأكيدِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] وقولِهِ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤] وإنْ كانَ الواحدُ [كافياً].

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يخبر. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٣٤. (٤) في الأصل وم: فنحن. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إذ عرفوا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: كذا.

جنة السنة

وقولُهُ[(١)] تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ أي رُسُلُنا وأتباعُنا وأولياؤُنا، همُ الغالبونَ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يَحتَمِلُ أي لا تكافِئْهُمْ بأذاهُمْ إياكَ إلى [حينٍ، أي][(٢)] لا تُقاتِلْهُمْ.

فكيفَ ما كانَ ففيهِ وجهانِ مِنَ الدلالةِ[(٣)]:

أحَدُهُما: دليلٌ على رسالتِهِ حينَ أخبَرَ أنهم يكونونَ على الكُفرِ إلى الحينِ الذي ذَكَرَ، ويَهْلِكونَ على ذلكَ حينَ[(٤)] قالَ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

والثاني: فيهِ دليلُ حِفظِهِ إياهُ وعِصمَتِهِ ممّا كانوا يَهُمّونَ بهِ مِنَ القَتْلِ والإهلاكِ حينَ[(٥)] مَنَعَهُ مِن مُقاتَلَتِهِمْ، ونَهاهُ عنِ التَّعَرُّضِ لهمْ إلى وقتٍ [مَعْلومٍ على][(٦)] ما كانَ منهمْ مِنَ الهَمِّ بقَتْلِهِ وإهلاكِهِ لو وَجَدوا السبيلَ إليهِ.

فَدَلَّ أنَّ اللهَ ﷻ قد عَصَمَهُ، وحَفِظَهُ عنهمْ حينَ قالَ لهمْ ما قالَ حتى قالَ ﷻ: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كقولِهِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

الآية ١٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ عِياناً ومُشاهدةً. وقالَ بعضُهُمْ: وأبصِرْهُمُ العذابَ إذا نَزَلَ بهمْ خَبَراً فَسَوفَ يُبْصِرونَ وُقوعاً. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي عَرِّفْهُمْ أنَّ العَذابَ يَنْزِلُ بهِمْ، فسوفَ يَعرِفونَ إذا نَزَلَ بهِمْ.

الآية ١٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ دلَّ هذا أنهمْ كانوا يَستَعجِلونَ نزولَ العذابِ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ. إنما يَستَعجِلونَ العذابَ استِهزاءً بالرسولِ ﷺ وتكذيباً لهُ في ما يُوعِدُهُمْ أنَّ العذابَ يَنْزِلُ بهِمْ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هو حرفُ التعجيبِ، أي كيفَ يَستَعجِلونَ عذابي؟ ألم يَعرِفوا قُدرَتي وسلطاني في إنزالِ العذابِ والإهلاكِ إذا أردتُ تعذيبَ قومٍ وإهلاكَهُمْ، فإني قَدَرْتُ ذلكَ، ومَلَكْتُ عليهِ.

الآية ١٧٧ ثم أخبَرَ أنهُ إذا نَزَلَ العذابُ بساحَتِهِمْ ساءَ صباحُهُمْ حينَ[(٧)] قالَ ﷻ: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ثم قولُهُ ﷻ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ النزولَ بهمْ والوقوعَ عليهمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١] في نزولِهِ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

يَحتَمِلُ نزولُهُ بساحَتِهِمْ ما ذَكَرْنا مِن نزولِهِ بقُربِهِمْ ووُقوعِهِ عليهِمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ساءَ صَباحُهُمْ لأنَّ ذلكَ العذابَ إذا حلَّ بهمْ صَيَّرَهُمْ مُعَذَّبينَ في النارِ أبَدَ الآبِدينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٧٨و١٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هذا قد ذَكَرْنا في ما تقدمَ. وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾. ويقولُ بعضُهُمْ أي انْظُرْ فسوفَ يَنْظرون. لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا.

الآيات ١٨٠و١٨١و١٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ في هذهِ الأحرفِ الثلاثةِ جميعُ ما بَيَّنَهُ[اللهُ تعالى][(٨)] مِنَ الحَقِّ على الخَلْقِ مِنَ التوحيدِ [والثناءِ الحَسَنِ والحَمْدِ لِنِعَمِهِ][(٩)] وجميعِ ما عليهمْ مِنَ التفويضِ إليهِ في الأمورِ كلِّها وجميعِ ما عليهمْ مِنَ الثناءِ الحَسَنِ والحَمْدِ لهُ وماألزَمَهُمْ مِنَ الثناءِ الحَسَنِ على جميعِ المرسَلينَ.

أمّا حرفُ التوحيدِ[(١٠)] فهو قولُهُ تعالى ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَزَّهَ نفسَهُ، وبَرَّأَهُ مِن جميعِ ما قالَ الملاحدةُ

---

(١) في الأصل وم: كما في قوله. (٢) في الأصل وم: حيث أو. (٣) في الأصل وم: الدليل. (٤) و(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: على المعلوم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل التنبيه.

جنة السنة

فيهِ ممّا لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ والصاحبةِ وغيرِ ذلكَ. فَيَرْجو[1] أنْ يُثابَ قائلُ هذا ثوابَ كلِّ واصفِ اللهِ ﷻ بالبراءةِ لهُ والتّنزيهِ عنْ ذلكَ كلِّهِ.

وفي قولِهِ: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ وصفٌ بالعِزّةِ والقُوّةِ وتفويضِ الأمرِ إليهِ، فَيَرْجو[2] أنْ يُثابَ قائلُ هذا ثوابَ كلِّ واصفِ للهِ بالعِزّةِ والقُوّةِ.

وأمّا الثناءُ الحَسَنُ على المرسَلينَ فهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أمَرَ اللهُ ﷻ عبادَهُ أنْ يُثْنوا على المُرسَلينَ جُمْلَةً. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا سَلَّمْتُمْ عليَّ فَسَلِّموا على إخواني المرسَلينَ فإنما أنا رسولٌ مِنَ المُرْسَلينَ» [بنحوه مسلم ٤٠٣].

أمّا الثّناءُ الحَسَنُ على اللهِ بكلِّ ما أنْعَمَ عليهِمْ، وأحْسَنَ إليهِمْ فهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فَيَرْجو[3] أنْ يُثابَ قائلُ هذا وتاليهِ على المَعْرِفَةِ بهِ ممّا فيهِ/ ٤٥٧ ـ أ/ ثوابَ جميعِ القائلينَ بهِ والتالينَ، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ عنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: مَنْ أحَبَّ أنْ يَكْتالَ بالمِكْيالِ الأوفى مِنَ الأجْرِ يومَ القيامةِ فليكُنْ آخِرُ كلامِهِ مِنْ مَجْلِسِهِ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو ربُّ النعمةِ والقوةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ أي بهِ يَتَعَزَّزُ [كلُّ مَنْ يَتَعَزَّزُ][6] وإليهِ يرجِعُ كلُّ عزيزٍ، وكذلكَ كلُّ مَنْ حَمِدَ، أو أثْنى على شيءٍ فحقيقةُ ذلكَ الحمدِ والثناءِ راجعٌ إليهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ مُرادِهِ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: فيرجى. (٣) في الأصل وم: فيرجى. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

سورة ص

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿صٓ﴾ إنما[1] هو اسْمُ تلكَ السورةِ التي [فيها ص][2] وكذلكَ قولُهُ: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] وكذلكَ الحروفُ[3] المُقَطَّعاتُ. وللهِ أنْ يُسَمِّيَ ما شاءَ بما شاءَ وبأيِّ اسْمٍ شاءَ. وقالَ بعضُهُمْ: [إنما هو مِنْ أسماءِ الرَّبِّ تعالى. وقالَ بعضُهُمْ: إنما هو مِنْ][4] فواتِحِ السُّوَرِ، وقد ذَكَرْنا أنَّ تفسيرَهُ ما ذُكِرَ على إثْرِهِ. وقد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ ما قيلَ في الحروفِ المُقَطَّعَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿صٓ﴾ أي صادِ، أي عارِضْ بالقرآنِ.

قالَ أبو عُبَيدةَ: صادِ مِنَ المُصاداةِ. وقالَ الزَّجّاجُ: صادِ بالقرآنِ، أي قابِلْ بالقرآنِ، وحارِبْ بالقرآنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: صادِ بالقرآنِ، أي نادِ بالقرآنِ، وقيلَ: أقْبِلْ بالقرآنِ، ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو قَسَمٌ، أقْسَمَ بقولِهِ: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ وقولُهُ ﷻ: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ يَحْتَمِلُ ذا[5] الشرفِ؛ سَمّاهُ ذِكْراً لأنَّ كلَّ شريفٍ يُذْكَرُ في كلِّ مَلأٍ مِنَ الخَلْقِ، أو سَمّاهُ ذِكْراً لِما يُذَكِّرُهُمْ ما لهمْ وما عليهِمْ وما يُؤْتَى وما يُذْكَرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ ذي البيانِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ «ذُكِرَ أنَّ أبا طالبٍ كانَ مريضاً، فجاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعودُهُ، وعندَ رأسِهِ مَقْعَدُ رجلٍ، فقامَ أبو جَهْلٍ، فَجَلَسَ فيهِ، وعندَهُ مَلأٌ مِنْ قُرَيشٍ، فَشَكَوُا النَّبِيَّ ﷺ إلى أبي طالبٍ، فقالَ: يا ابْنَ أخي ما تريدُ منهمْ؟ قالَ: ياعَمُّ إني أُريدُ منهمْ كلمةً، تَدينُ لهمْ بها العَرَبُ، ويُؤَدّي إليهمْ بها العَجَمُ الجِزْيَةَ. قالَ: وما هيَ؟ قالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ. فقالَ أبو جَهْلٍ: أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً؟» [أحمد١/ ٢٢٧].

[فتلكَ العِزَّةُ التي ذَكَرَ][6]: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنَعَةٍ مُعانِدينَ مُمْتَنِعينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِي عِزَّةٖ﴾ في حَمِيَّةٍ واعتِزازٍ، والحَمِيَّةُ هي التي تَحْمِلُ على الخِلافِ والمَعْصِيَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ قيلَ][7] في قولِهِ ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ بوجهَينِ:

أحَدُهما: إنَّ هذا في كلِّ كافرٍ ومُشرِكٍ، يُنادي عندَ مَوتِهِ وهلاكِهِ، ويَسألُ ربَّهُ الرُّجوعَ والعَوْدَ إلى الدنيا لِيُؤْمِنَ كقولِهِ: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ [المؤمنون: ٩٩و١٠٠] وكقولِهِ: ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ الآية [المنافقون: ١٠] ونَحْوُهُ.

---

(١) في الأصل و م: لنا. (٢) في الأصل و م: ذكر. (٣) في الأصل و م: حروف. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: لنا، في م: لنا من أسماء الرب تبارك وتعالى، وقال بعضهم لنا. (٥) في الأصل وم: ذي. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: بذلك أخبرهم العزة الذي ذكر حيث قال. (٧) في الأصل و م: ثم اختلف في موضع القسم ههنا قال بعضهم القسم.

جنة السنة

لكنْ لا يَنفعُ ذلكَ النداءُ والغوثُ والسؤالُ للتأخيرِ على ما أخبرَ أنهُ إذا ﴿جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤ والنحل: ٦١].

[والثاني][1]: هذا في الجملةِ في الأممِ التي أهلكتْ مِنْ قَبْلُ، واسْتُؤْصِلَتْ بالتكذيبِ والعِنادِ؛ كانوا يُنادونَ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ ووقوعِهِ عليهِمْ، ويَسألونَ الغوثَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] لكنْ لا يَنفعُهُمْ إيمانُهُمْ في ذلكَ الوقتِ على ما أخبرَ اللهُ ﷻ لأنهُ إيمانُ دَفعٍ للعذابِ واضطرارٍ لا إيمانُ اختيارٍ وتخوُّفٍ. فهذا [حالُ][2] أهلِ مكةَ إنْ نَزَلَ بهِمْ ما نَزَلَ بأولئكَ، ويَندمونَ على صُنعِهِمْ كما نَدِمَ أولئكَ، واللهُ أعلمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ هو في الأصلِ: ولا. فإذا وُصِلَ بـ: حينَ صارَ: ولاتَ؛ كأنهُ تحينَ [واللهُ أعلمُ][3] وهو قولُ الكِسائيِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: ولاتَ [يَحينُ][4] بالياءِ، وقد قُرِئَ بالتاءِ [تَحينُ][5] والوقفُ عليها [ثم يُبتدأُ][6] قولُهُ ﴿حِينَ مَنَاصٖ﴾ وابنُ عباسٍ ﵄ يقولُ: ليسَ بحينِ مَغاثٍ. وقيلَ: ليسَ بحينِ مَغاثٍ. وقيلَ: ليسَ بحينِ يُجزَعُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ يَحتمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ أي مِنْ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ كقولِهِمْ[7] ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ [الأنبياء: ٣] وقولِهِمْ[8]: ﴿يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وقولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤] كانوا يُنكِرونَ الرسالةَ في البَشَرِ، ويقولونَ: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١].

والثاني: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ أي مِنْ دونِهِمْ في أمرِ الدنيا لمّا رأوا أنفسَهُمْ قد ضَلّوا في أمرِ الدنيا دونَهُ.

وقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص: ٨] ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] لم يَرَوا مَنْ دونَهُمْ في أمرِ الدنيا على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ دلَّ هذا القولُ منهمْ أنهُ قد كانَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ آيةٌ مُعجِزَةٌ أتى بها حتى قالوا: ساحرٌ كذّابٌ. عَلِموا أنهُ رسولُ اللهِ لكنهمْ عاندوا، وأرادوا بقولِهِمْ: ساحرٌ كذّابٌ أنْ يُغْرُوا أتباعَهُمْ عليهِ كما أغرَى فرعونُ قومَهُ على موسى ﵇ حينَ[9] قالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] وهو ﵇ لم يُرِدْ أنْ يُخرجَهُمْ مِنْ أرضِهِمْ، إنما يُريدُ الإسلامَ منهمْ.

فَعلى ذلكَ هؤلاءِ الرُّؤساءُ عَرَفوا أنهُ ليسَ بساحرٍ، ولكنهُ رسولُ اللهِ ﷺ ولكنْ أرادوا أنْ يُغْرُوا قومَهُمْ وأتباعَهُمْ عليهِ، والْبَسوا أمْرَهُ عليهِمْ لئلّا يَتّبِعوهُ.

الآية ٥ وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [هذا القولُ مِنَ الرؤساءِ والمتبوعينَ منهمْ إغراءً عليهِ لِما عَرَفوا][10].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ المَلأَ والأتباعَ أتَوا أبا طالبٍ يَشكونَ رسولَ اللهِ ﷺ في ما يَذكُرُ آلهتَهُمْ بسوءٍ. فلمّا كلّموهُ في ذلكَ لم يَلْتَمْ أمرُهُمْ في ما طَمِعوا منهُ، ولم يُجِبْهُمْ إلى ما دَعَوهُ إليهِ، وسألوهُ، فقالَ المَلأُ، وهمْ أشرافُهُمْ للأتباعِ: امْشُوا مِنْ عندِهِ، واصْبِروا على عبادةِ آلهتِكُمْ.

[ويَحتمِلُ][11] أنْ يُقالَ: إنَّ المَلأَ قالَ للأتباعِ: انِ امْشُوا إلى آلهتِكُمْ مِنْ عندِهِ، واصْبِروا على عبادتِها، أو أنْ يكونَ

---

(١) في الأصل و م: ومنهم من يقول. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: أي والله. (٤) ساقطة من الأصل و م، انظر تفسير الطبري ح٢٣/ ١٢٢. (٥) ساقطة من الأصل و م، انظر تفسير الطبري ح٢٣/ ١٢٢. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: وقوله ﷻ. (٨) في الأصل و م: وقوله عز، وجل. (٩) في الأصل و م: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل و م: أو.

قولُهُمْ لهمْ: أنِ امْشُوا إلى أبي طالبٍ، وقولوا لهُ: كذا، واصْبِروا على كذا، أو أنْ يقولوا: أنِ امْشُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى/٤٥٧ ـ ب/: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ لسْنا ندري ما أرادوا بقولِهِمْ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ فجائزٌ أنْ يكونوا أرادوا بذلكَ أنَّ محمداً ﷺ وإنْ دعاكُمْ إلى تركِ عِبادةِ الأصنامِ لا يَتْرُكُكُمْ كذلكَ، ولكن يَدْعوكُمْ إلى عبادةِ غَيرِها، أو يَطْلُبُ منكُمْ أحوالاً أو أشياءَ أرادَ، ولَسْنا نَعْرِفُ ذلكَ: ما أرادوا بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المِلَّةُ الآخِرَةُ، هي مِلَّةُ عيسى ﷺ قالوا ذلكَ لأنَّ النَّصارى اختَلَفوا في عيسى ﷺ:

منهمْ مَنِ اتَّخذَهُ إلهاً، ومنهُمْ مَنِ اتَّخذَهُ ولداً للهِ ﷻ فيقولونَ: عبادةُ الواحدِ الذي يَدْعو إليهِ محمدٌ ﷺ في المِلَّةِ الآخِرَةِ، وهي النَّصْرانيَّةُ؛ إذْ مَنْ صَيَّرَهُ إلهاً[1] ومَنْ قالَ: إنهُ وَلَدُهُ صَيَّرَهُ بحيثُ يَحْتَمِلُ الشريكَ. فيقولونَ: ظَهَرَتْ عبادةُ العَدَدِ في المِلَّةِ الآخِرَةِ، فكيفَ يَمْنَعُنا محمدٌ ﷺ عنْ عبادةِ العَدَدِ، ويَدْعونا إلى عبادةِ الواحدِ؟

فقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ هي الحالُ التي كانوا عليها؛ يقولونَ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ التي نحنُ عليها، وكانَ آباؤُنا عليها لا على عبادةِ الواحدِ، يقولونَ: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ مِنْ عندِ محمدٍ ﷺ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ يَدُلُّ على أنهمْ قد رَأَوا أنَّ مَنْ أُنزِلَ عليهِ الذِّكْرُ مِنَ السماءِ، إنما يَنْزِلُ لِفَضْلٍ وخُصوصيَّةٍ. لكنْ إنما رَأَوُا الفَضْلَ والخُصوصيَّةَ لأنفسِهِمْ لِما لهمُ الفَضْلُ في الدنيا، فلم يَرَوا ذلكَ لرسولِ اللهِ ﷺ لذلكَ أنْكَرُوا إنزالَ الذكرِ عليهِ دونَهُمْ، ولذلكَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقالوا[2]: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾.

ثم أخبَرَ ﷻ أنهمْ شاكّونَ في ذِكْرِهِ حينَ قالوا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾.

وتأويلُ هذا، واللهُ أعلَمُ: أنَّ الشَّكَّ هو الذي لا يُوجِبُ القَطْعَ على شيءٍ، بل يُوجِبُ الوَقْفَ ويُبْطِلُ[3] القطعَ على شيءٍ. فكيفَ قَطَعْتُمْ على الرَّدِّ والإنكارِ دونَ أنْ تَقِفوا فيهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على الإخبارِ عنِ الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ أنهمْ لا [يؤمنونَ حتى][4] يذوقوا العذابَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦و٩٧].

وقالَ مُقاتلٌ: اللامُ زائدةٌ كأنهُ قالَ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ بل [ما ذاقوا][5] عذابي. يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في رَدِّهِمُ الذِّكْرَ وتكذيبِهِمْ إيّاهُ على الشَّكِّ منهمْ؛ والشَّكُّ يُوجِبُ الوقفَ في الشيءِ لا القَطْعَ في الردِّ والتكذيبِ لهُ.

ثم فيهِ الدلالةُ على أنَّ الحُجَجَ والبراهينَ قد تُلْزِمُ مَنْ [جَهِلَ الحقيقةَ][6] ولم تَتَحَقَّقْ عندَهُ؛ إذا كانَتْ تُسْأَلُ التَّحَقُّقَ لها والوقوفَ عليها بالتأمُّلِ والنظرِ فيها، وإنْ كانَتْ لم تَتَحقَّقْ عندَهُ بالبديهةِ وعندَ قَرْعِها سَمْعَهُ، فهو حُجَّةٌ لِقولِ علمائِنا: إنَّ مَنْ أسْلَمَ في دارِ الإسلامِ، ولم يَعْلَمْ أنَّ عليهِ الشرائعَ والأحكامَ، كانَ مأخوذاً بها غيرَ مَعْذورٍ في جَهْلِهِ فيها لأنها تُبَيِّنُ ما يُوصِلُ إليها بالسؤالِ والبَحْثِ عنها والفَحْصِ عنها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ قد ذَكَرْنا[7] في ما تَقَدَّمَ أنَّ حَرْفَ الاسْتِفْهامِ مِنَ اللهِ ﷻ يُخَرَّجُ على الإيجابِ والإلزامِ ممّا لو كانَ ذلكَ مِنْ مُسْتَفْهِمٍ حقيقةً، يَتَضَمَّنُ الجوابَ لهُ فقولُهُ[8] ﷻ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ جوابُ لِقولِهِمْ: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ فجوابُهُ لهمْ: ليسَ عندَهُمْ رحمةُ ربِّكَ حتى يَختاروا الرسالةَ والنُّبوّةَ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: عنه، وفي م: عنده. (٢) في الأصل و م: وقوله. (٣) في الأصل و م: فبطل. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: لما يذوقوا. (٦) في الأصل و م: جهلها. (٧) من م، في الأصل: ذكر. (٨) الفاء ساقطة من الأصل.

لأنفسِهِم أو لِمَنْ شاؤوا هم كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] كانوا لا يَرَوْنَ وَضْعَ الرسالةِ إلّا في مَنْ كانَتْ لَهُ أموالٌ، ولهُ مَنَعَةٌ في الدنيا وفَضْلٌ ومالٌ.

فَيذكُرُ أعِندَهُمْ[1] خزائنُ رَبِّكَ حتى يَجْعَلوا الرسالةَ والنُّبُوَّةَ في ما شاؤوا، واختاروا؟ لِذلكَ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي لا يَمْلِكونَ قِسْمَةَ ربِّكَ. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] يُخْبِرُ أنهُ[2] على ما لا يَمْلِكونَ يُوسِعُ المَعيشةَ على مَنْ ضَيَّقَ عليهِ، ويَرْفَعُ مَنْ وَضَعَ.

فَعَلَى ذلكَ ليسَ إليهِمُ اختيارُ النُّبُوَّةِ والرسالةِ لِمَنْ شاؤوا، واختاروا. بلِ اختيارُ ذلكَ إلى اللهِ ﷻ وقالوا[3]: إذْ كُنّا أحَقَّ بهذا في الدنيا فَنحنُ أيضاً أحَقُّ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ على ما كُنّا أحَقَّ في الدنيا بالسَّعَةِ والفَضْلِ فيها. بل لو عَرَفوا أنَّ ما نالوا مِنَ السَّعَةِ في الدنيا وفَضْلِ الأموالِ إنما نالوا ذلكَ بِرَحْمَةِ اللهِ وفَضْلِهِ لا بِحَقٍّ كانَ لهم على اللهِ. فلو عَرَفوا [ذلكَ][4] كانوا لا يُنْكِرونَ وضعَ الرسالةِ في مَنِ اختارَ اللهُ ﷻ وَضْعَها في مَنْ شاءَ.

وعلى ذلكَ قولُ المعتزلةِ؛ إنهمْ لا يريدونَ للهِ أنْ يَفْعَلَ بأحدٍ شيئاً إلّا ما هو أصْلَحُ لهُ في الدينِ، وإنهُ لو فَعَلَ ما ليسَ بأصْلَحَ لهُ في الدينِ كانَ جائراً ظالماً، فَيَرَوْنَ حِفْظَ الأصْلَحِ لهُ حقاً كما رَأى أولئكَ الكَفَرَةُ السَّعَةَ والأموالَ حَقّاً على اللهِ، فَرَأوا أنفسَهُمْ أحَقَّ أيضاً بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ثم إنَّ المعتزلةَ يقولونَ في ألَمِ الصغارِ: أنْ ليسَ للهِ أنْ يُؤْلِمَهُمْ إلّا بِعِوَضٍ؛ يَجْعَلُ لهمْ بإزاءِ ذلكَ الألمِ عِوَضاً، يَرْضَونَ همْ بذلكَ، إذْ جَعَلوا أنفسَهُمْ لهُ حقيقةً حينَ[5] لم يَجْعَلوا للهِ الإيلامَ إلّا بالعِوَضِ، ومَنْ أخَذَ حقّاً لِغَيرٍ، لا يأخُذُهُ إلّا بِبَدَلٍ وعِوَضٍ، يَرضاهُ ذلكَ الغَيرُ. فهذا تَناقُضٌ في قولِهِمْ: إنَّ على اللهِ حِفْظَ الأصْلَحِ لِلْخَلْقِ في دينِهِمْ حينَ[6] لم يَجْعَلوا لهُ ذلكَ إلّا بِعِوَضٍ يَجْعَلُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

ودلَّ اتفاقُ القولِ: إنهُ وَهّابٌ على أنَّ ما يُنالُ مِنْ خيرٍ أو سَعَةٍ أو فضلٍ إنما يُنالُ برحمةٍ وفَضْلِ اللهِ لا بِحَقٍّ عليهِ، لأنَّ مَنْ أدّى حقّاً عليهِ لا يُقالُ: إنهُ وَهّابٌ على ما أعطى مَنْ أعْطَى. إنما أعطاهُ تَفَضُّلاً منهُ ورحمةً، لا حقّاً كانَ عليهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو مِثْلُ الأوّلِ، أي ألَهُمْ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ لِيَمْلِكوا ما شاؤوا مِنَ الأمورِ، ويختاروا وضعَ الرسالةِ في مَنْ شاؤوا هُمْ؟ أي ليسَ لهمْ ملكُ السمواتِ والأرضِ فَيَمْلِكوا ما يَذْكُرونَ، ويَختارونَ.

[وإنْ][7] قالوا: بل نَمْلِكُ ذلكَ، وإلينا ذلكَ. فعندَ ذلكَ [قُلْ لهمْ][8]: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في الأسبابِ التي ذُكِرَ. قالَ بعضُهُمْ: السببُ ما بينَ السماءِ والأرضِ، وكذلكَ ما بَينَ كلِّ سماءَيْنِ سَبَبٌ، والأسبابُ جماعةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الأسبابُ أطرافُ السماءِ. وقالَ بعضُهُمْ: هي الأبوابُ التي في السماءِ تُفْتَحُ لِلْوَحْيِ. ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ إنْ كانوا صادقينَ بأنَّ محمداً ﷺ كذّابٌ، وأنهُ ساحرٌ، وأنهُ اخْتَلَقَهُ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، أي تُفْتَحُ لهُ أبوابُ السماءِ، فَلْيَسْتَمِعوا إلى الوحيِ، حينَ[9] يُوحِي اللهُ ﷻ [إلى][10] النَّبيِّ ﷺ لِقَولِهِمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧].

[ويَحْتَمِلُ][11] أنْ يكونَ معناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنْ يَرْتَقِيَ[12] مَلَكٌ فَيَنْزِلَ [الوَحْيَ][13]، فَيُخْبِرَ أنَّ محمداً ﷺ كاذبٌ في ما يَدَّعي لقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: حرفُ ما صِلَةٌ[14] كأنهُ قالَ ﷻ جُنْدٌ هنالكَ مَهْزومٌ مِنَ الأحزابِ. وقالَ بعضُهُمْ: جُنْدٌ بل هنالكَ مَهْزومٌ مِنَ الأحزابِ.

---

(١) في الأصل و م: أن عندهم. (٢) في الأصل و م: أنهم. (٣) في الأصل و م: فقالوا. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقال. (٩) في الأصل وم: حتى. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل و م: أو. (١٢) في الأصل و م: يرتقوا. (١٣) و(١٤) أدرج قبلها في الأصل و م: هنالك.

وجائزٌ أنْ يكونَ على تحقيقِ ما فيه، أي جُندُ ما يَهزِمُ هنالكَ مِنَ الأحزابِ لا كلُّ الأجنادِ[1] /٤٥٨ ـ أ/ وهو الجُندُ الذينَ خَرجوا عليهِ بالمُباهَلَةِ، وهمُ الذينَ قالوا: اللهمَّ انصُرْ أيَّنا أوصَلُ رَحِماً وأنفَعُ مالاً وأخيَرُ لِلخَلْقِ. فَغُلِبوا هُمْ، وقُهِروا. وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هو الجُندُ [الذينَ قُتِلوا][2] بِبَدرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في الآيةِ وجوهٌ ثلاثةٌ مِنَ الدلالةِ:

أحَدُها: الأمْنُ لهُ مِن أنْ يَصِلوا إلى قَتْلِهِ وإهلاكِهِ على الآحادِ والإفرادِ كقولِهِ ﷺ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

[والثاني: الأمْنُ][3] لهُ مِن أنْ يَصِلوا إلى قَتْلِهِ وإهلاكِهِ على الجَمْعِ والاجْتِماعِ لهُ كقولِهِ ﷺ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

[والثالثُ: البِشارةُ][4] لهُ أنهمْ يُهزَمونَ في ضَعفِهِ وقِلَّةِ أعوانِهِ وأنصارِهِ مَعَ كَثرَةِ هؤلاءِ وعِدَّتِهِمْ.

ففي الوجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْنا دلالةُ رسالتِهِ ﷺ حينَ[5] أخبَرَ بما ذَكَرَ، فكانَ على ما أخبَرَ. دلَّ أنهُ باللهِ تعالى عَرَفَ ذلكَ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ حينَ تَحَزَّبوا عليهِ قالَ بعضُهُمْ: إنهُ ساحرٌ، وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ كَذّابٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، وإنهُ مجنونٌ على ما تَحَزَّبوا عليهِ، وتفَرَّقَتْ قلوبُهُمْ فيهِ، وتَلَوَّنَتْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٢ و١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰٓئِكَ الْأَحْزَابُ﴾][6] أي الفِرَقُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يُذَكِّرُ هؤلاءِ الأحزابَ الذينَ كادوا[7] لِرسولِ اللهِ ﷺ ويُخبِرُهُمْ عن صَنيعِهِمْ ومُعامَلَتِهِمُ الرسلَ لوجهَينِ:

أحَدُهُما: كيفيَّةُ معامَلَةِ الرسلِ ﷺ أولئكَ الكَفَرَةَ مَعَ تكذيبِهِمْ إيّاهُمْ وسوءِ مُعامَلَتِهِمْ وصَنيعِهِمْ مَعَ الرسلِ وأنواعِ البَلايا التي كانَتْ منهمْ إليهِمْ؛ كيفَ[8] عامَلوهُمْ، وصَبَروا على أذاهُمْ لِيُعامِلَ هو قومَهُ مثلَ مُعامَلَتِهِمْ قومَهُمْ، ويَصْبِرَ على أذاهُمْ كما صَبَرَ أولئكَ على أذى قومِهِمْ[9] كقولِهِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثاني: يَذكُرُ هذا لأهلِ مكةَ، ويُحَذِّرُهُمْ ما نَزَلَ بالأممِ المُتَقَدِّمةِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وعِنادِهِمْ و تَمَرُّدِهِمْ معهمْ، لِيَحذَروا تكذيبَهُمْ محمداً ﷺ وألّا يُعامِلوهُ كما عامَلَ أولئكَ رسلَهُمْ ﷺ فَينزِلَ بهمْ كما نَزَلَ بأولئكَ مِنَ العذابِ والإهلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي وَجَبَ عليهِمْ عقابي. لكنَّ قولَهُ ﷺ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي نَزَلَ بهِمُ العذابُ، ووَقَعَ عليهِمْ، وإلّا كانَ العذابُ واجباً على الكَفَرَةِ [فلا مَعْنَى لِتَخصيصِهِمْ][11]

وقولُهُ ﷺ: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ إنَّ فرعونَ كانَ إذا غَضِبَ على أحدٍ مِن قومِهِ مَدَّهُ بأوتادٍ، فيُعاقِبُهُ بها، ويُعَذِّبُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أي ذو البِناءِ المُحكَمِ. وقالَ بعضُهُمْ: كانَتْ لهُ أوتادٌ وأرسانٌ أي جِبالٌ وملاعِبُ، يلاعِبُ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يُخبِرُ ﷺ رسولَهُ ﷺ ويُؤيِسُهُ مِن إيمانِهِمْ،

(١) أدرج قبلها في الأصل: من. (٢) في الأصل و م: الذي قتل. (٣) في الأصل و م: وفيه الأمر. (٤) في الأصل و م: وفيه بشارة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: إلى قوله. (٧) في الأصل و م: كانوا. (٨) أدرج قبلها في الأصل و م: إن. (٩) أدرج بعدها في الأصل و م: مثل معاملتهم قومهم وسوء صنيعهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أنهمْ لا يُؤمِنونَ إلّا عندَ وقوعِ العذابِ بهمْ حينَ لا يَنفَعُهُمُ الإيمانُ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦و٩٧].

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ سَمّى نفسَ العذابِ صَيحَةً. وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ صَيحَةً لِما أنَّ العذابَ إذا نَزَلَ بهِمْ، ووقَعَ عليهِمْ يَصيحونَ، فَسَمّى ذلكَ صيحةً لِصِياحِهِمْ، أو أنْ يكونَ ذلكَ إذا نَزَلَ بهمْ كانَ فيهِ صِياحٌ وصوتُ الشيءِ الهائلِ العظيمِ الشديدِ إذا هَوَى، وَوَقَعَ، ومالَ إلى الأرضِ، كانَ فيهِ صِياحٌ وصوتٌ حتى يُفْزِعَ الناسَ منهُ.

فَعَلى ذلكَ الصيحةُ التي ذَكَرَ يَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قالَ أبو عُبَيدةَ: مَنْ فَتَحَها أرادَ مالَها مِنْ راحةٍ ولا إفاقةٍ؛ كأنهُ ذهبَ إلى إفاقةِ المريضِ مِنْ عِلَّتِهِ. ومَنْ ضَمَّها جَعَلَها مِنْ فُواقِ الناقةِ، وهو بينَ الحَلْبَتَينِ، ويريدُ: مالَها مِنْ فُواقٍ. أي انْتِظارٍ ومَكْثٍ[1].

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبيُّ ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ إذْ هي دائمةٌ أبداً، لا تَنقَطِعُ.

وقالَ الكِسائيُّ: الفَواقُ بالنصبِ والرفعِ لُغَتانِ، وهو مِنْ فُواقِ الناقةِ بينَ الحلبَتَينِ والرضعَتَينِ.

وقالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي مِنْ مَرَدٍّ ومَرْجِعٍ وقرارٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مَدُّهُ البَصَرَ، يقولُ: هي أقرَبُ مِنْ ذلكَ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [النحل: ٩٩] واللهُ أعلَمُ.

وأصلُ الفَواقِ كأنهُ مِنَ العَودِ والرُّجوعِ كَعَودِ اللَّبَنِ إلى الضَّرْعِ بَعْدَما ما حُلِبَ مرَّةً، واللهُ أعلَمُ.

ذُكِرَ عنِ الحَسَنِ في قولِهِ ﷻ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ يقولُ: حادِثِ القرآنَ بقلبِكَ، وهو [مِنْ][2] قولِ العَرَبِ: [صادَيْتُ الدابَّةَ إذا كانَتْ صَعْبَةً، فلاطَفْتُها][3] حتى ذَلَّتْ، ولانَتْ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿صٓ﴾ هو أشَدُّ كلامٍ، وهو شِبْهُ قَسَمٍ. قالَ: والصادي في غَيرِ هذا الموضِعِ العطشانُ، وقومٌ صادونَ.

ثم اخْتُلِفَ في مَوضِعِ [جوابِ][4] القسمِ:

قالَ[5] الكسائيُّ: مِنْ [جَوابِ][6] القَسَمِ في القرآنِ ما هو ظاهِرٌ، لا يَخْفَى، ومنهُ غامِضٌ:

فَمِنْ ظاهِرِهِ قولُهُ ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ وجوابُهُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [التكوير: ١٥و١٦و١٩].

ومِنْ غامِضِهِ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ قالَ بعضُ الناسِ: مَوضِعُ جَوابِهِ[7] قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤] [مَعَ بُعْدِ ما بَينَ هذا الكلامِ وبَينَ القسمِ في أوّلِ السورةِ][8] واللهُ أعلَمُ.

[طالَ كلامُ العلماءِ في جوابِ هذا القسمِ حتى بَلَغَ ما نَصُّوا عليهِ خمسةَ نصوصٍ، كلُّها مُحتَمَلَةٌ إلّا هذا الخامسَ][9] ولكنَّ قَسَمَهُ، واللهُ أعلَمُ، عندي: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ ثم اعترَضَ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ومَوضِعُ جَوابِهِ][10] ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ [مَعْناهُ: لَكَمْ أهلَكْنا، إلّا أنهُ لمّا اعتَرَضَ بَينَهُ وبَينَ القَسَمِ قولُهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ حَذَفَ لامَ الجوابِ][11] وصارَ قولُهُ ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ رَدّاً عليهِ وجواباً له وهو غريبٌ ظريفٌ غامضٌ.

وقولُهُ ﷻ ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذي الشَّرَفِ، أي مِنْ أرومَتِهِ شَرَفٌ، وقيلَ: ذي الشَّأنِ. وقيلَ: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ فيهِ ذِكْرُ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى وذِكْرُ مَنْ كانَ قَبْلَهُ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٥٧. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: صادته الدابة إذا كادت منعت فاطعتها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: على ما ذكروا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قسمه. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من معاني القرآن الكريم للفراء ح٢/ ٣٩٧، في الأصل وم: لا أراه شيئاً طال الكلام وخامسُ القصص ما لا يكون ذلك قسمه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

وقولُهُ ﷻ: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [الآية: ٢] قيلَ: في تكبُّرٍ وتكذيبٍ، وقيلَ: في حَمِيَّةٍ وخِلافٍ، وقيلَ: في غَفلَةٍ ونَحوِهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [الآية: ٣] قالَ بعضُهُمْ: أي هَرَبْتُم في غَيرِ وَقْتِ الهَرَبِ، ومَناصٍ مَهْرَبٍ، وناص يَنوصُ نَوصاً، وهو المَنْجى والغَوثُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي لاتَ حينَ مَهْرَبٍ على ما قالَ أبو عَوسَجَةَ. وقالَ: النَّوصُ التأخُّرُ في [كلامِ العَرَبِ][(١)] والمَنُوصُ المُتقدِّمُ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ ذلكَ الوَقتَ ليسَ هو وَقتَ المَهْرَبِ ولا وَقتَ المَنْجى ولا وَقتَ الغَوثِ على ما تقدَّمَ غيرُهُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [الآية: ٥] قالَ بعضُهُمْ: عُجابٌ بلغةِ قومٍ: عَجَبٌ.

وقالَ الكسائيُّ: العُجابُ والعُجّابُ والعَجيبُ والعَجَبُ. كلُّها لغاتٌ [والمَعْنى واحدٌ][(٢)].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿عُجَابٌ﴾ يُكثِرُ التَّعجُّبَ كما يُقالُ: كُبارٌ وكُبّارٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أيِ الأشرافُ منهمْ، وقالوا للأتباعِ على ما ذَكَرْنا ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ إلى أبي طالبٍ، وأنيبوا إلى عبادةِ آلهتِكُمْ.

[وقولُهُ تعالى][(٣)]: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [الآية: ٦] قالَ /٤٥٨ ـ ب/ بعضُهُمْ: بِقَبولِ إسلامٍ؛ وذلكَ كانَ حينَ أسلَمَ عُمَرُ ؓ ﴿لَشَيْءٌ﴾ أي لأمرٌ ﴿يُرَادُ﴾ فَمَشَوا إلى أبي طالبٍ، وقالوا لهُ ما ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ. والقصةُ طويلةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ أيِ امضوا، وارجِعوا إلى عبادةِ آلهتِكُمْ ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ مِن عندِ محمدٍ ﷺ ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ﴾ عبادةِ ﴿آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ بأهلِ مكةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ يَعْنونَ عبادةَ إلهٍ واحدٍ وتَرْكَ عبادةِ آلهةٍ في المِلَّةِ الآخِرةِ.

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: المِلَّةُ الآخِرةُ النَّصرانيَّةُ واليهوديَّةُ كِلتاهُما.

وقالَ بعضُهُمْ: يَعْنونَ بالمِلَّةِ[(٤)] [التي][(٥)] هم عليها وآباؤُهُمْ؛ يقولونَ: ما سَمِعْنا عبادةَ إلهٍ واحدٍ وتَرْكَ عبادةِ الآلهةِ في الدينِ [الذي][(٦)] نحنُ وآباؤنا عليهِ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [الآية: ٧] أي ما هذا إلّا اختِلاقٌ مِن نفسِهِ.

[وقولُهُ تعالى][(٧)]: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ يَعْنونَ النُّبوَّةَ والكتابَ والوحيَ، وهو أفقَرُنا وأصغَرُنا، ونحنُ أكبَرُ سِنّاً، وأعظَمُ شَرَفاً.

يقولُ اللهُ ﷻ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ [الآية: ٨] بأنهُ لم يَنزِلْ [على غيرِهِ لِما لم][(٨)] يَذُوقُوا عذابي، وهو قولُ مُقاتِلٍ.

ثم قالَ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي أيَملِكونَ[(٩)] نِعمَةَ ربِّكَ أي أبأيديهِمْ[(١٠)] مفاتيحُ الرحمةِ والنُّبوَّةِ والرسالةِ؟ فَيَضعوها[(١١)] حيثُ شاؤوا، أي ليسَتْ بأيديهِمْ، ولكنَّها بيدِ اللهِ ﴿الْعَزِيزِ﴾ في مُلْكِهِ ﴿الْوَهَّابِ﴾ [الآية: ٩] يَهَبُ النُّبوَّةَ والرسالةَ لِمَنْ يَشاءُ، ويَضَعُها في مَنْ يَشاءُ.

ثم قالَ: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي ليسَ لهمْ ذلكَ، ولكنَّ اللهَ ﷻ يوحي[(١٢)] الرسالةَ لِمَنْ يَشاءُ، ويَختارُ لها مَنْ يَشاءُ.

ثم قالَ: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [الآية: ١٠] أي الأبوابِ التي في السماءِ؛ إنْ كانوا صادِقينَ بأنَّ محمداً ﷺ اختَلَقَهُ مِن تِلقاءِ نفسِهِ فَلْيَستَمِعوا إلى الوَحْيِ حينَ يُوحي اللهُ إلى النَّبيِّ محمدٍ ﷺ [على ما][(١٣)] يقولُ أولئكَ.

---

(١) في الأصل و م: الكلام. (٢) في الأصل وم: واحدة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦)ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقالوا. (٨) في الأصل وم: عليه لما. (٩) في الأصل وم: يحتمل. (١٠) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فيضعونها. (١٢) في الأصل وم: فيوحي. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُم: السَّبَبُ بينَ السماءِ والأرضِ أصْلَبُ مِنَ الحديدِ، وأدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، يَعْرُجُ بِهِ الملائكةُ، وهو المِعْراجُ، يُبْصِرُهُ المَيِّتُ إذا خَرَجَتْ روحُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ أي فَلْيَصْعَدوا في طَرَفِها، فَيَعْلَموا عِلْمَ ذلكَ: أَأُنْزِلَ عليهِمُ الذِّكْرُ أم لم يَنْزِلْ؟ واللهُ أعلَمُ. والارْتِقاءُ الصعودُ.

[ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: ارْتَقوا أنتُمْ][1] السَّبَبَ الذي ارْتَقى محمدٌ ﷺ وأْتوا بِمِثْلِ الذي أتَى بهِ محمدٌ، إنهُ ليس برسولٍ، أو أنْ يقولَ: أْتوا أنتمْ بالذي أتَى بهِ محمدٌ ﷺ مِنَ الدينِ والأسبابِ حتى تَخْتَصّوا بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ كما اخْتَصَّ محمدٌ ﷺ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [الآية: ١١] قالَ: وَعَدَ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ [أنهُ][2] سَيَهْزِمُ جُنْدَ المُشْرِكينَ. فقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: جاءَ تأويلُها يومَ بَدْرٍ. وقد ذَكَرْنا تأويلَها في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

والأحزابُ هُمُ الذينَ تَحَزَّبوا عليهِ، أي [تَفَرَّقَ قولُهُمْ فيهِ][3].

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي كتابَنا، وذلكَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُوعِدُهُمْ انهمْ يُؤْتَوْنَ كتابَهُمْ بِشِمالِهِمْ، فيهِ أعمالُهُمُ التي عَمِلوها في الدنيا في الآخِرَةِ. فعندَ ذلكَ قالوا لهُ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي كتابَنا الذي تُوعِدُنا أنهُ يُعْطَى [إلينا][4] بِشِمالِنا. قالوا ذلكَ اسْتِهْزاءً بهِ[5] وتكذيباً لهُ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي نَصيبَنا وحَظَّنا مِنَ العذابِ الذي تُوعِدُنا بهِ، وتُحَذِّرُنا يومَ الحسابِ ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ قالوا ذلكَ اسْتِهْزاءً بهِ وتكذيباً لهُ.

الآية ١٧ ولِذلكَ قالَ لهُ على إِثْرِ ذلكَ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يُصَبِّرُهُ، ويُقَوِّيهِ على ما يقولونَ لِيَصْبِرَ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ ليسَ على سؤالِ العذابِ والكتابِ الذي حَمَلَهُ عامَّةُ أهلِ التأويلِ عليهِ. ولكنهُ سؤالُ سَعَةٍ[6] النصيبِ في الدنيا. ويكونُ ذلكَ في قومٍ لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ، سألوا ما وُعِدوا مِنَ النَّعيمِ في الآخِرَةِ والسَّعَةِ في الدنيا. وذلكَ أشْبَهُ لأنهمْ سألوا رَبَّهُمْ أنْ يُعَجِّلَ ذلكَ لهمْ.

فلو كانَ على ما يَحْمِلُهُ أهلُ التأويلِ مِنْ سؤالِ العذابِ والكتابِ على الاسْتِهْزاءِ بالرسولِ والتكذيبِ لهُ لَسألوا الرسولَ ذلكَ، ولم يَسْألوا رَبَّهُمْ ذلكَ.

فَدَلَّ على ذلكَ على أنهُ أشْبَهُ وأقربُ، واللهُ أعلَمُ. ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ على ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِمْ: إنهُ ساحرٌ، إنهُ كذابٌ، وإنهُ اخْتَلَقَ هذا القرآنَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ، ونَحْوَهُ. ويُؤَيِّدُ ذلكَ قولُ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ. ذُكِرَتْ[7] لهمُ الجنةُ، فاسْتَهْوَاهُمْ[8] ما فيها، فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي نَصيبَنا مِنَ الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ لرسولِهِ ﷺ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وجوهاً:

أحدُها: أنِ اذْكُرْ نَبأَ داوُدَ ونَبأَ مَنْ ذُكِرَ في هذهِ السورةِ [مِنَ الأنبياءِ ﷺ][9] كقولِهِ[10]: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [الآية: ٤١] [وقولِهِ][11]: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [الآية: ٤٥] ومَنْ ذَكَرَهُمْ ﷺ، وعلى محمدٍ في هذهِ السورةِ. أي اذْكُرْ نَبأَ داوُدَ ونَبأَ مَنْ ذَكَرَ في هذهِ السورةِ، لم تكنْ لِتَعْرِفَ أنتَ ولا قومُكَ مِنْ قَبْلِ هذا، لَعَلَّهُمْ يُصَدِّقونَكَ، ويؤمنونَ بكَ، كقولِهِ ﷻ: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

---

(١) في الأصل وم: أو أن يقول ارتقوا أنهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تفرقوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بهم. (٦) في الأصل وم: السعة. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٨) في الأصل وم: فاستهوا. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: من قوله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أي اذكُرْ صَبْرَ هؤلاءِ على أذى قومِهِمْ وتكذيبِهِمْ إيّاهُم لِتَصْبِرَ على أذى قومِكَ وتكذيبِهِمْ إيّاكَ كما صَبَرَ أولئكَ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثالثُ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ، أي اذكُرْ لهمُ المُصَدِّقينَ وما يكونُ لهم مِنَ الكراماتِ والثوابِ كما ذَكَرْتَ لهمُ المُكَذِّبينَ وما نَزَلَ مِنَ العذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ، ويُصَدِّقونَكَ، لِيَعْلَموا مَنْ نَجا منهُمْ [بِمَ نَجا؟ ومَنْ هَلَكَ منهُمْ][1] بِمَ هَلَكَ؟ أو لِيَعْلَموا أنَّ في أوائلِهِمُ المُصَدِّقينَ لهُ والمُؤمنينَ، فكيفَ اتَّبَعْتُمُ المُكَذِّبينَ منهم دونَ المُصَدِّقينَ؟ واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ][2]: قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا﴾ أي اذكُرْ جَهْدَ داوُدَ وجَهْدَ مَنْ ذَكَرَ مِنْ هؤلاءِ في العِبادةِ والدينِ. وأمثالُ ذلكَ يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ ذا القُوّةِ على العبادةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ في أمرِ اللهِ في أمرِ الدينِ لأنهُ ألانَ لهُ الحديدَ حتى كانَ يَتَّخِذُ منهُ الدِّرْعَ وغيرَها مِنَ الأسلِحَةِ، وسَخَّرَ لهُ الطَّيْرَ والجبالَ حتى كانَتْ تُسَبِّحُ معهُ[3] بالعَشِيِّ والإشراقِ وحتى كانَ يَسْتَعْمِلُ ما اتَّخَذَ [مِنَ][4] الحديدِ في ما[5] شاءَ مِنْ أمرِ الدينِ مِنَ المُحاربةِ مع الأعداءِ والدَّرْءِ عن أهلِ الإسلامِ والدَّفْعِ عنهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مُطيعٌ للهِ مُقْبِلٌ على طاعتِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي مُسَبِّحٌ للهِ. ذُكِرَ أنهُ كانَ كثيرَ التسبيحِ، ولِذلكَ[6] قالَ ﷻ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] أي سَبِّحي. هذا يَحْتَمِلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي رَجّاعٌ إلى اللهِ يَرْجِعُ [إليهِ][7] في كلِّ أمْرٍ، وإليهِ يَفْزَعُ في كلِّ نائبةٍ وحادثةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي ذا الإحسانِ والعَمَلِ الصالحِ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ /٤٥٩ - أ/ أي تَوّابٌ.

وقتادةُ يقولُ: ذا القُوّةِ في العِبادةِ وذا الفِقْهِ في الإسلامِ وذا البَصَرِ في الدينِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿قِطَّنَا﴾ أي كِتابَنا، يُقالُ: قَطَطْتُ، أي كَتَبْتُ، أقُطُّ، قِطًّا، فأنا قاطٌّ، والكِتابُ مَقْطوطٌ، والقَطُّ أيضاً القَطْعُ، يُقالُ: قَطَطْتُ أظفاري، والقَطُّ الدَّهْرُ، ويُقالُ: قَطِي أي حَسْبي، وقَطْكَ أي [حَسْبُكَ][8].

وقالَ القُتَبِيُّ: القِطُّ الصَّحيفةُ المكتوبةُ، وهي الصَّكُّ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ وهو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ ﷻ إنّا سخَّرْنا الجبالَ يُسَبِّحْنَ، أخبَرَ أنهُ سخَّرَ الجبالَ والطيرَ وما ذَكَرَ لِداوُدَ كي يُطِعْنَهُ، ويُسَبِّحْنَ معهُ.

وفيهِ لُطْفٌ مِنَ اللهِ ﷻ في هذهِ الأشياءِ، والخُصوصيّةُ لِداوُدَ في ذلكَ حينَ[9] صَيَّرَ الجبالَ والطَّيْرَ بحيثُ يَفْقَهْنَ وقتَ تسبيحِ داوُدَ مَعَهُ على ما أخبَرَ ﷻ.

وفيهِ [لُطْفٌ مِنَ][10] اللهِ ﷻ حيثُ صَيَّرَ الجبالَ مع شِدَّتِها وصَلابَتِها بحيثُ تَعْرِفُ وقتَ تَسبيحِ داوُدَ، وتَعْرِفُ تَسْبيحَهُ، وتُسَبِّحُ، وتَلينُ لهُ.

فجائزٌ أنْ يَجْعَلَ قَلْبَ الكافرِ بحيثُ يَلينُ، ويَخْضَعُ للهِ بلطفِهِ، إذْ قلبُهُ ليسَ أشَدَّ قَسْوَةً وصلابَةً مِنَ الجبالِ. فإذا جَعَلَ لُطْفَهُ فيها لانَتْ وخَضَعَتْ. فَعَلى ذلكَ إذا جَعَلَ ذلكَ اللطفَ في قَلْبِ الكافرِ لا يَحْتَمِلُ ألّا يَلينَ، ولا يَخْضَعَ، إذْ هو ليسَ أصْلَبَ وأشَدَّ مِنَ الجبالِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا الخُصوصيّةُ لهُ فإنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ بكلٍّ مِنَ الرملِ خُصوصيّةً في شيءٍ، لم يَجْعَلْ مثلَ تلكَ الخُصوصيّةِ لآخَرَ[11] في ذلكَ الشيءِ بعينِهِ بلطفِهِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: معهم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: وكذلك. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث.
(١٠) في الأصل وم: إن. (١١) في الأصل وم: لأخرى.

جنة السنة

وخُصوصِيَّةُ داوُودَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسخيرِ ما ذَكَرَ لهُ مِنَ الجبالِ والطيرِ والتسبيحِ معهُ وما ذَكَرَ مِنْ إلانَةِ الحديدِ لهُ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ.

وخُصوصِيَّةُ سليمانَ ما ذَكَرَ من تَسخيرِ الرياحِ لهُ وحَملِها إيّاهُ حيثُ شاءَ إلى ما شاءَ مَسيرَةَ شَهرٍ بِغُدوَةٍ ومَسيرَةَ شَهرٍ بِعَشِيَّةٍ حيثُ قالَ ﷻ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] وما ذَكَرَ مِن فَهمِ نُطقِ الطيرِ والنُّطقِ معهُ، وفهمُهُ تَسبيحَها، ونَحوُ ذلكَ كثيرٌ.

ومثلُ هذا ما قد جَعَلَ لرسولِ اللهِ ﷺ حينَ ذُكِرَ أنهُ أخذَ أحجاراً، فَسبَّحنَ في يدِهِ حتى سَمِعَ ذلكَ مَنْ حَضرَهُ، وما ذُكِرَ أنَّ أصابعَهُ يُسبِّحنَ، ونَحوُهُ كثيرٌ.

فَلِكُلٍّ منهمْ خُصوصِيَّةٌ في شيءٍ، ليسَتْ تلكَ لِغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي مَجموعةً مُسخَّرَةً، أي سُخِّرَتْ لهُ الطيرُ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كلٌّ لهُ مُطيعٌ، وقالَ بعضُهُمْ: كلٌّ لهُ مُسبِّحٌ.

فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي مُطيعٌ، فهو يَحتَمِلُ: مُطيعٌ لِداوُودَ، وإنْ كانَ الأوّابُ، هو المسبِّحُ، فهو لا يَحتَمِلُ لِداوُودَ، لكنْ للهِ تباركَ وتعالى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ [لا][(١)] على إرادةِ حقيقةِ العَشِيِّ والإشراقِ، ولكنْ على إرادةِ التسبيحِ معهُ في كلِّ وقتٍ، فيكونُ العَشِيُّ كِنايةً عنِ الليلِ، والإشراقُ كِنايةً عنِ النهارِ. يُخبِرُ أنهنَّ يُسبِّحنَ في كلِّ وقتٍ مِنَ الليلِ والنهارِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في العَشِيّاتِ والغَدَواتِ خاصةً كقولِهِ ﷻ لِرسولِهِ ﷺ حينَ[(٢)] قالَ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] واللهُ أعلَمُ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسبيحِ هذهِ الأشياءِ صلاةً؛ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي يُصَلِّينَ للهِ كقولِهِ ﷻ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] دَلَّ أنَّ لها صلاةً، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: تَسبيحُ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ هو تسبيحُ خِلقَتِهِ، لا تَسبيحُ نُطقٍ وكلامٍ. لكنْ لو كانَ على هذا لكانَ لا مَعنًى لِذِكرِ تَسبيحِهِنَّ مَعَ داوُودَ ﷺ [بل يكونُ تَسبيحُهُنَّ][(٣)] مَعَ داوُودَ ﷺ وغَيرِهِ في كلِّ وقتٍ. دَلَّ أنهُ على تسبيحِ النُّطقِ.

وإنْ كانَ على الصلاةِ فهو ألّا تجوزَ الصلاةُ لأحدٍ حتى تُشرِقَ الشمسُ، وتَرتَفِعَ، حينَ[(٤)] ذَكَرَ إشراقَ الشمسِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ حَمَلَ قولَهُ ﷻ ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ على صلاةِ الضُّحَى. هل كانَ رسولُ ﷺ [صلّى في بيتِ أمِّ هانئٍ][(٥)]؟ فأخبَرَتْهُ أنهُ فَعَلَ. قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أي صلاةُ الإشراقِ، وهذهِ صلاةُ الإشراقِ؛ يعني صلاةَ الضُّحَى، واللهُ أعلَمُ. وسُمِّيَتْ صلاةُ الضُّحَى صلاةَ الأوّابينَ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: لأنهُ كانَ يَحرُسُهُ كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثونَ ألفاً مِنْ بَني إسرائيلَ. لكنْ ليسَ في ما ذَكَروا كثيرُ شَدِّ الملكِ وتَقوِيَتِهِ، إنما هو وصفُ ضَعفٍ إلّا أنْ يَعنُوا بما ذَكَروا كَثرَةَ أعوانِهِ وأنصارِهِ وفَضلَ أتباعِهِ وحَواشيهِ. فعندَ ذلكَ يَحتَمِلُ ما ذَكَروا مِنَ الحَرَسِ[(٦)] والحِفظِ. فليسَ فيهِ كثيرُ شَدٍّ ولا فَضلُ مَنقَبَةٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إذ ذا. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: فعل في بيتها. (٦) من م، في الأصل: الحرث.

وجائزٌ أنْ يكونَ غَيرُ هذا أشبَهَ لهُ وأَوْلَى بِما ذَكَرَ مُلْكَهُ. وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: شَدُّ مُلكِهِ مِمّا ذَكَرَ مِنَ إلانَةِ الحديد حتى كانَ يَتَّخذُ منهُ لِباساً مِنَ الدروعِ وغيرَها مِن أسبابِ الحَرْبِ والتأهُّبِ لها، وما يَصْلُحُ للقتالِ ما لم يُعْطَ مِثلَهُ لأحدٍ سواهُ، فَيَنقَطِعُ بذلكَ طَمَعُ الطامِعينَ لهُمْ في ذلكَ والراغبينَ في مُلكِهِ، ويأمَنُ هو بذلكَ ذَهابَه. فهو شَدُّ ملكِهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: شَدُّ مُلكِهِ بما ذَكَر مِنَ تَسخيرِ الجبالِ لهُ والطيرِ والتسبيحِ معهُ وما ذَكَرَ مِنْ طاعةِ هذهِ الأشياء لهُ والخُضوعِ لأمرِهِ. فَمَنْ بَلَغَ مُلكُهُ هذا المَبْلَغَ الذي وَصَفَ مِنْ طاعةِ مَنْ ذَكَرَهُ والتَّسخيرِ لهُ وعِبادَتِهِ للهِ تعالى، وطاعَتِهِ لرَبِّهِ في نفسِهِ حينَ[1] قالَ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لم يَقصِدْ أحدٌ مِنْ ملوكِ الأرضِ قَصْدَهُ، ولا طَمِعَ في زوالِ مُلكِهِ إليهِ بحالٍ. فهذا أشبَهُ أنْ يَجعَلَ تأويلَ شدِّ ملكِهِ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، ممّا قالَهُ أهلُ التأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وقولُهُ ﷻ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي النُّبُوَّةَ ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ أيِ البَيِّنَةَ على المُدَّعي واليَمينَ على المُدَّعى عليهِ. لكنْ [ليسَ][2] في ما ذَكَروا مِنْ جَعْلِ البَيِّنَةِ على المُدَّعي وجَعْلِ اليَمينِ على المُنكِرِ كثيرُ مَنقَبَةٍ وخصوصيّةٌ إذْ قد أُعطينا نحنُ مثلَهُ، وقد ذُكِرَ على الخُصوصيَّةِ لهُ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الحكمةِ التي[3] آتاها [لهُ][4] إحكامَ أمْرِهِ في ما بَيْنَهُ وبينَ ربِّهِ [في العبادةِ][5] والطاعةِ لهُ في كلِّ وقتٍ على ما وَصَفَهُ حينَ قالَ: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي ذا القوةِ والجَهْدِ في العبادةِ للهِ والطاعةِ له فيهِمْ وإنزالِ كلٍّ منهمْ منزلةً وتأليفِ قلوبِ بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ وجَمْعِهِمْ على دينٍ واحدٍ ومذهبٍ واحدٍ حتى لم يَقَعْ تَنازُعٌ ولا خِلافٌ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ ﷻ ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ أي قَطْعَ الخُصوماتِ في ما بينَهُمْ على التأليفِ والتَّلطيفِ وإيصالِ كلٍّ إلى حقِّهِ مِنْ غيرِ أنْ يَقَعَ بينهُمْ خُشونَةٌ أو ضِغْنٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما ذَكَرْنا مِنَ القصةِ بينَ الخُصومِ بالبَيِّنَةِ على المُدَّعي واليَمينِ على المُنكِرِ[6] وليسَ في ذلكَ كثيرُ مَنقَبَةٍ ولا خصوصيّةٌ. وقالَ بعضُهُمْ هو: أمّا بَعْدُ، وهذا أيضاً ليسَ بشيءٍ.

والأصلُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، والخِطابُ: هي[7] الخُصومَةُ.

قالَ أبو مُعاذٍ: الخِطابُ كالجِدالِ /٤٥٩ ـ ب/ والخِصامِ: يقولُ: خاطَبْتُهُ [خِطاباً][8] ومُخاطَبَةً واحدٌ [كما يقولُ: جادَلْتُهُ جِدالاً][9] ومُجادَلَةً. فكُلُّ فاعَلَهُ [لهُ مَصْدَرانِ][10] فِعالٌ ومُفاعَلَةٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الفَصْلُ القَضاءُ، والخِطابُ الخُصومَةُ. يقولُ: خاطَبْتُ الرجلَ، أي خاصَمْتُهُ. والإشراقُ، هو طلوعُ الشمسِ ووقوعُها في كلِّ ناحيةٍ بِنُورِها كقولِهِ ﷻ ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ أنَّ حَرْفَ الاستِفهامِ مِنَ اللهِ ﷻ يُخَرَّجُ على الإيجابِ أو على التقريرِ والتَّنبيهِ[11]. ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي قد أتاكَ نبأُ الخَصْمِ، فَتَفَكَّرْ فيهِ كيفَ ابْتَلاهُ اللهُ ﷻ و فَتَنَهُ [في][12] ما ذَكَرَ.

والثاني: قولُهُ ﷻ: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ أتاكَ: أُرسِلَ إليكَ نَبَؤُهُ وخَبَرُهُ: أنْ كيفَ ابْتِلاؤُهُ وفِتْنَتُهُ؟ وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أي اذكُرْ ما قَرَّبَهُ هو، أوِ اذكُرْ مُتَقَرِّبَهُ إيّاهُ، أوِ اذكُرْ خصومةَ الخَصْمَينِ إليهِ، أوِ اذكُرْ ما أُعطِيَ هو مِنَ الحِكمَةِ والحُكْمِ وفَصْلِ الخِطابِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أنه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: العبادة له أي لله تعالى. (٦) انظر صحيح مسلم: رقم الحديث ١٧١١ . (٧) في الأصل وم: هو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لها جمعان. (١١) من م، في الأصل: والبينة. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم قولُهُ تعالى: ﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ﴾ هو حَرْفُ التوحيدِ والوُحْدانِ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ حرفُ الجماعةِ.

الآية ٢٢ وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ ذَكَرَ بالجماعةِ. وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ بحرفِ الجماعةِ. وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ ثم ذَكَرَ بحرفِ التَّثْنيةِ حيثُ قالَ: ﷻ ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ذَكَرَ بعضَهُ بحرفِ الوُحْدانِ والإفرادِ، وبعضَهُ بحرفِ التَّثْنِيَةِ، وهي قصةٌ واحدةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: أمّا قولُهُ ﷻ: الخَصْمُ فهو مَصْدَرٌ [وهو صِفَةٌ لِلْجَمْعِ، وصِفَةٌ][1] الجَمْعِ والفَرْدِ والتَّثْنِيَةِ واحدٌ.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ و﴿دَخَلُوا۟﴾ و﴿قَالُوا۟﴾ [ونَحْوُهُ فقد][2] يُقالُ لِلاثْنَيْنِ ذلكَ لأنَّ الاثْنَيْنِ جماعةٌ كقولِهِ ﷻ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] والقلوبُ جماعةٌ، وإنما هما[3] قلبانِ، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، شائعٌ فيها.

وعندنا جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ دَخلوا عليهِ، و ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ ونَحْوُهُ: إنْ كانَ مع الخَصْمَينِ المَلَكَينِ ملائكةٌ سِواهُما[4] شُهودٌ على دَعْواهُما وخُصوماتِهِما تَسَوَّروا معهما، ودَخلوا معهما عليهِ، فلمّا فَزِعَ ﴿مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وإنْ كانَ مَنْ[5] تخاصَمَ بَينَ يديهِ اثنَينِ[6] لِما لا يُحتَمَلُ أنْ يقولَ داوُودُ لأحدِ الخَصْمَينِ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: ٢٤] يَنْسُبُهُ إلى الظُّلْمِ، ويَصِفُهُ بالبَغْيِ بِلا شُهودٍ، يَشْهَدونَ، إلّا أنْ يكونَ مِنَ الآخَرِ إقرارٌ على ما يَدَّعِي عليهِ.

فإذا كانَ كذلكَ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا أنهُ كانَ مَعَ المَلَكَينِ ملائكةٌ آخَرونَ، وأنَّ حاصِلَ الخُصومةِ لاثْنَينِ منهُمْ، وفي ما أُضيفُ الفِعْلُ إلى الجماعةِ كانوا جماعةً في التَّسَوُّرِ والدُّخولِ عليهِ [والقولِ لهُ][7]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وفي ما أُضيفَ إلى الاثْنَينِ كانَ اثْنانِ في الخُصومةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم فيهِ مِنَ الكلامِ والقولِ حينَ[8] قالا ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

الآية ٢٣ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وقولُهُ: ﴿أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ ونَحْوُهُ مِنَ الكلامِ والقولِ الذي كانَ منهما: كيفَ حَقَّقا ذلكَ، وقَطَعاهُ؟ أنهما خَصْمانِ، ولم يكونا في الحقيقةِ خَصْمَينِ، وأنَّ لهذا كذا وكذا نَعْجَةً، ولهذا واحدةً، ولم يكُنْ في الحقيقةِ ذلكَ، وأنَّ هذا بَغَى على هذا، ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الخُصوماتِ التي جَرَتْ بَينَهما، ولم يكُنْ ذلكَ كذلكَ في الحقيقةِ، كيفَ قالا ذلكَ، وحَقَّقاهُ؟ وهمْ ملائكةٌ، والملائكةُ لا يُحتَمَلُ أنْ يَكْذِبوا قَطُّ، أو يُرْسِلَهُمُ اللهُ لِيَكْذِبوا.

لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، على التَّقريرِ والتَّمَسُّكِ، أي لو كانَ لأحَدِهِما كذا كذا نَعْجَةً ولِلآخَرِ واحدةٌ، فَغَلَبَ صاحبُ النعاجِ الكثيرةِ على صاحبِ النَّعْجَةِ، فأخَذَها، أليسَ يكونُ ظالماً، أو يكونُ باغياً؟ ليسَ على التحقيقِ، ولكنْ لِما ذَكَرْنا: يُقَدِّرانِ عندَهُ [الزَّلَّةَ، ويُمَثِّلانِ الخطيئةَ][10] إنْ كانَتْ لهُ على ما يقولُهُ أهلُ التأويلِ يُقَدِّرونَهُ. وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى أشياءَ كثيرةً على التقريرِ والتمثيلِ على تقريرِ أشياءَ غَفَلُوا عنها، وسَهَوا فيها، فَعَلى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ تكونَ خُصومةُ هؤلاءِ الملائكةِ عندَ داوُودَ ﷺ وما كانَ منهمْ مِنَ القولِ والخُصومةِ، لِيَتَقَرَّرَ ما كانَ منهُ مِنَ الهَفْوَةِ والزَّلَّةِ[11]، لِيَعْرِفَ ذلكَ، ويَرْجِعَ عنها، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ طائراً وقعَ بَينَ يديهِ قريباً منهُ، فَنَظَرَ إليهِ، وصارَ مُعْجَباً بهِ، فَهَمَّ أنْ يأخُذَهُ، وارْتَفَعَ إلى كَوَّةِ[12] المِحْرابِ، فَصَعِدَ ليأخُذَهُ، فوقَعَ بَصَرُهُ على امرأةٍ، فأعْجَبَتْهُ. فإنَّ هذا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ.

وأمّا قولُهُمْ: أدامَ النَّظَرَ: أمّا هذا فإنهُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ مِنْ[13] داوُودَ أو نَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ ﷺ أنهُ يُديمُ النَّظَرَ إلى ما لا يَحِلُّ النَّظَرُ إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: ومصدر للجمع ومصدر. (٢) في الأصل: قد، في م: ونحوه قد. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: سواهم.
(٥) في الأصل وم: الذي. (٦) في الأصل وم: اثنان. (٧) في الأصل وم: لقول منهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: و.
(١٠) في الأصل: الزلزلة ويمثلا به الخطبة، في م: الزلة ويمثلا به الخطية. (١١) من م، في الأصل: الزلزلة. (١٢) من م، في الأصل: الكوة.
(١٣) في الأصل وم: ميل.

وأمّا الأوّلُ مِنَ الذّهابِ لِطَلَبِ ذلكَ الطائرِ والنّظرِ إليهِ: أنهُ مِن أينَ؟ وإلى ماذا؟ فذلكَ يُحتَمَلُ أنْ يكونَ، ثم هو يكونُ مَعْذوراً في الصعودِ إلى الكَوّةِ والارْتِفاعِ لِلنّظَرِ إلى الطائرِ لِما كانتِ الطيورُ قد حُشِرَتْ لهُ، وسُخّرَتْ في التسبيحِ معهُ والطاعةِ لهُ، فجائزٌ أنْ يكونَ لهُ البَحثُ والفَحصُ عنْ حالِ ذلكَ الطائرِ على ما أخْبَرَ عنْ سليمانَ حينَ[1] قالَ ﷺ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠].

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ هو في الصُّعودِ إلى الكَوّةِ والارْتِفاعِ إلى ذلكَ مَعْذوراً، لكنْ وَقَعَ بَصَرُهُ عليها بِلا[2] قَصْدٍ منهُ، ولا عِلْمٍ بِحالِها، ومالَ[3] قَلْبُهُ إليها لِحُسْنِها وجَمالِها، وذلكَ ما يكونُ بِلا تكَلُّفٍ ولا تَصَنُّعٍ[4]، وذلكَ مِمّا لا يَمْلِكُ دفعَهُ نَحْوُ ما كانَ مَيلُ[5] قلبِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى امرأةِ زيدٍ [وَوَعْدُ اللهِ لهُ][6] نِكاحَها حينَ[7] قالَ ﷺ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

[وأمّا][8] ما ذُكِرَ مِنْ بَعْثِ زَوجِها إلى القتالِ لِيُقْتَلَ فهذا أيضاً غيرُ مُحتَمَلٍ، لكنْ يَحتَمِلُ بَعْثُهُ إيّاهُ لِيُجاهِدَ أعداءَ اللهِ، وكانَ ذلكَ فَرْضاً عليهِ، فصارَ مَقتولاً فيهِ مِنْ غيرِ أنْ يَتَوَهَّمَ منهُ أنهُ قَصَدَ قَتْلَهُ وهلاكَهُ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ عُوتِبَ كلَّ هذا العتابِ حتى بَعَثَ اللهُ[9] الملائكةَ إليهِ بالخُصومةِ عندَهُ والتَّمَسُّكِ بما ذَكَرَ وتقريرِ ذلكَ عندَهُ، ثم أخْبَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ بَعْدَ طولِ المُدّةِ أنْ كانَ معذوراً في ذلكَ غيرَ مُؤاخَذٍ بهِ؟

قيلَ: إنَّ الأنبياءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ أجمَعينَ، كانوا يُؤاخَذونَ بأدْنى شيءٍ كانَ منهُمْ ما لا يُؤاخَذُ غيرُهُمْ بذلكَ، بل يُعَدُّ ذلكَ منهمْ مِنْ أرفَعِ الخِصالِ وأجَلِّها [نَحْوُ][10] ما عُوتِبَ يونُسُ ﷺ في خُروجِهِ مِنْ بَينِ قومِهِ لِيَسْلَمَ دِينُهُ أو نفسُهُ. لكنهُ خَرَجَ بلا إذْنٍ كانَ لهُ مِنَ اللهِ، فَعُوتِبَ لذلكَ. فَعَلى ذلكَ داوُدُ ﷺ وإنما فَعَلَ ذلكَ بِلا إذْنٍ مِنَ اللهِ ﷻ واللهُ أعلَمُ.

ثم في بَعْثِ الملائكةِ إليهِ في ما ذَكَرَ وجوهٌ مِنَ الحكمةِ وأنواعٌ مِنَ الفائدةِ:

أحدُها: جوابُ الحُجّابِ والحَرَسِ حينَ دخلوا عليه مِنْ غيرِ البابِ.

والثاني: دفعُ الحُجّابِ عنِ الخصومِ لا على وقتِ حاجةِ نفسِهِ حينَ دَخَلوا عليهِ مِنْ غيرِ البابِ لِلْخُصومةِ بِلا إذْنٍ منهُ.

والثالثُ: قُدْرَةُ [اللهِ على تَصْويرِ الملائكةِ][11] بصورةِ البَشَرِ مَعَ كونِ النفسِ الكثيفةِ ووجودِ [الجسدِ][12] معهمْ. وذلكَ يَرُدُّ على الفلاسفةِ مَذْهَبَهُمْ: أنَّ النفسَ الرّوحانيّةَ خُلِقَتْ مُنْتَشِرَةً مُتَحَرِّكَةً في كلِّ حالٍ، لكنَّ الجسَدَ الذي [جُعِلَتْ فيهِ يَمْنَعُها][13] عنْ ذلكَ. فإذا نامَ ذلكَ الجَسَدُ، أو ماتَ / ٤٦٠ - أ/ ذهبَتْ تلكَ النفسُ حيثُ شاءَتْ إلى حاجَتِها.

ألا تَرى أنَّ الملائكةَ قد صُوِّروا عليهِ بصورةِ البَشَرِ، واخْتَصَموا إليهِ خُصومةَ البَشَرِ، دلَّ [ذلكَ على أنهُمْ ليسوا][14] على ما وَصَفَهُمْ؟

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: صَعِدوا. وأصلُ التَّسَوُّرِ هو الدخولُ مِنَ العُلُوِّ والارْتِفاعِ، وهو النزولُ مِنَ السورِ، وهو الحائطُ المُشْرِفُ المرتَفِعُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لِما خافَ دخولَ المَوهِنِ في مُلْكِهِ إذْ دَخَلوا بِلا إذْنٍ مِنْ غيرِ البابِ، أو خافَ لِما ظَنَّ أنهمْ لصوصٌ مُكابِرونَ، أو لِما عَرَفَ أنهمْ ملائكةٌ جاؤوا بأمرٍ عظيمٍ ونَحْوِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تَجُرْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أعطِنيها، وقالَ بعضُهُمْ: أكْلِفْتُهُ، أي أعطَيتُهُ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ، وقالَ بعضُهُمْ: أي ضُمَّها إليَّ، واجْعَلْني كافِلَها، وهو قولُ القُتَبيِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: غَلَبَني في الخُصومةِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: فلا. (٣) في الأصل وم: ومالا. (٤) من م، في الأصل: صنع. (٥) في الأصل وم: مثل.
(٦) في الأصل وم: وعد لها. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: إليه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.
(١١) في الأصل وم: الملائكة على التصور. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: جعل فيه يمنعه. (١٤) في الأصل وم: على أنه ليس.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثم استثنى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الذينَ آمنوا، واعتَقَدوا في إيمانِهِمُ الأعمالَ الصالحاتِ، فإنهم لا يَبْغي[1] بعضُهُم على بعضٍ.

ثم أخبرَ أنَّ مَنْ آمَنَ، واعتَقَدَ في إيمانِهِ العَمَلَ الصالِحَ، أي مَنِ اتَّقى مِنَ المؤمنينَ ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وتَرْكُ البَغْيِ قليلٌ منهمْ.

وهذهِ الآيةُ شديدةٌ صعبةٌ على ما ذَكَرْنا.

وفيهِ أنَّ المؤمنَ الذي اعتَقَدَ في إيمانِهِ العَمَلَ الصالِحَ، وتركَ [البَغْيَ][2] على غَيرِهِ، قليلٌ في كلِّ زمانٍ ودهرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم فَسَّرَ أهلُ التأويلِ الظَّنَّ ههنا الإيقانَ، أي أيقَنَ، وكأنَّ الإيقانَ، هو عِلْمٌ يُسْتَفادُ بالأسبابِ على ما استَفادَ داوُدُ ﷺ عِلْماً بِخُصومةِ المَلَكَيْنِ عندَهُ. ولِذلكَ لا يُضافُ الإيقانُ إلى اللهِ؛ أنهُ أيقَنَ كذا، لأنهُ عِلْمٌ يُستَفادُ بالأسبابِ، وهو عالِمٌ بذاتِهِ لا بسببٍ.

وأمّا العِلْمُ فإنهُ قد يُسْتَفادُ بسببٍ وبغَيرِهِ، لِذلكَ أُضيفَ إليهِ حَرْفُ العِلْمِ، ولم يُضَفْ حَرْفُ الإيقانِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في ذِكْرِ زَلّاتِ الرسلِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، والأصفياءِ في الكتابِ؟ وهو وَصَفَ نفسَهُ أنهُ غفورٌ، وأنهُ سَتورٌ، وقد أَمَرَنا بالتَّستُّرِ على مَنِ ارْتَكَبَ شيئاً مِنْ ذلكَ وبالغُفرانِ والعَفْوِ، فكيفَ ذَكَرَ هو زَلّاتِ أنبيائِهِ وأصفيائِهِ حتى نَقْرَأَ زَلّاتِهِمْ في المَساجِدِ والمَكاتِبِ بأعلى صوتٍ إلى يومِ التَّنادي؟ وما الحكمةُ في ذِكْرِ ذلكَ؟

قالَ الشيخُ أبو منصورٍ محمدُ بنُ محمدٍ الفقيهُ ﷺ تُخَرَّجُ زَلّاتُ الأنبياءِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، في القرآنِ وتَرْكُ التَّسَتُّرِ عليهِمْ على وُجوهٍ:

أحَدُها: ذِكْرُها ليكونَ ذلكَ آيةً لرسالةِ محمدٍ ﷺ لأنَّ قلوبَ الخَلْقِ وأنفسَهُمْ [لا][3] تَحْتَمِلُ ذِكْرَ مَساوِئِ الآباءِ والأجدادِ، وكذلكَ لا تَحْتَمِلُ قلوبُهُمْ ذِكْرَ مَساوِئِ أنفسِهِمْ.

فإنْ ذَكَرَ رسولُ اللهِ ﷺ ذلكَ دلَّ على أنهُ أمرٌ مِنَ اللهِ ﷻ بِذِكْرِ ذلكَ لِيَعْلَمَ الناسُ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأنهُ عن أمْرٍ منه ذَكَرَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ذِكْرُ زَلّاتِهِمْ امتِحاناً منهُ عبادَهُ أنْ كيفَ يُعاملونَ رُسُلَهُمْ بعدَ ما عَرَفوا منهُمُ الزَّلّاتِ، وأظْهَرَ عنهُمُ العَثَراتِ، وكيفَ يَنْظُرونَ بعينِ الرحمةِ والرأفةِ. يَمْتَحِنُهُمْ بذلكَ على ما امْتَحَنَهُمْ بسائرِ أنواعِ المِحَنِ.

والثالثُ: ذِكْرُ زَلّاتِهِمْ[4] لِيَعْلَموا؛ أعني الخَلْقَ، كيفَ عامَلوا رَبَّهُمْ عندَ ارْتِكابِهِمُ الزَّلّاتِ والعَثَراتِ، فَيُعامِلونَ رَبَّهُمْ عندَ ارْتِكابِهِمْ ذلكَ على ما عامَلَهُ الرسلُ بالبكاءِ والتَّضَرُّعِ والفَزَعِ إليهِ والتوبةِ عن ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ][5]: ذِكْرُها لِيُعْلَمَ أنَّ ارْتِكابَ الصغائرِ لا يُزيلُ الوَلايةَ [عنهُ][6] ولا يُخْرِجُهُ مِنَ الإيمانِ.

وذلكَ على الخَوارِجِ بِقَولِهِمْ: إنَّ مَنِ ارْتَكَبَ صَغيرةً أو كَبيرةً خَرَجَ مِنَ الإيمانِ.

[والخامسُ][7]: أن يكونَ ذَكَرَها[8] لِيُعْلَمَ أنَّ الصغيرةَ ليسَتْ بمَغْفورةٍ، ولكنْ لهُ أنْ يُعَذِّبَ عليها.

وليسَ على ما قالتِ المعتزلةُ أنْ ليسَ للهِ أنْ يُعَذِّبَ أحداً على الصغيرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وزَلّاتُ الأنبياءِ ﷺ مِنَ الصغائرِ في [حقِّهِمْ لِقيامِ النَّهْيِ، وإنْ كانَتْ مُباحةً في نفسِها في حقِّ غَيرِهِمْ، وهي تركُ الأفضَلِ، ثم خافَ الأنبياءُ ﷺ على ذلكَ][9] فلولا أنهمْ عَرَفوا أنَّ اللهَ تعالى لهُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ عليها، وإلّا لم يَخافوا منها على[10] ما ذَكَرَ منهُمْ.

(١) في الأصل وم: يبغون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: منهم. (٥) في الأصل وم: أو أن يكون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: ذلك. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أوب الناس فخافوا عليها. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كل.

جنة السنة

يُذكَرُ عنِ الحَسَنِ أنَّ داوُدَ جَزَّأَ الدهرَ أجزاءً: يوماً لنسائِهِ ويوماً لِعبادةِ ربِّهِ ويوماً [لِلقضاءِ بَينَ][1] بَني إسرائيلَ ويوماً لِعُبّادِ بَني إسرائيلَ [يُذَكِّرُهُمْ][2] ويُذَكِّرونَهُ، ويُبْكيهِمْ، ويُبْكونَهُ. فلمّا كانَ يومُ بَني إسرائيلَ ذَكَروا، فقالوا: هل يأتي على الإنسانِ يومٌ لا يُصيبُ بهِ ذنباً؟ فأضمَرَ داوُدُ في نفسِهِ أنهُ يُطيقُ ذلكَ، قالَ: فلمّا كانَ يومُ عبادتِهِ غَلَّقَ أبوابَهُ، وأمَرَ ألّا يدخُلَ عليهِ، أحدٌ، فأكَبَّ على الزَّبورِ يَقرَؤُها، فابْتُلِيَ بما ذَكَروا. قالَ: ولِذلكَ سُمِّيَ أوّاباً، واللهُ أعلَمُ.

وابنُ عباسٍ وهؤلاءِ قالوا: إنهُ كانَ لهُ تِسْعٌ وتِسعونَ امرأةً، فكانَ يكونُ عندَ كلِّ امرأةٍ يوماً، فإذا كانَ رأسُ المئةِ يَفرُغُ للعبادةِ. ففي ذلكَ اليومِ أصابَهُ ما أصابَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ ﷻ ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي غالَبَني في الكلامِ، أرادَ إذا تَكَلَّمَ أنْ يكونَ أبْيَنَ مني، وإذا دَعا، ودَعَوتُ [أنْ يكونَ][3] أكرَمَ مني، أو [إذا][4] ما مِلْتُ يكونُ أعرَضَ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي زَلَّتَهُ التي كانَتْ منهُ وعثرَتَهُ. وما يقولُ أهلُ التأويلِ: ربُّهُ أوحَى إليهِ أني غَفَرْتُ لكَ، لكنْ لابدَّ أنْ يَتَعلَّقَ بكَ أوريا في رؤوسِ الخلائقِ، ثم أستَوهِبُكَ منهُ، وأعَوِّضُ[5] كذا.

فذلكَ ممّا لا يقولُ بهِ، ولا يُعْلَمُ ذلكَ، ولا يَصِحُّ ذلكَ، ولا يَستَقيمُ على ما ذَكَرْنا نحنُ: أنه لم يكُنْ منهُ لأوريا ما يَلْحَقُهُ ما يَذْكرونَ، إنما أمَرَهُ بِمُجاهَدَةِ أعداءِ اللهِ، وكانَ لهُ أنْ يأمُرَ. إلّا أنهُ عُوتِبَ لأنَّ الأنبياءَ ﷺ كانوا يُعاتَبونَ بأدنَى شيءٍ كانَ منهم، ويُعَيَّرونَ على ذلكَ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، وقد عَرَفْنا أنهُ كانَ منهُ شيءٌ عُوتِبَ عليهِ، ثم عَلِمْنا أنَّ ربَّهُ غَفَرَ لهُ بقولِهِ ﷻ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

فأمّا ما سِوَى ذلكَ الذي ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ فَلا نَعرِفُهُ. فإنْ صَحَّ شيءٌ منهُ فيُقالُ بهِ، وإلّا التَّرْكُ أولَى بهِ وأسلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في باقي عُمُرِهِ ما يُزلِفُهُ لَدينا، أو يُقَرِّبُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أو أنْ يكونَ لهُ زُلْفَى عندَهُ في الآخِرَةِ، أي لهُ زُلْفَى عندَهُ في الآخرةِ أي لهُ كرامَةٌ ومَنْزِلَةٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في جملةِ الأرضِ مِنَ الرسلِ والأنبياءِ والملوكِ وغيرِهِمْ على الشريفِ والوَضيعِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في الرسلِ خاصّةً.

وكِلا التأويلَينِ يَرْجِعانِ إلى واحدٍ. إلّا أنَّ أحَدَهما يرجِعُ إلى العامّةِ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ثم لم يَنْهَهُ عَنْ هَوَى النَّفسِ ولكنْ نهاهُ عنِ اتِّباعِ هَواها؛ إذِ النفسُ قد تَهْوَى في الحُكْمِ بِغيرِ حقٍّ حينَ[6] قالَ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ لأنَّ النَّفسَ أُنْشِئَتْ على الهَوَى والمَيلِ إلى اللَّذّاتِ والشَّهَواتِ / ٤٦٠ ـ ب/ وعلى ذلكَ طُبِعَتْ، فيكونُ في هَواها إلى ما تَهْوى مَدْفوعاً غَيرَ مالكٍ ولا قادرٍ على دَفْعِهِ. لِذلكَ لم يَنْهَهُ[7] عن هَواها، ولكنْ نَهاهُ عنِ اتِّباعِ هَواها. ويَقدِرُ على مَنْعِها بالعقلِ ورَدِّها إلى اتِّباعِ الحقِّ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذَكَرَ أنهُ لو اتَّبَعَ هَواها، إذا اتَّبَعَهُ المَرْءُ، أضَلَّهُ عن سَبيلِهِ. لكنهُ إذا اتَّبَعَهُ في شيءٍ بعدَ شيءٍ يَحمِلُهُ على الإضلالِ عن سَبيلِهِ؛ إذْ مَنْ ضَلَّ عن سَبيلِهِ إنما يَضِلُّ لِاتِّباعِهِ هَواهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] أخبَرَ أنَّ مَنِ اتَّخَذَ إلهاً دونَهُ إنما اتَّخَذَهُ بِهَواهُ لا بِحُجَّةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي تَرَكوا الأعمالَ التي تُعمَلُ لِيومِ الحسابِ، أو ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ أي تَرَكوا الإيمانَ بهِ والإقرارَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لقضاء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو عوض.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ينه.

جنة السنة

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ الباطلُ هو الفِعْلُ الذي يُذَمُّ عليهِ [فاعِلُهُ][1]. والحَقُّ هو الذي يُحْمَدُ عليهِ فاعِلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لم يَظُنَّ أحدٌ مِنَ الكَفَرَةِ أنَّ اللهَ خَلَقَ شيئاً باطلاً، لكن يكونُ خَلْقُ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما مِنَ الأصلِ مَخلوقاً باطلاً على ما عِندَ أولئكَ الكَفَرَةِ وفي حُسْبانِهِمْ؛ لأنَّ عِندَهُمْ أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ بَعدَ ما يَموتونَ[2].

[وكانَ][3] خَلْقُ ذلكَ كلِّهِ لو لم يَكُنْ بَعْثٌ ولا نُشورٌ خَلْقاً باطلاً لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ لو لم يَكُنْ بَعْثٌ لَحَصَلَ إنشاؤُهُ إياهُمْ لِلْفَناءِ خاصّةً. وإنشاءُ الشيءِ وبناؤُهُ لِلْفَناءِ خاصةً لا لِعاقِبَةٍ تُقْصَدُ عَبَثٌ باطلٌ سَفَهٌ كقولِهِ ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] إلى آخِرِ الآيةِ، صَيَّرَ خَلْقَهُ إياهُمْ إذا لم يَكُنْ رجوعٌ إليهِ عَبَثاً. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

والثاني: أنهُ لو لم يكُنْ بَعْثٌ لَكانَ خَلْقُهُمْ غيرَ حكمةٍ، لأنهُ قد جَمَعَهُمْ جميعاً في هذهِ[4] الدنيا ولَذّاتِها [ولم يُفَرِّقْ بينَ][5] الوَلِيِّ والعَدُوِّ. وفي الحكمةِ التَّفريقُ والتَّمييزُ بينَهما. فلو لم تَكُنْ دارٌ أُخرى لِتُفَرِّقَ بينَهما لكانَ في خَلْقِهِمْ غيرَ حكيمٍ.

ثم يقولُ قَتادةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قولِهِ ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ يقولُ: لم يَذْكُرِ اللهُ ﷻ مِنْ شَأْنِ داوُدَ ﷺ ما ذَكَرَ إلّا أنْ يكونَ داوُدُ قَضى نَحْبَهُ مِنَ الدنيا على طاعةِ اللهِ والعَمَلِ [بِما يُرْضي اللهَ][6] والعَدْلِ في ما وَلّاهُ اللهُ ﷻ ولكنَّ اللهَ تعالى وَعَظَ نَبِيَّهُ ﷺ، والمؤمنينَ مَوعِظَةً بَليغةً شافِيَةً، لِيُعْلِمَ [أنَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ هذا الحُكْمِ][7] شيئاً أنهُ ليسَ بَينَ اللهِ وبَينَ العبادِ سَبَبٌ يُعْطِيهِمْ خيراً، ولا يَدْفَعُ عنهمْ بهِ شرّاً إلّا بطاعةِ اللهِ والعملِ بما يُرْضي.

وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي [جَعَلْنا لكَ][8] الخِلافةَ في ما ذَكَرْنا.

الآية ٢٨ وقولُهُ ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كانَ ظَنُّهُمْ أنْ لا بَعْثَ ولا نُشورَ.

فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنهُ لو كانَ على ما ظَنَّ أولئكَ الكَفَرَةُ أنْ لا بَعْثَ لكانَ في ذلكَ جَعْلُ الذينَ آمنوا، وعَمِلوا الصالحاتِ في هذهِ الدنيا كالمُفْسِدينَ في الأرضِ، وجَعْلُ المُتَّقينَ كالفُجّارِ؛ إذْ قد سَوّى بينَهُمْ في هذهِ الدنيا وجَمَعَهُمْ في لَذّاتِ هذهِ الدنيا وشَهَواتِها وفي حَسَناتِها وسَيِّئاتِها. وفي الحكمةِ التفريقُ بَينَهُمْ[9] والتمييزُ، وقد سَوّى بَينَهُمْ[10] في الدنيا [على][11] ما ذَكَرْنا مِنْ جَمْعِهِمْ في المِحْنَةِ بالخيرِ والشَّرِّ.

فلو كانَ على ما ظَنَّ أولئكَ أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ لكانَ ذلكَ جَمْعاً[12] وتَسْوِيَةً بَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ. وفي الشاهِدِ مَنْ سَوّى بَيْنَ مَنْ عاداهُ وبَيْنَ مَنْ والاهُ، وجَمَعَ بينَهُمْ في البِرِّ والجَزاءِ كانَ سَفيهاً غيرَ حكيمٍ.

فَعَلى ذلكَ اللهُ، سُبْحانَهُ، لو لم يَجْعَلْ داراً أُخرى يُفَرِّقُ بينَهُمْ[13] فيها كانَ غيرَ حكيمٍ، إذْ قد سَوّى بينَهُمْ[14] وجَمَعَ، تعالى اللهُ، ﷻ عما يَقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: يجبُ أنْ يُفَرِّقَ بينَهُمْ[15] في الدارَينِ جميعاً في الدنيا والآخِرَةِ، وقد فَعَلَ حيثُ سَمّى هؤلاءِ ضُلّالاً وهؤلاءِ مؤمنينَ، وخَذَلَ الكُفّارَ، وأذَلَّهُمْ، ووَفَّقَ المؤمنينَ، وأعَزَّهُمْ، وهو قولُ المعتزلةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ماتوا. (٣) في الأصل وم: مكان. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: بعثهم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: به. (٧) في الأصل وم: من ولي هذا يحكم. (٨) في الأصل وم: جعلناك. (٩) في الأصل وم: بينهما. (١٠) في الأصل وم: بينهما. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: جمع. (١٣) في الأصل وم: بينهما. (١٤) في الأصل وم: بينهما. (١٥) في الأصل وم: بينهما.

جنة السنة

ومنهمْ مَنْ يقولُ: لا يجبُ ذا في الآخِرةِ لأنَّ الدنيا مِحنةٌ وابتِلاءٌ؛ يُمْتَحَنُ الفريقانِ جميعاً بالخيرِ مَرّةً والشَّرِّ ثانياً وبالحَسَنةِ تارةً وبالسَّيِّئةِ أخرى. ما أخبرَ حينَ[1] قالَ ﷻ ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وذكَرَ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] أخبرَ ﷻ أنهُ يَمْتَحِنُهُمْ، ويَبْتَليهِمْ بالخيرِ والشَّرِّ وبالسَّيِّئةِ والحَسَنةِ، وذلكَ للفريقَينِ جميعاً على ما ذَكَرْنا مِنْ جَمْعِهِ إياهُمْ جميعاً في الحالَينِ. فإنما هي مَجْعولةٌ لِلْجَزاءِ خاصّةً. فهنالكَ يَقَعُ التفريقُ والتَّمْييزُ بَينَهما لا في ما فيهِ المحنةُ والابْتِلاءُ.

وأمّا قولُهُمْ: إنهُ فَرَّقَ [بَينَهُمْ حينَ][2] سَمّى هؤلاءِ ضُلّالاً وهؤلاءِ مؤمنينَ، وخَذَلَ هؤلاءِ، ووفَّقَ أولئكَ، فليسَ ذلكَ بِتَفْريقٍ بَينَهُمْ[3] لأنهُ إنما سَمّاهُمْ ضُلّالاً كَفَرةً بِفِعْلِهِمُ الذي اختاروهُ، وصَنَعوا [أمراً آثَروهُ على غَيرِهِ][4]. فإنما هو تَسْمِيَةُ فِعْلِهِمْ لا جَزاءٌ [يُجْزَونَ عليهِ][5] واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ دلالةٌ لزومِ الحُجّةِ والوَعيدِ على الظَّنِّ والجَهْلِ، وإنْ لم يَتَحقَّقْ لهمُ العِلْمُ بذلكَ [بعدَ أنْ مَكَنوا جُهلاءَ، وقد جَعَلَ][6] لهمْ سَبيلَ الوصولِ إلى معرفةِ ذلكَ.

وإنما لَزِمَهُمْ ذلكَ الوعيدُ والحُجّةُ بِما هُمْ صَنَعوا لِمَعْرفةِ ذلكَ والعِلْمِ بها لأنهمْ لو تأمّلوا فيهِ، ونَظَروا لَوَقَعَ لهمْ عِلْمُ ذلكَ، لكنهمْ تَرَكوا عِلْمَ ذلكَ، وضَيَّعوهُ[7]، فلم يُعْذَروا في ذلكَ.

وعلى ذلكَ يقولُ في القدرةِ أو مَنْ مُنِعَتْ عنهُ القدرةُ، أو حِيلَ بَينَهُ وبَينَها، كانَ غيرَ مُكَلَّفٍ بها ولا مُخاطَباً مَعْذوراً، ومَنْ لم تُمْنَعْ عنهُ، ومُكِّنَ [مِنْ][8] ذلكَ، إلّا أنهُ تركَ العَمَلَ بهِ، كانَ مُكَلَّفاً بهِ غيرَ مَعْذورٍ، لأنهُ هو الذي ضَيَّعَ[9] ذلكَ، وتَرَكَهُ بالاخْتيارِ، والأوَّلُ غيرُ مُضَيِّعٍ لها ولا تاركٍ. لِذلكَ أَمِرَ. وذلكَ على المعتزلةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ سَمّاهُ مُباركاً لأنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ، وتَمَسَّكَ بهِ، وعَمِلَ بما فيهِ، صارَ شريفاً مذكوراً عندَ الناسِ عظيماً في أعْيُنِهِمْ وقُلوبِهِمْ. وذلكَ [عَمَلُ][10] المبارَكِ؛ أنْ يَنالَ [بهِ][11] كلَّ بِرٍّ وخيرٍ، ويكونُ[12] أبداً على الزِّيادةِ والنَّماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أخبرَ أنهُ أنزلَهُ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لِيَعْرِفوا ما لَهُمْ وما عليهِمْ وما يُؤْتى وما يُتَّقى. إنما يُعْرَفُ ذلكَ بالتَّأمُّلِ والتَّدَبُّرِ والتَّفكُّرِ...

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لِيَتَّعِظَ أولو الألبابِ ممّا فيهِ مِنَ المَواعظِ والآدابِ وغيرِ ذلكَ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أثْنى اللهُ ﷻ على داوُدَ وابنِهِ سليمانَ، عليهما الصلاةُ والسلامُ، بالأوبَةِ إليهِ والرجوعِ، وهو ما قالَ ﷻ في داوُدَ ﷺ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] [فَسَّرَ لنا][13] الأوّابَ، وقالَ[14] في سليمانَ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

الآية ٣١ [وقالَ][15]: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

دلَّ ذِكْرُ قولِهِ ﷻ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على إثْرِ قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أنهُ إنما كانَ أوّاباً بالذي ذَكَرَ عنهُ، لأنَّ حَرْفَ: إذْ لا يُذْكَرُ إلّا عَنْ شيءٍ سَبَقَ.

ويُسَمّي ﷻ داوُدَ ﷺ أوّاباً بما ذَكَرَ مِنْ تسبيحِهِ ﴿بِٱلْعَشِىِّ/ ٤٦١ ـ أ/ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] والفَزَعِ إليهِ بما هو بهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: بينهما حيث. (٣) في الأصل وم: بينهما. (٤) في الأصل وم: أو أمراً أثره على غير. (٥) في الأصل وم: يخرجون. (٦) في الأصل وم: أ، مكثوا من العلم وجعل. (٧) في الأصل وم: وصنعوه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وصنع. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فسرنا. (١٤) في الأصل وم: فقال. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ قيلَ: الصافِناتُ، وهي[1] الخيلُ. وقالَ بعضُهُمْ: الصافِناتُ، هنَّ القائماتُ على ثلاثِ قوائِمَ، رافعاتٌ إحْدَى الرجلَينِ أو إحْدَى اليدَينِ، على طرَفِ الحافِرِ. وقالَ بعضُهُمْ: الصافِناتُ، هنَّ القائماتُ لا غيرُ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ تَمَنَّى أنْ يَقومَ لهُ الرجالُ صُفوفاً» أي قياماً «فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ» [بنحوه الترمذي ٢٧٥٥] أو كلامٌ نَحْوُهُ.

والجيادُ: قيلَ: السِّراعُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ دلَّ ما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الصافناتِ الجِيادِ بالعَشِيِّ على أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ إنما أرادَ بهِ توارِيَ الشمسِ بالحِجابِ، إذْ ليسَ شيءٌ يَتَوارى بالحِجابِ في ذلكَ الوقتِ سِوَى الشمسِ.

ثم قولُهُ: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾][2] حتى شَغَلَني ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ إذِ المَحَبَّةُ يَجوزُ أنْ يُكَنّى بها عنِ الإيثارِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ حُبّاً حتى شَغَلَني الخَيرُ ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ توارَتِ الشمسُ بالحِجابِ على التقديمِ والتأخيرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ يجوزُ أنْ يُكَنّى الخَيرُ عنِ الخَيلِ نفسِهِ على ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الخيلُ مَعْقودٌ في نَواصِيها الخَيرُ إلى يومِ القيامةِ» [البخاري: ٣٦٤٤] سَمّى الخيلَ خيراً. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ واللهُ أعلَمُ. وقالَ بعضُهُمْ: صفوفُها: قيامُها، وبَسْطُها قوائِمَها.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: أي جَعَلَ يَعْقِرُ سُوقَ الخيلِ، ويَضْرِبُ أعناقَها، و السُّوقُ هي جماعةُ الساقِ؛ لمّا شَغَلَتْهُ عن ذِكْرِ ربِّهِ، وهي صلاةُ العصرِ، حتى غَفَلَ عنها، فَجَعَلَ يَقْطَعُ سُوقَها[3]، ويَضْرِبُ أعناقَها كفّارةً عمّا شُغِلَ عن ذِكْرِ ربِّهِ.

ثم إنْ ثَبَتَ ما ذَكَروا مِنْ عَقْرِ السُّوقِ [وضَرْبِ][4] الأعناقِ أنهُ على الحقيقةِ، فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ كانَ ذلكَ في شريعتِهِ جائزاً[5]، وإنْ كانَ في شريعَتِنا لا يجوزُ، نَحْوُ ما ذُكِرَ عنهُ مِنْ [تَوَعُّدِ الهُدْهُدِ بالتعذيبِ][6] حينَ تَفَقَّدَهُ، ولم يَجِدْهُ حينَ[7] قالَ ﷻ ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ الآية[النمل: ٢٠و٢١].

فَمِثْلُهُ: لا يجوزُ تعذيبُ الطيرِ في شَريعَتِنا. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما [ذُكِرَ عنهُ مِنْ عَقْرِ سُوقِ][8] الخيلِ وضَرْبِ الأعناقِ، لهُ جائزٌ، وإنْ كانَ ذلكَ لا يجوزُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][9]: أنْ يكونَ ذلكَ منهُ قَبْلَ النَّهْيِ عَنِ القَتْلِ، ثم جاءَ النَّهْيُ عنهُ بعدَ ذلكَ، فَحَرَّمَ[10] عليهِ ذلكَ وعلينا جميعاً.

وجائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ على غيرِ حقيقةِ عَقْرِ السُّوقِ وضَرْبِ الأعناقِ. ولكنْ ما ذَكَرَ مِنَ الأعناقِ يكونُ كِنايةً عنِ الذبحِ، وقولُهُ ﷻ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ كِنايةٌ عنِ التسليمِ إلى الناسِ، أو أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ المَسْحِ بالسُّوقِ والأعناقِ كِنايةً عن مَسْحِ وَجْهِها ورأسِها بَعْدَ ما رَدُّوها عليهِ[11] مِنْ غَيرِ أنْ كانَ هنالكَ عَقْرٌ أو ذَبْحٌ أو كَفّارةٌ عمّا غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ ربِّهِ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ساقها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: جائز. (٦) في الأصل: تعذيب، في م: تعذيب الهدهد وغيره. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل: ذكرا من عقر، في م: ذكروا من عقر. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: فخرج. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: والتسليم إلى الناس.

جنة السنة

قالَ الحَسَنُ: قالَ سليمانُ ﷺ واللهِ لا يَشْغَلُنِي عَنْ عِبادةِ رَبِّي أحدٌ [بَعْدَكِ، وكَسَفَ][(١)] عراقيبَها، وضَرَبَ أعناقَها.

ثم اخْتُلِفَ في تلكَ الخيلِ التي عُرِضَتْ عليهِ، فَشَغَلَتْهُ عن ذِكْرِ اللهِ، فَفَعَلَ ما ذُكِرَ؛ قالَ بعضُهُمْ: إنها خُيولٌ أخْرَجَها الشياطينُ مِنْ مُروجِ البَحْرِ لِسُليمانَ ﷺ لها أجْنِحَةٌ تَعْدو، وتطيرُ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ كانَتْ خيلاً، وَرِثَها عن أبيهِ داوُدَ، وكانَ داوُدُ ﷺ أصابَها مِنَ العَمالِقَةِ، وقالوا[(٢)]: وما بَقِيَ اليومَ في أيدي الناسِ مِنَ الخَيلِ [فهو نَسْلُ بَقِيَّةِ تلكَ الخَيلِ][(٣)] واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ أهلُ دمشْقَ مِنَ العربِ وأهلُ نَصيبينَ جَمَعوا جُموعاً لِسُلَيمانَ ﷺ فأصابَ منهُمْ ألفَ فَرَسٍ غُزاتٍ، فَعُرِضَتْ عليهِ الخَيلُ حتى شَغَلَتْهُ عن ذِكْرِ ربِّهِ، فَفَعَلَ ما ذُكِرَ مِنْ قَطْعِ العَراقيبِ وضَرْبِ الأعناقِ، واللهُ أعلَمُ.

وعَنِ الحَسَنِ في قولِهِ: ﷻ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قولُهُ[(٤)]: كَسَفَ عَراقيبَها، وضَرَبَ أعناقَها، فأبْدَلَهُ اللهُ خيراً منها وأسْرَعَ [وهي][(٥)] ﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦].

قالَ أبو معاذٍ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ تقولُ العربُ: مَسَحَ عِلاوَتَهُ[(٦)] بالسيفِ مَسْحاً، أي ضَرَبَها.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي فاقْبَلَ يَمْسَحُ: يَضْرِبُ سُوقَها وأعناقَها.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَطَفِقَ﴾ أي أخَذَ، وجَعَلَ يَمْسَحُ، أي يقطَعُ [﴿مَسْحًا﴾][(٧)] يُقالُ: مَسَحَ عُنُقَهُ، أي قطَعَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يُقالُ: هي القائمةُ على ثلاثِ قوائمَ، وقد قامَتِ الأُخْرَى على طَرَفِ الحافِرِ مِنْ يَدٍ كانَ أو رِجلٍ. والصافِنُ في كلامِ العربِ: الواقِفُ مِنَ الخَيلِ وغَيرِها على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَقومَ لهُ الرجالُ صُفوفاً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ» [بنحوه الترمذي٢٧٥٥] أي يُديمونَ لهُ القيامَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجِيادُ مِنَ الخَيلِ السِّراعُ، والواحدُ جوادٌ، ورجلٌ جوادٌ، أي سَخِيٌّ، وجَمْعُهُ أجوادٌ، ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي آثَرْتُ الخَيرَ أي المالَ ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: أي ألْهاني ﴿حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي شَغَلَني.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في سَبَبِ فِتْنَةِ سليمانَ ﷺ الذي ذَكَرَ [اللهُ ﷻ أنهُ][(٨)] فَتَنَهُ، وأنهُ ألْقَى على كُرْسِيِّهِ جَسَداً، اخْتِلافاً كثيراً بَيِّناً، يطولُ[(٩)] الكِتابُ بِذِكْرِ كلِّ ما ذَكَروا، ولا نَدري أكانَ ذلكَ سَبَبَ افْتِتانِهِ أمْ غيرُهُ[(١٠)]؟ مع عِلْمِنا أنَّ ذلكَ كلَّهُ لم يكُنْ سَبَبَ فِتْنَتِهِ، إنْ كانَ، فإنما كانَ [واحداً][(١١)] منها. ولا نَدْري ما هو؟ لِذلكَ تَرَكْنا ذِكْرَ ما ذَكَرَ أولئكَ أنهُ كانَ سَبَبَ افْتِتانِهِ. ثم يُخَرَّجُ قولُهُ ﷻ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ على وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ امْتُحِنَ بأمرٍ، فكانَ منهُ في ذلكَ زَلَّةٌ وغَفْلَةٌ. فَعُوتِبَ بما ذُكِرَ، وعُوقِبَ بِنَزْعِ مُلْكِهِ.

والثاني: أنهُ فَتَنَهُ، وامْتَحَنَهُ بِنَزْعِ مُلْكِهِ منهُ لا بِزَلَّةٍ منهُ ولا عَثْرَةٍ، وصَرَفَهُ إلى غَيرِهِ لا بِسَبَبٍ كانَ منهُ وزَلَّةٍ، وجَعَلَهُ[(١٢)] لِغَيرِهِ.

ثم إنْ كانَ يَنْزِعُ المُلْكَ منهُ بأدْنَى سَبَبٍ كانَ منهُ وزَلَّةٍ، فَعُوتِبَ، فَلأنَّ[(١٣)] الأنبياءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، كانوا مخصوصِينَ بالعِتابِ والتَّعْييرِ بأدْنى شيءٍ يكونُ منهمْ مِمّا يُعَدُّ ذلكَ الذي كانَ منهمْ مِنْ أفْضَلِ الأعمالِ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما عليك ولكن كشف. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غلاف. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أنه ﷻ. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ويجعله. (١٣) الفاء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم كانَ منهمْ مِنَ التَّوبَةِ والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ ﷻ بالذي كانَ منهمْ لِما عَرَفوا لأنفسِهِمُ الخُصوصِيَّةَ لهمْ مِنَ الكراماتِ والفضائِلِ التي خُصُّوا بها، فَرَأوا على أنفُسِهِمْ بِما أُكرِموا مِنْ أنواعِ الكراماتِ والفضائِلِ التي خُصُّوا هم بها مِنَ التَّوبَةِ للهِ وفَضلِ التَّضَرُّعِ والابْتِهالِ إلى اللهِ لِما رَأوا ما ارْتَكَبوا كُفراناً لهُ في ما أنْعَمَ عليهِمْ، وأحْسَنَ إليهِمْ، فَضلَ تَضَرُّعٍ [وابْتِهالٍ ما][1] لا يَلْزَمُ ذلكَ غيرَهُمْ في مِثْلِ ما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ كُرْسِيُّهُ مُلْكَهُ، فيكونُ ما ذَكَرَ كِنايةً عنْ نَزْعِ مُلْكِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ إلقاءِ الجَسَدِ على كُرْسِيِّهِ حقيقةَ الكرسِيِّ؛ أَلْقَى عليهِ جَسَداً، يُشْبِهُ جَسَدَ سليمانَ في الجِسْمِيَّةِ لا في العِلْمِ والمَعْرِفَةِ والبَصَرِ وما كانَ فيهِ مِنَ الكَراماتِ كقولِهِ ﷻ: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨] أي عِجْلاً مُجَسَّداً في الجَسَدِيَّةِ لا أنهُ[2] جَسَدُ العِجْلِ المَعْروفِ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ /٤٦١ - ب/ يُشْبِهُ جَسَدَ سُليمانَ في الظاهِرِ في الجَسَدِيَّةِ لا في أنَّ جَسَدَهُ كَجَسَدِ سليمانَ في ما فيهِ مِنَ العِلْمِ والبَصَرِ وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ يَحتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ إلى اللهِ تعالى، ورَجَعَ إليهِ بجميعِ أمورِهِ، لأنَّ[3] كانَ منهُ زَلَّةٌ وعَثْرَةٌ [فتابَ عليهِ][4].

[والثاني: أي نابَ إلى المُلْكِ، أي رَجَعَ المُلْكُ إليهِ بَعْدَ أنْ كانَ نُزِعَ منهُ][5] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ يَحتَمِلُ سُؤالُهُ المَغْفِرَةَ عندَ سُؤالِهِ المُلْكَ أمراً في ما بينَهُ وبَينَ ربِّهِ لأنَّ المُلْكَ مِمّا يُتَلَذَّذُ بهِ، وفيهِ هَوَى النفسِ.

وعلى ذلكَ خَرَجَ سُؤالُ زكَرِيّا ﷺ لمّا سألَ ربَّهُ ﷻ الوَلَدَ، سألَ أمراً بينَهُ وبَينَ ربِّهِ في ذلكَ، وهو ما قالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]. وكذلكَ خَرَجَ سُؤالُ الأنبياءِ في ما سألوا ممّا فيهِ اللَّذَّةُ وهَوَى النفسِ مِنَ الوَلَدِ وغيرِهِ. قَرَنوا في ذلكَ السؤالِ أمراً بينَهُمْ وبينَ ربِّهِمْ. فَعَلى ذلكَ سُؤالُ سُليمانَ ﷺ المُلْكَ، قَرَنَهُ بالمَغْفِرَةِ في ذلكَ.

ثم يَحتَمِلُ سُؤالُهُ المَغْفِرَةَ نفسَها عمّا يكونُ منهُ مِنَ التَّقصيرِ في ذلكَ، أو يكونُ سُؤالُهُ المَغْفِرَةَ لا نَفْسَ المَغْفِرَةِ نَحْوَ قولِ نوحٍ ﷺ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] وقولِ هودٍ ﷺ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] لا يَحتَمِلُ أنْ يَأمُروا قومَهُمْ أنْ قولوا: نَسْتَغْفِرُ اللهَ، لكنْ أمَروهُمْ أنْ يأتوا بالأسبابِ التي بها يَصيرونَ أهلاً لِلْمَغْفِرَةِ، وبها يَسْتَوجِبونَ التَّجاوُزَ. فَعَلى ذلكَ يَحتَمِلُ سُؤالُ المَغْفِرَةِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحتَمِلُ سؤالُ المَغْفِرَةِ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ أرادَ أنْ يَسْتَسْلِمَ لهُ الخَلْقُ في الإجابَةِ إلى ما يَدْعو إليهِ مِنْ وَحدانِيَّةِ اللهِ تعالى وجَعْلِ العِبادَةِ لهُ لِما رَأى أنَّ إجابَةَ الناسِ وإقبالَهُمْ إلى ما عندَهُ مِنَ السَّعَةِ والغِنَى أسرَعُ ولِقولِهِ أقبَلُ ورَغْبَتَهُمْ فيهِ أكثَرُ.

وإذا كانَ ما ذَكَرْنا، وهو مُتَعارَفٌ في ما بَينَهُمْ، أنَّ إجابَتَهُمْ، أعني إجابَةَ الناسِ للملوكِ ولِمَنْ عندَهُ السَّعَةُ والغِنَى أسرَعُ لهمْ وأطْوَعُ. فكانَ في سؤالِهِ المُلكَ لهُ نَجاةُ الخَلْقِ كُلِّهِمْ بما يَسْتَسْلِمونَ لهُ، ويُجيبونَهُ[6] إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ، فَيَنجونَ نَجاةً لا هَلاكَ بَعْدَها[7]، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنهُ سألَهُ مُلْكاً لا يُنْزَعُ عنهُ بعدَ أنْ نُزِعَ مَرَّةً على ما يقولُ أهلُ التأويلِ.

والثاني: أنهُ سألَ ربَّهُ مُلْكاً لا يكونُ لأحدٍ ما بَقِيَ هو حَيّاً، فيكونُ لهُ آيةً لِنُبُوَّتِهِ، على أنهُ لِنُبُوَّتِهِ على ما ذَكَرْنا لو كانَ مِثْلُهُ لأحدٍ منهمْ لم يَكُنْ لهُ في ذلكَ آيةٌ لِنُبُوَّتِهِ.

---

(١) من م، في الأصل: وابتهاله. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وأناب ورجع وأقبل. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو تاب. (٦) في الأصل وم: ويجيبون. (٧) في الأصل وم: بعده.

جنة السنة

والثالث: أنهُ سألَهُ مُلكاً لِيَبْقى لهُ الذِّكْرُ والثناءُ الحَسَنُ [كقولِهِ ﷺ](١): «اللهمّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلَّيْتَ [على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمدٍ كما](٢) باركْتَ على إبراهيمَ [وعلى آلِ إبراهيمَ»](٣) [البخاري ٣٣٧٠] ونَحْوَهُ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ سليمانُ ﷺ أرادَ أنْ يكونَ مَذكوراً على ألْسُنِ الخَلْقِ بالثّناءِ الحَسَنِ بالملكِ الذي سألَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ بيَّنَ ما أعطاهُ مِنَ المُلْكِ بما ذَكَرَ مِنْ تَسخيرِ الريحِ لهُ والجنِّ والشياطينِ وغَيرِ ذلكَ ما لم يكُنْ ذلكَ لأحدٍ منْ ملوكِ الأرضِ سِواهُ. وهذا يدلُّ على أنَّ تَسْخيرَ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ أنهُ سَخَّرَها لِسُلَيمانَ ﷺ كانَ بِلُطْفٍ مِنَ اللهِ ﷻ لا يكونُ ذلكَ [مِنَ الخلائقِ](٤) إذْ لا يَمْلِكُ أحدٌ مِنَ الخلائقِ تَسْخير(٥) ما ذَكَرَ مِنَ الخَلْقِ لنفسِهِ، ولو كانَ يَمْلِكُ ذلكَ بالحِيَلِ لكانَ يَعْتَني بذلكَ مع العِلْمِ أنَّ كلَّ مَلِكٍ لا يَتْرُكُ لنفسِهِ مِنَ الحِيَلِ ما يَزيدُ في(٦) مُلْكِهِ ويُبقيهِ إلى ما يَبْقى هو حيّاً. فإنْ لم يكُنْ دلَّ أنهُ إنما كانَ لِسُلَيمانَ ذلكَ باللهِ لُطْفاً منهُ لِيكونَ آيةً مِنْ آياتِ النُّبُوَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ وَصَفَ تلكَ الريحَ باللِّينِ والرَّخْوَةِ في هذا الموضعِ، وقالَ في آيةٍ [أُخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبيا: ٨١] وصَفَها بالشِّدَّةِ.

فجائزٌ أنْ تكونَ هي في أصلِ الخِلْقَةِ شديدةً، لكنها صارَتْ لِسُلَيمانَ ﷺ لَيِّنَةً سَهْلَةً، وقالَ قائلونَ: هي وقتُ الحَمْلِ شديدةٌ. لكنها تَصيرُ بالسَّيرِ لَيِّنَةً سَهْلَةً، واللهُ أعلَمُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿عَاصِفَةً﴾ على أعداءِ اللهِ ﴿رُخَآءً﴾ لَيِّنَةً على أوليائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في ما ذَكَرَ مِنْ جَرْيَةِ الريحِ بأمرِهِ حيثُ أرادَ، وقَصَدَ، لُطْفُ(٧) اللهِ ﷻ لِسليمانَ حينَ جعلَهُ بحيثُ تَفْهَمُ الريحُ مُرادَهُ، ويَفْهَمُ منها ما أرادتْ حتى كانَ يَسْتَعْمِلُها في ما شاءَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ نُطْقِ الطيرِ وكلامِ النملِ الذي ذَكَرَ، وتَفْهَمُ هي منهُ. فذلكَ كلُّهُ بِلُطْفٍ منهُ ورحمةٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي سَخَّرْنا لهُ الشياطينَ حتى يَسْتَعْمِلَهُمْ في ما شاءَ: بعضَهُمْ في البناءِ، وبعضَهُمْ في الغَوصِ في البَحْرِ لاسْتِخراجِ ما فيهِ مِنَ الأموالِ لِيَتَفَرَّغَ الناسُ لِعبادةِ اللهِ والخدمةِ، لا يكونُ لهمْ شُغْلٌ في البُنْيانِ ولا في مُؤْنَةِ أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ وآخرينَ، لم يُطيعوهُ في ما أمَرَهُمْ مِنَ الأعمالِ في البناءِ والغوصِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ، جَعَلَهُمْ في الأصفادِ، وهي الأغلالُ، تُجْعَلُ في الأعناقِ لِيَدْفَعَ شَرَّهُمْ وسُوءَهُمْ عنِ الخَلْقِ حينَ(٨) لم يُطيعوهُ في ما أمَرَهُمْ بالعَمَلِ لِلْخَلْقِ لِيَتَفَرَّغوا للعبادةِ.

وفيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ آيةٍ عجيبةٍ لِسُلَيمانَ ﷺ واللطفِ لهُ حينَ(٩) مَكَّنَ لهُ مِنِ اسْتِعْمالِ ما ذَكَرَ مِنَ الجنِّ والشَّياطينِ والريحِ، وسَخَّرَ لهُ ذلكَ، لِيُعْلَمَ أنهُ إنما قَدَرَ على ذلكَ بِلُطْفٍ منهُ لا بالحِيَلِ والأسبابِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هذا في الشياطينِ التي ذَكَرَ أنهُ سَخَّرَها لهُ في العَمَلِ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ في جَعْلِهِ إياهُمْ ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ خَيَّرَهُ بينَ أنْ يَمُنَّ على مَنْ يَشاءُ منهمْ، فَيُخَلِّيَ سبيلَهُ، وبينَ أنْ يُمْسِكَ مَنْ شاءَ منهمْ، فلا يُخَلِّيَ سَبيلَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ التَّخْييرُ في الشياطينِ وفي جميعِ ما أعطاهُ لهُ مِنَ المُلْكِ؛ يقولُ: إنْ شِئْتَ تَمُنُّ، فَتُعْطيهِ مَنْ شِئْتَ، وإنْ شِئْتَ أمْسَكْتَ، فلا تُعْطي أحداً شيئاً، ولا تَبِعَةَ عليكَ في ذلكَ الإعطاءِ ولا في الإمساكِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: كقولِ الناسِ. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بالحيل. (٥) في الأصل وم: تسخيرها. (٦) في الأصل وم: من. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: أو أن يكون قوله عز وجل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على التَّخييرِ. ولكنِ امْتَحنَهُ[1] بالإعطاءِ لقومٍ والمَنْعِ عَنْ قومٍ، فيقولُ: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ أي أعْطِ، وابْذُلْ لِمَنْ أُمِرْتَ، وامْتُحِنْتَ بالإعطاءِ مَنْ كانَ أهلاً لذلكَ، وأمْسِكْ عَمَّنْ ليسَ هو بأهلٍ لذلكَ، ومَنْ لم تُؤمَرْ بدفعِهِ إليهِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] أنْ ليسَ على التَّخييرِ، ولكنْ على تَعْذيبِ مَنْ هو أهلٌ للعذابِ مُسْتَحِقٌّ لهُ واتِّخاذِ الحُسْنِ في مَنْ كانَ أهلاً على ما بَيَّنَ في ذلكَ، وأظْهَرَ في الآيةِ حينَ[2] قالَ ﷻ: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٧و٨٨]. فَعلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﷻ: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقولُ: هذا مُلْكُنا الذي أعطيناكَ، يقولُ: أعْطِ منهُ ما شِئْتَ، وامْنَعْ منهُ ما شِئْتَ، لاتَبِعَةَ عليكَ فيهِ في الآخِرَةِ، وهو قريبٌ مِمَّا[3] ذكَرْنا في أحدِ التأويلَيْنِ.

قالَ قَتادةُ: احْبِسْ منهمْ مَنْ شِئْتَ في وَثاقِكَ وعذابِكَ، وسَرِّحْ منهمْ مَنْ شِئْتَ، لا حِسابَ عليكَ في ذلكَ. وهو قريبٌ مِمَّا[4] ذكَرْنا في أحدِ التأويلَيْنِ.

رَجَعَ أحَدُهما إلى الشياطينِ خاصَّةً في الحَبْسِ في العملِ مَنْ شاءَ منهمْ والتسريحِ لِمَنْ شاءَ منهمْ، والآخَرُ إلى كلِّ ما أعطاهُ مِنَ المُلْكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي أعطاهُ لهُ / ٤٦٢ ـ أ/ مِنَ المُلْكِ ما لا يُحْسَبُ مِنَ الكَثْرَةِ والعددِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي القُرْبَةُ ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي مَرْجِعاً[5].

هذا يدلُّ على أنَّ ما أعطاهُ مِنَ المُلْكِ لم يَحُطَّهُ عن مَرْتَبَتِهِ، ولم يَنْقُصْ مِنْ قَدْرِهِ عندَ اللهِ لأنهُ إنما سألَهُ المُلْكَ، واللهُ أعلَمُ، لِما[6] ذكَرْنا مِنْ رغبَتِهِ في نجاةِ الخَلْقِ بسرعةِ[7] إجابَتِهِمْ إياهُ إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ لا رَغْبَةً منهُ في الدنيا ولَذَّاتِها وطَلَبِ العِزِّ فيها، ولكنْ لِما ذكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي الأسبابَ التي تُزْلِفُهُ إلى اللهِ، وتُقَرِّبُهُ مِنَ التوفيقِ والعِصْمَةِ والمَعونةِ على الطاعةِ. وذلكَ يكونُ في الدنيا، والأوَّلُ يكونُ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وهذا مِنْ أعظَمِ المِنَنِ واللُّطْفِ حينَ[8] أمَّنَهُ مِنْ جميعِ أنواعِ التَّبِعاتِ، يَغْفِرُ لهُ بغيرِ حسابٍ، ويُبشِّرُهُ[9] بالزُّلْفَى وحُسْنِ الرَّجْعِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في سَبَبِ فِتْنَةِ سليمانَ ﷺ وفي ذَنْبِهِ:

قالَ بعضُهُمْ: وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أمَرَهُ ألّا يَتَزَوَّجَ امْرأةً إلّا مِنْ بني إسرائيلَ، فتَزَوَّجَ امرأةً مِنْ غيرِ بني إسرائيلَ، وجَعَلَ لها صَنَماً، فعُبِدَ في بيتِهِ كذا كذا يوماً، فابْتَلاهُ اللهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ عقوبةً لهُ على قَدْرِ ما عُبِدَ الصَّنَمُ في بيتِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَتْ فتنةُ سليمانَ ﷺ التي ذكَرْنا في ناسٍ مِنْ أهلِ الجرادةِ امْرأتِهِ، وكانَتْ مِنْ أحبِّ نسائِهِ إليهِ، وكانَ إذا أرادَ أنْ يُحْدِثَ، أو يدخُلَ الخَلاءَ، أعطاها خاتَمَهُ، وأنَّ ناساً مِنْ أهلِها جاؤوا يُخاصِمونَ قوماً إلى سُليمانَ. قالوا[10]: وكانَ سُليمانُ أحَبَّ أنْ يكونَ الحَقُّ لأهلِ الجَرادةِ، فيَقْضِيَ لهمْ، فعُوتِبَ حينَ لم يكُنْ هَواهُ فيهِمْ واحداً. وهو قولُ ابْنِ عباسٍ.

وقد ذكَرْنا نحنُ على أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ نَزْعُ المُلْكِ منهُ وما ذكَرَ ﷻ فِتْنَتَهُ إياهُ بلا زَلَّةٍ ولا سَبَبٍ: كانَ منهُ ابْتِداءُ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٍ. وذلكَ جائزٌ. وللهِ أنْ يَفْعَلَ ما يَشاءُ بِمَنْ يشاءُ وكيفَ يَشاءُ مِنْ نَزْعِ المُلْكِ وغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿رُخَآءً﴾ أي[11] رِخوَةً لَيِّنَةً، وهو اللَّيِّنُ. يُقالُ: رجلٌ رِخْوٌ أي ضَعيفٌ في عَمَلِهِ، وقومٌ

---

(١) في الأصل وم: امتحن. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: ما. (٥) في الأصل وم: مرجع. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) في الأصل وم: لسرعة. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يسر له. (١٠) في الأصل وم: قال.
(١١) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

رُخاءً. قال[1]: والرُّخاءُ الساكنُ. ويُقالُ: اسْتَرْخَى أي سَكَنَ. وقولُهُ ﷻ: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومثلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] أي لا تُعْطِ لِتأخذَ مِنَ المكافآتِ أكثرَ ممّا أعطيتَ.

وقالَ الفرّاءُ: سُمّيَ العطاءُ مَنًّا.

وقولُهُ ﷻ: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي أرادَ: قالَ الأصمعيُّ: العربُ تقولُ: أصابَ الصوابَ، فأخطأَ الجوابَ، أي أرادَ الصوابَ. والأصفادُ: الأغلالُ التي تُشَدُّ بها الأيدي إلى العُنُقِ.

دلَّ قولُ سُليمانَ ﷺ ودُعاؤُهُ ربَّهُ باستِيهابِهِ المُلْكَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ على أنَّ المُلْكَ الذي أعطاهُ لم يكُنْ حقًّا عليه؛ إذ لو كانَ حقًّا لهُ لكانَ لا يَسْتوهِبُهُ، ولا يقولُ لهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ ولكنْ يقولُ لهُ: أعطِني حقّي؛ إذ كلُّ طالبِ حقٍّ لهُ قِبَلَ الآخرِ لا يُوصَفُ إذا أعطاهُ إيّاهُ أنهُ وهّابٌ، لكنْ مُؤدّي حقٍّ عليهِ.

ويَدُلُّ هذا أيضاً على أنْ ليسَ على اللهِ حِفظُ الأصلحِ في ا لدينِ؛ إذ لو كانَ عليهِ حِفظُ الأصلحِ في الدينِ، وأعطى الآخَرَ، لكانَ لا يَستوهِبُ المُلْكَ، إذ كانَ المُلْكُ، لهُ أصلَحُ في الدينِ، ولكنْ يقولُ: أعطِني حقّي. فَدَلَّ استِيهابُهُ منهُ المُلْكَ على أنْ ليسَ عليهِ حِفْظُ الأصلحِ في الدينِ، ولا أعطى الأخيرَ، وأنَّ لهُ ألّا يُعْطِيَهُ. وإنَّ إعطاءَهُ المُلْكَ لهُ فَضلٌ منهُ ورحمةٌ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: فيهِ تَفضيلُ الغِنى والسَّعَةِ على الفَقرِ والضيقِ لِما أنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ الغَنى والسَّعَةَ آيةً مِنْ آياتِ النُّبوّةِ والرسالةِ، ولم يُرَ الفَقرُ والضيقُ جَعَلَهُما آيةً من آياتِ النُّبوّةِ. فهلّا دلَّ جَعْلُ الغِنى آيةً مِن آياتِ النُّبوّةِ على أنهُ أفضلُ مِنَ الفَقرِ؟

يُقلْ[2] لهم: إنَّ الغِنى والمُلْكَ إنما جَعَلَهُما آيةً لِرسالةِ[3] نَبيٍّ واحدٍ، وأكثرُ الأنبياءِ، عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ، كانوا فُقراءَ وأهلَ الحاجةِ والضِّيقِ في أمرِ الدنيا، فهمْ[4] كانوا ما ذَكَرْنا مِنَ الضِّيقِ والفَقرِ وقلةِ أعوانِهِمْ وأنصارِهِمْ [ما يَعْدِلُ][5] قِواهُمْ وظَهَرَ ما دَعَوُا الناسَ إلى ما دَعَوا هُمْ، وهو التوحيدُ والإسلامُ مع وجودِ رَغْبَةِ الناسِ في مَنْ عندَهُ السَّعَةُ والغِنى ونَفاذُ أمْرِهِمْ وقلةِ رَغْبَتِهِمْ في مَنْ عندَهُ الفَقْرُ والضِّيقُ.

فدلَّ اختِيارُ أكثرِ الأنبياءِ الحالَ التي تَنْفُرُ طِباعُ الناسِ عنها على الحالِ التي يَرْغَبونَ فيها مَعَ حِرْصِهِمْ ورَغْبَتِهِمْ في الدينِ. على أنَّ الحالَ التي اختاروا هُمْ أفضلُ وأخيرُ مِنَ الحالِ الأُخرى، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ قولُهُ ﷻ لِرسولِ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] نهاهُ أن يَمُدَّ عينيهِ إلى ذلكَ، ويَختارَهُ. إنما يَمُدُّ، ويَختارُ لِسَعَةِ قومِهِ وأصحابِهِ في أبوابِ الشَّرِّ والخيرِ، وإنهُ لا يَختارُ، ولا يأخُذُ إلّا ما يَحِلُّ، ويَطيبُ. فَدَلَّ النَّهيُ عمّا ذَكَرَ على العِلْمِ منهُ ما وَصَفْنا على أنَّ ذلكَ أفضلُ مِنَ الآخرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ثم لا نَدْري ما الذي كانَ مِنَ اللهِ مِنْ تَمْكينِ الشيطانِ عليهِ حتى أضافَ ذلكَ إلى الشيطانِ، وليسَ لَنا أنْ نقولَ: إنَّهُ مَكَّنَ عليهِ كذا، وفَعَلَ كذا في كذا، وفَعَلَ بهِ كذا إلّا أنْ يَثْبُتَ عنِ اللهِ.

ثم وَجْهُ الحِكْمَةِ مِن تَمْكينِ الشيطانِ على أوليائِهِ في ما مَكَّنَ في أمْرِ الدينِ لِتُعْلَمَ جِهَةُ الفَضلِ مِن جِهَةِ العَدْلِ، وجِهَةُ الحِلْمِ[6] مِن جِهَةِ الرحمةِ، وأنَّ لهُ أنْ يَمْتَحِنَ عبادَهُ بما شاءَ وكيفَ شاءَ مِن أنواعِ الشدائدِ والبَلايا على أيدي مَنْ شاءَ بلا أسبابٍ كانَتْ منهمْ، يَسْتَوجِبونَ بها ذلكَ، ولهُ أنْ يَجْتَبِيَ إلى مَنْ شاءَ مِن أنواعِ الخَيرِ والنِّعَمِ ابْتِداءً بلا أسبابٍ كانَتْ منهُمْ، يَسْتَوجِبونَ بها ذلكَ.

فَعَلى ذلكَ بَلاءُ أيوبَ ﷺ والشدائدُ التي أصابَتْهُ؛ جائزٌ أنْ يكونَ بلا سَبَبٍ كانَ منهُ، يَسْتَوجِبُ ذلكَ. ولكنِ ابْتَداهُ امْتِحاناً منهُ إيّاهُ بذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: يقال. (٣) من م، في الأصل: للرسالة. (٤) في الأصل وم: فهما. (٥) في الأصل وم: يعد.
(٦) في الأصل وم: الحكم.

جنة السنة

ثم قولُهُ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ إنهُ، وإنْ أضافَ إليهِ، فهو في الحقيقةِ مِنَ اللهِ لِما أخبرَ أنهُ على يَدَيهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٤] أخبرَ أنَّ حقيقةَ العذابِ منهُ، وإنْ كانَ على أيديهِمْ يُجري ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ [الأنعام: ١٧] أي ما يَمَسُّ الإنسانَ مِنْ ضُرٍّ يكونُ على يَدَي آخَرَ، ويكونُ مِنَ اللهِ، ولهُ في ذلكَ صُنْعٌ وفِعْلٌ لا على ما يقولُهُ المُعتزِلَةُ: أنْ لا صُنْعَ للهِ في فِعْلِ العبادِ.

وأخبرَ أنهُ لو أرادَ بأحدٍ ضُرّاً، ومَسَّهُ بذلكَ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ لِذلكَ الضُّرِّ، ولا دافِعَ، وأنهُ لو أرادَ خيراً بأحدٍ لا رادَّ لِذلكَ الفضلِ غيرُهُ. فهو على المُعتزِلَةِ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِنُصۡبٖ﴾ ونُصْبٍ ونَصْبٍ[1] واحدٌ، وهو تعَبٌ، وكذلكَ يقولُ القُتَبيُّ: النُّصْبُ والنَّصَبُ واحدٌ، مِثْلُ حُزْنٍ وحَزَنٍ، وهو العناءُ والتعبُ. وقالَ أبو عُبَيدةَ: النُّصْبُ الشَّرُّ والنَّصْبُ الإعياءُ.

ومنهم مَنْ يقولُ: إنَّ أحَدَهُما في ما يُصيبُ ظاهِرَ جَسَدِهِ، والآخَرَ في ما يُصيبُ باطِنَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ لمّا قالَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] دعا عندَ ذلكَ أنْ يكشِفَ عنهُ البلايا التي مَسَّتْهُ؛ كأنهُ قالَ: إني مَسَّنِيَ الضُّرُّ، فاكْشِفْ ذلكَ عني ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دلَّ على ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء: ٨٤] دلَّ هذا على أنْ قد كانَ منهُ دعاءٌ وسؤالٌ في كَشْفِ[2] الضُّرِّ عنه، فاستَجابَ اللهُ دعاءَهُ.

فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ لمّا ضرَبَ برجْلِهِ الأرضَ وركَضَها نَبَعَ منها عينانِ: إحداهُما لِلاغْتِسالِ فيها، والأُخرى لِلشُّرْبِ منها؛ فكانَتِ التي لِلشُّرْبِ منها؛ ماؤها باردٌ على ما يُوافِقُ الشربَ، ويُختارُ ذلكَ، والأخرى / ٤٦٢ ـ ب/ ماؤها ما يُوافِقُ الاغْتِسالَ، وهو دونَهُ في البُرودَةِ[3] على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ عامَّةً كقولِهِ ﷻ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] وإنما السُّكونُ في ما يَسْكُنُ، وهو الليلُ، والابْتِغاءُ بالنهارِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ العَينُ واحدةً. إلّا أنهُ لمّا اغتَسَلَ منها [كانَ ماؤها][4] ما يوافِقُ [الاغْتِسالَ، ولمّا شَرِبَ منها كانَ ماؤها ما يُوافِقُ][5] الشُّرْبَ.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانَ بهِ البلاءُ بِظاهِرِ الجَسَدِ وبباطِنِهِ؛ فما كانَ بظاهِرِهِ ذَهَبَ بالاغْتِسالِ، وما كانَ بِباطِنِهِ ذَهَبَ بالشُّرْبِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ لِرسولِهِ ﷺ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أي اذْكُرْ صَبْرَهُ على البلاءِ مِنَ اللهِ ﷻ بأنواعِ الشدائدِ والبلايا، فاصْبِرْ أنتَ إذا ابْتُلِيتَ بِشيءٍ مِنَ البلايا.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ جميعُ ما ذَكَرَ في هذهِ السورةِ، وأمَرَهُ أنْ يَذْكُرَهُمْ بالذي ابْتَلاهُمْ مِنَ الشدائدِ أنْ كيفَ صَبَروا لهُ على ذلكَ. ومَنِ امْتَحَنَهُمْ بالسَّعَةِ والمُلْكِ [أمَرَهُ أنْ يَذْكُرَهُمْ][6] أنْ كيفَ شَكَروا ربَّهُمْ، وأطاعوهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ اختَلَفَ أهلُ التأويلِ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: وَوَهَبَ لهُ أهلَهُ، أي أحيَى مَنْ هَلَكَ مِنْ أهْلِهِ ومالِهِ، وزادَ لهُ على ذلكَ ضِعْفَهُمْ في الدنيا رَحْمَةً منهُ وفَضْلاً.

والحَسَنُ يقولُ كهذا[7]: إنهُ أحياهُمْ لهُ بأعيانِهِمْ، وزادَهُ مِثْلَهُمْ معَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قيلَ لهُ: يا أيوبُ إنَّ أهْلَكَ في الجنةِ، فإنْ شِئْتَ آتيناكَ بهِمْ، وإنْ شِئْتَ تَرَكْناهُمْ لكَ في الجنةِ،

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٢٦٦و٢٦٧. (٢) في الأصل وم: كشفه. (٣) في الأصل وم: النزول. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقول أن اذكر لهم. (٧) في الأصل وم: بهذا.

جنة السنة

وعَوَّضناكَ مِثْلَهُمْ معهمْ، قالَ: لا بل[1] اتركوهُمْ في الجنةِ، فَتُرِكوا لهُ في الجنةِ، وعُوِّضَ مِثْلَهُمْ في الدنيا. ولله أنْ يُحْيِيَ مَنْ شاءَ بَعْدَ ما أماتَهُ، ولهُ أنْ يُؤجِرَ على ذلكَ ما شاءَ.

ألا تَرى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾؟

دلَّ قولُهُ: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ على أنهُ كَشَفَ الضُّرَّ عنْ أيوبَ، وأعطاهُ ما أعطاهُ رَحْمَةً منهُ وفَضْلاً ونِعْمَةً؛ كانَ لهُ ألا يَكْشِفَ الضُّرَّ عنهُ، وألا يَرُدَّ عليهِ أهلَهُ، ولا يَزيدَ لهُ.

وهو على المعتزلةِ لأنهُ لا يَخْلو إمّا أنْ يكونَ ما أعْطَى، وردَّ عليهِ، أصلَحَ لهُ، وقد أخبَرَ أنهُ برحمتِهِ كانَ ذلكَ لهُ وفَضلٍ منهُ. ولو كانَ عليهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لهُ في الدينِ كانَ في[2] تَرْكِهِ ومَنْعِهِ جائراً عندَهُمْ ظالماً، [وإمّا][3] أنْ يكونَ مَنْعُهُ ذلكَ عنهُ أصْلَحَ لهُ، فأعطاهُ، وتَرَكَ الأصْلَحَ لهُ. فَدَلَّ أنْ ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصْلَحِ في الدينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي ذِكْرى وعِظَةً لِمَنْ يَنْتَفِعُ باللُّبِّ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ التَّضييقُ لِمَقْتٍ منهُ، وسُخْطُهُ لِمَنْ ضَيَّقَ عليهِ، ولا في التوسيعِ رضاً منهُ، ولكنْ مِحْنَتانِ، يَمْتَحِنُ مَنْ يشاءُ بالشِّدَّةِ والبلاءِ ومنْ شاءَ بالسَّعَةِ والرَّخاءِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ اخْتُلِفَ في السببِ الذي كانَ مِنْ أيوبَ ﷺ الحَلْفُ بِضَرْبِ امرأتِهِ. ولكنْ لَسْنا نَدْري ما السَّبَبُ الذي حَمَلَهُ على الحَلْفِ بِضَرْبِها؟ ولا حاجةَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ السببِ.

غيرَ أنّا نَعْلَمُ أنهُ كانَ مِنَ المَحْلوفِ عليهِ مَعْنًى يَسْتَوجِبُ بذلكَ الضَّرْبَ حينَ[4] حَلَفَ هو بالضَّرْبِ، وأمَرَهُ اللهُ ﷻ بالضَّرْبِ.

ثم مَعْلومٌ أنَّ غَضَبَهُ وحَلْفَهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ، ولكنْ للهِ ﷻ ثم الغَضَبُ لا يُخْرِجُ الأنبياءَ ﷺ عن أيدي أنفسِهِمْ على مَنْ كانَ غَضَبُهُ لِنَفْسِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قُضْبانٌ وأغصانٌ ونَحْوُ ذلكَ لأيوبَ خاصةً. وقالَ بعضُهُمْ: هو لهُ وسائِرِ الناسِ: أنَّ مَنْ حَلَفَ أنْ يَضْرِبَ كذا خَشَبَةً أو سُوطاً، فَجَمَعَ قُضْباناً أو أغصاناً، فَضَرَبَ بها، بَرَّ في يمينِهِ. وليسَ في الآيةِ أنهُ ضَرَبَ بهِ مَرَّةً أو مِراراً حتى يَخْرُجَ بِضَرْبِهِ المرأةَ عنْ يمينِهِ.

ثم الأصلُ عندَنا أنَّ مَنْ هَمَّ بِضَرْبٍ آخَرَ كانَ بالضاربِ هيئةٌ، وأبداً يُعْرَفُ أنهُ يريدُ الضَّرْبَ، فَيَنْجَرِدُ بالمَضروبِ هيئةٌ وأثَرٌ، وهو التَّألُّمُ. فجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بهِ تلكَ الهيئةَ والأثَرَ [لا][5] الضَّرْبَ نفسَهُ، ليسَ في يمينِهِ. وإنَّ الأفضلَ فيها تَرْكُ الضَّرْبِ والكفارةُ عنِ الحَنْثِ.

ثم أثْنى اللهُ ﷻ على أيوبَ ﷺ فقالَ ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ بما ابْتَلاهُ اللهُ في نفسِهِ وأهلِهِ ومالِهِ ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي راجعٌ إليهِ ﷻ في جميعِ أحوالِهِ: في حالِ الشِّدَّةِ والبلاءِ وفي حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي اضرِبْ بها الأرضَ، وكذلكَ رَكْضُ دابَّتِكَ؛ إذا ضَرَبْتَها بِرِجْلِكَ تُسْرِعُ[6]. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ؛ قالَ: والضِّغْثُ مِلْءُ الكفِّ مِنَ الحَشيشِ وغيرِهِ ومِنْ كلِّ شيءٍ، وأضغاثٌ جميعٌ. وقالَ القُتَبِيُّ: الضِّغْثُ الحِزْمَةُ مِنَ الكَلإِ أو مِنَ العِيدانِ وهو قريبٌ مِنَ الأوَّلِ، وقالَ: المُغْتَسَلُ الماءُ، وهو الغَسولُ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ مِنَ الحِنْثِ. والحِنْثُ في الأصلِ الإثْمُ، وبَرَّتْ يمينُهُ إذا صَدَقَ فيها، ووَفَى.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿وَاذْكُرْ﴾ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الرسلِ ﷺ وأهلِ الصَّفْوَةِ، أي اذْكُرْ هؤلاءِ بما لَقُوا مِنْ أعدائِهِمْ، فَتَسْتَعينَ أنتَ بما تَلْقَى مِنْ أعدائكَ.

أو يقولُ: اذْكُرْ صَبْرَ هؤلاءِ على قومِهِمْ لِتَصْبِرَ أنتَ على أذى قومِكَ، وهو قريبٌ مِنَ الأوَّلِ.

---

(١) في الأصل: على، في م: بلى. (٢) من م، في الأصل: له. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ادرج قبلها في الأصل وم: حتى.

جنة السنة

[أو يقولُ: اذكُرْ خبرَ][(١)] هؤلاءِ في العبادةِ والدينِ لِيَحُثَّكَ، ويُحَرِّضَكَ[(٢)] على الجَهْدِ فيها.

أو يقولُ: اذكُرِ الأسبابَ التي بها صارَ هؤلاءِ أهلَ صَفْوَةِ اللهِ ومَحَلَّ إحسانِهِ لِيَحْمِلَكَ ذلكَ على طَلَبِ الأسبابِ لِتَصيرَ مِنْ أهلِ صَفْوَةِ اللهِ، ونَحْوَهُ يُحْتَمَلُ.

أو يقولُ: اذكُرْ هؤلاءِ الصالِحينَ لِتَتَسَلَّى بِذِكْرِهِمْ عنْ بعضِ أمورِكَ وهمومِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قيلَ: أولي الأيدي أولي القوةِ في العبادةِ والبَصَرِ في الدينِ.

ثم معلومٌ أنَّ هؤلاءِ لم يكونوا أهلَ قوةٍ في أنفسِهِمْ، وإنما كانوا أهلَ قوةٍ في العبادةِ في الدينِ لِيُعْلَمَ أنَّ القوةَ في الدينِ غيرُ القوةِ في النفسِ.

وقيلَ: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوةِ في طاعةِ اللهِ والبَصَرِ في الحَقِّ، وقيلَ: في الفِقْهِ، وقيلَ: أولي الفَهْمِ في كتابِ اللهِ، وهو واحدٌ.

ثم في قولِهِ: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ دلالةُ أنْ قد يُفْهَمُ بِذِكْرِ الأيدي غَيرُ الجارحةِ وبِذِكْرِ البَصَرِ غيرُ العينِ لأنهُ معلومٌ أنهُ لم يُرِدْ بِذِكْرِ الأيدي الجوارحَ ولا بِذِكْرِ الأبصارِ الأعْيُنَ، ولا فُهِمَ منهُ ذلكَ، ولكنْ فُهِمَ باليَدِ القوةُ وبِذِكْرِ البَصَرِ الفَهْمُ[(٣)]، أو ما فُهِمَ.

فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ونَحْوِهِ الجارحةُ على ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ، ولكِنِ القُوَّةُ أو غيرُها. لكنْ كَنَّى باليَدِ عنِ القوةِ لِما باليَدِ يَقْوَى، وكَنَّى بالبَصَرِ عَنْ دَرَكِ الأشياءِ حقيقةً لِما بالبَصَرِ تُدْرَكُ الأشياءُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [بِخالصةِ النُّبُوَّةِ والرسالةِ وذِكْرِ الدارِ، والّا يَذْكُروا غيرَ دارِ الآخِرَةِ.

وأصلُهُ: أنَّ اللهَ ﷻ أخلَصَهُمْ، وصَفَّاهُمْ، واختارَهُمْ لِنَفْسِهِ[(٤)]، وخَصَّهُمْ بها، وجَعَلَ هِمَّتَهُمْ للرغبةِ في الآخِرَةِ والزُّهْدِ في الدنيا واختيارِ ذِكْرِ الآخِرَةِ على ذِكْرِ الدنيا. أو أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾][(٥)] أي شَرَفِ الدارِ حتى[(٦)] صاروا مذكورينَ مُشَرَّفينَ في الدارِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي هم عندنا أهلُ صَفْوَةٍ؛ صَفَّاهُمُ اللهُ /٤٦٣ ـ أ/ ﷻ واختارَهُمْ لنفسِهِ ورسالتِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ اختارَهُمْ على عِلْمِ الرسالةِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿وَٱذْكُرْ﴾ وجوهاً على ما ذَكَرْنا:

[أحَدُها: اذكُرْ][(٧)] صَبْرَ هؤلاءِ على ما لَقُوا مِنْ قومِهِمْ، فَتَسْتَعينَ أنتَ على الصَّبْرِ بما[(٨)] تَلْقَى مِنْ قومِكَ.

[والثاني][(٩)]: اذكُرْ حُسْنَ معاملةِ هؤلاءِ رَبَّهُمْ وحُسْنَ سيرتِهِمْ في ما بَينَ الخَلْقِ لِتُعامِلَ أنتَ ربَّكَ مثلَ معامَلَتِهِمْ ومثلَ سيرَتِهِمْ.

[والثالثُ][(١٠)]: اذكُرْ هؤلاءِ ومَنْ ذَكَرَ، أي أثْنِ عليهِمْ بِحُسْنِ الثناءِ، واذْكُرْهُمْ بخيرِ ما أثنَى عليهِمُ اللهُ ﷻ وأمَرَ الناسَ أنْ يُثْنوا عليهِمْ على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ليكونوا أبداً أحياءً بِحُسْنِ الثناءِ والذِّكْرِ.

[والرابعُ][(١١)]: اذكُرْ هؤلاءِ أنْ كيفَ عامَلَهُمُ اللهُ، واختارَهُمْ لِرسالَتِهِ، وما ذَكَرَ اللهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: اذكر حينئذ، في م: اذكر خبر. (٢) في الأصل وم: ويخرجك. (٣) في الأصل وم: أفهم. (٤) في الأصل: ناساً. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل: و ذكر، في م: وذكرهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: مما. (٩) و (١٠) و (١١) في الأصل وم: أو يقول.

جنة السنة

ثم قولُهُ ﷺ: ﴿وَٱلۡيَسَعَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو إلياسُ، وقالَ بعضُهُمْ: هو غيرُهُ، وكانَ ابنَ عمِّ إلياسَ، واللهُ أعلمُ ﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ اختُلِفَ فيهِ أيضاً: قالَ بعضُهُمْ: كانَ إلياسُ في أربعِ مئةِ نَبِيٍّ ﷺ في زمَنِ مَلِكٍ، فَقَتَلَ المَلِكُ ثلاثَ مئةٍ منهمْ. فَكَفَلَ رجلٌ إلياسَ في مئةِ نَبِيٍّ، فَكَفَلَهُمْ، وخَبَأَهُمْ عندَهُ يُطْعِمُهُمْ، ويَسْقِيهِمْ، حتى خرَجوا مِنْ عندِهِ. وكانَ الكِفْلُ بِمَنزِلَةٍ مِنَ المَلِكِ. فلذلكَ سُمِّيَ ذا الكِفْلِ، لأنهُ خَبَأَهُمْ، وكَفَلَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ ذا الكِفْلِ لأنهُ كَفَلَ للهِ ﷺ [وَوَفَّى اللهَ][1] بهِ، فَسُمِّيَ ذا الكِفْلِ.

وقالَ أبو موسى الأشعَرِيُّ: إنَّ ذا الكِفْلِ لم يكُنْ نَبِيّاً، ولكنْ كانَ رجلاً صالحاً، تَكَفَّلَ بعملِ رجلٍ صالحٍ عِندَ موتِهِ، كانَ يُصَلِّي للهِ ﷺ كلَّ يومٍ مئةَ صلاةٍ، فأحْسَنَ اللهُ عليهِ الثناءَ في كَفالَتِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ نَبِيّاً مِنَ الأنبياءِ قالَ لقومِهِ: أيُّكُمْ يَتَكَفَّلُ بتبليغِ ما بُعِثْتُ[2] أنا إلى الناسِ بَعدي لأَضْمَنَ لهُ الجنةَ والدرجةَ العُلْيا؟ فقالَ شابٌّ: أنا أكْفُلُ التَّبليغَ على ذلكَ، ووَفَى ما كُفِّلَ، فَسُمِّيَ ذا الكِفْلِ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ أنهُ لماذا؟ وأنَّ اليَسَعَ كانَ فلاناً سِوى أنْ يَعْرِفَهُمْ أنهمْ مِنَ الأخيارِ على ما ذَكَرَ اللهُ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ معرفةَ أخبارِ[3] الآحادِ تُوجِبُ عِلْمَ العَمَلِ، ولا تُوجِبُ عِلْمَ الشهادةِ. وليسَ ههنا سِوى الشهادةِ على اللهِ، والتَّرْكُ أولَى..

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌ﴾ أي شَرَفٌ، وذِكْرُ الذينَ تقدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنَ الأخيارِ، لأنهمْ يُذْكَرونَ أبداً بِخَيرٍ وحُسْنِ الثناءِ عليهِمْ بِما كانَ منهمْ مِنْ حُسْنِ السِّيرَةِ والعَمَلِ. فذلكَ شَرَفُهُمْ حينَ[4] صاروا مذكورينَ على ألْسُنِ الناسِ، وهمْ أحزابٌ.

[ويحتَمِلُ][5] أنْ يكونَ ذِكْرُ هؤلاءِ ذِكْراً[6] وعِظَةً لِمَنْ بَعدَهُمْ، أو ذِكْراً[7] لكَ وعِظَةً لِتَعرِفَ حُسْنَ مُعامَلةِ الرَّبِّ بهِمْ، أو [أنْ يكونَ][8] هذا القرآنُ ذِكْراً[9] وعِظَةً لِمَنْ آمَنَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ جملةُ الاتِّقاءِ هو أنْ تُتَّقَى المَهالِكُ، أي اتَّقَوا جميعَ ما يُهْلِكُكُمْ ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أي مَرْجِعٍ.

الآية ٥٠ ثم بَيَّنَ حُسْنَ المَرْجِعِ الذي يَرْجِعونَ إليهِ حينَ[10] قالَ ﷺ: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ أي مُقامٍ، يُقالُ: عَدَنَ في مكانِ كذا، أي أقامَ، كأنهُ [قالَ][11]: جنّاتِ مُقامٍ فيها ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٨] ولا [غيرَها أعلَى ممّا][12] أخبرَ اللهُ ﷺ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: عَدْنٌ الذي هو وَسَطُ الشيءِ كأنهُ ذَكَرَ أنَّ الجنةَ عَدْنٌ، كانَتْ وَسَطَ الجِنانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ أبوابَ الجنةِ. يُقالُ لهُ: ادخُلْ أيَّ بابٍ مِنْ أبوابِها شِئْتَ على ما يقولُهُ بعضُ الناسِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ أبوابَ كلِّ أحدٍ منهمْ في الجنةِ، تكونُ مُفَتَّحَةً، لأنَّ الإغلاقَ في[13] الأبوابِ إنما يكونُ في الدنيا إمّا لِخَوفِ السَّرَقِ أو نَظَرِ الناسِ إلى أهلِهِ وحَرَمِهِ وخوفِ نَظَرِ أهلِهِ إلى الناسِ. لِهذا المَعنَى تُتَّخَذُ الأبوابُ في الدنيا، والغَلَقُ والإغلاقُ دونَهُمْ، وليسَ ذلكَ المَعنَى في الجنةِ لِما أخبَرَ أنَّ أزواجَهُمْ يَكُنَّ قاصراتِ الطَّرْفِ، لا يَنْظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهِنَّ، ولا يكونُ فيها أبوابٌ لِما ذَكَرْنا أنَّ الأبوابَ إنما تُتَّخَذُ لِخَوفِ السَّرَقِ والنَّظَرِ في حَرَمِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: خوفاً لله. (٢) في الأصل وم: بعث. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: ذكر. (٧) في الأصل وم: ذكر. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: غير أعلى ما. (١٣) في الأصل وم: و.

جنة السنة

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ وصفُ حالِ اجْتماعِهِم [لأنَّ ذلكَ يُدْعَى إليهِ][1] بالفَواكِهِ والشَّرابِ في الدنيا. وأمّا في حالِ الانْفِرادِ فقَلَّ ما يَدْعُونَ بالشَّرابِ.

ثم فيهِ إخبارٌ أنهمْ يَدْعُونَ في الجنةِ بالفَواكِهِ والشَّرابِ جميعاً. وفي الدنيا العُرْفُ فيهِمْ أنَّ أهلَ الشَّرابِ قَلَّ ما يَجْمَعونَ بينَ الفَواكِهِ والشَّرابِ بوجهَينِ: إمّا لِخَوفِ الضَّرَرِ بهِمْ إذا جُمِعَ، أو لِما لا يُوجَدانِ.

وليسَ هذانِ المَعْنَيانِ في الجنةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ كأنَّ ذِكْرَ الكَثْرَةِ كِنايةٌ عن أنواعِ الفَواكِهِ وألوانٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ كلِّ نوعٍ، ليسَ بِعِبارَةٍ عنِ الكَثْرَةِ مِنْ نَوعٍ واحِدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أي طَرفُهُنَّ يَقْصُرْنَهُ على أزواجِهِنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غيرِ أزواجِهِنَّ ولا يُرِدْنَ غيرَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿أَتْرَابٌ﴾ قالوا: مُسْتَوِياتُ الأسنانِ، أرادَ أنْ يكونوا جميعاً: الأزواجُ والزوجاتُ على سِنٍّ واحِدٍ، أو أنْ يُخْبِرَ أنهمْ جميعاً يكونونَ على حالٍ واحدةٍ، لا يَتَغَيَّرونَ، ولا يَهْرَمونَ، كما يكونُ في الدنيا بعضُهُمْ أكْثَرَ سِنّاً مِنْ بعضٍ وأضْعَفَ حالاً مِنَ الآخَرِ. ولكنْ لا يَهْرَمونَ، ولا يَكْبَرونَ، ولا يَضْعُفونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ كأنهُ تقولُ لهمُ الملائكةُ: هذا ما تُوعَدونَ أهلَ الجنةِ في القرآنِ.

الآية ٥٤ ثم أتاهُمْ مِنَ اللهِ بِشارةٌ، تُبْقي لهمْ ذلكَ أبداً، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي انْقِطاعٍ وذهابٍ. نَفِدَ الشيءُ، إذا فَنِيَ، وذَهَبَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا الذي ذَكَرْنا ثَوابُ المُتَّقِينَ، وجزاءُ تَقْواهُمْ.

الآية ٥٥ ثم بَيَّنَ جَزاءَ الطاغينَ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ أي لَبِئْسَ المَرْجِعُ.

الآية ٥٦ ثم بَيَّنَ ذلكَ المَرْجِعَ، ماهو؟ فقالَ ﷻ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي فَبِئْسَ ما مَهَدُوا لأنفسِهِمْ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذَكَرْنا جَزاءُ الطاغينَ. والطُّغيانُ يَرْجِعُ إلى وُجوهٍ. إلّا أنَّ أصلَهُ هو الذي لا يَجْتَنِبُ المَهالِكَ، ولا يَتَّقِيها[2]. والمُتَّقي، هو الذي يَتَّقِي المَهالِكَ، ويَجْتَنِبُها حَقيقةَ التُّقَى. والطُّغيانُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ كأنَّ الملائكةَ يقولونَ[3] إذا أُدْخِلوا جَهَنَّمَ، وأُلْقوا فيها: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ والحَميمُ، هو الشَّرابُ الذي انْتَهَى حَرُّهُ غايَتَهُ ونِهايَتَهُ. والغَسّاقُ اخْتَلَفوا فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: هو ما يَسيلُ مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ[4] واللَّحْمِ؛ جَعَلَ ذلكَ شرابَهُمْ في النارِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الغَسّاقُ، هو الزَّمْهَريرُ، والزَّمْهَريرُ، هو البَرْدُ الذي بَلَغَ غايَتَهُ ونِهايَتَهُ؛ يَحْرِقُ بِشِدَّةِ بَرْدِهِ كما يَحْرِقُ الحَميمُ الذي بَلَغَ نِهايَتَهُ شِدَّةُ حَرِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ اتَّفَقَ أهلُ التأويلِ، أو أكْثَرُهُمْ، على أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ هو العذابُ؛ كأنهُ يقولُ: وآخَرُ مِنْ شَكْلِ ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ لهمْ.

ثم اخْتَلَفوا في ذلكَ العذابِ الذي قالوا: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قالَ عبدُ اللهِ ابْنُ مسعودٍ ﷺ: هو الزَّمْهَريرُ.

ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ ألوانٌ مِنَ العذابِ. وقالَ بعضُهُمْ: زَوجٌ مِنَ العذابِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي قومٌ مِنْ شَكْلِ أولئكَ الذينَ ذَكَرَهُمْ، يُقَرَّبونَ إلى أولئكَ،

---

(١) في الأصل وم: لأنه ذلك يدعى. (٢) في الأصل وم: يتقي. (٣) في الأصل وم: يقول لهم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَيَجمعون في العذابِ كقولِهِ ﷻ: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ/ ٤٦٣ - ب/ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢] أو أنْ يكونَ فوجٌ آخرُ يَدْخلونَ مِنْ شَكْلِ الأوَّلينَ.

الآية ٥٩ وهو ما ذَكَرَ ﷻ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ يقولُ المَتْبوعُ للأتباعِ لمّا أُدْخِلوا النارَ وراءَهُمْ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي لا سِعَةَ بهِمْ، وهو مِنَ الرُّحْبِ، وهو السَّعَةُ.

الآية ٦٠ فأجابَهُمُ الأتباعُ: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: قالتِ الخزنَةُ لِمَنْ في النارِ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ فَيَرُدّونَ على الخزنَةِ ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ فَيَرُدُّ عليهِمُ القومُ الذينَ اقْتَحموا النارَ بَعْدَهُمْ ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾.

وأصلُ هذا أنَّ هذا منهمْ لَعْنٌ، يَلْعَنُ بعضُهُمْ بعضاً كقولِهِ[1] ﷻ ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ هذا كقولِهِ ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] هذا قولُ الأتباعِ للقادةِ والرؤساءِ منهمْ، ثم رَدَّتِ القادةُ على الأتباعِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩].

فَعَلى ذلكَ هذهِ المُناظَرَةُ التي ذُكِرَتْ ههنا بينَ القادةِ والأتباعِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي[2] أنتمْ شَرَعْتُموهُ لنا في الدنيا، وسَنَنْتُموهُ. وكذلكَ قولُهُمْ: ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي مَنْ شَرَعَ لنا هذا وسَنَّ [الدينَ][3] الذي كُنّا عليهِ، وأُمِرْنا بهِ[4] ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وهو كما ذَكَرَ في سورةِ سَبَإٍ حينَ قالوا: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبإ: ٣٣] واللهُ أعلَمُ.

قالَ القُتَبِيُّ: الغَسّاقُ ما يَسيلُ مِنْ جلودِ أهلِ النارِ ولُحومِهِمْ مِنَ الصديدِ؛ يُقالُ: غَسَقَتْ منهُ[5]، أي سالَتْ، ويُقالُ: هو البارِدُ المُنْتِنُ. وكذلكَ قالَ أبو عوسجةَ، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ مِنْ مِثْلِهِ، الشَّكْلُ المِثْلُ، والشَّكْلُ [بِكَسْرٍ وفَتْحٍ][6] الشينِ الغَنْجُ، وشَكِلَتِ المرأةُ إذا تغَنَّجَتْ، والتَّقَحُّمُ الدُّخولُ، واقْتَحَمْتُ، كلُّهُ واحدٌ[7]، وهو الدُّخولُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي لاسَعْدَ بهِمْ، والرَّحيبُ والرَّحْبُ الواسِعُ.

الآيتان ٦٢ و٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ هذا يقولونَ][8] في الآخِرَةِ في النارِ. هذا لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ وألّا ﴿تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لأنَّ هذهِ السورةَ مكيَّةٌ نَزَلَتْ مُحاجَّةَ أهلَ مكةَ في إثباتِ التوحيدِ وإثباتِ الرسالةِ [وإثباتِ البعثِ، لأنهمْ كانوا على فِرَقٍ ثلاثٍ: منهمْ مَنْ يُنْكِرُ التوحيدَ، ومنهمْ مَنْ يُنْكِرُ الرسالةَ][9] ومنهمْ من يُنْكِرُ البَعْثَ.

فَذَكَرَ الآيةَ[10] المُتَقَدِّمَةَ لإثباتِ الرسالةِ في ما تَقَدَّمَ، وذَكَرَ حُجَجَ البَعْثِ في هذهِ الآياتِ وحُجَجَ التوحيدِ في آخِرِهِ. ذَكَرَ ذلكَ كلَّهُ لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ، وإنْ أنكَروا ذلكَ لئلا يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ عُقوبَةَ اللهِ قد تَلْزَمُ، وإنْ لم يَتَحَقَّقْ عندهُ الحقُّ، ولم يَعْرِفْهُ حقيقةً حينَ[11] أخبَرَ أنهمْ يقولونَ في النارِ ما ذَكَرَ ﷻ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ لأنهُ معلومٌ أنهمْ [لو عَلِموا][12] حقيقةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ كانوا [على حقٍّ][13] ما تَرَكوا اتِّباعَهُ، ولا سَخِروا منهمْ.

---

(١) في الأصل وم: لقوله. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: وقوله ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: منه.
(٥) في الأصل وم: عنه. (٦) في الأصل وم: بنصب. (٧) في الأصل وم: واحدة. (٨) في الأصل وم: إلى آخر ما ذكر، ذكر هذا يقول.
(٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: الأنباء. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: لم يعلموا. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و.

جنة السنة

وعلى ذلكَ تُخرَّجُ مُباهَلَةُ أبي جَهْلٍ يومَ بدرٍ حينَ[1] قالَ: اللهمَّ أيُّنا أوصَلُ رَحِماً وأكثَرُ كذا على ما ذَكَرَ فانظُرْ إليهِ.

ومعلومٌ أنهُ لو كانَ يَعْلَمُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ على حقٍّ لكانَ لا يَجْترِئُ على المُباهَلَةِ.

دلَّ أنهُ لم يَعْلَمْ حقيقةً أنهُ على حقٍّ، فَعُوقِبوا، وإنْ لم يَعْلَموا لِما أمْكَنَ لهمْ مِنَ العِلْمِ والمعرفةِ، لو تأمّلوا، وأحْسَنوا النَّظَرَ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنهمْ يَنْظُرونَ في النارِ فلا يَرَونَ مَنْ كانَ يُخالِفُهُمْ في دينِهِمْ، وهُمْ اصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ الذينَ كانوا يَسْتَهْزِئونَ بهمْ في الدنيا، ويَسْخَرونَ منهمْ. يقولونَ: كُنّا نَسْخَرُ منهمْ في الدنيا، فأينَ هُمْ؟ وما لَنا لا نَراهُمْ؟ أم زاغَتْ عنهُمُ الأبصارُ، أي حارَتْ، وشُغِلَتْ أبصارُنا، فلا نراهُمْ.

لكنْ لا يُحتَمَلُ أنْ يكونوا يقولونَ على هذا الذي يقولُهُ أهلُ التأويلِ، ولكنْ يقولونَ على التَّلَهُّفِ والتَّنَدُّمِ على ما كانَ منهمْ في الدنيا مِنْ تَرْكِ اتِّباعِهِمْ والسُّخْرِيَةِ منهمْ، قد ظَهَرَ عندَهُمْ أنَّ أولئكَ كانوا على حقٍ؛ أعني رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ، وأنهمْ على باطلٍ.

فلا يُحتَمَلُ أنْ يقولوا ذلكَ على غَيرِ التَّلَهُّفِ والتَّنَدُّمِ، وقد عَرَفوا بماذا عُذِّبوا، وجُعِلوا في النارِ؛ عَرَفوا أنهمْ يُكَذِّبونَ في النارِ؛ يعني أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ إذْ كانوا على خِلافِ ما كانَ أولئكَ الكَفَرَةُ، واللهُ أعلَمُ.

أو أنْ يقولوا ذلكَ على الاسْتِعانَةِ بهمْ؛ يقولونَ: أينَ أُولئكَ الذي كانوا ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ في الدنيا: لَعَلَّهُمْ يَشْفَعونَ لنا، فَيُغيثونَنا؟ يَطْمَعونَ بالنجاةِ إذا اتَّبَعْناهُمْ في ذلكَ الوقتِ أو نَحْوَ ذلكَ كقولِهِ ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] وهذا الذي ذَكَرْنا هو أشْبَهُ بما يقولُهُ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: القَسَمُ بقولِهِ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [الآية: ١] وَقَعَ على هذا على ما ذَكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: هذا على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ؛ يقولُ: إنَّ ذلكَ الذي ذَكَرَهُ مِنْ [تخاصُمِ أهلِ النارِ كقولِهِمْ][2]: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [الآية: ٦٠] وقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [الآية: ٦١] وما ذَكَرَ في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي ذلكَ التخاصُمُ الذي ذَكَرَ لَحقٌّ، أي كائنٌ في ما بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ ليسَ عليَّ ممّا حُمِّلْتُمْ شيءٌ، إنما ذلكَ عليكُمْ، إنما على الإنذارِ لكمْ فقط. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما مِنْ إلهٍ عندَ دُونِهِ بإلهٍ، إنما الإلهُ هو الواحدُ القهّارُ الذي تَفَرَّدَ، وتَوَحَّدَ بربوبيتِهِ وألوهيتِهِ، قَهَرَ الخلائقَ كلَّهُمْ بِقُدْرَتِهِ.

الآية ٦٦ وقولُهُ ﷻ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ يُخبِرُ عن غِناهُ وسُلطانِهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَعْلَمونَ أنهُ ربُّ السمواتِ والأرضِ ومُنْشِئُهُما ومُنْشِئُ ما بينهما، فلا يَحْتَمِلُ أنَّ ما يأمُرُكُمْ بهِ، وينهاكُمْ عنهُ لحاجةِ نفسِهِ أو لِمَنفَعَةٍ لهُ، ولكنْ إنما يأمُرُ، وينْهَى لِمَنفَعَةِ أنفُسِكُمْ ولِحاجَتِكُمْ، أو يقولُ: تَعْلَمونَ أنهُ هو ربُّكُمْ وربُّ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما، فكيفَ تَعْبُدونَ مَنْ تَعْلَمونَ أنهُ ليسَ بِرَبِّكُمْ، ولا إلهٍ. وإنما الإلهُ ما ذَكَرَ، فَتَتْرُكونَ عبادَتَهُ وطاعَتَهُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي لا يَلْحَقُهُ الذُّلُّ بِذُلِّ أوليائِهِ وخَدَمِهِ، لأنهُ عَزيزٌ بذاتِهِ، لا بأحدٍ، ليسَ كَملوكِ الأرضِ يَذِلُّونَ، إذا ذَلَّ أولياؤُهُمْ وأتباعُهُمْ، لأنَّ عِزَّهُمْ بأوليائِهِمْ وأتباعِهِمْ. فإذا ذَلُّوا ذَلَّ مَنْ كانَ عِزُّهُ بهمْ.

فأمّا اللهُ ﷻ فهو[3] عزيزٌ بذاتِهِ، لا يَلْحَقُهُ الذُّلُّ بِذُلِّ أوليائِهِ ولا هَلاكِهِمْ.

الآيتان ٦٧و٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحَدُهما: أنَّ هذا القرآنَ الذي أنْزَلَ على رسولِهِ ﷺ نَبَأٌ عظيمٌ، أنتمْ عنِ التَّفَكُّرِ فيهِ [والنَّظَرِ][4] مُعرِضونَ، لأنَّ فيهِ ذِكْرَ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث قالوا. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ما نَزَلَ بالمُكَذِّبينَ[1] بالتَّكذيبِ والعِنادِ، وفيهِ ذِكْرُ مَنْ نَجا منهُمْ [أنهُ][2] بِمَ نَجا؟ وفيهِ[3] ذِكْرُ البَعْثِ وذِكْرُ الجنةِ والنارِ ونَحْوِهُ، وذِكْرُ ما لَهُمْ وما عليهِمْ. فَهُمْ عنِ التَّفَكُّرِ فيهِ والنَّظَرِ مُعْرِضونَ / ٤٦٤ ـ أ/ ما لو تَفَكَّروا فيهِ، وتأمَّلوا، لأدركوهُ كُلَّهُ، وَ وَصَلوا إلى مَعْرِفَةِ كلِّ ما فيهِ مِمّا ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: قولُهُ ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي البَعْثُ والحَشْرُ هو نَبَأٌ عظيمٌ، أنتم عنِ السَّعْيِ والعَمَلِ لِذلكَ مُعْرِضونَ، تاركونَ. فَمَنْ جَعَلَ تأويلَهُ غيرَ البَعْثِ والحشرِ يَجْعَلِ الإعراضَ عنِ السَّعْيِ لهُ والعَمَلِ لذلكَ اليومِ. ومَنْ حَمَلَ تأويلَهُ على القرآنِ يَجْعَلِ الإعراضَ عنِ التَّفَكُّرِ فيهِ، والنَّظَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٩ و٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اخْتُلِفَ في المَلإِ الأعلَى:

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: المَلأُ الأعلَى، هُمُ الملائكةُ الذينَ تَكَلَّموا في آدمَ ﷺ حينَ قالَ لهمُ الرَّبُّ ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ الآية [البقرة: ٣٠] وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ليسَ على حقيقةِ الخُصومةِ، ولكنْ على التَّكَلُّمِ في ذلكَ كقولِهِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ [الطور: ٢٣] كأنها ليستْ على التنازُعِ المعروفِ عندَ الناسِ والخُصومةِ، ولكنْ على اخْتِلافِ الأيدي.

فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنِ اخْتِصامِهِمْ، واللهُ أعلَم. ومَعْناهُ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مِنِ اخْتِصامِ المَلإِ الأعلَى، وما كانَ منهمْ مِنَ التَّكَلُّمِ إلا أنْ أُوحِيَ إليَّ، فَعَلِمتُ[4]، وإنما ﴿أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وما كانَ اخْتِصامُهُمْ في الكفاراتِ وفي الدرجاتِ وفي المُنْجِياتِ والمُوبِقاتِ[5] حتى عَلَّمَني اللهُ ذلكَ بالوَحْيِ إليَّ، وأعْلَمَني ذلكَ.

ويَذْكُرونَ «أنَّ الكفّاراتِ، هي إسباغُ الوضوءِ في المَكارِهِ، وبَذْلُ الطعامِ عندَ الضيقِ والشدائدِ» [بنحوه البزار في كشف الأستار: ٢١٢٩] ونَحْوُها مِمّا يَطولُ ذِكْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي بالجَمْعِ الأعلى، وهو جَمْعُ يومِ القيامةِ [سَمّاهُ الجَمْعَ][6] الأعلى لأنهُ جَمْعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ مِنَ الفِرَقِ جميعاً؛ أي ما كانَ لي مِنْ عِلْمٍ بذلكَ الجَمْعِ حتى عَلِمْتُ بالوَحْيِ.

وقولُهُ ﷺ: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في ذلكَ اليومِ تَقَعُ الخُصوماتُ كقولِهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] وهو على حقيقةِ الخُصومةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المَلأُ الأعلَى، همُ الأشرافُ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ والقادةِ، منهُمُ الذينَ أُهْلِكوا بالتكذيبِ ومَنْ نَجا منهم بالتصديقِ، فيقولُ: ما كانَ لي مِنْ عِلْمٍ بهِمْ، وما نَزَلَ بهِمْ أُوحِيَ إليَّ، فَعَلِمْتُ بالوَحْيِ.

كأنهمْ سألوهُ عنْ ذلكَ. فأخبَرَ أني كنتُ كواحدٍ منكُمْ في ذلكَ حتى عَلِمْتُ ذلكَ بالوحْيِ ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمَرَني ربِّي، وأوْحَى إليَّ أنْ أُنْذِرَكُمْ بذلكَ متى[7] أَعْلَمُ بالوَحْيِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ لا على القولِ منهُ لهمْ، ولكنْ على الخَبَرِ أنهُ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذَكَرَ الذي خَلَقَ منهُ آدمَ على أوصافٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ مَرَّةً ذَكَرَ أنهُ خَلَقَهُ مِنْ طينٍ، ومَرَّةً مِنْ تُرابٍ، ومَرَّةً مِنْ حَمَإٍ مَسْنونٍ ومَرَّةً مِنْ [صَلْصالٍ كالفَخّارِ ومَرَّةً مِنْ طينٍ][8] لازِبٍ، وغيرِهِ على اخْتِلافِ ما ذَكَرَ.

---

(١) من م، في الأصل: من التكذيب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وفي. (٤) من م، في الأصل: فقالت. (٥) في الأصل وم: والموثقات. (٦) من م، في الأصل: سماع الجميع. (٧) في الأصل وم: حتى. (٨) في الأصل وم: كالصلصال ومرة كالفخار ومرة، في م، كالصلصالِ ومرة كالفخار ومرة.

جنة السنة

فجائزٌ أنْ يكونَ كلُّ وصفٍ مِنْ ذلكَ قد كانَ وَصْفاً[١] عَنْ حالٍ؛ كانَ تراباً ثم صارَ ما ذَكَرَ وصْفَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وإضافةُ الروحِ إلى نفسِهِ كإضافةِ خَلْقٍ مِنْ خلائِقِهِ إليهِ، إذِ الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خلائِقِهِ كسائِرِ الخَلائِقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ لولا صَرْفُ أهلِ التأويلِ سُجودَ الملائكةِ لآدمَ إلى حَقيقةِ السجودِ، لكنا[٢] نَصْرِفُ الأمْرَ بهِ إلى الخُضوعِ لهُ والاستِسْلامِ كما أحْوَجَ الملائكةَ إلى معرفةِ هذهِ الأسماءِ إلى آدمَ، وبهِ عَرَفوها حينَ[٣] قالَ ﷻ: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]. لكنْ صَرْفُ أهلِ التأويلِ سُجودَ الملائكةِ إلى حقيقةِ السجودِ لهُ جائزٌ لأنهمْ مُمْتَحَنونَ بالأمرِ والنَّهْيِ، وقد بيَّنّا ذلكَ في ما تقدَّمَ.

ثم اسْتَثْنَى إبليسَ مِنَ الملائكةِ، وأخْبَرَ أنهُ اسْتَكْبَرَ، وأبَى أنْ يَسْجُدَ لهُ حينَ[٤] قالَ ﷻ.

الآيتان ٧٣ و٧٤ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ على قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ إبليسَ كانَ مِنَ الملائكةِ، فلمّا أبَى السُّجودَ، خَذَلَهُ، وَوَكَلَهُ إلى نفسِهِ، وصارَ[٥] كافراً لِيُعْلَمَ أنَّ كلَّ أحدٍ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ، وجَلَّتْ مَنْزِلَتُهُ، يَحْتَمِلُ خلافَ ما هو فيهِ وضِدَّهُ، وأنهُ متى امْتَحَنَهُ بأمرٍ، فَتَرَكَ أمْرَهُ تَكَبُّراً أوِ اسْتِخْفافاً، خذلَهُ[٦]، وَوَكَلَهُ إلى أمْرِهِ ونفسِهِ، فَصارَ كافراً مَخْذولاً حقيراً، ليكونوا أبداً على حَذَرٍ وفَزَعٍ إلى اللهِ ﷻ على ما أخْبَرَ عَنْ عِظَمِ قَدْرِ الملائكةِ عندَ اللهِ وجَليلِ مَنْزِلَتِهِمْ عندَهُ، إذا خَذَلَهُمْ، وَوَكَلَهُمْ إلى أنفسِهِمْ صاروا كما صارَ إبليسُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَكْفُرُ، أو كانَ بِمَعْنَى صارَ مِنَ الكافرينَ إذْ أبَى السجودَ، واسْتَكْبَرَ، كقولِهِ ﷻ لآدمَ ﵇ ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ في غيرِ موضعٍ أنَّ تخصيصَ إضافةِ الشيءِ الواحدِ إلى اللهِ ﷻ يُخرَّجُ مُخرَجَ تعظيمِ ذلكَ الواحدِ وذلكَ الفَرْدِ كقولِهِ ﴿رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣] وقولِهِ[٧]: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]. [وقولِهِ][٨]: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] [وقولِهِ][٩]: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢] وأشباهُ ذلكَ.

وخَصَّ هذهِ الأشياءَ بالإضافةِ إليهِ، وإنْ كانتِ البِقاعُ كلُّها والخَلْقُ كلُّهُ لهُ، على التعظيمِ [لتلكَ الأشياءِ][١٠].

فَعَلى ذلكَ تُخرَّجُ إضافةُ خَلْقِ آدمَ حينَ[١١] قالَ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وإنْ كانَ جميعُ الخلائقِ، هو[١٢] خَلَقَهُمْ، وتُخرَّجُ كُلِّيَّةُ الأشياءِ إلى اللهِ وكُلِّيَّةُ الخلائقِ مُخرَجَ تعظيمِ الرَّبِّ والمَدْحِ لهُ نَحْوَ قولِهِ ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] [وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]][١٣] يَخْلُقُ مَنْشأَ العالَمِ [ومَبْدَأَهُ كقولِهِ][١٤] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠و..] [وقولِهِ][١٥]: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] وغيرَ ذلكَ على ما ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿بِيَدَىَّ﴾ قد تَكَلَّفَ أهلُ الكلامِ والتأويلِ إضافةَ اليَدِ إلى اللهِ ﷻ منهم مَنْ قالَ [هي][١٦] القُوَّةُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: كذا. لكنَّ التَّكَلُّفَ في ذلكَ فَضْلٌ مع ما قد تُضافُ اليدُ إلى مَنْ لا يَدَ لهُ ولا جارِحَةَ، ولا عُضْوَ نَحْوَ [ما][١٧] قالَ ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] لم يَفْهَمْ أحدٌ بِذِكْرِ اليَدِ لهُ والخَلْفِ[١٨] ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ، وكذلكَ لم يَفْهَمْ ما ذَكَرَ مِنْ مَجيءِ الحقِّ ولا زُهوقِ الباطلِ ما يُفْهَمُ مِنْ مَجيءِ الخَلْقِ وذهابِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]][١٩] وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ مَجيءِ البرهانِ حينَ[٢٠] قالَ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

---

(١) في الأصل وم: وصف. (٢) في الأصل وم: وإلا كنا. (٣) و(٤) في الأصل وم: حيث. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وخذله. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لذلك. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) في الأصل: ورزق كل شيء ورزاق، في م: ورزاق. (١٤) في الأصل وم: ومبدأها. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) و(١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: ولا الخلق. (١٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا ذهابهم. (٢٠) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧] وقال(١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤] وأمثالُ ذلكَ ممّا يَكثُرُ عَدُّهُ وإحصاؤُهُ.

لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنَ الخلائقِ مِنْ مجيءِ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرْنا مَجيءَ الخَلْقِ، ولا فَهِمَ مِنْ ذِكْرِ اليدِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأشياءِ جارحةً ولا عُضواً. فكيفَ يُفْهَمُ مِنْ ذِكْرِ اليدِ ما فَهِمَ مِنَ الخَلْقِ، لولا فسادُ اعْتِقادِهِمْ لربِّهِمْ، والجهلُ بِتَعاليهِ عن مَعْنَى الغَيرِ؟ وإلّا لم يَخْطِرْ ببالِهِ بِذِكْرِ ذلكَ للهِ وإضافتِهِ إليهِ ما يَخْطِرُ ببالِهِمْ مِنَ الخَلْقِ ومَعْنَى الخَلْقِ.

[ويَحْتَمِلُ](٢) أنْ يكونَ ذلكَ ذَكَرَ لنفسِهِ وأضافَهُ إليهِ مِنَ اليدِ وما ذَكَرَ لِما باليَدِ يكونُ [العَمَلُ](٣) في المُشاهَدِ لو احْتَمَلَ كونُ ذلكَ مِنَ الخَلْقِ نَحْوُ ما قالَ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وقال(٤): ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ونحوُهُ / ٤٦٤ ـ ب/ ممّا يُعْلَمُ في الحقيقةِ أنَّ ذلكَ لم يَكُنْ بِكَسْبِ اليدِ(٥) حقيقةً ولا عَمَلِهِ مِنْ نَحْوِ الكُفْرِ ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ.

لكنهُ ذَكَرَ اليدَ لِما باليَدِ يُكْتَسَبُ في الشاهدِ، وبها تُعْمَلُ أكثرُ الأعمالِ والأفعالِ. وأضافَ ذلكَ إليها لِما ذَكَرْنا، وإنْ لم يَكُنْ منها عَمَلٌ حقيقةً.

فَعَلَى ذلكَ إضافةُ اليدِ إلى اللهِ في ما أضافَ على ما كانَ ذلكَ مِنَ الخَلْقِ إنما كانَ باليَدِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما ذُكِرَ مِنِ اسْتِوائِهِ على العرشِ بَعْدَ أنْ ذَكَرْنا فيهِ ما يَليقُ بهِ ونَفَيْنا عنهُ ما لا يَليقُ.

وأصلُ ذلكَ أنما عَرَفْنا اللهَ ﷻ مُتعالياً عنْ جميعِ معاني الغَيرِ عَنْ كلِّ صفاتٍ يُوصَفُ بها الغيرُ على ما ذَكَرَ في كتابِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. فإذا كانَ كذلكَ فلا حاجةَ لنا إلى تأويلِ اليدِ وما ذَكَروا أنهُ ما أرادَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أسْتَكْبَرْتَ للحالِ عندَما أبيتَ السجودَ لهُ أم كُنْتَ في اعْتِقادِكَ مِنَ العالينَ؟ أي المُسْتَكْبِرينَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أم صِرْتَ مِنَ العالينَ أي اسْتَكْبَرْتَ، وصِرْتَ مِنَ العالينَ على ما في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٧٤] أي صارَ مِنَ الكافرينَ.

ثم حرفُ الشَّكِّ والاسْتِفهامِ مِنَ اللهِ قد ذَكَرْنا أنهُ على الإيجابِ والقَطْعِ؛ كأنهُ قالَ: بلى كُنْتَ في [علمِ](٦) اللهِ أنكَ تَكفُرُ، أو يقولُ: وصِرْتَ مِنَ العالينَ أي مِمَّنْ يَطْلُبُ العُلُوَّ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ظَنَّ إبليسُ، عليهِ لعنةُ اللهِ، أنَّ النارَ، لمّا كانَ مِنْ طَبْعِها الارْتِفاعُ والعُلُوُّ، ومِنْ طَبْعِ الطِّينِ التَّسَفُّلُ والانْحِدارُ، أنَّ الذي طَبْعُهُ الارْتِفاعُ والعُلُوُّ خيرٌ مِنَ الذي طَبْعُهُ التَّسَفُّلُ والانْحِدارُ. لِذلكَ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أو لمّا رأى أنَّ إصلاحَ الأشياءِ كلِّها ونُضْجَها بالنارِ [قالَ ذلكَ](٧).

لكنْ لو نَظَرَ(٨) المَلْعونُ، وحَقَّقَ النَّظَرَ لَعَلِمَ أنَّ الطينَ خَيرٌ مِنَ النارِ لأنهُ مِنَ الأرضِ، والأرضُ كالأصلِ والأمِّ لِغَيرِهِ، لأنَّ الأشياءَ يكونُ إصلاحُها ونُضْجُها بالنارِ؛ أوَّلُ بَدْئِها مِنَ الأرضِ كالابْنِ مِنَ الأمِّ الوالدةِ على غَيرِ ما ذَكَرَ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم كُفْرُهُ بإتيانِهِ السجودَ لهُ لِما لم يَرَ أمْرَ اللهِ لهُ بسجودِ مَنْ هو خيرٌ، وأعْلَى لِمَنْ دونَهُ حِكْمَةً وحَقّاً، فَكَفَرَهُ لمّا رآهُ أنهُ وَضَعَ الأمْرَ(٩) في غيرِ مَوْضِعِ الأمرِ(١٠) واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي اخْرُجْ مِنَ الجنةِ. وقالَ بعضُهُمْ: [أي اخْرُجْ مِنَ السماءِ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: به. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فقال عند ذلك. (٨) من م، في الأصل: يظن. (٩) و(١٠) في الأصل وم: الأرض.

إلى الأرضِ. وقالَ بعضُهُمْ[(١)] أي اخرُجْ مِنَ الأرضِ إلى جَزائِرِ البحرِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ، وليسَ لنا أنْ نَتَكَلَّفَ القطعَ على القولِ فيهِ إنْ أَمرَهُ بالخروجِ مِنْ كذا، وقد عرَفَ اللَّعينُ أنهُ [لمّا][(٢)] تمادى أَمرُهُ بالخروجِ منها.

ثم ذَكَرَ مَرَّةً: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ ومَرَّةً قالَ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الألفاظِ المختلفةِ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مَرَّةً: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] ونَحْوَ ذلكَ على الألفاظِ المُختَلِفَةِ. فذلكَ كلُّهُ يَدُلُّ على أنْ ليسَ على الناسِ حِفظُ الألفاظِ والحروفِ، وكذلكَ ما ذُكِرَ في القَصَصِ على اختِلافِ الألفاظِ مُكَرَّرَةً مُعادَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي لَعينٌ؛ كأنهُ قالَ: فإنكَ لَعينٌ على ألسُنِ الناسِ، ليسَ يَذكُرُهُ أحدٌ مِن أعدائِهِ وأتباعِهِ وأوليائِهِ إلّا وقد لَعَنَهُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كانتِ اللعنةُ عليهِ إلى يومِ الدينِ هي[(٣)] خِذلانَهُ وطَرْدَهُ عن رحمتِهِ ودينِهِ لِما عَلِمَ أنهُ لا يعودُ إلى اختيارِ توحيدِهِ وطاعتِهِ أبداً. وكانتْ[(٤)] عليهِ لعنَتُهُ في الدنيا والآخِرَةِ؛ فأمّا في الدنيا فَما ذَكَرْنا مِنْ خِذلانِهِ وتَرْكِهِ في الغَيِّ[(٥)]، وأمّا في الآخِرَةِ فَطَرْدُهُ[(٦)] عن جَنَّتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧٩ و٨٠ ثم سأَلَ ربَّهُ أنْ يُنظِرَهُ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فأجابَ حينَ[(٧)] قالَ ﷻ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وإنما أنظَرَهُ، واللهُ أعلَمُ [لِما عَلِمَ][(٨)] أنهُ يَختارُ الكُفرَ والخِلافَ لهُ أبداً.

الآية ٨١ ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ هو يومٌ اختُلِفَ فيهِ: [قالَ بعضُهُمْ:][(٩)] الوقتُ المَعلومُ هو يومُ البَعْثِ إلى ذلكَ أنظَرَهُ على ما سَبَقَ منهُ السؤالُ على النَّظِرَةِ إلى يومِ البَعْثِ حينَ[(١٠)] قالَ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُم: الوقتُ المَعلومُ، هو النَّفخَةُ الأولى. وقالَ بعضُهُمْ: لم يُبَيِّنْ لهُ ذلكَ الوقتَ، ولذلكَ ذَكَرَ منهُ الخوفَ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] و ﴿قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] ولو كانَ بَيَّنَ[(١١)] لهُ الوقتَ المعلومَ لَكانَ لا يَخافُ دونَ ذلكَ الخوفِ. ولكنهُ يأمَنُ. فَدَلَّ خَوفُهُ أنهُ لم يُبَيِّنْ لهُ ذلكَ، وهو مَعلومٌ عندَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٢ و٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وقالَ ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أنْ تُغوِيَهُمْ إلّا مَنْ كانَ في عِلْمِهِ أنهُ يختارُ الغَوايَةَ، ويُؤثِرُ اتِّباعَهُ، فيكونُ لهُ عليهِ[(١٢)] سلطانُ الإغواءِ.

فأمّا مَنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَختارُ الإيمانَ والتوحيدَ فلا سَبيلَ [لهُ عليهِ][(١٣)] واللهُ أعلَمُ. ثم قالَ بعضُهُمْ: المُخلِصِينَ[(١٤)] للتوحيدِ. فإنْ كانَ ذلكَ فيكونُ قولُهُ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأُهلِكَنَّهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ مِنْ كلِّ ذنبٍ وكلِّ مَعصِيَةٍ. لكنَّ الوَجهَينِ الأوَّلَينِ أشبَهُ وأقرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ قد قُرِئَ[(١٥)] بِنَصْبِهِما جميعاً: فالحَقَّ والحَقَّ أقولُ، وقد قُرِئَ أيضاً برفعِ الأوَّلِ ونَصبِ الثاني: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾.

فَمَنْ قَرَأَ بالرفعِ [والنصبِ][(١٦)] فيكونُ معناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنا الحقُّ والحقَّ أقولُ، أي مني يكونُ الحَقُّ على هذا.

ومَنْ قَرَأَ على النَّصْبِ فهو على التأكيدِ تأكيداً على ما ذَكَرَ على إثْرِهِ؛ كأنهُ يقولُ: أقولُ الحقَّ الحقَّ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: وإلا كان. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العمر. (٦) في الأصل وم: معطرود. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: يبين. (١٢) في الأصل وم: عليهم. (١٣) في الأصل وم: لك عليهم. (١٤) بكسر اللام، وهي قراءة انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٢٧٥. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٢٧٥و/ ٢٧٦. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٨٥ وقولُهُ(١) تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ جائزٌ(٢) أنْ يُحتجَّ بهذِهِ الآيةِ على المُعتزِلَةِ؛ فيُقالَ لهمْ: أرادَ اللهُ ﷻ أنْ يُنجِزَ ما وَعَدَ وأنْ يَصْدُقَ خَبَرُهُ الذي أخبَرَ أنهُ كانَ يكونُ، أو لم يُرِدْ أنْ يُنجِزَ ما وَعَدَ، وألّا يَخرُجَ خَبَرُهُ على الصِّدقِ.

فإنْ قالوا: لم يُرِدْ أعظَموا القولَ [فيهِ](٣) لأنهمْ زَعَموا أنهُ أرادَ أنْ يُخلِفَ ما وَعَدَ، وأنْ يَكْذِبَ(٤) في خَبَرِهِ، فذلكَ عظيمُ القولِ حينَ(٥) وَصَفوا ربَّهُمْ بالسَّفَهِ، إذْ مَنْ أرادَ أنْ يُخلِفَ وعدَهُ، وأنْ يَكْذِبَ(٦) في خَبَرِهِ، فهو سفيهٌ على زَعْمِ مَنْ قالَ ذلكَ. وإنْ قالوا: أرادَ أن يُنجِزَ ما وَعَدَ، وأنْ يَصْدُقَ خَبَرُهُ، فيُقالُ لهمْ: أرادوا أنْ يَتَّبِعوا إبليسَ، أو أرادَ أنْ يؤمِنوا، ولا يَتَّبِعوا إبليسَ، فيُقالُ: أرادَ أنْ يَجورَ، ويَظْلِمَ، على زَعمِكُمْ لأنهُ أرادَ أنْ يَملأَ جهَنَّمَ، ولم يُرِدْ ما يَستوجِبونَ ذلكَ.

فَدَلَّ على أنَّ اللهَ تعالى أعْلَمُ بما(٧) يكونُ منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: لا أسألُكُمْ على ما أدعوكُمْ [إليهِ](٨) مِنَ الشَّرَفِ والذِّكْرِ في الدنيا والآخِرَةِ مِنْ أجرٍ، ولا أحَدَ في الشاهِدِ مِمَّنْ يَبْذُلُ للأجرِ مِنَ الشرفِ أو الذِّكْرِ، ولا يُعطيهِ ذلكَ إلّا بأجرٍ. فكيفَ يَترُكونَ اتِّباعي، ولا يَقبَلونَ ذلكَ مني؟

[والثاني](٩): لا أسألُكُمْ على ما أدعوكُمْ إليهِ مِنْ أجرٍ، فيَمنَعَكُمْ ثِقَلُ ذلكَ الأجرِ وذلكَ الغُرْمِ عن إجابتي كقولِهِ ﷻ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] أي لَسْتَ تَسألُهُمْ أجراً حتى يَمنَعَهُمْ ثِقَلُ ذلكَ الغُرْمِ عنِ الإجابَةِ / ٤٦٥ ـ أ/

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: وما أنا مِمَّنْ تَكَلَّفَ ذلكَ مِنْ تِلقاءِ نفسِهِ(١٠)، ولا أمَرْتُكُمْ بما أمَرْتُكُمْ إلّا بالوَحْيِ، والمُتَكَلِّفُ عندَ الناسِ في الظاهِرِ، هو الذي يَفعَلُ، ويقولُ بلا إذْنٍ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: المُتكلِّفُ، هو الذي يَتَكَلَّفُ ما لا يَعنيهِ، ويَفعَلُ ما [لم](١١) يُؤمَرْ بهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي ما أنا مِنَ المُتَحَمِّلينَ مِمّا حُمِّلْتُمْ إذا خالَفْتُموني، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا [القرآنُ وهذا](١٢) النَّبأُ الأعظَمُ [إلّا](١٣) ذِكْرٌ لِمَنِ انْتَفَعَ بهِ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ يَحتَمِلُ نَبَأَ القرآنِ، ويَحتَمِلُ البَعْثَ والحسابَ، أي تَعلَمونَ أنَّ ذلكَ حقٌّ بعدَ حينٍ.

ثم ذَكَرَ ﷻ في جهَنَّمَ أنهُ يَملَؤُها، ولم يَذكُرْ في الجنةِ أنهُ يَملَؤُها. فجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ المَلْءِ هو أنْ يُضَيِّقَها عليهِمْ، وفي التَّضييقِ زيادةٌ في المَلْءِ، أو أنْ يكونَ في سَعَةِ الجنةِ حكمةٌ، ولا يكونُ ذلكَ في جهنَّمَ، لأنَّ السَّعَةَ تُطلَبُ لِلتَّنَزُّهِ والانتِشارِ في البساتينِ وغيرِ ذلكَ، وليسَ ذلكَ، في جهَنَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وهو يقول. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يكون. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) في الأصل وم: أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو يقول. (١٠) في الأصل وم: نفسي. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

جنة السنة

سورة الزمر

[وهي][1] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الكتابَ الذي يَتلوهُ رسولُنا محمدٌ ﷺ ويَدعوكُمْ إليهِ، هو تنزيلٌ مِن عندِ اللهِ، كقولِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ [لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣و١٩٤]][2].

وقولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ على إثرِ قولِهِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يُخرَّجُ، واللهُ أعلَمُ [على][3] أنهُ يَدعوكُمْ محمدٌ ﷺ إلى اتِّباعِ الكتابِ والطاعةِ [له][4]، ليسَ لِذُلٍّ بهِ، يَطلُبُ بكُمُ العِزَّ، وضَعفٍ[5] في التدبيرِ، فَيَطلُبُ بكُمُ الاستِعانةَ فيهِ؛ لأنهُ عزيزٌ بذاتِهِ، حكيمٌ، لا يَلحَقُهُ الخَطأُ أو الضَّعفُ في التدبيرِ، ولكنْ إنما أمَرَكُمْ بما أمَرَ، ونهاكُمْ عمّا نَهَى لِتَكتَسِبوا لأنفسِكُمْ، ولِتَنتَفِعوا بهِ. فإنَّ[6] اللهَ سُبحانَهُ عزيزٌ بذاتِهِ، غَنِيٌّ، حكيمٌ بنفسِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو العزيزُ لأنَّ كلَّ عزيزٍ دونَهُ [يَصيرُ ذليلاً عندَهُ، وعِزٌّ][7] مَن دونَهُ عندَ عِزِّهِ [يَصيرُ][8] ذُلاً.

والحكيمُ، هو المُصيبُ في فِعلِهِ وتدبيرِهِ. وقيلَ: هو الذي وَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: العزيزُ، هو المَنيعُ، وتأويلُ المنيعِ المُمتَنِعُ عن جميعِ مكايِدِ الخَلْقِ وجميعِ حِيَلِهِمْ بالضَّرَرِ لَهُ. وقد ذَكَرْنا هذا في غيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحَقِّ الذي للهِ عليكُمْ، وبالحقِّ الذي لِبَعضِكُمْ على بعضٍ [ويَحتَمِلُ ما قالَ][9] أهلُ التأويلِ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي لِلحَقِّ، أي أنزَلْناهُ لِلحَقِّ، لم نُنزِلْهُ عَبَثاً باطلاً لِغيرِ شيءٍ، ولكنْ أنزَلْناهُ لِلحَقِّ لِحُقوقٍ ولأحكامٍ ومِحَنٍ وأُجورٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِن إنزالِهِ الكتابَ بالحقِّ ذلكَ [الحقّ][10] هو ما أمَرَهُ مِنَ العبادةِ لهُ، أمَرَهُ بوفاءِ ذلكَ الحقِّ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وجهَينِ:

أحدُهُما: الأصلُ[11] في الاعتِقادِ، أي اعتَقِدْ جَعْلَ كلِّ عبادةٍ وطاعةٍ للهِ خالصاً، لا تَعتَقِدْ [أحداً شريكاً][12].

والثاني: في المُعامَلَةِ، أي كلُّ عبادةٍ وطاعةٍ اجعَلْهُ للهِ خالصاً. لا تَجعَلْ لِغيرِهِ فيهِ شِرْكاً، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا أهلُ التأويلِ [فقد][13] قالوا: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدِ اللهَ ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وتأويلُ هذا: أنِ اجعَلِ الوَحدانيَّةَ والألوهيَّةَ للهِ في كلِّ شيءٍ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي ألا للهِ شهادةُ الوَحدانيّةِ والألوهيّةِ في كلِّ شيءٍ. ويَحتَمِلُ أيضاً

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الآية. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والضعف. (٦) في الأصل وم: فأما. (٧) في الأصل وم: إذا يصير ذليلاً غيره عز. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو لما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أصل. (١٢) في الأصل وم: أحد شركاء. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

قولُهُ ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي دينُ اللهِ، هو الدينُ الخالِصُ، لأنهُ دينٌ قامَ بالحُجَجِ والبراهِينِ. وأمّا غيرُهُ مِنَ الأديانِ، فهو دينٌ [قامَ][1] بِهَوَى النَّفسِ وأمانِيِّها لا بالحُجَجِ والآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ كأنَّ فيهِ [إضماراً: وقال][2] الذينَ اتَّخذوا مِنْ دونِهِ أولياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلّا لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفى، وقالوا في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] عَرَفوا أنَّ ما كانوا يَعْبُدونَ مِنَ الأوثانِ وغيرِها لَيسوا بآلهةٍ في الحقيقةِ، ولا لَهُمُ الألوهيَّةُ حقيقةً، وأنَّ حقيقةَ الألوهيَّةِ للهِ. لكنهمْ سَمَّوها آلهةً لأنهم كانوا يَعْبُدونَها؛ وكلُّ مَعْبودٍ عندَ العربِ إلهٌ، لأنَّ الإلهَ هو المَعْبودُ، وقد رَأَوا تَسْمِيَةَ كلِّ معبودٍ إلهاً. لذلكَ سَمَّوها آلهةً، وإنْ عَرَفوا أنْ لَيسَتْ لهذهِ الأشياءِ الوهيَّةٌ حقيقةً، [وأنَّ الألوهيَّةَ][3] للهِ ﷻ ثم إنَّ الذي حَمَلَهُمْ على عِبادةِ ما عَبَدوا مِنْ دونِ اللهِ وجهانِ:

أحَدُهُما: لمّا لم يَرَوا أنفسَهُمْ تَصْلُحُ لِعِبادةِ الإلهِ العظيمِ، أو تَقْدِرُ على القيامِ بِخِدْمَتِهِ عَبَدوا[4] هذهِ الأشياءَ رَجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ عبادةُ هؤلاءِ إلى اللهِ زُلْفى، وأنْ [يكونَ][5] هؤلاءِ شُفَعاءَهُمْ عندَهُ[6]. وذلكَ ما رَأَوا في ملوكِ الدنيا: أنَّ كلَّ أحدٍ يَجِدُ السبيلَ إلى خِدْمَةِ مَلِكٍ[7]، أو يَقْدِرُ على القِيامِ بَيْنَ يَدَيهِ والخِدْمَةِ لهُ، يَخْدِمُ[8] مَنِ اتَّصَلَ بالمَلِكِ ومَنْ عَظُمَ قَدْرُهُ ومنزِلَتُهُ عندَ المَلِكِ لِيُقَرِّبَهُ ذلكَ المَخدومُ لهُ إلى المَلِكِ إذا بَدَتْ لهُ الحاجةُ أو الشَّفاعةُ.

وعلى ذلكَ ما ذُكِرَ في قصةِ فرعونَ أنهُ كانَ اتَّخذَ لِقومِهِ أصناماً يَعْبُدونَها مِنْ دونِهِ لِما لم يَرَ كلَّ أحدٍ منهمْ يَصْلُحُ لِخِدْمَتِهِ، وهو ما أغرَى قومَهُ على موسى حينَ[9] قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ونَحْوُ هذا وجهٌ.

والثاني: عَبَدُوها[10] لما رأوا آباءَهُمْ قد عَبَدوها، وتُركوا على ذلكَ حتى تابوا، فاستَدَلّوا بِتَرْكِهِمْ[11] على ذلكَ على أنَّ اللهَ قد كانَ رَضِيَ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ، وأمَرَهُمْ بذلكَ لِقولِهِمْ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ولِذلكَ قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ اللَّهُ/ ٤٦٥ ـ ب/ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقالوا[12]: ﴿لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

استَدَلّوا بِتَرْكِهِ آباءَهُمْ على ما عَبَدوا مِنَ الأصنامِ على ذلكَ وأنهمْ عنْ أمْرٍ منهُ فَعَلوا ذلكَ. فرَدَّ اللهُ ذلكَ عليهمْ، فقالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يومَ القيامةِ ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في محمدٍ ﷺ لأنهمُ اختَلَفوا فيهِ:

فمنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ ساحِرٌ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ شاعِرٌ، وإنهُ مجنونٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، ونَحْوَهُ.

فَيُخْبِرُ أنهُ يَحْكُمُ بينَهُمْ لِيُبَيِّنَ لهمْ أنَّ ما ذَكَروا [هو هواهُمْ][13] أو يَحْكُمُ بَينَهُمْ أنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها لا تَشْفَعُ لهمْ، وأنَّ عبادتَهُمْ لا تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفى.

وقد بَيَّنَ لهمْ في الدنيا أنَّ محمداً ﷺ ليسَ بشاعِرٍ ولا ساحِرٍ ولا كذّابٍ على ما قالوا لمّا أنبأَهُمْ، وأخبَرَهُمْ بأخبارٍ، عَرَفوا أنَّ الساحرَ والشاعرَ، لا يَعْرِفُ مِثْلَها، نَحْوَ ما أخبَرَهُمْ بِنَصْرِ اللهِ إيّاهُ والظَّفَرِ لهُ عليهِمْ، أعني على الأعداءِ، فكانَ على ما أنبأَهُمْ. وكذلكَ ما أنبأَهُمْ بأنباءٍ وأخبارٍ، عَرَفوا أنهُ صادقٌ في ذلكَ ما لا يُسْتَفادُ مِثْلُها بالسِّحْرِ وبالكهانةِ إلّا بالوَحْيِ مِنَ اللهِ ﷻ لكنهُمْ عانَدوا، وكابَروا.

وكذلكَ بَيَّنَ لهمْ أيضاً ما عَرَفوا أنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها في الدنيا، لا تَمْلِكُ لهمُ الشَّفاعةَ يومَ القيامةِ حينَ[14] ابْتَلاهُمْ بأهوالٍ وأفزاعٍ: بركوبِ البحارِ والضِّيقِ عليهِمْ، حتى فَزِعوا إلى اللهِ في كشفِ ذلكَ عنهمْ ودَفْعِهِ عنهمْ، لم يَفْزَعوا إلى الأصنامِ التي عَبَدوها، وهو ما قالَ ﷻ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقولُهُ: ﴿وَإِذَا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إضمار يقول والذين. (٣) في الأصل وم: وأن ذلك. (٤) في الأصل وم: فعبدوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عندهم. (٧) في الأصل وم: ملوكها. (٨) في الأصل وم: فيخدم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: عبدوهم. (١١) في الأصل وم: تركهم. (١٢) في الأصل وم: وقولهم. (١٣) في الأصل وم: هواهم. (١٤) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

﴿مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ونَحوُ ذلكَ ما ابتلاهُم بالشدائدِ والبَلايا، عَرَفوا أنَّ مَعبودَهُم الذي عَبَدوهُ، لا يَملِكُ دَفعَ ذلكَ عنهُم ولا كَشفَهُ. وإنما المالكُ لذلكَ، هو اللهُ المَعبودُ الحَقُّ.

ثم يُناقِضُ قولَهُم لأنهم كانوا يُنكِرونَ رسالةَ النَّبيِّينَ بِقَولِهِم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] فَيَرونَ للخشبِ والأشجارِ الألوهيَّةَ والعبادةَ، فذلكَ تناقُضٌ ظاهرٌ:

قالَ بعضُهُم في قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي مَقربَةً، فَيَشفَعونَ لنا إلى اللهِ تعالى، وقولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ قالَ أبو بَكرٍ: لا يَهدي أحداً بالضلالِ والكُفرِ، ولكن إنما يَهدي بِضِدِّ الضَّلالِ والكُفرِ، أو كلامٌ نَحوُهُ.

وقالَ الجُبّائيُّ: لا يَهدي مَن كانَ في الدنيا كاذباً كفّاراً في الآخِرةِ طريقَ الجنةِ.

وجائزٌ أن يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ مَن ضَلَّهُ قولُهُ[1]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وقولُهُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] كفّارٌ لِنِعَمِهِ بِصَرفِهِ[2] العِبادةَ إلى غيرِ المُنعِمِ.

وقالَ جعفرُ بنُ حَربٍ: إنَّ اللهَ لا يَهدي إلى الزياداتِ [الذي يَكذِبُ][3]، ويُعطي مَنِ اختارَ الهُدى، لأنهُ يقولُ: إنَّ مَنِ اختارَ الهُدى، واهتَدى كانَ عندَ اللهِ [بلطفِهِ ورحمتِهِ][4]: يُعطي ذلكَ زياداتٍ على ما كانَ اختارَهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

هذهِ التأويلاتُ كلُّها لِلمُعتَزِلَةِ.

وأمّا عندَنا فإنَّ قولَهُ: [﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][5] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ﴾ في عِلمِهِ أنهُ يختارُ الكُفرَ وقتَ اختيارِهِ الكُفرَ والضَّلالَ، أي لا يوفِّقُهُ للهُدى، ولا يُعينُهُ وقتَ اختيارِهِ الكُفرَ، ولكنهُ يَخذُلُهُ. وكذلكَ يقولُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨ و...] وقولِهِ[6]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧ و..] ونَحوِهِ أي لا يَهديهِم وقتَ الكُفرِ والظُّلمِ، واللهُ الموفقُ.

والثاني: لا يَهدي، أي لا يَخلُقُ [مِن فِعلِ مَن][7] فَعَلَ كُفراً[8] فِعلَ هُدىً[9]، ولكن يَخلُقُ فِعلَ كُفرٍ. وكذلكَ [لا يَخلُقُ مِن فِعلِ مَن فَعَلَ هُدى فِعلَ كُفرٍ][10]، ولكن يَخلُقُ كلَّ فِعلٍ على ما يَفعَلُهُ الفاعِلُ، ويَختارُهُ؛ يَخلُقُ [مِن][11] فِعلِ الكافرِ كُفراً، [ومِن فِعلِ][12] المُهتَدي فِعلَ هُدىً يَخلُقُ كلَّ فِعلٍ على ما يَختارُهُ الفاعِلُ، ويَفعَلُهُ إن كانَ هُدىً يَخلُقُهُ هُدىً، وإن كانَ كُفراً يَخلُقُهُ كُفراً.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ اللهَ لا يَهدي مَن كانَ في عِلمِهِ أنهُ يَختِمُ بالكفرِ، ويَخرُجُ بهِ مِنَ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ على رسولِ اللهِ ﷺ.

والثاني: ﴿كَفَّارٌ﴾ لِنِعَمِ اللهِ وكاذِبٌ في القولِ كَفّارٌ في الفِعلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ظاهرُ هذا أنَّ إيجادَ الوَلَدِ لهُ مِنَ المُحتَمَلِ والمُمكِنِ، ليسَ مِنَ المُمتَنِعِ. وكذلكَ ظاهرُ قولِهِ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: ١٧] ظاهرُ هذا الذي ذَكَرَ، هو مِنَ المُحتَمَلِ والمُمكِنِ [ليسَ مِنَ][13] المُمتَنِعِ[14].

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: ﷻ. (٢) في الأصل وم: بصرفهم. (٣) في الأصل وم: التي تهدي. (٤) في الأصل وم: لطفاً ورحمة.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: فعل من هو. (٨) في الأصل وم: كفر. (٩) في الأصل وم: هذا.
(١٠) في الأصل وم: فعل من هو فعل هدى. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وفعل. (١٣) في الأصل وم: وكان دون.
(١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: أيضاً.

جنة السنة

[لكنْ قولُهُ][1] ﷻ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١] يَدُلُّ[2] على أنَّ إيجادَ الوَلَدِ مِنَ المُمْتَنِعِ والعظيمِ في العقولِ والقلوبِ جميعاً.

ثم قولُهُ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين

أحدُهما:][3] أي لو جازَ، أوِ احْتَمَلَ إيجادُ الولدِ على ما تقولونَ أنتمْ، وتَتَوَهَّمونَ لاصْطَفَى، واخْتارَ ممّا يشاءُ هو ليسَ على ما تَخْتارونَ أنتمْ لهُ، وتشاؤونَ أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ على ما تَزْعُمونَ؛ إذِ العُرْفُ في الخَلْقِ أنَّ مَنِ اتَّخذَ لنفسِهِ شيئاً إنما اتَّخذَهُ مِنْ أعزِّ الأشياءِ وأرفَعِها وأعظَمِها قَدْراً عندَهُمْ لا مِنْ أخَسِّ الأشياءِ وأذَلِّها. وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] أي [إلى آلهتِهِمُ التي اتَّخذَها][4] أولئكَ آلهةً في الحقيقةِ، ولكنْ سَمّاها بالذي عندَهُمْ، وكذلكَ قولُ موسى ﷺ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] أي انْظُرْ إلى [إلهِكَ][5] الذي اتَّخَذْتَهُ إلهاً، سَمّاهُ على ما هو عندَهُ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ على ما في ظُنونِكُمْ وتَوَهُّمِكُمْ أنهُ لوِ اتَّخذَ الوَلَدَ لاخْتارَ ممّا ذَكَرَ ممّا تقولونَ أنْتُمْ؛ لو احْتَمَلَ ذلكَ على ما في ظَنِّكُمْ وحُسْبانِكُمْ لكانَ ممّا ذَكَرَ.

والثاني: مَبْنَى الإيجادِ راجعٌ إلى البَنِينَ إذْ كانتِ الكَفَرَةُ يَنْسُبونَهُ إلى أنهمْ بناتُهُ، وإلى أنَّ عيسى ابْنُهُ..

وإنما تُتَّخَذُ الأولادُ، ويُنْسَبونَ، لِيُسْتَنْصَرَ بهمْ.

فَبَرَّأَ اللهُ ﷻ نفسَهُ عنِ احتِمالِ الشَّكْلِ وخوفِ الغَلَبَةِ، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ دَفْعَ ما قالوا فيهِ، وأحالَهُ[6]؛ ذلكَ لِما أخبَرَ أنهُ واحدٌ في الذاتِ. ولو كانَ لهُ ما ذَكَرَ هؤلاءِ مِنَ الوَلَدِ لم يكُنْ واحداً في الذاتِ؛ إذْ كلُّ مُحْتَمِلِ الوَلَدِ منهُ هو مِنْ شكلِ الوَلَدِ. فإنْ عَرَّفَهُمْ أنهُ واحدٌ لم يَحْتَمِلِ الوَلَدَ وما ذَكَروا.

وفي قولِهِ ﷻ: القَهّارُ دلالةُ إحالةِ ذلكَ لأنهُ أخبَرَ أنهُ قَهّارٌ.

والوَلَدُ في الشاهِدِ إنما يُتَّخَذُ لأحدِ وجوهٍ: إمّا لِوَحْشَةٍ أصابَتْهُ، فَيَسْتَأْنِسُ، وإمّا لِحاجةٍ تَمَسُّهُ، فيدفَعُ بالوَلَدِ تلكَ، وإمّا لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ، فَيَقْضيها، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذلكَ الوَلَدُ، وإمّا لِوِراثةِ مُلْكِهِ بَعْدَ موتِهِ، وهو دائمٌ باقٍ لا يزولُ مُلْكُهُ، وإمّا لِلإسْتِعانَةِ بهِ والنُّصْرَةِ على أعدائِهِ. لأحدِ هذهِ الوجوهِ [التي][7] ذَكَرْنا يحتاجُ المرءُ إلى اتِّخاذِ الولدِ [وهو][8] قادرٌ بذاتِهِ، قاهرٌ، غَنِيٌّ، لا يَحْتَمِلُ ما ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحقِّ الذي للهِ عليهِمْ، ولِما /٤٦٦ ـ أ/ لِبَعضٍ على بعضٍ مِنَ الحَقِّ.

[ويَحْتَمِلُ][9] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي للحقِّ، وهو البَعْثُ، ما لو لم يكنِ البَعْثُ لكانَ خَلْقُهُما عَبَثاً باطلاً على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] [وقالَ في آيةٍ أُخرَى][10]: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحكمةِ، وهو أنْ جَعَلَ في خِلْقةِ كلِّ شيءٍ أثرَ وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ ما يَعْرِفُ كلٌّ أنهُ فِعْلُهُ، وإنْ لم يُشاهِدْ خَلْقَهُ، وقولُهُ على ما يكونُ ذلكَ في فِعْلِ أحدٍ مِنَ الخَلائقِ أثرَ مَعْرِفةِ فاعِلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ

---

(١) في الأصل وم: كقوله. (٢) في الأصل وم: دلت هذه الآيات. (٣)ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: اتخذ. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: وادخاله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: وقوله تعالى.

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١و...] يذكُرُ دَلالَةَ وَحْدانيَّتِهِ حيثُ جَعَلَ منافعَ الليلِ مُتَّصِلَةً بِمَنافعِ النهارِ، ومنافعَ النهارِ مُتَّصِلَةً بِمَنافعِ الليلِ على اختِلافِهما وتَناقُضِهما وتضادِّهما لِيُعْلَمَ أنهما فِعْلُ واحدٍ. وكذلكَ كما جَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ على بُعْدِ ما بَيْنَهما لِيُعلَمَ أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ، إذْ لو كانَ عَدَداً لامْتَنَعَ ذلكَ؛ إذِ[1] المَعْروفُ مِنْ عادةِ الملوكِ انْفِرادُ كلٍّ بِمُلْكِهِ وسُلْطانِهِ والاسْتِعلاءُ على ما اسْتَولى، وقَبْضِ برأسِ الآخَرِ، ونَفاذُ أمرِهِ في سلطانِهِ. فإنْ لم يَمْتَنِعْ ذلكَ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الشمسِ والقَمَرِ لهمْ ولِمَنافِعِهِمْ وجَرْيِهِما في يوم واحدٍ مَسيرةَ ألفِ عامٍ، أو ما ذَكَرَ مِنْ غيرِ أنْ يَعْرِفَ أحدٌ سَيْرَهُما أنهما يَسيرانِ وقتَ سَيرِهما إلا بَعْدَ قَطْعِهِما ذلكَ أنَّ لهما مُنْشِئاً وأنهُ واحدٌ.

ودَلَّ اتِّساقُهما وجَرَيانُهُما على سَيرٍ واحدٍ مُنْذُ كانا إلى آخِرِ ما يكونانِ، ويَدورانِ على أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ، عالِمٌ، مدبِّرٌ، عَرَفَ حاجةَ [الخَلْقِ][2] إليهما إلى أبَدِ الآبِدينَ، ومَنافِعَهُمْ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي كلٌّ ممّا ذَكَرَ يَجْري إلى الوقتِ الذي جُعِلَ لهُ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتأخَّرُ، ولا يَنْقَطِعُ ما كانَ بالخَلْقِ حاجةٌ، واللهُ أعلَمُ.

[ويحتَمِلُ: ﴿كُلٌّ يَجۡرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يَجري][3] إلى مَنازِلَ مَعْلومةٍ، لا يُجاوِزُها[4].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ هو العزيزُ بذاتِهِ، لا يَتَعَزَّزُ بما ذَكَروا لهُ مِنَ الأولادِ، ولا بطاعةِ مَنْ أطاعَهُ. ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ لِمَنْ كانَ أهلاً[5] لِلمَغْفِرةِ، ولا تَخْرُجُ مَغْفِرَتُهُ إيّاهُ عنِ الحكمةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أي يُدْخِلُ أحَدَهُما على الآخَرِ كقولِهِ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١و..] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ أي يُغَشِّي أحدَهُما بالآخَرِ كقولِهِ: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وقالَ بعضُهُمْ: يُكَوِّرُ أي يَلُفُّ هذا بهذا، وهو مِنْ كَوْرِ العَمامةِ، ومنهُ قولُهُ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١] أي جُمِعَتْ، ولُفَّتْ. وأصلُ التكويرِ اللَّفُّ والجَمْعُ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبيِّ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ ظاهِرُ هذا أنهُ خَلَقَنا مِنْ تلكَ[6] النفسِ قبلَ خَلْقِ زَوْجِهِ منها، لأنَّ حَرْفَ ثم إنما هو حَرْفُ إتباعٍ وإردافٍ، وحَرْفُ ترتيبٍ، لا حَرْفُ جَمْعٍ.

فإذا كانَ كذلكَ فظاهِرُهُ يُوجِبُ ما ذَكَرْنا. لكنَّ أهلَ التأويلِ اخْتَلَفوا في مَعْنى ذلكَ وتَفْسيرِهِ:

[مِنْ ذلكَ ما ذُكِرَ عنِ][7] ابنِ عباسٍ رضي الله عنه في بعضِ الرواياتِ أنهُ تَأوَّلَ[8] في ذلكَ وقالَ: [قالَ][9] ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ كانتْ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أو كلامٌ نحوُ هذا. وعندنا أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ يُخَرَّجُ على ظاهِرِ ما ذَكَرَ، لكنَّ الخَلْقَ هو التَّقْديرُ في اللُّغَةِ؛ كأنهُ قالَ ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي[10] قَدَّرَكُمْ جميعاً على كَثْرَتِكُمْ مِنْ أوّلِ ما أنْشأكُمْ إلى آخِرِ ما يُنْشِئُكُمْ مِنْ تلكَ النفسِ الواحدةِ، منها قَدَّرَكُمْ[11].

وقولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ ثم أخرَجَنا منها مِنْ تلكَ النفسِ زَوجَها، وإلا كانَ تقديرُهُ إيانا منها كانَ قَبْلَ خَلْقِ زوجِها منها، وهو الظاهرُ على ما خُرِّجَ الكلامُ، واللهُ أعلمُ. ثم كانَ منهُ خَلْقُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ﴾ ظاهِرُ الإنزالِ، هو أنْ يُنْزِلَ مِنْ عُلُوٍّ مُرْتَفِعٍ إلى سُفْلٍ ومُنْحَدِرٍ. لكنَّ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: العدد. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: يجاوزانها. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: له. (٦) في الأصل وم: نفس. (٧) في الأصل وم: ذلك ذكر عن. (٨) في الأصل وم: تأويل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أو كلام أي. (١١) في الأصل وم: قدرنا.

جنة السنة

اللغةَ لا تَمتنِعُ عنِ استِعمالِ لفظِ الإنزالِ لا على حَقيقةِ الإنزالِ [مِن عُلوٍّ][1] إلى سُفلٍ؛ يُقالُ: نَزَلَ فلانٌ بأرضٍ أو بِمكانِ كذا، وإنْ لم يكُنْ هناكَ منهُ نُزولٌ مِن عُلوٍّ إلى مُنحَدِرٍ وسُفلٍ. فَعلَى ذلكَ هذا.

وأصلُهُ أنَّ كلَّ حرفٍ مِن حروفِ الإنزالِ وغيرِهِ ممّا أُضيفَ إلى اللهِ ﷻ ممّا يَستقيمُ صَرفُهُ إلى خَلقِهِ إنما[2] المرادُ منهُ خَلْقُهُ نحوُ قولِهِ ﷻ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] [وقولِهِ][3]: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وغيرُ ذلكَ ممّا يَكثُرُ ذِكرُهُ، فهو خَلقُهُ إيّاهُ. فَعلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي خَلَقَ لكمْ مِنَ الأنعامِ ما ذَكَرَ على ما ذَكَرَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨] أي خَلَقَ لكُم ما ذَكَرَ. فَعلَى ذلكَ حَرفُ الإنزالِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ظاهرُ قولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ يَجيءُ أنْ يكونَ على أحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ:

إمّا ألّا يُسمِّيَ الأنعامَ، ولا يكونُ إلّا ثمانيةً[4] الأزواجِ التي ذَكَرَ أنهُ خَلقَها لنا. فإنْ كانَ على هذا فيكونُ حَرفُ مِن ههنا صِلةً، كأنهُ قالَ ﷻ: وأنزَلَ لكمْ أنعاماً، وهي ثمانيةُ أزواجٍ.

[وإمّا][5] أنْ يُسمِّيَ كلَّ ما خَلَقَ مِنَ الدوابِّ أنعاماً، إلّا أنهُ لم يُحِلَّ لنا منها إلّا ثمانيةً[6] الأزواجِ التي ذَكَرَ. فإنْ كانَ هذا فيكونُ حَرفُ مِن حَرفَ تَبعيضٍ وتَجزئةٍ.

[وإمّا][7] أنْ يُسمِّيَ كلَّ ما خَلَقَ مِنَ الدَّوابِّ أنعاماً، إلّا أنهُ لم يُحِلَّ لنا كلَّ شيءٍ منها مِن [جَميعِ أنواعِ الانتِفاعِ بها مِنَ الأزواجِ التي ذَكَرَ، فإنهُ قد أحَلَّ لنا كلَّ شيءٍ مِنَ الأصنافِ الثمانيةِ مِن لُحومِها وألبانِها وأصوافِها وكلَّ شيءٍ منها. وأمّا ما سِوَى ذلكَ مِنَ الأنعامِ فإنهُ لم يُحِلَّ لنا كلَّ شيءٍ منها مِنَ][8] اللحومِ وغيرِها، ولكنْ أحَلَّ لنا الانتِفاعَ بِظُهورِها مِن نَحوِ الحَميرِ والبِغالِ وغيرِ ذلكَ ممّا يُشتَهى، واللهُ أعلَمُ.

ثم ثمانيةُ[9] الأزواجِ التي ذَكَرَ أنهُ[10] خَلَقَها لنا في هذهِ الآيةِ هي في سورةِ الأنعامِ، وهي قولُهُ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣و١٤٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

فَيُشبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِن ثمانيةِ الأزواجِ ما[11] أنزَلَ لنا في سورةِ الزمرِ التي فيها[12] أحَلَّ لنا كلَّ شيءٍ منها.

وأمّا ما سِوَى ذلكَ فإنهُ إنما أحَلَّ لنا الانتِفاعَ بها ما لم يُحِلَّ لنا أكلَها، لأنهُ ذَكَرَ في سورةِ الأنعامِ الأكلَ[13] ثم ذَكَرَ على إثرِهِ [ثمانيةَ الأزواجِ هذهِ][14]: الإبلَ والبقرَ والمعزَ والضأنَ حينَ[15] قالَ ﷻ: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الآية: ١٤٢] ثم قالَ ﷻ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٤٥] إنما هو ممّا ذَكَرَ، أي لا أجِدُ مُحرَّماً مِن هذهِ الأصنافِ إلّا ما ذَكَرَ مِنَ الدَّمِ والمَيتةِ ولحمِ الخِنزيرِ. ثم يُخرَّجُ [استِثناؤُهُ لَحمَ][16] الخِنزيرِ مُخرَجَ استِثناءِ غَيرِ جِنسِ المَذكورِ على إضمارِ كونِ ذلكَ الغَيرِ فيهِ. وذلكَ غَيرُ جائزٍ في الكلامِ كقولِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١] كأنهُ قالَ ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ والاصطِيادُ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ فَعلَى ذلكَ الأولُ، كأنهُ أضمَرَ فيهِ استِثناءَ لَحمِ الخِنزيرِ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: تَحويلُهُ مِن حالٍ إلى حالٍ مِن نُطفةٍ إلى عَلَقةٍ ثم إلى مُضغةٍ حتى يَتِمَّ خَلقاً مُستَوِياً ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ قيلَ: الرَّحِمُ والبَطنُ والمَشيمةُ، وقيلَ: الظَّهرُ؛ يُخبِرُ عن قُدرتِهِ وعلمِهِ وتدبيرِهِ أنهُ حينَ[17] قَدَرَ على خَلقِ الإنسانِ وكلَّ خَلقٍ في تلكَ الظُّلُماتِ الثلاثِ والتَّسويةِ بينَ كلِّ شيءٍ منهُ مِنَ اليَدَينِ

---

(١) من م، في الأصل: منه إلى. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: الثمانية. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) في الأصل وم: الثمانية. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: الثمانية. (١٠) في الأصل وم: أنها.
(١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: هي. (١٣) من م، في الأصل: الأحل. (١٤) في الأصل وم: هذه الثمانية الأزواج. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: استثناء لهم. (١٧) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

والرِّجلَينِ والعَينَينِ والأُذُنَينِ والسَّمْعَينِ والبَصَرَينِ وقِسْمَةٍ / ٤٦٦ ـ ب/ الأعضاءِ على السواءِ حتى لا تُزادُ[1] إحدى اليَدَينِ على الأُخرَى، وكذلكَ إحدَى الرِّجلَينِ وإحدَى العَينَينِ وإحدَى الشَّفَتَينِ، وكذلكَ كلُّ شيءٍ منهُ في تلكَ النُّطفَةِ مِنَ العَينَينِ واليَدَينِ والرِّجلَينِ والبَصَرِ وكلِّ الجَوارِحِ ما لَوِ اجْتَمَعَ الحُكَماءُ جميعاً حُكَماءُ البَشَرِ [لا يَعرِفونَ][2] كونَ شيءٍ مِنَ الجَوارِحِ والنفسِ وتَقْديرِها مِنْ تلكَ النُّطْفَةِ وتَصْويرِها منها لِيُعلَمَ أنهُ قادرٌ على خَلْقِ الأشياءِ مِنْ لا شيءٍ وبِسَبَبٍ وغَيرِ سَبَبٍ، وما جَعَلَ مِنَ الأسبابِ لِبعضِ الأشياءِ لم يَجْعَلْها استِعانَةً منهُ على إنشاءِ ذلكَ، وأنَّ مَنْ قَدَرَ على تقديرِ ما ذَكَرَ تَصْويرَهُ في الظُّلُماتِ التي ذَكَرَ على السَّبيلِ الذي ذَكَرَ فإنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ.

يَحتَجُّ عليهِمْ لإنكارِهِمُ البَعْثَ وإنكارِهِمْ بَعْثَ الرسولِ والحُجَجِ؛ يُخبِرُ أنَّ مَنْ فَعَلَ ما ذَكَرَ مِنْ تَغييرِهِمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ وتحويلِهِمْ مِنْ صورةٍ إلى صورةٍ أُخرَى أنهُ لا يَفعَلُ ذلكَ لِيَترُكَهُمْ سُدىً لا يَأمُرُهُمْ، ولا يَنهاهُمْ، ولا يَمْتَحِنُهُمْ. ثم إذا امْتَحَنَهُمْ لا يَحتَمِلُ ألّا يَبْعَثَهُمْ لِيَجْزِيَ المُسيءَ منهمْ والعاصِيَ جَزاءَ الإساءةِ والعِصيانِ والمُحسِنَ منهمْ والمُطيعَ جَزاءَ الإحسانِ والطاعةِ؛ إذْ قَدْ سَوَّى بَينَهُمْ في هذهِ الدارِ. وفي الحِكْمَةِ والعَقْلِ التَّفريقُ بينَهما. فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى، يُفَرِّقُ بَينَهما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلكُمُ اللهُ الذي ذَكَرَ مِنْ تقديرِكُمْ وتَصويرِكُمْ في ظلماتِ تلكَ النطفةِ، هو ربُّكُمُ الذي فَعَلَ ذلكَ.

[ويَحتَمِلُ][3] أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي جميعُ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥] وما ذَكَرَ مِنْ تَسخيرِ الشمسِ والقمرِ وجَرَيانِهِما على سَنَنٍ واحدٍ وعلى قَدْرٍ واحدٍ، وما ذَكَرَ مِنْ خَلقِنا جميعاً مِنْ تلكَ النفسِ الواحدةِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، يقولُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي فَعَلَ [ذلكَ][4] كلَّهُ، هو ربُّكُمْ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي فأنّى تَصْرِفونَ عبادَتَكُمْ إلى غيرِهِ؟ أو فأنّى تَصْرِفونَ أُلوهِيَّتَهُ ورُبوبِيَّتَهُ إلى غيرِهِ؟ وتَجْعَلونَ لهُ شُرَكاءَ وأعدالاً، وتَعلَمونَ[6] أنَّ الذي فَعَلَ ذلكَ كلَّهُ، هو اللهُ الواحدُ الذي، لا شريكَ لهُ، ولا مَثيلَ.

أو يَذكُرُ أنَّ [مَنْ ذَكَرَ النِّعَمَ][7] التي أعطاكُمْ، وأسْدَى إليكُمْ، هو ربُّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ، فكيفَ تَصْرِفونَ شُكْرَها إلى غيرِهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي [إنْ تَكفُروا][8] دينَ الإسلامِ، ولم تُسلِموا، فإنهُ لا يَقبَلُ منكُمْ [ديناً آخَرَ][9] ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ﴾ أي وإنْ تُسلِموا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يَقبَلْ منكُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقالَ غيرُهُ: أي إنْ تكفُروا دينَهُ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن عِبادَتِكُمْ، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ أي تكفُروا دينَهُ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن عِبادَتِكُمْ، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ أي تُوَحِّدوهُ ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [وهو قريبٌ][10] مِنَ الأوَّلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ النِّعَمَ التي عَدَّها عليكُمْ في ما تَقَدَّمَ ذِكْرُها مِنْ قولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ. يقولُ: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ هذهِ النِّعَمَ التي عَدَّها عليكُمْ فإنهُ غَنِيٌّ عنكُمْ، وإنْ تَشكُروا ما عَدَّ عليكُمْ مِنَ النِّعَمِ يَقبَلْ ذلكَ منكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يزداد. (٢) في الأصل: له يعرفون، في م: لم يعرفوا. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقد تعلمون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: تكفرون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وأصلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ بَيَّنَ سبيلَ الهدى، ورَغَّبَهُمْ إليهِ، وبيَّنَ سبيلَ الضلالِ، وحَذَّرَهُمْ منه، ثم بَيَّنَ أنَّ مَنْ سَلَكَ سَبيلَ الهُدَى فَلَهُ كذا، ومَنْ سَلَكَ سَبيلَ الضَّلالِ فَلَهُ كذا، أو يقولُ: إنَّ مَنْ سَلَكَ سبيلَ الهُدَى يَرْضَ لِنفسِهِ عاقِبَةَ السَّبيلِ الذي سَلَكَ فيهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨و٩] ومَنْ سَلَكَ سبيلَ الضَّلالِ والكُفرِ يَمْقُتْ ذلكَ السَّبيلَ في العاقبةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠] أخبَرَ أنهم يَمْقُتونَ أنفسَهُمْ إذا نُودوا، وعَرَفوا أنهمْ أخطَؤوا الطريقَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مسعودٍ: واللهُ يَكْرَهُ لِعِبادِهِ الكُفْرَ، وقولُهُ: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ يَرْضَ عنكُمْ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ أُبَيٍّ وحَفْصَةَ خاصَّةً.

وأصلُ قولِهِ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ إخبارٌ أنهُ لم يأمُرْكُمْ في ما أمَرَكُمْ بهِ، ولا نَهاكُمْ عمّا نهاكُمْ عنهُ لحاجةِ نفسِهِ أو لِمَنْفَعَةٍ لهُ في ذلكَ. ولكنْ إنما امْتَحَنَكُمْ بما امْتَحَنَكُمْ لحاجةِ أنفُسِكُمْ ولِمَنْفَعَتِكُمْ ولِدَفْعِ الضَّرَرِ عنكُمْ. وكذلكَ ما أنشأَ مِنَ الأشياءِ لم يُنْشِئْها لِحاجةِ نفسِهِ [أو لِمَنْفَعَةٍ][1] لهُ، ولكنْ إنما أنشأَها لكُمْ ولِمَنافِعِكُمْ. وكذلكَ لم يُنْشِئْها لأنفُسِها حتى إذا أتْلَفَ[2] شيئاً عَوَّضَها لها على ما تقولُ المُعتزلةُ: أنْ ليسَ للهِ أنْ يُتْلِفَها إلّا أنْ يُعَوِّضَها بإزاءِ ذلكَ، ولكنْ أنشأها [وليسَ لهمْ تَعْويضٌ إنْ أتْلَفَ اللهُ][3] شيئاً منها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ [لِوجهَينِ]:

أحَدُهُما: جوابٌ لِقولِهِمْ حينَ][4] قالَ ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٢] أخبَرَ أنْ لا أحَدَ يَحْمِلُ وِزرَ آخَرَ[5]، ولكنْ يَحْمِلُ وِزْرَ نفسِهِ.

والثاني: يُخْبِرُ أنَّ أمرَ الآخِرَةِ على خِلافِ أمرِ الدنيا، لأنَّ في الدنيا قد يَحْمِلُ بعضٌ آثامَ بعضٍ، فأمّا في الآخِرَةِ فإنهُ لا يَحْمِلُ أحدٌ وِزرَ آخَرَ[6] ولا آثامَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ خَصَّ البعثَ بالرجوعِ إليهِ مَرَّةً وبالمَصيرِ ثانياً والبُروزِ لهُ ونَحْوِ ذلكَ، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ راجِعينَ إليهِ صائرينَ لأنَّ المَقْصودَ مِنْ إنشائِهِمْ في هذهِ الدنيا ذلكَ البعثُ، فَخَصَّ لذلكَ الرجوعَ[7] إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في الصدورِ. وعندنا: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ ما يَصْدُرُ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ. وذَكَرَ ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لأنَّ أصحابَ الصُّدورِ، هُمْ يَصْدُرونَ، ويَظُنّونَ في صدورِهِمْ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أخبَرَ اللهُ الخَلْقَ ما كانَ مِنْ عادةِ الكَفَرَةِ [في غيرِ آيةٍ][8] مِنَ القرآنِ أنهمْ كانوا يُخْلِصونَ الدينَ للهِ، ويَتَضَرَّعونَ إليه، إذا مَسَّهُمْ بلاءٌ أو شِدَّةٌ، إذا رَكِبوا البَحْرَ، كانَ لهمْ خوفُ الهلاكِ في ذلكَ وفَزَعٌ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ وكذلكَ [في][9] كلِّ البلاءِ فَزِعوا إلى اللهِ ﷻ وتَضَرَّعوا إليهِ[10] ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ﴾ [النحل: ٥٤] عادوا إلى ما كانوا مِنْ قَبْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿نَسِيَ﴾ ألّا تَمْلِكَ الأصنامُ التي عَبَدوها دَفْعَ ذلكَ عنهُمْ ولا كَشْفَهُ، أو ﴿نَسِيَ﴾ ألّا تَنْفَعَ شفاعتُهُمْ إياهُمْ ونَحْوَهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] أي نَسُوا ما عَلِموا مِنْ عَجْزِ الأصنامِ ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ كأنَّ الآيةَ في الرؤساءِ منهُمْ، جَعَلوا [للهِ أنداداً لِيُضِلّوا][11] الناسَ عن سبيلِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تلف. (٣) في الأصل وم: لليس ولهم تقرر من أتلف. (٤) في الأصل وم: جوابا لقولهم حيث. (٥) و(٦) في الأصل وم: أخرى. (٧) في الأصل وم: رجوعا. (٨) في الأصل وم: من غير آي. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: وقوله. (١١) في الأصل وم: أندادا ليضل.

جنة السنة

يدلُّ على ذلك [قولُهُ تعالى][1]: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لِما عَلِمَ أنهُ يَخْتِمُ على الكُفرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الحِكمَةُ في ذِكْرِ[2] هذا وأمثالِهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ تَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: يُصَبِّرُ رسولَ اللهِ ﷺ على سوءِ معامَلَتِهِمْ إياهُ [لِيَحلَمَ كما حَلِمَ][3] عن سوءِ مُعامَلَتِهِمْ، ولم يَستَأصِلْهُمْ على إثْرِ ذلك. وذلكَ أعْظَمُ في العقلِ.

[والثاني][4]: يُخبِرُ الأواخِرَ عن سوءِ مُعامَلَتِهِمْ ربَّهُمْ لِيَحذَروا عن مِثْلِ معامَلَتِهِمْ ربَّهُمْ.

[والثالث][5]: يُخبِرُ /٤٦٧ - أ/ عن حِلْمِهِ أنْ كيفَ [حَلِمَ عنهُمْ][6] فاحْلَمْ أنتَ، واللهُ أعلَمُ.

وقُرِئَ لِيَضِلَّ[7].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قال بعضُهُم: هذِه الآيةُ صِلَةُ ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يقولُ: الذي تَضَرَّعَ إلى اللهِ، وأخلَصَ دِينَهُ لهُ، ونَسِيَ ذلكَ، وتَرَكَهُ إذا خَوَّلَ ذلكَ نِعْمَةً، وجَعَلَ للهِ أنداداً لِيُضِلَّ عن سَبيلِهِ كالذي هو قانتٌ أي مطيعٌ للهِ آناءَ الليلِ والنهارِ، يَحذَرُ عذابَهُ، ويَرجو رَحمَتَهُ؟ لَيسا بِسَواءٍ عندكُمْ: الذي أطاعَ اللهَ في جميعِ أوقاتِهِ: حاذِرٌ تقصيرَهُ، راجٍ[8] رَحمَتَهُ بِطاعَتِهِ. والذي عَصَى ربَّهُ، ولم يُطِعْهُ. أنهما لَيسا بِسَواءٍ، ثم رأيتُمْ أنهما قدِ اسْتَوَيا في نِعَمِ هذهِ الدارِ وسَعَتِها وشدائِدِها، وفي الحكمةِ التفريقُ بَينَهما، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى يُفَرِّقُ بينَهما فيها: يُثابُ المُحسِنُ المُطيعُ جَزاءَ إحسانِهِ وطاعَتِهِ، ويُعاقَبُ الكافرُ الظالمُ جزاءَ كُفرِهِ وظُلمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ يَجعَلُ لهذِهِ الآيةِ مُقابِلاً[9]، لكنهُ يقولُ: مُقابِلُها، ليسَ كالأوَّلِ، ولكنْ لم يذكُرْ لها مُقابِلاً[10]، ويقولُ: على ما عَرَفْتُمْ أنهُ لا يَستوي الذي يَعلَمُ والذي لا يَعلَمُ. فَعَلى ذلكَ لا يَستوي الذي أطاعَ ربَّهُ آناءَ الليلِ، وأجْهَدَ نفسَهُ في عبادةِ اللهِ والذي[11] عَصَى ربَّهُ، وكَفَرَ نِعَمَهُ، وقد ظَهَرَ الإستِواءُ بَينَهما في هذهِ الدنيا، فلابدَّ مِنَ التَّفريقِ بَينَهما في دارٍ أُخرَى.

ولو لم تَكُنْ دارٌ أُخرَى، فيها يُفَرِّقُ، ويُمَيِّزُ، لَكانَ خَلْقُ هذا العالَمِ على ما كانَ باطلاً سَفَهاً غيرَ حكمةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ أي يَحذَرُ عذابَ الآخِرَةِ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ أنهُ قَرَأ: يَحذَرُ عذابَ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ المؤمنَ يَجِبُ أنْ يكونَ بَينَ الرجاءِ والحَذَرِ؛ يَرجو رحمتَهُ لا عَمَلَهُ، ويَحذَرُ عذابَهُ لِتَقصيرِهِ في عَمَلِهِ.

ثم الرجاءُ إذا جاوَزَ حَدَّهُ يكونُ أمْناً، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] والخَوفُ إذا جاوَزَ حَدَّهُ يكونُ إياساً، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ويَجِبُ أنْ يكونَ المؤمنُ كما ذَكَرَ ﷻ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] [وذكَرَ][12]: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] لا يُجاوِزُ أحَدُهما [حَدَّهُ][13].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [أي جَنَّتَهُ على ما سَمَّى اللهُ تعالى الجَنَّةَ رَحمَةً][14] في غيرِ مَوضِعٍ، لِما بِرَحمَتِهِ تُنالُ هي، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذلك. (٣) في الأصل وم: كما حكم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حكم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه ثلاث لغات. انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٠. (٨) في الأصل: راجع. (٩) و(١٠) في الأصل وم: مقابل. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ بِمَعْرِفَةِ نِعَمِ اللهِ والقيامِ بِشُكْرِهِ والحَذَرِ مِنْ عِصْيانِهِ وعذابِهِ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بكلِّ ذلكَ؟ جوابُهُ أنْ يُقالَ: لا يَسْتوي الذينَ يَعْلَمونَ والذينَ لا يَعْلَمونَ، وهو ما قالَ: ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر: ٢٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ﴾ إنما يَتَذَكَّرُ بِمواعِظِ اللهِ أولو العقولِ والبَصَرِ والمَعْرِفَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَانَآءَ الَّيْلِ﴾ أي ساعاتِ الليلِ، وقولُهُ[1]: ﴿قَٰنِتٌ﴾ أي مطيعٌ. وأصْلُ القُنوتِ القِيامُ، وهو القِيامُ في الطاعةِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ دلالةُ جوازِ الإرجاءِ لأنهُ لم يَقْطَعْ على أحَدِهِما دونَ الآخَرِ، وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وفي قولِهِ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي القَطْعِ على أحَدِهِما كُفْرٌ على ما ذَكَرْنا في[2] قولِهِ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] [وقولِهِ][3]: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] إذِ المُجاوَزَةُ في الخَوفِ إياسٌ، والمُجاوَزَةُ في حَدِّ الرجاءِ أمْنٌ، وقد ذَكَرْنا أنهُ كُفْرٌ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ وجوهاً:

اتَّقُوا سُخْطَ رَبِّكُمْ، أوِ اتَّقُوا نِقْمَةَ رَبِّكُمْ، أو اتَّقُوا مُخالَفَةَ رَبِّكُمْ، ونَحْوَهُ.

وأصلُ التُّقى ما [بِهِ][4] تَهْلِكونَ، أيِ اتَّقُوا مهالِكَكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ لهمْ في الآخِرَةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لهمُ الحَسَنَةُ في الدنيا والآخِرَةِ [كقولِهِ تعالى][5]: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١].

ثم تَحْتَمِلُ الحسنةُ وجهاً آخَرَ [هو][6] اسْتِغْفارُ الملائكةِ لهمْ والأنبياءِ ﷺ لأنَّ اللهَ ﷻ امْتَحَنَ ملائكَتَهُ باسْتِغْفارِ المؤمنينَ والمؤمناتِ كقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] وكذلكَ امْتَحَنَ رُسُلَهُ بالاسْتِغْفارِ لِلْمؤمنينَ، وكذلكَ [امْتَحَنَ المؤمنينَ][7]؛ يَسْتَغْفِرُ بعضُهُمْ لبعضٍ ونَحْوَهُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ مَنْ آمَنَ منهمْ بِمَكَّةَ كانوا يُظْهِرونَ الموافَقَةَ لأعدائِهِمْ، ويُقيمونَ في ما بينَهُمْ، وكانَتْ لهمْ أسبابُ التَّعَيُّشِ في بَلَدِهِمْ، ولم يَكُنْ لهمْ تلكَ في بَلَدِ غَيرِهِمْ، فخافوا الضَّياعَ، إنْ هُمْ خَرَجوا مِنْ بَلَدِهِمْ، فَيُهاجِروا فيها إلى غَيرِ بَلَدِهِمْ، فَيَمْتَنِعونَ عن ذلكَ.

فجاءَتِ الآيةُ على التَّرَجِّي والإطماعِ لهمْ بِمِثْلِ ذلكَ التَّعَيُّشِ وأسبابِهِ في ذلكَ البَلَدِ، وهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ قَالُوٓا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. لم يُعْذَروا في تَرْكِهِمُ الهجرةَ وإظهارِهِمُ الموافقةَ للأعداءِ، ولهم طاقةٌ وَوُسْعُ التَّحَوُّلِ مِنْ بَلَدِهِمْ إلى بَلَدِ غَيرِهِمُ الآمِنِ، لم يَكُنْ بهمْ[9] طاقةُ الخُروجِ مِنْ بينِهِمْ، وهُمْ[10] الذينَ اسْتَثْناهُمْ، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَٰنِ﴾ الآيةَ [النساء: ٩٨] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: من. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: المؤمنون. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: به. (١٠) في الأصل وم: وهو.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بِغَيرِ تَبِعَةٍ ولا تَنوِيهٍ كقولِهِ [ﷺ][1]: «مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ» [البخاري٦٥٣٦].

[ويَحتَمِلُ][2]: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يُحاسَبونَ لِما ليسَ وراءَ تلكَ الدارِ الآخِرَةِ دارٌ أُخرَى يُحاسَبونَ فيها ما أُعطوا في الآخِرَةِ، لَيسَتْ[3] كدارِ الدنيا يُحاسَبونَ[4] ما أُوتوا فيها في الآخِرَةِ وأمّا ما أُعطوا في الآخِرَةِ فلا يُحاسَبونَ في غَيرِها.

ويَحتَمِلُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي غَيرَ مُقَدَّرٍ بالحسابِ، ولكنْ [﴿يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾][5] أضعافاً مُضاعَفَةً.

ويَحتَمِلُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بلا نهايةٍ ولا غايةٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الصَّبرُ، هو حَبْسُ النفسِ إمّا على أداءِ ما أمَرَ اللهُ بهِ والانْتِهاءِ عمّا نَهَى اللهُ عنهُ [وإمّا][6] حَبْسُها وكَفُّها لاحْتِمالِ[7] ما حَمَلَتْ مِنَ الشدائدِ والمَصائبِ والمُؤَنِ العِظامِ.

احْتَمَلوا ذلكَ، ولم يَجزَعوا، وهو ما ذُكِرَ في غَيرِ آيةٍ[8] مِنَ القرآنِ [كقولِهِ تعالى][9]: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ونَحوُهُ.

الآيتان ١١ و١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ هذا لِما أنَّ أهلَ مكةَ كانوا يَدْعُونَ رسولَ اللهِ ﷺ إلى دينِهِمْ ودينِ آبائهِمْ، وكانوا يَطْمَعونَ عَودَهُ إليهِمْ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ذَكَرَ هٰهنا أنهُ أُمِرَ أنْ يَعبُدَ اللهَ مُخلِصاً لهُ الدينَ. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٥٦] وقالَ فيها[10]: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ لو اتَّبَعَ أهواءَهُمْ في ما هُمْ فيهِ يَضِلُّ، وما كانَ مِنَ المُهتَدينَ.

ذَكَرَ في هذهِ الآياتِ النَّهيَ وتَرْكَ اتِّباعِهِ أهواءَهُمْ، ولم يَذكُرِ الأمْرَ فيها بعبادةِ اللهِ تعالى مُخلِصاً لهُ الدينَ.

[ويَحتَمِلُ][11] أنْ يقولَ: إني إذا أمَرْتُكُمْ بعبادةِ اللهِ أُمِرْتُ أنا في نفسي أنْ أعبُدَهُ مُخلِصاً. لَسْتُ أنا كَمَنْ يَأمُرُ غَيرَهُ /٤٦٧ ـ ب/ شيئاً، ولا يأتَمِرُ بنفسِهِ، وهو غَيرُ مأمورٍ بذلكَ، وهو ما قالَ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أو يقولَ: لستُ أنا كالملوكِ يأمرونَ أتباعَهُمْ بأشياءَ، ويَستَعْمِلونَهُمْ[12] في أمورِهِمْ، ولا[13] يَستَعْمِلونَ في تلكَ أنفسَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الخوفُ هٰهنا، ليسَ هو حقيقةَ الخوفِ، ولكنْ [هو][14] العِلْمُ، كأنهُ قالَ: إني أعلَمُ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فأيْسَهُمْ باللهِ بالمدينةِ عَنْ عَودِهِ إلى دينِهِمْ وقَطَعَ طَمَعَهُمْ عنهُ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فأمّا ما داموا بمكةَ، فإنهمْ كانوا طامِعينَ في ذلكَ راجينَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٤ و١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ إنهُ يُخرِجُ هذا الحَرْفَ منهُ مُخرَجَ التَّهديدِ لهمْ والتَّوَعُّدِ، يقولُ: أمّا أنا فإنما أعبُدُ اللهَ الحَقَّ، ولهُ أُخلِصُ ديني، فاعْبُدوا أنتمْ ما شِئْتُمْ، فإنهُ يَجزيكُمْ جزاءَ عِبادتِكُمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم﴾ الآية [فصلت: ٤٠] وذلكَ معروفٌ في كلامِ الناسِ: يقولُ الرجلُ: اعْمَلْ ما شِئْتَ فإنَّ لكَ الجزاءَ بما[15] تَعمَلُ على الوعيدِ. فَعلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، لا على الوَعيدِ، ولكنْ يقولُ: قد بَيَّنْتُ لكمْ، وأوضَحْتُ السَّبيلَينِ جميعاً بالآياتِ والحُجَجِ: سَبيلَ النجاةِ الذي إذا سَلَكْتُموهُ نَجَوتُمْ، وهو سَبيلُ اللهِ، وسَبيلَ الهَلاكِ الذي إذا سَلَكْتُموهُ أهلَكَكُمْ، وهو سَبيلُ الشيطانِ، فإنْ أرَدْتُمُ النجاةَ فاسْلُكوا سَبيلَ كذا، وإنْ أرَدْتُمْ سَبيلَ الهلاكِ فاسْلُكوا كذا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: ليس. (٤) في الأصل وم: يحاسب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: في احتمال. (٨) في الأصل وم: آي. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: في آية أخرى. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: ويستعملون. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: كما.

ثم قولُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كِنايةٌ لِما أمرَهُمْ أنْ يَقُوا أنفسَهُمْ وأهليهِمُ النارَ حين[1] قالَ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] لِتكونَ لهمْ أنفسُهُمْ وأهليهِمْ يومَ القيامةِ، ويَسْلَمَ إليهمْ ذلكَ، وقد مُكِّنَ لهمْ ذلكَ. وهَلَكوا، وترَكوا ذلكَ، ولم [يَقُوا أنفسَهُمْ][2] ولا أهليهِمُ النارَ. قالَ عندَ ذلكَ: ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾.

[ويَحْتَمِلُ][3] أنهمْ قد أُمِروا بالسَّعْيِ للآخِرَةِ والعَمَلِ لها، ووُعِدوا إذا سَعَوا لها، وعَمِلوا، النجاةَ في الآخِرَةِ والحياةَ الدائمةَ والأهلَ في الجنةِ. وإذا لم يَسْعَوا لها، ولم يَعْمَلوا خَسِروا أنفسَهُمْ والأهلَ الذينَ وُعِدوا فيها إذا سَعَوا. وهَلَكَتْ أنفسُهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ ألا هنالكَ بَيَّنَ لهمْ أنهمْ خَسِروا خُسْراناً مُبيناً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أنْ يكونَ ما كانَ تحتَهُمْ مِنَ النارِ أنْ يُوصَفَ بالمِهادِ لهمْ لا بالظُّلَلِ كقولِهِ ﷺ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ أنهُ جُعِلَ[5]: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

لكنْ جائزٌ أنْ [تكونَ الظُّلَلُ التي][6] تحتَهُمْ، هي ظُلَلٌ لِمَنْ تحتَهُمْ، وهي لأولئكَ الذينَ فوقَهُمْ مِهادٌ، والذينَ ليسَ تحتَهُمْ أحدٌ مِهادٌ أيضاً، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ [للنارِ دَرَكاتٍ وأطباقاً][7] لتكونَ كلُّ طَبَقَةٍ لِمَنْ تحتَها ظُلَلاً[8] ولِمَنْ فوقَها مِهاداً[9] على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ﴾ أي[10] ذلكَ الذي ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ المواعيدِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ اتَّقُوا سُخْطَ اللهِ ونِقْمَتَهُ، واتَّقُوا مُخالَفَةَ اللهِ، أوِ اتَّقُوا المَهالِكَ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ اخْتُلِفَ في الطاغوتِ:

قالَ بعضُهُمْ: هو الشيطانُ، أيِ اجْتَنِبوا مِنْ أنْ يأتَمِروهُ، [ويُطيعوهُ][11] وقالَ بعضُهُمْ: الطاغوتُ، هُمُ الكَهَنَةُ؛ كانوا يأتونَ الكَهَنَةَ، فيُخْبِرونَهُمْ بأمورٍ، فيَعْلَمونَ بقولِهِمْ، ويُصَدِّقونَهُمْ؛ يقولُ: أيِ اجْتَنِبوا مِنْ أنْ تُطيعوا الكَهَنَةَ في أمْرِهِمْ[12] ونَهْيِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ مَعْبودٍ دونَ اللهِ فهو طاغوتٌ، وهو مِنَ الطُّغْيانِ، وهو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [أي قَبِلوا، ورَجَعوا][13] إلى أمْرِ اللهِ وإلى ما بِهِ طاعَتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢و٦٣و٦٤] لأنهمْ أولياءُ اللهِ، وقولِهِ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

الآية ١٨ [وقولُهُ تعالى][14]: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: الذينَ يَسْتَمِعونَ كلامَ الناسِ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ والحَسَنِ والقَبيحِ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي يَرَوْنَ، ويَحْكُمونَ منهُ ما هو خيرٌ وحَسَنٌ، ويَتْرُكونَ ما هو شَرٌّ وقَبيحٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَسْتَمِعونَ القرآنَ وكلامَ الناسِ وأحاديثَهُمْ، فيأخُذونَ بالقرآنِ، ويَتَّبِعونَهُ، ويَتْرُكونَ كلامَ الناسِ وأحاديثَهُمْ؛ فهو اتِّباعُ الأحْسَنِ منهُ، وهو القرآنُ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَسْتَمِعونَ [القرآنَ][15] وفيهِ الناسخُ والمَنْسوخُ، فيَتَّبِعونَ أحْسَنَهُ، أي ناسِخَهُ، ويَعْمَلونَ بِهِ، ويَتْرُكونَ مَنْسوخَهُ، فلا[16] يَعْمَلونَ بِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يقوها. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قل. (٦) في الأصل وم: يكون الظل الذي. (٧) في الأصل وم: النار دركات وأطباق. (٨) في الأصل وم: ظلل. (٩) في الأصل وم: مهاد. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: وأطاعوه. (١٢) في الأصل وم: أمورهم. (١٣) في الأصل وم: اقبلوا وارجعوا. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) الفاء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُمْ: يَسْتَمِعونَ إلى القرآنِ، وفيهِ الأمرُ والنَّهيُ، فَيَتَّبِعونَ أمْرَهُ، ويَنْتَهونَ عمّا نَهى عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي يَتَّبِعونَ الحَسَنَ منهُ، والأحسَنُ[1] بِمَعْنى الحَسَنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قائلونَ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فَيَتَّبِعونَ أحْسَنَ مافي القرآنِ مِنَ الطاعةِ منهُ كقولِهِ: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا؛ أنْ خُذوا ما فيهِ مِنَ الأمرِ، والتَمِروا بهِ، وانْتَهُوا عمّا فيهِ مِنَ المَناهي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي أولئكَ هُمُ المُنْتَفِعونَ بألبابِهِمْ وعقولِهِمْ حينَ[2] اختاروا، وآثَروا هِدايَةَ اللهِ، ونَظَروا إليها بالتعظيمِ والإجلالِ، واهْتَدَوا.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى في هذهِ السورةِ أشياءَ، لا تُقَدَّرُ لها أجوبةٌ في الظاهرِ إلّا بالتَّأمُّلِ والاستِدْلالِ على غيرِهِ.

مِنْ ذلكَ ما[3] ذَكَرَ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، (أفمن حَقَّ عليهِ العذابُ) كَمَنْ لهُ البُشرى في الآخِرَةِ. لأنهُ ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ لِلْمومنينَ البُشْرى حينَ[4] قالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧] على هذا يُخرَّجُ جوابُهُ: أفَمَنْ وَجَبَ عليهِ العذابُ كَمَنْ وَجَبَتْ لهُ البُشْرى؟ أو يقولُ: أفَمَنْ حَقَّ وَوَجَبَ عليهِ العذابُ كَمَنْ شَرَحَ صَدْرَهُ الإسلامُ؟ أي ليسَ الذي وجَبَ لهُ العذابُ كالذي شَرَحَ صَدْرَهُ للإسلامِ، أو يقولُ هذا لِنازِلَةٍ، كانَتْ لِرسولِ اللهِ ﷺ لِحِرْصِهِ على إسلامِ قومٍ أحَبَّ أنْ يُسْلِموا، فقالَ هذا لهُ على الإياسِ مِنْ إسلامِهِمْ؛ يقولُ: أفَمَنْ وَجَبَ عليهِ العذابُ؟ أفأنتَ تُنْقِذُهُ؟ وتُخَلِّصُ[5] مِنَ النارِ مَنْ قَدْ وَجَبَ عليهِ العذابُ؟ وهو ما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وكقولِهِ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] كانَ لا يَقْدِرُ أنْ يُكْرِهَهُمْ على الإسلامِ، لكنهُ كانَ يُحِبُّ، ويَحْرِصُ على إسلامِهِمْ، ويَحْزَنُ لِتَرْكِهِمُ الإسلامَ كقولِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] وقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] [وقولِهِ][6]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] ونَحْوُ ذلكَ.

كانَ يَحْزَنُ، وكادَتْ نفسُهُ تَتْلَفُ إشفاقاً عليهِمْ، فيقولُ: أفَمَنْ وَجَبَ، وحَقَّ عليهِ العذابُ، تَقْدِرُ أنْ تُنْقِذَهُ مِنَ النارِ؟ أي لا تَقْدِرُ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ ثم بَيَّنَ الذينَ أُنْقِذوا مِنَ النارِ، وهُمُ الذينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ حينَ[7] قالَ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ أيِ اتَّقَوا مُخالَفَةَ ربِّهِمْ ونِقْمَتَهُ.

ثم بَيَّنَ ما أوعَدَ لهمْ في الآخِرَةِ، فقالَ ﷻ: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ/ ٤٦٨ ـ أ/ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ذَكَرَ أنَّ لهمْ غُرَفاً[8] في الجنةِ، والغُرَفُ في الشاهدِ إنما تُتَّخَذُ لِضيقِ المكانِ. لكنَّ ذلكَ في الجنةِ ليسَ كذلكَ، ولكنْ لِما كانَ اللهُ ﷻ عَرَفَ مِنْ رغبةِ الناسِ في الدنيا في الارْتِفاعِ والعُلُوِّ والكرامةِ والتَّفضيلِ على الانْحِدارِ في الأرضِ؛ رَغَّبَهُمْ في الآخِرَةِ على ما رَغِبوا، وأحَبّوا في الدنيا، ولكنْ لأهلِ الجنةِ الدَّرَجاتُ، ولأهلِ النارِ الدَّرَكاتُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يُخبِرُ أنَّ أمْرَ [أهلِ][9] الجنةِ على خلافِ [أمرِ][10] أهلِ الدنيا؛ إذْ في الدنيا؛ كلُّ ما ارْتَفَعَ، وعلا، مِنَ البُنْيانِ كانَ الماءُ منهُ أبْعَدَ والوصولُ إليهِ أصْعَبَ. فأخْبَرَ أنهمْ، وإنْ كانوا في الغُرَفِ والدَّرَجاتِ، فأبصارُهُمْ إنما[11] تَقَعُ على الماءِ، والماءُ لا يَبْعُدُ عنهمْ، ولا يَصْعُبُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذَكَرَ في الغُرَفِ البِناءَ ولا ذَكَرَ في السماءِ أنهُ بَناها، فلم يُفْهَمْ مِنْ بِنائِهِ ما ذَكَرَ ما فُهِمَ مِنْ بناءِ الخَلْقِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وما. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وتخلصه. (٦) في الأصل وم: يحتمل. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: غرف. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: مما.

جنة السنة

فكيفَ فُهِمَ مِنْ [مَجيءِ الرَّبِّ][١] وغيرِ ذلكَ ما فُهِمَ مِنْ [مَجيءِ الخَلْقِ وإتيانِهِمْ][٢]؟ لولا ما كانَ فيهِمْ مِنْ فَسادِ أعتِقادِهِمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ونَحْوُهُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: على الخَبَرِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي قد رأيتَ.

والثاني: على الأمْرِ: أنْ رَ.

ثم الخِطابُ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ لرسولِ اللهِ ﷺ فهو لكلِّ أحدٍ يَحتَمِلُ النَّظَرَ والتأمُّلَ.

ثم جِهَةُ الحكمةِ المُودَعَةِ فيها مِنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ وجَعْلِهِ يَنابيعَ في الأرضِ. واليَنابيعُ هي العيونُ التي تَخرُجُ مِنَ الأرضِ والآبارِ التي جُعِلَتْ فيها لِيُعلَمَ أنَّ المِياهَ الخارجَةَ مِنَ الأرضِ والجاريةَ فيها أصْلُها مِنَ السماءِ، مُنْزَلَةٌ منها، وهي طَهورٌ على ما أخْبَرَ أنهُ أنْزَلَ[٣] ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، وإنِ اخْتَلَفَ طَعْمُهُ[٤] لاخْتِلافِ جواهِرِ الأرضِ، ما لم يُخالِطْهُ[٥] شيءٌ مِنْ جواهرَ مِنَ القَذارةِ والنَّجاسَةِ وغيرِها مِنَ الألوانِ التي تُخرِجُهُ[٦] عن أنْ يكونَ طهوراً، تُغَيِّرُهُ عن جوهَرِهِ الذي أُنْزِلَ مِنَ السماءِ.

ثم جَعَلَ اللهُ ﷻ في شَرْبَةِ ذلكَ الماءِ مَعْنًى ولُطفاً ما يوافِقُ جميعَ الأشجارِ والنباتِ، وكلِّ خارجٍ مِنَ الأرضِ، وإنِ اختَلَفَتْ جَواهِرُها وألوانُها وطُعومُها[٧]، لِيُعلِمَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على جَعْلِ ما جَعَلَ في الماءِ مِنَ اللُّطفِ والمَعْنَى الذي يُوافِقُ كلَّ شيءٍ مِنَ النباتِ والشجرِ، وإنِ اختَلَفَتْ جواهِرُها وألوانُها وطُعومُها[٨]، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ شيءٌ. ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

أو يقولُ: إنَّ مَنْ تَكلَّفَ زَرْعَ الزراعةِ في الأرضِ، وتَحمَّلَ المُؤَنَ العظامَ إلى أنْ بَلَغَ المَبْلَغَ الذي يَنْتَفِعُ بهِ، ويَنالُ منهُ النَّفْعَ، تَرَكَهُ لم يَنْتَفِعْ بهِ، أليسَ يُوصَفُ بالسَّفَهِ وغيرِ الحِكْمَةِ؟ فكذلكَ اللهُ، سُبحانَهُ، لمّا أنْشَأكُمْ صِغاراً طِفلاً، وغَذّاكُمْ بألوانِ الأغذيةِ والأطعمةِ حتى كَبِرْتُمْ، وبَلَغتُمْ مَبلَغَ الانْتِفاعِ بكُمْ. ثم أبْلَغَكُمْ بلا عاقِبَةٍ تُقْصَدُ بذلكَ، كانَ غيرَ حكيمٍ، وقد عَرَفْتُموهُ حكيماً.

فَدَلَّ أنَّ المَقصودَ في ذلكَ كلِّهِ حتى يكونَ إنشاؤُهُ إياكُمْ صِغاراً وتربيتُهُ إياكُمْ بألوانِ الأغذيةِ التي جَعَلَ لكُمْ حكمةً، وهو البَعْثُ، ما لو لا ذلكَ كانَ سَفَهاً غيرَ حكمةٍ على ما ذَكَرَ مِنْ إخراجِ الزَّرعِ مِنَ الأرضِ بالماءِ الذي أخْرَجَ، ثم تَرَكَهُ فيها حتى صارَ يابساً، لا يُنْتَفَعُ بهِ كانَ سفيهاً غيرَ حكيمٍ.

فَعَلَى ذلكَ ما كانَ عندَ أولئكَ الكَفَرَةِ أنْ لا بَعْثَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي في ما يَذْكُرُ مِنْ إنزالِ الماءِ وإدخالِهِ في الأرضِ وإخراجِ ما ذَكَرَ منها بهِ، وما ذَكَرَ مَوعِظَةٌ لأولي الألبابِ، أي لِمَنِ انْتَفَعَ بِلُبِّهِ وعَقْلِهِ لِما ذَكَرْنا، وما ذَكَرَ لأهلِ الجنةِ مِنَ الغُرَفِ وغيرِ ذلكَ. ثم قالَ ﷻ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠] لأنَّ مَنْ وَعَدَ في الشاهدِ، ثم أخْلَفَهُ، إنما يُخلِفُهُ لِحاجَتِهِ أو لِما يبدو لَهُ مِنَ البَدَواتِ، فَيَرجِعُ عَمّا وَعَدَ، واللهُ تعالى عنْ ذلكَ كلِّهِ، ولا[٩] يُحتَمَلُ خُلْفُ الوَعْدِ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدْخَلَهُ فيها، وجَعَلَهُ يَنابيعَ أي عُيوناً. ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يَيْبَسُ. وقولُهُ: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ مُتَكَسِّراً مِثْلَ الرُّفاتِ والفُتاتِ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ. ويُقالُ: هاجَتِ الأرضُ إذا ابْتَدَأتِ في اليُبْسِ، ﴿حُطَٰمًا﴾ أي مُتَكَسِّراً.

الآية ٢٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فَيُسْلِمُ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي يَجْعَلُ اللهُ في صَدْرِهِ النورَ

---

(١) في الأصل وم: محبته. (٢) في الأصل وم: محبة الخلق وأبنائهم. (٣) في الأصل وم: أنزله. (٤) في الأصل وم: طبعه. (٥) في الأصل وم: يخالط. (٦) في الأصل وم: تخرج. (٧) في الأصل وم: وطعمها. (٨) في الأصل وم: وطعمها. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

إذا أسْلَمَ حتى يُبْصِرُ الحقَّ وحُجَجَهُ وبراهينَهُ بصورةِ الحَقِّ أنهُ حقٌ، والباطلَ أنهُ باطلٌ وأنهُ تَمْويهٌ؛ يُبْصِرُ كلَّ شيءٍ بذلكَ النورِ على ما هو حقيقةٌ أنهُ حقٌّ وباطلٌ، فيأخُذُ الحَقَّ، ويَعْمَلُ بِهِ، ويَتْرُكُ الباطلَ، ويَجْتَنِبُهُ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][(1)] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يكونُ نورُهُ هو إسلامَهُ الذي هداهُ، شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ بنورِهِ حتى أسْلَمَ، و هو ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ: «سُئِلَ: هل يَنْشَرِحُ الصدرُ للإسلامِ؟ وكيفَ يَنْشَرِحُ؟ قالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إذا دَخَلَهُ النورُ انْشَرَحَ لذلكَ الصدرُ، وانفَسَحَ لهُ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٢١٩] أخْبَرَ أنَّ النورَ إذا دَخَلَ الصدرَ انْشَرَحَ لذلكَ الصدرُ وانفَسَحَ لهُ بذلكَ النورِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أيضاً أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ في الدنيا ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في الآخِرَةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ الآيةَ [التحريم: ٨] والذينَ كَفَروا طَبَعَ اللهُ على قُلوبِهِمْ، فَبِظُلْمِ وبِفِسْقٍ لِما بَقُوا[(2)] في الظُّلْمَةِ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الإسلامِ نفسِهِ إذا أسْلَمَ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [أي][(3)] كتابِ اللهِ، قالَ هذا المؤمنُ بهِ، يأخُذُ [كتابَ اللهِ][(4)] وإليهِ يَنْتَهي.

«ولمّا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ هلْ لِذلكَ أي لانْشِراحِ الصدْرِ للإسلامِ علامةٌ؟ فقالَ: نعمْ التَّجافي عنْ دارِ الغُرورِ، والإنابةُ إلى دارِ الخُلودِ، والاسْتِعْدادُ لِلْمَوتِ قَبْلَ حُلولِ الموتِ» [القرطبي في تفسيره: ٧/ ٧٤] فهذا في التحقيقِ ليسَ في المُعامَلَةِ في العملِ، ولكنْ في الاعْتِقادِ، أي يَتَجافَى عنْ دارِ الغُرورِ، ويُنيبُ[(5)] إلى دارِ الخُلودِ؛ يَتَزَوَّدُ مِنَ الدنيا للآخِرَةِ.

ثم قولُهُ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الاسْتِفْهامِ على ما ذَكَرَ، ويَحْتَمِلُ ألّا يكونَ على الاسْتِفْهامِ، ولكنْ على الإيجابِ. فإنْ كانَ على هذا [فهوعلى][(6)] إسقاطِ الألفِ: فَمَنْ ﴿شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآيةَ كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ على الاسْتِفْهامِ فلا بُدَّ أنْ يكونَ لهُ مُقابلٌ، يُعْرَفُ ذلكَ بدليلٍ أنهُ جوابُهُ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: جوابُهُ في قولِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ كأنهُ يقولُ: ليسَ المُنْشَرِحُ صَدْرُهُ بالإسلامِ كالقاسي قَلْبُهُ بالكُفْرِ، وهو قولُ الكِسائيِّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ جوابُهُ ومُقابِلُهُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وهو قولُهُ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ الآيةَ [الزمر: ١٩] كأنه يقولُ: أفَمَنْ حَقَّ عليهِ العذابُ كَمَنْ شَرَحَ صَدْرَهُ للإسلامِ؟ أي ليسَ مَنْ وَجَبَ عليهِ العذابُ كَمَنْ ﴿شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ، ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أصْدَقَهُ خبراً وأعْدَلَهُ حُكماً، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى، وَوَصَفَهُ بالصِّدْقِ والعَدْلِ حينَ[(7)] قالَ ﷻ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صِدقاً في خَبَرِهِ وعَدْلاً في حُكْمِهِ.

فَعَلَى /٤٦٨ ـ ب/ ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ خَبَراً وأعْدَلَهُ حُكماً، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي أتْقَنَهُ وأحْكَمَهُ، وهو مُتْقَنٌ ومُحْكَمٌ، وهو على ما وَصَفَهُ بالصِّدْقِ والعَدْلِ في آيةٍ أُخرى، وقالَ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] أخبَرَ أنهُ لا يأتي القرآنَ باطلٌ مِنْ بَينِ يَدَيهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ؛ وذلكَ لإتقانِهِ وإحكامِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: بقي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والإنابة. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وهو أحسنُ الحديثُ لأنَّ مَن تأمَّلَهُ، ونظرَ فيهِ، وتفكَّرَ، أنارَ قلبَهُ، وأضاءَ صدرَهُ، وهداهُ سبيلَ الخيرِ والحقِّ، ودفعَ عنهُ الوَساوسَ والشُّبهاتِ وكلَّ شرٍّ، وأفضاهُ إلى كلِّ خيرٍ وبِرٍّ؛ فهو أحسنُ الحديثِ، إذْ لا حديثَ يَعمَلُ ما يَعمَلُ هو لِما ذكَرْنا وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ قولُهُ ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي ليسَ يَختلِفُ، ولا يَتناقضُ، ليسَ كحديثِ الناسِ وكُتُبِهِمْ ممّا يَختلِفُ، ويَتناقضُ حديثُهُمْ وكتابُهُمْ وخاصَّةً في ما امْتدَّ مِنَ الأوقاتِ، وطالَ، وبَعُدَتْ مُدَّتُهُ، وهو ما ذكَرَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

دلَّ كونُهُ مُتَّفِقاً مُتشابِهاً غيرَ مُختلِفٍ في حُلولِ نُزولِهِ وتفرُّقِ أوقاتِهِ وتباعُدِ أيامِهِ في الإنزالِ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نزَلَ، ومنهُ جاءَ؛ إذْ لو لم يكُنْ مِنْ عندِهِ لَخرَجَ مُختلِفاً مُتناقِضاً على ما يَخرُجُ حديثُ الناسِ وخبَرُهُمْ مُختلِفاً ومُتناقِضاً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّثَانِىَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: سَمّاهُ مَثانيَ لِما يُثنّي فيهِ أنباءَهُ وقَصصَهُ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

وأصلُهُ أنهُ سَمّاهُ مَثانيَ لأنهُ ذكَرَ فيهِ المَواعِظَ والذِّكرى، وكرَّرَها، في غيرِ موضعٍ لِما لو لمْ يُكرِّرْها لَغفَلوا عنها، وسَهَوا عنها، لأنَّ الحكيمَ إذا وعَظَ أحداً عِظَةً، وزجَرَهُ [عنْ شيءٍ، ثم ترَكَهُ، لم يَعِظْهُ، ولم يَزْجُرْهُ ثانياً، غفَلَ عمّا وعَظَهُ، وزجَرَهُ][1] وسَهَا عنهُ. وكرَّرَ ﷻ عليهمُ المَواعِظَ والزواجرَ لِيكونوا أبداً مُتَّعِظينَ مُتذكِّرينَ لِذلكَ، واللهُ أعلمُ، لِكيلا يَغفُلوا عنها، ولا يَسْهُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عندَ تِلاوةِ آيةِ الرهبةِ والخوفِ ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ عندَ تِلاوةِ آيةِ الرحمةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ لهمْ بجميعِ القرآنِ بما فيهِ مِنَ الرحمةِ والرهبةِ جميعاً؛ يكونُ فيهما المَوعِظةُ: تَلينُ قُلوبُهُمْ، وتَقشَعِرُّ جُلودُهُمْ، وتَخافُ أنفسُهُمْ، لأنَّ آيةَ الرحمةِ ليسَتْ بأحقَّ بِتَليينِ القلوبِ مِنْ آيةِ الرَّهبةِ، بل آيةُ الرهبةِ أحقُّ بذلكَ.

وقَتادةُ يقولُ: كانَتْ جُلودُهُمْ تَقشَعِرُّ، وعيونُهُمْ تبكي، وقُلوبُهُمْ تطمَئِنُّ إليهِ، ولا تَذهَبُ عقولُهُمْ، ولا يُغشى عليهِمْ كما رَأينا أهلَ البِدَعِ يَفعلونَهُ، وإنما ذلكَ مِنَ الشيطانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قد بيَّنَ سُبُلَ الهُدى والحقِّ وحُجَجَهُ وبراهينَهُ، و بيَّنَ سُبُلَ الضلالةِ والباطلِ. فَمَنْ سلَكَ سبيلَ الهُدى فَبِتوفيقِهِ سَلَكَ، وبِمَعونتِهِ اهتَدى، ومَنْ سَلَكَ طريقَ الكُفرِ والباطلِ فَبِخِذلانِهِ ضلَّ، وزاغَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أخبَرَ أنَّ مَنْ أضلَّهُ اللهُ فلا هاديَ لهُ، على ما قالَ في المَعيشةِ والرِّزقِ؛ قالَ ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] وقالَ ﷻ: في الضَّرّاءِ والخيرِ حينَ[2] قالَ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] ذكَرَ في الضَّلالِ والهُدى ما ذكَرَ في الرِّزقِ والضُّرِّ والخيرِ.

ذكَرَ[3] أنَّ للهِ في فِعلِهِمْ وصُنعِهِمْ تدبيراً، ليسَ على ما تقولُهُ المُعتزِلةُ: أنْ لا تدبيرَ للهِ في ذلكَ، وأنَّ مَنِ اهتَدى فإنما يَهتدي بنفسِهِ، ومَنْ ضلَّ، وزاغَ فإنما ذلكَ بنفسِهِ، لا تدبيرَ للهِ في ذلكَ فالآيةُ تَنقُضُ قولَهُمْ ومذهبَهُمْ.

وقَتادةُ يقولُ في قولِهِ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وإنما يَذكُرُ اللهُ أهلَ الإيمانِ، فكانَتْ تَقشَعِرُّ بذلكَ جلودُهُمْ، وتبكي أعيُنُهُمْ، وتَطمَئِنُّ قلوبُهُمْ، ولا تَذهَبُ عقولُهُمْ منهُ.

وأمّا أنْ تَصرَّعَ أحدَهِمْ، فلم يكنْ، وكانَ هذا في أصحابِ البدعِ، ورُبَّما هو مِنَ الشيطانِ.

ولَعَمري ما كانَ في هذهِ الأمةِ أحدٌ أعلَمَ مِنْ نَبيِّهِ ﷺ ومِنْ بَعدِهِ أصحابُهُ الذينَ انْتَخَبَهُمُ اللهُ ﷻ لِصُحبةِ النبيِّ ﷺ وأصحابُ أصحابِهِ، فَحَدَّثوا أنَّ هذا إنما كانَ في أهلِ البِدَعِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ذلك.

جنة السنة

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ كأنهُ لم يَذْكُرْ مقابلَ هذا في[1] هذا الموضِعِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ مُقابِلُهُ ما تقدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أفَمَنْ جعَلَ لهُ الغُرَفَ أعلى الغُرَفِ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ كَمَنْ ﴿يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ليسَ هذا كذاكَ، ولا أحَدَ يتَّقي بوجْهِهِ سوءَ العذابِ. لكنْ يُخرَّجُ ذلكَ على وجوهٍ:

أحَدُها: كنايةٌ عنِ الشُّفعاءِ وأهلِ النَّصْرِ كأنهُ يقولُ: لا يكونُ [لهُ][2] مَنْ يَشفَعُ، أو يَملِكُ دَفعَ العذابِ عنهُ[3].

[والثاني: أنْ][4] تكونَ أيديهِمْ مَغلولةً إلى أعناقِهِمْ، فلا يَدَ لهُ يَتَّقي[5] بها سوءَ العذابِ عنْ وجهِهِ، لأنَّ في الشاهِدِ مَنْ أصابَ شيئاً مِنَ العذابِ [يتَّقي ذلكَ العذابَ][6] عنْ وجهِهِ بِيَدِهِ، فَيُخبِرُ أنْ لا يَدَ لهُ في الآخِرةِ، يتَّقي العذابَ بها عنْ وجهِهِ، بل يُصيبُ العذابُ وجهَهُ، فكأنهُ[7] يتَّقي بهِ.

[والثالثُ][8]: أنْ يكونَ ذِكْرُ الوجهِ كِنايةً عنْ نفسِهِ، وهو ما ذكَرْنا: ألّا يكونَ لهُ مَنْ يَملِكُ[9] دَفْعَ العذابِ عنهُ.

[والرابعُ][10]: أنْ يكونَ ذِكْرُ الوجهِ كِنايةً عنْ قلبِهِ لِئلّا[11] يَصِلَ وَجَعُ ذلكَ العذابِ إلى قلبِهِ، ولا يملكُ دفعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي ذوقوا جزاءَ ما كُنتُمْ تكسِبونَ. [ويَحتَمِلُ][12] ذوقوا ما اختَرْتُمْ مِنَ الكَسْبِ، وهذا بما اختَرْتُمْ، لأنهُ قد بَيَّنَ لهمُ الكَسْبَينِ جميعاً، وما يكونُ لكلِّ كَسْبٍ في العاقبةِ، فاختاروا همُ الكَسْبَ الذي كانَ عاقِبَتُهُ[13] الذي أصابَهُمْ، فكأنهمُ اختاروا ذلكَ الذي حَلَّ بهمْ باختيارِهِمْ ذلكَ الكَسْبَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لِيُخوِّفَهُمْ، ويُحذِّرَهُمْ بما[14] نَزَلَ بالمُتقدِّمينَ بتكذيبِ الرسلِ ﷺ والعِنادِ وحَذَّرَهُمْ[15] رسولُ اللهِ ﷺ بالبعثِ وما يَحُلُّ[16] بهمْ يومَ القيامةِ بذلكَ.

فإذا لم يُصدِّقوهُ في ما يُحذِّرُهُمْ بيومِ[17] القيامةِ حذَّرَهُمْ بالذي انتَهى إليهمُ الخَبَرُ، يعني [خَبَرَ المتقدمينَ مِنْ][18] رسولِ اللهِ ﷺ لِيَحْذَروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي مِنْ حيثُ لا يأمَنونَ العذابَ الذي ينزلُ بهِمْ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ العذابُ الذي نَزَلَ بهِمْ في الدنيا ليسَ هو عذابَ الكُفرِ، إنما هو عذابُ العِنادِ[19] والتَّعَنُّتِ وأفعالٍ فَعَلوها في حالِ الكُفرِ.

[فأمّا عذابُ الكُفرِ][20] فهو في الآخِرةِ أبَدَ الآبِدينَ خالدينَ مُخلَّدينَ فيهِ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أي بَيَّنّا للناسِ في هذا القرآنِ مِنْ كلِّ ما يَحتاجونَ إليهِ مِنْ أمرِ دينِهِمْ ودُنياهُمْ؛ أخبَرَهُمْ مالَهُمْ وما عليهِمْ [وما][21] لبعضِهِمْ على بعضٍ وأمثالَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: لكي يُلزِمَهُمُ التَّذكُّرَ والاتِّعاظَ.

---

(١) في الأصل وم: إن. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: عنهم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، في الأصل: ليتقي. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في م: فكأنما. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: أن. (١٢) في الأصل وم: أو يقول. (١٣) في الأصل وم: عاقبة. (١٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: بعد ما حذرهم. (١٦) في الأصل وم: حل. (١٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) من م، في الأصل: الكفر. (٢٠) ساقطة من الأصل وم. (٢١) في الأصل وم: أو.

والثاني: /٤٦٩ ـ أ/ لكي يُبَلِّغَهُمْ ما يَتَذَكَّرونَ، ويَتَّعِظونَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي جَعَلْناهُ قُرآناً عربياً كقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] لكي يَفْقَهوهُ، ويَعْرِفوهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ الآية [إبراهيم: ٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنهُ لا يُخالِفُ الكُتُبَ السالفةَ، بل يُوافِقُها، لأنَّ كُتُبَ اللهِ جاءَتْ كلُّها على الدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ وربوبيَّتِهِ. فكذلكَ القرآنُ، فهو لا يُخالِفُ سائرَ الكتبِ، بل يُوافِقُها.

والثاني: لا عِوَجَ فيهِ لِما لا يُخالِفُ بعضُهُ[(١)] بعضاً، ولا يُناقِضُ، بل خَرَجَ كلُّهُ مُوافِقاً بعضُهُ بعضاً[(٢)] مُسْتقيماً على تَباعُدِ نُزولِهِ في الأوقاتِ، وباللهِ التوفيقُ.

وأصلُ[(٣)]: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي ليسَ بمائلٍ ولا زائغٍ عنِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المَهالِكَ أو سُخْطَ اللهِ ونِقْمتَهُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي لا يَسْتَوِيانِ. يُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ المَثَلِ لِرَجُلَيْنِ [هو مَثَلٌ للبَشَرِ كلِّهِ المُسْلِمينَ والكافرينَ][(٤)].

ثم يَحْتَمِلُ الرجلُ الذي فيهِ شركاءُ مُتَشاكِسونَ، أي يَتَشاكَسونَ في نَسَبِهِ؛ أو يَتَشاكَسونَ في المُلْكِ فيهِ؛ يقولُ كلٌّ هو لي، أو في المُلْكِ في قومٍ[(٥)] يَدَّعي كلٌّ أنَّ المُلْكَ لهُ فيهِمْ.

ولا يَثْبُتُ لِواحدٍ منهمُ المُلْكُ الذي يَدَّعي لِيَطْلُبَ هذا منهُ النَّفَقةَ، وما يَجِبُ على ذي المُلْكِ مِنْ حقوقِ المُلْكِ، فَيَبْقَى ضائعاً مُتَحَيِّراً [وكذلكَ لا يَثْبُتُ لأحدٍ فيهمُ المُلْكُ لِقيامِ التَّنازُعِ بينَهُمْ، فَيَبْقَوْنَ مُتَحَيِّرينَ ضائعينَ لِعَدَمِ مَنْ لا يَسوسُهُمْ، ويقومُ بأمورِهِمْ][(٦)].

وإنْ كانَ المُلْكُ لرجلٍ واحدٍ أوِ النَّسَبُ سالماً لهُ يَصِلُ إلى كلِّ [ماهو][(٧)] حقٌّ لهُ، ويكونُ محفوظاً في نفسِهِ معروفاً، فيكونُ مَثَلُ الذي فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ، هو الذي يَعْبُدُ الشيطانَ أوِ الأصنامَ أو هَوَى النفسِ؛ يَدْعوهُ كلُّ شيطانٍ إلى غيرِ الذي دَعاهُ[(٨)] الآخرُ، وكذا الهَوَى يَدْعو صاحبَهُ مَرَّةً إلى كذا ومَرَّةً إلى غيرِ ذلكَ. فهو كالذي فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ، يَدْعيهِ[(٩)] هذا وهذا [فَيَبْقَى مُتَحَيِّراً][(١٠)].

والذي يَعْبُدُ اللهَ الحقَّ الذي تَثْبُتُ ألوهيَّتُهُ بالحُجَجِ والآياتِ كالرجلِ السالمِ الواحِدِ: يكونُ أبداً على حالةٍ واحدةٍ مطيعاً لهُ خالصاً لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي هل يَسْتَوي الرجلُ الذي يَدَّعي فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ والرجلُ الذي يكونُ لرجلٍ واحدٍ في ما ذَكَرْنا، أي هل يَسْتَوِيانِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾: مَنْ يَعْبُدُ آلهةً شَتَّى مُخْتَلِفَةً، والذي يَعْبُدُ ربّاً واحداً، وهو المؤمِنُ، وقد رَأَوا [أنهما قدِ اسْتَوَيا في][(١١)] هذهِ الدنيا، وفي الحكمةِ التفريقُ بينَهما، وفيهِ دلالةُ البعثِ. وكذلكَ [قالوا][(١٢)] في قولِهِ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ [هود: ٢٤] وقدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا.

دلَّ أنَّ هناكَ داراً أُخرى يُفَرَّقُ بينَهم[(١٣)]، إذْ في الحكمةِ والعقلِ التفريقُ بَيْنَهُمْ[(١٤)]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بعضها. (٢) في الأصل وم: بعضه. (٣) في الأصل وم: وأصله. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: من البشر كله المسلمون والكافرون. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه أو. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: دعا. (٩) في الأصل وم: يدعي. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أنهم قد استووا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) و(١٤) في الأصل وم: بينها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذِكْرُ الحَمْدِ على إِثْرِ ذلكَ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: [أمَرَهُمْ أنْ يَحْمَدوا ربَّهُمْ][1] على ما خَصَّهُمْ بالتوحيدِ مِنْ بينِ[2] الكفارِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيدَ ربِّهِمْ.

والثاني: أمَرَهُ أنْ يَحْمَدَ ربَّهُ على [ما][3] جَعَلَهُ سالِماً خالِصاً لَمْ[4] يَجْعَلْ ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي مُخْتَلِطونَ يَتنازَعونَ، ويَتَناجَونَ، و: رجلاً سالِماً[5]: أي خالِصاً. ومَنْ قَرَأ: ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أرادَ سَلِمَ إليهِ، فهو سَلْمٌ [وسِلْمٌ][6].

ثم قولُهُ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] يَحْتَمِلُ الأنبياءَ منهم والخواصَّ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ جميعَ المؤمنينَ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: تَقْشَعِرُّ منهُ جلودُ الذينَ يؤمنونَ بربِّهِمْ، ثم تَطْمَئِنُّ جلودُهُمْ وقلوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: ثم تَلِينُ[7] جلودُهُمْ وقلوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ليسَ الضالُّ الذي يَتَّقي النارَ بوجْهِهِ كالمُهْتَدي الذي لا تَصِلُ النارُ إلى وجْهِهِ، لَيسا بِسَواءٍ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٣٠ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وجهُ ذِكْرِ هذا على إِثْرِ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ وقدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا: مَنْ أخْلَصَ نفسَهُ ودينَهُ للهِ ولِلرَّسولِ ومَنْ جَعَلَ فيهِ [في دينِهِ][9] شُرَكاءَ، ولم يُسَلِّمْ نفسَهُ لهُ، وهو الكافرُ، ثم تموتُ أنتَ، ويَموتونَ. فلو لم تَكُنْ دارٌ أُخْرى، يُمَيِّزُ فيها، ويُفَرِّقُ بينَ الذي جَعَلَ نفسَهُ سالماً للهِ خالِصاً وبَينَ مَنْ لم يَفْعَلْ ذلكَ، لكانَ في ذلكَ اسْتِواءٌ بينَ مَنْ ذَكَرَ. وفي الحكمةِ أنْ لا اسْتِواءَ بَينَهُما. [ويموتُ المُسْلِمُ][10] نفسَهُ للهِ، ويموتُ الآخَرُ.

دلَّ أنَّ في ذلكَ بَعْثاً، يُثابُ هذا، ويُعاقَبُ الآخَرُ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرَ][11] هذا لِما كانوا يَتَشاءَمونَ برسولِ اللهِ ﷺ ويَتَطَيَّرونَ، في ما يُصيبُهُمْ مِنَ المَصائِبِ والشدائِدِ حتى قالَ ﷺ: ﴿أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي لا يَخْلُدونَ. فَعلَى ذلكَ يقولُ ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أيضاً أي لا يَبْقَونَ هُمْ بَعْدَ مَوتِكَ أبداً، ولكنهُمْ يموتونَ.

ولو كانَ ما يُصيبُهُمْ، بل [يُصيبُكَ][12] أنتَ على ما يَزْعُمونَ لأخبَرَ[13] ألا يُصيبَهُمْ بَعدَ موتِكَ. هذا [لا][14] يُحْتَمَلُ، واللهُ أعلَمُ. [ويَحْتَمِلُ][15] أنْ يقولَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ فَتَصِلُ إلى ما وَعَدَكَ[16] مِنَ الكراماتِ والثوابِ، ويموتونَ هُمْ، فَيَصِلونَ إلى ما أُوعِدوا مِنَ المواعيدِ والعُقوباتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ ثم قولُهُ ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ورُوِيَ عنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][17] قالَ: كُنَّا لا نَعْلَمُ ما تَفْسيرُ هذهِ الآيةِ؟ وكُنَّا نَقولُ: مَنْ يُخاصِمُ؟ فلمَّا وقَعَتِ الفتنةُ بَينَ أصحابِ رسولِ اللهِ حتى كَفَحَ بعضُنا وُجوهَ بعضٍ بالسيوفِ، فَعَرَفْتُ أنها نَزَلَتْ فينا.

وذُكِرَ عنِ ابْنِ الزُّبَيرِ [أنهُ][18] لمَّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ قالَ: «يا رسولَ اللهِ أَتُكَرَّرُ علينا الخصومةُ بعدَ الذي كانَ بَينَنا في الدنيا؟ فقالَ: نعمْ، فقالَ: إنَّ الأمرَ إذنْ لَشديدٌ» [الترمذي٣٢٣٦].

---

(١) في الأصل وم: أن يحمد ربه. (٢) أدرج بعدها في الأصل: أي هذا كهذا وأن يكون مقابله ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: بل. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/١٦. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ينيب. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقد يموتون السالم. (١١) في الأصل وم: أو أن يذكر. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيخبر. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أو. (١٦) في الأصل وم: وعد ذلك. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ورُوِيَ عنْ بعضِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ، لمَّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ أنهمْ قالوا: كيفَ نَخْتَصِمُ، ونحنُ إخوانٌ؟ فلما قُتِلَ عثمانُ ظُلْماً وعُدْواناً عَلِموا أنها لهمْ وفيهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم خُصومَتُهُمْ هذهِ يومَ القيامةِ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: في المَظالِمِ في الحقوقِ التي كانتْ لبعضٍ [على بعضٍ. والثاني:][1] في الدينِ أو في الدينِ أو في أمرِ الدينِ.

[ويَحتَمِلُ][2] أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ لمّا بلَغَتِ المُحاجَّةُ غايَتَها في الدينِ والدنيا، ولم تَنجَعْ فيهِمْ، ولا قَبِلوها، أخبَرَ أنهمْ يَختَصِمونَ في ذلكَ يومَ القيامةِ في الوقتِ الذي يُعايِنونَ العذابَ. والعربُ تقولُ: ماتَ يَماتُ، فهو مائتٌ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ يقولُ: لا ظُلْمَ أعظَمُ، ولا أفحَشُ مِمّا[3] يُكَذِّبُ على مَنْ يَتَقَلَّبُ في إحسانِهِ، ويَتَصَرَّفُ في نَعمائِهِ، وأنتمْ مُتَقَلِّبونَ في نِعَمِ اللهِ وأنواعِ إحسانِهِ. فلا ظُلْمَ [أعظَمُ][4] ولا أفحَشُ/ ٤٦٩ - ب/ مِنْ تكذيبِ خبَرِهِ وردِّهِ؛ إذ لا خبَرَ أصدَقُ مِنْ خبَرِهِ، ولا حديثَ أحقُّ مِنْ حديثِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ كأنهُ يقولُ: [أليسَتْ جهنَّمُ كافيةً][5] للكافرينَ مَثْوىً كقولِهِ ﷻ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ [المجادلة: ٨] أي حَسْبُهُمْ جهنَّمُ عقوبةً لهمْ بِكُفْرِهِمْ وتكذيبِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ اختلَفَ أهلُ التأويلِ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ جبرائيلُ ﵇ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ محمدٌ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ محمدٌ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أبو بكرٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ محمدٌ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أصحابُهُ جميعاً.

قُلْنا: أهلُ التأويلِ على اختلافِهِمْ اتَّفَقوا أنَّ الذي جاءَ بهِ جبرائيلُ أو محمدٌ ﷺ هو التوحيدُ.

فإنْ كانَ التأويلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ، وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المُوَحِّدينَ المؤمنينَ، ففيهِ نَقْضُ قولِ الخوارجِ والمعتزلةِ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ، ليسَ بمؤمنٍ، وإنهُ يُخَلَّدُ في النارِ، لأنهُ قالَ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ وكلُّ مُرتَكِبِ الكبيرةِ مُصَدِّقٌ بالذي جاءَ بهِ جبرائيلُ ومحمدٌ ﷺ.

ثم أخبَرَ أنهمْ ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي اتَّقَوُا الشِّرْكَ، وقالَ لأولئكَ أيضاً: إنهُ يُكَفِّرُ عنهمْ ما ارْتَكَبوا مِنَ المَساوِئِ، وهو قولُهُ: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾.

دَلَّ أنَّ لهمْ مساوِئَ، ثم إنْ شاءَ عَذَّبَ على تلكَ المَساوِئِ وقتاً، ثم أعطاهُمْ ما وَعَدَ. وإنْ شاءَ عفا عنهمْ، وتجاوَزَ، وأعطاهُمْ ما ذَكَرَ. فكيفَ ما كانَ فلَهُمْ ما ذَكَرَ، إذْ هُمْ على تَصديقٍ بما جاءَ محمدٌ ﷺ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: صَدَّقَ بقلبِهِ؛ أي جاءَ بالقولِ وتَصديقِ القلبِ.

والثاني: صَدَّقَ بهِ في المُعامَلةِ في اختيارِ كلِّ ما يَصْلُحُ [واجتِنابِ كلِّ ما][6] لا يُوافِقُ الذي جاءَ بهِ.

وعلى ذلكَ ذُكِرَ عنِ الحسَنِ [أنهُ][7] قالَ: يا ابنَ آدمَ: قُلْتَ: لا إلهَ إلّا اللهُ، فَصَدِّقْها.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو أشَدُّ، لكنهُ، وإنْ لم يُعامِلِ المعاملةَ [التي توافِقُ][8] الذي جاءَ بهِ، وهو التوحيدُ، ولم يَجتَنِبْ ما ذَكَرْنا، فإنَّ لهُ ما ذَكَرَ: إمّا بَعدَ التَّعذيبِ[9] وإمّا بَعْدَ العَفْوِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: إن، في م: على بعض أن. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أليس جهنم كاف. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: التوحيد.

جنة السنة

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دلَّ هذا أنَّ ذلكَ الوَعْدَ للجماعةِ، ليسَ لِوَاحِدٍ ولا لاثْنَينِ، وهو لِجميعِ المؤمنينَ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ذَكَرَ نوعَينِ مِنَ العَمَلِ السَّيِّئَ والحَسَنَ. ثم أخبَرَ أنهُ يُكَفِّرُ ﴿عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فَيَحْتَمِلُ الأحْسَنُ الحَسَناتِ أنفسَها: يَجْزيها، ويُكَفِّرُ السَّيِّئاتِ.

[ويَحْتَمِلُ أي يُكَفِّرُ السَّيِّئاتِ أسْوَأَها وأعظمَها، ويَجْزي بأحْسَنِ الحسناتِ وأعْظَمِها.

فَعَلَى هذا: أحْسَنُ وأسْوَأُ مِنْ نوعِها: أحْسَنُ الحسناتِ وأسْوَأُ السَّيِّئاتِ][1].

وعلى الأوَّلِ مِنْ غيرِ نوعِها، أي يُكَفِّرُ السَّيِّئاتِ، ويَجْزي بالحسناتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وعبادَهُ أيضاً. الآيةُ يُحْتَجُّ بها على إثباتِ الرسالةِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ١٢٩] وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ونَحْوُ ذلكَ، وأمثالُهُ كثيرةٌ وكانَ يَقْرَعُ أسماعَهُمْ بهذهِ[2] الآياتِ التي ذَكَرْنا وغيرِ ذلكَ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] ثم لم يَقْدِروا على إهلاكِهِ، بل عَصَمَهُ اللهُ مِنْ كَيدِهِمْ ومَكْرِهِمْ على ما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فَبَلَّغَ إليهِمْ ما أُمِرَ تَبْليغَهُ مِنْ غَيرِ أنْ قَدَرُوا على ما قَصَدوا بهِ. وفي ذلكَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ عظيمٌ ودلالةٌ على إثباتِ الرسالةِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وإنْ خُرِّجَ مُخْرَجَ الاستِفْهامِ في الظاهرِ، فهو في الحقيقةِ على الإيجابِ والتقريرِ لأنهمْ كانوا يَعْلَمونَ أنَّ اللهَ ﷻ هو الكافي لِخَلْقِهِ.

مِنْ ذلكَ أنهمْ إذا سُئِلوا مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ؟ قالوا: اللهُ تعالى، وإذا سُئِلوا مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟ قالوا: اللهُ، ومَنْ أنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً؟ ومَنْ أخرَجَ مِنَ الأرضِ النباتَ؟ قالوا اللهُ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ هو الكافي جميعَ خَلْقِهِ في الدَّفْعِ والذَّبِّ عنهمْ والنَّصْرِ لهمْ. فإذا عَرَفْتُمْ ذلكَ فكيفَ تُخَوِّفونَ رسولَ اللهِ بالذي تُخَوِّفونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: بأهلِ الأرضِ جميعاً؛ يقولونَ لهُ: إنَّ العربَ يَفْعَلونَ[3] بكَ كذا، ويَعْمَلونَ بكَ كذا، يُخَوِّفونَهُ بهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانوا يُخَوِّفونَهُ بالأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها أنْ يُصيبَهُ سوءٌ وأذىً مِنْ ناحيَتِها كقولِهِ ﷻ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] وكانَ هذا أشْبَهَ بالآيةِ [التي][4] ذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ، وعَقَّبَهُ بالأصنامِ حينَ[5] قالَ ﷻ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨] هذا يدلُّ أنَّ ما ذَكَرَ مِنْ تَخْويفِهِمْ إيَّاهُ إنما كانَ بالأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أخبَرَ أنهُ إذا أرادَ هِدايةَ أحدِكُمْ لم يَمْلِكْ أحدٌ إضلالَهُ، وإذا أرادَ إضلالَ أحدٍ لم يَقْدِرْ أحدٌ على هِدايتِهِ؛ ذَكَرَ في الدينِ أنْ لا أحدَ يَمْلِكُ دَفْعَ مَنْ أرادَ مِنْ هَدْيٍ أو إضلالٍ، ولا مَنَعَهُ عَنْ ذلكَ على ما ذَكَرَ في الرِّزْقِ وأسبابِ العيشِ، وعلى ما ذَكَرَ في الأنفسِ وحِفْظِها أنْ لا أحَدَ يَمْلِكُ دفْعَ ما أرادَ هو. فَعَلَى ذلكَ في الدينِ لأنَّ الذِّكْرَ خَرَجَ في الكلِّ على مَخْرَجٍ واحدٍ.

وذلكَ على المعتزلةِ لِقَولِهِمْ: إنَّ اللهَ تعالى قد أرادَ هِدايةَ كلِّ أحدٍ ونَصْرَ كلِّ وليٍّ، لكنْ غَيرُهُ مَنَعَهُ عن ذلكَ، فهو وَحْشٌ مِنَ القولِ سَمِجٌ، وباللهِ العِصْمَةُ والنجاةُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الباء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يفعل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ هو على الإيجابِ والتقريرِ، أي يَعْلَمونَ أنهُ عزيزٌ ذو انْتِقامٍ، أي عزيزٌ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ذو انْتِقامٍ لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ قد عَلِموا أنْ لا خالقَ سِواهُ، وعَرَفوا أنهُ لا يَمْلِكُ أحدٌ سِواهُ كَشْفَ ما أرادَ هو مِنَ الضَّرِ ولا إمساكَ ما أرادَ هو مِنَ الضَّرِ ولا إمساكَ ما أرادَ مِنَ الرحمةِ بأحدٍ. ولِذلكَ فَزِعوا إليهِ عندَ نزولِ البلاءِ بهِمْ، ولم يَفْزَعوا [إلى][1] مَنْ عَبَدوهُمْ مِنْ دونِهِ مِنَ الأصنامِ ولا إلى أحدٍ مِنَ الخلائقِ[2].

دلَّ ذلكَ على أنهمْ قد عَرَفوا أنَّ ذلكَ بهِ يُنالُ مِنْ خيرٍ أو غيرِهِ. ولِذلكَ فَزِعوا إليهِ عندَ نزولِ البلاءِ بهِمْ، ولم يَفْزَعوا [إليهم. ولِذلكَ احْتَجَّ][3] عليهِمْ بما احْتَجَّ، ولو لم يكونوا عَلِموا بذلكَ لم يكن لِيَحْتَجَّ عليهِمْ بذلكَ، وهمْ بذلكَ مُنْكِرونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في قولِهِ ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ ما ذَكَرْنا مِنَ اللطفِ / ٤٧٠ ـ أ/ والدلالةِ على إثباتِ الرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: على الإياسِ منهُمْ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ، ولا يُجيبونَ إلى ما دُعُوا إليهِ بعدَ ما أُقيمَ عليهِمُ الحُجَجُ والبراهينُ. كأنهُ يقولُ: أنيبوا أنتمْ إلى دينِكُمْ، واعْمَلوا لهُ، ونُنيبُ نحنُ إلى دينِنا، ونَعْمَلُ لهُ، فسوفَ تَعْلَمونَ أنَّنا على الحَقِّ نحنُ أو أنتمْ، وهو كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] أي لا أدينُ أنا بدينِكُمْ، ولا أنتمْ تدينونَ بِدينِنا، ولكنْ يَلْزَمُ كلٌّ منّا دينَهُ الذي عليهِ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

والثاني: على التوبيخِ لهمْ والتَّعْييرِ؛ يقولُ: اعْمَلوا على مكانتِكُمْ أنتمْ مما تَقْدِرونَ مِنَ الكيدِ والمَكْرِ لي، وأنا عاملٌ ذلكَ بمكانَتِكُمْ كقولِهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ توبيخِهِمْ وتَعْييرِهِمْ، وفي هذهِ الآيةِ وفي ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ ﷺ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦] واللهُ أعلَمُ.

إلى هذا المَوضِعِ تقريرٌ وتوبيخٌ ومُنابَزَةٌ وإياسٌ. فأمّا الإياسُ فهو لي في قولِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ والتقريرُ في قولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ والمُنابَزَةُ في قولِهِ: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ والتوبيخُ في قولِهِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يُخَرَّجُ على الصلةِ لِقولِهِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ كأنهُ يقولُ: مَنْ أضلَّ اللهُ حتى لا يَعْلَمَ أنَّ اللهَ، هو كافي عبدِهِ، وأنَّ ما يُخَوِّفونَ بهِ لا[4] يَقَعُ بهِ خوفٌ، ولا يَلْحَقُ بهِ ضَرَرٌ، فلا هادِيَ لهُ، ومَنْ هداهُ، فَعَرَفَ ذلكَ، فلا مُضِلَّ لهُ عنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ العذابُ الذي يأتيهِ، هو عذابٌ في الدنيا مِنْ نَحْوِ القَتْلِ والتعذيبِ بالذي أُهْلِكَ الأوَّلونَ المُعانِدونَ للرسولِ ﴿يُخْزِيهِ﴾ أي يَفْضَحُهُ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في الآخِرَةِ، وهو عذابُ الكُفْرِ. وإلى ذلكَ ذهبَ بعضُ أهلِ التأويلِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ كلُّهُ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا كأنهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لِتَحْكُمَ بينَ الناسِ بالعَدْلِ على ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١٠٥] فَعَلى ذلكَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الخالقين. (٣) في الأصل: إليه، في م: احتج. (٤) في الأصل وم: ولا.

جنة السنة

هذا، ويكونُ قولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أنشأ اللهُ ﷻ البَشَرَ دَرّاكاً مُمَيِّزاً بينَ الخبيثِ والطَّيِّبِ وبَينَ الحَسَنِ والقَبيحِ وبَينَ ما لهمْ وما عليهمْ وبينَ السبيلَينِ جميعاً غايةَ البيانِ، وأوضحَ كلَّ سَبيلٍ نِهايةَ الإيضاحِ أنهُ[1] مَنْ سَلَكَهُ إلى ماذا يُفضِيهِ، ويُنهِيهِ.

ثم امْتَحنَهُمْ في ذلكَ، ومَكَّنَ لهمْ مِنَ السلوكِ في كلِّ أحدٍ مِنَ السَّبيلَينِ بعدَ البَيانِ منهُ أنهُ مَنْ سَلَكَ سبيلَ كذا، ومَنْ سَلَكَ سَبيلَ كذا أفضاهُ إلى كذا امْتِحاناً منهُ.

ثم أخْبَرَ أنهُ في ما امْتَحنَهُمْ [لم يَمْتَحِنْهُمْ][2] لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إليهِ أو لِمَضَرَّةٍ تَدْفَعُ عنْ نفسِهِ. ولكنْ إنما امْتَحنَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إليهِمْ إذا اخْتاروا تَرْكَ سُلوكِ سَبيلِ الباطلِ، وهو ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيةٍ[3] مِنَ القرآنِ:

أحدُها: هذا [في ما][4] قالَ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

والثاني: بما قالَ ﷻ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي تُبيِّنُ أنهُ إنما امْتَحنَهُمْ لِمَنْفَعَةِ أنفُسِهِمْ واكْتِسابِ الخَيرِ الدائمِ لهمْ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ يُخْبِرُ أنْ ليسَ عليكَ إلّا تبليغُ ما أُرْسِلْتَ، وأُمِرْتَ تَبليغَهُ إليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقولِهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقولِهِ تعالى: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] والوكيلُ الحفيظُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ. قالَ ابْنُ عباسٍ: كلُّ نفسٍ لها سببٌ تَجري فيهِ؛ فالتي قَضَى عليها الموتَ [في مَنامِها يُمسِكُها، فَيَنْقَطِعُ السببُ، ويُرسِلُ التي لم يَقْضِ الموتَ عليها، فَتَجري في السببِ حتى][5] تَجْرِيَ في الجَسَدِ كلِّهِ. لكنْ لم يُفهَمْ ممّا ذَكَرَ ابنُ عباسٍ تأويلُ الآيةِ.

وعنْ سعيدِ بْنِ جُبيرٍ [أنهُ][6] قالَ: يُجمَعُ بَينَ أرواحِ الأحياءِ وبينَ أرواحِ الأمواتِ، فيَتعارَفُ منها ما شاءَ اللهُ أنْ يَتعارَفَ، فيُمسِكُ التي قَضَى عليها الموتَ، ويرسِلُ الأخرى إلى أجسادِها. وبهذا أيضاً لم يُفهَمْ شيءٌ مِنْ تأويلِ الآيةِ.

وقالَ الكَلبيُّ: النائمُ مُتوفًّى حينَ يَرُدُّ اللهُ إليهِ [نفسَهُ][7] فأمّا التي يَتَوَفّاها حينَ موتِها فإنهُ يَقْبِضُ الرُّوحَ والنفسَ جميعاً، ويرسلُ التي يَتَوَفّاها في مَنامِها حتى تُبلُغَ أجلَها المُسمّى، وهو الموتُ، ويُقالُ: إنما يَقْبِضُ اللهُ مِنَ النائمِ النفسَ، والروحُ في الجَسَدِ لم تُفارِقْهُ. فإذا قَبَضَ اللهُ الروحَ ذَهَبَتِ النفسُ مع الروحِ. وهذا الذي ذَكَرَ الكَلبيُّ أقْرَبُ إلى تأويلِ الآيةِ مِنَ الذي ذَكَرَ أولئكَ.

وأصلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ جعلَ في الأجسادِ أنفُساً وأرواحاً؛ تَحْيَى الأجسادُ في حالِ نومِها على الهَيْئَةِ التي كانَتْ مِنْ قبلُ، ليسَ بها أثرُ الموتِ، لكنها لا تُدْرِكُ شَيْئاً، ولا تَسْمَعُ، ولا تُبصِرُ، ولا تَعْقِلُ شَيْئاً، وبها آثارُ الحياةِ. يَدُلُّنا هذا على أنها في حالِ النومِ قد ذَهَبَ منها، وخَرَجَ ما بهِ تُدرَكُ الأشياءُ، وبَقِيَ منها [مابهِ][8] تَحْيَى، وهو الرُّوحُ. فإذا خَرَجَ الرُّوحُ منها، وإنْ كانَتْ لا تُدْرِكُ شيئاً على الهيئةِ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ، دلَّ ذلكَ على أنَّ الذي بهِ تُدرَكُ الأشياءُ غيرُ الذي بهِ يُحْيَى، واللهُ أعلَمُ.

ألا تَرَى أنَّ تلكَ الأنفسَ الدَّرّاكةَ تَبقَى في حالِ النومِ، حيثُ كانَتْ، تَتألَّمُ، وتَتَلَذَّذُ، وتَقْضي الشَّهَواتِ، وهي في أقْصَى الدنيا؟ هذا يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم على هذا جائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ عذابِ القبرِ أنهُ إنما يكونُ على تلكَ الأنفسِ الدَّرّاكةِ لا على الرُّوحِ على ما ذَكَرْنا مِنْ تألُّمِها بعدَ خروجِها مِنَ الأجسادِ ومُفارَقَتِها عنها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرجت في الأصل وم: بعد سلكه. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فتجري. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ثم أضاف في هذهِ الآيةِ التَّوفِّيَ إلى اللهِ، وفي آيةٍ أُخرى أضافَهُ إلى الرسلِ حينَ[1] قالَ اللهُ ﷻ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ الآية [الأنعام: ٦١] وأضافَهُ مرّةً إلى مَلَكِ الموتِ حينَ قالَ ﷻ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

ثم يَحتَمِلُ إضافةُ التَّوفِّي [إلى][2] الرسلِ وإلى مَلَكِ الموتِ وجهَينِ:

أحَدُهُما: وإنْ كانَتْ حقيقةُ التَّوفِّي والموتِ باللهِ لِما يَخلُقُ فِعلَ قَبْضِهِمُ الروحَ منها، ويُشْبِهُ ذلكَ منهمْ، وهو كما ذَكَرَ مِنَ البُشْرى لهمْ وطمأنينةِ القلوبِ عندَ بعثِهِ إليهِمُ الملائكةُ بالإعانةِ لهمْ والنَّصرِ حينَ[3] قالَ ﷻ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] أخبَرَ أنهُ جعَلَ لهمْ بَعْثَ الملائكةِ بِشارةَ النَّصرِ، وأنَّ حقيقةَ النَّصرِ ليسَتْ إلّا مِنْ عندِ اللهِ.

فعَلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ إضافةِ التَّوفِّي إلى الرسلِ لِما يَخلُقُ فِعلَ قَبْضِهِمِ الرُّوحَ، وكانَتْ حقيقةُ ذلكَ للهِ ﷻ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني[4]: البِشارةُ أنْ تكونَ مِنَ اللهِ لُطفٌ في ذلكَ ومَعنًى، لا يكونُ ذلكَ منهمْ. لكنهُ لم يُبَيِّنْ ما ذلكَ اللُّطفُ؟ وما ذلكَ المَعنَى يكونُ منهُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي حينَ خلَقَ موتَها بِقَبْضِ الروحِ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ لم تُقبَضْ منها الروحُ، يُرسِلُ إليها النفسَ الدَّرّاكةَ إلى الأجلِ الذي جُعِلَ لها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ جائزٌ /٤٧٠ - ب/ أنْ يكونَ مِنَ القَبْضِ أي لِقَبْضِ الأنفسِ. وجائزٌ أنْ يكونَ مِنَ العَدِّ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ العِبَرَ أوِ الأعلامَ أوِ الحُجَجَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويَعلَمونَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على استِخراجِ تلكَ الأنفسِ الدَّرّاكةِ مِنَ الأجسادِ وإبقائِها على الهيئةِ التي كانَتْ إلى الوقتِ، لا تُدرِكُ شيئاً، ثم رَدِّها إليها وإعادتِها إلى ما كانَتْ، قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، أو مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ النفسِ الدَّرّاكةِ في الأجسادِ [حتى تدرِكَ بها، لا يَحتَمِلُ أنْ يَعجِزَ عنْ [إعادتِها إلى][5] الأجسادِ][6] بعدَ ما بَلِيَتْ، وفَنِيَتْ.

وذاكَ اللطفُ مِنْ هذا أكبَرُ، لأنَّ الناسَ قد يَتكلّفونَ تصويرَ صُوَرِ الأنفسِ ظاهِرةً، ولا أحَدَ يَتكلّفُ تصويرَ نفسٍ دَرّاكةٍ مِنْ غيرِها واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ على ما ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ في غيرِ موضعٍ أنَّ حرفَ الاستِفهامِ والشَّكِّ إذا أُضيفَ إلى اللهِ ﷻ فهو على الإيجابِ والإلزامِ.

ثم قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ هُمُ الملائكةُ الذينَ عَبَدُوهمْ[7].

لكنهُ بعيدٌ، لأنهُ قالَ [في إثرِ ذلكَ][8]: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ والملائكةُ أهلُ العقلِ والعِلْمِ، وإنهمْ يَملِكونَ ذلكَ [إذ جعَلَهُ لهمْ، ومَلَكوهُ][9]. لكنَّ الآيةَ في الأصنامِ التي كانوا يَعبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ على رَجاءِ أنْ تَشفَعَ لهمْ، وتُقرِّبَ عبادتُهمْ إياها إلى اللهِ زُلفى فهي[10] أشبَهُ بالأصنامِ التي كانوا يَعبُدونَها مِنَ الملائكةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: بلِ اتَّخذوا بعبادةِ مَنْ عَبَدوا مِنْ دونِ اللهِ شُفَعاءَ لأنفسِهِمْ، ولا يكونونَ شُفَعاءَ لهمْ، ولا يَملِكونَ ذلكَ، ولا يَعقِلونَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في م: إعادة. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: عبدوها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: إذا جعل لهم وملكوا. (١٠) في الأصل وم: فهو.

والثاني: بلِ اتَّخذوا لأنفسِهِم مِنْ دونِ اللهِ شُفَعاء، ولا يَمْلِكُ أحدٌ جَعْلَ الشفاعةِ لأحدٍ دونَ اللهِ إلّا مَنْ جَعَلَ اللهُ لهُ الشفاعةَ. ولا يَجْعَلُ اللهُ لأحدٍ الشفاعةَ إلّا مَنْ كانَ لهُ عندَ اللهِ عهدٌ أو مَنِ ارْتَضَى لهُ الشفاعةَ [كقولِهِ][1]: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧] وقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] يدلُّ على هذا قولُهُ حينَ[2] قالَ: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

الآية ٤٤ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا: هو المالكُ الشفاعةَ جميعاً، لا يَمْلِكُها[4] أحدٌ سِواهُ إلّا مَنْ جَعَلَ اللهُ لهُ الشفاعةَ، وارْتَضاها[5] لهُ.

فأمّا أنْ يَمْلِكَ أحدٌ سِواهُ اتّخاذَ الشفاعةِ لنفسِهِ أو جَعْلَ الشفاعةِ لأحدٍ[6] فلا، واللهُ المُوفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في البعثِ أو تُرْجَعونَ في ما أعَدَّ اللهُ لهم، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إذا ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ توحيدَ اللهِ في القرآنِ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي نَفَرَتْ كقولِهِ ﷻ في بني إسرائيلَ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] وإذا ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ الذينَ عَبَدوا مِنْ دونِهِ الآلهةَ كقولِهِ في سورةِ النجمِ حينَ[7] قالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ و٢٠] ﴿أَلْقَى الشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] في فِيهِ: تلكَ الغرانيقُ العُلا، [وإنَّ شفاعتَها][8] لتُرْجَى. ففرِحَ الكفارُ حينَ سَمِعوا أنَّ لها شفاعةً. إلى هذا يذهبُ مُقاتِلٌ وغيرُهُ.

لكنهُ ليسَ كذا، وغيرُ هذا كأنهُ أولَى بهِ وأقربُ؛ وهو أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي إذا ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ توحيدَ اللهِ وألوهيّتَهُ، أو ذَكَرَ هذا أهلُ التوحيدِ، ونَفَوا[9] الألوهيّةَ مِمَّنْ عَبَدوا دونَهُ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي نَفَرَتْ، وأنكَرَتْ كقولِهِم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ وإذا ذَكَرَ أهلُ الكُفرِ الذينَ عَبَدوا مِنْ دونِهِ عبادتَهُم إيّاها وخَلْوَتَهُم بها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويَفْرَحونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ قالَ بعضُهُم: أبْغَضَتْ، ونَفَرَتْ.

وقالَ القُتَبيُّ وأبو عَوسَجَةَ ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ أنكَرَتْ، وذُعِرَتْ. ويُقالُ في الكلامِ: مالي أراكَ مُشْمَئِزًّا؟ أي مَذْعوراً، ويُقالُ: اشْمَأَزَّ المكانُ، أي بَعُدَ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ استكبَرَتْ، وكفَرَتْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ: مُبْدِئ، ويَحْتَمِلُ: مُبْدِعَ أو خالقَ السمواتِ والأرضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾ ما أشْهَدَ الخَلْقَ بعضَهُم على بعضٍ، هو عالِمٌ ذلكَ كلَّهُ. والغيبُ ما غابَ عنِ الخَلْقِ كلِّهِم، والشهادةُ ما شَهِدَهُ الخَلْقُ.

[ويَحْتَمِلُ][10] أنْ يكونَ قولُهُ ﴿عَٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾ أي عالِمٌ ما يكونُ أنهُ يكونُ، والشهادةُ ما قد كانَ يَعلمُ ذلكَ كلَّهُ، يعلمُ ما يكونُ أنهُ يكونُ، وما كانَ يَعْلَمُهُ كائناً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في هذهِ الدنيا، فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يملك. (٥) في الأصل وم: وارتضى.
(٦) في الأصل وم: لنفسه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: منها الشفاعة. (٩) في الأصل وم: وهذا. (١٠) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

أحَدُها: ما جَعَلَ اللهُ مِنَ الكتبِ والرسلِ، وبَيَّنَ لهمْ ما فيها مالهمْ وما عليهمْ.

ثم إنْ كانَ في الآخِرَةِ فجائزٌ ألّا يكونَ يحكُمُ بيننا في ما وَسَّعَ علينا الحُكْمَ في الأمرِ في الدنيا، وتَرْتَفِعُ المِحْنَةُ بهِ في الآخِرَةِ مِنْ نَحْوِ الأحكامِ التي سَبيلُ مَعْرِفَتِها الاجتِهادُ. ولا يَحْكُمُ بذلكَ بَيْنَنا بشيءٍ مِنْ ذلكَ.

وإذا كانَ غيرَ مُوَسَّعٍ علينا في الدنيا تَرَكَ ذلكَ، وهو ممّا لا تَرْتَفِعُ المِحْنَةُ بهِ في الدارَيْنِ جميعاً مِنْ نَحْوِ التوحيدِ والدينِ، فذلكَ يَحْكُمُ بَيْنَنا في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، يَذْكُرُ لرسولِهِ ﷺ لِيُصَبِّرَهُ على أذاهُمْ إيّاهُ، وألّا[1] يُشْفِقَ عليهِمْ بما يَنْزِلُ بهمْ في الآخِرَةِ لأنهُ أخبَرَ عن عظيمِ ما يَنْزِلُ بهمْ مِنَ العذابِ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] يُخْبِرُ عن سوءِ مُعامَلَتِهِمْ ربَّهُمْ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ يُؤذونَ رسولَهُ ﷺ وأنَّ ذلكَ يَشْتَدُّ عليهِ، ويَشُقُّ، لِيَنْظُرَ أنهمْ كيفَ عامَلوا ربَّهُمْ مِنْ سُوءِ المُعامَلَةِ لِيُصَبِّرَهُ[2] على سوءِ معاملتِهِمْ إيّاهُ، ويَتْرُكَ[3] الرَّحْمَةَ والشفَقَةَ عليهِمْ بما يَنْزِلُ بهمْ في الآخِرَةِ مِنْ سوءِ العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: بَدا لهمْ مِنَ اللهِ مِنْ شهادةِ الجَوارِحِ عليهِمْ والنُّطْقِ ما لم يكونوا يَحْتَسِبونَ ذلكَ.

ولكنْ غيرُ هذا كأنهُ أقربُ؛ بَدا لهمْ مِنَ الهوانِ والعذابِ لهمْ في الآخِرَةِ ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وهو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنهمْ كانوا يقولونَ: حينَ[4] فَضَّلَنا اللهُ في هذهِ الدنيا بِفُضُولِ الأموالِ / ٤٧١ ـ أ/ والكرامةِ، فَعَلى[5] ذلكَ نكونُ في الآخِرَةِ مُفَضَّلينَ عليهِمْ كما كنّا في الدنيا. ولِذلكَ قالوا: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وقالوا[6]: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] ونَحْوَهُ. فَبَدا لهمْ، وظَهَرَ في الآخِرَةِ ما لم يكونوا يَحْتَسِبونَ ما ذَكَرْنا مِنَ الهوانِ لهمْ والعذابِ.

والثاني: كانوا يُنْكِرونَ رسالةَ نَبِيِّنا ﷺ ويقولونَ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقالوا: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ الآية [ص: ٨] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الكلامِ كقولِهِمْ أيضاً: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] لا يَرَوْنَ الرسالةَ تُوضَعُ إلّا في العظيمِ مِنْ أمْرِ الدنيا، فأخبَرَ أنهُ يُبْدي لهمْ ما [لم][7] يكونوا يَحْتَسِبونَ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما][8]: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظَهَرَ لهمْ جميعُ ما صَنَعوا في الدنيا في الآخِرَةِ حتى حَفِظوها، وذَكَروا ذلكَ كلَّهُ.

والثاني: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ما حَسِبوا حَسَناتٍ سيّئاتٍ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][9] أنْ يكونَ ذلكَ في الجزاءِ، أي بَدا لهمْ، وظَهَرَ، جَزاءُ ما كَسَبوا. يَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ كلَّ إنسانٍ [لأنهُ لا كلُّ إنسانٍ يكونُ كما][10] وَصَفَ ﷻ [ولكنْ أُريدَ بهِ][11] إنسانٌ دونَ إنسانٍ، ولا يَجِبُ أنْ يُشارَ إلى واحدٍ أنهُ فلانٌ.

---

(١) في الأصل وم: وأن. (٢) من م، في الأصل وم: ليصبرهم. (٣) في الأصل وم: ولا يترك. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: فعل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولكنه.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ مَسِّ الضُّرِّ بهِ، لا يُشارُ إلى ضُرٍّ [دونَ ضُرٍّ][1] ولكنْ ما أعلَمَ اللهُ ﷻ رسولَهُ ﷺ أنهُ ماذا؟ لأنَّ ذلكَ يُخرِجُ مُخرَجَ الشهادةِ على اللهِ ﷻ والامتِناعُ عنِ[2] الإشارةِ إليهِ والتَّسميةِ لهُ أسلَمُ.

ثم كانَتْ عادةُ أولئكَ الكفَرةِ، لَعَنَهُمُ اللهُ، عندَ نزولِ البَلاءِ بهِمْ والشِّدَّةِ الفَزَعَ إلى اللهِ ﷻ وإخلاصَ الدُّعاءِ لهُ. فَبَعْدَ الكَشْفِ عنهمْ ذلكَ والرَّفعِ العَوْدُ إلى ما كانوا مِنْ قَبْلُ على ما ذَكَرَهُمْ في غَيرِ آيةٍ[3] مِنَ القرآنِ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي أعطيناهُ نِعْمَةً، أو مَلَّكْناهُ نِعْمَةً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: أي][4] على حِيلةٍ مني أعطيتُ ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ﴾ شَرَفٍ ومَنْزِلةٍ عَلِمَهُ اللهُ مني. وقالَ قَتادةُ: على خَيرٍ عَلِمَهُ اللهُ عندي. وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﵁: إنما آتانيهِ اللهُ على عِلْمٍ. وقالَ بعضُهُمْ ما ذَكَرْنا ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ وشرفٍ أعطيتُ ذلكَ.

قالَ اللهُ ﷻ رَدًّا بقولِهِ: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ والفِتْنةُ المِحْنةُ التي فيها شِدَّةٌ، أي بل هي محنةٌ، فيها شِدَّةٌ وبلاءٌ. والمِحْنةُ مِنَ اللهِ بأمْرٍ ونَهْيٍ، أي فيها أمرٌ ونَهْيٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها لم تُعْطَ لِفَضْلٍ وشَرَفٍ لهُ أو حِيلةٍ منهُ، ولكنْ[5] لأمْرٍ ونَهْيٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هي[6] ما قالَ هذا الرجلُ حينَ[7] قالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ كانَ مِنْ قارونَ حينَ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

ولم تَزَلِ العادةُ مِنَ الكَفَرةِ والرؤساءِ منهمْ وأهلِ الثَّرْوَةِ [أنْ يقولوا مِثْلَ][8] هذا الكلامِ والقولِ، وهو ما أخْبَرَ عنْ قومٍ حينَ قالوا: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] و ما قالَ أهلُ مكةَ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وغيرَ ذلكَ مِنْ أمثالِ هذا، لم يَزالوا قائلينَ[9] هذا.

ثم أخبَرَ أنَّ ذلكَ لم يُغْنِهِمْ حينَ[10] قالَ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ما قالُوا: [إنما أُوتيناهُ لِكرامةٍ وفَضْلٍ لنا عندَ اللهِ.

والثاني: ما قالُوا:][11] إنما أُوتينا[12] هذا بِحِيَلٍ مِنْ عندِنا واكْتِسابٍ.

أخْبَرَ أنَّ ذلكَ لم يُغْنِهِمْ عنْ دفعِ عذابِ اللهِ ﷻ [إذا نَزَلَ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ ﷻ][13]: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ يَتَوَعَّدُ أهلَ مكةَ، ويُخَوِّفُهُمْ أنهُ يَنْزِلُ بهِمْ، ويُصيبُهُمْ بِكَسْبِهِمُ الذي يَكْسِبونَ كما نَزَلَ بأولئكَ الأوائلِ بِمِثْلِ كَسْبِهِمْ وصَنيعِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ما هُمْ بِمُعْجِزينَ عمّا [يُريدُ بهِمْ][14] مِنَ الانْتِقامِ منهمْ والتعذيبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لا لِكرامةٍ وفَضْلٍ عندَ اللهِ ولا لِحَقٍّ قِبَلَهُ، ويُضَيِّقُ على مَنْ يَشاءُ، لا لِهوانٍ لهُ عندَهُ ولا لِجِنايةٍ، ولكنِ امْتِحاناً لهمْ بِمُخْتَلَفِ الأحوالِ؛ يَمْتَحِنُ هذا بالسَّعَةِ لِيَسْتأديَ منهُ الشُّكْرَ، ويُضَيِّقُ على هذا، يطلُبُ منهُ الصَّبْرَ على ذلكَ، أو يَمْتَحِنُ بعضَهُمْ بالسَّعَةِ وبعضَهُمْ بالشِّدَّةِ والضِّيقِ لِيَعْلَموا أنَّ ذلكَ كلَّهُ في يَدِ غَيرِهِمْ لا في أيديهِمْ؛ إذ يَمْتَحِنُهُمْ [بِمُخْتَلِفِ][15] الأحوالِ لِيكونوا أبداً فَزِعينَ إلى اللهِ في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ.

ولو كانَتِ السَّعَةُ والنِّعْمَةُ لِكرامةٍ عندَ اللهِ وفَضْلٍ على ما ظَنَّ أولئكَ لكانَ لا يُحْتَمَلُ ذلكَ بِمُخْتَلَفِ[16] المذهبِ الذي يُناقِضُ بعضُهُ بعضاً، ويُضادُّ بعضُهُ بعضاً، نَحْوَ المُسْلِمِ والكافِرِ، وقد وَسَّعَ على المُسْلِمِ، ووَسَّعَ على الكافرِ، وقد ضَيَّقَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: على. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: ولكنه. (٦) في الأصل وم: غير. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: قائلون بمثل. (٩) في الأصل وم: قائلون. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: أوتيناه. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: يزيدهم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: مختلفى.

جنة السنة

عليهما جميعاً، يَدلُّ أنَّ التوسيعَ [ليس](١) لِلكَرامةِ والمَنزِلَةِ عندَ اللهِ أو لِحَقٍّ عليهِ، ولا التَّضْييقُ والتَّقْتيرُ لِهوانٍ؛ إذ لو كانَ لذلكَ لَكانَ لا يَجْمَعُ بَينَ مُتضادَّي المَذْهَبِ ومُتَناسِبَيهما(٢) فإذا جَمَعَ دَلَّ أنهُ [جَمَعَ](٣) لِمَعْنَى الامْتِحانِ لا لِما ظَنَّ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في ما ذَكَرَ مِنَ التَّوسيعِ والبَسْطِ والتَّضْييقِ والتَّقْتيرِ ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ أي لَعِبرَةً وعِظَةً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يؤمنونَ أنه لم يُوَسِّعْ لِكرامتِهِ عندَ اللهِ ومنزلتِهِ وفضلِهِ، ولا ضَيَّقَ على مَنْ ضَيَّقَ لِهَوانٍ لهُ عندَهُ ولا جِنايَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في شأنِ الوَحْشِيِّ [الذي](٤) قَتَلَ حَمْزَةَ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ في الجاهليةِ؛ إنهُ أرادَ أنْ يُسْلِمَ(٥)، فَذَكَرَ ما كانَ منهُ مِنْ [قَتْلِهِ حَمْزَةَ](٦) ﷺ فظَنَّ أنهُ لا يُقْبَلُ منهُ لِعِظَمِ جِنايَتِهِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ على رسولِ اللهِ ﷺ لِيُنَبِّئَهُ، ويُخْبِرَهُ(٧) أنهُ لا يُقْبَلُ منهُ بَعْدَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ ناساً قد أصابوا ذنوباً عِظاماً في الجاهليةِ مِنْ نَحْوِ القتلِ والزِّنى وكبائرَ، فأشفقوا ألّا يُتابَ عليهِمْ، فأنزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ يَدْعوهُمْ إلى التوبةِ والإسلامِ، وأطْمَعَ لهمُ القَبولَ منهمْ والتَّجاوُزَ عمّا كانَ منهمْ، وهو كأنهُ أشْبَهُ وأَولَى، لأنَّ الوَحْشِيَّ مَنْ كانَ حتى يُنْزِلَ اللهُ الآيةَ بِشأنِهِ خاصّةً؟

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [يَحتَمِلُ وجهينِ:

أحدُهُما: كأنهُ يقولُ يا عبادي الذينَ جَنَوا على أنفسِهِمْ لا تقنطوا مِنْ رحمةِ اللهِ](٨) فإنَّ قُنوطَكُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وإياسَكُمْ منهُ [أنهُ](٩) لا يَغْفِرُ، ولا يَتَجاوَزُ، وذلكَ أعظَمُ وأقْطَعُ إذا رَجَعَ أحدُهُما إلى نفسِهِ والآخَرُ إلى رحمةِ اللهِ وفَضْلِهِ.

والثاني: يقولُ: إنكمْ، وإنْ أسْرَفْتُمْ في ما ارْتَكَبْتُمْ مِنَ الكبائرِ والفواحشِ، وأعْرَضْتُمْ عنْ أمْرِ اللهِ، فلا تَقْنَطوا مِنْ رحمةِ اللهِ بَعْدَ إذْ تُبْتُمْ عمّا كُنْتُمْ فيهِ، ورَجَعْتُمْ عمّا كانَ منكُمْ في الوقتِ الذي [كانَتْ أنفسُكُمْ في أيديكُمْ يُقْبَلُ ذلكَ منكُمْ، ويُتَجاوَزُ. فأمّا في الوقتِ الذي](١٠) خَرَجَتْ أنفسُكُمْ من أيديكُمْ، فلا يُقْبَلُ ذلكَ منكُمْ، وهو وَقْتُ نزولِ العذابِ [بِكُمْ وإشرافِهِ عليكمْ](١١) لأنَّ التوبةَ في ذلكَ الوقتِ توبةُ اضطرارٍ وتوبةُ دَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِكُمْ كقولِهِ ﷻ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤].

ثم أخبَرَ أنهُ لا يَنْفَعُهُمُ الإيمانُ في ذلكَ الوقتِ الذي خَرَجَتْ أنفسُهُمْ مِنْ أيديهِمْ حينَ(١٢) قالَ ﷻ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لِمَنْ يَشاءُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وذُكِرَ عنْ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ، كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ، أنهُ قالَ: أرْجَى آيةٍ في القرآنِ هذهِ الآيةُ، وذَكَرَ أنَّ سورةَ الزمرِ كلَّها نَزَلَتْ بمكةَ إلّا هذهِ الآيةَ فإنها / ٤٧١ ـ ب/ نَزَلَتْ بالمدينةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ الآيةَ كأنها صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ بَعْدَ إذْ أقْبَلْتُمْ إلى قَبولِ ما دُعيتُمْ إليهِ، ورَجَعْتُمْ عمّا كانَ منكُمْ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أنيبوا بقلوبِكُمْ إلى طاعةِ ربِّكُمْ، وأخلِصوا لهُ تلكَ الطاعةَ، ولا تُشْرِكوا فيها غيرَهُ. وقيلَ: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارْجِعوا إلى ما أمَرَكُمْ ربُّكُمْ ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أي أخْلِصوا لهُ التوحيدَ، أو(١٣) يقولُ: اجْعَلوا كلَّ شيءٍ منكُمْ لهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ومختلفهما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: الوحشي. (٦) في الأصل: قتل، في م: قتله. (٧) في الأصل وم: وأخبر. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بهم وإشرافه عليهم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: وأن.

جنة السنة

وأصلُ الإنابةِ، هو الرجوعُ إلى طاعةِ اللهِ والنُّزوعُ عمّا كانَ عليهِ الإراءةُ؛ يقولُ ﷻ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ الآية [الروم: ٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، على الصلةِ بالأوّلِ أنْ أنيبوا لهُ، وأسلِموا لهُ مِن قبلِ أنْ يأتيَكُمُ العذابُ، فلا تُقبَلُ منكُمُ الإنابةُ والتوبةُ إذا أقبلَ عليكُمُ العذابُ.

[وقولُهُ تعالى][1]: [﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحدُهما: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بإنابتِكُمْ إلى اللهِ ﷻ في ذلكَ الوقتِ الذي أقبلَ عليكُمُ العذابُ][2] على ما ذَكَرْنا أي لا تُجابونَ في[3] ذلكَ الوقتِ.

والثاني: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بعبادةِ مَنْ عَبَدْتُموهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ على رَجاءِ أنْ يَشْفَعَ لكُمْ، ويَرْفَعَ عنكُمُ العذابَ، أي أنيبوا إلى عِبادةِ اللهِ الحقِّ قَبْلَ نزولِ العذابِ بكُمْ، فإنكمْ إنْ كُنْتُمْ على عِبادةِ مَنْ تَعْبُدونَ دونَهُ لا تُنْصَرونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: كأنهُ يقولُ: اتَّبِعوا ما أمَرَكُمْ ربُّكُمْ، وانتَهوا عمّا نَهاكُمْ ربُّكُمْ عنهُ.

والثاني: اتَّبِعوا مافي القرآنِ، وأحِلّوا حَلالَهُ، وحَرِّموا حرامَهُ، واجْتَنِبوهُ؛ يقولُ: اعْمَلوا بها، وبادِروا في العملِ بهِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾.

والثالثُ: أنَّ اللهَ ﷻ قد بَيَّنَ السَّبيلَينِ جميعاً الخيرَ والشَّرَّ على الإبلاغِ، فيقولُ: اتَّبِعوا سَبيلَ الخيرِ منهُ، ولا تتَّبِعوا سَبيلَ الشَّرِّ. فيكونُ تأويلُ هذا كأنهُ يقولُ: اتَّبِعوا الحَسَنَ منهُ، ولا تتَّبِعوا غيرَهُ ونَحْوَ ذلكَ، وقد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ كأنهُ موصولٌ بالأوّلِ؛ يقولُ: لا تُؤَخِّروا الإنابةَ إليهِ والتوبةَ فإنَّ العذابَ لَعَلَّهُ سيَنْزِلُ بكُمْ في وقتٍ لا تَشْعُرونَ أنتمْ بهِ، ولا تَقْدِرونَ أنْ تَرْجِعوا إليهِ، وتُنيبوا، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٥٦ و٥٧ و٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كانَ كلُّ ذلكَ صِلَةَ ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ﴾ أنْ يقولَ ما ذَكَرَ في وقتٍ لا يَنْفَعُهُ ذلكَ القولُ، ولا يُغْنيهِ مِنْ عذابِ اللهِ، ولا يَدْفَعُهُ.

ثم قولُهُ: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: في ذاتِ اللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: ما فَرَّطْتُ، وضَيَّعْتُ مِنْ أمرِ اللهِ، وأمثالَ ذلكَ.

ولَسْنا نَحْتاجُ إلى تفسيرِ قولِ ذلكَ الرجلِ الذي كانَ منهُ حتى قالَ ذلكَ، وهو تَضْييعُ توحيدِ اللهِ أو تَضْييعُ حَدِّ اللهِ، أو كانَ منهُ مِنْ تكذيبِ البَعْثِ؛ يَتَأَسَّفُ على ما كانَ منهُ مِنْ تَضْييعِ ما ذَكَرْنا مِنْ توحيدِ اللهِ وحُدودِهِ أو كفرانِ نِعَمِهِ أو إنكارِهِ ما ذَكَرْنا مِنَ البَعْثِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ مِنَ القرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ أهلِ توحيدِ اللهِ.

قالَ قَتادةُ: لم يَكْتَفِ أنْ ضَيَّعَ طاعةَ اللهِ حتى جَعَلَ يَسْخَرُ مِنْ أهلِ طاعتِهِ، وقالَ: هذا قولٌ ضعيفٌ منهمْ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ إلى آخِرِهِ قولٌ ضعيفٌ منهمْ. جائزٌ ما قالَ: إنَّ كلَّ قولٍ مِنْ ذلكَ قولٌ ضعيفٌ على ما قالَ قَتادةُ. وجائزٌ أنْ يكونَ كلُّ ذلكَ مِنْ كلِّ كافرٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: من. (٤) و(٥) في الأصل وم: وقيل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ذلكَ الكافرُ الذي قالَ هذا القولَ أعرَفُ بهدايةِ اللهِ مِنَ المعتزلةِ. وكذلكَ ما قالَ أولئكَ الكفَرةُ لأتباعِهِم حينَ[1] ﴿قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] يقولونَ: لو وَفَّقَنا اللهُ لِلْهِدايةِ، وأعطانا الهُدَى لَدَعَوناكُم إليهِ. ولكنْ حينَ[2] عَلِمَ مِنّا اختيارَ الضَّلالِ والغَوايةِ وتَرْكَ الرَّغبةِ إلى الهُدَى والاستِخْفافَ بِهِ أضَلَّنا، وخَذَلَنا، ولم يُوَفِّقْنا.

والمعتزلةُ يقولونَ: بل هداهُمُ اللهُ، وأعطاهُمُ التوفيقَ، لكنهمْ لم يَهْتَدُوا.

فإنْ قيلَ: هذا قولُ أهلِ الكُفرِ، فلا دلالةَ فيهِ لِما يَذْكُرونَ، قيلَ: وإنْ كانَ ذلكَ قولَ الكَفَرةِ، فذلكَ القولُ منهمْ عندَ مُعايَنَةِ العذابِ. فلو كانَ على خِلافِ ما ذَكَروا لكانَ اللهُ يُكَذِّبُهُمْ في ذلكَ كما كَذَّبَهُمْ في أشياءَ حينَ[3] قالوا: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

والأصلُ في الهدايةِ أنَّ عندَ اللهِ لُطفاً[4]، مَنْ أعطى ذلكَ لاهتَدَى، وهو التوفيقُ والعِصمةُ، ومَنْ حَرَمَ ذلكَ، ولم يُعْطِهِ ضَلَّ، وغَوَى، ويكونُ استَوْجَبَ[5] العذابَ وما ذَكَرَ لِتَرْكِهِ الرغبةَ في ذلكَ والاستِخْفافِ بهِ وتَضْييعِهِ واشْتِغالِهِ بِضِدِّهِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الشِّرْكَ أو المَهالِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي رجوعاً ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قيلَ: مِنَ المُوَحِّدينَ، ويَحْتَمِلُ كلَّ إحسانٍ وطاعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقد كَذَّبَهُ اللهُ ﷻ في قولِهِ هذا حينَ[6] قالَ ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ثم [كَذَّبَهُ في قولِهِ][7] ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وفي قولِهِ[8]: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [حينَ[9]]

الآية ٥٩ قالَ ﷻ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ وبَيَّنْتُ لكَ الهِدايةَ مِنَ الغِوايةِ وسبيلَ الحقِّ مِنَ الباطلِ والخيرَ مِنَ الشَّرِّ والكَذِبَ مِنَ الصِّدقِ، ومَكَّنْتُكَ[10] مِنِ اختيارِ الهِدايةِ على الغَوايةِ [ومكَّنتُ لكُم][11] اختيارَ الحَقِّ على الباطلِ والصِّدقِ على الكذبِ، لكنْ تركتُمْ ذلكَ، وضَيَّعْتُمْ، واستَخْفَفْتُمْ بهِ، واشتَغَلْتُمْ بِضِدِّ ذلكَ. فإنما جاءَ ذلكَ التَّضْييعُ مِنْ قِبَلِكُمْ لا مِنْ قِبَلِ اللهِ [واللهُ][12] ﷻ قد أتَى بالحُجَجِ والآياتِ والبَيانِ في ذلكَ غايةَ ما يَجِبُ أنْ تَرَى ما لم يكُنْ لأحدٍ عُذْرٌ في الجهلِ في ذلكَ والتَّرْكِ [لهُ][13]، واللهُ أعلَمُ.

وأكثَرُ القرآنِ على التذكيرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ إلى آخِرِهِ على إرادةِ [الإنسانِ][14] ومُخاطَبَتِهِ. وقد يُقرأُ بالتأنيثِ على إرادةِ النفسِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها والخَبَرُ عنها.

ويُرْوَى في ذلكَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ قرَأَ بالتأنيثِ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكِ ءَايَٰتِى﴾» [أبو داوود ٣٩٩٠] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ كَذِبُهُمْ على اللهِ تعالى يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: في التوحيدِ حينَ[15] قالوا بالوَلَدِ والشُّركاءِ.

[والثاني][16]: ما قالَ ﷻ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وكانَ اللهُ تعالى لم يَأْمُرْهُمْ بذلكَ، فكَذَبوا على اللهِ ﷻ أنهُ أمَرَهُمْ بذلكَ / ٤٧٢ ـ أ/.

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: وقيل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: لطف. (٥) في الأصل وم: استجاب. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: كذبهم في قولهم. (٨) في الأصل وم: قولهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: ومكنت. (١١) في الأصل وم: ومكن لهم. (١٢) و(١٣) و(١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: ويحتمل.

[والثالث][١]: ما قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] [وقالوا][٢]: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

[والرابعُ][٣]: أنْ يكونَ كَذِبُهُمْ على اللهِ هو إنكارَهُمُ البَعثَ وقولَهُمْ: إنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ على البَعْثِ والإحياءِ بَعدَ الموتِ، ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والمعتزلةُ يقولونَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ هم المُجْبِرَةُ؛ فَيَجيءُ أنْ يكونوا هم أقْرَبَ في كونِهِمْ في وعيدِ هذهِ الآيةِ مِنَ المَجْبِرَةِ، لأنهم يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يأمُرُ أحداً بشيءٍ إلّا بَعدَ أنْ أعطَى جميعَ ما يَعْمَلُ، ويُقْتَضى بِهِ، حتى لا يَبْقَى عندَهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

[يقولُ المعتزليُّ ذلكَ، ثم يسألُ][٤] رَبَّهُ المَعونَةَ والعِصْمَةَ. فهو بالسؤالِ كاتمٌ لِما أعطاهُ، وهو كُفرانُ النِّعْمَةِ، لأنهُ يَسْألُ ما قد أعطاهُ رَبُّهُ، أو يكونُ هازئاً بهِ، لأنهُ يَسألُ على قولِهِمْ ما ذَكَرْنا مِنْ مذهَبِهِمْ، وكلُّ مَنْ يَسْألُ، يَعْلَمُ أنْ ليسَ عندَهُ ذلكَ، ولا يَمْلِكُ ذلكَ، فهو يَهْزَأُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ على رسولِ اللهِ ﷺ والمُتَكَبِّرُ، هو الذي لا يَرَى لنفسِهِ نظيراً ولا شَكْلاً. ولذلكَ يُوصَفُ اللهُ ﷻ بالكبرياءِ، لأنهُ، لا نَظيرَ لهُ، ولا شَكْلَ، ولا يَجوزُ لِغَيرِهِ، لأنَّ غَيرَهُ ذو[٥] أشكالٍ وأمثالٍ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وحَفْصَةَ ﵄ على ما فَرَّطْتُ في ذِكْرِ اللهِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﵁ أيضاً في قولِهِ: بَلَى قد جاءَتْهُ آياتُنا مِنْ قَبْلُ، فَكَذَّبَ، واسْتَكْبَرَ، وكانَ مِنَ الكافرينَ.

والمَثْوَى المُقامُ [قالَ اللهُ تعالى][٦]: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص:٤٥] أي[٧] مُقيماً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ كأنهُ يقولُ ﷻ: لو رأيتَهُمْ[٨] يا محمدُ يومَ القيامةِ لَرَحِمْتَهُمْ، وأشْفَقْتَ عليهِمْ [بما هُمْ فيهِ][٩] وما نَزَلَ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ و﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ: ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ أي بالأعمالِ والأسبابِ التي فازوا بها على أشكالِهِمْ.

[والثاني: ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ أي فازوا بها على المَهالِكِ][١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ قولُهُ ﷻ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ بَعدَ المَفازَةِ والنجاةِ، وإلّا قَبلَ ذلكَ قد يَمَسُّهُمُ السوءُ، وهُمْ[١١] يَحْزَنونَ.

وهو على الجَهْمِيَّةِ وعلى أبي الهُذَيلِ العَلّافِ إمامِ المُعْتَزِلَةِ:

أمّا على الجَهْمِيَّةِ فَلِقولِهِمْ[١٢]: إنَّ الجنةَ تَفْنَى، ويَنْقَطِعُ أهلُها ولَذّاتُها. فإذا كانَ ما ذَكَروا مَسَّهُمُ السوءُ والحُزْنُ.

وعلى قولِ أبي الهُذَيلِ أيضاً كذلكَ فَلأنَّهُ[١٣] يقولُ: إنَّ أهلَ الجاهلِيَّةِ يَصيرونَ بحالٍ حتى إذا أرادَ اللهُ أنْ يَزيدَ لهمْ شيئاً أو لَذَّةً لم يَمْلِكْ ذلكَ. فإنْ كانَ ما ذَكَرَ هو مَسَّهُمُ السوءُ والحُزْنُ أيضاً. فالبَلاءُ على قولِهِ: إنَّ السوءَ والحُزْنَ إنما [هو][١٤] مَسُّ ربِّ العالَمينَ. فَنَعوذُ باللهِ مِنْ مَقالٍ يَعْقُبُ كُفْراً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على إبطالِ قولِ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: ثم قال ذلك ثم سأل. (٥) في الأصل وم: ذا. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: من ذلك. (٨) في الأصل وم: رأيت. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بها هزأ به. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ولا. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل: لا، في م: لأنه. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ هذهِ الآيةُ تنقُضُ على المُعتزِلَةِ قولَهُمْ في[1] وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ قولَهُمْ: إنَّ شَيئِيَّةَ الأشياءِ لم تزَلْ كائنةً، ويقولونَ: إنهُ لم يكُنْ منَ اللهِ إلّا إيجادُها. فإذا كانَ ما ذَكَروا لم يكُنْ هو خالقَ شيءٍ به فضلاً عنْ أنْ يكونَ خالقَ كلِّ شيءٍ على ما ذَكَر، ووصفَ نفسَهُ بِخلْقِ كلِّ شيءٍ، فيكونُ قولُهُمْ في التحقيقِ والتحصيلِ قولَ الدَّهْرِيَّةِ والثَّنَوِيَّةِ، لأنَّ الدَّهْرِيَّةَ يقولونَ بِقِدَمِ الطينةِ والهَيُولَى ونَحْوِهِ، ويُنْكِرونَ كَونَ الشيءِ مِنْ لا شيءٍ، وكذلكَ الثَّنَوِيَّةُ يقولونَ بِقِدَمِ النورِ والظُّلْمَةِ، ثم كونِ كلِّ جِنْسٍ مِنْ جِنْسِهِ وكَونِ كلِّ شيءٍ مِنْ أصلِهِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُ المعتزلةِ: إنَّ المَعْدومَ شيءٌ يَرْجِعُ في التحقيقِ إلى ما ذَكَرْنا مِنْ أقاويلِها.

ثم قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ يُخرَّجُ على ما ذكرَ [منَ][2] الرُّبوبِيَّةِ والألوهِيَّةِ والوَصْفِ لهُ [مُخرَجَ المدحِ][3] لِما ذَكَرْنا أنَّ إضافةَ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ ﷻ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ مَخصوصاً شيئاً دونَ شيءٍ على ما يقولُهُ المعتزلةُ لم يُخرَّجْ مُخرَجَ المَدْحِ لهُ والتعظيمِ. ثم إنهُ لا شَكَّ أنهُ لو لم يكُنْ خالقَ أفعالِ الخَلْقِ لم يكُنْ خالقاً مِنْ عَشَرَةِ ألفِ شيءٍ. فَدَلَّ أنهُ خالقُ الأشياءِ كلِّها: الأفعالِ والأجسامِ والجواهرِ جميعاً.

فإنْ قيلَ: إنكمْ لا تقولونَ: خالقُ الأنجاسِ والأقذارِ والخنازيرِ، ونَحْوَهُ، فإنما يَرْجِعُ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ إلى خُصوصٍ. قيلَ: إنهُ لا يُقالُ، ولا يُوصَفُ بِخلْقِ هذهِ الأشياءِ على التَّقْيِيدِ والتخصيصِ: يا خالقَ الأنجاسِ والأقذارِ وما ذُكِرَ لأنهُ يُخرِّجُ الوَصْفُ لهُ بذلكَ مُخرَجَ التَّهجينِ والذَّمِّ. وكانَ في الجملةِ يُوصَفُ بذلكَ، وتَدْخُلُ الأشياءُ كلُّها في ذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ يُخرَّجُ مُخرَجَ الامتِداحِ والتَّعظيمِ لهُ والوَصْفِ بالرُّبوبِيَّةِ لهُ والألوهِيَّةِ.

ألا تَرَى أنهُ لا يُقالُ على التخصيصِ: إنهُ وكيلٌ، وإنْ كانَ في الجملةِ يُقالُ كما ذَكَرْنا ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾؟ لأنهُ في الجملةِ يُخرَّجُ مُخرَجَ الرُّبوبِيَّةِ لهُ والألُوهِيَّةِ والوصفِ لهُ بالمَدْحِ وعلى التَّخصيصِ والإفرادِ وعلى التَّهجينِ والذَّمِّ. لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ قيلَ: هي المَفاتيحُ، وهي فارِسِيَّةٌ، عُرِّبَتْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ لهُ مفاتيحُ جميعِ البركاتِ والخَيراتِ على أهلِ السمواتِ والأرضِ.

يُخبِرُ أنَّ ذلكَ كلَّهُ بيدِهِ، ليسَ بيدِ أحدٍ سِواهُ، منهُ يُطْلَبُ ذلكَ، ومنهُ يُسْتَفادُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم لم يُفْهَمْ ممّا أُضيفَ إليهِ مِنَ المقاليدِ ما يُفْهَمُ مِنْ مَقاليدِ الخَلْقِ لو أُضيفَ إليهِمْ. فكيفَ فُهِمَ ممّا أُضيفَ إليهِ مِنْ مَجيءٍ أوِ استِواءٍ وغيرِ ذلكَ ما فُهِمَ ممّا أُضيفَ إلى الخَلْقِ؟ واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ كانَ اللهُ ﷻ جَعَلَ هذهِ الدنيا وما فيها لأهلِها، وبَيَّنَ أحوالَهُمْ، يَتَّجِرونَ بها، ويَشْتَرونَ بها الآخِرَةَ، ويَتَزَوَّدونَ لها. ولذلكَ قالَ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقالَ[4] ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النساء: ٧٤]. فَمَنْ يَتَزَوَّدْ، ويَجْعَلْها بُلْغَةً إلى الآخِرَةِ يُسَمَّ خاسراً مَغْبوناً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ دَلَّتْ هذهِ الآيةُ على أنَّ سَفَهَ أولئكَ الكَفَرَةِ قد بَلَغَ غايَتَهُ، وجاوَزَ حَدَّهُ، حتى دَعَوا رسولَ اللهِ ﷺ إلى عِبادةِ مَنْ دونَهُ بَعْدَ ما عَرَفوا فضيلةَ الرسالةِ في البَشَرِ وبَعْثَ البَشَرِ رسولاً.

فلولا ما وَقَعَ عندَهُمْ مِنَ الفضيلةِ للرسولِ والخصوصِيَّةِ لهُ، وإلّا لم يُحْتَمَلْ أنْ يُنْكِروا وَضْعَها في البَشَرِ وبَعْثَ البَشَرِ رسولاً.

---

(١) في الأصل وم: على. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بالمدح. (٤) في الأصل وم: وقوله.

جنة السنة

ثم قد أتاهم رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ البيانِ والحُجَجِ ما قد قرَّرَ[1] عندَهُم آيةَ الرسولِ إليهِمْ.

فَمَعَ ما تقرَّرَ عندَهُمْ ذلكَ دَعَوهُ إلى أنْ يَعْبُدَ غيرَ اللهِ دونَه، فيكونَ لهمْ. فهذا منهمْ تناقُضٌ في القولِ وسَفَهٌ حينَ صيَّروا المُفَضَّلَ والمَخْصُوصَ بالرسالةِ في العِبادةِ مِنْ دونِهِ كَغَيْرِ المُفَضَّلِ والمَخْصُوصِ بها، واللهُ أعلَمُ، لِيُعْلَمَ أنهمْ لِسَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ كانوا يَدْعونَهُ إلى عِبادةِ مَنْ [هو][2] دونَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ سَمَّاهُمْ جَهَلَةً بما أَمَرُوهُ، ودَعَوهُ إلى عِبادةِ غيرِ اللهِ. وكذلكَ قالَ موسى ﷺ / ٤٧٢ ـ ب/ لِقومِهِ حينَ سَألوا موسى أنْ يَجْعَلَ لهمْ إلهاً كما لهمْ آلهةٌ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وجوهاً:

أحدُها: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ في التَّسْوِيَةِ بَيْنَ المُفَضَّلِ والمَخْصُوصِ [بالرسالةِ وبَيْنَ مَنْ لم][3] يُخَصَّ بذلكَ في عِبادةِ غيرِ اللهِ.

[والثاني][4]: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ عَنْ هِدايةِ اللهِ وخُصوصيَّتِهِ.

[والثالثُ][5]: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ عنْ جميعِ نِعَمِهِ وإحسانِهِ حينَ[6] لم يَذْكُرُوهُ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَيْنِ:

أحدُهُما: كأنهُ يقولُ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقيلُ لكلِ رسولٍ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ذَكَرَ هذا لِيُعْلِمَ إنَّ الشِّرْكَ لَيُحْبِطُ العملَ، وإنْ أتى بهِ مَنْ جَلَّ قَدْرُهُ، وعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ عندَهُ.

والثاني: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ﴾ مَنْ كانَ ﴿مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أنتَ ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لِنِعَمِ اللهِ جميعاً][7]

[والثاني][8]: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ للخصوصيَّةِ التي خُصِصْتَ بها.

[والثالثُ][9]: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ للهدايةِ التي هُديتَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ ﵄: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [أي لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضِ][10] قالَ الكِسائيُّ: مقاليدُ فارسِيَّةٌ مُعرَّبَةٌ، وواحدُ المَقاليدِ إقليدٌ.

وقال بَعضُهُمْ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] قالَ: بلى واللهِ لَيَكْفِيَنَّهُ اللهُ، وبِعِزِّهِ ونَصْرِهِ كافٍ عَبْدَهُ. وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ اليهودَ أتَوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا لهُ: إنَّ رَبَّكَ على كذا وكذا، وإنَّ السمواتِ على كذا منهُ، والأرضَ على كذا؛ ذَكَروهُ لهُ، ووَصَفُوهُ كما يُوصَفُ الخَلْقُ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ قيلَ: ما عَرَفوا اللهَ حَقَّ معرفَتِهِ، ولا عَظَّموهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ.

ويَذْكُرُ أهلُ الكلامِ أنَّ اليهودَ مُشَبِّهَةٌ، ولذلكَ قالوا بالوَلَدِ حينَ[11] قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فلو لم يكونوا عَرَفوهُ ما يُعْرَفُ بهِ الخَلْقُ لم يكونوا يقولونَ لهُ بالوَلَدِ كما يقولونَ لِلْخَلْقِ مِنَ الوَلَدِ.

فَدَلَّ ما وَصَفوا لهُ، وذَكَروا لهُ أنهم عَرَفوهُ بِمَعْنَى الخَلْقِ. فتعالى اللهُ عمّا تقولُهُ الملاحدةُ عُلُوّاً كبيراً.

---

(١) في الأصل وم: قدر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: وبين، في م: وبين من لم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: يحتمل، في م: و. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي ما عَرَفوا اللهَ حقَّ مَعرِفَتِهِ، أو ما عَظَموهُ حقَّ عَظَمَتِهِ ما يَحتَمِلُ وُسْعُ الخَلْقِ، وكذلكَ لم يَعرِفوهُ حقَّ مَعرِفَتِهِ التي يَحتَمِلُها[1] وُسعُ البَشرِ بَينَهُم.

فأمّا مَعرِفَتِهِ [أو تَعظيمُهُ[2] حقَّ عظمتِهِ فما[3] وَسِعَ الخَلْقُ، وهو لم يُكلِّفْهُم أنْ يَعرِفوهُ حَقَّ مَعرِفَتِهِ][4] أو يُعَظِّموهُ لأنهُ لا يَحتَمِلُ وُسْعُ الخَلقِ ذلكَ. وإنما كَلَّفَهُم ما احتَمَلَهُ وُسْعُهُم.

فالمُشَبِّهَةُ حينَ[5] وَصَفوهُ كما وَصْفِ الخَلْقِ ومِنْ معانيهِم[6] لم يَعرِفوهُ المَعرِفَةَ التي تَحتَمِلُ وُسْعَ الخَلْقِ وبُنْيَتَهُم، ولا عَظَّموهُ العَظَمَةَ التي تَحتَمِلُ وُسْعَ الخَلْقِ وبِنْيَتَهُم.

ثم إنّ اللهَ، سُبحانَهُ، جَعَلَ سَبَبَ معرفَتِهِ الاستِدلالَ بآثارِ الأفعالِ المَحسوساتِ. فلا تُفهَمُ مَعرِفَتُهُ، ولا تُقدَّرُ بمَعرِفَةِ الخَلْقِ وتَقديرِهِمْ مَعَ ما جَعَلَ اللهُ ﷻ الخَلْقَ على قِسْمَينِ: [قِسْمٍ مِمّا][7] يُحاطُ بهِ، وتُدرَكُ حقيقَتُهُ، وهو المَحسوسُ منهُ والمُدرَكُ، وقِسْمٍ[8] مِمّا يُعرَفُ بآثارِ الأفعالِ والاستِدلالِ بها، وهو غيرُ مَحسوسٍ مِنْ نَحوِ العَقْلِ والبَصَرِ والسَّمْعِ والروحِ وغَيرِ ذلكَ.

فإذا لم يُدرَكْ مِنْ خَلقِهِ، ولم يُحَطْ بهِ مِمّا سَبيلُ الاستِدلالِ بآثارِ الأفعالِ لا بالحِسِّ، فالذي أنشأ ذلكَ، وأبدَعَهُ، أحَقُّ ألّا يُدرَكَ ولا يُحاطَ بمَعرِفَتِهِ ما يُحاطُ، ويُدرَكُ بالمَحسوسِ؛ إذِ المُوصِلُ إلى مَعرِفَةِ الاستِدلالِ بآثارِ الأفعالِ بالمَحسوسِ، واللهُ أعلَمُ.

[وإضافَةُ الأمورِ في وجهَينِ:

أحدُهُما:][9] وكذلكَ ما أضافَ إلى نفسِهِ مِنَ الأحْرُفِ لا يُفْهَمُ منهُ ما لو أُضيفَ ذلكَ إلى الخَلْقِ مِنْ نَحوِ الاستِواءِ والمَجيءِ والإتيانِ ونَحوِ ذلكَ، ولا يُقدَّرُ منهُ ما يُقَدَّرُ مِنَ الخَلْقِ على ما لم يُفهَمْ مِنْ مَجيءِ الحَقِّ و إتيانِهِ ما فُهِمَ مِنْ مَجيءِ الخَلْقِ وإتيانِهِم[10].

فَعَلى ذلكَ لا تُفهَمُ ﴿قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ما يُفهَمُ مِنْ ذلكَ كُلِّهِ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] كلُّ ما ذَكَرَ مِنَ القَبْضَةِ والطَّيِّ واليَمينِ في ذلكَ ﴿كُن﴾ كافٌ ونونٌ أو شيءٌ مِنْ ذلكَ.

لكنهُ ذَكَرَ ﴿كُن﴾ لأنهُ أخفُّ كلامٍ على الألسنِ وأوجَزُ حَرْفٍ يُفهَمُ منهُ المَعنى وتَعَدّيهِ في ما بَينَ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وأصلُهُ أنّ اللهَ ﷻ خاطَبَهُمْ بما تَعارَفوا في ما بَينَهُمْ حقيقةً، وإنْ كانَ ما تَعارَفوا في ما بَينَهُمْ منفيّاً[11] عنِ اللهِ تعالى نَحوَ ما ذَكَرَ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وقولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وقولِهِ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] لِما باليَدِ يُقَدَّمُ، ويُؤَخَّرُ، في الشاهدِ، وإنْ يكُنْ ما ذَكَرَ عَمَلَ اليدِ، وذَكَرَ بَينَ يَدَي ما ذَكَرَ، وإنْ يكُنْ بينَ يَدَيهِ، لِما في الشاهدِ كذلكَ يَتَقَدَّمُ.

فَعَلى ذلكَ ما أضافَ إلى نفسِهِ مِنْ أحرُفٍ كانَتْ تلكَ مَنْفِيَّةً عنهُ، لِما في الشاهدِ بذلكَ يكونُ، واللهُ أعلَمُ.

وأصلُ ذلكَ أنْ قد بُيِّنَتْ بالتنزيلِ على ما ذَكَرَ مِنْ إضافةِ تلكَ الأحرفِ إلى اللهِ، وثَبَتَتْ بدليلِ السمعِ أنْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وفي[12] العقلِ تعاليهِ عنِ الأشباهِ والشركاءِ لَزِمَ القولُ بوقوعِ تلكَ الآياتِ على ما [لا][13] تشابُهَ بهِ يَقَعُ بَينَهُ وبَينَ الخَلْقِ في الفِعْلِ لا [في][14] جهةٍ مِنْ جهاتِ الخَلْقِ؛ إذ هو مُتعالٍ عَنْ جميعِ جهاتِ الخَلْقِ في حَدِّ الإحداثِ والخَلْقِ، فَيَلْزَمُ الإيمانُ بها على ما نَطَقَ بهِ الكتابُ والتَّنزيهُ[15] عنِ التَّشابُهِ، وتَفويضُ المُرادِ إلى مَنْ جاءَ عنه ذلكَ معَ ماتوجَدُ الإضافةُ إلى اللهِ ﷻ مِنْ نَحوِ قولِهِ ﷻ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧] ونَحوِهِ لا يَحتَمِلُ فَهْمَ المضافِ منهُ إلى غَيرِهِ.

(١) في الأصل وم: يحتمله. (٢) في م: عظموا الله. (٣) الفاء ساقطة من م. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: يعاينوه. (٧) في الأصل وم: قسما منها. (٨) في الأصل وم: وقسما. (٩) في الأصل وم: وكذلك. (١٠) في الأصل وم: ولا إتيانهم. (١١) في الأصل وم: منفى. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: واستهى به.

جنة السنة

فكذلكَ ما ذَكَرْنا على إمكانٍ وجوهٍ فيها ينفي مَعْنَى التَّشابُهِ مِنْ ذلكَ ما يُضَمَّنُ فيها مَعانِيَ نَحْوَ قولِهِ ﷻ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ الآيةَ[آل عمران: ١٦٠] [وقولِهِ][1]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] والمَرْجِعُ. [وقولِهِ][2]: ﴿يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥] [وقولِهِ][3]: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وغيرُ[4] ذلكَ مِمّا أُضيفَ إلى اللهِ، ولا مَعْنَى لِتَحقيقِهِ في ذلكَ، فَيُضَمَّنُ في ذلكَ [دِينَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ][5] وغيرَ ذلكَ مِنَ الوجوهِ مِمّا يَطولُ ذِكْرُهُ، ويَكْثُرُ. فَمِثْلُهُ أَمْرُ هذهِ الآياتِ.

والثاني: أنَّ إضافةَ الأمورِ في الشاهدِ إلى الملوكِ وذِكْرِ التَّوَلِّي لهمْ، ليسَ يُخْرَجُ مُخْرَجَ تحقيقٍ كما هو ما جَرَى بهِ الذِّكْرُ، ولكنْ على الكِنايةِ والعِبارةِ عن غيرِهِ، ونَحْوُ ما يُقالُ[6]: بَلْدَةُ كذا في يَدِ فلانٍ وقَبْضَتِهِ، وأمْرُ كذا في [يَدِ][7] فلانٍ؛ وإنما يُرادُ بذلكَ قُدْرَتُهُ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قَبْضَتِهِ ويَدِهِ ويَمينِهِ إنما هو الوَصْفُ لهُ بالقوةِ والسلطانِ والقُدْرَةِ على ذلكَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يَحْتَمِلُ تنزيهَ نفسِهِ عمّا وصَفَهُ المُشَبِّهَةُ، وشَبَّهوهُ بالخَلْقِ أو عمّا أشْرَكَ عَبَدَةُ الأصنامِ اللهَ في العِبادةِ وتَسْمِيَتِهِمْ إيّاها آلهةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ هو على التقديمِ والتأخيرِ، كأنهُ يقولُ ﷻ: الأرضُ والسمواتُ جميعاً في قَبْضَتِهِ مَطْوِيّاتٌ بِيَمينِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أهو على حقيقةِ النَّفْخِ أم لا؟

قالَ بعضُهُمْ: ليسَ هنالكَ نَفْخٌ ولا شيءٌ، وإنما ذِكْرُ النَّفْخِ عِبارةٌ / ٤٧٣ ـ أ/ عَنْ خِفَّةِ الأمرِ على اللهِ ﷻ [كقولِهِ][8]: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] [وقولِهِ][9]: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ نَفْخاً إنما هو عِبارةٌ عن قَدْرِ نَفْخٍ أنهُ يُحْيِي، ويُميتُ على قَدْرِ النفخةِ، لأنها أسْرَعُ شيءٍ في الدنيا[10].

وقالَ بعضُهُمْ: هو على حقيقةِ النفخةِ مِنْ غيرِ أنْ كانَتْ سَبَباً للإحياءِ والإماتةِ، ولكنْ على جَعْلِ النَّفْخَةِ عَلَماً وآيةً للإحياءِ والإماتةِ. امْتَحَنَ بذلكَ المَلَكَ الذي كانَ مُوكَلاً بهِ على ما امْتَحَنَ مَلَكَ الموتِ بقبضِ الأرواحِ في أوقاتٍ جُعِلَتْ لهُ.

فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ النَّفْخَةِ، واللهُ أعلمُ.

ثم اخْتُلِفَ في الصُّورِ أيضاً. قالَ بعضُهُمْ: هو صُوَرُ الخَلْقِ، فيها يُنْفَخُ، وإلى ذلكَ [ذهبَ][11] جميعُ أهلِ الكلامِ.
وقالَ [بعضُهُمْ][12]: ليسَ هو صُوَرَ الخَلْقِ، ولكنْ إنما هو قَرْنٌ، لأنهُ قالَ: ﴿ٱلصُّورِ﴾، ولم يَقُلْ: الصُّوَرِ بالتَّثْقيلِ، وإنما ذَكَرَهُ بالتَّخْفيفِ، وهو القَرْنُ. وذَكَرَ صُوَرَ الخَلْقِ بالتَّثْقيلِ صَوَّرَ حينَ[13] قالَ: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤ والتغابن: ٣] فَلَسْنا نَدْري أيُّهما يُقالُ جميعاً [الصُّورُ أم][14] الصُّوَرُ؟ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التفسيرِ والتأويلِ: الصَّعْقُ الموتُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الصَّعْقُ، هو الغَشَيانُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي مَغْشِيّاً عليهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وإنما يُفاقُ مِنَ الغَشَيانِ، ولا يُفاقُ مِنَ الموتِ؟ واللهُ أعلمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هُمْ[15] جبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ومَلَكُ الموتِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تكونُ ثلاثُ نَفَخاتٍ: نَفْخَةٌ تَحْمِلُهُمْ على الفَزَعِ [لِقولِهِ تعالى][16]: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ [النمل: ٨٧] ونَفْخَةٌ[17] يَموتونَ بها. والثالثةُ[18] يَحْيَوْنَ بها.

---

(١) و(٢) و(٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: في غير. (٥) من نسخة الحرم المكي في الأصل وم: منه ووعد ووعيده. (٦) في الأصل وم: قالَ. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: هي النفخة. (١١) و(١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: أم لا الصور أو. (١٥) في الأصل وم: هو. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: ثم الأخرى. (١٨) في الأصل وم: والثلاثة.

جنة السنة

وعلى هذا يُرْوَى حديثٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «يُنْفَخُ ثلاثٌ»[ابن جرير الطبري في تفسيره: ج٢٤/ ٣٠] ذَكَرَ كما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: نفختانِ على ما ذُكِرَ في هذهِ الآيةِ: بإحداهُما يموتونَ. والثانيةِ يَحْيَوْنَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يَحْتَمِلُ بنورِ الذي أنْشَأَهُ اللهُ ﷻ وجَعَلَهُ فيها، وليسَ أنْ يكونَ لِذاتِهِ نورٌ أو شيءٌ يضيءُ، ويكونُ قولُهُ ﷻ: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ كقولِهِ ﷻ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر: ٥٥] بإحسانِ ربِّكَ وآلاءِ ربِّكَ؛ لا يُفْهَمُ منهُ سِوَى النِّعْمَةِ والمَنْشَأةِ والآلاءِ المَجْعولةِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ لا يُفْهَمُ منهُ نورُ الذاتِ ولا شيءٌ مِنْ ذلكَ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي أضاءَتْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أنشأَ أرضَ الآخِرةِ أرضاً مُضيئَةً مُشرِقةً لِما أخبَرَ أنهُ يُبَدِّلُ أرضاً غَيرَ هذهِ حينَ[1] قالَ ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] كانَتْ هذهِ [الأرضُ][2] مُظلِمَةً وتلكَ مُضيئةً على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحتَمِلُ][3] أنْ يكونَ إشراقُها ارْتِفاعَ سَواتِرِها وظهورَ الحقِّ لهمْ وزوالَ الاشْتِباهِ والالْتِباسِ. وكانتْ أمورُهُمْ في الدنيا مُشْتَبِهَةً مُلْتَبِسَةً. ويُقِرّونَ يومئذٍ جميعاً بالتّوحيدِ لهُ والألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، وهو على ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦و...] [وقولِهِ ﷻ][4]: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] وقولِهِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] ونَحْوِ ذلكَ.

ذَكَرَ البُروزَ لهُ والرجوعَ إليهِ والمَصيرَ، وإنْ كانوا في الأحوالِ كلِّها [بارزينَ لهُ راجعينَ إليهِ صائرينَ][5]، والمُلْكُ لهُ في الدارَيْنِ جميعاً. خَصَّ البروزَ والرجوعَ إليهِ والمُلْكَ لهُ لِما يومئذٍ يَظْهَرُ المُحِقُّ لهمْ مِنَ المُبْطِلِ، ويومئذٍ يُقِرّونَ[6] جميعاً بالتوحيدِ لهُ والمُلْكِ.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ إشراقُ الأرضِ وإضاءَتُها لِما تَرْتَفِعُ السواتِرُ يومئذٍ، وتزولُ الشُّبَهُ، وتَظْهَرُ الحقائقُ، واللهُ أعلَمُ، أو أنْ يكونَ ظَهَرَ لكلٍّ ما عملَ في الدنيا مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ، وعَرَفَهُ يومئذٍ، وإنْ كانَ في الدنيا لم يَظْهَرْ، ولم يَعْرِفْ، ما عَمِلَ مِنْ خيرٍ وشَرٍّ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٠] واللهُ أعلَمُ، أو أنْ تكونَ أرضُ الآخِرةِ مُضيئَةً مُشرِقَةً لِما لا يُقْضي عليها تعالى، ﷻ وأرضُ الدنيا مُظلِمَةً بِعِصيانِ أهلِها الرَّبَّ ﷻ.

وذلكَ كما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ الحَجَرَ الأسودَ مِنَ الجنةِ، كذا صارَ أسودَ لِما مَسَّتْهُ أيدي الخاطئينَ العاصينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: بِعَدْلِ ربِّها أي رِضا ربِّها، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] أي بالعَدْلِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ ما ذُكِرَ بنورٍ أنْشَأهُ، وجَعَلَهُ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] وقالَ بعضُهُمْ: الكتابُ، هو الحسابُ بما حَفِظَ عليهِمْ ولهمْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ مَحْذورٍ منهُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الكتابُ الذي يُوضَعُ في أيديهِمْ يومئذٍ، فيهِ ما عَمِلوا، يَقْرَؤونَهُ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بارزون له راجعون إليه صائرون. (٦) في الأصل وم: اقروا.

جنة السنة

[وقولُهُ ﷻ](1): ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ اختُلِفَ في الشهداءِ: قالَ بعضُهُمْ: الشهداءُ، هُمُ المُرْسَلونَ؛ يُؤتى بالنَّبِيِّينَ والمُرْسَلينَ، يَشْهَدونَ عليهِمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ الآية[المزمل: ١٥]. وقالَ بعضُهُمْ: الشهداءُ ههنا الملائكةُ والحَفَظَةُ الذينَ يَشْهَدونَ عليهِمْ بأعمالِهِمُ التي عَمِلوها. وقالَ بعضُهُمْ: الشهداءُ، هُمُ الذينَ اسْتُشْهِدوا في هذه الدنيا، واللهُ أعلمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكَرَ من الشهداءِ: هُمُ الجوارحُ التي تَشْهَدُ عليهِمْ يومئذٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآية[النور: ٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعَدْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُحْمَلُ على أحدٍ ما لم يَعْمَلْ، ولكنْ يُحْمَلُ عليهِ ما عَمِلَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ كافرةٍ ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ مِنْ سوءٍ. فأمّا ما عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ فلا تُوَفّى.

[وكذلكَ تُوَفّى](2) كلُّ نفسٍ مُسْلِمَةٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ؛ لا يُنْقَصُ منهُ(3) شيءٌ، وما عَمِلَتْ مِنْ سوءٍ جائزٌ أنْ يُتَجاوَزَ عنها، ويُبَدَّلُ حسناتٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي عالمٌ بما يفعلونَ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ قيلَ: أُمّةً أُمّةً وجماعةً جماعةً كقولِهِ ﷻ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الآية[الأعراف: ٣٨] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ لها أبوابٌ، يَدْخُلونَ فيها، وجائزٌ أنْ تكونَ الأبوابُ المذكورةُ لا على حقيقةِ الأبوابِ، ولكنْ على الجهاتِ والسُّبُلِ التي كانوا فيها، أي الدنيا، وعَمِلوا بها؛ يَدْخُلونَ النارَ بتلكَ الجهاتِ والسُّبُلِ التي كانوا في الدنيا، وعَمِلوا بها كما يُقالُ: فُتِحَ على فلانٍ بابُ كذا، ليسَ يُرادُ حقيقةُ البابِ / ٤٧٣ ـ ب/ ولكنْ سبيلُ بابِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي [آياتِ](4) التوحيدِ وحُجَجِهِ، ويَحْتَمِلُ آياتِ البعثِ الذي(5) أنكروهُ. وقالَ(6) بعضُ أهلِ التأويلِ: آياتِ القرآنِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ بالآياتِ ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

وقولُهُ ﷻ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد فَعَلوا ذلكَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي عِدَةُ العذابِ، وهو ما قالَ ﷻ، وَوَعَدَ أنهُ يَمْلأُ جهنَّمَ منهم، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] أي حَقَّ وَعْدُ ذلكَ عليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكَرَ مِنْ كلمةِ العذابِ، هي(7) كلمةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ؛ أي حَقَّتْ كلمةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ التي(8) عَلِمْنا؛ سَمّى(9) كلمةَ الكُفْرِ كلمةَ العذابِ لِما عُذِّبوا، وعُوقِبوا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تأويلُهُ ظاهرٌ.

[قولُهُ: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ مُتَكبِّرينَ](10) على آياتِهِ وحُجَجِهِ، ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ على رسلِهِ وأنبيائِهِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) ساقطة من الأصل وم. (3) في الأصل وم: منها. (4) ساقطة من الأصل وم. (5) في الأصل وم: التي.
(6) الواو ساقطة من الأصل وم. (7) في الأصل وم: هذه. (8) في الأصل وم: الذي. (9) في الأصل وم: سموا. (10) في الأصل وم: والمتكبرين.

جنة السنة

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عوسَجَةَ: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ أي أضاءَت، وأنارَت، و﴿زُمَرًا﴾ أي جماعاتٍ، والواحدةُ زُمْرَةٌ؛ ويُقالُ: تَزَمَّرَ القومُ إذا اجتَمَعوا، زَمَرْتُهُمْ جمَعْتُهُمْ. وأصلُهُ أنْ يَساقَ كلُّ فريقٍ على ما أحَبّوا، وكانوا في الدنيا جماعةً جماعةً وأمّةً أمّةً وعلى ما يَجتَمِعونَ في هذهِ الدنيا: أهلُ الخيرِ [مَعَ أهلِ الخيرِ وأهلُ الشَّرِّ مَعَ][1] أهلِ الشَّرِّ، ويُسَرُّونَ[2] بالاجتِماعِ في ذلكَ.

لكنَّ أهلَ الخيرِ يُساقونَ إلى الجنةِ على ما كانوا يَجتَمِعونَ في هذهِ الدنيا مَسْرورينَ، وأهلَ الكُفرِ يُساقونَ إلى النارِ على ما يَجتَمِعونَ في هذهِ الدنيا على الشَّرِّ، حَزينينَ مُغتَمِّينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يَحتَمِلُ ﴿اتَّقَوْا﴾ الشِّرْكَ بربِّهِم، أو﴿اتَّقَوْا﴾ سُخطَ ربِّهِمْ ونِقْمَتَهُ، أو ﴿اتَّقَوْا﴾ المَهالِكَ. وقد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ ﷻ][3]: ﴿وَسِيقَ﴾ وإنْ كانَ في الظاهِرِ خبَراً عمّا مَضى، لكنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الاستِقبالِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: استِعمالُ حَرْفِ الماضي على إرادةِ الاستِقبالِ؛ كأنهُ قالَ: يُساقونَ.

والثاني: [لأنهُ جزاءُ][4] أمرٍ قد كانَ مَضى، فقالَ ﷻ: ﴿وَسِيقَ﴾ ذكَرَهُ[5] بحرفِ سِيقَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿زُمَرًا﴾ قد ذكَرْناهُ، أي جماعةً جماعةً وأمّةً أمّةً على ما كانوا في هذهِ الدنيا يَجتَمِعونَ على ذلكَ. فَعَلى ذلكَ يُساقونَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ فَتحُ الأبوابِ لهمْ يَحتَمِلُ حقيقةَ الأبوابِ، ويَحتَمِلُ كنايةً عنِ الوجوهِ والسُّبُلِ التي يأتونَها في الدنيا لا على حقيقةِ الأبوابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بَدَأَ الخزَنَةُ بالسلامِ عليهِمْ. فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ: امتَحَنَ رسولَهُ بهذِهِ السلامِ على مَنْ آمَنَ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٥٤].

ثم يَحتَمِلُ سلامُ الخزَنَةِ عليهِمُ السلامةَ[6] والبراءةَ مِنْ جميعِ العُيوبِ والآفاتِ التي في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ فقولُهُ: ﴿طِبْتُمْ﴾ يَحتَمِلُ أي صِرْتُمْ طيِّبينَ، لا تُخبَثُونَ أبداً، وقد بَرِئتُمْ مِنَ الآفاتِ والعُيوبِ كلِّها، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحتَمِلُ][7]: طابَ [لكُمُ][8] العيشُ أبداً مِنْ حيثُ ما يأتيكُمْ بلا عَناءٍ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ لا[9] شكَّ أنَّ اللهَ ﷻ إذا وَعَدَ صَدَقَ وَعْدَهُ لكنَّ مَعنى قولِهِمْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ الحمدُ للهِ الذي جَعَلَنا مُستَحِقِّينَ وَعْدَهُ، إذْ وَعْدُهُ، لا شكَّ، أنهُ يَصْدُقُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ قيلَ: أنزَلَنا الأرضَ، أي الجنةَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ نَرغَبُ فيها، وهُمْ لا يَرغَبونَ النزولَ في مَنازِلِ غَيرِهِمْ. [ويَحتَمِلُ][10] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي جميعُ أمكِنَةِ[11] الجنةِ مُختارٌ، ليسَ ممّا تَتَخيَّرُ في الدنيا مكاناً دونَ مكانٍ، لأنَّ جميعَ أمكِنَتِها، ليسَتْ بِمُختارَةٍ، فَيَقَعُ فيها الاختِيارُ.

فأمّا الجنةُ فجميعُ أمكِنَتِها مُختارَةٌ، فلا يَقَعُ هنالكَ اختِيارُ مَكانٍ على مَكانٍ، واللهُ أعلَمُ.

وإلّا ظاهِرٌ قولِهِ تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ ما [لَنا و ما لغَيرِنا][12] والوجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: وأهل الشر على، في م: على أهل الخير وأهل الشر على. (٢) في الأصل وم: وسرور. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كانه خبر. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: ولذلك. (٦) في الأصل وم: السلام. (٧) في الأصل وم: أو يقولُ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: مكان. (١٢) في الأصل وم: لهم وما لغيرهم.

جنة السنة

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٧٥ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [قيلَ: مُحْدِقِينَ حولَ العَرْشِ][1].

وقولُهُ ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: بِأمْرِ رَبِّهِمْ. لكنَّ التَّسبيحَ [عندَنا][2] بِحَمْدِ ربِّهِمْ، هو أنْ يُسَبِّحوا بِثَناءِ ربِّهِمْ وحَمْدِهِ، أي يُبَرِّؤوهُ، ويُنَزِّهوهُ عن جميعِ مَعاني الخَلْقِ؛ بِثَناءٍ وحَمْدٍ يَحْمَدونَهُ، ويُثْنونَ عليهِ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ قيلَ: بَينَ الأُمَمِ والرُّسُلِ، وقيلَ: بَينَ الخَلائقِ كلِّهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ [﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بَينَ المؤمنينَ وأعدائِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: فَتَحَ اللهُ نِعْمَةُ في الدنيا بالحَمْدِ لهُ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١] وقولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيةَ [الكهف: ١] وغيرُ ذلكَ منَ الآياتِ، وخَتَمَ نِعْمَةُ في الآخِرَةِ بالحَمْدِ لهُ حينَ[4] قالَ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] وقالَ[5] ﷻ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ الطاهرينَ [أجمعينَ][6].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

جنة السنة

سورة [﴿حمٓ﴾][1] المؤمن

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو هجاءُ اسْمِ الرَّبِّ جَلَّ، وعَلَا، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ وقالَ بعضُهُمْ: فواتِحُ السُّورِ كلِّها. وكذلكَ قالوا[2] في سائِرِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: أصلُهُ: حَمَّ كقولِ الشاعِرِ:

أَلَسْتَ تَرَى أنَّ الذي حَمَّ كائنٌ ....

أيِ الذي قَضَى كائنٌ. إلاّ أنهُ [ذَكَرَهُ بالهجاءِ كَمَنْ][3] ذَكَرَ زيداً بالهجاءِ.

وقد قُلْنا نحنُ: إنَّ تفسيرَ الحروفِ المُقَطَّعَةِ [ما ذُكِرَ على إثْرِها. وقد][4] ذَكَرْنا أقاويلَ الناسِ واختِلافَهُمْ فيها في غَيرِ مَوضِعٍ ما أغْنانا عن ذِكْرِها في هذا المَوضِعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ قد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ في سورةِ الزمرِ [الآية: ١] أنهُ ذَكَرَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وههنا ذَكَرَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وهما واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ /٤٧٤ ـ أ/ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ أي مُتَجاوِزِ الذنبِ، وهو في حقِّ المؤمنينَ خاصّةً.

والثاني: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ أي ساتِرِ الذنبِ، وهو يَحْتَمِلُ للكافِرِ والمؤمنِ جميعاً، فإنهُ يَسْتُرُ كثيراً على المؤمنِ والكافِرِ جميعاً في الدنيا، ولم يَفْضَحْهُما، ويَتَجاوَزُ عنِ المؤمنِ خاصّةً في الآخرةِ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ يُخْبِرُ أنهُ يَقْبَلُ التوبةَ، وإنْ عَظُمَتِ المَعْصِيَةُ، وجَلَّتِ الذُّنوبُ، وكَثُرَتْ، واللهُ أعلَمُ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّوبُ جَماعةُ التوبةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي لِمَنْ لم يَتُبْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: أي ذي القُدْرةِ، وقالَ القُتَبِيُّ: ذي التَّفَضُّلِ؛ يُقالُ: طُلْ عليَّ بِرَحْمَتِكَ، أي تَفَضَّلْ. وقيلَ: ذي السَّعَةِ، وكُلُّهُ قريبٌ بعضُهُ مِنْ بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وَحَّدَ نفسَهُ، وأخبَرَ أنَّ مَصيرَ الخَلْقِ إليهِ في الآخِرَةِ، فَيَجْزيهِمْ بأعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يُجادِلُ في دَفْعِ آياتِ اللهِ والطَّعْنِ في آياتِ اللهِ الذينَ كَفَروا باللهِ، أو كَفَروا بآياتِ اللهِ. وكانَتْ مُجادَلَتُهُمْ ما ذَكَرَ حينَ[5] قالَ ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] لِيُبْطِلوا[6] بِهِ الحقَّ.

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أن. (٢) في الأصل و م: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ويبطلوا.

أهلُ الكُفرِ همُ الذينَ كانوا يُجادِلونَ في دفعِ آياتِ اللهِ والطَّعنِ فيها. فأمّا أهلُ الإيمانِ بها فكانوا يَفرَحونَ بنزولِها، ويَزدادُ لهمْ بذلكَ إيمانٌ كما قالَ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦] وكقولِهِ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] ونحوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ كانوا يَستَسلِمونَ لها، ويَقبَلونَها بالتعظيمِ والتَّبجيلِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ مَعلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَغرُّهُ تَقَلُّبُهُمْ في البلادِ. لكنَّهُ ذَكَرَ الخِطابَ لهُ، وأرادَ بهِ غيرَهُ لِما يَحتَمِلُ أنْ يَظُنَّ قومٌ أنَّ أهلَ الكُفرِ لمّا كانوا في أمنٍ في التَّقَلُّبِ في البِلادِ والسَّعةِ في عَيشِهِمْ، وأنَّ أهلَ الإيمانِ في ضِيقٍ وشِدَّةٍ وخوفٍ أنَّ أولئكَ على الحقِّ، وهؤلاءِ على الباطلِ، فجائزٌ أنْ يَظُنَّ ظانٌّ ما ذَكَرْنا.

فأخبَرَ اللهُ ﷻ أنَّ الأمْنَ والسَّعةَ ليسا[1] بدليلٍ على كَونِ صاحِبِهِما[2] على الحقِّ، ولا الضِّيقُ والشِّدَّةُ بدليلٍ على كَونِ صاحِبِهِما[3] على الباطلِ؛ لكنْ مِحنَةٌ امتَحنَهُمْ مَرَّةً بالسَّعةِ والأمْنِ ومَرَّةً بالضِّيقِ والخوفِ. دليلُ ذلكَ وجودُ الحالَينِ جميعاً في كلِّ فريقٍ معَ اختِلافِ مذاهِبِهِمْ وتَضادِّ أقاويلِهِمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ أهلَ مكةَ، أي لا يَغرُرْهُمْ تَقَلُّبُهُمْ في البلادِ وأمنُهُمْ وسَعَتُهُمْ بَعْدَما نَزَلَ بأهلِ الآفاقِ والنَّواحي أنهمْ على الحَقِّ وأنَّ ذلكَ يدفَعُ ذلكَ عنهمْ، أو يكونونَ على أمنٍ لِمكانِ كونِهِمْ بِقُرْبٍ مِنَ البيتِ لِحُرمَتِهِ وشَرَفِهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ﴾ ذَكَرَ هذا لِتَصبيرِ رسولِهِ على تكذيبِ قومِهِ إيّاهُ بالباطِلِ؛

يقولُ: لَستَ أنتَ بأوَّلِ مَنْ جادَلَهُ قومُهُ بباطِلٍ. لم تَزَلِ الأمَمُ المُقَدَّمَةُ يُكَذِّبونَ رسلَهُمْ، ويجادِلونَهُمْ بالباطِلِ، فَصَبروا على ذلكَ، فاصْبِرْ أنتَ على تكذيبِ قومِكَ ومُجادَلَتِهِمْ إيّاكَ بالباطِلِ كما صَبَرَ أولئكَ كقولِهِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهو[4] ما ذَكَرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾ ما ذَكَرَ. لكنَّ اللهَ تعالى بِفَضْلِهِ عَصَمَ رسُلَهُ عمّا هَمَّ أولئكَ الكَفَرَةُ بهمْ مِنَ القَتلِ والمُجادَلَةِ بالباطِلِ.

وفي ذلكَ آيةٌ مِنْ آياتِ الرسالةِ لهمْ حينَ[5] حَفِظَهُمْ عمّا هَمُّوا بهمْ بِلا أعوانٍ وأنصارٍ كانَ الرُّسُلُ معَ كَثرَةِ أولئكَ الكَفَرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي كيفَ وَجَدوا عِقابي؟ أليسَ وجَدُوهُ حقّاً على ما وَعَدَ الرُّسُلَ ﷺ أنهُ نازِلٌ بهمْ؟

أو يقولُ: أليسَ وجَدُوهُ أليماً شديداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ما ذَكَرَ [في][6] قولِهِ: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ الآيةَ [الأحزاب/ ٦٢] وقولِهِ: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال/ ٣٨].

ويَحتَمِلُ[7] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ما قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣]. فذلكَ الذي حَقَّ عليهِمْ [مِنْ][8] كلمةِ رَبِّكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضِعٍ أنَّ التسبيحَ بِحَمْدِ ربِّهِمْ، هو الثناءُ عليهِ والحَمْدُ لهُ بالتَّبرِئَةِ والتَّنزيهِ عن جميعِ أوصافِ الخَلْقِ ومعانيهِمْ عن جميعِ ما قالَتِ المُلحِدَةُ فيهِ.

---

(١) في الأصل و م: ليس. (٢) و(٣) في الأصل وم: صاحبه. (٤) في الأصل و م: وهي. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل و م. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذِهِ أرجى آيةً للمؤمنينَ. والآياتُ التي فيها استِغْفارُ الرسلِ للمؤمنينَ مِن نَحْوِ قولِ نوحٍ ﷺ حينَ[1] قالَ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨] وقولِ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وما أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يَسْتَغْفِرَ لنفسِهِ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ حينَ[2] قالَ لهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] لأنهُ لا يُحتَمَلُ أنْ يأمُرَ بالاستِغْفارِ لهمْ، ثم لا يُجيبُهُ إذا فَعَلَ.

ثم قالَ بعضُ المعتزلةِ: إنَّ قولَهُ ﷻ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إنما هو في الذنوبِ التي ليسَ لهُ أن يُعَذِّبَهُمْ عليها، وهي الصغائرُ، وليس لهُ أنْ يَغفِرَ لِلْكُفّارِ. ويَستَدِلُّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

إنما أمَرَهُ أنْ يَستَغْفِرَ للذي تابَ. فأمّا مَنْ لم يَتُبْ لم يأمُرْهُ بالاستِغْفارِ. فيجبُ القولُ بما قُلْنا عَمَلاً بالآيتَينِ.

لكنْ نقولُ نحنُ: إنهُ لو كانَ استِغْفارُهُ لِمَنْ ذَكَرَ خاصّةً لأصحابِ الصغائرِ على ما قالوا يَصيرُ كأنهُ أمَرَ النبيَّ ﷺ أنْ يقولَ: استغفِرْ لهمْ، إذْ هم مَغفورةٌ ذنوبُهُمْ، فَيَجعَلُ[3] قولَهُمْ على ما ذَكَرْنا. وذلكَ كُفرٌ وَوَحْشٌ مِنَ القولِ، واللهُ أعلمُ.

ثم يجيءُ أنْ تكونَ المعتزلةُ والخوارجُ في الظاهرِ أبْعَدَ الخلائقِ عنِ المَعاصي وأقْرَبَهُمْ إلى الطاعاتِ، ونحنُ أقْرَبَ الخلائقِ إلى المَعاصي وأبْعَدَهُمْ عنِ الطاعاتِ لأنهمْ لا يَرَونَ النجاةَ إلا بأعمالِهِمْ، ولا يَرَونها[4] برحمةِ اللهِ ولا بِشَفاعةِ أحدٍ، ولكنْ بأعمالِهِمْ، فَيَجِبُ أنْ يكونوا أبداً مُتَّكِلينَ مُلازِمينَ على الطاعاتِ في كلِّ وقتٍ وساعةٍ، لا يَعْصُونَ اللهَ طَرْفَةَ عينٍ.

ونَحْنُ لم نَرَ النجاةَ بالأعمالِ، ولكنْ إنما نَرى ذلكَ برحمةِ اللهِ تعالى وبِشفاعةِ مَنِ ارْتَضى شَفاعَتَهُ. فَيَجِبُ أنْ نكونَ مُعْتَمِدينَ على رَحْمَةِ اللهِ وفَضْلِهِ غَيرَ مُشْتَغِلينَ بشيءٍ مِنَ الطاعاتِ.

ثم في الحقيقةِ يَجِبُ أنْ يكونوا هُمْ أقْرَبَ الخَلائِقِ إلى المَعاصي وأبْعَدَهُمْ عنِ الطاعاتِ، ونحنُ ألْزَمُ الخلائقِ بالطاعاتِ وأبْعَدُهُمْ عنِ المَعاصي؛ لأنّا نَرى عندَ اللهِ لَطائفَ وفَواضِلَ باقيَةً، لم يُعْطِنا [إيّاها][5] ما لو أعطانا ثم يَصْدُرُ منا إلّا الخَيرُ والطاعاتُ، وسَلَّمَنا مِنَ المَعاصي وأنواعِ الشُّرورِ، وعَصَمَنا. فَيَجِبُ أنْ نكونَ مُتَّكِلينَ على الطاعاتِ لِنَصِلَ إلى تلكَ/ ٤٧٤ ـ ب/ اللَّطائفِ.

وهمْ لا يَرَونَ بَقِيَ عندَهُ شيءٌ مِنَ اللطائفِ، بل يقولونَ: قد أعطانا كلَّ شيءٍ حتى لم يَبْقَ شيءٌ عندَهُ مِن مَصالِحِ الدينِ، فَيَجِبُ أنْ يكونوا [على][6] ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

ثم قولُنا: إنَّ اللهَ تعالى يُنَجِّينا بِرَحْمَتِهِ وبِشفاعةِ مَنْ جَعَلَ لهُ الشفاعةَ لا بأعمالِنا.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النبيِّ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «لَنْ يدخُلَ أحدٌ الجنةَ إلّا بِرَحْمَةِ اللهِ. قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[مسلم ٢٨١٦/ ٧١ و٢٨١٨/ ٧٦] والمعتزلةُ يقولونَ: لا بل ندخلُ بأعمالِنا وكذلكَ قولُ الخوارجِ.

وأصلُ قولِنا: إنَّ اللهَ ﷻ لنْ يُعَذِّبَ عبادَهُ على جميعِ المَعاصي على الصَّغائرِ والكَبائرِ جميعاً، ولهُ أنْ يَغْفِرَ المعاصيَ سِوى الشِّرْكِ والكُفرِ على ما ذَكَرْنا مِن دلائلِ الآياتِ وغَيرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً﴾ قولُهُ: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً﴾ فرحمةُ الدنيا يَدخُلُ فيها الكافرُ والمؤمنُ. فأمّا رحمةُ الآخِرَةِ فهي للمؤمنينَ خاصّةً، وهي كما ذُكِرَ في قصةِ موسى ﷺ حينَ[8] قالَ: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦] وقالَ[9]: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل و م: فيحصل. (٤) في الأصل و م: يرون. (٥) و(٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وقوله.

وقولُهُ: ﴿وَعِلْمًا﴾ أي عِلْمَ مَنْ فيها مِنَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهينِ:

أحَدُهما][1]: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ عنَ الشِّرْكِ ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي دينَكَ، وهو[2] الإسلامُ.

والثاني: أي فاغْفِرْ للذينَ تابوا عنِ الكبائِرِ والفواحِشِ ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي طاعتَكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ظاهرٌ.

ثم قولُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ لا يمكنُ العملُ بها على قولِ المعتزلةِ لأنَّ رحمةَ اللهِ عندَهُمْ لا تَسَعُ لِذَنْبٍ واحدٍ فإنهُ ليسَ لهُ أنْ يَعْفُوَ عنهُ. فإنَّ عندَهُمْ أنَّ مَنِ ارْتَكَبَ كبيرةً ليسَ لهُ أنْ يَرْحَمَهُ، ولكنْ يُعاقِبُهُ على زَعْمِهِمْ خالداً مُخَلَّداً. وإذا كانَ [هذا][3] قولَهُمْ ومذهَبَهُمْ، فليسَتْ رحمتُهُ بواسعةٍ بزعمِهِمْ.

ثم يقولونَ أيضاً: إنَّ اللهَ تعالى قد هَدَى كلَّ كافرٍ، وأعطاهُ ما يَهْتَدي بهِ، وإنهُ لم يَبْقَ عندَهُ ما يهدي بهِ. فَعَلَى هذا القولِ رحمتُهُ لا تَسَعُ لِهدايةِ كافرٍ. فإذنْ رحمةُ اللهِ تعالى بزعْمِهِمْ على خلافِ ما ذَكَرَ اللهُ تعالى. وَوَصَفَها بالسَّعَةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وأمّا عندَنا فهي[4] ما ذَكَرْنا مِنْ جميعِ الكلِّ في ذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ تلكَ الرحمةَ الدنيويّةَ أو ما ذَكَرْنا مِنْ كونِ اللطائفِ عندَهُ: مَنْ أعطاها اهْتَدى، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ الوعدَ كانَ منهُ لِجُملةِ المؤمنينَ، فَسألوهُ[5] أنْ يُدْخِلَ قوماً على الإشارةِ والتَّعْيينِ في جملةِ ذلكَ الوعدِ لِاحْتِمالِ خُصوصٍ في الجملةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: سألوهُ أنْ [يُنَبِّهَهُمْ عنِ][6] الأسبابِ والأعمالِ التي يَسْتَوجِبونَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يجوزُ أنْ يكونَ الوعدُ لهمْ بالشرطِ الذي سألوهُ، واللهُ تعالى عالمٌ في الأزلِ أنهُ يوجَدُ ذلكَ الشرطُ، وهو سؤالُهُمْ، فيكونُ لهمْ ذلكَ الوعدُ. ومثلُ ذلكَ جائزٌ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] مسؤولاً إنما يُعَذِّبُهُمْ بسؤالِ هؤلاءِ على ذلكَ، كانَ جَرَى تقديرُهُ أنهُ لا يُعَذِّبُهُمْ إذا سألوا، وعَلِمَ أنهمْ سألوا.

وعلى ذلكَ الحديثُ الواردُ: «إنَّ الصدقةَ تزيدُ العُمُرَ»[الطبراني في الكبير ١٧/ ٢٢و٢٣ رقمه٣١] جَرَى تقديرُهُ في الأزلِ أنهُ يوجَدُ منهُ الصدقةُ، فيكونُ عمرُهُ زائداً على ما لو عَلِمَ أنهُ لا يَتَصَدَّقُ. وإنما لا يجوزُ التعليقُ بالشَّرْطِ في حقِّ اللهِ تعالى على نَحْوِ ما يكونُ في حقِّ العبادِ أنْ يُوجَدَ عندَ وجودِ الشرطِ، ولا يُوجَدَ عندَ عَدَمِهِ، ولا عِلْمَ لهمْ بعاقبةِ ذلكَ.

واللهُ تعالى عالمٌ بالعواقبِ، فَمَتى عَلَّقَ بشرطٍ كانَ ذلكَ منهُ في الأزلِ حكماً على أنْ يُوجَدَ مَعَ ذلكَ الشرطِ مع علمِهِ أنهُ لو لم يَكُنْ ذلكَ الشرطُ كيفَ كانَ؟ واللهُ الموفِّقُ.

أمّا ظاهرُ الآيةِ أنهُ إذا وَعَدَها لهمْ أدخلَهُمْ لا مَحالَةَ فيها، فلا مَعْنَى للسؤالِ في ذلكَ لِما يُخَرِّجُ السؤالُ في مِثْلِهِ مُخْرَجَ السؤالِ في تصديقِ الوَعْدِ والامْتِناعِ عنِ الخُلْفِ. ولكنَّ الآيةَ تُخَرَّجُ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الآية سألوهُ أيضاً إدخالَ هؤلاءِ في ذلكَ الوعدِ أيضاً على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل: وجوها أحدها، في م: يحتمل وجوها أحدها. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: فسألوا. (٦) في الأصل وم: يجيبهم على.

جنة السنة

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ هذا يَحتمِلُ أنهم سألوهُ أنْ يقِيَهُمْ في الآخرةِ أموراً تسوؤُهُمْ مِنَ الأهوالِ والأفزاعِ وغيرِ ذلكَ مِنَ العذابِ.

ويَحتمِلُ في الدنيا أمرَ الشِّركِ وغيرَهُ. يَدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي ومَنْ تقِ السَّيِّئاتِ في الدنيا فقد رَحِمتَهُ يومئذٍ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية ذَكَرَ أهلَ النارِ [إذا دخلوا النارَ][1] وعاينوا ما أنكروا مِنَ البَعْثِ والعذابِ يَجعَلُ كلُّ إنسانٍ منهمْ يَمقُتُ نفسَهُ، ويَلومُها، فيُنادَونَ لَمَقْتُ اللهِ إياكمْ في ما أوجبَ عليكُمْ مِنَ اللَّعنِ والنِّقمةِ أكثرُ مِمّا تَمقُتونَ بهِ أنفسَكُمْ، وأشدُّ. هذا وجهٌ، [ووجهٌ][2] آخرُ جائزٌ [وهو][3] أنْ يُقالَ لهمْ: إنَّ الواجبَ عليكُمْ أنْ تَرَوا مَقْتَ اللهِ إياكُمْ وقتَ ارتكابِكُمُ العِصيانَ وعندَ تعاطيكُمْ ما تعاطَيتُمْ أكبرَ وأشدَّ مِنْ مَقْتِكُمُ العذابَ ودخولِكُمُ النارَ، لأنكُمْ إذا رأيتُمْ مَقْتَ اللهِ إياكُمْ عندَ ارتكابِكُمْ ما ارتكبْتُمْ أنهُ يُنْزِلُ بكُمْ لَزَجَرَكُمْ ومنعَكُمْ عنِ ارتكابِ ذلكَ وتَعاطيهِ، وحَمَلَكُمْ على إيثارِ ما دُعِيتُمْ إليهِ مِنَ التوحيدِ للهِ تعالى والإيمانِ بهِ، واللهُ تعالى أعلَمُ.

وعلى هذينِ التأويلَينِ يَرْجِعُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

أحدُهما: أنَّ ذِكْرَ اللهِ تعالى إياكمْ بالرحمةِ والمَغفرةِ أكبرُ وأعظمُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إياهُ وصلاتِكُمْ وعبادتِكُمْ لهُ.

والثاني: أنَّ ذِكْرَ نفسِ نَهْيِ اللهِ تعالى إيّاها عنِ المَعاصي وقتَ ارتكابِها أكبرُ [مِنَ الزَّجرِ][4] عنها والمَنعِ مِنَ الصلاةِ نفسِها [وإنْ كانتِ الصلاةُ تَنهى عنْ ذلكَ بقولِهِ:][5] ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] لِما أنَّ الصلاةَ منها أعمالٌ تَشغَلُ عنْ ذِكْرِ النَّهْيِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ مَقَتَ بعضُكُمْ بعضاً كقولِهِ: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

[والثاني][6]: يَحتمِلُ ذلكَ لِقولِهِ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ أي يمقُتُ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ لِما كانَ [منها][7] مِنَ العِصيانِ والكُفرِ.

وإنما احتَمَلَ هذينِ الوجهَينِ لأنَّ المَنعَ لهمْ مِنْ طاعةِ اللهِ تعالى واتِّباعِ أمرِهِ ونَهْيِهِ يكونُ بأنفسِهِمْ، ويكونُ مِنْ بعضِهِمْ بعضاً. فيكونُ مُحتَمَلاً لِكِلا الوجهَينِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النور: ٦١] وقولِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ولا تُهلِكوا بعضَكُمْ بعضاً[8] / ٤٧٥ ـ أ/ إذِ الظاهرُ أنَّ المَرْءَ مع قيامِ عقلِهِ لا يُهلِكُ نفسَهُ، ولا يُلقيها في التَّهلُكةِ، وكذا لا يُسَلِّمُ على نفسِهِ.

ويَحتمِلُ الظاهرُ أيضاً أنْ يُسَلِّمَ [المَرْءُ][9] على نفسِهِ إذا دَخَلَ البيتَ، ولم يكُنْ فيهِ[10] غيرُهُ.

ولذلكَ نَهى عنْ إهلاكِ نفسِهِ عندَ شِدّةِ الغَضَبِ ونحوِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانوا أمواتاً في أصلابِ آبائِهِمْ، فأحياهُمُ اللهُ تعالى في الدنيا. ثم أماتَهُمُ المَوْتةَ التي لا بُدَّ منها، ثم أحياهُمْ للبعثِ يومَ القيامةِ. فهما حياتانِ ومَوتتانِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ في ما أُرى.

ويقولونَ: [هو][11] كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٨].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إحدى المَوتتَينِ هي التي تَنقضي بها آجالُهُمْ، ثم يُحْييهِمْ في القبرِ، ثم يُميتُهُمْ، ثم يُحْييهِمْ للبعثِ يومَ القيامةِ. فهما موتتانِ وحياتانِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: في الرحمن. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إن كانت. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لبعض. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: معه. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وإلى هذا يذهبُ ابنُ الراوَنْديّ[1]، ويَحتجُّ بهذا على عذابِ القبرِ، وهو أشبَهُ وأقربُ لأنهم بكونِهِم في أصلابِ آبائهِمْ أمواتاً، لا يُقالُ: ﴿أَمَتَّنَا﴾، وهمْ كانوا أمواتاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ يَحتَمِلُ اعترافُهُمْ بذنوبِهِمْ، هو ما أنكروا في الدنيا قدرةَ اللهِ تعالى على البعثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ والعذابِ لهمْ. لمّا عاينوا ذلكَ، وشاهَدوا، أقرّوا بهِ. فإنكارُهُمْ ذلكَ، هو ذنبُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ ذنوبُهُمُ التي اعترَفوا بها ما ذَكَرَ في سورةِ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ حينَ قالَ لهمُ الخزَنَةُ لمّا أُلْقُوا في النارِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الآيتان: ٨و٩] فيكونُ اعترافُهُمْ بذنوبِهِمْ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ﴾ أي ذلكَ المَقْتُ الذي ذَكَرَ والعذابُ الذي نَزَلَ بكم إنما كانَ ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ أي كَفَرتُمْ بتوحيدِهِ ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ أي توحيدِ اللهِ ﴿تُؤْمِنُواْ﴾ بهِ أي تُصَدِّقوا.

هذهِ الآيةُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] فهما بمَعْنًى واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ قالَ قتادةُ: لمّا خَرَجَ أهلُ حَروراءَ قالَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ: مَنْ هؤلاءِ؟ قيلَ المُحكِّمونَ. قالَ قائلٌ: همُ القُرّاءُ، قالَ [ﷺ][2]: ليسوا بالقُرّاءِ لكنّهُمُ العَيّابونَ الخَيّابونَ. قالوا: إنهمْ يقولونَ: لا حُكْمَ إلّا للهِ، قالَ عليٌّ ﷺ: كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ. وذُكِرَ: عُنِيَ بها باطلٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [قالَ بعضُهُمْ:][3] هو ما أراهُمْ مُكذِّبي رسُلِهِ ومُصَدِّقيهِمْ مِنْ أوائلِهِمْ حينَ[4] استأصَلَ هؤلاءِ بتكذيبِهِمْ رسُلَهُ، وأنجى مُصَدِّقيهِمْ بتصديقِهِمْ إياهُمْ[5] ليَحذَرَ هؤلاءِ مِنْ تكذيبِ رسولِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أراهُمْ آياتِ وحدانيّتِهِ وربوبيّتِهِ وقُدرتِهِ وسُلْطانِهِ في السمواتِ والأرضِ ما لو تأمّلوا لَعَرَفوا ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٥] آياتُ وحدانيّتِهِ. وذُكِرَ أنهمْ يَمُرّونَ عليها، أي يَرَوْنَها، لكنهمْ يُعْرِضونَ عنها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يا أهلَ مكةَ إذا سافرْتُمْ رأيتُمْ آياتِ المُتقدّمينَ ومنازلَهُمْ وهلاكَهُمْ، وهو الأوّلُ بعينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ يُخبِرُ عنْ آياتِ وحدانيّتِهِ أنهُ يُنَزِّلُ رزقَهُمْ مِنَ السماءِ، ويُحْيي[6] الخَلْقَ، ويَنقطِعُ عنِ تنزيلِ الرزقِ مِنَ السماءِ ليَعلَموا أنَّ مُنشِئَ الأرضِ والسماءِ واحدٌ [وأنهُ أوصَلَ][7] منافِعَ السماءِ بمنافعِ الأرضِ على ما يَحتَمِلُ أنهُ يَذكُرُ نِعَمَهُ عليهمْ حينَ[8] يَعلَمونَ أنهُ هو الذي أنزَلَ أرزاقَهُمْ مِنَ السماءِ لا[9] مَنْ يَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ.

فكيفَ تَصرِفونَ عبادَتَكُمْ وشُكرَكُمْ إلى غيرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ وما يَتذكَّرُ ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ، ولا يَتأمّلُها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إليهِ بطاعتِهِ. أو يقولُ لا يَتذكَّرُ، ولا يَتّعِظُ بآياتِهِ ومواعيدِهِ ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إليهِ بالقَبولِ لأمرِهِ وطاعتِهِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كأنَّ هذا صِلَةُ ما تقدّمَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ الآية [الزمر: ٤٥] وصِلَةُ قولِهِ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ

---

(١) في الأصل وم: الرويدي. (٢) في الأصل وم: ﷺ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إياه.
(٦) في الأصل وم: وحيل. (٧) في الأصل وم: حيث اتصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: دون.

جنة السنة

كَفَرتُم﴾ [غافر: ١٢] يقولُ: فادعوا الله يا أصحابَ محمدٍ وأيُّها المؤمنونَ ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ذلكَ، وَوَحِّدوهُ، ولا تُشركوا بِهِ شيئاً على ما يُشرِكُ بِهِ أهلُ مكةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: رفيعُ السمواتِ دَرَجَةً على دَرَجَةٍ وطَبَقاً على طَبَقٍ على ما رَفَعَها واحدةً على أُخرَى.

والثاني: قولُهُ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي دَرَجاتُ أهلِها ومنازِلُهُم التي جَعَلَها لهمْ في الآخِرَةِ على تَفضيلِ بعضِهِمْ على بعضٍ في الدَّرَجاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ في الدرجاتِ ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢١].

أخبَرَ أنهُ فَضَّلَ بعضاً على بعضٍ في الدرجاتِ. فجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ رَفعِ الدَّرجاتِ هو رَفعَ السمواتِ دَرَجةً فَدَرَجةً، فهو إخبارٌ عن قُدرَتِهِ وسلطانِهِ أنهُ مَنْ قَدَرَ على رَفعِ السمواتِ في الهواءِ وإقرارِها فيهِ بلا سَبَبٍ مِنْ أسبابِ إمساكِها مِنَ التَّعليقِ بشيءٍ مع ثِقلِها وغِلَظِها، ولا شيءَ يَقِرُّ في الهواءِ بحيثُ لا يَنحَطُّ، ولا يَتَسَفَّلُ، ولا يَرتَفِعُ عنْ مكانِهِ[1] بلا سَبَبٍ مِنَ الأسفلِ والأعلى، لا يَحتَمِلُ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ، أو يَخفَى عليهِ شيءٌ، أو يَمنَعَهُ عما يريدُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ المُرادُ بالدَّرجاتِ التي تُجعَلُ لِأهلِها في الآخِرَةِ إنما يَستَوجِبونَها باللهِ تعالى بأعمالٍ، تكونُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ اختُلِفَ فيهِ.

قالَ بعضُهُمْ: هو جبرائيلُ ﷺ ﴿يُلۡقِي﴾ أي يُنزِلُ الوَحيَ والنُّبوَّةَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ كقولِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ و١٩٤] أخبَرَ أنهُ أمينٌ لِيُعلَمَ أنهُ ليسَ في إنزالِهِ غَلَطٌ ولا شيءٌ مما قالَهُ بعضُ الرَّوافِضِ أنهُ بُعِثَ إلى فلانٍ، وأدّاهُ إلى غيرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الروحُ ههنا، هو الوَحيُ والرسالةُ؛ يقولُ: ﴿يُلۡقِي﴾ وهو الوَحيُ على مَنْ يختارُ، ويُصطَفي مِنْ عبادِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: يومَ يَلقَى أهلُ الأرضِ أهلَ السماءِ. وقالَ بعضُهُمْ: يومَ يَلقَى الآخَرون الأوَّلينَ[2].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: يَلقَى الإنسانُ عملَه وأفعالَهُ التي عَمِلَها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَتِ الباطِنيَّةُ: أيْ يومَ تَلقَى الصُّوَرُ المُتَولِّدَةُ مِنَ الأجسادِ بأعمالِ الخيرِ والشَّرِّ التي كانَتْ لهمْ في الدنيا الصُّوَرَ التي كانَتْ لهمْ روحانيَّةً؛ لأنَّ مِنْ مَذهَبِهِمْ أنَّ مَنْ ماتَ منهمْ بِحَدَثٍ، ويَتَوَلَّدُ بالأعمالِ التي كانَتْ لهمْ مِنَ الخيرِ صُوَرٌ روحانيَّةٌ؛ تَلقَى هذهِ الصورةُ الحادثةُ المُتَولِّدَةُ مِنَ الأجسادِ [بَعْدَ الموتِ ويكونُ البعثُ عندَهمْ للأرواحِ، فتَتَّصِلُ هذهِ الأرواحُ النورانيةُ بالنورِ الصِّرفِ، ويَستَدِلّونَ بقولِهِ: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ أي تَبرُزُ تلكَ الصورُ الروحانيةُ مِنَ الأجسادِ][3] إذِ الخَلائقُ كُلُّهُمْ في جميعِ الأحوالِ والأوقاتِ بارزونَ ظاهرونَ للهِ تعالى، ثم يكونونَ في وقتٍ مَستورينَ/ ٤٧٥ ـ ب/ عنهُ.

ولكنْ هذا فاسدٌ لأنهُ لو كانَ الأمرُ على ما يقولُهُ الباطِنيَّةُ لكانَتِ الأنفسُ إذا نامَتْ، وخَرَجَتْ منها الصُّوَرُ الروحانيَّةُ، فَرَأَتْ رُؤياً، كانَتْ تَراها مُختَلِطَةً غيرَ مُتَحَقِّقَةٍ، وفي حالةِ اليَقَظَةِ تَراها مُتَحَقِّقَةً غيرَ مُختَلِطَةٍ، دلَّ أنَّ الإدراكَ للأجسادِ بواسطةِ الصُّوَرِ الروحانيَّةِ يجبُ أنْ يكونَ البعثُ للكلِّ، واللهُ أعلَمُ.

ولكنَّ الوَجهُ في ذلكَ ما ذَكَرْنا. وأصلُهُ أنهُ سَمَّى ذلكَ اليومَ على ما سَمَّى يومَ الجَمعِ[4] ويومَ التَّغابُنِ[5] ويومَ الحَشرِ[6] وغيرَ ذلكَ. سَمَّى اليومَ على أسماءٍ مختلفةٍ: [سَمَّى][7] كلَّ اسمٍ مِنْ تِلكَ لِمَعنًى غيرِ المَعنَى الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أماكنها. (٢) في الأصل وم: الأولون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الشورى: ٧ والتغابن: ٩. (٥) التغابن: ٩.
(٧) الحشر: ٢. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ظاهرونَ، لا شيءَ هنالكَ يَسْتُرُهُمْ، أي تَرْتَفِعُ يومئذٍ جميعُ السَّواتِرِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧و١٠٨] أي لا شيءَ يُسْتَرُ فيها؛ يذكرُ هذا لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: تُسْتَرُ الأشياءُ عنِ اللهِ تعالى بالسَّواتِرِ ردًّا لِقولِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ سَمَّى ذلكَ اليومَ ممَّا يَتَّفِقونَ جميعاً، ويُقِرّونَ بالكلمةِ التي اخْتَلَفوا في الدنيا فيها، فَيَبْرُزُونَ جميعاً مُتَّفِقينَ مُقِرِّينَ بتلكَ الكلمةِ يومئذٍ، وهي كلمةُ التوحيدِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سَمّاهُ يومَ البُروزِ والمَصيرِ والرجوعِ وما ذَكَرَ أنَّ المَقْصودَ مِنْ إنشاءِ الدنيا وما فيها مِنْ حكمةٍ لِما عَرَفَ أنَّ الإنشاءَ للإفناءِ خاصَّةً ليسَ بحكمةٍ، فَخَصَّ ذلكَ اليومَ بما ذَكَرْنا، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ بارزينَ إليهِ ظاهِرينَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ ظاهرٌ، وهو رَدٌّ لقولِ مَنْ يقولُ: إنَّ شيئاً يُسْتَرُ على اللهِ، تعالى [تعالى اللهُ][1] عنْ ذلكَ عُلُوّاً كبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إذا أهْلَكَ اللهُ تعالى أهلَ الأرضِ وأهلَ السماءِ، فلم يَبْقَ أحدٌ إلّا اللهُ تعالى. فعندَ ذلكَ يقولُ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يُجيبُهُ أحدٌ فيقولُ هو في نفسِهِ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

لكنَّ هذا بعيدٌ لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ولا أحدَ سِواهُ، ويُجيبُ نفسَهُ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لِما لا حِكْمَةَ في ذلكَ أنْ يَسْأَلَ نفسَهُ، ثم يُجيبُها.

لكنَّ الوَجْهَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ إنما يقولُ لهمْ ذلكَ إذا بَعَثَهُمْ، وأحياهُمْ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقولُ الخلائقُ لهُ بأجمعِهِمْ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ يُقِرّونَ لهُ جميعاً يومئذٍ بالمُلْكِ والرُّبوبيَّةِ، وإنْ كانَ بعضُ الخلائقِ في الدنيا قد نازَعُوهُ في المُلْكِ فيها، وادَّعَوا لأنفسِهِمْ. فَيُقِرّونَ لهُ جميعاً يومئذٍ أنَّ المُلْكَ في الدنيا والآخرةِ للهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا تُجْزَى غيرَ ما كَسَبَتْ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا نُقْصانَ في الحَسَناتِ التي عَمِلوها، ولا زِيادةَ على السَّيِّئاتِ التي اكْتَسَبوها. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قد ذَكَرْنا هذا أيضاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ سَمَّى ذلكَ اليومَ يومَ الآزفةِ لِقُرْبِهِ ودُنُوِّهِ منهُ، وعلى ذلكَ سَمّاهُ [﴿لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]][2] و﴿قَرِيبًا﴾ [الحشر: ١٥] كقولِهِ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فَعَلى ذلكَ سَمّاهُ ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ لِدُنُوِّهِ وقُرْبِهِ منهم. يُقالُ: أزِفَ فلانٌ إلى فلانٍ، أي قَرُبَ، ودنا منهُ.

ومَعْناهُ: أي أنْذِرْهُمْ بما إليهِ مَرْجِعُ عاقِبَتِهِمْ، ومَصيرُهُمْ، لأنَّ أهلَ العقلِ والتَّمْييزِ إنما يَعْمَلونَ، ويَسْعَونَ للعاقبةِ، وما إليهِ تَرْجِعُ أمورُهُمْ، وهو ذلكَ اليومُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ يُخْبِرُ عن شِدَّةِ حالِهِمْ وفَزَعِهِمْ في ذلكَ اليومِ؛ ليسَ أنْ تَزولَ قلوبُهُمْ عن أمْكِنَتِها، وتَرْتَفِعَ إلى الحناجرِ حقيقةً، ولكنهُ وَصْفٌ لِشِدَّةِ حالِهِمْ في ذلكَ وكَثْرَةِ خوفِهِمْ وفَزَعِهِمْ وضِيقِ صدورِهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي ضاقَتْ صُدورُهُمْ وقلوبُهُمْ بما حَلَّ بهمْ مِنَ الشدائدِ والأهوالِ، ليسَ أنْ صارتِ الأرضُ في الحقيقةِ مُضَيَّقَةً، لا يَسْعَوْنَ فيها، ولكنْ وَصْفٌ لِضيقِ صدورِهِمْ لِعِظَمِ ما نَزَلَ بهمْ. فَكَنّى بِضيقِ الأرضِ عنْ صدورِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غداً.

جنة السنة

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ كونِ القلوبِ لَدَى الحناجِرِ كِنايةً عن ضِيقِ صدورِهِمْ لِشِدَّةِ حالِهِمْ وعَظيمِ ما حَلَّ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والحَناجِرُ، هي مَواضِعُ الذَّبحِ مِنَ الشاةِ وغيرِها مِنَ الدَّوابِّ، واحِدَتُها[1] حَنجَرَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الكاظِمُ المَغمومُ الذي يَتَرَدَّدُ حُزنُهُ في جَوفِهِ غَيظاً لِما كانَ منهُ في الدنيا.

وقيلَ: الكاظِمُ [الذي][2] لا يَتَكَلَّمُ، قد كُظِمَ مِنَ الخَوفِ، وقيلَ: الذي لا يَفتَحُ فَمَهُ، وهو قريبٌ بعضُهُمْ مِن بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريبٍ، وقيلَ: الحميمُ هو الذي يهتمُّ لِأمرِ صاحِبِهِ، ويَسْعَى في دَفعِ ما نَزَلَ بِهِ مِنَ البلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي يُجابُ؛ يَذْكُرُ ألّا يكونَ لهمْ في الآخِرَةِ قريبٌ، يَهتَمُّ لأمرِهِمْ، ولا شفيعٌ يَشفَعُ لهمْ، فَيُجابُ، كما يكونُ في الدنيا، وكذلكَ قولُهُ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا يكونُ لهمْ شُفَعاءُ تَنفَعُهُمْ، وهو ما قالَ ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٤].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [الخائنةُ][3] والخِيانةُ واحدةٌ، وهي[4] ما قالَ ﷻ: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ١٣] أي خِيانةٍ[5].

وقالَ بعضُهُمْ: هي النَّظرَةُ بعدَ النَّظرَةِ؛ أمّا الأولى فليسَ فيها شيءٌ، وأمّا الثانيةُ، فَعَلَيهِ مأثَمُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي ما يَتَكَلَّمُ بهِ المَرْءُ، ولم يَعمَلْ[بِهِ][6] كلُّ ذلكَ يَعلَمُهُ اللهُ تعالى.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هي التي يَنتَظِرُ بها غَفلَةَ الناسِ، إذا غَفَلوا عنهُ، نَظَرَ إلى ما يَهواهُ، ويُحِبُّهُ ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ هو ما ذَكَرَ ﷻ: ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤. والقصص: ٦٩] يَذْكُرُ هذا لِيَكونوا أبداً مُراقِبينَ أنفسَهُمْ حافظينَ لها عمّا لا يَحِلُّ مِنَ السَّمعِ والبَصَرِ والفؤادِ [لِقولِهِ][7]: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] لِيَكونوا أبداً على حَذَرٍ مِنْ ذلكَ وخوفٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي الحُكْمِ بالحقِّ. والقضاءُ ههنا[8] المذكورُ في الكتابِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: يَقضِي، أي يأمُرُ، كقولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وكقولِهِ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] إذا أمَرَ أمراً. يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي يأمُرُ بالحَقِّ.

والثاني: القضاءُ الوَحْيُ والخَبَرُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] أي أوحَينا إليهِمْ.

فكأنَّهُ يقولُ: واللهُ يُوحِي بالحقِّ، ويُخبِرُ بهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ لا يَملِكونَ الوَحيَ ولا الخَبَرَ. فكيفَ اختَرْتُمْ عِبادَتَهُمْ على عِبادةِ مَنْ يُوحي بالحقِّ، ويُخبِرُ بهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: القضاءُ، هو الخَلقُ والإنشاءُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي خَلَقَهُنَّ فيكونُ قولُهُ على هذا ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ يَخلُقُ ﴿بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ لا يَخلُقونَ شيئاً، وقد يَعلَمونَ استِحقاقَ العبادةِ إنما تَجوزُ في الخَلقِ والإنشاءِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وكقولِهِ تعالى/ ٤٧٦ ـ أ/ ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ﴾ [الرعد: ١٦] يقولُ: خَلَقَ مَنْ يَدعونَ مِنْ دونِهِ كَخَلقِ اللهِ حتى تَشابَهَ ذلكَ عليهِمْ، فَعَبَدوهُمْ؛ إذْ يَعلَمونَ أنَّ مَنْ خَلَقَ ليسَ كَمَنْ لم يَخلُقْ، وقد تَعلَمونَ أنها لم تَخلُقْ شيئاً، فكيفَ عَبَدْتُموها؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: واحدها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) من م، في الأصل: خائنة.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من م.

جنة السنة

ثم قولُ أهلِ التأويلِ: ﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [يحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما:](١) أي يَحكُمُ بالحقِّ في الدنيا بالآياتِ والحُجَجِ ما عَرَفَ كلُّ أحدٍ أنها حُجَجٌ وآياتٌ وبراهينُ، والحُكْمُ بما ذَكَرْنا حُكْمٌ بالحقِّ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أي يَحكُمُ بالحقِّ في الآخِرةِ، وهو الشَّفاعةُ، أي لا يَجعَلُ الشفاعةَ لِمَنْ يَعبُدونَ على رَجاءِ الشفاعةِ كقولِهِم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] ولكنْ إنما يَجعَلُ لِمَنِ ارْتَضَى كقولِهِ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ للمؤمنينَ(٢) أي المُجيبُ، و﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بأفعالِهِم.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ صِلَةَ ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ يقولُ: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لِما يكونُ منهمْ ظاهراً مِنْ قولٍ أو فِعلٍ، و﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بِما أخفَوا في قُلوبِهِم، وتُكِنُّ صُدورُهُم؛ يُخبِرُ بهذا ليكونوا أبداً مُراقِبِينَ حافِظِينَ أنفسَهُمْ ما ظَهَرَ [منها](٣) وما خَفِيَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ هذا يُخَرَّجُ على [وجوهٍ:

أحَدُها:](٤) ما قالَ الحَسَنُ: إنهمْ لو ساروا، فَنَظروا في آثارِ مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ مِنْ مُكذِّبي الرسُلِ لكانَ لهمْ في ذلكَ زَجْرٌ ومَنْعٌ عنْ مِثْلِ صَنيعِ أولئكَ.

[والثاني: ما](٥) قالَ بعضُهُمْ: هو على الخَبَرِ، أي لو ساروا في الأرضِ، ونَظَروا في آثارِ مَنْ تَقدَّمَهُمْ، لكنهمْ لم يَنظُروا نَظَرَ اعْتِبارٍ أنهُ لِماذا أصابَهُمْ ما أصابَهُمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ: ما](٦) قالَ قائلونَ: هو الإيجابُ والإلزامُ، أي سِيروا في الأرضِ، وانظُروا في آثارِ أولئكَ الذينَ كانوا مِنْ قَبلِ هؤلاءِ كقولِهِ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

ولكنْ نقولُ: ليسَ على حقيقةِ السيرِ في الأرضِ بالأقدامِ ولا نَظَرِ العَينِ والبَصَرِ، ولكنهُ أمْرٌ منهُ لهمْ بالتَّفكُّرِ والاعْتِبارِ في آثارِ مَنْ كانَ قَبلَهُمْ وإلى ماذا صارتْ عاقبةُ أمْرِهِمْ(٧) مِنْ صَنيعِ مُكذِّبي الرسُلِ ومُصدِّقيهِمْ، لِيَنزَجِروا عن مِثْلِ صَنيعِ مُكذِّبيهِمْ، ويَرْغَبوا في مِثْلِ صَنيعِ مُصدِّقيهِمْ(٨)، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ في أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أشَدَّ أعمالاً في الأرضِ.

وليسَ كما يقولُ بعضُ المعتزلةِ، أي إنهمْ كانوا أشدَّ منهمْ قوةً في الخيراتِ.

فإنْ كانَ ما ذَكَروا(٩) فذلكَ ليكونَ أصْلَحَ لهمْ. وهذا بعيدٌ سَمِجٌ مِنَ القولِ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا أشدَّ منهمْ قوةً في أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ يُخبِرُ أنَّ أولئكَ الذينَ كانوا مِنْ قَبلِ هؤلاءِ كانوا أشدَّ مِنْ هؤلاءِ قوةً وأشَدَّ آثاراً في الأرضِ. ثم لم تَمنَعْهُمْ شِدَّةُ قوتِهِمْ في أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ وما ذَكَرَ مِنْ آثارِ الأرضِ، ولم يَدْفَعوا عن أنفسِهِمْ ما نَزَلَ بهمْ مِنْ عذابِ اللهِ.

فأنتمْ يا أهلَ مكةَ دونَهُمْ في البطشِ والقوةِ، فكيفَ تَمنَعونَ عذابَ اللهِ إذا نَزَلَ بكُمْ، واللهُ أعلَمُ أنَّ أولئكَ قد عَبَدوا الأصنامَ رجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ في الآخِرَةِ، وتُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى كما تَعْبُدونَ أنتمْ على رَجاءِ الشفاعةِ لكمْ والتَّقرُّبِ إليهِ؟.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: للمؤمن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أمر. (٨) من م، في الأصل: مكذبهم. (٩) في الأصل وم: ذكر.

ولو كانَتْ عبادَتُهُمْ إيّاها طريقَ الشفاعةِ وسَبَبَ التَّقرُّبِ لكانَ يُغْنيهِمْ مِنْ عذابِ اللهِ في الدنيا. وهو كما ادَّعَتِ اليهودُ أنهمْ ﴿أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ فقالَ ردّاً عليهمْ بقولِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] أي في الدنيا لو كُنْتُمْ على ما تَزْعُمونَ؟ إذْ لا أحَدَ يُهْلِكُ، ويُعذِّبُ وَلَدَهُ وحَبيبَهُ في الدنيا. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يقولُ: ذلكَ العذابُ والإهلاكُ الذي نَزَلَ بهمْ لِما كانَتْ أتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ فَكَفَروا، وكذَّبوا الآياتِ والأدلَّةَ التي أتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ أنهمْ رُسُلُ اللهِ إليهِمْ، فأصابَهُمْ ما أصابَهُمْ. كذلكَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ إذا كذَّبْتُمُ الرسولَ بعدما أتاكُمْ بالبيِّناتِ والأدلَّةِ على رسالَتِهِ يَنْزِلُ بِكُمْ ما نَزَلَ بأولئكَ بالتكذيبِ والعِنادِ وردِّ الآياتِ والأدلَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بِحُجَجِنا. وذَكَرْنا [أنَّ الآياتِ تَحْتَمِلُ السلطانَ، وأنهما][(١)] واحدٌ، ويَحْتَمِلُ أنهما مُتَغايِرانِ[(٢)].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ لِيُعْلِمَ أنهُ كانَ مَبْعوثاً إلى الكُلِّ، لم يُبْعَثْ إلى بعضٍ دونَ بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ دلَّ قولُهُمْ: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ على أنَّ موسى ﷺ قد أتاهُمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ ما عَجِزوا عنْ إتيانِ مِثْلِها والمُقابَلَةِ لها. فخافوا أنْ يَتْبَعَهُ الناسُ لذلكَ. فَمَوَّهوا بقولِهِمْ: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ على سائرِ الناسِ لئلا يَتَّبِعوهُ في ما يَدْعو لِما عَرَفَ الناسُ أنَّ السحرَ ليسَ يَعْرِفُهُ كلُّ أحدٍ، وأنَّ أكثَرَ الناسِ يَعْجَزونَ عنِ السحرِ، وكانوا يَعْرِفونَ أنَّ السحرَ يكونُ كَذِباً. فَمَوَّهوا بذلكَ القولِ أمرَ موسى ﷺ على أتباعِهِمْ، ونَسَبوهُ إلى الكذبِ منْ غيرِ أنْ ظَهَرَ مِنْ موسى كَذِبٌ قطُّ، وقد كانَ لم يَزَلْ مِنْ فِرعونَ تَمْويهٌ وتَلْبيسٌ على قومِهِ مَخافَةَ أنْ يَتَّبِعوهُ لمّا أتاهُمْ مِنَ الحُجَجِ والأدِلَّةِ التي ظَهَرَتْ عندَهُمْ أنها حُجَجٌ وأدِلَّةٌ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ[(٣)] تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] وقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] قالَ هذا بَعدَما اتَّبَعَهُ السَّحَرَةُ، وآمَنوا بِهِ لِيُمَوِّهَ بذلكَ أمْرَهُمْ على مَنْ يَتَّبِعُ موسى مِنَ الأتباعِ، وقولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣] وغيرُ ذلكَ مِنَ التَّمْويهاتِ التي كانَتْ منهُ.

فَعَلى ذلكَ هذا القولُ منهمْ حينَ[(٤)] قالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ: إنهُ كَذّابٌ لأنهمُ اعْتادوا عِبادةَ الأصنامِ دونَ اللهِ تعالى. فلمّا جاءَ موسى، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، بما يَمْنَعُهُمْ عنْ عِبادةِ ما اعْتادوا مِنَ العَدَدِ، ودَعاهُمْ إلى عِبادةِ الواحدِ، قالوا: إنهُ كَذّابٌ، وكذلكَ قالَ[(٥)] أهلُ مكةَ عنْ رسولِنا وسيِّدِنا محمدٍ ﷺ: إنهُ ساحرٌ كَذّابٌ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] سَمَّوهُ كَذّاباً لمّا دَعاهُمْ إلى عِبادةِ الواحدِ، ومَنَعَهُمْ عنْ عِبادةِ ما اعْتادوا مِنَ العَدَدِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي جاءَهُمْ بالتوحيدِ، وقالَ بعضُهُمْ: أي جاءَهُمْ بالرسالةِ، وكانَ غيرُ هذا أقْرَبَ: أي فلمّا جاءَهُمْ بما يَظْهَرُ عندَهُمْ مِنَ الحُجَجِ أنها آياتٌ وأنها مِنْ عِندِنا جاءَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أمَروا[(٦)] أتباعَهُمْ أنْ يَقْتُلوا أبناءَ مَنْ آمَنَ منهمْ لِيَنْزَجِروا بذلكَ عنْ مُتابَعةِ موسى لمّا رَأَوا[(٧)] أنَّ ما كانَ مِنَ التَّمْويهاتِ والحِيَلِ لم تَمْنَعْهُمْ عنِ اتِّباعِهِ، بل كانوا يَتَّبِعونَهُ، فَأوعَدوهُمْ[(٨)] بِقَتْلِ الأبناءِ كما كانَ [فرعونُ][(٩)] أمَرَ بِقَتْلِ الأبناءِ عندما قيلَ لهُ: إنَّ ذَهابَ مُلْكِكَ بِوَلَدٍ يُولَدُ، كذا واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه يحتمل أن الآيات والسلطان. (٢) في الأصل وم: غيران. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: إنه وكذا. (٦) في الأصل وم: أمر. (٧) في الأصل وم: رأى. (٨) في الأصل وم: فأوعدهم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ لا شكَّ أنَّ كَيْدَهُمْ في الآخِرَةِ في ضلالٍ، ولكن أرادَ كانَ كَيدُهُمْ في الدنيا ظَهَرَ أنهُ ضلالٌ حينَ[1] لم يَمْنَعْهُمْ [كَيْدُهُمْ وحِيَلُهُمْ وتَمْويهاتُهُمْ][2] عنِ اتِّباعِ موسى ﷺ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾/ ٤٧٦ ـ ب/ قالَ هذا لمّا رَأى أنهُ لم يَمْنَعْهُمْ عنِ اتِّباعِ موسى ما ذَكَرَ مِنْ قَتْلِ الأبناءِ. قالَ عندَ ذلكَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾][3] وجوهاً:

أحدُها: يَحْتَمِلُ أنهُ هَمَّ فرعونُ أنْ يَقْتُلَ موسى ﷺ فَمَنَعَهُ قومُهُ أوِ المَلأُ مِنْ قومِهِ عن قَتْلِهِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنهُ قالَ مُبْتَدِئاً مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهمْ مَنْعٌ لهُ عنْ قَتْلِهِ، وهو كما قالَ ربُّنا ﷻ لِرَسولِهِ ﷺ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] مِنْ غيرِ أنْ كانَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ مَنْعٌ لهُ عنْ ذلكَ. وهذا في كلامِ العربِ موجودٌ سائغُ التَّكَلُّمِ بهِ على الابْتِداءِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ مِنْ أحدٍ مَنْعٌ عمّا يريدونَ أنْ يَفْعلوا، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي ذَروني ولائِمَتي[4] في قَتْلِ موسى، أي لا تَلُوموني إذا أنا قَتَلْتُهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ كانَ ذلكَ مِنْ فِرعونَ؛ يقولُ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ يَمْنَعْني عنْ قَتْلِهِ إنْ كانَ صادقاً في ما يَدَّعي مِنَ الرسالةِ لأنَّ مَنْ أرسلَ رسولاً، فَهَمَّ أحدٌ قَتْلَهُ أو الضَّرَرَ بهِ مَنَعَهُ المُرْسِلُ عنْ ذلكَ فَعَلى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: يكونُ ذلكَ أمْراً مِنَ اللهِ ﷻ موسى بالدعاءِ على فرعونَ بالهلاكِ لمّا هَمَّ قَتْلَهُ. وعلى ذلكَ الرسُلُ ﷺ قد أذِنَ لهمْ بالدعاءِ على فَراعِنَتِهِمْ ومُعانِدِيهِمْ ومُكابِرِيهِمْ إذا بَلَغوا في العِنادِ غايَتَهُ[5] والتَّمَرُّدِ نهايَتَهُ[6]، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ قد كانَ هُناكَ تبديلُ الدينِ، فإنهُ قد أظْهَرَ موسى ﷺ دينَ الحقِّ، وآمَنَ [كثيرٌ][7] مِنْ أتباعِهِ. لكنْ كأنهُ أرادَ، واللهُ أعلمُ، بقولِهِ: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي يَذْهَبَ بدينِكُمْ مِنَ الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ذَكَرَ اللعينَ [وقد][8] سَمّى إظهارَ التوحيدِ في الأرضِ ودينَ الإسلامِ فساداً لِيُعْلِمَ أنَّ كلَّ مُدَّعٍ شيئاً، وإنْ كانَ مُبْطِلاً في دعواهُ؛ فعندَهُ أنهُ على حقٍّ، وأنَّ خَصْمَهُ [على الباطلِ][9] فلا يُقْبَلُ قولُ أحدٍ إلّا ببرهانٍ، واللهُ أعلمُ.

ويَحْتَمِلُ أنَّ فِرعونَ اللعينَ أرادَ بقولِهِ: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ قَتْلَ أبنائِهِمْ أي يَقْتُلَ موسى أبناءَكُمْ مُجازاةً لِما قَتَلْتُمْ أنتمْ أبناءَهُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ على الرسُلِ، لا يؤمِنُ بما يَدعوهُ الرسولُ إلى الإيمانِ بيومِ الحسابِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في الظاهرِ، وإلّا لم يكُنْ في الحقيقةِ مِنْ آلِهِ، وإنما مِنْ آلِ موسى وأتباعِهِ حينَ[10] آمَنَ بهِ، وتَرَكَ اتِّباعَ فرعونَ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: مِنْ آلِهِ أي مِنْ نَسَبِهِ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ كانَ ابْنَ عمِّهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ إشفاقاً على نفسِهِ، ولا يُظْهِرُ المُوافَقةَ لهمْ على ما هُمْ فيهِ، إذْ قَدَرَ على الكِتْمانِ دونَ إظهارِ المُوافَقةِ لهمْ. وعلى ذلكَ المُكْرَهُ على إظهارِ الكُفْرِ إذا قَدَرَ على ألّا يُظْهِرَ ما أُريدَ منهُ مِنْ كلمةِ الكُفْرِ، ولا يَقْبَلُ الامْتِناعَ، لا يَسَعُ لهُ إظهارُ ذلكَ لهمْ. فإنْ لم يَقْدِرْ فحينئذٍ يَسَعُ. فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كيده وحيله وتمويهاته. (٣) في الأصل وم: له. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: غايتهم. (٦) في الأصل وم: نهايتهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: باطل. (١٠) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فيهِ إخبارٌ أنهُ كانَ يكتُمُ إيمانَهُ إشفاقاً على نفسِهِ، فلمّا خافَ إهلاكَ رسولِ اللهِ موسى ﷺ، فعندَ ذلكَ أظهَرَ ما كانَ يَكتُمُهُ، وإنْ كانَ في إظهارِ ذلكَ إهلاكُ نفسِهِ بعد أنْ يَرْجُوَ نَجاةَ نَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ ﷺ.

وهكذا يجب ألّا يَسَعَ كتمانُ ما كانَ يَكتُمُهُ، وإنْ كانَ في إظهارِ ذلكَ [هلاكُ نفسِهِ ونجاةُ][1] رسولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ تعالى ﷺ بِحُجَجٍ تَدفَعُ الهلاكَ بها عنْ نفسِ ذلكَ الرسولِ.

ولِذلكَ ذُكِرَ عنْ أبي بَكرٍ الصديقِ ﷺ أنَّ أهلَ مكةَ لمّا هَمّوا قَتْلَ رسولِ اللهِ ﷺ وإهلاكَهُ ألْقَى أبو بكرٍ ﷺ نفسَهُ عليهِ، وقالَ ما قالَ.

[وذُكِرَ أنهُ][2] ذلكَ الرجلُ الذي كانَ يَكتُمُ إيمانَهُ حينَ[3] قالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فعندَ ذلكَ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ على رسولِ اللهِ ﷺ ولم يكُنْ نَزَلَ قَبلَ ذلكَ [آيةٌ فيهِ][4] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي جاءَكُمْ مِنَ البَيِّناتِ ما يُبَيِّنُ أنها آياتٌ مِنْ عندِ اللهِ، لا اخْتِراعاتٌ[5] مِنْ موسى ﷺ ويُبَيِّنُ أنهُ صادقٌ في ما يقولُ، ويَدَّعي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي وإنْ كانَ كاذباً في ما يَدْعوكُمْ إليهِ فَعَليهِ كَذِبُهُ، وإنْ كانَ صادقاً في ما يقولُ، ويَدَّعي ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فهو يَعْلَمُ أنهُ صادقٌ في ما يقولُ حقيقةً.

[ولكنْ لمّا][6] كانَ عندَ القومِ احْتِمالُ الأمرِ ذُكِرَ على [ما][7] في زَعْمِهِمْ دَفْعاً للقَتْلِ عنْ موسى ﷺ.

ثم الإشكالُ أنهُ قالَ: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ذَكَرَ أنهُ يصيبُهُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُ الرسلُ؛ إذا وَعَدوا شيئاً يُصيبُهُمْ بكمالِهِ. لا يجوزُ أنْ يكونَ خلافَ ما أخبَروا أو دونَ ما ذَكَروا. لكنْ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ كانَ وعدُهُ إيّاهُمْ أنْ يُصيبَهُمُ العذابُ في الدنيا والآخِرَةِ، فيقولُ: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهو ما وَعَدَ لهمْ أنْ يُصيبَهُمْ في الدنيا. وأمّا ما[8] وَعَدَ لهمْ في الآخِرَةِ [فهو][9] يُصيبُهُمْ في وقتٍ آخَرَ، وهو في الآخِرَةِ.

فما أصابَهُمْ في الدنيا فهو ما جَرَى الوَعيدُ منهُ لهمْ، لأنَّ الوَعيدَ كانَ منهُ في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنهُ كانَ ﷺ وَعَدَهُمْ بأنواعٍ مِنَ العذابِ، وقد أصابَهُمْ بَعْضُ ذلكَ مِنَ الطوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ والضفادِعِ والدمِ ونَحْوِ ذلكَ. وفي بَعْضِ ما وَعَدَهُمْ، هو هلاكُهُمْ. فكأنهُ يقولُ لهمْ: إنكمْ[10] قد أصابَكُمْ [كثيرٌ][11] مِنْ ذلكَ، فَيُصيبُكُمْ بَعْضُ[12] ما يَعِدُكُمُ الذي فيهِ هلاكُكُمْ مُبالَغَةً في الزجرِ لِما أصابَهُمْ ما وَعَدَ لهمْ مِنْ أنواعِ العذابِ، ولم يكُنْ وَعْدُهُ كَذِباً، فَبَعْضُ ما وَعَدَكُمْ، وهو الهلاكُ، كيفَ يكونُ كَذِباً؟ واللهُ أعلَمُ والموفِّقُ.

والثالثُ: يُرادُ بالبَعْضِ الكُلُّ، لأنهُ أرادَ بهذا البَعْضِ الهلاكَ، وهو البعضُ الأقصَى، فيدخُلُ العالي فيهِ لأنهُ إذا أوعَدَ بأنواعٍ مِنَ العذابِ، منها الهلاكُ، وهو[13] البَعْضُ الأقصَى، إذْ لا عذابَ في الدنيا بعدَ الهلاكِ، فيكونُ سائرُ أنواعِ العذابِ في الدنيا[14]، قبلَ الهلاكِ. فإذا أُريدَ بهِ هذا البَعْضُ يَدخُلُ فيهِ ما قَبْلَهُ، ويكونُ ذِكْرُهُ ذِكْرَ الكُلِّ؛ إذْ لا وجودَ لهُ بدونِ سائرِها. لِذلكَ قالَ: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنهُ لا يَهْدِي مَنْ هو في عِلْمِهِ أنهُ يُؤْثِرُ الإسرافَ والكَذِبَ.

---

(١) في الأصل وم: نجاة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: اختراعا. (٦) من م، في الأصل: لكن ولما. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: من. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إنهم. (١١) في م: كثيراً، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: بعد. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: يكون.

جنة السنة

والثاني: لا يَهْدِي مَنْ هو مُختارٌ الإسراف والكذبَ وقتَ اختيارِهِ[1] الإسرافَ والكَذِبَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يَحتَمِلُ أنْ يقولَ ذلكَ [بعدَ][2] ما سالوهُ أنْ يَتَّبِعَ دينَهُمْ وما هُمْ فيهِ: إني لو اتَّبَعْتُكُمْ، وأجَبْتُكُمْ، ومَعَكُمُ المُلْكُ والحَشَمُ والغَلَبَةُ، وليسَ معي ذلكَ. فإذا جاءَ بأسُ اللهِ وعذابُهُ، فَصِرْتُمْ أنتمْ مُمْتَنِعينَ/ ٤٧٧ ـ أ/ عنهُ بما مَعَكُمْ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ بأمرِهِ [مِنْ][3] عذابِ اللهِ؟

وليسَ معناهُ ذلكَ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ حقيقةً أنَّ ما مَعَهُمْ مِنَ الغَلَبَةِ لا يَمْنَعُ مِنْ عذابِ اللهِ. لكنْ قالَ ذلكَ بِناءً على اعْتِقادِهِمْ إظهاراً للعذابِ عندَهُمْ كيلا يُقْدِموا على قتلِهِ لِصيانةِ حياتِهِ. ومِثْلُ هذا لا بأسَ [بهِ][4] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ على الرِّفْقِ بهِمْ وإظهارِ المُوافقةِ لهمْ في الظاهرِ؛ يقولُ: إنهُ قد جاءَنا مِنَ اللهِ [مِنَ][5] البَيِّناتُ ما أوضَحَ الحقَّ، وبَيَّنَ السَّبيلَ. فإذا رَدَدْنا ذلكَ، وكَذَّبْناهُ[6] جاءَنا بأسُ اللهِ جُمْلَةً وعذابُهُ. فَمَنْ يَمْنَعُنا عنهُ، ويَنْصُرُنا مِنْ عذابِهِ إذا خالَفْنا أمْرَهُ، وتَرَكْنا اتِّباعَ دينِهِ؟ على هذينِ القولَينِ يُخَرَّجُ القولُ فيهِ[7]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷺ: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ما آمُرُكُمْ إلّا بما رأيتُهُ لنفسي.

وقالَ بعضُهُمْ: ما أختارُ لكُمْ إلّا لنفسي ذلكَ. لكنَّ اللعينَ لَنْ يَختارَ لنفسِهِ لأنَّ ما اختارَ لنفسِهِ باطلٌ فاسدٌ، وكَذَبَ اللعينُ أيضاً حينَ[8] قالَ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ما أختارُ لكُمْ إلّا ما أختارُ لنفسي لأنهُ اختارَ لهمْ أنْ يَعْبُدوهُ، ولم يَختَرْ لنفسِهِ عبادةَ أولئكَ: أنْ يَعْبُدَهُمْ، فهو كَذِبٌ مِنَ القولِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ بل كانَ يَهْديهِمْ سَبيلَ الغَيِّ.

الآيتان ٣٠ و٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ كأنَّ فيهِ إضماراً؛ يقولُ: إني أخافُ عليكُمْ مِثْلَ يومِ الأحزابِ ويوماً مِثْلَ يومِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ. فهو، واللهُ أعلَمُ، صلةُ قولِهِ في ما تَقَدَّمَ: يا قومِ لكُمُ المُلْكُ اليومَ ظاهرينَ في الأرضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بأسِ اللهِ إنْ جاءَنا؟ وعَظَهُمْ مَرَّةً، واحتَجَّ عليهمْ بما جاءَهُمْ موسى بالبَيِّناتِ حينَ[9] قالَ: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ وتتركونَ اتِّباعَهُ، وتَتَّبِعونَ رجلاً لم يأتِكُمْ بالبَيِّناتِ؟

هذا منهُ احتِجاجٌ عليهِمْ: أنْ كيفَ تَقْتُلونَ رجلاً، وتتركونَ اتِّباعَهُ بعدَ ما جاءَكُمْ بالبَيِّناتِ مِنْ ربِّكُمْ، وتَتَّبِعونَ مَنْ لا بَيِّنَةَ معهُ ولا برهانَ؟ يُسَفِّهُهُمْ في صَنيعِهِمُ الذي أرادوا أنْ يَصْنَعوا بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ووَعَظَهُمْ أيضاً وَعْظاً لطيفاً، فيهِ رِفْقٌ حينَ[10] قالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ إنْ قَتَلْتُمْ ذلكَ الرجلَ بَعدَ ما جاءَكُمْ بالبَيِّناتِ، وتَرَكْتُمُ اتِّباعَهُ، فجاءَكُمْ عذابُ اللهِ، فَمَنْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ ذلكَ العذابِ؟ ويَمْنَعُكُمْ[11] عنهُ إذا قَتَلْتُمْ نَبِيَّهُ بِغَيرِ حقٍّ؟

ثم وعَظَهُمْ وَعْظاً بما نَزَلَ بِمُكَذِّبي مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الرسلِ حينَ[12] قالَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ يقولُ: إني أخافُ عليكُمْ أنْ يَنْزِلَ بكُمْ، ويَقَعَ عليكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ بِتَكذيبِكُمُ الرسولَ موسى ﷺ وتَرْكِكُمُ اتِّباعَهُ بعدَ ما جاءَكُمْ بالبَيِّناتِ أنهُ رسولٌ، وأنهُ صادقٌ في ما يقولُ، ويَدْعو، كما نَزَلَ، وَوَقَعَ مِنَ العذابِ بالأحزابِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ بِتَكذيبِهِمُ الرسلَ واستِقْبالِهِمْ إيّاهُمْ بما استَقْبَلوا بعدَ ظهورِ صِدْقِهِمْ عندَهُمْ بما تَستَقْبِلونَ أنتمْ رسولَكُمْ موسى بعدَ ما ظَهَرَ صدقُهُ عندَكُمْ بالبَيِّناتِ التي جاءَكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: اختيارهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وكذبناهم. (٧) في الأصل وم: منه. (٨) و(٩) و(١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من م، في الأصل: ويمنعهم. (١٢) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

ثم ما ذَكَرَ مِنَ الأحزابِ فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تفسيرُهُ ما ذَكَرَ على إثرِهِ من قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ. ويَحْتَمِلُ سؤالَهُمْ مِنَ الأممِ، والله أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي مِثْلُ صَنيعِ قومِ نوحٍ ومَنْ ذَكَرَ وفعلِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي مِثْلَ عذابِ قومِ نوحٍ ومَنْ ذَكَرَ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ في هذهِ الآيةِ للمعتزلةِ نوعُ تعلُّقٍ؛ يقولونَ، إنَّ الله تعالى قد أرادَ مِنَ العبادِ [أنْ يَفعلوا][1] ما يَفعلونَ مِنْ أفعالِ الظُّلمِ والجورِ، وقد أخبَرَ الله تعالى أنهُ لا يريدُ ظُلماً للعبادِ.

ولكنَّ الآيةَ في التحقيقِ عليهِمْ لأنهُ قالَ في آيةٍ أخرى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] أخبَرَ أنهُ أرادَ ألا يَجْعَلَ لهمْ حظّاً في الآخرةِ، ولولم يُرِدْ منهمْ ما يَستوجبونَ بهِ العذابَ، كانَ في تعذيبِهِ[2] إيّاهم ظالماً على زعمِهِمْ. دلَّ أنهُ أرادَ بهِمْ ما يَستوجبونَ بهِ العذابَ، وهو فِعْلُ الظلمِ، والله أعلَمُ.

ثم تأويلُ الآيةِ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الإرادةَ، هي صفةُ كلِّ فاعلٍ يَفعَلُ عنِ اختيارٍ. فكأنهُ قالَ: والله لا يَظلِمُ عِبادَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

والثاني: فيهِ إخبارٌ أنهُ لا يعاقبُ أحداً بذنبِ غيرِهِ، ولا يؤاخِذُهُ بجريمةِ غيرِهِ، ولا يزيدُ على قَدْرِ ما يَستحِقّونَ بهِ العذابَ، ولا ينقُصُهُمْ مِنْ ثوابِ حسناتِهِمْ شيئاً كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها إخبارٌ أنهُ لا يَجْزيهِمْ بأكثَرَ ممّا يَستوجبونَ، ليسَ على ظَنِّ أولئكَ، والله أعلَمُ.

الآيتان ٣٢ و٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ الآية. وعَظَهُمْ[3] أيضاً بعذابِ الآخرةِ وما يكونُ منهمْ مِنَ الندامةِ بتَرْكِهِمْ اتّباعَ الرسولِ بعدَ ما وَعَظَهُمْ، وبعذابِ[4] الدنيا وما نَزَلَ بأوائلِهِمْ بصَنيعِهِمْ مِثْلَ صنيعِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ الآية.

ثم قولُهُ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ فيهِ ثلاثُ لُغاتٍ: إحداها: يومَ التّنادي أي بالياءِ، والثانيةُ بالتّخفيفِ على حَذْفِ الياءِ [التّنادِ][5] والثالثةُ: بالتّشديدِ [التّنادِّ][6].

فَمَنْ قرأها بالتشديدِ[7] فيقولُ: هو من نَدَّ يَنِدُّ نَدّاً إذا مَضَى [هائماً على][8] وجهِهِ هارباً فارّاً مِنْ عذابِ الله، إذا عايَنَ العذابَ، وهو مِنْ نَدِّ الإبلِ وغيرِهِ، والله أعلَمُ.

ومَنْ قرأ بالياءِ، فهو التّفاعُلُ مِنَ النداءِ، فهو على نداءِ بعضِهِمْ بعضاً يومَ القيامةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ونحوُهُ.

ومَنْ قرأ بغيرِ الياءِ فقد حذَفَ الياءَ كقولِهِ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] وأصلُهُ: التّنادي، والله أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يومَ تُوَلّونَ هاربينَ مِنَ النارِ مُدْبِرينَ عنها كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ما لكُمْ مِنْ عذابِ الله إذا نَزَلَ بكُمْ مِنْ مانعٍ يَمْنَعُكُمْ مِنْ عذابِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تعذيبهم. (٣) في الأصل وم: وعظيم. (٤) من م، في الأصل: وعذاب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر مختصر في شواذ القرآن ص ١٣٢ والجامع لأحكام القرآن ج١٥/٢٩٧. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي جاءكُمْ يوسفُ مِنْ قَبْلِ موسى ﷺ بالبيِّناتِ أي بالآياتِ والأدِلّةِ على رسالتِهِ وصِدْقِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا قولُ ذلكَ الرجلِ لقومِهِ؛ يُخبِرُهُمْ عن سَفَهِ أوائلِهِمْ مِنْ تكذيبِهِمْ يوسفَ بأرضِ مصرَ قَبْلَ موسى، وما كانَ مِنَ القولِ منهمْ بَعدَ ما ذَهبَ مِنْ بَيْنِهِمْ وردِّهِمْ آياتِهِ وحُجَجَهُ التي أتاهُمْ بها، وما أخبَرَ أنهمْ وأوائلَهُمْ لم يَزالوا في شكٍّ وريبٍ ممّا جاءَتْهُمُ الرسلُ مِنَ الآياتِ والأدِلّةِ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يقولُ: /٤٧٧ ـ ب/ لم تَزَلْ عادتُكُمْ وعادةُ أوائِلِكُمْ هذهِ[1].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ، وإنْ خاطَبَهُمْ بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وقولِهِ: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم﴾ وقولِهِ: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ إنما أرادَ آباءَهُمْ وأوائلَهُمْ لأنَّ يوسفَ ﷺ لم يكُنْ في زَمَنِ هؤلاءِ مَبعوثاً إليهِمْ على ما عاتَبَ الأبناءَ بِصُنْعِ آبائِهِمْ في غيرِ آيةٍ[2] مِنَ القرآنِ كقولِهِ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١] وقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٢] وهؤلاءِ لم يَقتُلوا الأنبياءَ، ولا اتّخذوا العِجلَ، وإنما فَعَلَ ذلكَ آباؤُهُمْ وأوائلُهُمْ. ثم جاءَ العِتابُ لهمْ بسوءِ صنيعِ آبائِهِمْ وأوائِلِهِمْ. فَعَلى ذلكَ هذا.

وجائزٌ أنْ يكونَ، وإنْ خاطبَهُمْ بما ذَكَرَ مِنْ سوءِ الصنيعِ والتكذيبِ إنما يُخبِرُ عن صنيعِ آبائِهِمْ وأوائِلِهِمْ، فَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ مِثْلِ صَنيعِ أولئكَ مِنَ التكذيبِ لهمْ والرَّدِّ لأدِلَّتِهِمْ والقولِ بعدَ ذَهابِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ والكذبِ على اللهِ أنهُ لم يَبْعَثْ رسولاً.

يقولُ: إيّاكُمْ أنْ تُكذِّبوهُ، وتَرُدّوا آياتِهِ وحُجَجَهُ، ثم تقولوا: إذا ماتَ موسى لنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رسولاً كما قالَ أوائلُكُمْ: إذا ماتَ يوسفُ لم يكنْ مِنْ بعدِهِ رسولٌ[3] بقولِهِمْ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ يُشْبِهُ أنْ تُخرَّجَ الآيةُ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ فقد ذَكَرْنا تأويلَهُ مِنْ وجهَينِ في ما تقدَّمَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: آمنوا بِهِ، وأنكَروا رسالةَ غيرِهِ بعدَ رسولِهِمْ: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾.

والثاني: أي أنكَروا رسالتَهُ في حالِ حياتِهِ، ولم يُؤمِنوا بِهِ. فإذا هَلَكَ أنكَروا أنْ يكونَ هو مَبعوثاً إليهِمْ رسولاً، فَيُحذِّرُ أولئكَ ألّا يكونوا كأولئكَ آمَنوا بِهِ، وأنكَروا رسالةَ غيرِهِ مِنَ الرسُلِ بعدَهُ، أو يقولُ: لا تكونوا كأولئكَ يُكذِّبونَهُ ما دامَ حيّاً، فإذا هَلَكَ يُكذِّبونَ رسالتَهُ، يُحذِّرُهُمْ [مِنْ][4] سَفَهِ أوائِلِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي يُجادِلونَ في دَفعِ آياتِ اللهِ وردِّها بِغَيرِ حُجّةٍ وسُلطانٍ أتاهُمْ مِنَ اللهِ أو بِغَيرِ حَجّةٍ مَكّنَ لهمُ الاحتِجاجَ بها، وإلّا كانَ أهلُ الإيمانِ قد يُجادِلونَ فيها حتى إذا ظَهَرَتْ أنها آياتٌ آمَنوا بها، وأقرّوا بها.

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا: أي جادَلوا في دَفعِ آياتِ اللهِ وردِّها بِغَيرِ حُجّةٍ أتاهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هكذا الواجبُ على أهلِ الإيمانِ أنْ يَمقُتوا مِنَ الأعمالِ ما مَقَتَها اللهُ تعالى، أو يَمقُتوا مَنْ مَقَتَهُ اللهُ مِنْ أعدائِهِ. وعلى ذلكَ ذُكِرَ أنَّ خيرَ أعمالِكُمْ حُبُّ ما أحبَّهُ وبُغضُ ما أبغَضَهُ اللهُ، أو كلامٌ نَحْوُهُ، وشَرُّ أعمالِكُمْ حُبُّ ما أبغَضَهُ وبُغضُ ما أحَبَّهُ اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي هكذا يَطبَعُ اللهُ على كلِّ قَلْبِ مَنْ جادَلَ في دَفعِ آياتِ اللهِ وردِّها بِغَيرِ حُجّةٍ، أي يَطبَعُ على كلِّ مَنْ تَعوَّدَ التكبُّرَ والتجبُّرَ على الآياتِ والرسلِ واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: هذا. (٢) في الأصل وم: آي. (٣) في الأصل وم: رسولا. (٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ مَنْ هو كذا، و﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [ونحوُهُ كلُّ][1] حروفِ الإعْتِلالِ بَيَّنَ اللهُ تعالى العِلَلَ التي لها لا يَهْديهِم، ويُضِلُّهُم، وكذلك في قولِهِ: ﴿لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨] [وقولِهِ][2] ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ ونَحْوِهِ. أي لا يَهْدي مَنْ كانَ طَبْعُهُ وعادَتُهُ الإسرافَ والكَذِبَ وكُفْرانَ النِّعَمِ ودَفْعَ الآياتِ والحُجَجِ بلا حُجَّةٍ وبرهانٍ.

فأمّا مَنْ كانَ طَبْعُهُ وعادَتُهُ غيرَ هذا، لكن لِجَهْلِ جَهِلَ ذلك، أو لِما يَتَحَقَّقُ عندَهُ لِفِطْنَةٍ وقِلَّةِ التأمُّلِ ولاشْتِغالِهِ بأمورِ الدنيا، أو لِمَعْنًى مِنَ المعاني، يجوزُ أنْ يَهْدِيَهُ اللهُ تعالى، ويُرْشِدَهُ. على هذا تُخَرَّجُ هذهِ الآياتُ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ ما كانَ مِنْ فِرْعَونَ اللعينِ مِنَ التَّمْويهاتِ والتَّلْبيساتِ على أتباعِهِ في أمرِ موسى ﷺ بعدَ مَعْرِفَتِهِ أنَّ ذلكَ ليسَ لِقَدْحٍ في الآياتِ والحُجَجِ التي أتاهمْ موسى ﷺ [ولكنْ][3] أرادَ أنْ يُمَوِّهَ، ويُلْبِسَ على قومِهِ. فكلُّ مَنْ كانَتْ عادَتُهُ وطَبيعَتُهُ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّمويهِ والتَّلْبيسِ والمُجادلةِ في دفعِ الآياتِ بلا حُجَّةٍ والتَّكَبُّرِ عليها، فلا يَهديهِ اللهُ تعالى، ويَطْبَعُ على قَلْبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٦ و٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ لِلْمُشَبِّهَةِ تَعَلُّقٌ بِظاهِرِ هذهِ الآيةِ، يقولونَ: لولا أنَّ موسى ﷺ كانَ ذَكَرَ، وأخبرَ فرعونَ أنَّ الإلهَ في السماءِ، وإلّا لَمَا أمَرَ فرعونُ هامانَ أنْ يَبْنِيَ لهُ ما يَصْعَدُ بهِ إلى السماءِ، ويَطَّلِعُ إلى إلهِ موسى على ما قالَ تعالى خَبَراً عنِ اللعينِ.

لكنا نقولُ: لا حُجَّةَ لهمْ، فإنهُ جائزٌ أنْ يكونَ هذا مِنْ بعضِ التَّمْويهاتِ التي كانَتْ منهُ على قومِهِ في أمرِ موسى ﷺ ومِنْ بَعْضِ مَكايِدِهِ التي كانَتْ منهُ بهِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤] وقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١ والشعراء: ٤٩] وقولِهِ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] ونَحْوِ ذلكَ مِنَ التَّمْويهاتِ التي كانَتْ منهُ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ تَمْويةٌ منهُ على قومِهِ بموسى. يقولُ: إنَّ موسى إنما يدعو إلى إلهٍ في السماءِ، فهو نَحْوُ إلهٍ، يكونُ في الأرضِ؛ يُمَوِّهُ على الناسِ أمْرَ موسى مِنْ غَيرِ أنْ كانَ مِنْ موسى ذِكْرٌ، أو خَبَرٌ أنَّ اللهَ تعالى في السماءِ على ما كانَتْ منهُ سائرُ التَّمْويهاتِ، وإنْ لم يَكُنْ مِنْ موسى ذِكْرُ تلكَ التَّمْويهاتِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنَّ فرعونَ قالَ ذلكَ لمّا رَأى أنَّ البَرَكاتِ والخَيراتِ تَنْزِلُ مِنَ السماءِ، فَظَنَّ أنهُ في السماءِ.

ثم اخْتُلِفَ في الأسبابِ: قالَ بعضُهُمْ: أسبابُ السمواتِ أبوابُها، وتَحْتَمِلُ أسبابُ السمواتِ، هي الطُّرُقُ التي تَصْعَدُ إلى السماءِ. وحقيقةُ الأسبابِ هي ما يُوصَلُ بها إلى الأشياءِ[4]، يُقْصَدُ إليها. وقد عَلِمَ[5] اللَّعينُ أنهُ لا يَصِلُ إلى ذلكَ بما[6] ذَكَرَ مِنْ بناءِ الصَّرْحِ. لكنهُ أرادَ بذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّمْويهاتِ والتَّلْبيسِ على قومِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ قالَ هُهنا: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ بَعدَ ما قَطَعَ القولَ فيهِ: إنهُ كاذبٌ، وإنهُ كذّابٌ لِيُعْلَمَ أنهُ كانَ على حقٍّ، وأنهُ صادقٌ. ولكنهُ يُمَوِّهُ بذلكَ على قومِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي زَيَّنَ لهُ الشيطانُ سوءَ عَمَلِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُقالَ: زَيَّنَ لهُ بالأتباعِ وكثرةِ الأموالِ والحَشَمِ؛ الذي أعطى لهُ، زَيَّنَ لهُ سوءَ عَمَلِهِ بالأسبابِ التي أُعْطِيَتْ لهُ، فيكونُ اللهُ تعالى مُزَيِّناً لهُ سوءَ عَمَلِهِ بإعطاءِ الأسبابِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي خَلَقَ في طَبعِهِ أنْ يَرى ذلكَ حَسَناً مُزَيَّناً، وإنْ كانَ قبيحاً في نفسِهِ حقيقةً على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

---

(١) في الأصل وم: ونحو كله. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: الأسباب. (٥) أدرج بعدها في الأصل: إنما ذكر. (٦) في الأصل وم: بها.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقُرئَ: وَصَدَّ بالفتحِ[١]. فَمَنْ قَرَأَ بالفتحِ فَلَهُ مَعْنَيانِ:

أحَدُهما: صَدَّ هو بنفسِهِ صُدوداً. والثاني: صَدَّ هو الناسَ عن سَبيلِهِ صَدًّا.

ومَن قَرَأَ: ﴿وَصُدَّ﴾ بالضَّمِّ أي [لم][٢] يُوَفَّق، ولم يُرْشَد، لما عُلِمَ منهُ اختيارُ ضِدِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي في خسارٍ. التَّبابُ الخَسارُ؛ يُقالُ في قولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خَسِرَتْ، ويُقالُ: تبّاً لَهُ، أي هلاكاً /٤٧٨ ـ أ/ لَهُ، وقيلَ: تَبَّتْ يدا الرجلِ، أي خابَتْ.

الآية ٣٨ ثم أخبَرَ عمّا ذَكَرَ، وَوَعَظَ ذلكَ الرجلُ[٣]، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي أبيِّنْ لكمْ سبيلَ الرشادِ.

مَرَّةً خَوَّفَهُمْ بما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ بتكذيبِ الرسلِ وتركِ أتباعِهِمْ، ومَرَّةً بَيَّنَ سَفَهَهُمْ في أنفسِهِمْ بسوءِ صَنيعِهِمْ، ومَرَّةً وَعَظَهُمْ، ونَصَحَهُمْ، ودعاهُمْ إلى اتِّباعِهِ لِيُبَيِّنَ لهمْ سَبيلَ الرشادِ، ويَهْدِيَهُمْ إليهِ. وما[٤] خافَ على نفسِهِ الهلاكَ بَعْدَ ما أظْهَرَ الإيمانَ، ولم يُبالِ هلاكَ نفسِهِ.

وقالَ الكسائيُّ: الرشادُ والرُّشْدُ والرَّشَدُ ثلاثُ لغاتٍ، ولا يُقرأُ ههنا غيرُ الرشادِ.

الآية ٣٩ ثم قالَ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي مَتاعٌ ومنفعَةٌ، يَبْلُغُ إلى مُنْتَهى آجالِكُمْ؛ يَبْلُغُ بِهِ العاصي والمطيعُ إلى أجلِهِ. يُخبِرُ أنها على الانقضاءِ والذهابِ عن قريبٍ، ويُخبِرُ أنَّ دارَ الآخِرَةِ، هي دارُ القرارِ ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي تَقِرُّ بأهلِها؛ إنْ كانَ أهلُها أهلَ خيرٍ قَرَّتْ بهمْ خيراً أبداً، لا يزولُ، وإنْ كانَ أهلُها أهلَ شَرٍّ يَقِرُّ بِهِمُ الشَّرُّ أبَدَ الآبدينَ.

الآية ٤٠ ثم أخبَرَ عنْ عَدْلِ اللهِ تعالى في أعدائِهِ وفَضْلِهِ في أوليائِهِ حينَ[٥] قالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي يَجْزي[٦]، ولا يزيدُ لهمْ على مِثْلِ جناياتِهِمْ، لأنَّ المِثْلَ هو العَدْلُ في جميعِ الأشياءِ؛ يُخبِرُ ألّا يزيدَ على قَدْرِ عقوبةِ عَمَلِهِمْ، ولكنْ يَجْزيهِمْ بِمِثْلِهِ.

وأمّا جزاءُ الحسنةِ فإنهُ يزيدُ لهمْ على قَدْرِ ما يَسْتوجِبونَ فَضْلاً وإحساناً: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

ثم فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ في النارِ أبداً. لو كانَ على ما ذكروا كانَ في ذلكَ تَسْوِيَةٌ بينَ صاحبِ الكبيرةِ وبينَ صاحبِ الشِّرْكِ، فأمّا أنْ يكونَ نُقْصاناً لِصاحبِ الشِّرْكِ عنْ مِثْلِ عقوبَتِهِ أو زيادةً لِصاحبِ الكبيرةِ، وقد أخْبَرَ أنَّهُ لا يُجزى إلّا مِثْلَها، فذلكَ خلافُ ظاهرِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ دلَّ هذا على أنَّ العَمَلَ الصالحَ لا يَنْفَعُ، ولا يُجزى بِهِ إلّا مَنْ كانَ منهُ الإيمانُ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يَحْتَمِلُ بِلا تَبِعَةٍ، ويَحْتَمِلُ بِلا تَقْديرٍ وعَدَدٍ، وقد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كأنهُ قالَ: يا قومِ مالي ولكمْ؛ أدعوكُمْ إلى ما بِهِ نجاتُكُمْ، وأنصحُ لكمْ، وتَدْعونَني أنتمْ إلى [ما][٧] بِهِ هلاكي؟ فَمَتى يكونُ بيننا موالاةٌ واجتماعٌ؟ أي لا يكونُ.

إنما يُذْكَرُ هذا وأمثالُهُ[٨] في المواعظِ [إذا][٩] انتهَتْ غايتُها، وبَلَغَتْ نهايَتَها، فلم[١٠] يَنْجَعْ فيهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الآية [يونس: ٤١].

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/٤٧. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: من إله. (٤) في الأصل وم: وإن.
(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وأمثالها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فلما.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يَحْتَمِلُ بِلا تَبِعَةٍ، ويَحْتَمِلُ بِلا تَقْديرٍ وعَدَدٍ، وقد ذَكَرْناهُ في
الصالحَ لا يَنْفَعُ، ولا يُجزى بِهِ إلّا مَنْ كانَ منهُ الإيمانُ بِهِ.
كأنهُ قالَ: يا قومِ مالي ولكمْ؛
فَمَتى يكونُ بيننا موالاةٌ واجتماعٌ؟ أي لا

جنة السنة

الآية ٤٢ ثم فسّرَ ما يَدعوهُمْ إليهِ مِنَ النجاةِ حينَ(١) قالَ: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ هذا منهُ تفسيرُ ما دعاهُمْ إلى النجاةِ، وبيانُ ما يَدْعُونهُ إلى الهلاكِ.

ثم قولُهُ: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ قد يُستعمَلُ قولُهُ: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في نَفْيِ العِلْمِ، أي ليسَ ذلكَ، وذلكَ في إثباتِ العلمِ بخلافِهِ وضِدِّهِ؛ يقولُ: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولا كانَ مِنَ الشَّريكِ(٢) أو يقولُ: تَدْعونني لِأكفُرَ باللهِ وأُشْرِكَ بِهِ ما ليسَ لكُمْ بهِ عِلْمٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ ثم بيّنَ عجزَ ما يَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ وغيرِها، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: بِحقٍّ ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي لم تَدْعُكُمْ إلى عبادةِ أنفسِها(٣)، أي الأصنامُ التي عَبَدوها.

والأولُ أشبَهُ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ تلكَ الأصنامَ رجاءَ أنْ تَشْفَعَ لهمْ. فأخبَرَ أنها لا تَشْفَعُ بقولِهِ: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي شفاعةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ مَرْجِعَنا إلى ما أعدَّ اللهُ لنا، أعَدَّ لكُمُ النارَ، وأعَدَّ ليَ الجنّةَ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ والمُقْتَصِدينَ مِنْ أصحابِ الجنةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي سَتَذْكُرونَ إذا عايَنْتُمْ ما أعدَّ لكُمْ وأعدَّ لنا أنَّ ما كُنْتُمْ عليهِ، ودَعَوتُموني إليهِ دُعاءٌ إلى الهلاكِ، وما دَعَوتُكُمْ إليهِ، هو دعاءٌ إلى الجنةِ، أو يقولُ: سَتَذْكُرونَ ما نَصَحْتُ بدعائي إياكُمْ إلى ما بِهِ نجاتُكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: كأنهمْ خَوَّفوهُ، وأوعَدوهُ بأنواعِ الوَعيدِ والتَّخويفِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأتوَكَّلُ عليهِ، فَيَحفَظُني، ويدفَعُ شَرَّكُمْ وما تقْصِدونَ بي، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي عليهِ أتوَكَّلُ [وبهِ أكِلُ](٤) في جَميعِ الأمورِ مِنَ الخيراتِ والشُّرورِ، وهو الكافي لِذلكَ.

والثالثُ: إظهارُ الحاجةِ إليهِ، والمؤمنُ أبداً يكونُ مُظهِراً للحاجةِ إلى اللهِ تعالى في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

والرابعُ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا أشْتَغِلُ بشيءٍ في أمري، أُصيِّرُهُ إلى اللهِ تعالى.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا يَصِحُّ تَفويضُ [الأمرِ](٥) إلى اللهِ تعالى لأنهمْ يقولونَ: إنَّ عليهِ أنْ يُعْطِيَ جميعَ ما يَحتاجُ إليهِ المُكلَّفُ حتى لا يَبْقى عندَهُ مَزيدٌ، وإذا لم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ فليسَ لِتَفويضِ الأمرِ إليهِ مَعْنىً، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ دلَّ هذا على أنهمْ قَصَدوا قَصْدَ المَكْرِ بهِ حينَ(٦) أخْبَرَ أنهُ وَقاهُ سَيِّئاتِ ما مَكَروا. فجائزٌ أنهمْ(٧) هَمُّوا بقَتْلِهِ. ويَحْتَمِلُ غيرَهُ.

ثم يَحْتَمِلُ ما وَقاهُ مِنْ مَكْرِهِمْ بما وَقَى موسى ﷺ لمّا أهْلَكَهُمْ، وأنجاهُ مِنْ شَرِّهِمْ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً(٨) آخَرَ، لا نُفَسِّرُهُ لأنّا لا نَحتاجُ إليهِ، وإنما حاجاتُنا إلى أنْ نَعْلَمَ أنَّ كلَّ [مَنْ](٩) بَذَلَ نفسَهُ للهِ تعالى [وَوَكَلَ أمرَهُ إليهِ، وَقاهُ اللهُ تعالى](١٠) وحَفِظَهُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ استَدَلَّ بعضُ الناسِ على عذابِ القبرِ بقولِهِ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وإنما تُعْرَضُ أرواحُهُمْ على النارِ، فَتَتَألَّمُ أجسادُهُمْ في القبورِ لذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل وم: الشرك. (٣) في الأصل وم: نفسها. (٤) في الأصل وم: وأكل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: إن. (٨) في الأصل وم: توجيه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ تُعرَضُ أرواحُ أهلِ الجنةِ، فَتَلَذَّذُ بِتلَذُّذِ الأرواحِ بَعدَ أنْ أحدثَ فيها الحياةَ التي [بها][1] يَتحقَّقُ الألمُ واللذةُ. هذا في القبورِ.

ثم إذا أُدْخِلوا النارَ يكونُ لهمْ ما ذَكَرَ مِنَ العذابِ حينَ[2] قالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ العَرْضِ على النارِ قَبْلَ القيامةِ قَبْلَ أنْ يُدْخَلوا النارَ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢و٢٣و٢٤] يكونُ عرضُهُمْ على النارِ، هو وقْتُ وَقْفِهِمْ للسؤالِ وحَبْسِهِمْ لذلكَ. ثم يُدخلونَ النارَ، فيكونُ لهمُ العذابُ الذي ذَكَرَ، وهو قولُ الحَسَنِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يَحتَمِلُ قَدْرَ غُدُوٍّ وقَدْرَ عَشِيٍّ. فإنْ كانَ التأويلُ في عذابِ القَبرِ يَحتَمِلُ ما قالَ بعضُهُمْ: أنْ يُقالَ لهمْ: هذا لكُمْ ما دامَتِ الدنيا. ويَحتَمِلُ أنهُ ذَكَرَهُ على إرادةِ الغُدُوِّ والعَشِيِّ حقيقةَ ذلكَ: كلَّ وقتٍ. لكنْ يَتجدَّدُ التألُّمُ والوَجَعُ بكلِّ قَدْرِ غُدُوٍّ وقَدْرِ عَشِيٍّ واللهُ أعلَمُ.

وَذُكِرَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ قالَ: جُعِلَتْ أرواحُ آلِ فرعونَ في أجوافِ طُيورٍ سودٍ؛ يُعْرَضونَ على النارِ كلَّ يوم مَرَّتَينِ، يُقالُ: يا آلَ فرعونَ هذهِ دارُكُمْ، قالَ عبدُ اللهِ: فذلكَ عَرْضُها فإنْ ثَبَتَ هذا عنِ ابْنِ مسعودٍ][3] فهو تفسيرٌ لِما ذَكَرَ مِنَ الغُدُوِّ والعَشِيِّ.

ثم إنْ ثَبَتَ هذا عنهُ فهو سَماعٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ بابٌ لا يُدْرَكُ بالتَّدَبُّرِ مَعَ ما رُوِيَ عنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ/٤٧٨ ـ ب/ [أنهُ][4] قالَ: إنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قالَ[5]: «إذا ماتَ أحدُكُمْ عُرِضَ عليهِ مَقْعَدُهُ بالغداةِ والعَشِيِّ: إنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ فَمِنَ الجنةِ، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ فَمِنَ النارِ. يُقالُ لهُ: هذا مَقْعَدُكَ حتى يُبْعَثَ إليهِ يومَ القيامةِ» [البخاري: ٣٢٤٠] فإنْ ثَبَتَ هذا، وصَحَّ عنهُ، فهو دليلٌ لِوُجوبِ عذابِ القبرِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يُعَذَّبونَ في الأوقاتِ كلِّها بَعدَ إدخالِهِمْ فيها.

وذِكْرُ الغُدُوِّ والعَشِيِّ يَخرُجُ على سُكونِ النارِ في أوقاتٍ ثم تَلَهُّبِها[6]، كقولِهِ تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في ما ذَكَرَ مِنْ إدخالِ آلِ فرعونَ في أشَدِّ العذابِ والخُصوصيَّةِ لهمْ في ذلكَ مِنْ بينِ غَيرِهِمْ مِنَ الكَفَرةِ؟ قيلَ: بوجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ غَيرَ موسى مِنَ الرسلِ ﷺ قد نُسِبوا إلى السحرِ كما نُسِبَ إليهِ موسى، لكنْ لم يَتَبَيَّنْ، ولا تَحقَّقَ لقومِهِمْ براءةُ رسلِهِمْ في ما قَرَفَهُمُ الرؤساءُ والقادةُ منهمْ بالسحرِ والكذبِ بِما وُجِدَ منهمُ التمويهُ على السفلةِ والأتباعِ، وقد تَحقَّقَ لآلِ فرعونَ براءةُ موسى مِمّا قَرَفَهُ فرعونُ بالسحرِ والكذبِ، وتَبَيَّنَ عندَهُمْ صِدقُ ما ادَّعى مِنَ الرسالةِ، وذلكَ مِمّا أقَرَّ بهِ جميعُ سَحَرَةِ فرعونَ أنَّ ما جاءَ بهِ موسى حقٌّ، وما يقولُهُ صدقٌ، وإيمانُهُمْ بموسى ﷺ نهاراً جِهاراً، واختاروا القَطْعَ والصَّلْبَ، ولم يَمتَنِعوا عنْ مُتابَعَتِهِ وما رَأَوا مِنِ انقلابِ العصا حيَّةً تَسعى، وتَلَقُّفِ ما صَنَعوا. فيكونُ عنادُهُمْ أشَدَّ ومكابرَتُهُمْ أكبَرَ. لذلكَ اسْتَحَقّوا أشَدَّ العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ آياتِ موسى ﷺ أكثرُها كانَتْ حِسِّيَّةً، وآياتِ غَيرِهِ عَقليَّةً؛ ومعرفةُ ما كانَ سبيلُهُ الحِسُّ مما لا يَتَمَكَّنُ فيهِ شُبْهَةٌ، وقد تَتَمَكَّنُ الشُّبْهَةُ في ما كانَ سَبيلُهُ العقلُ، فيكونُ عنادُهُمْ أشَدَّ.

وبعدُ فإنهمْ قدِ اتَّبَعوا فرعونَ لَمّا ادَّعى لنفسِهِ مِنَ الأُلوهيَّةِ بِلا حُجَّةٍ وبرهانٍ، طَلَبوا منهُ، وتَرَكوا اتِّباعَ موسى ﷺ بِما

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه. (٦) في الأصل وم: تلهب.

جنة السنة

ادّعى مِنَ الرسالةِ بعدَ ما أقامَ على ذلكَ مِنَ البيّناتِ والحُجَجِ والبراهينِ. فلذلكَ قالَ: جُعِلَتْ أرواحُ آلِ فرعونَ في أجوافِ طيورٍ سودٍ، يُعْرَضونَ على النارِ كلَّ يومٍ مرّتينِ، يُقالُ: يا آلَ فرعونَ هذه دارُكُمْ.

قالَ عبدُ اللهِ: فذلكَ عَرْضُها. فإنْ ثَبَتَ هذا عنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه كانَ لهمْ أشدُّ العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ قد عَلِمَ الضعفاءُ والأتباعُ [أنَّ المتبوعينَ][1] لا يَمْلِكونَ دفعَ ما هم فيهِ، لأنهمْ لو كانوا يَمْلِكونَ ذلكَ لَدَفعوا عن أنفسِهِمْ، فإذا لم يَمْلِكوا ذلكَ عنْ أنفسِهِمْ فَلَأَلّا يَمْلِكوا دفعَ ذلكَ عنهمْ أحقُّ. لكنهمْ قالوا ذلكَ لهمْ لِيَزدادوا[2] حَسْرَةً وندامةً، وهو كقولِهِ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

ويَحتَمِلُ أنهمْ إنما قالوا لهمْ ذلكَ لِما قالوا لهمْ في الدنيا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] فيقولونَ لهمْ لذلكَ في الآخِرةِ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] أي حاملونَ عنّا بعضَ الذي علينا مِنَ العذابِ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الدنيا قالوا ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ مُعذَّبٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ هذا مِنْ أولئكَ الذينَ استَكْبَروا جواباً للضعفاءِ على أحدِ التأويلَينِ ولا يكونُ جواباً للآخَرِ، وهو جوابٌ لِقولِهِمُ الذي قالوا في الدنيا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فيقولونَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ ألّا يزيدَ العذابَ على مِثْلِ السّيّئةِ، وقد حَكَمَ اللهُ تعالى على كلٍّ منها بالمِثْلِ، فلا يزيدُ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ كانَ فَزَعُ الكَفَرَةِ أبداً إلى الخَلْقِ إذا نَزَلَ بهمُ البلاءُ في الدنيا إلّا أنْ يُضطَرّوا. فعندَ ذلكَ يَفزَعونَ إلى اللهِ تعالى. فأمّا ما لم يَيْأَسوا منهمْ فلا يَفزَعونَ إليهِ. فَعَلى ذلكَ يكونُ فَزَعُهُمْ في الآخِرةِ إلى الخَلْقِ، وهو ما سألوا أهلَ الجنةِ مِنَ الماءِ.

أخبرَ اللهُ تعالى عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] فلمّا أيِسوا مِنْ ذلكَ عندَ ذلكَ فَزِعوا إلى مالكٍ، وهو ما أخبرَهُ اللهُ تعالى عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] سألوهُ الموتَ فلما أخبرَهُمْ أنهمْ ماكثونَ. فعندَ ذلكَ فَزِعوا إلى الخزَنةِ، وقالوا[3]: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

الآية ٥٠ [فَرَدَّ عليهمُ الخزنةُ، و][4] ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فلمّا أيِسوا منهمْ وممّا سألوهُمْ مِنْ تخفيفِ العذابِ عنهمْ، عندَ ذلكَ فَزِعوا إلى اللهِ تعالى، وهو قولُهُمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] وقولُهُمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] لم يَفزَعوا إلى اللهِ تعالى إلّا بَعْدَ ما انْقَطَعَ رجاؤُهُمْ منهمْ، وأيِسوا، وباللهِ العصمةُ والنجاةُ.

وقدِ اسْتُدِلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ مَنْ لا يرى الحُجّةَ، فالحُكمُ يَلزَمُهُمْ بِمُجَرَّدِ العقلِ دونَ الرسُلِ عليهم السلام حينَ[5] احتَجَّ عليهمُ الخزَنةُ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وردِّهِمُ البيّناتِ التي أتَتْهُمْ [بها][6] الرسُلُ. واسْتُدِلَّ أيضاً بقولِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وبقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤] وبقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] وغيرِها مِنَ الآياتِ التي فيها أنهُ لا يُعَذِّبُهُمْ إلّا بَعْدَ ما قامَتْ عليهمُ الحُجّةُ مِنْ جِهةِ الرسُلِ، ولَزِمَهُمُ الحكمُ بهمْ. فعندَ ذلكَ يُعَذَّبونَ. لكنَّ تأويلَ الآيةِ يُخَرَّجُ عندَنا على وجهَينِ:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليزداد. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحدُهما: أنْ يكونَ ذلكَ في قومٍ خاصٍّ: الذينَ لا يَرونَ لُزومَ الحُجَّةِ والحكمِ إلّا مِنْ جهةِ الرسالةِ، فَيُحتَجُّ عليهِمْ بما كانوا يَرَونَ بهِ ليكونَ أقربَ إلى الإلزامِ والحُجَّةِ، وإنْ كانَ يجوزُ أنْ يُحتَجَّ عليهِمْ بما هو حُجَّةٌ، وهمْ لا يَرَونَها حُجَّةً، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: إنما ذَكَرَ ذلكَ على المُبالغةِ والنِّهايةِ في الحُجَّةِ، وإنْ كانَتِ الحُجَّةُ قد تَلْزَمُهُمْ، والحكمُ قد ثَبَتَ بدونَ ذلكَ، وهو العقلُ لأنَّ إرسالَ الرسُلِ وإقامةَ المُعجزاتِ أقربُ إلى الوصولِ إلى الحقِّ. وقد أقامَ كِلا الحُجَّتَينِ، فَذَكَرَ[1] أظهَرَ الحُجَّتَينِ ليكونَ أقربَ إلى إظهارِ عِنادِهِمْ. وهذا كما في تعذيبِ الكَفَرَةِ في الدنيا أنهمْ لم يُعَذَّبوا بنفسِ الكفرِ حتى كانَ منهمْ مَعَ الكُفْرِ الاسْتِهْزاءُ بالرسُلِ والعِنادُ لهمْ وغيرُ ذلكَ.

وإنما كانوا يَسْتَوجِبونَ العذابَ بنفسِ الكُفْرِ /٤٧٩ ـ أ/ لكنْ تَرَكَ تعذيبَهُمْ حتى يَبْلُغوا النهايةَ والإبلاغَ في التكذيبِ والعِنادِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٧] ذَكَرَ هذا على النهايةِ والإبلاغِ في الجِنايةِ منهمْ. وإنْ كانوا يَسْتَوجِبونَ العذابَ بِجُحودِهِمُ الزكاةَ دونَ جُحودِ البَعثِ أو جُحودِ البَعثِ دونَ جُحودِ الزكاةِ.

فَعَلى ذلكَ الآياتُ التي ذَكَرَها هي على الإبلاغِ والنهايةِ، وإنْ كانَتِ الحُجَّةُ تَلْزَمُهُمْ، والحُكْمُ يَثْبُتُ بدونِ الرسُلِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وبعدُ فإنَّ قولَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤] [[دلالةٌ][2] أنَّ الحجةَ والحكمَ قد لزِمَهُمْ بدونِ الرسُلِ، لأنهُ لو لم يَلْزَمْ لكانَ في التعذيبِ ظالماً، لأنهُ يُعَذِّبُ قبلَ أنْ يَلْزَمَهُمُ الحكمُ، فيَصيرُ تقديرُ الآيةِ: ولو أنا ظَلَمْناهمْ ﴿بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾][3] فلا تكونُ ظالماً في ما عَذَّبْتَنا، والظُّلْمُ مِنَ اللهِ تعالى مُحالٌ، فَيَسْتَحيلُ تقديرُ الآيةِ على هذا الوجهِ.

دلَّ أنَّ التعذيبَ قَبْلَ الرسُلِ عَدْلٌ وحكمةٌ، وليسَ بظلمٍ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وبعدُ فإنَّ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ دلالةً أنَّ الحُجَّةَ إنما تَلْزَمُ بالبَيِّناتِ لا بِنفْسِ الرسلِ، والبَيِّناتُ قد وُجِدَتْ، وسَبَبُ المَعْرِفَةِ وطريقُها، وهو العقلُ، قائمٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ ليسَ على الأمرِ بالدعاءِ، ولكنَّ مَعْناهُ: إنكُمْ، وإنْ دَعَوتُمْ فلا تَنفَعُكُمْ دعوتُكُمْ كقولِهِ: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤] أي هلاكاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ النصرِ للرسُلِ والمؤمنينَ وجوهاً:

أحدُها: أنْ يَنْصُرَهُمْ في الدنيا بالحُجَجِ والآياتِ التي أعطاهُمْ في الدينِ حتى يَدْفَعوا[4] بها تَسْويلاتِ الشيطانِ وتَمْويهاتِ السحرةِ وتَقَلُّبَهُمْ[5]، ويَغْلِبوا على الكلِّ. هذا في الدنيا، وفي الآخِرَةِ أيضاً يَنْصُرُهُمْ بما تَشْهَدُ لهمْ عليهمُ الملائكةُ والجَوارِحُ بالتكذيبِ للرسُلِ والمؤمنينَ وأنهمْ دَعَوهُمْ إلى التوحيدِ والإيمانِ لكنهمْ كَذَّبوهُمْ، وكَفَروا بما دَعَوهُمْ إليهِ. فذلكَ نَصْرُهُ إياهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَنْصُرُهُمْ بما يَجْعَلُ لهمُ العواقبَ وآخِرَ الأمرِ لهُ، وإنْ كانَ في الابْتِداءِ قد يكونُ عليهِمْ. وعلى ذلكَ لم يُذْكَرْ عنْ أحدٍ مِنَ الرسُلِ إلّا وقد كانَتْ عاقبةُ الأمرِ لهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] فهذا النصرُ، هو النصرُ في الأبدانِ، والأوَّلُ، هو نَصْرٌ في الدينِ. ولكنْ إنْ كانَ هو نَصْراً في الأبدانِ فهو نَصْرٌ، يرجِعُ إلى الدينِ لِما يقومُ الدينُ بسلامةِ الأبدانِ، ويَتَحقَّقُ بهِ عنِ المُسلِمينَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والثالثُ: ذَكَرَ نَصْرَهُمْ لمّا أعطاهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ في الدنيا والسَّعَةِ فيها، وهو يَذْكُرُ للرسُلِ والمؤمنينَ نَصْراً ونِعْمَةً ومعونةً.

---

(١) في الأصل وم: فذكروا. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: يدفع. (٥) في الأصل وم: وتقلبها.

جنة السنة

أمّا هي للكَفَرَةِ ففِتْنَةٌ ومِحْنَةٌ، لا غيرُ، لا يُذْكَرُ باسمِ النصرِ والنِّعمَةِ؛ إذ هي في حقِّ المُسْلِمينَ وسَبيلُهُ إلى النِّعمَةِ الأبديّةِ، وفي حقِّ الكَفَرَةِ إلى العذابِ الأبَدِ، فيكونُ نِقْمَةً في حقِّهِمْ حقيقةً.

ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١و٢] وقالَ: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] ومِحْنَةٌ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: ذَكَرَ أنهُ يَنصُرُهُمْ، وقد نَرَى مؤمناً، قد تَنقَطِعُ حُجَجُهُ، ويَعْجَزُ عن إقامتِها، ونَراهُ مغلوباً، والكافرُ هو الغالبُ، قيلَ عنْ هذا جوابانِ[1]:

أحَدُهما: مِنْ جَعْلِ العاقبةِ لهُ والغَلَبَةِ والنَّصْرِ في آخِرِ الأمرِ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ وعْدُهُ بالنَّصْرِ لهمْ والظَّفَرِ بالحُجَّةِ بالشريطةِ، وهي القيامُ بوفاءِ ما للهِ عليهِمْ مِنَ الحقِّ في ذلكَ.

فالنَّصْرُ والظَّفَرُ بالحُجَّةِ في المُناظَرَةِ أنْ يكونَ يُرْجى عُمُرُهُ في معرفةِ الحُجَجِ والدلائلِ، وأنْ يكونَ عارفاً بطرقِ النَّظَرِ، ومتى كانَ هذا الشرطُ موجوداً فيكونُ النَّصْرُ لهُ لا مَحالَةَ.

وشَرْطُ الظَّفَرِ في المحاربةِ أنْ يكونوا قاصدينَ إعزازَ دينِ اللهِ تعالى دونَ ابْتِغاءِ الدنيا، وكلمتُهُمْ واحدةٌ، ونحوُهُ.

ومتى كانتِ المُحاربةُ بِشرائطِها يكونُ الظَّفَرُ لِلْمُسْلِمينَ. وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأشهادُ، هُمُ الملائكةُ، يَكتُبونَ أعمالَ بَني آدمَ، يَشْهَدونَ عليهِمْ بما عَمِلوا مِنَ الأعمالِ. وقالَ بعضُهُمْ: الأشهادُ، هُمُ الرسُلُ، يَشْهَدونَ عندَ ربِّ العالمِينَ على الكَفَرَةِ بالتكذيبِ والرَّدِّ. وقالَ بعضُهُمْ: تَشْهَدُ عليهِمُ الجَوارِحُ يومئذٍ بِما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ ذَكَرَ ههنا ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وذَكَرَ في موضعٍ آخَرَ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] وبينَهُما اختِلافٌ مِنْ حيثُ الظاهرُ، لأنَّ القولَ بأنهُ لا تَنفَعُ مَعْذِرَتُهُمْ بعدَ وجودِها منهمْ. وقد أَخْبَرَ أنهُ لا يُؤْذَنُ لهمْ بالاعْتِذارِ، لكنهمْ بلا إذنٍ لهمْ فلا يُقْبَلُ اعْتِذارُهُمْ، ولا يَنفَعُهُمْ ذلكَ، فيكونُ جميعاً بَينَهما مِنْ هذا الوجهِ.

ويَحتَمِلُ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لو كانَ منهمُ الاعْتِذارُ، ولا يُقْبَلُ اعْتِذارُهُمْ، لكنْ لم يُؤْذَنوا بالاعْتِذارِ حتى يَعْتَذِروا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] أي لو كانَ لهمْ شُفعاءُ يَشْفَعونَ لهمْ لكانَتْ تَنفَعُهُمْ شفاعَتُهُمْ، لا أنْ كانَ لهمْ شُفَعاءُ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي لو كانوا يَعْتَذِرونَ لا يُقْبَلُ اعْتِذارُهُمْ، ولا تَنفَعُهُمْ مَعْذِرَتُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يَحتَمِلُ الهُدَى ههنا وجوهاً:

أحَدُها: أي آتيناهُ التوراةَ، وفيها البَيانُ والدعاءُ إلى الرشدِ، وجميعُ كتبِ اللهِ تعالى فيهِ هُدىً ونورٌ ورحْمَةٌ.

والثاني: أي آتاهُ التوحيدَ والإسلامَ.

[والثالثُ][2]: آتاهُ النُّبُوَّةَ والرسالةَ، وآتاهُ كلَّ ما للهِ عليهِ مِنْ حقٍّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ خاصةً، ويَحتَمِلُ التوراةَ وسائرَ الكتبِ التي كانَتْ فيهمْ إنْ ذُكِرَ الكتابُ بالألفِ واللامِ، ويَحتَمِلُ الجنسَ والعَهْدَ، فيَجوزُ الصَّرْفُ إلى التوراةِ لِمكانِ العهدِ، ويَجوزُ الصَّرْفُ إلى الجميعِ لِمكانِ الجِنْسِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: جوابين. (٢) في الأصل وم: ويحتمل.

جنة السنة

وفي الآيةِ دلالةٌ أنْ لا جميعَ كُتُبِ اللهِ التي أُنزِلَتْ فيهِمْ غُيِّرَتْ، وبُدِّلَتْ، بل فيها(١) ما لم يُغَيَّرْ(٢)، ولم يُبَدَّلْ حينَ(٣) قالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿هُدًى﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ جميعَ كتبِ اللهِ تعالى هُدىً مِنَ الضَّلالةِ إلى الرُّشْدِ وبيانٌ(٤) لِما للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضٍ على بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَوْعِظَةٌ، وقالَ بعضُهُمْ: تفكُّراً لأهلِ اللُّبِّ والعقلِ.

وجائزٌ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي ما ذُكِرَ ما سَبَقَ، أي يُذَكِّرُهُمْ ما نَسُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأنَّ أهلَ اللُّبِّ، هُمُ الذينَ يَتَفَكَّرونَ، ويَتأمَّلونَ فيهِ، أو أنَّ أهلَ اللُّبِّ، هُمُ المُنْتَفِعونَ بالذِّكْرَى. وما ذُكِّروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، وجوهاً.

أحَدُها: [اصْبِرْ على](٥) التكذيبِ؛ كانَ يَتأذَّى بِتكذيبِهِمْ /٤٧٩ ـ ب/ إيّاهُ.

والثاني: [اصْبِرْ على الاسْتِهزاءِ](٦) كانَ يَتأذَّى باسْتِهزائِهِمْ بهِ.

والثالثُ: [اصْبِرْ على](٧) أنواعِ ما يَكيدونَ: مِنْ هَمِّهِمْ بِقَتْلِهِ وضَرْبِهِ وغيرِ ذلكَ.

والرابعُ(٨): يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أي اصْبِرْ على تَبْليغِ الرسالةِ إليهِمْ، ولا يُضْجِرَنَّكَ تَكْذيبُهُمْ إيّاكَ، ولا يَمْنَعْكَ ذلكَ عنْ تَبْليغِها، واللهُ أعلَمُ.

والخامسُ(٩): اصْبِرْ، ولا تَسْتَعْجِلْ لهمُ العذابَ قَبْلَ مِيقاتِهِ؛ وذلكَ أنَّ الرسلَ ﷺ كانوا لا يَسْتَعْجلونَ العذابَ ما لم يُؤذَنْ لهمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إنْ كانَ المُرادُ مِنْ وَعْدِهِ نفسَ الوَعْدِ فيكونُ تأويلُهُ: أنَّ وَعْدَ اللهِ صِدْقٌ أي لا يُخْلَفُ، ولا يكونُ كَذِباً، لأنَّ خُلْفَ الوَعْدِ في الشاهدِ إنما يكونُ لأحدِ مَعْنَيَيْنِ: إمّا لِعَجْزِهِ عنِ القيامِ بِوَفائِهِ، وإمّا لِضَرَرٍ يَخافُ أنْ يَلْحَقَهُ لو قامَ بوفاءِ ما وَعَدَ، واللهُ تعالى بَريءٌ مِنَ المَعْنَيَيْنِ جميعاً، مُتَعالٍ عنْ ذَيْنِكَ.

وإنْ كانَ المرادُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي مَوْعودَ اللهِ، فيكونُ تأويلُهُ إنَّ مَوْعودَ اللهِ تعالى لكائنٌ حَقّاً. فَوَعْدُ اللهِ على الوجهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْناهما. وعلى هذا يُذْكَرُ أمرُ اللهِ تعالى، ويُرادُ بهِ نفسُ الأمرِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] ويُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ المَفْعولُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي ما يكونُ بأمرِهِ مفعولاً، ويكونُ مَوْعودُ اللهِ مَفْعولاً، واللهُ أعلَمُ. وكانَ(١٠) ذِكْرُ الصلاةِ أمرَ اللهِ [أي بأمرِ اللهِ](١١).

ثم لسْنا نَدري ما كانَ مِنْ وعدِهِ لِرسولِ حتى أخْبَرَ أنهُ كائنٌ. فجائزٌ أنْ يكونَ ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ وَعَدَ لهُ أنْ يُعَذِّبَ كُفّارَ مكةَ يومَ بدرٍ بالقتلِ وغيرِ ذلكَ، فكَذَّبوهُ، وقالوا مُسْتَهْزِئينَ بهِ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨ و...] فقالَ(١٢): ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ويَحْتَمِلُ غيرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] باسْتِغْفارِهِ إيّاهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ ما يَغْفِرُ لهُ مِنْ أمتِهِ بِشَفاعتِهِ كما ذُكِرَ في الخَبَرِ: «يُغْفَرُ للمؤذِّنِ مَدَّ صوتِهِ» [أحمد ٢/١٣٦] أي يَجْعَلُ لهُ الشفاعةَ إلى حيثُ يَبْلُغُ صوتُهُ.

---

(١) في الأصل وم: فيهم. (٢) في الأصل وم: لغيروا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وبيانا. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: والثالث. (٩) في الأصل وم: والرابع. (١٠) في الأصل وم: وما.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ قد ذَكَرْنا التسبيحَ بِحَمْدِ ربِّهِ. ثم جائزٌ أنْ يريدَ بالتسبيحِ نفسَ التسبيحِ. فإنْ كانَ كذلكَ فيكونُ ذكرُ العشيِّ والإبكارِ ليسَ هو ذِكْرَ التوقيتِ لهُ، ولكنْ ذِكْرُ الأوقاتِ كلِّها: الليلِ والنهارِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] ليسَ يريدُ نفسَ الغداةِ والعَشيِّ خاصّةً دونَ غيرِهما مِنَ الأوقاتِ، بل [هما][1] عبارةٌ عنْ جميعِ الأوقاتِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ آناءَ الليلِ والنهارِ.

فَعلَى ذلكَ الأوّلُ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ المرادُ مِنَ التَّسْبيحِ ههنا الصلاةَ فكأنهُ يقولُ: فَصَلِّ بِحَمْدِ ربِّكَ بالعَشِيِّ والإبكارِ كِنايةً عنْ صلاةِ النهارِ، أو يكونُ الإبكارُ كِنايةً عنْ صلاةِ الغداةِ، والعَشِيُّ كِنايةً عنْ صلاةِ العِشاءِ على ما ذَكَرَهُ بعضُ الناسِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ اليهودَ جادلوا رسولَ اللهِ ﷺ في الدَّجّالِ أنهُ منهمْ، وأنهُ في الطُّولِ كذا، ونَحْوَهُ. وعلى ذلكَ نَسَقوا الآياتِ التي تَتْلُو هذهِ الآيةَ.

ولكنْ لسْنا نَدْري بماذا صَرَفوا مُجادَلَتَهُمْ في آياتِ اللهِ إلى المُجادلةِ في الدَّجّالِ إلّا أنْ يَثْبُتَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ بطريقِ التواتُرِ أنَّ المُجادلةَ في الدَّجّالِ، فحينئذٍ يُصْرَفُ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي يُجادِلونَ في دَفْعِ آياتِ اللهِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ أتَتْهُمْ مِنَ اللهِ. وكانَتِ المُجادلةُ في دَفْعِ آياتِ اللهِ مِنْ رؤساءِ الكَفَرَةِ وأكابِرِهِمْ؛ كانوا يُمَوِّهونَ بِمُجادَلَتِهِمْ في دَفْعِ آياتِ اللهِ تعالى والطَّعْنِ فيها في أتباعِهِمْ وسَفَلَتِهِمْ لِتَبْقَى لهمُ الرئاسةُ والمَأْكَلَةُ التي كانَتْ لهمْ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

لم يَزَلِ الأكابرُ منهمْ والرؤساءُ يَطْعَنونَ في آياتِ اللهِ تعالى، ويَدْفَعونها؛ يريدونَ التَّمْويهَ والتَّلْبيسَ على أتباعِهِمْ وسَفَلَتِهِمْ لِيَبْقَى العِزُّ والشَّرَفُ الذي كانَ لهمْ، ويُبْطِلوا بهِ الحقَّ، ويُطْفِئوا نورَهُ، كقولِهِ ﷻ ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦] وقولِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]. هذا كانَ مُرادُهُمْ مِنْ مُجادَلَتِهِمْ في آياتِ اللهِ والطَّعْنِ فيها.

ثم أخْبَرَ ﷻ أنهمْ يُجادِلونَ، ويَفْعَلونَ ذلكَ تَكَبُّراً منهمْ على آياتِ اللهِ والخُضوعِ لرسلِهِ ﷺ حينَ قالَ ﷻ ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي ما في صدورِهِمْ إلّا كِبْرٌ، أي كِبْرُهُمْ هو الذي حَمَلَهُمْ على المُجادلةِ في آياتِ اللهِ.

ثم الذي حَمَلَهُمْ على الكِبْرِ جَهْلُهُمْ بسببِ العِزِّ والشَّرَفِ؛ ظَنّوا أنَّ العِزَّ والشَّرَفَ إنما يكونُ بالأتباعِ الذينَ يَصْدُرونَ عنْ آرائِهِمْ. ولو عَرَفوا فيمَ يكونُ العِزُّ والشَّرَفُ؟ لكانوا لا يَفْعَلونَ ذلكَ.

إنما العِزُّ والشَّرَفُ في طاعةِ اللهِ ﷻ واتِّباعِ أمرِهِ، ليسَ في اتِّباعِ مَنِ اتَّبَعَهُمْ ولا في التِّمارِ مَنِ التَّمَرَهُمْ. ولكنْ في ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخْبَرَ أنهمْ ليسوا ببالِغينَ إلى ما قَصَدوا مِنْ إطفاءِ النورِ الذي أعْطَى المؤمنينَ وإرخاصِ الحقِّ وإبطالِهِ حينَ[2] قالَ ﷻ: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ وقالَ[3]: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: أمَرَهُ أنْ يَسْتَعيذَ باللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجّالِ.

لكنْ عندنا أمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ باللهِ مِنْ مَكائدِ أولئكَ الأكابِرِ والفراعنةِ الذينَ تَوَهَّموا أنْ يَمْكُروا بهِ، ويَكيدوا، أمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ باللهِ مِنْ مَكْرِهِمْ وكَيْدِهِمْ كما أمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الآيةَ [المؤمنون: ٩٧]. وهذا أَوْلَى مِنَ الأوّلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ قال أهلُ التأويلِ: لَخَلْقِ السمواتِ والأرضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الدَّجالِ. لكنْ قد ذَكَرْنا بُعْدَ صَرْفِ الآية إلى الدَّجالِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: الآيةُ نزلَتْ في المُقِرِّينَ[1] بِخَلْقِ السمواتِ والأرضِ [المُنْكِرينَ البعثَ][2]؛ ويقولُ: إنَّ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ مُبْتَدأً بلا احْتِذاءٍ بِغَيرِ أكْبَرُ وأعظَمُ مِنْ إعادةِ [خَلْقِ][3] الناسِ. فإذا عَرَفْتُمْ أنهُ قَدَرَ على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ مُبْتَدِئاً بلا احْتِذاءٍ بِغَيرٍ كانَتْ[4] قدرَتُهُ على إعادةِ الخَلْقِ أهْوَنَ[5]؛ إذْ إعادةُ الشيءِ في عقولِكُمْ أهونُ مِنَ البدايةِ كقولِهِ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فكيفَ أنْكَرْتُمْ قدرَتَهُ على البعثِ؟ وقد أقْرَرْتُمْ بقدرتِهِ على خَلْقِ ما ذَكَرَ.

والثاني: أنْ تكونَ الآيةُ نزلَتْ [في المُقِرِّينَ][6] بِخَلْقِ الناسِ[المُنْكِرينَ خَلْقَ][7] السمواتِ والأرضِ؛ يقولُ: إنَّ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ وإمساكَها في الهواءِ بلا تعليقٍ مِنَ الأعلى ولا عِمادٍ مِنَ الأسفلِ مَعَ غِلَظِها وكثافَتِها أكْبَرُ وأعظَمُ في الدلالةِ على حَدَثِها وخَلْقِها مِنْ خَلْقِ الناسِ، لأنَّ خَلْقَ/ ٤٨٠ ـ أ/ الناسِ إنما يكونُ بالتَّغَيُّرِ والتَّوَلُّدِ مِنْ حالٍ إلى الحالِ الأُخرَى. فيجوزُ أنْ يُتَوَهَّمَ كونُ ذلكَ وافتِراقُهُ ثم اجْتِماعُهُ مِنْ بَعْدُ وظُهُورُ ذلكَ منهُ.

وأمّا السماءُ فهي حالةٌ واحدةٌ، فلا يُمْكِنُ تَوَهُّمُ ذلكَ لِما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في نازلةٍ كانَتْ وسببٍ، لَسْنا نحنُ نَعْرِفُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يَسْتَوي مَنْ عَمِيَ عن توحيدِ اللهِ وشُكْرِ نِعَمِهِ ومَنْ عَرَفَ حقَّهُ، وقَبِلَ إحسانَهُ، وقامَ بشُكْرِهِ.

فإذا عَرَفْتُمْ أنهُ لا اسْتِواءَ بينَ هذينِ عندَكُمْ، فاعْرِفوا أنهُ لا يَسْتَوي مَنْ عَمِيَ عَنْ وحدانيَّةِ اللهِ وشُكْرِ نِعَمِهِ ومَنْ[8] أبْصَرَ وحدانِيَّتَهُ، وقامَ بِشُكْرِهِ.

وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ يقولُ: إذا عَرَفْتُمْ أنهُ لا يَسْتَوي مَنْ آمَنَ، وصَدَّقَ آخَرَ، وأحْسَنَ إليهِ، ومَنْ كَذَّبَهُ، وأساءَ إليهِ. فَعَلى ذلكَ لا يَسْتَوي مَنْ آمَنَ باللهِ وَصَدَّقَهُ، وقابَلَ إحسانَهُ بالشُّكْرِ، ومَنْ كَذَّبَهُ، وأساءَ إليهِ. فَعَلى ذلكَ لا يَسْتَوي مَنْ آمَنَ باللهِ وَصَدَّقَهُ، وقابلَ إحسانَهُ بالشُّكْرِ، ومَنْ كَذَّبَهُ، وكَفَرَ نِعَمَهُ وإحسانَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ حقيقةً: أعْمَى البَصَرِ والبصيرُ نفسُهُ؛ يقولُ: تَعْرِفونَ أنهُ لا يَسْتَوي الأعْمَى أعْمَى البَصَرِ والبَصيرُ نفسُهُ في الدنيا. فَعَلى ذلكَ لا يَسْتَوي مَنْ عَمِيَ عَنْ دينِهِ ومَنْ[9] أبْصَرَ في الآخِرَةِ. وقد عَرَفْتُمْ أنهمْ قدِ اسْتَوَوْا في هذهِ الدنيا؛ أعني المُسيءَ والمُحْسِنَ، والصالحَ والمُفْسِدَ، والمُطيعَ والعاصيَ. وفي الحكمةِ التفريقُ بَيْنَهما.

دلَّ أنَّ هناكَ داراً [أُخرَى][10] يُفَرِّقُ بَيْنَهما فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أخْبَرَ أنها آتيةٌ، لا مَحالَةَ، وقد ذَكَرْنا أنما صارَ خَلْقُ الدنيا وما فيها حِكْمَةً بالساعةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إنَّ الآية نزلَتْ في أهلِ التوحيدِ. يقولُ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ثم يُخَرِّجُ على الاسْتِغْفارِ مَرَّةً لِما كانَ منهمْ مِنَ التَّضْييعِ في حقوقِ اللهِ تعالى وما أمَرَهُمْ بِهِ، ونَهاهُمْ عنهُ، والتَّفْريطِ في ذلكَ: اسْتَغْفِروني[11] أغْفِرْ لكُمْ.

---

(١) في الأصل وم: مقرين. (٢) في الأصل وم: منكرين بالبعث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: لكان،في م: أكان. (٥) في الأصل وم: أحق. (٦) في الأصل: مقرين، في م: في مقرين. (٧) في الأصل وم: منكرين بخلق. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: استغفروا.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ اطلُبوا مني التوبة عن ذلكَ أتُبْ[1] عليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَتِ الآيةُ في أهلِ الكُفرِ فيكونُ قولُهُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي وَحِّدوني أغفِرْ لكُم. ويَحتَمِلُ: اعبدُوني اغفِرْ لكمْ، وهو كقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقد جاءَ في بَعْضِ الأخبارِ عن نَبيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الدعاءُ هو العبادةُ ثم قرَأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾» [أبو داوود: ١٤٧٩] وفي بَعْضِ الأخبارِ: «الدعاء مُخُّ العبادةِ» [الترمذي: ٣٣٧١].

وأصلُ هذا أنهُ يَنظُرُ كلُّ أحدٍ إلى ما ارْتَكَبَهُ؛ فإنْ كانَ شيئاً يَستَوجِبُ بِهِ العقوبةَ كانَ استِغفارُهُ القيامُ بقضاءِ ما تَرَكَهُ وضَيَّعَهُ، والعَزْمُ على ألّا يعودَ إلى ذلكَ أبداً، وإنْ كانَ شيئاً غيرَ مَعروفٍ، وتَركَهُ، يَستَغفِرِ اللهَ تعالى في ذلكَ، ويَطلُبْ منهُ التَّجاوُزَ والمَغفِرَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وأصلُ ذلكَ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] ذكَرَ الإجابَةَ بالشريطةِ، وهي[2] أنهمْ إذا آمنوا بِهِ، وأوفَوا بعهدِهِ يُوفِ[3] لهمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ استَدَلَّ بعضُ الناسِ بهذهِ الآيةِ على أنَّ قولَهُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إنما أرادَ بِهِ العبادةَ على ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: إنَّ هذهِ السورةَ نَزَلَتْ بمكةَ، وأهلُ مكةَ كانوا يقولونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وفي ظاهرِ ذلكَ أنهمْ لا يَستكبِرونَ عن عبادتِهِ، لكنهُمْ لم يَرَوا أنفسَهُمْ أهلاً لعبادةِ اللهِ، فَعَبدوا غيرَهُ دونَهُ، كَمَنْ يُعظِّمُ، ويَخدِمُ خادماً مِن خَدَمِ مَلِكٍ مِنْ مُلوكِ الدنيا، لا يكونُ مُستكبِراً عَنْ خِدمَةِ الملكِ. لكنَّ تأويلَ الآيةِ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ عبادَهُ بطاعةِ رسولِهِ والإجابةِ لهُ إلى ما يَدْعوهُمْ. فإذا لم يُجيبوهُ إلى ما يدعوهُمْ إليهِ، ولم يُطيعوهُ استِكباراً منهمْ وتكبُّراً عليهِ صارَ ذلكَ منهمْ كالاستِكبارِ عن طاعةِ اللهِ وعن عبادتِهِ.

والثاني: أنهمْ، وإنْ كانوا عَبَدوا الأصنامَ رجاءَ أنْ تُقرِّبَهُمْ، ولم يَقصِدوا قَصْدَ الاستِكبارِ عن عِبادتِهِ، فهمْ تَرَكوا عبادَتَهُ، معَ أنهمْ أُمِروا، وبَلَغَ إليهمْ أمْرُهُ على ألسُنِ الرسُلِ، فكأنهمْ استَكبَروا عن عبادةِ اللهِ تعالى؛ إذْ في الشاهدِ يَخدِمُ المرءُ بَعْضَ خواصِّ المَلِكِ لِيُقرِّبَهُ إليهِ، لكنْ إذا أمَرَهُ المَلِكُ أنْ يَخدِمَهُ، وقَرَّبَهُ إلى مجلسِهِ، فامتَنَعَ، يُقدَّرُ ذلكَ منهُ استِكباراً، وتَتبَيَّنُ أنَّ خِدمَتَهُ لذلكَ ما كانتْ لِتُقرِّبَهُ إلى المَلِكِ حينَ[4] قرَّبَهُ، فلم يَقرُبْ. ففي الغالبِ كذلكَ. لِذلكَ كانَ استِكباراً منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: وأبو عوسَجَةَ: ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرينَ ذليلينَ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُذكِّرُهُمْ نِعمَهُ التي أنْعَمَ عليهمْ لِيَستأدِيَ بذلكَ شُكرَهُ حينَ[5] قالَ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ راحةً لأنفسِكُمْ وأبدانِكُمْ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تُبصِرونَ فيه مَعايِشَكُمْ وما تَحتاجونَ إليهِ. ثم قولُهُ: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي يُبْصَرُ بِهِ وفيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ اخبَرَ أنَّ ذلكَ كلَّهُ منهُ فَضلٌ ومِنَّةٌ ورحمَةٌ، لا باستِحقاقٍ يَستَحِقونَ ذلكَ قِبَلَهُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ يقولُ: ذلكَ الذي صَنَعَ [لكم هذا][6] هو ربُّكُمْ لا الأصنامُ التي تَعبُدونَ مِنْ دونِهِ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هو خلَقَكُمْ، وخَلَقَ كلَّ شيءٍ، واحدٌ، لا شريكَ [لهُ][7] ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي أنّى تَصرِفونَ، وتَعدِلونَ عن عبادتِهِ والقيامِ بشكرِهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أتوب. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: يعرف. (٤) و(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بكم.
(٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [ينصرفونَ][1] عنْ عبادتِهِ والقيامِ بشكرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وأصلُ الإفكِ الصَّرفُ كقولِهِ ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي لِتَصْرِفَنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ يُذَكِّرُهُمْ عِظَمَ نِعَمِهِ عليهِمْ حينَ[2] جَعَلَ لهمُ الأرضَ بحيثُ يَقِرُّونَ عليها، ويَتَعَيَّشونَ، والسماءَ بِناءً عليهِمْ بحيثُ[3] لا تَسْقُطُ عليهِمْ، وجَعَلَ مَنافعَ بعضِها مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ البَعْضِ على [بُعْدِ][4] ما بَيْنَهما لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ كلَّهُ صُنْعُ واحِدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: قولُهُ: ﴿فَأَحْسَنَ﴾ أي أحْكَمَ، وأتْقَنَ في الدلالةِ على مَعْرِفةِ وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى ورُبوبيَّتِهِ على ما أظْهَرَ في كلِّ شيءٍ مِنَ الدلالةِ على وَحْدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ.

والثاني: قولُهُ: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي أحْسَنَ تركيبَها مُنْتَصِباً؛ أقامَها[5] غيرَ مُنْكَبَّةٍ كسائرِ الصُّوَرِ التي خَلَقَها مُنْكَبَّةً على وَجْهِها.

وقولُهُ تعالى: / ٤٨٠ ـ ب/ ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي رَزَقَكُمْ مِنَ الحَلالِ. لكنَّ الأشْبَهَ أي رَزَقَكُمْ مِنْ أطْيَبِ ما أخْرَجَ مِنَ الأرضِ، لأنَّ اللهَ تعالى أخْرَجَ مِنَ الأرضِ نباتاً مُخْتَلِفاً، جَعَلَ أطْيَبَهُ وألْيَنَهُ رِزْقاً للبشرِ، وسائِرَهُ رِزْقاً للدَّوابِّ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ذلكَ الذي صَنَعَ لكمْ هذا، هو ربُّكُمْ لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ هو الذي لا يموتُ أبداً. لكنَّ هذا مما يَعْرِفُهُ كلُّ أحدٍ.

وأصلُ الحيِّ، هو النهايةُ والغايةُ [في][7] الثناءِ عليهِ والمَدْحِ [لأنَّ][8] كلَّ شيءٍ يَبْلُغُ في الانْتِفاعِ بهِ غايتَهُ، يُسَمَّى حَيّاً، نَحْوَ الأرضِ والأشجارِ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو المَعْبودُ في لسانِ العربِ، ويُسَمِّي العربُ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً، كأنهُ يقولُ: لا إلهَ، ولا مَعْبودَ، يَسْتَحِقُّ العبادةَ إلا هو.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي ادْعُوهُ بإخلاصِ الدينِ لهُ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي اعْبُدوهُ مُخْلِصينَ لهُ العبادةَ، ولا تُشْرِكوا فيها غيرَهُ مِنْ نَحْوِ ما كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ دونَهُ رجاءَ الشفاعةِ وتَقْريبِهِمْ إليهِ. أخْلِصوا العبادةَ والدينَ. والإخلاصُ هو التَّصْفِيَةُ لهُ.

والثاني: ادْعُوهُ على حقيقةِ الدعاءِ لهُ والتَّسْمِيَةِ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ادْعُوهُ، وسَمُّوهُ إلهاً، لا تَدْعُوا، ولا تُسَمُّوا غيراً إلهاً لأنهمْ كانوا يُسَمُّون، ويَدْعونَ الأصنامَ التي عَبَدوها آلهةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الحمدُ للهِ، ربٌّ على خَلْقِهِ بما أنْعَمَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ كانَ الكَفَرَةُ دَعَوا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: قامتها.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لا.

رسولَ اللهِ ﷺ. إلى عبادةِ ما عَبَدوا هُمْ مِنَ الأصنامِ، فقالَ: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ عنْ ذلكَ، وهو كما ذَكَرَ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ حينَ[1] قالَ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] وقالَ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهُما][2]: إنْ كانَ المُرادُ مِنَ البيِّناتِ القرآنَ والآياتِ التي نزلَتْ مُعجِزةً لهُ وعلى ما قالهُ أهلُ التأويلِ فهو على التأكيدِ والإبلاغِ، وإنْ كانَ النَّهيُ عنْ عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى والشِّرْكِ باللهِ لازماً [فهو][3] قبلَ مجيءِ الرسُلِ وما أتَوا مِنَ البيِّناتِ على ما تقدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ لمّا جاءَني مِنْ ربي العقلُ وما[4] يُعرَفُ بهِ ذلكَ. ويكونُ قولُهُ: ﴿جَاءَنِيَ﴾ أي ظَهَرَ لي كقولِهِ تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ [الإسراء: ٨١] أي ظَهَرَ الحقُّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أُمِرْتُ أنْ أجعَلَ الخَلْقَ وكلَّ شيءٍ للهِ سالماً خالصاً، لا أُشرِكَ فيهِ[5] غيرَهُ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ يَذْكُرُ لهمُ الوجوهَ التي بها يُوصَلُ إلى معرفةِ شُكْرِ ما أنعَمَ عليهِمْ، يقولُ[6]: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خَلَقَ أصْلَكُمْ مِنْ ترابٍ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي خَلَقَكُمْ مِنْ نُطفةٍ، يَذْكُرُ لهمْ هذا لِيُعلِمَ خَلْقَهُ إياهمْ مِنْ ترابٍ؛ أعني خَلْقَ أصلِهِمْ ليسَ باسْتِعانةٍ منهُ بذلكَ الترابِ، لأنهُ لو كانَ على الاستِعانةِ منهُ لكانَ لا مَعْنى لِخَلْقِ أنفسِهِمْ مِنَ الماءِ [على الصورةِ التي خَلَقَ مِنْ ترابٍ وعلى جنسِهِ؛ إذْ ليسَ في الماءِ مِنْ آثارِ الترابِ شيءٌ، ولا في الماءِ][7] والنُّطفةِ مِنْ آثارِ العَلَقَةِ شيءٌ، ولا في العَلَقةِ مِنْ آثارِ الطُّفوليَّةِ شيءٌ مِنَ اللحمِ والعظمِ والجلدِ والشعرِ وغيرِ ذلكَ؛ ليسَ في الترابِ مَعْنى الماءِ، ولا في الماءِ مَعْنى الترابِ.

ولو كانَ على الاستِعانةِ بذلكَ لَكانَ المَخلوقُ مِنْ أحدِهِما لا يكونُ مِثْلَ المَخلوقِ مِنَ الآخَرِ في تركيبِهِ وتصويرِهِ، وهما يَختلِفانِ في نَفْسيهِما.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَقَلُّبِهِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ وتَبديلِهِ مِنْ نوعٍ إلى نوعٍ، وليسَ في كلِّ حالٍ تَقَلُّبُ إليها مِنَ الحالِ التي كانَتْ شيءٌ، ولا مِنْ شِبْهِها، لِيُعْلَمَ أنَّ كلَّ ذلكَ إنما كانَ بِقُدْرةٍ ذاتيَّةٍ وعِلْمٍ ذاتيٍّ وتَدْبيرٍ ذاتيٍّ[8] لا باسْتِعانةِ شيءٍ ممّا ذَكَرَ ولا سَبَبٍ لهُ في ذلكَ. ولكنْ كانَ بِمَعْنًى جَعَلَ فيهِ؛ كانَ ذلكَ كذلكَ بوجودِ ذلكَ المَعْنى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي تَبلُغوا حتى يَشتَدَّ كلُّ شيءٍ منهُ مِنَ البُنْيَةِ والعقلِ وغيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي منكُمْ مَنْ يُتَوفَّى مِنْ قَبْلِ أنْ يَبْلُغَ شيخاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي لِتَبلُغوا الأجلَ الذي جُعِلَ لَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تَعقِلونَ ما بَيَّنَ لكُمْ وذَكَرَ لكُمْ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو الذي يَخْلُقُ حياةَ كلِّ شيءٍ، ويَخْلُقُ موتَ كلِّ شيءٍ.

وعلى قولِ المعتزلةِ يجوزُ أنْ يُسَمّى كلُّ عبدٍ مُحْيِياً مُميتاً لِقولِهِمْ: إنَّ القتيلَ ليسَ بميِّتٍ بأجَلِهِ، بل يُميتُهُ القاتلُ، وقولِهِمْ: إنَّ المُتَوَلِّداتِ مِنَ الفِعْلِ، هي[9] فِعْلُ ذلكَ الفاعلِ. فَعَلى قولِهِمْ هذا يجوزُ تَسْمِيةُ كلِّ أحدٍ مُحْيِياً مُميتاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فإنما يُتَرْجِمُ بقولِهِ: ﴿كُن﴾ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ ونونٌ. فذلكَ تكوينُهُ، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ولم. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: كذلك. (٩) في الأصل وم: هو.

جنة السنة

وقد ذكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ على الإبلاغ.

الآية ٦٩ [وقولُهُ ﷻ:][1] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو حقيقةُ الرُّؤيةِ والنَّظرِ.

ويَحتَمِلُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألمْ تعْلَمْ؛ معناهُ: ألمْ تعْلَمْ سَفَهَ الذينَ يُجادلونَ في آياتِ اللهِ أو جَهْلَ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي في دَفْعِ آياتِ اللهِ بِغَيرِ سلطانٍ أتاهُمْ. فَعَلى ذلكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي أيُّ حُجَّةٍ تَصرِفُهُمْ؟ أي صَرَفَتْهُمْ عن آياتِ اللهِ، أو مِنْ أينَ يُصْرَفونَ؟ ويُعْرِضونَ عن آياتِ اللهِ بَعْدَ ما تقَرَّرَ عندَهُمْ أنها آياتُ اللهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي أتاهُمُ الرسُلُ، وكَذَّبوا بما أرسَلْنا، أي كَذَّبوا أيضاً بما أمَرَهُمُ الرسُلُ بالوَحْيِ مِنْ غيرِ كتابٍ؛ إذِ الوَحْيُ نوعانِ: مَتْلُوٌّ وغيرُ مَتْلُوٍّ، فلم يكُنْ قولُهُ ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ تفسيراً للكتابِ.

وعلى التأويلِ الأوَّلِ قولُهُ: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي الكتابِ فيكونُ تفسيراً لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ لهم، أي سوفَ يَعْلَمونَ عِلْمَ عِيانٍ بَعْدَ ما عَلِموا عِلْمَ خَبَرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧١ و٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ ذُكِرَ أنَّ في السلاسلِ ثلاثَ لغاتٍ: الرَّفْعَ والنَّصْبَ والخَفْضَ[2]: فَمَنْ رَفَعَها يقولُ مَعْناهُ: إذْ جُعِلَ الأغلالُ والسلاسِلُ في أعناقِهِمْ، يُسْحَبونَ بها في الحميمِ. ومَنْ قالَ بالخَفْضِ فتأويلُهُ: إذِ الأغلالُ في أعناقِهِمْ، أي تُجْعَلُ الأغلالُ في السلاسِلِ، فَيُسْحَبونَ بها في الحميمِ. ومَنْ قالَ بالنَّصْبِ فكأنَّهُ[3] قرَأَ: إذِ الأغلالُ في أعناقِهِمْ والسلاسِلَ يَسْحَبونَ [في الحميمِ، أي يَسْحَبونَ][4] السلاسِلَ في الحَميمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُسْجَرُونَ﴾ أي يُجَرّونَ، والحَميمُ قد مَرَّ تأويلُهُ، وهو ماءٌ يُشْرَبُ منهُ، قد انْتَهى حَرُّهُ غايتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يُوقَدونَ. ذَكَرَ ما يُسْقَونَ فيها، وهو الحَميمُ، وذَكَرَ ما يُحْرَقونَ بهِ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي يُجَرّونَ، وصَرْفُهُ: سَحَبَ يَسْحَبُ سَحْباً، أي يَجُرُّ. وقولُهُ: ﴿يُسْجَرُونَ﴾ أي يُوقَدونَ بهِمْ، يقالُ: سَجَرْتُ /٤٨١ ـ أ/ أي أوقَدْتُ فيهِ، وصَرْفُهُ: سَجَرَ يَسْجُرُ سَجْراً.

الآيتان ٧٣ و٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظاهِرُ هذهِ الآيةِ أنَّ هذا القولَ لهمْ بَعْدَ ما دَخَلوا النارَ لأنهُ ذَكَرَهُ على إثْرِ قولِهِ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ فظاهِرُها أنَّ قولَهُ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بَعْدَ دخولِهِمُ النارَ.

وظاهِرُ قولِهِ بَعْدَ هذا مُتَّصِلٌ بهِ ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦] على أنَّ ذلكَ القولَ إنما يُقالُ لهمْ قَبْلَ أنْ يدخُلوا النارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ هذا القولُ منهمْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على إنكارِهِمْ وجُحودِهِمْ عبادةَ الأصنامِ التي عَبَدوها في الدنيا، وأشرَكوها إيّاهُ في أُلوهِيَّتِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٢٣] بقولِهِ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٩٦] أنكَروا ما كانَ منهمْ، وأقسَموا على ذلكَ.

وهذا يدلُّ على أنَّ الآيةَ لا تَضطَرُّ أهلَها إلى قبولِ الآياتِ والتَّصديقِ لها لأنهمْ أنكَروا أنْ يكونوا مُشْرِكينَ بَعْدَ ما عايَنوا العذابَ، وظَهَرَ لهمْ خَطَؤُهُمْ وكونُهُمْ على الباطِلِ، ثم لم يَمْنَعْهُمْ ما عايَنوا مِنَ الكَذِبِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/٥٧و٥٨. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والثاني: قولُهُ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ ليسَ على الإنكارِ والجُحودِ، ولكنْ لِما رَأوا أنَّ عبادَتَهُمُ الأصنامَ لم تَنفعْهُمْ يومئذٍ، ولم تُغْنِهِمْ عمّا نَزَلَ بهِمْ، فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي الذي كنا نَعْبُدُهُ في الدنيا، كانَ باطلاً، لم يَكُ شيئاً حينَ لم يَنْفَعْنا ذلكَ في هذا اليومِ.

فإنْ كانَ تأويلُ الآيةِ هذا فهذا يدلُّ على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ بعدَ ما دَخلوا النارَ.

وإنْ كانَ تأويلُهُ الأوَّلَ على الإنكارِ والجحودِ فذلكَ يدلُّ على أنَّ ذلكَ القولَ قبلَ أنْ يَدْخُلوا النارَ حينَ تَشهَدُ عليهِمُ الجوارحُ، وذلكَ يُقرِّرُ قولَهُ: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي هكذا يُضِلُّ اللهُ مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الكُفْرِ والضَّلالِ يُضِلُّهُ، وهو كقولِهِ: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] أي إذْ عَلِمَ منهمُ اختيارَ الانْصِرافِ صَرَفَهُمْ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] أي إذْ عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَختارونَ الزَّيْغَ أزاغَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي ذلكَ جزَيتُكُمْ في النارِ بما كُنْتُمْ تُسَرُّونَ في الدنيا بالباطلِ؛ إذْ همْ كانوا كذلكَ في الدنيا يَفرَحونَ، ويُسَرُّونَ على كونِهِمْ على الباطلِ. وقيلَ: يَفرحونَ أي يَبْطَرونَ. لكنْ هو على الفرحِ والرضا بِما اختاروا لأنفسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي وبما كُنْتُمْ تَتكبَّرونَ، كذلكَ كانوا يُسَرُّونَ، ويَرْضَونَ بكونِهِمْ على الباطلِ، ويَتكبَّرونَ بذلكَ على رسولِ اللهِ ﷺ والمؤمنينَ. والمَرَحُ التَّكبُّرُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] أي تَكبُّراً.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الآية، وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ قد ذَكَرْنا هذا أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ كأنهُ قالَ: يَتَوقَّعُ رسولُ اللهِ ﷺ نزولَ ما وَعَدَ لهمْ، ويَخطُرُ ذلكَ ببالِهِ، ويَطْمَعُ بذلكَ، فَنَهاهُ عنْ تَوَقُّعِ نزولِ العذابِ الذي وَعَدَ لِلْكَفَرَةِ في الوقتِ الذي يَطْمَعُ فيهِ وعنِ الخَطَرِ ببالِهِ النصرِ لهُ وإهلاكِ أولئكَ في الوقتِ الذي يَتَوَقَّعُ.

كأنهُ يقولُ: إنْ شِئْنا أريناكَ بعضَ الذي نَعِدُهُمْ، وإنْ شِئنا تَوَفَّيْناكَ، ولم نُرِكَ شيئاً. وهو ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ، أو يتوبَ عليهِمْ، أو يُعَذِّبَهُمْ.

وإلا ظاهرُ قولِهِ: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ حرفُ شكٍّ، لا يُحْتَمَلُ مِنَ اللهِ تعالى؛ إذْ هو يَعْلَمُ أنهُ يَفْعَلُ ذا، أو لا يَفْعَلُ، أو يكونُ [ذا، أو لا يكونُ][1].

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَطْمَعُ نزولَ ما وَعَدَ، ويُحدِّثُ نفسَهُ بذلكَ، فيقولُ لهُ: ليسَ ذلكَ إليكَ، إنما ذلكَ إلينا ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﵄ أنهُ قالَ: هذهِ الآيةُ مِنَ المَكتومِ لأنَّ ظاهرَها[2] شكٌّ.

وفي الآيةِ دلالةُ الرسالةِ لأنها خَرَجَتْ مَخرَجَ العِتابِ للنَّبيِّ ﷺ والتوبيخِ لهُ.

ثم أظْهَرَ ذلكَ على الناسِ، والسَّبيلُ في مِثْلِهِ في عُرْفِ الناسِ الإخفاءُ والإسرارُ عنِ الناسِ، فَدَلَّ أنهُ إنما أظْهَرَ عليهِمُ الأمْرَ بالتبليغِ. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨] إذِ المَرْءُ لا يُظْهِرُ مِثْلَ ذلكَ مِنْ غيرِ أمرٍ وتكليفٍ مِمَّنْ وَجَبَتْ عليهِ طاعَتُهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ظاهره.

جنة السنة

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يقولُ: لستَ أنتَ بأوّلِ رسولٍ أُرسِلتَ إليهِمْ، فاستَبْعَدوكَ وأنكروكَ، وكَذَّبوكَ، بل قد أُرسِلَ إلى الأممِ السالفةِ رُسُلٌ مِثْلَ ما أُرسِلْتَ أنتَ إلى هؤلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ في الآيةِ دلالةٌ أنّا لم نُؤخَذْ بِمَعْرِفةِ أعيُنِ الرسلِ وأساميهِمْ على التَّعيينِ كما أنّا لا نُؤخَذُ بالإيمانِ باللهِ تعالى [بجميعِ ما جاءَ منهُ على التَّفصيلِ والتَّعيينِ بأساميهِمْ لكنْ على الجملةِ.

وعلى هذا قُلْنا إنَّ الإيمانَ برسولٍ واحدٍ إيمانٌ بجميعِ الرسلِ؛ إذْ لم يُؤخَذْ منهُ الإنكارُ لِغَيرِهِ على الجملةِ والتَّعيينِ، وكذلكَ الإيمانُ باللهِ تعالى][1] إيمانٌ بالرسُلِ جميعاً، لأنَّ الإيمانَ باللهِ إيمانٌ بأمْرِهِ ونَهْيِهِ، فيكونُ إيماناً بِمَنْ جاءَ الأمرُ والنَّهيُ على يَدِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كأنهمْ سألوهُ أنْ يأتيَ بآيةٍ بَعْدَ آيةٍ على إثْرِ آيةٍ أُخرى، فقالَ عندَ سؤالِهِمْ ذلكَ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ليسَ لرسولٍ أنْ يأتيَ بالآيةِ على شَهْوَتِهِ أو على شَهْوَةِ السائلِ.

وهذهِ الآيةُ تدلُّ على نَقْضِ قولِ الباطِنيَّةِ؛ فإنهمْ يَقولونَ: إنَّ أنفُسَ الرسُلِ جَواهِرُ روحانيَّةٌ يأتونَ [بالآياتِ حينَ يشاؤونَ][2] مِنْ غَيرِ إذْنٍ مِنَ اللهِ تعالى ومِنْ غَيرِ سؤالٍ عنها إيّاهُمْ[3] في وقْتِ الإتيانِ.

ولو كانَ الأمرُ على ما قالوا لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مَعْنىً، وإنهُ مخالفٌ للآيةِ، فإنَّ فيها إخباراً أنهُ لا يأتي الرسُلُ بالآياتِ إلّا بإذْنٍ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي إذا جاءَ الأمرُ بعذابِ اللهِ، وإذا جاءَ الأمرُ بِمَوعودِ اللهِ، يُعَبِّرُ بالأمْرِ عنِ المَوعودِ الذي أُوعِدوا، وقد ذَكَرْنا مَعْنَى الخُسْرانِ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ذَكَّرَهُمْ بهذهِ الآيةِ وبالآيةِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها [نِعَمَهُ][4] بوجهَينِ:

أحدُهما: يُذَكِّرُهُمُ النِّعَمَ[5] التي أنعَمَها عليهِمْ حينَ[6] قالَ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] مِن فضلِهِ، وقالَ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤] ثم قالَ ههنا: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ذَكَّرَهُمْ أوّلاً بَدْءَ إنشائِهِمْ [حينَ قالَ][7]: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وفيهِ دلالةُ وَحدانيَّتِهِ وعِلْمِهِ وتَدْبيرِهِ وقدرتِهِ. ثم ذَكَّرَهُمْ [نِعْمَةً][8] مِنْ بَعْدِ نِعْمَةٍ إلى آخِرِهِ لِيَسْتأدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ وحَمْدَهُ على ذلكَ. هذا وجْهٌ.

والثاني: يُذَكِّرُهُمْ أنهُ إنما أنشأَ هذهِ الأشياءَ التي ذَكَرَها، وعَدَّها / ٤٨١ ـ ب/ عليهِمْ للبَشَرِ، لم يُنْشِئْها لأنفسِها، كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: قد أنشَأْتُ هذهِ الأشياءَ لكُمْ، تَنْتَفِعونَ بها، وتَسْتَعْمِلونها كيفَ شِئْتُمْ. فما بالُكُمْ أشَدُّ إنكاراً وكُفْراً بالنِّعْمَةِ مِنْ غَيرِكُمْ مِنَ العالَمِ؟ وسائرُ العالَمِ أشَدُّ خُضوعاً واسْتِسْلاماً لِنِعَمِهِ والقِيامِ بِشُكْرِها لهُ.

ثم في الآيةِ نَقْضُ قولِ المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: ليسَ للهِ تعالى أنْ يؤلِمَ طِفْلاً [وأنْ يُحرِّمَ نعمةً][9] إلّا بِعِوَضٍ يُعَوِّضُها. ثم لا شَكَّ أنَّ ما سَخَّرَ مِنَ الأنعامِ والدوابِّ للبَشَرِ، ومَكَّنَ لهمُ اسْتِعْمالَها والانْتِفاعَ بها أنواعَ المَنافِعِ أنها تتأذّى، وتتألَّمُ بذلكَ. فَيَجِبُ على قولِهِمْ ألّا يكونَ للهِ تعالى أنْ يؤلِمَ إلّا بِعِوَضٍ، تَرْضَى بهِ هذهِ الأشياءُ؛ إذْ هكذا حُكْمُ كلِّ مَجْعولٍ بِعِوَضٍ أنْ يُشْتَرَطَ رِضا أربابِها في العِوَضِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بها الآية حيث شاؤوا. (٣) في الأصل وم: إياه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: النعمة. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ونعما.

جنة السنة

وإذا لم تكنْ هذهِ الأشياءُ مِنْ أهلِ الرِّضا [يجوزُ ألّا يَجِبَ][1] التعويضُ. فَدَلَّ أنَّ ذلكَ بناءٌ على ما قُلْنا مِنْ أنَّ الأصلَحَ ليسَ بواجبٍ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم جَعَلَ مَنافِعَها مُخْتَلِفَةً منها الركوبُ ومنها الأكلُ وغَيرُ ذلكَ مِنَ الاِنْتِفاعِ بصوفِها وَوَبَرِها، وما أعْطَى لهمْ أيضاً مِنَ السُّفُنِ يركبونَ بها البِحارَ لِيَصِلوا إلى حوائِجِهِمْ في الأمصارِ التي بَعُدَتْ منهم، ونَأَتْ، فَضْلاً منهُ ومِنَّةً.

الآية ٨٠ فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنهُ أراهُمْ آياتِ وحدانِيَّتِهِ وألوهِيَّتِهِ، وأراهُمْ آياتِ نِعَمِهِ وإحسانِهِ إليهِمْ ونَحْوَها. يقولُ: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أراكُمْ [إياها][2] تُنْكِرونَها [وتقولونَ:][3] إنها ليسَتْ مِنَ اللهِ تعالى؟

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قد ذَكَرْنا مَعْناهُ في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي كانوا أكْثَرَ عدداً منكُمْ وأشَدَّ في القوةِ والبَطْشِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أكْثَرَ أعمالاً منكُمْ، ثم كانتْ عاقِبَتُهُمُ الهلاكَ والاِسْتِئصالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يقولُ: لم يُغْنِ عنهمْ كَثْرَةُ العَدَدِ والحَشَمِ والأموالِ، ولا قوةُ الأبدانِ في دفعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ. فأنتمْ يا أهلَ مكةَ أحقُّ ألّا تَقْدِروا على دفعِ العذابِ عن أنفسِكُمْ إذا نَزَلَ بكُمْ مع ضَعْفِكُمْ وقِلَّةِ عَدَدِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم﴾][4] وجهَينِ:

أحَدُهما: أي فَرِحوا بما عندَهُمْ أنهُ عِلْمٌ، وليسَ هو في الحقيقةِ عِلْمٌ. لكنْ عندَهُمْ أنَّ ذلكَ عِلْمٌ، وهو كقولِهِ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] أي انْظُرْ إلى إلهِكَ الذي هو عندَكَ إلهٌ، وإلّا لم يكُنْ ذلكَ عندَ موسى ﷺ إلهاً. ولكنْ ذَكَرَ على ما عندَ ذلكَ الرجلِ للتعريفِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي بما عندَهُمْ أنهُ عِلْمٌ، وإنْ لم يكُنْ في الحقيقةِ عِلْماً، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حقيقةِ العِلْمِ، وذلكَ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ قد كانَ مِنْ أهلِ الكتابِ الإيمانُ بما عندَهُمْ مِنَ الكتابِ، وهو في الحقيقةِ عِلْمٌ، لا شَكَّ فيهِ، لكنهمْ لمّا كَذَّبوا غَيرَهُ مِنَ الكتبِ والعلومِ، وكَفَروا بها لم يَنْفَعْهُمْ إيمانُهُمْ بما عندَهُمْ مِنَ العِلْمِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٩١] كانَ إيمانُهُمْ بما أُنْزِلَ إليهِمْ حقاً[5]، لكنهمْ لمّا كَفَروا بِغَيرِهِ أبطَلَ ذلكَ الكُفْرُ إيمانَهُمْ بالذي أُنْزِلَ إليهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي يَحيقُ بهمُ العذابُ بما كانوا يَسْتَهْزِئونَ بالرسلِ[6].

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

[أحَدُهما:][7] أنْ يكونَ هذا القولُ منهمْ وما ذَكَرَ مِنَ الإيمانِ منهمْ إذا رَأوا بأسَ اللهِ بَعْدَ وفاتِهِمْ في قُبورِهِمْ أي عذابَ اللهِ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهذا يدلُّ على عذابِ القبرِ لِمَنْ شاءَ اللهُ تعالى في حقِّهِ العذابَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ منهمْ في حياتِهِمْ حينَ رَأوا بأسَ اللهِ في الدنيا آمَنوا بما ذَكَروا.

---

(١) في الأصل وم: بحيث ألا يجوز. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حق. (٦) الباء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يحتمل.

جنة السنة

فإنْ كانَ ذلكَ في الحياةِ فلم يَنْفَعْهُمْ إيمانُهُمْ لمّا رأَوا بأسَنا، وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ هذا في سورةِ يونسَ[1] على الاِسْتِقْصاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:][2] ألّا يُقْبَلَ الإيمانُ عندَ رؤيةِ بأسِ اللهِ ومُعايَنَةِ عذابِهِ.

والثاني: كذلكَ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ مِنَ التعذيبِ والاِنْتِقامِ مِنْ مُكذِّبي الرسلِ في الدنيا واسْتِئْصالِهِمْ. يُخَوِّفُ أهلَ مكةَ بِما أنْزَلَ إليهِمْ[3] لِيَحْذَروا مِثْلَ صنيعِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي خَسِرَ عندَ ذلكَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

(١) في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ إلى قوله ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [الآيتان: ٥٠ و٥١]. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إليك.

[سورة ﴿حمٓ﴾ فصلت

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ظاهرُ هذا أنَّ تفسيرَ ﴿حمٓ﴾ هو قولُهُ: ﴿تَنزِيلٌ﴾ و﴿حمٓ﴾ خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ مُقدَّرٍ ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأً ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١ و: ٢].

والأصلُ في الحَواميمِ[2] وسائرِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ أنها تَبْعَثُ سامِعَها على التَّفكُّرِ والتَّأمُّلِ، لأنهُ لا يَفْهَمُها وقتَ قَرْعِها[3] السَّمْعَ حتى يَتأمَّلَ، ويَتفكَّرَ فيها، لأنها كلامٌ، لم[4] يَسْمعوهُ قبلَ ذلكَ، فَيَحمِلَهُمْ ذلكَ على الإسْتِماعِ والتَّفكُّرِ فيها والنَّظرِ، فيَقَعَ ما هو المَقصودُ مِنَ الخِطابِ في سَماعِهِمْ، ويَعْرفوا وجهَ الإعجازِ، فيَتَوصَّلوا بذلكَ إلى الحقِّ. وقد ذَكَرْنا في الحروفِ المُقَطَّعةِ وجوهاً في ما تَقَدَّمَ.

ثم ذَكَرَ ههنا رحمَتَهُ ورأفَتَهُ لِيُرَغِّبَهُمْ في ما يَرْحَمُهُمْ، ويَرْأفُ بهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وذَكَرَ في السورةِ الأُولَى عِزَّهُ وقُدْرَتَهُ / ٤٨٢ ـ أ/ وسُلْطانَهُ وعِلْمَهُ لِيَحْذَروا مُخالَفَتَهُ وعِصْيانَهُ ظاهراً وباطناً حينَ[5] قالَ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ لِيَطْلُبوا العِزَّ مِنْ عندِهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي بُيِّنَتْ [ما][6] فيهِ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ ومالَهُمْ وما عليهِمْ وما يُؤْتَى وما يُتَّقَى ونَحْوَهُ.

وعندَنا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي فُرِّقَتْ كلُّ آيةٍ مِنَ الأُخرَى: مِنْ نحوِ آيةِ التوحيدِ، فُرِّقَتْ مِنْ آيةِ الرسالةِ، وفُرِّقَتْ آيةُ البَعْثِ مِنْ غيرِها.

والثاني: يَحْتَمِلُ التفريقُ في الإنزالِ، أي فُرِّقَتْ آياتُهُ في الإنزالِ؛ لم يَجْمَعْ بينَها في الإنزالِ، ولكنْ فَرَّقَها[7] في أوقاتٍ مُتَباعِدَةٍ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بُيِّنَتْ على غيرِ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، وهو أنْ بُيِّنَتْ آياتُهُ بالحُجَجِ والبراهينِ حتى يُعْلَمَ أنها آياتٌ مِنَ اللهِ تعالى:

وقولُهُ تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي أنْزَلَهُ بِلسانٍ يَعْلَمونَهُ، ويَفْهَمونَهُ، لا بِلِسانٍ لا يَعْلَمونَهُ، ولا يَفْهَمونَهُ، أي أنْزَلَهُ بِلِسانِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يَنْتَفِعونَ بِعِلْمِهِمْ، أي [جَعَلَ][8] إنزالَهُ لِقَومٍ يَنْتَفِعونَ. فأمّا مَنْ لم يَنْتَفِعْ بِهِ فلم يَجْعَلِ الإنزالَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حواميم، (٣) من م، في الأصل: وقوعها. (٤) في الأصل وم: لا. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فرق. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ: قرآناً عربياً لِقومٍ يَعْقِلونَ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ البِشارةُ والنِّذارةُ، هي ما تكونُ في العاقبةِ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، أو يُقالُ: البِشارةُ، هي الدعاءُ إلى ما يوجِبُ لهمْ مِنَ الحَسَناتِ والخَيراتِ في العاقبةِ، والنِّذارةُ، هي الزجرُ عمّا يوجِبُ لهمْ مِنَ السَّيِّئاتِ والمَكروهاتِ في العاقبةِ. فصارَ مَعْنى الآيةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُرسِلَ داعياً إلى الحَسَناتِ وزاجراً عنِ السَّيِّئاتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يَحتمِلُ إعراضُهُمْ عنهُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أعْرَضوا عنِ التَّفَكُّرِ فيهِ والتَّأمُّلِ.

والثاني: أعْرَضوا عنِ اتِّباعِهِ بَعدَ ما تأمّلوا فيهِ، وتفَكَّروا، وتبَيَّنوا[1] أنهُ حقٌّ وأنهُ مِنَ اللهِ تعالى. لكنهمْ تَرَكوا اتِّباعَهُ عِناداً منهمْ ومُكابَرَةً حَذَراً مِنْ ذهابِ الرئاسةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يُجيبونَ على كلِّ ما ذَكَرْناهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ لا شَكَّ أنَّ قلوبَهُمْ على ما ذَكَروا أنها في أكِنَّةٍ، وفي آذانِهِمْ وَقْراً، لأنهُ ذَكَرَ جَلَّ، وعلا، أنهُ جعَلَ على قلوبِهِمْ أكِنَّةً وفي آذانِهِمْ وقْراً حينَ[2] قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥و...] على ما أخْبَروا أنَّ قلوبَهُمْ في أكِنَّةٍ وأغطِيَةٍ[3]، وفي آذانِهِمْ وَقْراً، لا يَفْقَهونَ ما يُدْعَونَ إليهِ، ولا يَسْمَعونَ ذلكَ، وإنْ كانوا يَفْقَهونَ غيرَهُ، ويَسْمَعونَ، لأنهمْ كذلكَ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ إنْ ثَبَتَ ما ذَكَرَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ أنَّ ثوباً رَفَعوا في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: كُنْ أنتَ يا محمدُ في جانبٍ، ونكونُ نحنُ في جانبٍ آخَرَ، ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ، فهو ذلكَ، وإلّا احْتَمَلَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ هو ما حَجَبَتْهُمْ ظُلْمَةُ الكُفرِ، وغَطّتْهُمْ، عنْ فَهْمِ ما دُعُوا إليهِ وعِلْمِ ما دَعاهُمْ إليهِ محمدٌ[4] ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: اعْمَلْ أنتَ بدينِكَ فإنّنا عامِلونَ بدينِنا كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

والثاني: فاعْمَلْ أنتَ في كَيدِنا فإنّا عامِلونَ [في كَيدِكُمْ والمَكرِ بكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ أنْ يقولوا: اعْمَلْ أنتَ لإلهِكَ فإنّنا عامِلونَ][5]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ [وقولُهُ ﷺ:][6] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا الحرفُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: كأنهُ يقولُ لهمْ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أفهَمُ، وأعقِلُ [ما][7] ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وأسْمَعُ ذلكَ. فأنتمْ في قولِكُمْ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ لا عُذرَ لكمْ في ذلكَ لأنهُ إنما يَحْجُبُكُمْ عنْ ذلكَ، ويُغَطّي قلوبَكُمْ عنْ فَهْمِ ذلكَ، الكُفْرُ الذي أنتمْ عليهِ والضلالُ الذي أنتمْ فيهِ. فاتْرُكوا ذلكَ حتى تفْهَموا، وتَعْقِلوا، ما تُدْعَونَ إليهِ، وتؤمَرونَ بهِ كما أفْهَمُ أنا، وأعقِلُ، إذْ ﴿أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي إنما ﴿أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أُمِرتُ أنْ أُبَلِّغَكُمْ[8] ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ وإلّا لو [لم أومَرْ][9] بتبليغِ الرسالةِ إليكُمْ إنما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ لَكُنْتُ أترُكُكُمْ وما أنتمْ عليهِ لِقولِكُمْ[10]: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: وأعرضوا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وغطاء. (٤) من م، في الأصل: وعلم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أبلغ إليكم. (٩) في الأصل وم: أمر. (١٠) في الأصل وم: كقولكم.

جنة السنة

على هذَين الوجهَين تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ قال بعضُهُمْ: أي فاستَقيموا إليهِ بالطاعةِ. وقيلَ: أي استَقيموا إلى ما دَعاكُمْ إليهِ مِنَ التوحيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي انتَهُوا عمّا أنتمْ عليهِ مِنَ الكُفرِ والضلالِ لِيَغفِرَ لكُمْ ما كانَ منكُمْ في حالِ الكُفرِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويَحتَمِلُ: أي كونوا على حالٍ بحيثُ يَقبَلُ استِغفارَكُمْ وطَلَبَ تجاوُزِكُمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والإشكالُ أنهُ لماذا خَصَّ المُشرِكَ الذي لم يُؤتِ الزكاةَ، ويُنكِرُ الآخِرَةَ بالويلِ، وقد يَلْحَقُ الويلُ بالمُشرِكِ آتى الزكاةَ، أو لم يُؤتِ، آمَنَ بالآخِرةِ، أو كَفَرَ بها.

فنقولُ: قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ: مَعناهُ ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ الذينَ لا يؤمِنونَ بإيتاءِ الزكاةِ، ولا يؤمِنونَ بالآخِرةِ، وخَصَّهُمْ بِذِكْرِ جُحودِ الزكاةِ لِما كانَ سببُ كُفرِهِمْ مُختَلِفاً:

منهمْ [مَنْ][1] كانَ سببُ كُفرِهِ بُخلَهُ في المالِ وشُحَّهُ، حَمَلَهُ ذلكَ على إنكارِ الزكاةِ والامتِناعِ عنِ الإتيانِ.

ومنهمْ مَنْ كانَ كُفرُهُ إنكارَ جَزاءِ الأعمالِ، حَمَلَهُ ذلكَ على إنكارِ الآخِرَةِ.

ومنهمْ مَنْ كانَ سببُ كُفرِهِ الخضوعَ لِمَنْ دونَهُ أو مِثْلِهِ في أمرِ الدنيا، حَمَلَهُ ذلكَ على إنكارِ الرسالةِ والجُحودِ لها.

وغيرُ ذلكَ مِنَ الأسبابِ التي حَمَلَتْهُمْ على الكُفرِ والضلالةِ، وهي مُختَلِفةٌ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا على زكاةِ الأموالِ ولكنْ على زكاةِ الأنفسِ، كأنهُ يقولُ: وويلٌ لِلْمُشركينَ الذينَ لا يَعْمَلونَ، ولا يَسْعَونَ في ما بهِ تَزكو أنفسُهُمْ، ويَشرُفُ ذِكرُها، وتَصْلُحُ أعمالُهُمْ بهِ، ولا يُجزَونَ[2] بهِ في الآخِرَةِ، أي وَيلٌ لِمَنْ لا يَعمَلُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وهذانِ الوجهانِ جوابُ عَمَّنْ تَعَلَّقَ بظاهرِ هذهِ الآيةِ.

على أنَّ الكفارَ يُخاطَبونَ بالشرائعِ حينَ[3] أُلحِقَ الوعيدُ بهمْ بِتَرْكِ إيتاءِ الزكاةِ، والزكاةُ مِنَ الشرائعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غيرُ مقطوعٍ، وذلكَ في الآخِرَةِ؟

وقالَ بعضُهُمْ: أي غيرُ مَحسوبٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غيرُ مُمتَنٍّ عليهِمْ، وذلكَ في الآخِرَةِ أيضاً، ومَعناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ يُزادُ لهمْ في الآخِرَةِ على قَدْرِ أعمالِهِمْ، ولا يُمَنُّ عليهِمْ بتلكَ الزيادةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غيرُ مَنقوصٍ ولا مَمنوعٍ. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ مَنْ كانَ يَعمَلُ في حالِ شَبابِهِ وقوتِهِ الصالحاتِ و الطاعاتِ، ثم كَبِرَ، وعَجِزَ عنْ إتيانِها فإنهُ[4] لا يُمْنَعُ، ولا يُنْقَصُ منهُ الأجرُ الذي كانَ يُجرى عليهِ، ويُكتَبُ لهُ في حالِ شَبابِهِ وقوتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ / ٤٨٢ ـ ب/ تأويلُ هذهِ الآيةِ كما ذَكَرنا في قولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ الآية[البقرة: ٢٨] وهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: كيفَ تُنكِرونَ وَحدانيّتَهُ، وتَكفُرونَهُ، وهو الذي أحياكُمْ، لا الأصنامُ التي تَعبُدُنَها؟

والثاني: [كيفَ][5] تُنكِرونَ قُدرةَ اللهِ في البَعثِ، وقد رأيتُمْ قدرَتَهُ في ابتِداءِ[6] إنشائكُمْ وتَقليبِكُمْ من حالٍ إلى حالٍ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في م: ما. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ابتدائه.

جنة السنة

والثالث: كيفَ تكفُرونَ برسولِهِ، وقد خلقَكُمُ اللهُ تعالى، وامتحنَكُمْ بأنواعِ المِحَنِ، وكلَّفَكُمْ[1]، وأمرَكُمْ بأوامِرَ ونَواهٍ ما لو لم يَكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ [يقومُ بها][2] لا يُمكِنُكُمُ القِيامُ بأكثرِها، وكانَ خلْقُهُ إياكمْ عَبَثاً؟

فَعلَى هذهِ الوجوهِ يُخرَّجُ [قولُهُ][3]: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الآية؟.

[أحدُها][4]: أإنكُمْ لتكفُرونَ، وحدانيَّةَ اللهِ، وقد خلقَ الأرضَ في يومينِ وما ذكَرَ؟.

والثاني: أإنكمْ لتكفُرونَ، وتُنكِرونَ قدرتَهُ على البعثِ، وقد خلقَ الأرضَ في يومَينِ على [بُعْدِ][5] أطرافِها وسَعَتِها؟ فكيفَ تُنكِرونَ قُدرَتَهُ على البَعْثِ، وقد رأيتُمْ قُدرتَهُ على خَلْقِ ما ذَكَرَ؟

والثالث: أإنكُمْ لتكفُرونَ نِعَمَ[6] اللهِ التي أنعَمَها عليكُمْ مِنْ خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنَ الأرضِ وغيرِها وما أنعمَ عليكمْ من بعثِ الرسولِ ﷺ فكيفَ تصرِفونَ شكرَها إلى غيرِ الذي لم يَفعَلْ ذلكَ لكمْ؟ وتُنكِرونَ رسالةَ رسولِهِ؟ ولا بُدَّ مِنْ رسولٍ، يُرْسَلُ إليكُمْ، وذلكَ مِنْ أعظمِ النِّعَمِ وأجلِّها.

ويُخرَّجُ تأويلُ الآيةِ على هذهِ الوجوهِ التي ذكَرْنا:

أحدُها: في إنكارِ وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ.

والثاني: في إنكارِ قُدرتِهِ على البَعثِ.

والثالث: في إنكارِهِمْ رسالةَ الرسولِ وصَرْفِهِمْ شُكرَ نِعَمِهِ إلى غَيْرِهِ بِعِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ.

ثم الحِكمةُ في خَلْقِ الأرضِ وجَعْلِهِ الحَدَّ الذي ذَكَرَهُ يومَينِ، وإنْ كانَ قادراً على خَلْقِ كلِّ شيٍ بلا تَحديدٍ ولا توقيتٍ [ما قالَ][7] بعضُهُمْ: فيهِ تَعريفُهُ الخَلْقَ وتعليمُهُمْ[8] الأناةَ في الأمورِ وتَرْكَ الاِسْتِعْجالِ فيها.

والأصلُ في ذلكَ عندَنا أنَّ اللهَ، جلَّ، وعلا، جَعَلَ أمْرَ الدنيا وأمْرَ هذا العالَمِ على التَّحديدِ والتَّقليبِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ نَحْوَ ما ذَكَرَ مِنْ تَقليبِهِ وتغييرِهِ مِنْ حالِ النطفةِ إلى حالِ العَلَقَةِ ومِنْ حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المُضْغَةِ ومِنْ حالِ المُضْغَةِ إلى حالِ تَرْكيبِ الجَوارحِ ثم إلى إنسانٍ ثم [مِنْ][9] تلكَ الحالِ إلى أنْ يَكْبَرَ؛ يُقَلِّبُهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخرَى.

وكذلكَ أمْرُ الدنيا وما فيها مِنَ الفواكِهِ والنباتِ وغَيرِ ذلكَ، يُنْشِئُها، ويُحدِثُها في كلِّ عامٍ، وإنْ كانَ لو شاءَ لأحدَثَها في عامٍ واحدٍ أو ساعةٍ واحدةٍ، وأبقاها إلى آخِرِ الأبَدِ.

لكنْ لم يَفْعَلْ ذلكَ لِما بَنَى هذا العالَمَ على الفَناءِ والفَسادِ يَضرِبانِ هذهِ الأحوالَ عليها على الأصلِ والوَضْعِ.

ولذلكَ رَكَّبَ فيهمُ المَرَضَ والسُّقْمَ والسلامةَ والصِّحَّةَ، وبَنَى أمْرَ الآخِرَةِ على البقاءِ والدوامِ.

فَعلَى ذلكَ أمْرُ[10] التَّحديدِ في خَلْقِ الأرضِ.

ويَحتمِلُ أنْ يُقالَ: جَعَلَ التَّحديدَ والتَّقديرَ لأنها دارُ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٍ. والاِبْتِلاءُ إنما يَقَعُ على التَّوقيتِ والتَّقديرِ في أوقاتٍ مُتبايِنَةٍ وأسبابٍ مُختَلِفَةٍ.

فأمّا الآخِرَةُ فلا مِحْنَةَ فيها، ولا بَلِيَّةَ، فهي على الدَّوامِ والبَقاءِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جَعَلَ في الأرضِ جبالاً أرْسَى بها الأرضَ، وأثبتَها، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ الأرضَ كانَتْ على الماءِ، وكادَتْ تَميدُ بأهلِها[لولا أنهُ][11] أرساها بالجبالِ، وأقرَّها بها.

وفيهِ نوعُ تَعليقِها[12] لأنهُ مَعلومٌ أنَّ الجبالَ التي [أثبتَ][13] بها الأرضَ [وأقرَّها بها][14] كانَتْ تزيدُ في ثِقَلِ الأرضِ:

---

(١) من م، في الأصل: وكلفهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: نعمة. (٧) في الأصل وم: فقال. (٨) في الأصل وم: والتعليم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: من. (١١) في الأصل وم: لكنه. (١٢) في الأصل وم: وها. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: وأقربها.

جنة السنة

فالسيلُ فيهِ التَرسُّبُ في الماءِ والانْحِدارُ فيهِ، لا الإثباتُ بها والإقرارُ. لكنهُ جَعَلَ الجبالَ سَبَبَ إثباتِ الأرضِ وإقرارِها تعليماً منهُ الخَلْقَ تَعليقَ الأشياءِ بَعْضَها ببعضٍ وتَعليقَها بالأسبابِ مِنْ غيرِ أنْ تكونَ الأسبابُ معونةً له على ذلكَ. ولو شاءَ أثبَتَها، وأرساها بلا سببٍ ولا شيءٍ عَلَّقَهُ بها[1]. لكنهُ عَلَّقَ الأشياءَ بالأشياءِ والأسبابِ لِما ذَكَرْنا مِنْ تَعليمِ الخَلْقِ تَعليقَ[2] الأشياءِ بالأسبابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي في الجبالِ؛ فقد جَعَلَ اللهُ تعالى فيها البَرَكاتِ الكثيرة: منها المياهُ تَخرُجُ منها، ومنها العُيونُ، ومنها الذهبُ والفضةُ وغيرُهما، ومنها الثمارُ والأشجارُ التي يُنْتَفَعُ بها وأنواعُ النباتِ التي تَصْلُحُ للأدويةِ وغيرُ ذلكَ مِنَ المَنافِعِ التي يَكْثُرُ عَدُّها وإحصاؤها.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي في الأرضِ [فقد جَعَلَ اللهُ، تعالى، في الأرضِ][3] البركاتِ الكثيرةَ مِنَ المياهِ التي تَخرُجُ منها وأنواعِ النباتِ والثمارِ وغيرِ ذلكَ مِمّا بها قِوامُ الخَلْقِ جميعاً وغذاؤُهم مِنَ البَشَرِ والدَّوابِّ، واللهُ أعلَمُ.

والبركةُ، هي اسْمُ كلِّ خيرٍ يكونُ أبداً على الزيادةِ والنَّماءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي قَدَّرَ في الأرضِ أقواتَ أهلِها وأرزاقَهُمْ في أربعةِ أيامٍ سَواءً للسائلينَ.

قالَ الزَّجاجُ في قولِهِ: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ثلاثُ لغاتٍ: بالنَّصبِ والرَّفعِ والخَفضِ:

فَمَنْ خَفَضَهُ: سَواءٍ للسائلينَ صَيَّرَهُ صِفَةً ونَعْتاً للأيامِ، كأنهُ قالَ: في أربعةِ أيامٍ سَواءٍ للسائلينَ، أي مُسْتَوياتٍ، ليسَ بعضُها أطوَلَ مِنْ بَعْضٍ.

ومَنْ قَرَأهُ بالنَّصبِ ﴿سواءً﴾ صَيَّرَهُ مَصْدَراً أي سَواءً وتَسْوِيَةً.

ومَنْ قَرَأهُ بالرَّفعِ [سواءٌ][4] صَيَّرَهُ على الابْتِداءِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، أي تلكَ الأقواتُ التي قَدَّرَها سَواءٌ لِلْمُحتاجينَ، أي كِفايةٌ لهمْ على قَدْرِ حاجَتِهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: مَنْ سَألَ عن ذلكَ وَجَدَهُ كما قالَ اللهُ، تعالى، ويقولُ ابْنُ عباسٍ ﷺ: وأنا مِنَ السائلينَ. فكانَ قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ ما ذَكَرْنا أي كِفايةً للسائلينَ المُحتاجينَ على السَّواءِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: عَدْلاً للسائِلينَ.

والعَدْلُ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: العَدْلُ الذي يُناقِضُ الجَورَ، أي عَدْلٌ للسائلينَ، أي ليسَ يَجورُ.

والثاني: عَدْلاً للسائلينَ، أي سَواءً؛ يقولُ لِمَنْ يَشاءُ الرِّزْقَ مِنَ السائِلينَ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لِمَنْ يَسْألُ عَنْ خَلْقِهِ ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ للسائِلينَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ مَقاديمِ الكلامِ. يقولُ: قَدَّرَ فيها أقواتَها سَواءً في أربعةِ أيامٍ للسائلينَ. تلكَ الأوقاتُ والأرزاقُ سَواءٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في هذا مَسْألتانِ:

إحداهُما: في تكوينِ الخَلْقِ وإحداثِهِ [والثانيةُ][6] ما ذَكَرَ مِنْ تَقْديرِ الأقواتِ في الأوقاتِ.

فَعِنْدَنا أنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ مُكَوِّناً مُحْدِثاً، وما[7] كانَ، ويكونُ، إلى آخِرِ الأبدِ إنما يكونُ بِتكوينٍ كانَ منهُ [في الأزلِ][8] لا بِتكوينٍ يَحْدُثُ منهُ في كلِّ وقتٍ يَحْدُثُ المُكَوَّنُ والخَلْقُ.

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: تعليم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٦٤.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وإن. (٨) في الأصل وم: وفي الأول.

جنة السنة

والأصلُ في ذلكَ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ إذا أُضيفَتِ الأوقاتُ إلى فِعْلِها، فتكوينُ التوقيتِ للخَلْقِ؛ أعني لِلْمَفعولِ، لا لِفِعْلِهِ لِما ذَكَرْنا أنهُ لا حاجةَ تَقَعُ لهُ في المعونةِ بشيءٍ ممّا ذَكَرَ مِنَ التوقيتِ، وإنما ذَكَرَ ذلكَ لئلا يُتَوَهَّمَ قِدَمُ المفعولِ والخَلْقِ، ولِيُعْلَمَ أنهُ مُحْدَثٌ.

مسألةٌ أخرى في ذِكْرِ التَّحديدِ والتَّوقيتِ في خَلْقِ ما ذَكَرَ لِحِكْمَةٍ، جَعَلَ في ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ يَصْعُبَ عليهِ خَلْقُ ذلكَ /٤٨٣ - أ/ في ساعةٍ أو طَرْفَةِ عينٍ؛ إذِ المَعْنَى في خَلْقِ ما ذَكَرَ في أيامٍ وأوقاتٍ؛ ذِكْرُ ذلكَ [في طَرْفَةِ][1] عينٍ موجودٌ على السَّواءِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ بذاتِهِ قادرٌ بذاتِهِ، لهُ قُدْرةٌ ذاتِيَّةٌ وعِلْمٌ ذاتيٌّ لا مُستفادٌ فالأوقاتُ إنما يَحتاجُ إليها مَنْ كانَ يعملُ بقدرةٍ مُستفادةٍ وعلمٍ مُسْتَفادٍ استعانةً لهُ بذلكَ.

فأمّا اللهُ ﷻ فما[2] يكونُ منهُ إنما يكونُ بِقُدْرةٍ ذاتِيَّةٍ وعِلْمٍ ذاتيٍّ، لا حاجةَ تَقَعُ [لَهُ][3] إلى الاِستعانةِ بشيءٍ مِنْ ذلكَ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا ثَمَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أربعةُ الأيامُ التي ذَكَرَ، هي مع خَلْقِ الأرضِ، يومانِ لِخَلْقِ الأرضِ ويومانِ لِتقديرِ الأقواتِ لِأهلِها والأرزاقِ، فتكونُ أربعةً.

ثم ذَكَرَ لِخَلْقِ السمواتِ يومَيْنِ؛ فإذا جُمِعَتْ تكونُ ستةَ أيامٍ، وهي[4] ما ذَكَرَ في [آياتٍ أُخَرَ][5] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣ و . . .] فكانَ تمامُ ذلكَ في ستةِ أيامٍ في غيرِ موضعٍ[6].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما[7]: ثم اسْتوتِ المَنافعُ والأقواتُ التي قَدَّرَها في الأرضِ، وجَعَلَ معايِشَ أهلِها بالسماءِ، لأنهُ جَعَلَ مَنافعَ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافعِ السماءِ، ما لولا السماءُ لم تَسْتَوِ مَنافعُ الأرضِ وما قَدَّرَ لهمْ فيها. فَبالسماءِ اسْتَوَى ذلكَ لهمْ، أي تَمَّ ذلكَ[8]، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ثم اسْتَوَى الهواءُ والجَوُّ الذي بَيْنَ الأرضِ والسماءِ إلى السماءِ، ما لولا ذلكَ الهواءُ لم يَسْتَوِ [ذلكَ][9] لأنَّ السماءَ لو كانَتْ مُلْتَزِقَةً بالأرضِ، لا هواءَ بَيْنَهما لكانَتْ لا تُخْرِجُ ما جَعَلَ في الأرضِ مِنَ الأقواتِ والمَعايِشِ. فبالهواءِ اسْتَوَى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهُمْ مَنْ يَصْرِفُ الاِسْتِواءَ إلى اللهِ ﷻ ومَعْنَى ذلكَ اسْتَوَى أَمْرُهُ ومُلْكُهُ بِخَلْقِ السماءِ، واسْتَوَى المقصودُ بِخَلْقِ الأرضِ وأهلِها وما فيها بِخَلْقِ السماءِ.

وأمّا التأويلانِ اللذانِ ذَكَرْناهما فَيَتَوَجَّهانِ[10] إلى غَيْرِ ذلكَ [وجهَيْنِ][11]:

أحدُهما: يَرْجِعُ[12] إلى اسْتِواءِ الهواءِ. والثاني: [يَرْجِعُ][13] إلى اسْتِواءٍ في الأرضِ.

وعلى هذا يُخَرَّجُ ما سُئِلَ ابْنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما عنهُ[14]: رُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ ابْنَ عبّاسٍ رضي الله عنهما فقالَ: قرأتُ آيَتَيْنِ إحداهُما تُخالِفُ الأُخرى، فقالَ لهُ: مِنْ قِبَلِ رأيِكَ أُتِيتَ؟ ما هما؟ فقالَ ذلكَ السائلُ: قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ٩ إلى ١١] وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ إلى ٣٠]

فَمُرادُ السائلِ أنَّ ظاهرَ الآيةِ الأُولَى أنهُ خَلَقَ الأرضَ قَبْلَ خَلْقِ السماءِ، وفي ظاهِرِ الآيةِ الثانيةِ أنهُ خَلَقَ السماءَ، ثم خَلَقَ الأرضَ. فقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما خَلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السماءَ، فَدَحا الأرضَ بعدَ ما خَلَقَ السماءَ، واللهُ أعلَمُ؛ أرادَ بهِ بَسْطَ الأرضِ بعدَ خَلْقِ السماءِ، فأمّا خَلْقُ أصلِ الأرضِ [فهو][15] قَبْلَ خَلْقِ السماءِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥)في الأصل وم: آية أخرى. (٦) يونس: ٣، هود: ٧، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: بذلك. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: رجع. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: عندنا. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وعندنا أنْ ليسَ [في](١) ظاهرِ هاتَينِ الآيتَينِ مُخالَفةٌ، ولا فيهِ بَيانٌ أنهُ خَلَقَ الأرضَ قَبْلَ السماءِ، ولا هذا بَعْدَ هذا، لأنهُ ذَكَرَ ههنا أنهُ ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ٩ و١١] ذِكْرُ الإسْتِواءِ إلى السماءِ ليسَ فيهِ أنهُ خَلَقَها بَعْدَ خَلْقِ الأرضِ، بل فيهِ أنهُ(٢) اسْتَوَى إليها بَعْدَ خَلْقِها، وليسَ فيهِ إثباتُ خَلْقِها قَبْلَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ بعضُهُمْ: دلَّ قولُهُ: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي شِبْهُ الدُّخانِ، لا حقيقةُ الدُّخانِ، ومنهُ خَلَقَ السماءَ والأرضَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿ٱئْتِيَا﴾ أعطِيا ما جَعَلْتُ(٣) فيكما مِنَ المَنافِعِ والأقواتِ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ أنهُ على التَّكْوينِ والتَّسْخيرِ خِلْقَةً، أي أنشَأهما، وخَلَقَهُما على إخراجِ ما فيهما مِنَ المنافِعِ والأقواتِ والأرزاقِ التي جَعَلَ فيهما، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الطَّوعِ والكَرْهِ لا قَولاً منهُ لهما وأمراً، لكنهُ طَبَعَهُما، وأنشَأهما كذلكَ على حقيقةِ القَولِ والأمرِ منهُ لهما نَحْوَ ما ذَكَرَ لكلِّ شيءٍ مِنَ الجبالِ وغيرِها أنهُ يُسَبِّحُ للهِ تعالى على الوجهَينِ.

لكنْ شَرْطَ خَلْقِ الحياةِ التي لا بُدَّ منها لِلنُّطْقِ والسماعِ(٤). فَعَلَى ذلكَ ههنا.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي ائْتِيا عِبادتي ومَعْرِفتي؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى حينَ خَلَقَهُما عَرَضَ عليهما الطاعةَ والشَّهْوةَ واللَّذّاتِ على الثوابِ والعقابِ ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] فهذا الإباءُ، [والطاعة هي طاعةٌ](٥) الخِلْقَةِ والتكوينِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي خَلَقَهُنَّ في يومَينِ؛ هو مَوصولٌ بقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [الآية: ٩] وكذلكَ بقولِهِ(٦) تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [الآية: ١٠] وقد ذَكَرْنا الوجوهَ في ذلكَ.

ثم الأُعجوبةُ في خَلْقِ السمواتِ ورَفْعِها أعظَمُ وأكبَرُ مِنْ خَلْقِ الأرضِ، وقد ذَكَرَ في خَلْقِ السمواتِ مِنَ الوقتِ مِثْلَ الوقتِ الذي ذَكَرَ في الأرضِ، وهو يومانِ لِيُعْلَمَ أنَّ الوقتَ الذي ذَكَرَ في ذلكَ ليسَ لِما يَتَعَذَّرُ عليهِ ذلكَ، ويَصْعُبُ بدونِ ذلكَ الوقتِ، ولكنْ لِحِكْمَةٍ جَعَلَها في ذلكَ، لم يُطْلِعِ الخَلْقَ على ذلكَ، أو كانتِ الحِكْمَةُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ وهُمُ الملائكةُ الذينَ جَعَلَهُمْ أهلاً لها. وقالَ بعضُهُمْ: أي أمَرَ كلَّ أهلِ سماءٍ أمْرَها، وامْتَحَنَهُمْ بِمِحْنَةٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هو ممّا أمَرَ بهِ، وأرادَ، وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي بالكواكِبِ، وقولُهُ: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي دنَتْ منكُمْ، هي مُقابلُ القُصْوَى، مِنَ الدُّنُوِّ، ليسَ أنَّ هذهِ السماءَ التي نَراها، ونُشاهِدُها مُزَيَّنَةٌ بالكواكبِ، هي سماءُ الدنيا فانيةٌ، وغيرُها مِنَ السماءِ الآخِرَةِ، لا تَفْنَى، بل كُلُّها تَفْنَى، هذهِ وغيرُها بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقولِهِ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] فهي(٧) كلُّهُنَّ دُنْيَوِيّاتٌ فانياتٌ. دَلَّ أنَّ قولَهُ: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي التي دَنَتْ منكُمْ، وهي مُقابلُ القُصْوَى لا مُقابلُ الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي حَفِظْناها [وجَعَلْناها](٨) مَحفوظَةً بما ذَكَرَ مِنْ أنْ يَسْتَرِقَ الشياطينُ والجنُّ أسماعَهُمْ إلى خَبَرِ السماءِ وما يَتَحَدَّثُ بهِ الملائكةُ في ما بَينَهُمْ، فَيُلْقونَ ذلكَ على أسماعِ أهلِ الأرضِ على ما كانوا يَفْعَلونَ مِنْ قَبْلُ، أي حَفِظْناها بالكواكِبِ التي جَعَلَ فيها لِتَرْمِيَهُمُ الكواكبُ، وتَقْذِفَهُمْ، لِيكونَ سماعُ ذلكَ مِنْ جِهَةِ الوَحْيِ عَنْ لِسانِ الرسولِ ﷺ دونَ إلقاءِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إنما. (٣) في الأصل وم: جعل. (٤) في الأصل وم: والسماء. (٥) في الأصل وم: والإعطاء هو إعطاء. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) ساقطة من الأصل، في م: وحفظنا.

مَنْ ذَكَرَ، وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى حينَ[1] قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الآية [الصافات: ٦و٧و٨].

[والثاني][2]: ﴿وَحِفْظًا﴾ أي حَفِظناها على ما هي حتى لا تَسْقُطَ على الخَلْقِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] وقولِهِ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥] ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ يقولُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذَكَرَ كلَّهُ، وصَنَعَ، هو ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي تَقديرُ مَنْ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي تَقْديرُ مَنْ لهُ العِزُّ الذاتيُّ والعِلْمُ الأَزَليُّ، لا أنهُ قَدَّرَ ذلكَ، وصَنَعَ، لِيَسْتَفيدَ بذلكَ العِزَّ والعِلْمَ؛ إذْ هو عزيزٌ بذاتِهِ، وعليمٌ / ٤٨٣ ـ ب/ بذاتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ كانتْ مَعروفةً عندَهُمْ، ظاهرةً أنها نزلَتْ بهِمْ. دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أنَّ صاعقةَ عادٍ [وثمودَ][3] كانتْ مَعروفةً عندَهُمْ ظاهرةً أنها نَزَلَتْ بهِمْ لِتَكْذيبِهِمُ الرسلَ وتَرْكِهِمْ إجابَتَهُمْ إلى ما دَعُوا إليهِ حينَ[4] خَوَّفَ هؤلاءِ بذلكَ؛ كأنهُ يقولُ: أنذَرْتُكُمْ بِتَكْذيبِكُمْ إيّايَ وتركِكُمْ إجابتي إلى ما دَعَوْتُكُمْ إليهِ بالذي نَزَلَ بِعادٍ وثمودَ وتكذيبِهِمُ الرسولَ الذي أُرسِلَ إليهِمْ وتركِهِمُ الإجابةَ إلى ما دُعُوا إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ لم يُرِدْ بهِ عَينَ عذابِ أولئكَ ومِثْلَهُ في رَأْيِ العَينِ، ولكنْ مِثْلَهُ في الهلاكِ والاِسْتِئصالِ.

ألا تَرَى أنَّ عذابَ عادٍ وثمودَ مختلفانِ[5] في رأيِ العينِ عذابُ عادٍ خِلافُ عَذابِ ثمودَ، وهما[6] في المعنى واحدٌ. فَعلى ذلكَ ما أوعَدَ هؤلاءِ بِمِثْلِ عَذابِ عادٍ وثمودَ، لم يُرِدْ مِثْلَهُ في رَأيِ العَينِ، ولكنْ في المَعْنَى، وهو كما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] وقولِهِ تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠] لم يُرِدِ التَّشابُهَ والمُضاهاةَ على أنَّ نفسَ القولِ منهمْ، وأنَّ الكلامَ كانَ واحداً، بل كانَ سببُ كُفرِهِمْ مُخْتَلِفاً، وقولُ هؤلاءِ خِلافَ قولِ أولئكَ، وما كانَ مِنْ هذا الفريقِ خِلافَ ما كانَ مِنَ الفريقِ الآخَرِ.

لكنْ ما كانَ التكذيبُ منْ هؤلاءِ لهُ كالتكذيبِ مِنْ أولئكَ، والرَّدُّ لهُ مِنْ هؤلاءِ كَهُوَ مِنْ أولئكَ في أنْ كانَ كُفراً واحداً سَواءً.

فَمِنْ هذهِ الجِهَةِ وَصَفَ قلوبَهُمْ بالتَّشابُهِ وأقوالَهُمْ بالمُضاهاةِ. وهذا يدلُّ على أنَّ الاِسْتِواءَ مِنْ جِهَةٍ واحدةٍ يُوجِبُ التَّشابُهَ والتَّماثُلَ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحدُها: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ بِنَبَإِ مَنْ كانَ [قَبْلَهُمْ][7] ونَبَإِ مَنْ كانَ بَعْدَهُمْ أنهمْ جميعاً قالوا لقومِهِمْ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

والثاني: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ بالوعيدِ والتَّخويفِ بعذابٍ يَنْزِلُ بهمْ ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي مِنْ حَيثُ يَرَوْنَهُ، ويَعْلَمونَهُ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي مِنْ حيثُ لا يَرَوْنَهُ، ولا يَعْلَمونَهُ. وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧و٩٨] ونَحْوَهُ.

وقيلَ: يَبْعَثُ اللهُ الرسلَ قَبْلَهُمْ وبَعْدَهُمْ بالذي ذَكَرَ، وهو الدعاءُ إلى التوحيدِ للهِ وجَعْلِ العِبادةِ له، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: مختلفا. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ هذا القولُ منهُمْ يُناقِضُ قولَهُمْ وتكذيبَهُمُ الرسَلَ وإنكارَهُمْ رسالةَ البَشَرِ وطَمَعَهُمْ رسالةَ الملائكةِ [لوجهَيْنِ:

أحَدُهما:](1) لأنهمْ ما عَرَفوا الملائكةَ، ولا عايَنوهُمْ(2). فإنما عَرَفوا الملائكةَ، وعَلِموا بِمكانِهِمْ بِرُسُلِ البَشَرِ، فكيفَ أنْكَروا رسالَتَهُمْ مع ما لو كانَ الرسُلُ إليهِمُ الملائكةَ، لم يَعْرِفوا أنهمْ ملائكةٌ إلّا بِقولِهِمْ لِما لم تَتَقَدَّمْ لهمُ المعرفةُ بالملائكةِ. [فهذا](3) يُناقِضُ إنكارَهُمُ الرُّسُلَ مِنَ البَشَرِ.

والثاني: ما قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قد أقَرُّوا رسالَتَهُمْ حينَ(4) قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لأنهمْ لم يقولوا: إنّا بما جِئْتُمْ به إلينا كافرونَ، ولكنْ قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. فذلكَ مِمّا يُناقِضُ قولَهُمْ، ويَرُدُّ تكذيبَهُمْ، أعني قولَهُمْ: ﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ تَعَنُّتاً وعِناداً، وإلّا قد عَلِموا أنهمْ رُسُلُ اللهِ، فَيُناقِضونَ [بذلكَ ما](5) قالوا على التَّعَنُّتِ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ جائزٌ أنْ يكونَ اسْتِكْبارُهُمْ في الأرضِ بِغَيرِ الحقِّ على أهلِ الأرضِ بما ذَكَروا مِنْ فَضلِ القوةِ لهمْ وشِدَّتِها مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] فهمْ ذَكَروا ذلكَ. فجائزٌ أنْ يكونَ اسْتِكْبارُهُمْ على أهلِ الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ لِشِدَّةِ بَطْشِهِمْ وقوتِهِمْ على غَيرِهِمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ اسْتِكْبارُهُمْ [على الرسُلِ](6) وأتباعِ الرسُلِ، فلم يَرَوا أنفسَهُمْ أنْ يَجْعَلوها تَحْتَ تدبيرِ الرسلِ وأمْرِهِمْ وأنْ يَخْضَعوا لهم، ويَسْتَسْلِموا لِما دَعَوهُمْ إليهِ ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ هذا اسْتِفهامٌ على طريقِ التقريرِ؛ معناهُ: قَدْروا، واعْلَموا أنَّ اللهَ الذي خَلَقَكُمْ(7) هو أشَدُّ قُوَّةً. والرسُلُ لم يكونوا يُوعِدونَهُمْ، ويُخَوِّفونَهُمْ بِقُوى أنفسِهِمْ ولا بِعذابٍ يكونُ منهمْ حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ولكنْ إنما كانوا يُوعِدونَهُمْ، ويُخَوِّفونَهُمْ بِعذابٍ يَنْزِلُ مِنْ عندِ اللهِ، وبِقوتِهِ وسُلْطانِهِ يُوعِدونَهُمْ، وقد عَرَفوا قُوَّتَهُ وسُلْطانَهُ.

لِذلكَ قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ دلَّ هذا على أنهمْ قد كَذَّبوا هوداً، وأنكروا آياتِهِ، وكذلكَ قولُهُمْ: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] وأنهُ قد أتاهُمْ بآياتِ رسالتِهِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ ذَكَرَ ما أهْلَكَهُمْ مِنَ العذابِ، وهو الريحُ الصَّرْصَرُ الباردةُ. كذا قالَ أبو عَوسَجةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ وهو ما ذُكِرَ في سورةِ الحاقةِ حيثُ قالَ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦و٧] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِها: قالَ بعضُهُمْ: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مَشْؤوماتٍ نَكِداتٍ، وهو قولُ القُتَبيِّ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ أي شِدادٍ. وقيلَ: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مِنَ النَّحسِ، يُقالُ: نَحِسَ فلانٌ(8). والنَّحْسُ الغبارُ في الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي عذاباً يُذِلُّهُمْ، ويَفْضَحُهُمْ عندَ الخَلْقِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ عليهِمْ أذَلُّ وأفضَحُ وأشَدُّ مِنْ عذابِ الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ لا يُنْصَرونَ بِقُوَّتِهِمُ التي كانَتْ لهمْ، [واعْتَمَدوا عليها بِقولِهِمْ](9): ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ويَحْتَمِلُ لا يُنْصَرونَ بالأصنامِ التي عبدوها على رَجاءِ النَّصْرِ لهمْ والشفاعةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عاينوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: بما. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: خلقهم. (٨) في الأصل وم: مؤمنا. (٩) في الأصل وم: واعتمدت عليهم بقوتهم.

جنة السنة

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الهدايةِ لهمْ حقيقةَ الهُدَى، وهو التوفيقُ، وحقيقةِ خَلْقِ الاهْتِداءِ فيهِمْ، فصاروا مُهْتَدينَ، وهو ما سألوا مِنَ الآيةِ، وهي الناقةُ. فلمّا أتاهمْ ما سألوا آمَنوا بِهِ، وصَدَّقوهُ، ثم كَفَروا بِهِ بعدَ ذلكَ، وكَذَّبوهُ، وعَقَروا الناقةَ على ما ذَكَرَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي بَيَّنّا لهمْ غايةَ ما يَتَبَيَّنُ الحقُّ مِنَ الباطلِ بِما يَعْرِفُهُ كلُّ ذي لُبٍّ وعقلٍ أنها آيةٌ وأنها مِنَ اللهِ تعالى حينَ جاءَتْهُمُ الآيةُ التي سألوها على الإشارةِ والتَّعْيينِ، وهي الناقةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الكُفْرَ على الهُدَى، واختاروا ما بِهِ يَعْمَونَ على ما يُبَيِّنُ لهمْ.

ثم أَخْبَرَ عمّا نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ باختيارِهِمُ العَمَى على الهُدَى، وهو ما قالَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي عذابِ يُهانُونَ فيهِ، وهو مِنَ الهَوانِ والإذلالِ. وكلُّ عذابِ اللهِ صاعقةٌ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي نَجَّينا الذينَ اختاروا الهُدَى على العَمَى، وكانوا يَتَّقونَ اختيارَ العَمَى على الهُدَى.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي يُجْمَعُ، الحَشْرُ الجَمْعُ، يُجْعلونَ في النارِ، وهو كقولِهِ ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُساقونَ / ٤٨٤ ـ أ/ كقولِهِ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] وقالَ بعضُهُمْ: يُوزَعونَ أي يُدْفَعونَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] والوَزْعُ الدَّفْعُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يُحْبَسونَ، أي يُحْبَسُ أوّلُهُمْ على آخِرِهِمْ حتى إذا اجْتَمَعوا جميعاً فعندَ ذلكَ يُجْعَلونَ في النارِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كأنهمْ يوقَفونَ، ويُحْبَسونَ في مكانٍ، فَيُعاينونَ النارَ، فَيُسْألونَ عمّا كانوا يَعْمَلونَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] فَيُنْكِرونَ ما كانَ منهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولِهِ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [غافر: ٧٤] فعندَ ذلكَ يُنْطِقُ اللهُ جوارِحَهُمْ، فَتَشْهَدُ عليهِمْ بما عَمِلوا وما كانَ منهمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَجُلُودُهُم﴾ كِنايةٌ عنِ الفُروجِ، وهو قولُ الحَسَنِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إذ لا كلُّ شيءٍ [يَنْطِقُ؛ ذَكَروا كلَّ شيءٍ][(١)] وأرادوا بِهِ الخاصَّ لا العامَّ، واللهُ أعلَمُ. وكانَ غيرُ هذا أقْرَبَ: يقولونَ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يَعْصونَ اللهَ تعالى [بِه][(٢)] وهو [الذي يُنْطِقُ][(٣)] الأشياءَ التي بها عَصَوا ربَّهُمْ، وهي الأصنامُ التي عَبَدوها وغيرُها ممّا عَبَدوا دونَ اللهِ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[(٤)] وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الفرقان: ١٧] وقولِهِ: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وما ذَكَرَ مِنْ أخبارِ الأرضِ وحديثِها بِما عَمِلوا عليها بقولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] وغيرِ ذلكِ مِنَ الآياتِ التي فيها بيانُ أنهُ يُنْطِقُ اللهُ تعالى الأشياءَ التي عَبَدوها، وعَصَوا بها ربَّهُمْ. فَعَلَى ذلكَ يُنْطِقُ اللهُ الجوارحَ التي بها عَصَوا ربَّهُمْ، فَتَشْهَدُ عليهمْ بجميعِ ما كانَ منهمْ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: أي ما كُنْتُمْ تَعْلَمونَ، وتَسْتَيْقِنونَ ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الظَّنُّ ههنا على هذا التأويلِ حقيقةُ الظَّنِّ أو الجَهْلِ، أي ولكنْ جَهِلْتُمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ما ينطق الله. (٤) في الأصل وم: نحشرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح ٤/ ٢٧٧.

جنة السنة

فلو كانَ تأويلُ الآيةِ ما ذَكَرَ هؤلاءِ ففيهِ دلالةٌ أنَّ العذابَ قد يَلزَمُ، ويَجِبُ، وإنْ جَهِلَ [المَرْءُ][1] ذلكَ، ولم يَتحقَّقْ عندَهُ العلمُ به بحيثُ إمكانُ الوصولِ إلى عِلْمِ ذلكَ ومعرفتِهِ بالنظرِ والتأمُّلِ والتفكُّرِ بِغَيرِ ذلكَ مِنَ الأسبابِ. لكنَّهُ تَرَكَ التأمُّلَ فيهِ، فلم يَعْلَمْ ذلكَ، فلم يُعْذَرْ بِجَهْلِهِ. وهكذا الحُكْمُ أنَّ مَنْ مُكِّنَ لهُ العِلْمُ وأسبابُ المعرفةِ، فلم يَتكلَّفْ معرفتَهُ، لم يُعْذَرْ في جَهْلِهِ.

ولهذا قالَ أبو حنيفةَ في الأطفالِ: أنْ لا عِلْمَ لي لهمْ لِما لا يُعْلَمُ أنهمْ قد بَلَغوا المَبْلَغَ الذي يُدْرِكونَ الأشياءَ بالتأمُّلِ والتفكُّرِ أم لا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي كُنتُمْ لا تَقْدِرونَ[2] أنْ تَسْتَتِروا مِنْ سَمْعِكُمْ ولا أبصارِكُمْ ولا جُلودِكُمْ، فأحدٌ لا يَستطيعُ أنْ يَسْتَتِرَ مِنْ نفسِهِ إذا عَمِلَ شيئاً، فذلكَ ظَنُّكُمُ الذي ﴿ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ في السِّرِّ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي وذلكُمْ جَهْلُكُمْ على ما ظَنَنْتُمْ[3] بأنَّ اللهَ تعالى لا يَعْلَمُ ذلكَ، وهو لا يَخْفى عليهِ خافيةٌ. فَظَنُّكُمْ ذلكَ أرداكُمْ، أي أغواكُمْ، وأضَلَّكُمْ عنِ الهُدَى.

وقالَ قتادةُ: يا ابْنَ آدمَ إنَّ عليكَ لَشهوداً غَيرَ مُبْهَمَةٍ مِنْ يَديكَ، فَراقِبْهُمْ، اتَّقِ اللهَ في سِرِّ أمْرِكَ وعَلانِيَتِكَ فإنَّهُ لا تَخْفى عليهِ خافيةٌ: الظُّلْمَةُ عندَهُ ضَوءٌ والسِّرُّ عندَهُ عِلانِيَةٌ، ومَنِ استَطاعَ أنْ يموتَ، وهو باللهِ حَسَنُ الظَّنِّ، فَلْيَفْعَلْ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ. ثم قالَ: الظَّنُّ ظَنّانِ: ظَنٌّ مُنجٍ، وظَنٌّ مُردٍ؛ فأمّا المُنجِي فقولُهُ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] وما قالَ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠].

وأمّا الظَّنُّ المُرْدِي فقولُهُ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] وقولُهُ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] ونَحْوُهُ.

وقالَ[4]: وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ، ويُحَدِّثُ ذلكَ عن ربِّهِ: «عبدي أنا عندَ ظَنِّكَ بي وأنا مَعَكَ إذا دَعَوتَني» [الحاكم في المستدرك ١/٤٩٧].

وقالَ الحَسَنُ: إنما عَمِلَ الناسُ على قَدْرِ ظُنونِهِمْ بربِّهِمْ. فأمّا المؤمنُ فأحسَنَ بربِّهِ الظَّنَّ، فأحْسَنَ العَمَلَ، وأمّا الكافرُ والمُنافِقُ فأساءا الظَّنَّ، فأساءا العَمَلَ، ثم تَلا قولَهُ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآيةَ، وقالَ: الجلودُ كِنايةٌ عنِ الفُروجِ. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وما كُنتُمْ تَخْشَونَ، وفي حَرْفِ أُبَيٍّ وابْنِ مَسْعودٍ: ولكنْ زَعَمْتُمْ أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كذا، وكذا في حرفِهِما: فذلكُمْ زعمُكُمُ الذي زَعَمْتُمْ، والزَّعْمُ في كلامِ العربِ الكَذِبُ، وفيهِ يُسْتَعْمَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أهْلَكَكُمْ، والرَّدَى الهَلاكُ. وقيلَ: أوردوا[5] المَهالكَ. ويَحتَمِلُ ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أي أغواكُمْ، وأضَلَّكُمْ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ[6]:

أحَدُهما: أي فإنْ يَصْبِروا على ما هم عليهِ مِنَ الأعمالِ إلى أنْ خُتِموا بهِ فالنارُ مَثْوىً لهم في الآخِرَةِ.

والثاني: أي فإنْ يَصْبِروا في الآخِرَةِ فالنارُ مَثْوىً لهم، أي لا يَنْفَعُهُمُ الصبرُ على ذلكَ، ولا يكونُ الصبرُ سببَ الفَرَجِ عنْ ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: خَبَراً عنهمْ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] فيكونُ أحدُ التأويلَينِ في الدنيا، والثاني في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: وإنْ يَسْتَقيلوا ما كانَ منهمْ فما هُمْ مِنَ المُقالِينَ، أي [لايُقالُ][7] ذلكَ منهمْ، ولا يُرْضَى عنهمْ، وإنِ استَرْضَوا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تقتدرون. (٣) في الأصل وم: صنعتم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أورد. (٦) في الأصل وم: الوجهين. (٧) في الأصل وم: أتقال.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ الآية [الزخرف: ٣٦] ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾: قالَ بعضُهُمْ: هيَّأنا لهمْ في الدنيا قُرَناءَ مِنَ الشياطينِ وغيرِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي مَكَّنَّا للشياطينِ حتى يَقْذِفوا في قلوبِهِمْ مِنَ الوَساوِسِ وغيرِها، أو كلامٌ نَحْوُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: أي خَلَّينا بينَهُمْ وبَينَ الشياطينِ يَعْملونَ[1] بهِمْ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حَسَّنوا لهمُ التكذيبَ بالآخرةِ والحسابَ والثوابَ والعِقابَ، أي البَسوا[2] ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حَسَّنوا لهمْ أمْرَ الدنيا وأنها دائمةٌ باقيةٌ.

وقيلَ: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ما يُريدونَ أنْ يَعْمَلوا مِنْ بَعْدُ.

وقيلَ[3]: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما عَمِلوا بأنفسِهِمْ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما سَنُّوا لِغَيرِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يَحْتَمِلُ: وَجَبَ عليهِمُ القولُ بالعذابِ والسخطِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي مَعَ أممٍ، وذلكَ جائزٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ أي مِنْ هؤلاءِ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي لا تَسْمَعوا أنتمْ بأنفسِكُمْ ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ لِئلا تُسْمَعَ منهُ قراءتُهُ ولا صوتُهُ. دلَّ هذا القولُ على أنهم قد عَرَفوا أنهُ حُجَّةٌ، وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ، وأنَّ مَنْ سَمِعَ ذلكَ أذْعَنَ لهُ، وأطاعَ[4]، إذا لم يُكابِرْ عقلَهُ. ولهذا قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ لئلا يُذْعِنَ [لهُ][5] ولا يُطاعَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ بالمُكاءِ والتَّصْدِيَةِ، وكانوا يَفعلونَ ذلكَ لِيَخْلِطوا عليهِ صلاتَهُ وقراءتَهُ، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بالمُكاءِ والتَّصْدِيةِ / ٤٨٤ ـ ب/ [﴿تَغْلِبُونَ﴾ كقولِهِ][6] ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لَنُذيقَنَّ الذين كفروا، وداموا على الكفرِ حتى ماتوا على ذلكَ. فأمّا مَنْ كَفَرَ في وقتٍ، ثم تركَ ذلكَ، وأسْلَمَ فليسَ له ذلكَ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ قولَهُ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أرادَ بهِ في الدنيا وقولَهُ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لهمْ محاسِنُ في الدنيا. لكنَّ تلكَ المحاسنَ تَبْطُلُ، ولا يُجْزَونَ بها شيئاً، وإنما يُجْزَونَ على المساوِئِ التي عَمِلوها في الدنيا، لأنَّ المحاسنَ إنما تَثْبُتُ، وتَبْقى، ويُسْتَوجَبُ بها الجزاءُ إذا أتوا بالإيمانِ والتوحيدِ، فإذا لم يأتوا به لم يَنْتَفِعوا بتلكَ المَحاسِنِ، ولم يُجْزَوا بها.

وقد ذَكَرَ للمؤمنينَ مُقابِلَ ذلكَ أنهُ[7] يُكَفِّرُ عنهمْ سَيِّئاتِهِمْ، ويَجْزيهِمْ[8] بأحسنِ ما كانوا يَعْمَلونَ، وهو قولُهُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] وقولُهُ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وَعَدَ المؤمنينَ تكفيرَ المساوِئِ التي عَمِلوا في الدنيا والجزاءَ لهمْ بالمحاسِنِ التي عَمِلوها، وأوعَدَ[9] الكافرينَ إسقاطَ محاسِنِهِمْ والجزاءَ على مَساوِئِهِمْ لما لم يأتوا بالإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ ذلكَ في الآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل: يعلموا، في م: علموا. (٢) في الأصل وم: ليس. (٣) في الأصل وم: والثالث. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لقوله. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: يجزوا. (٩) في الأصل وم: ووعد.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ قولُهُ: ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي دارُ البقاءِ؛ يَبْقَونَ فيها أبداً، فيكونُ اسماً للجنةِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في الجنةِ دارٌ وموضِعٌ، يُسَمَّى دارَ الخُلْدِ، فيكونُ اسْمَ موضِعٍ خاصٍّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذي أضلَّهُمْ مِنَ الجنِّ هو إبليسُ، لأنهُ أوَّلُ مَنْ عَصَى اللهَ تعالى، وسَنَّ لهمْ ذلكَ، ومِنَ الإنسِ وَلَدُ آدَمَ الذي قَتَلَ أخاهُ، لأنهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ.

ولكنْ عندَنا أنهمْ سألوا أنْ يُرِيَهُمْ [اللَّذَينِ أضَلّاهُمْ][1]: كُلَّ جِنِّيٍّ، يُوَسْوِسُ، ويَقْذِفُ في قلوبِهِمُ الوَساوِسَ والمَساوِئَ، وكلَّ إنسيٍّ، يَدْعوهُمْ ظاهراً إلى الضلالِ. وهكذا كلُّ ضالٍّ وكافرٍ، إنما كانَ ذلكَ الضلالُ والكُفْرُ لِوساوِسَ مِنْ جِنِّيٍّ أو تَلْقينٍ مِنْ إنسيٍّ بِلِسانِهِ، سألوا اللهَ تعالى أنْ يَجْعَلَهُمْ ظاهِرِينَ، فَيَجْعَلوهُمْ تحتَ أقدامِهِمْ لِما يكونُ العذابُ في كلِّ ما كانَ أسْفَلَ أشَدَّ.

لِذلكَ سألوا ذلكَ، وهو ما سألوا ربَّهُمْ زيادةَ العذابِ لهمْ في آيةٍ حينَ[2] قال: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقولِهِ [في آيةٍ أُخرى][3]: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١] فَعَلى ذلكَ سؤالُ هؤلاءِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ رُوِيَ عن عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ [أنهُ][4] قالَ: «أُمَّتي أُمَّتي؛ لأنَّ اليهودَ قالوا: ربُّنا اللهُ، ثم قالوا: عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ، وأنَّ النصارى قالوا: ربُّنا اللهُ، ثم قالوا: المَسيحُ ابْنُ اللهِ، وإنَّ أُمّتي قالوا: ربُّنا اللهُ، ولم يُشْرِكوا بهِ أحداً».

فإنْ ثَبَتَ ذلكَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعَنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه فهو تفسيرُ الاِسْتِقامةِ التي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ في الإخلاصِ العملِ لهُ والقيامِ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداءِ الفرائضِ والشّرائعِ والحدودِ.

وقيلَ: [قولُهُ][5] ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ في الطاعاتِ لهُ والاِسْتِقامةِ [يَحْتَمِلُ][6] وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: في الاِعْتِقادِ: اعْتَقَدوا ألّا يَعْصُوهُ، ويَجْتَنِبوا جميعَ ما يُخالِفُ أمْرَهُ ونَهْيَهُ.

والثاني: اسْتَقاموا في اجْتِنابِ ما أعْطَوا بِلِسانِهِمْ: أنهُ ربُّنا اللهُ، وقاموا بوفاءِ ما أعْطَوا بلسانِهِمْ قولاً وفِعْلاً.

والثالثُ: قاموا في جميعِ الأعمالِ مُخْلِصِينَ للهِ تعالى، لم يُشْرِكوا فيها [أحداً ولا أعْطَوا][7] لأحدٍ نَصيباً مِنَ المُراآةِ غيرِها، بل [جَعَلوهُ][8] خالصاً للهِ تعالى سالِماً، واللهُ أعلَمُ بِما أرادَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ عندَ قَبْضِهِمُ الأرواحَ في الدنيا يُبَشِّرونَهُمْ[9] بِما ذَكَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: تقولُ لهمُ الملائكةُ يومَ القيامةِ عندَ مُعايَنَتِهِمُ الأهوالَ والأفزاعَ لِتَسْكُنَ بذلكَ قُلوبُهُمْ عندَ تلكَ الأهوالِ والشدائدِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي لا تَخافوا ما أمامَكُمْ، ولا تَحْزَنوا على ما خَلَّفْتُمْ مِنَ الأهلِ والأولادِ. وقيلَ: لا تَخافوا ما تُقْدِمونَ عليهِ مِنَ الموتِ وأمرِ الآخرةِ، ولا تَحْزَنوا على ما خَلَّفْتُمْ[10] مِنْ أهلٍ أو دينٍ. وقالَ بعضُهُمْ: لا تَخافوا مِنَ العذابِ، ولا تَحْزَنوا على فَوْتِ ما وُعِدْتُمْ مِنَ النعيمِ، فإنها دائمةٌ، لا تَفوتُ، ولا تَنْقَطِعُ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ على ألْسُنِ الأنبياءِ والرسلِ عليهم السلام فَمَنْ قالَ: إنَّ البِشارةَ التي ذَكَرَ في الدنيا عندَ قَبْضِ الأرواحِ، وقد[11] ذُكِرَ في الخَبَرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجنةُ الكافِرِ» [مسلم

---

(١) في الأصل وم: الذي أضلهم. (٢) في الأصل وم: أخرى حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: أحد. (٨) في الأصل وم: يبشر لهم. (٩) في الأصل وم: يبشر لهم. (١٠) في الأصل وم: خلفتموا.
(١١) في الأصل وم: فلما.

جنة السنة

٢٩٥٦] لأنَّ المؤمنَ، تُرَى لهُ الجنةُ، ويُبَشَّرُ بها في ذلكَ الوقتِ، فتَصيرُ الدنيا لهُ سِجناً لِما عاينَ ممّا هُيِّئَ لهُ، وجُعِلَ لهُ الثوابُ، والكافرَ لِما أُرِيَ[1] لهُ مكانَهُ في النارِ، أو بُشِّرَ به[2] في ذلكَ الوقتِ، صارَتْ لهُ الدنيا جنةً.

وعلى ذلكَ قولُهُ ﷺ «مَنْ أحبَّ لِقاءَ اللهِ أحبَّ لِقاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ لِقاءَهُ» [البخاري: ٦٥٠٧و٦٥٠٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا القولُ مِنَ الذينَ بَشّروهُمْ بِما بَشَّروا؛ يقولونَ: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾.

[والثاني: يُشبِهُ أن يكونَ][3] ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى، وإنْ كانَ المذكورُ على إثرِ البِشارةِ الملائكةَ، وذلكَ كَقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [غافر: ٥٠و٥١].

ثم إنْ ذلكَ كانَ مِنَ اللهِ ﷻ فيكونُ تأويلُهُ: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾ في عِصمَتِكُمْ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وأَولى بكُمْ في الآخِرَةِ في المَعونَةِ. أو يقولُ: نَحْنُ أولَى بكُمْ في النَّصْرِ والتَّوفيقِ في الدنيا والجزاءِ والثوابِ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ ذلكَ مِنَ أولئكَ الذينَ بَشَّروهُمْ فيقولونَ[4]: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالصُّحْبَةِ، فكذلكَ نكونُ في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ أي لَكُمْ ما تَرْغَبُ فيه أنفُسُكُمْ، وتَتوقُ إليهِ.

[والثاني][5]: لَكُمْ فيها ما تَتَلَذَّذُ بِهِ أنفُسُكُمْ، وتَتَنَعَّمُ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ قيلَ: ما تَتَمَنَّونَ، وتَسألونَ، أو يقولُ: ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ مِنَ الدَّعْوَى.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نُزُلٗا﴾ أي رِزقاً / ٤٨٥ ـ أ/ ﴿مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ وهو مِنَ الأنزالِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نُزُلٗا﴾ أي إنزالاً في المَنْزِلِ ﴿مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ كأنهُ يقولُ: ومَنْ أحْسَنُ مَذهباً وسِيرةً ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى توحيدِ اللهِ ودينِهِ، أو دَعا إلى المَعروفِ، ونَهى[6] عنِ المُنْكَرِ، أي دَعا غيرَهُ إلى ذلكَ، وعَمِلَ بنفسِهِ.

وهذا الحَرفُ يَجْمَعُ جميعَ الخَيراتِ والطاعاتِ.

فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾ على ما ذَكَرْنا مِنَ المذاهبِ والسِّيرةِ فكأنهُ يقولُ: ومَنْ أحكَمُ وأتقَنُ مَذهباً وسِيرةً مِمَّنْ ذَكَرَ؟

وإنْ كانَ على حقيقةِ القولِ فيكونُ قولُهُ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾ أي ومَنْ أصدَقُ قولاً مِمَّنْ قالَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً]:

أحَدُها: أنهُ[7] اختارَ الانْتِسابَ إلى الإسلامِ مِنْ بَينِ غَيرِهِ مِنَ الأديانِ والمذاهبِ، وقد أبَى سائرُ الفِرَقِ الانْتِسابَ إلى الإسلامِ سِوَى أهلِ الإسلامِ.

---

(١) في الأصل وم: رأى. (٢) في الأصل وم: له. (٣) في الأصل وم: وجائز أن. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) في الأصل وم: والنهي. (٧) في الأصل وم: أي.

جنة السنة

والثاني: انْتَسَبَ إلى ما خَصَّ اللهُ ﷺ تَسْمِيتَهُمْ بِهِ، وهو الإسلامُ كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] وقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]

وقالَ في حقِّ إبراهيمَ ﷺ: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

ويكونُ اسْمُ المؤمنِ خاصاً لأهلِ الحقِّ؛ فإنَّ اليهودَ والنصارى سَمَّوا أنفسَهُمْ مؤمنينَ، ولا يَمْتَنِعونَ عن إطلاقِ اسمِ المؤمنِ، ويَمْتَنِعونَ عن إطلاقِ اسْمِ المُسْلِمِ.

ولهذا يُقالُ: دارُ الإسلامِ، ولا يُقالُ دارُ الإيمانِ وإنْ كانَ الإسلامُ والإيمانُ واحداً لاختِصاصِ هذا الاسمِ بهؤلاءِ، واللهُ أعلمُ.

[والثالث:][1] أنهُ اختارَ النسبةَ إلى الإسلامِ، وغَيْرُهُ[2] مِنَ الناسِ انْتَسَبوا إلى ما هُمْ مِنَ العِزِّ في الدنيا والشَّرفِ فيها وغيرِ ذلكَ مِنَ الأسبابِ التي كانَتْ لهمْ في الدنيا.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو رسولُ اللهِ ﷺ وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ المُؤَذِّنونَ، وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الأخبارُ أنها نَزَلَتْ في المُؤَذِّنينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في كلِّ مؤمنٍ دَعَا الخَلْقَ إلى طاعةِ اللهِ تعالى ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بنفسِهِ، واللهُ أعلمُ.

وعنِ الحَسَنِ أنهُ تلاَ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وقالَ[3]: هذا صفوةُ اللهِ، هذا خِيرَةُ اللهِ، هذا أحبُّ أهلِ الأرضِ إلى اللهِ تعالى: أجابَ في دَعْوَتِهِ، ودَعَا الناسَ إلى ما أجابَ اللهَ فيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في إجابَتِهِ ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بربِّهِمْ[4]، هذا خليفةُ اللهِ تعالى.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ قيلَ: ﴿وَلَا﴾ الأخيرةُ ههنا زائدةٌ، كأنهُ قالَ: ولا تَسْتَوي الحَسَنَةُ والسَّيِّئَةُ. وقد يُزادُ حَرْف: لا في الكلامِ، وقد يُنْقَصُ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ وقولُهُ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ كلُّ واحدٍ منهما مَوصولٌ بالآخرِ؛ يقولُ: لا تَسْتَوي الحسنةُ والسَّيِّئةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهما مَقطوعاً مِنَ الآخَرِ على الابْتِداءِ.

فإنْ كانَ أحَدُهُما موصولاً بالآخَرِ فيقولُ[5]: لا تَسْتَوي الحَسَنَةُ والسَّيِّئةُ في جَلْبِ حُبِّ القلوبِ واللِّينِ والعطفِ لها، بلِ الحَسَنَةُ تَجْلُبُ حُبَّ القلوبِ، بل هما مُخْتَلِفانِ مُتَفَرِّقانِ، فادْفَعْ سَيِّئَتَهُمْ بالحسنةِ، واللهُ أعلمُ.

وجائزٌ أنْ يكونا جميعاً على الابْتِداءِ، لا اتِّصالَ لأحدِهِما بالآخَرِ، فإنْ كانا[6] على الابْتِداءِ فَمَعْناهما[7]، واللهُ أعلمُ. إنكمْ تَعْلَمونَ بعقولِكُمْ أنْ [لا اسْتِواءَ][8] بينَ المُحْسِنِ والمُسيءِ، كذا [لا اسْتِواءَ][9] بينَهما في الحكمةِ. وقد رأيْتُمْ أنهما قدِ اسْتَوَيَا في هذهِ الدنيا في جميعِ مَنافِعِها ولَذّاتِها، وجُمِعَ بينَهما في هذهِ، وفي الحكمةِ والعقلِ التفريقُ بَيْنَهما.

دلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرَى تُفَرِّقُ بَيْنَهما في الجَزاءِ والثوابِ فيها، واللهُ أعلمُ. وهو ما ذَكَرَ[10] في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥و٣٦] وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي لا نَجْعَلُ هذا كهذا في هذهِ الحياةِ. فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ هناكَ داراً أُخرَى، فيها يَقَعُ ذلكَ التَّمْييزُ والتَّفْريقُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ صَرَفَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ ذلكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وإلى أبي جَهْلٍ، لَعَنَهُ اللهُ، أنهُ أمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يَدْفَعَ سَيِّئَةَ أبي جَهْلٍ بالحَسَنةِ.

---

(١) في الأصل وم: أو يقال. (٢) في الأصل وم: وغيرهم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بربه. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: فمعناه. (٨) من م، في الأصل: الاستواء. (٩) من م، في الأصل: الاستواء. (١٠) في الأصل وم: ذكرنا.

جنة السنة

لكنّ هذا لا يُحتَمَلُ، لأنهُ لم يَذكُرْ أنّ أبا جهلٍ صارَ لِرسولِ اللهِ ﷺ كما ذَكَرَ حين[1] قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ بل دامَتْ عداوتُهُ إيّاهُ إلى أنْ خَرَجَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ يومَ بَدْرٍ، وأغرى الناسَ عليهِ، فَرَجَعَ ذلكَ الإغراءُ[2] إليهِ، فقُتِلَ في ذلكَ اليومِ، فَدَلَّ أنهُ لا وَجْهَ لِصَرْفِ الآيةِ إلى هذا.

ثم يُخرَجُ قولُهُ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ على وجهَينِ:

أحدُهما: ادْفَعْ سَيِّئتَهُمْ في حادثِ الوَقْتِ بِحَسَنَةٍ، تكونُ منكَ إليهِمْ، أي إذا أحسَنْتَ إليهِمْ كَفُّوا هُمْ عنِ الإساءةِ إليكَ في حادثِ الوَقْتِ، واللهُ أعلَمُ. فيكونُ قولُهُ: ﴿وَلَكُمۡ فِى ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والثاني: أيِ ادْفَعْ سَيِّئتَهُمْ بالعَفْوِ والصَّفحِ عنهمْ، واصْفَحْ. فإذا فَعَلْتَ ذلكَ يَصيرُ ﴿ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ أي لا [يُعاديكَ][3] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أمرِ اللهِ تعالى والقيامِ بجميعِ أمورِهِ، أو يقولُ: لا يُعْطى، ولا يُؤتَى المُعاملةَ التي ذَكَرَ، ولا يُوَفَّقُ لذلكَ، إلّا مَنْ عَزَمَ على الصَّبْرِ على ما أمَرَ اللهُ تعالى، وصَبَرَ[4] على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ يقولُ: ولا يُعْطى هذهِ المُعاملةَ التي ذَكَرَ مِنَ الدَّفعِ بالحَسَنَةِ والصَّفحِ عنِ المُجرِمِ إلّا مَنْ كانَ لهُ حَظٌّ ونَصيبٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ هذا يُخرَجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: جائزٌ أنْ تكونَ الاسْتِعاذةُ التي ذَكَرَ، هي مُباشَرَةُ الأسبابِ التي بها يَدفَعُ نَزْغَ الشيطانِ وَوَساوِسَهُ. أمَرَهُ أنْ يأتيَ بالأسبابِ التي تَتَهيأُ لهُ، أنْ يدفَعَ بها نَزَغاتِهِ وهَمَزاتِهِ. وهذا الاسْتِغفارُ الذي أمَرَ بهِ ليسَ، هو أمْرٌ بِمُباشَرَةِ أسبابٍ، تَقَعُ، وتَجِبُ لهمُ المَغفِرةُ بها. فَعلى ذلكَ الاسْتِعاذةُ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ أمْرُهُ بالاسْتِعاذةِ إيّاهُ أمراً لهُ بسؤالِ لُطفٍ مِنْ عندِ اللهِ، يَدفَعُ بهِ نَزَغاتِهِ وهَمَزاتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا تَصِحُّ الاسْتِعاذةُ منهُ، لأنهمْ يقولونَ: إنهُ قد أعطى كُلّاً ما بهِ يَدفَعُ نَزَغاتِهِ وهَمَزاتِهِ حتى لم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ، يَمْلِكُ إعطاءَهُ إيّاهُمْ مِنَ اللُّطفِ وغيرِهِ، واللهُ الهادي.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ مِنْ آياتِ ألوهِيَّتِهِ تعالى وَوَحدانيَّتِهِ كالليلِ والنهارِ: إنهما آيتانِ من آياتِ اللهِ. فإذا لم تَعْبُدوا الليلَ والنهارَ فكيفَ عَبَدْتُمُ الشمسَ والقَمَرَ؟ واللهُ أعلَمُ.

أو يقولُ: إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ مِنْ آياتِ اللهِ تعالى؛ سَخَّرَهُما[5] لِمَنافعِ الخَلْقِ كالليلِ والنهارِ مُسَخَّرَين[6] / ٤٨٥ ـ ب/ لِلخَلْقِ [ومنافعُ الشمسِ والقمرِ][7] التي جَعَلَ لِلخَلْقِ، إنْ لم تكنْ أكثرَ لم تكنْ دونَ منافعِ الشمسِ والقَمَرِ. فإذا لم تَعْبُدوا الليلَ والنهارَ فكيفَ عَبَدْتُمْ هاتَينِ؟ يَذْكُرُ هذا لأنَّ منهمْ مَنْ كانَ يَعْبُدُ الشمسَ، ومنهمْ مَنْ كانَ يَعْبُدُ القَمَرَ ونَحْوَهُ، يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ بِعبادةِ غيرِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي اسْجُدوا للهِ الذي أنْشَأَ هذهِ الأشياءَ، وسَخَّرَها لكُمْ ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي إنْ كُنْتُمْ بِعبادتِكُمْ هذهِ الأشياءَ تَقْصِدونَ القُرْبَةَ عندَ اللهِ تعالى، أو إنْ كُنْتُمْ بِعبادتِكُمْ هذهِ الأشياءَ إيّاهُ تُريدونَ، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ هذهِ الأشياءَ دونَ اللهِ تعالى رجاءَ القُرْبَةِ عندَهُ والزُّلْفى بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] يقولُ: إنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَقْصِدونَ بِعبادةِ هذهِ الأشياءِ، فاسْجُدوا لهُ، واعْبُدوا، لِما أمَرَكُمْ بالسجودِ لهُ والعِبادةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: الإعزاز. (٣) في الأصل وم: يعاد ذلك. (٤) في الأصل وم: والصبر. (٥) في الأصل وم: سخرها. (٦) في الأصل وم: مسخرات. (٧) في الأصل وم: والمنافع.

جنة السنة

الآية ٣٨ [وقولُهُ تعالى](١): ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنْ لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ الِاسْتِكْبارِ على اللهِ. ثم يُخرَّجُ ذلكَ على وَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ قد أُمِروا بطاعةِ الرسلِ ﷺ فاستَكْبَروا على الِائتِمارِ لهمْ لمّا دَعَوهمْ إليهِ، فيصيرُ اسْتِكْبارُهُمْ عليهِ كالِاسْتِكبارِ(٢) على اللهِ تعالى.

والثاني: لما تَرَكوا عبادةَ اللهِ تعالى [وقد](٣) جَعَلَ في أنفسِهِمْ دلالةَ العبادةِ للهِ تعالى، فإذا تَرَكوا العبادةَ للهِ تعالى فقد تَرَكوا الِائتِمارَ بأمرِهِ، لم يَعْتَقِدوا الِائتِمارَ لذلكَ الأمرِ، فيكونُ [ذلكَ](٤) اسْتِكباراً عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: إنِ](٥) اسْتَكبَرَ هؤلاءِ على عبادةِ اللهِ تعالى، فأوحَشَكَ ذلكَ، فاذْكُرْ مَنْ عندَهُ مِنَ الملائكةِ ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ حتى تَسْتَأْنِسَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ. وهو كقولِهِ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠] كانَ مُسْتَوحِشاً باسْتِهْزائِهِمْ بهِ، فَذَكَرَ لهُ اسْتِهْزاءَ أولئكَ بإخوانِهِ لِيَقِلَّ ذلكَ فيهِ ويَعْلَمَ(٦) أنهُ ليسَ أوّلَ مَنِ اسْتُهْزِئَ بهِ. فهذا مِثْلُهُ.

والثاني: وإنِ اسْتَكبَرَ هؤلاءِ على عبادةِ اللهِ، وقد عَبَدوا الملائكةَ والأصنامَ وغَيرَهمْ، فالذينَ عندَ ربِّهِمْ ممَّنْ عَبَدَهُمْ هؤلاءِ لم يَسْتَكْبِروا، بل هُمْ مُسَبِّحونَ ﴿لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ وهو كقولِهِ(٧) تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] يقولُ: لنْ يَسْتَنْكِفَ هؤلاءِ عنْ أنْ يكونوا عبيداً للهِ، فالمسيحُ ومَنْ ذُكِرَ لم يَسْتَنْكِفوا عن ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ يُخبِرُ أنهمْ لا يَسْأمونَ عن عبادتِهِ كما يَسْأمُ البَشَرُ أحياناً عنْ عبادتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ كقولِهِ(٨) في ما تَقَدَّمَ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] في ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ آياتِ وَحْدانيَّتِهِ وآياتِ قدرتِهِ وعِلْمِهِ وتدبيرِهِ وآياتِ حكمتِهِ.

أمّا آياتُ وحدانيَّتِهِ في الليلِ والنهارِ والشمسِ والقمرِ [فهي أنها](٩) إذا كانَ سلطانُ أحدِهِما [على](١٠) ليلٍ أو نهارٍ أو شمسٍ أو قمرٍ لم يَمْنَعْ عنْ كونِ الآخَرِ، ولو كانَ ذلكَ فِعْلَ عَدَدٍ لكانَ مَنَعَ الآخَرَ عنْ إتيانِ ما يذهبُ بسلطانِهِ.

فإذا لم يَكُنْ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ، ودَلَّ جَرَيانُ ما ذُكِرَ مِنَ الليلِ والنهارِ والشمسِ والقَمَرِ على سِياقٍ واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ مُذْ كانا إلى آخِرِ ما يكونانِ(١١) على أنَّ مُنْشِئَهما عليمٌ مُدَبِّرٌ، عِلْمُهُ(١٢) ذاتيٌّ، وتدبيرُهُ(١٣) ذاتيٌّ، ليسَ بِمُسْتَفادٍ، ولا مُكْتَسَبٍ، ودلَّ سَيرُهما وجَرَيانُهُما في يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ مَسيرةَ كذا وكذا عاماً على أنَّ مُنْشِئَهما قادرٌ، لهُ قدرةٌ ذاتيةٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، إذِ القُدْرَةُ المُسْتَفادةُ والمُكْتَسَبةُ لا تَبْلُغُ ذلكَ، وكذلكَ في إحياءِ الأرضِ بَعدَ موتِها وإخراجِ النباتِ منها.

دلالةُ ذلكَ كلِّهِ مِنْ دلالةِ الوَحْدانيَّةِ ودلالةُ العِلْمِ الذاتيِّ والحكمةِ والتدبيرِ، لأنهُ لمّا أحياها بَعدَ موتِها، وأماتَها بَعْدَ إحيائِهِ إيّاها دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ لا عَدَدٍ [لأنهُ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ](١٤) لَكانَ إذا أحْيى هذا مَنَعَ الآخَرُ عنِ الإماتةِ، وكذا إذا أماتَ هذا مَنَعَ الآخَرُ عنِ الإحياءِ على ما يكونُ مِنْ فِعْلِ ذي عَدَدٍ مِنْ ملوكِ الأرضِ فإذا لم يمنَعْ ذلكَ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ.
ودَلَّ جَرَيانُ ذلكَ كلِّهِ في كلِّ عامٍ على مَجْرىً واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ وعلى مقدارٍ واحدٍ مِنَ النباتِ وغَيرِهِ على أنهُ كانَ بِعِلْمٍ ذاتيٍّ وحكمةٍ ذاتيَّةٍ.

ودَلَّتِ القُدْرةُ على إحيائِها بَعدَ موتِها وإماتَتِها بَعدَ حياتِها أنَّ لهُ قُدْرةً ذاتيَّةً، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ مِنَ البعثِ وغَيرِهِ ثم جَعَلَ،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: كاستكبار. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقول والله أعلم فإن. (٦) في الأصل وم: لما علم. (٧) من م، في الأصل: قوله. (٨) في الأصل وم: الآية وقال. (٩) في الأصل وم: هو أنه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: يكون. (١٢) في الأصل وم: علم. (١٣) في الأصل وم: وتدبير. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

جَلَّ، وعَلَا، في الماءِ مَعْنىً يُوافِقُ ذلكَ المَعْنَى جميعَ النباتِ الخارجِ مِنَ الأرضِ على اختِلافِ [أجناسِهِ وجواهِرِهِ][١] حتى تكونَ حياةُ كلِّ شيءٍ مِنْ ذلكَ بهِ. إنَّ ذلكَ كانَ كذلكَ بلطفٍ منهُ، لا يَبْلُغُهُ فَهْمُ البَشَرِ ولا علمُهُمْ. ثم ذلكَ النباتُ مَعَ لينِهِ وضَعْفِهِ ورِقَّتِهِ يَشُقُّ تلكَ الأرضَ مَعَ شِدَّتِها وصَلابَتِها، ويَخْرُجُ منها ما لا يُتَوَهَّمُ خروجُ أشدِّ الأشياءِ منها بِفِعْلِ أحدٍ سِواهُ [دَلَّ][٢] ذلكَ على قُدْرَتِهِ ولُطْفِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي مَيْتَةً خَشِنَةً ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي تَحرَّكَتْ بِنَباتِها [﴿وَرَبَتْ﴾ أي صارَتْ][٣] حيَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي تربو، وتزيدُ بما[٤] عليها مِنَ النباتِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ بالنباتِ ﴿وَرَبَتْ﴾ عَلَتْ، وانتَفَخَتْ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي فَرِحَتْ ﴿وَرَبَتْ﴾ مِنَ الزيادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ هو ما ذَكَرْنا: أنَّ الذي مَلَكَ، وقَدَرَ، على إحيائِها قادرٌ على إحياءِ المَوتَى بَعدَ موتِهِمْ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قرأ بعضُهُمْ ﴿يُلْحِدُونَ﴾ برفعِ الياءِ، وقرأ بعضُهُمْ بِنَصْبِها[٥].

فمَنْ قرأ بالرفعِ فتأويلُهُ[٦]: إنَّ الذينَ يَميلونَ عن قَبولِ آياتِنا. قالَ أبو عَوسَجَةَ: الإلحادُ المَيلُ، وأخْذُ اللَّحْدِ مِنْ هذا.

ومَنْ قرأ بالنصبِ فيقولُ[٧]: يَعْلَمونَ في آياتِنا أنَّ الذينَ يَعْمَلونَ في دفعِ آياتِنا وإبطالِها ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [هذا][٨] وعيدٌ منهُ لهمْ؛ يقولُ[٩]: ﴿لَا يَخْفَوْنَ﴾ هُمْ وما يَفْعَلونَ ﴿عَلَيْنَآ﴾ فَنَجزيهِمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةً لآيتَينِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُما:

إحداهُما: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية [فصلت: ٣٠] هذهِ في المؤمنينَ، وقالَ في الكافرينَ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية [فصلت: ٢٧].

والآيةُ[١٠] الثانيةُ: قولُهُ ﷺ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤] يقولُ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ بأعمالِ السوءِ ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ مِنْ ذلكَ بأعمالِهِ الحَسَنَةِ؟ أي تعلَمونَ[١١] أنَّ مَنْ يُلْقَى في الآخِرَةِ في النارِ ليسَ كالذي يأتي آمِناً مِنْ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهُما: على التَّخْييرِ، لأنهُ جَلَّ، وعَلَا، بَيَّنَ السَّبيلَينِ/ ٤٨٦ ـ أ/ جميعاً على المُبالَغةِ بَياناً شافياً واضحاً، وبَيَّنَ عاقبةَ كلِّ سَبيلٍ؛ مَنْ سَلَكَهُ إلى ماذا يُفْضِي؟ ثم قالَ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أي اسْلُكُوا أيَّ سَبيلٍ شِئْتُمْ؛ فإنْ سَلَكْتُمْ طريقَ كذا فلَكُمْ كذا، وإنْ سَلَكْتُمْ طريقَ كذا [فلَكُمْ كذا][١٢] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: على الوعيدِ، وكذا قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ على الوعيدِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ سَمَّى القرآنَ ذِكْراً، لأنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بما فيهِ صارَ مَذْكوراً شَريفاً، أو سَمَّاهُ ذِكْراً لِما يَذْكُرُ لهمْ ما نَسُوا مِنْ أحكامِ اللهِ. أو يُذَكِّرُهُمْ ما للهِ عليهِمْ مِنْ حقٍّ وما لِبَعْضٍ [على بَعْضٍ][١٣].

---

(١) في الأصل وم: أجناسها وجواهرها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وتزينت وصارت. (٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ٧٤. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: يقولون. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: تحملون. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى](١): ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي عزيزٌ، لا يُبَدِّلُهُ جُحودُ الجاحدينَ ولا تكذيبُ المُكَذِّبينَ، أو يقولُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ عندَ اللهِ تعالى أكْرَمَ بهِ محمداً ﷺ [أو](٢) ﴿عَزِيزٌ﴾ يُعِزُّ مَنِ اتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بهِ، كما ذَكَرْنا أنهُ يُشَرِّفُ مَنِ اتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بما فيهِ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي لا يَنْزِلُ كتابٌ مِنْ بَعْدِهِ، يُكَذِّبُهُ، أو يُبْطِلُهُ، ولا [نَزَلَ](٣) قَبْلَهُ كتابٌ يُكَذِّبُهُ، أو يُبْطِلُهُ، بل خَرَجَ مُوافِقاً لِما قَبْلَهُ مِنَ الكتبِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي إبليسُ، لا يَسْتَطيعُ أنْ يُبْطِلَ منهُ حقاً، أو يُحِقَّ منهُ باطلاً، أو يَنْقُصَ منهُ حقاً، أو يَزيدَ فيهِ باطلاً، بل هو على ما ذَكَرَ(٤): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقالَ بعضُهُمْ: ما ذَكَرْنا: لا تُكَذِّبُهُ الكتبُ التي كانَتْ قَبْلَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي لا يَجيءُ مِنْ بَعدِهِ كتابٌ يُكَذِّبُهُ. ومَعْنى هذا أنهمْ كانوا يَرُدُّونَ ذلكَ، ويَدْفَعونَهُ، وليسَتْ لهمْ حُجَّةٌ مِنَ اللهِ في رَدِّهِمْ إياهُ ولا في دَفْعِهِ، بل يدفعونَهُ بلا حُجَّةٍ ولا برهانٍ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ](٥) قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ إنَّ اللهَ ﷻ حَفِظَهُ مِنَ الشيطانِ، فلا يزيدُ فيهِ باطلاً، ولا يَنْقُصُ منهُ حقاً، ثم قرأَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ على أنَّ كلَّ [ما](٦) أُضيفَ إلى اللهِ تعالى مِنَ اليَدَينِ والخَلْفِ، لا يُفْهَمُ منهُ بِذِكْرِ اليَدَينِ الجارِحتانِ أو بِذِكْرِ الخَلْفِ [الظهرُ؛ إذِ القرآنُ لا جارحةَ لهُ، ولا ظَهْرَ حقيقةً، وقد أُضيفَ الخَلْفُ](٧) واليَدانِ [إليهِ](٨) بقولِهِ: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فَعَلى ذلكَ ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى مِنَ اليَدينِ ومِنَ الخَلْفِ(٩) لا يُفْهَمُ [منهُ اليَدانِ والخَلْفُ](١٠) حقيقةَ الجارِحَتَينِ [والظَّهرِ](١١) واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هذا القرآنُ هو ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الحكيمُ، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في تَدْبيرِهِ وحُكْمِهِ؛ والحَميدُ، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الذَّمُّ في فِعْلِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ لم يَخْرُجْ لهُ جوابٌ في هذا المَوضعِ. ثم قالَ بعضُهُمْ: جوابُهُ ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى بعدَ هذا، وهو قولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وقالَ بعضُهُمْ: بل جوابُهُ ما ذُكِرَ في ﴿حمٓ﴾ المؤمن حيثُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [الآية: ٢٤].

الآية ٤٣ [وقولُهُ تعالى](١٢): ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يُعَزِّي النبيَّ، ويُصَبِّرُهُ على ما كانوا يقولونَ: إنهُ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤ وغافر: ٢٤] وإنهُ(١٣) ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢] وإنهُ ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩و٥٢] وإنهُ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وإنهُ ﴿مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١] وغيرَ ذلكَ مِنْ أنواعِ الأذى.

كانوا يُؤذونَهُ، وكانَ يَشْتَدُّ عليهِ ذلكَ، ويَثْقُلُ، لأنهُ كانَ(١٤) يدعوهُمْ إلى ما بِهِ نَجاتُهُمْ، وهمْ كانوا يَسْتَقْبِلونَهُ بما ذَكَرَ. فقالَ اللهُ تعالى عندَ ذلكَ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ مِنَ التكذيبِ والنِّسْبَةِ إلى السِّحْرِ والجُنونِ وغيرِ ذلكَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٣٥].

ويَحتَمِلُ أنهُ إنما ذَكَرَ ذلكَ لهُ لِيَتَسَلّى بهِ عَنْ بعضِ ما يَلْحَقُهُ مِنَ الضَّجَرِ والوَحْشَةِ بالذي قالوا فيهِ بما عَلِمَ أنهُ ليسَ بأوَّلِ مُكَذَّبٍ مِنَ الرُّسُلِ، ولا بأوَّلِ مَنْ تَأَذّى في ذاتِ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ذكرنا. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بين يديه.
(١٠) في الأصل وم: اليدان. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: كانوا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، على الابْتِداءِ[1]: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لو تابوا، ورَجَعوا عَنْ ذلكَ، أو يقولُ، واللهُ أعلَمُ، على الصِّلَةِ لِقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي إنهُ: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يَغْفِرُ لهمْ ما كانَ منهمْ مِنَ التكذيبِ لكَ والتكذيبِ للقرآنِ لو تابوا، ورَجَعوا، وصَدَّقوا ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ إنْ لم يَتوبوا، ويَثْبُتوا على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

أو يَذْكُرُ هذا: أي ليسَ إليكَ مُكافأتُهُمْ ومُجازاتُهُمْ بِما كانَ منهمْ، إنما ذلكَ إلينا؛ إنْ شِئْتُ غَفَرْتُ لهمْ إذا رَجَعوا عنهُ، وإنْ شِئْتُ عاقَبْتُهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقالَ، في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨و١٩٩].

وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

يَذْكُرُ في هذهِ الآياتِ كلِّها سَفَهَ أهلِ مكةَ وشِدَّةَ تَعَنُّتِهِمْ؛ يقولُ: لو نَزَّلْنا عليكَ الكتابَ جملةً في قِرْطاسٍ بحيثُ يَرَونَ نُزولَهُ مِنَ السَّماءِ، ويُعايِنونَهُ، لَقالوا: ما هذا إلّا سِحْرٌ مُبينٌ، ويقولُ أيضاً، واللهُ أعلَمُ: ولو نَزَّلْنا هذا القرآنَ على بعضِ الأعْجَمِيِّينَ بِلسانِ [العَرَبِ][2] ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهلِ مكةَ بِلسانِ العربِ بحيثُ يَفْهَمونَ ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٩] لأنَّ قراءةَ الأعْجَمِيِّ إيّاهُ بِلسانِ العربِ أكبَرُ في الآيةِ وأعظَمُ في الأُعجوبةِ مِنْ قراءةِ العربيِّ بِلسانِ العربيةِ، أي قراءةُ كلِّ أحدٍ شيئاً بِغَيرِ اللسانِ الذي، هو لسانُهُ، أكبَرُ في الآيةِ وأعظمُ في الأُعجوبةِ مِنَ القراءةِ بلسانٍ، هو لسانُهُ.

يقولُ: لو نَزَّلْناهُ[3] على مَنْ لِسانُهُ لسانُ العجمِ، والقرآنُ عربيٌّ، فَقَرَأَ الأعْجَمِيُّ ذلكَ على أهلِ مكةَ بلسانِ العربِ، وهو أكبَرُ أُعجوبةً وأعظَمُ في الآيةِ، لَكانوا لا يؤمنونَ بهِ.

فَعَلى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ وعايَنوا نزولَ ذلكَ على محمدٍ ﷺ، وفَهِمَهُ، وأدّاهُ، وقَرَأهُ عليهمْ بلسانِ العربِ ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ﴾ يَعنونَ القرآنَ ﴿وَعَرَبِيٌّ﴾ أي محمدٌ ﷺ؟.

يقولونَ: القرآنُ أعْجَمِيٌّ، ومحمدٌ عربيٌّ؟ كيفَ يكونُ هذا؟ أي لا يكونُ هذا، ويُكَذِّبونَهُ، ولا يؤمنونَ بهِ. وذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ أداءَهُ بلسانٍ، ليسَ ذلكَ لسانَهُ، وقراءتَهُ بغَيرِ ذلكَ اللسانِ أكثَرُ في جَعْلِهِ آيةً وأعظَمُ في الأُعجوبةِ؛ إذْ يَكْمُنُ[4] الاخْتِلافُ مِنْ نفسِهِ باللسانِ الذي هو لسانُهُ، ومَوهومٌ ذلكَ، وغَيرُ مَوهومٍ، ذلكَ إذا لم يَكُنْ ذلكَ لسانَهُ. يُخْبِرُ عن سَفَهِهِمْ وشدةِ عِنادِهِمْ في تكذيبِهِمْ محمداً ﷺ وما جاءَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ النبيَّ ﷺ كانَ أحياناً يدخلُ على رجلٍ أعجميٍّ يقالُ لهُ: أبو فُكَيهَةَ، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ بلسانٍ أعجميٍّ لَقالَ كُفّارُ مكةَ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ بالعربيةِ، أي بُيِّنَتْ حتى يَفْقَهَها، ويُعَلِّمُها ما يقولُ محمدٌ ﷺ ولَقالوا: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ﴾ أُنْزِلَ القرآنُ[5] ومحمدٌ عربيٌّ؟ فأنْزَلَهُ عربياً لِيَفْقَهوهُ، فلا يكونُ لهمُ الاعْتِلالُ والاحْتِجاجُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ حتى يَفْقَهَها أعْجَمِيُّ القرآنِ وعَرَبِيُّ اللِّسانِ[6].

وقالَ أبو مُعاذٍ: يكونُ مَعْنى هذا أنَّ اللهَ تعالى يَسْتَفْهِمُ: ﴿قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ على رجلٍ عربيٍّ؟ فلا يفهمونهُ[7]؟ فتكونُ الحُجَّةُ عليهمْ[8] بذلكَ. وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾: اسْتِفهامٌ مِنْ قريشٍ: يكونُ مَعْناهُ لو أنْزَلْناهُ قرآناً /٤٨٦ ـ ب/ أعجمياً على رجلٍ عربيٍّ لَقالوا: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟ كيفَ يَفْهَمُ هذا؟ وكيفَ يَعْقِلُهُ؟

---

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يمكن، ولعل ما أثبتنا أفضل.
(٥) أدرج قبلها في الأصل وم: عليه. (٦) في الأصل وم: الرجل. (٧) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لهم.

جنة السنة

لكنا قد ذَكَرْنا أنَّ هذا في الدلالةِ أكثرُ، وفي الأعجوبةِ أعظَمُ، والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أُنزلَتْ عربيةً مُفَصَّلَةً: لِلأَيِّ كانَ التفصيلُ بِلِسانِ العربِ.

لكنْ لسْنا نَدْري ما يريدُ بهذا الكلامِ أنَّ التفصيلَ بِلِسانِ العربِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي هلا فُرِّقَتْ آياتُهُ حتى جُعِلَ مِنْ كلِّ لسانٍ: مِنْ لسانِ العَجَمِ ولسانِ العربِ حتى يَفْهَمَها أهلُ كلِّ لسانٍ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنهُ لو أنْزَلَهُ بِلسانِ العجمِ لَكانَ قرآناً، وأنَّ اخْتِلافَ اللسانِ لا يُغَيِّرُهُ، ولا يُحَوِّلُهُ عنْ أنْ يكونَ قرآناً، واللهُ أعلَمُ، فيكونُ دليلاً لِقولِ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنهُ إذا قرأهُ [المرءُ][1] بالفارسيةِ في صَلاتِهِ تَجوزُ [صَلاتُهُ][2] واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وصفَ اللهُ تعالى هذا القرآنَ بالشفاءِ والرحمةِ والهُدى، وسَمّاهُ مَرَّةً عزيزاً [بقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] ومَرَّةً كريماً بقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] ومَرَّةً مجيداً بقولِهِ ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١ والبروج: ٢١] ومَرَّةً حكيماً بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨ ولقمان: ٢ ويس: ٢][4] ونَحْوَهُ.

فهو هُدىً مِنَ الضلالةِ والحَيرةِ والشَّكِّ وكلِّ شُبْهَةٍ، وشِفاءٌ لكلِّ داءٍ وسُقْمٍ يكونُ في الدينِ والأنفسِ جميعاً. هو شِفاءٌ لذلكَ كلِّهِ، وهو هدىً. ثم يَحْتَمِلُ الهُدى وجهَينِ في هذا المَوضِعِ:

أحدُهما: هو هُدىً لكلِّ ضَلالةٍ، أي دُعاءٌ إلى الذي يُضادُّ الضَّلالَ.

والثاني: هُدىً، أي جُعِلَ بياناً لكلِّ حَيرةٍ وشَكٍّ وشُبْهَةٍ؛ مَنِ اتَّبَعَهُ، وقَبِلَهُ، ونَظَرَ إليهِ بِعَينِ التعظيمِ والتبجيلِ دعاهُ إلى سَبيلِهِ ودينِهِ، ويُخْرِجُهُ مِنَ الضلالِ، ويكونُ بَياناً لكلِّ مَنْ فيهِ الحَيرةُ والشَّكُّ والشُّبْهَةُ، ويُخْلي لهُ الطريقَ، ويُوضِحُ لهُ السَّبيلَ، ويُخْرِجُهُ مِنَ الشُّبُهاتِ.

فهو للمؤمنينَ الهُدى والشِّفاءُ، لأنهمْ قَبِلوهُ، واتَّبعوهُ، وتَكَفَّلوا العَمَلَ بما فيهِ.

وأمّا الكَفَرَةُ فهو عليهِمْ عَمىً وحَيرةٌ وشَكٌّ، لأنهمْ لم يَتَقَبَّلوهُ، ولم يَتَّبِعوهُ، ونَظَروا إليهِ بالاِسْتِخفافِ والهوانِ، ونَبَذوهُ وراءَ ظُهورِهِمْ، فلم يُبْصِروا ما فيهِ، فصارَ[5] لهمْ عَمىً وما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ. ولِذلكَ قالَ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

سَمّاهُمْ غَيَبَةً، وإنْ كانوا بأنفسِهِمْ حُضوراً، وسَمّاهُمْ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠ والروم: ٥٢] وإنْ كانوا في الحقيقةِ أحياءً، وسَمّاهُمْ صُمّاً وبُكْماً وعُمْياً [البقرة: ١٨و١٧١] وإنْ كانَتْ لهمْ هذهِ الجوارحُ [في الحقيقةِ لِما لم يَنْتَفِعوا بهذهِ الجوارحِ][6] بالذي جُعِلَتْ هذهِ الجوارحُ لهُ، وأُنْشِئَتْ، فَنَفاها عنهمْ لِيُعْلَمَ أنَّ المَقصودَ بإنشاءِ هذهِ الجوارحِ والأنفُسِ لا نَفْسُ هذهِ الجوارحِ والأنفُسِ ولكنْ طَلَبُ ما غابَ عنها، وخَفِيَ، إذْ أنفسُهُمْ في الحقيقةِ كانَتْ شُهوداً وحُضوراً.

سَمّاهُمْ غَيَبَةً[7] وسَمّاهُمْ مَوتى وعُمْياً وما ذَكَرَ لِيُعْلَمَ أنها إنما جُعِلَتْ لِيَكْتَسِبوا بها الحياةَ الدائمةَ والبَصَرَ الدائمَ وما ذَكَرَ مِنْ كلِّ شيءٍ مِنَ السَّمْعِ وغيرِهِ. وكذلكَ هذهِ النِّعَمُ التي جُعِلَتْ لِيَكْتَسِبوا بها النِّعَمَ الدائمةَ، فإذا لم يَسْتَعْمِلوها في ما جُعِلَتْ صاروا كما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي عَمُوا عنهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي في الآخِرةِ جَزاءً بِما نَسُوهُ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥و١٢٦].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كريماً مجيداً حكيماً. (٥) في الأصل: صار، في م: فهو صار. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: وأحياء وبصراء.

جنة السنة

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [عِبارةٌ عَنْ قِلَّةِ أفهامِهِمْ؛ يُقالُ للرجلِ الذي لا يَفْهَمُ: أنتَ تُنادَى مِنْ مكانٍ بعيدٍ][1] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنّا قد آتينا موسى الكتابَ ما عَرَفوا أنهُ إنما نَزَلَ مِنْ عندِ اللهِ تعالى حينَ[2] شاهدوا نُزولَهُ جُملةً. ومع أنهمْ عَرَفوا ذلكَ اختَلَفوا فيهِ حتى كَذَّبَهُ بعضُهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو أنزَلْنا القرآنَ عليكَ أعجميّاً، فأدَّيتَهُ إليهِمْ بِلِسانِكَ العربيِّ، لَكَذَّبوكَ، ولا يُصَدِّقونَكَ، وإنْ كانَ ذلكَ في الدلالةِ أكثَرَ في الأعجوبةِ، وأعْظَمَ، على ما فَعَلَ قومُ موسى بالكتابِ الذي أُنزِلَ على موسى ﷺ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وتَعَنُّتَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ظاهِرُ هذهِ الآيةِ على أنَّ ما ذُكِرَ مِنَ المِنَّةِ والرحمةِ في تأخيرِ العذابِ، إنما هو لِقومِ موسى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ لكنَّ أهلَ التأويلِ قد أجْمَعوا على صَرْفِ هذهِ المِنَّةِ والرحمةِ في تأخيرِ العذابِ إلى هذهِ الأمةِ، وكذا فيهِمْ ظَهَرَتِ المِنَّةُ في العَفْوِ عنِ الإهلاكِ في الدنيا دونَ سائرِ الأممِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ظاهِرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ اسْتِدلالٌ واحْتِجاجٌ لأهلِ الإلحادِ، لأنَّ مِثْلَ هذا في الشاهدِ إنما يُقالُ لأحدِ مَعْنَيَيْنِ. إمّا لِجَهْلٍ بالعَواقِبِ وإمّا لِعَجْزٍ عن وفاءِ ما وَعَدَ.

لكنَّ اللهَ، يَتَعالَى عَنِ الوَصْفِ بالجَهْلِ بِعَواقِبِ الأمورِ والوَصْفِ بالعَجْزِ عن شيءٍ، بما أقامَ مِنَ الآياتِ والبَراهينِ على العِلْمِ والقُدْرَةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ تَحْتَمِلُ الكلمةُ الحُجَّةَ كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] أي لِحُجَجِ ربّي. وتكونُ الكلمةُ منهُ الدينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠] ونَحْوَهُ.

وقيلَ: الكلمةُ هي الساعةُ التي[3] أَخَّرَ عذابَ هذهِ الأمّةِ [إليها][4] فقالَ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الكلمةُ ههنا ما سَبَقَ مِنَ المِنَّةِ لهذهِ الأمّةِ ألّا يُعَذِّبَها وقتَ اسْتِحْقاقِهِمُ العذابَ، أو سَبَقَ منهُ المِنَّةُ والرحمةُ بتأخيرِ الهلاكِ عنْ وقتِ اكْتِسابِهِمْ أسبابَ الهلاكِ.

وهذا على المعتزلةِ والخوارجِ لقولِهِمْ: أنْ ليسَ للهِ أنْ يَعْفُوَ، أو يُؤَخِّرَ العذابَ عَمَّنْ وَجَبَ عليهِ، أوِ اسْتَحَقَّهُ، أو كلامٌ نَحْوُهُ حينَ[5] مَنَّ، ورَحِمَ هذهِ الأمّةَ بتأخيرِ العذابِ إلى وقتٍ. ولو لم يَسْتَحِقّوا العذابَ، لم يكنْ لِذِكْرِ المِنَّةِ في ذلكَ مَعْنًى[6]، وهو كما قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ يُخْبِرُ ﷻ أنهُ إنما امْتَحَنَهُمْ في ما امْتَحَنَهُمْ لا لِمنافِعَ يَجُرُّها[7] إلى نفسِهِ أو لِمَضارَّ يَدْفَعُها[8] عن نفسِهِ. ولكنهُ إنما امْتَحَنَهُمْ، وأمَرَهُمْ، ونَهاهُمْ لِمَنافِعَ يَكْتَسِبونَها[9] لأنفُسِهِمْ ولِمَضارَّ [يَدْفَعونَها عَنْ أنفسِهِمْ][10]. وليسَ كملوكِ الأرضِ؛ إنهمْ يَمْتَحِنونَ الخَلْقَ، ويأمرونَ، ويَنْهَونَ، ويَسْتَعْمِلونَهُمْ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِمَضارَّ يَدْفَعونَها عَنْ أنفسِهِمْ.

فأمّا اللهُ ﷻ فإنما يَمْتَحِنُ الخلائقَ لِمَنافِعَ يَجُرّونَ إلى أنفسِهِمْ ولِمَضارَّ يَدْفَعونَها[11] عن أنفسِهِمْ؛ فَلَهُمْ مَنافِعُ ذلكَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: هي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: المعنى. (٧) في الأصل وم: فيه يجر. (٨) في الأصل وم: تدفع. (٩) في الأصل وم: يكتسبون. (١٠) في الأصل: يدفعون بذلك عن، في م: يدفعون بذلك عن أنفسهم. (١١) في الأصل وم: يكتسبون به.

جنة السنة

الإِمتِحانِ والأمرِ والنَّهيِ، وعليهِمْ حُصولُ مَنافِعِ ذلكَ الإمتِحانِ والأمرِ والنَّهيِ، وعليهِمْ حُصولُ ضَرَرِ ذلكَ. فَلِأنفُسِهِمْ يَعْمَلونَ ما يَعْمَلونَ مِنَ الخَيرِ والطاعةِ، وعليهِمْ يَعْمَلونَ ما يَعْمَلونَ مِنَ الشَّرِّ.

ولذلكَ قالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ قد بيَّنَ السَّبيلَينِ جميعاً بياناً شافياً، وأقامَ لكلِّ ذلكَ حُجَجاً وبَراهينَ، وبيَّنَ أنَّ مَنْ سَلَكَ سَبيلَ كذا أفضاهُ إلى كذا في العاقبةِ: إمّا [إلى][1] نَعيمٍ دائمٍ وسُرورٍ دائمٍ، وإمّا [إلى][2] عذابٍ دائمٍ وشَرٍّ دائمٍ. فَمَنْ سَلَكَ السَّبيلَ الذي عاقِبَتُهُ النارُ والخِزْيُ فَمِنْ قِبَلِ نفسِهِ اختارَ ذلكَ، وهو الذي أوقَعَ نفسَهُ في ذلكَ. ومَنْ سَلَكَ السَّبيلَ الذي جَعَلَ اللهُ عاقِبَتَهُ الجنةَ والنِّعَمَ الدائمةَ فيهِ، واختارَهُ، وَصَلَ [إلى ذلكَ][3].

فهو تفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أجمَعَ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى، وصَدَّقَ رُسُلَهُ ﷺ مِنْ أهلِ السماءِ وأهلِ الأرضِ أنْ ليسَ / ٤٨٧ ـ أ/ عندَهُمْ عِلْمٌ بوقتِ الساعةِ، فإنَّ ذلكَ خَفِيٌّ عليهِمْ، لا يَعْلَمونَهُ، وإنَّ عِلْمَ ذلكَ عندَ اللهِ، وهو ما قالَ ﷺ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٨٧ والنازعات: ٤٢] غيرَ الباطِنيَّةِ والرَّوافِضِ فإنَّ عِلْمَ ذلكَ عندَهُمْ على مَذْهَبِهِمْ وفي زَعمِهِمْ.

أمّا الرَّوافِضُ فإنهمْ يَعُدّونَ الأئِمَّةَ، ويقولونَ: إنَّ الساعةَ على إمامِ كذا وفي زمانِ كذا.

وأمّا الباطِنيَّةُ فيقولونَ: إنَّ اسْمَ الساعةِ والقيامةِ ونَحْوَ ذلكَ إنما هو اسْمُ قائمِ الزمانِ، وإنهُ [فلانٌ][4] فَعَلى قولِهِمْ يَظْهَرُ وقتُ قِيامِها، فهو خِلافُ ما ذُكِرَ في الكتابِ وما أجْمَعَ عليهِ أهلُ السماءِ والأرضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾[5] جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ إخراجِ الثمراتِ[6] مِنَ الأكمامِ وما ذَكَرَ مِنْ حَمْلِ الأُنثى وَوَضْعِها هو[7] موصولٌ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ فإنْ كانَ على ذلكَ فَمَعْناهُ: لا يَعْلَمُ [ذلكَ][8] كلَّهُ إلّا هو، لا يَعْلَمُ [أحدٌ][9] وقتَ خروجِها ولا حَدَّها وأنها تَخرُجُ أو لا، وكذلكَ الوَلَدُ لا يَعلَمُ [أحدٌ][10] كيفيَّةَ عُلوقِهِ ولا وَقْتَهُ ولا مِقدارَهُ وأنهُ يَعْلَقُ أو لا. عِلْمُ ذلكَ إلى اللهِ تعالى كَعِلْمِ الساعةِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ على الإبْتِداءِ ليسَ على الصِّلَةِ بالساعةِ، ولكنْ موصولاً بما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ . . . ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ [فصلت ٣٧ و٣٨ و٣٩] إلى ما ذَكَرَ. فَعَلى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ:

ومِنْ آياتِ الوهيَّتِهِ وَوَحدانيَّتِهِ وآياتِ قدرتِهِ وعِلْمِهِ وتدبيرِهِ أنْ تَخرُجَ الثمراتُ مِنْ أكمامِها، ومِنْ آياتِهِ أنْ تَحْمِلَ الأُنثى، وتَضَعَ[11].

إنَّ اللهَ تعالى أنشأَ تلكَ الثمراتِ[12] في الأكمامِ وكذا الوَلَدَ في البَطْنِ في حُجُبٍ وسَواتِرَ، ورَبّاهُ في تلكَ الحُجُبِ والسواتِرِ، وغَذّاهُ بأغذيَةٍ، ودَفَعَ عنهُ جميعَ الأذى مِنَ البَرْدِ والحَرِّ وجميعَ ما يُؤذيهِ لِضَعْفِهِ ولَطافَتِهِ لُطفاً منهُ ورَحمَةً، وصَوَّرَهُ في تلكَ الحُجُبِ والسواتِرِ بأحسَنِ صورةٍ لِتُعْلَمَ الوهيَّتُهُ وَوَحدانيَّتُهُ وأنَّ لهُ علماً ذاتياً وقُدْرَةً ذاتيَّةً أزَليَّةً لا مُكْتَسَباً مُسْتَفاداً؛ إذِ العِلْمُ المُسْتَفادُ والقدرةُ المُسْتَفادةُ لا تَبْلُغُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ أي المَواضِعِ التي كانَتْ فيهِ مُسْتَتِرَةً، وغِلافُ كلِّ شيءٍ كُمُّهُ، وإنما قيلَ: كُمُّ القميصِ [منهُ][13].

---

(١) و(٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ثمرة، انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ٧٧. (٦) في الأصل وم: الثمرة. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) و(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وتضعه. (١٢) في الأصل وم: الثمر. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ أبو عوسَجَة: أكمامُها أغطيتُها(١) التي تكونُ فيها قَبْلَ أنْ تَشقَّقَ عنها، والتَّفتُّقُ: التَّشقُّقُ، يُقالُ: تفتَّقتِ الأكمامُ عنِ الثمرةِ أي تَشقَّقتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يذكُرُ لهُم، ويُخبِرُ عمّا يُسألونَ يومَ القيامةِ وما يكونُ مِنْ جوابِهِمْ لذلكَ السؤالِ لعلَّهُمْ يمتنِعونَ عنْ ذلكَ، ويَحذَرونَهُ. يقولُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذينَ تزعُمونَ أنهمْ شركائي في الدنيا؟ أو اينَ الذينَ [كُنتُمْ](٢) تَعبُدونَ في الدنيا، وتزعُمونَ أنها آلهةٌ، وأنهمْ(٣) شُفعاؤكُمْ عندي؟ وإلّا لا يَحتَمِلُ أنْ يقولَ لهمُ الرَّبُّ، جلَّ، وعلا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ ولا شريكَ لهُ، ولا إلهَ غيرُهُ، ولكنْ ماذكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاذَنَّكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ أسمَعْناكَ، وقيلَ: أعلَمْناكَ.

والأشبَهُ أنْ يكونَ مَعنى ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ أخبَرْناكَ؛ إذِ اللهُ تعالى كانَ عالماً بذلكَ؛ وإعلامُ العالِمِ لا يتحقَّقُ، أمّا الإخبارُ للعالِمِ عنِ الشيءِ فيتحقَّقُ بما عَلِمَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في ذلكَ: أنهُ قولُ ممَّا(٤) قالَ بعضُهُمْ: هو قولُ أولئكَ الكفَرةِ الذينَ يُؤذِنونَ يومئذٍ؛ يقولونَ: أخبَرْناكَ أنْ لم يكُنْ منا أحدٌ شهيداً بذلكَ، أو يقولونَ بالشريكِ: [إنَّ ما لهمْ](٥) سِواكَ؛ يُخرَّجُ على الإنكارِ والجُحودِ والكَذِبِ أنهمْ لم يقولوا ذلكَ، ولم يفعَلوا، وهو كما ذكَرَ عنهمْ في آيةٍ أخرى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ الآية [الأنعام: ٢٢ ويونس: ٢٨] فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أنكروا ما كانَ منهمْ مِنَ الإشراكِ. فَعلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿ءَاذَنَّكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي لم نُشرِكْ بكَ أحداً، ولم نتَّخِذْ مِنْ ذلكَ إلهاً، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ هذا مِنْ قولِ الأصنامِ والذينَ عَبدوهُمْ مِنْ دونِ اللهِ في الدنيا؛ يقولونَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ على عبادةِ أولئكَ إيّانا، ولا أمَرْناهُمْ بذلكَ. وهو كقولِهِمْ(٦): ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وقولِهِمْ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [غافر: ٧٤] أخبَروا أنهمْ كانوا غافلينَ عنْ عبادتِهِمْ إياهُمْ وأنهمْ ما أمَروهُمْ بها. فَعلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ءَاذَنَّكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي أخبَرْناكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ على هذا التأويلِ هو ما ذكَروا ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] واللهُ تعالى أعلَمُ.

ثم إنَّ الكفَرةَ في يومِ القيامةِ مَرَّةً أنكَروا عِبادتَهُمْ غيرَ اللهِ، وأحياناً أقرّوا بها [ولم يتبَرَّؤوا](٧) منها، ومَرَّةً سألوا الرجوعَ إلى المِحنةِ والرَّدَّ إلى الدنيا على اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ في ذلكَ اليومِ؛ إذْ لا تكونُ هذهِ الأسئلةُ المُختلِفةُ في وقتٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ هو ما ذكَرَ في آيةٍ أخرى حينَ(٨) قيلَ لهمْ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] وذلكَ أنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ في الدنيا رجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ في الآخرةِ، وتُقرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلفَى. فلمّا أيِسوا ما رَجَوا منها، وطَمِعوا ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ فَعلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي مَهرَبٍ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

هاتانِ الآيتانِ في ظاهرِ المَخرَجِ إحداهُما مُخالِفةٌ للأخرى، لأنهُ ذكَرَ في إحداهُما الإياسَ والقُنوطَ إذا مسَّتْهُ الشِّدَّةُ والبلاءُ، ومِنْ طِباعِ الخَلْقِ والعُرْفِ فيهِمْ أنهمْ [إذا](٩) أيِسوا، وقنِطوا، لا يَدْعونَ ولا يَسألونَ، بل يترُكونَ سؤالَهُمْ، وإذا طَمِعوا، ورَجَوا، عندَ ذلكَ سألوا ودَعَوا. هذا هو العُرْفُ فيهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: غطاؤها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وأنها. (٤) في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: أوماله.
(٦) في الأصل وم: قوله. (٧) في الأصل وم: وتبرؤوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَدَلَّ أنَّ بَينَهما مُخالَفَةً مِن حيثُ الظاهرُ. لكنْ نقولُ: إنَّ الآيةَ تُخرَّجُ على وجوه:

[أحدُها][1]: يَحتَمِلُ أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الآيَتَينِ في إنسانٍ بعَينِهِ، يُشارُ إليهِ سِوَى الآخرِ: كانَتْ عبادةُ أحَدِهِما على الإياسِ والقُنوطِ مِنَ الخَيرِ وتَرْكِ الدعاءِ والسؤالِ، وكانَتْ عِبادةُ الآخَرِ [على][2] الدعاءِ والتَّضرُّعِ إليهِ والسؤالِ عن كشفِ ذلكَ عنهُ.

فأخبَرَ، جَلَّ، وعلا، رسولَهُ ﷺ ما أضمَرَ كلُّ واحدٍ منهما: في نَفْسِ أحَدِهِما الإياسُ والقُنوطُ [وفي نفسِ][3] الآخَرِ الدعاءُ والسؤالُ والطَّمَعُ في الخَيرِ ليكونَ لهُ عليهِمْ دلالةُ الرسالةِ وآيةُ النُّبُوَّةِ؛ إذ أنبأ عن ضميرِ كلِّ واحدٍ منهما ومافي نفسِهِ لِيُعلَمَ أنهُ رسولٌ، وإنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ، جَلَّ، وعَلا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ الكَفَرَةَ كانوا فِرَقاً، وكانوا على مذاهبَ شَتّى مُخْتَلِفَةٍ.

فِرْقَةٌ كانَتْ تَطْمَئِنُّ في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ، وتَيأسُ، وتتَقَلَّبُ في حالِ البَلاءِ والشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ الآية [الحج: ١١].

وفِرْقَةٌ كانَتْ تَفزَعُ إلى اللهِ، وتُقبِلُ إليهِ عندَ إصابةِ الشِّدَّةِ والبلاءِ، وتُعرِضُ عنهُ عندَ كَشْفِ ذلكَ عنهمْ وتوسيعِ النِّعَمِ عليهِمْ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] ونَحْوُهُ كثيرٌ في القرآنِ.

وفِرْقَةٌ كانَتْ[4] في الحالَينِ /٤٨٧ ـ ب/ جميعاً على الإعراضِ عنهُ وتركِ الإقبالِ إليهِ والطاعةِ لهُ؛ لا يَفْزَعونَ، ولا يُقبِلونَ لا في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ ولا في حالِ البَلاءِ والشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وفِرْقَةٌ كانَتْ تَرى الحَسَنَةَ والخَيرَ مِن أنفسِهِمْ، وإذا صارَتْ سَيِّئَةٌ وشِدَّةٌ تَطَيَّروا بالرسلِ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

وإذا كانَتِ الكَفَرَةُ على هذهِ المذاهِبِ المختلفةِ، وكانَتْ أجناساً شَتّى فتكونُ كلُّ آيةٍ منها في جِنسٍ غيرِ الجِنسِ الآخَرِ وفي أهلِ مَذْهَبٍ غيرِ أهلِ مَذْهَبٍ آخَرَ.

فأمّا المُسلِمونَ فيكونونَ في الحالَينِ جميعاً على التوحيدِ والإقبالِ على اللهِ تعالى في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ وفي حالِ البلاءِ والشِّدَّةِ، وهو على ما استَثناهُمُ اللهُ تعالى عندَ ذِكْرِ الكَفَرَةِ حينَ[5] قال: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [هود: ١٠و١١] وقالَ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر ١ ـ ٣] وأمثالَ ذلكَ مِنَ الآياتِ. وصَفَهُمْ ﷻ بالثباتِ والقَرارِ على دينِهِمْ في الأحوالِ كلِّها، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الآيتَينِ على ما ذَكَرَ إخباراً[6] عمّا طُبِعَ عليهِ البَشَرُ؛ أُنشِئَ البَشَرُ، وطُبِعَ على الرغبةِ في الخَيرِ والسَّعَةِ والنِّفارِ عنِ الشِّدَّةِ والبَلاءِ والكَراهَةِ لهُ. فهذا إخبارٌ عمّا طُبِعوا عليهِ، وأُنشِئوا، ليسَ على حقيقةِ إظهارِ ذلكَ منهمْ قولاً أو فِعْلاً على ما طُبِعَ كلُّ إنسانٍ راغباً حَرّاصاً في السَّعَةِ والرخاءِ، وإنهُ ما ذَكَرَ لا يَسْأَمُ مِن دُعاءِ الخَيرِ كارهاً نافراً عنِ البلاءِ والشِّدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿هَـٰذَا لِى﴾ أي [ما][7] أعطانيهِ مِن خَيرٍ، عَلِمَهُ مني.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: إخبار. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا يَتَطَيَّرونَ بالرسُلِ عندَ البلاءِ والشِّدَّةِ، والسَّعَةُ يَرَوْنَها مِنْ أنفسِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كانوا يُنْكِرونَ البَعْثَ والجزاءَ لِما عَمِلوا في الدنيا، ثم يقولونَ: لَئِنْ كانَ يذكُرُ محمدٌ مِنَ البَعْثِ والجزاءِ للأعمالِ والجنةِ فإنَّ[2] لنا دونَهُمْ، وهو قولُهُمْ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي إنْ رُجِعْتُ إلى ربي على ما يقولُهُ محمدٌ ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ وهو على ما قالوا في الدنيا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] لِما رَأَوُا السَّعَةَ لأنفسِهِمْ في الدنيا دونَ المؤمنينَ. فَعَلَى ذلكَ في الآخِرَةِ قالوا: لنا دونَهُمْ، واللهُ الهادي.

ثم أخبَرَ تعالى عمّا يَنْزِلُ بهمْ بأعمالِهِمْ في الآخِرَةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي نُنَبِّئُهُمْ بِخَبَرِ ما عَمِلوا، لأنَّ ذلكَ منهمْ تَمَنّياً وتَشَبيهاً بِمَنْ يذيقُهُمُ العذابَ الغليظَ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنْ دُعائِهِمْ وسؤالِهِمُ الخيرَ وطَمَعِهِمْ بذلكَ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي تباعَدَ عمّا أُمِرَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثيرُ الدعاءِ، لا يَمَلُّ، ولا يَسْأَمُ، وكذا قالَ القُتَبِيُّ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ يقولُ: إنْ كانَ هذا القرآنُ مِنْ عندِ اللهِ، ثم كَفَرْتُمْ بهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ ليسَ بجوابٍ لقولِهِ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ ويكونُ كأنْ لم يُذْكَرْ جوابُ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ لِما عرَفوا أنَّ مَنْ عانَدَ، وعادَى ما كانَ مِنَ اللهِ: ما[3] يُعْمَلُ بهِمْ؟ وما يُصْنَعُ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦و٨٧] لم يُذكَرْ لهُ جوابٌ لِما عَرَفوا أنَّ مَنْ عَبَدوا دونَ اللهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ أنهُ إفكٌ، وأنهُ كذبٌ، وليسَ بإلهٍ: ماذا[4] يُفْعَلُ بهِمْ. فلم يُذْكَرْ لهذا جوابٌ لِمَعْرِفَتِهِمْ ما يُفْعَلُ بهِمْ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ يجوزُ أنْ لم يُذْكَرْ لهُ جوابٌ لِما عَرَفوا أنهُ ما يُفْعَلُ بهِمْ؟ وما يَسْتَوْجِبونَ منهُ بما عانَدوهُ، وعادَوهُ، بعدَ مَعْرِفَتِهِمْ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ، ثم كَفَروا بهِ، واللهُ أعلَمُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ فإذا كَفَرْتُمْ بهِ ضَلَلْتُمْ، فَمَنْ ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾؟ أي في خِلافٍ.

وبَعدُ فيكونُ جوابُهُ كأنهُ قالَ: لا أحدَ أضَلُّ مِمَّنْ عَرَفَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ، ثم خالَفَهُ، وتَباعَدَ عنهُ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] أي لا أحدَ أظلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِباً. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي نُريهِمْ عذابَنا الذي نَزَلَ بالأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ مِنْ بلاءِ عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ؛ كانوا يَمُرّونَ عليها، ويَعْرِفونَ أنهُ لماذا أُنْزِلَ بهمْ ذلكَ: فهو[5] لِتَكْذيبِهِمُ الرسُلَ وعِنادِهِمْ، ونُريهِمْ عذابَنا أيضاً في أنفسِهِمْ ببدرٍ حينَ[6] قُتِلَ فراعِنَتُهُمْ يومئذٍ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يقولُ: إنَّ القرآنَ، هو الحقُّ مِنَ اللهِ لأنَّ فيهِ الإخبارَ عن عذابِ[7] الذينَ كَذَّبوا محمداً ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ﴾ هو ظهورُ محمدٍ ﷺ على البلادِ والقُرَى النائيةِ، وفَتْحُها عليهِ ﴿وَفِيٓ

---

(١) في الأصل وم: قالوا. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إنه. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أن الله. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: العذاب.

أنفسهم﴾ أي فَتحُ مكةَ، وظُهورُهُ عليهِمْ على ما وَعَدَ لهُ رَبُّهُ، جَلَّ، وعَلا، مِنَ النَّصرِ لهُ وفَتحِ البلادِ والقُرى. فيكونُ هذانِ التأويلانِ آيةَ رسالتِهِ ونُبوَّتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ آياتِ وحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ: أمّا في الآفاقِ [ففي وجهَينِ:

أحَدُهما: ما][1] جَعَلَ مَنافِعَ البلادِ النائيةِ والقُرى المُتباعِدَةِ مُتَّصِلَةً بِمنافِعِ أنفسِهِمْ ومَنافِعِ البلادِ القريبةِ، ومَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمنافِعِ الأرضِ على بُعدِ ما بَينَهما لِيُعلَمَ أنهُ تدبيرُ واحدٍ وفِعلُ فَردٍ لا عَدَدٍ.

[والثاني:][2] أنْ تكونَ آياتُهُ في الآفاقِ رَفْعَ السماءِ مَعَ غِلَظِها وكَثافَتِها وسَعَتِها بلا سَبَبٍ ولا تَعليقٍ مِن أعلاها ولا عِمادٍ.

[وأمّا][3] في أنفسِهِمْ فما[4] حَوْلَهُمْ، وقَلْبُهُمْ في الأرحامِ مِنْ حالِ النُّطفةِ إلى حالِ العَلَقةِ ومِن حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المُضغَةِ ثم [مِن][5] حالِ المُضغَةِ إلى حالِ الإنسانِ والتصويرِ والتركيبِ إلى آخرِ ما يَنتهي إليهِ أمرُهُ لِيُعلَمَ أنهُ صُنعُ واحدٍ وتدبيرُ فردٍ، لا تدبيرَ لأحدٍ سِواهُ في ذلكَ.

فهذانِ التأويلانِ في آيَةِ الألوهيَّةِ والوَحدانيَّةِ. والأوّلانِ في إثباتِ الرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شاهداً أنهُ على ما تقولُ أنتَ؟ أو يقولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ ناصراً ومُعيناً؟ أو يكونُ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾ أي أوَ لم يَكْفِهِمْ ما جاءَ مِن عندِ اللهِ مِنَ البيِّناتِ والقرآنِ كقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية؟ [العنكبوت: ٥١] فَعلَى ذلكَ يَحتَمِلُ هذا.

ويَحتَمِلُ: أوَ لم يَكْفِهِمْ آيَةً على رسالتِكَ وآيةً على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى ما جاءَ مِن عندِ اللهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي ألا شَكُّهُمْ /٤٨٨ ـ أ/ ومِرْيَتُهُمْ[6] في البعثِ، هو الذي حَمَلَهُمْ على تكذيبِ ما جاءَ مِن عندِ اللهِ وإنكارِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وما. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، في الأصل: وفي مريتهم.

جنة السنة

جنة السنة

سورة(١) ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾

مكية إلّا الآيات ١و٢و٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾، قالَ بعضُهُمْ: ﴿حمٓ﴾ هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، وقيلَ: هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ القرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حمٓ﴾ أي قَضى ما هو كائنٌ، وقد ضَعَّفَ هذا القولَ ابْنُ عباسٍ ﷺ.

والصحيحُ مِنَ الأقوالِ أنَّ ﴿حمٓ﴾ خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ، و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [خبرٌ ثانٍ](٢) ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ للكتابِ، والتقديرُ: هذا ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾](٣) مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١و٢].

وقالَ بعضُهُمْ في ﴿عٓسٓقٓ﴾: العَينُ عبارةٌ عن عذابِهِ، والسِّينُ عنِ المَسْخِ، والقافُ كنايةٌ عنِ القَذْفِ، يقولُ أصحابُ(٤) هذا القولِ: تَخْرُجُ عَيْنٌ مِنَ الأرضِ، فيها عذابٌ، ويُمْسَخُ رجلٌ في هذهِ الأمةِ بالباديةِ، فَيَقْذِفُهُ الناسُ بالحجارةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: وهو قولُ ابْنِ عباسٍ: حمسق على إسقاطِ حرفِ العَينِ، ثم يقولُ: السِّينُ كلُّ فِرْقَةٍ تكونُ، والقافُ(٥) كلُّ جماعةٍ تكونُ، وذَكَرَ [أنهُ](٦) كانَ يُعْلِمُ عليَّ بْنَ أبي طالبٍ، كَرَّمَ اللهُ وجْهَهُ، حسابَ العَينِ.

وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ ﷺ: حمسق بِطَرْحِ(٧) العينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: العَينُ عبارةٌ عنِ العذابِ، والسِّينُ عبارةٌ عنْ: سيكونُ ذلكَ [والقافُ عبارةٌ عنِ الوقوعِ، أي قَضى ما سَيكونُ ذلكَ](٨) واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ عنْ جَعْفَرِ بْنِ محمدِ بْنِ عليٍّ ﷺ: [أنهُ](٩) قالَ: العَينُ عبارةٌ عنِ العذابِ والسِّينُ عبارةٌ عنْ: سيكونُ، ولم يُفَسِّرِ القافَ، وقالَ: عَجَبٌ، أو كلامٌ نَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: العَينُ عبارةٌ عنْ عِلْمِهِ، والسِّينُ السَّلامُ، والقافُ عبارةٌ عنِ القُدْرَةِ، وكذا مُحْتَمَلٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ كلُّ حرفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ عبارةً عن صفةٍ مِنْ صفاتِهِ أوِ اسمٍ مِنْ أسمائِهِ على عادةِ العربِ: [الاكْتِفاءُ بحَرْفٍ](١٠) عن جميعِ الكلمةِ: فالحاءُ عبارةٌ عن حِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، والميمُ عبارةٌ عنْ مُلْكِهِ ومَجْدِهِ، والعينُ عبارةٌ عن عِلْمِهِ، والسِّينُ عبارةٌ عنْ سَنائِهِ وسُؤْدُدِهِ، والقافُ عبارةٌ عنْ قُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ، ويكونُ كلُّ حرفٍ من هذهِ الحروفِ عبارةً عنِ اسْمٍ مِنْ أسمائِهِ أو صفةٍ مِنْ صفاتِهِ، وعبارةً عن حُكْمٍ مِنْ أحكامِهِ.

وهذا الذي ذَكَرْنا كلُّهُ على الإمكانِ والاحْتِمالِ، لا يَسَعُ أنْ يُحَقِّقَ فيهِ التَّفسيرُ أنهُ كذا، وأنهُ أرادَ كذا، لأنهُ مِنَ التَّشابهِ، وأنهُ مِنَ السِّرِّ الذي لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى عليهِ أحداً إلّا رُسُلَهُ ﷺ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي كما أوحَى إليكَ فقد أوحَى إلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ مِثْلَهُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر أن (٢) في م: خبره. (٣) من م، ساقطة من الأصل (٤) في الأصل وم: صاحب (٥) في الأصل وم: و الكاف (٦) ساقطة من الأصل وم (٧) من م، في الأصل: طرح. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بالاكتفاء عن حرف عبارة.

جنة السنة

ثم اختُلِف في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ قال بعضُهُم: أي كما أوحَينا إليك بسورةِ ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ بِعَينِها فقد أوحَينا بِعَينِ هذهِ الحروفِ إلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ، وهي ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ وقالَ بعضُهُم: كما أوحَينا إليك ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ أوحَينا إلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرسُلِ بمعنى ذلكَ.

وعن ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ليسَ نَبيٌّ إلّا وقد أُوحِيَ إليهِ بـ ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ كما أُوحِيَ إلى النَّبيِّ ﷺ وهو على ما ذكَرْنا.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُخرَّجُ ذِكْرُ هذا في هذا المَوضِعِ على وجوهٍ:

[أحدُها:][1] أي ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ شُهودٌ على أُلوهيَّتِهِ ووَحدانيَّتِهِ.

والثاني: أنَّ ما في السمواتِ والأرضِ وما فيها، لهُ دلالاتُ وَحدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ.

والثالثُ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي كُلُّهُم عَبيدُهُ ومُلْكُهُ، فلا يَحتَمِلُ أن يَتَّخِذَ مِنْ مُلْكِهِ وعَبيدِهِ ما ذَكَروا مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ والصاحبةِ وما قالوا؛ إذْ لا أحَدَ يَتَّخِذُ مِنْ عَبيدِهِ ومُلْكِهِ ما ذَكَروا من الوَلَدِ والشريكِ والصاحبةِ. فَعَلى ذلكَ يَتعالى اللهُ عن أنْ يكونَ لهُ في مُلْكِهِ ما ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ العُلُوُّ والعَظَمَةُ في الشاهدِ يكونانِ[2] من وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: العُلُوُّ عبارةٌ عنِ القَهْرِ والغَلَبَةِ؛ يُقالُ: فلانٌ عالٍ، أي غالبٌ وقاهرٌ، والعَظَمَةُ عبارةٌ عنِ القُدْرَةِ والمَنزِلَةِ ونَفاذِ الأمرِ.

والثاني: يكونُ العُلُوُّ عبارةً عنِ الكِبْرياءِ والسُّؤدُدِ، وكذلكَ العَظَمَةُ.

والثالثُ: العُلُوُّ يكونُ عبارةً عنِ الارْتِفاعِ في المكانِ، والعَظَمَةُ عَظَمَةٌ في البَدَنِ والنَّفسِ، وهذا ممّا لا يكونُ فيهِ كثيرُ[3] منقبةٍ وقَدْرٍ، ولا شيءَ مِنْ ذلكَ، ولا يزيدُ ذلكَ في صاحبِهِ رِفعةً ولا مَرْتَبَةً، واللهُ يَتعالى عنِ الوصفِ بهذا.

فإنما رَجَعَ الوصفُ لهُ بالعُلُوِّ والعَظَمَةِ إلى الوجهَينِ الأوَّلَينِ: السلطانِ والقُدْرَةِ ونَفاذِ الأمرِ والمَشيئةِ والكبرياءِ والغَلَبَةِ.

فأمّا ما رَجَعَ إلى الارْتِفاعِ في الأمكنةِ والعَظَمَةِ في البَدَنِ فهو صفةُ الخَلْقِ[4]، وهمُ المَوصوفونَ بذلكَ، تعالى اللهُ ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ لِذنوبِ أهلِ الأرضِ وفَسادِهِمْ وعِظَمِ ما قالتِ الملاحِدةُ في اللهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ والصاحبةِ، كادَتْ تَتشقَّقُ لِذلكَ، وتتساقَطُ، كقولِهِ في آيةٍ أُخرَى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١].

بَيَّنَ في هذهِ الآيةِ أنها كادَتْ تَتفَطَّرُ، وتَنشَقُّ لماذا؟ وهو دَعْواهُمْ للرحمنِ ولداً. فلِذلكَ يَحتَمِلُ ههنا هذا المَعنَى، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: كادَتْ تَنشَقُّ لبكاءِ أهلِها عليها وإشفاقِكَ ورحمتِكَ[5] على أهلِ الأرضِ.

ويَحتَمِلُ تكادُ تَنشَقُّ لِعظمةِ الرَّبِّ وجَلالِهِ وعِظَمِ سلطانِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] أخبَرَ أنهُ لو جَعَلَ في الجبالِ والأرضِ والسماءِ مِنَ المَعنى والتَّمييزِ ما جَعَلَ في البَشَرِ لكانَتْ هذهِ الأشياءُ بالوصفِ الذي ذَكَرَ مِنَ الخُضوعِ[6] لربها، وهو كما ذَكَر في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تكون. (٣) في الأصل وم: كثرة. (٤) في الأصل وم: المخلوق. (٥) في الأصل وم: و رحمة.
(٦) من م، في الأصل: الخصوص.

جنة السنة

﴿يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] يُخبِرُ عن شِدّةِ خُضوعِ هذهِ الأشياءِ وخُشوعِها لربِّها وتَذَلُّلِها لهُ وعِنادِ الكَفَرَةِ واستِكْبارِهِمْ وقِلَّةِ خُضوعِهِمْ وخُشوعِهِمْ لربِّهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ لِكَثرَةِ أهلِها وازدِحامِهِمْ فيها وعبادتِهِمْ لربِّهِمْ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عن النَّبِيِّ ﷺ: «أطَّتِ السماءُ وحَقَّ لها أنْ تَئِطَّ ما مِنْ مَوضِعِ قَدَمٍ فيها إلّا ومَلَكٌ فيها ساجِدٌ أو راكِعٌ أو قائِمٌ، يُسَبِّحُ اللهَ تعالى، ويُصَلِّي لهُ» [الترمذي ٢٣١٢] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ ما ذَكَرَ مِنْ تَفَطُّرِ السماءِ لِعِظَمِ ما يقولُ الملاحِدَةُ فيهِ مِنَ الشريكِ والوَلَدِ والصاحبةِ حينَ[1] قالَ على إثرِهِ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي الملائكةُ يُنَزِّهونَهُ، ويُبَرِّئونَهُ، عمّا يقولونَ فيهِ، ويُثْنونَ عليهِ بالثناءِ الذي يَليقُ بهِ/ ٤٨٨ - ب/ ويَصِفونَهُ بما هو أهلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ امتَحَنَهُمْ، جَلَّ، وعلا، بالتَّسْبيحِ لهُ والثناءِ عليهِ والاستِغفارِ لأهلِ الأرضِ [على][2] ما ذَكَرَ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: إنَّ قولَهُ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ مَنسوخٌ بقولِهِ تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ [غافر: ٧] لأنَّ الأولَ عامٌّ لجميعِ أهلِ الأرضِ، والثاني خاصٌّ. لكنَّ هذا بعيدٌ مُحالٌ: أنْ يَستَغفِرَ الملائكةُ، ويَطْلُبوا التَّجاوُزَ مِنْ ربِّهِم لِمَنْ يَقولُ لهُ بالشريكِ والوَلَدِ والصاحبةِ.

وإذا كانَ كذلكَ كانَ استِغفارُهُمْ يَرجِعُ إلى المؤمنينَ خاصّةً على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبقولِهِ: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] فكانَ المُرادُ منهُ العُمومَ، ثم صارَ مَنسوخاً بِورودِ الخاصِّ مُتَراخِياً، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنْ كانَ استِغفارُهُمْ لجملةِ أهلِ الأرضِ على ما يقولونَ فهو عِبارةٌ عن طَلَبِ السببِ الذي بهِ تَقَعُ لهمُ المَغْفِرَةُ، وهو التوبةُ عنِ الشركِ، والتوحيدُ. فيكونُ هذا سؤالَ التوحيدِ والهدايةِ لِتَقَعَ المَغْفِرَةُ لهم بذلكَ التَّجاوُزِ، ويَصيروا لذلكَ [أهلاً][3].

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ استِغفارُ إبراهيمَ ﷺ لأبيهِ أنهُ سُؤالُ وطَلَبُ السببِ الذي بهِ تَقَعُ المَغْفِرَةُ، وأنْ يَجعَلَهُ أهلاً لذلكَ.

وكذلكَ أمْرُ الرسلِ ﷺ قومَهُمْ بالاستِغفارِ ربَّهُمْ، وهو ما قالَ هودٌ ﷺ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] وقولُ نوحٍ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] لا يُحتَمَلُ أنْ يقولوا لهم: اطلُبوا، واسألوا ربَّكُمُ السببَ الذي بهِ تَقَعُ المَغْفِرَةُ لكُمْ، وهو التوبةُ عمّا هُمْ فيهِ، واختيارُ الهدايةِ والرُّشْدِ لأنفسِهِمْ ليكونوا لذلكَ أهلاً.

فَعَلى ذلكَ يُخَرَّجُ استِغفارُ الملائكةِ إنْ كانَ لِجُمْلَةِ أهلِ الأرضِ على ما يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ.

وعلى هذا لا حاجةَ إلى النَّسْخِ، ولا يَحتَمِلُهُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ الأصنامَ التي عبدوها دونَ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يُخبِرُ أنهُ لا عن غَفْلَةٍ وجَهْلٍ منهُ يَعْمَلونَ ما يَعْمَلونَ، ولكنهُ حفيظٌ عليهِمْ وعلى أعمالِهِمْ، لكنهُ يُؤَخِّرُ ذلكَ عنهمْ لِحِكْمَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي لا تُؤاخَذُ أنتَ بِمَكانِهِمْ كقولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي بِمُسَلَّطٍ عليهمْ ولا حفيظٍ. إنما أنتَ رسولٌ. فَعَلَيكَ البلاغُ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقولِهِ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] واللهُ أعلمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليكونَ أقربَ إلى الفَهمِ، وأولى أنْ يكونَ حُجَّةً عليهمْ، وأبلَغَ في الحِجاجِ لأنهُ ذَكَرَ فيهِ الأنباءَ السالفةَ والأخبارَ المُتقَدِّمةَ باللسانِ العربيِّ غيرِ لسانِ تلكَ الأنباءِ ومنْ غيرِ أنْ يَختلِفَ إلى أحدٍ مِنْ أهلِ ذلكَ اللسانِ [ولوِ اختلَفَ][1] لَتَوَهَّمَ العِلْمَ منهمْ بلسانِهِمْ والنَّقْلُ بلسانِهِ[2] نفسِهِ. فَدَلَّ أنهُ إنما عَرَفَ [ذلكَ][3] باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لِيُنْذِرَ أهلَ أمِّ القرى وأهلَ مَنْ حولَها مِنَ القُرى. ثم تَحْتَمِلُ تَسْمِيةُ مكةَ أمَّ القُرى وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: سَمّاها أُمَّ القُرى لِما منها دُحِيَتْ سائرُ الأرضِينَ والقُرى.

والثاني: سَمّاها أُمَّ القُرى لأنها أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للناسِ، وأوَّلُ بِناءٍ بُنِيَ في الأرضِ، فَسَمّاها لِذلكَ أُمَّ القُرى، واللهُ أعلَمُ

والثالثُ: سَمّاها أُمَّ القُرى لِما على الناسِ أنْ يَؤُمّوها، ويَقْصِدوها بالزيارةِ، ولأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أوَّلَ ما بُعِثَ رسولاً [بُعِثَ][4] فيها، فإليها يُؤَمُّ، ويُقْصَدُ، بالدعوةِ أوَّلَ ما[5] يُؤَمُّ، ويُقْصَدُ. ثم مِنْ بَعدِ ذلكَ يُؤَمُّ إلى سائرِ القُرى والبلدانِ، ويُقْصَدُ، والأَمُّ القَصْدُ، ومنهُ أُخِذَ التَّيَمُّمُ. ولذلكَ سَمّاها أمَّ القُرى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي وتُنْذِرَ بيومِ الجَمْعِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي تُنْذِرَ بالقرآنِ ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ قد بَيَّنَ اللهُ تعالى السَّبيلَينِ جميعاً على الإبلاغِ، وبَيَّنَ عاقبةَ كلِّ سبيلٍ إلى ماذا يُفضي مَنْ سَلَكَها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يُخبِرُ أنَّ عندَهُ مِنَ اللطائفِ والقدرةِ ما لو شاءَ لَجَعَلَهُمْ جميعاً أمَّةً واحدةً وعلى دينٍ واحدٍ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣] فلو جَعَلَ ذلكَ لأهلِ التوحيدِ لكانوا جميعاً [على دينِ الإسلامِ على ما أخبَرَ على أنهُ لو كانَ ذلكَ مَعَ أهلِ الكُفرِ لكانوا جميعاً][6] أهلَ كُفرٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا[7] يحتملُ مَشيئةَ الجَبْرِ والقَسْرِ على ما يقولُهُ المعتزلةُ لوجوهٍ:

أحدُها: لِما يكونُ الإيمانُ في حالِ الجَبْرِ والقَهْرِ لأنهُ لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ، ولا اختيارَ لهمْ.

والثاني: أنَّ كلَّ أحدٍ بِشهادةِ الخِلْقةِ مؤمنٌ موحِّدٌ للهِ تعالى. ثم لم يَصيروا بذلكَ مؤمنِينَ. فَعَلى ذلكَ بالجَبْرِ والقَهْرِ؛ إذْ في الحالَينِ ليسَ فعلَ المؤمنِ إنما هو فِعْلُ غيرِهِ. فَدَلَّ أنهُ أرادَ أنْ يُشاءَ منهمْ ما يكونونَ[8] مختارينَ في الإيمانِ لا مَجبورينَ.

والثالثُ: أنَّ الإيمانَ بالجَبْرِ والقَهْرِ ممّا لا يَعرِفُهُ الناسُ، ولا يُطْلَقُ عليهِ اسمُ الإيمانِ في العُرْفِ، وقد وَعَدَهُمُ الإيمانَ، وجَعَلَ الدينَ واحداً. وهذا عندَ التَّعارُفِ يَنْصَرِفُ إلى ما يوجدُ منهمْ عن طَوعٍ واختيارٍ لا بالجَبْرِ والقَهْرِ، فتكونُ الآيةُ مُنْصَرِفَةً إلى المَعْهودِ عندَ الناسِ على ما هو الأصلُ في الكلامِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وعندَنا أرادَ بِهِ مَشيئةَ الاختيارِ، وأخبَرَ أنَّ عندَهُ مِنَ اللطائفِ ما لو أعطَى الكُلَّ لَآمَنوا جميعاً عن اختيارٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بلسان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: مما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: يكون.

جنة السنة

لكنهُ لم يُعْطِهِم، ولم يَشأ، لِما عَلِمَ منهم أنهمْ لا يَرْغَبونَ فيهِ، ولا يَخْتارونَ ذلكَ. ولكنْ إنما يَخْتارونَ ضِدَّ ذلكَ ونَقيضَهُ. لِذلكَ لم يَشأ لهمْ، وإنما يَشاءُ لِمَنْ عَلِمَ أنهُ يَخْتارُ ذلكَ فضلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ يُخبِرُ أنَّ [مَنْ](١) أعطى ذلكَ يُعْطيهِ رحمةً منهُ وفَضْلاً، لا أنهمْ يَسْتوجِبونَ ذلكَ منهُ، ويَسْتَحِقُّونَ عليهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى سَمّى الإيمانَ مَرَّةً رحمةً بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ ومَرَّةً سَمّاهُ مِنَّةً بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ١١] وبقولِهِ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾ الآية [الحجرات: ١٧] فلو كانَ الإيمانُ يقومُ بالذي يكونُ الكُفرُ مِنَ القُدْرَةِ، ولم يكُنْ مِنَ اللهِ تعالى إلى المؤمنينَ إلّا وقد كانَ مثلُهُ إلى الكافرِ على ما يقولُهُ المعتزلةُ: إنّ الإيمانَ إنما يكونُ بالذي يكونُ الكُفرُ، لم يكُنْ لِتَسْمِيَتِهِ هذا نِعْمةً ورَحْمةً وتَسْمِيَةِ الكُفرِ ضِدَّهُ مَعْنىً، واللهُ الموفِّقُ.

وبَعْدُ فإنهُ لو كانَ على ما يقولُهُ المعتزلةُ لكانَ ما ذَكَرَ مِنَ النِّعْمَةِ والمِنَّةِ والرحمةِ، إنما يكونُ بالخَلْقِ منهمْ لا باللهِ تعالى ومِنَّهُ.

دلَّ أنّ عندَهُ لَطائفَ، مَنْ أعْطى تلكَ اللطائفَ آمَنَ، واهْتَدى، ومَنْ لم يُعْطِ إياها لم يُؤمِنْ، وقد أعطى المؤمنَ تلكَ، ولم يُعْطِ الكافرَ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ الموفِّقُ.

ثم في تَخْصيصِ أُمِّ القُرى ومَنْ حَوْلَها بالنِّذارةِ وجوهٌ:

[أحدُها: ما](٢) ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى أنهُ نذيرٌ للعالَمينَ جميعاً بقولِهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] فإذا كانَ مَبْعوثاً إلى جميعِ العالَمِ لا إلى بعضٍ دونَ بعضٍ كما كانَ / ٤٨٩ ـ أ/ بَعْثُ(٣) الأنبياءِ ﷺ فلا بدَّ أنْ يكونَ لِتَخْصيصِ أُمِّ القُرى ومَنْ حولَها مَعْنىً وحِكْمةٌ.

[والثاني: ما](٤) يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لأهلِ مكةَ طَمَعٌ في شَفاعتِهِ، وإنْ لم يَتَّبِعوهُ، إمّا بِحَقِّ القرابةِ والاتِّصالِ وإمّا بِحَقِّ الأيادي، ولِمَنْ(٥) حولَهُمْ بِحَقِّ الجِوارِ. فَذَكَرَ تَخْصيصَهُمْ بالإنذارِ بيومِ الجمعِ حتى يَزولَ طَمَعُهُمْ بدونِ الاتِّباعِ. والنُّزوعُ(٦) عنِ الشِّرْكِ إذ ذلكَ [لا يزولُ](٧) بمطلقِ الإنذارِ لِما عندَهُمْ، وفي(٨) زَعمِهِمْ أنَّ المُرادَ في ذلكَ غَيرُهُمْ لِما لهمْ مِنْ زيادةِ سَبَبِ الوَسيلةِ معهُ.

والثالثُ(٩): أنْ يُنْذِرَ هؤلاءِ ومَنْ ذَكَرَ شِفاهاً ومَنْ بَعُدَ منهمْ خبراً، أو [أنهُ](١٠) خصَّ هؤلاءِ بِحَقِّ البدايةِ ثم الأقربَ(١١) فالأقربَ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لهمْ مِنْ وليٍّ يَشْفَعُ ولا نصيرٍ يَنْصُرُ، ويَمْنَعُهُمْ مِنْ عذابٍ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي أرباباً. واللهُ هو الوليُّ، أي هو الرَّبُّ ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وقد عَرَفوا أنَّ الإحياءَ إنما يكونُ باللهِ تعالى لا بالأصنامِ التي عَبَدوها، وإنْ كانوا يُنْكِرونَ البَعْثَ والإحياءَ بَعدَ الموتِ فلو عَرَفوا أنهُ [لو](١٢) كانَ إنما باللهِ تعالى لا بالأصنامِ التي عَبَدوا دونَهُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ظاهرٌ قد تقدَّمَ ذكْرُهُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: في القرآنِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: بعض. (٤) في الأصل وم: أحدها لما. (٥) في الأصل وم: ومن. (٦) من م، في الأصل: و النزول. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و الثاني. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالأقرب. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والثاني: في رسولِ اللهِ ﷺ.

والثالثُ: في الدينِ.

فإنْ كانَ اختِلافُهُمْ في القرآنِ فقولُهُ: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في ما أقامَ مِنَ الحُجَجِ والبراهينِ أنهُ مِنَ اللهِ، ومِنْ عندِهِ جاءَ حينَ[1] عَجِزوا عن إتيانِ مثلِهِ أو مُقابلةِ شيءٍ يُوازيهِ.

وإنْ كانَ اختِلافُهُمْ في رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ رسولٌ][2] أوليسَ برسولٍ، فقد أقامَ مِنَ الدلائلِ والبراهينِ ما يَدُلُّ على رسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ سَمعياتٍ وعقلياتٍ ما لا يَتَعرَّضُ لِرَدِّها إلّا مَنْ كابَرَ عَقلَهُ، وعانَدَ لُبَّهُ.

وكذلكَ لو كانَ اختِلافُهُمْ في الدينِ فقد أقامَ ما يَعْلَمُ كلُّ ذي عَقلٍ ولُبٍّ أنهُ هو الصوابُ، وأنَّ غيرَهُ مِنَ الأديانِ ليسَ بِحَقٍّ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى كتابِ اللهِ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] أي إلى كتابِ اللهِ.

لكنْ هذا لا يَصِحُّ لأنَّ قولَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إنما هو في المؤمنينَ إذا وَقَعَ بَينَهُمُ الاختِلافُ في شيءٍ مِنَ الأحكامِ يُرَدُّ ذلكَ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنما هو مُحاجَّةُ الكَفَرَةِ، فهو في غيرِ ذلكَ المَعْنى، إذْ هُمْ لا يَعْتَقِدونَ كونَهُ حُجَّةً، وإنما يُرْجَعُ إلى دليلٍ آخَرَ عَقليٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي ذلكَ الذي يَفْعَلُ هذا هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كلِّ أمري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ بالطاعةِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ اختِلافُهُمُ الذي ذَكَرَ، هو اختِلافُهُمْ في اللهِ تعالى كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٦]

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي ذلكُمُ الذي اختَلَفتُمْ فيهِ هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليهِ اعتَمَدْتُ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي إليهِ أرجِعُ.

الآية ١١ ثم نَعَتَهُ، فقالَ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١ و...] وفي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١ و...] وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧].

قالَ بعضُ الباطِنِيَّةِ: المُبْدِعُ هو الذي يُنْشِئُ الأشياءَ لا مِنْ شيءٍ. والخالقُ هو الذي يُنْشِئُ الشيءَ مِنْ شيءٍ ومِنْ لا شيءٍ. والفاطرُ هو الذي يُنشِئُ مِنْ شيءٍ، أو نَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

وعندَنا أنَّ هذهِ الأسماءَ، وإنِ اختَلَفَتْ ألفاظُها، وافتَرَقَ اشتِقاقُها ومآخذُها، فهيَ في المعاني واحدةٌ. والإبداعُ[3] هو الإنشاءُ بِلا احتِذاءِ سَبْقٍ، والخَلْقُ هو الإنشاءُ والتقديرُ. لكنَّ غيرَهُ لا يجوزُ أنْ يُسَمّى خالقاً لأنهُ لا يَقدِرُ على تقديرِ شيءٍ إلّا على شاهدٍ عايَنَهُ، ورآهُ. والفاطرُ كأنهُ مأخوذٌ مِنَ الشَّقِّ، يُشَقُّ الشيءُ، ويَخْرُجُ منهُ أشياءُ. كُلُّهُ خَلْقٌ، وفاعِلُهُ خالقٌ على الحقيقةِ، وهو اللهُ تعالى، وباللهِ القوةُ والتوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً]:

أحدُها[4]: أي جعلَ مِنْ نفسِ آدمَ وحواءَ ﷺ أزواجاً نَسَبَنا جميعاً [إليهما، لأنهما الأصلُ، وإنّا جميعاً][5] إنما كنّا مِن ذلكَ الأصلِ، وهو كَنِسْبَتِهِ إيّانا إلى الترابِ بقولِهِ: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠و...] وإنما خَلَقَ أصلَنا مِنَ الترابِ، لكنهُ نَسَبَنا إليهِ لِما منهُ كُنّا جميعاً.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

فَعلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي مِنْ نفسِ آدمَ وحوّاءَ، ونَسَبَنا إليهما لِما منهما كنّا جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: جَعَلَ بعضَكُمْ مِنْ بعضٍ أزواجاً أي حلائلَ، أي خَلَقَ الإناثَ من الرجالِ والرجالَ من الإناثِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ الآية [الروم: ٢١].

والثالثُ: أي جَعَلَ لكُمْ مِنْ مِثْلِ خَلْقِكُمْ أزواجاً أي أصنافاً وأشكالاً، جَعَلَ الخَلْقَ[1] كلَّهُ ذا أشكالٍ وأمثالٍ وذا أزواجٍ.

وكذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنهُ جَعَلَ الأنعامَ أيضاً ذاتَ أزواجٍ وأشكالٍ.

والثاني: جَعَلَ منها الذكورَ والإناثَ أيضاً كما جَعَلَ منَ البَشَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ والمُرادُ بقولِهِ ﴿فِيهِ﴾: أنَّ الهاءَ كنايةٌ عنْ ماذا؟ قالَ بعضُهُمْ ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يُكثِّرُكُمْ، وقيلَ: يُنْشِئُكُمْ ﴿فِيهِ﴾ وقيلَ: يَرزُقُكُمْ ﴿فِيهِ﴾ ويُعمِّرُكُمْ، وقيلَ: يَخْلُقُكُمْ.

وأمّا قولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ [فقد][2] قالَ بعضُهُمْ: يجيءُ قولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ أي فيها كنايةٌ عنِ الأنعامِ. وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ ويَذْرَؤُكُمْ فيها أي في الأنعامِ لِما جَعَلَ لِلْبَشَرِ فيها مِنْ أنواعِ المَنافعِ.

وأمّا مَنْ قرَأَ ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ بِغيرِ الألفِ فهو يَجْعَلُهُ كنايةً عنِ العالَمِ. كأنهُ يقولُ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يَخلُقُكُمْ في العالَمِ، ويُكثِّرُكُمْ فيهِ، ويُعَيِّشُكُمْ، ويُعَمِّرُكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يُكثِّرُكُمْ في هذا التزويجِ الذي جَعَلَ بَينَكُمْ، أي يُكثِّرُكُمْ بسببِ هذا التزويجِ [ولولا هذا التزويجُ][3] لم يكثُرِ الناسُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ كنايةً عنِ التدبيرِ؛ يقولُ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يَخلُقُكُمْ فيهِ نَسْلاً بَعْدَ نَسْلٍ كقولِهِ تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ٧٩] وهو قولُ القُتَبِيِّ وأبي[4] عَوسَجَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الآية: يَسْتَدِلُّ بعضُ أهلِ التشبيهِ بأنَّ لهُ مَثَلاً بقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يقولونَ: لو لم يكُنْ لهُ مِثْلٌ لم يَذْكُرْ كافَ التشبيهِ حينَ[5] قالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لكنْ نَفَى مِثْلِيَّةَ الأشياءِ عنْ مِثْلِهِ، فيكونُ فيهِ إثباتُ مِثْلٍ لهُ، لا يُشْبِهُ سائرَ الأشياءِ سِواهُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وعندَنا قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليسَ مِثْلُهُ شيءٌ، والكافُ قد تُزادُ في الكلامِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ليسَ كَهُوَ شيءٌ، والعربُ قد تُقيمُ المَثَلَ مُقامَ النَّفْسِ. وأصْلُهُ أنَّ الخَلْقَ ذو أعدادٍ، وكلُّ ذي عَدَدٍ لهُ أشكالٌ وأمثالٌ مِنْ حيثُ العَدَدُ.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ الخَلْقَ، وإنْ كانوا ذَوِي[6] أمثالٍ وأشكالٍ وأشباهٍ فليسَ يُشْبِهُ بعضُهُمْ بعضاً مِنْ جميعِ الوجوهِ وكلِّ الجِهاتِ. ولكنْ إنما يُشْبِهُ بعضُهُمْ بعضاً [بِوَجْهٍ مِنَ الوجوهِ][7] أو بصفةٍ أو بِجِهَةٍ أو بِنَفْسٍ، ثم صارَ بعضُهُمْ أمثالاً لبعضٍ وأشباهاً بتلكَ الجِهَةِ وبذلكَ الوَصْفِ.

فَدَلَّ أنَّ اللهَ تعالى ليسَ يُشْبِهُ الخَلْقَ، ولا لهُ مِثالٌ منهُمْ بِوَجْهٍ مِنَ الوجوهِ، ولا لهُ شَبيهٌ منهُمْ: لا ما يَرْجِعُ إلى النَّفْسِ [ولا ما يَرْجِعُ إلى الصفةِ][8] وهو يَتَعالى عنْ جميعِ مَعاني الخَلْقِ وصِفاتِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: الخلائق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و أبو.
(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ذا. (٧) في الأصل وم: من جميع الوجوه أو بوجه. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ودلّ قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أنهُ شيءٌ لأنهُ نَفَى عن نفسِهِ المِثْلِيَّةَ، ولم يَنْفِ الشَّيْئِيَّةَ.

لكنْ يُقالُ:/ ٤٨٩ ـ ب/ شيءٌ لا كالأشياءِ، يَنْفي عنهُ شِبْهَ الأشياءِ. والشيءُ إثباتٌ، وفي الإثباتِ توحيدٌ. ولو لم يكُنْ شيئاً لكانَ يقولُ: ليسَ هو شيئاً[1]. دَلَّ أنه ما ذَكَرَ.

وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ذُكِرَ في غيرِ موضعٍ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] وقولِهِ ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنين: ٨٨ ويس: ٨٣] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ فيها ذِكْرُ المفاتِحِ والمقاليدِ والخزائنِ التي أضافَها إلى نفسِهِ.

ثم لم يَفْهَمِ الخَلْقُ مِنَ المفاتِحِ المُضافةِ والمقاليدِ والخزائنِ ما يُفْهَمُ لو أُضيفَ إلى الخَلْقِ، بل فَهِموا مِنَ المفاتِحِ المُضافةِ إلى الخَلْقِ والمقاليدِ المَنْسوبةِ إليهِمْ مَعْنىً، لم يَفْهَموا ذلكَ المَعْنى مِنَ المفاتِحِ والمقاليدِ المُضافةِ إلى اللهِ تعالى، فما يَنْبَغي أنْ يَفْهَموا[3] مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقولِهِ تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [ص: ٧٥] ونَحْوِ ذلكَ ما يَفْهَمونَهُ مِنَ اليَدِ المُضافةِ إلى الخَلْقِ، لكنهُ ذَكَرَ المفاتِحَ والمقاليدَ، وأضافَها إلى نفسِهِ، لأنَّ كلَّ مَحْجوبٍ ومَسْتورٍ عنِ الخَلْقِ في ما بَيْنَهُمْ إنما يُوصِلُهُمْ إلى ذلكَ المَحْجوبِ والمَسْتورِ عنهمْ بالمفاتِحِ والمقاليدِ التي ذَكَرَ.

فَعَلَى ذلكَ ما أضافَ إلى نفسِهِ مِنَ اليَدِ وغيرِها لِما باليَدِ يُبْسَطُ في الشاهدِ، وبها يُمْنَعُ، وبها يُكْتَسَبُ، ويُفْعَلُ ما يُفْعَلُ، فأضافَ إلى نفسِهِ ما بِهِ يكونُ في الشاهدِ مِنَ الفِعْلِ والبَسْطِ والمَنْعِ كِنايةً عن هذهِ الأفعالِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ لأنَّ الرزقَ المذكورَ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وهو المطرُ.

والثاني: الأملاكُ التي يَكْتَسِبونَ.

والثالث: المَنافِعُ التي جَعَلَ لهمْ.

ثم الإشكالُ أنَّ الأملاكَ التي تكونُ لهمْ والمَنافعَ التي يَنْتَفِعونَ بها، وجُعِلَتْ لهمْ، إنما تكونُ بأسبابٍ واكْتِسابٍ منهمْ، ثم أضافَ ذلكَ في البَسْطِ والتَّقْتيرِ حينَ[4] قالَ: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾. دلَّ أنَّ للهِ تعالى في ذلكَ صُنْعاً وتدبيراً، وهو أنْ خَلَقَ اكْتِسابَهُمْ وأسبابَهُمْ التي بها يوصَلُ إليهمُ الرزقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَقَدَّمَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الدينُ [الذي][5] يُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ، الجزاءُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣] أي يوم الجزاءِ، أو يُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ الحُكْمُ كقولِهِ تعالى خَبَراً عن يوسفَ عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في حُكْمِ المَلِكِ، ويُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ المذهبُ والمُعْتَقَدُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فكانَ المَعْنى مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ هو المذهبُ، وما يُعْتَقَدُ.

وقد ذَكَرَ الدينَ مُعَرَّفاً بالألفِ واللامِ، وإنهُ للجِنْسِ، فيكونُ كأنهُ قالَ: شَرَعَ لكُمْ مِنَ الأديانِ جملةَ الدينَ الذي وَصَّى بهِ نوحاً ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ، وهو التوحيدُ للهِ تعالى والعبادةُ لهُ، والأنبياءُ والرسُلُ جميعاً إنما بُعِثوا للدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ وجَعْلِ العبادةِ لهُ، وإنِ اخْتَلَفَتْ شرائِعُهُمْ وأحكامُهُمْ، وذلكَ قولُهُ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) في الأصل وم: شيء. (٢) في الأصل وم: و قال. (٣) في الأصل وم: يفهموه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ ويَجْعَلُ ﴿مِّنَ﴾ صِلَةً زائدةً فيهِ، أي شَرَعَ لكُمُ الدينَ الذي ﴿وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ ومَنْ ذَكَرَ، والوجهُ فيه ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: [ما][1] معنَى تخصيصِ نوحٍ ومَنْ ذُكِرَ مِنَ الأنبياءِ ﷺ والكلُّ بُعِثوا للدُّعاءِ إلى هذا الدينِ، وقد وَصَّى الكلَّ بهذا الدينِ؟ فنقولُ [ما][2] قالَ بعضُهُمْ: إنَّما خَصَّ نوحاً ومَنْ ذَكَرَ بهذا لأنَّ التَّحليلَ والتَّحريمَ لم يَكُنْ قَبْلَ زمنِ نوحٍ ﷺ وإنما جاءَ ذلكَ في زمنِ نوحٍ، لِذلكَ خَصَّ نوحاً بما ذَكَرَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذِكْرَ هؤلاءِ لا على تخصيصِهِمْ بذلكَ مِنْ بينِ الأنبياءِ، ولكنْ ذَكَرَ بعضاً ههنا، وتَرَكَ ذِكْرَ البعضِ ليسَ أنهُ شَرَعَ لهُ ما وَصَّى بهِ نوحاً ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ، ولم يَشْرَعْ لهُ ما وَصَّى بهِ غيرَهُمْ، بل شَرَعَ ما وَصَّى بهِ هؤلاءِ وغيرَهُمْ مِنَ الدينِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ذَكَرَ بعضَ هؤلاءِ وغيرَهُمْ، ثم أمَرَهُ أنْ يَقْتَدِيَ بما هُمْ عليهِ.

دلَّ أنَّ ذِكْرَ البعضِ في موضعٍ ليسَ للتَّخصيصِ كما ذَكَرَ البعضَ في مَوضعٍ آخَرَ والكلَّ في مَوضعٍ آخَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ تخصيصُ هؤلاءِ بالذكرِ لِمَعْنًى لم يُطْلِعْنا اللهُ على ذلكَ كما خَصَّ إبراهيمَ بالصلاةِ عليهِ على ما أمَرَنا بهِ النبيُّ ﷺ كقولِهِ: «كما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ» [البخاري ٣٣٧٠ ومسلم ٤٠٥] لِمَعْنًى لم يُطْلِعْنا على ذلكَ. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي في عبادةِ اللهِ تعالى، أي اعبدوهُ جميعاً.

والثاني: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي الدينِ الذي ذَكَرَ، وهو التوحيدُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عَظُمَ عليهِمْ دعاؤُكُمْ إلى التوحيدِ وعبادةِ اللهِ وحدَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا يَنْقُضُ على المعتزلةِ لأنهُ تعالى أخبَرَ أنهُ يَجْتَبي إليهِ مَنْ يشاءُ. ولو كانَ على ما يقولُهُ المعتزلةُ: إنهُ قد أعطى الكافرَ جميعَ ما أعطى المؤمِنَ، فالمؤمنُ حينَ[3] صارَ مُجْتَبًى مُصْطَفًى مُختاراً إنما كانَ مما[4] يفعلهُ لأمرِ اللهِ تعالى. وقد أخبَرَ أنهُ هو يَجْتَبِي مَنْ يشاءُ، وهو يهديهِ، فَبَطَلَ قولُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي هو يهدي مَنْ يطلُبُ منهُ ما به يكونُ الهُدى، وهو التوفيقُ، أي مَنْ[5] لم يَطْلُبْ منهُ ذلكَ، ولم يَسْأَلْ، فإنه لا يَهْديهِ[6] ولا يُوَفِّقُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ تفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَجْتَبي للهدايةِ مَنْ يُنيبُ إليهِ. فأمّا مَنْ لم يُنِبْ إليهِ فلا يَجْتَبيهِ للهدايةِ. لكنَّ المرادَ مِنَ الهدايةِ ههنا ليسَ هُدَى البيانِ لأنَّ هُدَى البيانِ قد كانَ عامّاً لِمَنْ أنابَ إليهِ، ومَنْ لم يُنِبْ. ولكنَّ الهُدى ههنا هو هُدَى الرَّحمةِ وهُدَى النِّعْمَةِ والمِنَّةِ.

سَمَّى التوحيدَ والإيمانَ مَرَّةً رحمةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨] وسمّاهُ نِعْمَةً كقولِهِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وسمّاهُ مِنَّةً كقولِهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وسمّاه نوراً كقولِهِ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. فلِذلكَ قُلْنا: إنَّ الهُدَى المذكورَ ههنا ليسَ هو هُدَى البيانِ، ولكن سِواهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أي أنهمْ تَفَرَّقوا في رسولِ اللهِ محمدٍ، عليهِ أفضلُ الصلاةِ، بَعْدَ ما جاءَهُمُ العلمُ في كُتُبِهِمْ أنهُ رسولٌ لِما كانوا يَجِدونَ بَعْثَهُ وصِفَتَهُ في كُتُبِهِمْ. لكنهمُ اختَلَفوا، وتفرَّقوا، فآمَنَ بعضُهُمْ بهِ على [ما وجَدوا][7] في كتبِهِمْ، وكَفَرَ بعضٌ، وحرَّفوا ما في كُتُبِهِمْ مِنْ بَعْثِهِ وصفتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: منه. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) في الأصل وم: يهدي به. (٧) في الأصل: وجده، في م: ما وجده.

جنة السنة

والثاني: أي تفرّقوا في ما جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ مِنَ الدينِ إلّا مِنْ بعدِ ما جاءَهُمُ العلمُ أنَّ الذي جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ هو الذي وَصّى بهِ نوحاً ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ ﷺ.

[والثالثُ][1]: أي ما تفرّقوا في الإيمانِ بالرسلِ والكفرِ بهمْ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ / ٤٩٠ ـ أ/ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنهمْ على الحقِّ وأنهمْ رسلُ اللهِ مبعوثونَ إليهِمْ، فتفرّقوا، فآمَنوا بالبعضِ وكفَروا بالبعضِ ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾.

[والرابعُ][2]: أي ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنَّ الفرقةَ ضلالةٌ وهلاكٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ يَحْتَمِلُ حَسَداً بينَهمْ لِما قِيلَ: إنهمْ كانوا مؤمنينَ بهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ لما وجدوا بَعْثَهُ وصِفَتَهُ في كُتُبِهِمْ ظَنّاً منهمْ أنهُ سَيُبْعَثُ[3] منهمْ. فلمّا بُعِثَ مِنْ غيرِهِمْ حَسَدوهُ، وكَفَروا بهِ، واللهُ أعلمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي عُدْواناً وظُلْماً يكونُ في ما بَيْنَهُمْ ذلكَ التَّفَرُّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخيرِ العذابِ عنهمْ إلى وقْتٍ، وإلّا كانَتِ الكلمةُ منهُ في تَعْجيلِ العذابِ بهمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي إنَّ الذينَ أُعْطوا الكتابَ مِنْ بعدِ الرسلِ الذينَ ذَكَرَ ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ أخبرَ أنهمْ كانوا في شَكٍّ بما جاءَ بهِ الرسُلُ، لكنهمْ لم يُعذَروا في شَكِّهِمْ لِما تركوا النَّظَرَ و التَّفَكُّرَ في ذلكَ. ولو نَظَروا في ذلكَ وتَفَكَّروا فيهِ، لَوَقَعَ ذلكَ لهمْ، وبانَ الحقُّ، فلم يُعْذَروا في ذلكَ لأنهُ منهمْ كانَ ذلكَ الشَّكُّ والرَّيْبُ. ولو تَفَكَّروا، ونَظَروا لَتَجَلّى لهمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾:

عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ: [أنهُ قالَ][4] أي فبهذا القرآنِ الذي أُنْزِلَ إليكَ فادْعُ. وكذا قالَ قتادةُ: فبهذا القرآنِ فادْعُ. وقيلَ: فَلِذلكَ وَعَدَ أنْ يَنْزِلَ عليكَ، فادْعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي وإلى ذلكَ الكتابِ فادْعُ. وقيلَ: فإلى التوحيدِ الذي بُعِثَ الرسُلُ إلى الدعاءِ إليهِ فادْعُ، أي ادْعُ إلى التوحيدِ الذي لأجلِهِ بُعِثَ الرسُلُ، واللهُ أعلمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ دليلٌ على أنهُ كانَ قد سَبَقَ لهُ الأمْرُ بالاسْتِقامةِ.

ثم يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الاسْتِقامةِ التي أمَرَ بها، هو تبليغُ الرسالةِ إليهِمْ. ويَحْتَمِلُ العبادةَ لهُ والطاعةَ، ويَحْتَمِلُ الاسْتِقامةَ في التوحيدِ لهُ ودعاءَ الخَلْقِ إليهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ أي في تَرْكِ الدعاءِ إلى التوحيدِ؛ إذْ هو هَوَى الكَفَرَةِ أنْ يَتْرُكَ هو الدعاءَ إلى التوحيدِ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ نَهَى عنْ إجابتِهِ إيّاهُمْ في ما دَعَوا هُمْ؛ إذْ هَوَى الكَفَرَةِ أنْ يُجيبَهُمْ في ما دَعَوا هُمْ إليهِ مِنَ الشِّرْكِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أمَرَهُ بأنْ يُخْبِرَ بأنهُ مؤمِنٌ بجميعِ الكتبِ التي أنْزَلَ اللهُ لِيُوافِقوهُ في الإيمانِ بجميعِ الكتبِ [لأنَّ][5] أولئكَ الكَفَرَةَ كانوا يؤمنونَ ببعضِ الكتبِ، ويكفُرونَ ببعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ أي أنْ أكونَ عَدْلاً في ما بَيْنَكُمْ، أي يُسَوّي بينَهمْ، ثم نَعَتَ الذي كانَ يدعوهُمْ إلى [توحيدِهِ، بقولِهِ][6] وهو قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) و(٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: بعث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: التوحيد وهو قوله.

جنة السنة

أحدُهما: على المُنابَذةِ كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وإنما يُقالُ هذا بَعدَ ما تَبلُغُ[1] الحُجَجُ غايَتَها، والحِجاجُ نهايَتَهُ، فلم يَنجَعْ ذلكَ فيهِم، وأيِسَ[2] منهم.

والثاني: يقولُ: إنّا لا نُؤاخَذُ بأعمالِكُمْ، ولا أنتمْ تُؤاخَذونَ بأعمالِنا [كقولِهِ تعالى][3] ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا حُجَّةَ بَقِيَتْ في ما ادَّعَيتُ، ودَعَوتُكُمْ إليهِ إلّا وقد أقَمْتُها عليكُمْ، أي لم تَبْقَ حُجَّةٌ في ذلكَ إلّا وقد أقَمْتُها. ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا﴾ أي لا حُجَّةَ ولا خُصومةَ بَينَنا بَعدَ ما بَلَغَ الأمْرُ ما بَلَغَ.

ثم قالَ: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ في الآخِرَةِ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ أهلَ الكُفرِ قالوا للمؤمنينَ: إنَّ دينَكُمُ الإسلامَ إنما كانَ مادامَ مُحَمَّدٌ بينَ أظهُرِكُمْ، ومادامَ حيًّا، فإذا ماتَ فتَصيرونَ أنتمْ ومَن تَبِعَ الإسلامَ إلى دينِنا، أو كلامٌ نحوُهُ. فنَزَلَ لقولِهِمْ ذا قولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ اليهودَ قَدِموا على رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا للمؤمنينَ: إنَّ دينَنا أفضَلُ مِنْ دينِكُمْ لأنهُ دينُ الأنبياءِ ﷺ فنَزَلَتِ الآيةُ فيهِمْ بقولِهِمْ هذا:

أي دينُنا أفضَلُ لأنهُ دينُ الأنبياءِ، فقالَ: حُجَّتُهُمْ داحضةٌ، أي هكذا: إذا كانوا على دينِ الأنبياءِ، وهو الإسلامُ.

فأمّا إذا تَرَكوا دينَ الإسلامِ، وتَمَسَّكوا باليهوديةِ، واختاروها فلَيسَتْ بأفضَلَ، ولاشيءَ دونَها.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ قُريشاً قالوا: كيفَ نَعْبُدُ مَنْ لم نَرَهُ، ولم نُعايِنْهُ أنهُ مِمَّ هو؟ وكيفَ هو؟ أو كلامٌ نَحْوُهُ فنزلَتْ ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأنَّ التوحيدَ ومعرفةَ اللهِ تعالى إنما تكونُ بالدلائلِ والآياتِ في الدنيا عنْ غَيبٍ ليسَ بالمُعايَنَةِ والمُشاهَدَةِ ونزولِ الامْتِحانِ.

ثم يَحتَمِلُ[4] أنْ يكونَ نُزولُ الآيةِ لِقولٍ كانَ مِنْ أولئكَ على ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على غَيرِ ذلكَ، ومَعْناهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ في دَفْعِ آياتِ اللهِ ورَدِّها. ويَحتَمِلُ في دَفْعِ توحيدِ اللهِ وألوهيَّتِهِ ﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ بِحَقِّ الخِلْقَةِ أنهُ واحدٌ وأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ بما في كُتُبِهِمْ مِنَ الإيمانِ بها وبما فيها مِنْ نُعوتِ رسولِ اللهِ ﷺ وصفاتِهِ.

ثم أخبَرَ أنَّ حُجَّتَهُمْ داحضةٌ عندَ ربِّهِمْ[5] يومَ القيامةِ أي باطلةٌ غَيرُ مقبولةٍ أو[6] في الدنيا بما أقامَ اللهُ تعالى مِنْ حُجَجِ التوحيدِ، فأبطَلَ حُجَجَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بيانُ الجزاءِ لهمْ في الآخِرَةِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي للهِ عليهِمْ، أو ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لبعضِهِمْ على بعضٍ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي بالعَدْلِ في الأحكامِ[7]. جَعَلَ الميزانَ كِنايةً عنِ العَدْلِ، أي هو طريقُ العدلِ وسَبَبُهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وقولِهِ تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي ﴿صِدْقًا﴾ في ما فيهِ مِنَ النَّبَإِ والخَبَرِ ﴿وَعَدْلًا﴾ في الحُكْمِ في ما بَينَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: انتهت. (٢) في الأصل وم: وأيسوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: احتمل. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: هذا يخرج على هذين يحتمل أي حجتهم داحضة. (٦) في الأصل وم: ويحتمل أي حجتهم داحضة. (٧) في الأصل وم: الأرحام.

جنة السنة

[ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱلْمِيزَانَۗ﴾ أنْ يكونَ عَطفاً][1] على الكتابِ، وهو الظاهرُ، والمُرادُ منهُ العَدْلُ، فيَصيرُ تقديرُ الآيةِ، واللهُ اعلَمُ، الذي أنْزَلَ الكتابَ بالحقِّ، وأنْزَلَ العَدْلَ في ما بَينَ الخَلْقِ، أو أنْزَلَ العَدْلَ في الأحكامِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ عَطفاً على الحقِّ، فيَصيرَ تقديرُهُ: أنْزَلَ الكتابَ بالحقِّ وبالعَدْلِ في الأحكامِ وفي ما بَينَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى أحداً على العِلْمِ بوقتِ الساعةِ على ما ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ﴾ كانَ اسْتِعجالُهُمْ بها اسْتِهزاءً منهُمْ وتكذيباً / ٤٩٠ ـ ب/ لها[2] أنها كائنةٌ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُوعِدُهُمْ بها، ويُخبِرُ أنها كائنةٌ، فكانوا يَستَعجِلونَ اسْتِعجالَ تكذيبٍ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ لأنَّ لأهلِ[3] الإيمانِ والتوحيدِ زَلّاتٍ ومَساوِئَ، لم يَتَبيَّنْ لهمُ التجاوزُ عنها والعَفْوُ عنها، فيكونونَ[4] أبداً خائفينَ مُشْفِقينَ بتلكَ الزّلاتِ والمَساوِئِ وما يكونُ فيها مِنَ الأهوالِ والأفزاعِ. فأمّا أهلُ الكُفْرِ منهمْ، لا يؤمنونَ بها، ولا يُصَدِّقونَ أنها كائنةٌ، فلا يَخافونَها وما فيها مِنَ الأهوالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ قولُهُ: ﴿يُمَارُونَ﴾ يَحتَمِلُ يُجادِلونَ، ويُخاصِمونَ فيها أنها ليسَتْ بكائنةٍ، ويَحتَمِلُ ﴿يُمَارُونَ﴾ في الرِّيبَةِ، وهو الرَّيبُ والشَّكُّ، أي يَشُكّونَ فيها.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ قالَ: إنَّ الآيةَ، وإنْ جاءَتْ مَجيئاً عامّاً فهي خاصَّةٌ للمؤمنينَ: هو لطيفٌ أي بارٌّ بالمؤمنينَ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ الآيةَ للفريقَينِ جميعاً. للكافِرِ والمؤمنِ.

فأمّا في الآخِرَةِ فهو رحيمٌ بارٌّ بالمؤمنينَ خاصَّةً.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ [رحيماً بارّاً][5] بالفريقَينِ. أمّا في حقِّ المؤمنينَ فلا[6] شَكَّ أنهُ بارٌّ رحيمٌ بهمْ، وأمّا الكَفَرَةُ [فهو][7] بارٌّ في حقِّهِمْ حينَ[8] أخَّرَ عنهمُ العذابَ في الدنيا.

ثم في حقِّ المِحْنَةِ يجوزُ أنْ يوصفَ بالرحمةِ في الفريقَينِ جميعاً [على][9] ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: إنهُ وَصَفَ [نَفْسَهُ][10] بالحِلْمِ والرحمةِ، وقد أخبَرَ أنهُ يُعَذِّبُهُمْ في الآخِرَةِ. قيلَ: إنهُ وإنْ عَذَّبَهُمْ فانَّ ذلكَ لا يُخرِجُهُ عنِ الحِلْمِ والرحمةِ، لأنهُ لوتَرَكَ تعذيبَهُمْ يكونُ سفيهاً لأنهمْ قدِ اسْتَحَقّوا بالكُفْرِ التعذيبَ أبداً، وليسَ في التعذيبِ خُروجٌ عنِ الرحمةِ والحِلْمِ، بل في تَرْكِ التعذيبِ سَفَهٌ وخُروجٌ عنِ الحكمةِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ قد ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٦والعنكبوت: ٦٢] تأويلَهُ ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ لا يَقْوَى بشيءٍ ممّا أمَرَهُمْ بهِ، وامتَحَنَهُمْ، ولا يَعِزُّ بذلكَ، لأنهُ قويٌّ بذاتِهِ عزيزٌ بنفسِهِ.

والثاني: ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ في الانْتِقامِ والانْتِصارِ مِنْ أعدائِهِ لِأوليائِهِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا يَلْحَقُهُ الذُّلُّ في تَرْكِ الطاعةِ والائْتِمارِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قوله تعالى يحتمل أن يكون. (٢) في الأصل وم: لهم. (٣) في الأصل وم: أهل. (٤) في الأصل وم: فيكون. (٥) في الأصل وم: رحيم بار. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧)ساقطة من الأصل وم. (٨)في الأصل وم: حين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى الدنيا مَزارِعَ أهلِها، ما زرعوا فيها حَصَدوا ذلكَ في الآخِرَةِ؛ إنْ زَرَعوا خيراً حَسَناً حَصَدوا خيراً ونَعيماً في الآخِرَةِ، وإنْ زَرَعوا شَرًّا وسُوءاً حَصَدوا في الآخِرَةِ شَرًّا وعذاباً دائماً.

وكذلكَ صَيَّرَها مَتجَرةً يَتجُرونَ فيها، فإنْ تَجَرُوا خيراً وحَسَناً رَبِحوا في الآخرةِ، وإنْ تَجَرُوا شَرًّا وسُوءاً خَسِروا في الآخِرَةِ.

وكذلكَ صَيَّرَها مَسلَكاً إلى الآخِرَةِ، والآخِرَةَ غايَةً لها، فإنْ سَلَكوا سبيلَ الخَيرِ وما أُمِروا بِهِ أفْضَى بهِمْ ذلكَ إلى الخَيرِ والنعيمِ الدائمِ والسرورِ، وإنْ سَلَكوا سَبيلَ الشَّرِّ وما نُهوا عنهُ أفضَى بهِمْ إلى العذابِ الدائمِ والحُزنِ الدائمِ [وهو][1] ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ[2] مِنَ القرآنِ كقولِهِ[3] تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٧] وقولِهِ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الآية [البقرة: ١٦ و١٧٥] وقولِهِ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦] وقولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية [الإسراء: ١٨] ونَحْوُ ذلكَ كثيرٌ.

على هذا بُنِيَ أمرُ الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي مَنْ كانَ يُريدُ بِمَحاسِنِهِ في الدنيا وخَيراتِهِ ثوابَ الآخِرَةِ نَزِدْ لهُ في الدنيا والآخِرَةِ: أمّا في الدنيا فهو[4] التوفيقُ على الطاعاتِ والزيادةُ لهُ والنَّماءُ، وأمّا في الآخِرَةِ فالنعيمُ الدائمُ والسرورُ الدائمُ.

والثاني: أي مَنْ كانَ عَمِلَ للآخِرَةِ، وسَعَى لها نَزِدْ لهُ ما ذَكَرَ مِنَ المَحاسِنِ. وتكونُ الإرادةُ ههنا صِفةً لكلِّ فاعلٍ كقولِهِ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]وهي لا تكونُ بدونِ الفِعلِ. فكانَ ذكرُها ذِكراً للفعلِ ضرورةً، فكانَ المُرادُ منها الإرادةَ مع الفِعلِ. فلذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: مَنْ كانَ يريدُ مَحاسِنَ الدنيا وسَعَتَها نُؤتِهِ منها، ونُوَسِّعْ عليهِ.

والثاني: مَنْ كانَ يريدُ الدنيا، أي مَنْ عَمِلَ للدنيا، وسَعَى لها نُؤتِهِ منها وما عَمِلَ لها ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ قال بعضُ أهلِ التأويلِ: أم لهمْ آلهةٌ دوني شَرَعوا لهمْ، أي سَنُّوا ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يَعنونَ بالشركاءِ الأصنامَ التي عَبَدوها.

لكنْ عَلِموا أنَّ الأصنامَ لم يَشرَعوا لهمْ مِنَ الدينِ شيئاً، إلّا أنْ يُقالَ: إنهُ أضافَ ذلكَ إلى الأصنامِ لِما هُمْ شَرَعوا لأنفسِهِمْ عبادَتَها، فأُضيفَ إليها ذلكَ.

وهو كقولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وإنهنَّ لم يُضلِلْنَ أحداً، لكنهُ أضافَ إليهنَّ الإضلالَ لِما بِهِنَّ ضَلّوا، فأضافَ إليهنَّ الإضلالَ على التَّسبيبِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحتَمِلُ ذلكَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ غيرُهُ أولَى بذلكَ، وهو أنَّ القادةَ والرؤساءَ هُمُ الذينَ أضَلُّوا الأتباعَ، وشَرَعوا ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي ما لم يأمُرْ بِهِ اللهُ. وهُمْ كذلكَ كانوا يَفعَلونَ: يَشرَعونَ للأتباعِ ديناً مِنْ ذاتِ أنفسِهِمْ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، فَيَتبَعونَهم[5] بهِ، والرسلُ ﷺ قد أتَوا بالدينِ بالحُجَجِ والبراهينِ مِنَ اللهِ تعالى، فلم يَتَّبِعوهُمْ، ويقولونَ: إنهمْ بَشَرٌ، ويَتَّبِعونَ بَشَراً بلا حُجَّةٍ ولا برهانٍ، يَذكُرُ سَفَهَهُمْ في ما ذَكَرَ، فكانَ المُرادُ مِنَ الشركاءِ، هُمُ الرؤساءُ والقادةُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي عَمِلَ للآخِرَةِ، يقالُ: فلانٌ يَحرُثُ للدنيا، أي يَعمَلُ لها، ويَجمَعُ المالَ. ومنهُ قولُ ابنِ عُمَرَ ﷺ: (احرُثْ لِدُنياكَ كأنكَ تعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخرتِكَ كأنكَ تموتُ غداً) ومنهُ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: آي. (٣) في الأصل وم: من قوله. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيتبعون.

جنة السنة

سُمِّيَ الرجلُ حارثاً، و﴿شَرَعُوا لَهُم﴾ أي ابتَدعوا، وسَنُّوا، كذلكَ في قولِهِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣] أي ابتَدَعَ، وسَنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَحتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: الحُكْمُ، كأنهُ يقولُ: لولا أنَّ اللهَ تعالى حَكَمَ في هذهِ الآيةِ بتأخيرِ العذابِ إلى يومِ القيامةِ، وهو ما ذَكَرَ أنهُ بَعَثَ رسولَهُ ﷺ رحمةً لهمْ بقولِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والثاني: الفَصْلُ البَيانُ، تأويلُهُ: لولا ما وَعَدَ في الدنيا أنهُ يَفْصِلُ بينهُمْ، ويُبيِّنُ، في الآخِرةِ بما ذَكَرَ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨] ونَحْوِهِ/ ٤٩١ ـ أ/.

وقيلَ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاءُ السابقُ أنَّ الجزاءَ يومَ القيامةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ذَكَرَ إشفاقَ الكَفَرةِ والظَّلَمَةِ وخوفَهُمْ في الآخِرةِ وإشفاقَ المؤمنِينَ وخوفَهُمْ في الدنيا. فمَنْ خافَ عقوبَتَهُ في الدنيا أمَّنَهُ اللهُ مِنْ خوفِ الآخرةِ، ومَنِ استَهزأَ بعذابِ اللهِ في الدنيا خَوَّفَهُ في الآخِرةِ.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ ﷺ: «لا يَجمَعُ اللهُ على أحدٍ خوفَينِ خَوفَ الدنيا وخَوفَ الآخِرةِ؛ مَنْ خافَهُ في الدنيا أمِنَ في الآخِرةِ، ومَنْ لم يَخَفْ في الدنيا خافَ في الآخِرةِ» [بنحوه ابن حبان ٦٤٠] ثم أخبَرَ ما للمؤمنِينَ في الآخِرةِ، وهو قولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذَكَرَ ما لكلِّ فريقٍ بما كَسَبوا في الدنيا.

قالَ القُتَبيُّ وأبو عوسَجةَ: الروضةُ البستانُ، وقالَ الكسائيُّ: الروضةُ العُشْبُ حولَ الغَرْزِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أخبَرَ أنَّ ما يعطي لهمْ في الآخِرةِ، [هو الفَضلُ][(1)] منهُ لا أنهمْ يَستَوجِبونَ ذلكَ، وسَمَّاهُ كبيراً لأنهُ دائمٌ، لا يَنقَطِعُ أبداً.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قولُهُ: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ أي الذي ذَكَرَ مِنَ الفَضلِ الكبيرِ، وَوَعَدَ أنهُ يُعطيهِمْ، يُبَشِّرُ اللهُ تعالى بهِ مَنْ ذَكَرَ مِنْ عبادِهِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: قالتِ الأنصارُ: إنا فَعَلْنا، وفَعَلْنا كذا، فكأنهمْ افتَخَروا، وقالوا: لنا الفَضلُ عليكُمْ، فَبَلَغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ فأتاهُمْ، فقالَ: «يا مَعْشَرَ الأنصارِ ألَمْ تكونوا أذِلَّةً، فأعزَّكُمُ اللهُ تعالى؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: ألم تكونوا فُقَراءَ فأغناكُمُ اللهُ تعالى؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ. قالَ: أفلا تُجيبونَني؟ قالوا: ما تقولُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ألا تقولونَ: ألم يُخرِجْكَ قومُكَ، فآويناكَ؟ أوَلَمْ يُكَذِّبوكَ فَلَصَدَّقْناكَ؟ أوَلم يَخذِلوكَ، فنَصَرناكَ؟ فمازالَ يقولُ حتى جَثَوا على الرُّكَبِ، وقالوا: أموالُنا وما في أيدينا للهِ ورسولِهِ، الفَضْلُ لرسولِهِ، فنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾» [أحمد: ٣/ ٥٧]

لكنْ ذُكِرَ في الخَبَرِ مالا يليقُ[(2)] بالأنصارِ: أنْ يَظُنّوا ذلكَ برسولِ اللهِ، وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ فَخرِهِمْ وقولِهِمْ: لنا الفضلُ عليكُمْ. هذا لا يُحتَمَلُ منهمْ. فَدَلَّ أنَّ الحديثَ غيرُ صحيحٍ، أوِ الزيادةَ التي لا تُحتَمَلُ، واللهُ أعلَمُ.

وفي بعضِ الأخبارِ أنَّ الأنصارَ رضي الله عنهم قالوا: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تَنوبُهُ النوائبُ مِنَ القرابةِ وغيرِهِمْ، فتَعالَوا حتى نَجمَعَ لهُ شيئاً مِنْ أموالِنا شيئاً فَنَستَعينَ بهِ على ما ينوبُهُ مِنَ الحقوقِ، ففَعلوا، ثم أتَوا بهِ، فقالوا: إنكَ قد تَنوبُكَ نوائبُ وحقوقٌ، وليسَتْ عندَكَ لها سَعَةٌ، فأتيناكَ بشيءٍ تَستَعينُ بهِ على ما يَنوبُكَ مِنَ النَّفَقةِ في أهلِكَ والنازلِينَ بكَ، فنَزَلَ قولُهُ: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

[ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾][(3)] على وجوهٍ:

---

(١) في الأصل وم: والفضل. (٢) ادرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحَدُها: يقولُ: لا أسألُكُمْ على ما أُبَلِّغُكُمْ مِنَ الرسالةِ، وأدعوكُم إلى الإيمانِ باللهِ تعالى ربي إلّا صِلَةَ أرحامِكُمْ وقرابَتِكُمْ، أي لا أسألُكُمْ على تَبليغِ الرسالةِ إليكُمْ [وما][1] أدعوكُمْ إليهِ أجراً إلّا أنْ تَصِلوا قراباتِكُمْ وأرحامَكُم. فَتَدُلُّ الآيةُ على وُجوبِ صِلَةِ الأرحامِ.

[والثاني][2]: أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا ردًّا لقولِ أولئكَ الكَفَرَةِ حينَ[3] قالوا: إنّ محمداً جاءَ بِقَطعِ الأرحامِ وتفريقِ القُرُباتِ حتى فَرَّقَ بَينَ [مَنْ][4] أجابَهُ إلى ما دَعاهُ إليهِ وبَينَ مَنْ لم يُجِبْهُ مِنَ الوالدِ والوَلَدِ والزّوجِ والزوجةِ ونَحْوِ ذلكَ. فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولا أدعوكمْ إلى قَطعِ الأرحامِ والقراباتِ، بل ما أطلبُ منكمْ إلّا صلةَ الأرحامِ بما دعوتُكُمْ إليهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: لا أسألُكُمْ على ما أدعوكُمْ إليهِ أجراً، أو لا أقْبَلُهُ منكُمْ إنْ أعطيتُموني إلّا أنْ تَصِلوني بحقِّ القرابةِ والرحمِ التي بيني وبينَكُمْ، فأقْبَلَهُ منكُمْ، وقد كانَ بَينَهُ وبينَهُمْ قَراباتٌ ورَحِمٌ.

ويَحتَمِلُ ما قالَ الحَسَنُ[5]: واللهِ ما كانَ نَبِيُّ اللهِ تعالى يَسألُ على هذا القرآنِ أجراً، ولكنهُ أَمَرَ أنْ يَتقرَّبوا إلى اللهِ تعالى بطاعتِهِ وحبِّ كتابِهِ. فكانَ مَعْنى الآيةِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إلّا التَّقرُّبَ إلى اللهِ تعالى والتَّوَدُّدَ بالعملِ الصالحِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلّا أنْ تَوَدّوني لأجلِ قرابَتي كما تَوَدُّونَ لِقَرابَتِكُمْ، وتُواصِلونَ بها. ليسَ هذا الذي جِئْتُ بهِ يَقطَعُ ذلكَ عني، ولستُ أبْتَغي على الذي جِئْتُ بهِ أجراً آخُذُهُ منكُمْ على ذلكَ.

وقالَ قتادةُ: إنّ اللهَ تعالى أمَرَ محمداً ﷺ ألّا يَسألَ على هذا القرآنِ والتَّبليغِ ﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلّا أنْ يَصِلوا ما بَينَهُ وبَينَهُمْ مِنَ القرابةِ، وكلُّ بُطونِ قريشٍ بَينَهُ وبَينَهُمْ قرابةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: إلّا أنْ تَوَدُّوا قرابَتي.

وقالَ بعضُهُمْ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنْ لم تَتَّبِعوني إلى ما أدعوكُمْ إليهِ، وآمُرُكُمْ به، فاحفَظوني في قرابتي.

وأصلُهُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ هو كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الاقْتِرافُ الاكْتِسابُ والمُقارفةُ المُعاشَرَةُ، وقُرِفَ فلانٌ، فهو مَقروفٌ أي اتُّهِمَ بشيءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قولُهُ: ﴿غَفُورٌ﴾ أي يَغفِرُ لهم، وإنْ لم يُحقِّقوا التوبةَ والرجوعَ سِرًّا وعَلانيَةً، ولم يَستَوجِبوا الغُفرانَ والعَفوَ، وقولُهُ: ﴿شَكُورٌ﴾ أي يُشْكَرُ، ويَقْبَلُ منهمُ الشكرَ، وإنْ لم يُحقِّقوا لهُ الشكرَ، ولم يَستَحِقُّوا قبولَهُ فَضلاً منهُ ونعمةً، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿غَفُورٌ﴾ للذنوبِ ﴿شَكُورٌ﴾ للحسناتِ، يُضاعِفُها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي بل يقولونَ: افْتَرى محمدٌ على اللهِ كَذِباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بالصبرِ حتى لا تَجِدَ مَشَقَّةَ اسْتِهزائِهِمْ بكَ ولا غُصَّةَ بتكذيبِهِمْ إياكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي يُنْسِكَ، فلا تُبَلِّغْهُ إليهِمْ، فلا يَستَهزِئوا بكَ، ولا يُكَذِّبوكَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

وعندَنا أنهُ يَخْرُجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: فقال.

أحدُهما: ما ذكَرْنا بَدْءاً: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بالصبرِ حتى لا تَجِدَ مَشقَّةَ الاستِهزاءِ ولا غُصّةَ التكذيبِ.

والثاني: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ كما خَتَمَ على قلوبِ أولئكَ الكفَرةِ حتى لا تفْهَمَ، ولا تَعْقِلَ الحقَّ مِنَ الباطلِ كما فَعَلَ بأولئكَ.

يُذَكِّرُهُ إحسانَهُ إليهِ وفَضْلَهُ بما أكْرَمَهُ بأنواعِ الكراماتِ التي أكْرَمَهُ بها لِيَشْكُرَ ربَّهُ على ذلكَ، ويُرْحَمَ على أولئكَ بما خَتَمَ على قلوبِهِمْ وما يَنْزِلُ بهِمْ مِنْ أنواعِ العذابِ.

وعلى ذلكَ بَلَغَ أمْرُهُ ﷺ مِنَ الرحمةِ والشَّفَقةِ عليهِمْ ما ذكَرَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ الآية [الكهف:٦] وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨] كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ إشفاقاً عليهِمْ ورحمةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: أي يُظْهِرُ، ويُظفِّرُ أهلَ الحقِّ على أهلِ الباطلِ، ويَنْصُرُهمْ، حتى يَصيرَ أهلُ الحقِّ ظاهرينَ قاهرينَ على أهلِ الباطلِ. فذلكَ مَحْوُ الباطلِ وإحقاقُ الحقِّ.

والثاني: يُحِقُّ الحقَّ بالحُجَجِ والبراهينِ حتى يَعْرِفَ كلُّ أحدٍ / ٤٩١ ـ ب/ الحقَّ مِنَ الباطلِ بالحُجَجِ التي أقامَها إذا تأمَّلَ فيها حقَّ التأمُّلِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي براهينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي عليمٌ بما في الصدورِ، ولكنَّ قولَهُ: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عبارةٌ عمَّنْ لهُ الصدورُ عنِ الرأيِ والتدبيرِ، وهمُ البَشَرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّـَٔاتِ﴾ قد ذكَرْنا أنهُ لا أحدَ يُحقِّقُ التوبةَ لأنَّ تحقيقَ التوبةِ هو أنْ يَهْرُبَ، ويَفِرَّ ممّا استوجَبَ بهِ النارَ كهَرَبِهِ مِنَ النارِ لو كانَ فيها وفِرارِهِ منها لو وَجَدَ مَهْرَباً، ولا أحَدَ يَهْرُبُ مِنَ الذنبِ ويَفِرُّ منهُ كهَرَبِهِ وفِرارِهِ مِنَ النارِ لو كانَ فيها. لكنَّ اللهَ بفضلِهِ وكَرَمِهِ يَقْبَلُ ذلكَ منهُ، وإنْ لم تكُنِ التوبةُ منهُ على الحدِّ الذي ذكَرْنا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي يَقْبَلُ حسناتِهِمْ وخيراتِهِمْ ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يُكَفِّرُ عن سيِّئاتِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف:١٦] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا وعيدٌ؛ يُخبِرُ رسولَهُ ﷺ أنهُ يعلَمُ ما يَفْعَلونَ سِرًّا وعلانيةً وأنهُ عن علمٍ بما يكونُ منهمُ امتَحَنَهُمْ، وأمَرَهُمْ، ونَهاهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يجيبُ الذينَ آمنوا بما يَدعونَ، ويَسألونَ ربَّهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] أي يُجيبُهُمْ على الذي ذُكِرَ في الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يَزيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [وهو قولُهُ ﷺ:][(1)] «ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بَشَرٍ[(2)]» [البخاري ٣٢٤٤ ومسلم ٢٨٢٤]، وهي الجنةُ، وذلكَ زيادةٌ مِنْ فَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ في حقِّ الكفَرةِ: ﴿وَالْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الآيةَ نزلَتْ في أهلِ الصُّفَّةِ، تَمَنَّوا أنْ تكونَ لهمُ الدنيا. فإنْ كانَتْ فيهِمْ فكأنَّهُ طَيَّبَ عليهِمُ الضيقَ والقَتْرَ.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) في الأصل وم: امرئ مسلم.

وقال بعضُهُمْ: ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي يَتَقَلَّبونَ مِنْ لِباسٍ إلى لِباسٍ ومِنْ مَرْكَبٍ إلى مَرْكَبٍ. ولكنْ ليسَ في ذلكَ كثيرُ بَغْيٍ، فلا يَصِحُّ صَرْفُ التأويلِ إليهِ.

ثم عندنا يُخرَّجُ ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ مُخرَجَ الإمْتِنانِ والإفضالِ؛ ولهُ أنْ يَبْسُطَ عليهِمْ، وإنْ عَلِمَ منهمُ البَغْيَ. ألاَ تَرَى أنهُ لو لم يُوَسِّعْ على فرعَونَ [لكانَ][1] لا يَدَّعي الألوهيَّةَ؟ لكنهُ مَنَّ على بعضِ المؤمنينَ، فضَيَّقَ عليهِمْ حتى لا يَبْغُوا، فَيُلْزِمَهُمْ بذلكَ القيامَ بِشُكْرِ ما مَنَّ عليهِمْ، وأنْعَمَ بالتَّضييقِ حتى لا يَبْغُوا.

وكذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ: مَنْعُ اللهِ عطاءٌ.

وفي ما ذَكَرْنا جوابُ عمَّنْ تَعلَّقَ بظاهرِ الآيةِ على أنَّ الأصلَحَ [واجبُ حينَ][2] قالَ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ بَيَّنَ أنَّ الأصلَحَ ألاَّ يَبْسُطَ لأنّا نقولُ: قد بَسَطَ لكثيرٍ[3] مِنَ الفراعنةِ والكَفَرَةِ، فَبَغَوا. لكنْ ذَكَرَ هذا لِبيانِ المِنَّةِ والإنعامِ بالتَّقتيرِ والتَّضييقِ في حقِّ البعضِ حتى لا يَبْغُوا، واللهُ أعلَمُ.

ثم البَغْيُ، هو التَّعدِّي على حدِّ اللهِ الذي حَدَّ لهمْ، والمجاوَزَةُ عنهُ. ولكنْ لا نُفَسِّرُ الحَدَّ[4] الذي يُسَمَّى التَّعدِّيَ عنهُ بَغْياً لِما لا يُعْلَمُ ما هو.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أنهُ لو بَسَطَ عليهِمْ، ووسَّعَ، لَزِمَهُمُ الشُّكْرُ، والبَسْطُ وكَثْرَةُ المالِ تَشْغَلُهُمْ، وتَمْنَعُهُمْ عنِ القيامِ بِشُكْرِهِ وما أوجَبَ عليهِمْ مِنَ الفرائضِ والأحكامِ. ولكنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ما لا يَشْغَلُهُمْ، ولا يَمْنَعُهُمْ عنِ القيامِ بالذي يُلْزِمُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ قد تَقَدَّمَ تأويلُهُ. ثم حاصلُ [تأويلِ الآيةِ][5] يرجعُ إلى [وجهَينِ]:

أحَدُهُما][6]: إلى أهلِ الكُفرِ، إنهُ لو وَسَّعَ عليهِمْ، وبَسَطَ، لَبَغَوا في الأرضِ، أي صاروا كُلُّهُمْ أهلَ كُفرٍ وضَلالٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣].

والثاني: يَتَوَجَّهُ إلى خاصٍّ مِنَ المؤمنينَ لِما عَلِمَ منهمْ أنهُ لو بَسَطَ عليهِمْ، وَوَسَّعَ لَبَغَوا في الأرضِ. فَضَيَّقَ عليهِمْ، وقَتَّرَ، امْتِناناً منهُ وفَضْلاً لئلا يَبْغُوا، وهو ما ذَكَرْنا في أحدِ تأويلِ[7] قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أنهُ إنْ كانَ على حقيقةٍ، لهُ خَلْقُهُمْ، فهو في الذينَ [عَلِمَ][8] منهمْ أنهُمْ يَعْبُدونَهُ، لا مَحالَةَ يَعْبُدونَهُ على ما ذَكَرْنا.

فأمّا الذينَ يَعْلَمُ أنهمْ لا يَعْبُدونَهُ فلا[9] يَحْتَمِلُ أنْ يَخْلُقَهَمْ [للعبادةِ لكنْ يَخْلُقُهُمْ][10] لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ يرجعُ إلى قومٍ خاصٍّ، يَعْلَمُ اللهُ تعالى منهمْ أنهُ لو بَسَطَ عليهِمْ، ووسَّعَ عليهِمْ لَبَغَوا في الأرضِ، فَيُضَيِّقُ عليهِمْ فَضْلاً منهُ ومِنَّةً، فَيُلْزِمُهُمُ القيامَ بِشُكْرِ ذلكَ لهُ، و اللهُ أعلَمُ.

أو يَرْجِعُ ذلكَ إلى جملةِ الخَلْقِ مِنْ مؤمنٍ وكافرٍ [يَعْلَمُ اللهُ تعالى][11] أنهُ لو وَسَّعَ، وبَسَطَ على الكلِّ لَصاروا جميعاً مُلوكاً. ومِنْ عادةِ الملوكِ وطباعِهِمُ البَغْيُ والغَلَبَةُ على مَنْ نازَعَهُمْ في مُلْكِهِمْ ومَمْلَكَتِهِمْ. وفي ذلكَ التَّفاني والفَسادُ، فوسَّعَ على بعضِهِمْ، وبَسَطَ، وضَيَّقَ على بَعضٍ، لئلا يَبْغِيَ بَعضٌ على بَعضٍ؛ إذْ في ذلكَ تَفانٍ وفسادٌ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي مِنْ رحمتِهِ أو مِنَ الأصنامِ التي عَبَدوها رجاءَ الغَوثِ والشفاعةِ لهمْ والزُّلْفَى عندَ اللهِ، قَنَطوا ما رَجَوا منها كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: واجباً حيث. (٣) في الأصل وم: كثيرا. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٥) في الأصل وم: تأويلها. (٦) في الأصل وم: وجوه ثلاثة أحدها. (٧) في الأصل وم: تأويله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم سَمَّى المَطَرَ رحمةً أي غَيثاً لِيُعْلَمَ أنَّ لهُ أنْ يُمسِكَ عنهم، ويُمسِكَهُمْ على الحالِ الأولَى في القَحْطِ والضيقِ؛ إذْ لو كانَ عليهِ إرسالُهُ، ولم يكُنْ لهُ إمساكُهُ، لم يُسَمِّهِ رحمةً ولا غَوثاً لأنَّ مَنْ عليهِ فِعْلُ شيءٍ لم يُوصَفْ بالفضلِ والرحمةِ، فهو على المعتزلةِ في الأصْلَحِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿الْوَلِيُّ﴾ هو الربُّ ﴿الْحَمِيدُ﴾ هو المُستَحِقُّ للحمدِ، أوِ ﴿الْوَلِيُّ﴾ هو الحافظُ لهمْ ووَلِيُّ كلِّ نعمةٍ أعطاهُمْ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ يَحتَمِلُ مِنْ آياتِ ربوبِيَّتِهِ وتوحيدِهِ خَلْقُ السمواتِ والأرضِ وما ذُكِرَ، أو مِنْ آياتِ حكمتِهِ وعلمِهِ وتدبيرِهِ خَلْقُ ما ذُكِرَ، أو مِنْ آياتِ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ ما ذُكِرَ، أو مِنْ آياتِ إحسانِهِ ونِعَمِهِ وأياديهِ ما ذُكِرَ . وقد بيَّنَّا وَجْهَ كلِّ ذلكَ ودلالتَهُ على قَدْرِ فَهْمِنا منهُ في ما تقدَّمَ.

ثم اختَلَفوا في قولِهِ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي في الأرضِ خاصةً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ وهي اسْمٌ لِما يَدِبُّ؟ وأهلُ السماءِ ملائكةٌ، ولهمُ الطيرانُ دونَ الدَّبيبِ، وهو كقولِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنهما يَخْرُجُ مِنْ أحدِهما.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِيهِمَا﴾ أي في السماءِ / ٤٩٢ ـ أ/ الملائكةُ، وفي الأرضِ الدوابُّ، لكنهُ سَمَّى أهلَ السماءِ باسْمِ ما في الأرضِ مِنَ الدوابِّ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: ذِكْرُ شيئَيْنِ باسْمِ أحدِهما كقولِهِ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] والكنايةُ ترجِعُ إلى الصلاةِ لَفظاً. والمُرادُ ما سَبَقَ مِنَ الصبرِ والصلاةِ. وكذا قولُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ كَنَّى عنِ التجارةِ وأرادَ كلَيهِما، ونَحْوُ ذلكَ. هذا ثم قولُهُ ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ قالوا: أي يَنشُرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ يَحتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ جَمْعِهِمْ بَعْثَهُمْ وإحياءَهُم ﴿قَدِيرٌ﴾ على ذلكَ كما هو قديرٌ على ما ذُكِرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وما ذُكِرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ يَحتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ المُصيبةِ التي تُصيبُهُمُ المُصيبةُ التي تَعُمُّ الخَلْقَ جميعاً مِمَّنْ كانَ منهمُ الزَّلَّةُ وما ذُكِرَ مِنْ كَسْبِ اليَدِ ومِمَّنْ لم يكُنْ منهم كسبُ اليدِ مِنَ الزَّلَّةِ والمَعْصِيَةِ مِنْ نَحْوِ الجَدْبِ والقَحْطِ وغَلَبَةِ الأعداءِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ التي تَعُمُّ الخلائقَ مِمَّنْ كانَ منهمُ الجِنايةُ ومِمَّنْ لم يكُنْ مِنَ الصِّغارِ والدوابِّ والأبرارِ والأخيارِ.

ويكونُ ما أصابَ مِمَّنْ كانَ ذلكَ منهُ، واستَوجَبَهُ تَنْبيهاً لهمْ ومَوعِظَةً أو كَفَّارةً لِما كانَ منهم مِنْ كَسْبِ اليدِ وما أصابَ ذلكَ مِمَّنْ لم يكُنْ منهم ذلكَ مِنَ الصِّغارِ والأخيارِ، فذلكَ في الحكمةِ. وهو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: يُصيبُ ذلكَ لهمْ ابتِلاءً بشيءٍ سَبَقَ منهم لِيُعْلَمَ أنَّ ما يُعطيهِمْ مِنَ السلامةِ والصحةِ والحَسَناتِ والخَيراتِ كانَ فضلاً منهُ، وهمْ عبيدُهُ وإماؤهُ ومُلْكُهُ، إنْ شاءَ أهْلَكَهُمْ، وإنْ شاءَ أبقاهُمْ.

[والثاني][1]: يَفْعَلُ بهمْ ما ذُكِرَ، وإنْ لم يَسْبِقْ منهمْ ما ذُكِرَ مِنْ كَسْبِ اليدِ والزَّلَّةِ لِعِوَضٍ، يُعَوِّضُهُمْ في الآخِرَةِ.

وكيفَ ما كانَ فهو غيرُ خارجٍ عنِ الحكمةِ، [ولا يُلامُ للتعويضِ لأنهُ][2] جائزٌ مُمْكِنٌ، لكنْ ليسَ بواجبٍ، لا مَحالةَ، التَّعْويضُ خِلافاً للمعتزلةِ فإنهُ[3] عِندَهُمْ واجبٌ، وباللهِ العِصْمةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ المصيبةِ التي تصيبُهُمْ بِكَسْبِ اليَدِ أنْ يريدَ كلًّا في نفسِهِ، يُصيبُهُ بما سَبَقَ منهُ مِنْ شيءٍ ارْتَكَبَهُ، واكْتَسَبَهُ. فالسبيلُ فيهِ أنْ ينظُرَ كلٌّ في نفسِهِ ما الذي سَبَقَ منهُ حتى أصابَهُ ما أصابَ، فَيُراجِعَ نفسَهُ عنْ ذلكَ، ويتوبَ إلى اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: أو أن. (٢) في الأصل وم: والا يلام للتعويض. (٣) في الأصل وم: فإن.

جنة السنة

ثم يُخرِجُ ذلكَ لهمْ إمّا تنبيهاً وزجْراً عنِ المُعاوَدَةِ إلى مِثْلِهِ وإمّا تكفيراً وتمْحيصاً لِما كانَ منهمْ، ولَزِمَهُمُ الشكرُ على ذلكَ.

وقد رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يقولُ: «لا يُصيبُ ابنَ آدمَ خَدْشُ عودٍ ولا عَثْرَةُ قدمٍ ولا اخْتِلاجُ عِرْقٍ إلّا بذنبٍ، وما يَعفو اللهُ عنهُ أكثرُ» [السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٣٥٤] وعلى قولِ المعتزلةِ: ليسَ اللهُ تعالى في إعطائهِمُ الخَيراتِ والحَسناتِ والسَّعَةَ مُحسِناً مُفضِلاً مُنعِماً لأنَّ مَنْ أخذَ شيئاً بِعوَضٍ لا يوصَفُ بالإفضالِ والإنعامِ [بوجهَينِ:

أحَدُهما: لقد][1] سَمّى نفسَهُ بذلكَ مُحسِناً مُنعِماً فيكونُ ما قالوا خلافَ ذلكَ.

والثاني: إنْ كانَ يُعوِّضُ على ما يقولونَ يَجِبُ أنْ يُعوِّضَهُمْ عِوَضاً، يَرْضَونَ بذلكَ العِوَضِ، ويكونُ ذلكَ العِوَضُ مِثْلَ ما أخَذَ منهمْ، وهمْ لا يَشْتَرِطونَ ذلكَ.

دَلَّ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ لهمْ ما ذَكَرْنا.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ الخَلْقَ كلَّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ولكلِّ ذي مُلْكٍ أنْ يَفْعَلَ في مُلْكِهِ ما شاءَ، لا لائِمَةَ عليهِ إنْ كانَ لهُ حقيقةُ المُلْكِ. فَعَلى ذلكَ اللهُ ﷻ إذ لهُ حقيقةُ ملكِ الأشياءِ لَهُ[2] أنْ يَفْعَلَ ما يشاءُ بلا عِوَضٍ ولا بَدَلٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ ليسَ أحدٌ يصيبُهُ شيءٌ مِنَ الشدةِ والبلاءِ إلّا ويكونُ في ذلكَ عَفْوٌ منهُ، جلَّ جلالُهُ، لأنهُ ما مِنْ ألمٍ إلّا ويُتَوَهَّمُ زيادةُ الألمِ في ذلكَ. فيكونُ منعُ تلكَ الزيادةِ عنهُ عَفْواً منهُ وفَضْلاً.

وكذلكَ[3] هذا في هلاكِ كلِّ شيءٍ، مِنْ حقوقِهِ ما يَقِلُّ، ويَكثُرُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ أي لا بكلِّ زَلَّةٍ يكونُ مُؤاخِذَهُمْ[4] بها، بل يؤاخِذُهُمْ ببعضٍ، ويَتَجاوَزُ عنهمْ [في بعضٍ][5] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقولُ: لا تَقْدِرونَ الهَرَبَ ممّا يُريدُ أنْ يُصيبَكُمْ بِزَلّاتِكُمْ وما يريدُ أنْ يَفْعَلَ بكمْ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَنْصُرُكُمْ، ويَمْنَعُكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ تَحتَمِلُ آياتُهُ ما ذَكَرْنا مِنْ آياتِ وحدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ وآياتِ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ وآياتِ عِلْمِهِ وتدبيرِهِ وحكمتِهِ وآياتِ نِعَمِهِ وإحسانِهِ، وهو ما جَعَلَ اللهُ ﷻ في سِرِّيَّةِ الخَشَبِ في السُّفُنِ مَعْنًى لو اجْتَمَعَ حكماءُ البَشَرِ لِيَعْرِفوا ذلكَ المَعْنَى واللُّطْفَ الذي جَعَلَ في الخَشَبِ ما قَدَروا على [إدراكِ ذلكَ][6] المَعْنَى واللُّطْفِ المجعولِ فيها وما جَعَلَ مِنْ طَبْعِها السكونَ على وجهِ الماءِ والقَرارَ عليهِ معَ ثِقَلِها وغِلَظِها، وإنْ كانَ بدونِ ذلكَ الثِّقَلِ والعِظَمِ بكثيرٍ مِنْ غيرِ جوهرِ الخشبِ ممّا يَتَسَرَّبُ في الأرضِ، ويَنْحَدِرُ. وكذلكَ ممّا يُحْمَلُ في السفنِ مِنَ الأحمالِ العظيمةِ الثقيلةِ ممّا طَبْعُ كلٍّ مِنْ ذلكَ الحِمْلِ أنْ يَتَسَرَّبَ، ويَنْحَدِرَ في الماءِ، لو لم تكُنِ السفُنُ وما ذُكِرَ مِنَ الخَشَبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: كالجبالِ في البحارِ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: الأعلامُ الجبالُ، واحِدُها عَلَمٌ. ومَعْنَى هذا الكلامِ هو ما ذُكِرَ مِنْ مَيْدِ الأرضِ بأهلِها والتَّسَرُّبِ في الماءِ، ثم أرْساها، وأثْبَتَها بالجبالِ، وطَبْعُ الجبالِ التَّسَرُّبُ والانْحِدارُ في الماءِ، فَيَجِيءُ أنْ يَزيدَ في التَّسَرُّبِ والانْحِدارِ في الماءِ، لا أنْ يُثْبِتَها، ويُقِرَّها على وجهِ الماءِ. لكنْ بلطفِهِ ومَنِّهِ أقَرَّ بها الأرضَ، وأثْبَتَها[7]، ومَنَعَ بها[8] التَّسَرُّبَ والانْحِدارَ والمَيْدَ بأهلِها.

فَعَلَى ذلكَ السفنُ في البحارِ تَسْتَقِرُّ على الماءِ، ولا تَنْحَدِرُ، كالجبالِ معَ الأرضِ [في][9] القرارِ على الماءِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وقد. (٢) في الأصل وم: فله. (٣) في الأصل وم: ولذلك. (٤) في الأصل وم: يواخذ. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: إدراكه وذلك. (٧) في الأصل وم: ولا يثبتها. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: عن. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ مَعْنًى آخَرَ، وهو الأعلامُ نفسُها، وهو أنْ جَعَلَ السفُنَ سَبَباً وطريقاً للوصولِ إلى مَنافِعَ بَعُدَتْ منهمْ، وصَعُبَتْ عليهمْ. فإذا حُمِلَ فيها الأحمالُ مِنْ بلدٍ إلى آخَرَ ومِنْ مكانٍ إلى مكانٍ يُسَرُّ أهلُ المَحمولِ إليهمْ بتلكَ الأحمالِ والسفُنِ إذا رَأَوها في البحارِ تَحْمِلُ إليهمْ [سِلَعاً يَتَّجِرونَ][1] بها ومَنافعَ تَصِلُ لهمْ.

وكذلكَ يُسَرُّ أهلُ المَحمولِ عنهمْ إذا رَأَوها راجعةً إليهمْ سالمةً لِما يَحْصُلُ لهمْ مِنَ المَنافعِ[2] والأغراضِ بها، فتكونُ السفُنُ أعلاماً وأدلَّةً لهمْ على الأغراضِ والمَنافعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ يذكُرُ فضلَهُ ومِنَّتَهُ بما أجرَى هذهِ السفُنَ في البحارِ التي ذَكَرَ، فأخبَرَ أنهُ لو شاءَ لأمْسَكَها ومَنَعَها عنِ الجَرَيانِ. ثم صَيَّرَ الريحَ نوعَينِ:

أحَدُهما: طَيِّبَةً تَجْري بها السفُنُ، والأُخرَى عاصفةً شديدةً، تَهْلَكُ بها السفُنُ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ الآية [يونس: ٢٢].

ثم في ذلكَ خِلالٌ ثلاثٌ تَدُلُّ على أنَّ الريحَ ليستْ تُجري السفُنَ، وتَهُبُّ بِطَبْعِها ونفْسِها، ولكنْ باللهِ تعالى:

أحَدُها: أنهُ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ نوعاً منها طَيِّبَةً تُجري السفُنَ، والأُخرَى عاصفةً تُهْلِكُ السفُنَ، وتَهيجُ الأمواجَ.

والثانيةُ[3]: ما ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ أخبَرَ أنهُ لو شاءَ لأسْكَنَ الريحَ/ ٤٩٢ ـ ب/ فَتَبْقَيْنَ رَواكِدَ على ظهرِ الماءِ. فَدَلَّ أنهُ هو المُجْري لها حينَ[4] كانَ هو المُسْكِنَ.

والثالثةُ[5]: أنَّ الفِعْلَ[6] الطَّبيعِيَّ على سَنَنٍ واحدٍ كالحرارةِ في النارِ والبرودةِ في الثلجِ، وأمثالُ ذلكَ [كثيرةٌ][7] ولو كانَ جَرَيانُ الريحِ وهُبوبُها بنفسِها وطَبْعِها لكانَتْ لا تَسْكُنُ في حالٍ، ولا تكونُ مَرَّةً طَيِّبَةً سالِمَةً ومَرَّةً شديدةً عاصفةً مُهْلِكَةً. دلَّ أنَّ ذلكَ كانَ باللهِ تعالى لا بالطَّبْعِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: سَمَّى المؤمنَ صَبوراً شَكوراً. والثاني: [سَمَّى][8] مَنْ صَبَرَ على ما أصابَ مِنَ الشدائدِ والمصائبِ التي ذَكَرَ صَبوراً ومَنْ شَكَرَ ما ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ في السفُنِ وغَيرِها شَكوراً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: أي وقوفاً[9]، وصَرْفُهُ: رَكَدَ يَرْكُدُ رَكْداً ورُكوداً.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما ذَكَرَ مِنَ السُّفُنِ الجَواري في البَحْرِ حينَ[10] قالَ: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ يقولُ إنْ شاءَ أسْكَنَ الريحَ التي بها تَجْري السُّفُنُ في البحارِ، فَتَبْقَيْنَ رَواكِدَ في الماءِ، وإنْ شاءَ أرسَلَ ريحاً عاصِفَةً شديدةً، فَيُهْلِكُنَّ، يعني السفُنَ، وأرادَ أهلَ السفنِ بما كانَ منهمْ.

يُخْبِرُ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ ما ذَكَرَ مِنَ الإهلاكِ في البحرِ والإبقاءِ فيهِ. لكنهُ بِفَضْلِهِ يُنْجي مَنْ أنجَى، وأخرَجَ سالماً، واللهُ أعلَمُ.

وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي يُهْلِكْ أهلَ السفنِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ من قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] فيكونُ ما يصيبُهُمْ مِنَ المُصيبةِ ما بَلَغَتِ النفسُ أو ممّا تَبْلُغُ النفسُ، فيكونُ كلُّ ذلكَ لهمْ مِنْ كَسْبِ أيديهِمْ على ما ذَكَرَ.

ثم أخبَرَ أنهُ يَعْفو عنْ كثيرٍ ممّا كَسَبَتْ أيديهِمْ ممّا يَسْتَوْجِبونَ الإهلاكَ، ويَتَجاوَزُ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لسعة يرجون. (٢) في الأصل وم: الأيمان. (٣) في الأصل وم: والثاني. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: والثالث. (٦) في الأصل وم: فعل. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقوف. (١٠) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ المُجادَلةُ في آياتِهِ تُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يُجادِلوهُ في تقديرِ أحكامِ اللهِ تعالى وفَهمِ ما ضُمِّنَ فيها؛ وذلكَ ممدوحٌ محمودٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢] فهذهِ المُجادَلةُ والمِراءُ المَذْكورُ في هذا محمودٌ.

والمُجادَلةُ الثانيةُ هي المُجادَلةُ في دَفْعِ أحكامِ آياتِ اللهِ عن فَهمِ ما ضُمِّنَ [فيها][1] وهي مذمومةٌ. وما ذُكِرَ هاهنا في دفعِ آياتِ اللهِ والمَنْعِ عن فَهمِ ما فيها.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ اللهَ تعالى أعطى مَنْ أعطى هذهِ النِّعَمَ واللذاتِ في هذهِ الدنيا لِيَكْتَسِبوا بها نِعْمَةً دائمةً ولذَّةً باقيةً وكذلكَ ما أعطاهُمْ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الحواسِّ لِيَكْتَسِبوا بها ما يدومُ، ويَبْقى.

فَمَنِ استَعْمَلَ ما أعطاهُ مِنَ الأموالِ واللذاتِ مِمّا ذَكَرْنا في غَيرِ ما أمَرَ بِهِ، وجَعَلَ، سُمِّيَ خاسراً عابثاً. وكذلكَ مَنِ استَعْمَلَ ما أعطاهُ مِنَ الحواسِّ في غَيرِ ما جُعِلَتْ، وأمَرَ باستِعمالِها يُسَمُّ أصَمَّ أبْكَمَ أعْمى.

وكذلكَ النفسُ إذا المرءُ [لم][2] يَكْتَسِبْ بها حياةً دائمةً سُمِّيَ مَيِّتاً، واللهُ أعلَمُ.

[ويحتَمِلُ][3] أنْ يُقالَ: إنهمْ ما أُعطوا في هذهِ الدنيا مِنَ اللذاتِ والمُتْعَةِ إلّا تَرْغيباً في ما أبقى عندَهُ، وَوَعَدَهُمْ في الآخِرَةِ. وكذلكَ ما امْتُحِنوا مِنَ الشدائدِ والمَصائبِ إلّا تَحْذيراً وتَرْهيباً عمّا أوعدَهُمْ، وخَوَّفَهُمْ في الآخِرَةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي تَتَمَتَّعونَ بهِ، فَيَفْنى، ويَزولُ عن سريعٍ، وما أبْقى، ولم يُؤْتِكُمْ، هو الباقي الدائمُ.

ثم بَيَّنَ أنَّ ما أبقى عندَهُ لِمَنْ [نَعَتَهُمْ][4] بقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ آمنوا بأنَّ له[5] الدنيا والآخِرَةَ وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمرَ وأنهُ بريءٌ عن جميعِ مَعاني الخَلْقِ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يُوكِلونَ أمورَهم إلى ربِّهِمْ، هو مَفْزَعُهُمْ، ومُعْتَمَدُهُمْ؛ لا يَفْزَعونَ إلى أحدٍ سِواهُ، ولا يَعْتَمِدونَ غيرَهُ في جميعِ أحوالِهِمْ.

الآية ٣٧ ثم نَعَتَهُمْ أيضاً بما ذَكَرَ مِنَ الاجْتِنابِ عنِ الكبائرِ والفواحشِ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ هي الفَواحشُ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هي كبائرُ الإثمِ، كلُّ واحدٍ منهما في مَعْنى الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أنواعٌ: ما بها يَصيرُ المرءُ مُشْرِكاً، وهي كبائرُ الشِّرْكِ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هي التي تُوجِبُ الحدودَ في الدنيا.

وقيلَ: الكبيرةُ ما يَكْبُرُ، ويَعْظُمُ مِنَ الذنبِ، والفاحشةُ ما يَفْحُشُ مِنَ العَمَلِ، وقد ذَكَرْنا وجوهاً في ذلكَ في ما تَقَدَّمَ في سورةِ النساءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي إذا غَضِبوا هم مِمّا يَرْجِعُ إلى الأموالِ و الأنفسِ وأمرِ الدنيا يَغْفِرونَ، ويَتَجاوَزونَ عن ذلكَ.

فأمّا ما يُرْجِعُ ذلكَ الغضبَ إلى أمرِ الدينِ فإنهُ لا يَسَعُ المَغْفِرَةَ عن ذلكَ [ولكن][6] يَجِبُ الرجوعُ والتوبةُ إلى اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أجابوا إلى ربِّهِمْ ما دَعاهُمْ ربُّهُمْ. وقد دعاهُمْ إلى دارِ السلامِ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم . (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: لهم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل.

لكنْ جَعَلَ لإجابَتِهِمْ شرائِطَ وأعلاماً؛ فَمَنْ وَفَى بها اسْتَوجَبَ المَوعودَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٤٠] [وقولِهِ][1]: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢] إلى آخرِ ما ذَكَرَ.

فَعَلَى ذلكَ عَلَّمَ إجابَتَهُمْ لربِّهِمْ وشَرْطَها ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ الأنصارَ كانوا يَتَشاوَرونَ في ما بَيْنَهُمْ، ورسولُ اللهِ ﷺ عنهمْ غائبٌ، فَنَزَلَ هذا مَدْحاً لهمْ على فِعْلِهِمْ.

وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ أنهُ تَلا هذهِ الآيةَ وقولَهُ[2]: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فقالَ[3]: واللهِ ما تَشاوَرَ قومٌ قَطُّ إلّا هداهُمُ اللهُ تعالى لأفضَلِ ما بِحَضْرَتِهِمْ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يُشاوِرَ صَحابَتَهُ حينَ[4] قالَ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقالَ الحَسَنُ: ما تَشاوَرَ قومٌ في أمرٍ إلّا هداهُمُ اللهُ لأفضَلِ ما بِحَضْرَتِهِمْ، لأنَّ المُشاوَرَةَ اجْتِماعُ العقولِ والأذهانِ. وإذا اجْتَمَعَتْ كانَتْ إلى اسْتِدْراكِ الحقِّ والصوابِ أَسْرَعَ وأَبْلَغَ مِمّا انْفَرَدَ كلُّ عقلٍ بنفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي يَتَشاوَرونَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ صَيَّرَ المُنْتَصِرَ مِنَ الباغي والغافِرَ لِمَظْلَمَةٍ مِنْ ظُلْمِهِ جميعاً في الذينَ اسْتَجابوا لربِّهِمْ إلى ما دعاهُمْ إليهِ، والمُنْتَصِرُ مُسْتَوفي حقٍّ جُعِلَ لهُ، والغافِرُ تارِكُ الحقِّ. لكنْ إذْ جَعَلَ لهُ الاسْتيفاءَ دَخَلَ في ما ذَكَرَ مِنَ المُسْتَجيبينَ للهِ تعالى. لكنَّ تارِكَ الحقِّ أفضلُ مِنْ مُسْتَوفي الحقِّ.

وعلى ذلكَ حثَّ اللهُ تعالى رسولَهُ [على العَفْوِ][5] عنِ المَظْلَمَةِ وتركِ الانْتِصارِ والمكافأةِ. وأخْبَرَ أنهُ مِنْ عَزْمِ الأمورِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] راجعاً[7] إلى الأذى باللسانِ مِنْ نَحْوِ الشَّتيمةِ والسَّبِّ والذي لا يَتْرُكُ[8] في النفسِ/ ٤٩٣ ـ أ/ أثراً حَثَّهُمْ على المَغْفِرَةِ والعفوِ، ومَدَحَهُمْ على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ راجعٌ إلى ما يُؤَثِّرُ في النفسِ والأبدانِ تأثيراً مِنَ الجِراحاتِ وغيرِها[9]، حَثَّهُمْ على العَفْوِ في ما يَرْجِعُ إلى الأذى باللسانِ وألّا يُكافِئوهُمْ على ذلكَ.

وفي ما رَجَعَ إلى الأنفسِ والأبدانِ جَعَلَ لهمُ الاسْتيفاءَ والانْتِصارَ، وإنْ كانَ تَرْكُ الاسْتيفاءِ والعَفْوِ عنِ الكُلِّ أفضَلَ على ما قالَ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ سَمّى الثانيةَ سَيِّئَةً، وإنْ لم تكُنْ في الحقيقةِ سَيِّئَةً لأنها جزاءُ السَّيِّئَةِ، فَسَمّاها باسْمِ الأولى، أو سَمّاها سَيِّئَةً لأنهُ لو لم تكُنِ الأولى كانَتِ السَّيِّئَةُ ثانيةً أيضاً، فَسَمّاها على ما هو في نفسِها مِنْ بابِ الإضرارِ والضَّرَرِ سَيِّئَةً في نفسِهِ، وإنْ كانَ حَسَناً لِغَيْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ سَمّاها بِما ذَكَرَ لاخْتِلافِ الأحوالِ: هي عندَ الذي يَقْبِضُ منهُ، ويُجازي بها سَيِّئَةٌ، وتلكَ الحالُ عندَهُ سَيِّئَةٌ، وهي كقولِهِ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] سَمّى حالةَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ سَيِّئَةً، لأنها عندَهُمْ سَيِّئَةٌ، وحالةَ السَّعةِ والرخاءِ حَسَنَةً، لأنها عندَهُمْ حَسَنَةٌ، وإنْ لم تكُنْ تلكَ الحالُ في الحقيقةِ سَيِّئَةً. لكنهُ سَمّاها سَيِّئَةً على ما عندَهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنهُ سَمّى الثانيةَ سَيِّئَةً لِما هي عندَ المفعولِ بهِ سَيِّئَةٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في م: بالعفو، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: راجع. (٨) في الأصل وم: يؤثر. (٩) في الأصل وم: وغيرهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ، وإنْ جَعَلَ لهمْ حَقَّ الاِسْتيفاءِ و الاِنْتِصارِ، العَفْوُ عن ذلكَ، أفضلُ.

ثم فيهِ دلالةٌ ألا يُجْمَعَ بَينَ العَفْوِ وأخذِ البَدَلِ إذا لم يكُنْ مِنَ الآخرِ الرِّضا بذلكَ لأنهُ قالَ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أخْبَرَ أنهُ إذا عفا عنهُ يكونُ أجْرُهُ على اللهِ، فليسَ لهُ أنْ يأخُذَ مِنَ المَعْفُوِّ عنهُ شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

فهو يَنْقُضُ على مَنْ يقولُ بأنهُ يأخذُ البَدَلَ مِنَ الجاني شاءَ أو أبَى، وأنْ يَعْفُوَ عنهُ، ويأخذَ البدلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ لأنهُ لا يحبُّ الظُّلْمَ، والظُّلْمُ هو وضعُ الشيءِ في غَيرِ موضِعِهِ. فَمَنْ أخَذَ ما ليسَ لهُ أخْذُهُ، فهو ظالِمٌ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي أولئكَ ما عليهمْ مِنْ تَبِعَةٍ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ إنما الحُجةُ والتَّبِعَةُ على الذين يَظْلِمونَ الناسَ ابْتِداءً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي يأخذونَ مِنَ الناسِ ما ليسَ لهمْ أنْ يأخُذوا، فالتَّبِعَةُ والحُجَّةُ عليهمْ. فأمّا مَنْ يأخُذُ حَقّاً، وَجَبَ لهُ، واسْتوفاهُ، فلا تَبِعَةَ عليهِ، ولا حُجَّةَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ ويُفْسِدونَ في الأرضِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي مَنْ صَبَرَ على الأذى والمَظْلَمَةِ، وعَفا عنها، وتَجاوَزَ، فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ، أي ذلكَ مِنْ تَحقيقِ الأمورِ وإحكامِها[1].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ أي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ لِما آثَرَ وِلايةَ الشيطانِ فلا[2] وليَّ لهُ سِواهُ بَعْدَهُ يُرْشِدُهُ، وهو كما قالَ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] أخْبَرَ أنَّ سلطانَ الشيطانِ على مَنْ[3] يَتَوَلّاهُ.

وقولُهُ ﷺ: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي هلْ إلى رجوعِ الدنيا مِنْ سبيلٍ؛ يقولونَ: يسألونَ ربَّهُمْ الرجوعَ إلى الدنيا.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ سؤالُهُمْ الرجوعَ إلى المِحْنَةِ التي امْتُحِنوا في الدنيا قَبْلَ مَوتِهِمْ، أي سألوا أنْ يُكَلِّفَهُمْ، ويَمْتَحِنَهُمْ في الآخِرَةِ لِيُظْهِروا الطاعةَ للهِ تعالى في أوامِرِهِ ونواهيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يُعْرَضونَ على النارِ قَبْلَ أنْ يَدْخُلوها كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ الآية [الفجر: ٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ لأنَّ اللهَ تعالى أذَلَّهُمْ في الآخرةِ بما اختاروا في الدنيا مِنْ سُوءِ صَنيعِهِمْ، وأعْطَوا أنفسَهُمْ شَهَواتِهِمْ ومُناهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ نَظَرِهِمْ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] لِشِدَّةِ[4] هَولِهِمْ وَفَزَعِهِمْ في ذلكَ اليومِ لا يَرْفَعونَ رؤوسَهُمْ، ولا يَنْظُرونَ إلى مَوضِعٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي لا يَنْظُرونَ إلى الناسِ، ولا يُقْبِلونَ بوجوهِهِمْ إليهِمْ إلّا نَظَرَ التَّلَصُّصِ والتَّغَفُّلِ حياءً منهمْ لِسُوءِ فِعالِهِمْ. وهكذا المَعْروفُ في الناسِ، لأنَّ مَنْ صَنَعَ إلى آخَرَ سُوءاً لا يَتَهَيّأُ لهُ رَفْعُ الطَّرْفِ إليهِ مُتَّصِلاً إلّا على التَّلَصُّصِ منهُ والتَّغَفُّلِ. فَعَلَى ذلكَ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وإحكامه. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: هو الشدة.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهمْ يُحشَرونَ عُمياً، فلا يَرَونَ بأعيُنِهِمْ، إنما يَرَونَ بقلوبِهِمْ، وهو الطَّرْفُ الخفِيُّ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي قد غَضُّوا أبصارَهُمْ مِنَ الذُّلِّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي يَنْظُرونَ نَظَراً مُسْتَقيماً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآيةَ يُخرَّجُ ما ذَكَرَ مِنْ خُسرانِ أنفسِهِمْ وأهليهِمْ على وجوهٍ:

أحدُها: ما ذَكَرَ بقولِهِ تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] أمَرَ بأنْ يَقُوا أنفسَهُمْ وأهليهِمُ النارَ؛ فهمْ حينَ[1] لم يَقُوا ما ذَكَرَ مِنَ الأنفسِ والأهلِ خَسِروا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ أي خَسِروا بسببِ أنفسِهِمْ وبسببِ أهليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] لِما يَتَعامَلونَ أموراً بسببِ الأموالِ والأولادِ والأزواجِ؛ هي فِتنةٌ لهمْ وكقولِهِ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] فقد يَخسَرُ الرجلُ، ويَصيرُ مُؤاخَذاً بسببِ هؤلاءِ.

والثالثُ: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ خُسرانُهُمْ أنفسَهُمْ وأهليهِمْ ما قالَ[2]: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقولُهُ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] خَسِرَ ما كانَ رَجا، وطَمِعَ أنهُ لهُ عندَ ربِّهِ في الآخِرةِ الحُسنى. على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يُخرَّجُ تأويلُ الآيةِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: ليسَ مِنْ أحدٍ مِنْ كافرٍ ومسلمٍ إلا ولَهُ أهلٌ ومَنزِلٌ في الجنةِ، فإنْ أطاعَ اللهَ تعالى أتى مَنزِلَهُ وأهلَهُ، وإنْ عَصاهُ خَسِرَ نفسَهُ وأهلَهُ ومَنزِلَهُ في الجنةِ، ووَرِثَهُ المؤمنونَ عنهُ.

لكنْ لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ مع عِلْمِهِ أنهُ يموتُ كافراً أنْ يَجعَلَ لهُ الأهلَ والمَنزِلَ في الجنةِ، اللهمّ إلا أنْ يَفعَلَ ذلكَ ليكونَ لهمْ حَسرةٌ على ذلكَ وغيظٌ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي ما كانَ للأصنامِ التي عَبَدوها دونَ اللهِ تعالى وِلايةُ النَّصرِ لهمْ وقُدرةُ دَفعِ العذابِ عنهمْ لأنهمْ كانوا يَعبُدونها في الدنيا رَجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ في الآخِرةِ، وأنْ تُزلِفَهُمْ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أن ليسَ لها وِلايةُ النَّصرِ على ما رَجَوا، وطَمِعوا مِنْ عِبادتِها الشفاعةَ لهمْ والدفعَ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ما كانَ للرؤساءِ الذينَ اتَّخذوهُمْ في الدنيا أرباباً وِلايةُ النَّصرِ لهمْ، لأنهمْ لا يَملِكونَ دفعَ ذلكَ عنْ أنفسِهِمْ، فكيفَ يَملِكونَ دفعَ ما نَزَلَ بأتباعِهِمْ؟ يُخبِرُ أنْ ليسَ لهمْ وِلايةُ دفعِ العذابِ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ /٤٩٣ ـ ب/ أي مِنْ حُجّةٍ، أي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ فلا حُجّةَ لهُ أنْ يقولَ: إنكَ أضلَلْتَني، لأنهُ إنما يُضِلُّهُ لِما يَختارُهُ، ويُؤثِرُهُ[بوجهَينِ]:

أحدُهما: الأصلُ[3] لا أحَدَ يَفعَلُ ما يَفعَلُ مِنَ المَعاصي وقتَ فِعلِهِ لأنَّ اللهَ تعالى قَضى لهُ ذلكَ، أو أرادَهُ، أو قَدَّرَهُ، وقَضاهُ. إنما يَفعَلُهُ لِغَرَضٍ [لهُ][4] وهَواهُ، لم يَكنْ لهُ الاحتِجاجُ عليهِ بذلكَ، وباللهِ العصمةُ.

والثاني: أنهُ ليسَ لهُ حُجّةٌ عليهِ بذلكَ لأنهُ يَعلَمُ أنهُ لو خُيِّرَ بَينَ ما يريدُ أنْ يَختارَهُ، ويؤثِرَهُ، وبينَ ضِدِّ ذلكَ لكانَ يَختارُ ذلكَ على ضِدِّهِ، ويَختارُ تَحصيلَهُ، ويُؤثِرُهُ على تَركِ ذلكَ، فكيفَ تكونُ [لهُ][5] حُجّةٌ بذلكَ؟ واللهُ الموفِّقُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ تعالى فما لهُ إلى الهُدى مِنْ سَبيلٍ، أي ليسَ لهُ سبيلٌ. ولكنْ عليهِ السبيلُ، أي لا يَملِكُ أحدٌ إرشادَهُ. ويَحتَمِلُ أي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ فما لهُ مِنْ سبيلٍ أي ليسَ له سبيلٌ، ولكنْ عليهِ السبيلُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: والأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ أي أجيبوا لهُ، وقد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية هذا يُخرَّج على وجهَين:

أحدُهما: أي أجيبوا لهُ مِن قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا يَملِكُ أحدٌ رَدَّ ذلكَ اليومِ إذا أتاهُمْ لأنهُ هو اليومُ الذي يُجزَى فيهِ الخلائقُ، وفيهِ أهوالٌ وأفزاعٌ. يقولُ: لا أحدَ يملِكُ رَدَّ ذلكَ اليومِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أي أجيبوا مِن قبْلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا مَرَدَّ لِما يَنزِلُ فيهِ بهِمْ مِنَ العذابِ والعِقابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ هذا أيضاً يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنهمْ إنما كانوا يَعبُدونَ الأصنامَ في الدنيا لِتكونَ لهمْ شُفعاءَ ومَلجأً، يَلْتجِئونَ إليها. يقولُ: ما لكُمْ [إلى][1] أولئكَ الأصنامِ مَلجأً تَلْتجِئونَ إليهِ[2]، بل تكونونَ كما ذُكِرَ في آيةٍ أخرَى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤و...] وقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٨] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ما لهمْ مِنْ حِيَلٍ يَحتالونَ بها لِدَفْعِ[3] ما نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ على ما يكونُ في الدنيا مِنْ حِيَلٍ يَحتالونَ [بها لِدَفْعِ][4] ما نَزَلَ بهمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ، وباللهِ النجاةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ هذا أيضاً يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي لا يَملِكونَ أنْ يُنكِروا على اللهِ تعالى ما يَفعَلُ بهمْ لأنهُ إنما يَفعَلُ بهمْ ذلكَ بِما كَسَبَتْ أيديهِمْ، فلا يَقْدِرونَ على إنكارِ ذلكَ على اللهِ تعالى.

والثاني: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي ما لكُمْ مِنْ تغْييرٍ، أي ما يَملِكونَ دَفْعَ ذلكَ عن أنفسِهِمْ ولا مَنْعَهُ وتَغْييرَهُ

وقيلَ: لا يَملِكونَ أنْ يَمنَعوا اللهَ تعالى عمّا يُريدُ أنْ يَفعَلَ بهِمْ، وهو ما ذَكَرْنا.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي إنْ تَوَلَّوا عن إجابتِكَ إلى ما تدْعوهُمْ إليهِ ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يَحتمِلُ أي فما أرسَلْناكَ أنْ تَحفَظَ عليهِمْ أفعالَهُمْ وأعمالَهُمْ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ما عليكَ إلّا التبليغُ، إنما حِفْظُ أعمالِهِمْ وأفعالِهِمْ على الملائكةِ الذينَ جُعِلوا حُفّاظاً عليهِمْ، وهُمُ الكرامُ الكاتبونَ.

والثاني: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ يَحتمِلُ فما أرسَلْناكَ أنْ تَمنَعَهُمْ عمّا يَفعلونَ حسًّا، إنما عليكَ البلاغُ فَحَسْبُ وبيانُ الحقِّ، وأنتَ غيرُ مُؤاخَذٍ بما يَفعَلونَ، وهو كقولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونَحْوَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ إنْ كانَ هذا في المُسلِمِ فيكونُ قولُهُ: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي رَضِيَ بها، وسُرَّ بها. وإنْ كانَ في الكافرِ فيكونُ لهُ فَرَحُ بها، أي بَطِرَ بها، وأشِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ هذا أيضاً إنْ كانَ في المُسلِمِ فإنهُ إذا أصابَهُ شِدَّةٌ أو بلاءٌ يَنْسَى ما كانَ إليهِ مِنَ اللهِ تعالى مِنَ النُّعْمَى، فَجَعَلَ يَشكو ما أصابَهُ، فهو كَفورٌ لِلنِّعَمِ التي كانَتْ لهُ مِنْ قَبْلِ ذلكَ. وإنْ كانَ في الكافرِ فهو ظاهرٌ أنهُ كفورٌ لِنِعَمِهِ وإحسانِهِ أجمَعَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُخبِرُ أنهُ بما يَأمُرُهُمْ، ويَنْهاهُمْ، وبما يَمتحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، ليسَ يَأمُرُهُمْ [ولا يَنْهاهُمْ، ولا يَمتحِنُهُمْ لِحاجةٍ][5] نفسِهِ في جَرِّ مَنفَعةٍ واسْتِفادةِ خيرٍ أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ أو بلاءٍ؛ إذْ لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضِ. ولكنْ إنما يأمُرُهُمْ، ويَنْهاهُمْ، ويَمتحِنُهُمْ لحاجةِ أنفسِهِمْ في إصلاحِها وفَكاكِها[6] ونَجاتِها مِنَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إليها. (٣) اللام ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: دفع. (٥) في الأصل وم: لا نهى ولا يمتحن بحاجة. (٦) من م، في الأصل: ونكاحها.

جنة السنة

المَهالكِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] يُخبِرُ بما ذَكَرَ أنهُ غَنِيٌّ، لا يَنفَعُهُ إيمانُ مؤمنٍ، ولا يزيدُ في مُلكِهِ، ولا يَضُرُّهُ كُفرُ كافرٍ، ولا يُنقِصُ مِنْ مُلكِهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦] ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو يُؤتي المُلكَ مَنْ [يشاءُ][1] لهُ المُلكُ في الدنيا، وهو يَنزِعُ مِمَّنْ يَشاءُ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]. وفيهِ نَقضُ [قولِ][2] المعتزلةِ في خَلقِ أفعالٍ منهمْ وإنكارِهِمْ أنْ يكونَ فِعلَ اللهِ تعالى مَخافةَ وقوعِ الشِّركِ في ذلكَ بينَهُمْ وبَينَ اللهِ تعالى، فيكونُ ذلكَ فِعلَ اللهِ تعالى وفِعلَ العبدِ؛ إذْ هو تفسيرُ الشَّرِكةِ في الشاهِدِ، فيُقالُ لهمْ: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] أخبَرَ أنْ ليسَ لهُ شريكٌ في المُلكِ. وقد رأينا الملوكَ في الدنيا.

ثم لم يُوجِبْ مُلكُ الشَّرِكةِ في مُلكِهِ لاختِلافِ المَعنى والجِهاتِ؛ إذْ حقيقةُ المُلكِ لهُ، ولِغيرِهِ ليسَتْ حقيقةً[3]، إنما لهُ مُلكُ الانتِفاعِ لا على الإطلاقِ.

فَعَلى ذلكَ أفعالُ العبادِ [تكونُ خَلْقَ اللهِ تعالى وكَسْباً لهمْ، ولا يُوجِبُ ذلكَ شِركاً فيهِ على ما لم يُوجِبْ ما ذَكَرْنا مِنَ المُلكِ لهمْ شِركاً بَينَهُمْ وبَينَ اللهِ تعالى، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ هو أيضاً على المعتزلةِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ يَخلُقُ ما يشاءُ، وهمْ يقولونَ بأنَّ جميعَ الخيراتِ مِمّا شاءَ اللهُ، ثم لا يَجعَلونَ ما فَعَلَ العبادُ][4] مِنَ الخيراتِ خَلقاً للهِ تعالى. فيكونُ على قولِهِمْ غيرَ خالقٍ لأكثرِ الأشياءِ مِمّا شاءَ. وهذا لأنَّ قولَهُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إمّا أنْ يُخرَّجَ على الوصفِ بالرّبوبيّةِ للهِ تعالى والألوهيّةِ [وإمّا][5] على وَجهِ الوَعْدِ والخَبَرِ[6] بأنهُ يَخلُقُ ما يشاءُ.

فإنْ كانَ على الوصفِ لهُ بالرُّبوبيّةِ، فلا يكونُ ذلكَ وصفَ الرّبوبيّةِ؛ إذْ لا يكونُ خالقاً لِجُزءٍ من عشرةِ آلافٍ مِنَ الأشياءِ التي شاءَ أنْ يَخلُقَها.

وإنْ كانَ على الوَعدِ والخَبَرِ فَيَخرُجُ الخَبَرُ كَذِباً على قولِهِمْ. فنعوذُ باللهِ تعالى مِنَ السَّرَفِ في القولِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يُخبِرُ تعالى أنَّ الأولادَ جميعاً مِنَ الذكورِ والإناثِ مَواهِبُ اللهِ تعالى وهداياهُ، فَيَجِبُ أنْ يَقبَلوا منهُ قَبولَ الهدايا والهِباتِ على الشُّكرِ لهُ والمِنّةِ. ثم بدأ بِذِكرِ الإناثِ ثم بالذكورِ لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ إذا وُلِدَ لهُ الإناثُ يَعُدُّ ذلكَ[7] مصيبةً، ويَثقُلُ عليهِ. وعلى ذلكَ ما أخبَرَ مِنَ الكَفَرةِ أنهمْ إذا بُشِّروا بالأنثى ظَلَّتْ وجوهُهُمْ مُسْوَدّةً كقولِهِ[8] تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] يُخبِرُ عن ثِقَلِ ذلكَ عليهمْ وغَيظِهِمْ على ذلكَ. فَبَدَأَ بذكرِ ذلكَ لئلا يَعُدَّ أهلُ الإسلامِ الأولادَ[9] الإناثَ مصيبةً وبلاءً على ما عَدَّها الكفرةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ التزويجُ هو الجَمعُ بَينَ الشَّكلَينِ والمُتماثِلَينِ في الحقيقةِ. وقد يُسمّى التَّزويجُ بينَ المُتضادَّينِ مَجازاً، واللهُ أعلَمُ. فيكونُ مَعنى قولِهِ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي يَقرُنُ، ويَجمَعُ بَينَ الإناثِ والذكورِ، فَيَهَبُ لهُ مِنَ النوعَينِ جميعاً حالةً واحدةً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي يَجعَلُ بعضَهُمْ بَنينَ [وبعضَهُمْ][10] بناتٍ. تقولُ العربُ: زَوَّجتُ [أهلي][11] إذا قَرَنْتُ بعضَهُمْ[12] ببعضٍ، وزَوَّجتُ الكبارَ بالصغارِ / ٤٩٤ ـ أ/ إذا قَرَنْتُ كبيراً بِصَغيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ والعقيمُ مِنَ النساءِ التي لا تَلِدُ، وهي لا تُوصَفُ بالبركةِ. ويُقالُ: إنها ليستْ مُبارَكةً، لا يُرْغَبُ فيها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: الملك. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: هو الخبر. (٧) أدرجت في الأصل وم بعد: ويثقل. (٨) في الأصل وم: بقوله. (٩) في الأصل وم: أولاد. (١٠) من م، في الأصل: و. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: بعضها.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ : ﴿عَلِيمٌ﴾ بإنشاءِ الأولادِ [مِنَ الذكورِ][1] والإناثِ في الرَّحِمِ ﴿قَدِيرٌ﴾ على ذلكَ، أو ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحِ الخَلْقِ ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يُعجِزُه شيءٌ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ كانَ هذا إنما ذَكَرَ، وأخبَرَ عن نازلةٍ أو سؤالٍ كانَ عن كيفيَّةِ الرسالةِ؟ وهلِ الرسُلُ ﷺ يَرونَ ربَّهُم، ويُشاهِدونَهُ، ويُشافِهونَهُ؟ فأخبَرَ أنهُ ليسَ مِنَ البَشرِ مَنْ يُكَلِّمُهُ إلا بالطُّرُقِ الثلاثةِ التي ذَكرَها، والسؤالُ وَقَعَ عنِ الرُّؤيةِ في الدنيا. فيكونُ الجوابُ بناءً على السؤالِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ ما يُرى في المَنامِ. ورُؤيا الأنبياءِ ﷺ حقيقةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ نَحْوُ ما كَلَّمَ موسى ﷺ ألقَى في مسامِعِهِ صوتاً مَخلوقاً على ما شاءَ، وكيفَ [شاءَ][2] مِنْ غيرِ كانَ ثَمَّ ثالثٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي يُرْسِلُ مَلَكاً، يُخبِرُهُ عنِ اللهِ تعالى.

وطُرُقُ الوصولِ إلى معرفةِ ذلكَ في الدنيا الوجوهُ التي ذَكَرْنا: إمَّا الإلهامُ وإمَّا الإلقاءُ في المَسامِعِ وإمَّا رسولٌ يُرْسَلُ، فيُخبِرُ عنْ أمرِهِ وكلامِهِ.

فأمَّا أنْ يَحتَمِلَ وُسْعُ أحدٍ رؤيتَهُ أو [مُشافَهَتَهُ أو مُعايَنَتَهُ][3] في الدنيا فلا، واللهُ الموفِّقُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحُجُبُ نفسُها هي حقيقةُ الحُجُبِ. وقالَ بعضُهُمْ: الحِجابُ هو عَجْزُهُمْ عنِ احتِمالِ رؤيتِهِ لأنَّ اللهَ أنشَأهُمْ على بِنْيَةٍ وخِلقَةٍ، لا تقومُ أنفسُهُمُ القيامَ لِذلكَ على ما أخبَرَ ﷺ حينَ[4] قالَ لِموسى ﷺ: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] [أي][5] فإنِ احتَمَلَتْ[6] ذلكَ فاحتَمِلْ ما سألتَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ [دلالةٌ][7] أنَّ اللهَ تعالى يكونُ مُكَلِّماً للبَشرِ بالرسولِ، وإنْ لم يُشافِهْهُ المرسِلُ، وكانَ ذلكَ تَسْمِيَةً بطريقِ المجازِ، إذْ لم يكنْ في الحقيقةِ كلامُ الرسولِ كلامَ المرسِلِ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] لا يكونُ ما يُسْمَعُ مِنَ الرسولِ ﷺ كلامَ اللهِ حقيقةً وكذا ما يُقالُ: سَمِعْتُ[8] مِنْ فلانةٍ قولَ فلانٍ أو حديثَ فلانٍ، كلُّهُ على المَجازِ، ليسَ على التحقيقِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ سببُ نزولِ قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآيةَ قولَ أولئكَ الكَفَرَةِ حينَ[9] أخبَرَ اللهُ تعالى [عنهم][10] بقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] وقولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] سألوا أنْ يَرَوا ربَّهُمْ جِهاراً، فقد حُجِبوا عن رؤيةِ اللهِ تعالى في الدنيا والآخرةِ حينَ[11] قالَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وسألوا أنْ يُخبِرَهُمْ شِفاهاً، فأخبَرَ أنهُ لا يُكَلِّمُ أحداً شِفاهاً، ولكنْ يُكَلِّمُ بما ذَكَرَ مِنَ الأوجهِ الثلاثةِ حينَ[12] قالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ رداً عليهِمْ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ طريقَ تكليمِهِ الخَلْقَ في الدنيا هذهِ الوجوهُ التي ذَكَرْنا، وقد كَلَّمَ البشرَ مِنْ هذهِ [السُّبُلِ والطرقِ][13] التي ذَكَرَ حينَ[14] قالَ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] أخبَرَ أنهُ أنزَلَ إليهِمْ ما ذَكَرَ كما أنزَلَ على الرسولِ، وحينَ[15] قالَ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [التوبة: ٦] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ ممَّا يكونُ كأنهُ قد كَلَّمَهُمْ بما ذَكَرَ كما كَلَّمَ الرسُلَ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرَ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة في الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يشافهه أو يعاينه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: احتمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: سمع. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: السبيل والطريق. (١٤) و(١٥) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ كأنهُ يقولُ: هكذا أوحَينا إليكَ[1] بالوجوهِ والطرقِ التي ذَكَرْنا كما أوحَينا إلى الذينَ مِن قَبْلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿رُوحًا﴾ جبريلَ بأمرِنا. وقالَ بعضُهُمْ: أي أوحَينا إليكَ أمراً مِن أمْرِنا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي الكتابَ الذي أنزَلَهُ [إليهِ، وأوجَبهُ عليهِ][2] سَمّاهُ رُوحاً لأنهُ يُحْيِي بهِ الدينَ، ويكونُ بهِ حياةُ الدينِ، وتَحيَى بهِ الأبدانُ، وهو حياةُ الذِّكْرِ والشَّرَفِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] حياةَ الذِّكْرِ والشَّرَفِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أمّا الكتابُ فإنهُ لا شكَّ أنهُ لا يَدْريهِ، ولا يَعْلَمُهُ، حتى أدراهُ، وأعْلَمَهُ، وأمّا الإيمانُ حينَ[3] أخبَرَ أنهُ لا يَدْريهِ فهو يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما كُنتَ تَدري ما الإيمانُ في حقِّ اللسانِ، أو ما كُنتَ تَدري ما الإيمانُ في حقِّ الإيمانِ، أو ما كُنتَ تَدري ما الإيمانُ في حقِّ قَدْرِهِ ومَحَلِّهِ ومَنْزِلَتِهِ عندَ اللهِ تعالى.

فإنْ كانَ المُرادُ في حقِّ اللسانِ فهو ظاهرٌ أنهُ كانَ[4] لا يَدْري في حقِّ ابْتِداءِ الأمرِ أنَّ الإيمانَ، هو التصديقُ والتوحيدُ، أو ما هو؟ وهو مَعروفٌ أنهُ كانَ لا يَدْريهِ في حقِّ اللسانِ حتى أدراهُ، وأعْلَمَهُ أنهُ ماذا؟

وكذلكَ جميعُ أهلِ اللسانِ لا عِلْمَ [لهمْ بذلكَ][5] حتى عَلَّمَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ فَنَزَلَ [جبريلُ][6] وسألَ النَّبِيَّ ﷺ ما الإيمانُ؟ وما الإسلامُ؟ على صورةِ أعرابيٍّ حتى قالَ النَّبِيُّ ﷺ: إنَّ هذا كانَ جبريلَ، نَزَلَ لِيُعَلِّمَكُمْ مَعالِمَ دينِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ [المُرادُ][7] في حقِّ فِعْلِ الإيمانِ ومُباشَرَةِ رُكْنِهِ فهو إذا كانَ غَيرَ قادرٍ على فِعْلِهِ وإتْيانِهِ على حَدِّهِ، وكانَ لا يَدْريهِ، ولا[8] لا يَدْري بهِ، فإنهُ لا يوصَفُ بالجهلِ بهِ. ألا تَرَى أنَّ الصغارَ لا يَدْرونَ، ولا يُقالُ: إنهمْ جَهَلَةٌ؟ وإنما يُوصَفُ بالجَهْلِ مَنْ مَلَكَ الفِكْرَ[9] والنَّظَرَ وأسبابَ العِلْمِ، ثم تَرَكَ ذلكَ. فعندَ ذلكَ يُوصَفُ بالجَهْلِ.

فأمّا مَنْ لم يَمْلِكْ ذلكَ، ولم يَبْلُغْ ذلكَ المَبْلَغَ، فإنهُ لا يوصَفُ بالجَهْلِ. ألا تَرَى أنهُ يُقالُ للأعراضِ و الأشياءِ: إنها لا تَدْري، ولا تُوصَفُ بالجَهْلِ؟ فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يوصَفَ، ويُقالُ: إنهُ كانَ لا يَدْري، ولا يوصَفُ، ولا يُقالُ: إنهُ كانَ جاهلاً بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ألا تَرَى أن الولَدَ في النَّظَرِ لا يُوصَفُ بأنَّ لهُ سَمْعاً وبَصَراً ونَحْوَهُ لأنهُ ليسَ بِمَحَلٍّ للسماعِ والبَصَرِ [أو نَحْوِهِ، فإذا][10] أُخرِجَ منهُ عندَ ذلكَ يُجْعَلُ لهُ مِنَ السماعِ والبَصَرِ؟ وهو ما ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [النحل: ٧٨] عندما مَكَّنَ لهمْ ذلكَ.

وإنْ كانَ لا يَدْري في حقِّ المَحَلِّ والمَنْزِلَةِ والقَدْرِ فهو هكذا كانَ لا يَدْري ما مَحَلُّ الإيمانِ وقَدْرُهُ عندَ اللهِ تعالى حتى أدراهُ، وأعْلَمَهُ مَحَلَّهُ ومَنْزِلَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ فإنْ كانَ المُرادُ هو الإيمانَ فهو نورٌ بالحُجَجِ والبرهانِ، وهو كما ذَكَرَ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وإنْ كانَ المُرادُ هو الكتابَ فهو نورٌ لِما يَرْفَعُ جميعَ حُجُبِ القُلوبِ وسَواتِرِها عَمَّنِ[11] اتَّبَعَهُ، ونَظَرَ إليهِ بِعَينِ التَّعظيمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَختارُهُ [شاءَ][12] أنْ يَهْدِيَهُ.

---

(١) في الأصل وم: إلى الرسل الذين من قبلك. (٢) في الأصل وم: عليه وأوجبه إليه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: كما.
(٥) في الأصل وم: لذلك. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لكنه لا.
(٩) في الأصل وم: الفكرة. (١٠) في الأصل: أو نحوه، في م: فإذا. (١١) في الأصل وم: من. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

ثم قولُهُ: ﴿بِهِۦ﴾ يَحتمِلُ القرآنَ، ويَحْتمِلُ الإيمانَ نفسَهُ، أي يَجْعَلُهُ بالإيمانِ مَهْدِيّاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قولُهُ: ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ يَحتمِلُ لَتَدْعو أولئكَ أو لَتَدينُ لهمُ الصراطَ المُستَقيمَ.

الآية ٥٢ ثم فَسَّرَهُ بقولِهِ تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ / ٤٩٤ ـ ب/ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لم يُفْهَمْ مِنْ صِراطِ اللهِ ما يُفْهَمُ مِنْ صِراطِ الخَلْقِ أو صِراطِ فلانٍ. فكيفَ يُفْهَمُ مِنْ مَجيئِهِ أو إتيانِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ مَجيءِ الخَلْقِ أو إتيانِهِ؟

فهذا يدلُّ أنْ لا كلَّ ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى يُفْهَمُ ما يُفْهَمُ ممّا يكونُ مِنَ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يَحتمِلُ إلى اللهِ يَرْجِعُ تدبيرُ الأمورِ. ويَحتمِلُ ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ في الآخِرَةِ، وهو البَعْثُ [واللهُ أعلَمُ][1].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

جنة السنة

سورة الزخرف(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ قالَ قَتادةُ: هو اسْمُ السورةِ. وقالَ غيرُهُ ﴿حمٓ﴾ قَضى ما هو كائنٌ، وقد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ قالَ قَتادةُ: مُبينٌ بَرَكَتَهُ وهُداهُ ورُشْدَهُ. وقالَ بعضُهُم: مُبِينٌ [ما](٢) بينَ الحلالِ والحرامِ وما(٣) يُؤْتَى وما يُتَّقَى. وقالَ بعضُهُم: مُبِينٌ [ما](٤) بَيْنَ الحقِّ والباطلِ.

وهو عندَنا مُبِينٌ بأنهُ مِنَ اللهِ تعالى، ليسَ هو مِنْ تأليفِ البشرِ ولا مِنْ توليدِهِمْ، ولكنهُ مِنَ اللهِ تعالى حينَ(٥) عَجِزوا عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: جَعَلْنا ذلكَ الكتابَ ﴿عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وقيلَ: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي أنزَلْناهُ ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ وقيلَ: ﴿جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي سَمّيناهُ ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ ليسَ أنْ جَعَلْناهُ قرآناً، ولكنَّ مَعْناهُ: جَعَلْناهُ عربياً، أي نَظَمْناهُ بالعربيةِ لِتَعْقِلُوا، وسَمَّيناهُ قرآناً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أي أنزَلْناهُ عَرَبياً على رَجاءِ أنْ تَعْقِلوا.

والثاني: أنزَلْناه عَرَبياً لِتَعْقِلوهُ؛ وذلكَ يرجِعُ إلى قومٍ مَخصوصِينَ، قد عَقَلوهُ، وفَهِموهُ؛ إذْ لم يَعْقِلوهُ جميعاً. ولا يُتَصوَّرُ أنْ يُنْزِلَهُ لِتَعْقِلوهُ، ولا تَعْقِلوهُ، فإنَّ ما أرادَ اللهُ تعالى يكونُ، لا مَحالَةَ، وما فَعَلَ يَنْفَعِلُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

والثالثُ: أنزَلْناهُ عَرَبياً لكي نُلْزِمَهُمْ أنْ يَعْقِلوهُ، ويَتَّبِعوهُ، لِيَزولَ عُذْرُهُمْ والاحتجاجُ على اللهِ تعالى أنهُ كانَ على غيرِ لسانِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُ: لعلَّ في جميعِ القرآنِ أنهُ للتحقيقِ إذا كانَ مِنَ اللهِ تعالى.

فإنْ قيلَ: فَعَلَى التأويلِ الأخيرِ كيفَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩و...] لا يَسْتَقيمُ أنْ يقالَ: لكي يُلْزِمَكُمْ أنْ تُفلِحوا؟ قيلَ: مَعْناهُ لِكي يُلْزِمَكُمُ السببَ الذي بهِ تُفْلِحونَ، وهو مباشَرَةُ الإيمانِ والطاعاتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يَرجِعُ إلى وجهَيْنِ:

أحدُهما: أيِ القرآنُ في أصلِ الكتابِ، ومنهُ القولُ، وهو اللوحُ المحفوظُ، وأُمُّ الشيءِ أصْلُهُ، ويُسَمّى أمَّ القُرى مكةَ لهذا.

والثاني: أيِ القرآنُ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ، فإنَّ الأمَّهاتِ سُمِّيَتْ أمهاتٍ لِتَقَدُّمِها على الوَلَدِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨و١٩].

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: ذكر ان سورة الزخرف كلها مكية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ قالَ ابْنُ عباسٍ: أي هو أعلى الكتبِ وأحْكَمُها وأعدَلُها.

وقالَ بعضُهُمْ: وصفَ كتابَهُ بالعَظَمةِ والمَنْزِلةِ والشَّرَفِ عندَهُ. وقولُهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿حَكِيمٌ﴾ بمعنى مُحكَمٍ كقولِهِ تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] أي بالحُجَجِ والبراهينِ.

والثاني: سَمّاهُ حكيماً لِما جَعَلَ فيهِ مِنَ الحكمةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ اختُلِفَ في الذِّكْرِ؛ قالَ بعضُهُمْ: القرآنُ. وقالَ بعضُهُمْ: الرسولُ. وقالَ بعضُهُمْ: العذابُ والعقوبةُ.

واختُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أفنترُكُ، ونَذَرُ الذِّكْرَ سُدًى ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي ألإنكُم(١) كذا ولأجلِ أنكُم كذا؟ وقالَ بعضُهُمْ: أفنترُكُ الوَحْيَ، لا نأمُرُكُمْ بشيءٍ، ولا ننهاكُمْ عنْ شيءٍ، ولا نُرْسِلُ إليكُمْ رسولاً؟ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أي أفنَذْهَبُ عنكُمْ بهذا القرآنِ سُدًى لا تُسْألونَ، ولا تُعاقَبونَ على تكذيبِكُمْ إيّاهُ؟ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ﴾ أي أفَنُمْسِكُ عنكُمْ فلا نَذْكُرُكُمْ ﴿صَفْحًا﴾ أي إعراضاً، وهو قولُ القُتَبِيِّ؛ يقولُ: صَفَحْتُ عنْ فلانٍ، أي أعْرَضْتُ عنهُ. وأصلُ ذلكَ أنكَ تُوليهِ صَفْحَتَكَ، يقالُ: ضَرَبْتُ، وأضْرَبْتُ عنْ فلانٍ، أي [أمْسَكْتُ عنهُ](٢).

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أي نَسْكُتُ، ضَرَبْتُ، وأضرَبْتُ، أي سَكَتُّ، وقولُهُ: ﴿صَفْحًا﴾ أي رَدّاً، يُقالُ: سَألني فلانٌ حاجةً، فَصَفَحْتُهُ صَفْحاً، أي رَدَدْتُهُ، واللهُ أعلَمُ. وبَعْضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

ثم الأصلُ عندَنا أنَّ الذِّكْرَ يَحْتَمِلُ ما قالوا فيهِ مِنَ المَعاني الثلاثةِ: القرآنَ والرسولَ والعذابَ. لكنْ لا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أن يَخْرُجَ على الابْتِداءِ على غَيرِ تَقَدُّمِ النوازِلِ لأنهُ لا يُبْتَدأُ بِمِثْلِهِ.

ثم النوازلُ تَحْتَمِلُ إنْ كانَ منهمْ قولٌ يقولونَ: يا محمدُ لو كانَ ما تقولُهُ أنتَ: إنهُ مِنْ عندِ اللهِ، وإنكَ رسولُهُ، فكيفَ أنزَلَ الكتابَ، أو أرسَلَ الرسولَ على عِلْمٍ منهُ أنا نُكَذِّبُهُ(٣)، ونَرُدُّهُ، ولا نقبَلُهُ؟ وما(٤) عُلِمَ مِنَ الملوكِ في الشاهدِ [أنْ تُكَذَّبَ الرسُلُ](٥)، ولا تُقْبَلُ، ولا(٦) تُتْبَعُ، فكيفَ بَعَثَكَ رسولاً إلينا؟ أو إنْ أنزَلَهُ عليكَ، أو بَعَثَكَ رسولاً، فكَذَّبْناهُ، وكَذَّبْناكَ، وَرَدَدْناهُ، وَرَدَدْناكَ، فلا يرفعُهُ، ويَرْفَعُكَ دونَ تركِهِ فينا؟

فيقولُ اللهُ، تباركَ، وتعالى، جواباً لهمْ ورَدّاً لِقولِهِمْ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ يقولُ: إنا لا نَتْرُكُكُمْ سُدًى، وإنْ عَلِمْنا منكُمُ التكذيبَ والرَّدَّ للرسولِ والوَحْيِ، ولا يَمْنَعُنا ذلكَ عنْ إنْزالِهِ إليكُمْ وتركِهِ فيكُمْ، ولا يَحْمِلُنا ذلكَ على رَفْعِهِ مِنْ بَيْنِكُمْ، بل نأمُرُكُمْ، ونَنْهاكُمْ، وإنْ كُنتُمْ تُكَذِّبونَهُ، ولا تَقْبَلونَهُ.

وهذا لِما ذَكَرْنا أنَّ حرفَ الاسْتِفهامِ مِنَ اللهِ تعالى يُخَرَّجُ على الإيجابِ والتحقيقِ. وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أي لا نَتْرُكُ إنزالَهُ وإرسالَهُ، وإنْ عَلِمْنا منكُمُ التكذيبَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقولِهِ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] أي لا يُتْرَكُ سُدًى، ولا تَحْسَبوا(٧) أنا إنما خَلَقْناكم عَبَثاً.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ فإنْ كانَ الذِّكْرُ هو القرآنَ، أو الرسولَ، فالتأويلُ أنهُ، وإنْ عَلِمَ منكُمُ الرَّدَّ والتكذيبَ فلا يَمْنَعُهُ ذلكَ عنْ / ٤٩٥ ـ أ/ إنزالِهِ عليكُمْ وبعثِهِ رسولاً إليكُمْ [وإنْ أنكَرْتموهُ، وكَذَّبْتُموهُ](٨) وَرَدَدْتُموهُ، فلا يَحْمِلُنا(٩) ذلكَ على رفعِهِ مِنْ بَيْنِكُمْ بِشِرْكِكُمْ وكُفْرِكُمْ، وهو كما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦و٧] أي إنا، وإنْ عَلِمْنا مِنْ أوائِلِكُمْ تكذيبَ(١٠) الرسلِ والكتابِ، فلا(١١) يَمْنَعُنا ذلكَ عنْ إنزالِهِ [عليكُمْ وبعثِهِ إليكم](١٢).

---

(١) همزة الاستفهام ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أمسكته. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ومن. (٥) في الأصل وم: أنه يكذب رسوله. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تحسبون. (٨) في الأصل وم: وأنكرتم وإن كذبتموه. (٩) في الأصل وم: نحمله. (١٠) في الأصل وم: التكذيب. (١١) في الأصل وم: وما. (١٢) في الأصل وم: عليهم وبعثهم إليهم.

جنة السنة

فَعَلَى ذلِكَ أنتم، وإنْ عَلِمْنا منكمْ تكذيبَ الرسولِ وكتابِهِ فلا يَمْنَعُنا ذلكَ عن إرسالِهِ وإنزالِهِ لِنُلْزِمَكُمُ الحجةَ.

أو لعلَّ فيكُمْ مَنْ يُصَدِّقُهُ، ويؤمِنُ بهِ، أو غيرَكُمْ يُؤمِنُ بهِ، ويُصَدِّقُهُ، وإنْ كَذَّبتُمْ أنتمْ.

هذا إنْ كانَ تأويلُ الذِّكْرِ رسولاً أو كتاباً.

وإنْ كانَ تأويلُ الذِّكْرِ العذابَ فَيَصيرُ كأنهُ يقولُ: أفَنَتْرُكُ تعذيبَكُمْ، أو نُمْسِكُ عنهُ، ولا نُعاقِبُكُمْ، وأنتمْ قومٌ مُسْرِفونَ أي مُشْرِكونَ على ما ذُكِرَ على إثْرِهِ حينَ[1] قالَ: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي قوةً؟ مَعْناهُ عَذَّبْناهُمْ بالتكذيبِ مع شِدَّةِ بَطْشِهِمْ وقوتِهِمْ، وأنتمْ دونَهُمْ لا تُعَذَّبونَ؟ بل تُعَذَّبونَ، واللهُ أعلَمُ.

وعَنْ قَتادةَ [أنهُ][2] يقولُ: لو أنَّ هذا القرآنَ رُفِعَ حينَ رَدَّهُ أوائلُ هذهِ الأمةِ، فَهَلَكوا، لَرَدَّهُ اللهُ بِفَضْلِهِ ورحمتِهِ، وكَرَّرَهُ[3] عليهمْ، ودعاهُمْ إليهِ كذا كذا سنةً وما شاءَ اللهُ تعالى.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][4] قالَ: لم يَبْعَثِ اللهُ تعالى نَبِياً إلا أنْزَلَ عليهِ كتاباً، فإنْ قَبِلَهُ قومُهُ، وإلّا رُفِعَ. فذلكَ قولُهُ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ لا تَقْبلونَهُ، فَتَقْبَلُهُ قلوبٌ بقيَّةٌ، فيقولونَ[5]: قَبِلْناهُ ربَّنا قَبِلْناهُ. لو لم يَفْعَلوا ذلكَ رُفِعَ، ولم يُتْرَكْ على الأرضِ منهُ شيءٌ.

ثم القراءةُ العامةُ ﴿أَن كُنتُمْ﴾ منصوبةٌ بالألِفِ بِمَعْنى إذْ كُنتُمْ، ويُقرأُ أيضاً: إنْ كُنتُمْ مكسورةً[6] على أنهُ الشرطُ ومَعْناهُ: لا نَتْرُكُ، ولا نُمْسِكُ عنْ إنزالِهِ، وإنْ كُنْتُمْ قوماً مُسْرِفينَ مُشْرِكينَ.

الآيتان ٦ و ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فيهِ دعاءُ الرسولِ ﷺ إلى الصَّبْرِ بما يُعامِلُهُ قومُهُ حينَ[7] ذَكَرَ لهُ أنَّ ما أرسلَ مِنَ الرسلِ الذينَ كانوا قبلَهُ عامَلَهُمْ قومُهُمْ مِنَ الاسْتِهْزاءِ بهمْ والأذى لهمْ مثلَ مُعاملةِ قومِكَ إياكَ، فَصَبَروا على ذلكَ، فاصْبِرْ أنتَ على أذى قومِكَ إياكَ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ أنهُ يُرسِلُ الرسولَ، وإنْ عَلِمَ منهمْ أنهمْ يُكَذِّبونَهُ، وكذا يُنْزِلُ الكتابَ، وإنْ عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَرُدّونَهُ، ولا يَقْبَلونَهُ، لأنهُ ليسَ يُرْسِلُ الرسُلَ، ولا يُنْزِلُ الكتبَ لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ ولا لِدَفْعِ المَضَرَّةِ عنْ نفسِهِ، ولكنْ إنما يُرْسِلُ، ويُنْزِلُ لِمَنْفَعَتِهِمْ ولِدَفْعِ المَضَرَّةِ عنْ أنفسِهِمْ، فَسَواءٌ عليهِ إنْ قَبِلوهُ، أو رَدّوهُ، وليسَ كَملوكِ الأرضِ إذا أرسَلوا رسولاً أو كتاباً إلى ما يَعْلَمونَ أنهمْ يُكَذِّبونَ رسُلَهُمْ، ويَرُدّونَ كُتُبَهُمْ[8]، يكونونَ سُفهاءَ لأنهمْ إنما يُرْسِلونَ لِحاجةِ أنفسِهِمْ ولدفعِ المَضَرَّةِ. فحينَ[9] لم يحصُلْ غَرَضُهُمْ، بل لَحِقَهُمْ[10] بذلكَ ضَرَرٌ وزيادةُ ضِدٍّ لهُ واستِخفافٌ لم يكنْ ذلكَ حكمةً، بل كانَ[11] سَفَهاً.

فأمّا اللهُ ﷻ إذا لم يُرْسِلْ، ويُنْزِلْ لِجَرِّ النَّفْعِ ودفعِ الضَّرِرِ، بل لإلزامِ الحجّةِ وإزالةِ العُذْرِ ونَحْوِ ذلكَ، [فذلكَ حكمةٌ أيضاً][12]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيهِ تحذيرُ أولئكَ الكَفَرَةِ أنْ يُنْزِلَ بهمْ بتكذيبِهِمُ الرسولَ وسُوءِ مُعامَلتِهِمْ إياهُ كما أنْزَلَ[13] بأولئكَ المُتَقَدِّمينَ بتكذيبِ الرسلِ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إياهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي أهلَكْنا مَنْ كانَ أشَدَّ قوةً وبطشاً مِنْ هؤلاءِ، ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمُ الامْتِناعُ [مع شدَّةِ][14] قوتِهِمْ وبطشِهِمْ عمّا نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ. فَعَلَى ذلِكَ لو نَزَلَ بهؤلاءِ لم يَتَهَيَّأْ لهمُ الامْتِناعُ مع ضَعْفِهِمْ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ وصفَ ذلكَ العذابِ الذي نَزَلَ بهمْ أي ذلكَ العذابُ ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لكنه. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فقالوا. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٠١. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: كتابهم. (٩) في الأصل وم: فحيث. (١٠) في الأصل وم: يلحقهم. (١١) في الأصل وم: يكون. (١٢) في الأصل وم: كان حكمة. (١٣) في الأصل وم: ينزل. (١٤) في الأصل وم: لشدة.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحدُهما: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي صارَ عذابُ الأوّلينَ عِبرَةً وعِظَةً ومَثَلاً لِلْمُتأخِّرينَ كقولِهِ: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

والثاني: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي مَضى عذابُ الأوّلينَ، وهو عذابُ الاسْتِئْصالِ، فلا يُعَذِّبُ هذهِ الأمّةَ بِمِثْلِ عذابِهِمْ لِفَضيلَةِ نَبيِّنا محمدٍ ﷺ. وبَرَكَتِهِ ورحمَتِهِ، وهو لِما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] بِفَضْلِهِ ورحمتِهِ أبْقَى هذهِ الأمّةَ إلى يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في قولِهِمْ وجوابِهِمْ أنّ اللهَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ دلالةٌ أنهمْ قد عَرَفوا أنهُ رسولٌ، لكنْ كَذَّبوهُ عِناداً ومُكابَرَةً لأنّ أهلَ مكةَ كانوا لا يؤمنونَ بالرسلِ، ويَزْعُمونَ[1] أنا عَرَفْنا أنّ اللهَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بقولِهِمْ، لا يُنكِرونَ[2] رسالَتَهُ خاصةً، بل يُنكِرونَ الرسلَ أجْمَعَ.

ثم هُمْ ما عَرَفوا أنّ اللهَ، هو خَلَقَ السمواتِ والأرضَ إلّا بالرسُلِ، إذْ هُمْ ليسوا مِنَ الذينَ عادَتُهُمُ الاسْتِدْلالُ والنَّظَرُ في الدلائلِ لِيَعْرِفوا اللهَ تعالى بالدلائلِ العقليّةِ. والظاهرُ في العَوامِّ جملةُ المعرفةِ بالدلائلِ السمعيّةِ، فكانَ الظاهرُ هذا أنّ معرفَتَهُمْ أنّ اللهَ، خَلَقَ السمواتِ والأرضَ لقولِ الرسلِ ﷺ لكنهمْ كَذَّبوهُمْ[3]، ولم يُصَدِّقوهُمْ[4] عِناداً منهمْ ومكابَرَةً، وما بهِ عَرَفوا سائرَ الرسلِ مِنَ المُعْجِزاتِ موجودٌ ومُعايَنٌ لهمْ في حقِّ رسولِنا ﷺ لابدَّ أنْ يَعْرِفوهُ رسولاً، لكنهمْ كَذَّبوهُ عِناداً. فَدَلَّ أنّ قولَهُمْ هذا دليلٌ على معرفتِهِمْ برسالتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم تَمامُ الاحْتِجاجِ بهذا أنْ يُقالَ لهمْ: قد عَرَفْتُمْ أنّ اللهَ، هو خالقُ السمواتِ والأرضِ، فَهَلّا عَرَفْتُمْ أنهُ لم يَخْلُقْهُما[5] عبثاً باطلاً؟ إذْ لو كانَ على ما يَزْعُمونَ أنْ لا رُسُلَ، ولا بَعْثَ، ولا حِسابَ، ولا ثوابَ، ولا عقابَ، يكونُ خَلْقُهُ إياها[6] عبثاً باطلاً. فكانَ إقرارُهُمْ بِخَلْقِهِ إياها[7] إقراراً بِخَلْقِهِ على وجهِ الحكمةِ، ولَنْ يَخْرُجَ خَلْقُهُ على الحكمةِ إلّا بالإقرارِ بالرسُلِ والبَعْثِ والثوابِ والعقابِ على ما عَرَفَ غيرَ مَرّةٍ.

أو أنْ يُقالَ: فإذا عَرَفْتُمْ أنّ اللهَ تعالى، هو خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما ذَكَرَ إلى آخِرِهِ، فكيفَ أنْكَرْتُمْ قُدْرَتَهُ على البَعْثِ والإعادةِ بَعْدَ الموتِ؟ والأعجوبَةُ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ أعظَمُ وأكْثَرُ مِنَ الأعجوبةِ في بَعْثِكُمْ وإعادَتِكُمْ. فكيفَ أنْكَرْتُمْ ما هو أقلُّ في القُدْرةِ والأعجوبةِ؟ واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ هذا على سبيلِ النَّعْتِ والوصفِ للهِ تعالى ﷻ صِلَةً لقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي وَصَفَهُ أنهُ جَعَلَ الأرضَ كذا، وأنْزَلَ كذا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ [بقولِهِ][8]: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ / ٤٩٥ ـ ب/ عنِ الأرضِ وما ذَكَرَ بهِ مِنْ جَعْلِها مَهْداً ومِنْ جَعْلِهِ[9] لهمْ فيها سُبُلاً قالوا[10]: اللهُ جَعَلَ ذلكَ على ما قالوا في السمواتِ والأرضِ.

وفيهِ وجوهٌ مِنَ الدَّلالةِ:

أحدُها: يُذَكِّرُهُمْ نِعمَهُ عليهمْ حينَ[11] جَعَلَ هذهِ الأرضَ بحيثُ يَمْهَدونَها، ويَفْتَرِشونَها، ويَنْتَفِعونَ بها بأنواعِ المَنافعِ، وبحيثُ مَكَّنَ لهمُ الوصولَ إلى حوائجِهِمُ التي فَرَّقَها في الأمكنةِ المُتَباعِدَةِ بِما جَعَلَ لهمْ فيها سُبُلاً وطُرُقاً، يَسْلُكونَ فيها لِيَصِلوا إلى الحَوائجِ التي فُرِّقَتْ في البلدانِ المُتَباعِدَةِ ما لولا جَعْلُهُ فيها السُّبُلَ والطُّرُقَ التي جَعَلَ ما قَدَروا السلوكَ فيها، ولا عَرَفوا أنهمْ مِنْ أيِّ جِهةٍ يَصِلونَ إلى حَوائجِهِمُ التي فُرِّقَتْ، فَيُلْزِمُهُمْ بما ذَكَرَ القيامَ بشكرِهِ على تلكَ النِّعَمِ.

---

(١) في الأصل وم: حتى يزعمون. (٢) في الأصل وم: وينكروا. (٣) في الأصل وم: كذبوه. (٤) في الأصل وم: يصدقوه. (٥) في الأصل وم: يجعلهما. (٦) و(٧) في الأصل وم: إياهما. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: جعل. (١١) في الأصل وم: فقالوا. (١١) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

والثاني[١]: دلالةُ حكمتِهِ لِيَدُلَّهُمْ أنهُ إنما جَعَلَ لهمْ ما ذَكَرَ لِحِكْمَتِهِ، ولم يَجْعَلْها عَبَثاً باطلاً [فَيَلْزَمُهُمُ الشكرُ حينَ][٢] فَرَّقَ حوائِجَهُمْ في أمكنةٍ مُتباعِدَةٍ، ثم مَكَّنَ لهمُ الوصولَ إليها، لِيَعْلَموا[٣] أنَّ الذي مَلَكَ أنفُسَهُمْ، هو مالكُ أطرافِ الأرضِ؛ إذْ لو كانَ هذا غَيرَ مالكٍ ذلكَ لَمَنَعَهُمْ عنِ الوصولِ إلى حوائِجِهِمْ.

والثالثُ[٤]: دلالةُ قدرتِهِ حينَ[٥] جعلَ لهمْ في الأرضِ ما ذَكَرَ مِنَ التَّسْخيرِ لهمْ حتى [يَتَظاهروا فيها، ويَفْتَرِشونَها][٦] ويَسْلُكوا فيها السبلَ التي جَعَلَها لهمْ إلى حيثُ أرادوها، وقَصَدوها، ومَكَّنَ لهمْ لِيَعْلَموا[٧] أنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ في ما ذَكَرَ مِنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ ونَشْرِهِ في الأرضِ وإنباتِ النباتِ فيها بذلكَ الماءِ دلالةٌ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا﴾ فإنهُ أنْزَلَ الماءَ مِنَ السماءِ ليكونَ في الأرضِ أنواعُ النِّعَمِ التي ذَكَرَ، ويَجْعَلَ منافعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافعِ الأرضِ على بُعْدِ ما بينَهما لِيَعْلَموا عِظَمَ نِعَمِهِ عليهمْ ولِيَعْلَموا أنَّ مالِكَهما واحدٌ وما جَعَلَ في الماءِ مِنَ المَعْنى واللُّطْفِ ما يُوافِقُ جميعَ النباتِ والثمارِ على اخْتِلافِ أجناسِها وجَواهِرِها [لِيَعْلَموا أنَّ مَنْ][٨] قدرَ على إحياءِ الأرضِ بذلكَ المَعْنى الذي جَعَلَ في الماءِ مُوافَقَةً جميعَ النباتِ والثمارِ على اخْتِلافِ جَواهِرِها وأجناسِها، لا يُحْتَمَلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ مِنْ بَعْثٍ أو غَيرِهِ؛ إذِ الأُعجوبةُ في ما ذَكَرَ مِنْ إحياءِ الأرضِ بذلكَ الماءِ ومُوافَقَةِ المَعْنى المَجْعولِ[٩] في الماءِ جميعَ ما ذَكَرَ أعْظَمُ وأكثَرُ مِنَ البَعْثِ لأنهُ إعادةٌ، وذلكَ ابْتِداءٌ.

فَمَنْ مَلَكَ، وقَدَرَ على ما ذَكَرَ مِنَ الإحياءِ فهو على البَعْثِ أقْدَرُ وأمْلَكُ. ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ أي تُبْعَثونَ واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ جائزٌ أنْ يَدخُلَ في ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الأزواجِ كلِّها جميعُ ما يكونُ لها أزواجٌ مِنْ مُقابلاتٍ وأشكالٍ؛ إذِ التَّزاوجُ قد يَقَعُ، ويُسْتَعْمَلُ في الأضدادِ والأشكالِ مِنَ الأفعالِ والجواهرِ مِنَ الكُفْرِ والإيمانِ والطاعةِ والمَعْصِيَةِ، فيكونُ في ذلكَ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العبادِ؛ إذْ أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ الأزواجَ كلَّها، وبَينَ هذهِ الأفعالِ ازْدِواجٌ، وإنْ كانتْ مُتَضادَّةً مُتَقابلةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ: أنهُ فَرَّقَ حوائجَ الخَلْقِ في أمكِنَةٍ بعيدةٍ، وبَينَهُمْ وبينَ أمكِنَةِ حوائجِهِمْ مَفاوِزُ وفَيافٍ وبحارٌ، فَجَعَلَ لهمْ في المَفاوِزِ أنعاماً يركبونَها لِيَصِلوا إلى حوائجِهِمْ وفي البحارِ سُفُناً لِيَرْكبوها لِيَصِلوا إلى حوائِجِهِمُ التي في البحارِ.

يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَها، ويُذَكِّرُهُمْ قُدْرَتَهُ: أنَّ مَنْ مَلَكَ هذا، وقَدَرَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ جَعَلَ ظُهورَهُ بحيثُ يَسْتَوُونَ عليها، ويَقِرّونَ. وكانَ لهُ أنْ يَجْعَلَ ظهورَها بحيثُ لا يَسْتَوُونَ عليها، ولا يَقِرّونَ، وهذا مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ ثم نعمتُهُ تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

[أحدُها: ما][١٠] ذَلَّلَ لهمْ مِنَ الأنعامِ، وسَخَّرَها لهمْ بِقُوَّتِها وشِدَّتِها.

[والثاني: ما][١١] جَعَلَ لهمْ أن يَسْتَعْمِلوا الدوابَّ، وهي تَتَألَّمُ، وتَتَلَذَّذُ كما يَتألَّمونَ، ويَتَلَذَّذونَ.

[والثالثُ:][١٢] جَعَلَها مَنْفَعَةً لهمْ، لا أنْ جُعِلوا لها.

---

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) في الأصل وم: فيلزم حيث. (٣) في الأصل وم: ليعلم. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: ظهورها ويفترشونها. (٧) في الأصل وم: ليعلم. (٨) في الأصل وم: ليعلم أن. (٩) من م، في الأصل: المجهول. (١٠) في الأصل: لما، في م: ما. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: ثم.

جنة السنة

[والرابعُ:][1] أنْ تكونَ نِعْمَتُهُ التي أمَرَهُمْ أنْ يذكُروها الإسلامَ والتوحيدَ، ويقولوا[2]: الحمدُ للهِ الذي هدانا للإسلامِ ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

[والخامسُ: أنْ][3] يأمُرَهُمْ أنْ يَذكروا ما أنشأ لهمْ مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُطيقينَ. يُقالُ: أنا لك مُقرِنٌ أي مُطيقٌ، ويُقالُ: أنا مُقرِنٌ لهذا العملِ أي قَوِيٌّ عليهِ.

وأصلُ هذا التأويلِ أنَّ الدوابَّ والأنعامَ في أنفسِها أشَدُّ وأكثرُ قوةً وأعظمُها مِنَ البشرِ. لكنَّ اللهَ تعالى بفضلِهِ ومَنِّهِ عَلَّمَ الإنسانَ الحِيَلَ حتى قَدَرَ على استِعمالِ الدوابِّ والأنعامِ مع قُوَّتِها وشِدَّتِها حيثُ شاؤوا وفي ما شاؤوا، وسَخَّرَها لهمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي لم يَجْعَلْنا مِنْ قَرْنِ الدوابِّ ومِنْ قَرْنِها بحيثُ نُسْتَعْمَلُ لما تُسْتَعْمَلُ الدوابُّ، وتُرْكَبُ على الظهورِ، أي لم يَجْعَلْنا مِنْ قَرْنِ الدوابِّ ومِنْ أشكالِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها[4]: البَعْثَ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ.

[والثاني:][5] أنّا إلى ما جَعَلَ لنا ربُّنا مِنَ الوصولِ إلى حوائجِنا لَمُنقَلِبونَ بها وراجعونَ، واللهُ أعلَمُ.

[والثالث][6]: أنّا إلى أوطانِنا ومنازِلِنا راجعونَ بها ما لولا هي لم يَتَهَيَّأْ لنا الرجوعُ إلى ذلكَ ولا الوصولُ إلى ما جَعَلَ لنا مِنَ الحوائجِ التي فُرِّقَتْ في الأمكنةِ المُتباعدةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ[7] الكَفَرَةَ جَعَلوا للهِ تعالى مِنْ عبادِهِ أُنثى أي بِنتاً.

وقالَ الزَّجاجُ: ﴿جُزْءًا﴾ أي بِنتاً، وقالَ: إنَّ الجُزْءَ عندَ بعضِ العربِ البِنْتُ لأنَّ الكَفَرَةَ قدِ اختَلَفَ أنواعُ كُفرِهِمْ، وهم مُختَلِفونَ في كُفرِهِمْ.

تقولُ الثَّنَوِيَّةُ بالإِثْنَينِ؛ يقولونَ عنِ اللهِ تعالى: هو خالقُ الخَيراتِ، وخالقُ الشُّرورِ غيرُهُ على حَسَبِ ما اختَلَفوا في ذلكَ الغيرِ ما هو؟

فهؤلاءِ الثَّنَوِيَّةُ جَعَلوا للهِ تعالى مِنْ عبادِهِ جُزْءاً، وهو الخَيراتُ، ولم يَجْعَلوا[8] لهُ الجُزْءَ الآخَرَ.

ومُشركو العَرَبِ جَعَلوا لهُ في ما رَزَقَهُمْ جُزْءاً[9] وجُزْءاً لِشُركائِهِمْ حينَ[10] قالَ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فهؤلاءِ جَعَلوا لهُ جُزْءاً مِمّا رَزَقَهُمْ، وهو الظاهرُ، وفريقٌ آخَرُ جَعَلوا لهُ جُزْءاً مِنْ عبادِهِ، وهو الإناثُ، ولم يَجْعَلوا للهِ البَنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] فَجَعَلوا[11] الجُزْءَ لهُ على ما ذَكَرَ[12] أهلُ التأويلِ، وصَرَفوهُ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي كَفورٌ لِنِعَمِهِ مُبينٌ أي يُبَيِّنُ كُفرانَهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ هو على الإضمارِ، كأنهُ يقولُ: أمْ يقولونَ: اتَّخَذَ مِمّا يَخْلُقُ بناتٍ لنفسِهِ ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ٦٢].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (٥) و(٦) في الأصل وم: يحتمل و. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: يجعل. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: لله تعالى. (١٠) في الأصل وم: حيث.
(١١) في الأصل وم: فجعل. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: ما أظهره مما ذكره.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ أي قالوا: بل اتَّخذَ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾.

يذكُرُ في هذهِ الآياتِ سَفَهَ أهْلِ مكةَ وشدةَ تعَنُّتِهِم لأنهمْ قومٌ لا يؤمِنونَ بالرسلِ وما ذَكَروا مِنِ اتِّخاذِ الولدِ وما ادَّعوا بأنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ وما أقَرّوا حينَ سُئلوا: مَنْ خَلَقَ / ٤٩٦ ـ أ/ السمواتِ والأرضَ؟ أنَّ اللهَ، هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ ممّا لا سَبيلَ إلى مَعْرِفةِ ما قالوا، وادَّعَوا إلّا بالرسلِ، وهُمْ يُنْكِرونَ الرسلَ. فكيفَ ادَّعوا ما ادَّعوا؟ وهُمْ يُنْكِرونَ خَبَرَهُمْ لأنَّ مَنِ ادَّعى وَلَدَ الغائبِ، لا يُعْلِمُهُ إلّا بِخَبَرٍ صادقٍ. وكذلكَ مَعْرِفةُ الملائكةِ إنما هو بِخَبَرٍ يأتيهِمْ. ثم هُمْ يُنْكِرونَ الأخبارَ والرسلَ، فَيَتَناقَضُ دَعْواهُمْ، ويَضْمَحِلُّ، على ما ذَكَرْنا[1].

الآية ١٧ ثم أخبرَ عنهمْ ما يُظْهِرونَ مِنَ الحزنِ عندما يُولَدُ لهمْ مِنَ الإناثِ وما يَلْحَقُهُمْ مِنَ الكراهةِ في ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي شَبَهاً بالخَلْقِ، وإنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: بما جَعَلوا لهُ ولداً، والوَلَدُ، هو شبيهُ الوالدِ، فكانَ إثباتُ الولدِ إثباتَ المَثَلِ والشَّبيهِ.

والثاني: في إثباتِ الوَلَدِ لهُ إثباتُ المُشابَهَةِ بينَهُ وبينَ جميعِ الخَلْقِ، لأنَّ الخَلْقَ لا يَخلو: إمّا أنْ يكونَ مولوداً مِنْ آخَرَ، ويولَدُ منهُ آخَرُ، وإمّا أنْ يكونَ له شريكٌ في ما يَمْلِكُهُ، وإمّا[2] يكونَ هو شريكَ غيرِهِ، فيكونُ البعضُ شبيهاً بالبعضِ.

فَمَنْ أثبتَ للهِ شريكاً وَوَلَداً فقدْ جَعَلَهُ شَبيهاً بالخَلْقِ. ولهذا بَيَّنَ اللهُ تعالى مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ تَبَرِّياً واحداً بقولِهِ تعالى: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] نَفَى الولدَ والشريكَ عن نفسِهِ نَفْياً واحداً وبراءةً واحدةً، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تفسيراً لقولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ وعلى ذلكَ قولُ أهْلِ التأويلِ: إنهمْ جَعَلوا هذهِ تفسيراً لِلأُولَى.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على التَّفسيرِ لِلأُولَى، ولكنْ على الاِبْتِداءِ في قومٍ آخَرينَ سواهُمْ على ما ذَكَرْنا نحنُ مِنَ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ: هي الأصنامُ التي عَبَدوها: حَلَّوها، وزَيَّنوها بأنواعِ الزينةِ والحَلْيِ، واللهُ أعلَمُ. ولو حُلِّيَ بالحَلْيِ، وزُيِّنَ بالزينةِ، وهو لا يملكُ نَفْعاً ولا ضَرّاً ولا تَكَلُّماً ولا خصومةً ولا شيئاً مِنْ ذلكَ، ولا يُلْتَفَتُ إليهِ، ولا يُكْتَرَثُ لهُ، لولا تلكَ الحَلْيُ والزينةُ التي بها في جعلِ العبادةِ لهُ كَمَنْ منهُ خَلَقَ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما مِنَ المَنافعِ، أي ليسَ هذا بِسَواءٍ.

لذلكَ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في اخْتيارِهِمُ الأصنامَ التي هذا وَصْفُها في العبادةِ على عبادةِ اللهِ تعالى الذي منهُ كلُّ شيءٍ. يُصَبِّرُ رسولَهُ ﷺ على أذاهُمْ وتكذيبِهِمْ إياهُ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ معهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ هي الإناثُ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الأُنْثى ضعيفٌ قليلُ الحيلةِ، وهي عندَ الخصومةِ والمُجاوَزَةِ غيرُ بيِّنٍ، يَصِفُ عَجْزَهُنَّ وضَعْفَهُنَّ ونُقْصانَهُنَّ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كيفَ نَسَبوا إلى اللهِ ﷻ ما هو أضْعَفُ وأعجَزُ في ما ذَكَرَ، وقد اتَّقَوا هُمْ منها، واختاروا لأنفسِهِمْ ما هو أكْمَلُ وأقْوَى، وهُمُ الذكورُ؟ وهو صِلَةُ قولِهِ ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وكلُّ حرفٍ ممّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ ونَحْوُ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يَرْجِعَ إلى مَعْنًى آخَرَ غيرِ المَعْنى في ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ، وكلُّ حرفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ يَرْجِعُ إلى فريقٍ غيرِ الفريقِ الآخَرِ لأنهمْ كانوا في المذاهبِ مُخْتَلِفينَ مُتَفَرِّقينَ، وجائزٌ أنْ يَرْجِعَ الكلُّ إلى مَعْنًى واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: ذكر. (٢) في الأصل وم: و.

وفي هذهِ الآياتِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ مِنْ تَصْبيرِ رسولِ اللهِ ﷺ على أذى القومِ ومِنْ بيانِ سَفَهِ أولئكَ ومِنَ التَّحذيرِ مِمّا تأخَّرَ منهمْ[1]، واللهُ أعلمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي يُرَبّى في الحَلْيِ، وهيَ البناتُ، يريدُ جَعْلَهُمْ بناتِ اللهِ تعالى، وهُمْ إذا كانَ لأحدِهِمْ بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أي حزينٌ. والخِصامُ جمعُ خصيمٍ ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي غيرُ مُبينِ الحُجَّةِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي يُنْشَأُ كما يُقالُ: نَشَأَ الصَّبِيُّ يَنْشَأُ، أي يَشِبُّ، ويرتَعُ، والخِصامُ المُخاصمةُ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ واللهُ أعلَمُ: نَبَتَ، ويُقرأُ: ﴿يُنَشَّؤُا﴾ بالتشديدِ، ويُنْشَأُ بالتخفيفِ، وهما لغتانِ، وقرأَ بعضُهُمْ: يَنْشَأُ[2] في الحِلْيَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ سَفَّهَهُمْ في جَعْلِهِمْ عبادَ الرحمنِ إناثاً، وقد جَعَلَ اللهُ مِنْ عبادِهِ إناثاً؟ لماذا عاتَبَهُمْ على ذلكَ؟ قيلَ عنْ هذا وجهانِ[3]:

أحَدُهما: إنما سَفَّهَهُمْ، وعاتَبَهُمْ، لِشهادتِهِمْ على اللهِ ﷻ أنهُ جَعَلَ الملائكةَ إناثاً، وهُمْ [لم][4] يُشاهِدوها، ولا يؤمنونَ بالرسُلِ ﷺ حتى يَقَعَ لهمُ العِلْمُ والخَبَرُ بذلكَ بقولِ الرسولِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: إنَّ اللهَ تعالى وصفَ ملائكتَهُ بأنهمْ لا يَفْتُرونَ عن عبادتِهِ، وأنهمْ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وأنهمْ مطيعونَ للهِ تعالى على الدوامِ بحيثُ لا يَرِدُ منهمْ عصيانٌ طَرْفَةَ عَيْنٍ على ما نَطَقَ بذلكَ الكتابُ. فهمْ إذا قالوا: إنهمْ إناثٌ وَصَفوهُمْ بالضَّعْفِ والعَجْزِ، فلا يَتَهَيَّأُ لهنَّ القيامُ بما ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ وقولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] وقولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] ليسَ على حقيقةِ الجَعْلِ، ولكنْ على الوصفِ لهُ والقولِ، أي قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وَوَصفوا لهمْ بما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ تَعَلَّقَ المعتزلةُ بظاهرِ هذهِ الآيةِ في أنَّ اللهَ تعالى لم يَشَأِ الكُفْرَ مِنَ الكافرِ وإنما شاءَ الإيمانَ، فإنَّ الكُفّارَ ادَّعَوا أنَّ اللهَ تعالى شاءَ منهمُ الكُفْرَ وما شاءَ منهمْ تركَ عبادةِ الأصنامِ حينَ[5] قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي لو شاءَ منا تَرْكَ عبادةِ الأصنامِ لتَرَكْناها، ولكنْ شاءَ منّا عبادةَ الأصنامِ، واللهُ تعالى رَدَّ عليهمْ قولَهُمْ واعتِقادَهُمْ، فقالَ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هُمْ إلا يُكَذِّبونَ.

وعندَنا الآيةُ تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهمْ في قولِهِمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ صَدَقَةٌ، فإنَّ مَعْناهُ لو شاءَ منهمْ تَرْكَهُمْ عبادةَ الأصنامِ ما عَبَدوها، ولكنْ شاءَ أنْ يَعْبُدوها، فَعَبَدوها، فيكونُ هذا منهمْ إخباراً عنِ المُخْبَرِ بهِ على ما هو، فيكونُ صِدْقاً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنما سَمّاهُمْ كذلكَ لِما قالتِ المعتزلةُ: إنهمْ ادَّعَوا، وأخْبَروا أنَّ الكُفْرَ بِمَشيئةِ اللهِ تعالى، وأنهُ شاءَ منهمُ الكُفْرَ والإيمانَ، فاللهُ تعالى شاءَ منهمُ الإيمانَ دونَ الكُفْرِ، فقد أخْبَروا على خِلافِ المُخْبَرِ بهِ، فيكونونَ كاذبينَ.

ويَحْتَمِلُ أنهمْ قالوا ذلكَ، وفي قلوبِهِمْ خلافُ[6] ما أخْبَروا، وهو أنَّ الكُفْرَ ليسَ ممّا شاءَ اللهُ تعالى، وإنما شاءَ

---

(١) من م، في الأصل: منها. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/١٠٤ و/١٠٥. (٣) في الأصل وم: وجهين. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بخلاف.

جنة السنة

الإيمانَ كما تقولُهُ المعتزلةُ. ولكنْ يقولونَ ذلكَ رداً على المسلمينَ الذينَ يدعونَهُمْ إلى الإيمانِ والرّدعِ عنِ الكُفْرِ: إنهُ إذا كانَ شاءَ منا الكُفْرَ دونَ الإيمانِ كيفَ نُؤمِنُ، ونَترُكُ الكُفْرَ والإخبارَ عمّا هو بهِ، وإنْ كانَ صدقاً؟ ولكنْ إذا كانَ في قَلْبِ المُخبِرِ واعتِقادِهِ خِلافُ ذلكَ، فيكونُ الإخبارُ في نفسِهِ صِدقاً. لكنْ مِنْ حيثُ أنهُ إخبارٌ عمّا في الضميرِ يكونُ كَذِباً.

وهذا كقولِ اللهِ تعالى /٤٩٦ ـ ب/: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وهُمْ في قولِهِمْ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صَدَقَةٌ، لكنّهمْ[١] في إخبارِهِمْ عمّا في ضَميرِهِمْ كَذَبَةٌ لِما لا يُوافِقُ ظاهرُ كلامِهِمْ حقيقةَ ما في قلوبِهِمْ، فَيَرْجِعُ تكذيبُ اللهِ تعالى إياهمْ لِكَذِبِ قلوبِهِمْ، وإنْ كانوا في نفسِ قولِهِمْ: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صَدَقَةً.

وإذا احتَمَلَ الوجهَينِ فلا تكونُ الآيةُ حُجّةً لهمْ معَ الاحتِمالِ. وعلى الوَجهَينِ جميعاً يكونونَ كاذِبينَ. لِذلكَ قالَ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهمْ، وإنْ كانوا صادقينَ في ذلكَ، فهمْ بما قالوا ذلكَ على الاسْتِهْزاءِ والسُّخْرِيَةِ لا على الجِدِّ، فيكونُ قَصْدُهُمْ[٢] تلبيسَ الصدقِ على الناسِ وردَّهُ كقولِهِ ﷺ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] وهذا القولُ مِنْ هذا الإنسانِ حَقٌّ وصِدْقٌ، لكنْ إنما قالَ ذلكَ اسْتِهْزاءً منهُ وإنكاراً لِلبَعْثِ.

ألا تَرى أنَّ اللهَ تعالى، وَعَظَهُ على ذلكَ، وذَكَّرَهُ، حينَ[٣] قالَ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]؟ فَعَلَى ذلِكَ قولُ أولئكَ وإنْ كانَ في الظاهرِ صِدقاً، فهمْ إنما قالوا ذلكَ اسْتِهزاءً وسُخْرِيَةً على سَبيلِ الإنكارِ وتَلْبيسِ الحقِّ، فيكونُ إخباراً مِنْ ذلكَ الوجهِ ولهذا الغَرَضِ خَرْصاً وكَذِباً، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: غَرَضُهُمْ بذلكَ الاحتِجاجُ على المسلمينَ في تَوَعُّدِهِمْ بالعذابِ بِسببِ العِنادِ والكُفرِ: أنْ كيفَ عَذَّبَ، وإنّا إنما باشَرْنا الكُفرَ بِمَشيئتِهِ، ولو شاءَ أنْ نَترُكَ العبادةَ للأصنامِ تَرَكْنا. فإذا كانَ شاءَ منّا الكُفرَ حتى كَفَرْنا، لماذا عاقَبَنا؟.

فأبْطَلَ احتِجاجَهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي هُمْ جاهلونَ في الاحتِجاجِ بهذا كاذبونَ في أنهمْ باشَروا الكُفرَ بِسببِ مَشيئةِ اللهِ تعالى منهمُ[٤] الكفرَ. ولكنْ لِسوءِ اختِيارِهِمْ وأسبابٍ حامِلَةٍ لهمْ على ذلكَ.

وأصلُهُ أنْ لا أحدَ مِنَ العُصاةِ والفَسَقَةِ والكَفَرةِ يَفعَلُ، وعندَهُ أنَّ اللهَ لو شاءَ ذلكَ منهمْ، فإذا كانَ وقتُ فعلِهِ لا يَفْعَلُ [ما يَفعَلُ][٥] لأنَّ اللهَ تعالى شاءَ ذلكَ منهُ لم يكُنْ [لهُ][٦] هذا الاحتِجاجُ والقولُ بما[٧] قالوا، واللهُ الموفّقُ.

والرابعُ: يَحتَمِلُ أنهمْ يقولونَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ وقولُهُمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] لو[٨] أمَرَنا اللهُ تعالى بِتَرْكِ عبادتِنا أولئكَ الأصنامَ ما عَبَدْناهُمْ، لكنْ أمَرَنا أنْ نَعْبُدَهُمْ.

كانوا يَدَّعُونَ أنما يَعبدونَ لأمرٍ مِنَ اللهِ تعالى كقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وأرادوا بالمَشيئةِ الرِّضا، يقولونَ: لولا أنَّ اللهَ تعالى قد رَضِيَ بذلكَ عنّا وعنْ آبائنا، وإلّا ما تَرَكَنا وإيّاهُمْ[٩] على ذلكَ. فاسْتَدلّوا بِتَرْكِهِمْ على ما اختاروا على أنَّ اللهَ تعالى قد رَضِيَ بذلكَ عنهمْ.

فرَدَّ اللهُ ﷻ بقولِهِ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وبقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ الآية [الأعراف: ٢٨] وقد ذَكَرْنا على الاسْتِقْصاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي لم يُؤتِهِمْ كتاباً ليكونَ لهمُ العِلْمُ بذلكَ؛ يُسَفِّهُهُمْ في قولِهِمْ لأنهمْ قومٌ لا يؤمنونَ بالرسلِ والكتبِ، وتلكَ أسبابُ العِلْمِ، وليسَتْ لهمْ تلكَ الأسبابُ لِما لا يؤمنونَ بها، ولا يُصَدِّقونَ.

---

(١) في الأصل وم: لكن. (٢) في الأصل وم: قصده. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: إياهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م،في الأصل: إنما. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٩) في الأصل: هم، في م: وهم.

جنة السنة

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ إنهم قومٌ يُنكِرون [الرسلَ][1] ويكذِّبونَهُمْ بعِلّةِ أنهم بَشَرٌ، ثم اقتَدَوا بآبائِهِم، واتَّبعوهُم، وهُم بَشَرٌ أيضاً. فهذا تناقُضٌ في القولِ؛ يَذكُرُ سَفَهَهُم وتناقُضَهُم في القولِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ يُصبِّرُ رسولَهُ على ما قالَ هؤلاءِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

إنهُ ليسَ ببديعٍ مِنْ هؤلاءِ بل قالَ أوائِلُهُمْ لرسُلِهِمْ على قالَ قومُكَ؛ يُصبِّرُهُ ﷺ ويُعزِّيهِ، ويَذكُرُ سَفَهَهُمْ في اتّباعِهِمْ إياهُمْ واقتِدائِهِمْ بهِمْ، وهُمْ بَشَرٌ، فيقولُ: فإذا كُنتُمْ لا مَحالةَ تتّبِعونَ[2] البَشَرَ، فاتَّبِعوا أمْرَ [مَنْ][3] هُمْ أهدى مِنْ آبائكُمْ، وهُمُ الرسلُ.

الآية ٢٤ وهو ما قالَ ﷺ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ﴾ عندَ ذلكَ ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ عِناداً وتَعنُّتاً منهم.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَٰلَ﴾ يا محمدُ ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ مِنَ الدينِ أفتتَّبِعوني في ما جِئتُكُمْ؟ فرَدّوا عليهِ، وقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا وعيدٌ. ثم قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يقولُ: هو رجوعٌ إلى ذِكرِ الأممِ الخاليةِ. فقالَ: فانتقَمْنا منهم بالعذابِ الذي نَزَلَ[4].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يَحتمِلُ مُكذِّبي الرسلِ، ويَحتمِلُ مُكذِّبي العذابِ.

الآيتان ٢٦ و٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ والإشكالُ أنهُ ﷺ تبرّأَ مِنْ عبادةِ جميعِ ما يَعبُدونَ، واستثنى عبادةَ الذي فَطَرَهُ، وهو اللهُ تعالى، وهُمْ لا يَعبدونَ الذي فَطَرَهُ، فكيفَ يَستثني مِنْ جملةِ عبادةِ مَنْ يَعبُدونَ، والاستثناءُ مِنْ جِنسِ المُستثنى منهُ؟

فيقولُ بعضُهُمْ: إنهُ تبرّأَ مِنْ عبادةِ مَنْ عَبَدوا، واستثنى عبادةَ مَنْ فَطَرَهُ لأنَّ فيهِمْ مَنْ عَبَدَ الذي فَطَرَهُ[5] اللهَ تعالى. فلو تبرّأَ مِنْ عبادةِ جميعِ ما يَعبدونَ على الإطلاقِ لصارَ مُتبرِّئاً مِنْ عبادةِ اللهِ تعالى. لِذلكَ استثنى عبادةَ اللهِ، واللهُ أعلمُ.

لكنَّ الإشكالَ أنهُ لم يَظهَرْ أنَّ في قومِهِ مَنْ يَعبُدُ اللهَ تعالى، وهو الذي فَطَرَهُ، وخَلَقَهُ. فما مَعنى الاستِثناءِ؟

فيقالُ: إنْ لم يكُنْ في قومِهِ مَنْ يَعبُدُ الذي فَطَرَهُ فكانَ في آبائِهِمْ وأوائِلِهِمْ مَنْ يَعبُدُ اللهَ تعالى، ولا وقوفَ لهُ على ذلكَ، فيَصيرُ مُتبرِّئاً مِنْ ذلكَ لو تبرّؤوا مِمَّنْ يَعبُدونَ جميعاً، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ استثنى الذي فَطَرَهُ لأنهمْ يَعبدونَ هذهِ الأصنامَ والأوثانَ دونَ اللهِ تعالى رجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ، فتُقرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلفى لِقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فرَجَعَ استِثناؤُهُ إلى حقيقةِ الذينَ قَصَدوا بالعبادةِ، وهو الذي فَطَرَهُمْ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا استِثناءً مُنقطِعاً، وهو الاستِثناءُ بخلافِ الجِنسِ بِمَعنًى. لكنَّ مَعناهُ: أني براءٌ ممّا تَعبُدونَ، ولكنْ أعبُدُ الذي فَطَرَني، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] [وقولِهِ تعالى][6]: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ﴾ [النساء: ٢٩] أي ولكنْ تجارةٌ عنْ تَراضٍ لأنهُ لا يجوزُ أنْ تُستثنى التجارةُ عَنْ تراضٍ مِنَ الباطلِ، ولا السلامُ مِنَ اللَّغوِ. ونَحوُ ذلكَ كثيرٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ذُكِرَ أنَّ هذا الحرفَ ﴿بَرَآءٌ﴾ على ميزانٍ واحدٍ في الوُحدانِ/ ٤٩٧ ـ أ/ والتَّثنيةِ والجَمعِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: تتبعونه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وذلك جائز. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ هذا يُخرّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنهُ سيُثبّتني على الهُدَى.

والثاني: أي فإنهُ سَيهْديني في حادثِ الوقتِ، والهُدَى ممّا يَتجدّدُ، فيَنصَرِفُ إلى إرادةِ حقيقةِ الهُدَى.

فَعلَى هذينِ الوجهَينِ يُخرّجُ على التوفيقِ على الهُدَى والعِصمَةِ عَن ضِدّهِ في المُستَقبَلِ.

ولا يَحتَمِلُ أنْ يُريدَ بهذا الهُدَى البَيانَ بأنْ يقولَ: فإنهُ سَيُبيِّنُ لي لأنهُ قد بيّنَ لهُ جميعَ ما تقَعُ لهُ الحاجةُ إليهِ، فلا يَحتَمِلُ أنْ يَسْألَ البيانَ، ولا يَحتَمِلُ الأمرَ أيضاً، فإنهُ قد تقدّمَ الأمرُ بهِ، ويرجِعُ إلى حقيقةِ الهُدَى أو إلى التوفيقِ والعصمةِ.

ويكونُ في الآيةِ دلالةٌ على أنّ عندَ اللهِ تعالى لُطفاً، وهو مَن أعطَى ذلكَ يَصيرُ مُهتَدِياً، وأنهُ لم يُعْطِ الكَفَرَةَ ذلكَ، ولو أعطاهُمْ لآمَنوا.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: الكلمةُ الباقيةُ هي كلمةُ الهدايةِ والتوحيدِ، فإنهُ سألَ أنْ يَجعَلَ ما وَجدَ منهُ مِنَ التّبرّي مِن غيرِ اللهِ تعالى وتحقيقِ عبادةِ اللهِ تعالى بقولِهِ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ[1] مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ كلمةً باقيةً، واللهُ أعلَمُ، كلمةَ التوحيدِ. فإنّ قولَهُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نَفيُ غيرِ اللهِ، وقولَهُ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إثباتُ الألوهيّةِ للهِ تعالى. وذلكَ مَعنَى قولِهِ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤].

وأجابَ اللهُ تعالى سؤالَهُ في دعائِهِ، فلم يَزَلْ في ذُرّيّةِ إبراهيمَ وعَقِبِهِ مَن يَقولُها. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

والثاني: الكلمةُ الباقيةُ هي كلمةُ الدعوةِ إلى الهُدَى والتوحيدِ، وهي عبارةٌ عن إبقاءِ النُّبوّةِ والخِلافةِ في ذُرّيّتِهِ إلى يومِ القيامةِ، وهي[2] ما ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

أخبَرَ أنّ الظالمَ مِن ذُرّيّتِهِ لا يَنالُ عهدَهُ. فأمّا مَن لم يكنْ ظالماً فإنهُ يَنالُ عهدَهُ، وقد استَجابَ اللهُ دعاءَهُ، فلم تَزَلِ الدعوةُ في ذُرّيّتِهِ والنُّبوّةُ في خُلفائِهِمْ إلى يومِ القيامةِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أخبَرَ أنهُ متّعَهُمْ وآباءَهُمْ في مكانٍ لا نباتَ فيهِ، ولا زَرْعَ، ولا ماءَ. سَخّرَ الناسَ، وحَمَلَهُمْ على أنْ يَحمِلوا إليهِمُ الطعامَ والأغذيةَ وأنواعَ الفواكِهِ مِنَ الأمكنةِ البعيدةِ، ويَجْلُبوا إليهِمْ ما ذَكَرْنا مِن تَمْتيعِهِمْ إيّاهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآنُ ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي محمدٌ ﷺ بيّنَ أنهُ مِن عندِ اللهِ تعالى جاءَ، وأنهُ رسولُهُ ﷺ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لم تَزَلْ تلكَ[3] عادةَ رُؤساءِ الكَفَرَةِ والأشرافِ منهُمْ والمتكلّمِ بهذهِ الكلمةِ عندَ نُزولِ الآياتِ والمُعجزاتِ، يريدونَ بذلكَ التمويهَ على أتباعِهِمْ والتّلْبيسَ. فَعلَى ذلكَ قولُ هؤلاءِ ﴿هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ظَنّ هؤلاءِ أنهُ لمّا وُسّعَ عليهِمُ الدنيا، وأُنعِمَ عليهِمْ، وأُعطِيَ لهمُ الأموالَ، إنما أُعطوا ذلكَ، ووُسّعَ عليهِمْ، لِكرامةٍ لهمْ عندَ اللهِ وفَضلٍ وقَدْرٍ لَديهِ. ومَن ضُيّقَ عليهِ الدنيا، ولم يُعْطَ ذلكَ، إنما ضُيّقَ عليهِ، ومُنِعَ لِهوانٍ لهُ عندَهُ. فقالوا [عندَ][4] ادّعاءِ محمدٍ ﷺ الرسالةَ ونزولِ القرآنِ عليهِ مِنَ اللهِ تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ظَنّوا أنّ مَن عَظُمَ قدرُهُ ومَنزِلَتُهُ عندَ الخَلْقِ بما وُسّعَ عليهِ، وأُعطِيَ مِنَ الأموالِ، هو عندَ اللهِ كذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: بريء، وهي قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/١٠٨. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: كانت. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

قالوا[1]: لو كانَ ما يقولُ محمدٌ حقّاً: إنّ هذا القرآنَ إنما أُنزِلَ مِن عندِ اللهِ هلّا أُنزِلَ على رجلٍ مِنَ القريتَيْنِ عظيم؟ فأخبرَ ﷻ أنهُ لم يُوَسّعِ الدنيا على مَن وَسّعَ لِفَضلِ مَنْزِلتِهِ وقَدْرِهِ عندَهُ، [وضيّقَ][2] على مَن ضيقَ لِهوانٍ لهُ عندَهُ. لكنْ رُبَّ مُضيّقٍ عليهِ مُكَرَّمٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، وربَّ مُوسَّعٍ عليهِ يكونُ مُهاناً عندَهُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وهو يُخرّجُ على وجهَين:

أحدُهما: أي أنهمْ لا يَمْلِكونَ قِسمَها على تدبيرِ ما أُنشِئوا وعلى تقديرِ ما خُلِقوا، وهي ما ذَكَرَ مِنَ المعاشِ وأسبابِ الرزقِ مِنَ التوسيعِ والتفضيلِ. فالذي لم يُجعَلْ إليهمْ في ذلكَ شيءٌ مِن تدبيرِهِ وتقديرِهِ أحقُّ وأولى ألّا يَملِكوا قِسْمَةَ ذلكَ بينَهُمْ واختيارَهُ، وهو النُّبوّةُ والرسالةُ وَوَضعُها حيثُ شاءَ، وهذا أحدُ التأويلَين.

[والثاني][3]: قولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ دلالةٌ في خَلْقِ أفعالِ الخَلْقِ، لأنَّ التَّضييقَ[4] والتَّوسيعَ في الرزقِ والمعيشةِ إنما يكونُ باكتسابٍ يكونُ منهمْ وأسبابٍ جُعِلَتْ لهمْ.

ثم [في إخبارِهِ][5] أنهُ هو يَقْسِمُ ذلكَ دَليلٌ[6] على أنهُ هو مُنْشِئُ أكسابِهِمْ وخالقُ أفعالِهِمْ وأنَّ لهُ في ذلكَ تدبيراً، لأنا نَرَى مَنْ هو أعلَمُ وأقدَرُ على أسبابِ الرزقِ كانتِ الدنيا عليهِ أضيَقَ، ومَن دونَهُ في تلكَ الأسبابِ والاكْتِسابِ كانَتْ عليهِ أوسَعَ.

دَلَّ [ذلكَ][7] على أنهُ [لو كانَتْ][8] على تدبيرِهِمْ خاصّةً لكانَتْ تكونُ هي أوسَعَ على مَن هو أجمَعُ لأسبابِها واكتِسابِها وأقدَرُ على ذلكَ، وتكونُ [أضيقَ][9] على مَن ليستْ لهُ تلكَ الأسبابُ.

ثم قالَ جَعفَرُ بْنُ حَرْبٍ للخروجِ عن هذا الإلزامِ: إنما[10] وَسّعَ على مَن وَسّعَ لأنَّ التَّوسيعَ لهُ أصْلَحُ وأخيَرُ، وضَيّقَ على مَن ضَيّقَ لأنَّ التَّضييقَ لهُ أصْلَحُ وأخيَرُ في الدينِ.

فيقالُ: لو كانَ التَّوسيعُ والتَّضييقُ لأجلِ الأصلَحِ لهمْ في الدينِ والأخيَرِ لم يَكُنْ ما ذَكَرَ مِن رَفعِ بعضٍ على بعضٍ وتَفضيلِ بعضٍ على بعضٍ في الرزقِ مَعنًى، وقد أخبَرَ أنهُ رَفَعَ بعضَهُمْ على بعضٍ درجاتٍ. ولو كانَ الكُلُّ في ذلكَ سَواءً لا يكونُ لبعضٍ على بعضٍ في ذلكَ فَضلٌ ولا درجةٌ، ولأنهُ لو كانوا على ما يقولونَ هُمْ: إنهُ يُعطي كُلّاً ما هو الأصلَحُ في الدينِ والأخيَرُ لهمْ في ذلكَ، فهؤلاءِ الفراعنةُ منهمُ والرؤساءُ لو لم يَكُنْ لهمْ تلكَ السَّعةُ وتلكَ الأموالُ لكانَ لا يَتَهيّأُ لهمْ فِعلُ ما فَعَلوا ومَنْعُ الناسِ عنِ اتّباعِ رُسُلِ اللهِ ﷺ.

وعلى ذلكَ فرعونُ إنما ادّعَى لنفسِهِ الألوهيّةَ بما أُعطِيَ لهُ مِنَ المُلْكِ والسَّعَةِ ما لو لم يَكُنْ لهُ ذلكَ لم يَدّعِ ذلكَ، وكانَ ذلكَ أصلَحَ [لهُ][11] في الدينِ. فَدَلَّ أنَّ اللهَ تعالى قد يَترُكُ ما هو الأصلحُ لهُمْ في الدينِ، وأنْ ليسَ عليهِ حِفظُ الأصلحِ لهمْ في الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: سِخْرِيّاً: بكسرِ السينِ[12] الاستِهزاءُ. وتأويلُهُ: أنهُ عليمٌ منهمْ أنَّ بعضَهُمْ يَستهزِئُ ببعضٍ، ويَهزأُ بعضُهُمْ [مِن بعضٍ][13] أعطى ذلكَ لهمْ ليكونَ منهمْ ما عَلِمَ منهمْ مِنَ الهُزْءِ والسخريةِ، لا أنْ يكونَ يرفعُ بعضَهُمْ على بعضٍ ليأمُرَ بما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي النُّبوّةُ أي ما اختارَ لِرسولِ[14] اللهِ ﷺ مِنَ الرسالةِ والنُّبوّةِ خيرٌ ممّا يَجمَعُ أولئكَ الكفَرَةُ.

ويَحتَمِلُ ما يدعوهُمْ محمدٌ ﷺ ويَختارُ لهمْ مِنَ التوحيدِ والدينِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هُمْ مِنَ الأموالِ.

ويَحتَمِلُ ما وَعَدَ لأهلِ الإيمانِ مِنَ الثوابِ والكَرامةِ بإيمانِهِمْ، وهو / ٤٩٧ ـ ب/ الجنةُ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: ثم. (٤) في الأصل وم: التفضيل. (٥) في الأصل وم: أخبر. (٦) في الأصل وم: دل ذلك. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: فقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ١١١. (١٣) في الأصل وم: بعضاً. (١٤) اللام ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآيات ٣٣ و٣٤ و٣٥ وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي لولا أنْ يَصيرَ الناسُ كلُّهُم على [مِلّةٍ][١] واحدةٍ، وهو دينُ الكُفرِ، وإلّا لَجَعلْنا لِلْكُفّارِ ما ذَكَرْنا.

وفي[٢] الآيةِ دلالةُ التَّزهيدِ في الدنيا لأنهُ ذَكَرَ أنهُ أعطى الكفارَ ما ذَكَرَ لولا رعايةُ قلوبِ ضَعَفَةِ المؤمنينَ حتى لا يتحولوا إلى دينِ الكُفرِ. فَما مَنَعَ الكافرَ ما مَنَعَ إنما مَنَعَ بسببِ المؤمنِ، فَيَجِبُ أنْ يَزْهَدَ فيها.

وفي الآيةِ دلالةُ جودِهِ وكَرَمِهِ حينَ[٣] لم يَمْنَعْ مَنْ عادَى أولياءَهُ عَنْ[٤] نعيمِ الدنيا. وفي الشاهدِ أنَّ مَنْ عادَى آخَرَ يَمْنَعُهُ ذلكَ مِنَ الفَضْلِ والمالِ.

وفيها دلالةُ هَوانِ الدنيا على اللهِ على ما ذَكَرَ أهْلُ التأويلِ؛ إذْ لو كانَ لها عندَهُ خَطَرٌ وقَدْرٌ لم يُعْطِ الكافرَ منها جَناحَ بعوضةٍ أو جَناحَ ذُبابةٍ. فَدَلَّ ذلكَ على هَوانِها على اللهِ تعالى.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ حينَ[٥] قالوا: ليسَ على اللهِ أنْ يَفْعَلَ بعبادِهِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ، لأنهُ أخْبَرَ تعالى. أنهُ لولا ما يَختارُ أهْلُ الإيمانِ الكُفرَ والدخولَ فيهِ، وإلّا جَعَلَ لأهلِ الكُفرِ ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ النِّعَمِ. فلو كانَ الأصلَحُ واجباً في الدنيا لكانَ يَجِبُ أنْ يُعْطِيَ لأهلِ [الإيمانِ][٦] مِثْلَ ذلكَ الذي ذَكَرَ أنهُ لو أعطى لأهلِ الكُفرِ، فيكونونَ جميعاً أهلَ كُفْرٍ. وإذا أعْطى ذلكَ لأهلِ الإيمانِ لا يكونونَ جميعاً [أهلَ الإيمانِ][٧] وهو الأصلَحُ في الدينِ، ومع ذلكَ لم يُعْطِ. دلَّ أنهُ ليسَ على اللهِ تعالى حِفْظُ الأصلحِ لهمْ في الدينِ ولا حِفْظُ الأخْيَرِ، واللهُ الموفِّقُ.

والأصلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية أنهمْ خُيِّروا في هذهِ الدنيا [بينَ][٨] أنْ يَختاروا النِّعَمَ الدائمةَ واللذةَ [الباقيةَ وبينَ أنْ يَختاروا اللذةَ][٩] الفانيةَ والنِّعْمَةَ الزائلةَ المُنْقَطِعَةَ.

فَمَنِ اختارَ، وآثَرَ النِّعَمَ الدائمةَ واللذةَ الباقيةَ على النِّعْمَةِ الزائلةِ واللذةِ [الفانيةِ][١٠] ضَيَّقَ عليهِ النِّعَمَ الزائلةَ واللذةَ الفانيةَ لِما آثَرَ، واختارَ الباقيةَ على الفانيةِ. ومَنْ آثَرَ الفانيةَ الزائلةَ على الباقيةِ الدائمةِ وَسَّعَ عليهِ الفانيةَ لِما اختارَ، وآثَرَ، وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية [الإسراء: ١٨و١٩] بيَّنَ لكلٍّ ما اختارَ، وآثَرَ مِنَ النِّعَمِ الفانيةِ والدائمةِ، وذَكَرَ الفضةَ والذهبَ، وإنْ كانتْ أشياءُ أُخَرُ، قد تكونُ أرفَعَ وأعظَمَ قدراً منها، لأنَّ هذينِ هما أعَزُّ الأشياءِ عندَهُمْ، وبهما يوصَلُ إلى كلِّ رفيعٍ وعظيمٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ السُّقُفِ والمَعارجِ وما ذَكَرَ مِنَ الزُّخْرُفِ هو رَدُّ ما قالَهُ فرعونُ في حقِّ موسى ﷺ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ[١١] مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] أي لِخَساسَةِ الدنيا وهَوانِها لم يُعْطِ الأولياءَ والأخيارَ مِنْ عبادِهِ. ولولا ما يكونُ مِنْ تَرْكِ أهلِ الإيمانِ وإلّا لكانَ في حقِّ كلِّ كافرٍ سُئِلَ ما فَعَلَ في حقِّ فرعونَ وأمثالِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي كلُّ ما ذَكَرَ ليسَ إلّا مَتاعَ الحياةِ الدنيا أعطى مَنْ آثَرَهُ[١٢] على نعيمِ الآخِرةِ، والعاقبةُ لِلْمُتَّقينَ لِما[١٣] اختاروها على غيرِها، واللهُ المُسْتَعانُ.

قالَ القُتَبِيُّ: المَعارِجُ، يقالُ: عَرَجَ أي صَعِدَ، ومنهُ المِعْراجُ لأنهُ سَبَبٌ إلى السماءِ، أي[١٤] طرقٌ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يَعْلُونَ؛ ظَهَرْتُ على البيتِ إذا عَلَوْتُ سَطْحَهُ، والزخرفُ: الذهبُ. وكذا قولُ أبي عَوْسَجَةَ: المَعارِجُ المَصاعِدُ، والمِعْراجُ المِصْعَدُ، والزُّخْرُفُ كلُّ شيءٍ حَسَنٌ، والزَّخْرَفَةُ التَّحْسينُ والتَّزْيِينُ. وهذا أشبَهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤)في الأصل وم: عاداه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م،في الأصل: لأهل. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: اساور. انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/١١٩. (١٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: كما. (١٤) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

ألا ترى أنه قال في آية أخرى، : ﴿إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: ٢٤] أي زينتها وحسنها، والسَّقفُ هو سماءُ البيتِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَعْشُ﴾ أي يُعْرِضْ ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَعْشُ﴾ أي يَعْمَ بَصَرُهُ، ويَضْعُفْ ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي يَعْمَ عنهُ، ولا يَقْبَلْهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: عَشِيَ يَعْشَى مِنْ عَمَى البَصَرِ وضَعْفِهِ، وعَشا يَعْشو مِنَ الإعراضِ.

وقالَ أبو عُبيدَةَ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي يُظْلَمْ بَصَرُهُ. وقالَ الفرّاءُ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي يُعْرِضْ عنهُ، ومَنْ يَعْشَ بنصبِ[1] الشينِ أي يَعْمَ عنهُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: يَعْشُ أي يُجاوِزْ، وإنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ مِنَ العَشا، وهو ظُلْمَةُ البصرِ، وإنْ شئتَ جَعَلْتَهُ مِنَ التَّعاشي، وهو التَّعامي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ القرآنُ، ويَحْتَمِلُ التوحيدَ والإيمانَ، ويَحْتَمِلُ رسولَ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نُقَيِّضْ﴾ نُقَدِّرْ، والتَّقييضُ التَّقديرُ؛ يقالُ: قَيَّضَ اللهُ لكَ خيراً أي قَدَّرَهُ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نُقَيِّضْ﴾ أي نُهَيِّئْ ﴿لَهُ شَيْطَانًا﴾ ونَضُمُّ إليهِ ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ مَنْ آثَرَ معصيةَ اللهِ، واختارَها على طاعتِهِ، وكانَتْ لَذَّتُهُ وشَهْوَتُهُ في ذلكَ، فالشيطانُ حينَ اختارَ معصيةَ اللهِ على طاعتِهِ، صارَتْ لَذَّتُهُ في ذلكَ.

وعلى ذلكَ مَنِ اتَّبَعَهُ في ما دعاهُ، وأجابَهُ إلى ما دعاهُ، وصارَتْ لَذَّتُهُ في ذلكَ، قارَنَهُ، ولازَمَهُ في ذلكَ ليكونا جميعاً في الدنيا والآخرةِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢].

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السبيلُ المُطْلَقُ، هو سبيلُ اللهِ، والدينُ المُطْلَقُ، هو دينُ اللهِ، والكتابُ المُطْلَقُ، هو كتابُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كانوا يَحْسَبونَ أنهمْ مُهْتَدونَ، لأنَّ الشياطينَ كانوا يُزَيِّنونَ لهمْ، ويقولونَ: إنَّ الذي أنتمْ عليهِ، هو دينُ آبائكُمْ وأجدادِكُمْ، ولو كانوا على باطلٍ لا على حقٍّ ما تُرِكوا على ذلكَ، ولكنْ أُهْلِكوا، واسْتُؤْصِلوا. فإذ لم يُهْلَكوا، وتُرِكوا على ذلكَ، ظَهَرَ أنهمْ كانوا على الحقِّ والهُدى.

كانوا يُمَوِّهونَ لهمْ، ويُزَيِّنونَ، ذلكَ[2]، وظَنّوا أنهمْ على الهُدى كما يقولُ لهمُ الشيطانُ، واللهُ الهادي.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي الكافرُ وقرينُهُ في الآخرةِ ﴿قَالَ﴾ الكافرُ ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ في الآخرةِ يا ليتَ كانَ بيني وبينَكَ في الدنيا بُعْدُ المَشْرِقَينِ حتى لم أكُنْ أراكَ، ولم أتْبَعْكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ في الآخرةِ.

ثم قولُهُ: ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما بينَ مَشْرِقِ الصيفِ إلى مَشْرِقِ الشتاءِ. وقالَ بعضُهُمْ: يَحْتَمِلُ [أنْ يكونَ][3] بُعْدَ المَشْرِقِ عنِ[4] المَغْرِبِ، لكنْ ذَكَرَ باسمِ أحدِهما كما يُقالُ: [عُمَرانِ وأسْوَدانِ][5] سَمّاهُما باسْمِ واحِدِهما، لأنَّ الأسودَ منهما واحدٌ، وهي الحَيَّةُ دونَ العَقْرَبِ. والمُرادُ مِنْ عُمَرَينِ: أبو بكرٍ وعُمَرُ. فَعَلى ذلِكَ قولُهُ: ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ حينَ[6] أَلْجاهُ، وألقاهُ في النارِ والإهلاكِ لِما ذَكَرْناهُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي لا يَنْفَعُكُمْ في الآخرةِ الاعْتِذارُ ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أنفسَكُمْ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ظاهرٌ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/١١٣. (٢) في الأصل وم: كذلك. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: عمرين وأسودين. (٦) في الأصل وم: حيث.

الآية ٤٠ وقولُه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ ولا تَملِكُ هداية / ٤٩٨ ـ أ/ ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ثم مَعْلومٌ أنهُ لم يُرِدْ بالهُدى هداية البَيانِ ولا إسماعَ الآذانِ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَملِكُ ذلكَ كلَّهُ، وهو فِعْلُ رسولِ اللهِ ﷺ ولكنهُ أرادَ الهدايةَ التي لا يَمْلِكُ إلّا هو، والإسماعَ [الذي][1] لا يَمْلِكُ غيرُهُ، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ والرُّشْدُ الذي إذا أعطى مَنْ أعْطى اهْتَدى.

يَذكُرُ عَجزَ رسولِ اللهِ ﷺ عنْ ذلكَ.

وهو على المعتزلةِ لأنهُ أخبَرَ أنَّ عندَهُ لطائفَ وأشياءَ لم يُعْطِها كلَّ أحدٍ، إنما أعطى بَعْضَها دونَ بعضٍ. فَمَنْ أعطاهُ تلكَ اللطائفَ اهْتَدى، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ التوفيقِ والعصمةِ.

وعلى قولِهِمْ: ليسَ عندَ اللهِ شيءٌ يَمْلِكُ بهِ هدايَتَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: قد أعطى كلَّ كافرٍ ما لو أرادَ الكافرُ أنْ يَهْتَدِيَ يَصيرُ مُهْتَدِياً بذلكَ، ولم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ يَمْلِكُ بذلكَ هدايَتَهُمْ.

فَعَلى قولِهِمْ: عَجْزُهُ تعالى عنْ ذلكَ كَعَجْزِ رسولِ اللهِ عنْ ذلكَ. وهو إنما ذَكَرَ ذلكَ إعلاماً أنهُ هو المالكُ لذلكَ دونَ عبادِهِ.

ومَعْلومٌ أنهُ إنما ذَكَرَ على الرُّبوبيَّةِ والألُوهيَّةِ لهُ [واللهُ الموفّقُ][2].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ إنما ذَكَرَهُ لإياسِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ إيمانِ قومٍ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يُؤمنونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٤١ و٤٢ وقولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ فيهِ دلالةُ مَنْعِ رسولِ اللهِ ﷺ عنْ سؤالِ إنزالِ العذابِ المَوعودِ لهمْ عليهمْ. ثم المَنْعُ فيهِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: النَّهيُ عنْ سؤالِ بَيانِ الوقتِ أنْ يَسألَهُ متى يُنْزِلُهُ عليهمْ؟

والثاني: النَّهيُ عنِ استِعْجالِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] كأنهُ يقولُ: ليسَ ذلكَ [إليكَ إنما ذلكَ][3] إلى أنْ شِئْتُ أنْزَلْتُ في حياتِكَ، وأرَيْتُكَ ذلكَ، وإنْ شِئْتُ أمَتُّكَ، ولم أُرِكَ شيئاً من ذلكَ، وهو كما قالَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

وقالَ قتادةُ في ذلكَ: إنَّ اللهَ تعالى أذهَبَ نَبِيَّهُ ﷺ وأبقى النِّقْمَةَ بَعْدَهُ، ولم يُرِهِ في أُمَّتِهِ إلّا الذي يُقِرُّ بهِ عينَهُ. وليسَ نَبِيٌّ أو رسولٌ إلّا وقد رَأى في أُمَّتِهِ العقوبةَ غيرَ نَبيِّكُم، عافاهُ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، ولا أراهُ إلّا ما يُقِرُّ بهِ عينَهُ.

وقالَ: وذُكِرَ لنا أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ أُرِيَ الذي تَلْقى أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فمازالَ مُنْقَبِضاً، ما اسْتَشاطَ ضَحِكاً حتى لَحِقَ باللهِ تعالى.

وقالَ الحَسَنُ قريباً مِنْ قولِ قتادةَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ قالَ: أكْرَمَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ ألّا يُرِيَهُ في أُمَّتِهِ ما يَكْرَهُ، ورَفَعَهُ اللهُ تعالى، وبَقِيَتِ النِّقْمَةُ.

الآية ٤٣ [وقولُهُ][4] ﷻ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الوَحْيُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: القرآنُ، وهو الظاهرُ مِنَ الوَحْيِ إليهِ.

والثاني: وَحْيُ بيانٍ، يبيِّنُ للناسِ ما لَهُمْ وما للهِ عليهِمْ وما لِبعضِهِمْ على بعضٍ على لسانِ المَلَكِ جبريلَ أو غَيرِهِ على ما أرادَ اللهُ تعالى.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: والموفق الموفق. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والثالث: وَحيُ إلهامٍ وإفهامٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وما أراهُ اللهُ تعالى، هو ما ألْهَمَهُ، وأفهَمَهُ أمْرَهُ ﷺ بالتَّمَسُّكِ على أنواعِ ما أوحَى إليهِ: ما هو قرآنٌ، وما هو بيانٌ، وما هو إفهامٌ، وأراهُ، وأمَّنَهُ [عن][1] أنْ يَزيغَ، أو يَزِلَّ، أو يَعْدِلَ عنِ الصوابِ.

في ذلك كلِّهِ إنكَ لو تَمَسَّكْتَ بجميعِ ما أُوحِيَ إليكَ كنتَ على صراطٍ مُستقيمٍ حينَ[2] قال: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وجائزٌ أنْ يكونَ المرادُ بالذِّكرِ جميعَ ما أُوحِيَ إليهِ. فإنَّ قولَهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ لَكِنايةٌ عَنْ قولِهِ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي جميعُ ما أُوحِيَ إليهِ شَرَفٌ لهُ ولقومِهِ لِما اخْتَصَّهُ، واختارَهُ بذلكَ مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الذِّكرِ حقيقةَ الذِّكرِ، أي ما أُوحِيَ إليهِ ذِكْرٌ لهُ ولقومِهِ؛ يُذَكِّرُهُمْ ما للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ شُكْرَ ما أُوحِيَ إليكَ وأنْ يَصيرَ ما أُوحِيَ إليكَ ذِكراً لكَ ولقومِكَ وعنِ القيامِ بِشُكرِ ذلكَ.

ويَحتَمِلُ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ القيامَ بأداءِ[3] جميعِ القرآنِ وفي ما أُوحِيَ إليهِ.

ويَحتَمِلُ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ مَنْ كذَّبَهُ على ما يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ؟

[ويَحتَمِلُ][4]: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أشكرتُمْ تلكَ النِّعمَةَ أم لا؟

ويَحتَمِلُ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يومَ القيامةِ عنِ القرآنِ: هل عَمِلْتُمْ بِما فيهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ والإشكالُ أنَّ ما كانَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ آياتِ صِدْقِهِ أظْهَرُهُ مِنْ أمْرِهِ أنْ يَسألَ أهلَ[5] الكتابِ؛ إذْ آياتُ صدقِهِ مُعجزاتٌ عَجزَتِ الكَفَرَةُ عن إتيانِ مِثْلِها.

وليسَ مع مَنْ أمَرَهُ بالسؤالِ عنْ ذلكَ آياتُ المُعجزاتِ. فما مَعْنى سؤالِ[6] أهلِ الكتابِ عن ذلكَ؟

فنقولُ: مِنْ أمْرِهِ ﷺ إيَّاهُ بالسؤالِ عنهمْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يسألُهُمْ سؤالَ تَوبيخٍ وتَعْييرٍ وسؤالَ تقريرٍ وتنبيهٍ: هل أتَى رسولٌ مِنَ الرسلِ ﷺ الذينَ أُرسلَ مِنْ قبلِكَ أو كتابٌ بالأمرِ بعبادةِ غيرِ اللهِ؟ فَيُقِرّونَ جميعاً أنهُ لم يأتِ رسولٌ بإباحةِ ذلكَ، ولا أمرَ أحدٌ منهمْ بذلكَ.

والثاني: أنَّ هذا أمرٌ لغيرِهِ أنْ يَسألَهُمْ، وإنْ كانَ ظاهرُ الأمرِ والخِطابِ لهُ لِما ذكَرْنا أنَّ أدلَّةَ صدقِهِ ظَهَرَتْ[7] مِنْ دلالةِ صِدْقِ [أولئكَ][8] وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧و. . .] [وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ[9] ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤و. . .] إذْ مَعْلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَشُكُّ، ولا يَمتري في شيءٍ مِنْ ذلكَ. فَرَجَعَ الخطابُ إلى غيرِ ما ذَكَرَ[10].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآيةَ أي لو سألتَهُمْ عنْ ذلكَ لقالوا جميعاً: لم يرسِلْ بأمرٍ بعبادةِ غيرِ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

وحكايةٌ عن هذا[11]: سَمِعْتُ مفسراً بِبُخارى يقولُ: نزلَتْ هذهِ الآيةُ ليلةَ المعراجِ، ورسولُ اللهِ ﷺ لمَّا دَخلَ بيتَ المقدسِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تأول. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: من أمر. (٦) في الأصل وم: السؤال عن. (٧) في الأصل وم: ظهر. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: ذكرنا. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: وليس من نسخة الأصل.

رَأى الرسلَ والأنبياءَ ﷺ مجتمعِينَ، ثم تقدَّمَ، وصَلّى بهِمْ ركعتَينِ، فقامَ جبرائيلُ ﷺ مِنَ الصفِّ، وقالَ: يا محمدُ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ قد ذَكَرْنا آياتِ موسى ﷺ التي أتى بها في غيرِ مَوضعٍ، وفيها[1] الأمرُ بتبليغِ الرسالةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وفيهِ أنَّ التَّقِيَّةَ لا تَسَعُ للرسلِ ﷺ في تَرْكِ تبليغِ الرسالةِ، وإنْ خافوا على أنفسِهِمُ الهلاكَ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ هكذا عادةُ الفراعنةِ والرؤساءِ مِنَ الكفَرةِ أنهمْ إذا أتاهُمُ الرسلَ بالآياتِ ضَحِكوا منهمْ، واستَهزَؤوا بهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ الآية [المطففين: ٢٩].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ كلَّ /٤٩٨ ـ ب/ آيةٍ تأخَّرتْ عنِ الآيةِ الأخرَى، فهيَ أعظمُ وأكبرُ مِنَ التي تقدَّمتْ نَحْوُ ما كانَ منهمْ مِنَ الاستِغاثةِ حينَ[2] قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] ثم هو ممّا أراهُمْ مِنَ الآياتِ قَبْلَ ذلكَ أعظمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ كانَتِ اليدُ أعظمَ وأكبرَ مِنَ العَصا لأنَّ العَصا قد تَتَهَيَّأُ للسَّحرَةِ تَمْويهاً، وتحويلُها مِنْ جنسِ العَصا في جوهَرِها إلى غيرِ الجَواهِرِ، ولم يَتَهَيَّأْ لهمْ تحويلُ اليدِ عنْ جَوهرِ اليدِ، وقد كانَ ذلكَ لموسى. دلَّ أنَّ آيةَ اليدِ أكبرُ مِنْ آيةِ العَصا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا ليسَ على تحقيقِ جَعْلِ آيةٍ أكبرَ وأعظمَ مِنْ آيةِ العَصا. ولكنْ وصفُ الكلِّ بالعِظَمِ والكِبَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] ليسَ على إثباتِ القُرْبِ في أحَدِهِما دونَ الآخَرِ. ولكنْ وصفُ قُرْبِ كلِّ واحدٍ منهما مِنَ الآخَرِ على السؤالِ، وكما يُقالُ في العُرْفِ: إنَّ أفراسَ فلانٍ، كلُّ واحدٍ أعدَى مِنَ الآخرِ، وإنَّ أصحابَ فلانٍ، كلُّ واحدٍ أفضلُ مِنَ الآخَرِ، وإنهُ لا يُرادُ بذلكَ الترجيحُ، ولكنْ إثباتُ الخَبَرِ على السؤالِ.

فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وصفٌ لهما جميعاً بالكِبَرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذِكْرُ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ وغيرِ ذلكَ مِنْ أمثالِهِ لرسولِ اللهِ ﷺ لِيُصَبِّرَهُ على أذَى قومِهِ وأنواعِ ما كانوا يَستقبِلونَ مِنَ الاستِهزاءِ بِهِ وبِأتباعِهِ والضَّحِكِ بما أتاهُمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ على رسالتِهِ. وعلى ذلكَ ما قالَ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] أخبَرَ أنهُ إنما قصَّ عليهِ أنباءَ الرسلِ المُتقدِّمةِ لِتَسليَةِ فؤادِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ والإشكالُ أنهمْ كيفَ يُسَمّونَهُ ساحراً، وكانوا يَطلبونَ منهُ أنْ يدعُوَ ربَّهُ، ويَسألَ، حتى يَكْشِفَ عنهمُ العذابَ؟

رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ:][3] سَمَّوهُ ساحراً لأنَّ الساحرَ عندَهُمْ، هو العالِمُ المُعظَّمُ الذي بَلَغَ في العِلْمِ غايتَهُ ونهايتَهُ، لِذلكَ ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وإلّا لا يَحتَمِلُ أنْ يكونوا يَسألونَهُ، ويَطلُبونَ منهُ أنْ يدعُوَ ربَّهُ لِيَكْشِفَ عنهمُ العذابَ، ثم يُسمّونَهُ ساحراً، ويَعْنونَ بهِ سِحراً لِلْكَذِبِ والباطلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ مقاتلٌ: إنهمْ ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ قالَ لهمْ موسى ﷺ كيفَ أدعو ربّي لِيَكْشِفَ عنكُمْ ما يَنزِلُ بكمْ، وقد تُسَمّونني ساحراً، فَرَجَعوا عنْ ذلكَ، فقالوا ﴿يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ على ما ذَكَرَ في سورةِ الأعرافِ[4]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) هو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية: ١٣٤].

جنة السنة

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سَمَّوهُ ساحراً على ما كانَ عندَهُمْ أنهُ ساحرٌ، فيقولونَ: إنكَ ساحرٌ إلّا أنْ تدْعُوَ ربَّكَ، فَيَكْشِفَ عنا الرِّجزَ، فعندَ ذلكَ نَعْلَمُ أنكَ لستَ بساحرٍ وأنكَ رسولٌ، فَنُؤمِنُ بكَ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ عندَهمْ أنَّ اليدَ البيضاءَ والعصا وما أتى بهِ موسى ممّا يَبْلُغُ السحرَ إلى تَغْيِيرِ ذلكَ عنْ جوهَرِهِ، ويُستفادُ بالسحرِ مثلُهُ. لكنْ سألوا منهُ أنْ يَسْألَ ربَّهُ ما ذَكَروا لِما عَلِموا أنَّ إجابةَ الدعاءِ في ما دعا لا يكونُ لساحرٍ، ولا يُجابُ إلّا للرسولِ والذي على الحقِّ. فإذا أجابَكَ إلى ما سألْتَ آمَنّا بكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونوا قالوا ذلكَ على حقيقةِ إرادةِ السحرِ على التّناقُضِ والتّمْويهِ على الأتباعِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٣٢] فبالآيةِ لا يَسْحَرُهُمْ بها، لأنَّ الآيةَ هي التي [لها حقيقةٌ، ودوامُ السحرِ هو الذي][1] لا حقيقةَ لهُ، ولا دوامَ لهُ. فإذا كانَتْ آيةٌ لا يَسْحَرُهُمْ بها، ولا تكونُ عَجْزاً، وإذا كانَ سحراً لا تكونُ آيةً، فكانَتْ عامةُ أقوالِهِمْ خَرَجَتْ على التّناقضِ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ. فَعَلَى ذلِكَ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ قد كانَ اللهُ ﷻ عاهدَ موسى ﵇ لئنْ آمَنوا كَشَفْنا عنهمُ العذابَ. فلما دَعاهُ[2]، وكَشَفَ عنهمُ العذابَ لم يؤمِنوا، واللهُ أعلَمُ.

ويُشبهُ أنْ يكونَ عهدُهُ إليهِ ما جَعَلَهُ نبيّاً، واختَصَّهُ لِرسالتِهِ.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ على الإضمارِ؛ كأنهمْ قالوا: ادْعُ لنا ربَّكَ بما عَهِدَ كلُّ واحدٍ منّا عندَكَ لئنْ كَشَفْتَ عنا العذابَ إننا لَمُهْتَدونَ، وهو قولُهُ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

الآية ٥٠ ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؟ أي يَنْقُضونَ ما عَهِدوا، وعَهْدُهُمْ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقولُ اللعينُ هذا مُقابِلَ ما ادّعى موسى ﵇ مِنَ الرسالةِ، يُمَوِّهُ بذلكَ على قومِهِ وأتباعِهِ، أي لئنْ كانَ اللهُ أرسَلَ رسولاً فأنا أحقُّ وأولى بالرسالةِ مِنْ موسى.

الآية ٥٢ ولذلكَ قالَ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضَعيفٌ لا مالَ لهُ، ولا حَشَمَ، ولا تَبَعَ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حُجَّتَهُ. وكذلكَ قالَ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الآية: ٥٣] كما أُلْقِيَ عليَّ وكما أعطاني مِنَ المالِ والذهبِ.

أو يقولُ: إنَّ مَنْ كانَ لهُ رسولٌ يُكْرِمُهُ بأنواعِ الكراماتِ، ويَبْذُلُ لهُ أموالاً. فإذا لم يُؤْتِهِ شيئاً مِنْ ذلكَ فليسَ برسولٍ. أو يقولُ: إنهُ لو كانَ رسولاً كما يقولُ لألْقى اللهُ عليهِ مِنَ الأساورةِ ما أُلْقِيتُ أنا على أتباعي وحَشَمي، ونَحْوَهُ.

وكانَ فرعونُ لا يزالُ يُمَوِّهُ أمْرَ موسى ﵇ على قومِهِ؛ مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] ومنهُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١و . . .] ونَحْوُ ذلكَ هذا. فَعَلَى ذلِكَ هذا منهُ تَمْويهٌ على قومِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي لا يَكادُ يُبَيِّنُ حُجَّتَهُ لِما في لسانِهِ عُقْدَةٌ ورِثّةٌ؛ يقولُ: [هو][3] عَيِيُّ اللسانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ فرعونَ لا يَعْني ذلكَ، لأنَّ اللهَ تعالى قد أذْهَبَ تلكَ العُقْدَةَ والرُّتّةَ التي في لسانِهِ حينَ دعا، وسألَ ربَّهُ بقولِهِ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُواْ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧و٢٨] وقد أجابَ اللهُ دعاءَهُ حينَ[4] قالَ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] ولكنْ أرادَ، واللهُ أعلَمُ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حجتَهُ، أي ليستْ تأتي حُجَّتُهُ، تأخُذُ القلوبَ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ قالَ: أما أنا خيرٌ منهُ؟

وقالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ: [﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾][1] أنا خيرٌ منهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ موصولاً بقولِ فرعونَ حينَ[2] قالَ: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أنا خيرٌ منهُ بأنَّ لي ملكَ مِصْرَ، وليسَ لموسى ﷺ ذلكَ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ هذا القولُ منهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: إنْ كانَ موسى يَدَّعي المُلْكَ في الدنيا، ويَطْلُبُهُ فَهَلَاّ أُلْقِيَ عليهِ أساورُ مِنْ ذَهبٍ كما يُلْقَى على الملوكِ مِنَ الأساورِ والتاجِ وغيرِ ذلكَ. وإنْ كانَ يَدَّعي الرسالةَ / ٤٩٩ ـ أ/ بنفسِهِ فهلّا كانَ معهُ الملائكةُ مُقْتَرنينَ؟ ولا يزالُ الكَفَرةُ يطلبونَ مِنَ الرسلِ الآياتِ على وجوهٍ، يَتَمَنَّونَهُ[3]، ويَشْتَهُونَ. فأخبَرَ أنَّ الآياتِ ليسَتْ تأتي على ما يَتَمَنَّونَ، ويَشْتَهُونَ، ولكنْ [على][4] ما أرادَ اللهُ تعالى.

والثاني: يَجْمَعُ الأمرَينِ جميعاً، فيقولُ: إنهُ يَدَّعي الرسالةَ، والرسولُ مُعَظَّمٌ عندَ المُرسِلِ، فيقولُ: إنْ كانَ ما يقولُ حقّاً فهلّا أُلْقِيَ عليهِ الأساورُ تعظيماً لهُ؟ وهلّا كانَ معهُ الملائكةُ مُقْتَرنينَ تعظيماً لهُ وإجلالاً؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي هلّا سُوِّرَ لأنَّ الرجلَ منهمْ إذا ارْتَفَعَ فيهمْ سَوَّرُوهُ، أو جاءَ معهُ الملائكةُ مُصَدِّقِينَ لهُ بالرسالةِ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عوسَجَةَ: أساوِرُ وأسْوِرَةٌ جَمْعُ السِّوارِ، ورجلٌ إسْوارٌ أي رامٍ، وقومٌ أساوِرَةٌ، وإنما سُمِّيَ الرامي إسواراً لأنهُ إذا أجادَ الرَّمْيَ جُعِلَ في يَدِهِ سِوارٌ مِنْ ذَهبٍ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي فاسْتَخَفَّ بقومِهِ، واسْتَرْذَلَهُمْ، فأطاعوهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي اسْتَرْذَلَهُمْ، واسْتَفَزَّهُمْ بالخروجِ على أتباعِ موسى وطَلَبِهِ، فأطاعوهُ؛ وذلكَ أنهُ أمَرَهُمْ بالخروجِ معهُ[5] في طَلَبِ موسى لَمّا خَرَجَ مِنْ عندِهِ[6] نَحْوَ البَحْرِ، فأطاعوهُ في ذلكَ، وخَرَجوا مَعَهُ في طلبِهِ حتى أصابَهُمْ ما أصابَهُمْ. وكانَ هذا أشْبَهَ وأقْرَبَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي فلما عَمِلوا الأعمالَ التي اسْتوجبوا لها الغضبَ انْتَقَمْنا منهمْ على ذلكَ، لأنَّ ظاهِرَ قولِهِ: ﴿ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي أغْضَبونا. وصِفَةُ الغَضَبِ على الحدوثِ للهِ تعالى لا تَجوزُ، فكانَ المُرادُ منهُ ظهورَ أثَرِ الغَضَبِ واستيجابَ[7] العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغْضَبوا[8] أولياءَنا ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي سَلَّطْنا عليهمْ بدعاءِ أولئكَ الأولياءِ، لِنَنْتَقِمَ منهمْ بسببِ إغضابِهِمْ أولياءَنا، وهو كقولِهِ: ﴿يُخَٰدِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي يُخادِعونَ أولياءَ اللهِ. فَعَلى ذلكَ هذا.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: جَعَلْناهُمْ في العقوبةِ سَلَفاً للمتأخِّرينَ ومثلاً للمؤمنينَ أي عِبْرَةً لهمْ، وهو كقولِهِ: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

والثاني: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ في العِظَةِ والانْزِجارِ لهمْ لِيَمْتَنِعوا عنْ مِثْلِ ما فَعَلوا خوفاً مِنَ الوقوعِ في ما وَقَعوا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: يتمنون هم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: معهم. (٦) في الأصل وم: عندهم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أغضبونا.

جنة السنة

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَجَعَلْنَهُمْ سَلَفًا﴾ بالرفعِ والنصبِ[١] وهو مِنَ التَّقَدُّمِ، أي جعَلْناهُمْ قُدُماً؛ تقدَّموا، مثلُ خَشَبٍ وخُشُبٍ وثَمَرٍ وثُمُرٍ.

وكذلكَ يقولُ أبو عوسَجَةَ، وقالَ: السَّلَفُ الخيراتُ والجميعُ سُلُوفٌ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ اختُلِفَ في ما ذُكِرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ لِعيسى ابْنِ مريمَ ﷺ.

قالَ بعضُهُمْ: لمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قالَ[٢] أولئكَ الكَفَرَةُ الذينَ كانوا يعبدونَ الأصنامَ: إنَّ عيسى عُبِدَ دونَهُ، وعُزيرٌ والملائكةُ يُعْبَدونَ دونَهُ، فهؤلاءِ جميعاً في النارِ إذنْ لأنهمْ عُبِدوا دونَهُ، فإنْ كانَ هؤلاءِ في النارِ فقد رَضِينا أنْ نكونَ معهمْ، وهمْ مَعَنا.

الآية ٥٨ وهو ما ذَكَروا على إثرِهِ: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ يَعْنونَ بقولِهِمْ: ﴿هُوَ﴾ عيسى ﷺ فذلكَ منهمْ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: لئِنْ جازَ أنْ يُعَذَّبَ عيسى ﷺ ومَنْ عُبِدَ مِنْ هؤلاءِ دونَ اللهِ في النارِ رَضِينا أنْ تُعَذَّبَ آلهتُنا في النارِ؛ إذْ هُمْ ليسوا بِخَيرٍ مِنْ عيسى ﷺ وهؤلاءِ الذينَ عُبِدوا دونَ اللهِ مِنَ الملائكةِ وغيرِهِمْ.

والثاني: يقولونَ: إنْ كانَ عيسى يُعَذَّبُ في النارِ لِما عُبِدَ دونَهُ فآلهتُنا التي نَعْبُدها دونَهُ خيرٌ منهُ[٣]، فلا تُعَذَّبُ لأنها خيرٌ.

فأحَدُ التأويلَينِ يرجِعُ إلى أنهمْ يقولونَ: لو جازَ، وصَلَحَ أنْ يُعَذَّبَ كلُّ معبودٍ دونَهُ جازَ أنْ تُعَذَّبَ الأصنامُ التي نَعْبُدها نَحنُ.

والثاني: يقولونَ: إنْ كانَ يُعَذَّبُ عيسى وغيرُهُ الذينَ عُبِدوا دونَهُ، فالأصنامُ التي نَعْبُدها نحنُ لا تُعَذَّبُ لأنها خيرٌ مِنْ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

فنقولُ: إنما يكونُ لهمْ هذا الاِحتِجاجُ بالآيةِ أنْ لو كانَتِ الأصنامُ إنما تُحرَقُ في النارِ تعذيباً لها؛ أعني الأصنامَ. فأمّا إذا كانَتِ الأصنامُ إنما تُحرَقُ بالنارِ تعذيباً لِمَنْ عَبَدوها وعقوبةً لِمَنِ اتَّخَذَها أرباباً دونَ اللهِ فلا.

وإنما تُحرَقُ الأصنامُ التي اتَّخذوها مِنَ الحجارةِ والحديدِ والصُّفرِ لِزيادةِ تعذيبِ العَبَدَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] معَ أنهُ لا جِنايةَ مِنَ الأصنامِ، ولا ضَرَرَ لها بالإحراقِ، فكيفَ يُحرَقُ عيسى ومَنْ عُبِدَ دونَهُ مِنَ الملائكةِ، وفي إحراقِهِمْ تعذيبُهُمْ؛ إذْ هُمْ يتَضَرَّرونَ بها، ولا جِنايةَ منهمْ؟

فإذا كانَ إدخالُ الأصنامِ التي عَبَدوها وإحراقُها في النارِ لِتعذيبِ أولئكَ الذينَ عَبَدوها فلا مَعْنًى لتلكَ الخُصومةِ والمُجادَلةِ التي كانَتْ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ في الآيةِ بَياناً على أنَّ الذي ذُكِرَ مِنْ جَعْلِ المَعْبودِ حَصَباً للنارِ راجعٌ إلى عُبّادِ الأصنامِ والأوثانِ دونَ غيرِها، لأنهُ خاطبَ أهْلَ مكةَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ٩٨] وأهلُ مكةَ كانوا لا يعبدونَ إلّا الأصنامَ والأوثانَ لا عيسى ولا غَيرَهُ مِنَ البَشَرِ والملائكةِ، فذلكَ لهمْ ولكلِّ عابِدِ الأصنامِ دونَ غيرِهِمْ مِنَ المعْبودينَ استدلالٌ[٤] بهمْ، واللهُ أعلَمُ.

على أنَّ في الآيةِ بَياناً أيضاً إنْ لمْ يَرْجِعْ إلى ما ذكروا مِنْ عيسى وغيرِهِ فإنهُ قالَ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وكلمةُ ﴿مَا﴾ تُستَعْمَلُ في غيرِ العقلاءِ مِنَ الجمادِ وغيرِهِ[٥] لا في ذوي[٦] العقولِ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٢٠. (٢) في الأصل وم: فقال:. (٣) في الأصل وم: منهم. (٤) في الأصل وم: استدلالاً. (٥) في الأصل وم: وغيرها. (٦) في الأصل وم: ذوات.

وعلى أنَّ في الآيةِ بياناً مِنْ وَجْهٍ آخرَ أيضاً على أنهمْ غيرُ مُرادينَ بها فإنهُ استثنى، وخصَّ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. أخبرَ أنَّ مَنْ سبقَتْ منهُ الحُسنى يكونُ مُبعَداً عنها، ولا شكَّ أنَّ عيسى والملائكةُ ﷺ قد سبقَتْ لهمْ منهُ الحُسنى، فلا يُحتَملُ صَرْفُ تلكَ الآيةِ إليهمْ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨] إلى كلِّ مَنْ منهُ الأمرُ بالعبادةِ لهمْ والدعاءِ إلى ذلكَ، وهُمُ الشياطينُ لأنَّ مَنْ عَبَدَ دونَ اللهِ أحداً فإنما يَعْبُدُهُ بأمرِ الشياطينِ ودُعائِهِ إليهِمْ.

فأمّا مَنْ كانَ يَتبَرّأُ مِنَ الأمرِ لهمْ بذلكَ وعبادتِهِمْ لهُ فلا يَحتَمِلُ. وذلكَ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[1] وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧] وقولِ[2] إبراهيمَ لأبيهِ: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحدَ يَقصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ، لكنْ مَنْ عَبَدَ شيئاً دونَ اللهِ فإنما [يَعْبُدُهُ بأمرِ][3] الشيطانِ، فإذا عَبَدَهُ بأمرِهِ فكأنهُ [عَبَدَ الشيطانَ][4] وما ذَكَرْنا يُبطِلُ مُجادلةَ الكفارِ في ما خاصَموا، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ضَرْبُ المَثَلِ لعيسى ﷺ هو أنَّ اللهَ تعالى لمّا ذَكَرَ عيسى ﷺ في القرآنِ قالَ مُشرِكو العَرَبِ مِنْ قُريشٍ لمحمدٍ ﷺ: ما أرَدْتَ بِذِكْرِ عيسى؟ قالَ: . . . وقالوا: إنما يريدُ محمدٌ أنْ نُحِبَّهُ كما أحبَّ النَّصارَى عيسى، وعَبَدَتْهُ ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ فلا يَصْنَعُ محمدٌ ذلكَ بآلهتِنا. فاللهُ[5] لهمْ خيرٌ مِنْ عيسى وما قالوا. فقالَ: اللهُ تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي إلّا لِيُجادِلوكَ بالباطِلِ، وهو قولُ قتادةَ.

ويَحتَمِلُ/٤٩٩ ـ ب/ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ بابنِ مريمَ ﷺ مِنْ قومِهِ؛ أعني عيسى لأمرِ قومِ محمدٍ ﷺ وذلكَ أنَّ قومَهُ قدِ اختَلَفوا فيهِ:

فمنهُمْ مَنْ قالَ: إنهُ إلهٌ وإنهُ ربٌّ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ ابنُ الإلهِ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ وأمَّهُ إلهانِ، ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الاختِلافِ الذي كانَ بينَهمْ فيه. فيكونُ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قالَ قومُهُ على ما ذَكروا فيهِ.

ثم قولُهُ[6]: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يُعرِضونَ عنْ عيسى، ويَضِجّونَ[7] على ما ذَكَروا، واللهُ أعلمُ.

[ويَحتَمِلُ][8] أنْ يَكُفَّ، ويُمسِكَ عنْ بيانِ ذِكْرِ المثلِ الذي ذَكَرَ في الآيةِ لما لا حاجةَ إلى ذلكَ، وهو شيءٌ ذَكَرَهُ أولئكَ الكَفَرَةُ، واللهُ أعلمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قُرِئ بِرَفْعِ[9] الصادِ وكَسْرِها. قالَ القُتَبيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بالكَسْرِ يَضِجّونَ بالكَسْرِ، والتَّصْدِيَةُ منهُ، وهو التصفيقُ. ومَنْ قرأ بالرفعِ يقولُ: يَعْدِلونَ، ويُعْرِضونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ هو يُخرَّجُ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي عِبْرَةً وآيةً لبني إسرائيلَ لِما كانَ، هو مولودٌ مِنْ غيرِ والدٍ ولما كانَ يُحْيِي المَوتَى، ويُبرِئُ الأكْمَهَ والأبرَصَ، وما كانَ منهُ مِنْ تكليمِهِ الناسَ، وهو في المَهْدِ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي خُصَّ بها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي لو نشاءُ لَجَعَلْنا مِنْ جوهرِكُمْ وجنسِكُمْ ملائكةً لِيُعلَمَ أنَّ إنشاءَ الملائكةِ مِنَ النورِ على ما ذَكَرَ ليسَ ذلكَ منهُ استِعانةً بذلكَ النورِ لإنشاءِ الملائكةِ منهُ [لأنهُ][10] قادرٌ بذاتِهِ، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ؛ يُنْشِئُ ما يَشاءُ ممّا شاءَ، وكيفَ شاءَ.

(١) في الأصل وم: نحشرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٢٧٧. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل: يعبدون، في م: يعبد بأمر. (٤) في الأصل وم: عبده هذا. (٥) في الأصل وم: فهو الله. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) من م، في الأصل: وهو يضجون. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٢١. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: أي لو نشاءُ لَجعَلْنا الملائكةَ بدلاً منكمْ نُهلِكُكُم، ونُبَدِّلُ مكانَكُمْ ملائكةً، لا يَعْصُونَ، ولا يُخالفونَ، ولا يَفْتُرُونَ عنِ العبادةِ، ولا يَسْتَحْسِرونَ.

لكنْ لم يَفْعَلْ ذلكَ لِما ليسَ في عِصْيانِ مَنْ عَصاهُ ولا مُخالفةِ مَنْ خالَفَهُ لهُ ضَررٌ، ولا بطاعةِ مَنْ أطاعَهُ، واتّبَعَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ نَفْعٌ، ولا أنْشأَ هذا العالَمَ والخَلْقَ لحاجةِ نفسِهِ ولا امْتَحَنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ ولا لِمَضَرَّةٍ يَدْفَعُ بذلكَ عنْ نفسِهِ، ولكنْ أنْشأَهُمْ، وامْتَحَنَهُمْ لحاجةِ أنفسِهِمْ.

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ إنشاءُ ما يَعْلَمُ أنهُ يَعْصيهِ، ولا يُطيعُهُ حِكْمةً وفِعْلُ مَنْ يَعْلَمُ في الشاهدِ أنهُ يَضُرُّهُ، ولا يَنْفَعُهُ سَفَهاً[1] لأنهُ إنما يَفْعَلُ ما يَفْعَلُ لحاجةِ نفسِهِ، فصارَ فعلُهُ معَ علمِهِ ما ذَكَرْنا، يكونُ سَفَهاً، فافْتَرَقَ الأمرانِ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم قولُهُ: ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: [أي يَخْلُفُ][2] الملائكةُ بعضُهُمْ بعضاً قَرْنا عن قَرْنٍ بالتّناسُلِ والتوالُدِ كالبَشَرِ يَخْلُفُ بعضٌ بعضاً قَرْناً عن قَرْنٍ بالتّناسُلِ والتوالُدِ؛ إذْ ليسَ في الملائكةِ توالُدٌ وتناسُلٌ.

والثاني: ﴿يَخۡلُفُونَ﴾ أي يكونونَ خَلَفاً وبَدَلاً عنكُمْ بَعْدَ هلاكِكُمْ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ ولَعَلَمٌ للساعةِ، كلاهما قد قُرِئَ[3]. ثم اخْتُلِفَ في ذلكَ.

فمنهمْ مَنْ يقولُ: هو عيسى يكونُ نزولُهُ مِنَ السماءِ عَلَماً للساعةِ وآيةً لها، فيكونُ على هذا هو صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كأنهُ قد قالَ: وجَعَلْناهُ مَثَلاً أي آيةً وعِبْرَةً لهمْ على ما ذَكَرْنا، وجَعَلْناهُ أيضاً عَلَماً للساعةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: إنهُ لَعَلَمٌ للساعةِ: أي محمدٌ ﷺ وما أنْزَلَ عليهِ مِنَ القرآنِ عَلَمٌ للساعةِ لأنهُ بهِ خَتَمَ النُّبوَّةَ والرسالةَ، وقالَ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتَينِ» [البخاري ٦٥٠٣] وأشارَ إلى إصْبَعَينِ مِنْ يَدِهِ، وإنما بَعَثَهُ اللهُ تعالى [عندَ قُرْبِ الساعةِ، فهو عَلَمٌ للساعةِ][4] عندَ مَنْ قَرَأَ لَعَلَمٌ للساعةِ بالتثقيلِ؛ فَمَعناهُ العلامةُ لها والدليلُ عليها.

ومَنْ قَرَأَ: ﴿لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ بالجزمِ فَمَعناهُ يُعْلَمُ بهِ قُرْبُ الساعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ أي لا تَشُكُّنَّ بالساعةِ فإنها كائنةٌ، لا مَحالةَ. وعلى ذلكَ يقولونَ في بعضِ التأويلاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] أي أعلامُها أي محمدٌ، عليهِ أفضلُ الصلاةِ وأكْمَلُ التَّحياتِ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾.

فإنْ كانَ قولُهُ: وإنهُ لَعَلَمٌ للساعةِ، هو محمدٌ ﷺ فكأنهُ قالَ ﷺ: أنا عَلَمٌ للساعةِ، وقريبٌ منها فاتّبِعوني.

وإنْ كانَ [قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾][5] عيسى، على نَبِيِّنا وعليهِ السلامُ، فيقولُ[6]: إنهُ عِلْمٌ للساعةِ، وآيةٌ لها فاتّبِعوني قَبْلَ أنْ يُخْرَجَ، ويُنْزَلَ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ عنِ الإيمانِ بالساعةِ وكونِها ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ويَحْتَمِلُ لا يَصُدَّنَّكُمْ عنْ محمدٍ وعنِ الصِّراطِ المُسْتقيمِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ عداوَتَهُ إياكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الآيةَ قالَ أهلُ التأويلِ: بَيِّناتُهُ، هي ما كانَ يأتي بهِ مِنْ نَحْوِ إحياءِ المَوتى وبراءةِ الأكْمَهِ والأبْرَصِ وإنباءِ ما يأكلونَ، ويَدَّخِرونَ ونَحْوِ ذلكَ.

والأصلُ في آياتِ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ أنها كانتْ مِنْ وجوهٍ ثلاثةٍ تُلْزِمُهُمُ التصديقَ بهمْ:

---

(١) في الأصل وم: سفه. (٢) من م، في الأصل: يختلف. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ١٢٢ و١٢٣. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحدُها: ما يأتونَ [بهِ مِنْ][1] كلِّ شيءٍ، صَغُرَ، أو عَظُمَ؛ دلالةُ ذلكَ ما يَعْلَمُ كلُّ ذي لبٍّ وعقلٍ أنَّ ذلكَ حكمةٌ وحقٌّ[2]، عليهِمُ اتِّباعُهُمْ في ذلكَ، وهو توحيدُ اللهِ تعالى وتنزيهُهُ عمّا [لا][3] يليقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: كانَتْ في أنفسِهِمْ وأحوالِهِمُ التي كانوا عليها بيِّناتٌ تُلزِمُهُمْ تصديقَهُمْ، وهو أنهمْ لَبِثوا بينَ أظهُرِهِمْ، وكانوا فيهِمْ طولَ عُمُرِهِمْ، فلم يُؤخَذْ عليهِمْ كَذِبٌ قطُّ، ولا ظَهَرَ منهمْ ما يَرْجِعُ إلى دناءةِ الأخلاقِ ولا شيءٍ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ما كانوا يأتونَ مِنَ الأفعالِ المُعجِزَةِ عن توَهُّمِ العبادِ والمُعتادِ مِنْ فِعلِهِمْ [لَيَلْزِمُ كلَّ مُنصفٍ][4] قبولَها. فعلى هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا كانَتْ آياتُ الرسلِ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحكمةُ ههنا هي الإنجيلُ. وقد ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى الكتابَ والحكمةَ حينَ[5] قالَ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ الكلُّ واحداً، وجائزٌ أنْ يكونَ الكتابُ ما يُكتَبُ، ويُتلَى، والحكمةُ ما أُودِعَ في المَتْلُوِّ والمكتوبِ مِنَ المَعنَى، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الحكمةُ راجعةً إلى كلِّ ما يوجبُ العقلُ القولَ بهِ وفِعلَهُ[6]، وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي أبيِّنُ لكمْ كلَّ الذي تَختَلِفونَ فيهِ، إذْ لا يجوزُ أنْ يُبيِّنَ بعضاً، ويَترُكَ [بيانَ بعضٍ][7] وقد يُذكَرُ البعضُ، ويُرادُ بهِ الكلُّ، نَحْوُ ما يُقالُ في كثيرٍ مِنَ المواضعِ: الخِطابُ للرسولِ ﷺ والمُرادُ بذلكَ أُمَّتُهُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ مِنَ البعضِ، هو البعضُ نفسُهُ لا الكلُّ. ثم يُخرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أي أبيِّنُ لكمْ بعضَ ما تَختَلِفونَ فيهِ، فيأتيكُمْ رسولٌ مِنْ بَعدي، ويُبيِّنُ لكمْ باقيَ ذلكَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ. لأنهُ لم يَقُلْ: أبيِّنُ لكمْ بعضَ ما اختَلَفْتُمْ فيهِ، ولكنْ قالَ: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فهو في الظاهرِ على الاستقبالِ.

والثاني: يقولُ: أبيِّنُ لكمُ أصولَ[8] ما تَقدِرونَ على استِخراجِ الفروعِ مِنْ تلكَ الأصولِ، واللهُ أعلَمُ. /٥٠٠ ـ أ/

والثالثُ: يقولُ: أبيِّنُ لكمُ الذي تَختَلِفونَ فيهِ، وهو يرجعُ إلى أمرِ الدينِ دونَ الراجعِ إلى أمرِ المَعاشِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في ما آمُرُكُمْ بهِ، وأدعوكُمْ إليهِ، وأنهاكُمْ عنهُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ يقولُ: اتَّقوا مهالِكَكُمْ، والزَموا ما بهِ نَجاتُكُمْ، وأطيعوني في ذلكَ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ذَكَرَ هذا لِيَعْلَموا أنهُ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ عندَ اللهِ، وجَلَّتْ مَنزِلَتُهُ عندَهُ، فإنهُ [لم][9] يَخرُجْ عنِ العُبودةِ، وإنهُ عندَ اللهِ ليسَ بإلهٍ، ولا ابنٍ لهُ على ما زَعَمَ أولئكَ الكَفَرةُ، واللهُ الهادي.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ حَرْفُ ﴿مِنْ﴾ صِلَةً زائدةً، ومَعناهُ: اختَلَفَ الأحزابُ بينَهُمْ. والاختلافُ في ما بينَهُمْ في عيسى أمرٌ ظاهرٌ بيِّنٌ[10].

والثاني: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ أي اختَلَفَ الأحزابُ مِنِ اختِراعٍ كانَ منهمْ في ما بينَهُمْ، أو كلامٌ نَحْوُهُ. ولِذلكَ كانَ باختِراعٍ مِنْ ذاتِ أنفسِهِمْ، لا أنْ كانَ ذلكَ سَماعاً مِنَ الرسلِ ﷺ ولِذلكَ نَهَى هذهِ الأمّةَ عنِ الاختلافِ والتفرُّقِ حينَ[11] قالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

---

(١) في الأصل وم: في. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وعقل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: لا يلزم كل ضعف. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) في الأصل وم: البيان لبعض. (٨) في الأصل وم: الأصول. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: مبين. (١١) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقدِ اخْتلَفَتْ هذهِ الأمَّةُ بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ حتى قاتَلَهُمْ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ على ذلكَ، واتَّبَعَهُ سائرُ الصحابةِ على ذلكَ حتى قُتِلَ[1] الرجالُ، وسُبِيَ النساءُ والذَّراري، وظَهَرَتْ أيضاً الخوارجُ في زَمَنِ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ على ذلكَ حتى اجْتَمَعوا على الوِفاقِ.

وغيرُ ذلكَ مِنَ الاخْتِلافِ والتَّفَرُّقِ الذي كانَ ظَهَرَ، وَوَقَعَ في ما بَيْنَهُمْ؛ وكانَ في ذلكَ دلالةُ الرسالةِ لِرسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ ذَكَرَ ﷻ في كتابِهِ أنهُمْ يَخْتلِفونَ بَعدَ وفاتِهِ وأنهُمْ يَنْقلِبونَ على أعقابِهِمْ حينَ[2] قالَ: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٤٤] وقالَ في ارتدادِهِمْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] هذا في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ وقالَ في عليٍّ، كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيةَ [المائدة: ٥٥].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يُقاتِلُ هذا بالتأويلِ كما نُقاتِلُ نحنُ على التنزيلِ» يعني علياً ﷺ.

وقد كانَ كلُّ ما ذَكَرَ مِنَ الاخْتِلافِ والتَّفرُّقِ والتنازُعِ في الدينِ مِنَ الانْقِلابِ على الأعقابِ والارْتِدادِ والامْتِناعِ عن إتيانِ الزكاةِ وإتيانِ ما ذَكَرَ مِنْ قومٍ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وغَلَبَةِ حِزْبِ اللهِ وأهلِ توحيدِهِ على أولئكَ.

ففي ذلكَ كلِّهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ؛ إذْ خَرَجَ على ما أخْبَرَ ﷺ وذَكَرَ في المُسْتَقْبَلِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ اللهَ بفضلِهِ وبِرَحْمَتِهِ رَفَعَ ذلكَ الاخْتِلافَ والتَّفرُّقَ والتنازُعَ مِنْ بينِهِمْ، وجَمَعَهُمْ على أُلْفَةٍ وخيرٍ، ولم يَرْفَعْ مِنْ بينِ أولئكَ، فقالَ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ والأحزابُ الفِرَقُ الذينَ تَحزَّبوا، أي تَفرَّقوا. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هو ظاهرٌ][3].

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فُجاءةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانِها وقيامِها واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المُوَحِّدينَ. فتكونُ خِلَّةُ أهلِ الكُفْرِ في ما بَيْنَهُمْ في الدنيا عَداوةً في الآخِرةِ لقولِهِ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وما ذُكِرَ في غيرِ آيةٍ[4] مِنَ القرآنِ لَعْنُ [بعضِهِمْ][5] عن بعضٍ وتَبَرُّؤُ بعضِهِمْ[6] مِنْ بعضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ الآيةَ [البقرة: ١٦٦].

وأمّا خِلَّةُ المُوَحِّدينَ المؤمنينَ في ما بَيْنَهُمْ فهي خِلَّةٌ في الدارَيْنِ جميعاً. هذا يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ اسْتَثْنى خِلَّةَ مَنِ اتَّقى النارَ بنفسِهِ، وَوَقى صاحبَهُ أيضاً ممّا أَمَرَهُ بالطاعاتِ للهِ تعالى والقيامِ بالخيراتِ، وزَجَرَهُ عنْ مَعاصيهِ ومُخالَفَةِ أمرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] أَمَرَهُمْ بوقايةِ أنفسِهِمْ وأهليهِمْ[7] ناراً، وإنما [يَتَّقونَ تلكَ][8] النارَ بالقِيامِ [بالأسبابِ التي أُمِروا بالقِيامِ][9] بها والامْتِناعِ والانْتِهاءِ عمّا نُهوا عنها، وزُجِروا منها.

فكلُّ خِلَّةٍ في ما بَيْنَ المؤمنينَ على هذا الوجهِ فهي خِلَّةٌ ومَوَدَّةٌ في الدارَيْنِ جميعاً، لا تَصيرُ عداوةً لأنها للهِ تعالى وطَلَبِ مَرْضاتِهِ.

فأمّا الخِلَّةُ التي تكونُ في ما بَيْنَهُمْ للدنيا فهي تَصيرُ عَداوةً أيضاً على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقد رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الأخِلّاءُ أربعةٌ مؤمنانِ وكافرانِ، فماتَ أحدُ المؤمنَينِ، فَسُئِلَ عنْ خليلِهِ،

---

(١) في الأصل وم: قاتل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: هي ظاهرة. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: بعضكم. (٧) في الأصل وم: وأهليكم. (٨) في الأصل وم: يقون ذلك. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

فقال: اللهمّ لم أرَ خليلاً آمَرَ بمعروفٍ ولا أنْهَى عنْ مُنكَرٍ منهُ. اللهمّ اهْدِهِ كما هَدَيتَني، وأمِتْهُ على ما أمَتَّني عليهِ. ومات أحدُ الكافرينِ، فَسُئِلَ عنْ خليلِهِ، فقالَ: اللهمّ لم أرَ خليلاً آمَرَ بِمُنْكَرٍ ولا أنْهَى عنْ مَعْروفٍ منهُ. اللهمّ أضِلَّهُ كما أضْلَلْتَني، وأمِتْهُ كما أمَتَّني. قالَ: ثم يُبْعَثونَ يومَ القيامةِ، فقالَ: لِيُثْنِ بعضُكُمْ على بعضٍ. فأمّا المؤمنانِ فَيُثْني كلُّ واحدٍ منهما على صاحبِهِ ثَناءً حَسَناً. وأمّا الكافرانِ فَيُثْني كلُّ واحدٍ منهما على الآخَرِ ثَناءً قَبيحاً» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٣٨٨].

وعلى هذا السبيلِ رُوِيَ هذا الحديثُ عنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ ورُوي عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (أحِبَّ في اللهِ، وأبْغِضْ في اللهِ، وَوَادِّ في اللهِ، وَوَالِ في اللهِ، فإنما تُنالُ ولايةُ اللهِ في ذلكَ، لا يُنالُ ما عندَ اللهِ إلّا بذلكَ).

وقالَ ﷺ: «ولنْ يَجِدَ عبدٌ طَعْمَ الإيمانِ، وإنْ كَثُرَتْ صلاتُهُ وصيامُهُ وصَدَقَتُهُ حتى يكونَ كذلكَ، وقد صارَتْ عامةُ مؤاخاةِ الناسِ اليومَ على الدنيا. ولكنْ لا تَجْزي عنْ أهلِهِ شيئاً، ثم قرَأَ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقرَأَ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾» الآية [المجادلة: ٢٢] [عن ابن عمر أبو نعيم في الحلية ١/ ٣١٢] فقولُ ابْنِ عباسٍ يُومِئُ إلى أنَّ كلَّ خِلَّةٍ ومُؤاخاةٍ في ما بينَ المؤمنينَ للدنيا، فهي تَصيرُ عداوةً في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي لا خَوفٌ عليكُمْ خوفَ الغِيَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي لا خَوْفٌ عليكُمْ خَوفَ الأحوالِ، أي لا حُزْنَ لهمْ في حالِ كونِهِمْ فيها، ولا لهمْ فيها خَوفُ غَيرُ ذلكَ ولا زَوالُهُ عليهِمْ، لأنَّ خَوفَ الزّوالِ ممّا يُنَغِّصُ [على][1] صاحبِهِ النعمةَ التي هي لهُ، يُخْبِرُ أنَّ ذلكَ دائمٌ باقٍ، لا زوالَ لهُ، ولا فَناءَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ والإشكالُ أنهُ سَمّى[2] المؤمنينَ مُسْلِمينَ بالآياتِ والإيمانِ. والإسلامُ يكونُ باللهِ تعالى، فنقولُ: لأنَّ الإيمانَ هو التصديقُ في اللغةِ، وإنما[3] أنْبَأَتِ الآياتُ بِوَحدانيّةِ اللهِ وألوهيّتِهِ، لأنَّ جهةَ سبيلِ معرفةِ اللهِ تعالى وطريقِ العِلْمِ بهِ إنما هو بالآياتِ والحُجَجِ التي أقامَها على ذلكَ ليسَ مِنْ جهةِ العِيانِ والمُشاهدةِ.

فالإيمانُ بالآياتِ والتَّصديقُ بها تَصْديقٌ / ٥٠٠ ـ ب/ باللهِ حقيقةً وإيمانٌ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ هذا يُوهِمُ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ مُتَغايِرانِ، لكنَّ هذا مِنْ حيثُ ظاهرُ العبارةِ، فأمّا في الحقيقةِ فهما يَرْجِعانِ إلى مَعْنًى واحدٍ لأنَّ الإسلامَ هو جَعْلُ كلِّ شيءٍ للهِ تعالى سالماً، لا يُشْرَكُ فيهِ غيرُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] أي خالصاً سالماً، لا حَقَّ لأحدٍ فيهِ سِواهُ. والإيمانُ هو الوصفُ لهُ بالربوبيّةِ في كلِّ شيءٍ، ومَعْناهُما في الحاصلِ والتحقيقِ يَرْجِعُ إلى مَعْنًى واحدٍ؛ لأنكَ إذا وَصَفْتَهُ بالألوهيّةِ والرُّبوبيّةِ في كل شيءٍ [كانَ][4] للهِ تعالى سالماً، وإذا جعلتَ كلَّ شيءٍ للهِ تعالى سالماً وَصَفْتَهُ بالألوهيّةِ والرُّبوبيّةِ في كل شيءٍ. فَدَلَّ أنَّ حاصلَ الإيمانِ والإسلامِ واحدٌ، وإنْ كانا مِنْ حيثُ ظاهرُ العبارةِ مختلفَينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ الأزواجُ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: الأزواجُ المعروفةُ، وهي الأهلُ، لِما وَقَوهُمْ في الدنيا عنِ الأسبابِ التي بها يَسْتَوجِبونَ النارَ كقولِهِ تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

[والثاني][5]: الأزواجُ التي ذَكَرَ القُرَناءَ [والشركاءُ الذينَ][6] أعانوهمْ على الأعمالِ الصالحةِ التي بها نالوا الجنةَ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ههنا قُرَناءَهُمْ وشُرَكاءَهُمُ الذينَ أعانوهُمْ على ذلكَ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: سماهم. (٣) في الأصل و م: بما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ويحتمل.
(٦) في الأصل وم: والأشكال التي.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ قالَ أبو عوسَجَة والقُتَبِيُّ: أي تُسَرُّونَ، والحَبْرَةُ السرورُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ أي تُكْرَمونَ، وتُنْعَمونَ، وهو ما ذَكَرْنا، أي ليسَ عليهِمْ خوفُ الزوالِ والفَناءِ، ولا حُزْنُ الحالِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ يَحْتَمِلُ ذِكْرُ الصحافِ مِنَ الذَّهبِ والأكوابِ وجوهاً:

أحَدُها: ذَكَرَ ذلكَ لهمْ في الآخِرَةِ ترغيباً لهمْ فيها وتَحريضاً لِما يَرْغَبونَ بِمِثْلِ ذلكَ إلى السَّعْيِ للآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنَّ ما ذَكَرَ ذلكَ لأنَّ أهلَ الدنيا كانوا يَتَفاخَرونَ بهذهِ الأشياءِ في الدنيا، فَيُخْبِرُ أنَّ لأوليائِهِ ذلكَ في الآخِرَةِ، وذلكَ دائمٌ، وهذا فانٍ، ولا عِبْرَةَ للفاني، فما مَعْنَى الافْتِخارِ بهِ؟

[والثالث][(١)]: يَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرَ ذلكَ لأنهُ حَرَّمَ عليهِمُ الانْتِفاعَ في الدنيا باسْتِعْمالِ الذهبِ والفضةِ والحريرِ، فأخْبَرَ أنَّ لهمُ الانْتِفاعَ بذلكَ في الآخِرَةِ التي هي دارُ التَّنَعُّمِ.

فأمّا ما سِوَى ذلكَ مِنَ الفُرُشِ والأواني فإنهُ لا بأسَ بذلكَ، وهو مُباحٌ في الدارينِ جميعاً.

وأمّا ذِكْرُ الأكوابِ [فَيَحْتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحَدُهما: الترغيبُ][(٢)] على ما ذَكَرْنا لأنهمْ يَتَمَنَّوْنَ، ويَرْغَبونَ فيها في الدنيا.

والثاني: يُخْبِرُ أنْ لا مُؤْنَةَ عليهِمْ في حملِ الأواني ورَفْعِها عندَ الشربِ والأكلِ، ولا يَتَوَلَّوْنَ ذلكَ بأنفسِهِمْ. لكنِ الخَدَمُ هُمُ الذينَ يَتَوَلَّوْنَ سَقْيَهُمْ.

الصِّحافُ: جَمْعُ الصَّحْفَةِ، وهي القَصْعَةُ التي ليسَتْ بِضَخْمَةٍ، والأكوابُ: الأباريقُ التي لا عُرا لها، ولا خَراطيمَ، واحِدُها كوبٌ، ويُقالُ: كيزانٌ، ولا عُرا لها . قالَهُ أبو عوسَجَة والقُتَبِيُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ فذلكَ في الجنةِ، ليسَ كنعيمِ الدنيا، لأنَّ في الدنيا قد يَشْتَهي شارِبُها، ولا تَلَذُّ بِهِ العيونُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرَ ذلكَ في الآخِرَةِ لِما مُنِعوا، وحُرِموا في الدنيا مِمّا لا يَحِلُّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إنَّ اللهَ ﷻ بِفَضْلِهِ عَوَّدَ عبادَهُ لِما كانَ منهُ مِنَ الإحسانِ والإنعامِ كأنَّ ذلكَ كلَّهُ منهُمْ إليهِ فَضْلٌ منهُ حينَ[(٣)] نَسَبَ الجنةَ التي يُعْطيهِمْ إلى أعمالِهِمْ التي عَمِلوها، وإنْ كانوا لا يَسْتَوجِبونَ الجنةَ وما فيها بالأعمالِ حقيقةً.

لذلكَ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عنْ نبيِّ اللهِ تعالى أنهُ قالَ: «لا يدخلُ الجنةَ أحدٌ إلّا برَحمةِ اللهِ تعالى، قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برحمتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/ ٧١. . .و٢٨١٨/٧٦] أخبَرَ أنْ لا أحدَ يدخُلُ الجنةَ إلّا برحمتِهِ. لكنهُ نَسَبَ الجنةَ التي يعطيهِمْ وما ذَكَرَ مِنَ الثوابِ إلى أعمالِهِمْ فَضْلاً منهُ وإنعاماً.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] ذَكَرَ أنهُ اشْتَرَى أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بالجنةِ [التي][(٤)] يعطيهِمْ. وأنفُسُهُمْ وأموالُهُمْ في الحقيقةِ لهُ، ولا أحدَ يَشْتَري مُلْكَهُ ومالَهُ بمالِ نفسِهِ وملكِهِ. لكنهُ ذَكَرَ ذلكَ شراءً فَضْلاً منهُ، كأنْ لا مُلْكَ لهُ في ذلكَ، ولا حقَّ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الإقراضِ لهُ بقولِهِ: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ [المزمل: ٢٠] ولا أحدَ يَسْتَقْرِضُ مالَهُ ومُلْكَهُ مِنْ غيرِهِ، لكنهُ عامَلَهُمْ مُعامَلَةَ مَنْ لا مُلْكَ لهُ في أموالِهِمْ وأنفسِهِمْ بما جَعَلَ لهمْ مِنَ الثوابِ والعِوَضِ.

فَعَلَى ذلكَ نِسْبَةُ الجنةِ والثوابِ الذي ذَكَرَ لهمْ إلى أعمالِهِمْ إفضالاً منهُ وإنعاماً، وإنْ لم يَسْتَوجِبوا ما ذَكَرَ بالأعمالِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: يحتمل وجهين للترغيب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مثلُ هذا الوعدِ كأنهُ إنما جاءَ لأهلِ مكةَ، فكانَ لا فواكِهَ لهمْ فيها، ولا ثمارَ. يُخبِرُ أنَّ لكمْ في الجنةِ مِنَ الفواكِهِ الكثيرةِ مالا يَفنى، ولا يَنقطِعُ ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ما تأكلونَ، فلا يؤذيكُمْ، ولا يَضرُّكُمْ، وإنْ أكثرْتُمْ.

ويَحتمِلُ أنَّ ما ذَكَرَ لِما عرَفَ مِنْ رغبةِ الناسِ إلى الفواكِهِ والثمارِ في الدنيا، رَغَّبَهُمْ بها في الآخرةِ، وحَثَّهُمْ على دَفعِ ذلكَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ الإجرامُ هو الكسبُ في اللغةِ، والمُجْرِمُ الكاسبُ، يرجِعُ ذلكَ إلى كلِّ كاسبٍ ممّا جَلَّ، أو دَقَّ. إلا أنَّ الناسَ عَرَفوا مِنَ العذابِ المذكورِ للمجرمِ الخاصِّ، وهو الكافرُ المشرِكُ، فلا يجوزُ صَرْفُهُ إلى كلِّ كاسبٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ يذكُرُ هذا لِيُعلَمَ أنَّ النارَ، وإنْ أنضجَتْ جلودَهُمْ، وأحرقَتْهُمْ، لا تُفتِّرُ التألُّمَ عنهمْ بِنُضجِ الجلودِ، بل [تزيدُ][1] التَّوجُّعَ والتَّألُّمَ بعدَ نُضجِ جلودِهِمْ واحتِراقِها على ما كانَ قَبلَ النُّضجِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ[2] تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المبلِسُ الآيِسُ. وقالَ بعضُهُمْ: المُبلِسُ الذليلُ الخاضِعُ.

وقالَ الزَّجّاجُ: المُبلِسُ هو الساكِتُ عنِ الكلامِ، كَمَنْ لا يَرجو الفرَحَ مِنْ نُطقِهِ لأنَّ مَنْ يَتكلَّمُ فإنما يَتكلَّمُ لِفرَحٍ يَرجو مِنْ نُطقِهِ، أو كلامٌ نَحوُهُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ في التعذيبِ الذي يُعذَّبونَ ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولكنْ همُ الذينَ ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[3] عبدوا مَنْ لا يَملِكُ دفعَ العذابِ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتمِلُ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ في تَرْكِ البَيانِ لهمْ[4]، أي لم نَترُكْ بَيانَ [ما][5] عليهِمْ ومالَهُمْ، بل بَيَّنّا لهمْ عاقبةَ السَّبيلَينِ جميعاً: أنهُ إلى ذلكَ ذا يُفضي [وإلى ذلكَ][6] عاقبةُ هذا السبيلِ. ولكنْ همْ ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[7] اختاروا السبيلَ الذي أفضاهُمْ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ كأنهمْ يقولونَ: سَلْ ربَّكَ لِيَقْضِ علينا بالموتِ.

يَفزَعونَ أولاً إلى المؤمنينَ، وهو قولُهُمْ: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] فلما أيِسوا مِنْ ذلكَ يَفزَعونَ إلى اللهِ تعالى، يَسألونَ الرجوعَ إلى المِحنةِ لِيَعمَلوا غيرَ الذي عمِلوا بقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا / ٥٠١ ـ أ/ نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فلمّا أيِسوا مِنْ ذلكَ يَفزَعونَ إلى مالِكٍ لِيَسألَ ربَّهُ لِيَقضيَ عليهمْ بالموتِ، فقالَ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ وهو ما قالَ ﷻ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٦].

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ هذا على إثْرِ ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] على إثْرِ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآية [غافر: ٥٠] يَحتمِلُ أنْ يكونَ القولانِ جميعاً مِنَ اللهِ تعالى؛ أعني قولَهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقولَهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ واللهُ أعلَمُ. ويكونُ أنْ يكونَ العذابُ جميعاً مِنَ الملائكةِ؛ إذْ جائزٌ إضافةُ الرسلِ إلى الملائكةِ، إذْ هُمْ رُسُلٌ [كقولِ][8] الناسِ: رسولُنا فَعَلَ كذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الحَقُّ كلُّ ما يُحمَدُ عليهِ، ويَحمَدُ هو عاقبةَ ذلكَ الفعلِ. والباطلُ كلُّ ما يُذَمُّ عليهِ فاعلُهُ، ويَذُمُّ هو عاقبتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: عليهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم الحقُّ المذكورُ يَحتمِلُ القرآنَ، ويَحتَمِلُ الحقُّ ما تَركوا اتّباعَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ. ويقولونَ: الحقُّ، هو الذي عليهِ آباؤنا ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ثم قالَ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٤] وقالَ ههنا: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي جِئناكُمْ بِما هو أهْدَى وأحَقُّ ممّا عليهِ آباؤكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ وإنما خاطَبَ بهِ أهْلَ النارِ، وكانوا جميعاً كارِهينَ للحقِّ؟ نقولُ: إنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ أكْثَرَهُمْ قد عَرَفوا أنهُ الحقُّ، لكنهمْ كَرِهوا اتِّباعَهُ والانْقِيادَ لهُ عِناداً منهمْ ومُكابَرَةً بَعدَ ظهورِ الحقِّ عندَهُمْ وتَبَيُّنِهِ لَدَيهِمْ مَخافَةَ ذهابِ الرئاسةِ عنهمْ وزوالِ مَآكَلَتِهِمْ، ولم يَظْهَرْ لأقَلِّهِمْ، ولم يَعْرِفوهُ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني:][1] أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ كراهةِ أكثَرِهِمْ للحقِّ بِحَقِّ الطِّباعِ؛ كانَ في طِباعِ أكثَرِهِمْ كراهةُ ذلكَ الحقِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ إبرامِهِمْ أمراً ما ذَكَرَ في آيَةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠] إبرامُهُمْ أمراً هو مَكْرُهُمُ الذي مَكَروا برسولِ اللهِ ﷺ في ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ إبرامُهُمُ الذي ذَكَرَ غيرَ ذلكَ، وكيفَ ما كانَ ففيهِ وجهانِ في الدلالةِ:

أحَدُهما: لِيَعْلَموا أنَّ اللهَ تعالى عالمٌ سميعٌ بما يُبْرِمونَ في ما بَينَهُمْ مِنْ أمرٍ سِرّاً لأنهُ في ظَنِّهِمْ أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ، ولا يَسْمَعُ ما يُبْرِمونَ مِنَ الأمرِ سِرّاً. ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ [الزخرف: ٨٠].

والثاني: فيهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ لأنهمْ أبرَموا ذلكَ الأمرَ في ما بَينَهُمْ سِرّاً، ثم أخْبَرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بما أبْرَموا، وأحْكَموا مِنَ الأمرِ لِيُعْلِمَ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ يَحتَمِلُ فإنا جازونَ جزاءَ إبرامِهِمْ. ويَحتَمِلُ: ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ أي إلينا يَرْجِعُ تدبيرُ إبرامِهِمُ الأمرَ ومكرُهُمْ جميعاً. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الرعد: ٤٢] على هذينِ الوجهَينِ اللّذينِ ذَكَرْناهما.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ أي بل يَحْسَبونَ على ما ذَكَرْنا أنَّ حرفَ الاسْتِفْهامِ منهُ يُخَرَّجُ على الإيجابِ؛ كأنهُ قالَ: بل يَحْسَبونَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ هذا وعيدٌ وتَنْبيهٌ منهُ لهمْ؛ يُخبِرُ أنَّ رسلَهُ يَكْتُبونَ ما يُسِرُّونَ ويُخفونَ مِنَ المُنْكَرِ وغَيرِهِ لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ ويَقَظَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ يُخَرَّجُ هذا على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ما كانَ للرحمنِ ولدٌ، أي ليسَ للرحمنِ ولَدٌ. ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ على هذا التأويلِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما كانَ للرحمنِ ولدٌ فأنا أوّلُ العابدينَ لهُ بالتعالي والتَّنْزيهِ عنِ الولدِ.

[والثاني][2]: وأنا أوّلُ مَنْ يعبدُ الرحمنَ بالإيمانِ والتصديقِ أنهُ ليسَ لهُ ولَدٌ. على هذا أعبدُ اللهَ تعالى.

والثاني: ما كانَ للرحمنِ ولدٌ، وأنا أوّلُ الآنفينَ، وهو مِنْ عَبَدَ يَعْبَدُ أي أنِفَ يأنَفُ، فيكونُ هذا تنزيهٌ تَصريحٌ عنِ الولدِ، والأوّلُ تنزيهٌ لهُ بالكِنايةِ.

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) في الأصل وم: أي.

جنة السنة

هذا إذا كانَ مَعْنى قولِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ ما كانَ للرحمنِ ولدٌ.

ثم قولُهُ: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يُخرَّجُ على [هذا][1] التأويلِ أيضاً على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي لو كانَ للرحمنِ ولدٌ على زَعمِكُم وعلى ما عندَكُم فأنا أوَّلُ مَنْ يَتبرَّأُ عن أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، وأدعوكُمْ إلى الرحمنِ الذي لا وَلَدَ لهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] أي أينَ شركائيَ [الذينَ][2] تزعُمونَ أنتمْ أنهمْ شركاءُ؟ وقولِهِ تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] أي انْظُرْ إلى إلٰهِكَ الذي هو في زَعْمِكَ إلهٌ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ لهُ: قُلْ: لو كانَ يجوزُ، أو يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، فأنا أوَّلُ مَنْ يَعْبُدُهُ[3] على ذلكَ، أو أوَّلُ مَنْ يقولُ بذلكَ. فإذْ لم أقلْ بذلكَ، وأنا رسولُ اللهِ، وظهرَ أنهُ لا يَحْتَمِلُ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤] أي لو كانَ يجوزُ أنْ يريدَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ ولداً لاصْطفَى ممَّنْ عندَهُ وممَّنْ شاءَ لا ممّا هو عندَكُم وممّا تَختارونَ أنتمْ. لكنْ لا يَحْتَمِلُ، ولا يجوزُ أنْ يَتَّخِذَ ولداً.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقولُ: كما أني لستُ أوَّلَ مَنْ عبدَ اللهَ فكذلكَ ليسَ للرحمنِ ولدٌ كقولِ الرجلِ: لو كانَ ما يقولُ حقّاً فأنا حمارٌ، معناهُ ليسَ الذي تقولُهُ بحقٍّ كما أني لستُ بِحمارٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٢ [ثم][4] نَزَّهَ نفسَهُ عنِ الولدِ وأنهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ حينَ[5] قالَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي ربُّ السمواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ مَنْ فيهِنَّ وربُّ العرشِ.

قالَ أهلُ التأويلِ: أي ربُّ السريرِ، لكنْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُ العرشِ ههنا السريرَ، فَيُنْسَبَ إلى السريرِ، فيُقالَ: ربُّ السريرِ، ويجوزُ لغيرِهِ أيضاً أنْ يقالَ: ربُّ السريرِ، فَتَثْبُتَ المشاركةُ في النسبةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ لذلكَ السريرِ عندَ الخلائقِ مَوقِعاً وقَدْراً عظيماً يليقُ القَسَمُ بِهِ، وإنهُ مِنْ أعظمِ المَخلوقاتِ وأعجبِها فكانَتْ نسبةُ هذا إلى اللهِ ﷻ مِنْ بابِ التعظيمِ والإجلالِ بِمَنْزِلَةِ نسبةِ كلِّ العالَمِ إليهِ، فيكونُ جائزاً[6]، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ تأويلُ العرشِ ههنا[7] المُلْكَ؛ يقولُ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ المُلْكِ عمّا يَصِفونَ. ثم قد بيَّنّا حكمةَ ذِكْرِ السمواتِ والأرضِ على إثْرِ ذِكْرِ الولدِ في غيرِ موضِعٍ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ هذا في الظاهرِ أمْرٌ بِتركِهِمْ على ما هُمْ عليهِ مِنَ الخوضِ واللعِبِ وغيرِهِ، ومثلُ هذا ممّا لا يَليقُ بالحكمةِ؛ إذْ هو حرامٌ في العقلِ. لكنْ يُخرَّجُ على الوعيدِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُخرَّجَ على تركِ المكافآتِ على ما يَصْنَعونَ مِنَ الاستِهزاءِ والأفزاعِ مِنَ الأذى إلى اليومِ الذي يُلاقُونَ، ويُعايِنونَ العذابَ / ٥٠١ ـ ب/ حتى لا تَنْفَعَهُمُ الندامةُ والرجوعُ إلى ذلكَ اليومِ.

وأصْلُ ذلكَ [وجهانِ]:

أحَدُهُما[8]: أنَّ اللهَ تعالى قد أوعَدَهُمْ بِمَواعيدَ شَديدةٍ، ووَعَظَهُمْ بِمَواعظَ بَليغةٍ، فلم تَنجَعْ تلكَ المواعيدُ فيهِمْ، ولا نَفَعَهُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

والثاني: قد بيَّنَ ما يُزيلُ عنهمُ الشُّبَهَ وما يُوجِبُ التَّعَلُّقَ بِهِ؛ أوضَحَ لهمْ طريقَ الحقِّ والهُدى، فلم يَسْلُكوا مَسْلَكَ طريقِ الحقِّ، فأوعَدَهُمْ بما ذَكَرَ في ذلكِ اليومِ مالا تَنْفَعُهُمْ ندامَتُهُمْ في ذلكَ الوقتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الإلهُ في اللغةِ، هو المَعْبودُ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ تعالى، هو المَعْبودُ في السماءِ، وهو المَعْبودُ في الأرضِ، والأصنامَ التي تَعْبُدونَها أنتمْ لا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: اعبده. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: جائز. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: هو. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَعْبُدُها إلّا أنتم، فكيفَ تَرَكْتُمْ عبادةَ المَعْبودِ الذي هو مَعْبودٌ في السماءِ والأرضِ، واخْتَرْتُمْ عبادةَ مَنْ ليسَ بِمَعبودٍ إلّا بِعِبادَتِكُمْ؟

ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: تَعْلَمونَ أنتمْ أنَّ اللهَ ﷻ هو إلهٌ في السماءِ والأرضِ، وإلهُ [مَنْ][١] فيهما وما فيهما، وأنهُ خالقُ ذلكَ كلِّهِ لقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥و...] والأصنامُ التي تَعْبُدونها لم يَفْعَلوا ذلكَ، ولا يَمْلِكونَ شيئاً مِنْ ذلكَ، فكيفَ اتَّخَذْتُموها آلهةً دونَهُ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ذِكْرُ الحَكيمِ والعَليمِ على إثْرِ ذلكَ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: لسؤالِ الثَّنَوِيَّةِ أنَّ اللهَ ﷻ لا يجوزُ أنْ يَبْسُطَ، ويُوَسِّعَ الدنيا على مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُعاديهِ، ويَشْتُمُهُ، ويُعادي أولياءَهُ، ويَشْتُمُهُمْ، لأنَّ في الشاهدِ مَنْ يَصْنَعُ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُعاديهِ مَعْروفاً، فليسَ بحكيمٍ.

فَعَلى ذلِكَ يقولونَ: إنَّ ذلكَ ليسَ مِنَ اللهِ تعالى، ولكنهُ مِنْ إلهٍ غَيرِهِ سَفيهٍ، لأنهُ وصفَ نفسَهُ بالحكمةِ، وأنهُ يريدُ الحكمةَ.

[والثاني: قولُ][٢] البراهمةِ في إنكارِهِمُ الرسالةَ أصلاً؛ يقولونَ: ليسَ مِنَ الحكمةِ بَعْثُ الرسلِ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ويُكَذِّبُ رسُلَهُ، ولا يَقْبَلُ شهادتَهُ، بل يَقْتُلُهُ، ويُعاديهِ. لذلكَ يُنْكِرونَ رسالةَ الرسلِ، فأخبرَ تعالى بقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أنَّ إعطائي إياهمْ ما أعطيتُهُمْ وبَعْثي الرسلَ إليهمْ على عِلْمٍ مني بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ والعداوةِ، لا يُخْرِجُني عنِ الحكمةِ، ويُخْرِجُ فاعلَ ذلكَ في الشاهدِ عنِ الحكمةِ، لأنَّ ملوكَ الأرضِ إنما يرسلونَ الرسلَ، ويَبْعَثونَ الهدايا لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجتِهِمْ. فإذا عَلِموا مِنَ المَبْعوثِ إليهِمُ الرسلُ والمَصْنوعِ إليهمُ المعروفُ ما ذَكَرْنا خَرَجَ [ذلكَ][٣] عنِ الحكمةِ.

فأمّا اللهُ تعالى إنما بَعَثَ الرسلَ لحاجةِ المَبْعوثِ إليهمْ ولِمَنافِعِ أنفسِهِمْ، فكذلكَ ما يعطيهِمْ مِنَ الدنيا لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ، فلم يَخْرُجْ ذلكَ عنِ الحكمةِ، لأنهُ لا يَضُرُّهُ مُعاداةُ مَنْ عاداهُ، ولا تَنْفَعُهُ مُوالاةُ مَنْ والاهُ. بلْ كلُّ ذلكَ راجعٌ إليهِمْ بل صُنْعُ ما يَصْنَعُ مِنَ المعروفِ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُعاديهِ يكونُ وصفاً لهُ بغايةِ الكرمِ والجودِ.

لذلكَ [كانَ] ما ذَكَرْنا، وبَطَلَ قولُ الثَّنَوِيَّةِ والبراهمةِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قولُهُ: ﴿وَتَبَارَكَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي تعالى، وتعاظَمَ عمّا قالتِ المُلْحِدَةُ فيهِ مِنَ الشريكِ والولدِ والصاحبةِ وغيرِ ذلكَ مما [لا][٤] يليقُ بهِ، ولا يجوزُ، فيكونُ تنزيهاً عنْ جميعِ ما قالوا فيهِ، وهو كَحَرْفِ: سُبْحانَ الذي يكونُ تنزيهاً عمّا قالوا فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: تبارَكَ، هو مِنَ البركةِ. لكنَّ بعضَ العلماءِ قالوا: إنَّ هذا التأويلَ لا يَصِحُّ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَتَبَارَكَ﴾ هو مِنْ وقوعِ البركةِ بنفسِهِ، فهو اسمٌ ملازمٌ، ولا يجوزُ أنْ يوصَفَ اللهُ تعالى بوقوعِ البركةِ [عليهِ][٥].

لكنْ عندَنا: تَبارَكَ: تَفاعَلَ، والتَّفاعُلُ هو فِعْلُ اثْنَينِ. فجائزٌ نسبةُ البركةِ إليهما على حقيقةِ وقوعِهِما بأحدِهِما، وهو الخَلْقُ للإيصالِ على ما هو الأصلُ في مِثْلِ هذا. ولهُ نظائرُ كثيرةٌ.

وأصلُ تأويلِ: تبارَكَ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: تعالى، وتَعاظَمَ عنْ جميعِ ما قالتِ المُلْحِدَةُ فيهِ مما لا يَليقُ بهِ مِنَ الولدِ والشريكِ وغيرِ ذلكَ. لكنْ هو على التأويلِ لا على تحقيقِ الاِسْمِ.

فَنَظيرُهُ ما فَسّروا في قولِهِ: «وتعالى جَدُّكَ» [الترمذي٢٤٣] أي عظمتُكَ. والجَدُّ هو في الحقيقةِ ليسَ اسْمَ العظمةِ، ولكنْ هو خروجُ الأمرِ على ما يريدُ وما يشاءُ. وتَسْمِيَةُ الناسِ في ما بَيْنَهُمْ بالفارسيةِ بختا؛ فَسّروا الجَدَّ بالعظمةِ لِنَفاذِ مَشيئةِ العظيمِ وخروجِ الأمورِ على ما يريدُهُ، ويَشاؤهُ.

فَعَلى ذلِكَ تفسيرُهُمْ تبارَكَ بما قالوا: تعالى، وتعاظَمَ على التأويلِ لا على تحقيقِ الاِسْمِ؛ إذْ هو مِنَ البركةِ. لكنْ كلُّ مَنْ بورِكَ فيهِ صارَ مُتعالياً، فأطلقوا عليهِ تبارَكَ بِمَعْنى تعالى لا بِمَعْنى حقيقةِ البركةِ، هو الاِسْمُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وكقول. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم قولُهُ: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيانٌ منهُ وتعليمٌ لِلْخَلْقِ ما تجوزُ النسبةُ إليهِ، فقالَ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧و...] وقالَ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٦و...] ونحوَ ذلكَ، يُبيِّنُ لهمْ أنِ انسُبوا إليهِ [هذا، ولا تَنسُبوا إليهِ][1] مِنَ الولدِ والشريكِ والصاحبةِ ونَحْوِ ذلكَ لأنَ نسبةَ الأشياءِ بِكُلِّيَّتِها تُخَرَّجُ مُخرَجَ الوصفِ لهُ بالعظمةِ والجَلالِ نَحوَ ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقولِهِ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩و...] وقولِهِ: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠و...] وقولِهِ: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٠٢].

ونسبةُ خاصِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ تُخَرَّجُ مُخرَجَ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ لتلكَ الأشياءِ، ثم يُنظَرُ بعدَ هذا؛ فإنْ كانتْ تلكَ الأشياءُ الخاصِّيَّةُ ممّا يجوزُ تعظيمُها نُسِبَتْ إليهِ، وأُضيفَتْ، نَحْوَ قولِهِ[: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥و...]][2] وقولِهِ[3]: ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤و...] وقولِهِ: ﴿رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٢١و...] وغيرَ ذلكَ مِنَ الأشياءِ التي يُعظِّمُها اللهُ تعالى، ويرفَعُ قَدْرَها ومَنزِلَتَها عندَهُ.

وإنْ كانَتِ الأشياءُ ممّا يُستَقذَرُ، ويُستَقبَحُ، ويُستَرذَلُ، فلا تجوزُ النسبةُ إليهِ والإضافةُ لِما ذَكَرْنا أنَّ نسبتَها إليهِ وإضافتَها تُخَرَّجُ مُخرَجَ التعظيمِ لها، وهي ليسَتْ بِمُعظَّمةٍ، ولكنها مُسترذَلةٌ، مُستَقذَرةٌ، فيكونُ وضعُ الشيءِ في غيرِ موضِعِهِ، وإنهُ خلافُ الحكمةِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي عندَهُ عِلْمُ ساعةِ الصَّعْقَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الزمر:٦٨].

[والثاني][4]: يَحتَمِلُ: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الزلزلةَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

[والثالثُ][5]: يَحتَمِلُ: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الفزعَ والهَوْلَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧].

[والرابعُ][6]: يَحتَمِلُ: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ القيامةَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ /٥٠٢ ـ أ/ ونَحوَ ذلكَ واللهُ أعلَمُ.

أخبَرَ أنهُ لم يُطلِعِ اللهُ ﷻ [عِلْمَ][7] حقيقةِ ما ذَكَرَ أحداً مِنْ خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ أنَّ تخصيصَ ذلكَ بالرجوعِ إليهِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ راجعينَ فيهِ إلى اللهِ تعالى صائرينَ إليهِ:

أحَدُها: لأنَّ المقصودَ مِنْ إنشائهِمْ ذلكَ؛ أعني البَعْثَ كي لا يكونَ خَلْقُهُمْ عَبَثاً على ما ذَكَرْنا غيرَ مَرَّةٍ.

[والثاني][8]: يَحتَمِلُ أنهُ خَصَّ ذلكَ اليومَ بالرجوعِ إليهِ والمَصيرِ والخروجِ لأنهُ يومئذٍ يَخلُصُ خُروجُهُمْ ورجوعُهُمْ إليهِ وانقيادُهُمْ لهُ، وقد ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ إنَّ قوماً كانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ رجاءَ أنْ يكونوا لهمْ شُفَعاءَ لِما عَرَفوا مِنْ خصوصيَّتِهِمْ وفَضْلِهِمْ عندَ اللهِ، وذلكَ معروفٌ في الناسِ أنهمْ يَخدِمونَ، ويُكرِمونَ خَواصَّ ملوكِهِمْ رَجاءَ أنْ يَشفَعَ لهمْ أولئكَ الخواصُّ عندَ الملكِ إذا نَزَلَ بهمْ بلاءٌ، ووقَعَتْ [لهمْ][9] حاجةٌ يوماً مِنَ الدهرِ. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ كانوا يعبدونَ الملائكةَ لِما عَرَفوا مِنْ خصوصيَّتِهِمْ وفَضْلِ مَنزِلَتِهِمْ عندَ اللهِ.

ثم أخبَرَ ﷻ عنِ الملائكةِ أنهمْ لا يَملِكونَ الشفاعةَ بقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]. وهو

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بيت الله. (٣) و(٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و.
(٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

كقولِهِ[1]: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي إلّا لمنْ شَهِدَ بِوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وألوهيَّتِهِ، لا يَشْفَعونَ لأولئكَ، إنما يَشْفَعونَ لِمَنْ ذَكَرَ، وإنْ كانَتْ لهمْ خُصوصيَّةٌ عندَ اللهِ لأنَّ اللهَ ﷻ نَهَى أولئكَ أنْ يَعْبُدوا الملائكةَ، ويُعَظِّموهُمْ مِنْ جهةِ العبادةِ. لذلكَ لا يَمْلِكونَ الشفاعةَ، فيكونُ مَثَلُ هذا مَثَلَ مَلِكٍ نَهَى قومَهُ أنْ يَخْدِموا، أو يُعَظِّموا أحداً سِواهُ مِنْ خَواصِّهِ. فإذا فَعَلوا ذلكَ، وخَدَموهُمْ، وتَرَكوا نَهْيَهُ، لا يَمْلِكُ أولئكَ الخواصُّ، ولا يَتَجاسَرونَ على طلبِ الشفاعةِ عندَ الملكِ لأولئكَ الذينَ نهاهُمُ المَلِكُ أنْ يَخْدِموهُمْ، ويُعَظِّموهُمْ دونَهُ.

فَعَلَى ذلِكَ الملائكةُ لم يَجْعَلْ لهمْ شفاعةً لِأولئكَ الذينَ عبدوهُمْ دونَهُ إلّا لِمَنْ ذَكَرَ، وهمُ الذينَ شَهِدوا بالحقِّ، وقاموا بعبادةِ اللهِ تعالى فقد أذِنَ لهمْ بالشفاعةِ لأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لو كانَتْ لهمُ الشفاعةُ لكانَتْ لا تَنْفَعُهُمْ شفاعَتُهُمْ، ليسَ أنْ يكونَ لهمْ شفاعةٌ أو شُفعاءُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ الآية [المائدة: ٣٦] وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ الآية [البقرة: ١٢٣].

فَعَلَى ذلِكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا تَنْفَعُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: يَرْجِعُ إلى الملائكةِ، فيكونُ كأنهُ يقولُ: ولا يَمْلِكُ الذينَ يَدْعونَ مِنْ دونِهِ الشفاعةَ، وهمْ يعلَمونَ أنهمْ لا يَمْلِكونَ الشفاعةَ.

والثاني: يرجِعُ إلى مَنْ شَهِدَ بالحقِّ، فيكونُ كأنهُ يقولُ: ولا يَمْلِكُ الذينَ يَدْعونَ مِنْ دونِهِ الشفاعةَ إلّا مَنْ شَهِدَ بالحقِّ وهمْ يَعْلَمونَ أنهمْ يَشْهَدونَ بالحقِّ، والشهادةُ بالحَقِّ ما ذَكَرْنا؛ يعني يَشْهَدونَ على وَحْدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ وأنهُ المُسْتَحِقُّ العبادةَ دونَ مَنْ عَبَدوهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقالَ في أوَّلِ السورةِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

ثم نَعَتَهُ، فقالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [الزخرف: ١٠ ـ ١٣].

قد أقَرّوا جميعاً أنَّ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وخَلَقَهُمْ وما يحتاجونَ إليهِ، هو اللهُ تعالى، ثم عِلْمُهُمْ وعِرْفانُهُمْ بذلكَ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

يَحْتَمِلُ عِلْمَ حقيقةٍ على التَّسخيرِ والاضطرارِ بأنْ أنشأَ اللهُ تعالى علماً في قلوبِهِمْ، فَعَلِموا بذلكَ حقيقةَ أنَّ اللهَ ﷻ هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ.

ويَحْتَمِلُ عَلِموا عِلْمَ الاستِدلالِ بالتأمُّلِ والنَّظَرِ؛ إذْ مِنْ عادةِ العربِ التأمُّلُ والنَّظَرُ، فَنَظَروا، وتأمَّلوا، فَعَرَفوا بالاستِدلالِ العقليِّ أنهُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يقولُ: فأيُّ شيءٍ يَصْرِفُهُمْ، ويأفِكُهُمْ عنِ القيامِ بوفاءِ ما أُعطوا بألسنتِهِمْ، وتحقيقِ ما أقَرّوا، ونَطَقوا أنَّ اللهَ خالقُ ذلكَ كلِّهِ وأنَّ ذلكَ كلَّهُ منهمْ، وجَعَلَ ذلكَ لِمَنْ يعلَمونَ أنهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ منهمْ وبعدَ معرفتِهِمْ بذلكَ؛ أعني الأصنامَ التي يَعْبُدونها؟ واللهُ الهادي.

وقالَ أهلُ التأويلِ: أي فأنّى يُكَذِّبونَ بعدَ عِلْمِهِمْ ومعرفتِهِمْ ذلكَ في تَسْمِيَتِهِمْ معبودَهُمْ إلهاً أو شكرِهِمْ غَيرَ الذي صَنَعَ ذلكَ لهمْ بالعبادةِ لهُ دونَ اللهِ تعالى؟

---

(١) في الأصل وم: قوله.

جنة السنة

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ قُرِئَ بنصبِ[1] اللامِ وكسرِها: فَمَنْ قَرَأَ بالنصبِ جَعَلَهُ مَعْطوفاً على قولِهِ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الآية: ٨٠] ونَسْمَعُ قِيلَهُ أي قولَهُ الذي عَقَلوهُ، أي بل نَسْمَعُ ذلكَ كلَّهُ.

ومَنْ قَرَأَ بالكَسْرِ عَطَفَهُ على قولِهِ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الآية: ٨٥] أي عندَهُ عِلْمُ الساعةِ وعِلْمُ ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنهُ على الإضمارِ، أي قيلَ لهمْ: قلْ إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يُصَدِّقونَ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ لأنهُ أخْبَرَ أنهمْ لا يؤمنونَ، وقد كانَ على ما أخْبَرَ لم يُؤمنوا. دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ، وعَلِمَهُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أعْرِضْ [عنهمْ][2] ودَعْهُمْ ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي قُلِ الصوابَ والحَقَّ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يوماً، فهو وعيدٌ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي سلامٌ عليهِمْ. لكنهُ على المؤمنينَ، ليسَ على أولئكَ الكَفَرَةِ فَسوفَ تَعْلَمونَ بالتاءِ[3]، يكونُ لو صُرِفَ إلى المؤمنينَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] فيكونُ كأنهُ ﷺ قالَ: فَسَوفَ تَعْلَمونَ أيُّها المؤمنونَ ما يَنْزِلُ بأولئكَ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٣٠. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ١٣١.

جنة السنة

جنة السـنة

سورة ﴿حمٓ﴾ الدخان

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

[وبِهِ نستعينُ][1]

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ قد ذَكَرنا تأويلَهُ فيما تقدَّمَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنّا أنزلنا / ٥٠٢ ـ ب/ الكتابَ أيِ القرآنَ في ليلةِ القدرِ مِنَ اللوحِ المَحفوظِ إلى السماءِ الدنيا. ثم أُنزِلَ على النبيِّ ﷺ بالتَّفاريقِ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الهاءُ راجعةً إلى قولِهِ: ﴿حمٓ﴾ أي قَضَى ما هو كائنٌ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ ما قَضَى في كلِّ سنةٍ مِنَ الموتِ والحياةِ والرزقِ ونَحوِ ذلكَ يَنزِلُ في ليلةِ القدرِ، ونَسْخُهُ[2] إلى الملائكةِ الذينَ وُكِّلوا على ذلكَ. فهذا يَحتَمِلُ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الهاءُ راجعةً إلى ما ضَمَّنَ في قولِهِ ﴿حمٓ﴾ على ما أرادَ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنهُ أرادَ بهذا إنزالَ شيءٍ وأمرٍ في ليلةِ القدرِ، عَرَفَهُ[3] رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ، فَيُخبِرُ أنهُ أنزَلَ ذلكَ، ولم يُبيِّنوا لنا ذلكَ لِما لا حاجةَ لنا إلى معرفتِهِ.

وقالتِ الرَّوافِضُ في قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: إنَّ اللهَ تعالى أنزَلَ شيئاً على رسولِهِ، يكونُ ذلكَ الشيءُ على رأسِهِ وعلى رؤوسِ الأئِمّةِ الذينَ يكونونَ بعدَهُ بحيثُ يَرَونَ ذلكَ دونَ غيرِهِمْ إذا استَقبَلَهُمْ أمرٌ، أو بدا لهمْ شيءٌ، نَظَروا في ذلكَ الشيءِ، فَعَرفوا[4] ما احتاجوا وما يكونُ لهمْ مِنَ الصلاحِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وأمّا عندَ أهلِ التأويلِ فهو ما ذَكَرنا راجعٌ إلى ذلكَ الكتابِ المُنزَلِ على رسولِ اللهِ ﷺ وإلى ما ذَكَرنا مِن تَضمينِ ما ضَمَّنَ في قولِهِ: ﴿حمٓ﴾ وكذلكَ قالوا أيضاً في قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ وهي ليلةُ القدرِ، سَمّاها مُبارَكةً، وقد سَمّى المطرَ والماءَ المُنزَلَ مِنَ السماءِ [مُباركاً بِقولِهِ][5] تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ [ق: ٩] وكذلكَ الأرزاقُ المُنزَلةُ مِنَ السماءِ والمُستَخرَجةُ مِنَ الأرضِ مُبارَكةٌ بقولِهِ: ﴿بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] والمُبارَكُ هو الذي عندَهُ تُدرَكُ كلُّ الخيراتِ. والبركةُ هي اسمُ كلِّ خيرٍ يكونُ أبداً على الزيادةِ والنماءِ، فَسَمّى تلكَ الليلةَ مُبارَكةً لِما جَعَلَ فيها مِنَ الخَيراتِ والبَرَكاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الخَلْقَ إذا أُنشِئوا، وبَلَغوا المبلَغَ الذي يَستَوجِبونَ الإنذارَ.

ويَحتَمِلُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الخَلْقَ بالرسلِ؛ هذا هو الظاهرُ أنَّ هذا القولَ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ: قالَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ بالقرآنِ بِما أنزَلَ على [الرسولِ][6].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ يَحتَمِلُ أي يُفصَلُ، ويُبيَّنُ، كلُّ أمرٍ، هو كائنٌ في ليلةِ القدرِ، [ويَحتَمِلُ أي يُبيَّنُ في ليلةِ القدرِ][7] كلُّ ما يكونُ في تلكَ السنةِ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل: ونسخها، في م: نسخها. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كقوله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ثم قولُهُ: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يَحْتَمِلُ أي كلُّ أمرٍ فيه حكمةٌ.

الآية ٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ يَحْتَمِلُ][1] كلُّ أمرٍ مُحْكَمٍ مُتْقَنٍ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الأمرَ الذي ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿رَحْمَةً﴾ أي ما أنزلَ منَ الكتابِ هو رحمةٌ مِنْ ربِّكَ، ويَحْتَمِلُ، ليلةَ القدْرِ، أي جَعَلَها رحمةً منهُ، ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ أمرٍ حكيمٍ، هو رحمةٌ منهُ، ويَحْتَمِلُ أي الرسولُ المَبْعوثُ إليهِمْ رحمةٌ منهُ لهمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بأقوالِهِمُ التي أسَرُّوها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالِهِمْ وأعمالِهِمِ التي أخفَوها، وأضمَروها. ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ المجيبُ لِمَنْ دعا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَرْجِعُ إلى مصالِحِهِمْ في دينِهِمْ ودنياهُمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ربُّ الشيءِ، هو مُصْلِحُهُ؛ معناهُ مُصْلِحُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما، وحافظُ ذلكَ كلِّهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مالِكِهِما ومالكُ ما فيهما. ويَحْتَمِلُ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالِقِهِما وخالقُ ما فيهما ومُنْشِئُ ذلكَ كلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا على إتمامِ الآيةِ ومُراعاةِ المقاطِعِ على وجهِها. هذا وأمثالُهُ[2] يُخَرَّجُ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ على إثْرِ قولِهِ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما إنْ كنتُمْ تَعْلَمونَ أنهُ ربُّ ما ذَكَرَ، فيكفَ تَصْرِفونَ العبادةَ واسْمَ الألوهيَّةِ إلى مَنْ ليسَ بِرَبِّ ما ذَكَرَ أنَّ الإيقانَ، هو العِلْمُ بالشيءِ حقيقةً؟

الآية ٨ ثم نَعَتَ الرَّبَّ، فقالَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكأنهُ يقولُ: لا مَعْبودَ يَسْتَحِقُّ العبادةَ سِواهُ، لأنَّ الإلهَ المَعْبودُ عندَ العربِ، يقولُ: لا تَسْتَحِقُّ الأشياءُ التي تَعْبُدونَ العبادةَ، إنما المُسْتَحِقُّ لها، هو الذي لا إلهَ غيرُهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: لا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الألوهيَّةِ إلَّا هو لا الأشياءُ التي سَمَّيْتُموها آلهةً.

ثم نَعَتَهُ، فقالَ: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هو يُحْيِي، ويُميتُ، وهو ربُّكُمْ وربُّ آبائِكُمُ الأوَّلينَ. إنَّ مِنْ عادةِ العربِ أنهمْ كانوا يَعبدونَ، ويَخْدِمونَ، شيئاً دونَ اللهِ تعالى رَجاءَ أنْ يَشْفَعَ لهمْ، وتُقَرِّبَهُمْ تلكَ[3] العبادةُ إلى اللهِ تعالى، فيقولُ: إنَّ الذينَ تَعْبُدونَ دونَ اللهِ لا يَقَعُ لهمُ العِلْمُ بعبادتِكُمْ إياها، فاصْرِفوا العبادةَ إلى الذي[4] يَعْلَمُ بِعِبادَتِكُمْ على كلِّ حالٍ، وأخلِصوا لهُ ذلكَ، ولا تُشْرِكوا غيرَهُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ في أمرِ القرآنِ، ويَحْتَمِلُ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ في أمرِ الرسولِ ﷺ ونَحْوِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ فيه:

قالَ بعضُهُمْ: ليسَ هو على حقيقةِ الدخانِ، ولكنْ على التمثيلِ والمَجازِ. ثم اخْتُلِفَ في كيفيَّةِ ذلكَ مَعَ اتِّفاقِهِمْ أنهُ قد مَضَى ذلكَ، وقد كانَ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِدُخَانٍ﴾ أي بِجَدْبٍ وقَحْطٍ، جَعَلَ الدُّخانَ كِنايةً عنِ الجَدْبِ لوجوهٍ:

أحَدُها: لِما يُقالُ: إنَّ الجائعَ في القَحْطِ، كانَ يَرَى بَيْنَهُ وبينَ السماءِ والناسِ دُخاناً مِنْ شِدَّةِ الجوعِ كالذي يَشْتَدُّ بهِ

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) في الأصل وم: وأمثالها. (٣) في الأصل وم: ذلك. (٤) من م، في الأصل: الذين.

العَطَشُ يَرى السَّرابَ ماءً؛ وذلكَ لأنهُ لما اشتدَّ [بهم](1) الجوعُ، ضَعُفَتْ أبصارُهُم، وغطَّاها الجوعُ، فيكونُ الجوعُ سَبَبَ ترائي الدُّخانِ، فاسْتُعيرَ لهُ.

[والثاني](2): لأنَّ في سَنَةِ الجَدْبِ تَتَيَبَّسُ الأرضُ، ويَنْقَطِعُ النباتُ، فَيَرْتَفِعُ الغبارُ، ويَصْعَدُ بالريحِ(3). فَيُشَبَّهُ ذلكَ الغبارُ الذي يَرْتَفِعُ مِنْ يُبْسِ الأرضِ بالدخانِ [ويُسَمَّى بالدخانِ](4). ولِذلكَ قيلَ: السَّنَةُ غبراءُ، وقيلَ: جوعٌ أغْبَرُ، لأنَّ العربَ رُبّما وضَعَتِ الدخانَ مواضِعَ الشَّرِّ إذا علا، فيقولونَ: لو كانَ يَبِسَ أمرٌ ارْتَفَعَ لهُ دخانٌ، وقالوا: إنَّ هذا القَحْطَ الذي جَعَلَ الدخانَ كِنايةً عنهُ، قد كانَ، فإنهُ اشْتَدَّ بهِمُ القَحْطُ، وقَلَّتِ الأمطارُ، ويَبِسَتِ الأرضُ، وارتَفَعَ الغبارُ، وصَعِدَ بالريحِ كالدخانِ، وضَعُفَتِ الأبصارُ لشدةِ الجوعِ حتى كانوا يَرَوْنَ السماءَ كأنَّها على ما رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: كانَ أحَدُهُمْ يَنْظُرُ إلى السماءِ، فَيَرى كَهَيْئَةِ الدخانِ /٥٠٣ ـ أ/ منْ شِدَّةِ الجوعِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما مَثَلُ الأرضِ يومئذٍ كَمَثَلِ بَيْتٍ أُوقِدَ ليسَ فيه خُصاصةٌ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: قد مَضَى الدخانُ، وهو سِنونَ كَسِني يوسفَ، فَجَهَدَ الناسُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو على حقيقةِ الدخانِ، وإنهُ لم يَمْضِ بَعْدُ، وكذلكَ رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: الدخانُ لم يَمْضِ بَعْدُ، يأخُذُ المؤمنَ كهيئةِ الزكامِ، ويَنْفُخُ الكافرَ حتى يَنْفَدَ، وكذلكَ قولُ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ والحَسَنِ وغيرِهما.

لكنَّ صَرْفَ الدخانِ المَذْكورِ في الآيةِ على التمثيلِ أشبَهُ لأنَّ الأمرَ إذا اشْتَدَّ، وبَلَغَ نهايَتَهُ، يُشَبَّهُ النارَ والدخانَ كقولِهِ: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] وليسَ هنالكَ نارٌ، لكنْ وَصْفُ شدةِ الحربِ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ تَشبيهُ ما اشْتَدَّ بهمْ مِنَ الجوعِ والجَدْبِ والقَحْطِ بالدخانِ الذي ذَكَرَ. وكذلكَ يصفُ الناسُ الأمرَ إذا اشْتَدَّ؛ يقولونَ: هاجَ الدخانُ، وثارَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ ما ذَكَرَ، وهو عذابٌ أليمٌ على تأويلِ أنهُ ماضٍ كائنٌ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يَغْشَى، فيقولُ الناسُ ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو على قولِ مَنْ يقولُ: إنهُ لم يَمْضِ بعدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي إنا نُؤمِنُ بكَ في ما تَدْعونا إليهِ لو كَشَفْتَ(5) عنّا العذابَ في مَعْنَى الشرطِ والجزاءِ، وهو كقولِ موسى ﷺ حينَ(6) ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ على الحالِ كأنهمْ قالوا: ربَّنا اكْشِفْ عنّا العذابَ إنا مؤمنونَ لِلحالِ.

الآية ١٣ ثم أخْبَرَ اللهُ ﷻ أنهمْ لا يؤمنونَ، وأنهمْ كَذَبَةٌ في ما قالوا حينَ(7) قالَ تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يقولُ(8): أنّى يَتوبونَ؟ أو مِنْ أينَ تَنْفَعُهُمْ توبَتُهُمْ في ذلكَ بَعْدَ ما خَرَجَتْ أنفسُهُمْ مِنْ أيديهِمْ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ قَبْلَ ذلكَ الوقتِ ﴿مُّبِينٌ﴾ أنهُ رسولٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ يَحْتَمِلُ أي أعْرَضوا عمّا جاءَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ من القرآنِ. ويَحْتَمِلُ تَوَلَّوْا عمّا دَعاهُمْ إليهِ رسولُ اللهِ ﷺ وأمَرَهُمْ بهِ. ويَحْتَمِلُ تَوَلَّوْا عنْ رسولِ اللهِ نفسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ قولُهُمْ: ﴿مُعَلَّمٌ﴾ لأنهمْ يقولونَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقولُهُمْ(9): ﴿مَّجْنُونٌ﴾ نَسَبوهُ إلى الجنونِ لِوَجْهَينِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: الريح ليبسها. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: كشف. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: يقولون. (٩) في الأصل وم: وقوله.

أحَدُهما: ما ذُكِرَ أنهُ إذا نَزَلَ بهِ الوَحْيُ تَغيَّرتْ حالُهُ ولَونُهُ لِثِقَلِ ذلكَ عليهِ، فيقولونَ: بهِ آفةٌ وجنونٌ.

والثاني: لمّا رَأوهُ قد خاطَرَ بروحِهِ ونفسِهِ لأنهُ خالَفَ الفَراعنةَ منهمْ والأكابرَ الذينَ كانتْ هِمَّتُهُمُ القَتلَ والإهلاكَ لِمَنْ خالَفَهُمْ، ودعاهُمْ إلى غيرِ الذي كانوا عليهِ، نَسَبوهُ[1] إلى الجنونِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنكُمْ عائدونَ إلى[2] مَعاصيكُمْ وكُفرِكُمُ الذي كُنتُمْ فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنكُمْ عائدونَ إلى عذابِ يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ يومُ بَدرٍ، وهو قولُ ابنِ مسعودٍ ﷺ وقولُ عامّةِ أهلِ التأويلِ[3]: أشَدُّ مِنَ الدخانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو عذابُ يومِ القيامةِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ والحَسَنِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ولقد فَتَنّا قومَ فرعونَ بموسى قبلَ قومِكَ كما فَتَنّا قومَكَ بكَ. ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ولقد فَتَنّا قومَ فرعونَ بِمِثْلِ الذي فَتَنّا قومَكَ.

ثم افتِتانُ قومِ فرعونَ بِمِثْلِ الذي فَتَنَ قومَهُ [يَحتَمِلُ][4] وجوهاً:

أحَدُها: أنّ موسى ﷺ قد أتاهُمْ بالبَيِّناتِ المُعجِزاتِ وما لم يَقدِرْ فرعونُ على مقابَلَةِ تلكَ الآياتِ، وعَجِزوا عنِ الإتيانِ بِمِثلِها، فَمَهما أتاهُمْ بذلكَ، وعَرَفوا أنها آياتُ اللهِ تعالى، كَذَّبوها، ورَدّوها، ونَسَبوا موسى إلى السِّحرِ والكَذِبِ والافتِراءِ على اللهِ تعالى.

فَعَلى ذلكَ عَمِلَ أهلُ مكةَ برسولِ اللهِ ﷺ وعامَلوه بالذي عامَلَ أولئكَ موسى مِنَ النسبَةِ إلى السِّحرِ والجنونِ والكَذِبِ والافتِراءِ على اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: إنّ فرعونَ وقومَهُ: ازدَرَوا موسى، وحَقَّروهُ، لأنهُ وُلِدَ فيهمْ كما ازدَرى أهلُ مكةَ محمداً ﷺ فقالوا: أنتَ أصغَرُنا وأفقَرُنا وأقَلُّنا حيلةً كما قالَ فرعونُ لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ الآية [الشعراء: ١٨].

[والثالث:][6] أنْ يكونَ أهلُ مكةَ سألوا اليهودَ عنِ الأنباءِ التي يَجِدونها في الكُتُبِ لِيُحاجّوا بها رسولَ اللهِ ﷺ يَطلُبونَ بذلكَ ظهوراً لِكَذِبٍ مِنْ رسولِ اللهِ في ما كانَ يُخبِرُهُم عنِ الأنباءِ المُتَقَدِّمةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ كانَ جميعُ رسلِ اللهِ ﷺ كِراماً لأنّ اللهَ تعالى كانَ بَعَثَهُمْ إلى قومٍ جُهّالٍ سُفَهاءَ كانَ لهمُ الرُّكونُ إلى الدنيا والمَيلُ إليها والرغبةُ فيها، فَبَعَثَ إليهمْ كِرامَ الخُلُقِ لِيُذَكِّروا أولئكَ الأقوامَ، وتَتَهَيّأُ لهمْ [المُعامَلةُ لهمْ][7] والتَّحَمُّلُ منهمْ سوءَ[8] ما كانوا يُعامِلونَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ولذلكَ وَصَفَ رسولَ اللهِ ﷺ بالخُلُقِ العظيمِ حينَ[9] قالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يقولُ: أنْ أرسِلوا معي بَني إسرائيلَ، وخَلّوا عنهمْ، ولا تَحبِسوهُمْ، ولا تَستَعبِدوهُمْ، فإنهمْ أحرارٌ.

ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: أرسِلوا معي بَني إسرائيلَ فإنهم يَرغَبونَ في إجابَتي إلى ما أدعوهُمْ إليهِ، ويَطمَعونَ في اتّباعي في ما آمُرُهُمْ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني لكُمْ رسولٌ أمينٌ على الوَحْيِ والرسالةِ. ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: إني كُنتُ أميناً في ما بَينَكُمْ، لا يَظهَرُ لكُمْ مني خيانةٌ، ولا اطَّلَعْتُمْ على كَذِبٍ قَطُّ. فلماذا تُكَذِّبونَني، وتَنسِبونَني إلى السِّحرِ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: إذا. (٢) في الأصل وم: وفي. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وقالوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لسوء. (٩) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي وألّا تتكبّروا، ولا تتعظّموا على اللهِ تعالى.

لكنْ عندَنا مَعْناهُ: وألّا تتكبّروا، ولا تتعظّموا على رسولِ اللهِ، ولا تتعظّموا على عبادةِ اللهِ وعلى دينِهِ؛ إذْ لا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ التّكبّرِ على اللهِ تعالى، وإنْ تَنْسُبِ إليهِ فهو على إرادةِ أوليائِهِ أو دينِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي آتيكُمْ بِحُجّةٍ بَيّنَةٍ أنها مِنَ اللهِ وأني رسولُ اللهِ؛ وهو ما أتاهُمْ مِنَ الآياتِ المُعْجِزاتِ والحُجَجِ والبَراهينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ مِنْ موسى ﷺ على ابْتِداءٍ بلا سَبَبٍ، كانَ مِنْ فرعونَ، ولا أمْرٍ، سَبَقَ؛ فكانَ سَبَبُهُ /٥٠٣ ـ ب/ ونازِلَتُهُ، واللهُ أعلَمُ، هو ما ذَكَرَ في سورةٍ أُخرى حينَ[1] قالَ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ الآية [غافر: ٢٦].

لمّا قالَ فرعونُ ذلكَ، وهمَّ أنْ يَقْتُلَ موسى [قالَ له موسى][2] عندَ ذلكَ: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾. في ذلكَ دلالةُ أنهُ آيَةٌ مِنْ آياتِ اللهِ [آياتِ][3] الرسالةِ لأنهُ [لمّا][4] قالَ فرعونُ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لِيَمْنَعَني عن قَتْلِهِ، فقالَ: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية دَلّ هذا القولُ على أنهُ عَلِمَ قولَ فرعونَ وقَصْدَهُ بقتلِهِ وتعبيرَهُ بالدعاءِ إلى اللهِ لِيَمْنَعَهُ عن ذلكَ، وعَلِمَ أنّ اللهَ تعالى يَعْصِمُهُ عن شَرِّهِ وكيدِهِ مَتى قالَ ذلكَ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ يقولُ: فإنْ لم تُصدِّقوني في ما أدعوكُمْ إليهِ وآمُرُكُمْ بهِ فاتْرُكوني، فأُصَدِّقَ، وأؤمِنَ بهِ، ولا يَضُرُّكُمْ تَصْديقي وإيماني.

وقالَ بعضُهُمْ: أي دَعوني خَفّاقاً جانباً لا عليَّ، ولا لي.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ ولا تَقْبَلوني.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وهو كقولِهِ حينَ[5] قالَ: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] وكقولِ نوحٍ ﷺ ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ و٦] ونَحْوَ ذلكَ؛ يقولونَ: يا ربّنا إنّا قد عامَلْناهُمُ المُعامَلَةَ التي أمَرْتنا أنْ نُعامِلَهُمْ، واحْتَلْنا الحِيَلَ التي عَلّمْتنا أنْ نَحْتالَ معَهُمْ، فلم يَنْجَعْ ذلكَ فيهِمْ، ولم[6] يَتّبِعُونا، ولا أجابونا إلى ذلكَ. فَهَلْ مِنْ حِيلَةٍ سِوَى ذلكَ أو مُعامَلةٍ غيرِ ذلكَ نُعامِلُهُمْ بها، لَعَلّهُمْ يَتّبعوننا، ويُجيبوننا؟

هذا الدعاءُ وهذا القولُ منهمْ يكونُ [بَعْدَ][7] ما أجْهَدوا أنفسَهُمْ في دعائِهِمْ إلى الحقِّ زماناً طويلاً، ليسَ يَحْتَمِلُ في ابْتِداءِ الأمرِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ كانَ في إخراجِ موسى ﷺ وبَني إسرائيلَ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِ أعدائِهِمْ ليلاً مِنْ غيرِ أنْ شَعَرَ، وعَلِمَ أحدٌ مِنْ أعدائِهِمْ بذلكَ، وهُمُ العَدُوُّ [الذينَ ذُكِروا][8] في القصةِ أنهمْ زُهاءَ سِتِّ مِئَةِ ألفٍ، آيَةٌ عظيمةٌ عجيبةٌ لموسَى ﷺ على رسالتِهِ، إذْ خُروجُ عَدَدِ سِتّينَ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ عَسيرٌ صَعْبٌ، فكيفَ خُروجُ العَدَدِ الذي ذُكِرَ في القصةِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي قومُ فرعونَ يَتّبعونَهُمْ لِيَرُدّوهُمْ إلى الأمرِ الذي كانوا يَسْتَعْمِلونَهُمْ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَحْوِ الاسْتِخدامِ والاسْتِعْبادِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: ولا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: الذي ذكر، في م: الذين ذكر.

والثاني: أي يَتْبَعونَهُمْ للقتالِ والحربِ لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ أخذوا أموالَهُمْ مِنَ الحُلِيِّ واللِّباسِ، فَخَرَجوا بها. فجائزٌ أنْ يكونَ اتِّباعُهُمْ إيّاهُمْ لِيُقاتلوهُمْ كما يُقاتَلُ الأعداءُ

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ كادَ موسى ﷺ يَضربُ البَحْرَ بعصاهُ[1] لِيَصِلَ الماءُ بعضُهُ ببعضٍ لئلا يَعْبُرَ فرعونُ وقومُهُ، فقالَ لهُ: اتْرُكْهُ كما هو فإنهمْ جُنْدٌ مُغْرَقونَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿رَهْوًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي فارسيةٌ عُرِّبَتْ، أي اتْرُكِ البحرَ [وهو][2] راوٍ.

وقالَ بعضُ أهلِ اللسانِ: ﴿رَهْوًا﴾ أي ساكناً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَهْوًا﴾ أي مُتَّصِلاً، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ. وقالَ أهلُ التأويلِ: رَهْواً أي يابساً، وهو كقولِهِ: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ قد وَعَدَهُمْ، جَلَّ، وعَلا، أنْ يُغْرِقَ فرعونَ وقومَهُ، فَفَعَلَ.

الآيات ٢٥ ـ ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي ناعمينَ وقيلَ: فَرِحينَ[3].

مِنَ الناسِ مَنْ قالَ: إنَّ هذهِ الآيةَ مُخالفةٌ للآيةِ الأُخرى في ظاهرِ المَخرَجِ، وهو قولُهُ ﷺ ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [يونس: ٨٨] ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] فإذا كانَتْ قد أُجيبَتْ دَعْوَتُهُما في طَمْسِ أعمالِهِمْ، فَطُمِسَتْ، لا مَحالَةَ. فكيفَ ذَكَرَ ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآياتِ[4]؟

الآية ٢٨ وما مَعْنَى قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؟

لكنْ عندَنا أنهُ لا مُخالَفَةَ بينَ الآيتينِ، إذْ جائزٌ أنْ يكونَ طَمْسُ أموالِهِمْ التي كانَتْ مِنَ الحُلِيِّ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الصامِتِ ونحوِهِ خاصةً.

فأمّا الأموالُ التي كانَتْ لهمْ بالشركةِ مِنْ نحوِ [البساتينِ والزروعِ][5] وأمثالِها فذلكَ لم يَطْمِسْها، ولكنهُ تَرَكَها على ما هي عليها، لبني إسرائيلَ، وهو قولُهُ ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي مثلَ ذلكَ ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى [حينَ قالَ][6]: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. فيهِ أنَّ بَني إسرائيلَ قد عادوا إلى مصرَ، ونَزَلوا أوطانَهُمْ ومنازلَهُمْ وبساتينَهُمْ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي فما بَكَى عليهِمْ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ، بل سُرُّوا بذلكَ، واستَبْشَروا بهلاكِهِمْ. فيكونُ ذِكْرُ نفْيِ البكاءِ لإثباتِ ضِدِّهِ، وهو السرورُ والفرحُ، لا لِعَينِهِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ أنْ يُذكَرَ نَفْيُ الشيءِ، ويُرادُ بهِ إثباتُ ضِدِّهِ لا عينُ النَّفْيِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] ليسَ المُرادُ إثباتَ نَفْيِ الربحِ أي لم تَرْبَحْ فَحَسْبُ، بل المُرادُ إثباتُ الخُسرانِ والوَضيعَةِ، أي خَسِرَتْ، وَوُضِعَتْ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي ضَحِكَتْ، وسُرَّتْ، واستَبْشَرَتْ بهلاكِهِمْ لأنهمْ جميعاً أبْغَضوهُمْ، وعادوهُمْ لِادِّعائِهِمْ ما ادَّعَوا مِنَ الألوهيَّةِ لِفرعونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يَحتَمِلُ أنَّ المُرادَ بهِ ما رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «ما مِنْ مؤمنٍ إلّا ولَهُ بابٌ في السماءِ يَصْعَدُ إليهِ عَمَلُهُ الصالحُ، وفي الأرضِ مُصلًّى يُصَلِّي فيهِ، فإذا ماتَ بكى ذلكَ عليهِ كذا كذا يوماً» [بنحوه الترمذي ٣٢٥٥] وليسَ لهمْ ذلكَ، فلا يُبْكَى عليهِمْ.

وجائزٌ أن يكونَ أيضاً قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي لم يَبْقَ لهمْ أحدٌ يبكي عليهِمْ مِنَ الأولادِ

---

(١) في الأصل وم: بعصا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: معجزين. (٤) في الأصل وم: الآية. (٥) في الأصل وم: البستان وزورع. (٦) في الأصل: حيث، في م: حيث قال.

جنة السنة

وغَيرِهِمْ لأنهمُ اسْتُؤْصِلوا جميعاً الأولادُ وغَيرُهُمْ، فلم يَبْكِ عليهِمْ أحدٌ. فأمّا سائرُ المَوتى فقد يَبْقَى لهمْ مَنْ يبكي عليهِمْ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ بُكاءَ السماءِ إذا عَظُمَ الأمرُ على التمثيلِ مِنْ نَحْوِ موتِ الملوكِ والقادةِ ومَنْ عَظُمَ قدرُهُ عندَهُمْ، فَيُخْبِرُ اللهُ ﷻ أنَّ مَوتَ فرعونَ وأتباعِهِ لم يَعْظُمْ على أهلِ السماءِ والأرضِ لِما [لا قَدْرَ لهمْ][1] عندَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَجَّينا بَني إسرائيلَ مِنَ العذابِ الذي نَزَلَ بفرعونَ وقومِهِ، وهو الغَرَقُ في البحرِ؛ [أغرَقَ][2] أولئكَ، ونَجّى هؤلاءِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ أنهُ نَجّاهُمْ مِنَ العذابِ الذي كانوا يُعَذَّبونَ مِنْ نَحْوِ القَتْلِ والاسْتِخدامِ والاسْتِعْبادِ وأنواعِ العذابِ الذي كانوا يُعَذِّبونَهُمْ ما داموا بينَ أظْهُرِهِمْ وفي أيديهِمْ، فَنَجّاهُمْ مِنْ ذلكَ حينَ[3] أخرَجَهُمْ مِنْ بَينِ أيديهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وهو أشبهُ بما قالَ: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

الآية ٣١ [وقولُهُ تعالى:][4] ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قولُهُ: ﴿عَالِيًا﴾ أي غالباً عليهِمْ قاهراً لهمْ بأنواعِ القَهْرِ الذي كانَ يَقْهَرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي / ٥٠٤ ـ أ/ اخترْنا بَني إسرائيلَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يُخَرَّجُ هذا على وجوهٍ:

أحَدُها: أيِ اخترْناهُمْ على عِلْمٍ أي بِسَبَبِ عِلْمٍ، آتيناهُمْ ذلكَ، لم نُؤتِ ذلكَ غَيرَهُمْ لِيُظْهِرَ فضيلَةَ العِلْمِ على العالَمينَ وشَرَفَهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منّا بأسبابٍ فيهِمْ وأشياءَ، لم تُعْلَمْ تلكَ الأسبابُ والمَعاني في غَيرِهِمْ، بها استَوجَبوا الاختيارَ على العالَمينَ.

والثالثُ: أيِ اخترْناهُمْ على عِلْمٍ، أي بِسَبَبِ عِلْمٍ أخرَجْنا غَيرَهُمْ إليهِ، فصاروا مُختارينَ مُفَضَّلينَ بِسَبَبِ تَعليمِهِمْ إياهُمْ ما احتاجوا إليهِ، أي فيكونُ لهمْ فَضْلُ الأستاذِ على التلميذِ.

وهذا كما يُقالُ[5]: إنَّ العَرَبَ أفضَلُ مِنَ المَوالي لأنَّ المَواليَ احتاجوا إلى العربِ في معرفةِ لسانِهِمْ ومعرفةِ أشياءَ احتاجوا إليها، فاستَوجَبوا الفضيلَةَ لِحاجَتِهِمْ إليهِمْ، وكذلكَ[6] فَضْلُ قريشٍ على سائرِ العربِ لِما احتاجَتْ سائرُ العَرَبِ إلى قُرَيشٍ في معرفةِ أشياءَ، لا يَصلونَ إلى ذلكَ إلّا أنهم فُضِّلوا على غَيرِهِمْ بِذلكَ[7].

فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنهُ أحْوَجَ إلى بَني إسرائيلَ غَيرَهُمْ في معرفةِ أشياءَ، فاستَوجَبوا بذلكَ الاختيارَ والفضيلَةَ على غَيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾][8] وجهَينِ:

أحَدُهما: أي مِحْنَةٌ بَيِّنَةٌ، وهي أنواعُ ما امتَحَنَهُمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي نِعَمٌ عظيمةٌ، وهو ما آتاهُمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ مِنَ المَنِّ والسَّلْوى وتظليلِ الغَمامِ عليهِمْ وخُروجِ العُيونِ مِنَ الحَجَرِ ومُجاوَزَتِهِمْ مِنَ البَحْرِ وإهلاكِ عَدُوِّهِمْ وغَيرِها[9] مِنَ النِّعَمِ التي آتاهُمْ مِمّا لا يُحْصى، وهو ما ذُكِرَ في سورةِ البقرةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] أي نِعْمَةٌ عظيمةٌ مِنْ ربِّكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قدر. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقول.
(٦) في الأصل وم: ولذلك. (٧) في الأصل وم: لذلك. (٨) في الأصل وم: من. (٩) في الأصل وم: وغيرهم.

جنة السنة

الآيتان ٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ يقولُ اللهُ تعالى، وهو أعْلَمُ: إنَّ الذي يَحمِلُ هؤلاءِ على الإنكارِ والكُفرِ بكَ وتَرْكِ الإيمانِ بكَ إنكارُهُمُ البَعْثَ والإحياءَ بَعدَ الموتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٢] فأمّا مَن لم يُؤمِنْ بالآخِرَةِ لا يُؤمِنُ به، واللهُ أعلَمُ.

وأصْلُهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بُعِثَ لِدُعاءِ الخَلْقِ إلى الزُّهْدِ في هذهِ الدنيا والرغبةِ في الآخِرَةِ والقَطْعِ عن جميعِ شَهَواتِهِمْ ومُناهُمْ في الدنيا وتأخيرِ ذلكَ إلى الآخِرَةِ.

فَمَنْ آمَنَ بالآخِرَةِ سَهُلَ عليهِ تَرْكُ ذلِكَ كلِّهِ، وهانَ عليهِ قَطْعُ نفسِهِ عن قضاءِ ذلكَ كلِّهِ. ومَنْ أنكَرَ الآخِرَةَ وجَحَدها اشْتَدَّ ذلكَ عليهِ، وصَعُبَ حَمْلُهُ ذلكَ على إنكارِها والجُحودِ لَها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا منهمُ احتِجاجٌ عليهِ؛ يقولونَ: لو كُنْتَ صادقاً فيما تقولُ: إنهُ بَعْثٌ وإحياءٌ، فَأَحْيِ مَنْ ذُكِرَ، وأرِ آياتٍ بهِمْ.

لكنَّ هذا الاحتِجاجَ باطلٌ لأنَّ الآياتِ والحُجَجَ ليسَتْ تَنزِلُ، وتأتي على [ما][١] تشتهي أنفُسُ أولئكَ، ولكنْ تَنزِلُ على [ما][٢] تُوجِبُهُ الحكمةُ وعلى ما فيهِ الحُجَّةُ لا على ما يُريدُ المُقامُ عليهِمُ الحُجَّةُ كما في الشاهدِ أنَّ الواجبَ على المُدَّعي إقامةُ ما هو حُجَّةٌ في ذاتِها لا إقامةُ ما يُريدُ[٣] مِنَ المُدَّعى عليهِ.

والنَّبِيُّ ﷺ قد أتاهمْ مِنَ البَيانِ والحُجَّةِ ما يوجبُ البَعْثَ والإحياءَ بَعْدَ الموتِ، لو تأمَّلوا، ولم يُكابِروا عقولَهُمْ. ويكونُ سؤالُهُمْ منهُ آيةً أُخرى مَردوداً[٤] عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى ﷻ قد وَعَدَ البقاءَ لهذهِ الأمةِ إلى يومِ القيامةِ، ولو أعطاهُمْ ما سألوا مِنَ الآياتِ، ثم أنكَروها، أُهْلِكوا، واستُؤصِلوا، إذْ مِنْ سُنَّتِهِ أنَّ كلَّ آيةٍ، أتَتْ، ونَزَلَتْ، على إثْرِ سؤالٍ كانَ منهمْ، ثم أنكَروا، كانَ في ذلكَ هلاكٌ وعذابٌ. لِذلكَ لم يُعْطِهِمْ ما سألوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ليسَ في هذا جوابٌ لقولِهِمْ: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولم يأتِ بجوابِ ذلكَ، وإنما كانَ لأنهمْ لم يَستَحِقّوا الجوابَ لهذا السؤالِ، لأنهمْ سألوا ذلكَ [تَعَنُّتاً وعِناداً][٥].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في هذا جوابُ قولِهِمْ وسؤالِهِمُ الآيةَ المُختَرَعَةَ.

وفي الآيةِ دلالةٌ على البعثِ أيضاً [في وجهَيْنِ]:

أما الأوَّلُ: فإنهُ[٦] أخبَرَ عن قومِ تُبَّعٍ ومَنْ ذُكِرَ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ، كانوا يُنكِرونَ رسالةَ رسلِهِمْ، ويُكَذِّبونَهُمْ، ويُوعِدُهُمُ الرسلُ بالعذابِ والهلاكِ، فيكذِّبونَهُمْ أيضاً في ما يُوعِدونَ مِنَ البَعْثِ، فَجاءَهُمُ الهلاكُ، فيقولُ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ومَنْ ذُكِرَ، أي أولئكَ هُمْ أشدُّ قوةً أمْ هؤلاءِ؟ وهُم عَلِموا أنَّ أولئكَ أشدُّ قوةً وبَطْشاً، ثم لم يَتَهَيَّأْ لهُمُ الامتِناعُ مِنْ عذابِ اللهِ إذْ نَزَلَ بهِمْ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ وإنكارِهِمُ البَعْثَ، فأنتمْ دونَ أولئكَ، فكيفَ يَتَهَيَّأُ لكمُ الامتِناعُ مِنَ العذابِ الذي نَزَلَ بكُمْ؟ وهو كقولِهِ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣].

وإذا لم يَتَهَيَّأْ لهمُ الدفْعُ، ومِنْ سُنَّتِهِ الاستِئصالُ بالتكذيبِ للآياتِ المُختَرَعةِ، وقد وَعَدَ البقاءَ لهذهِ الأمةِ إلى يومِ القيامةِ وكونَهُ رَحمَةً للخَلْقِ. لذلكَ لم يُعطِهِمُ الآيةَ التي سألوا، واللهُ أعلَمُ.

وأما الثاني، وهو أنهُ لمّا أخبَرَ أنَّ تعذيبَ أولئكَ الكَفَرَةِ لتكذيبِ الرسلِ وإنكارِ البَعْثِ، فَدَلَّ أنَّ البَعْثَ حقٌّ حتى يَستَحِقَّ مُنكِرُهُ العذابَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ها. (٤) في الأصل وم: مردود. (٥) في الأصل وم: تعنت وعناد. (٦) في الأصل وم: بيان الأول أنه.

جنة السنة

وذُكِرَ أنَّ تُبَّعاً كانَ رجلاً صالحاً، وعائشةُ ﵂ تقولُ: لا تَسُبُّوا تُبَّعاً فإنهُ كانَ رجلاً صالحاً، وذُكِرَ أنهُ كانَ رسولاً، وقد ذَكَرْنا نَعْتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] إنَّ الكَفَرةَ كانوا لا يُطلِقونَ القولَ، فلا يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَهُما، وخَلَقَ ما بَيْنَهما باطلاً ولَعِباً لكنْ خَلَقَ ذلكَ كلَّهُ على فُتْياهُمْ وظَنِّهِمْ وعلى [ما][1] عندَهُمْ يَصيرُ عَبَثاً باطلاً لأنهمْ كانوا يُنكِرونَ البعثَ، ويقولونَ: أنْ لا بعثَ، ولا حِسابَ، ولا ثَوابَ، ولا عِقابَ.

فإذا كانَ فُتْياهُمْ وظَنُّهُمْ أنْ لا بَعْثَ ولا نُشورَ يكونُ خَلْقُهُمْ وخَلْقُ السماءِ والأرضِ وما ذُكِرَ باطلاً لَعِباً لأنَّ المَقْصودَ بِخَلْقِ ما ذُكِرَ على زعمِهِمْ لم يَكُنْ إلّا الإفناءَ والإهلاكَ. ومَنْ لم يَقْصِدْ في بنائِهِ إلّا النَّقْضَ في الشاهدِ والإفناءَ في العاقبةِ كانَ في بنائِهِ وقَصْدِهِ سَفيهاً غيرَ حكيمٍ.

فَعَلى ذلكَ اللهُ ﷻ في خَلْقِهِ إياهُمْ وإنشائِهِ لهمْ وتحويلِهِ إياهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخرَى مِنْ حالِ النُّطْفةِ إلى حالِ العَلَقةِ إلى حالِ المُضْغةِ إلى حالِ تَصْويرِ الإنسانِ ثم إلى [حالِ][2] الكِبَرِ. لو لم يَكُنْ ما ذَكَرْنا مِنَ المَقْصودِ سِوَى الإفناءِ والإهلاكِ على ما زَعَموا كانَ سَفَهاً باطلاً غيرَ حكمةٍ لِما ذَكَرْنا مِنْ قَصْدِ مَنْ قَصَدَ في البِناءِ الإفناءَ خاصّةً لا غيرَ كانَ في فِعْلِهِ وقَصْدِهِ لاعباً عابثاً سَفيهاً.

ولِذلكَ سَفَّهَ اللهُ تعالى تلكَ المرأةَ التي لم يَكُنْ قَصْدُها في غَزْلِها إلّا نَقْضَهُ في العاقبةِ حينَ[3] قالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ الآية [النحل: ٩٢].

فَعَلى ذلكَ خَلْقُ الخَلْقِ إذا لم يكنْ بَعثٌ ولا نُشورٌ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرةُ، وظَنّوا، كانَ كذلكَ سَفَهاً غيرَ حكمةٍ. ولذلكَ قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جَعَلَ خَلْقَهُ إياهم [لا][4] للرجوعِ إليهِ /٥٠٤ ـ ب/ عَبَثاً، واللهُ المُوفِّقُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إلّا لإقامةِ الحقِّ. وقالَ بعضُهُمْ إلّا لأمرٍ كائنٍ مُرادٍ. وأصلُ الحقِّ هو أنْ يُحْمَدَ عليهِ فاعِلُهُ في العاقبةِ، والباطلُ هو ما يُذَمُّ عليهِ فاعلُهُ، وإنما خَلَقَ، جَلَّ، وعلا، ما ذُكِرَ لِيُحْمَدَ على فِعْلِهِ، لا لِيُذَمَّ. ولو لم يَكُنِ القَصْدُ في خَلْقِهِمْ إلّا الإفناءَ والإهلاكَ لكانَ لا يُحْمَدُ عليهِ، ولكنْ يُذَمُّ على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهما لم يُخلَقا باطلاً وعَبَثاً، وهو ما ظَنُّهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سَمّى يومَ القيامةِ مَرّةً ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧] ومَرّةً يومَ ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١ و...] فهو يومُ ﴿ٱلْجَمْعِ﴾ الجَمْعِ لِما يَجْمَعُ فيهِ الخلائقَ جميعاً وكذلكَ يومُ ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]. ويومُ الفَصْلِ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنهُ يَفْصِلُ بينَ أوليائِهِ في دارِ الكرامةِ والمَنْزِلةِ، وهي الجنةُ، وأعدائِهِ في دارِ الهوانِ والعقابِ، وهو[5] ما قالَ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

[والثاني][6]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يومَ القَضاءِ والحُكْمِ، أي يَقْضي، ويَحْكُمُ بينَ المؤمنينَ والكافرينَ في ما تَنازَعوا، واختَلَفوا في الدنيا بقولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

ويَحْتَمِلُ أيضاً ما ذَكَرْنا مِنَ الفَصْلِ بينَ الأولياءِ والأعداءِ ما [لو][7] لم يكنْ ذلكَ في الآخرةِ بَيْنَهُمْ كانَ جامعاً مُسَوِّياً بَيْنَ الأولياءِ والأعداءِ، وهمُ استَوَوا، واجتَمَعوا في الدنيا في ظاهرِ أحوالِهِمْ. ومَنْ سَوَّى بَيْنَ وَلِيِّهِ وعَدُوِّهِ كانَ سَفيهاً غيرَ حكيمٍ. دلَّ أنَّ هناكَ داراً أُخرَى يَفْصِلُ بينهما، ويُمَيِّزُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهي. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هذا في الكُفّارِ خاصَّةً، يُخبِرُ أنهُ لا وليَّ يَنفَعُهُم في الآخرةِ، ولا يُعينُ بعضُهُمْ بعضاً على ما يُعانُ في الدنيا إذا نَزَلَ ببعضٍ منهمْ بلاءٌ وَسَعَةٌ، وهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] وقولُهُ ﷻ: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾ الآية [لقمان: ٣٣] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٤١ ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿مَوْلًى﴾ الأعلى و ﴿مَّوْلًى﴾ الأسفلَ على ما يُعينَ بعضُهُمْ بعضاً في الدنيا، ويَحتَمِلُ كلَّ وَليٍّ وقريبٍ؛ يُخبِرُ أنهُ لا قريبَ يملِكُ دَفْعَ ما نَزَلَ بهِ، ولا وَليَّ يَملِكُ نَصرَهُ ومعونَتَهُ، لأنَّ وِلايَتَهُمْ يومئذٍ تَصيرُ عداوةً بقولِهِ ﷻ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] استثنى المُتَّقينَ.

الآية ٤٢ وعلى ذلكَ استثنى في هذهِ الآيةِ أيضاً حينَ[1] قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ ومَنَّ عليهِ، وهداهُ الإيمانَ، ورزقَهُ التوحيدَ، فإنهُ يكونُ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ شُفَعاءَ وأولياءَ، يَنصُرُ بعضُهُمْ بعضاً، ويَشفَعُ بعضُهُمْ لبعضٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيزُ في نَقمَتِهِ مِن أعدائِهِ لأوليائِهِ، الرحيمُ للمؤمنينَ الذينَ استثنى في الآيةِ حينَ[2] قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾.

الآيتان ٤٣ و٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ظاهرُ الآيةِ أنها طعامُ كلِّ أثيمٍ دونَ إثمٍ، لأنَّ الإثمَ المُطلَقَ هو الإثمُ مِنْ كلِّ وجهٍ، وهو [صفةُ][3] الكافرِ. فأمّا المؤمنُ المُسلِمُ فلا[4] يكونُ أثيماً مُطلَقاً مع قِيامِ إيمانِهِ وكثيرِ طاعتِهِ، فلا يكونُ. وصاحبُ الكبيرةِ [يكونُ][5] داخلاً تحتَ الآيةِ.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ[6]: يدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [على أنهُ][7] أتى بعضُ الكفارِ بالعَسَلِ والزُّبْدِ، وقالوا لأصحابِهِمْ: تعالَوا نتزقَّمْ، فإنَّ محمداً وَعَدَنا بذلكَ لِما كانَ الزقومُ، هو الزُّبْدُ والتَّمرُ أوِ العَسَلُ بلغةِ قومٍ مِنَ العربِ، فنزَلَ عندَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤و٦٥] أخبَرَ أنها شجرةٌ أُنشِئَتْ مِنَ النارِ لِقولِهِ[8] تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ليسَتْ كسائرِ الأشجارِ.

الآيتان ٤٥ و٤٦ ثم شبَّهَها بالمُهْلِ بقولِهِ تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ والمُهلُ دُرْديُّ الزيتِ، ثم يَحتَمِلُ تَشبيهُها بالمُهْلِ لِوجهَينِ[9]:

أحدُهما: لِالتِصاقِهِ بالبَدَنِ، لأنهُ قيلَ: إنهُ ألصقُ الأشياءِ بالبَدَنِ.

[والثاني][10]: يَحتَمِلُ أنْ يُشَبِّهَها بذلكَ لكثرةِ تلَوُّنِها وتغيُّرِها مِنْ حالٍ إلى حالٍ.

ثم الإشكالُ أنهُ ليسَ في أكلِ دُرْديِّ الزيتِ فَضلُ شدةٍ وكثرةُ مُؤنةٍ، فما معنى التَّشبيهِ بهِ؟

لكنْ نقولُ: إنهُ بَيَّنَ أنَّ ذلكَ المُهْلَ والدُّرْديَّ مِنَ النارِ حينَ[11] قال: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ ثم الإشكالُ: أنَّ شَجرةَ الزقومِ كيفَ تكونُ للأثيمِ؟ فَيَحتَمِلُ ذلكَ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ يَخرُجُ منها شيءٌ، ويسيلُ، فَيُسقي ذلكَ الكافرَ.

[والثاني][12]: يَحتَمِلُ [أنها تُؤكَلُ][13] كما هي، فتذوبُ في بَطنِهِ، فتَغلي. فيكونُ ما ذُكِرَ، ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ رأى فضةً، قد أُذيبَتْ، فقال: هذا المُهْلُ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: أنه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كقولِهِ تعالى. (٩) في الأصل وم: وجهين. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: أنه يأكل.

جنة السنة

فجائزٌ أنْ يكونَ على هذا كلُّ شيءٍ يُذابُ، ويَحرق، فهو المُهلُ.

والحَميمُ: هو الشيءُ الحارُّ الذي قدِ انتَهى حرُّهُ غايتَهُ، والله أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ هذا ذلكَ بَعْدَ ما أُدْخِلوا في النارِ. لكنْ يَحتَمِلُ أيضاً أنْ يكونَ ذلكَ في أوّلِ ما يُرادُ أنْ يُدخَلوا النارَ كقولِهِ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ و٣١] فَعَلى ذلكَ ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أيِ ادْفَعوهُ إلى سَواءِ الجَحيمِ أي إلى وَسَطِ الجَحيمِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي قودوهُ إلى سَواءِ الجَحيمِ. يُقالُ: جيءَ بِفُلانٍ يُعتَلُ إلى السلطانِ أي يُجَرُّ، ويُقادُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو السَّوقُ الذي فيهِ شِدّةٌ وتعنيفٌ، أي سُوقوهُ سَوقاً شديداً عنيفاً. وبَعْضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ. والجَحيمُ، هو مُعْظَمُ النارِ، والله أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي مِنْ شَرابِ الحَميمِ؛ جَعَلَ اللهُ ﷻ لأهلِ النارِ مِنْ ألوانِ الشَّرابِ الحَميمَ والصَّديدَ ونَحوَهُما مَكانَ ما جَعَلَ لأهلِ الجنةِ مِنْ أنواعِ الشرابِ حينَ[1] قالَ: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ الآية [محمد: ١٥].

ثم في الآيةِ أنَّ الفريقَينِ جميعاً لا يَتَوَلَّونَ شُرْبَها بأنفسِهِمْ، لكنهمْ يُسْقَونَ على ما ذَكَرَ في أهلِ الجنةِ في غَيرِ آيةٍ[2] مِنَ القرآنِ حينَ[3] قالَ تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥] وقالَ[4] تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧] ونَحْوُ ذلكَ كثيرٌ.

وقالَ في أهلِ النارِ: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ وقالَ[5]: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] وغَيرَ ذلكَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنما يُقالُ هذا لأبي جهلٍ اللَّعينِ، ولهُ ذلكَ العذابُ الذي ذُكِرَ في الآيةِ، وهو المُرادُ بالأثيمِ، كانَ في الدنيا يَفتَخِرُ ويقولُ: أنا العزيزُ الكريمُ، وليسَ ما بَينَ كذا إلى كذا أعزُّ مني، وأنا المُتَعَزِّزُ المُتَكَرِّمُ. فَيُقالُ لهُ في الآخِرَةِ: ﴿ذُقْ﴾ هذا الذي ذَكَرَ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ في الدنيا؛ يُصَغِّرونَهُ، ويُهينونَهُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في كلِّ كافرٍ يَتَعَزَّزُ في الدنيا، ويَتَكَرَّمُ، وكلِّ رئيسٍ منهمْ، والله أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي ذُقْ فإنكَ لَسْتَ بعزيزٍ ولا كريمٍ.

الآية ٥٠ ثم يُقالُ ذلكَ لهُ على الهُزْءِ بهِ ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي لو كُنْتَ عزيزاً كريماً ما دَخَلْتَ النارَ، والله أعلَمُ. /٥٠٥ ـ أ/

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ فيهِ لغتانِ: مُقام بالرفعِ[6] ومَقام بالنصبِ. فَمَنْ قرأَ بالنصبِ فهو مَوضِعُ المَقامِ، وهو المَنزِلُ والمَسْكَنُ، معناهُ: في مَسْكَنٍ أمينٍ: أمِنوا فيهِ[7] مِنَ الآفاتِ والأوصابِ والأسقامِ.

ومَنْ قرأ برفعِ الميمِ فهو المَصْدَرُ؛ يَعْني الإقامةَ، أي يُقيمونَ فيها آمنينَ مِنَ الخُروجِ عنها والزوالِ، والله أعلَمُ.

الآيتان ٥٢ و٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قالوا: السُّنْدُسُ ما رَقَّ مِنَ الدِّيباجِ، والإسْتَبْرَقُ ما غَلُظَ منهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: آي. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) في الأصل وم: وقوله.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٤٣. (٧) في الأصل وم: فيها.

جنة السنة

ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ اللِّبْسِ لِما رَقَّ منهُ. فأمّا ما غَلُظَ منهُ فإنهُ يُبسَطُ، وإنْ كانَ ذلكَ اللِّبْسُ فيهما في الظاهِرِ يَتَناوَلُ ما رَقَّ منهُ، وما غَلُظَ. فالمُرادُ مِنْ ذِكرِ اللِّبْسِ يرجِعُ إلى ما يُلْبَسُ، وهو الذي يَرِقُّ منهُ، ويَدِقُّ.

وجائزٌ في اللغةِ أنْ يُذكَرَ الشّيئانِ باسْمِ أحدِهِما إذا كانَ بَينَهُما ازْدِواجٌ في الجملةِ عادةً أو حقيقةً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنهُ إنما ذكَرَهُما جميعاً لِما يكونُ مِنْ رغبةِ الناسِ إليهِما جميعاً في الدنيا، فَرَغَّبَهُمْ في الآخِرَةِ، وَوَعَدَ لهمْ أنْ يكونَ لهمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِحُورٍ﴾ بِبيضِ الوجوهِ، و﴿عِينٍ﴾ أي حِسانِ الأعيُنِ. وقالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: الحَوَرُ في العَينِ، هو شدةُ سوادِها وبياضُ بَياضِها، ويُقالُ: امرأةٌ حَوراءُ، ونِسْوَةٌ حُورٌ، ورَجُلٌ أحْوَرُ، وقومٌ حُورٌ، والعَيناءُ الحَسَنَةُ العَينَينِ؛ يقالُ: رجلٌ أعْيَنُ، ورجالٌ عِينٌ، وامرأةٌ عَيناءُ ونِسْوَةٌ عِينٌ، فالجماعةُ على هيئةٍ واحدةٍ في هذا البابِ في المذكرِ والمؤنثِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي ثمارُ الجنةِ وفواكِهُها ليسَ فيها فَسادٌ ولا انْقِطاعٌ، ولا نُقصانٌ ولا زوالٌ ﴿يَدْعُونَ﴾ يَسألونَ إذا حَضَروها، ولا يُسألونَ كما يُسألونَ في الدنيا: هل بَقِيَ شيءٌ؟ أو هل عندكُمْ شيءٌ مِنَ الفواكِهِ؟ ونَحْوُ ذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ لِثِمارِ الدنيا ما ذَكَرْنا انْقِطاعاً[1] وفَناءً، وليسَ لِثمارِ الجنةِ وفواكِهِها كذلكَ. لِذلكَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِنِ انْقِطاعِ فواكِهِها وثِمارِها وما ذُكِرَ.

[والثاني][2]: ﴿ءَامِنِينَ﴾ فيها في الجنةِ، ليسَ لهمْ خَوفُ الخروجِ عنها والزوالِ، و﴿ءَامِنِينَ﴾ مِنْ جميعِ الآفاتِ التي تكونُ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ والإشكالُ أنهُ نَفى المَوتَ في الجنةِ، واسْتَثْنى المَوتَةَ الأولَى، وليسَ في الجنةِ مَوتٌ أصلاً. كيفَ يَسْتَثْني المَوتَةَ الأولَى؟ وإنَّ ظاهِرَ الاسْتِثْناءِ أنْ يكونَ مِنْ جنسِ المُسْتَثْنى منهُ، فَيُوهِمُ أنْ يكونَ في الجنةِ مَوتٌ؟

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ إلّا بِمَعْنَى غيرِ وسِوَى، وفيهِ إضمارٌ كأنهُ [قالَ][3]: لا يذوقونَ فيها أي في الجنةِ المَوتَ سِوَى المَوتَةِ الأولَى [التي][4] ذاقوا في الدنيا، لأنَّ المَوتَةَ الأولَى [التي][5] ذاقوا هي[6] المَوتَةُ الأولَى، لا يُتَصَوَّرُ ذَوقُها ثانياً لو كانَ يكونُ مثلُها، ولأنَّ الجنةَ ليسَتْ مَحَلَّ المَوتِ، فكانَ المُرادُ ما قُلْنا، أي لا يذوقونَ في الجنةِ المَوتَ الذي ذاقوا في الدنيا. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي سِوَى ما قد سلفَ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢]. في ذلكَ الوقتِ على أحدِ التأويلَينِ، واللهُ أعلَمُ.

وعندَنا يُخَرَّجُ تأويلُهُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ إلّا ما ذاقوا مِنَ المَوتَةِ الأولَى، لأنهُ ذُكِرَ[7] في الخَبَرِ أنهُ يُؤْتَى بالموتِ يومَ القيامةِ على صورةِ كبشٍ أمْلَحَ أو كذا، فَيُذبَحُ بينَ أيديهِمْ. فعندَ ذلكَ يأمَنونَ المَوتَ هنالكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يَرَونَهُ ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي رَأوها في الدنيا. تلكَ يَعْرِفونَها، ويَذْكُرونَها. فأمّا سِواها فلا. والذَّوقُ سَبَبُ المَعْرِفةِ، فاسْتُعيرَ للمعرفةِ مَجازاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ليسَ هو تَخصيصَ وِقايةِ عذابِ الجَحيمِ فحسبُ. بل المُرادُ يَقيهِمُ العذابَ

---

(١) في الأصل وم: انقطاع. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وهي. (٧) في الأصل وم: ذلك.

جنة السنة

كلَّهُ. لكنَّ الجحيمَ مُعظَمُ النارِ فَذَكَرَهُ[1] كِنايةً عنِ الكُلِّ فَضلاً منهُ، ليسَ باستِحقاقٍ منهم بالأعمالِ على ما تَقدَّمَ ذِكرُهُ في غيرِ موضعٍ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الفوزُ بأحدِ شيئَينِ:

أمّا الظَّفَرُ فيما[2] يأمُلُ، ويَرجو، فإذا ظَفِرَ بذلكَ يقالُ: فازَ. وأمّا النجاةُ فيما[3] يَحذَرُ، ويَخافُ؛ إذا حَذِرَ أمراً، يَخافُهُ، فَيَخلُصُ منْ ذلكَ؛ يقالُ: فأيُّهما كانَ فهو فوزٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ جميعُ أمورِ الآخِرَةِ وحالُها سُمّيَ عظيماً مِنَ العذابِ والنَّعيمِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين: ٥] وقالَ[4] ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥ و...] وقالَ[5] ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: كأنهُ يقولُ: فإنما أنزَلنا القرآنَ بلسانِكَ، ويَسَّرْناهُ للذِّكرِ لِيُلزِمَهُمُ الشكرَ[6]، لأنهُ أنزَلَهُ بلسانِهِ، ويَسَّرَهُ لِقومِهِ، لأنهُ لو كانَ مُنزَلاً بِغيرِ لسانِهِ لم يكُنْ مُيسَّراً لهمْ للذِّكرِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر: ١٧] أخبَرَ أنهُ يَسَّرَهُ للذِّكرِ لأنهُ يَسَّرَهُ باللسانِ. ولكنَّ معناهُ ما ذَكَرْنا أنهُ أنزَلَهُ بلسانِهِ، ويَسَّرَهُ للذِّكرِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ﴾ على لسانِكَ كي [تَذكُرَهُ، وتَحفَظَهُ][7] بلا كتابةٍ ولا نَظَرٍ في كتابٍ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ كانَ ﷺ يَحفَظُ سورةً طويلةً إذا تَلاَ عليهِ جبريلُ ﵇ وقد أمَّنَهُ اللهُ ﷺ مِنَ النِّسيانِ بقولِهِ تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

[وقولُهُ][8] ﷻ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يُخرَّجُ على [وجهَينِ:

أحدُهما:][9] لكي يُلزِمَهُمُ التذكُّرَ.

[**والثاني**][10]: لكي يَتذكَّروا ما[11] قد نَسُوا مِنْ حقِّ اللهِ الذي عليهِمْ لِيَتَّعِظوا بِمَواعِظِ اللهِ تعالى.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ على وجهَينِ:

أحدُهما: ارتَقِبْ ما وَعَدَ اللهُ أنْ يَنزِلَ بهمْ مِنَ العذابِ فإنهمْ مُرتَقِبونَ هلاكَكَ وانقِطاعَكَ ونَحوَهُ.

والثاني: ارتَقِبْ، ولا تُكافِئْهُمْ، ولا تَدْعُ عليهِمْ بالهَلاكِ فإنهمْ مُرتَقِبونَ ما ألقَى الشيطانُ في أُمنيَّتِهِمْ بأنَّ مُلكَكَ يَزولُ، وأنهُ يعودُ إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي حَرفِ ابنِ مسعودٍ ﵁: فَارْتَقِبْهُمْ[12] إنهمْ مُرتَقِبونَ. والارتِقابُ الانتِظارُ، واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ، وإليهِ المَرجِعُ والمآبُ][13].

---

(١) في الأصل وم: فذكروه. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: مما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: التذكير. (٧) في الأصل وم: ذكرته، وحفظته. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وجوه أحدها. (١٠) في الأصل وم: ويحتمل. (١١) في الأصل وم: وإما. (١٢) من م، في الأصل: فارتقب. (١٣) ساقطة من م.

جنة السنة

جنة السنة

سورة[1] الجاثية

[وهي][2] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قد ذكرْنا في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وقد ذكرْنا أيضاً تأويلَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ في غيرِ موضعٍ أيضاً /٥٠٥ ـ ب/ ثم إنما ذكرَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ على إثرِ ذلكَ ليُعلَمَ أنهُ ما أنزلَ الكتابَ، وما أمرَهُمْ، وما نهاهُمْ، وامتحنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ ليَتعزَّزَ هو بذلكَ، أو يُريدَ لهُ عزاً وسُلْطاناً أو قوَّةً إذا ائتمروهُ، وأطاعوهُ. وإذا خالفوهُ، ولم يُطيعوهُ في ما أمرَهُمْ، وارتكبوا ما نهاهُمْ، يَلْحَقُهُ ذُلٌّ أو نُقصانٌ في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ.

بل إنما فعَلَ ذلكَ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ وأنواعِ المِحنِ لِمَنْفَعَةِ [أنفسِ][3] المُمتَحَنينَ ليَتعزَّزوا إذا اتَّبعوا أمْرَهُ، وأطاعوهُ، ويَلْحَقَهُمْ ذُلٌّ ونُقصانٌ إذا تَركوا اتِّباعَهُ بِخِلافِ ملوكِ الأرضِ فإنهُ يزيدُ لهمْ اتْباعُ مَنِ اتَّبَعَهُمْ عِزاً وسُلْطاناً وقوةً في ملكِهِمْ، وتركُ أتباعِهِمْ إياهُمْ وارتِكابُ ما نهاهُمْ عنهُمْ يوجِبُ لهمْ ذُلاً ونُقصاناً في مُلْكِهِمْ، لأنَّ المَخْلوقَ كانَ عزيزاً بِغيرِهِ، فإذا زالَ ذلكَ زالَ عِزُّهُ، وصارَ ذُلاً.

فأمّا اللهُ ﷻ [فهو][4] عزيزٌ بذاتِهِ، فلا يَلْحَقُهُ النُّقْصانُ بِمُخالفةِ مَنْ خالَفَهُ، ولا يَزْدادُ عِزُّهُ بائْتِمارِ مَنِ ائْتَمَرَهُ.

وهو[5] الحكيمُ، والحكيمُ الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التدبيرِ. يَذْكُرُ هذا ليُعْلِمَ أنَّ مَنْ أنشأَ مِنَ الخلائقِ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ يَكْفُرونَ بهِ، ويَعْصونَهُ، لم تَزَلْ عنهُ الحكمةُ، ولا أخرجَهُ منها لِما ذكرْنا أنهُ لم يُنْشِئْهُمْ لِحاجةٍ لهُ[6] فيهِمْ أو لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إليهِ، ولكنْ لحاجةٍ لهمْ ولِمَنْفَعَةٍ ترجعُ إلى أنفسِهِمْ، ومِثْلُهُ في الشاهِدِ يُزيلُ الحكمةَ، ويَدْخُلُ في حَدِّ السَّفَهِ لِما ذكرْنا أنهمْ إنما يَفْعَلونَ لِحوائِجِهِمْ.

فكانَ الفِعْلُ مَعَ العِلْمِ بأنهُ لا مَنْفَعَةَ لهُ فيهِ، ولا[7] مَضَرَّةً، لايكونُ حكمةً منهمْ. لذلكَ افْتَرَقَ والغائبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٣ و٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ونَحْوُ ذلكَ، يُخَرَّجُ ذِكْرُ الآياتِ لِهؤلاءِ [على][8] وجوهٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ لهؤلاءِ آياتٍ على أعدائِهِمْ، يَحْتَجُّونَ بها عليهِمْ، فتكونُ هي آياتٍ على أعدائِهِمْ.

والثاني: أنَّ مَنْفَعَةَ هذهِ الآياتِ تُجْعَلُ لهؤلاءِ، وهُمُ المُنْتَفِعونَ بها، أعني مُتَّبِعيها دونَ مَنْ تَرَكَ اتِّباعَها.

والثالثُ: هنَّ آياتٌ لِمَنِ اعْتَقَدَ اتِّباعَ الآياتِ والإيقانَ بها، وهُمُ المؤمنونَ.

فأمّا مَنِ اعْتَقَدَ رَدَّها وتَرْكَ الاتِّباعِ لها فليسَتْ هي آياتٍ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقد ذكرْنا في غيرِ موضِعٍ جِهَةَ الآياتِ في ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ وإنزالِ الماءِ مِنَ

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) من م، في الأصل: لهم. (٧) في الأصل وم: بل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

السماءِ وإحياءِ الأرضِ به وإخراجِ ما أخرَجَ منها. في ذلكَ آياتُ هيبَتِهِ وآياتُ وَحدانيَّتِه وآياتُ قُدرَتِهِ وسُلطانِهِ وآياتُ عِلمِهِ وتدبيرِهِ وآياتُ حِكمَتِهِ وغيرُ ذلكَ ما يطولُ الكتابُ بِذِكرِها، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قولُهُ ﷻ: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى الآياتِ التي تَقَدَّمَ ذِكرُها ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ إنها مِنَ اللهِ تعالى لمَا عَجزوا عن إدراكِ ذلكَ مِنَ الحكمةِ البَشَريَّةِ بهِ، فَيَعلمونَ أنها مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو كانوا بالذينَ يَقبَلونَ حديثاً[1] فلا حديثَ أظهَرُ صِدقاً مِن حديثِ اللهِ، ولا أبيَنُ حقاً فيهِ مِن كلامِهِ، لأنهُ آياتٌ مُعجِزاتٌ، عَجزوا عن إتيانِ مثلِهِ.

[والثاني][2]: وإنْ كانوا بالذينَ لا يَقبَلونَ حديثاً، فَيَلْحَقُهُمُ السَّفَهُ في ذلكَ، فَيَكفِيَ مؤْنَتَهُم، واللهُ الهادي.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفاكُ هو المَصروفُ عنِ اتِّباعِ ما تُوجِبُ الحكمةُ اتِّباعَهُ. وقالَ بعضُهُم: الأفاكُ الكذّابُ، والأثيمُ، هو الذي اعتادَ الإثمَ، وهو أكثَرُ مِنَ الآثمِ.

الآية ٨ [ثم][3] نَعَتَ ذلكَ الأفاكَ، فقالَ: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ آياتِ وَحدانيَّةِ اللهِ ﷻ وآياتِ رسالةِ رسولِ اللهِ ﷺ ثم أخبَرَ عن تَعَنُّتِهِ وعِنادِهِ في آياتِ اللهِ حينَ[4] قالَ: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ بَعدَ تلاوةِ الآياتِ عليهِ وبَعْدَ معرفتِهِ وفَهمِهِ أنها آياتُ اللهِ كما كانَ يُصِرُّ قبلَ ذلكَ لأنها آياتٌ خارجاتٌ عن وُسْعِهِمْ، إذْ عَجِزوا عن إتيانِ مِثلِها.

فإذا كانَتْ خارجةً عنِ احتِمالِ وُسْعِهِم، فكذلكَ هي خارجاتٌ عن وُسْعِ محمدٍ ﷺ إذْ هو واحدٌ مِنَ البَشَرِ مِثلُهُم، فَعَرَفوا أنهُ إنما قَدَرَ على إتيانِ مِثلِها باللهِ تعالى بِما أوحَى إليهِ، وأعلَمَهُ بذلكَ.

[وقولُهُ تعالى:][5] ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ عِناداً منهُ واستِكباراً.

ثم أوعَدَهُ العذابَ الأليمَ، وهو قولُهُ: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مُؤلِمٍ مُوجِعٍ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي عذابٌ يُهينُهُم باستِهزائِهِم بالآياتِ.

الآية ١٠ ثم قولُهُ[6] تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أضافَ جهنَّمَ إلى ورائِهِم؛ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ ذِكرِ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ وراءَ الدنيا، كأنهُ قالَ: مِنْ وراءِ هذهِ الدنيا لهمْ جهنَّمُ، لكنهُ أضافَ ذلكَ إليهِمْ لأنهمْ فيها، وهُمْ أهلُها.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مِنْ وراءِ أحوالِهِمُ التي هُمْ عليها جهنَّمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يَحتَمِلُ: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ أي ما عَمِلوا مِنَ القُرَبِ التي عَمِلوها رَجاءَ أنْ يَنفَعَهُمْ ذلكَ في الآخِرَةِ، أو يُقَرِّبَهُمْ ذلكَ إلى اللهِ زُلفَى؛ يُخبِرُ أنَّ ذلكَ ممّا لا يُغنيهِم، ولا يَنفَعُهُمْ في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وَعَدَ لهمْ في كلِّ حالٍ وكلِّ أمرٍ كانَ منهمْ عذاباً غَيرَ العذابِ في حالٍ أُخرى، ذكَرَ في الحالِ التي عَبَدوا الأصنامَ دونَهُ، واتَّخذوها أرباباً، العذابَ العظيمَ، وذَكَرَ لهمْ باستِهزائِهِم بآياتِ اللهِ العذابَ المُهينَ: عذاباً يُهينُهُم، ويُهانونَ في ذلكَ، وذَكَرَ لهمْ بإصرارِهِم بما هُمْ عليهِ واستِكبارِهِم على آياتِ اللهِ وعلى رسولِهِ العذابَ الأليمَ حتى يكونَ مُقابِلَ كلِّ [ما][7] كانَ منهمْ نوعٌ[8] مِنَ العذابِ غَيرُ النوعِ الآخَرِ، [وذو صِفةٍ][9] غَيرِ الصِّفةِ الأُخرَى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: قط. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عذاباً. (٩) في الأصل وم: وبصفة.

جنة السنة

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي بيانٌ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي عذابٌ مِنْ عذابِ أليمٍ؛ إذِ الرِّجْزُ هو العذابُ؛ كأنهُ فَسَّرَ ذلكَ العذابَ، ووصَفَهُ بالألمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ في تَسْخيرِ البَحْرِ لهمْ معَ [أهوالِهِ وكثرةِ أمواجِهِ وامْتِناعِهِ][1] عَنْ مَنافعِ الخَلْقِ، صَيَّرَهُ[2] بلطفِهِ ورحمتِهِ لهمْ كسائِرِ البِقاعِ في الوصولِ إلى ما فيهِ[3] مِنَ الجواهِرِ واللآلئِ بالغَوصِ فيهِ والخَوضِ والاصْطِيادِ لِما فيهِ مِنْ أنواعِ الصَّيدِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ بِحِيَلٍ عَلَّمَهُمْ، وأسبابٍ جَعَلَ لهمْ حتى يَصِلوا إلى ما فيه مِنْ أنواعِ الجواهرِ والأموالِ النفيسَةِ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾][4] سَخَّرَها لهمْ أيضاً حتى عَبَروا البَحْرَ، ومَرّوا عليهِ بِسُفُنٍ أعطاهُمْ وحِيَلٍ عَلَّمَهُمْ حتى قَدَروا على عُبورِهِ والمُرورِ عليهِ لِيَصِلُوا إلى قَضاءِ حوائِجِهِمُ التي تكونُ في البلدانِ النائيةِ، وهو ما قالَ: ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ يَحْتَمِلُ [ثلاثةَ وجوهٍ:

أحدُها][5]: أنْ يكونَ عبارةً عنْ تكوينِهِ، أي بما كونُهُ وإنشاؤُهُ كذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

والثاني: يَحْتَمِلُ: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بالأمرِ الذي لهُ على العبادِ وسائِرِ خلائقِهِ.

[والثالثُ][6]: يَحْتَمِلُ: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بإذنِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي يُلْزِمَكُمُ الشُّكرَ بذلكَ، أو ما ذَكَرَ ما فيهِ مِنَ الوجوهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي سَخَّرَ لهمْ ما في السمواتِ مِنَ الملائكةِ والشمسِ/ ٥٠٦ ـ أ/ والقمرِ والنجومِ وغيرِها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الأشجارِ والنباتِ والبهائمِ والدّوابِّ حتى اسْتَعْمَلوها كلَّها في مَنافِعِهِمْ وحوائِجِهِمْ كما اسْتَعْمَلوا أملاكَهُمُ التي تَحويها أيديهِمْ بِتَسْخيرِ اللهِ تعالى إيّاهُمْ ذلكَ كلَّهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أي جميعُ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى. أخْبَرَ أنهُ سَخَّرَ جميعَ ما في هذينِ في السمواتِ والأرضِ، ثم أخْبَرَ أنَّ ﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد ذَكَرْنا جهةَ الآيةِ في ذلكَ في غيرِ موضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أمَرَ تعالى ﷺ المؤمنينَ بالعفوِ والصَّفحِ عَمَّنْ أساءَ إليهِمْ، وظَلَمَهُمْ حتى أمَرَهُمْ بالعفوِ والمغفرةِ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ، وأساءَ إليهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ لِيُعْلَمَ عظيمَ مَوقعِ العفوِ والصَّفحِ عنِ المظلَمَةِ والإساءةِ عندَ اللهِ وما يكونُ لذلكَ مِنَ الثوابِ الجزيلِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ هذهِ الآياتِ إنما نَزَلَتْ بمكةَ، ومَنْ أسْلَمَ مِنْ أهلِ مكةَ بمكةَ كانوا مُسْتَخفينَ مقهورينَ في أيدي الكَفَرَةِ، ثم لا يَتَهَيّأُ لهمُ الانْتِصارُ منهمْ والانْتِقامُ عنْ مساويهِمْ، وإنما يُؤمَرُ المَرْءُ بالعَفوِ عَنْ مَظْلَمَةِ [مَنْ ظَلَمَهُ][7] وأساءَ إليهِ، عندَ مَقْدِرَةِ الانْتِقامِ منهُ والانْتِصارِ.

فأمّا مَنْ لا يكونُ على مَقْدِرَةٍ مِنْ ذلكَ فلا مَعْنًى للأمرِ لهُ بذلكَ، إذْ هو عاجزٌ عنْ ذلكَ. فيكونُ الأمرُ بالعفوِ والصَّفحِ عنهمْ، وإنْ كانَ أهلُ الإسلامِ منهمْ مَقْهورينَ مَغْلوبينَ في أيدي أولئكَ الكَفَرَةِ على ما ذَكَرَ ثَمَّ لوجهَيْنِ:

أحدُهما: أنهُ أمَرَهُمْ بذلكَ لِيَتَقَرَّبوا بذلكَ إلى اللهِ، ويَجْعَلوا ذلكَ وَسيلةً وقُرْبَةً في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ربِّهِمْ، وإنْ لم يَكُنْ لهمْ مَقْدِرَةُ الانْتِقامِ والانْتِصارِ منهمْ ليكونَ العَفْوُ عنهمْ بِحَقِّ القُرْبَةِ [لا بحقِّ][8] التَّذَلُّلِ والخُشوعِ؛ إذْ يَعْفو كلٌّ عنِ اخْتِيارٍ وطَوعٍ،

---

(١) في الأصل وم: أهوالها وكثرة أمواجها وامتناعها. (٢) في الأصل وم: صيرها. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ويَصْبِرُ على ذلكَ ابْتِغاءَ وجهِ اللهِ تعالى، ويَترُكُ الجَزَعَ في نفسِهِ والمُخاصمةَ، لو قَدَرَ على الانْتِقامِ، وهو ما أَمَرَ رسولَ اللهِ ﷺ بالهجرةِ إلى المدينةِ بَعْدَما أخبَرَهُ أنهمْ يريدونَ أنْ يَقتُلوهُ أو يُخرِجوهُ حينَ[1] قالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٠] لِتكونَ الهجرةُ لهُ إلى اللهِ تعالى بِحَقِّ القُربةِ لا بِحَقِّ التَّذَلُّلِ بإخراجِهِمْ إياهُ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ يرجِعَ الأمرُ بالعفوِ إلى كلِّ واحدٍ منهمْ في خاصَّةِ نفسِهِ، وقد كانَ مِنَ المسلمينَ منهمْ مَنْ يَقدِرُ على الانْتِقامِ والانْتِصارِ مِنَ الأفرادِ والآحادِ منهمْ، وإنْ لم تَكُنْ لهمُ المَقدِرةُ على الانْتِقامِ مِنْ جُملَتِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي نِعَمَ اللهِ الدائمةَ التي لا زوالَ لها، ولا انْقِطاعَ، التي وَعَدَها في الآخِرةِ لأهلِ الإيمانِ، وهي[2] ما قالَ في آيةٍ أُخرى في قصةِ موسى. على نَبِيِّنا وعليه السلام حينَ[3] قالَ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أي بِنِعَمِ اللهِ تعالى. ألا تَرى أنَّ موسى عليه السلام فَسَّرَ أيامَ اللهِ بالنِّعمةِ حينَ[4] قالَ على إثْرِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآيةَ؟ [إبراهيم: ٦].

والثاني: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ على حقيقةِ الأيامِ لأنهمْ كانوا يَرونَ هذهِ النِّعَمَ والسَّعةَ في الدنيا بِجَهْدِ أنفسِهِمْ وكَدِّهِمْ[5] لا بما أجرَى اللهُ تعالى النِّعَمَ إليهِمْ في الأيامِ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يَحْذَرونَ نِقْمَةَ اللهِ وعقوبتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي لِيَجْزِيَ كلَّ قومٍ بما كَسَبوا مِنْ خيرٍ أو شرٍّ؛ يَجْزي مَنْ عَفا عنهمْ جزاءَ العَفوِ، ويَجْزي المُحْسِنَ جزاءَ الإحسانِ والمُسيءَ جَزاءَ الإساءةِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ يُخبِرُ أنَّ مَنْ عَمِلَ مِنْ خيرٍ فإنما يَعمَلُ [لِنَفسِهِ، ومَنْ عَمِلَ مِنْ سُوءٍ فإنما يَعْمَلُ][6] على نفسِهِ؛ يُخبِرُ أنَّ مَنْ عَمِلَ مِنْ خيرٍ أو صالحٍ فلنفسِهِ سَعَى في الآخِرةِ [ومَنْ عَمِلَ مِنْ شرٍّ فَعَلَى نفسِهِ سَعَى في الآخِرةِ][7] كَمَنْ عَمِلَ في الدنيا مِنَ الأكلِ والشربِ فلنفسِهِ يَعمَلُ، ومَنْ جَنى مِنْ جناياتٍ فَعلَى نفسِهِ جَنَى في الدنيا والآخِرةِ حينَ[8] يُهلِكُ به نفسَهُ، ويَرجِعُ إليهِ وبالُ ذلكَ في الدنيا والآخِرةِ. فَعلَى ذلكَ ما قُلْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم إلى ما وَعَدَكُمْ ربُّكُمْ مِنَ الثوابِ والعقابِ تُرْجَعونَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي التوراةَ. والإشكالُ أنهُ آتى بَني إسرائيلَ جُملةً كُتُباً كثيرةً؛ أمّا التوراةُ والإنجيلُ والزبورُ فهي[9] كتبٌ قد يَعرِفونها[10]، وقد يَجوزُ أنْ يكونَ لهمْ كتابٌ غيرُها، فما مَعنى ذِكرِ الكتابِ؟ وما مَعنى حَمْلِهِمْ على التوراةِ إلّا أنْ نقولَ: يجوزُ أنْ يريدَ بِذِكرِ الكتابِ الكتبَ، فإنْ أدخلَ الألفَ واللامَ، فيكونُ لاسْتِغراقِ الجنسِ.

ويَحْتمِلُ أنهُ أرادَ بِهِ التوراةَ كما قالَ أهلُ التأويلِ؛ إذ قد يجوزُ أنْ يُذْكَرَ اسْمُ العامِّ، ويُرادَ بهِ الخاصُّ، وهو الواحدُ منهمْ.

ويَحْتمِلُ أنْ يكونَ التوراةُ هو الكتابَ الذي فيهِ عامّةُ الأحكامِ، فإنهُ قيلَ: إنَّ الزبورَ [ليسَ][11] فيهِ الحُكمُ، إنما فيهِ التَّسبيحُ والتَّحميدُ. وكذا الإنجيلُ ليسَ فيهِ إلّا أحكامٌ قليلةٌ، فيجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بهِ التوراةَ لهذا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي فَهْمَ ما فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ فِقهَ ما في الكتابِ؛ إذِ الحُكْمُ الظاهرُ داخلٌ تحتَ قولِهِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بَيَّنَ بقولِهِ: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أنهُ أعطَى لهُ الحُكْمَ الظاهرَ فيهِ والحُكمَ المُسْتَخرَجَ منهُ بالاسْتِنْباطِ والاجْتِهادِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وكذبهم.
(٦) و(٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعرفها. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ بالكتابِ هو ما يُتْلَى في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ ربِّهِمْ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ هو ما أمَرَهُمْ فيهِ أنْ يَحْكُموا في ما بَينَ العبادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إنما ذَكَرَ النُّبُوَّةَ لأنَّ النُّبُوَّةَ كانت ظاهرةً [في](١) بَني إسرائيلَ كذا كذا رسولاً ونبياً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قد كان رِزقُهُمُ الطَّيِّباتِ ما ذَكَرَ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى، وغَيرُ ذلكَ مِنَ الطَّيِّباتِ فلا يُحصَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد ذكَرْنا تَفضيلَهُمْ على العالَمينَ في [غيرِ مَوضِعٍ](٢).

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي آياتٍ مِنَ الأمرِ. وقيلَ: ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي ما بيِّن لهمْ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ والشُّبَهِ [وأنباءِ مَنْ](٣) كانَ قَبلَهُمْ، واللهُ أعلَمُ. ويَحتمِلُ ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي بَيانَ ما تَقَعُ الحاجةُ إليهِ مِنَ الأمرِ.

وعندَنا ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي بَيِّناتِ التكوينِ ودلالاتٍ لِما جَعَلَ اللهُ في نفسِ كلِّ أحدٍ مِنْ دلالاتِ وَحدانيَّتِه وألوهيَّتِهِ، أو ما أقامَ مِنَ الآياتِ في العالَمِ على التكوينِ يدلُّ على جَعْلِ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ على ما ذكَرْنا مِنْ أمرِ التكوينِ، أي ما اخْتَلَفوا في صَرْفِ الألوهيَّةِ والوحدانيَّةِ عنِ اللهِ تعالى إلى غيرِهِ إلا بَعدَ ما جاءَهُمُ العِلْمُ أي الأمرُ [إلا مِنْ بَعْدِ](٤) ما بَيَّنَ لهمْ أنَّ الألوهيَّةَ والربوبيَّةَ بالدلالةِ الواضحةِ والحُجَّةِ النَّيِّرةِ، وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمرَ، إلا أنهُ ذَكَرَ العِلْمَ، وأرادَ بهِ أسبابَ العلمِ ودلائلَهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمرَ المجيءِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والتحليلِ والتحريمِ وبيانَ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى وما لَهُمْ وما عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ واخْتِلافُهُمْ في ما امْتُحِنوا يَتَوَجَّهُ إلى وجوهٍ:

أحدُها: ما اخْتَلَفوا في ما امْتُحِنوا مِنَ الدينِ أو في ما امْتُحِنوا في اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ والإجابةِ /٥٠٦ ـ ب/ إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ والطاعةِ لَهُ.

[والثاني](٥): اخْتِلافُهُمُ الذي ذَكَرَ الاخْتِلافَ في القرآنِ.

[والثالث](٦): في ما امْتُحِنوا مِنَ التحليلِ والتحريمِ.

ثم يُخبِرُ تعالى، جَلَّ، وعلا، أنهمْ ما اخْتَلَفوا إلا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ العلمُ بالحقِّ في ذلكَ والبَيانِ أنهُ مِنَ اللهِ، وأنَّ ما هُمْ عليهِ باطلٌ مُضمَحِلٌّ.

ثم أخبَرَ أنَّ اخْتِلافَهُمْ إنما هو لِبَغْيٍ بَينَهُمْ وحَسَدٍ، حَمَلَهُمْ ذلكَ على الاخْتِلافِ في ما بَينَهُمْ.

ثم أخبَرَ أنهُ ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أي يَجْزيهِمْ في الآخِرةِ جَزاءَ اخْتِلافِهِمْ في الدنيا.

[والثاني](٧): ﴿يَقْضِى﴾ أي يَفصِلُ، ويُبَيِّنُ لهمْ يومَ القيامةِ الحقَّ مِنَ الباطلِ والمُحِقَّ والمُبْطِلَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: موضعه. (٣) في الأصل وم: وبنا ما. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ويحتمل. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا صلةَ قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَهُم بَيِّنَتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿وَءَاتَيْنَهُم بَيِّنَتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ وجعَلْنا ذلك شريعةً لكَ، فاتَّبِعْها أنتَ، ولو لم يتَّبِعوها هُمْ.

والشريعةُ هي المِلَّةُ والمَذْهبُ، وهي ما شَرَعَ فيه، ويَذْهبُ إليهِ. كذلكَ قالَهُ القُتَبِيُّ، قالَ: شَرَعَ فلانٌ في كذا إذا أخذَ فيهِ، ومنهُ مَشارِعُ الماءِ [وهي][1] الفُرَضُ التي يَشْرَعُ منها الناسُ، والوارِدةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الشريعةُ السُّنَّةُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخبَرَ أنَّ الذي هُمْ عليه إنما هو هَوَى النفسِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [وجهَينِ:

أحدُهما:][2] لِما لم يَتأمَّلوا، ويَتفكَّروا [ما لو تأمَّلوا، وتفكَّروا][3] فيهِ لَعَلِموا، لأنهُ قد ذَكَرَ في أوَّلِ الآيةِ أنهمْ إنما اختَلَفوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ، أي جاءَهُمْ مِنْ دلائِلِ العلمِ ما لو تأمَّلوا، ونَظَروا فيها لَعَلِموا.

والثاني: نَفَى عنهمُ العِلْمَ لِما لم يَنْتَفِعوا بما عَلِموا وما جعَلَ لهمْ مِنَ العِلْمِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لو اتَّبَعْتَ أهواءَهُمْ لَنْ يُغْنوا عنكَ مِنَ اللهِ، أي لنْ يُغْنِيَ أولئكَ عنْ دفعِ ما يَنْزِلُ بكَ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ الآية [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

ثم أخبَرَ أنَّ الظالمينَ بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ [بقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾][4] يَحتمِلُ ولايةَ الدينِ والمذهبِ، أي بعضُهُمْ يُوالي بعضاً في الدينِ. ويَحتمِلُ غيرَهُ أي يلي بعضُهُمْ أمرَ بعضٍ في الإعانةِ والنُّصْرةِ، واللهُ أعلَمُ

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يَحتمِلُ أي يلي أمورَ المُتَّقينَ. ويَحتمِلُ ﴿وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي ناصِرُهُمْ ومُعينُهُمْ.

الآية ٢٠ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿هَذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ سَمّى اللهُ تعالى هذا القرآنَ مَرَّةً بصائرَ، وهو ما يُبْصَرُ بهِ، ومَرَّةً هُدًى وبَياناً ورحمةً ونوراً ونَحْوَهُ؛ وهو هكذا، هو هدًى وبيانٌ ونورٌ وبَصيرةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، ونَظَرَ إليهِ بعينِ التَّعْظيمِ والتَّبجيلِ، وقَبِلَهُ.

ويَحتمِلُ ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ بياناً[6] يُبيِّنُ لهمْ أنهُ مِنَ اللهِ، فيُبيِّنُ لهمُ الحقَّ مِنَ الباطلِ، ويُبيِّنُ ما لهمْ وما عليهِمْ لِمَنْ ذَكَرَ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: نَفَرٌ مِنَ الكَفَرةِ قالوا، واللهُ أعلَمُ: إنَّ كلَّ ما يقولُهُ محمدٌ مِنَ الثوابِ والنعيمِ في الجنةِ حقّاً، فَنَحْنُ أولَى بذلكَ منهمْ كما كُنّا في نَعيمِ الدنيا ولذّاتِها أوْلَى منهُمْ، أو لَنُعْطَيَنَّ أفضلَ مما يُعطَون، ولَنُفَضَّلَنَّ عليهِمْ كما فُضِّلْنا في الدنيا. فأنزَلَ اللهُ ﷻ في ذلكَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

لكنَّ هذا التأويلَ ضعيفٌ لأنَّ هذا لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ جواباً لِلنازلةِ التي ذَكَرَها أهلُ التأويلِ لأنَّ أولئكَ قالوا: نحنُ أولَى بِمَا يكونُ في الآخِرةِ مِنَ النَّعيمِ واللَّذاتِ منهمْ كما كُنّا في الدنيا أولَى، وكما فُضِّلْنا في الدنيا نُفَضَّلُ في الآخرةِ، فلا يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً﴾ جواباً لِما قالوا، وهُمْ إنما قالوا: نحنُ أولَى بذلكَ، ونحنُ نُفَضَّلُ فيها كما فُضِّلْنا في الدنيا.

فإذا كانوا حَسِبوا هُمْ أنهمْ مُفَضَّلونَ على المؤمنِينَ في الآخِرةِ دونَ المُساواةِ، كيفَ يُخْبِرُ عنهمْ أنهمْ حَسِبوا التَّساوِيَ، ولا خِلافَ في خَبَرِ اللهِ ﷻ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بيان.

جنة السنة

لكنَّ الآيةَ عندَنا إنما كانَتْ في مُنكِري البَعْثِ وجاحديهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً﴾ الآية أي لو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّ أولئكَ بأنْ لا بَعْثَ ولا نُشورَ كانَ في ذلكَ جَعْلُ الذينَ اجْتَرَحوا السَّيِّئاتِ أي الشِّرْكَ كالذينَ آمَنوا، وعمِلوا الصالحاتِ؛ ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ لأنهمْ جميعاً قدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا في لَذّاتِها ونَعيمِها وشدائِدِها وآلامِها.

وفي الحكمةِ والعقلِ التّفريقُ بَينَهما والتّمييزُ وإنزالُ كلِّ واحدٍ منهما مَنْزِلَتَهُ وما يَسْتَحِقُّهُ: المسيءُ [مِنَ][1] العقوبةِ وجَزاءِ الإساءةِ، والمُحْسِنُ [مِنَ][2] الإحسانِ والإفضالِ وجَزاءِ إحسانِهِ.

فإذا جُمِعَ بَينَهما في هذهِ الدنيا على ما ذَكَرْنا دلَّ أنَّ هناكَ داراً أُخرَى فيها يُفَرِّقُ، ويُمَيِّزُ بَينَهما في حقِّ الثوابِ والعقابِ، واللهُ أعلَمُ

وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] لو كانَ كما ظَنَّ أولئكَ الكَفَرةُ أنْ لا بَعْثَ، ولا نُشورَ، كانَ خَلْقُ ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما باطلاً على ظَنِّهِمْ.

فلِذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ إذا لم يكُنْ هنالكَ رجوعٌ إليهِ عَبَثاً باطلاً.

فهذا أَوْلَى وأحَقُّ أنْ تُصْرَفَ إليهِ الآيةُ. وعلى ذلكَ ما ذُكِرَ في قولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الآية [الأنعام ٥٠ والرعد ١٦] وقولِهِ تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] أي لا يَسْتَوِيانِ.

ولو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّ أولئكَ أنْ لا بَعْثَ، ولا نُشورَ، ولا حياةَ، كانَ في ذلكَ اسْتِواءٌ بَينَ مَنْ ذُكِرَ، وقد سَوَّى بَينَهمْ في الدنيا، وفي الحكمةِ والعقلِ التّفريقُ بَينَهما والتّمييزُ؛ إذْ لا تَجوزُ التسويةُ بَينَ الوليِّ والعَدُوِّ، وقد سَوَّى بَينَهما [في الدنيا][3] فَعُلِمَ أنَّ المُرادَ بهِ نَفْيُ الاسْتِواءِ بَينَهما في دارٍ أُخرَى، واللهُ الموفِّقُ.

ثم اخْتَلَفَ أهلُ الكلامِ في ما يُعْطَى الوليُّ والعَدُوُّ في هذهِ الدنيا مِنَ الصِّحَّةِ والسلامةِ على قولِ أكثَرِ المُعْتَزِلةِ: إنَّ اللهَ لا يُعْطي أحداً في الدنيا مِنْ كافرٍ أو مؤمنٍ شيئاً إلّا وهو أصلَحُ لهُ في الدينِ.

ثم على قولِهِمْ: لا يَظْهَرُ عَفْوُ اللهِ تعالى في الآخِرةِ لأنهمْ يقولونَ: إنما يَسْتَوْجِبونَ الثوابَ والجنةَ بأعمالِهِمْ لا برحمةِ اللهِ تعالى. فإذا عَفا عنِ المُسيءِ فلا يُعْلَمُ أنهُ كانَ مُسْتَحِقاً [لِذلكَ، أو كانَ العَفْوُ][4] منهُ فَضْلاً.

وعندَنا أنَّ ما أعطاهُمْ إنما يُعْطيهِمْ إفضالاً منهُ ورحمةً، فَيَعْرِفونَ فضلَهُ وإحسانَهُ وعَفْوَهُ.

وأكثَرُ أصحابِنا يقولونَ: إنَّ جميعَ ما أعْطَى الكافرَ في الدنيا فهو شَرٌّ لهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقولِهِ ﷺ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون ٥٥ و٥٦] ونَحْوُ ذلكَ ما يُخْبِرُ أنَّ ما يُعْطي إياهُمْ يكونُ ذلكَ شرّاً لهمْ، وما أعْطَى [المؤمنينَ][5] يكونُ خيراً لهمْ.

ولكنْ عندَنا ليسَ هذا على الإطلاقِ والإرسالِ. ولكنْ ما كانَ توفيقاً منهُ على الخَيراتِ في نفسِها فهو خَيرٌ لهُ[6] /٥٠٧ ـ أ/ وما كانَ خِذلاناً فهو شَرٌّ لهُ، وليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصلحِ لهمْ على ما يقولُهُ المعتزلةُ، ولكنهُ يَفْعَلُ بهمْ ما هو حكمةٌ وعدلٌ كما يَفْعَلُ ما هو إحسانٌ وفَضْلٌ، واللهُ الموفِّقُ.

قال القُتَبِيُّ: ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي اكْتَسَبوها، ومنهُ قيلَ لِكلابِ الصيدِ جوارِحُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: كذلك أو يعفو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرجت بعدها العبارة التالية في الأصل وم: أن ما يعطي إياهم يكون ذلك شراً لهم وما أعطى يكون خيراً لهم، ولعل ذلك سهومن الناسخ.

جنة السنة

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحَقّ لِتُجزَى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ.

فلو لم يكنْ جَزاءٌ لِما كَسَبوا في الدنيا في الآخِرَةِ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ: أنْ لا جَزاءَ مِنَ الثوابِ والعقابِ لإنكارِهِمِ البَعْثَ لم يَكُنْ خَلْقُهُما بالحقّ على ما ذَكَرْنا، فَتَبَيَّنَ أنهُ إنما صارَ خَلْقُهُما [حقًّا إذ][1] كانَ هنالكَ جَزاءٌ. وهذا يدلُّ على أنَّ الآيَةَ هي في مُنكِري البعثِ، ليسَتْ في ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على التَّحقيقِ على ما قالَهُ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أنهمْ عبدوا كلَّ شيءٍ استَحسَنوهُ [كانوا إذا استَحسَنوا شيئاً هَوُوهُ، وعَبَدوهُ، ثم إذا رَأَوا][2] شيئاً آخرَ أحسَنَ منهُ تَركوا عبادةَ الأوّلِ، وعَبَدوا الثانيَ. فتلكَ كانَتْ عادَتُهُمْ، وذلكَ اتِّخاذُ الآلهةِ بِهواهُمْ؛ إذِ الإلهُ، هو المعبودُ عندَهُمْ، وهو التحقيقُ الذي ذَكَرْنا.

والثاني: على التَّمثيلِ، وهو ما قالَ قَتادةُ: أنهمْ ما هَوُوا شيئاً إلّا رَكِبُوهُ، لا يَمنَعُهُمْ مَخافَةُ اللهِ عمّا هَوُوهُ، ولا تَرْدَعُهُمْ خَشيَةٌ عمّا اشتَهَوا، فَصَيَّروا هواهُمْ مُتَّبَعاً، فهو كالإلهِ لهمْ، لا يَتَّبِعونَ أمرَ اللهِ، فلا يَكْتَرِثونَ لهُ، أو كلامٌ نَحوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي أضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ مِنْ ذلكَ الإنسانِ بالطريقِ: الهُدَى والحقّ، لا أنهُ أضَلَّهُ على خَفاءٍ مِنْ ذلكَ الإنسانِ بالطريقِ الحقّ وسَبيلِهِ، أي قد بَيَّنَ لهُ السبيلَ والطريقَ الحقَّ.

[والثاني: أي أضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ منهُ، أي][3] أنشَأَ منهُ فِعْلَ الضلالِ على عِلْمٍ منهُ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي غَطّى قَلْبَهُ بِما هَوِيَهُ، وجَعَلَ فيه ظُلْمَةً؛ فتلكَ الظُّلْمَةُ وذلكَ الغِطاءُ أوجَبُهُ غِطاءُ السَّمْعِ والبصرِ، وحالَ بَيْنَهُ وبَيْنَ سَماعِ الحُجَجِ والبراهينِ، وصارَتْ ظُلْمَةُ البَصَرِ وغِطاؤُهُ مانعاً لهُ[4] عنِ اكْتِسابِ التَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ.

[والثاني:][5] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما هَوُوهُ مانعاً لهمْ عنِ اكْتِسابِ الحياةِ الدائمةِ ما لو اتَّبَعوا أمرَ اللهِ تعالى وما دعاهُمْ إليهِ كانَتْ لهمْ تلكَ الحياةُ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فما هَوُوهُ، واتَّبَعوهُ، مَنَعَهُمْ عنِ اكْتِسابِ الحياةِ الدائمةِ المُدَّعى إليها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ هذا أيضاً يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: حقيقةُ الهدايةِ، وهو التوفيقُ والعصمةُ، فكأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: فَمَنْ يَقدِرُ دونَ اللهِ هدايَتَهُ وتوفيقَهُ بعدَ اختيارِهِ الضلالَ؟

والثاني: الهُدَى البَيانُ؛ فكأنهُ يقولُ: فَمَنْ يَقدِرُ أنْ يأتيَ بِبيانٍ أكثَرَ وأبيَنَ مِنْ بعدِ بَيانِ اللهِ تعالى الذي بَيَّنَ لهُ؟ [أي لا][6] أحدَ يَقدِرُ ذلكَ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتَّعِظونَ؟ أو أفلا تَذْكُرونَ بَيانَ اللهِ أو ما بَيَّنَ لهمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

ثم الآيَةُ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً، لئلا يَشْتَغِلَ بهمْ، ولا يَهْتَمّ لهمْ، ولكنْ يَشْتَغِلُ بِغَيرِهِمْ، ويَقطَعُ طَمَعَهُ عنْ إيمانِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما قالوا: ما الحياةُ إلّا حياةُ الدنيا. ويَحتَمِلُ أنهمْ يقولونَ: ما هي: أي لا حياةَ إلّا الحياةُ التي دنَتْ منا.

---

(١) في الأصل وم: إذا. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكنه. (٤) في الأصل وم: لهم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أي نموتُ نحنُ، ويَحْيَى أبناؤنا وأولادُنا.

والثاني: نموتُ، أي كنّا ميّتين، فَحَيِينا ﴿نَمُوتُ﴾ بِمَعْنى كُنّا أمواتاً ﴿وَنَحْيَا﴾ أي فَصِرْنا أحياءً، ثم لا حياةَ بعدَ تلك الحياةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أي ما يُهلِكُنا إلّا مرورُ الأزمنةِ والأوقاتِ أي بسببِ مرورِ الأوقاتِ تَنْتَهي آجالُنا، ونَبْلُغُ إلى الهلاكِ، وكذلكَ قالَ القُتَبيُّ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي إلّا مُرورُ السِّنينَ والأيامِ.

والثاني: أي يكونُ الدهرُ عندَهمْ عبارةً عنِ الأبدِ، فكأنهمْ يقولونَ في قولِهِ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وما يُهلِكُ أنفسَنا إلّا لأنَّ أنفسَنا لم تُجعَلْ للأبَدِ ولا للبقاءِ، بل جُعِلَتْ لِلانْقِضاءِ والفَناءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما:][(1)] ما هُمْ إلّا على ظَنٍّ يَظُنّونَ.

والثاني: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي وما لهمْ بِما قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي على ظَنٍّ يقولونَ ذلكَ لا عَنْ عِلْمٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تُتْلَى عليهمْ آياتُنا في البعثِ والحياةِ بَعدَ الموتِ بيِّناتٍ في ما يُوضِحُ، ويُبيِّنُ لهمُ البعثَ والحياةَ بَعدَ الموتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والإشكالُ أنهُ ذَكَرَ ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ إذْ لم يُعْذَروا، فيقولُ: والحُجّةُ هي التي إذا أقامَها الإنسانُ، وأتى بها، عُذِرَ في ذلكَ، وما قالوا: لم تَكُنْ حُجّةً إذْ لم يُعْذَروا. فيقولُ: مَعْنى قولِهِ: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ أي ما كانَ احْتِجاجُهمْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾ كذلكَ. ويقولُ: ما كانوا يَحْتَجّونَ إلّا أنْ قالوا كذا.

ثم قولُهُ ﴿ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه دلالةُ ألّا يُلْزَمَ المَسْؤولُ أنْ يأتِيَ بِحُجّةٍ وآيةٍ يَختارُها السائلُ ويَشتَهيها. لكنْ يُلزِمُهُ أنْ يأتِيَ بما هو حُجّةٌ في نفسِهِ، ويُلْزِمُهُ الاتّباعَ بها. فأمّا أنْ يُلْزَمَ على ما يَختارُهُ السائلُ أو يَتَمَنّى، فلا. وقد آتاهُمُ اللهُ تعالى مِنَ الآياتِ والحُجَجِ ما أَلزَمَهُمُ القولَ بالبعثِ والإقرارِ بهِ.

ثم أخبَرَ أنَّ اللهَ تعالى هو يُحْيِيكُمْ، ثم يُميتُكُمْ، لا الدهرُ الذي قالوا.

الآية ٢٦ وهو قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي يُحْيِيكُمْ في قبورِكُمْ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو يقولُ: اللهُ يُحْيِيكُمْ في ابْتِداءِ الأمرِ، ثم يُميتُكُمْ في الدنيا عندَ انْقِضاءِ آجالِكُمْ ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا [يَنْتَفِعونَ بِما][(2)] يَعْلَمونَ لِما تَركوا النَّظَرَ والتأمُّلَ[(3)] في أسبابِ العلمِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: وللهِ مُلْكُ كلِّ مُلْكٍ في السمواتِ والأرضِ.

[والثاني][(4)]: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خزائنُ السمواتِ والأرضِ. وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ.

[والثالثُ][(5)]: ﴿وَلِلَّهِ﴾ حقيقةُ مُلْكِ السمواتِ والأرضِ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: بالتأمل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو يقول.

جنة السنة

فإنْ كانَ التأويلُ، هو الأولُ، فإنَّ لهُ مُلكَ كلِّ مُلكٍ في السمواتِ والأرضِ؛ ففيهِ إخبارٌ وإعلامٌ يَمنعُ[1] اتِّباعَ أولئكَ الملوكِ والتعظيمَ لهم والإجلالَ والخدمةَ لهمْ بما في أيديهمْ مِنَ المُلْكِ والسلطانِ وفَضلِ الأموالِ. بل فيهِ الأمرُ بِصَرْفِ ذلكَ كلِّهِ إلى اللهِ تعالى والقيامِ لهُ بالشكرِ لا لأولئكَ، لأنَّ الذي في أيديهمْ [للهِ تعالى، وهو الجاعلُ ذلكَ في أيديهمْ][2] والواضعُ عندَهمْ. فإليهِ يُلْزِمُ صَرْفَ الشكرِ والعبادةِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ تأويلُ / ٥٠٧ ـ ب/ المُلْكِ الخزائنَ ففيهِ قَطعُ الأطماعِ [عمّا][3] في أيدي الناسِ والأمرُ بِصَرْفِ ذلكَ إلى اللهِ تعالى والرجاءُ منهُ دونَ سِواهُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ الثالثَ: وهو أنَّ حقيقةَ الملكِ للهِ تعالى ففيهِ أنهُ في ما امْتَحَنَهُمْ في الدنيا بأنواعِ المِحَنِ لم يَمْتَحِنْهُمْ لِمَنْفَعَةٍ ترجِعُ إلى نفسِهِ أو لِمَضَرَّةٍ [يدفَعُها عنهُ][4]. وكذلكَ ما يُثيبُهُمْ في الآخِرَةِ، ويُعاقِبُهُمْ، ليسَ يفْعَلُ ذلكَ لِمَنْفَعَةٍ كانَتْ لهُ في الدنيا أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ عنهُ. ولكنْ لحكمةٍ أوجَبَتْ ذلكَ لهمْ وعليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ سَمّى القيامةَ ساعةً، فجائزٌ أنْ يكونَ سَمّاها [ساعةً][5] لسرعةِ قيامِها أو نَفاذِها كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] أو أنْ يكونَ سَمّاها بذلكَ لِما يكونُ حسابُهُمْ وأمرُهُمْ يومَ القيامةِ إنما يكونُ في ساعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أي يومئذٍ يُبَيِّنُ خُسرانَ المُبْطِلينَ في الدنيا. وعلى ذلكَ يُبَيِّنُ خُسرانَ كلِّ المشركينَ في تجارةِ الدنيا، إذْ في عَمَلِ [القِسمةِ عندَهُ][6] يَتَبَيَّنُ خُسرانُ عملِهِمْ وتجارتِهِمْ.

وأصلُهُ أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الدنيا وما أنْشَأَ فيها مِنَ الأموالِ والأملاكِ رؤوسَ أموالِ أهلِها يَتْجُرونَ، ويَكْتَسِبونَ بها الربحَ في الآخِرةِ، وأنهُ إنما أنْشَأَ الدنيا للآخِرةِ لا أنهُ أنْشَأَها لِنَفْسِها، ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآية [التوبة: ١١١] وقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الجُثُوِّ لِلرُّكَبِ في الآخِرَةِ تعريفاً[7] لهمْ وإنباءً أنهمْ يَخْتَصِمونَ يومَ القيامةِ جاثينَ لِلرُّكَبِ كما يُخْتَصَمُ في الدنيا عندَ الحكامِ والأمراءِ جاثينَ للرُّكَبِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ جُثُوَّهُمْ لِما لا تقومُ لهمُ الأقدامُ، أو لا تَحْمِلُهُمْ لِهَوْلِ ذلكَ اليومِ والحَيْرةِ فيها، فيكونونَ جاثينَ للركبِ [لا][8] يقومونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [يَحْتَمِلُ ﴿كِتَٰبِهَا﴾][9] كتابَ كلٍّ في نفسِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] ونَحْوَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الذي دُعِيَتْ إليهِ في الدنيا مِنْ نَحْوِ القرآنِ ونَحْوِهِ، فَيُقالُ: يا أهلَ الإنجيلِ، يا أهلَ التوراةِ، ونَحْوُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي إلى حسابِها الذي عَمِلَتْ في الدنيا.

وتفسيرُ ذلكَ ما ذَكَرَ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ الكتابُ الذي أضافَ إلى نفسِهِ، هو القرآنُ الذي كانَ يَنْطِقُ لهمْ بالحقِّ أي بالحقِّ الذي للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ أو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصِّدْقِ بأنهُ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بليغ. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يدفع عنها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عند القسمة. (٧) في الأصل وم: تعريف. (٨) في م: و، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ الكتابُ هو الكتابَ الذي يكونُ لكلٍّ بالانفرادِ، كَتَبَهُ لهُ الملائكةُ ممّا عَمِلَ[1] مِنْ خَيرٍ أو شرٍّ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ:

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الحَفَظَةَ تَكتُبُ أعمالَ[2] بني آدمَ، ثم يُعارِضونَ ذلكَ بِما في اللوحِ المَحفوظِ المَكتوبِ فيهِ: أنَّ فلاناً يَعمَلُ كذا وكذا، فلا يُزادُ[3] شيءٌ، ولا يُنقَصُ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][4] قريباً مِنْ هذا: إنَّ في السماءِ كتاباً، عليهِ ملائكةٌ، والملائكةُ الذينَ مع بَني آدمَ يَستَنْسِخونَ مِنْ ذلكَ الكتابِ ما يَعمَلونَ، ثم قالَ: وهل تكونُ النسخةُ إلّا مِنْ كتابٍ أو شيءٍ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: مَلَكانِ مُوكَّلانِ بالكتابةِ، يَكتُبُ كلُّ واحدٍ منهما ما يَعمَلُهُ، فإذا أرادَ أنْ يَصْعَدَ إلى السماءِ، يُعارِضُ[5] كلُّ واحدٍ منهما كتابَهُ الذي كتبَهُ مع كتابِ الآخرِ، فلا يَتخطّى حرفاً ممّا كَتَبَ هذا ما كَتَبَ الآخَرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: عَرْضُ كتابِ الناسِ الذي عَمِلوا كلَّ يومٍ أو كلَّ خميسٍ، فَيُنسَخُ منهُ الخَيرُ والشَّرُّ مِنْ غيرِ أخذٍ مِنْ كتابٍ أو نَحوِهِ، فإنهُ يجوزُ أنْ يُستَعمَلَ الانتِساخُ في ابتداءِ الكتابةِ على غيرِ أخذٍ مِنَ الكتابِ أو غيرِهِ نَحوُ أنْ يقولَ الرجلُ: استَنْسَختُهُ، أي كَتَبْتُهُ، فيكونُ كأنهُ قالَ: إنّا كنا نَستَنسِخُ، أي نَكتُبُ ما كُنتُمْ تعمَلونَ، ونُثبِتُهُ عليكُمْ مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ، فَنُخرِجُ لهمْ كُتُبَهُمْ التي فيها أعمالُهُمْ، فكانَتْ عليهمْ حجّةً، وهي التي كَتَبَتْ عليهِمُ الحَفَظَةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجاثيةُ، هي التي جَثَتْ، واجتَمَعَتْ، ويقولُ: تَجاثَينا، أي بَرَكْنا على رُكَبِنا.

وقالَ القُتَبيُّ: جاثيةٌ على الركَبِ؛ يُرادُ بها أنها غيرُ مُطْمَئِنَّةٍ، وقولُهُ تعالى: ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى حِسابِها، وقولُهُ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يريدُ أنهمْ يَقرَؤونَهُ، فَيَدُلُّهُمْ، ويُذَكِّرُهُمْ، فكأنهُ يَنطِقُ عليهِمْ، وقولُهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي نَكتُبُ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي آمَنوا بجميعِ ما كانَ عليهِ الإيمانُ بهِ والتصديقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي عَمِلوا بما فيهِ صَلاحُهُمْ وما توجِبُهُ الحكمةُ مِنَ العَمَلِ ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في جَنّتِهِ؛ سَمّى الجنةَ رحمةً لأنها تُنالُ برحمتِهِ، ويُدخَلُ فيها، أو سَمّاها رحمةً لأنها هي النهايةُ والغايةُ التي تُطلَبُ بالرحمةِ، وتُرادُ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفوزُ، هو الظَّفَرُ بما يُؤمَلُ، ويُرجى مِنَ العملِ، أو يُقالُ: الفوزُ، هو الفَلاحُ الذي لا خوفَ بَعدَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ كأنَّ فيهِ إضماراً[6] لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إنما هو إخبارٌ على المُعايَنَةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ خِطابٌ ومُشافَهَةٌ. فليسَ هو مِنْ جوابِ الأوّلِ ولا مِنْ نَوعِهِ؛ فكأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ في الدنيا فَيُقالُ لهمْ في الآخِرةِ إذا طَلَبوا الرجوعَ والإقالةَ والتَّخفيفَ ونَحوَ ذلكَ: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا؟

ثم تَحتَمِلُ آياتُهُ آياتِ وحدانيّتِهِ وألوهيّتِهِ أو آياتِ سُلطانِهِ وقُدرتِهِ على التعذيبِ أو آياتِ قدرتِه على البعثِ أو آياتِ رسالتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ لا أحَدَ يَقصِدُ قَصْدَ الاستِكبارِ على آياتِ اللهِ، لكنهمْ لمّا كَذَّبوها، ورَدُّوا آياتِهِ، ولم يَعمَلوا بها، فكأنهمُ استَكبَروا عليها، وهو كما قالَ: ﴿لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] ولا أحَدَ يَقصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ، لكنهمْ لمّا عَبَدوا الأصنامَ بأمرِ الشيطانِ فكأنهمْ عَبَدوهُ.

---

(١) في الأصل وم: عملوا. (٢) من م، في الأصل: أعمالهم. (٣) في الأصل وم: يزيد. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) في الأصل وم: فيعارض. (٦) في الأصل وم: إضمار.

جنة السنة

ويَحتمِلُ أنْ يكونوا اسْتَكبَروا على رسلِهِ، فيكونَ اسْتِكبارُهُمْ على رسلِهِ كأنهمُ اسْتَكبَروا على آياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ قيلَ: المُجْرِمُ، هو الوثّابُ في المَعْصِيةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ كانَ عندَهُمْ فيها رَيبٌ، لكنهمْ لو تأمّلوا، ونَظَروا في ما أقامَ مِنْ آياتِهِ زالَ عنهمُ الرَّيبُ الذي كانَ لهمْ فيها.

ويَحتمِلُ أنْ يُقالَ هذا على الإيقانِ إذا كانَ القائلُ بِهِ مُوقِناً، وإنْ كانَ الذي يُقالُ لهُ شاكّاً في ذلكَ، والأوّلُ أقربُ وأشبهُ.

ثم الناسُ رجلانِ في الساعةِ: [أحدُهما:][1] مُوقِنٌ بها، ومُتحقِّقٌ، ولكنْ بالعَمَلِ بها والاسْتِعدادِ لها كالظّانّ.

والثاني: ظانٌّ /٥٠٨ ـ أ/ بها، شاكٌّ فيها، جاحدٌ لها، ومُكَذِّبٌ ألّا تكونَ.

ثم الإيقانُ بالشيءِ، هو العلمُ بالأسبابِ الظاهرةِ، وقد يدخُلُ في تلكَ الأسبابِ أدْنى شُبهَةٍ وشكٍّ، لِذلكَ ذُكِرَ فيهِ الظَّنُّ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا العِلْمُ بالشيءِ فقد يكونُ بالسببِ، وقد يكونُ بالتجلّي لهُ بلا سببٍ، ولِذلكَ وُصِفَ اللهُ تعالى بالعِلْمِ، ولم يوصَفْ بالإيقانِ، ولا يُقالُ: إنهُ مُوقِنٌ لِما ذكَرْنا أنَّ أحدَهما يكونُ بأسبابٍ، والآخَرَ لا، واللهُ أعلَمُ. فَيَتمَكّنُ في الإيقانِ أدنى شُبهَةٍ وشكٍّ، وقد تُحمَلُ غالباً الأسبابُ على حقيقيةِ الأعمالِ نَحْوُ المَكروهِ، على الشَّرِّ يُحمَلُ[2] بما أُوعِدَ بِهِ بغالبِ أسبابِهِ ليسَ على الحقيقةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: بَدا لهمْ أنَّ الأعمالَ في الدنيا سَيِّئاتٌ[3] في الآخِرةِ، وتَذَكَّروا سَيِّئاتِ ما عَمِلوا في الدنيا [في الآخِرةِ][4] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نَزَلَ بهمْ، ووَجَبَ ما كانوا يَسْتَعْجِلونَ مِنَ الرسلِ، وهو العذابُ الذي كانوا يُوعِدونَهُمْ [بهِ][5] لأنهمْ كانوا يَسْتَعجِلونَ ذلكَ اسْتِهزاءً منهمْ بأنهُ غيرُ كائنٍ، ولا نازلٌ بهمْ ما كانوا يُوعِدونَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ والإشكالُ أنهمْ كيفَ يُنْسَونَ يومئذٍ؟ لأنهمْ لو كانوا يُنْسَونَ لَسَلِموا مِنَ العذابِ. لكنْ ما ذُكِرَ مِنَ النِّسيانِ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: كَنّى بالنِّسيانِ عنِ التَّركِ، يقولُ: اليومَ نَترُكُكُمْ في النارِ وفي العذابِ كما تَرَكْتُمْ أنتمُ العَمَلَ لذلكَ اليومِ والنَّظَرَ فيهِ.

والثاني: على التَّمثيلِ: نُصَيِّرُكُمْ في النارِ كالشيءِ المَنْسِيِّ، لا يُكتَرَثُ إليكُمْ، ولا يُلْتَفَتُ، ولا يُعْبَأ بكُمْ، كما صَيَّرْتُمْ أنتمْ ذلكَ اليومَ كالشيءِ المَنسِيِّ، لم تَكْتَرِثوا إليهِ، ولم تَعْنَوا لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى النارَ لهمْ مَأوًى بإزاءِ كلِّ ما افتَخَروا [بهِ][6] في الدنيا على رُسُلِ اللهِ ﷺ وأتباعِهِمْ مِنَ المنازِلِ والمراكبِ والملابسِ وغيرِ ذلكَ، وأخبَرَ أنهُ لا ناصِرَ لهمْ، يَمْلِكُ إخراجَهُمْ مِنْ تلكَ النارِ والمَأوى الذي جَعَلَ لهمْ، ولا يَقْدِرُ دَفْعَ ذلكَ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾][7] أخبَرَ أنَّ بعضَ ذلكَ الذي أصابَهُمْ، ونَزَلَ بهمْ، إنما كانَ بِما ذُكِرَ مِن اتِّخاذِهِمْ آياتِ اللهِ هُزُواً بها وسَخَراً بالرسلِ ﷺ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يعمل. (٣) في الأصل وم: أنها أسباب. (٤) في الأصل وم: والآخرة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ثم.

ثم آياتُ اللهِ تَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ آياتِ وَحْدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ وآياتِ سلطانِهِ وقُدْرتِهِ على البَعثِ أو آياتِ رسالةِ الرسولِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ مَعنى نِسبةِ التَّغريرِ إلى الحياةِ الدنيا وإضافتِهِ إليها، وإنْ لم يكُنْ منها على التحقيقِ تَغريرٌ وخِداعٌ، وهو أنهمْ إنما اغْتَرّوا بها، فَنُسِبَ فِعْلُ التغريرِ إليها، كأنها هي غرَّتْهُمْ

وقد يُنسَبُ إلى السببِ الذي بهِ صارَ ذلك، وإنْ لم يكُنْ منهُ حقيقةُ ذلكَ، نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أي يُبْصَرُ بهِ، وذلكَ كثيرٌ في اللغةِ.

أو يُقالُ: إنّ ما كانَ منها، لو كانَ ذلكَ مِمَّنْ يَحتَمِلُ التغريرَ، ويَمْلِكُ ذلكَ، كانَ تغريراً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ يُعاتَبونَ إلى أنْ يُدْخَلوا النارَ: إنكمْ فَعَلْتُمْ كذا، وتَرَكْتُمْ كذا، ولِمَ فَعَلْتُمْ كذا؟ فإذا أُدْخِلوا النارَ يُتْرَكُ العتابُ، ويُجعَلُ كالشيءِ المَنْسيِّ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يُسْتَرْجَعونَ إلى ما يَطلبونَ مِنَ العَودِ والرجوعِ إلى العَمَلِ الصالحِ لقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ الآية [فاطر: ٣٧].

ثم في قولِهِ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ وقولِهِ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ﴾ الآية [الكهف: ٥٣] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] دلالةٌ ألّا يَجِبَ أنْ يُفْهَمَ على ظاهِرِ ما خَرَجَ الخِطابُ أنهُ ذُكِرَ الظَّنُّ في المؤمنينَ، والمُرادُ بهِ الإيقانُ لا ظاهرُ الظَّنِّ، وذُكِرَ في الكافرينَ الظَّنُّ، وأُريدَ بهِ الحقيقةُ.

ولا يجوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنَ الظَّنِّ في الفريقَينِ مَعْنًى واحدٌ، بل يُفْهَمُ مِنْ هذا غَيرُ الذي فُهِمَ مِنَ الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنَّ جميعَ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ الحمدِ لهُ فإنما ذُكِرَ لأحدِ شيئَينِ:

أحدُهما: لِما يَستَحِقُّ مِنَ الثناءِ بِتَعاليهِ على جميعِ مَعاني الخَلْقِ وأوصافِهِمْ.

والثاني: لِما يَستَحِقُّ مِنَ الثناءِ عليهِمْ مِنَ النِّعَمِ والإحسانِ الذي منهُ إليهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] وقالَ[1]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] ونَحْوُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وأصلٌ آخَرُ: أنهُ إذا أُضيفَتْ كُلِّيَّةُ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى ففيهِ وصفٌ لهُ بالعَظَمَةِ والجلالِ، وإذا أُضيفَتْ جُزْئِيَّةُ الأشياءِ وخاصِّيَّتُها[2]، فإنما فيه تعظيمُ تلكَ الخاصِّيَّةِ المُضافةِ إليهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ إضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ والخاصِّيَّةِ والجُزْئِيَّةِ: فيهِ[3] الأمرانِ جميعاً:

فإنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ إضافةُ جُزْئِيَّةِ الأشياءِ إليهِ وخاصِّيَّتِها[4]. وقولَهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ، واللهُ أعلَمُ. وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ الرَّبِّ في غيرِ مَوضعٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ولهُ الوَصْفُ بالكبرياءِ والعظمةِ، وعلى[5] أهلِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ: أنْ يَصِفوهُ بالكبرياءِ والعظمةِ.

[والثاني][6]: مِن حقِّهِ على أهلِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ أنْ يَصِفوهُ بالكبرياءِ والعظمةِ والجَلالِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: وخاصيته. (٣) في الأصل وم: ففيه. (٤) في الأصل وم: وخاصيته. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو العزيزُ الذي لا يَلْحَقُهُ الذُّلُّ بِخلافِ الخَلْقِ ولا بِعِصْيانِهِمْ، أو هو العزيزُ بِما بِهِ يَتَعَزَّزُ مَنِ اعْتَزَّ دونَهُ ومَنْ وُصِفَ بِعِزٍّ دونَهُ، فذلكَ راجعٌ في الحقيقةِ إليهِ. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي وَضَعَ كلَّ شيءٍ موضِعَهُ، أو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التدبير. واللهُ الموفِّقُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، [والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][1].

(١) ساقطة من م.

سورة[1] الأحقاف

[وهي][2] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قد ذكَرْنا تأويلَهُ في ما تقدّمَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ /٥٠٨ ـ ب/ قولُهُ ﷺ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينَهما إلّا بالحقِّ الذي صارَ إنشاءُ ذلكَ وخَلْقُهُ حكمةً، لأنهُ لو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّ أولئكَ الكَفَرَةُ، وتوَهَّمُوا بأنْ لا بَعْثَ، ولا جزاءَ مِنْ ثوابٍ أو عقابٍ كانَ إنشاءُ ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وخَلْقُ ذلكَ كلِّهِ عَبَثاً باطلاً على ما تقدَّمَ ذكرُهُ في غيرِ موضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [يَحتَمِلُ: ﴿عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾][3] [وجوهاً]:

أحدُها[4]: بما ألْزَمَهُمْ مِنَ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ في ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما أنشأَ فيهما مِنَ المَنافعِ، وجَعَلَ ذلكَ لهمْ آيةً، لم يَفْعَلْ ذلكَ كلَّهُ عَبَثاً باطلاً، ولكنْ لِعاقبةٍ تُقْصَدُ ولأمرٍ يُرادُ؛ إذْ عَرَفوا بعقولِهِمْ أنهُ لا يجوزُ خَلْقُ الخَلْقِ على أنْ يُهْمَلوا، ويُترَكوا سُدًى، لا يُؤمَرونَ، ولا يُنهَونَ، ولا يُمتَحَنونَ[5]، فأعْرَضوا عمّا ألْزَمَهُمْ مِنَ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ في ذلكَ، فهمْ مُعْرِضونَ إعراضَ تَرْكِ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: بما أُنذِروا بما نَزَلَ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ مُكَذِّبي الرسلِ عليهم السلام.

[والثالثُ][6]: بما أُنذِروا، وأوعَدَهُمْ[7] مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ.

فهمْ مُعْرِضونَ عنْ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ كلُّهُ موصولاً بَعضُهُ بِبَعضٍ، ويَحتَمِلُ أن يكونَ بَعضُهُ مَفصولاً عنْ بعضٍ.

فإنْ كانَ على الوَصْلِ فكأنهُ يقولُ: أرأيتُمْ ما تَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ، وتَدْعونها آلهةً، هل خَلَقوا ممّا [خَلَقَ اللهُ][8] لكُمْ مِنَ المَنافعِ وممّا بهِ حياتُكُمْ وقِوامُكُمْ ومَعاشُكُمْ ممّا تُخرِجُ الأرضُ؟ أو هل يُنزِلُونَ لكمْ مِنَ المنافعِ التي جَعَلَها[9] لكمْ في السماءِ مِنَ الأمطارِ وغيرِها؟ أو هل أتاكُمْ كتابٌ مِنْ عندِ اللهِ، فيهِ أنهُ أمَرَكُمْ بعبادةِ مَنْ تَعْبُدونَهُ؟

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أوْ جاءَكُمْ مِنَ الحكماءِ الأوّلينَ المُتَقَدِّمينَ كتابٌ أو قولٌ فيهِ الأمرُ بذلكَ؟

[والثاني: أوِ استَخْرَجْتُمْ][11] مِنَ العلومِ ذلكَ، فَقُلْتُمْ بهِ؟

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما أي. (٥) في الأصل وم: يمتحنهم. (٦) في الأصل وم: والثاني. (٧) في الأصل وم: وأوعدلهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: جعل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: واستخرجتم.

جنة السنة

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الأسبابَ التي تَحمِلُ الناسَ على العبادةِ والخدمةِ لهمْ [في][1] هذهِ الوجوهِ: إمّا مَنافعُ تتَّصِلُ بهِمْ منهمْ مِمّا بهِ قِوامُهُمْ ومَعاشُهُمْ وحياتُهُمْ، وإمّا كتابٌ مِنَ اللهِ تعالى، فيه حُجَّةٌ لهمْ وأمرٌ لهمْ بذلكَ [وإمّا][2] كتابٌ مِنَ الحكماءِ والرسلِ [يأمرونَهُمْ فيهِ][3] وهُمْ قومٌ لا يؤمنونَ بالرسلِ ولا بالكتابِ، وليسَتْ لهمْ علومٌ مُسْتَخرَجَةٌ مِنَ العلومِ.

يقولُ: ليسَ لكمْ مِمّا ذَكَرَ مِنَ الأسبابِ والعلومِ بما عَبَدْتُموها، فكيفَ اختَرْتُمْ عبادتَها على عبادةِ مَنْ عَرَفْتُمْ أنَّ ما بهِ قِوامُكُمْ وحياتُكُمْ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ [بَعْضُهُ][4] مَفصولاً مِنْ بعضٍ فيكونُ كأنهُ يقولُ: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ المنافعِ وغَيرِها ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ في ما ذَكَرَ. فإنْ قالوا: قد خلَقوا ما ذَكَرَ، ولهمْ شِرْكٌ في ما ذَكَرَ فَقُلْ لهمْ: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ مِنْ كتبِ الحكماءِ أو العلومِ المُسْتَخرَجةِ مِنَ العلومِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهمْ خَلَقوا ما ذَكَرْتُمْ، أو لهمْ شِرْكٌ في ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقد عَلِموا أنهمْ لا يَقْدِرونَ أنْ يُرُوهُ[5] ما ذَكَرَ لِما لم يَكُنْ لهمْ مِنْ هذهِ الأسبابِ شيءٌ؛ إذْ هي أسبابُ العِلْمِ، وقد عَجِزوا عنْ ذلكَ كلِّهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أو خاصّةٍ مِنْ عِلْمٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أو بَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمِ أوائلِهِمْ، وهو قولُ القُتَبِيِّ: أي بَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمٍ، يُؤثَرُ عنِ الأوّلينَ. ويُقرأُ: أَثَرَةٍ[6] وأَثارةٍ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا مِنَ الوجهَينِ: أحَدُهما: كتابُ الحكماءِ والرسلِ ﷺ.

والثاني: العلومُ المُسْتَخرَجةُ مِنْ سائرِ العلومِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ هو الخَطُّ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

وذُكِرَ عنِ النبيِّ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «كانَ نَبيٌّ مِنَ الأنبياءِ ﷺ يَخُطُّ فَمَنْ صادَفَ مثلَ خَطِّهِ عَلِمَ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٤٣٤].

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي قديمٍ مِنْ عِلْمٍ؛ قالَ: ذو[8] الأثارةِ الشَّحْمُ القديمُ. وقيلَ: أثارةٍ مِنْ عِلْمٍ، أي روايةٍ عنِ الأنبياءِ ﷺ.

الآية ٥ ثم ذَكَرَ سَفَهَهُمْ، وبيَّنَ نِهايةَ تَعَنُّتِهِمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:][9] لأنهُ لا يَملِكُ إجابتَهُ، ولا يَحتَمِلُ ذلكَ.

والثاني: ﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ثم إجابتُهُ يومَ القيامةِ إجابةٌ باللَّعْنِ والتَّبَرّي كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ تَبَرّي بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ ولَعْنِ بعضِهِمْ بعضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ لم يكُنْ منهمْ لهمْ أمرٌ بذلكَ ولا دُعاءٌ ولا شيءٌ مِنْ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ يَصيرُ بعضُهُمْ لبعضٍ أعداءً، يَتَبَرَّؤونَ منهمْ، ويَلعَنونَهُمْ، ويَكفُرونَ بِعبادتِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: يأمرون لهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يرونه.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٦١ و/ ١٦٢. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ذا. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أنها منَ اللهِ تعالى، أو ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ تُبيِّنُ ما لهمْ وما عليهمْ[1] وما لبعضٍ على بعضٍ وما للهِ عليهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الحقُّ الذي قالوا: إنهُ سِحْرٌ، هو تلكَ الآياتُ البيِّناتُ التي ذَكَرَ أنها بُيِّنَتْ عليهمْ [لمّا قالوا][2]: إنها سِحْرٌ.

ودَلَّ قولُهُمْ: إنها سِحْرٌ على أنها كانتْ مُعْجِزاتٍ خارجاتٍ عنْ وُسْعِهِمْ حينَ[3] نَسَبوها إلى السِّحْرِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ هذا حَرْفُ المُنابَذَةِ؛ يقولُ: إنِ افْتَرَيْتُهُ فلا تَمْلِكونَ أنتمْ دفعَ عقوبةِ ذلكَ الافتراءِ عنْ نفسي، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ [هود: ٣٥] يقولُ: عليَّ إثْمُ ذلكَ وجُرْمُهُ. وإنما يُقالُ هذا عندَ انْتِهاءِ الحُجَجِ والبراهينِ غايَتَها حتى لا يُقْطَعَ منهمُ القَبولُ والنُّجْعُ فيهمْ، ويُيْأسَ منهمْ. فعندَ ذلكَ يُقالُ ذلكَ، ويُنابَذُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي بِما تَخوضونَ فيهِ، يقولُ هذا، ويَذْكُرُ لئلا يقولوا، ولا يَدَّعوا غَفْلَتَهُ عنْ ذلكَ، بلْ يُذَكِّرُهُمْ أنهُ كانَ عالماً بما يُسِرّونَ، ويُعْلِنونَ.

وقيلَ: ﴿تُفِيضُونَ﴾ مِنْ قولِهِمْ: أفاضوا إذا عَلِموا، وتَحَدَّثوا، وهو قولُ القُتَبيِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي يَشْهَدونَ في الآخِرَةِ أنهُ قد بَلَّغَ رسالتَهُ.

والثاني: أي كَفَى بهِ شَهيداً بيني وبينَكُمْ في الدنيا بِما عَلِمَ ما كانَ منكُمْ مِنَ الشِّرْكِ والتكذيبِ ومنّي مِنَ التبليغِ، فهو شاهدٌ بما كانَ منّي ومنكُمْ في الدنيا منْ سِرٍّ وعلانِيَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذُكِرَ هذا في هذا المَوضِعِ على إثْرِ ما ذُكِرَ مِنْ غايةِ سَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ يقولُ: إنكُمْ وإنْ بَلَغْتُمْ في السَّفَهِ ما بَلَغْتُمْ، فإنكُمْ إذا رَجَعْتُمْ عنْ ذلكَ، وتُبْتُمْ، يَغْفِرُ لكمْ ما كانَ منكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥] إنهُ كانَ على حقيقةِ العبادةِ فهو صِلَةُ قولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآيةَ [الأحقاف: ٤] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ومَنْ أضَلُّ /٥٠٩ ـ أ/ مِمَّنْ يَعْبُدُ مَنْ لا يَمْلِكُ ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الأرضِ، ولهُ[4] شريكٌ في السمواتِ ومِمَّنْ[5] تَرَكَ عبادةَ مَنْ خَلَقَ السمواتِ وخَلَقَ الأرضَ، وشَهِدَ كلُّ شيءٍ لهُ بذلكَ، وأتى بالحُجَجِ والبراهينِ على ذلكَ، أي لا أحَدَ أضَلُّ مِمَّنْ تَرَكَ عبادةَ مَنْ هذا وَصْفُهُ، وصَرَفَ العبادةَ إلى الذي لا يَمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ على الدعاءِ نفسِهِ فهو صِلَةُ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] أي ومَنْ أضَلُّ مِمَّنْ يَدْعو مِنْ دونَ اللهِ: مَنْ لا يَمْلِكُ إجابتَهُ، ويَسْمَعُ دعاءَهُ، ويَقْدِرُ على قضاءِ ما يَدْعونَ، ويَسْألونَ، أي لا أحَدَ أضَلُّ مِمَّنِ اخْتارَ دعاءَ مَنْ لا يَمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ كلِّهِ. يُسَفِّهُهُمْ في صَنيعِهِمْ واختيارِهِمْ ما اختاروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ كانَ هذا إنما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ، لإنكارِ أهلِ مكةَ الرسلَ مِنَ البَشَرِ واسْتِعْظامِهِمْ وَضْعَ الرسالةِ فيهِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي لستُ أنا بأوَّلِ رسولٍ منَ البشرِ، بل لم يَزَلِ الرسلُ مِنْ قَبْلُ[6] مِنَ البشرِ في آفاقِ الأرضِ وأطرافِها، فما بالُكُمْ تُنْكِرونَ رسالتي، وإنْ كنتُ مِنَ البشرِ، وتَسْتَعْظِمونَها، وسائرُ الرسلِ الذينَ مِنْ قَبْلي كانوا مِنَ البشرِ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: مما لهم. (٢) في الأصل وم: قالوا لها. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ولا له. (٥) في الأصل وم: وما ذكر. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: كانت.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ أي ما أنا بأوَّلِهِمْ، قد أُرسِلَ قبلي. وقالَ القُتَبِيُّ: وما كُنتُ بَدْءاً منهمْ، ولا [أوّلاً][1].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُهما: أي ما كنتُ أدري قَبْلَ ذلكَ ما يُفعَلُ بي ولا بكُمْ؛ أُختَصُّ لِلرِّسالةِ، وأُختارُ لها، وأُبعَثُ إليكُمْ، وتُلزَمونَ أنتمْ اتِّباعي والإجابَةَ إلى ما أدْعوكُمْ، إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ مِنْ إخراجٍ مِنْ بَينِ أظهُرِكُمْ وإهلاكِكُمْ كما فُعِلَ بالرسلِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ وأقوامِهِمْ؛ أُمِروا بالخروجِ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ، ثم [ما][2] يُعقِبُ ذلكَ [مِن][3] استِئصالِ قومِهِمْ، أي ما أدري أيُفعَلُ بي وبكُمْ ما ذَكَرْنا كما فُعِلَ بِمَنْ تَقَدَّمَنا مِنَ الرسلِ وأقوامِهِمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ مَخافةَ التَّغْييرِ عليهِ وتَبْديلِ الحالِ، ولم يَزَلِ الرسلُ ﷺ يَخافونَ تغييرَ الأحوالِ عليهِمْ وذهابَ ما اختَصُّوا هُمْ بهِ كقولِ إبراهيمَ ﷺ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقولِ[4] شُعيبٍ ﷺ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] وما ذَكَرَ في سورةِ يوسفَ ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية [الآية: ٧٦] وقولِ يوسفَ ﷺ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ١٠١] وقولِ يعقوبَ ﷺ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «يا مُقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنا على طاعتِكَ» [بنحوه أحمد ٢/٤١٨] لم تَزَلْ [كما][5] كانتِ الرسلُ ﷺ على خَوفٍ مِنْ تغْييرِ الأحوالِ التي كانوا عليها.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أتَغَيَّرُ عليَّ وعليكُمُ الأحوالُ التي نَحْنُ عليها اليومَ، أم نُترَكُ على ذلكَ؟ وحقيقةُ هذا الكلامِ على الاِستِقْصاءِ قد مَرَّتْ، واللهُ أعلَمُ.

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ أهلَ مكةَ كانوا يُؤذونَ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، بأنواعِ الأذِيَّةِ، فَشَكَوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ بما كانوا يَلْقَونَ منهمْ، فقالَ: إني لم أُؤْمَرْ بشيءٍ فيهمْ مِنَ القتالِ وغيرِهِ، فاصْبِروا على ذلكَ، ولكني رأيتُ في المَنامِ أنْ أُهاجِرَ إلى أرضٍ أُخرَى ذاتِ كذا، فاستَبْشَروا بذلكَ، ومَكَثوا بَعْدَ ذلكَ زماناً، لا يَرَونَ شيئاً ممّا ذُكِرَ، فَشَكَوا إليهِ ثانياً بما يَلْقَونَ منهمْ، وقالوا: ما نَرَى ما قُلْتَ لنا مِنَ الخروجِ عنهمْ؟ فقالَ: إنما رأيتُ ذلكَ في المَنامِ، ولم يأتِ بهِ وَحْيٌ مِنَ السماءِ أيكونُ ذلكَ أم لا؟ أو نَحْوَ ذلكَ مِنَ الكلامِ.

وهذا لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ لأنهُ[6] لا يُظَنُّ بأصحابِهِ ﷺ أنْ يقولوا لهُ: ما نَرَى الذي قُلْتَ لنا مِنَ الخُروجِ عنهمْ، وفي ذلكَ اتِّهامُهُ بذلكَ وتَرْكُ تعظيمِهِ، ولا نَظُنُّ بالنبيِّ ﷺ أنْ يقولَ لهمْ: أنا رأيتُ ذلكَ في المنامِ، ولم يأتِ بهِ وَحْيٌ مِنَ السماءِ جواباً لِقولِهِمْ، ورُؤيا الأنبياءِ ﷺ كالوَحْيِ مِنَ السماءِ. دلَّ أنَّ هذا لا يُحتَمَلُ أنْ [يَصِحَّ][7] ويَثْبُتَ، واللهُ أعلَمُ. لكنهُ[8] جائزٌ بعضُ ما ذُكِرَ في القصةِ مِنَ الشكايةِ منهمْ مِنَ الأذى والوعدِ لهمْ بالخُروجِ مِنْ بَينِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. والوجوهُ التي ذَكَرْنا أشبهُ وأقرَبُ إلى العقلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الآية. قالَ بعضُهُمْ: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ سلامٍ آمَنَ برسولِ اللهِ ﷺ وشَهِدَ أنهُ رسولُ اللهِ، وشَهِدَ [بِمِثْلِ ذلكَ][9] ابنُ يامينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: شَهِدَ ابنُ يامينَ أوّلاً أنهُ رسولٌ، وآمَنَ بهِ، وصَدَّقَهُ، ثم شَهِدَ بِمِثْلِهِ ابنُ سَلامٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: أما. (٩) من م، في الأصل: أنه رسول الله.

جنة السنة

والأشبهُ في هذا أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ التوراةُ أو موسى ﷺ على ذلك بقولِهِ(١) تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢] شَهِدَ كتابُ رسولِ اللهِ ورسولُهُ ﷺ واللهُ أعلَمُ ولأنَّ عبدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ إنما أسْلَمَ بالمدينةِ وكذلكَ ابْنُ يامينَ، وهذهِ السورةُ مكيةٌ. لكنهمْ يقولونَ: هذهِ السورة مكيّةٌ إلّا هذهِ الآياتِ الثلاثَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا القولُ مِنَ الأجِلّةِ والرؤساءِ منهمُ الذينَ كانَ منهمْ صِلَةُ الأرحامِ وأنواعُ الخيراتِ والأعمالُ الصالحةِ؛ قالوا: إنّا سَبَقْناهُمْ في الخَيراتِ سِوَى ذلكَ. فلو كانَ ذلكَ الذي تَدعونا إليهِ خيراً ما سَبقونا إليهِ كما لم يَسْبِقونا إلى سائِرِ الخيراتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي وإذْ لم يَهْتَدوا بهِ هُمْ مِنْ بَيْنِنا فَسيَقولونَ: هذا القرآنُ إفكٌ قديمٌ أي كَذِبٌ قديمٌ. فكأنَّ قولَهُمْ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ بِحقِّ الاحْتِجاجِ، وقولَهُمْ: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ تكذيبٌ منهم وردٌّ لذلكَ.

ثم قولُهُ: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ يقولونَ، واللهُ أعلَمُ: لم يَزَلْ مَنِ ادَّعَى(٢) الرسالةَ يَدَّعي على اللهِ ما يَدَّعي محمدٌ ﷺ مِنْ إنزالِ الكُتُبِ عليهِمْ وبَعْثِهِ إيّاهُمْ رُسُلاً(٣) إلى الناسِ، يُطْلِعونَ الرسالةَ لَهُمْ عليهِمْ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي إماماً يُقْتَدَى بهِ ورحمةً لِمَنِ اتَّبَعَهُ في دَفْعِ العذابِ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ ذَكَرَ هٰهنا ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ ولم يَذْكُرْ أنهُ مُصَدِّقٌ لماذا؟ لكنْ قد ذَكَرَ في غَيرِ آيةٍ(٤) مِنَ القرآنِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَحْتَمِلُ أي مُوافِقاً لِما لم يُحرَّفْ، ولم يُغَيَّرْ مِنْ تلكَ الكُتُبِ، لأنَّ تلكَ الكُتُبَ قد حَرَّفوها، وغَيَّروها، ولم يُغَيَّرْ، ولم يُحرَّفْ هذا الكتابُ، وقد حَفِظَهُ اللهُ تعالى ﷻ مِنَ التَّبْديلِ والتَّغْييرِ؛ فهو مُصَدِّقٌ مُوافِقٌ لِما لم يُغَيَّرْ، ولم يُحرَّفْ مِنْ تلكَ الكُتُبِ /٥٠٩ ـ ب/ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنْزَلَهُ بلسانٍ عربيٍّ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يأخُذْهُ محمدٌ ﷺ مِنْ تلكَ الكتبِ لأنَّ تلكَ الكتبَ كانَتْ على غَيرِ لسانِ العربِ، ولسانُهُ عربيٌّ، ولكنْ جاءَ مِنَ اللهِ تعالى بلسانِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فَمَنْ قَرَأَ لِتُنْذِرَ(٥) بالتاءِ فتأويلُهُ لِتُنْذِرَ يا محمدُ الذينَ ظَلَموا، ومَنْ قَرَأَ بالياءِ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي لِيُنْذِرَهُمُ القرآنُ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ تَفْسيرَ النِّذارةِ والبِشارةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ الاسْتِقامةُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على ذلكَ القولِ الذي قالوا، وثَبَتوا على ذلكَ، ولم تَتَغَيَّرْ، ولم تَتَبَدَّلْ حالَتُهُمْ تلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ بحقِّ الوفاءِ بالعملِ بما أعْطَوا بِلِسانِهِمْ وقلوبِهِمْ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الآية ١٤ [وقولُهُ تعالى:](٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقد ذَكَرْناهُ في غَيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ جَعَلَ ذلكَ لهمْ جزاءَ أعمالِهِمْ بِفَضلِهِ ورحمتِهِ، لا أنهمْ يَسْتوجِبونَ ذلكَ بِنَفْسِ عَمَلِهِمْ، ولكنْ بالتَّفَضُّلِ والرحمةِ. وذَكَرَ جزاءَهُ الأعمالَ فَضْلاً منهُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ وحَسناً(٧)؛ كأنهُ قالَ: أمَرْنا الإنسانَ أنْ يُحْسِنَ إلى والديهِ فالحَسَنُ هو اسْمُ ما يَقَعُ بهما مِنَ البِرِّ، وهو المَفْعولُ. والإحسانُ هو اسْمُ فِعْلِهِ الذي يَفْعَلُ بهما.

---

(١) في الأصل وم: كقوله. (٢) من م، في الأصل: الدعي. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ابن سلام. (٤) في الأصل وم: آي. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٦٤. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٦٥.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي أنها في أوّلِ ما حمَلَتْهُ [كانَ][2] حَمْلاً خفيفاً، فلمّا كَبِرَ ﴿أَثْقَلَت﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وهو وَصْفُ الولدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ وذلكَ في الأمِّ لأنها لا تزالُ تَضعُفُ، وتَهِنُ، مِن أوّلِ ما حمَلَتْ إلى آخِرِ ما وضَعَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما:][3] في أوّلِ ما تَحمِلُ تَجِدُ كَراهةً في نفسِها إلى وَقْتِ وَضعِها.

والثاني: يُشبِهُ أنْ يكونَ على الجَمعِ في الأمِّ دونَ الوَلَدِ على اختِلافِ الأحوالِ، وهو في الابتِداءِ يَخِفُّ عليها الحَمْلُ، ويَثقُلُ ذلكَ عليها إذا دَنا وقتُ وَضعِها، وما ذُكِرَ مِنَ الوَهْنِ فهو ما ذَكَرْنا أنها لا تزالُ تَزدادُ ضَعفاً فيها وَوَهْناً مِن أوّلِ حَملِها إلى وَقْتِ وَضعِها.

وما ذُكِرَ مِنَ الكَراهةِ فهو إذا تَمَّ حَمْلُها شَقَّ ذلكَ عليها، وكذلكَ الوَضعُ، لا شَكَّ أنَّ ذلكَ يَشُقُّ عليها.

والتأويلُ الأوّلُ على التَّفريقِ: في حالٍ يَرْجِعُ الوَصْفُ إلى الوَلَدِ، وفي حالٍ إلى الوالدةِ.

[وعلى التأويلِ][4] الثاني: يَرْجِعُ ذلكَ كلُّهُ[5] إلى وَصْفِ الأمِّ.

وعلى التأويلَينِ حَصَلَ التوفيقُ بينَ الآياتِ لِرُجوعِها إلى اختِلافِ الأحوالِ، فأمْكَنَ الجَمْعُ بَينَ الكلِّ في أحوالٍ. والاختِلافُ إنما يكونُ في حالٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُم: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي بمشقّةٍ ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ووضَعَتْهُ بمشَقّةٍ، ثم وضَعَتْهُ على تمامِ ستّةِ أشهرٍ.

وقالَ بعضُهُم: الآيةُ نَزَلَتْ في الحَسَنِ والحُسَينِ ﷺ: وَوَضَعَتْهُ على ما ذُكِرَ في المدةِ.

ثم منهُم مَنْ يقولُ: الآيةُ، وإنْ نَزَلَتْ في نازلةٍ بِعَينِها، لكنْ ما ذُكِرَ مِنَ الحُكْمِ فذلكَ في كلِّ إنسانٍ، وهو أنْ يكونَ الولدُ ثابتَ النَّسَبِ مِنَ الأبِ بهذهِ المدةِ.

فإنهُ يُروَى عن عُمَرَ ﷺ أنهُ أُتِيَ بامرأةٍ، وَضَعَتْ في ستةِ أشهُرٍ، فأرادَ أنْ يَرْجُمَها، فقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ اللهَ تعالى قد جَعَلَ لها في كتابِهِ مَخرَجاً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقالَ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ ستّةُ أشهرٍ حَمْلُها، ورَضاعُهُ سَنتانِ[6]، فأخَذَ بقولِ ابنِ عباسٍ ﷺ ودَرَأَ عنها الرَّجْمَ.

وكذلكَ رُوِيَ عن عثمانَ ﷺ أنهُ أُتِيَ بامرأةٍ وَضَعَتْ لِستّةِ أشهرٍ، فَهَمَّ أنْ يَرْجُمَها، فقالَ لهُ ابنُ عباسٍ ﷺ: أمَا إنها لو خاصَمَتْكُم بكتابِ اللهِ خَصَمَتْكُمْ، ثم تَلاَ هذهِ الآيةَ.

وكذلكَ ذُكِرَ عن عليٍّ ﷺ [أنَّ عثمانَ ﷺ][7] لمّا أمَرَ برجمِ المرأةِ التي وضَعَتْ لستةِ أشهرٍ سَمِعَ[8] عليٌّ ﷺ فأتى عثمانَ ﷺ فقالَ لهُ: ما صَنَعْتَ؟ فقالَ لهُ عثمانُ ﷺ: وهلْ تَلِدُ المرأةُ الولَدَ التامَّ لستةِ أشهرٍ؟ قالَ نعمْ، ثم تَلاَ عليهِ هذه الآيةَ.

فهؤلاءِ الصحابةُ ﷺ قد رَأَوْا الآيةَ في كلِّ امرأةٍ وَضَعَتْ لتلكَ المدةِ في حقِّ ذلكَ الحُكْمِ الذي ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: كل. (٦) في الأصل وم: ستتين. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فسمع.

جنة السنة

ثم رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][(١)] قال: إذا [وَضَعَتِ المرأةُ لستةِ أشهرٍ][(٢)] أرْضَعَتْهُ حولَينِ كامِلَينِ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وإذا وَضَعَت لِسبعةِ أشهرٍ أرْضَعَتْهُ ثلاثةً وعشرينَ شهراً، وإذا وضَعَتْهُ لِتِسعةِ أشهرٍ أرضَعَتْهُ أحداً وعشرينَ شهراً. فعَلَى قياسِ هذا جائزٌ أنها [إذا][(٣)] وَضَعَتْهُ لِسَنَتَينِ يكفيهِ[(٤)] رَضاعُ ستةِ أشهرٍ، يَزدادُ، ويَنْقُصُ على ذلكَ القَدْرِ.

ألا تَرى أنهُ رُوِيَ أنَّ المرأةَ التي حَمَلَتْ سَنَتَينِ وَلَدَتْ، وقد نَبَتَتْ لهُ ثَنِيَّتانِ؟ فَمِثْلُ هذا الولدِ لا يَحتاجُ مِنَ الرَّضاعِ ما يَحتاجُ الذي وُلِدَ لِستةِ أشهرٍ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

ثم إذا احْتَمَلَ النُّقصانُ عنِ الحَولَينِ لِما ذَكَرْنا جازَتِ الزيادةُ على الحَولَينِ على ما قالَ أبو حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، لأنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الحَولَينِ إنما هو رَضاعُ أقلِّ الحَمْلِ، وهو ستةُ أشهرٍ، لأنَّ الذي وُلِدَ لِستةِ أشهرٍ كانَ إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ أبْعَدَ مِنَ الذي وُلِدَ لِتسعةِ أشهرٍ لِضَعْفِهِ في نفسِهِ، والذي وُلِدَ لِتِسعةِ أشهرٍ فهو إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ أقربُ منهُ، والذي وُلِدَ لِسَنَتَينِ هو أقْرَبُ إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ مِنَ المولودِ لِتِسعةِ أشهرٍ لِضَعْفِهِ في نفسِهِ، والذي وُلِدَ لِتِسعةِ أشهرٍ فهو إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ أقربُ منهُ، والذي وُلِدَ لِسَنَتَينِ هو أقْرَبُ إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ مِنَ المولودِ لِتِسعةِ أشهرٍ لِقُوَّتِهِ وقِلَّةِ حاجَتِهِ إلى الغذاءِ باللبنِ.

فإذا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] هو أقلُّ رَضاعٍ، يكونُ، لأنهُ ذَكَرَ للمولودِ لأقلِّ الحملِ حينَ[(٥)] قالَ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. ثم قالَ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

فإذا كانَ أقلُّ احتِمالِ الزيادةِ التي ذَكَرَ أبو حنيفةَ، وهو ستةُ أشهرٍ على السنَتَينِ كما يَصيرُ رضاعُ أكثرِ الحملِ ستةَ أشهرٍ، اعْتُبِرَ[(٦)] في البابِ إلى قوةِ الولدِ وضَعْفِهِ واحتِمالِ الغذاءِ بالطعامِ وعَدَمِ الاحتِمالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دَلَّتْ هذهِ الآيةُ على أنَّ الآيةَ التي ذَكَرْنا نَزَلَتْ في نازلةٍ حينَ[(٧)] أخبَرَ أنهُ إذا بَلَغَ ذلك المَبْلَغَ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ﴾ الآيةَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ذَكَرَ أوّلَ ما يَشْتَدُّ عقلُهُ، ويدخُلُ في القوةِ إلى الوقتِ الذي يكونُ على الزيادةِ، فإذا جاوَزَ ذلكَ الوقتَ يأخُذُ في الانْتِقاصِ، وهو أربعونَ سنةً.

وقالَ أهلُ التأويلِ: بلوغُ الأشُدِّ هو ثماني عشرةَ سنةً إلى أربعينَ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُ أوّلُ وَقْتِ دخولِهِ في الزيادةِ والقوةِ إلى الوقتِ الذي إذا بَلَغَ ذلكَ يأخُذُ بالنُّقصانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ /٥١٠ ـ أ/ على أنَّ على الرجلِ شُكْرَ ما أنْعَمَ على والديهِ وأحسَنَ إليهما كما يُلْزِمُهُ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِ لِمَا يكونُ بَدْءُ إسلامِ الأولادِ الصغارِ بالوالدَينِ وما لهما مِنَ النِّعَمِ يَصِلُ نَفعُها إليهِمْ، فَيَلْزَمُهُمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ بالإيمانِ والنِّعَمِ في وَقْتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ هذا على كلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَدْعُوَ بِمِثْلِ هذا الدعاءِ؛ يَسْألُ ربَّهُ التوفيقَ على عملٍ صالحٍ يَرْضاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ[(٨)]:

أحَدُهما: أي أصْلِحْ لي ذُرِّيَتي، على طَرْحِ حَرْفِ ﴿فِى﴾ منهُ كقولِهِ: ﴿هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] وقولِهِ عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِى﴾ [مريم: ٥ و٦] واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ ألْهِمْني.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتَزِلةِ لأنهُ سألَ ربَّهُ أنْ يُوزِعَهُ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِ، ومِنْ قولِهِمْ: أنْ ليسَ على المرءِ الشُّكرُ إلّا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن يكفي. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: واعتبر. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) سقط الوجه الثاني من الأصل وم ونسخة الحرم المكي.

جنة السنة

بَعدَ إعطاءِ جميعِ ما بهِ يَشكُرُ حتى لا يَبْقى عندَهُ مزيدٌ، فيكونُ مِثْلُ هذا الدعاءِ لَعِباً وهُزْءاً، على قولِهِم لأنهمْ يَسألونَ ما يَعْلَمونَ أنْ ليسَ عندَهُ ذلكَ وأنهُ لا يَمْلِكُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

ومِنْ قولِهِمْ: أنْ ليسَ عندَهُ ما يُغيثُهُمْ، فَيَخْرُجُ دعاؤهُمْ على ما ذَكَرْنا على مذهبِهِمْ، وباللهِ العصمةُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ كانَ لهمْ أعمالٌ[1] حَسَناتٌ وسَيِّئاتٌ، وأخبَرَ أنهُ يَتَقَبَّلُ عنهمْ حسناتِهِمْ، ويَجْزيهِمْ جزاءَها، ويَتَجاوزُ عنْ سَيِّئاتِهِمْ، ويُكَفِّرُها، ولا يَجْزيهِمْ جزاءَها فضلاً منهُ ورحمةً. والمُرادُ مِنَ الأحسنِ الحَسَنُ، ويجوزُ ذلكَ في اللغةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي ذلكَ الذي أخبَرَ، وذَكَرَ أنهُ يَفْعَلُ لهمْ، هو وَعْدُ الصدقِ [الذي يَفي][2] لهمْ، وهو[3] قادرٌ على وفاءِ ما وَعَدَ.

ومَنْ يكونُ منهُ الخُلْفُ في الوَعْدِ في الشاهدِ إنما يكونُ لأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا لِعَجْزٍ يَمْنَعُهُ عن وفاءِ ما وَعَدَ، [وإمّا لجهلٍ][4] وبَدْوٍ يَبدو لهُ، فَيَرْجِعُ عنْ ذلكَ، [وإمّا لِحاجةٍ][5] واللهُ ﷻ يَتعالى عنْ ذلكَ كلِّهِ للقدرةِ الذاتيّةِ والغِنى الذاتيِّ والعِلْمِ الأزَليِّ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. خَرَّجَ أهلُ التأويلِ هذهِ الآيةَ في عبدِ الرحمنِ بْنِ أبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنهما ووالدتُهُ فلانةٌ. والآيةُ الأولى في أبي بكرٍ الصديقِ ووالديهِ، وهي قولُهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ فيقولونَ: إنَّ أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه أطاعَ والدَيهِ، وأمَرَ بالإحسانِ إليهما والشُّكرِ لهما، وسألَ التوفيقَ في الشكرِ لربِّهِ على ما أنْعَمَ عليهِ، وأنْعَمَ على والدَيهِ. وعبدُ الرحمنِ ابنُهُ، قد عَصى والدَيهِ، وخالَفَهُما فيما يَدْعوانِهِ إليهِ، وقالَ لهما قولاً رَديّاً حينَ[6] قالَ: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ مِنَ القبرِ، وأُحيى ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فلا أراهُمْ بُعِثوا، ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الكلامِ.

إلّا أنَّ هذا لا يَصِحُّ لأنَّ عبدَ الرحمنِ بْنَ أبي بكرٍ الصديقِ مِنْ أجِلّةِ الصحابةِ رضي الله عنهم فالظاهرُ أنهُ لم يكُنْ منهُ هذهِ المُجادَلةُ، ولأنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: إنهُ كانَ قالَ لوالديهِ؛ إنْ كانَ ما تقولونَ حقّاً: أخرِجوا فُلاناً، وذَكَرَ[7] نَفَراً مِنْ أجدادِهِ، فقالَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الآيةَ.

ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا جوابَ ما تَقَدَّمَ مِنَ القولِ لأنهُ في وجوبِ ما ذَكَرَ، وهو اسْتِحْقاقُ العذابِ عليهمْ، مَنَعَ العَوْدَ والإحياءَ في الدنيا، ولأنهمْ لو كانوا يُعادونَ لا يَسْقُطُ ذلكَ الذي حَقَّ عليهِمْ، إذْ هُمْ لا يُؤمنونَ.

ألا تَرى أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾؟ [الأنعام: ٢٨].

لكنْ جائزٌ أنْ تكونَ الآيتانِ في رجلَينِ منْ بَني آدمَ عليه السلام معَ والدَيهِما[8]: أطاعَ أحَدُهما والدَيهِ، وأجابَهما إلى ما دَعَواهُ، وأبى الآخَرُ إجابَةَ والدَيهِ إلى ما دَعَواهُ إليهِ، وخالَفَهُما في أمْرِهِما، فاسْتَغاثَ والدا مَنْ عَصاهما، وخالَفَهُما في أمْرِهِما، وقالا ما ذُكِرَ في الآيةِ.

وقالَ مَنْ أجابَهُما ما ذُكِرَ، وهو كما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] صَرَفُ أهلِ التأويلِ بأجمعِهِمْ هذه الآيةَ إلى آدمَ وزوجتِهِ حواءَ عليهما السلام.

وقلْنا نحنُ: جائزٌ أنْ يكونَ هذا في كلِّ والدٍ ووالدةٍ؛ يقولانَ ما ذُكِرَ [ويَدْعُوانِ إلى ما ذُكِرَ][9]: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] ما ذُكِرَ مِنَ الصلاحِ كانا ما ذُكِرَ.

---

(١) في الأصل وم: عملان. (٢) في الأصل: الذي: ذلك، في م: يفي ذلك. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو جهل.
(٥) في الأصل وم: أو حاجة. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: والديه. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ تكونَ الآيتانِ اللتانِ ذَكَرْناهما تكونانِ في كلِّ ولدٍ معَ والدَيهِ: مَنْ أجابَ والدَيهِ، ومَنْ عَصاهُما، واللهُ أعلَمُ، فلا تُصرَفُ الآيةُ إلى مَنْ ذَكَروا إلّا بِبَيانٍ مِنَ اللهِ تعالى على لسانِ رسولِهِ ﷺ أنها في كذا وكذا وفي فلانٍ وفلانٍ على طريقِ التَّواتُرِ. فعندَ ذلكَ يُقالُ ما قالوا.

فأمّا إذا لم تَثْبُتِ النصوصُ والإشارةُ إلى قومٍ بالتواتُرِ فالكَفُّ عن ذلكَ أَسْلَمُ، واللهُ أعلَمُ.

ودلَّ قولُهُ: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أنَّ وَعْدَ اللهِ لُطفٌ[١]؛ لو أُعطِيَ ذلكَ لآمَنَ. لذلكَ[٢] ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ تعالى [ويأمُرانِهِ بالإيمانِ بِقولِهما][٣] ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٨ و١٩ وقولُهُ تعالى: [﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾][٤] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لِيُوَفِّيَهُمْ أجرَ أعمالِهِمْ وجزاءَ أعمالِهِمْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنقَصونَ مِنْ خيراتِهِمْ، ولا يُزادُ لَهُمْ في سيِّئاتِهِمْ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ﴾ كقولِهِ[٥] تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤] وقولِهِ[٦] تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] ونَحوُها[٧].

يُذَكِّرُهُمْ بهذهِ الآياتِ وأمثالِها لِيَعرِفوا ما كانَ منهمْ، وما استَوجَبوا مِنَ العقوباتِ إنما استَوجَبوا بِما كانَ منهمْ في الدنيا مِنَ التكذيبِ والاستِهزاءِ بآياتِهِ لِيَنزَجِروا عنْ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ التي أُعطِيتُموها في منافِعِكُمْ، وأتلَفتُموها، ولم تُؤَدُّوا شُكرَها، ولم تقوموا بِوَفائِها، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي أتلَفتُموها، ولم تكتَسِبوها بالطَّيِّباتِ الموعودةِ في الآخِرةِ والنِّعَمِ الدائمةِ.

فكلُّ ما أعطى في هذهِ الدنيا مِنَ الأموالِ[٨] إنما أعطى لِيَستَعينوا بها على عَمَلِ الآخِرةِ، ولِيَتَزَوَّدوا لها، ويَجعَلوها زاداً للآخِرةِ.

فأمّا إذا جعَلوها في غيرِ ذلكَ فهو إتلافٌ وجَعْلٌ في غَيرِ ما جُعِلَ؛ وذلكَ وَبالٌ عليهِمْ وحَسرةٌ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وكذا ذَكَرَ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: ١١٧] فكلُّ نفقةٍ كانَتْ في غَيرِ ما ذَكَرَ مِنَ الاستِعانةِ على زادِ الآخِرةِ والتَّزَوُّدِ لها فهو للحياةِ الدنيا، وهو لَعِبٌ ولَهْوٌ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الريحِ ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي عذاباً تُهانونَ فيه، ويُهينُكُمْ ذلكَ العذابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ استِكبارَهُمُ الذي ذَكَرَ على الرسلِ [استَكبَروا على الرسلِ][٩] فتَرَكوا اتِّباعَهُمْ، فاستَكبَروا على آياتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ والفِسقُ هو الخُروجُ عنْ أمرِ اللهِ تعالى.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أيِ اذكُرْ نَبَأَ أخي[١٠] عادٍ، وهو هودٌ ﷺ بِما عامَلَهُ قومُهُ مِنْ سُوءِ المُعامَلةِ وما قاسى هو منهمْ لِيَتَسَلّى بذلكَ بعضَ [ما][١١] عامَلَ بِهِ قومُكَ مَعَكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لطفاً. (٢) في الأصل وم: وقوله ﴿وَهُمَا. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ويلك آمن فيقولان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: ونحوهما. (٨) من م، في الأصل: الأعمال. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: أخا. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والثاني: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ واذْكُرْ نَبأَ عادٍ /٥١٠ ـ ب/ بما نَزَلَ بهِمْ مِنَ العذابِ والاِسْتِئْصالِ بِتَكذيبِهِمُ الرسلَ والاِسْتِكْبارِ عليهِمْ والاِسْتِهْزاءِ بهِمْ لِتُحَذِّرَ بهِ قومَكَ في تكذيبِكَ والاِسْتِهْزاءِ بكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ أي خوَّفَ قومَهُ بالأحقافِ. وقدِ اخْتُلِفَ في تأويلِ الأحقافِ:

[قالَ بعضُهُمْ: الأحقافُ][1] هو اسْمُ أرضٍ، خوَّفَهُمْ بنزولِ العذابِ هنالكَ. وقالَ بعضُهُمْ: هي جبالٌ مِنْ رملٍ مُسْتَطيلةٌ مُرْتفِعةٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الأحقافُ واحدُ حِقْفٍ، وهو الرملُ: ما أشْرَفَ مِنْ كُثْبانِهِ، واسْتَطالَ، وانْحنى.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الأحقافُ رَمْلٌ بِشَحْرِ عُمانَ، وهي مَنازِلُ عادٍ في ما زَعَموا، وشَحْرُ بِلادِهِ[2]. وقيلَ: الحِقْفُ تَلٌّ مُعْوَجٌّ.

وقالَ بعضُهُمْ: الأحقافُ: الجَبَلُ حينَ [نَضَبَ الماءُ؛ وبانَ العَرَقُ][3] كأنْ يَنْضُبَ مِنَ المكانِ مِنَ الجَبَلِ، ويَبْقى أثَرُهُ، ويَنْضُبَ مِنْ مكانٍ أسْفَلَ مِنْ ذلكَ، ويَبْقى أثَرُهُ دونَ ذلكَ، فتلكَ الأحقافُ.

[وقيلَ: هي][4] جَبَلٌ بالشامِ، وقيلَ: هو المكانُ الذي [كانَتْ فيهِ][5] مَنازِلُ عادٍ ومُقامُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي خَلَتِ الرسلُ مِنْ قَبْلِ هودٍ ومِنْ بَعْدِهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كانَ الخِطابُ بهذا وَقَعَ للكلِّ؛ يقولُ: كانَ[6] الرسلُ ﷺ يُنْذِرونَ[7] أقوامَهُمْ[8] بأنواعِ العذابِ عندَ تكذيبِهِمْ إياهُمْ، ولم يَزَلِ الرسلُ ﷺ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ يَدْعونَ[9] الناسَ إلى عبادةِ اللهِ تعالى، ويَنْهَونَهُمْ[10] عن عبادةِ غيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ حقيقةَ الخوفِ لمّا لم يَيْأسْ مِنْ إيمانِهِمْ واتِّباعِهِمْ إياهُ. لِذلكَ لم يُقْطَعْ فيهِمُ القولُ بنزولِ العذابِ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخَوفُ، هو العِلْمُ حقيقةً، أي أعلَمُ أنْ يَنْزِلَ بكُمْ عذابُ يومٍ عظيمٍ إنْ خَتَمْتُمْ على ما أنتمْ عليهِ، وقد يُذْكَرُ الخَوفُ في مَوضعِ العِلْمِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي قالوا لِهودٍ ﷺ أجِئْتَنا لِتَصْرِفَنا عن عبادةِ آلهتِنا. وقالَ بعضُهُمْ: لِتَرُدَّنا عن عبادةِ آلهتِنا. وقالَ بعضُهُمْ: لِتُكَذِّبَنا في آلهتِنا. والإفكُ الكَذِبُ، وكلُّهُ واحدٌ.

وأصلُ الإفكِ: الصَّرْفُ؛ كأنهمْ قالوا: أجِئْتَنا لِتَصْرِفَنا عن عبادةِ آلهتِنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ كانوا يقولونَ ذلكَ اسْتِهْزاءً منهمْ، ولم يَزَلِ الكَفَرةُ يَسْألونَ، ويَسْتَعْجِلونَ العذابَ الذي كانوا يُوعَدونَ إسْتِهْزاءً بهِمْ وتكذيباً بما كانوا يُوعَدونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ أجابَهُمْ هودٌ ﷺ: إنَّ العِلْمَ بنزولِ العذابِ ووقتِهِ عندَ اللهِ ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ مِنَ الدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ تعالى والنَّهْيِ عن عبادةِ غَيرِهِ. أو يقولُ: أبَلِّغُكُمْ ما أُمِرْتُ بهِ مِنَ التبليغِ بنزولِ العذابِ بكمْ، ولستُ أبلِّغُكُمْ أنهُ متى يَنْزِلُ بكمْ لِما لم أُؤْمَرْ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أي تَجْهَلونَ دينَ اللهِ، أو تَجْهَلونَ آياتِ اللهِ وقَبولَها، أو تَجْهَلونَ نِعَمَ اللهِ وإحسانَهُ، أو تَجْهَلونَ أمْرَ اللهِ تعالى.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: العارضُ السحابُ،

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تلاوة. (٣) في الأصل وم: نصف المارمان الفرق. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) في الأصل وم: قومهم. (٩) في الأصل وم: دعوا. (١٠) في الأصل وم: وينهوهم.

جنة السنة

فقالوا هذا سحابٌ مُمطِرُنا، وكانَ حقيقةُ العارضِ الريحَ التي فيها عذابٌ أليمٌ ظنُّوا أنها سحابٌ، ولم تكنْ سحاباً، ولكنْ كانَتْ ريحاً، لكنْ منْ ذلكَ الجانبِ كانَ يأتيهمُ السحابُ المُمطِرُ ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كانَ هودٌ ﷺ قالَ لهمْ: ليسَ هو بعارضٍ ممطرٍ، ولكنْ هو ما استَعْجلْتُمْ بهِ منَ العذابِ حينَ[1] قُلتُمْ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] هو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٢٥ ثم وَصفَ ذلكَ الريحَ، فقالَ: كما أخبرَ اللهُ تعالى بقولِهِ ﷻ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أُرسِلَتْ، وأُمِرَتْ بتدميرِهِ، لا تُجاوِزُ أمْرَ ربِّها، ولا تُدمِّرُ ما لم تُرْسَلْ، وتُؤمَرْ بتدميرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ و٤٢]. هذهِ الآيةُ تُفسِّرُ قولَهُ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أتَتْ عليهِ، وأُمِرَتْ بتدميرِهِ. فأمَّا ما لم [تُؤمَرْ][2] بالتدميرِ فلا على ما ذُكِرَ في تلكَ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عندَ مَنْ عايَنَها، وتأمَّلَها، عندَهُ أنها تُدمِّرُ كلَّ شيءٍ، لا تُبْقِي شيئاً على وجهِ الأرضِ لِشدَّتِها وقُوَّتِها، لكنها لا تُجاوِزُ أمْرَ ربِّها. ألا ترَى أنها لا تُدمِّرُ هوداً وأتباعَهُ، وهُمْ فيهِمْ، وبِقُرْبٍ منهُ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي تأتيهِ أسبابُ المَوتِ، وما بهِ يموتُ لو كانَ فيهِ أمْرُ المَوتِ.

فَعلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي تُدمِّرُ كلَّ شيءٍ عندَ مَنْ عايَنَها، ونَظَرَ في أحوالِها وأهوالِها أنْ لو كانَ لها أمْرٌ بذلكَ، لكنها لم تُجاوِزْ أمْرَ ربِّها. ألا ترَى أنهُ قالَ في آيةٍ أخرَى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾؟ في ظاهرِ هذهِ الآيةِ أنها قد أبقَتْ مساكِنَهُمْ، ولم تُدمِّرْها، وكذلكَ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ لمّا الْتَجؤوا إلى مساكِنِهِمْ، وهَرَبوا منها، كانَتْ تدخلُ الريحُ مساكِنَهُمْ، وتُخرِجُهُمْ منها، فَتُلْقِيهِمْ في صحاريهِمْ وأفْنِيَتِهِمْ مَوتَى.

وقالَ بعضُهُمْ: تَنْزِعُ مَفاصِلَهُمْ، وتقطَعُها، ثم تُلْقِيهِمْ في أفْنِيَتِهِمْ على ما وَصَفَ، وشَبَّهَهُمْ بأعجازِ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ. فالريحُ التي تَعْمَلُ في إخراجِ أهلِها مِنْ مساكِنِهِمْ وإلقائِهِمْ في الفَيافي؛ لأنْ تَعْمَلَ في هدمِ المَساكِنِ والمَنازِلِ أولَى، ومَعَ ذلكَ وكذلكَ إذا عَمِلَتْ في نَزْعِ المَفاصِلِ أو قَطْعِها؛ ففي نَقْضِ البُنيانِ والمَساكنِ أولَى. ومَعَ ذلكَ لم تَعْمَلْ في هدمِ مَساكِنِهِمْ. فَدَلَّ ما ذَكَرْنا أنها لم تُجاوِزْ أمْرَ ربِّها في الإهلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ الآية: يَحْتَمِلُ لا تُرَى إلّا مَساكِنُهُمْ، إلّا آثارُ مَساكِنِهِمْ.

فَعلَى أحدِ التأويلَيْنِ تَرَكَتْ لهمُ المساكنَ، لم تُهْلِكْها. وعلى التأويلِ الآخرِ تَرَكَتْ آثارَ مَساكِنِهِمْ، فأمّا نفسُ مَساكِنِهِمْ فقد أهْلَكَتْها.

وهذانِ التأويلانِ خَرَجا على ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلَيْنِ في قولِهِ تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فالأولُ على التأويلِ الأوّلِ في قولِهِ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أُرسِلَتْ، وأُمِرَتْ بتدميرِهِ، ولم تُؤمَرْ بتدميرِ مساكِنِهِمْ، فَبَقِيَتْ.

والتأويلُ الثاني على التأويلِ الثاني في قولِهِ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عندَ مَنْ عايَنَها، ونَظَرَ إليها، لِشِدَّتِها وقوتِها فَتُدمِّرُ مساكِنَهُمْ أيضاً، فلا تُرَى إلّا آثارُها.

لكنْ سَمّاها مَساكِنَ باسْمِ ما قد كانَ، وإنهُ أمرٌ مُستَعْمَلٌ في عُرْفِ لسانِ اللغةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث قال. (٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ كأنَّ المُجرِمَ، هو الذي يُديمُ اكْتِسابَ الجُرْمِ والإثْمِ، وقالَ بعضُهُمْ: هو الوثّابُ في الجُرْمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ الآية. قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِن﴾ ههنا في مَوضعِ: لم، كأنهُ يقولُ: ولقد مكَّنّاهُمْ، فيما لم نُمَكِّنْ لكمْ مِنَ القوةِ والشدةِ والعقلِ والبَصيرةِ وغيرِ ذلكَ. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ أي قد مَكَّنّا عاداً، في ما ذَكَرْنا ما لم نُمَكِّنْ لكمْ يا أهلَ مكةَ في ذلكَ / ٥١١ ـ أ/ ثم إذا أتاهُمْ عذابُ اللهِ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ لم يَمْلِكوا دفعَ عذابِهِ.

فأنتمْ حينَ[1] لم يُمكَّنْ لكمْ ذلكَ أحرَى ألّا تَملِكوا دَفْعَ عذابِهِ إذا نَزَلَ بكُمْ بِتكذيبِكُمُ الرسولَ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ حَرْفَ ﴿إِن﴾ صِلَةٌ زائدةٌ، فيكونُ تقديرُ الآيةِ كأنهُ يقولُ: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ﴾ ﴿مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ممّا ذَكَرَ مِنَ السمعِ والبَصَرِ والفؤادِ، ثم لم يَمْلِكوا دَفْعَ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ، فأنتمْ لا تَملِكونَ أيضاً دفعَهُ عنْ أنفسِكُمْ، وكانَ لهمْ ما لكمْ ممّا ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصرِ والفؤادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ على التأويلِ الأوّلِ حينَ[2] ذَكَرْنا أنهمْ مُكِّنوا ما لم يُمَكَّنْ هؤلاءِ يكونُ ما ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصرِ والفؤادِ، لا يُرادُ بهِ أعيانُها حقيقةً، لكنَّ السَّمْعَ يكونُ كِنايةً عنِ العَقْلِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] ذَكَرَ السَّمْعَ، ثم فَسَّرَ بهِ العقلَ، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَأَبۡصَٰرٗا﴾ أُريدَ بهِ البَصائِرَ. فالبَصَرُ يُذكَرُ، ويُرادُ بهِ البَصيرةُ؛ إذْ قد وصَفَهُمُ اللهُ تعالى بذلكَ بقولِهِ ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] ويكونُ قولُهُ: ﴿وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ كِنايةً عنِ القِوَى، والفؤادُ يُكَنّى بهِ عنِ القوةِ.

يُخبِرُ تعالى أنهمْ مُكِّنوا مِنَ العَقلِ والبَصيرةِ والقوةِ ما لم تُمَكَّنوا أنتمْ يا أهلَ مكةَ، ثم لم يَقْدِروا على دفعِ عذابِ اللهِ إذا نَزَلَ بهمْ. فأنتمْ كيفَ تَملِكونَ دفعَهُ، وليسَ لكمْ تلكَ الأسبابُ؟

وعلى التأويلِ الثاني كانَ المُرادُ هو حقيقةَ ما ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفؤادِ. فيكونُ معناهُ ما ذَكَرْنا أي لكُمْ هذهِ الأسبابُ مِثْلُ ما لهمْ، ثم هُمْ لم يَقدِروا على دفعِ ما حَلَّ بهمْ مِنَ العذابِ، فأنتمْ لم تَقدِروا أيضاً، واللهُ أعلَمُ

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى الذي بهِ[3] نَزَلَ ما نَزَلَ مِنَ العذابِ حينَ[4] قالَ: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ وكانَ اسْتِهزاؤُهُمْ مَرَّةً بما يوعِدُ لهمُ الرسلُ ﷺ بالعذابِ، ومَرَّةً كانوا يَسْتَهزِئونَ بالرسُلِ ﷺ لِما يَدْعونَهُمْ إلى ما دَعَوا، واللهُ أعلَمُ.

ثم [بَيَّنَ][5] عذابَ عادٍ بالريحِ التي وَصَفَها تعالى في سورةِ الحاقةِ، وذَكَرَ فيها، حينَ[6] قالَ: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ أي شديدةٍ عاديةٍ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ الآية [الآيتان: ٦ و٧] وقالَ: في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ خَلَقَ اللهُ تعالى البشرَ على طبعٍ وبِنْيَةٍ وحالٍ يَحْذَرونَ ما يَنْزِلُ بأشكالِهِمْ وأمثالِهِمْ بذنوبٍ ارْتَكَبوها، ويَتَّعِظونَ بِغيرِهِمْ. فكأنهُ يقولُ: احْذَروا صُنْعَ الذينَ أُهلِكوا[7] حولَكُمْ وبِقُرْبِكُمْ لئلا يَنْزِلَ بكمْ ما نَزَلَ بأولئكَ الذينَ أُهلِكوا حولَكُمْ لِتَرْتَدِعوا عنْ ذلكَ وألّا تُعامِلوا رسولَهُ كما عامَلَ أولئكَ حتى لا [يَنْزِلَ بكُمْ][8] مثلُ ما نَزَلَ بأولئكَ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وعنادِهِمْ واسْتِهزائهمْ بهمْ. يُحَذِّرُهُمْ ما نَزَلَ بأولئكَ الذين أُهلِكوا حولَهُمْ لِيَرْتَدِعوا عنْ ذلكَ وألّا يُعامِلوا رسولَهُ ﷺ كما عامَلَ[9] أولئكَ حتى [لا][10] يَنْزِلَ بهمْ مثلُ ما نَزَلَ بأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: بهم. (٣) في الأصل وم: بهم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: ما. (٨) في الأصل وم: يزال بهم. (٩) في الأصل وم: عاملوا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحدُهما: أي جَعَلْنا للرسلِ ﷺ آياتٍ أقاموها على أقوامِهِمْ[1] ما تَعلَمُهُمْ ذلكَ، وتُخبِرُهُمْ عن صِدْقِهِمْ، فَرَدّوها، وكَذَّبوهُمْ بها. فعندَ ذلكَ أهْلَكْناهُمْ. فَعَلى ذلكَ جَعَلْنا لمحمدٍ ﷺ مِنَ الآياتِ ما تُعلِمُكُمْ يا أهلَ مكةَ وتُخبِرُكُمْ عن صدقِهِ، وتَدُلُّكُمْ على رسالتِهِ، فلا تَرُدّوها حتى لا يَنْزِلَ بكمْ ما نَزَلَ بهِمْ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي نَشَرْنا في الآفاقِ والأطرافِ النائيةِ ما حَلَّ بأولئكَ، ونَزَلَ بهمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وما كانَ منهمْ مِنَ العِنادِ والرَّدِّ ما يَلْزَمُ مَنْ بَلَغَ ذلكَ الخَبَرُ، واتَّصَلَ بهِ ما نَزَلَ بأولئكَ للرجوعِ عنْ مثلِ صَنيعِهِمْ ومثلِ معامَلَتِهِمْ.

فأحدُ التأويلَينِ: يَرْجِعُ إلى انتِشارِ ما نَزَلَ بأولئكَ في الآفاقِ لِيَرْجِعوا عنْ ذلكَ، فَيَصيرَ ذلكَ آيةً لهُ، فَيَحمِلَهُمْ على الرجوعِ عنْ صنيعِ أولئكَ لِيَرْجِعوا عنْ ذلكَ.

والثاني: إخبارٌ أنَّهُ جَعَلَ لكلِّ رسولٍ ونَبيٍّ آيةً على صدقِهِ ودلالةً على رسالتِهِ، أي لم يُهْلِكْهُمْ إلّا بَعْدَ [عَدَمِ][2] لزومِهِمُ التصديقَ لهمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يَرْجِعُ إلى اللهِ تعالى. والآخَرُ: يَرْجِعُ إلى الأصنامِ التي عَبَدوها، واتَّخَذوها آلهةً.

فأمّا الذي يَرْجِعُ إلى اللهِ تعالى فيقولُ[3]: لولا نَصَرَهُمُ اللهُ، أي هلّا يَنْصُرُهُمْ[4] اللهُ تعالى عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ، ولا يُهلِكَهُمْ لو كانَتْ[5] عبادَتُهُمُ الأصنامَ ممّا تُقرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى، ويكونونَ شُفَعاءَ عندَهُ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو كانَ قولُهُمْ[6] حقًّا: أنَّ ذلكَ ممّا يُقرِّبُهُمْ[7] إلى اللهِ هلاَ نَصَرَهُمُ[8] اللهُ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ[9]؟ فإذْ لم يَنْصُرِ اللهُ تعالى أولئكَ، بل أهْلَكَهُمْ، فاعْلَموا أنَّهُ ليسَ الأمرُ كما تَوَهَّمْتُمْ، وظَنَنْتُمْ، واللهُ أعلَمُ.

[وأمّا][10] الثاني: فيقولُ[11]، واللهُ أعلَمُ: لو كانَ للأصنامِ التي تَعْبُدونَها شَفاعةٌ عندَ اللهِ تعالى على ما زَعَمْتُمْ هلّا نَصَروا أولئكَ، ودَفَعوا[12] الهلاكَ عنهمْ بِشَفاعتِهِمْ؟ فإذْ لم يَفْعَلوا ذلكَ، ولم يَنْصُروهُمْ، ولم يَدْفَعوا عنهمْ، فَعَلى ذلكَ فلا يَمْلِكونَ دَفْعَ ذلكَ عنكُمْ إذا نَزَلَ بكمْ ما نَزَلَ بأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وتفسيرُ ﴿فَلَوْلَا﴾ ههنا: فَهَلّا. و: هلّا يُستَعمَلُ في الماضي، فيكونُ معناهُ لم يَفْعَلْ، أي لم يَنْصُرْهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي ضَلَّ هؤلاءِ عنها، أو ضَلَّ الأصنامُ عنهمْ، فلم يكنْ لهمْ منهمْ ما طَمِعوا، ورَجَوا بسببِ عبادتِهِمْ إياها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ إفْكُهُمْ وافتِراؤُهُمْ، هو قولُهُمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي فَرَغَ مِنْ قراءتِهِ ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ النُّذُرَ مِنَ الجنِّ والرسلِ [وقالَ بعضُهُمْ][13]: النُّذُرُ مِنَ الإنسِ. فإنْ كانَ ما ذُكِرَ فجائزٌ على هذا أنْ يكونَ النَّفَرُ الذي ذَكَرَ أنَّهُ صَرَفَهُمْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لِيَستَمِعوا إلى القرآنِ منهُ، هُمُ النُّذُرُ يَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وفي ظاهرِ قولِهِ تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] أنْ قد يكونُ مِنَ الجنِّ الرسُلُ كما يكونُ مِنَ البشرِ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّهُ قد تُذكَرُ الآيتانِ، والمُرادُ بهِ إحداهما، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يَخرُجُ مِنْ أحَدِهِما، وهو المالحُ. فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قومهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: نصرهم. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: حقكم. (٧) في الأصل وم: يقربكم. (٨) في الأصل وم: نصركم. (٩) في الأصل وم: بكم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ودفع. (١٣) في الأصل وم: و.

جنة السنة

ثم يَحتمِلُ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي ألْهَمْناهُم، وقَذَفْنا في قلوبِهِمْ حتى صاروا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وتَوَجَّهوا إليهِ، يَسْتَمعونَ إلى القرآنِ منهُ.

الآية ٣٠ ويَحتمِلُ أنهُ أمَرَهُمْ في الكتبِ التي أُعطوا مَعْرِفَتَها بالتوبةِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، لِيَسْتَمِعوا منهُ إلى القرآنِ لأنهُ قالَ ﷻ على إثْرِهِ خَبَراً عنهم: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هذا يدلُّ على أنهم قد عَرَفوا الكتبَ قبلَ هذا الكتابِ حينَ[1] ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونوا أُمِروا بتلكَ الكتبِ باسْتِماعِ هذا الكتابِ والعملِ بهِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونوا عَرَفوا بذلكَ لمّا كانوا يَسْتَرِقُونَ / ٥١١ ـ ب/ السَّمْعَ [إذْ يَصْعَدونَ][2] إلى السماءِ، فَيَسْتَمعونَ إلى أخبارِ السماءِ، ثم يَنْزِلونَ، فَيُخْبِرونَ أهلَ الأرضِ بذلكَ لِيكونَ العلمُ لهم بذلكَ مِنَ الوجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْناها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ﴾ فيهِ دلالةٌ لزومِ العملِ بِخَبَرِ الواحدِ لأنَّ النفرَ الذي حَضروا رسولَ اللهِ ﷺ مِنَ الجِنِّ سَمِعوا القرآنَ منهُ، وصَدَّقوهُ، كانوا قليلي[3] العَدَدِ لمّا رَجَعوا إلى أقوامِهِم، فإنما يَرْجِعُ كلٌّ إلى قومِهِ، وقد يَحْتَمِلُ الاجتِماعَ والتواصلَ على ذلكَ، ودعا كلٌّ قومَهُ إلى[4] إجابَتِهِ داعيَ اللهِ تعالى، وحَذَّرَهُمْ مُخالَفَتَهُ.

وإنهُ يَحتمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الإفرادِ والآحادِ دلَّ أنَّ خَبَرَ الواحدِ حُجَّةٌ في حقِّ العملِ، وهو ما قالَ ﷻ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] فكانَ العَمَلُ بِخَبَرِ الآحادِ والإفرادِ ظاهراً مشهوراً في الإنسِ والجِنِّ حينَ[5] ذَكَرَ ما ذَكَرْنا، وألْزَمَهُمُ الإجابةَ والحَذَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ الإجابةَ لهُ في الاعتِقادِ والإيمانِ بهِ، ويَحتمِلُ في المُعامَلَةِ في كلِّ أمْرٍ وفي كلِّ شيءٍ.

الآية ٣٢ فكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ في ما دَعاهُ ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ليسَ بِسابِقٍ ولا هاربٍ مِنْ عذابِهِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أنْ ليسَ بِقدرةِ أحدٍ التَّخَلُّصُ مِنْ عذابِهِ بِهَرَبِهِ منهُ والفرارِ عنهُ كما يَقْدِرُ الفرارَ والهَرَبَ بعضٌ مِنْ عذابِ بعضٍ في الدنيا، ربّما. ولذلكَ ما قالَ: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي ليسَ لهُ مِنْ دونِهِ أولياءُ يَنْفعونَهُ، ويَدْفعونَ العذابَ عنهُ كما يقومُ بعضٌ في دفعِ ما يَلْحَقُهُمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ في الدنيا؛ إذْ ليسَ قولُهُ: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ إذْ لا ولايةَ لهُمْ، إذْ قالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] ولكنْ لا تَنْفَعُ ولايَتُهُمْ يومئذٍ كما لا تَنْفَعُ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي مَنْ لم يُجِبْ داعيَ اللهِ فهمْ في ضلالٍ مُبينٍ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيةَ؛ والإشكالُ ما مَعْنى قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وهُمْ لم يُشاهدوا خَلْقَهُما؛ ولم يَرَوا؟ لكنْ قالَ بعضُهُمْ: أي أوَلم يُخْبَروا. وقالَ بعضُهُمْ: أوَلَمْ يَعْلَموا؟ أي قد أُخْبِروا، أو عَلِموا ذِكْرَ هذا لأنهمْ كانوا مُقِرِّينَ جميعاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، أي لمّا عَلِموا أنَّ اللهَ ﷻ هو خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، ولم يُضْعِفْهُ خَلْقُ ما ذَكَرَ، ولم يُعْجِزْهُ ذلكَ عنْ تدبيرِ ما يَحتاجُ ذلكَ إليهِ مِنَ الإمساكِ والقيامِ بما بهِ قِوامُ ما خَلَقَ فيهنَّ مِنَ الخَلائقِ وإصلاحُهُمْ. فإذْ لم يَعْجِزْ عمّا ذَكَرَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عاجزاً عَنْ إحياءِ المَوتى أو عن شيءٍ البَتَّةَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قليل. (٤) من م، في الأصل: إذا. (٥) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

أو يقولُ: حينَ[1] لم يَعْيَ، ولم يَظْهَرْ فيه الضعفُ في خَلْقِ ما ذَكَرَ، ثم لا أَحَدَ يَمْلِكُ أنْ يَعْمَلَ عملاً إلا ويَظْهَرُ منه الضعفُ؛ فإذا لم يَعْجِزْ، ولم يَضْعُفْ في خَلْقِ ما ذَكَرَ، دلَّ ذلكَ على أنهُ إنما لم يُضْعِفْهُ لأنَّ قدرتَهُ ذاتيّةٌ. ومَنْ كانَتْ قدرتُهُ ذاتيّةً لا يُعْجِزهُ شيءٌ. فأمّا غيرُهُ فإنما يَعْمَلُ بأسبابٍ؛ فَيَقْدِرُ على العملِ على قَدْرِ الأسبابِ، ويَعْجِزُ ربمّا عنه، واللهُ أعلَمُ.

أو يقولُ: إذْ قد عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ تعالى، هو خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يَخْلُقَهُما باطلاً عَبَثاً. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا بَدْءاً، أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما بلا احْتِذاءٍ تَقَدَّمَ ولا اسْتِعانَةٍ بِغَيرٍ. ثم الإمساكُ والقِوامُ على التدبيرِ الذي دبَّرَ إلى آخِرِ الدهرِ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنه قادرٌ بذاتِهِ لا بقدرةٍ مُسْتَفادةٍ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: قولُهُ: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ يقالُ: عَيِيتُ بهذا، أي لم أُحْسِنْهُ، ولم أقْدِرْ عليه.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ مَرّةً قيلَ لهمْ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١] ومَرّةً قيلَ لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ نَقَضَ هذا عليهمْ يومئذٍ لِيَعْتَرِفوا بالذي كانوا يُنْكِرونَ في الدنيا، لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ في الدنيا الرسلَ والآياتِ، وكانوا يُنْكِرونَ كونَ البَعْثِ وعذابَهُ، فَيُعْرَضونَ على النارِ، فَيُقالُ لهمْ: هذا الذي وُعِدْتُمْ في الدنيا ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فَيَعْتَرِفونَ، ويقولونَ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فيقالُ لهمْ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يُلْزِمُ الرسلَ الصبرَ مِنْ وجوهٍ سِتّةٍ:

ثلاثةٌ ممّا خُصّوا هُمْ بها، لا يَشْرَكُهُمْ غيرُهُمْ فيها، وثلاثةٌ ممّا يَشْتَرِكُ غيرُهُمْ فيها.

فأمّا الثلاثةُ التي خُصّوا بها:

فإحداها: أنهمْ[2] بُعِثوا لِتَبليغِ الرسالةِ إلى الفراعنةِ والأكابرِ والجبابرةِ الذينَ كانَتْ عادتُهُمْ وهَمُّهُمُ القَتْلَ وإهلاكَ مَنْ خالَفَهُمْ، وعَصَى أمرَهُمْ ومَذْهَبَهُمْ، فلم يُعْذَروا[3] في تَرْكِ تبليغِ الرسالةِ إليهِمْ مَعَ ما ذَكَرْنا مِنْ خوفِ الهلاكِ والقَتْلِ. فأمّا غَيرُهُمْ مِنَ الناسِ فقد أُبيحَ لهمْ كِتمانُ الدينِ الحقِّ عنهمْ حتى لا يُهْلَكوا.

والثانيةُ[4]: أَلْزَمَهُمُ الصَّبْرَ بالمُقامِ بَيْنَ أظهُرِ قومِهِمْ واحتِمالَ ما كانَ يَلْحَقُهُمْ منهمْ مِنَ الاسْتِهزاءِ بِهِمْ والافْتِراءِ عليهِمْ والتكذيبِ لهمْ وأنواعِ الأذى الذي كانَ منهمْ إلى الرسلِ، لم يَأْذَنْ لهمْ بِمُفارَقَتِهِمْ، لذلكَ قالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] لم يكُنْ منهُ سِوى الخروجِ مِنْ بَيْنِ قومِهِ لسلامةِ دينِهِ لو لم يَسْلَمْ، ثم أصابَهُ ما أصابَهُ بذلكَ الخروجِ لِما لم يُؤْذَنْ [لَهُ][5] بالخروجِ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثةُ[6]: لم يَجْعَلْ لهمُ الدعاءَ على أقوامِهِمْ بالهلاكِ والعذابِ، وإنْ كانَ منهمْ مِنَ التَّمَرُّدِ والتَّعَنُّتِ ما كانَ. فهذهِ الثلاثةُ مِنَ المُعامَلةِ ممّا خَصَّ الرسلَ ﷺ بها مِنْ بَيْنِ سائرِ الناسِ.

وأمّا الثلاثةُ [التي][7] يَشْتَرِكُ فيها غيرُهُمْ:

[فإحداها[8]]: أُمِروا بالصبرِ على ما يُصيبُهُمْ، ويَنْزِلُ [بِهِمْ][9] مِنَ البلايا والشدائدِ.

والثانيةُ[10]: أُمِروا بالمحافظةِ على العِباداتِ [التي][11] جُعِلَتْ عليهِمْ والمحافظةِ [على][12] حدودِها والصبرِ على القِيامِ بها.

والثالثةُ[13]: أُمِروا بالصبرِ على تَرْكِ قضاءِ الشّهوةِ وتَرْكِ إعطاءِ النفسِ هواها.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: هم. (٣) في الأصل وم: يعذر. (٤) في الأصل وم: والثاني. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: والثالث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: أحدها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: والثاني. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: والثالث.

جنة السنة

فهذهِ الثلاثةُ لهمْ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رَبِّهِمْ، وهي ممّا يَشْتَرِكُ فيها غيرُهُمْ. والثلاثةُ الأولى في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الخَلْقِ، وهُمْ قد خُصُّوا بتلكَ الثلاثةِ دونَ غَيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: هُمْ نوحٌ وإبراهيمُ ويعقوبُ ويوسفُ وموسى ﷺ وهؤلاءِ عُدُّوا نَفَراً منهمْ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الرسلُ جميعاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرسلِ هُمُ الذينَ كانَ منهمُ الصبرُ على ما ذَكَرْنا مِنَ المُعاملةِ مع قومِهِمْ.

وقيلَ: أولُو العَزْمِ همُ الذين كانوا أبداً المُتيَقِّظينَ القائمينَ بأمرِ اللهِ الحافظينَ لِحدودِهِ، وقالوا في آدمَ ﷺ ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لا تَستَعْجِلْ عليهِمْ بالهلاكِ والنَّقْمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما[١]: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كأنكَ لا تُوعِدُهُمْ بالساعةِ إلّا ساعةً مِنْ نهارٍ. وهذا[٢] يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كأنكَ لا تُوعِدُهُمْ بالعذابِ إلّا ساعةً مِنَ النهارِ. وعذابُ ساعةٍ / ٥١٢ ـ أ/ مِنَ النهارِ ممّا لا يَحمِلُهُمْ على تَرْكِ قضاءِ شَهَوَاتِهِمْ ومَنْعِ ما هُمْ فيهِ مِنَ الأحوالِ.

والثاني: كأنهمْ إذا عايَنوا عذابَ الآخِرَةِ، وشاهَدوهُ استَقْصَروا المُقامَ في الدنيا؛ كأنهمْ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] استَقْصَروا[٣] المُقامَ في الدنيا إذا [ما][٤] عايَنوا يومَ القيامةِ وأهوالَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: [مِنَ][٥] الإبلاغِ، وقيلَ: البَلاغُ مِنَ البُلْغَةِ، أي زادٌ يُبَلِّغُ بهِ السفرُ [حينَ يُرادُ][٦]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: لا يُهلَكُ الهلاكَ الدائمَ المُؤبَّدَ إلّا القومُ الفاسِقونَ؛ الهلاكُ الذي ليسَ هو بالهلاكِ المُؤبَّدِ ممّا يُهلَكُ الفاسِقُ وغَيرُ الفاسِقِ؛ إذِ المَوتُ حَقٌّ على الكلِّ، أو يقولُ: لا يُهلَكُ هلاكَ العذابِ إلّا الفاسقُ. فأمّا الهَلاكُ الذي هو النجاةُ والفَوزُ على شدائدِ الدنيا في ما يَهلِكُ بهِ الصالحُ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ[٧].

---

(١) لم يذكر الوجه الثاني في الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: اقتصروا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي. (٦) في الأصل وم: حيث يريد. (٧) ساقطة من م.

جنة السنة

سورة[1] محمد ﷺ

مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: همْ أهلُ مكةَ. والأشبهُ أنْ تكونَ الآيةُ في كفارِ المدينةِ، وهُمْ أهلُ الكتابِ لأنَّ السورةَ مدنيَّةٌ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ.

لكنْ جائزٌ أنْ تكونَ كما قالَ أهلُ التأويلِ: إنها نَزَلَتْ في كُفّارِ مكةَ لأنَّ هذهِ السورةَ ذُكِرَتْ على إثْرِ خَبَرٍ لهمْ وعُقَيبِ نَبَئِهِمْ في سورةِ الأحقافِ.

ثم [إنْ][2] كانتِ الآيةُ في كُفّارِ المدينةِ وأهلِ الكتابِ فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمحمدٍ ﷺ وبما أُنزِلَ عليهِ ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي أبْطَلَ إيمانَهُمُ الذي كانَ لهمْ بسائرِ الأنبياءِ وبمحمدٍ ﷺ لأنهمْ كانوا مؤمنينَ بهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ. فلمّا بُعِثَ كَفَروا بهِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: قد أبْطَلَ إيمانَهُمُ الذي كانَ منهمْ قبلَ ذلكَ بما كَفَروا بهِ إذْ بُعِثَ.

وإنْ كانتِ الآيةُ في كُفّارِ مكةَ على ما قالَ أكثَرُهُمْ فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِوَحدانيّةِ اللهِ تعالى، وكَفَروا بمحمدٍ ﷺ وبما أُنزِلَ عليهِ ﷺ أو كَفَروا بالبعثِ ونحوِ ذلكَ ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي أبْطَلَ حسناتِهِمُ التي كانَتْ لهمْ في حالِ كُفرِهِمْ مِنْ نَحْوِ الصدقاتِ وصِلَةِ الأرحامِ وفَكِّ الرقابِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ التي كانوا يَتَقَرَّبونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

قد أبْطَلَ أعمالَهُمُ التي كانوا يَتَقَرَّبونَ بها، ويَرَونَها قُرْبَةً عندَ اللهِ، أو يقولُ: قد أبْطَلَ عبادَتَهُمُ التي كانوا يَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها لِتُقَرِّبَهُمْ عبادَتُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. يقولُ: قد أبْطَلَ ذلكَ، ولم يَكُنْ على ما رَجَوا، وطَمِعوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أي صَدُّوا بأنفسِهِمْ أي أعْرَضوا عن سَبيلِ اللهِ على ما ذُكِرَ عنهمْ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي صَدُّوا الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ. وقد كانَ منهمُ الأمرانِ جميعاً ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي أبْطَلَ؛ يُقالُ: ضَلَّ الماءُ في اللبنِ إذا غُلِبَ، فلم يُتَبَيَّنْ.

الآية ٢ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ يقولُ: والذينَ آمَنوا باللهِ وبمحمدٍ ﷺ وآمَنوا بما نُزِّلَ عليهِ، وثَبَتوا على ذلكَ لم يُضِلَّ أعمالَهُمْ، ولم يُبْطِلْ إيمانَهُمُ الذي كانَ منهمْ، بل يُكَفِّرُ سَيِّئاتِهِمُ التي كانتْ منهمْ مِنَ الكفرِ وغَيرِهِ مِنَ السَّيِّئاتِ.

أو يقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ ﷺ ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ وهي[4] الكُفْرُ، والمَساوِئُ التي كانتْ لهمْ مِنَ الكُفْرِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

إنْ كانتِ الآيةُ في مُؤمِني ومُشْرِكي العربِ وأهلِ مكةَ فيكونُ[5] قولُهُ ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ الشِّرْكَ والمَساوِئَ التي كانتْ لهمْ في حالِ الكُفْرِ.

وإنْ كانتْ في أهلِ الكتابِ فيكونُ قولُهُ: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ في حالِ إيمانِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: يكون.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحدُهما: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﷺ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ نُزِّلَ، وكلُّ شيءٍ مِنَ اللهِ تعالى فهو الحقُّ.

والثاني: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهو الصدقُ من ربِّهِم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالَهُمْ وشأنَهُمْ في ما كانَ مِنْ قَبْلُ وفي ما بَعْدَهُ.

الآية ٣ ثم أخبَرَ أنَّ الذي أبطَلَ [أعمالَ أولئكَ][1] الكفَرةِ وما ذكَرَ، وثبَّتَ الذين آمنوا، ولم يُبْطِلْ أعمالَهُمْ وما ذكَرَ مِن إصلاحِ حالِهِم، هو ما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ يَحتمِلُ الباطلُ الشيطانَ أو هَوَى النفسِ أو كلَّ باطلٍ؛ وهو الذي يُذَمُّ عليهِ فاعلُهُ ومُتَّبِعُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يقولُ لهؤلاءِ ما ذكَرَ لاتِّباعِهِمِ الحقَّ وقَبولِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي مَثَلَ الذي بيَّنَ ما لهؤلاءِ وما لهؤلاءِ؛ يُبيِّنُ ما لكلِّ مُتَّبِعِ الحقِّ ومُتَّبِعِ الباطلِ. وضَربُ المَثَلِ هو أنْ يُبيِّنَ لهمْ ما خَفِيَ، واشتَبَهَ عليهِمْ، بالذي ظَهَرَ عندَهُمْ، وتقرَّرَ، وتَجلَّى لهمْ، ليصيرَ الذي خَفِيَ عليهِمْ، واشتَبَهَ، ظاهراً مُتجلِّياً.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ كقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ في القِتالِ والحربِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ في الحربِ والقِتالِ أيضاً؛ يَضربونَ، ويَقتُلونَ على ما يَظفَرونَ، ويَقدِرونَ [على ضربِهِمْ في][3] المَفاصِلِ [وغيرِ المَفاصلِ وفي كلِّ موضعٍ، ويكونُ قولُهُ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ في المَفاصِلِ التي ليسَ فيها كَسْرُ عظمٍ ولا شيءٌ مِنْ ذلكَ][4] ولكنْ إبانةٌ مِنَ المَفصَلِ، واللهُ أعلَمُ، لِما رُوِيَ في الخَبَرِ: «إذا قَتَلْتُم فأحْسِنوا القِتْلَ» [بنحوه مسلم ١٩٥٥] وحُسْنُ القتلِ أنْ يُضرَبَ، ويُبانَ مِنَ المَفصَلِ، واللهُ أعلَمُ.

فَعَلَى هذا جائزٌ أنْ يُخرَّجَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وتأويلُ قولِهِ: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ وجائزٌ /٥١٢ ـ ب/ أنْ يكونَ لا على التَّقديمِ والتَّأخيرِ والإضمارِ، ولكنْ كلُّ آيةٍ على نَظمِ ما ذكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنْ كانَ على ما ذَكَرْنا مِنَ التَّقديمِ والتَّأخيرِ والإضمارِ فيكونُ كأنهُ قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فاضربوا الرقابَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ وأسَرْتُموهُمْ ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ لأنَّ الإمامَ بالخِيارِ عندَنا: إذا أخذَهُمْ، وظَفِرَ بهِمْ، إنْ شاءَ قَتَلَهُمْ، وإنْ شاءَ مَنَّ عليهِمْ، وترَكَهُمْ بالجزيةِ لقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [التوبة: ٢٩] ويكونُ قولُهُ: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي هذا في المَنِّ؛ يَستَوثِقُهُمْ بالمواثيقِ، وإنْ شاءَ فاداهُمْ.

لكنهمُ اختلَفوا في المُفاداةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: يَفدونَ بالأموالِ أسراءَ المُسلِمينَ منهمْ، وقالَ بعضُهُمْ: يُفادونَ بالأسراءِ منهمْ، ولكنْ لا يجوزُ أنْ يُفادُوا بالأموالِ، وهو قولُنا، وقالَ بعضُهُمْ: لا يُفادُونَ بأسراءِ المُسلمينَ ولا بالأموالِ، وهو قولُ أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ.

واختلَفُوا في قَتْلِ الأسراءِ منهمْ؛ قالَ بعضُهُمْ: لا يُقتَلونَ، ولكنْ يُمَنُّ عليهِمْ، أو يُفادَونَ، وقالَ بعضُهُمْ: الإمامُ بالخِيارِ: إنْ شاءَ قَتَلَهُمْ، وإنْ شاءَ مَنَّ عليهِمْ، وإنْ شاءَ فاداهُمْ بالأسراءِ مِنَ المسلمينَ.

أمّا القَتْلُ فَلِما ذكَرْنا مِنَ الاستِدلالِ بقولِهِ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ولِما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ استَشارَ أبا بكرٍ وعُمَرَ وسائرَ الصحابةِ ﷺ في أُسارَى بَدرٍ، فأشاروا إلى المَنِّ عليهِمْ والتَّركِ، وأشارَ عمرُ إلى القَتلِ فيهِمْ. وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «لو جاءَتْ مِنَ السماءِ نارٌ ما نَجا منكُمْ إلّا عمرُ» أو كلامٌ نَحوُهُ.

(١) في الأصل وم: أعمالهم لأولئك. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: بهم من. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

[دلّ](١) أنّ الحُكمَ فيهمُ القتلُ، أعني في هؤلاء الذين حَكَمَ فيهم عمرُ ﷺ بالقتلِ. لذلك قال رسولُ اللهِ ﷺ «ما نَجا منكُمْ إلّا عمرُ» فَدَلّ هذا الخبرُ أنّ [للإمامِ أنْ](٢) يَقتُلَ أسارى الشِّرْكِ، وله أنْ يَمُنّ عليهمْ بالتّرْكِ بالجِزْيَةِ في حقّ أهلِ الكتابِ والعَجَمِ؛ فإنهُ لمّا جازَ لنا في الابتِداءِ أنْ نأخُذَ منهمُ الجِزْيَةَ إذا أبَوُا الإسلامَ وتَرْكُهُم على ما هُمْ عليهِ. فَعَلى ذلك بَعْدَ الظّفَرِ بهِمْ والقدرةِ عليهِمْ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ يُخالفُ مِن حيثُ الظاهرُ لقولِهِ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ونَحوِ ذلكَ، ولكنْ أمْكَنَ التوفيقُ بَينَ الآيتَينِ: هذهِ في قومٍ، والأُخرى في قومٍ آخَرينَ، أو هذهِ في وقتٍ، والأُخرى في وقتٍ آخَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: حتى يَخرُجَ عيسى ابنُ مَريَمَ ﷺ فعندَ ذلكَ تذهَبُ الحروبُ والقِتالُ، أيِ اقْتُلوهُمْ، وافعَلوا بهِمْ ما ذُكِرَ إلى وقْتِ خُروجِ عيسى ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي حتى يَضَعوا أسلِحَتَهُمْ، ويَترُكوا القتالَ.

وقالَ بعضُهُمْ: حتى يَذْهَبَ الكُفرُ والشِّرْكُ، ولا يكونَ الدينُ إلّا دينَ الإسلامِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي مِشْرْكٌ وكُفْرٌ، واللهُ أعلَمُ.

قيلَ: الإثخانُ، هو الغَلَبَةُ والقَهْرُ بالقَتلِ والجِراحِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أكثَرْتُمْ فيهمُ القَتلَ والجِراحةَ، ويُقالُ في الكلامِ: ضَرَبْتُهُ حتى أثْخَنْتُهُ حتى لا يَقْدِرَ أنْ يَتحرّكَ. والوَثاقُ ما أوثِقَتْ بهِ كلُّ يَدَي الرجلِ أو رِجلَيهِ؛ يُقالُ: أوثَقْتُهُ، واستَوثَقْتُ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ أي أثقالَها، واحِدُها: وِزرٌ، وهو الثِّقْلُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي يَضَعَ أهلُ الحربِ السلاحَ. وأصلُ الوِزْرِ ما حَمَلْتَهُ، فَسُمِّيَ السلاحُ وِزراً لأنهُ يُحمَلُ، واللهُ أعلَمُ

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ الذي أمَرَهُمْ(٣) بهِ مِن أوّلِ ما ذَكَرَ مِن قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ إلى قولِهِ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لأوليائِهِ مِن أعدائِهِ بلا قِتالٍ ولا نَصْبِ الحروبِ في ما بينَهُمْ.

ثم انتِصارُهُ منهمْ يكونُ مَرّةً بأنْ يُهلِكَهُمْ إهلاكاً، ويَقْهَرَهُمْ قَهراً، ومَرّةً يَنتَصِرُ منهمْ بأنْ يُسلّطَ عليهِمْ أضعَفَ خَلْقِهِ وأخَسَّهُمْ، فَيَقْهَرَهُمْ بأضعَفِ خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي يَمتَحِنَ بعضَكُمْ بِقِتالِ بعضٍ وبأنواعِ المِحَنِ؛ أنشأَ اللهُ ﷻ هذا البَشَرَ في ظاهِرِ الأحوالِ بعضَهُمْ مُشابِهاً لبعضٍ غَيرَ مُخالِفٍ بعضُهُمْ بعضاً؛ فإنما يَظْهَرُ الاختِلافُ(٤) بالامتِحانِ بأنواعِ المِحَنِ على اختِلافِ الأحوالِ.

فعندَ ذلكَ يَظْهَرُ المُصدِّقُ مِنَ المُكَذِّبِ والمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ والمُوافِقُ مِنَ المُخالِفِ والمُتَحقِّقُ مِنَ المُضطرِبِ والمُوقِنُ مِنَ الشاكِّ على ما ذَكَرَ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] [وذَكَرَ](٥): ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وذَكَرَ(٦): ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي ذَكَرَ الاختِلافَ والامتِحانَ(٧) فيها باختِلافِ الأحوالِ التي عندَ ذلكَ، يَظْهَرُ ما ذَكَرَ مِنَ التّصديقِ والتكذيبِ والتّحقيقِ [وغيرِ ذلكَ](٨).

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أمرتهم. (٤) في الأصل وم: اختلاف. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وامتحان. (٨) في الأصل وم: وغيره.

جنة السنة

ثم لو كانَ، جَلَّ، وعلا، انْتَصَرَ لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِ بما ذَكَرْنا بأنْ يَنْصُرَهُمْ على أعدائِهِمْ نَصْراً بلا امْتِحانٍ وكُلْفَةٍ منهُ لأوليائِهِ لكانَ التوحيدُ لهُ والتصديقُ لرسلِهِ بِحَقِّ الاضطِرار لا بِحَقِّ الاخْتِيارِ، لأنهمْ إذا رَأوا أنهمْ يُسْتَأصَلونَ، ويُهْلَكونَ إهلاكاً بِخِلافِهِمْ إيَاهُمْ لَكانوا لا يُخالِفونَهُمْ، بل يُوافِقونَهُمْ مَخافَةَ الهلاكِ والاسْتِئصالِ، فَيَرْتَفِعُ الابْتِلاءُ والامْتِحانُ عنهمْ، فلا يَظْهَرُ المُخْتارُ مِنْ غَيرِهِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا[1] فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَهُزِموا، أو غُلِبوا، أو ضُرِبوا في وقتٍ أو في قِتالٍ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ التي كانَتْ منهمْ مِنَ الجِهادِ مع الأعداءِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ التي كانَتْ لهمْ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أو يوفِّقُهُمْ ثانياً مَرَّةً أُخرى للقِتالِ والنَّصرِ لهمْ على أعدائِهِمْ في الدنيا، ويُدْخِلُهُمْ في الآخِرَةِ الجنةَ.

والثاني: أي والذينَ قاتلوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ في الآخِرَةِ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الآخِرَةِ الجنةَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي يُدْخِلُهُمُ الجنةَ التي بَيَّنَها لهمْ في الدنيا، ووَصَفَها.

وقالَ بعضهم: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ في الآخِرَةِ، حتى يَعْرِفَ كلٌّ مَنْزِلَهُ وأهلَهُ مِنْ غَيرِ أعلامٍ وأدلَّةٍ جُعِلَتْ لهمْ كما يَعْرِفُ كلُّ أحدٍ في الدنيا مَنْزِلَهُ وأهلَهُ وخَدَمَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طَيَّبَها لهمْ؛ يُقالُ: فلانٌ مُعَرَّفٌ أي مُطَيَّبٌ، وطعامٌ مُعَرَّفٌ أي مُطَيَّبٌ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أي إنْ تَنْصُروا دينَ اللهِ يَنْصُرْكُمْ، أي إنْ تَنْصُروا أولياءَ اللهِ يَنْصُرْكُم على أعدائِكُمْ.

ثم نَصْرُنا دينَ اللهِ وأولياءَهُ يكونُ مَرَّةً بالأنفسِ والأموالِ بِبَذْلِها في سَبيلِهِ لابْتِغاءِ وجهِهِ، ومَرَّةً[2] يكونُ بالحُجَجِ والبراهينِ بإقامتِها [على أعدائِنا][3] بما أمَرَنا مِنْ إقامةِ الحُجَجِ والآياتِ.

ثم يكونُ نَصْرُ اللهِ إيّانا مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: بِنَصْرِنا على أعدائِهِ بما يَغْلِبُهُمْ، ويَقْهَرُهُمْ. لكنْ إنْ كانَ هذا فيكونُ في حالٍ دونَ حالٍ وفي وقتٍ دونَ وقتٍ، لا في كلِّ الأحوالِ.

والثاني: يكونُ نَصْرُهُ إيّانا بما يَجْعَلُ العاقبة، وإنْ كُنّا غُلِبْنا، وقُهِرْنا في بعضِ الحروبِ والقتالِ، وكانوا هُمُ الغالِبينَ علينا قاهِرينَ لنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ /٥١٣ ـ أ/ يَحْتَمِلُ في الحروبِ والقِتالِ، أو يُثَبِّتْ أقدامَكُمْ[4] في الآخِرَةِ كيلا تَزِلَّ[5]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أي هلاكاً لهمْ، أي مِحْنَةً عندَ الهزيمةِ والقتلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بِهِ الهلاكُ. وأصلُ التَّعْسِ العَثْرُ والسُّقوطُ، وهو الهلاكُ، فَيَرْجِعُ إلى ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ذلكَ الذي ذَكَرَ لهمْ مِنَ التَّعْسِ والهلاكِ وإبطالِ الأعمالِ بأنهمْ تَرَكوا اتِّباعَ ما أنْزَلَ اللهُ على رسولِهِ؛ إذْ كلُّ مَنْ تَرَكَ اتِّباعَ شيءٍ اعْتِقاداً فقد كَرِهَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قاتلوا، انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٨٤. (٢) في الأصل وم: والثاني. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: أقدامهم. (٥) في الأصل وم: تزول.

جنة السنة

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي كَرِهوا ما أنْزَلَ اللهُ على غَيرِ بَني إسرائيلَ. فإنْ كانَ هذا فالآيةُ في أهلِ الكتابِ لأنهمْ لم يَرَوُا الرسلَ مِنْ غَيرِ بَني إسرائيلَ ولا إنزالَ الكتبِ على أحدٍ مِنْ غَيرِ بَني إسرائيلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي بتَرْكِهِمُ اتِّباعَ ما أنْزَلَ اللهُ وقَبولَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أي لو ساروا في الأرضِ لَعَرَفوا ما نَزَلَ بهِمْ، وهو تكذيبُهُمْ للرسلِ وكُفْرُهُمْ بهِمْ، ولَعَرَفوا أنَّ مَنْ نَجا منهمْ بماذا نَجا، وهو التَّصديقُ لهمْ والإيمانُ بهِمْ.

والثاني: على الأمرِ، أي سِيروا في الأرضِ، فانْظُروا ما الذي نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسلِ [والمُستَهزئينَ بهِمْ][1] ليكونَ ذلكَ مَزْجَرةً لهمْ عنْ مِثْلِ مُعامَلَتِهِمُ الرسولَ ﷺ.

والثالثُ: أي قد ساروا في الأرضِ، لكنْ لم يَنْظُروا، ولم يَعْتَبِروا بما نَزَلَ بأولئكَ أنهُ بماذا نَزَلَ بهِمْ. ولو تأمَّلوا فيهمْ لكانَ ذلكَ زَجْراً لهمْ عنِ المُعاوَدةِ إلى مِثْلِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي دَمَّرَ اللهُ عليهِمْ، وللكافرينَ سِوى هؤلاءِ الكفارِ الذينَ دَمَّرَ اللهُ عليهِمْ أمثالُ ما لهمْ مِنَ الهلاكِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ.

والثاني: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي للكافرينَ مِنْ قومِكَ أمثالُها، وهذا وَعيدٌ لِقومِهِ.

والثالثُ: [أي يكونُ][2] لقومِهِ ولكلِّ كافرٍ أمثالُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ تأويلُهُ: أي ذلكَ الذي ذَكَرَ لهمْ لأجلِ أنَّ اللهَ ناصرُ الذينَ اتَّبَعوا أمْرَهُ، وآمَنوا بهِ، وصَدَّقوهُ، فَدَفَعَ العذابَ عنهمْ باتِّباعِهِمْ أمرَهُ، وأنَّ [الكافرينَ ليسَ][3] هو بناصرٍ لهمْ لِتَرْكِهِمُ اتِّباعَ أمْرِهِ وتصديقِهِمْ إيّاهُ، فلم يَدْفَعِ العذابَ عنهمْ.

أو يقولُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي دَفْعُ العذابِ عنِ الذينَ آمَنوا لِما أنَّ اللهَ تَوَلّى أمورَهُمْ، وعَصَمَهُمْ، وأنهُ لم يَتَوَلَّ أمورَ الكَفَرةِ، أي لم يَعْصِمْهُمْ، وخَذَلَهُمْ، وتَرَكَهُمْ على ما اختاروا لِعِلْمِهِ باخْتِيارِهِمْ ما اختاروا مِنَ التكذيبِ، وتَوَلّى المؤمنينَ، وعَصَمَهُمْ لِعِلْمِهِ بما يَخْتارونَ مِنَ التَّصديقِ والاتِّباعِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثمَ ذَكَرَ عاقبةَ المؤمنينَ مِنَ الاتِّباعِ لأمرِهِ والتَّصديقِ لرسلِهِ ﷺ:

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وبَيَّنَ ما لأولئكَ الذينَ اختاروا مِنَ الكُفرِ بهِ والتكذيبِ لرسلِهِ في العاقبةِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي مَأْوًى لهمْ بما اختاروا، واللهُ أعلَمُ.

وذلكَ أنَّ أهلَ الإيمانِ والتوحيدِ نَظَروا في جميعِ أحوالِهِمْ وأمورِهِمْ إلى ما فيهِ أمرُ اللهِ تعالى وما يُعْقِبُ لهمْ نَفْعاً في العاقبةِ، لم يَنْظُروا إلى ما فيهِ قضاءُ شَهَواتِهِمْ، بلِ اختاروا أمرَ اللهِ على جميعِ ما ذَكَرْنا.

وأولئكَ الكَفَرةُ لم يَنْظُروا إلى ما فيهِ أمْرُ اللهِ ولا [ما][5] يُوجِبُ لهمْ في العاقبةِ مِنَ النَّفعِ، بلِ اختاروا شَهَواتِهِمْ ومُناهُمْ وما فيهِ هواهُمْ على ما فيهِ أمْرُ اللهِ ونَهْيُهُ.

---

(١) في الأصل وم: ومستهزئيهم. (٢) في الأصل وم: أن يقول. (٣) في الأصل: الكافر ذلك لما يئس، في م: الكافرين ذلك لما يئس. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَجَعَلَ للمؤمنينَ في الآخرةِ قضاءَ شَهواتِهِمُ التي تَركوا قضاءَها في الدنيا، وكَفُّوا أنفُسَهُمْ عن مُناها، فكانَ ذلكَ في الجنةِ والبساتينِ التي وَعَدَ لهمْ في الآخرةِ.

وجَعَلَ لأولئكَ الكَفَرةِ في الآخرةِ مَكانَ ما قَضَوا في الدنيا مِنْ شَهواتِهِمْ وإعطاءِ أنفسِهِمْ مُناها النارَ وما يُنَغِّصُهُمْ ما أعطَوا أنفسَهُمْ في الدنيا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يَحتَمِلُ تشبيهُ أولئك الكَفَرةِ بالأنعامِ بِوَجهَينِ:

أحَدُهما: يُخبِرُ أنهمْ يأكلونَ، وهَمُّهُمْ في الأكلِ، ليسَ إلا الشِّبَعَ وامْتِلاءَ البطنِ وقضاءَ الشهوةِ، لا يَنْظرونَ إلى ما أمَرَ اللهُ بِهِ، ونَهاهُمْ عنهُ، كالأنعامِ التي ذَكَرَ هَمَّها؛ ليسَ في الأكلِ إلا الشِّبَعَ وامْتِلاءَ البطنِ وقضاءَ الشهوةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يُخبِرُ عنهمْ أنهمْ لا يَنظرونَ في أكلِهِمْ وشُربِهِمْ إلى عاقبةٍ ولا إلى وقتٍ ثانٍ، بل نَظَرُهُمْ إلى الحالِ التي هُمْ فيها كالأنعامِ التي ذَكَرَ أنها تأكُلُ، ولا تَنظُرُ، ولا تَدَّخِرُ شيئاً لوقتٍ ثانٍ، ولا تَترُكُ شيئاً ما دامَتْ تَشتَهي.

فَعَلى ذلكَ أولئكَ الكَفَرةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ كانَ سُنَّةُ اللهِ تعالى في الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ أنهُ إذا أخرَجَ الرسلَ ﷺ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ أهْلَكَهُمْ؛ فَيُخبِرُ أنَّ أهلَ مكةَ قدِ استَوجبوا العذابَ، إذْ أُخرِجَتْ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ، كما استَوجَبَ أولئكَ الكَفَرةُ.

لكنَّ اللهَ بفضلِهِ ورحمتِهِ أخَّرَ ذلكَ عنهمْ لأنهُ بعثَكَ إليهِمْ رحمةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أو أخَّرَ ذلكَ عنهمْ لِما وَعَدَ أنهُ خاتمُ الأنبياءِ ﷺ لِتَبقَى شريعتُهُ ورسالتُهُ إلى يومِ القيامةِ. ولو أهْلَكَهُمْ، واستَأصَلَهُمْ على ما فَعَلَ بأولئكَ لانْقَطَعَتْ رسالتُهُ وشريعتُهُ، وقد وَعَدَ أنها تَبقَى، وأنهُ رحمةٌ لهُمْ، وأنهُ لا يُخلِفُ الميعادَ.

ثم أخبَرَ أنَّ أولئكَ الكَفَرةَ أكثَرُ أهلاً وأشدُّ قوةً وبَطشاً مِنْ هؤلاءِ، ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمْ دَفْعُ ما نَزَلَ بهمْ بِقُوَّتِهِمْ في أنفسِهِمْ وبَطشِهِمْ، ولا كانَ لهمْ ناصرٌ يَنصُرُهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ، ولا مانعٌ يَمنَعُهُمْ عنه. فأنتمْ يا أهلَ مكةَ أولَى أنْ تدفعوا عن أنفسِكُمُ العذابَ إذا نَزَلَ بكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾ أضافَ الإخراجَ إلى قومِهِ، وهُمْ لم يَتَوَلَّوا إخراجَهُ بأنفسِهِمْ، بلِ اضطَرّوهُ حتى خَرَجَ هو بنفسِهِ، لكنهُ أضافَ الإخراجَ إليهِمْ لأنَّ سببَ خُروجِهِ مِنْ بَينِهِمْ كانَ منهمْ، فكأنْ قد أخرَجوهُ، وهو كما ذَكَرَ مِنْ إخراجِ الشيطانِ آدمَ وحواءَ ﷺ مِنَ الجنةِ بقولِهِ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا﴾ [البقرة: ٣٦] والشيطانُ لم يَتَوَلَّ إخراجَهُما حقيقةً. لكنْ لِما كانَ منهُ مِنْ أشياءَ؛ حَمَلَهُما[1] ذلكَ على الخروجِ، فكأنهُ وُجِدَ الإخراجُ منهُ.

وأصلُهُ أنَّ الأشياءَ والأفعالَ ربَّما تُنسَبُ إلى أسبابِها، وإنْ لم [يكُنْ][2] لِتلكَ الأسبابِ حقيقةُ الأفعالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ هو خَبَرٌ مِنَ اللهِ تعالى، أي لا يكونُ لهمْ ناصرٌ، وهو يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لا يكونُ [لهمْ][3] ناصرٌ في الآخرةِ.

والثاني: على إضمارٍ، أي لم يكنْ لهمْ ناصرٌ وقتَ ما عُذِّبوا في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ لم يَخرُجْ لهذا الحرفِ جوابٌ لِما هُمْ عَرَفوا بالبَديهةِ أنْ ليسَ /٥١٣ ـ ب/ مَنْ ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ واتَّبَعَ هواهُ، يَعرِفُ ذلكَ بالبَديهةِ؛ كَمَنْ يقولُ: ليسَ المُحسِنُ كالمُسيءِ، وليسَ مَنْ يُحسِنُ كَمَنْ يُسيءُ ونَحوَ ذلكَ مِمّا يَعرِفُهُ كلُّ أحدٍ، لا يَحتاجُ إلى بيانٍ وجوابٍ. فَعَلى ذلكَ هذا. ثم في ذلكَ وجهانِ:

(١) في الأصل وم: حملهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

أحدُهما: يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ باختيارِهِمُ اتِّباعَ هواهُمْ وما زُيِّنَ لهمْ مِنْ سُوءِ عَمَلِهِمْ على اتِّباعِ مَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ وبيانٍ على عِلْمٍ بذلكَ ويَقينٍ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: فيهِ ذِكْرُ دلالةِ البَعْثِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لمّا عَرَفْتُمْ أنَّ مَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ ربِّهِ ليسَ كَمَنْ يَتَّبِعُ هَوَى نفسِهِ، وقدِ اسْتَوَيا في هذهِ الدنيا: انْتَفَعَ هذا كما انْتَفَعَ الآخَرُ، وفي العقولِ لا اسْتِواءَ بَيْنَهما. فدلَّ اسْتِواؤُهما في هذهِ الدارِ على أنَّ هناكَ داراً أُخْرَى: ثُمَّ يُفَرِّقُ بَينَهما، ويُمَيِّزُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ على حقيقةِ المَثَلِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ مِنْ حياتِكُمْ هذهِ، لو كانَتْ جَنّاتُكُمْ في الدنيا على المَثَلِ الذي وَصَفَ في الآيةِ: أليسَ كانَتْ نفسُ كلِّ أحدٍ تَرْغَبُ فيها، وتَحْرِصُ على طَلَبِها، لتكونَ تلكَ الجنةُ لهُ، فما بالُكُمْ لا تَرْغَبونَ في تلكَ الجنةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ في الآخِرَةِ، لا تَرْغَبونَ فيها، ولا تَحْرِصونَ على طَلَبِها؟ واللهُ أعلَمُ.

ويُخَرَّجُ على هذا التأويلِ قولُهُ تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي ليسَ مَنْ كانَ خالداً في جنةٍ مِنْ جَنّاتِكُمُ التي ما ذَكَرَ وَصْفَها كَمَنْ هو خالدٌ في نارٍ مِنْ نيرانِكُمْ.

والثاني: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ما ذَكَرَ، فَيُخَرَّجُ على الصلةِ لِما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [محمد: ١٢] ثم وَصَفَ الجنةَ التي أخبَرَ أنهُ يُدْخِلُهُمْ فيها، فقالَ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي صِفَتُها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ مِنْ كذا وكذا... الآيةَ.

وعلى هذا ما ذَكَرَ في آخِرِهِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

ثم وَصَفَ تلكَ النارَ التي أخبَرَ أنها مَثْوَى لهمْ ومأوَى لهمْ، فقالَ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ الآيةَ.

والثالثُ: يَذْكُرُ على أنَّ مَنْ وَعَدَ لهُ ما وَعَدَ لِلمُتَّقينَ مِنَ الجنةِ وما فيها مِنَ النِّعَمِ ليسَ كَمَنْ وَعَدَ لهُ النارَ. ألا تَرَى أنهُ، جَلَّ، وعلا، ذَكَرَ في آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ وصفِ الجنةِ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾؟ أي ليسَ هذا كهذا، ولا سَواءَ بَيْنَهما، ولا مُساواةَ.

وهو كقولِهِ تعالى في ما تَقَدَّمَ مِنْ حيثُ ما قالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [محمد: ١٤] أي ليسَ هذا كهذا.

فعلى هذا يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ وَصْفِ الجنةِ وَوَصْفِ النارِ، أي ليسَ مَنْ وَعَدَ لهُ الجنةَ التي وَصَفَها، ونَعَتَها كَمَنْ وَعَدَ لهُ النارَ التي وَصَفَها ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآيةَ؛ يُخبِرُ أنهُ يكونُ في الجنةِ مِنَ المِياهِ والخُمورِ والألبانِ وما ذَكَرَ ليسَ كالتي في الدنيا، لأنَّ المياهَ في الدنيا تَتَغَيَّرُ بأحدِ وجهَيْنِ: إمّا لِنَجاسةٍ وآفةٍ تُصيبُهما. أو لِطولِ الزمانِ والمُكْثِ، فَيُخبِرُ أنْ ليسَ في الجنةِ شيءٌ يُغَيِّرُ مِياهَها. وكذلكَ اللبنُ في الدنيا يَتَغَيَّرُ، ويَفْسُدُ عنْ قريبٍ إذا تُرِكَ لِما ذُكِرَ، فَيُخبِرُ أنَّ ألبانَ الجنةِ لا تَفْسُدُ للتركِ، ولا يُصيبُها شيءٌ، فَيُفْسِدُها، ويُخْرِجُها عنْ طَعْمِ اللبنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ يُخبِرُ أنَّ الخُمورَ في الجنةِ مِمّا يَتَلَذَّذُ بها أهلُها عندَ الشربِ ليسَتْ كَخُمورِ الدنيا يَتَكَرَّهُها[1] أهلُها عندَ شُرْبِها، ويَعْبِسونَ وجوهَهُمْ عندَ التناوُلِ منها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي وأنهارٌ مِنْ عسلٍ خُلِقَ، وأُنْشِئَ مُصَفًّى، لا كُدورةَ فيهِ، لا أنهُ كانَ كَدِراً،

---

(١) في الأصل وم: يتكره.

جنة السنة

فَصُفِّيَ، أو كانَ خُلِقَ بعضُهُ كَدِراً، وبَعْضُهُ مُصفًّى، ولكنْ خُلِقَ كلُّهُ مُصَفًّى في الابْتِداءِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] أي خلَقَها في الابْتِداءِ مرفوعةً لا أنها كانَتْ موضوعةً، ثم رَفَعَها، واللهُ أعلَمُ.

• وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي عَرَفوها في الدنيا، وأرادوها، أو يقولُ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي يريدونَ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي ليسَ مَنْ وَعَدَ لهُ ما ذَكَرَ مِنَ الجنةِ، وهو خالدٌ فيها مُتنعِّمٌ بما ذَكَرَ مِنْ ألوانِ الثمارِ والنِّعَمِ ما ذَكَرَ مِنَ المِياهِ والخُمورِ والألبانِ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ وما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ آياتِ رسالةِ رسولِهِ ﷺ وحُجَجَهُ على المُنافقينَ بِصَنيعِهِمْ وما أسَرّوا في أنفسِهِمْ مِنَ الخِلافِ والعداوةِ. فأطْلَعَ اللهُ رسولَهُ على ما أسَرّوا في أنفسِهِمْ مِنَ الخلافِ لهُ والعَداوةِ، وأضْمَروهُ ليكونَ ذلكَ آيةً لرسالتِهِ وحجّتِهِ لِنُبُوّتِهِ، إذْ عَلِموا أنْ لا أحَدَ يَطَّلِعُ على ما في القلوبِ إلّا اللهُ تعالى.

فإذا أخبَرَ رسولُ اللهِ لهمْ بما أسَرّوا، وأضْمَروا، عَلِموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى [لقولِهِ تعالى][1]: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] ونحوِ ذلكَ.

ثم الناسُ في الاستِماعِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ تَفَرَّقُ إلى فِرَقٍ ثلاثٍ:

فالمؤمنونَ كانوا يَستمعونَ إليهِ لِلاستِرْشادِ واستِزادةِ الهُدى، وهُمْ[2] كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٤].

[والكفَرةُ كانوا يَستَمِعونَ إليهِ لِيَقولوا لِأتباعِهِمْ: إنهُ افْتَراهُ بنفسِهِ، وإنهُ كذبٌ، وإنهُ سِحرٌ لِئلّا يَقَعَ في قلوبِ أتباعِهِمْ أنّ ما جاءَ بِهِ محمدٌ حقٌّ، فيَستَمِعوا منهُ، وهُمْ[3] كقولِهِ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١].

والمنافقونَ كانوا يَستمِعونَ إليهِ إظهاراً للموافقةِ لهُ لئلا يَتَعرَّضَ لهمْ في ما أضْمَروا، وأسَرّوا مِنَ العَداوةِ والخِلافِ][4] [وهُمْ كقولِهِ][5]: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [التوبة: ١٢٥].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي أعطاهُمْ ما اتَّقَوا مُخالَفَةَ أمرِهِ. ويَحتمِلُ ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي يُوَفِّقُهُمْ ما يَتَّقونَ [مُخالَفةَ][6] أمرِهِ مِنْ بَعْدُ في المُستأنَفِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي أعطاهُمُ اللهُ ثوابَ أعمالِهِمْ في الآخِرةِ؛ يقولُ: كلُّ ما جاءَ مِنَ اللهِ، وأخذوا بِهِ ﴿زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي أجرَهُمْ.

وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ: وأنطاهُمْ تقواهُمْ، أي أعطاهُمْ، وهي لغةٌ معروفةٌ: أنطى أي أعطى، وكذلكَ قَرَأ: إنا أنطيناكَ الكوثرَ[7] [الكوثر: ١].

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ كأنّ هذهِ الآيةَ نَزَلَتْ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ إلّا عندَ قيامِ الساعةِ كأنهُ يقولُ: ما يَنْظُرونَ إلّا الساعةَ أنْ تأتيَهُمْ بغتةً، لكنْ لا يَنفَعُهُمُ الإيمانُ في ذلكَ الوقتِ كقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقولِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، يُؤْيِسُ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الطَّمَعِ في إيمانِهِمْ قَبْلَ ذلكَ الوقتِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في نسخة الحرم المكي: فهو. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/٢٥٣.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يَحتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ مَجيءِ أشراطِها، هو رسولُ اللهِ ﷺ لأنهُ خاتِمُ الأنبياءِ، وبهِ خُتِمَتِ النُّبوَّةُ. ورُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: «بُعِثْتُ أنا والساعةَ كهاتينِ، وأشارَ إلى إصبَعَينِ، وجَمَعَ بَينَهما» [البخاري ٦٥٠٣].

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو على تَحقيقِ مَجيءِ أشراطِ الساعةِ، أي قد جاءَ أشراطُ الساعةِ حَقيقةً، / ٥١٤ ـ أ/ وتَحقَّقَتْ.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ مَجيءِ أشراطِها، هي الأعلامُ، والشرائطُ التي جُعِلَتْ عَلَماً لِقيامِها مِنْ نَحوِ نُزولِ عيسى وخُروجِ دابةِ الأرضِ وخُروجِ الدَّجّالِ وغَيرِ ذلكَ، فقد مَضى بَعْضُ تلكَ الأعلامِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي كانَ قد جاءَ أشراطُها؛ إذْ كل ما هو آتٍ جاءٍ، فكانَ ﴿فَقَدْ جَآءَ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: مِنْ أنّى يَنتَفِعونَ بإيمانِهِم في ذلكَ الوقتِ؟ وكيفَ لهمْ مَنفَعةُ الذِّكْرى إذا جاءَتْ؟ والتوبةُ لا تُقبَلُ حينئذٍ.

والثاني: مِنْ أينَ لهمُ الإيمانُ والتوبةُ إذا جاءَتْهُمُ الذِّكْرى؟ أي ما يُذَكِّرُهُمْ في الدنيا قَبْلَ ذلكَ، فلم يُؤْمِنوا، ولم يَتَذَكَّروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهينِ:

أحَدُهما: اعْلَمْ في حادثِ الوقتِ أنهُ لا إلهَ إلّا اللهُ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] ونَحوُ ذلكَ.

والثاني: يقولُ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فاعلَمْ أنَّ الإلهَ المُستَحِقَّ للعبادةِ والمعبودَ الحقَّ هو الإلهُ الذي لا إلهَ غيرُهُ؛ إذِ الإلهُ عندَ العربِ، هو المَعْبودُ الذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ، هو اللهُ تعالى، لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها دونَهُ، وتَزْعُمونَ أنَّ عبادتَكُمْ إياها تُقرِّبُكُمْ[1] إليهِ زُلْفى.

والثالثُ: أمَرَهُ أنْ يُشعِرَ قَلْبَهُ في كلِّ وقتٍ حالَ كلمةِ الإخلاصِ والتوحيدِ لهُ والقولِ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ إنما هو لِافْتِتاحِ الكلامِ وابْتدائِهِ على ما يُؤْمَرُ المرءُ أن يَبْتَدِئَ بالدعاءِ لنفسِهِ عندَ أمْرِهِ بالدعاءِ لِغيرِهِ، وكانَتْ حقيقةُ الأمرِ بالدعاءِ للمؤمنينَ والمؤمناتِ دونَ نفسِهِ، ولكنْ أُمِرَ بالدعاءِ لنفسِهِ اسْتِحْباباً، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لهُ ذنبٌ فيأمُرَهُ بالاستِغفارِ لهُ. لكنْ نحنُ لا نَعلَمُ، وليسَ علينا أنْ نَتَكَلَّفَ حفظَ ذنوبِ الأنبياءِ ﷺ وذِكْرَها. وكلُّ مَوهومٍ منهُ الذنبُ يجوزُ أنْ يؤمَرَ بالاستِغفارِ كقولِ إبراهيمَ ﷺ حينَ[2] قالَ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

لكنْ [ليستْ ذنوبُ][3] الأنبياءِ وخطاياهُمْ كذنوبِ[4] غيرِهِمْ، فذنبُ غيرِهِمُ ارْتِكابُ القبائحِ مِنَ الصغائرِ والكبائرِ، وذنبُهُمْ تَرْكُ الأفضلِ دونَ مُباشرةِ القبيحِ في نفسِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم أرْجَى آيةٍ للمؤمنينَ هذهِ الآيةُ، لأنهُ ﷺ أمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يَستَغفِرَ لهمْ، فلا يُحتَمَلُ ألّا يَستَغفِرَ، وقد أمَرَهُ[5] مولاهُ بالاستِغفارِ، ثم لا يُحتَمَلُ أيضاً أنهُ إذا استَغفَرَ لهمْ على ما أمَرَهُ بهِ فلا يُجيبُ لهُ. وكذلكَ دعاءُ سائرِ الأنبياءِ ﷺ نَحوُ دُعاءِ إبراهيمَ[6] ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] [ونَحوُ دُعاءِ نوحٍ][7] ﷺ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[8] [نوح: ٢٨] ونَحوُ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: تقربون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ليس ذنب. (٤) في الأصل وم: كذنب. (٥) في الأصل وم: أمر. (٦) في الأصل وم: نوح. (٧) في الأصل وم: ونحو ذلك وكذلك دعاء سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلامُ نحو دعاء. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: وقول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

جنة السنة

وكذا استِغفارُ الملائكةِ أيضاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشورى: ٥] وقولِهِ: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ الآية [غافر: ٧].

هذِهِ الآياتُ أرجَى آياتٍ للمؤمنين، ودَعَواتُ الأنبياءِ ﷺ أفضلُ وسائلَ، تكونُ إلى اللهِ تعالى، وأعظمُ قُربٍ عندَهُ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم قولُهُ ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ فيهِ دلالةُ نَقْضِ المُعتزلةِ؛ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الصَّغائرَ مَغفورةٌ، لا يجوزُ للهِ تعالى أنْ يُعذِّبَ عبادَهُ عليها، والكَبائرَ لا يَحِلُّ لهُ أنْ يَغفِرَها لهمْ إلّا بالإسْتِغفارِ منهمْ والتوبةِ. فهذِهِ الآيةُ، تَنْقُضُ قولَهُمْ ومذهَبَهُمْ، لأنهُ أمَرَ رسولَهُ أنْ يَسْتَغفِرَ لهمْ: فلا يَخلُو: إمّا أنْ تكونَ صَغائرَ، وهيَ مَغفورةٌ عندَهُمْ؛ فكأنهُ يقولُ: اللهمَّ لا تَجُرْ، لأنها مَغفورةٌ، لا يَسَعُ لهُ أنْ يُعذِّبَ عليها [وإمّا أنْ تكونَ][1] كبائرَ، ولا يَحِلُّ لهُ المَغفِرَةَ عنها، فيكونُ قولُهُ: اللهمَّ اغفِرْ لهمْ كأنَّهُ قالَ: اللهمَّ جُرْ، لأنَّ مَغفِرَتَهُ[2] إيّاهُمْ عنِ الكَبائرِ تكونُ جَوراً ووَضعَ الشيءِ في غيرِ مَوضِعِهِ. فكيفَ ما كانَ ففيها نقضُ قولِهِمْ وحُجَّةٌ لقولِنا: إنَّ لهُ أنْ يُعذِّبَهُمْ عليها، وإنْ كانَتْ صَغائرَ، ولهُ أنْ يَعفُوَ عنها، وإنْ كانَتْ كَبائرَ؛ إذِ المَغفِرَةُ عنِ الذنبِ تكونُ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: واللهُ يَعلَمُ مُتقَلَّبَكُمْ في النهارِ ومَثْواكُمْ مِنَ الليلِ، وقيلَ: يَعلَمُ ما يتقلَّبونَ بالنهارِ، ويَسكُنونَ بالليلِ، وهما واحدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: واللهُ يَعلَمُ مُتقلَّبَكُمْ في الدنيا ومَثواكُمْ في الآخِرَةِ، أي مُقامَكُمْ فيها. وهو يُخَرَّجُ عندَنا على وجوهٍ:

أحدُها: يَحتَمِلُ هذا الظَّنَّ قومٌ؛ وتوَهُّمُهُمْ أنَّ اللهَ تعالى يَجهَلُ عواقِبَ الأمورِ حينَ[3] أنشأَ هذا العالَمَ، فَجَحَدوهُ، وجَحَدوا نِعَمَهُ، فلا يَحتَمِلُ أنْ يُنشِئَهُمْ، ويَجعَلَ لَهُمُ النِّعَمَ، وهو يَعلَمُ أنهمْ يَجحَدونَ، ويُنكِرونَ نِعَمَهُ، لأنَّ مَنْ فَعَلَ هذا في الشاهِدِ فهو عابثٌ غيرُ حكيمٍ.

فَعَلَى ذلكَ هذا على زَعْمِهِمْ، فقالَ تعالى جواباً لهمْ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ: أنْشَأَهُمْ، وخلَقَهُمْ، لا عَنْ جَهلٍ على ما ظَنّوا هُمْ. لكنْ ما يَنْبَغي لهمْ أن يَنْسُبوا الجَهلَ إلى اللهِ تعالى لِجَهْلِهِمْ حَقَّ[4] الحكمةِ في فِعْلِهِ، لأنَّ اللهَ، جلَّ، وعلا، لم يُنْشِئْ هذا العالَمَ لِحاجةٍ لهُ أو لِمنافِعِ نفسِهِ، بلْ إنما أنْشَأَهُ لِمنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجَتِهِمْ؛ فإليهِمْ تَرْجِعُ مَنْفَعَةُ الإجابةِ والطاعةِ، وعليهِمْ تكونُ مَضَرَّةُ الجحودِ والرَّدِّ.

فأمّا في الشاهِدِ: فَمَنْ يأمُرُ أحداً أمراً، أو يَنْهَهُ عنْ أمرٍ، أو يُرسِلُ إليهِ رسولاً على عِلْمٍ منهُ بالرَّدِّ والجُحودِ، فهو سفيهٌ غيرُ حكيمٍ، لأنهُ إنما يَفعَلُ ما يَفعَلُ لِحاجةِ نفسِهِ ومَنْفَعَةٍ لهُ. فإذا عَلِمَ منهُ الرَّدَّ والإنكارَ فهو غيرُ حكيمٍ، فافتَرَقَ الشاهدُ والغائبُ لِافْتِراقِ وجهِ الحكمةِ، واللهُ الموفِّقُ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي يَعْلَمُ جميعَ أحوالِكُمْ مِنْ حَرَكاتِكُمْ وسُكوتِكُمْ وجميعَ تَقَلُّبِكُمْ لِتكونوا أبداً على حَذَرٍ ويَقَظةٍ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي يَعلَمُ مُتقَلَّبَكُمْ في الدنيا، ويَعلَمُ إلى ماذا يكونُ مَرجِعُكُمْ في الآخِرَةِ، أي أنشأَ كُلّاً على ما عَلِمَ [ما يكونُ منهُ][5] كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقولِهِ[6] تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي أنشأَ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَختارُ الكُفرَ وعداوتَهُ لِجهَنَّمَ، وأنشأَ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَختارُ التوحيدَ وولايَتَهُ لِلجنةِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ إنَّ الذينَ آمنوا كانوا يَتَمَنَّوْنَ إنزالَ السورةِ، ويقولونَ: هلّا نَزَلَتْ سُورةٌ لِوجوهٍ:

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: مغفرة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: بحق. (٥) في الأصل وم: أنه يكون منهم. (٦) في الأصل وم: وقال.

جنة السنة

أحدُها: لِتكونَ السورةُ حُجّةً لهمْ وآيةً على أعدائِهمْ في الرسالةِ والبَعْثِ والتوحيدِ.

والثاني: كانوا يَسْتَبْعِدونَ بإنزالِ السورةِ أشياءَ، ويَزدادُ لهمْ يَقيناً وتَحَقُّقاً في الدينِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾][1] فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ و١٢٥] على ما ذَكَرَ.

والثالثُ: [كانوا][2] يَتَمَنّونَ نُزولَ السورةِ لِيَتَبيَّنَ لهمُ المُصَدِّقُ مِنَ المُكَذِّبِ والمُتَحَقِّقُ مِنَ المُريبِ.

هذهِ الوجوهُ التي ذَكَرْنا تكونُ لأهلِ الإيمانِ. لِذلكَ يَتَمَنَّونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي مُحْدَثَةٌ /٥١٤ ـ ب/ والمُحْدَثَةُ ليستْ بتفسيرٍ لِلمُحكَمَةِ إلا أنْ يَعْنوا بالمُحدَثِ الناسِخَ، والناسِخُ، هو المُحدَثُ والمُتَأخِّرُ نُزولاً، وهو مُحكَمٌ لأنهُ يُلْزِمُ العملَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ لولا أُنزِلَتْ سورةٌ مُحْدَثَةٌ، والوجهُ ما ذَكَرْنا.

والمُحْكَمَةُ عندَنا على وجهَينِ:

أحدُهما: أي مُحْكَمَةٌ بالحُجَجِ والبراهينِ. والثاني: لِما أُنزِلَتْ على أيدي قومٍ، وتَداولَتْ في ما بَينَهُمْ، فلم يُغَيِّروهُ، ولم يُبَدِّلوهُ، بل حَفِظوهُ، لِيُعْلَمَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ، ومنهُ نَزَلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ في القِتالِ خِصالاً:

أحدُها: كَثْرَةُ أهلِ الإسلامِ وكَثْرَةُ الأموالِ، وإنْ كانَ في ظاهِرِ القِتالِ إفناءُ الأنفسِ والأموالِ؛ لأنهُ قَبْلَ أنْ يُفْرَضَ القِتالُ كانَ يَدْخُلُ في الإسلامِ واحدٌ، فلمّا فُرِضَ القِتالُ دَخَلَ فيهِ فَوجٌ فَوجٌ على ما أخْبَرَ ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢].

والثاني: لِيَتَبيَّنَ المُصَدِّقُ مِنهُمْ مِنَ المُكَذِّبِ لهمْ والمُتَحَقِّقُ مِنَ المُريبِ، لأنهُ لم يكُنْ لِيَظْهَرَ، ويَتَبيَّنَ لهمُ المنافِقُ مِنْ غَيرِهِ إلى ذلكَ الوقتِ. فلمّا فُرِضَ القِتالُ عندَ ذلكَ ظَهَرَ وتَبيَّنَ لهمْ أهلُ النِّفاقِ والارْتِيابِ من أهلِ الإيمانِ والتَّصديقِ.

والثالثُ: فيهِ آيةُ الرسالةِ والبَعْثِ.

وأمّا آيةُ الرسالةِ فلأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا عدداً قليلاً، لا عِدَّةَ لهمْ، ولا قُوَّةَ أُمِروا بالقِتالِ معَ عددٍ، لا يُحْصَونَ، ولهمْ عِدَّةٌ وقُوَّةٌ، لِيُعْلَمَ أنهمْ لا بأنفسِهِمْ يُقاتِلونَ، ولكنْ باللهِ تعالى، أو لا يُحْتَمَلُ قيامُ أمثالِهِمْ لِأمثالِ أولئكَ مَعَ كَثْرَتِهِمْ وقُوَّتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا آيةُ البَعْثِ فلأنَّهُمْ أُمِروا بِقِتالِ[3] أقارِبِهِمْ وأرحامِهِمْ والمُتَعَلِّقِ بهمْ، وفي ذلكَ قَطْعُ أرحامِهِمْ وقَطْعُ صِلَةِ قراباتِهِمْ، لِيُعْلَمَ أنهمْ إنما يَفْعَلونَ هذا بالأمرِ لِعاقِبةٍ، تُؤمَّلُ، وتُقْصَدُ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ فِعْلُ ذلكَ بلا عاقِبةٍ تُقْصَدُ وبلا شيءٍ يُعْتَقَدُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ كانَ أهلُ النِّفاقِ يَكْرَهونَ نُزولَ ما يُبَيِّنُ لهمْ ما في ضَميرِهِمْ مِنَ النِّفاقِ والارْتِيابِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] وإذا أُنزِلَتِ السورةُ يَزدادُ لهمْ ما ذَكَرَ حينَ[4] قالَ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هذا وعيدٌ لهمْ كقولِهِ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾][5] [القيامة: ٣٤ و٣٥] لكنْ ظاهِرُهُ ليسَ بِتَوَعُّدٍ ولا تَهَدُّدٍ، إنما ظاهِرُهُ: أي أحْرَى لكُمْ وأولَى أنْ تُطيعوهُ، وأنْ تَقولوا قولاً معروفاً. فإذا تَرَكوا ذلكَ يكونُ وَعيداً، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: وأما المنافقون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بالقتال. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: الآية.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ.

قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ وعزَمَ الأمرُ، فَعِندَ ذلكَ كانَ مِنَ المُنافقينَ ما(١) قالَ: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وليسَ في نفسِ ذِكْرِ القِتالِ ما ذُكِرَ مِنْ نَظَرِ المَغْشِيِّ عليهِ مِنَ الموتِ. إنما ذلكَ الوصفُ وتلكَ الحالُ عندَ وجوبِ القِتالِ ولُزومِهِ وتأكيدِهِ عليهِمْ، وذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي وَجَبَ، وفُرِضَ.

فَعِندَ ذلكَ يكونُ حالُهُمْ ما ذُكِرَ. فأمّا بِذِكْرِ نفسِ القِتالِ فلا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ هو في الآخِرَةِ، أي فإذا تَحقَّقَ، وظَهَرَ ما كانَ أوعَدَ لهمُ الرسولُ ﷺ مِن نُزولِ العذابِ بهِمْ في الآخِرَةِ.

[وقولُهُ تعالى](٢): ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ حينَ(٣) كانَ لا يَزالُ العذابُ بهِمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ هذهِ الآيةِ:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي فَلَعَلَّكُمْ(٤) ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي وُلِّيتُمْ أمرَ هذهِ الأمةِ ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾.

قالَ ابْنُ عباسٍ ﵄ قد كانَ هذا، وهُمْ بَنو أُميةَ، وُلُّوا أمْرَ هذهِ الأمةِ، فَفَعلوا ما ذُكِرَ مِنَ الفَسادِ في الأرضِ وقَطْعِ الأرحامِ، وكانَ لهمُ اتِّصالٌ برسولِ اللهِ ﷺ وكانَ منهم ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيةَ في المُنافِقينَ؛ كانوا يأتونَ رسولَ اللهِ ﷺ ويَسْمَعونَ منهُ ما قالَ، ثم إذا تَوَلَّوا عنهُ كانوا يَسْعَونَ في الأرضِ بالفَسادِ وما ذُكِرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا [وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾](٥) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤ و٢٠٥].

وقالَ بعضُهُمْ: ما نَرى(٦) إلّا نَزَلَتِ الآيةُ في الحَرُوريَّةِ، وهُمْ(٧) الخوارجُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى حينَ(٨) قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقدِ انقَلَبوا على ما أَخبَرَهُ(٩)، وهو في أهلِ الرِّدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قَتادةُ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي طَواعِيةُ اللهِ ورسولِهِ وقولُ المعروفِ(١٠) عندَ حقائقِ الأمورِ خيرٌ لهمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يقولُ: إنْ تَولَّيتُمْ عن كتابي وطاعتي ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقولُ: كيفَ رأيتُمُ القومَ حينَ تَوَلَّوا عن كتابِ اللهِ؟ ألم يَسْفِكوا الدماءَ الحرامَ، وقَطَعوا الأرحامَ، وعَصَوُا الرحمنَ، وأكلوا المالَ الحرامَ؟

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في الذينَ آمنوا برسولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ فلمّا بُعِثَ كَفَروا بهِ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ اللعنُ هو الطَّرْدُ عن الرحمةِ، وهو كقولِهِ لإبليسَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨] أي أنتَ مطرودٌ عن رحمتي، وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طَرَدَهُمْ عن رحمتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ أي أصَمَّهُمْ حتى لم يَسْمَعوا سَماعَ الاعتِبارِ والتَّفَكُّرِ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ حتى لم يَنْظُروا في ما عايَنوا نَظَرَ اعتِبارٍ وتَفَكُّرٍ ما لو تَفَكَّروا، وتأمَّلوا، ونَظَروا نَظَرَ مُعْتَبِرٍ، لأدرَكوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ الآية، فيهِ أنهم لو تَدَبَّروا، وتأمَّلوا فيهِ لأدرَكوا ما فيهِ، وفيهِ أيضاً أنهم لو تَدَبَّروا العذابَ لَفَتَحَ تلكَ الأقفالَ التي ذَكَرَ أنها عليها، وذَهَبَ بها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: فعليكم. (٥) في الأصل وم: إلى قوله. (٦) في الأصل وم: أراه. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في م: أخبر. (١٠) من م، في الأصل: المعتزلة.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي عليها[1] أقفالُها. ثم يَحْتَمِلُ ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ الظلمةَ التي فيها، وهي ظلمةُ الكُفرِ، تلكَ الظلمةُ تُغطّي نورَ البَصرِ ونورَ السَّمْعِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ الأقفالِ، هو[2] كنايةً عنِ الطَّبْعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي زَيَّنَ. أضافَ التَّزيينَ مَرَّةً إلى الشيطانِ ومَرَّةً إلى نَفسِهِ. فما يُفْهَمُ مِنَ الشيطانِ غيرُ الذي يُفْهَمُ مِنْ تَزْيِينِ اللهِ تعالى كالإضلالِ المُضافِ إلى اللهِ تعالى والمضافِ إلى الشيطانِ. فالمَفْهومُ مِنْ إضلالِ اللهِ غيرُ المَفْهومِ مِنْ إضلالِ الشيطانِ. فَعَلَى ذلكَ التزيينُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي أخَّرَهُمْ، وأمهلَهُمْ إلى أجلٍ ووقتٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨] أي يُؤَخِّرُهُمْ ليكونَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ الآية جائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في اليهودِ لِما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا آمَنوا بِهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ كقولِهِ. ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم / ٥١٥ ـ أ/ مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ الآية [البقرة: ٨٩] ارْتَدُّوا على أدبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما آمَنوا بِهِ، واتَّبعوهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في المُنافِقِينَ؛ ارْتَدُّوا على أدبارِهِمْ، وأَظْهَروا الخلافَ بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ ما أظْهَروا المُوافقةَ في حياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ راجِعٌ إلى قولِهِ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ فإذا احْتَمَلَ ذلكَ الوجهينِ فلا نُفَسِّرُهُ أنهُ إلى ماذا يَرْجِعُ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ هُمُ المنافقونَ، قالوا لليهودِ: سَنطيعُكُمْ في تكذيبِ محمدٍ والمُظاهرةِ عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ اليهودُ ظاهَروا سائرَ الكَفَرةِ على محمدٍ ﷺ وأصحابِهِ ﷺ.

ثم كَراهةُ نزولِ ما أَنْزَلَ اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ كانَتْ[3] مِنَ اليهودِ وجميعِ الكَفَرةِ لقولِهِ تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ هذا يدلُّ على أنهُ لا يُفَسَّرُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ ولا يُشارُ على أنهُ أرادَ كذا، ورَجَعَ إلى كذا، لِما أخبَرَ اللهُ تعالى أنهُ هو العالِمُ بما أَسَرُّوا، ولم يُبَيِّنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٧ و٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ اتِّباعِ سُخْطِ اللهِ ولا كَراهةَ رِضوانِهِ، لكنهمْ لَمّا اتَّبَعوا الفِعْلَ الذي كانَ اللهُ يُسْخِطُهُ[4] ذلكَ الفِعْلُ فكأنهمْ اتَّبَعوا سُخْطَهُ. وكذلكَ إذا تَرَكوا ما كانَ اللهُ يَرْضاهُ، وكَرِهوهُ، فكأنهمْ كَرِهوا رِضوانَهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ. لكنهمْ لَمّا اتَّبَعوهُ في ما يَأْمُرُهُمْ، ويَدعوهُمْ إليهِ، فكأنهمْ عَبَدوهُ، وهو تَسْمِيَةُ الشيءِ باسمِ سَبَبِهِ، واللغةُ غَيرُ مُمْتَنِعَةٍ عن تَسْمِيَةِ الشيءِ باسْمِ سَبَبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي كانَتْ قَبْلَ ارْتِدادِهِمْ في حالِ اتِّباعِهِمْ إياهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أي أم حَسِبَ المُنافِقونَ أنْ لَنْ يُظْهِرَ اللهُ عداوَتَهُ، وأنْ لنْ يُبْدِيَ اللهُ ما في قلوبِهِمْ مِنَ العَداوةِ؛ جَعَلَ اللهُ، جَلَّ، وعلا، في إظهارِ ما أَسَرَّ أهلُ النِّفاقِ وإبداءِ ما أخْفَوهُ في ما بَينَهُمْ آيةً عظيمةً ودلالةً ظاهرةً على رسالةِ رسولِهِ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: على قلوب. (٢) في الأصل وم: هي. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) في الأصل وم: يسخط.

جنة السنة

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ كأنهُ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: ولو نشاءُ لأريناكَهُمْ بسيماهُمْ بالنَّظرِ إليهِمْ بالبديهةِ، ولَتَعرِفَنَّهُمْ أيضاً في لَحْنِ القولِ، أي لو نشاءُ لَجَعَلْنا لهمْ أعلاماً في الوجهِ والقولِ لِتَعرِفَهُمْ، ولكنْ لم يَجْعلْ لهمْ، ولكنْ جعَلَ معرفتَهُمْ بأعمالٍ يَعْملونَ، فَيَظْهرُ نِفاقُهُمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] وقولِهِ [في آيةٍ أُخرى][2]: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وقولِهِ [في آيةٍ أُخرى][3]: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٤٥] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ ممّا يُظْهِرُ نِفاقَهُمْ وخِلافَهُمْ بالأعمالِ التي كانوا يَعْملونَ. فَدَلَّتْ هذهِ الآياتُ على أنهُ كانَ لا يَعرِفُهُمْ بالسِّيماءِ والنُّطقِ والقولِ والأجسامِ، وإنما يَعرِفُهُمْ بأفعالٍ كانوا يَفْعلونَها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي فَحْوَى الكلامِ، فكانَ يَعرِفُهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ إذا تكلَّموا. فَيُخَرَّجُ على هذا التأويلِ قولُهُ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ على الوَقتِ[4]، أي تَعرِفُهُمْ في حادثِ الوقتِ[5]، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: يُقالُ: رَجُلٌ ألحَنُ بِحُجَجِهِ، ويقالُ: لَحَنَ يَلْحَنُ، إذا أخطأَ، لَحْناً، فهو لاحِنٌ، كأنهُ مِنَ العُدولِ والمَيلِ عنِ الحقِّ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي في فَحْوَى كلامِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما، واللهُ أعلَمُ: ما تُسِرُّونَ مِنَ الأعمالِ وتُخفونَها.

والثاني: على الجملةِ، أي يَعْلَمُ جميعَ أعمالِهِمْ ما أسَرُّوا، وأعلَنوا، يُخَرَّجُ على الوَعيدِ كقولِهِ: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي حتى يَعْلَمَ أولياؤُهُ المُجاهدينَ منكُمْ والصابرينَ مِنْ غيرِ المُجاهدينَ وغيرِ الصابرينَ، فيكونُ المُرادُ مِنْ إضافتِهِ العِلْمَ إلى نفسِهِ عِلْمَ أوليائِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقولِهِ ﷻ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ونَحْوَهُ. فالمُرادُ منهُ أولياؤُهُ على أحدِ التأويلاتِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يكونُ المرادُ بالعِلْمِ المَعْلومَ، وذلكَ جائزٌ في اللسانِ واللغةِ؛ يقولُ الناسُ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، أي مأمورُ اللهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المُوقَنُ بهِ [وقولِهِ تعالى][7]: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ [المائدة: ٥] أي بالمؤمَنِ بهِ، ونَحْوُ ذلكَ كثيرٌ.

والثالثُ: أي يَعْلَمُ كائناً ما قد عَلِمَهُ أنهُ سيكونُ؛ إذْ لا يَجوزُ أنْ يوصَفَ هو بِعِلْمِ ما سيكونُ يَعْلَمُهُ كائناً أو بِعِلْمِ ما قد كانَ يَعْلَمُهُ أنه يكونُ كائناً، ولكنْ يُوصَفُ بما قد عَلِمَهُ كائناً أنهُ عَلِمَهُ كائناً أو بِعِلْمِ ما عَلِمَ أنهُ سيكونُ أنهُ يكونُ، لأنهُ يُوجِبُ الجهلَ، ويكونُ التَّغيُّرُ في ذلكَ المَعْلومِ لا في عِلْمِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ونَبْلُوَ في أخبارِكُمُ التي أخبَرْتُمْ عن أنفسِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤] وقولُهُ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ نَبلُو في تلكَ الأخبارِ التي أخبَروا عنْ أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الوعد. (٥) في الأصل وم: الوعد.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا ابْتُلوا في قولِهِمُ الذي قالوا، وأعطَوا بِلِسانِهِمْ حينَ(١) قالوا: آمَنّا كقولِهِ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١و٢] فُتِنوا في ما قالوا، وأخبَروا، أيِ ابْتُلوا؛ فالفِتْنَةُ والمِحْنَةُ والابْتِلاءُ والبَلاءُ واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي نُظْهِرَ نفاقَكُمْ للمسلمينَ، إذْ كانَ اللهُ تعالى عالماً قَبْلَ أنْ يَبْلُوَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿كَفَرُوا۟﴾ أي كَفَروا بِنِعَمِ اللهِ مِنَ الكُفْرانِ، أو كَفَروا بِتَوحيدِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَصَدُّوا۟﴾ أي أعرَضوا بأنفسِهِمْ عنْ دينِ اللهِ، ويَحتَمِلُ ﴿وَصَدُّوا۟﴾ أي صَرَفوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي عادوهُ، وعاندوهُ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ يَحتَمِلُ لَنْ يَضُرّوا اللهَ بكُفرانِهِمْ نِعَمَهُ أو بكُفرِهِمْ بِوَحدانيَّتِهِ(٢)؛ ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ ليسَ يَأمُرُ، ويَنْهى لِحاجةِ أنفُسِ أولئكَ ولِمنافِعِهِمْ. فهمْ بِتَرْكِهِمُ اتّباعَ أمْرِهِ والانْتِهاءَ عنْ نَهْيِهِ ضَرّوا أنفسَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي لَنْ يَضُرّوا أولياءَ اللهِ بما كَفَروا، وصَدّوهُمْ عنْ سَبيلِهِ، بل ضَرّوا أنفسَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي إنْ تَنصُروا أولياءَ اللهِ يَنصُرْكُمْ. /٥١٥ ـ ب/

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يَحتَمِلُ حَبْطُ الأعمالِ بالارْتِدادِ بَعْدَ الإيمانِ وإحداثِ الكُفرِ بَعْدَ الإسلامِ ويَحتَمِلُ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي كانَتْ لهمْ بالإيمانِ قَبْلَ بعثِهِ ﷺ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي أطيعوا اللهَ في الجهادِ، ولا تُبْطِلوا حَسَناتِكُمْ بالرِّياءِ والسُّمْعَةِ. وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ اتّقوا اللهَ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

ويَحتَمِلُ ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالارْتِدادِ والكُفرِ بَعْدَ الإيمانِ. ويَحتَمِلُ أي لا تُبْطِلوا أعمالَكُمْ بالمَنِّ على اللهِ أو على الرسولِ في الإسلامِ، أي تُسْلِمونَ، وتَمُنّونَ(٣) على اللهِ أو على رسولِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ﴾ الآية [الحجرات: ١٧].

وقالَ قتادةُ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالرِّياءِ، وقالَ: فَمَنِ استطاعَ منكُمْ ألا يُبْطِلَ عملاً صالحاً بعملٍ سَيِّءٍ فَلْيَفْعَلْ؛ إنَّ الشَّرَّ يَنْسَخُ الخيرَ، وإنما صَلاحُ(٤) العملِ بِخَواتيمِهِ، فَمَنِ استطاعَ أنْ يَخْتِمَ بِخَيرٍ فَلْيَفْعَلْ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ](٥) قالَ: ما كُنّا، معشرَ أصحابِ محمدٍ ﷺ نَرى شيئاً يُبْطِلُ أعمالَنا حتى نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ، فَعَلِمْنا ما الذي يُبْطِلُ أعمالَنا الكبائرَ الموجِباتِ الفواحشَ، فكُنّا على ذلكَ حتى أنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الآية [النساء: ٤٨] فلما نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ كَفَفْنا عنْ هذا القولِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ هذا(٦) ليكونوا أبداً على اليَقَظَةِ والحَذَرِ لئلا تَبْطُلَ أعمالُهُمْ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرونَ كقولِهِ تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وفي حَرْفِ أُبَيٍّ ﷺ ولا تُبْطِلوا إيمانَكُمْ(٧).

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ تأويلُها ظاهرٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: بوحدانية الله تعالى. (٣) في الأصل وم: متمنون. (٤) في الأصل وم: ملاك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٧) من م، في الأصل: أعمالكم.

جنة السنة

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي لا تضعُفوا، وتَدْعُوا إلى الصُّلْحِ. كذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، وقالَ أبو عوسَجَةَ، السِّلْمُ بكسرِ[1] السينِ: الصُّلْحُ، ولا أعرِفُ بِفَتْحِ السينِ ههنا لهُ مَعْنًى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتمُ الغالبونَ؛ فيهِ النَّهْيُ عنِ الدعاءِ إلى الصُّلْحِ إذا كانوا همُ الأعْلَونَ، أعني أهلَ الإسلامِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

يَحْتَمِلُ ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ بالحُجَجِ والبَراهينِ في كلِّ وقتٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ بالقَهْرِ والغَلَبَةِ في العاقبةِ، أي آخِرُ الأمْرِ لكُمْ.

ويَحْتَمِلُ ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ، لأنهمْ، وإنْ غُلِبوا في الدنيا، وقُتِلوا، كانَتْ لهمُ الآخِرَةُ، وإنْ ظَفِروا بهِمْ، كانَتْ لهمُ الدنيا والأموالُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتمْ أولَى باللهِ منهمْ، وهو ما ذَكَرْنا في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مَعَكُمْ﴾ في النَّصْرِ والغَلَبَةِ، ويَحْتَمِلُ ﴿مَعَكُمْ﴾ في الوَعْدِ الذي وَعَدَ، أي يُنْجِزُ ما وَعَدَ لكمْ في الدنيا، ويَفِي بذلكَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: أي لنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافرينَ عليكُمْ مَظْلَمَةً ولا تَبِعَةً، وهو يَحْتَمِلُ في الدنيا والآخِرَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لنْ يَنْقُصَكُمْ أعمالَكُمْ، وكذا قالَ أبو عوسَجَةَ؛ يُقالُ: وَتَرَهُ، أي نَقَصَهُ، وقالَ بعضُهُمْ: لَنْ يَظْلِمَكُمْ أعمالَكُمْ؛ يُقالُ: وتَرَني حَقِّي، أي بَخَسَنيهِ، كذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، ولكنْ كلاهُما واحدٌ في المَعْنَى، أي لا يَنْقُصُ من أعمالِهِمْ شيئاً، ولا يُظْلَمونَ فيها، ولا يُبْخَسُونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي الحياةُ[2] الدنيا على ما عندَهُمْ وعلى ما يُقَدِّرونَ لَعِبٌ ولَهْوٌ، لأنهمْ كانوا يقولونَ: أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ [بَعْدَ الموتِ][3]. فَعَلَى ما عندَهمْ تكونُ الحياةُ[4] الدنيا على ما ذَكَرَ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ سَمّاها لَهْواً ولَعِباً لأنهم على ما يَزْعُمونَ أنْشَأها لِلانْقِطاعِ والفَناءِ، لا لِتُكْتَسَبَ بها الحياةُ الدائمةُ في الآخِرَةِ، وإنشاءُ الشيءِ لِلانْقِطاعِ والفَناءِ خاصةً بلا عاقبةٍ تُقْصَدُ يكونُ لَعِباً ولَهْواً.

ثم اللَّعِبُ واللَّهْوُ يجوزُ أنْ يكونا شيئاً واحداً، ويجوزُ أنْ يكونَ أحَدُهُما ممّا يُسْتَمْتَعُ بظاهِرِ الأشياءِ، والآخَرُ ممّا يُسْتَمْتَعُ بباطِنِ الأشياءِ: اللَّعِبُ هو ما يُسْتَمْتَعُ بظواهِرِ الأشياءِ، واللَّهْوُ هو ما يُتَلَهَّى ببَواطِنِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي وإنْ تؤمنوا بما أُمِرْتُمُ الإيمانَ [بهِ][5] وتَتَّقوا عمّا نُهيتُمْ عن مُخالفةِ أمْرِهِ ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ بفضلِهِ ورحمتِهِ لأعمالِهِمُ التي يَعْمَلونَ لأنفسِهِمْ أجراً؛ إذْ لا أحَدَ يَعْمَلُ لنفسِهِ، ويأخذُ الأجْرَ مِنْ غَيرِهِ، لأنهمْ بالأعمالِ يُسْقِطونَ عنْ أنفسِهِمُ التَّكليفَ بالشكرِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى. حينَ[6] أسْدَى عليهمُ النِّعَمَ ابْتِداءً. لكنهُ جَعَلَ لأعمالِهِمْ أجراً، كأنهمْ يَعْمَلونَ لهُ ابْتِداءً، وإنْ كانوا عامِلينَ لأنفسِهِمْ حقيقةً، وإليهِ تَرجِعُ مَنافعُ أعمالِهِمْ، ولأنَّ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ في الحقيقةِ للهِ تعالى، فكيفَ يَسْتَحِقُّونَ الأجْرَ على مَولاهُمْ بأعمالِهِمْ؟ وذا كما ذَكَرْنا مِنَ الإقراضِ لهُ والاسْتِدانةِ منهُ، كأنْ لا مُلْكَ لهُ في ذلكَ، وأنْ ليسَ لهُ ذلكَ، وإنْ كانَتْ حقيقةُ أملاكِهِمْ وأنفسِهِمْ للهِ تعالى فضلاً منهُ وكَرَماً. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/١٩٧. (٢) في الأصل وم: حياة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حياة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

أحَدُهما: أي ليس يَسألُكُم الإنفاقَ مِن أموالِكُم، وإنما يَسألُكُم مِن مالِهِ لِتَستَمتِعوا بمالِ غيرِهِ لأنفسِكُم، وتَجعَلوهُ ذُخراً لأنفسِكُمْ غيرَ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي لو كانَ يَسألُكُم مِن أموالِكُم لَبَخِلتُم، وتَركتُم الإنفاقَ منها.

والثاني: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي ولا يَسألُكُمُ الإنفاقَ مِن جميعِ أموالِكُم، ولكن إنما يَسألُكُمُ الإنفاقَ مِن طائفةٍ مِن أموالِكُم ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ لو[1] يَسألُكُم جميعَ أموالِكُم لَحَمَلَكُمْ ذلكَ على البُخلِ وتَركِ الإنفاقِ. فإن يَسألُكُم الإنفاقَ مِن جُزءٍ مِن أموالِكُم فلماذا بَخِلتُم، وتَركتُمُ الإنفاقَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ يُخرَجُ على [وجهَينِ:

أحَدُهما:][2] أن يَحمِلَكُمْ على البخلِ لو سَألَكُمْ جميعَ [أموالِكُمْ.

والثاني:][3] ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي فَيَجعَلَكُمْ حُفاةً، لا شيءَ يَبقَى عندَكُمْ. الإحفاءُ أن يُؤخَذَ كلُّ شيءٍ عندَهُ، وهو مِنَ الاستِئصالِ، ومنهُ إحفاءُ الشوارِبِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الإحفاءُ شِدّةُ المسألةِ، أي أن يُلِحَّ عليكُمْ في ما يُوجِبُهُ في أموالِكُمْ. ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ يُقالُ. أحفَى في المسألةِ، وألْحَفَ، وألَحَّ، واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي لو أمَرَ بالإنفاقِ مِن جميعِ أموالِكُم أو مِن أموالِكُمْ حقيقةً لَظَهَرَ ذلكَ مِن أضغانِكُمُ التي في قلوبِكُمْ لأنَّ ذلكَ الأمرَ إنما يَجري على ألسُنِ الرسلِ، فَيُوجِبُ[4] ذلكَ إظهارَ ما في قلوبِهِمْ مِنَ الضَّغائِنِ للرسلِ ﷺ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو في المُنافِقينَ، فيكونُ الأمرُ بالإنفاقِ سَبَبَ إظهارِ نِفاقِهِمْ وضَغائِنِهِمْ وَعداوَتِهِمْ، فكانَ كالأمرِ بالقِتالِ، كأنهُ سَبَبٌ لإظهارِ نفاقِهِمْ.

وإنْ كانَ في المسلمينَ فَيَحتَمِلُ أنهُ قالَ ذلكَ تَحريضاً لهمْ على الإنفاقِ والتَّصدُّقِ، كأنهُ سَبَبُ إخراجِ الضَّغائِنِ والعَداوةِ لِما فيهِ مِنَ التَّحبُّبِ والتَّوَدُّدِ بإيصالِ ما هو مَحبوبٌ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في إظهارِ دينِ اللهِ أو في طاعةِ اللهِ أو في الجهادِ لأنَّ الإنفاقَ في ذلكَ كلِّهِ في سَبيلِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ /٥١٦ ـ أ/ الإنفاقَ لهمْ حقيقةً إذا أنفَقوا في ما أمَرَهُمُ اللهُ تعالى بالإنفاقِ في طاعتِهِ، عندَ ذلكَ تَصيرُ تلكَ الأموالُ لهمْ لأنهمْ إذا أنفَقوا في ما أمَرَ اللهُ تعالى انتَفَعوا بها في الدنيا، واستَمتَعَتْ أنفسُهُمْ، وتَلَذَّذَتْ، وانتَفَعوا بها في الآخِرَةِ وقتَ حاجتِهِمْ وفَقرِهِمْ. بذلكَ تَتَحقَّقُ لهمْ، وتُحَصَّلُ تلكَ الأموالُ.

فأمّا عندَ تَركِهِمُ الإنفاقَ في ما أمَرَ بالإنفاقِ والبَذلِ فلا تَتَحقَّقُ لهمْ تلكَ الأموالُ المَجعولةُ في أيديهِمْ لأنهُ إمّا أن تُجعَلَ لوارِثِهِمْ، أو يَأخُذَها منهمْ بلا سَبَبٍ مِن غيرِ أنْ يَجعَلَ لهمْ بذلكَ نَفعٌ يَحصَلُ لهمْ، فيكونُ ما ذَكَرْنا.

فذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، واللهُ أعلَمُ، لما يُهلِكُ نفسَهُ بِتَركِ الإنفاقِ منها، فلم يَتَمَتَّعْ، ولم يَنتَفِعْ بهِ وقتَ حاجتِهِ إليهِ في الآخِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ عنِ الصدقةِ والإنفاقِ في طاعةِ اللهِ ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقةِ في طاعةِ اللهِ ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ بالجزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي واللهُ الغَنيُّ عن إنفاقِكُمْ وعمّا يَأمُرُكُمْ بالإنفاقِ، وأنتمُ الفقراءُ إلى ما

---

(١) من م، في الأصل: لم. (٢) في الأصل وم: وجوه أحدها. (٣) في الأصل وم: الأموال ويحتمل. (٤) في الأصل وم: فوجب.

جنة السنة

تُنْفِقونَ، أي أنتمُ المُنْتَفِعونَ بذلكَ الإنفاقِ الذي يأمُرُكُم بهِ [لا أنهُ][1] يُرْجِعُ مَنْفَعَةَ ذلكَ إليهِ، أو يأمُرُ لحاجةِ نفسِهِ، ولكنْ إنما يأمُرُكُم بذلكَ لحاجَتِكُمْ إليهِ يوماً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عنكُمْ وعمّا في أيديكُمْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إليهِ في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ في جميعِ أحوالِكُمْ وأوقاتِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن أموالِكُمْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إلى مَغْفِرَتِهِ ورزقِهِ وجَنَّتِهِ ورحمتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ قالَ بعضُهُمْ: قد تَوَلَّوا، وهمْ أهلُ مكةَ، واسْتَبْدَلَ قوماً غيرَهُمْ[2]، وهُمْ أهلُ المدينةِ. لكنَّ هذا بعيدٌ لأنَّ السورةَ مدنيّةٌ فلا يَحْتَمِلُ الخطابُ بهِ لأهلِ مكةَ بقولِهِ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ ومنهمْ مَنْ يقولُ: اللهُ ﷻ أخبَرَ، وَوَعَدَ أهلَ المدينةِ أنهمْ إنْ يَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلُ[3] غيرَهُمْ أطوَعَ منهمْ للهِ تعالى، فلا تَوَلّى[4] هؤلاءِ، ولا اسْتَبْدَلَ غيرَهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: هو على وجهَينِ:

أحدُهما: قولُهُ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [أي لم تَتَوَلَّوا، ولم يَسْتَبْدِلْ قوماً غيرَكُمْ][5].

والوَجْهُ الآخَرُ: قد تَوَلَّوا، واسْتَبْدَلَ بهمُ النَّخَعَ وأحْمَسَ وناساً[6] مِنْ كِنْدَةَ. والذينَ تَوَلَّوا: حَنْظَلَةُ وأسَدٌ وغَطَفانُ وبنو فلانٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ﴾ أي لا يكونوا أمثالَكُمْ في الطاعةِ للهِ تعالى، بل أطوَعَ لهُ وأخضَعَ واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ «فضَرَبَ بيدِهِ على فَخِذِ سَلْمانَ الفارسيِّ، وقالَ: والذي نفسي بيدِهِ لو كانَ الدينُ مَنوطاً بالثريّا لَتَناوَلَهُ رجالٌ مِنْ فارسَ» [الترمذي ٣٢٦١].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رأيتُ غَنَماً سوداءَ، ردفَها غَنَمٌ بيضٌ، فاختَلَطَتْ بها، فَتَعَقَّبْتُ بهنّ جميعاً. قالوا: يا رسولَ اللهِ ﷺ فما أوَّلْتَ؟ قالَ: العَجَمُ يَشْرُكونَكُمْ في دِينِكُمْ وأنسابِكُمْ. قالوا: العَجَمُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: نعمْ، لو كانَ الإيمانُ مُعَلَّقاً بالثُّرَيّا لَتَناوَلَهُ رجالٌ مِنَ العَجَمِ، وأسْعَدُهُمْ بهِ أهلُ فارسَ» [الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٩٥].

فإنْ ثَبَتَ هذا الخَبَرُ فجائزٌ أنْ يُسْتَدَلَّ بهِ على جَعْلِ العَجَمِ أكفاءَ العَرَبِ لأنهُ قالَ: «يَشْرُكونَكُمْ في أنسابِكُمْ» فإذا أشْرَكوهُمْ في أنسابِهِمْ صاروا أكفاءَ لهمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: «يَشْرُكونَكُمْ في أنسابِكُمْ» لأنهمْ يَتَزاوجونَ[7]، فَيَلِدُ منهمْ أولادٌ، فَيَشْرُكونَهُمْ في ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وعنْ أبي هُرَيرةَ ﷺ أنهُ قالَ: «تَلا رسولُ اللهِ ﷺ هذهِ الآيةَ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ قالوا: مَنْ هؤلاءِ؟ فَضَرَبَ رسولُ اللهِ ﷺ على مَنْكِبِ سَلْمانَ، ثم قالَ: هذا وقومُهُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٦/ ٦٧].

وقالَ في حديثٍ آخَرَ: «والذي نفسي بيدِهِ لو كانَ الإيمانُ مَنوطاً بالثُّرَيّا لَتَناوَلَهُ رجالٌ مِنْ فارسَ» [الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٩٥] واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

[وصلّى اللهُ تعالى على محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ][8].

---

(١) من م، في الأصل: لك. (٢) في الأصل وم: غيركم. (٣) في الأصل وم: استبدل. (٤) في الأصل وم: تولوا. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وناس. (٧) في الأصل: ينسبون، في م: ينسبونهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

[سورة الفتح

مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو فَتْحُ مكةَ، وقالَ بعضُهُمْ: هو صُلْحُ الحُدَيبيَةِ الذي كانَ بَينَ رسولِ اللهِ ﷺ وبَينَ أهلِ مكةَ حينَ صَدُّوهُمْ عن دخولِهِمْ مكةَ، وحالوا بَينَهُ وبَينَ زيارةِ البيتِ، وكانَ لهُ فيها، أعني في قصةِ الحُدَيبيَةِ أمْرانِ وآيَتانِ ظاهرتانِ عظيمتانِ:

إحداهما[2]: أنهُ أصابَهُ، ومَنْ مَعَهُ مِنْ أصحابِهِ عَطَشٌ، فأُتيَ بإناءِ ماءٍ، فَنَبَعَ مِنْ ذلكَ الإناءِ مِنَ الماءِ مِقْدارُ ما شَرِبَ منهُ زُهاءُ ألفٍ وخمسِ مئةٍ حتى رُوُوا جميعاً، فتلكَ آيةٌ عظيمةٌ على رسالتِهِ.

والثانيةُ[3]: أخبَرَ بغَلَبَةِ الرومِ الفارسَ، وذلكَ عِلْمُ غَيبٍ، وكانَ كما ذكَرَ، وأخبَرَ، فَدَلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقصةُ الحُدَيبيَةِ: رُوِيَ عن رجلٍ، يُقالُ لهُ: مُجَمِّعُ بْنُ حارثةَ [أنهُ][4] قالَ: شَهِدْتُ الحُدَيبيَةَ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ فلمّا انْصَرَفَ عنها، صارَ[5] الناسُ يُوجِفونَ الأباعِرَ، فقالَ بعضُ الناسِ لبعضٍ: ما لِلناسِ؟ قالَ: أُوحِيَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: فَخَرَجْنا نُوجِفُ مَعَ الناسِ حتى وجَدْنا رسولَ اللهِ ﷺ واقفاً عندَ كُراعِ الغَميمِ [وهو][6] اسْمُ مَوضعٍ. فلما اجْتَمَعَ إليهِ بعضُ ما يريدُ مِنَ الناسِ قَرَأَ عليهِمْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قالَ: قالَ رجلٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ: أوَ فَتْحٌ هو يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: إي والذي نفسي بيدِهِ إنهُ لَفَتْحٌ، قالَ: ثم قُسِّمَتِ الحُدَيبيَةُ على ثمانيةَ عشَرَ سَهماً، وكانَ الجيشُ ألفاً وخمسَ مئةٍ.

وفي بعضِ الأخبارِ أنهُ الصلحُ الذي كانَ بينَ رسولِ اللهِ ﷺ وبَينَ المُشركينَ، ولم نَرَ قِتالاً، ولو رأينا[7] لَقاتَلْنا، قالَ: فَنَزَلَتْ سورةُ الفَتحِ، فأرسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى عُمَرَ ﷺ فأقرأها إياهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ أفَتْحٌ هو؟ قالَ نعم.

وعَنْ عامرٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ بالحُدَيبيَةِ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقالَ رجلٌ: أفَتْحٌ هو؟ قالَ نعم.

وعَنْ جابرٍ أنهُ قالَ: ما كُنّا نَعُدُّ الفَتحَ إلّا يومَ الحُدَيبيَةِ، وكذلكَ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بْنِ مَسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: نزلَتْ هذهِ الآيةُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بالحُدَيبيَةِ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: لم يكنْ في الإسلامِ فَتحٌ أعظَمُ مِنْ صُلحِ الحُدَيبيَةِ؛ وَضعَتِ الحَرْبُ أوزارَها، وأمِنَ الناسُ كُلُّهُمْ، ودَخَلَ في الإسلامِ في السَّنتَينِ أكثَرُ ممّا كانَ دَخَلَ قُبَيلَ ذلكَ. فلمّا رَجَعَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الحُدَيبيَةِ... وفي الحديثِ طولٌ، تَرَكْنا ذِكْرَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ/٥١٦ ـ ب/ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: إنّا قَضَينا ذلكَ قضاءً بَيِّناً بالحُجَجِ والبراهينِ على رسالتِكَ ونُبُوَّتِكَ لِيُعلَمَ أنكَ مُحِقٌّ على ما تَدعو، صادقٌ في قولِكَ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ بما أكرَمَكَ، وعَظَّمَ أمْرَكَ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ، أي أعطاكَ ذلكَ، وأكرَمَكَ بهِ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

---

(١) في م: ذكر أن سورة الفتح مدنية، في الأصل: سورة الفتح. (٢) في الأصل وم: أحدهما. (٣) في الأصل وم: والثاني. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: نرى.

جنة السنة

والثاني: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ما لم يَطْمَعْ أحدٌ مِنَ الخلائِقِ أنهُ يَفْتحُ عليكَ أمثالَ تلكَ الفُتوحِ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

والثالثُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ جميعَ أبوابِ الحِكمةِ والعُلومِ وجميعَ أبوابِ الخيراتِ والحَسَناتِ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ بما أكرَمَكَ مِنَ أبوابِ الحكمةِ والخيراتِ[1].

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يَرْجِعُ إلى ذَنْبِهِ؛ أخْبَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ. ثم لا يَجوزُ لنا أنْ نَبحثَ عن ذَنْبِهِ، ونتكلَّفَ أنهُ ما كانَ ذَنْبُهُ، وإيش كانتْ زلَّتُهُ، لأنَّ البَحْثَ عنْ زلَّتِهِ ممّا يُوجِبُ النَّقْصَ فيهِ؛ فَمَنْ يَتكلَّفِ البَحْثَ عنْ ذلكَ فَيُخافُ عليهِ الكُفْرُ. لكنَّ ذَنْبَهُ وذَنْبَ سائرِ الأنبياءِ ﷺ ليسَ نَظيرَ ذَنْبِنا؛ إذْ ذَنْبُهُمْ بِمَنْزِلَةِ فِعْلٍ مُباحٍ منّا لكنَّهُمْ نُهوا عن ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أنْ يَغْفِرَ ذَنْبَهُ ابْتِداءَ غُفرانٍ، أي عَصَمَهُ عنْ ذلكَ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، واللهُ أعلَمُ.

والوَجْهُ الثاني: يَرْجِعُ إلى ذُنوبِ أمّتِهِ، أي لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ذُنوبَ أمّتِكَ، وهو ما يَشْفَعُ لأمّتِهِ، فَيَغْفِرُ لأمّتِهِ[2] بِشَفاعتِهِ، وهو كما رُوِيَ في الخَبَرِ «يُغْفَرُ لِلمؤذِّنِ مَدُّ صَوتِهِ» [أحمد ٢/١٣٦] أي يَجْعَلُ لهُ الشفاعةَ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يَغْفِرَ لأمّتِهِ[3] بِشَفاعتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يَحتَمِلُ إتمامُ نِعْمَتِهِ عليهِ هو ما ذَكَرْنا مِنَ الرسالةِ والنُّبُوّةِ وفَتْحِ ما ذَكَرَ مِنْ أبوابِ الخَيراتِ والحِكْمَةِ في الدنيا والآخِرةِ، أو الشَّفاعةُ لهُ في الآخِرةِ أو إظهارُ دينِهِ [على الأديانِ][4] كلُّها أو إياسُ أولئكَ الكَفَرةِ عنْ عَودِهِ إلى دينِهِمْ كقولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآيةَ [المائدة: ٣] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يَنصُرَكَ نَصْراً عَزيزاً بالغَلَبَةِ عليهِمْ والقَهْرِ والظَّفَرِ لا صُلْحاً ولا مُواعَدَةً.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُ أهلِ التأويلِ: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ لا يُستَذَلُّ، ولا يُستَزَلُّ.

وظاهرُ الآيةِ ليسَ على ذلكَ لأنهُ [قالَهُ على إثْرِ قولِهِ][5]: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ لأنَّ الخَيراتِ والحَسَناتِ تكونُ سَبَباً لِلمَغْفِرةِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الفَتْحِ لهُ والمَغْفِرةِ هذا لا لِما ذَكَرَهُ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُسألُ عنِ الفَتْحِ لِما أقْدَمَ على أسبابِ الفَتْحِ، وهو القِتالُ مع الكَفَرةِ ونَحْوُ ذلكَ، وذلكَ مِنَ الخَيراتِ التي تكونُ سَبَبَ المَغْفِرةِ. إلّا أنَّ اللهَ تعالى أضافَ الفَتْحَ إلى نَفْسِهِ [بقولِهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ لِما أنهُ هو الخالقُ لتلكَ الأسبابِ والمُنْشِئُ لِعَمَلِ الجِهادِ][6] والقِتالِ معهُمْ، اللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الفَتْحِ لهُ هو أنَّ اللهَ جَعَلَ رسولَهُ بحيثُ لا يَخُطُّ بيدِهِ خَطّاً، ولا يكتُبُ كتاباً، ولا يَفْهَمُ كتابةً، وهو ما وَصَفَهُ اللهُ، جَلَّ، وعَلا، بقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] لِدَفْعِ ارْتِيابِ المُبْطِلينَ فيهِ على [ما][7] ذَكَرَ.

ثم مع أنهُ جَعَلَهُ هكذا أحْوَجَ جميعَ حُكَماءِ الخَلْقِ إليهِ، وأحْوَجَ أيضاً جميعَ أهلِ الكتبِ السالفةِ إليهِ في مَعْرِفةِ ما ضَمَّنَ كتابَهُ المُنزَّلَ عليهِ، وجَعَلَهُ رسولاً إليهِم، فيكونُ كأنهُ قالَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [النُّبوّةَ][8] والحكمةَ وأنواعَ العلومِ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: يخرج على هذه الوجوه الثالثة والله أعلم. (٢) في الأصل وم: له أي. (٣) في الأصل وم: له أمته. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: قال على أثره. (٦) من نسخة الحرم المكي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

والخيراتِ والحَسَناتِ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ أي إنما فتح لكَ ما ذَكَر لِيَغْفِرَ لكَ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ مِنَ النُّبوّةِ والحِكْمةِ وإظهارِ دينِهِ على الأديانِ كلِّها ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أعطاهُ ما ذَكَرْنا، وذلكَ كلُّهُ النَّصرُ العَزيزُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي ما تقدَّمَ من ذَنْبِ أُمَّتِكَ وما تأخَّرَ مِنْ ذَنْبِهِمْ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ﴾ عليهِمْ مِنْ أنواعِ الخَيراتِ والأمْنِ لهمْ والإياسِ لأولئكَ الكَفَرةِ عنهمْ، ﴿وَيَهْدِيَهُمْ صِراطاً مُسْتقيماً﴾، ﴿وَيَنْصُرَهُمْ نَصراً عزيزاً﴾؛ أي فَتَحْنا لكَ ما ذَكَرَ ليكونَ لأمَّتِكَ ما ذَكَرْنا مِنَ المَغْفِرَةِ لهمْ وإتمامِ النِّعْمةِ والهِدايةِ لهمُ الصِّراطَ المُسْتقيمَ والنَّصرِ لهمُ النَّصرَ العَزيزَ، أي نَصْراً يُعَزُّونَ بهِ في حياتِهِمْ وبَعْدَ وَفاتِهِمْ في الدنيا والآخِرةِ، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ، جَلَّ، وعَلا، امْتَحَنَ رسولَهُ ﷺ في الابْتِداءِ بالخَوفِ حينَ قالَ: «وما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكمْ» [أحمد ١/ ٢٣٧] وَجَدَ النَّبيُّ ﷺ لذلكَ وَجْداً شديداً، ونَزَلَ بَعْدَهُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى آخرِهِ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «نَزَلَتْ عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ ممّا على الأرضِ» [ابن أبي شيبة في المصنف ١٤/ ٥٠١] ثم قَرَأها النَّبيُّ ﷺ فقالوا: هنيئاً مَريئاً لكَ يا نَبيَّ اللهِ قد بَيَّنَ اللهُ لكَ ماذا يَفْعَلُ بكَ، ولم يُبَيِّنْ ماذا يَفْعَلُ بنا، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [الفتح: ٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السَّكينةُ هي كَهَيْئةِ الرُّمحِ لها جَناحانِ، ولها رأسٌ كَرَأسِ الهِرِّ لكنَّ هذا ليسَ بشيءٍ فإنهُ ﷺ قالَ: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بحقيقةِ الدينِ، وهو تفسيرُ العِلْمِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ خالقَ العِلْمِ الاسْتِدْلالي ومُنْزِلَهُ ومُنْشِئَهُ، هو اللهُ تعالى، وهُمْ يقولونَ: إنَّ خالقَهُ هو المُسْتَدِلُّ، فيكونُ حُجَّةً عليهِمْ.

قالَ بعضُ المعتزلةِ: إضافةُ إنزالِ السَّكينةِ إلى نفسِهِ على سَبيلِ المَجازِ، ليسَ على التحقيقِ كما يُقالُ: فلانٌ أنْزَلَ فلاناً في مَنْزِلِهِ أو مَسْكَنِهِ، وإنْ لم يكُنْ منهُ حقيقةُ إنزالِهِ إيّاهُ في المَنْزِلِ، لكنْ أُضيفَ إليهِ ذلكَ لأنهُ وُجِدَ منهُ، وسَبَبٌ بهِ يَصِلُ ذلكَ إلى نُزولِهِ في مَنْزِلِهِ ومَسْكَنِهِ.

فَعلى ذلكَ أضافَ إنزالَ السَّكينةِ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ فلا يُقالُ في مِثْلِهِ لأمرٍ كانَ منهُ أو بِسَبَبٍ: جُعِلَ لهُ ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ وإنما يُقالُ ذلكَ لتحقيقِ إنزالِ ذلكَ ليكونَ ما ذُكِرَ على ما أخْبَرَ أنهُ فَتَحَ لِيَغْفِرَ لهُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ما قالَ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ بالتَّفسيرِ على إيمانِهِمْ بالجُمْلةِ.

والثاني: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بمحمدٍ ﷺ وبكتابِهِ ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بسائِرِ الرسلِ والكُتُبِ التي كانوا آمَنوا بها، وصَدَّقوها. وهذا في أهلِ الكتابِ خاصةً.

والثالثُ: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ في حادِثِ الوَقْتِ ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ في ما مَضى مِنَ الأوقاتِ.

فإذا وُصِلَ هذا بالأوَّلِ فيكونُ بِحُكْمِ الزيادةِ، وإنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ بِحُكْمِ الابْتِداءِ، إذْ للإيمانِ حقُّ التَّجَدُّدِ والحُدوثِ في كلِّ وَقْتٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنْ كانَ نُزولُهُ على إثْرِ قولِ ذلكَ المُنافِقِ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ حينَ[1] قالَ لأصحابِهِ: يَزْعُمُ محمدٌ أنَّ اللهَ قد غَفَرَ لهُ، وأنَّ لهُ / ٥١٧ ـ أ/ على عدوِّهِ [ظَفَراً، وأنهُ يَهْديهِ][2] صِراطاً

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ظفر ويهديه.

مُستقيماً، ويَنصُرُهُ نَصراً عَزيزاً، هَيهات! هيهات! لقد بَقِيَ لهُ مِنَ العَدُوِّ أكثرُ وأكثرُ، فأينَ أهلُ فارسَ والرومِ؟ هُمْ أكثَرُ عَدداً. فعندَ ذلكَ نَزَلَ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فَمَعناهُ: أنَّ للهِ جُنودُ السمواتِ والأرضِ؛ يَنصُرُ مَن يَشاءُ على مَن يَشاءُ، ويَجعَلُ الأمرَ لِمَنْ يَشاءُ، ليسَ لهمُ التدبيرُ وإنفاذُ الأمرِ على مَنْ شاؤوا، ولكنَّ ذلكَ إلى اللهِ تعالى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢] أي للهِ تدبيرُ مَكرِهِمْ لا يَنفُذُ مَكرُهُمْ إلّا باللهِ تعالى. فَعَلى ذلكَ [هذا][1] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عَنْ عِلمٍ بما يكونُ منهمْ مِنْ إيثارِهِمْ عَداوةَ اللهِ على وِلايَتِهِ واختيارِ الخِلافِ لهُ أنشَأهُمْ لا عَنْ جَهلٍ لِيُعلَمَ أنهُ لم يُنشِئهُمْ، ولم يَأمُرْهُمْ بما أمَرَهُمْ، وامتَحَنَهُمْ بما امتَحَنَ لِحاجةِ نفسِهِ أو لِمَنافِعَ تَرجِعُ إليهِ، ولكنْ لِحاجةِ أولئكَ أو لِمَنافِعِهِمْ.

ولِذلكَ كانَ[2] حكيماً لأنَّ الحكيمَ هو الذي لا يَلحَقُهُ الخَطأُ في التدبيرِ. فإذا كانَ إنشاؤُهُ إيّاهُمْ وما أمَرَهُمْ بهِ، ونَهاهُمْ عنهُ، لا لِحاجةٍ لهُ في نفسِهِ ولا مَنفَعةٍ، ولكنْ لِحاجتِهِمْ ومَنفَعتِهِمْ كانَ حكيماً في إنشائِهِ إياهُمْ، على عِلمٍ منهُ بما يكونُ منهمْ مِنْ إيثارِ العَداوةِ لهُ على وِلايَتِهِ واختيارِ الخِلافِ لهُ والمَعصيةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الآية، كانَ هذا صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآية ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى﴾ قلوبِهِمْ ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ وأنزلَ السَّكينةَ أيضاً لِيُدخِلَهُمْ في ما ذَكَرَ كما ذَكَرَ في رسولِ اللهِ ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ فَتَحَ لهُ لِيَغفِرَ لهُ. فَعَلى ذلكَ أنزَلَ السكينةَ في قلوبِهِمْ لِيَزدادَ لهمُ الإيمانُ، ولِيُدخِلَهُمُ الجَنّاتِ[3] التي وَصَفَ. ثم أخبَرَ أنَّ ذلكَ لهمْ ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا هَلاكَ بَعدَهُ، ولا تَبِعَةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ذَكَرَ لِلْمُنافقينَ مِنَ العذابِ مُقابِلَ ما ذَكَرَ للمؤمنينَ مِنْ إنزالِ السَّكينةِ عليهِمْ وإدخالِهِمُ الجنةَ.

جَرَمَ هؤلاءِ السَّكينةَ التي ذَكَرَ أنَّ قلوبَ المؤمنينَ بها تَسكُنُ لِما عَلِمَ أنهمْ يَختارونَ عداوتَهُ، ويُؤثِرونَ عَداوةَ أوليائِهِ على وِلايَتِهِمْ، وعَلِمَ مِنَ المؤمنينَ أنهمْ يُؤثِرونَ وِلايَتَهُ على عَداوتِهِ [وَوِلايَةَ أوليائِهِ][4] على عداوتِهِمْ، فأنزَلَ السَّكينةَ في قلوبِهِمْ، ولم يُنزِلْ على أولئكَ، هذا لِيُعلَمَ أنَّ مَنْ بَلَغَ في الإيمانِ الحَدَّ الذي ذَكَرَ إنما بَلَغَ ذلك باللهِ تعالى وبِفَضلِهِ وبِرَحمَتِهِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هُمُ المُنافِقونَ الذينَ ذَكَرَهُمْ في آيةٍ أُخرى حينَ[5] قالَ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢] ظَنُّوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَرجِعُ إلى أهلِهِ، وكذلكَ [المؤمنونَ][6] لا يَرجِعونَ إلى أهليهِمْ أبداً. ثم أخبَرَ أنَّ ذلكَ الظَّنَّ منهمْ ظَنُّ السَّوءِ. فَيَحتَمِلُ ما ذَكَرَ ههنا ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هذا ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هُمُ المُشرِكونَ.

ثم إنْ كانوا مِنَ المُنافِقينَ فيكونُ ظَنُّهُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ: ألّا يَرجِعَ هو وأصحابُهُ إلى أهليهِمْ أبداً.

وإنْ كانوا مِنْ مُكَذِّبي الرسولِ ﷺ فيكونُ ظَنُّهُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ ألّا يُكرِمَ محمداً ﷺ بالرسالةِ، ولا يُعَظِّمَهُ بالنُّبُوَّةِ؛ لا يَختارُهُ، ولا يُؤثِرُهُ[7] على غيرِهِ مِنَ الناسِ الذي يَختارونَهُ[8] هُمْ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فيكونُ ظَنُّهُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ على هذا ألّا يُكرِمَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ ولا يَختارَهُ[9] لِرِسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: جنات. (٤) من م، في الأصل: وولايته. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الهاء ساقطة من الأصل. (٨) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وإنْ كانوا مِنْ مُكَذِّبي البَعْثِ ومُنْكِريهِ فيكونُ ظَنُّهُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وهو ألّا يَقْدِرَ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ.

ثم أخْبَرَ أنَّ عليهِمْ دائِرَةَ السَّوْءِ الذي ظَنّوا ألّا يَرْجِعَ إلى [أهلِهِ](١) رسولُ اللهِ ﷺ فَصارَ عليهِمْ ما ظَنّوا برسولِ اللهِ ﷺ حينَ(٢) تفرّقوا عَنْ أوطانِهِمْ، وهُتِكَتْ أستارُهُمْ، ونَحْوُ ذلكَ.

وإنْ كانوا مِنْ مُكَذِّبي الرسولِ ﷺ أنهُ لا يُرْسِلُهُ فَظَنُّهُمْ كانَ ما ظَنّوا لأنهُ بُعِثَ هو رسولاً، ولم يُبْعَثْ مِنِ اختاروا هُمْ.

وإنْ كانوا مِنْ مُنْكِري البَعْثِ فَعَلَيهِمْ كانَ عذابُ اليومِ، وفيهِ هلاكُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أخْبَرَ ﷻ أنهمُ اسْتَوجَبوا غَضَبَ اللهِ ولَعْنَهُ بالذي كانَ منهمْ مِنْ سُوءِ ظَنِّهِمْ باللهِ ورسولِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ بذلكَ ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ لهمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ذَكَرَ على إثْرِ ما ذَكَرَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لِيُعْلَمَ أنَّ عِزَّهُ ليسَ بما ذَكَرَ مِنَ الجنودِ الذينَ لهُ في السمواتِ والأرضِ، ولكنهُ [كانَ](٣) عزيزاً بذاتِهِ؛ لهُ العِزُّ الذاتِيُّ الأزَلِيُّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قولُهُ: ﴿شَٰهِدًا﴾ للهِ عمّا للهِ تعالى على عبادِهِ وما(٤) لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ فَعَلَى هذا التأويلِ يكونُ قولُهُ ﴿شَٰهِدًا﴾ أي مُبَيِّناً، أي يُبَيِّنُ ما للهِ عليهمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ، وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي شاهداً للرسلِ ﷺ بالتَّبليغِ بالإجابةِ لِمَنْ أجابَهُمْ، وشاهداً على مَنْ أبَى الإجابَةَ بالإباءِ والرَّدِّ. فَعَلَى هذا التأويلِ يكونُ قولُهُ: ﴿شَٰهِدًا﴾ على حقيقةِ الشهادةِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي أرسَلْناكَ شاهداً على أُمَّتِكَ على الأنبياءِ ﷺ بالتَّبليغِ(٥) واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ البِشارةُ هي بِذِكْرِ عواقِبِ الخَيراتِ والحَسَناتِ والإخبارِ عَنْ أحوالِها أنها إلى ماذا يُفْضي أربابُها وعُمّالُها لِيُرَغِّبَهُمْ فيها. والنِّذارةُ بِذِكْرِ عواقِبِ الشرورِ والسَّيِّئاتِ والإخبارِ عَنْ أحوالِها أنها إلى ماذا يُفْضي أربابُها ومُرْتَكِبوها(٦) لِيَزْجُرَهُمْ [عنها](٧) واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ خاطَبَ بهذا البَشَرَ كلَّهُ. وفي الأوَّلِ خاطَبَ رسولَ اللهِ ﷺ كأنهُ يقولُ على الجَمْعِ بَيْنَهُما في الخطابِ: أرسَلْناكَ رسولاً شاهداً لِتُؤمِنوا أنتمْ باللهِ ورسولِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الإضمارِ؛ أي ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وقُلْ لهمْ: إنما أُرسِلْتُ ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] معناهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ قُلْ لهمْ ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ. وقُرِئَ بالياءِ(٨)، وهي ظاهرةٌ.

ثم الإيمانُ باللهِ تعالى، هو أنْ يُشْهَدَ لهُ بالوَحْدانيَّةِ والألوهيَّةِ وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ في كلِّ شيءٍ وكلِّ أمْرٍ.

والإيمانُ برسولِهِ، هو أنْ يُشْهَدَ لهُ بالصدقِ في كلِّ أمْرٍ وبالعدالةِ لهُ في ما يَحْكُمُ، ويَقْضي، /٥١٧ ـ ب/ ونُصَدِّقُهُ في كلِّ ما يقولُهُ، ونُجيبُهُ في كلِّ ما يَدْعو إليهِ، ونُطيعُهُ في كلِّ أمْرٍ يأمُرُ رَبُّهُ، ويَنْهَى عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: أي تَنْصُروهُ، وتُعينوهُ، وقالَ بعضُهُمْ: أي تُطيعوهُ، وقالَ بعضُهُمْ: أي تُعَظِّموهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ومن ذكرنا. (٦) في الأصل وم: ومرتكبها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٢٠٢.

جنة السنة

فَمَنْ يقولُ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ ليسَ على النَّصرِ والإعانةِ، ولكنْ على التعظيمِ أو على الطاعةِ استَدَلَّ بما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ذَكَرَ التَّعزيرَ، وعَطَفَ النَّصرَ عليهِ، والمَعْطوفُ غيرُ المَعطوفِ عليهِ، فَدَلَّ أنهُ غيرُ النَّصرِ، ولكنْ جائزٌ أنْ يُذكَرَ الشيءُ الواحدُ بِلَفظَينِ مُختلِفَينِ، ومَعْناهما واحدٌ على التأكيدِ.

وكذلكَ مَنْ يقولُ بالتعظيمِ فيقولُ: أمَرَهُمْ بِتَعظيمِهِ في الحرْفَينِ؛ أعني قولَهُ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وذلك جائزٌ في الكلامِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ التَّعزيرُ، هو الطاعةُ لهُ، والتَّوقيرُ، هو التَّعظيمُ، وفي الطاعةِ لهُ تعظيمُهُ، واللهُ أعلَمُ. ومَنْ قالَ بالنَّصرِ والمَعونةِ [فَمُرادُهُ][1] في التَّبليغِ بِتَبليغِ الرسالةِ إلى الخَلْقِ والدَّفعِ عنهُ والذَّبِّ والتَّعظيمِ لهُ في قلبِهِ وجميعِ جَوارِحِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. والتسبيحُ: أجْمَعَ أهلُ التأويلِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ راجعٌ إلى اللهِ تعالى، وكذلكَ ذُكِرَ في بعضِ القراءاتِ: ويُسَبِّحونَ اللهَ بُكْرَةً وأصيلاً؛ والتسبيحُ هو التَّنزيهُ في الأفعالِ والأقوالِ.

فجائزٌ نسبةُ ذلكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ كانَ بَريءَ العيوبِ في أفعالِهِ وأقوالِهِ، لا يدخُلُ في أفعالِهِ وأقوالِهِ عيبٌ.

وإنْ كانَ هو تنزيهاً عنِ الحَدثيَّةِ والفَناءِ وآفاتِ كلٍّ في نفسِهِ فذلكَ لا يجوزُ إضافتُهُ ونِسْبَتُهُ إلى اللهِ ﷻ فأمّا غَيرُهُ فيجوزُ[2] إضافةُ ذلكَ إليهِ.

وأصلُهُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنْ صَرْفِهِ إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ صَرَفَ أهلُ التأويلِ البُكْرَةَ إلى صلاةِ الفجرِ والأصيلَ إلى صلاةِ المَغرِبِ والعِشاءِ.

ولكنْ جائزٌ أنْ تكونَ البُكْرَةُ كِنايةً عنِ النهارِ والأصيلُ كِنايةً وعِبارةً عنِ الليلِ؛ فكأنهُ يقولُ: سَبِّحوا بالليلِ والنهارِ جملةً في كلِّ وقتٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ اجمعَ أهلُ التأويلِ أو عامَّتُهُم على أنَّ المُبايَعةَ المَذكورةَ في هذهِ الآيةِ، هي البَيعةُ التي كانتْ بالحُدَيبِيَّةِ؛ بايَعوهُ على ألّا يَفِرّوا إذا لَقُوا عَدُوّاً.

قالَ مَعْقِلُ بنُ يَسارٍ: لقد رَأيتُني يومَ الشجرةِ والنَّبيُّ ﷺ يُبايِعُهُ الناسُ، وأنا رافعٌ غُصْناً مِنْ أغصانِها عن رأسِهِ، ونحنُ أربعَ عَشْرَةَ مِئةً، أي ألفٌ وأربعُ مِئةِ نَفَرٍ. وقالَ: لم نُبايِعْهُ على الموتِ، ولكنْ بايَعْناهُ على ألّا نَفِرَّ.

وجائزٌ أنْ تكونَ المُبايَعةُ على ألّا يَفِرّوا كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ [الأحزاب: ١٥].

والمُبايَعةُ هي المُعاهَدةُ. ألا تَرى أنهُ قالَ في الآيةِ[3]: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾؟ ذَكَرَ في أوّلِ الآيةِ المُبايَعةَ وفي آخِرِها المُعاهدةَ لِيُعْلَمَ أنَّ المُبايَعةَ والمُعاهدةَ سَواءٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إضافةُ مُبايَعَتِهِمْ رسولَهُ إلى نفسِهِ تَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لِما بأمْرِهِ يُبايِعونَهُ.

[والثاني:][4] ذَكَرَ، ونَسَبَ [المُبايَعةَ][5] إلى نفسِهِ لِعظيمِ قَدْرِهِ وجَليلِ مَنْزِلَتِهِ عندَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَدُ اللهِ في جَزاءِ المُبايَعةِ فوقَ أيديهِمْ في المُبايَعةِ، أو كلامٌ نَحوُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي يَدُ اللهِ في الجَزاءِ إذا وَفَوا بالعَهْدِ فوقَ أيديهِمْ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لا يجوز. (٣) في الأصل وم: آية أخرى. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

لأنهُ لمّا بايَعوا رسولَ اللهِ ﷺ كانَتْ لهمْ عندهُ يَدٌ، فَيُخبِرُ أنّ جزاءَ اللهِ الذي[1] يَجْزيهِمْ بوفاءِ [تلكَ اليدِ][2] المُبايَعةُ فوقَ أيديهِمُ التي لهمْ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ يَدِ اللهِ وإضافَتِها إليهِ، يُريدُ[3] بها رسولَ اللهِ ﷺ كأنهُ يقولُ: يَدُ رسولِ اللهِ ﷺ بِما بايَعوهُ كقولِهِ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية [الحجرات: ١٧] فَيُخبِرُ أنّ يَدَ رسولِ اللهِ ﷺ فوقَ أيديكُمْ عندهُ بالمُبايَعَةِ التي بايَعْتُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنّ يَدَ رسولِ اللهِ ﷺ بالمَدِّ والبَسْطِ بالمُبايَعةِ فوقَ أيديهِمْ، أي تَوفيقُ اللهِ إياكُمْ ومَعونَتُهُ على مُبايَعَتِكُمْ رسولَهُ فَوقُ وخَيرٌ مِنْ وفائِكُمْ بِبَيعَتِهِ وعَهْدِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي يَدُ اللهِ في النَّصْرِ لرسولِهِ فَوقَ أيديهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] حقيقةُ النَّصْرِ إنما تكونُ باللهِ تعالى، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: كقولِهِ تعالى جُملَةً: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] فَعَلَى ذلكَ مَنْ نكَثَ فإنما لهُ جَزاءُ نَكْثِهِ، وهيَ النارُ، ومنْ أوفى فَلَهُ ما ذَكَرَ مِنْ جَزاءِ الوَفاءِ.

والثاني: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي مَنْ نَكَثَ فَعَلَيهِ ضَرَرُ نَكْثِهِ، وإليهِ يَرْجِعُ ذلكَ الضَّرَرُ لا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، لأنّ اللهَ ﷻ وَعَدَ النَّصْرَ لهُ والظَّفَرَ بأولئكَ. فَمَنْ نَكَثَ فإنما يُرْجِعُ ضَرَرَ نَكْثِهِ إليهِ؛ إذِ اللهُ تعالى يَفي لِرسولِهِ ﷺ ما وَعَدَ مِنَ النَّصرِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ سَمّاهُمْ مُخَلَّفينَ، ولم يُخَلِّفْهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ ولا أصحابُهُ، ولكنّ اللهَ، تعالى، جَلَّ، وعلا، خَلَّفَهُمْ عنْ ذلكَ بأنْ أحدَثَ فيهِمْ فِعْلَ التَّخَلُّفِ لمّا عَلِمَ منهمْ ما كانَ مِنَ اختيارِهِمُ التَّخلُّفَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦] أي مَنَعَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ المُخَلَّفينَ أنّ اللهَ ﷻ خَلَّفَهُمْ عنْ ذلكَ، وهُمْ اكتَسَبوا فِعْلَ التَّخَلُّفِ في أنفسِهِمْ. دلَّ أنّ خالقَ أفعالِ العِبادِ، هو اللهُ تعالى، واللهُ الموفّقُ.

وقولُهُ تعالى خَبَراً عنهمْ: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ هذا القولُ منهمْ قولُ اعْتِذارٍ وطَلَبُ العُذْرِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ وقولُهُمْ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ طَلَبوا منهُ الاسْتِغْفارَ معَ إظهارِهِمُ العُذْرَ في التَّخَلُّفِ بقولِهِمْ: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ يقولونَ: وإنْ حَبَسَتْنا أموالُنا وأهلونا لم يكُنْ لنا التَّخلُّفُ عنكَ ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ولكنْ معَ هذا لم يَقْبَلْ عذرَهُمْ لأنهمْ كانوا لا يُحقِّقونَ في طَلَبِهِمُ الاسْتِغفارَ منهُ لأنهمْ أهلُ نِفاقٍ، لا يؤمنونَ برسالتِهِ ولا بالبَعْثِ كي تَنفَعَهُمُ المَغْفِرَةُ في الآخِرَةِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الآية؟ [المنافقون: ٥] دلَّ هذا الفعلُ منهمْ على أنهمْ كانوا غيرَ مُحقِّقينَ طَلَبَ الاسْتِغفارِ /٥١٨ ـ أ/ منهُ بقولِهِمْ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ حينَ[4] قالَ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يقولونَ بألسنتِهِمْ قولَهُمْ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ما ليسَ حقيقةَ ذلكَ.

ولا جائزٌ أنْ يُصرَفَ قولُهُمْ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إلى قولِهِمْ: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [لأنهمْ كانوا][5] كاذبينَ في العذرِ، ولكنْ طَلَبوا الاسْتِغفارَ حقيقةً. لا يُقالُ هذا لأنهمْ كانوا صادقينَ في أنّ أموالَهُمْ وأهليهِمْ[6] شَغَلَتْهُمْ عنْ ذلكَ، فلا يُمكِنُ صَرْفُ الآيةِ إلى ذلكَ، واللهُ الموفّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ قد ذَكَرْنا أنّ حَرْفَ الاسْتِفْهامِ مِنَ اللهِ

---

(١) من م، في الأصل: التي. (٢) في الأصل وم: ذلك. (٣) من م، في الأصل: يزيد. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أي.
(٦) في الأصل وم: وأهلوهم.

جنة السنة

تعالى يكونُ على الإيجابِ، فيُنظَرُ إنْ كانَ ذلكَ السؤالُ مِن مُستفهِمٍ كيفَ يُجابُ له؟ فيكونُ مِنَ اللهِ تعالى على الإيجابِ لا أحدَ يَملِكُ لكمْ نَفعاً إنْ كانَ اللهُ أرادَ بكمْ ضَرّاً، ولا أحدَ يَملِكُ لكمْ ضَرّاً إنْ كانَ اللهُ أرادَ بكمْ نَفعاً؛ يُخبِرُ أنكمْ إنْ تخلّفتُمْ لِحفظِ أموالِكُمْ وأهليكُمْ فإنّ اللهَ تعالى أرادَ بكمْ ضَرّاً لا تَملِكونَ دفعَهُ عنْ أنفسِكُمْ، وإنْ [لم][1] تَتخلّفوا، ولكنْ خَرجْتُمْ معهُ، فلا يَملِكُ أحدٌ الضَّرَرَ بكمْ، غيرَ [أنكُمْ لا عُذرَ لكمْ][2] في التَّخلُّفِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

ثم أوعدَهُمْ، فقالَ: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ جَعلَ اللهُ ﷻ أنفسَ المنافقينَ وصَنيعَهُمْ آيةً على رسالةِ رسولِهِ ﷺ في حقِّ المُنافقينَ حينَ كانَ يُطْلِعُ رسولَهُ على جميعِ ما أَسرُّوا في أنفسِهِمْ، وأضمَروا في قلوبِهِمْ لِيَعلَموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ، جَلَّ، وعَلا، وجَعلَ الآيةَ [له][3] في حقِّ غيرِهِمْ مِنَ الكَفَرةِ مِنْ غيرِ صَنيعِهِمْ وأنفسِهِمْ حتى عَلِموا بذلكَ أنهُ باللهِ قَدَرَ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أي الهزيمةَ ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ظهوراً على عَدُوِّكُمْ وغنيمةً. يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ بهذا أهلَ الإيمانِ والوَعْظَ لهمْ بذلكَ، لأنّ أهلَ النِّفاقِ كانوا لا يُصدِّقونَ رسولَ اللهِ ﷺ ولا يَقبَلونَ ما يقولُ مِنَ المَواعِظِ وغيرِهِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ فإنْ قيلَ: ما الذي حَمَلَهُمْ على الظنِّ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ والمؤمنينَ[4] لا يَرجِعونَ إلى أهليهمْ أبداً إذا كانَ ذلكَ في خُروجِهِمْ إلى الحُدَيبيَةِ على ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنّ ذلكَ كانَ في حقِّ خروجِهِمْ إلى الحُدَيبيَةِ، وكانَ خروجُهُمْ للحجِّ وقضاءِ المناسِكِ لا للقِتالِ والحربِ معهمْ حتى يَقَعَ عندَهُمْ أنهمْ لا يَرجِعونَ، بل يَهلِكونَ في ذلكَ، وأهلُ مكةَ لم يكونوا يَمنَعونَ[5] أحداً مِنْ أهلِ الإيمانِ [مِنْ أنْ][6] يَدخُلَ مكةَ للحجِّ وقضاءِ المناسِكِ؟

قيلَ: لأنّ [أهلَ][7] النفاقِ كانوا قد كَتَبوا إلى أهلِ مكةَ، وأعلَموهمْ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ ﵃ خرجوا إليكُمْ [لا][8] للحجِّ وزيارةِ البيتِ، فقالوا: إنّا لا نَدَعُهُمْ يَدخُلونَ مكةَ، بل نُقاتِلُهُمْ، ونُحارِبُهُمْ، ولا نَترُكُهُمْ يَدخُلونَها.

فإذا كانَ منهمْ ما ذَكَرْنا فجائزٌ أنْ يكونوا ظَنّوا ما ذَكَرْنا مِنْ ظَنِّهِمْ. فأمّا على غيرِ ذلكَ فلا يُحتَمَلُ مع اجتماعِ أهلِ التأويلِ على أنّ ذلكَ كانَ في أمرِ الحُدَيبيَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ظَنَنْتُمْ برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ ﵃ ظَنَّ السَّوءِ أنهمْ لا يَرجِعونَ إلى أهليهمْ.

ويَحتَمِلُ: ظَنَنْتُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ أنهُ لا يَنصُرُ رسولَهُ، ولا يُعينُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بُورًا﴾ أي هَلْكى، أي تصيرونَ قوماً هَلْكى؛ فيهِ دليلٌ أنهمْ يَموتونَ على نِفاقِهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي فاسدينَ[9] لا خيرَ فيكُمْ[10]. وكذلكَ يقولُ ابنُ عباسٍ ﵄: إنّ البُورَ هو الفاسِدُ. وقالَ بعضُهُمْ: البُورُ في كلامِ العربِ: لا شيءَ، وقالَ القُتَبيُّ: البُورُ الهَلْكى.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ فهو ظاهرٌ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

أحدُها: وللهِ خَزائنُ السمواتِ والأرضِ، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﵁ أنهُ كانَ يَقرَؤُهُ: وللهِ خَزائنُ السمواتِ والأرضِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنه لا عذر له. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: والمؤمنون. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يتبعون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فاسدون. (١٠) في الأصل وم: فيهم.

جنة السنة

والثاني: ولله مُلْكُ كلِّ مُلْكٍ في السمواتِ والأرضِ، أي لله حقيقةُ مُلْكِ كلِّ مُلْكٍ في السمواتِ والأرضِ.

والثالثُ: ولله ولايةُ أهلِ السمواتِ والأرضِ وسُلطانُهُ، أي الوِلايةُ والسلطانُ لهُ على أهلِ السمواتِ والأرضِ. ثم يَحتَمِلُ ذِكْرُهُ هذا وجهَينِ:

أحدُهما: يُخبِرُ أنهُ في ما يأمُرُهُم، وينهاهُم، ويَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، بما يأمُرُهُم [وينهاهُم، ويَمْتَحِنُهُم][1] لا لِحاجةِ نفسِهِ ولا لِمَنفَعةٍ لهُ؛ إذ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، ولا يَحْتَمِلُ مَن لهُ مُلْكُ ما ذَكَرَ [أنْ تقعَ لهُ الحاجةُ إلى ما ذَكَرَ][2] أوِ المَنفَعةُ، لأنهُ غَنيٌّ بذاتِهِ، ولكنْ يأمُرُهُم، وينهاهُم، ويَمْتَحِنُهُمْ بما امتَحَنَ لِحاجَتِهِم ولِمَنفَعتِهِم، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يذكُرُ هذا لِيَقطعوا الرجاءَ عما في أيدي الخَلْقِ، ويَصرِفوا الطَّمَعَ والرجاءَ إلى اللهِ تعالى؛ ومنهُ يَرونَ كلَّ نَفعٍ وخيرٍ، يَصِلُ إليهِمْ، ومنهُ يَخافونَ في كلِّ أمرٍ، فيهِ خوفٌ، لا يَخافونَ سِواهُ، ولا يَطْمَعونَ غيرَهُ، وهو ما أخبَرَ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: هو يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ، وهو المالكُ لذلكَ، وهو يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ، أي ليسَ يَمْلِكُ أحدٌ مَغْفِرَةَ ذنوبِ أحدٍ سواهُ ولا تعذيبَهُ، إنما ذلكَ منهُ، ولهُ مُلْكُ ذلكَ، ولهُ الفِعْلُ دونَ خَلْقِهِ، لِيَصْرِفوا طَمَعَهُمْ ورجاءَهُمْ في كلِّ أمرٍ [إلى اللهِ تعالى، ومنهُ يخافوا][3] في كلِّ أمرٍ][4] فيهِ خَوفٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي وكانَ اللهُ، ولم[5] يزلْ، غفوراً رحيماً، لا أنهُ حَدَثَ ذلكَ لهُ بِخَلْقِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ مِنَ الحُدَيبِيَةِ؛ خَلَّفَهُمُ اللهُ ﷻ لِما عَلِمَ منهمْ مِنِ اختيارِ التَّخَلُّفِ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ الآية؛ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا صالَحَ أهلَ مكةَ عامَ الحُدَيبِيَةِ، ورَجَعَ، واشتَدَّ[6] ذلكَ على أصحابِهِ ﵃ لِما كانوا طَمِعوا دخولَ مكةَ والزيارةَ لِبيتِهِ، بَشَّرَهُ رَبُّهُ بفتحِ خَيْبَرَ والغَنيمةِ لهمْ.

فعندَ ذلكَ لمّا انتَهى إلى المُنافقينَ المُخَلَّفينَ عنِ الحُدَيبِيَةِ تلكَ البِشارةُ لهُ بفتحِ خَيْبَرَ عليهِمْ قالوا: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ فَنُصيبُ مَعَكُمُ الغَنائمَ. وإنما رَغِبوا في اتِّباعِهِمْ لمّا عَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَصْدُقُ في ما يُخبِرُ مِنَ البِشارةِ لهُ والفتحِ والغنيمةِ لهُ بلا مُؤْنَةِ قِتالٍ ولا حَرْبٍ تَقَعُ هنالكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ البِشارةَ بِفَتْحِ خَيْبَرَ وجَعْلِهِ غنيمةً لِمَنْ شَهِدَ الحُدَيبِيَةَ. فأمّا مَنْ تَخَلَّفَ عنها فليسَ لهُ في ذلكَ مِنْ نصيبٍ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهمْ يُريدونَ أنْ يُبَدِّلوا ما وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنينَ الذينَ شَهِدوا الحُدَيبِيَةَ فتحَ خَيْبَرَ خاصةً بأنْ يُشرِكوهمْ فيها. وفي ذلكَ تبديلُ ما وَعَدَ؛ إذ لم يَشْهَدوا هُمُ الحُدَيبِيَةَ، والبِشارةُ بالفَتْحِ لِمَنْ شَهِدَها. فأمّا مَنْ تَخَلَّفَ عنها فلا.

وقال /٥١٨ ـ ب/ بعضُهُمْ: تبديلُ كلامِ اللهِ ما قالَ في سورةِ براءةَ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] فلمّا سألوا الخُروجَ إلى خَيبَرَ والاتِّباعَ لهمْ، وقد نهاهُمْ عن [سؤالِهِمْ][7] الخُروجَ معهمْ أبداً [كانوا][8] يُريدونَ أنْ يُبَدِّلوا ذلكَ النَّهيَ الذي نُهوا في سورةِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾.

فَيَحتَمِلُ الأمرَينِ جميعاً. كذا ذَكَرَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، وعامّةُ أهلِ التأويلِ.

على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ نَزَلَ في غَزوةِ تَبوكَ، وإنها بَعْدَ خَيْبَرَ. فلم يَكُنْ خروجُهُمْ مع رسولِ اللهِ ﷺ لِخَيْبَرَ تَبديلَ النَّهيِ الذي نُهوا عنِ الخُروجِ معهُ.

---

(١) في الأصل وم: وينهى ويمتحن. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في م: يخافون. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

لكنْ كأنهُ لم يَثْبُتْ عندَهُ نُزولُ الآيةِ في غزوةِ تبوكَ أو وَقَعَ الخطابُ مِنَ الذينَ تَلَقَّنوا منهُ، وكَتبوهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ هو البِشارةُ التي ذَكَرَ لِمَنْ شَهِدَ الحُدَيبيَةَ. وأمّا مَنْ لم يَشْهَدْ فلا.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما ذَكَرَ في سورةِ ﴿بَرَاءَةٌ﴾ ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [الآية: ٨٣] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كانوا يَقيسونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ بأنفسِهِمْ، لأنهمْ إذا أصابوا شيئاً؛ أعني المُنافقينَ، كانوا يَحسُدونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ وأرادوا ألّا يكونَ[1] لهمْ في ذلكَ نصيبٌ ولا حَظٌّ حَسَداً منهمْ لهمْ. فلما مَنَعَهُمُ المؤمنونَ عنِ الخروجِ إلى خَيبَرَ، وقالوا: إنَّ اللهَ نهاكُمْ عنْ أنْ تَخرُجوا معنا، وقد بُشِّروا بالفَتحِ، قالوا عندَ ذلكَ: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ في إصابةِ تلكَ الغنائمِ؛ لم يَنْهَنا اللهُ تعالى عنِ الخروجِ معكمْ؛ قاسوا المؤمنينَ بأنفسِهِمْ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

[قالَ بعضُهُمْ][2] القصةُ: هي الاستِدْلالُ بما عَرَفوا، وشَهِدوهُ، على الذي لم يَعْلَموهُ، وغابَ عنهمْ؛ يُخبِرُ أنَّ هؤلاءِ لا يَعرِفونَ الاستِدْلالَ.

وقالَ بعضُهُمْ: القصةُ: هي معرفةُ الشيءِ بنظيرِهِ الدالِّ على غيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهُمُ الذينَ تَخلَّفوا عنِ الحُدَيبيَةِ ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على قولِ ابْنِ عباسٍ ﷺ ومقاتلٍ: هؤلاءِ[3] هُمْ بَنو حَنيفةَ، وفيهمْ مُسَيلَمَةُ الحَنَفيُّ الكذّابُ، استَقَرَّتْ إليهِمُ الأعرابُ بَعْدَ نَبيِّ اللهِ ﷺ فَدَعا[4] أبو بكرٍ الصِّدّيقُ إلى قتالِهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ: هُمْ أهلُ فارسَ والرومِ. وقالَ قَتادةُ وغيرُهُ: دُعوا إلى قِتالِ هَوازِنَ وثَقيفٍ يومَ حُنَينٍ.

ويُروى عن جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ ﷺ [أنهُ][5] يقولُ: دُعوا يومَ حُنَينٍ إلى هَوازِنَ وثَقيفٍ. فمنهمْ مَنْ أحْسَنَ الإجابةَ، ورَغِبَ في الجهادِ، ومنهمْ مَنْ أبَى.

لكنْ ما قالَ قَتادةُ غيرُ مُحتمَلٍ، لأنَّ قِتالَ هَوازِنَ وثَقيفٍ يومَ حُنَينٍ، وهو تَوَلّى ذلكَ، وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] فلا يُحتمَلُ أنْ يَدْعوَ إلى قِتالِ هؤلاءِ، وهو تَوَلّى قتالَهُمْ، وقد قالَ اللهُ تعالى خَبَراً عنهُ ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣].

فإذا لم يُحتمَلْ هذا رَجَعَ التأويلُ إلى ما قالَ ابْنُ عباسٍ ومُقاتلٌ ﷺ: إنهمْ إنما دُعوا إلى قِتالِ أهلِ اليَمامةِ، وهمْ بَنو حَنيفةَ [دعا إلى قتالِهِمْ][6] أبو بكرٍ الصِّدّيقُ ﷺ.

لكنْ لو كانَ ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ نزلَ في غزوةِ تبوكَ، وهي بعدَ حُنَينٍ، فيكونُ ما قالَهُ قَتادةُ مُحتمَلاً، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحتمِلُ][7] أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] في قومٍ خاصٍّ، وهو ما قالَ ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٦] أي أهلُ الغِنَى والثروةِ. إنما قالَ ذلكَ لِأُولي الطَّولِ الذينَ استأذَنوهُ القعودَ مع القاعدينَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في أهلِ فارسَ والرومِ على ما قالَ الحَسَنُ، وذلكَ [الفَتْحُ إنما كانَ][8] في زَمنِ عُمَرَ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ مَنْ قَرَأها بالألفِ[9] فيكونُ تأويلُهُ: تقاتِلونَهُمْ حتى يُسلِموا.

---

(١) في الأصل وم: يكونوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهؤلاء. (٤) في الأصل وم: فدعاهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: دعاهم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: إنما فتح. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/٢٠٦.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي إنْ تُطيعوا في ما دُعيتُمْ إلى الجهادِ ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا﴾ ذَكَرَ أنهُ يُؤتيهِمْ أجراً حَسَناً لأنَّ توبتَهُمْ تكونُ في ما كانَ كُفرُهُمْ. وكانَ نِفاقُهُمْ إنما ظَهَرَ بِتَخلُّفِهِمْ عنِ الجهادِ. فَعَلَى ذلكَ تكونُ توبَتُهُمْ في تحقيقِ الجهادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ في ما دُعيتُمْ إليهِ ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عنِ الحُدَيبِيَّةِ وغيرِهِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الآية ١٧ ثم عَذَرَ أهلَ العذرِ منهمْ بقولِهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ كما عَذَرَ أهلَ العُذرِ مِنَ المؤمنينَ بقولِهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ الآية [التوبة: ٩١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنهم إذا تَوَلّوا عادوا إلى ما كانوا.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِما عَزَموا مِنَ الوفاءِ على ما بايَعوا رسولَ اللهِ ﷺ والتَّصديقِ لِذلكَ والتَّحقيقِ لِما عاهدوا مِنَ الوفاءِ. لِذلكَ أخبَرَ اللهُ أنْ قد رضِيَ لِذلكَ.

فنحنُ نَستَدِلُّ بهِ على تَصديقِ ذلكَ وتَحقيقِهِ، وإنْ لم يُخبِرْنا اللهُ تعالى أنهمْ قد عَزَموا على ذلكَ. فيجوزُ لنا أنْ نَشهَدَ أنهمْ قد عَزَموا على الوفاءِ لِذلكَ والتَّصديقِ لهُ.

وقد يكونُ مِنَ الاِستِدلالِ ما تكونُ الشهادةُ لهُ بالحقِّ والصدقِ إذا كانَ في الدلالةِ مِثْلُ ما ذَكَرْنا، اللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا: عَلِمَ ما في قلوبهمْ مِنَ العَزْمِ على الوفاءِ والتَّصديقِ لِما أعطَوا بأيديهِمْ مِنْ أنفسِهِمْ.

والثاني: عَلِمَ ما في قلوبِهِمْ مِنَ الخوفِ والخَشيَةِ. وذلكَ يَتَوَجَّهُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ خَشُوا ألّا يَتَهَيَّأَ لهمُ القيامُ لأهلِ مكةَ لأنهم كانوا مُستَعِدّينَ للحربِ والقِتالِ، وهُمْ كانوا خَرَجوا لِقضاءِ المناسِكِ وزيارةِ البيتِ؛ خَشُوا ألّا يقوموا لهمْ، فلم يَفُوا ما عاهدوا.

والثاني: خَشُوا ألّا يَقدِروا على وفاءِ ما بايَعوا، وأعطَوا، لأنَّ في ذلكَ مُناصَبَةَ جميعِ أهلِ الأديانِ والمذاهِبِ [العِداءَ][1] واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: عَلِمَ ما في قلوبِهِمْ مِنَ الكراهةِ التي يَذكُرُها أهلُ التأويلِ. لكنْ تلكَ الكراهةُ كراهةُ الطبعِ لا كراهةُ الاِختيارِ لأنهمْ طَمِعوا الوصولَ إلى البيتِ، ورَجَوا دخولَها. فلمّا جَرَى الصلحُ بَينَهُمْ على ألّا يَدخُلوا عامَهُمْ ذلكَ، فانصَرَفوا. فاشتَدَّ ذلكَ عليهِمْ، فَكَرِهوا ذلكَ كراهَةَ[2] الطَّبعِ لا كراهةَ الاِختيارِ. وقد يَكرَهُ طَبعُ الإنسانِ شيئاً، والخيارُ غيرُهُ كقولِهِ ﷻ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] وكقولِ يوسف: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [الآية: ٣٣] مَحبّةَ الاِختيارِ لا مَحبّةَ الطَّبعِ إلى ما يَدعونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ /٥١٩ ـ أ/ أي أنزَلَ عليهِمْ ما يَسكُنُ به قلوبُهُمْ لِما عَلِمَ تحقيقَ الوفاءِ لَمّا بايَعوا رسولَ اللهِ ﷺ وصِدْقَ ما أعطَوا مِنْ أنفسِهِمْ ﴿وَأَثَابَهُمْ﴾ فكانَ ما كانوا يَرجونَ، ويَطمَعونَ، مِنْ دخولِ مكةَ وما كَرِهَتْ أنفسُهُمْ مِنَ الرجوعِ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتحُ مكةَ، أو فَتحُ خيبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ اختُلِفَ فيهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: لكن.

جنة السنة

منهمْ مَنْ صَرَفَ الفَتْحَ القَريبَ المَذْكورَ في الآيَةِ إلى فَتْحِ خَيْبَرَ وإلى مَغانِمِ خَيْبَرَ حينَ بُشِّروا بالحُدَيبِيَةِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ وجَعْلِ المَغانِمِ لهمْ مكانَ ما مُنِعوا مِنْ دخولِ مكةَ، وحِيلَ بَيْنَهُمْ وبينَ ما قَصدوا في الطريقِ بَعدَ مُنصَرَفِهِمْ مِنَ الحُدَيبِيَةِ على ما ذُكِرَ في القِصةِ، واللهُ أعلمُ.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الفَتْحَ إلى مكةَ، لأنهُ ذُكِرَ في القِصةِ أنهمْ بُشِّروا في الطريقِ بَعْدَ انْصِرافِهِمْ مِنَ الحُدَيبِيَةِ بفتحِ مكةَ، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَأَثَبَهُمْ﴾ على هذا التأويلِ بِمَعْنَى: يَفعَلُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] كذلكَ يَعْني: يقولُ لهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ على هذا يَنصَرِفُ إلى غَيرِهِ مِنَ المَغانِمِ لأنهُ لم يكنْ بمكةَ غنائمُ، واللهُ أعلمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتوحُ كلُّها التي كانتْ لرسولِ اللهِ ﷺ ولأُمَّتِهِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾.

وجائزٌ أنْ تكونَ بالكَفَرَةِ جملةً، أي لو قاتَلوكُمْ لَوَلَّوُا الأدبارَ، واللهُ أعلمُ [وذلكَ

الآيتان ٢١ و٢٢ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾][1].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ ما سَنَّ في كلِّ أُمَّةٍ مِنْ هلاكٍ، لم يَجعَلْ مِنْ ذلكَ الهلاكِ في غَيرِها مِنَ الأُمَمِ نَحْوَ ما جَعَلَ هلاكَ قومِ نوحٍ الغَرَقَ، وهلاكَ [قومِ][2] عادٍ بريحٍ صَرْصَرٍ [وهلاكَ قومِ][3] ثمودَ بالطاغِيَةِ؛ جَعَلَ اللهُ تعالى هلاكَ كلِّ أُمَّةٍ بِنَوعٍ، لم يَجعَلْ ذلكَ لِغَيرِها [﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾][4] يقولُ: لم يكنْ لذلكَ تبديلٌ إلى غَيرِهِ. وكذلكَ ما جَعَلَ لكلِّ أُمَّةٍ مِنْ هلاكٍ لم يُبَدِّلْ ذلكَ، ولم يَجعَلْ ذلكَ في غَيرِهِ.

وجائزٌ[5] أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أنْ جَعَلَ عاقبةَ الأمرِ للمؤمنينَ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ مع كَثرَةِ أولئكَ وقُوَّتِهِمْ وتأهُّبِهِمْ للقتالِ وضَعفِ هؤلاءِ وقِلَّةِ عددِهِمْ، لأنَّ أولئكَ كانوا خَرَجوا لِلْقِتالِ والحربِ مُستَعِدِّينَ لذلكَ مُتأهِّبينَ، وهؤلاءِ كانوا خَرَجوا لِقَضاءِ المناسِكِ وزيارةِ البيتِ، فَكَفَّ أيديَ أولئكَ مَعَ عِدَّتِهِمْ وقوتِهِمْ وكَثْرَتِهِمْ عن هؤلاءِ مع ضَعْفِهِمْ وقِلَّةِ عددِهِمْ حتى أظْفَرَهُمْ بأولئكَ بِما ذُكِرَ في القِصةِ أنَّ المُسلِمينَ كانوا اشْتَغَلوا بالتَّرامي بالنَّبْلِ والحجارةِ حتى هَزَموهُمْ، وأدخلوهُمْ بَطْنَ مكةَ على ما ذُكِرَ، ثم أظْفَرَهُمْ بِهِمْ، وكَفَّ أيديَ هؤلاءِ عنهمْ، وأتَمَّ[6] لهمُ الظَّفَرَ بهمْ لِيَعْلَمَ هؤلاءِ أنَّ التَّدبيرَ في الأمرِ إلى اللهِ تعالى دونَهُمْ، ولهُ السُّلطانُ على الخَلْقِ جميعاً، لا سُلطانَ لأحَدٍ في سُلطانِهِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وأمّا ما ذُكِرَ مِنَ الامْتِنانِ فهو ما ذُكِرَ مِنْ كَفِّ أيدي أولئكَ عن هؤلاءِ عندَ شدةِ خوفِهِمْ منهمْ وفَزَعِهِمْ بما ذَكَرْنا مِنْ قوةِ أولئكَ وكَثْرَتِهِمْ وضَعْفِ هؤلاءِ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ حتى أظْفَرَهُمْ؛ يَذْكُرُ مِنَّتَهُ عليهمْ لِيَسْتَأْدِيَ [بذلكَ][7] شُكْرَهُ، ويَكُفُّ أيديَ هؤلاءِ عنهمْ.

فإنْ قيلَ: ما كَفُّ أيدي أولئكَ عن هؤلاءِ مِنَّةٌ ظاهِرةٌ، ولكنْ أيَّةُ مِنَّةٍ تكونُ في كَفِّ أيدي المؤمنينَ عن أولئكَ الكَفَرَةِ، فَيُقالُ: جائزٌ أنْ يكونَ المَنُّ في كَفِّ أيدي المؤمنينَ عن أولئكَ الكَفَرَةِ لِيَسْتَأْدِيَ منهمْ شُكْرَهُ بذلكَ، وهو الإسلامُ، وللهِ تعالى على جميعِ خَلْقِهِ مِنَّةٌ لِيَسْتَأْدِيَ منهمْ شُكراً على الكافِرينَ والمُسْلِمينَ جميعاً.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ المِنَّةُ في كَفِّ أيدي المؤمنينَ عن أولئكَ على المؤمنينَ أيضاً هي[8] ما ذَكَرَ على إثرِهِ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: ويتم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: هو.

﴿مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إنهُ لو لم يَكُفَّ أيدي المؤمنينَ عنهمْ حتى يَتِمَّ لهمُ الظَّفرُ بهمْ، فَدَخلُوا مكةَ، وهنالكَ مؤمنونَ، لأصابَهُمْ ما ذَكَرَ مِنَ المَعَرَّةِ وغيرُهُ، فكانَ في كفِّ أيدي المؤمنينَ عنْ أولئكَ مِنَّةٌ عظيمةٌ عليهمْ لِما بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ [مِنْ إصابةِ][1] مَنْ فيها مِنَ المؤمنينَ مِنْ غيرِ عِلْمٍ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهُمْ لم يكونوا في بَطْنِ مكةَ، إنما كانوا بالحُدَيبِيَةِ، وبَينَها وبَينَ مكةَ أميالٌ، لكنْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أظفرَهُمْ بهمْ، وقَهرَهُمْ، وهَزَمَهُمْ، حتى أدْخلَهُمْ بَطْنَ مكةَ على ما ذُكِرَ أنهمْ هَزَموهُمْ حتى أدخلوهُمْ في بُيوتاتِ مكةَ.

والثاني: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي بِقُرْبِ مكةَ. وجائزٌ أنْ يُكنّيَ ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي بِقُرْبِها.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أيِ الحَرَمِ؛ والحَرَمُ[2] كلُّهُ مكةُ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ لم يَزَلِ اللهُ تعالى عالماً بأعمالِهِمْ بَصيراً.

وفيهِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِهِمْ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ كَفَّ أيديَ هؤلاءِ عنْ أولئكَ وأيديَ أولئكَ عنْ هؤلاءِ، ثم قالَ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ [بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾][3] لِيُعلِمَ أنَّ لهُ في فِعْلِهِمْ صُنْعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي صَدّوهُمْ عمّا قَصَدوا، وهو الطّوافُ بالبيتِ والزيارةُ لهُ؛ ذَكَرَ صَدَّهُمْ عنِ المَسْجِدِ الحَرامِ [لِما كانَ الذي قَصَدُهُ، هو في المَسْجِدِ الحرامِ، فإذا صَدّوهُمْ عنِ المَسْجِدِ الحرامِ][4] صَدّوهُمْ عمّا فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ وقولُهُ: ﴿مَعْكُوفًا﴾ أي مَحبوساً، والعُكوفُ، هو الحَبْسُ، ومنهُ سُمّيَ العاكِفُ والمُعتكِفُ.

ثم قولُهُ: ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ مَحِلُّ دمِ هَدْيِ المُتعَةِ، هو مكةُ أو مِنًى. فأمّا الحَرَمُ نفسُهُ فليسَ، هو مَحِلُّهُ. فكأنهُ قالَ: وصَدّوا الهَدْيَ عنْ أنْ يَبْلُغَ مَحِلَّ الذي جُعِلَ لِهَدْيِ المُتعَةِ، وهو مِنًى أو مكةُ، لأنهُ ذُكِرَ في الخَبَرِ أنهُ كانَ ﷺ مُعتَمِراً، وذُكِرَ أنهُ كانَ مُتمَتِّعاً.

وفيهِ أنَّ دمَ المُتعَةِ إنْ مُنِعَ عنْ مَحِلِّهِ سَقَطَ، وخَرَجَ عنْ حُكْمِ المُتعَةِ، ويعودُ إلى مُلْكِهِ، ولهُ أنْ يَصْرِفَهُ إلى ما شاءَ.

ألا تَرى أنَّ النبيَّ ﷺ [نَحَرَ][5] تلكَ البُدْنَ التي ساقَها عنِ الإحصارِ في الحَرَمِ؟ دَلَّ أنَّ هَدْيَ المُتعَةِ إذا مُنِعَ عنِ المَحِلِّ سَقَطَ، وخَرَجَ عنْ حُكْمِ المُتعَةِ. وفيهِ أنَّ دَمَ الإحصارِ لا يجوزُ إراقَتُهُ إلّا في الحَرَمِ؛ إذِ الحُدَيبِيَةُ تَجمَعُ الحِلَّ والحَرَمَ جميعاً عندَنا، فإنما كانَ نَحَرَها في الحَرَمِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي تَقتُلوهُمْ، وتُهلِكوهُمْ ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لولا ما فيها؛ أعني في مكةَ مِنْ رجالٍ مؤمنينَ ونساءٍ مؤمناتٍ لأتَمَّ لكُمُ الظَّفَرَ بهمْ، ودَخَلْتُمْ عليهمْ، لكنْ مَنَعَكُمْ مِنْ دخولِكُمْ مكةَ لِما ذَكَرَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: قالَ بعضُهُمْ: لَزِمَكُمُ الدِّيَةُ بِقَتْلِهِمْ، وكذا رُوِيَ عنْ محمدِ بْنِ إسحاقَ، وقالَ بعضُهُمْ: الإثمُ والذنبُ، أي يصيبُكُمْ منهمُ الإثمُ بِقَتْلِكُمْ إياهُمْ، وهذا لا يُحتَمَلُ لأنهمْ إذا قَتَلوهُمْ، وهُمْ لا يَعلَمونَ، لا يَلْحَقُهُمُ الإثمُ والذنبُ لأنَّ اللهَ تعالى وَضَعَ الإثْمَ عنّا في ما لا نَعلَمُهُ، ولم يَضَعْ [عنّا][6] طريقَ العِلْمِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو عالم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وعندنا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أي فَيُصيبَكُمْ مِنَ الكَفَرةِ وأهلِ النِّفاقِ ما يَسوؤُكُمْ بِقَتْلِكُمْ إياهُمْ مِنَ اللائمةِ والتَّعْيِيرِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ القِيلِ والقالِ؛ يقولونَ: إنهمْ قَتَلوا أصحابَهُمْ ومَنْ كان/ ٥١٩ ـ ب/ على دينِهِمْ مِنْ أهلِ الإسلامِ، فَيَجِدونَ بذلكَ سَبيلاً إلى ما ذَكَرْنا، فَيَسوؤُكُمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يُصيبُكُمُ الأسَفُ والحُزْنُ والندامةُ الدائمةُ بِقَتْلِكُمْ أهلَ الإيمانِ وأهلَ الإسلامِ إذا عَلِمْتُمْ أنكم قَتَلْتُمْ أصحابَكُمْ وأهلَ دينِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم المُخالفُ لنا تَعَلَّقَ بهذهِ الآيةِ في مسألتَينِ:

إحداهُما: في مَنْ أسْلَمَ، ولم يهاجِرْ إلينا أنهُ تَجِبُ الدِّيَةُ في قتلِهِ لقولِهِ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وهي غُرْمُ الدِّيَةِ.

والثانيةُ: هل يُباحُ الرَّمْيُ إلى حصونِ المُشركينَ إذا كانَ فيها أسارَى المسلمِينَ وأطفالُ المسلمِينَ، وإحراقُ الحصونِ، أو الرَّمْيُ إلى الكفارِ الذينَ تَتَرَّسُوا بأطفالِ المسلمِينَ.

قالَ أبو حَنيفةَ وأبو يوسفَ ومحمدٌ وزُفَرُ والثَّوريُّ: لا بأسَ بِرَمْيِ المُشركِينَ، وإن كانَ فيهِمْ أسارَى المُسْلمِينَ وأطفالُهُمْ، ولا بأسَ بأنْ يَحْرِقوا الحِصْنَ، ويَقْصِدوا بهِ المُشْرِكِينَ دونَ المسلمِينَ، وكذلكَ إحراقُ سَفينةِ الكفارِ إذا كانَ فيها أسارَى المُسْلمِينَ.

وقالَ مالكٌ: لا تُحْرَقُ سفينةُ الكُفّارِ إذا كانَ فيها أسارَى المسلمينَ. وقالَ الأوزاعيُّ: إذا تَتَرَّسَ الكفارُ بأطفالِ المسلمِينَ لم يُرْمَوا، ولا يُحْرَقُ الحِصْنُ، ولكنْ لا بأسَ بأنْ يُرْمَى الحِصْنُ بالمَنْجنيقِ ونَحْوِ ذلكَ، وقالَ الشافعيُّ: لا بأسَ بأنْ يُرْمَى الحِصْنُ، وفيهِ أسارَى وأطفالُ المسلمِينَ، ولم يَتَتَرَّسوا بهِمْ. فَلَهُ قولانِ.

واحْتَجَّ هؤلاءِ: مَنْ عادَتُهُمْ أنهمْ كانوا يَعْبُدونَ ما يَهْوَونَ، ومالَتْ إليهِمْ أنفسُهُمْ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ وغَيرِها، ويَنْصُرونَ مَنْ عَبَدوها، ويدفعونَ عنهمْ، فَيَذُبّونَ عنها.

الآية ٢٦ فجائزٌ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على ذلك هو نَصْرُهُمْ أولئكَ الأصنامَ وعُبّادَها. والذَّبُّ عنهمْ [حَمِيَّةً منهمْ][1] حَمِيَّةَ الجاهليةِ، واللهُ أعلَمُ [لِقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ السَّكينةِ التي أخبَرَ أنهُ أنزَلَها على رسولِهِ ومَنْ ذَكَرَ، هو شيءٌ أنزَلَهُ مِنَ السماءِ لُطْفاً منهُ عليهِمْ حتى سَكَنَتْ لذلكَ قلوبُهُمْ.

وجائزٌ أنْ تكونَ لا على حقيقةِ إنزالِ شيءٍ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، ولكنْ على الإنشاءِ والخَلْقِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ واللهُ أعلَمُ.

ثم السَّكينةُ تَحتَمِلُ أسباباً، لَدَيها تَسكُنُ قلوبُهُمْ وأنفسُهُمْ، والأسبابُ تَختَلِفُ، وتَحْتَمِلُ أشياءَ أُخَرَ سِوَى ذلكَ، وهو اللطفُ الذي جَعَلَ لهمْ، فَسَكَنَتْ قلوبُهُمْ بذلكَ اللطفِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ يَحْتَمِلُ هذا [وجوهاً]:

أحَدُها][3]: ألْزَمَهُمْ كلمةً، بها يَتَّقونَ النارَ.

[والثاني][4]: تَحْتَمِلُ كلمةُ التَّقْوَى كلمةَ الإخلاصِ وغَيرَها ما يَقيهِمُ النارَ، واللهُ أعلَمُ.

[والثالث][5] يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ إظهارَ كلمةِ التَّقْوَى حتى تَصيرَ ظاهرةً في الخَلْقِ أبداً إلى يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٤) في الأصل وم: ثم.
(٥) في الأصل وم: و.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُمْ: كلمةُ التَّقْوى، هي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وذلكَ أنهُ لمّا كُتِبَ كتابُ الصلحِ في ما بَينَ أهلِ مكةَ وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ كُتِبَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فقالَ الكافرُ[1]: لا ندري ما الرحمنُ الرحيمُ، وتلكَ كلمةُ التَّقْوى، واللهُ أعلَمُ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي بتلكَ الكلمةِ، وكانوا أهلاً لها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ كلمةُ الإخلاصِ ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ مِنَ الأُمَمِ السالفةِ ﴿وَأَهْلَهَا﴾ واللهُ أعلَمُ، أو كانوا أحقَّ بها في الإظهارِ في الخَلْقِ والقيامِ بذلكَ، أو كانوا أحقَّ بها في إلزامِها في أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ أي حقّقَ اللهُ ﴿رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ التي [أراهُ إياها][2] ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالوفاءِ لذلكَ.

ويَحتمِلُ: أي صَيَّرَ النبيَّ ﷺ صادقاً عندهمْ في ما أخبرَهمْ أنهُ رأى، وجعَلَهُ صادقاً في ذلكَ. والأوّلُ أشبهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ هذا يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على الأمرِ أنِ ادْخُلوا المَسْجِدَ الحَرامَ، وإنْ كانَ في الظاهرِ خَبراً كَرُؤيا إبراهيمَ ﷺ حينَ[3] قالَ: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ﴾ ثم قالَ تعالى، جَلَّ، وعلا: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]. دلَّ على أنَّ ما رَأى إبراهيمُ، صلواتُ اللهِ عليهِ، مِنَ الذبحِ، هو أمرٌ بذلكَ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا تَخرُجُ الثُّنيا المذكورةُ فيهِ على إثرِهِ كأنهُ يقولُ، ادْخُلوا المَسْجِدَ الحرامَ مُحلِّقينَ ومُقَصِّرينَ، إنْ شاءَ اللهُ تأمَنوا في دخولِكُمْ، وإذا لم تأمَنوا لم يَشَأْ أنْ تَدْخُلوهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني[4]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ على الوَعْدِ، فتَخرُجُ الثُّنيا المذكورةُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على التَّبرُّكِ والتَّيَمُّنِ كما يُتبرَّكُ بِذِكْرِ اسمِهِ في فِعْلٍ يُفعَلُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: على الأمرِ لكلٍّ في نفسِهِ إذا أخبرَ غيرَهُ أنهُ يدخلُ أنْ يقولَ ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ كما يُؤمَرُ بالثُّنيا مَنْ أخبرَ آخرَ شيئاً أنهُ يَفعَلُهُ لِقولِهِ تعالى ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ و٢٤].

ويَحتمِلُ أنْ تُذكَرَ الثُّنيا لأنَّ الوَعْدَ في الظاهِرِ، وإنْ كانَ لِلجُملَةِ كقولِهِ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ بعضاً[5] منهمْ ليسَ الجُملَةَ لاِحتِمالِ أنْ يموتَ بعضٌ منهمْ ألا يكونَ هو مُراداً بالجُملَةِ، فذِكْرُ الثُّنيا لئلا يكونَ خُلْفٌ في الوَعْدِ مِنَ النبيِّ ﷺ.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ رؤيا النبيِّ ﷺ وأخبرَ أنهُ حقّقَها يَحتمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ دخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ على إثرِهِ.

فإنْ كانَ ذلكَ فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ هو تفسيرٌ لتلكَ الرُّؤيا، وجائزٌ أنْ تكونَ الرُّؤيا في غيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ ابْتِداءُ وَعْدٍ وأمْرٍ مِنَ اللهِ تعالى، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يَحتمِلُ ما ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ، ويَحتمِلُ غيرَ هذا أيضاً، وقد أخبرَ أنهُ حقّقَها، وصدَّقَها، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ يُخبِرُ أنهمْ يدخلونَ المَسْجِدَ الحَرامَ مُحلِّقينَ ومُقصِّرينَ. ثم يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: في ابْتِداءِ الإحرامِ يُخرَّجُ على التَّزَيُّنِ على ما يَتَزَيَّنُ المُحْرِمُ في ابْتِداءِ إحرامِهِ مِنْ نَحْوِ التَّطيُّبِ واللِّباسِ والحَلْقِ والتَّقْصيرِ ونَحْوِ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ذلك اكتب كذا؟ (٢) في الأصل: أراها، في م: أراها إياه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ويحتمل.
(٥) في الأصل وم: بعض. (٦) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

[والثاني][١]: أنهم يَدخلونَ على التَّزيُّنِ في المَسْجِدِ الحَرامِ آمِنينَ مِنَ الكفارِ. فإنْ كانَ على ذلكَ فهو على الثيابِ والطِّيبِ وغيرِ ذلكَ.

وذُكِرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ مُعتمِراً، فَسُمِّيَتْ تلكَ [العُمْرةُ][٢] عُمْرَةَ القضاءِ عمّا[٣] مُنِعَ في عامِ الحُدَيبيَةِ، وكانَ مُعتمِراً.

وإنْ كانَ حاجاً فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ بَعدَ رجوعِهِمْ مِنْ مِنًى إلى طوافِ الزيارةِ في ذلكَ الوقتِ، ويكونونَ مُحَلِّقينَ ومُقَصِّرينَ، واللهُ أعلمُ.

فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في أمرِهِ رسولَهُ ﷺ بالخُروجِ للحجِّ عامَ الحُدَيبيَةِ على عِلْمٍ منهُ أنهُ لا يَصِلُ إلى مكةَ، وأنهُ يُحالُ بَيْنَهُ وبَينَ دخولِ مكةَ وقضاءِ النُّسُكِ، إذْ لا يُحمَلُ على ذلكَ إلّا بأمرٍ منَ اللهِ تعالى، لَيسَ هو كَغيرِهِ مِنَ الناسِ: إنهمْ يَفعلونَ أفعالاً بِلا أمرٍ، ثم يُمنَعونَ، أو يُنْهَونَ عن ذلكَ.

فأمّا رسولُ اللهِ ﷺ /٥٢٠ ـ أ/ فلا يَفعَلُ شيئاً إلّا عن أمرٍ منهُ لهُ بذلكَ؟

قيلَ: يَحتمِلُ أنَّ ما أمَرَهُ بذلكَ مع عِلْمِهِ بأنهمْ يُمنَعونَ ذلكَ تعليماً منهُ رسولَهُ وأُمَّتَهُ حُكْمَ الإحصارِ أنَّ مَنْ حُصِرَ عنِ الحجِّ، ومُنِعَ عن دخولِ مكةَ لِقضاءِ النُّسُكِ ماذا يَلْزَمُهُ؟ وكيفَ[٤] يَخرُجُ منهُ؟ وللهِ تعالى أنْ يُعلِّمَ خَلْقَهُ أحكامَ شَريعتِهِ، أو يُخبِرَهُ بأمرٍ يأمُرُهُمْ بذلكَ، أو يُخبِرَ بِخَبَرِهِمْ، ومرَّةً بِفِعْلِ النَّبيِّ ﷺ يَمتَحِنُهُمْ بما شاءَ [إذْ][٥] لهُ الحُكْمُ والأمْرُ في الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي تدخلونَ مكةَ آمِنينَ، لا تَخافونَ عَدُوَّكُمْ ولا مَنْعَهُمْ إياكمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ هذا يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي عَلِمَ ما وَعَدَ لكمْ مِنْ فتحِ خَيْبَرَ وغنائِمِهِ ما لم تَعلَموا.

[والثاني][٦]: أي عَلِمَ ما أرَى رسولَهُ ﷺ مِنَ الرُّؤيا وتحقيقِها ما لم تَعلَموا.

[والثالثُ][٧]: أي عَلِمَ في رجوعِكُمْ عنِ الحُدَيبيَةِ أشياءَ لم تَعلَموها أنتمْ مِنْ إظهارِ ما أظْهَرَ مِنْ نِفاقِ أهلِ النِّفاقِ فيهمْ وأهلِ الاضطِرابِ مِنَ المُحقِّقينَ والمُصدِّقينَ وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يقولُ: إنَّ ذلكَ الدخولَ إلى سَنَةٍ، ولم تَعلَموا أنتمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: جَعَلَ مِنْ قَبْلُ أنْ يَدخُلوا مكةَ فَتحاً قريباً، أي عاجلاً فَتْحَ خَيْبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ اشتَدَّ على الناسِ رجوعُهُمْ مِنَ الحُدَيبيَةِ [وصَدُّ المشركينَ إياهمْ][٨] عمّا صَدُّوا بَعْدَما أخبَرَهُمُ الرسولُ ﷺ أنهُ رَأى في المَنامِ أنهمْ يدخُلونَ على [ما][٩] وَقَعَ عندَهُمْ أنَّ رُؤيا الأنبياءِ عليهم السلام حقٌّ كالوَحْيِ.

لكنَّ هذا لا يُحتَمَلُ مِنَ المسلمينَ، إنما يُحتَمَلُ مِنَ المُنافقينَ على ذِكْرِ أنهمْ قالوا حينَ نَحَرَ[١٠] رسولُ اللهِ ﷺ بالحُدَيبيَةِ أنَّ [رُؤياهُ حقٌّ][١١]، أو كلاماً نَحوَهُ.

فَدَلَّ هذا [على أنهُ][١٢] يُحتَمَلُ مِنَ المُنافقينَ، فأمّا مِنَ المُسلمينَ فلا يُحتَمَلُ أنْ يَقَعَ في قلوبِهِمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ لِما لم يَكُنْ في الآيةِ بيانٌ ولا توقيتٌ أنهمْ متى [يَدخلونَ][١٣].

ألا تَرى أنَّ يوسفَ عليه السلام رَأى رُؤيا، وخرجَتْ تلكَ بعدَ أربعينَ سنةً أو أقلَّ أو أكثرَ؟

---

(١) في الأصل وم: غير. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وثم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) في الأصل وم: وصدهم المشركون. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: يخبر. (١١) في الأصل وم: الرؤيا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَعَلَى ذلك لا يُحتَمَلُ أنْ يَخفَى، إذا لم يكنْ في الوعدِ توقيتٌ، أنهُ يجوزُ أنْ يتأخّرَ أو يتقدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في ما ذَكَرْنا مِنْ أمرِ الحُدَيبيَةِ وصَدِّ المُشرِكينَ إياهُمْ عنْ دخولِ مكةَ والحَيلولةِ بينَهُمْ وبينَ ما قَصَدوا أنهُ لا يُحتَمَلُ أنْ يَخرُجَ رسولُ اللهِ ﷺ لِقَصْدِ الحجِّ وزيارةِ البيتِ مَعَ أصحابِهِ بِلا أمْرٍ منهُ بذلكَ لِما ذَكَرْنا.

ثم إنْ ثَبَتَ لهُ الأمْرُ بذلك على عِلْمٍ مِنَ اللهِ تعالى أنهُ لا يَصِلُ إلى تَحصيلِ المأمورِ بهِ وما قَصَدوا مِنْ دخولِ مكةَ زائرينَ وما يكونُ مِنَ المُشرِكينَ مِنَ المَنْعِ لهمْ والصَّدِّ عنْ ذلك وما أرادوا تَحصيلَ ما أمَرَهُمْ بذلكَ، فهذا دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يأمُرُهُمْ، ويُريدُ غيرَ الذي أمَرَ بهِ، وأنهُ يُريدُ ما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهمُ الذي أمَرَ بهِ، وهو كما أمَرَ إبراهيمَ ﷺ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، ثم كانَتْ حقيقةُ المُرادِ بِذَبحِ الولَدِ ذَبحَ الشاةِ أوِ الكَبْشِ. دَلَّ أنَّ الأمرَ بالشيءِ لا يَدُلُّ على أنهُ أرادَ الذي أمَرَ بهِ، بل يُريدُ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ مِنْ خِلافِهِ وضِدِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي أرسَلَهُ بالهُدَى مِنْ كلِّ ضَلالةٍ أو حَيرةٍ، أو أرسَلَهُ بالبَيانِ مِنْ كلِّ عَمًى وشُبْهَةٍ، وهو هذا القرآنُ الذي سَمّاهُ مَرّةً هُدًى [ومَرّةً رحمةً ومَرّةً نوراً][1] ونَحْوَ ذلكَ، وهو ما وَصَفَهُ ﷺ أنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بهِ فيكونُ ما ذَكَرَ هُدًى مِنْ كلِّ ضلالةٍ وحَيرةٍ، ونوراً مِنْ كلِّ ظُلْمَةٍ وبَياناً مِنْ كلِّ عَمًى وشُبْهَةٍ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ هو نعتُ الدينِ، وهو الإسلامُ، وهو الدينُ الحقُّ، وسائرُ الأديانِ باطلَةٌ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي دينُ الإلهِ الذي هو الإلهُ الحقُّ، وهو الإلهُ المُستَحِقُّ الألوهيَّةَ، وغيرُهُ مِنَ الأديانِ دينُ الشيطانِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الإظهارُ، هو الغَلَبةُ، ثم تُخرَّجُ غَلَبَتُهُ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي غَلَبَ هذا الدينُ على الأديانِ كلِّها بالحُجَجِ والبراهينِ أنهُ حقٌّ وأنهُ من عندِ اللهِ جاءَ. وقد كانَ بِحَمْدِ اللهِ كما ذُكِرَ حتى عَرَفَ أهلُ الأديانِ كلِّها بالحُجَجِ والبراهينِ أنهُ حقٌّ إلّا مَنْ كابَرَ عقلَهُ، وعانَدَ الحقَّ، أو غَفَلَ عنْ دلائِلِهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

والثاني: يَغْلِبُ على أهلِ الأديانِ كلِّهِمْ حتى يَصيرَ أهلُ الإسلامِ ظاهِرينَ غالِبينَ مِنْ بَينِ غيرِهِمْ. ويَتوارَى جميعُ أهلِ الأديانِ، ويَختَفونَ. ولكنْ ذلكَ في وَقتٍ دونَ وَقتٍ، وهو الوَقتُ الذي ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، وهو في وَقتِ خُروجِ عيسى ﷺ يَصيرُ أهلُ الأديانِ كلُّهُمْ أهلَ دينٍ واحدٍ، وهو الإسلامُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [أي يُظهِرَ ما يَحتاجُ أهلُ هذا الدينِ كلِّهِ][2] وما يَحدُثُ لهمْ مِنَ الحاجةِ على الأديانِ كلِّها بِما ضَمَّنَ في القرآنِ مَعانيَ تَقَعُ الكِفايةُ بها في الحوادثِ كلِّها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ بأنَّ ما جاءَ بهِ سيدُنا محمدٌ ﷺ إنما[3] جاءَ بهِ مِنْ عندِ اللهِ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا فإنما تكونُ هذهِ الشهادةُ في الآخِرَةِ.

والثاني: يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ بما أنشَأَ لهُ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ شهادةً منهُ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ. وذلكَ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ مِنَ الناسِ مَنِ احتَجَّ على تَفضيلِ محمدٍ ﷺ على غَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﷺ بهذهِ الآيةِ وبِغَيرِها مِنَ الآياتِ؛ يقولُ: لم يَذْكُرْ محمداً ﷺ في القرآنِ إلّا وخاطَبَهُ باسمِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) في الأصل وم: ورحمة ونوراً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أي بما.

جنة السنة

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤ و. . .] [وقولِهِ تعالى](١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١ و. . . .] وقولِهِ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] ونَحْوَ ذلكَ، وسائرُ الأنبياءِ ﷺ إنما خاطَبَهُمْ بأسمائهِمُ التي جُعِلَتْ لهمْ خِلْقَةً دونَ خَتْمِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] و﴿يَٰلُوطُ﴾ [هود: ٨١] و﴿يَٰهَٰرُونُ﴾ [طه: ٩٢] و﴿يَٰهُودُ﴾ [هود: ٥٣] و﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ [الأعراف: ٧٧ و. . .].

جميعُ مَنْ ذَكَرَهُمْ [سَواءٌ، إنما ذَكَرَهُمْ](٢) بأسمائهِمُ الموضوعةِ في أصْلِ الخِلْقَةِ، ولم يُحَلَّوا، ولم يُسَمَّوا بأسماءِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ. ولِذلكَ الفَضْلِ جَعَلَ لهُ مِنْ بَينِ غيرِهِ(٣).

وكذلكَ يُحتَجُّ لِتَفْضيلِ أُمَّتِهِ وأصحابِهِ على سائرِ الأُمَمِ حينَ(٤) خاطبَ هذهِ الأمَّةَ بأحْسَنِ الأسماءِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤ و. . .] وقالَ(٥): ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] وقالَ في سائرِ الأُمَمِ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦] ونَحْوَ ذلكَ.

وممّا يَدُلُّ على فَضِيلَتِهِمْ قولُهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٠] أي كُنْتُمْ خَيرَ أمّةٍ في الكتبِ المُتَقَدِّمَةِ بِما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآيةَ. ما وَصَفَهُمْ، ونَعَتَهُمْ، يَرْجِعُ إلى أصحابِهِ على الاجْتِماعِ أيِ الكُلُّ مَوصوفونَ بهذهِ الصفاتِ التي ذَكَرَ في الآيةِ، وإنّها كلَّها فيهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى في صِفَتِهِمْ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أي أشداءُ على الكفارِ، رُحَماءُ على المؤمنينَ، وصَفَهُمْ بذلكَ جُمْلَةً. فَعَلى ذلكَ هنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ وَصْفَ بعضِهِمْ دونَ بَعْضٍ، أو وَصْفَ عامَّتِهِمْ. وأمّا الكُلُّ فلا.

وذلكَ نَحْوُ ما رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ /٥٢٠ ـ ب/ مَسْعودٍ ﷺ حينَ(٦) قالَ: لولا قولُهُ تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢] ما كنّا نَعْرِفُ أحداً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ يريدُ الدنيا. فإنما يكونُ ذلكَ وَصْفَ أمثالِ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ.

ثم قد جَعَلَ اللهُ تعالى الرَّحْمَةَ والرَّأْفَةَ نَعْتاً للمؤمنينَ يَرْحَمُ(٧) بعضُهُمْ بَعْضاً. وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ](٨) قالَ: «لا تَدْخلوا الجنةَ حتى تراحَموا، قالوا: كُلُّنا يَرْحَمُ وَلَدَهُ، فقالَ: ليس ذلكَ بِرَحمةٍ، إنما الرحمةُ أنْ يُحِبَّ المرءُ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ ولِوَلَدِهِ» [بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧]، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ورُوِيَ عنِ النُّعْمانِ بْنِ بشيرٍ [أنهُ](٩) قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «المؤمنونَ كلُّهُمْ كرجُلٍ واحدٍ إذا اشْتَكى منهُ عُضْوٌ تداعَى لهُ سائرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمّى» [البخاري ٦٠١١]

وليسَ في ما وَصَفَهُمْ بالشِّدَّةِ على الكُفّارِ على أنْ ليسَ لهمْ شَفَقَةٌ عليهِمْ، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ لهُ شَفَقَةٌ عليهِمْ حتى كادَتْ تَهْلِكُ نفسُهُ. لِذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقالَ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

فَعَلى ذلكَ أصحابُهُ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ.

ثم القِتالُ المَوضوعُ في ما بَيْنَهُمْ رَحْمَةٌ في الحقيقةِ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ، ليسَ بِرَحمةٍ، لأنهُ وُضِعَ لِيَضْطَرَّهُمْ ذلكَ إلى قَبولِ الإسلامِ والتوحيدِ، وفي قَبولِهِمْ ذلكَ نَجاتُهُمْ.

وأمّا وَصْفُهُمْ بالرَّحْمَةِ على المؤمنينَ ليسَ فيهِ أنهمْ ليسوا بأشِدّاءَ عليهِمْ إذا عايَنوا منهمُ المَناكيرَ والفواحِشَ حتى يَتْرُكوا التَّغْييرَ عليهِمْ، بلِ الشَّفَقَةُ لهمْ عليهِمْ ما يُغَيِّرونَ عليهِمُ المُنْكَرَ؛ إذْ في ذلكَ نَجاتُهُمْ، وذلكَ لا يُزيلُ عنهمُ الرَّحْمَةَ التي وَصَفَهُمْ بها، بلْ ذلكَ مِنَ الشَّفَقَةِ لهمْ والرَّحْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: غيرهم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وقوله.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: يتراحم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم نعتَهم، وقال: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يَحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما: وَصْفُ لهمْ بالمُداوَمَةِ في إقامةِ الصَّلَواتِ بالجماعاتِ، وأرادَ بالرُّكوعِ والسُّجودِ الصلاة[1] على طريقِ الكِنايةِ.

والثاني: عِبارةٌ عنِ الخُضوعِ لربِّهِمْ والتواضُعِ للمؤمنينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي الجنَّةَ، أي يَبْتَغونَ بكلِّ ما وصَفَهُمْ مِنَ الرَّحمَةِ والشِّدَّةِ والرُّكوعِ والسُّجودِ الجنَّةَ. والفَضلُ يُذكَرُ عبارةً عنِ الجنّةِ في القرآنِ في غيرِ موضعٍ.

وجائزٌ ما ذَكَرَ مِنِ ابْتِغائِهِمُ الفَضلَ مِنَ اللهِ تعالى ما يَتَعَيَّشونَ بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يَبْتَغونَ ما يَتَعَيَّشونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يَبْتَغونَ مَعيشةً يَتَقَوَّونَ بها على طاعةِ اللهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي رضاهُ بهِمْ، وهو بِمَعْنَى الفَضلِ أيضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ وغيرُهُ: أي أثَرُ الخُشوعِ والصلاةِ في وجوهِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الرجلَ إذا ما قامَ مِنَ الليلِ، فأطالَ القيامَ والسَّهَرَ، تَبَيَّنَ أثَرُ سَهَرِ الليلِ في وجهِهِ إذا أصْبَحَ مِنَ الصُّفْرَةِ وتَغَيُّرِ اللونِ، وذلكَ[2] كلُّهُ في الدنيا.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ الحَسَنِ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ قوماً يَحسَبُهُمُ الناسُ مَرضَى، ولكنهمْ لَيسوا بِمَرْضَى» [ابن المبارك في الزهد ص٣١].

قالَ الحَسَنُ: أجهَدَتْهُمُ العبادةُ. وقالَ قَتادةُ: أثَرُ الصلاةِ في وجوهِهِمْ، وهو أثَرُ الترابِ. لكنَّ ذلكَ بعيدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يومَ القيامةِ، وهو بياضُ وجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجودِ والوُضوءِ.

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إني أعرِفُ أُمَّتي مِنْ بَينِ غَيرِها مِنَ الأُمَمِ، قيلَ: وكيفَ تَعرِفُ يا رسولَ اللهِ أُمَّتَكَ مِنْ بَينِ الأُمَمِ؟ فقالَ: أُمَّتي غُرٌّ مُحجَّلونَ يومَ القيامةِ مِنْ أثرِ السُّجودِ، ولا يكونُ ذلكَ لأحدٍ مِنَ الأُمَمِ غَيرِهِمْ» [بنحوه أحمد ٤/١٨٩] واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على غَيرِ ذلكَ: يَجعَلُ اللهُ تعالى في وجوهِهِمْ مِنْ آثارِ العبادةِ لهُ والجَهْدِ فيها مِنَ النورِ والحَلاوَةِ والحُسْنِ ما يُعرَفونَ أنهمْ أهلُ عِبادةِ اللهِ تعالى وطاعتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أي شَبَهُهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ بالآحادِ والإفرادِ؛ فَهُمُ[3] المُختارونَ مِنْ بَينِ غيرِهِمُ الذينَ يُعظِّمونَهُمُ الأتباعُ والملوكُ، ويُجِلُّونَهُمْ، فما بالُكُمْ لا تُعظِّمونَ أنتمْ هؤلاءِ، ولا تَتَّبِعونَهُمْ كأولئكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحتمِلُ ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي ذلكَ نَعْتُهُمْ وَوَصْفُهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ، أي على ذلكَ نُعِتوا، وَوُصِفوا، في التوراةِ والإنجيلِ، وقد عَرَفْتُمْ ذلكَ، فهلا اتَّبَعْتُموهُمْ إذا نُعِتوا، وَوُصِفوا، في القرآنِ؟

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ مقطوعٌ مقصورٌ، وهو ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ ثم ابْتَدأ، فقالَ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ الآيةَ. وهذا يَحتمِلُ، ووجهٌ حسَنٌ.

وعلى التأويلَينِ ما ذَكَرْنا مِنْ وَصْفِهِمْ كأنهُ في التوراةِ والإنجيلِ جميعاً، ثم نَعَتَهُمْ أيضاً بقولِهِ: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: وكذلك. (٣) في الأصل وم: منهم.

جنة السنة

ثم ذَكَرَ نَعْتَ أصحابِهِ ﷺ ولم يَذْكُرْ نَعْتَ رسولِهِ ﷺ وإنما ذَكَرَ نَعْتَهُ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧] ذَكَرَ نَعْتَهُ وصِفَتَهُ في الآيةِ ﷺ ونَعَتَ أصحابَهُ ﷺ بهذهِ السورةِ، والله أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية دلالةُ الرسالةِ لأنهُ أخبرَ أنَّ نعتَهُمْ في الكتبِ المُتقدِّمةِ كما ذَكَرَ في القرآنِ.

ثم لم يَقُلْ أحدٌ مِنْ أهلِ الكتبِ المُتقدِّمةِ: أنْ ليسَ ذلكَ نَعْتَهُمْ أو شَبَهَهُمْ في تلكَ الكتبِ. ثَبَتَ أنهُ باللهِ عَرَفَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ الآية شَبَّهَهُمْ بالزَّرْعِ الذي ذَكَرَ، والله أعلَمُ، لأنهم أحْيَوا سُنَنَ الدِّينِ وشَرائِعَهُ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ بَعْدَ ما دَرَسَتْ، وانْقَطَعَ أثَرُها، لأنهُ لم يَكُنْ في ما بَيْنَ عيسى ومحمدٍ ﷺ رسولٌ، فقد انْقَرَضَ ذلكَ، وانْدَرَسَ.

ثم جاءَ محمدٌ ﷺ بَعْدَ دُروسِ ذلكَ وانْقِراضِهِ كالزَّرْعِ الذي يَخْرُجُ وَحْدَهُ، وهو النَّبْتُ الواحدُ في أوَّلِ ما يَخْرُجُ، فأعانَهُ أصحابُهُ، وآزَروهُ، كانوا كالوالِيَةِ التي تَنْبُتُ حولَ الساقِ، تُوازِرُ الخَلْفَةَ والنَّبْتَ.

فأمّا ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ فقيلَ: هو محمدٌ ﷺ خَرَجَ وحدَهُ كما خَرَجَ أوَّلُ النَّبْتِ وَحْدَهُ.

وأمّا / ٥٢١ - أ/ الوالِيَةُ التي نَبَتَتْ حَوْلَ الشَّطْءِ، فاجْتَمَعَتْ، فَهُمُ المؤمنونَ، كانوا في قِلَّةٍ كما كانَ أوَّلُ الزَّرْعِ دقيقاً، ثم زادَ نَبْتُ الزرعِ، فَغَلُظَ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ كما آزَرَ المؤمنونَ بعضُهُمْ بَعضاً حتى اسْتَغْلَظوا، واسْتَوَوا على أمْرِهِمْ كما اسْتَغْلَظَ هذا الزرعُ، واسْتَوى على سوقِهِ.

ثم اخْتَلَفوا في الشَّطْءِ: قالَ أبو عَوسَجَةَ: هو قَصَبُ الزَّرْعِ، أي صارَ لهُ واسِطُ الزَّرعِ، أي صارَ [له][1] وَرَقٌ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي قَوّاهُ، ﴿سُوقِهِۦ﴾ جمعُ ساقٍ.

وقالَ أبو عُبَيدةَ: شَطْءُ الزَّرْعِ: فِراخُهُ وصِغارُهُ؛ يُقالُ: قد أشْطأَ الزَّرْعُ، فهو مُشْطِئٌ إذا أفْرَخَ.

وقالَ الفراءُ: ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ سُنْبُلَهُ، تُنْبِتُ الحَبَّةُ عَشْراً وتِسْعاً وثمانيَ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي أعانَهُ، وقَوّاهُ ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي غَلُظَ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمعُ ساقٍ، ومنهُ يُقالُ: قامَ كذا على سوقِهِ، إنما يُرادُ بهِ تناهى، وبَلَغَ الغايةَ. يقولُ، والله أعلَمُ: كما أنَّ الزَّرْعَ إذا قامَ على السُّوقِ فقدِ اسْتَحْكَمَ، فهذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لِنَبيِّهِ ﷺ أي خَرَجَ وَحْدَهُ، فأيَّدَهُ بأصحابِهِ، فَقَوِيَ، واشْتَدَّ، كما قَوّى الطاقَةَ مِنَ الزَّرْعِ بما يُنْبِتُ منها حتى غَلُظَ، وعَظُمَتْ، واسْتَحْكَمَتْ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ هو محمدٌ ﷺ، يُعْجِبُ محمداً لِما رأى مِنْ أصحابِهِ والمؤمنينَ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ذلكَ مِنَ الغَيْظِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ [هُمْ أصحابُ][2] الزَّرْعِ إذا كَثُرَتْ جوانِبُهُ وَوالِياتُهُ، ونَبَتَتْ[3] ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي يَغيظَ ذلكَ سائِرَ الزَّرّاعينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: كما يُعْجِبُ الزَّرّاعَ حُسْنُ زَرْعِهِ حينَ يَسْتَوي[4] قائماً على ساقِهِ، فكذلكَ يَغيظُ الكُفّارَ كَثْرَةُ المؤمنينَ واجْتِماعُهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الزُّرّاعُ؛ سُمّوا كُفّاراً لأنهمْ يَكْفُرونَ، أي يَسْتُرونَ البِذْرَ في الأرضِ، والله أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: هو صاحب. (٣) في الأصل وم: وينبت. (٤) في الأصل وم: يستوي.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِنْ بَيْنِ غيرِهِمْ مِنَ الناسِ ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الباطِنيَّةِ والرَّوافِضِ. لَعَنَهُمُ اللهُ. لِقولِهِمْ: إنهم بَعْدَ وَفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ كَفروا، وارْتَدّوا عنِ الإسلامِ جميعاً، أو كلاماً[1] نَحْوَهُ.

في الآيةِ رَدٌّ لِقولِهِمْ لأنهُ وَعَدَ لهمُ المَغْفِرَةَ وما ذَكَرَ مِنَ الأجْرِ العظيمِ.

فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا على ما ذَكَرَ أولئكَ، ثم تكونُ لهمُ المَغْفِرَةُ وما ذَكَرَ مِنَ الأجْرِ العظيمِ.

فَدَلَّ ما ذَكَرَ مِنَ الوَعْدِ لهمْ بالمَغْفِرَةِ والأجْرِ العظيمِ أنهمْ ثَبَتوا على ما كانوا مِنْ قَبْلُ في زمَنِ رسولِ اللهِ ﷺ وفي حياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

والحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمينَ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ الطاهرين.

---

(١) في الأصل وم: كلام.

جنة السنة

جنة السنة

سورة الحجرات

ذكر أنها مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُم: إنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما اختلَفا في شيءٍ، بحَضرةِ رسولِ اللهِ ﷺ فارتَفعَتْ أصواتُهما، فنَزلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لا تَذْبَحوا قَبْلَ ذَبْحِ النَّبيِّ يومَ النَّحرِ؛ وذلكَ لأنَّ ناساً مِنَ المُسلِمينَ ذَبَحوا قَبْلَ صلاةِ النَّبيِّ ﷺ يومَ النَّحرِ.

وقالَ قَتادةُ: ذُكِرَ لنا أنَّ رجالاً كانوا يقولونَ: لو نَزَلَ كذا وكذا، أو صُنِعَ كذا وكذا، فنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ، وأمَرَهُمْ ألّا يَسْبِقوا نَبِيَّهُ ﷺ بِقولٍ ولا عَمَلٍ حتى يُبَيِّنَ اللهُ تعالى بَيانَهُ.

وأمثالَ ذلكَ قد قالوا، واللهُ أعلَمُ.

وأصلُ ذلكَ عندَنا مِنْ قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ أي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اعلَموا أنَّ للهِ الخَلْقَ والأمرَ لا تُقَدِّموا أمراً ولا قَولاً ولا حُكماً ولا نَهْياً سِوَى ما أمَرَ اللهُ تعالى بِهِ ورسولُهُ ﷺ وغَيرَ ما نَهَى عنهُ، بلِ اتَّبِعوا أمرَهُ ونَهْيَهُ، وراقِبوهُ على ما آمَنْتُم بِهِ، وأقرَرْتُم، بأنَّ لَهُ الخَلْقَ والأمرَ، فاحفَظوا أمْرَهُ ونَهْيَهُ، ولا تُخالِفوهُ، ولا رسولَهُ في شيءٍ مِنَ الأمرِ والنَّهيِ.

فهذا يدخُلُ فيهِ كلُّ شيءٍ وكلُّ أمرٍ مِنَ القَولِ والفِعْلِ والقضاءِ والحُكْمِ والذَّبحِ وغيرِ ذلكَ على ما ذَكَرْنا مِن إيمانِهِمْ بأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ في الخَلْقِ؛ إذْ مثلُ هذا الخِطابِ لو كانَ لِواحِدٍ خاصٍّ لكانَ حُكْمُهُ يُلْزِمُ الكُلَّ. وكذلكَ لو كانَ في أمرٍ واحِدٍ كانَ يدخُلُ في ذلكَ جميعُ الأمورِ. فكيفَ والخِطابُ بذلكَ عامٌّ مُطلَقٌ؟ فهو لِلكُلِّ وفي كلِّ الأمورِ، واللهُ الموفِّقُ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عَنْ مَسْروقٍ أنهُ دَخَلَ على عائشةَ رضي الله عنها فأمَرَتِ الجاريةَ أنْ تَسْقِيَهُ، فقالَ: إني صائمٌ، وهو اليومُ الذي يُشَكُّ فيهِ، فقالَتْ لهُ: قد نُهِيَ عَنْ هذا، وقالَتْ قولَهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في صيامٍ ولا غيرِهِ.

اعتَبَرَتْ عائشةُ رضي الله عنها عمومَ الآيةِ في النَّهيِ عنِ التَّقَدُّمِ بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِهِ ومُخالَفَةِ النَّبيِّ ﷺ في قولٍ أو فِعْلٍ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ أبي عُبَيدَةَ مَعْمَرِ بْنِ المُثَنَّى [أنهُ][1] قالَ في قولِهِ: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لا تَجْعَلوا الأمرَ والنَّهيَ دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي اتَّقوا مُخالَفَةَ أمرِ اللهِ ونَهْيَهُ قولاً وفِعلاً، واتَّقوا مُخالَفَةَ رسولِهِ في ما يأمُرُكُم بأمرِ اللهِ [ويَنهاكُم بِنَهْيِهِ][2] وفي كلِّ ما دَعاكُم إليهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لِأقوالِكُم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالِكُم، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ثم لم يَفْهَموا مِمّا ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ / ٥٢١ ـ ب/ الجوارحَ ولا العَدَدَ في اليَدِ كما فَهِموا مِنْ ذلكَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ونهيه.

جنة السنة

في الخَلْقِ. فما بالُهُمْ يَفهَمونَ ذلكَ مِنْ قولِهِ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؟ [ص: ٧٥] أي خَلَقْتُهُ على عِلْمٍ مني بِما يكونُ منهُ خِلافٌ أو مَعصِيَةٌ، لم أخلُقْهُ عن جَهْلٍ بِما يكونُ منهُ، وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥ و...] [وقولِهِ تعالى][1]: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣ و...] أي عن عِلْمٍ بأحوالِهِمْ وما يكونُ منهمْ؛ أنْشأهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ بذلكَ. فَعَلَى ذلكَ هذا كما فَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أمْرَ اللهِ ونَهْيَهُ دونَ الجَوارحِ والعَدَدِ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قولِهِ: ﴿لِبَعْضٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أبي بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما اختَلَفا في شيءٍ بِحَضْرَةِ النَّبيِّ، فارْتَفَعَتْ أصواتُهُما.

وقالَ بعضُهُمْ: إنها نَزَلَتْ في قومٍ، كانوا إذا سُئِلَ النَّبيُّ عن شيءٍ قالوا فيهِ قَبْلَ قولِ النَّبيِّ ﷺ.

وعندَنا لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ رَفْعِ الصَّوتِ فوقَ صَوتِ رسولِ اللهِ ﷺ، والجَهْرِ بالقولِ لهُ وما ذُكِرَ مِنَ التَّقَدُّمِ بينَ يَدَي رسولِ اللهِ ﷺ في الأمْرِ والنَّهْيِ أنْ يكونَ الخطابُ بذلكَ للذينَ صَحِبوا رسولَ اللهِ ﷺ واتَّبَعوا أمْرَهُ ونَهْيَهُ، إذْ لا يُحتَمَلُ منهمْ أنْ يَرْفَعوا أصواتَهُمْ فوقَ صوتِهِ، ويَجْهَروا بالقولِ، ويُقَدِّموا بينَ يديهِ في أمْرٍ ولا نَهْيٍ إلا عَنْ سَهْوٍ وغَفْلَةٍ أو إذْنٍ منهُ بالمُناظَرَةِ والمُحاوَرَةِ في العِلْمِ.

فعندَ ذلكَ تَرْتَفِعُ أصواتُهُمْ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ أجَلَّ في قلوبِهِمْ وأعظَمَ قَدْراً مِنْ أنْ يَتَجاسَروا التَّقَدُّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ بأمْرٍ أو رَفْعِ صَوْتٍ أو جَهْرِ القَولِ لهُ. فتكونُ الآيةُ في أهلِ الشِّرْكِ وفي أهلِ النِّفاقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنْ كانَ الخِطابُ بذلكَ للذينَ آمَنوا فهو على وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنَّ ذلكَ منهُ ابْتِداءُ مِحْنَةٍ امْتَحَنَهُمْ بذلكَ، وأمَرَهُمْ بهِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ مِنَ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيهِ ورَفْعِ الصوتِ والجَهْرِ لهُ بالقَولِ، ولِلهِ أنْ يَمْتَحِنَ، ويَأمُرَ، ويَنْهَى مَنْ شاءَ بِما شاءَ ابْتِداءَ امْتِحانٍ منهُ لهمْ [وهو ما ذَكَرْنا][2] مِنْ نَهْيِ الرسلِ ﷺ عنِ الشِّرْكِ والمَعاصي، وإنْ كانوا مَعصومينَ عن ذلكَ، لأنَّ العِصْمَةَ [لا تَمْنَعُ النَّهْيَ، لأنَّ العِصْمَةَ][3] إنما تكونُ عِصْمَةً إذا كانَ هناكَ أمرٌ ونَهْيٌ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ النَّهْيِ عنِ التَّقَدُّمِ ورَفْعِ الصَّوتِ والجَهْرِ بالقَولِ، وإنْ لم يكنْ منهمْ شيءٌ مِمّا ذَكَرَ ابْتِداءَ مِحْنَةٍ منهُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][4]: أنهُ خاطَبَ هؤلاءِ الصحابةَ رضي الله عنهم بذلكَ لِيَتَّعِظَ بذلكَ مَنْ يَشْهَدُ مَجْلِسَهُ مِنَ المُنافقينَ وغيرِهِمْ مِنَ الكافرينَ، إذْ كانَ يَشْهَدُ مَجْلِسَهُ أهلُ النِّفاقِ وسائرُ الكَفَرَةِ لئلا يُعامِلوا رسولَ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ مُعامَلةِ بعضِهِمْ بَعْضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ذَكَرَ هذا لِيَكونوا أبداً مُتَيَقِّظينَ بَيْنَ يَدَي رسولِ اللهِ ﷺ حَذِرينَ مُعَظِّمينَ لهُ في كلِّ وقتٍ لئلا يكونَ منهمْ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ ما يَخْرُجُ مَجْرَى الاِسْتِخْفافِ بهِ والتَّهاوُنِ على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، فَيُحْبِطَ ذلكَ أعمالَهُمْ.

إنَّ هذا الصَّنيعَ برسولِ اللهِ ﷺ يُكَفِّرُ صاحِبَهُ، ولا يكونُ مَعذوراً، وإنْ فَعَلَهُ على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، لأنَّ لهمْ[5] قُدْرَةَ الاِحْتِرازِ وإمكانَ التَّحَذُّرِ، وإنْ كانوا مَعْذورينَ في ما بَيْنَهُمْ على غَيرِ التَّعَمُّدِ والقَصْدِ، ولا مؤاخَذَةَ لهمْ بِرَفْعِ اللهِ تعالى المُؤاخَذَةَ عنهمْ في ما بَيْنَهُمْ، ولم يَرْفَعْ في حقِّ النَّبيِّ، عليهِ أفضَلُ الصلواتِ، مع أنَّ الكُلَّ في حَدِّ جوازِ المُؤاخَذَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وذَكَرَ الكَرابيسيُّ، فقالَ: ومِنْ حِكْمَةِ الآيةِ عندَ قومٍ حُبوطُ الأعمالِ بالكَبائرِ على ما رُوِيَ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][6] قالَ: أما يَشْعُرُ هؤلاءِ الناسُ أنَّ عَمَلاً يُحْبِطُ أعمالاً؟ واللهُ تعالى يقولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: وهم ما ذكر، في م: وهم ما ذكرنا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ويحتمل.
(٥) في الأصل وم: له. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقيلَ: المُرادُ مِنَ الآيةِ أنْ يُنادِيَ بِشُؤْمِ تلكَ المَعْصيةِ إلى أنْ يَهونَ عليهِ ارْتِكابُ الكبيرةِ؛ يَسْتَحْقِرُها حتى يَخِفَّ عليهِ الكُفْرُ، فَيَكْفُرَ، فَتَصيرَ المَعْصيةُ الأولى، وإنْ قَلَّتْ، سَبَباً لِحُبوطِ ثوابِ أعمالِهِ. فإنَّ أساسَ كلِّ خطيرٍ حقيرٌ.

ونحنُ نقولُ: إنَّ المَعْصيةَ لا تُحْبِطُ الطاعةَ، ولكنْ هي[1] اسْتِخْفافٌ بالنَّبِيِّ ﷺ وذلكَ [كُفْرٌ][2].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ دلَّتْ هذهِ الآيةُ أنَّ الآيتينِ اللَّتينِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُما مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وقولِهِ ﷻ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ دلَّتْ هذهِ الآيةُ أنَّ الآيتينِ اللَّتينِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُما مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وقولِهِ ﷻ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ في أهلِ النِّفاقِ.

فأمّا أصحابُهُ الذينَ صَحِبوهُ، وآمَنوا بهِ، عَرَفوا أنهُ [رسولُ][3] ربِّ العالَمينَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ منهمْ ما ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ الصَّوتِ عندَهُ وجَهْرِ القولِ بهِ والنِّداءِ لهُ باسْمِهِ مِنْ بُعْدٍ.

إنما ذلكَ بهِ فَعَلَ مَنْ ذَكَرْنا مِنْ أهلِ النِّفاقِ والشِّرْكِ.

فأمّا الذينَ آمَنوا بهِ، وصَدَّقوهُ، وعَرَفوا أنهُ رسولٌ، فلا يُحْتَمَلُ منهمْ سِوى التَّعْظيمِ والتَّوْقيرِ والتَّشْريفِ لِما عَرَفوا أنَّ نَجاتَهُمْ وشَرَفَهُمْ وعِزَّهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ بِتَعْظيمِهِ وتَوْقيرِهِ، فكيفَ يُحْتَمَلُ منهمْ ذلكَ؟ بل كانوا لا يَتَجاسَرونَ التَّكَلُّمَ بينَ يَدَيهِ فَضْلاً عَنْ أنْ يَرْفَعوا أصواتَهُمْ، أو يُقَدِّموا بينَ يَدَيهِ، أو النِّداءَ مِنْ بُعْدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ هذا وَصْفُ المؤمنينَ؛ امْتَحَنَ اللهُ قلوبَهُمْ لِلتَّقْوى، فَوَجَدَها صافيةً خالصةً لذلكَ. والامْتِحانُ هو التَّصْفِيَةُ والإخلاصُ؛ يُقالُ: امْتُحِنَ الذهبُ، إذا خَلَصَ، وصَفا، الصافي منهُ والخالِصُ مِنْ غيرِهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا وَصْفُ مَنْ ذَكَرْنا مِنْ أهلِ الشِّرْكِ والنِّفاقِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ نَفَراً مِنَ الأعرابِ جاؤوا، وقالوا: نَنْطَلِقُ إلى هذا الرجلِ؛ يَعْنونَ محمداً ﷺ فإنْ يَكُنْ رسولاً فنحنُ أسْعَدُ الناسِ بهِ. وإنْ يَكُنْ مَلِكاً نَعِشْ في جَناحِهِ، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَجَعَلوا يُنادونَهُ مِنْ وراءِ الحُجُراتِ: يا محمدُ، فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ النَّبِيُّ ﷺ سَبى ذَرارِيَ بَني تَميمٍ ونساءَهُمْ، فَأَتَوا يَطلبونَ منهُ تَخْلِيَةَ سَبيلِ أولئكَ وإعتاقَهُمْ ورَدَّهُمْ إليهِمْ، فَنادَوهُ مِنْ وراءِ الحُجُراتِ، فأعْتَقَ بعضَهُمْ، وفَدَى بَعْضاً، فَنَزَلَتِ الآيةُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لأنَّ ذلكَ أعظَمُ لِقَدْرِهِ وأجَلُّ لِمَنْزِلَتِهِ وأعْرَفُ لِحَقِّهِ وأحْفَظُ لِحُرْمَتِهِ.

ثم قولُهُ: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها][4]: أكثَرُهُمْ لا يَعْرِفونَ قَدْرَهُ ومَنْزِلَتَهُ، وإنْ كانَ قليلٌ منهمْ يَعْرِفونَ ذلكَ، وهُمُ المؤمنونَ.

والثاني: أكثَرُهُمْ لا يَنْتَفِعونَ بما يَعْقِلونَ.

والثالثُ: أكثَرُهُمْ لا يَعْقِلونَ أنهُ رسولُهُ، وهُمُ الأتباعُ والسَّفَلَةُ / ٥٢٢ ـ أ/ مِنَ الكَفَرَةِ، وإنما يَعْرِفُ القليلُ منهمْ، وهُمُ الرُّؤساءُ المُعانِدونَ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وفي هذهِ الآيةِ، وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ دلالةٌ على أنْ قد يَلْحَقَ المَرْءَ حُكْمُ الكُفرِ، ويَحْبَطَ العملُ إذا خَرَجَ مَخرَجَ الاِستِخفافِ، وإنْ لم يُعْلَمْ بهِ، ولم يُقْصَدْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أجمَعَ أهلُ التأويلِ أو عامَّتُهُم على أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الوليدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أبي مُعَيطٍ؛ بَعَثَهُ رسولُ اللهِ ﷺ إلى بَني المُصطَلَقِ وإلى قومٍ سِواهُمْ لِجِبايَةِ الصَّدَقاتِ، وكانَ بينَهُ وبينَ أولئكَ القومِ عداوةٌ في الجاهليَّةِ، فَخَرَجوا يَتَلَقَّونَهُ، فَخافَهُمْ، فَرَجَعَ، وقالَ: إنَّ القومَ قد مَنَعوا الصَّدَقاتِ، فَبَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ إليهِمْ بَعدَ ذلكَ خالدَ بْنَ الوليدِ لِجِبايةِ الصَّدَقاتِ، فَوَجَدَهُمْ يُصَلُّونَ، ويَعْمَلونَ الطاعاتِ، واجْتَمَعوا، وجَمَعوا لهُ الصَّدَقاتِ: جَبَوها[١]، وسَلَّموها إليهِ، فَرَجَعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بِها، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

لكنْ إنْ كانَ ما ذَكَروا، فلم يكُنْ في ذلكَ النَّبَإِ التَّثَبُّتُ لأنَّ الآيةَ نَزَلَتْ بَعْدَ نَبَإِ الرجلِ، وفي الآيةِ الأمْرُ بالتَّثَبُّتِ في نَبَإِ الفاسقِ في ما يَحْدُثُ مِنَ الأمورِ مِنْ بَعْدُ.

فَدَلَّ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ لِبَيانِ الحُكْمِ في نبَإِ الفاسقِ، واللهُ أعلَمُ، ولأنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ الرجلُ مُنافِقاً، ولم يَأْمُرِ اللهُ تعالى بالتَّثَبُّتِ في خَبَرِ المُنافِقِ، ولم يُشَرِّعْ ذلكَ، لأنَّ النِّفاقَ يكونُ في الضميرِ، فلا يَظْهَرُ ذلكَ.

فأما الفِسْقُ فإنهُ يَظْهَرُ، فَأَمَرَنا بالتَّثَبُّتِ فيهِ.

فَدَلَّ أنَّ الآيةَ لم تَنزِلْ في ذلكَ الرجلِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ مِنَ المُنافِقِ أنْ يُزَوِّرَ على المسلمِينَ مِثْلَ ما ذُكِرَ منهُ. دَلَّ أنَّ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ فيهِ وَهْمٌ.

ثم في الآيةِ دلالةُ قَبولِ خَبَرِ الواحدِ، إذا كانَ عَدلاً لهُ، لأنهُ لو لم يَقْبَلْ خَبَرَهُ، إذا كانَ عَدلاً، لم يكُنْ لِذِكْرِ الفِسْقِ فائدةٌ سِوى الشَّتْمِ، والشَّتْمُ سَفَهٌ، فلا يَجوزُ أنْ يُوصَفَ اللهُ تعالى [بهِ][٢].

فَدَلَّ ذِكْرُ الفِسْقِ على أنَّ هذا الحُكْمَ، وهو رَدُّ الشهادةِ، مُختَصٌّ باسْمِ الفِسْقِ، وأنَّ العَدلَ لا يُشارِكُهُ فيهِ حتى [لا يكونَ][٣] ذِكْرُ الفِسْقِ سَفَهاً لِما تَعَلَّقَ بهِ بَيانُ حُكْمٍ شَرعيٍّ، يَختَصُّ بالفاسِقِ، ولا يُعْرَفُ ذلكَ دونَ ذِكْرِهِ.

فأمّا مَتى كانَ الحُكْمُ عامّاً في الفاسِقِ والعَدْلِ عندَ الاِنفِرادِ، فكانَ ذِكْرُ الفاسِقِ مَعَ شَتْمِهِ، وأنهُ لا يَليقُ بالحِكمةِ، فَدَلَّ [على][٤] ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ في الظاهرِ بسببِ تُهْمَةِ الفِسْقِ. فأمّا في الحقيقةِ فإنهُ يجوزُ أنْ نُصيبَ ذلكَ بِخَبَرِ الواحدِ، لكنَّ الأحكامَ وقَبولَ الأخبارِ في ما بَينَ الخَلْقِ لم توضَعْ على الحقائقِ، وإنما وُضِعَتْ على الظَّواهِرِ، وكذلكَ قَبولُ الشهاداتِ والحُكْمُ بها. وجميعُ الشرائعِ التي جُعِلَتْ في الناسِ إنما هو على الظَّواهِرِ مِنَ الأحوالِ والأمورِ[٥]. فأمّا على إصابةِ حقيقةِ ذلكَ فلا؛ إذْ قد يجوزُ أنْ يَحْكُمَ الحاكمُ، ويَقْضِيَ بِقَتْلِ إنسانٍ، وتُقْطَعَ يَدُهُ بشهودٍ عندَهُ. لمّا ظَهَرَتْ عندَهُ عدالَتُهُ، ولم تَكُنْ في الحقيقةِ كذلكَ.

وعلى ذلكَ قَولُ يَعْقوبَ ﷺ لِبَنيهِ، ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ٦٤] لم يَأْمَنْ عليهِ بما ظَهَرَ لهُ منهمْ زَلَّةٌ وجِنايَةٌ حينَ طَلَبوا منهُ إرسالَهُ وَلَدَهُ يوسفَ ﷺ في الرَّعْيِ، بل قالَ هنالكَ: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣] إنما اعْتَلَّ عليهِمْ، واحْتَجَّ بأكلِ الذئبِ، ولم يَتَّهِمْهُمْ فيهِ بما لم يكُنْ ظَهَرَ لهُ منهمْ زَلَّةٌ وجِنايةٌ. فلمّا ظَهَرَ ذلكَ منهمْ اتَّهَمَهُمْ وأخبَرَ أنهُ لا يَأْمَنُ عليهِ بما ظَهَرَ لهُ مِنْ زَلَّتِهِمْ، فَدَلَّ أنَّ التُّهَمَةَ سَبَبُ الرَّدِّ وأنهُ يَجِبُ التَّثَبُّتُ لِدَفعِ الجهالةِ مِنْ حيثُ الظاهرِ[٦] للحقيقةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وجبوها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: الأموال. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: لا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي نادمينَ بما فَعَلوا على خِلافِ ما كانَ في الظاهِرِ؛ ويَنْدَموا لِما تَركوا التَّثَبُّتَ في الخَبَرِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لأثِمْتُمْ.

مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الإجماعَ ليسَ بِحُجَّةٍ، وقالوا: لو كانَ لإجماعِهِمْ [حُجَّةٌ لَكانوا][1] لا يأثَمونَ لو أطاعَهُمْ في كثيرٍ مِنَ الأمْرِ لأنَّ الحقَّ والصوابَ ممّا لا يُوجِبُ الإثْمَ لِصاحِبِهِ في مَنْ تَبِعَهُ في ذلكَ الصوابِ.

ولكنْ إنْ كانَ لا يُوجِبُ الثوابَ دَلَّ أنهُ ليسَ بِحُجَّةٍ يَجِبُ اتِّباعُهُ. ولكنَّ هذا فاسدٌ لأنَّ الحُجَجَ والبراهينَ لم تَكُنِ انْتَهَتْ يومئذٍ غايَتُها، ولا أَتَتْ على نِهايَتِها.

والإجماعُ الذي هو إجماعُ الحُجَّةِ عندَنا، ويَجِبُ اتِّباعُهُ والانْقِيادُ لهُ، هو إجماعُ مَنِ اسْتَوْعَبَ الحُجَجَ والبراهينَ، وأتى على عامَّتِها أو على الجميعِ، وكانَ الوقتُ وقتَ نزولِ الوَحْيِ، وإنما تَسْتَقِرُّ الأحكامُ بوفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ لِما يَنْقَطِعُ الوَحْيُ، فَيُسْتَدَلُّ على اسْتيعابِ الحُجَجِ ونزولِ جميعِ ما يَحتاجُ الناسُ إليهِ من حيثُ الإيداعُ في النصوصِ؛ فَمَتى اجْتَمَعوا على ذلكَ يكونُ حُجَّةً، ولأنهُ لا إجماعَ تحقيقٍ دونَ رأيِ رسولِ اللهِ ﷺ وإذا وُجِدَ رأيُهُ، اسْتُغْنِيَ عنْ رأيِ الغيرِ لِما كانَ يَنْطِقُ عنِ الحِجا. فإذا لم يَكُنْ وقتُ رسولِ اللهِ ﷺ زمانَ انعِقادِ الإجماعِ حُجَّةً بَطَلَ اسْتِدْلالُهُمْ بالآيةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها:][2] أُرسِلَ إليكُمْ لِيُزيلَ عنكُمْ إشكالَكُمْ وشُبُهاتِكُمْ، فلا عُذْرَ لكمْ في الكُفْرِ واعْتِراضِ الشُّبَهِ لكُمْ بما تَقْدِرونَ أنْ تَسْألوهُ ما أشْكَلَ عليكُمْ، واشْتَبَهَ، فَيُخْبِرَكُمْ بذلكَ، فَيُزيلَ الشُّبَهَ عنكُمْ.

والثاني: يَحْتَمِلُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ يُطْلِعُ اللهُ تعالى إياهُ على ما تُضْمِرونَ في أنفسِكُمْ وما تُوَلِّدونَ مِنَ الأخبارِ التي لا أصْلَ لها، ولا أثَرَ، ما لو ظَهَرَ ذلكَ لافْتَضَحْتُمْ، وهو صِلَةُ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ:][3] يَحْتَمِلُ أنْ فيكُمْ رسولَ اللهِ تَسْألونَهُ ما أشْكَلَ عليكُمْ، فَيُخْبِرُكُمْ بالحقِّ والأمرِ على حقيقتِهِ كي لا تُصيبوا[4] قوماً بجهالةٍ، واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ:][5] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فإليهِ الرأيُ والتدبيرُ في الأمورِ، ومِنْ رأيِهِ وتدبيرِهِ يَجِبُ أنْ تُصْدِروا[6] لا عنْ رأيِ أنفسِكُمْ وتدبيرِكُمْ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١] على الوجوهِ التي ذَكَرْناها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو يُطيعُكُمْ في ما تَدْعو إليهِ أنفسُكُمْ مِنَ التَّمْويهاتِ والشُّبُهاتِ وهَواها، أو يقولُ: لو يُطيعُكُمْ في الصُّدورِ عنْ رأيِكُمْ وتدبيرِكُمْ في الأمورِ لَعَنِتُّمْ.

ثم قولُهُ[7]: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ هذا في الظاهِرِ كأنهُ[8] غيرُ موصولٍ بقولِهِ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ لأنهُ لا يَليقُ ذلكَ إلّا على الإضمارِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ وإنَّ اللهَ قد أرسَلَهُ إليكُمْ رسولاً، وحَبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ بهِ، وزَيَّنَهُ في قلوبِكُمْ /٥٢٢ ـ ب/ حتى صارَ هو في قلوبِكُمْ أحبَّ مِنْ أنفسِكُمْ ومِنْ كلِّ شيءٍ.

فالواجبُ عليكُمْ أنْ تَصْرِفوا الأمْرَ إلى رأيِهِ وتدبيرِهِ، وأنْ تُصْدِروا عنْ رأيِهِ، ولا تَعْتَمِدوا على رأيِ أنفُسِكُمْ وتدبيرِكُمْ، واللهُ أعلَمُ

---

(١) في الأصل وم: لكان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من في، الأصل: يقلبوا. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: تصدر. (٧) في الأصل وم: قال. (٨) في الأصل وم: كناية.

جنة السنة

ويَحتمِلُ ألّا تَدْعوهُ إلى أنْ يُطيعَكُم في ما تَهْوَى بهِ أنفسُكُم ما شَبَّهْتَ بَعْدَ ما حَبَّبَ الإيمانَ بهِ إليكُم، وزَيَّنَهُ في قلوبِكُم، وكَرَّهَ إليكُمُ الكُفرَ وما ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ جِهَتِهِ وصِلَةِ هذا بالأوَّلِ.

ثم يَحْتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحدُهما: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ الرسولُ ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ اللهُ تعالى أَلْزَمَكُمْ طاعَتَهُ في كلِّ أمرٍ، فأطيعوهُ، ولا تَطْلُبوا منهُ طاعَتَهُ إيّاكُم في الأمورِ، ولكنْ أطيعوهُ أنتم في الأمورِ كلِّها، وقد ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾ والخُروجَ عن أمرِهِ ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

والثاني: يُشبِهُ أنْ يكونَ موصولاً بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (1) [الحجرات: ٣].

ثم قولُه(2) ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وحَبَّبَ إليهِمُ الإيمانَ، وزَيَّنَهُ في قلوبِهِم، وكَرَّهَ إليهِمُ الكفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أخبَرَ، وشَهِدَ لهمْ بالرشادِ، وأخبَرَ أنَّ ذلكَ فَضلٌ منهُ إليهِمْ ونِعْمَةٌ لا بِشيءٍ كانَ منهم [استَوجَبَ ذلكَ](3).

الآية ٨ فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم قالتِ المعتزلةُ في قولِهِ تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وما ذَكَرَ؛ يقولونَ: لم يُحَبِّبِ الإيمانَ إلى هؤلاءِ إلّا وقد حَبَّبَ مِثْلَهُ إلى جميعِ الكفارِ، وكذلكَ لم يُكَرِّهِ الكُفرَ إلى هؤلاءِ إلّا وقد كَرَّهَهُ إلى جميعِ الناسِ. لكنَّ المُرادَ [بتخصيصِ](4) هؤلاءِ بما ذَكَرَ مِنَ التَّحبيبِ إليهِمُ الإيمانَ وتكريهِ الكُفرِ، هو اختِصاصُهُمْ بما وَعَدَ مِنَ الثوابِ في الجَزاءِ الجَزيلِ على الإيمانِ والمواعيدِ الشديدةِ، فَحَبَّبَهُ، وزَيَّنَهُ في قلوبِهِمْ بما وَعَدَ لهم مِنَ الثوابِ، وكَرَّهَ الكُفرَ والعِصيانَ إليهِم بما أوعَدَ على ذلكَ مِنَ العذابِ العظيمِ.

لكنَّ هذا فاسدٌ لأنهُ ليسَ مؤمنٌ بهِ صارَ حُبُّ الإيمانِ في قلبِهِ لِما ذَكَروا مِنَ الثوابِ والجَزاءِ، ولا كافرٌ أسْلَمَ حينَ أسْلَمَ يَخْطُرُ ثوابُ الإيمانِ في قلبِهِ حتى يكونَ إسلامُهُ لذلكَ، بل كانَ في قلبِهِ بعضُ الإيمانِ قَبْلَ الإسلامِ. فإذا أسْلَمَ وَجَدَ حبَّهُ في قَلبِهِ وكَراهةَ الكُفرِ لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ بِلُطفٍ مِنَ اللهِ تعالى كانَ عندَهُ، فإذا أعطاهُ صارَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ بَينَ رجلَينِ عَداوةٌ، أي مُنازعةٌ في شيءٍ، فَغَضِبَ قومُ كلِّ رجلٍ حتى كانَ بينَهُمْ خَفْقٌ بالنِّعالِ والأيدي فَنَزَلَتِ الآيةُ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ بينَ الأوسِ والخَزرَجِ قِتالٌ بالعُصِيِّ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ بالأمرِ بالصُّلحِ بينَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قِتالُهُمْ بالعُصِيِّ [والنِّعالِ ونَحوِها](5).

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ قوماً مِنَ المسلمينَ كانَ بينَهُمْ تنازعٌ حتى اضطَرَبوا بالنِّعالِ والأيدي، فأنزَلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ في ذلكَ.

وقالَ قَتادةُ: كانَ بَينَ رجلَينِ حَقٌّ، فَتَدارَآ فيهِ، فقالَ أحدُهما: لآخُذَنَّهُ عُنوَةً لِكَثْرةِ عشيرتِهِ، وقالَ الآخرُ: بيني وبَينَكَ رسولُ اللهِ ﷺ فَتَنازَعا حتى كانَ بَينَهما ضَرْبٌ بالنِّعالِ والأيدي.

وجائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في ما كانَ بَينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وبَينَ الحَرورِيَّةِ وأهلِ نَهْرَوانَ؛ ذُكِرَ أنَّ علياً رضي الله عنه لَمّا قاتَلَهُمْ قالَ الناسُ: هُمْ مُشرِكونَ؟ فقالَ عليه السلام: مِنَ الشِّرْكِ قد حُيِّدوا، فقالوا: فَمُنافِقونَ هُمْ؟ قالَ عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ المُنافقينَ لا يَذْكُرونَ اللهَ إلّا قليلاً، قالوا: فما هُمْ؟ قالَ: هُمْ أناسٌ بَغَوا علينا، فقاتَلونا، فَقاتَلْناهُمْ.

---

(1) أدرج بعدها في الأصل وم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾. (2) في الأصل وم: قال.
(3) في الأصل وم: استوجبوا بذلك. (4) ساقطة من الأصل وم. (5) في الأصل وم: والتناصي ونحوهما.

جنة السنة

ويَحتمِلُ أنهُ كانَ في ما كانَ بَينَ عليٍّ رضي الله عنه وبينَ معاويةَ يومَ الجملِ ويومَ صِفِّينَ.

ذُكِرَ عنْ جعفرِ بْنِ محمدٍ عنْ أبيهِ أنَّ علياً رضي الله عنه سَمِعَ رجلاً يقولُ يومَ الجَمَلِ: هُمْ كَفَروا، فقالَ: لا تَقُلْ ذلكَ، ولكنْ هؤلاءِ قومٌ بَغَوا علينا، وزَعموا أنا بَغَينا عليهِمْ، فقاتَلْناهُمْ على ذلكَ.

لكنْ في الآيةِ الأمْرُ بالصُّلحِ إذا كانَ بَينَهُمْ؛ أعني المؤمنينَ، اقْتِتالٌ بأيِّ شيءٍ كان بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. وكذلكَ أمَرَ في غيرِ آيةٍ[1] بالصُّلحِ والإصلاحِ بقولِهِ[2]: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] أي[3] بينَ المؤمنينَ.

وهذهِ الآيةُ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والخوارجِ، فإنهُ أبْقى اسْمَ الإيمانِ بَعدَ ما كانَ منهمُ الاقْتِتالُ والبَغْيُ، والقِتالُ والبَغْيُ معَ أهلِ الإسلامِ مِنَ الكبائرِ، دلَّ أنَّ الكبيرةَ لا تُخرِجُ عنِ الإيمانِ، ولا تُوجِبُ الكُفْرَ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي فإنْ ظَلَمَتْ إحْدى الطائفتَينِ، وطَلَبَتْ غيرَ الحقِّ ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ أي تَظلِمُ، وتَجورُ ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ حتى ترجِعَ إلى أمْرِ اللهِ وإلى الحقِّ.

أمَرَ بمَعونةِ الطائفةِ التي لم تَبْغِ والانْتِصارِ لها مِنَ الباغيةِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] وَعَدَ عز وجل النَّصرَ لهمْ. فيَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ النَّصرُ الموعودُ في الدنيا، ويَحتمِلُ في الآخرةِ.

وفي الآيةِ الأمْرُ بِقِتالِ أهلِ البَغْيِ مِنْ غيرِ قَيدٍ بالسيفِ وغيرِهِ بقولِهِ: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾. لكنْ متى أمْكَنَ رَفْعُ البَغْيِ وكَسْرُ مَنَعَتِهِمْ بِغَيرِ السلاحِ فهو الحقُّ، وهو الواجبُ. لكنْ إذا لم يَنْقَلِعوا عنِ البَغْيِ إلّا بالقِتالِ معَ السيفِ فلا بأسَ بهِ.

فإنَّ علياً رضي الله عنه قاتَلَ الفِئةَ الباغيةَ بالسيفِ، ومعهُ كُبَراءُ الصحابةِ رضي الله عنهم وأهلُ بَدْرٍ، وكانَ هو مُحِقّاً في قِتالِهِمْ. دلَّ أنهُ لا بأسَ بِقِتالِهِمْ بالسيفِ.

وبعضُهُمْ قالوا: إنَّ قِتالَ البُغاةِ لا يَجوزُ بالسيفِ، وقالوا: إنَّ سَبَبَ نُزولِ الآيةِ في القِتالِ بالعُصِيِّ والنِّعالِ، ولكنْ لا حُجَّةَ لهمْ فيها، لأنَّ القِتالَ بَينَ الفِئتَينِ، وإنْ كانَ بالنِّعالِ والعُصِيِّ، ولكنْ لم يَصيروا بُغاةً في تلكَ الحالِ، وهو القِتالُ الذي أمَرَ اللهُ تعالى أنْ يُصلَحَ بينَهُمْ. وإنما يَصيروا بُغاةً بأنْ لم يُجيبوا إلى الصُّلحِ، ولم يَقْبَلْ أحدٌ مِنَ الطائفتَينِ الصُّلحَ. وحينئذٍ أمَرَ بالقِتالِ معهمْ مُطْلَقاً مِنْ غَيرِ قَيدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ ذَكَرَ أنها، وإنْ فاءَتْ، ورجَعَتْ إلى ما أمَرَ اللهُ تعالى بهِ، لا يَتْرُكونَهُما كذلكَ بِغَيرِ صُلحٍ، ولكنْ أصْلَحوا بينَهما وألَّفوا حتى يَتآلَفوا لأنَّ أهلَ الإسلامِ نُدِبوا إلى التآلُفِ بَينَهُمْ والجَمْعِ، وشَرَطَ فيهِ الصلحَ بالعَدْلِ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، يقولُ: إنكُمْ وإنْ رأيتُمْ صلاحَهُمْ في الصُّلحِ فلا يَحْمِلَنَّكُمْ ذلكَ على الصُّلحِ الذي ليسَ فيهِ عدلٌ، ولكنْ أصْلِحوا بَينَهُمْ بالعَدْلِ، ولا تُجاوِزوا الحَدَّ. وأكَّدَ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي اعْدِلوا في الصلحِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادِلينَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أمَرَ اللهُ عز وجل بإصلاحِ ذاتِ البَينِ بَينَ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وأمَرَ بالإصلاحِ بينَ الطائفتَينِ مِنَ المؤمنينَ إذا اقْتَتَلوا / ٥٢٣ ـ أ/ وتَنازَعوا بقولِهِ عز وجل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وأمَرَ بالإصلاحِ بينَ الآحادِ والأفرادِ بقولِهِ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لأنَّ الإيمانَ يُوجِبُ التآلُفَ [فإلى التآلُفِ][4] نُدِبوا، وإليهِ دُعوا، وبهِ مَنَّ اللهُ علينا حينَ[5] قالَ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

---

(١) في الأصل وم: آي. (٢) في الأصل وم: قال يقال. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: كان. (٤) في الأصل: بالتآلف، ساقطة من الأصل.
(٥) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أَمَرَ بالتأليفِ والاجتماعِ، ونَهاهُمْ عنِ التَّفَرُّقِ والاختلافِ، وأَمَرَ المؤمنينَ جُمْلَةً أنْ يُصْلِحوا ذاتَ بَيْنِهِمْ إذا وَقَعَ بَيْنَهُمْ تَنازُعٌ واختلافٌ واقتِتالٌ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ استَدَلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ على أنَّ اسْمَ الطائفةِ تَقَعُ على الواحدِ فصاعداً، فقالَ: إنهُ ذَكَرَ في أوَّلِ الآيةِ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ وقالَ[1] في آخِرِها: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فَدَلَّ أنَّ اسْمَ الطائفةِ يَقَعُ على الواحدِ فصاعداً، فقالَ: فَيُستَدَلُّ بهذا على أنَّ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] يُرادُ بها الواحدُ، فَيَدُلُّ على لُزومِ خَبَرِ الواحدِ العَدْلِ.

لكنْ عندنا ما ذَكَرَ أنهُ أمَرَ بإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ بَيْنَ جُمْلَتِهِمْ، وأمَرَ بالإصلاحِ بَيْنَ فريقَيْنِ، وأمَرَ بذلك بَيْنَ الآحادِ والأفرادِ. وليسَ في قولِهِ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ دلالةُ أنهُ أرادَ بهِ الأخوَينِ، أو ذَكَرَ ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وأرادَ بهِ الاثنَينِ اللَّذينِ كانَ الاقتِتالُ بَيْنَهما، وفيهما هاجَ القِتالُ بَيْنَهُمْ.

فأمّا أنْ يكونَ اسْمُ الطائفةِ يَقَعُ على الواحدِ فلا، بل هو في اللغةِ وعُرْفُ اللِّسانِ على الجماعةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي اتَّقوا مُخالَفَةَ أمرِ اللهِ لكي تَقَعَ لكُمُ الرحمةُ، أو لكي تَلْزَمَكُمُ الرحمةُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ظاهِرُ الآيةِ نَهْيٌ للجماعةِ عن سُخْرِيَّةِ جماعةٍ، لأنَّ السُّخْرِيَّةَ إنما تَقَعُ، وتكونُ في الأغلَبِ بَيْنَ قومٍ وقومٍ، وقَلَّ ما تَقَعُ بَيْنَ الأفرادِ والآحادِ. فَعَلى ذلكَ جَرى النَّهْيُ. ولكنْ يكونُ ذلكَ النَّهْيُ للجماعةِ والأفرادِ والآحادِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم تَحْتَمِلُ السُّخْرِيَّةُ المَذكورةُ في الآيةِ وجهَينِ:

أحدُهما: في الأفعالِ؛ يقولُ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ في الأفعالِ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ في النِّيَّةِ في تلكَ الأفعالِ، أو ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي أفعالُهُمْ أخلَصُ عندَ اللهِ مِنْ أفعالِ أولئكَ أو أقرَبُ إلى القَبولِ.

والثاني: السُّخْرِيَّةُ[2] في الخِلْقَةِ، وذلكَ راجعٌ إلى مُنْشِئِها لا إليهِمْ، وهُمْ قد رَضُوا بالخِلْقَةِ التي أُنْشِئوا عليها، وعَسى أنْ [يكونوا هُمْ][3] في تلكَ الأحوالِ والأفعالِ التي هُمْ عليها اليومَ.

والثاني: عَسى أنْ يكونوا هُمْ عندَ اللهِ خيراً منهم في الحالِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] أخبَرَ أنَّ الأكرَمَ منهم عندَ اللهِ تعالى، هو أتقاهُمْ، لا ما افتَخَروا بما هو أسبابُ الفَخارِ عندَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ذَكَرَ سُخْرِيَّةَ نِساءٍ مِنْ نِساءٍ لأنَّ النساءَ ليسَ لهنَّ اختلاطٌ معَ الرجالِ حتى تَجْرِيَ السُّخْرِيَّةُ بَيْنَهُمْ، وإنما الاختلاطُ في الغالبِ بَيْنَ [أفرادِ][4] الجِنْسِ يكونُ. فَعَلى ذلكَ جَرى النَّهْيُ [عنِ السُّخْرِيَةِ][5]، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ خَصَّ هؤلاءِ بهؤلاءِ كما خَصَّ القِصاصَ في قولِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٧٨] ثم جَمَعَ بَيْنَ الأحرارِ والعَبيدِ والذكورِ والإناثِ بالمَعْنى الذي جَمَعَهُمْ فيهِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] أبانَ عنِ المَعْنى الذي بهِ وَجَبَ القِصاصُ في ما بَيْنَهُمْ، فاشتَركوا جميعاً في ذلكَ: الأحرارُ والعبيدُ والذكورُ والإناثُ. فَعَلى ذلكَ ذَكَرَ المَعْنى الذي بهِ نَهاهُمْ عنِ السُّخْرِيَةِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ فذلكَ المَعْنى يَجْمَعُ سُخْرِيَّةَ الرجالِ مِنَ النساءِ وسُخْرِيَّةَ النساءِ مِنَ الرجالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ واللَّمْزُ هو الطَّعْنُ. ثم منهم مَنْ يقولُ: هو الطَّعْنُ باللِّسانِ، ومنهم مَنْ يقولُ: بالشِّدْقِ والشَّفَةِ، ومنهم مَنْ يقولُ بالعَينِ. وحاصِلُهُ هو الطَّعْنُ فيهِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: سخرية. (٣) من م، في الأصل: يكون لهم. (٤) ساقطة من الأصل م. (٥) في الأصل وم: بالسخرية.

جنة السنة

وقالَ القُتَبيُّ: اللَّمزُ، هو العَيبُ، أي لا تَعيبوا، وقالَ أبو عوسَجَةَ: هو شِبْهُ العَيبِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ أي تَذكُروا مَساوِئَ أنفسِكُم.

[والثاني:][1] فيهِ الأمرُ بالسَّترِ على أنفسِهِمْ، وألّا يَهْتِكوا سِترَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا تَدعُوا بالألقابِ، والنَّبْزُ اللقَبُ؛ يُقالُ: نَبَزتُ فلاناً، أي لَقَّبْتُهُ. وفي الحديثِ: «قومٌ نَبَزُهُمُ الرافِضَةُ» أي لَقَبُهُمْ. ولو قالَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ لكانَ كافياً، لكنْ[2] كأنهُ قالَ: ولا تُظْهِروا ألقابَهُمْ فَيَسوءَهُمْ ما أظْهَرْتُمْ مِنَ اللَّقَبِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما نُهوا عن ذلكَ لأنهمْ [كانوا][3] يُسَمُّونَهُمْ بعدَ إسلامِهِمْ بالأفعالِ التي كانوا يَفْعَلونَ في حالِ جاهِلِيَّتِهِمْ مِنَ الكُفرِ والفُسوقِ، ويُلَقِّبونَهُمْ بذلكَ، ويقولونَ: يا كافرُ، يا فاسقُ، ونَحْوَ ذلكَ دلَّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾.

وجائزٌ [أنهمْ كانوا يُلَقِّبونَ][4] بذلكَ وبِغَيرِهِ مِنَ الألقابِ، فَنُهوا عن أنْ يُسَمُّوهُمْ بِغَيرِ أسمائِهِمُ التي كانَتْ لهمْ، وأنْ يُعَرِّفوا بأسمائِهِمُ التي لهمْ، ونُهوا عنِ التَّعْريفِ بالألقابِ وتَغَيُّرِ الأسبابِ والأسماءِ التي لهمْ إذا كانَ التعريفُ بذلكَ يَسوؤُهُمْ، ويَغيظُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي واضِعونَ الشيءَ في غَيرِ مَوضِعِهِ[5]، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا أي بئسَ النِّسْبَةُ إلى الفِسْقِ التي كانَتْ، والتَّسْمِيَةُ بها بعدَ الإيمانِ إلى الاِسْمِ والفِعْلِ الذي كانَ لهُ ومنهُ قبلَ الإيمانِ، كأنهُ قالَ: لا تُسَمُّوهُمْ بتلكَ بَعدَ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي بئسَ[6] ما اختاروا مِنِ اسْمِ الفِسْقِ بَعدَ ما كانَ اختارَ اللهُ اسْمَ الإيمانِ وفِعْلَهُ. فهذا يرجِعُ إلى اختيارِ الفِسْقِ بَعدَ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ههنا أسماءُ ثلاثةٌ يجبُ أنْ يُتَعَرَّفَ ما مَحَلُّها؟ وما قَدْرُها؟ وكيفَ أسبابُها؟ أحَدُها: الظَّنُّ، والثاني: الشَّكُّ، والثالثُ: العِلْمُ واليَقينُ.

أمّا الظَّنُّ فكأنَّهُ هو الذي لَهُ ظاهِرُ الأسبابِ التي لها خَوفُ الزَّوالِ والاِنتِقالِ.

والشَّكُّ: هو الذي فَقَدَ ظاهِرَ أسبابِهِ، أو لَهُ اسْتِواءُ الأسبابِ ومُقابَلَةُ بعضِها بعضاً؛ فهو المُتَرَدِّدُ بَينَ الحالَينِ، لا يَقِرُّ قلبُهُ على شيءٍ.

واليَقينُ: هو الذي لَهُ الأسبابُ الظاهِرَةُ التي ليسَ لها خَوفُ الزَّوالِ والاِنتِقالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ كأنهُ نَهى أنْ يُحقِّقَ [القولَ][7] أو العملَ في صاحبِهِ بسوءٍ على ظاهِرِ الأسبابِ التي هي على شَرَفِ الزَّوالِ وطَرَفِ الاِنتِقالِ، يجوزُ أنْ تكونَ غَيرَ مُحقَّقةٍ في الأصلِ أو زائلةً، واللهُ أعلَمُ.

ثم في الآيةِ دليلٌ على أنهُ ليسَ كلُّ ظَنٍّ يُجْتَنَبُ عنهُ، ولا كلُّ الظَّنِّ يكونُ إثماً لأنهُ اسْتَثْنى منهُ بعضَهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ / ٥٢٣ ـ ب/ ما اسْتَثْنى مِنَ الظَّنِّ، ولا يُؤمَنُ بالاجْتِنابِ عنهُ، هو ما تَغْلِبُ عليهِ الأسبابُ، وغالبُ الأسبابِ ربما يَعْمَلُ عَمَلَ العِلْمِ واليَقينِ بِحَقِّ المُكْرَهِ على شيءٍ يُرَخَّصُ لهُ، ويُباحُ العَمَلُ إذا رَأى مِنْ ظاهِرِ حالِ المَكْروهِ أنهُ فاعلٌ بهِ ما أوعَدَهُ، وإنْ كانَ يجوزُ ألّا يَفْعَلَ بهِ، أو لا يَقْدِرَ على ما أوعَدَهُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: لكننا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن يلقبوا. (٥) في الأصل وم: موضع.
(٦) في الأصل وم: تبين. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وعلى ذلكَ موضوعُ عامَّةِ الأحكامِ والشرائعِ بَينَ الخَلْقِ أنها على غالبِ الظّنِّ وُضِعَتْ، ليسَ على التَّحقيقِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يَرْجِعَ ما استَثنَى مِنَ الظّنِّ القليلَ الذي لا إثْمَ فيهِ إلى الظّنِّ الحَسَنِ؛ إذْ يجوزُ أنْ يَظُنَّ الإنسانُ الظّنَّ الحَسَنَ، ولا إثْمَ فيهِ. إنما الأمرُ بالاجْتِنابِ إلى الظّنِّ بالسوءِ على غَيرِ تَحقُّقِ أسبابٍ أو غَيرِ تَحقُّقِ غَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ التَّجَسُّسُ، هو تَكَلُّفُ طَلَبِ المَساوِئِ في الناسِ مِنْ غَيرِ أنْ يَظْهَرَ منهمْ مِنْ أسبابِها شيءٌ. فَنَهَى عَنْ تكَلُّفِ طَلَبِ ذلكَ أو عنِ الإظهارِ، وأمَرَ بالسَّترِ.

وبِمِثلِ ذلكَ رُوِيَ في الأخبارِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قيلَ لهُ: هل لكَ في فلانٍ، تَقْطُرُ لِحيَتُهُ خمراً؟ فقالَ عبدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ ﷺ: إنْ يَظْهَرْ لنا شيءٌ نأخُذْهُ، وإلّا فإنَّ اللهَ تعالى قد نَهانا عنِ التَّجَسُّسِ، واللهُ أعلَمُ.

وفَرَّقَ بعضُهُمْ بَينَ التَّجَسُّسِ والتَّحَسُّسِ، فقالَ بالجيمِ في الشرورِ والمَساوِئِ وبالحاءِ[1] في الخَيرِ وفي ما يُباحُ طَلَبُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغَيبَةُ تَرْجِعُ إلى وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يُذْكَرَ ما فيهِ مِنْ مَساوِئِ الأفعالِ التي سَتَرَها عنْ أعيُنِ الناسِ ممّا يَكرَهُ إظهارَ ذلكَ عنهُ.

والثاني: [أنْ][2] يُذْكَرَ ما فيهِ مِنْ قُبْحِ الأحوالِ والأخلاقِ التي لا تكادُ تَذْكُرُ ذلكَ منهُ، أو تَظْهَرُ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ «أنهُ نَهَى أنْ يَذْكُرَ الرجلُ أخاهُ بما فيهِ ممّا يَكرَهُ، فقيلَ: إنما كُنّا نَذْكُرُهُ بالشيءِ الذي فيهِ لا بما ليسَ فيهِ. قالَ: ذلكَ البُهْتانُ» [بنحوه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ٢٠٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي لا يُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ بعد موتِهِ، فكأنهُ يقولُ: فإذا لم يُحِبَّ هذا، وكَرِهَهُ، بل يَستَقذِرُهُ كلَّ استِقذارٍ، فالغَيبةُ هي تَناوُلٌ مِنْ أخيهِ، وهو حيٌّ. فهو في القُبْحِ يَبْلُغُ التَّناوُلَ منهُ بَعدَ موتِهِ. فإنْ كانَ لا أحدَ يَتَناوَلُ مِنْ لحمِ أخيهِ بعدَ موتِهِ لا في حالِ اختيارِهِ ولا في حالِ اضطرارِهِ، فلا تَغْتابوا، ولا تَذْكُروا منهُ ما فيه فإنهُ في القبحِ ذلكَ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي اتَّقوا اللهَ عمّا نَهاكُمْ عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ لِمَنْ تابَ، أي قابلٌ توبَتَهُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي يُرحَمُ عليهِ، ويَعفو عنهُ، إذا تابَ، واللهُ المُوَفِّقُ][3].

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: إنّا خَلَقْناكُمْ جميعاً مِنْ أصلٍ واحدٍ، وهو آدمُ وحواءُ ﷺ فيكونونَ جميعاً إخوةً وأخواتٍ، وليسَ لِبَعْضِ الإخوةِ والأخَواتِ الافتِخارُ والفضيلةُ على بعضٍ بالآباءِ والقبائلِ التي جُعِلَتْ لهمْ؛ إنما القبائلُ وما ذَكَرَ لِلتَّعارُفِ، والفضيلةُ والكرامةُ في ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ معاً لو كانَ في ذلكَ فَضيلةٌ وافتِخارٌ. فالكُلُّ في النِّسبَةِ إليهِمْ على السواءِ، فلا مَعْنَى لِانفِرادِ البَعْضِ بالافتِخارِ.

والثاني: يَحتَمِلُ: إنّا خَلَقْنا كلَّ واحدٍ منكُمْ مِنَ الملوكِ والأتباعِ والحُرِّ والعَبْدِ والذَّكَرِ والأنثى مِنْ ماءِ الذَّكَرِ والأنثى، فليسَ لأحدٍ على أحدٍ مِنْ تلكَ الجهةِ التي يَفْتَخِرونَ بها الافتِخارُ والفضيلةُ؛ إذْ كانوا جميعاً مِنْ نُطْفَةٍ مَذِرَةٍ مُنْتِنَةٍ، تَستَقذِرُها الطباعُ. ذَكَرَ هذا لِيَترُكوا التَّفاخُرَ والتَّطاوُلَ بالأنسابِ والقبائلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ ثم اختَلَفوا في تأويلِ قولِهِ: ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾:

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٢٢٤. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من م.

جنة السنة

قالَ بعضُهُمْ: الشُّعوبُ أكبَرُ مِنَ القبائلِ، فالشُّعوبُ: همُ الأصولُ، والقبائلُ: هي الأفخاذُ منهمْ؛ فالشُّعوبُ لِلْعَرَبِ والأُمَمِ، والقرونُ لِلْعَجَمِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الشُّعوبُ لِلْعَجَمِ، والقبائلُ للعربِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الشُّعوبُ الضُّروبُ، وهي القبائِلُ، والواحدُ شَعْبٌ، والشَّعْبُ الاِجْتِماعُ؛ يُقالُ: شَعَبْتُ الإناءَ إذا انْكَسَرَ، فَجَمَعْتُهُ، وأصْلَحْتُهُ، ويُسَمَّى مَنْ يُصْلِحُ الإناءَ شَعّاباً، والشَّعْبُ: التفريقُ أيضاً، والشُّعوبُ المَنِيَّةُ، ونَحْوُ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي جَعَلَ فيكُم هذهِ القَبائلَ لِيَعْرِفَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بالنِّسْبَةِ إلى القبائلِ والأفخاذِ؛ فَيُقالُ: فلانٌ التَّيمِيُّ، والهاشِمِيُّ، إنَّ كلَّ أحدٍ لا يُعْرَفُ [إلّا](١) بأبيهِ وجَدِّهِ.

ثم قالَ ﷻ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ بيَّنَ اللهُ تعالى بما بهِ تكونُ الفَضيلةُ والكَرامةُ، وهو التَّقْوى لا في ما يَرَوْنَ، ويَفْتَخِرونَ بذلكَ، وهو النِّسْبةُ إلى الآباءِ والقبائلِ، بل ذلكَ لما ذَكَرَ مِنَ التَّعارُفِ، وهذا لأنَّ التَّقْوى فِعْلُهُ، وهو إتيانُ الطاعاتِ، والاِجْتِنابُ عنِ المَعاصي، وذلكَ ممّا يَأتيهِ تَعْظيماً لأمرِ اللهِ تعالى ونَهْيِهِ.

وجائزٌ أنْ يَنالَ بهِ الفَضيلةَ والكرامةَ بِفَضْلِ اللهِ وكَرَمِهِ بِناءً على فِعْلِهِ. فأمّا ما لا فِعْلَ لهُ في التَّوَلُّدِ مِنْ آباءٍ كِرامٍ فأنّى يَسْتَحِقُّ الفضلَ بذلكَ لو كانَ افْتِخاراً بما يكونُ للآباءِ بِمُباشَرَتِهِمْ أسبابَ حصولِ الأولادِ لِيُوَحِّدوا اللهَ تعالى، ويَتَمَسَّكوا بطاعتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ على الوَعيدِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ هذهِ الآيةُ، وإنْ خَرَجَتْ على مَخْرَجِ القومِ، ولكنْ أرادَ بها الخاصَّ، وهو بَعْضُ الأعرابِ، إذْ في الإجراءِ على العُمومِ يُؤَدّي إلى الكَذِبِ في خَبَرِ اللهِ عنْ ذلكَ، إذْ لا كلُّ الأعرابِ قالوا ذلكَ، ولا كلُّ الأعرابِ يَجِبُ أنْ يُقالَ لهمْ: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ ولكنْ يُقالُ لهمْ: ﴿قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ فهو يَرْجِعُ إلى خاصٍّ مِنَ الأعرابِ، فكأنَّهُ يَرْجِعُ إلى أهلِ النِّفاقِ منهمْ؛ فإنهمْ آمنوا، ولمّا يُؤمِنوا(٢). فلَمّا أطْلَعَ اللهُ ﷻ رسولَهُ ﷺ أنهمْ لم يُؤمِنوا، ولكنهمُ اسْتَسْلَموا، أو خَضَعوا للمؤمنينَ ظاهراً خوفاً مِنْ مَعَرَّةِ السيفِ وطَمَعاً في ما عندَ المسلِمينَ مِنَ الخيرِ، نَهاهُمْ أنْ يقولوا: آمَنّا إذا لم يكُنْ في قلوبِهِمْ ذلكَ، وأمَرَهُمْ أنْ يَقولوا: أسْلَمْنا؛ ومَعْناهُ ما ذَكَرْنا، أي خَضَعْنا، واسْتَسْلَمْنا، ولِيَرْتَفِعَ عنهمُ السيفُ.

ولا يَصِحُّ الاِسْتِدْلالُ بالآيةِ على أنَّ الإسلامَ والإيمانَ مُتَغايِرانِ(٣)؛ فإنهُ غايَرَ بَيْنَهما حينَ(٤) نَهاهُمْ أنْ يقولوا: آمَنّا، وأمَرَهُمْ أنْ يقولوا: أسْلَمْنا. ولو كانَ واحداً لم يَصِحَّ هذا لأنّا نقولُ: لم يُرِدْ بهذا الإسلامَ الذي(٥) هو الإيمانُ، ولكنْ أرادَ بهِ الاِسْتِسْلامَ الذي هو الإيمانُ. والاِنْقيادُ الظاهرُ، وهو ما يُسَمّى إيماناً أيضاً مِنْ حيثُ الظاهرُ.

فأمّا حقيقةُ الإيمانِ والإسلامِ [فإنها](٦) تَرْجِعُ إلى واحدٍ، لأنَّ الإيمانَ هو أنْ يُصَدِّقَ كلَّ شيءٍ في شهادتِهِ على الرُّبوبيَّةِ والوَحْدانيَّةِ للهِ تعالى. والإسلامُ هو أنْ يَجْعَلَ كلَّ شيءٍ للهِ سالماً لا شِرْكَةَ لأحدٍ فيهِ.

فَمَتى اعْتَقَدَ أنَّ كلَّ شيءٍ / ٥٢٤ ـ أ/ في العالمِ للهِ تعالى، وهو الخالقُ لهُ، وكلَّ مَصْنوعٍ شاهدٌ ودليلٌ على صانِعِهِ، فقد صَدَّقَهُ في شهادتِهِ على صانِعِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ الإيمانُ ليسَ هو [محسوساً مُرَكَّباً](٧) يدخُلُ في القَلْبِ أو لا، ولكنَّ معناهُ: بَقِيَ فِعْلُ القَلْبِ، وهو التَّصديقُ؛ كأنهُ قالَ: ولم تُؤمِنْ قلوبُهُمْ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: آمنوا. (٣) في الأصل وم: غيران. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: هو الإسلام. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: محسوس مركب.

جنة السنة

ثم هاتانِ الآيتانِ تَنْقُضانِ على الكَرَّامِيَّةِ مَذْهَبَهُمْ في أنَّ الإيمانَ لا يكونُ بالقَلْبِ ولكنْ باللِّسانِ والقولِ؛ فإنَّ أهلَ النِّفاقِ قد قالوا ذلكَ بِلِسانِهِمْ، ثم أخْبَرَ أنهم لم يؤمِنوا، وهُمْ يقولونَ: بل قد آمنوا، فَيُقالُ لهم: أنتمْ أعلَمُ [أمِ][(١)] اللهُ؟ ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟ [يونس: ٥٩].

وفي هذهِ الآيةِ آيةٌ عظيمةٌ على رسالتِهِ حينَ[(٢)] قالَ لهُ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ وقد قالَ لهمْ ﷺ ذلكَ، ولم يَتَهَيَّأْ لهمْ إنكارُ ذلكَ القولِ، فَعَرَفوا أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ، ولم يُظْهِروا ما في ضَميرِهِمْ خوفاً مِنَ السيفِ [مِنْ أن يَعْرِفَ][(٣)] النَّبِيُّ ﷺ واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ جائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ ما ذَكَرَ في سورةِ الفتحِ للمنافقينَ بَعدَ تَخَلُّفِهِمْ عنْ أمْرِ الحُدَيْبِيَةِ مع المؤمنينَ حينَ[(٤)] قالَ: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الآية: ١٦] وما ذَكَرَ مِنْ أمْرِهِمْ في غَيرِ آيةٍ[(٥)] مِنَ القرآنِ؛ يقولُ: إنْ تُطيعوا اللهَ ورسولَهُ في ما يَدْعوكُمُ الرسولُ ﷺ إلى الخروجِ إلى الجهادِ والقِتالِ بَعدَ تَخَلُّفِكُمْ عنِ الحُدَيْبِيَةِ، لا يَنْقُصْكُمْ مِنْ أعمالِكُمُ التي كانَتْ لكمْ شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لم يَنْقُصْكُمْ مِنْ أعمالِكُمُ التي عَمِلْتُموها مِنْ قَبْلُ، ولم تَفْضُلْ[(٦)] أعمالُكُمُ التي عَمِلْتُمْ مِنْ بَعْدُ، وإنْ عَصَيْتُموهُ وتَخَلَّفْتُمْ عنهُ في حياتِهِ لأنهُ قالَ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] قد كانَ نَهاهُمْ عنِ الخُروجِ مَعَهُ لِلْغَزْوِ أبداً، فيقولُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بَعدَ وفاتِهِ، وتُجاهِدوا في سَبيلِ اللهِ ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ بل [يُقْبَلُ][(٧)] ذلكَ منكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في المنافِقينَ، فيكونَ فيهِ وَعْدُ المَغْفِرةِ لِلْمنافقينَ إذا تابوا، وأطاعوا اللهَ ورسولَهُ كما وَعَدَ المَغْفِرَةَ لِجميعِ الكَفَرةِ إذا تابوا عنِ الكُفْرِ بقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

فَعَلى ذلكَ هذا، وهو كقولِهِ تعالى: [﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾][(٨)] ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

وقالَ[(٩)] بعضُهُمْ: هذا في جميعِ المؤمنينَ: إنَّ مَنْ أطاعَ اللهَ ورسولَهُ لا يُنْقِصُكُمْ مِنْ أعمالِكُمْ شيئاً، أي لا يُضَيِّعُ أعمالَكُمْ، بل يُثيبُكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] أي من عَمِلَ للهِ فلا يَضيعُ، ومَنْ عَمِلَ لِغَيرِهِ فقد يَضيعُ، فلا يَظْفَرُ على ثوابِهِ بشيءٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في المؤمنينَ الذينَ أسْلَموا؛ يقولُ: إذا أسْلَمْتُمْ فلا يَنْقُصْكُمْ مِنْ ثوابِ أعمالِكُمْ ما سَبَقَ منكُمْ مِنَ الكُفْرِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ كأنَّ هذا ذُكِرَ مُقابِلَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِ المُنافقينَ حينَ[(١٠)] قالَ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ فقالَ لهُ[(١١)] ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ أنتمْ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاءِ. ثم نَعَتَهُمْ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾. أخْبَرَ أنَّ هؤلاءِ هُمُ الصادقونَ في إيمانِهِمْ، وأنتمْ يا أهلَ النِّفاقِ بما[(١٢)] أضْمَرْتُمُ الخِلافَ لهُ، ولم تُجاهِدوا معهُ، فَلَسْتُمْ بِصادِقينَ في إيمانِكُمْ. فَجَعَلَ الجهادَ دليلَ ظهورِ الصِّدْقِ في الإيمانِ لأنهُ مِنْ شرائطِ الإيمانِ الذي لا يجوزُ الإيمانُ دونَهُ[(١٣)].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ليعرف. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: آي. (٦) في الأصل وم: تفضلوا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لهم. (١٢) في الأصل وم: بحيث. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: الذي.

جنة السنة

ويَحتمِلُ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي صَدَّقوا اللهَ ورسولَهُ سِرّاً وعلانيَةً على الحقيقةِ، لا الذينَ أظْهَروا [الإيمانَ][1] ولم تَكُنْ قلوبُهُمْ مُصَدِّقَةً لذلك كالمُنافقينَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟﴾ أي لم يَشُكُّوا في حادثِ الوقتِ، بل جاهدوا ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إظهاراً لِتَحقيقِ الإيمانِ وصِدْقِهِ، ولَيسوا كالمُنافقينَ الذينَ ارْتابوا، وشَكُّوا في إيمانِهِمْ، وتَخَلَّفوا عنِ الجهادِ مع رسولِ اللهِ ﷺ ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ ثم قولُه[2] ﷻ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟ كأنهُ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ حينَ[3] قالوا بألسِنَتِهِمْ، وليسَ ذلكَ في قلوبِهِمْ. فأخبَرَ أنهُ يَعلَمُ ما في قلوبِهِمْ مِنَ الإيمانِ والشَّكِّ والخِلافِ، كأنهم حينَ قالَ لهمُ الرسولُ ﷺ: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ فَلَجّوا في ذلكَ، وقالوا: بل آمَنّا؛ ظَنّوا أنهُ إنما قالَ ذلكَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟

يُخبِرُ أنَّ الذي أنْبَأني، وأخبَرَني بذلكَ، هو الذي يَعْلَمُ غَيبَ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وهو بكلِّ شيءٍ ممّا في القلوبِ مِنَ الصِّدْقِ وغَيرِهِ عليمٌ. فكيفَ تُعْلِمونَ اللهَ بأنكُمْ مؤمنونَ، وهو يَعْلَمُ إنكُمْ لكاذِبونَ؟

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ الذي حَمَلَهُمْ، وبَعَثَهُمْ على الامْتِنانِ عليهِ بالإيمانِ الذي أتَوا بهِ أنهم[4] قومٌ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ، فَيَظُنّونَ أنهمْ إذا أظْهَروا المُوافَقَةَ لم يَلْحَقْهُمْ بِسَبَبِهِ مُؤْنَةُ الخروجِ إلى القِتالِ، أو متى أظْهَروا الإيمانَ يَصيرُ المُسلِمونَ أعواناً لهمْ ونَحْوَ ذلكَ.

هذا الذي ذَكَرْنا ونَحْوُهُ بَعَثَهُمْ، وحَمَلَهُمْ على الامْتِنانِ عليهِ، ولو كانوا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ لَعَرَفوا أنَّ إيمانَهُمْ لأنفسِهِمْ؛ إذْ بهِ نَجاتُهُمْ، وإليهِمْ يَقَعُ نَفْعُهُ، ليسَ في الإيمانِ للهِ تعالى نَفْعٌ، ولا في تركِهِ ضَرَر. تعالى عنِ الضَّرَرِ والنَّفْعِ، فيكونُ الامْتِنانُ للهِ تعالى عليهِمْ كما قالَ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ نَقْضُ قولِ المعتزلةِ: إنهُ يجبُ على اللهِ تعالى أنْ يَهْدِيَهُمْ لِقولِهِمْ بالأصْلَحِ؛ فإنهُ قالَ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ ولو كانَتْ هدايَتُهُمْ واجبةً عليهِ لا يكونُ لهُ عليهِمْ مِنَّةٌ لأنهُ مُؤَدٍّ ما عليهِ مِنَ الحقِّ. ومَنْ أدّى حقّاً عليهِ لآخَرَ لا يكونُ لهُ الامْتِنانُ على صاحبِ الحقِّ.

وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨] لو كانَتِ الهِدايَةُ عليهِ لا يكونُ في قولِهِ مُفَضِّلاً ولا مُنْعِماً، بل يكونُ لهُ عليهِمُ الامْتِنانُ، ومنهمُ الإفضالُ والإنعامُ لِما عَظَّموهُ، وبَجَّلوهُ بشيءٍ كانَ عليهِ فِعْلُ ذلكَ حقّاً واجباً لهمْ، فَدَلَّ على فَسادِ مَذْهَبِهِمْ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ الهدايةَ ليستْ هي البَيانَ فَحَسْبُ لِوجهَينِ:

أحَدُهما: لأنَّ هدايةَ البَيانِ ممّا قد كان في حقِّ الكافرِ والمُسْلِمِ جميعاً، فلا مَعْنَى لِتَخصيصِ المسلِمينَ بهذهِ المِنَّةِ، ومِثْلُها موجودٌ في حقِّ غَيرِهِمْ.

والثاني: أنَّ البَيِّنَ قد عَمَّ الكافرَ والمُؤْمنَ، وقد أخبَرَ اللهُ تعالى بأنَّ لهُ المِنَّةَ عليهِمْ إنْ كانوا صادِقينَ في إيمانِهِمْ. فلو كانَتِ الهِدايةُ، هي البيانُ / ٥٢٤ ـ ب/ لا غيرُ، لَكانَ لا يُشْتَرَطُ فيهِ شَرْطُ صِدْقِهِمِ لأنَّ مِنَّةَ البَيانِ تَعُمُّ الصادقينَ وغَيرَ الصادِقينَ.

دلَّ أنَّ المُرادَ مِنَ الهدايةِ الإسلامِ حتى تَتَحَقَّقَ لهُ المِنَّةُ على الخُصوصِ في حقِّ المُسْلِمينَ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم الهِدايةُ المَذكورةُ ههنا تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: خَلْقُ فِعْلِ الاهْتِداءِ منهمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: لأنه.

جنة السنة

والثاني: التوفيقُ والعِصْمَةُ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ﴾ خَلَقَ منكُمُ الاهتِداءَ، أو وَفَّقَكُمْ للإيمانِ، وعَصَمَكُمْ عنْ ضِدِّهِ.

وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] على هذينِ الوجهَينِ: وَفَّقَكُمْ لهُ، وعَصَمَكُمْ عنْ ضِدِّهِ، أو خَلَقَ حُبَّهُ في قلوبِكُمْ، وزَيَّنَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على الوَعيدِ، أي هو بَصيرٌ بما أسَرُّوا، وأعلَنوا، لِيكونوا أبداً على يَقْظَةٍ وحَذَرٍ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ. [وصلّى اللهُ على سَيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ](1).

(1) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

سورة ق

كلها[1] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قٓ﴾ اسْمَ هذهِ السورةِ، وللهِ ﷻ أنْ يُسمّيَ السُّوَرَ بما شاءَ[2] كما سَمّى كتابَهُ قُرآناً وزَبوراً وتَوراةً وإنجيلاً.

أقْسَمَ بهذهِ السورةِ والقرآنِ جُملَةً.

ويَحتمِلُ أنْ يَذكُرَ ﴿قٓ﴾ كِنايةً عن جميعِ الحروفِ المُقطَّعةِ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [هي أسماءُ][3] الحروفِ المُقطَّعةِ؛ أقْسَمَ بالحروفِ المُقطَّعةِ والمَجموعةِ جميعاً.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ ﴿قٓ﴾ اسْمٌ للجَبَلِ المُحيطِ بالأرضِ، وهي مِنْ ياقوتةٍ خَضراءَ أو ياقوتةٍ حَمراءَ، فَخُضرَةُ السماءِ مِنْ ذلكَ. أقسَمَ اللهُ تعالى بهِ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ والأولُ أشبَهُ، وأقرَبُ، لأنَّ العربَ لم تَعرِفْ جَبَلَ قاف، ولم تَعرِفْ عَظَمَتَهُ.

والقَسَمُ في الأصلِ لِتأكيدِ الخبَرِ، فإنما يَتحقَّقُ بما يُعرَفُ مِمّا[4] أُريدَ القَسَمُ في حَقِّهِ.

فإذا لم يُعرَفْ، ولم يَعظُمْ ذلكَ في عينِهِ، يُخرَجُ القَسَمُ مُخرَجَ العَبَثِ، تعالى اللهُ عن ذلكَ.

إلّا أنْ يُقالَ: إنْ يكنْ هذا القسمُ في حقِّ أهلِ الكتابِ فإنهُ قد كانَ لهمْ كتابٌ، يَعرِفونَ ذلكَ، وكانَتْ لهمْ رُسُلٌ، قد بَلَغَهُمْ ذلكَ. وكذا الظاهرُ أنَّ القَسَمَ في حَقِّ العربِ. فَدَلَّ أنَّ الأوَّلَ أشبَهُ.

ثم هذهِ الحروفُ المُقطَّعةُ لم يَظهَرْ في الأخبارِ تَفسيرُها عن رسولِ اللهِ ﷺ بطريقِ التَّواتُرِ والاشتِهارِ، ولم يَثبُتْ عنِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهمْ أجمعينَ، أنهُمْ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلكَ، فَسَبيلُهُ الوقفُ فيها، لأنهُ معلومٌ ألّا يَقِفَ أحدٌ على المُرادِ بالحروفِ المُقطَّعةِ إلّا مِنْ جهةِ السَّمعِ. فلمّا لم يَظهَرْ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ دلَّ أنهمْ تركوا ذلكَ، وإنما تَرَكوا لِوجوهٍ.

إمّا لأنَّ هذهِ الحروفَ المُقطَّعةَ كانَتْ بَيانَ أحكامٍ في نوازِلَ عَرَفوها، وتَرَكوا سؤالَها، لِما عَرَفوا تلكَ الأحكامَ والنوازِلَ.

وإمّا أنْ تَركوا ذلكَ مِنَ السرائِرِ التي لم يُطلِعِ اللهُ تعالى الخَلقَ على ذلكَ، وهو المُتشابِهُ الذي يَجِبُ الإيمانُ بهِ، ولا يُطلَبُ لهُ تفسيرٌ، وكانَ ذلكَ مِمّا اختَصَّ الرسولَ ﷺ بِمَعرِفَتِهِ لقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] فلم يَسألوا منهُ بيانَ ذلكَ.

وإمّا أنْ كانَ ذلكَ عندَهمْ أسماءَ السُّوَرِ لِتَعريفِ السُّوَرِ، وأسماءُ الأعلامِ لا تُطلَبُ فيها المَعاني، لِذلكَ لم يَسألوا مَعانيَها، ولم يَرِدِ التَّعليمُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ.

كما أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ تَركوا سؤالَ التفسيرِ للآياتِ:

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر أن سورة ق. (٢) في الأصل وم: ذكر ق كناية. (٣) في الأصل وم: هو اسم. (٤) في الأصل وم: من.

جنة السنة

إمَّا لأنَّ في وُسْعِهِمُ الوصولَ إلى مَعْرِفةِ ما تَضمَّنَتْها الآياتُ، وعَرَفوا المُرادَ منها باللِّسانِ، وعَرَفوا مَواقعَ النوازِلِ، فَفَهِموا المُرادَ، فلم يَحْتاجوا إلى السؤالِ.

وإمَّا أن تَرَكوا لِما أنها تَضمَّنَتْ أحكاماً، عَرَفوها، وتركوا السؤالَ.

فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذَكَرَ القَسَمَ، ولم يُبَيِّنْ مَوضِعَ [جوابِ][1] القَسَمِ واخْتُلِفَ فيه:

قال بعضُهُم: مَوضِعُ [جوابِ][2] القَسَمِ في آخرِ السورةِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الآية [١٦].

وقال بعضُهُم: [في][3] قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [٣٨].

وقال بعضُهُم: مَوضِعُ [جوابِ][4] القَسَمِ قولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [الآية: ٥] أقْسَمَ بقولِهِ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ بأنَّ الكَفَرَةَ في أمْرٍ مَريجٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَوضِعُ [جوابِ][5] القَسَمِ هو ما [قال][6] ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [الآيتان: ٢ و٣] ذَكَرَ ههنا عَجَبَهُمْ مِنْ شَيْئَيْنِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرَ ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي مِنَ البَشَرِ ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ وهو كقولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقولِهِمْ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] لا يَزالونَ يُنْكِرونَ الرسالةَ في البَشَرِ.

والثاني: مِنَ الإحياءِ بَعدَ الموتِ لِقولِهِمْ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [الآية: ٣] وقد ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ[7] مِنَ القرآنِ عَجَبَهُمْ وإنكارَهُمُ البَعْثَ بَعدَ الموتِ.

فجائزٌ أن يكونَ مَوضِعُ [جوابِ][8] القَسَمِ ما عَجِبوا، أو أنْكَروا [أنْ يكونَ مِنَ][9] البَشَرِ رسولٌ، أو يَحْيَوا[10] بَعدَ الموتِ. أقْسَمَ بما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أنهُ يكونُ ذلكَ رَدّاً لإنكارِهِمْ وتَعَجُّبِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنكارُ الكَفَرَةِ وعَجَبُهُمْ أنْ كيفَ بُعِثَ مِنَ البَشَرِ رسولٌ؟ أو كيفَ لا اختارَ بَعْثَ الرسلِ مِمَّنْ عندَهُ، وهُمُ الملائكةُ؟ وأبداً إنما يُبْعَثُ الرسلُ مِمَّنْ كانَ عندَ المُرْسِلِ، لا مِمَّنْ كانَ [هو مَبْعوثاً][11] إليهِمْ في الشاهِدِ، لا مَعْنًى، ولا يَنْبَغي لهمْ أنْ يُنْكِروا بَعْثَ الرسولِ مِمَّنْ هو عندَ المَبْعوثِ إليهِمْ، وأنْ يَعْجَبوا مِنْ ذلكَ، لأنَّ بَعْثَ الرسولِ مِنْ جِنْسِ المُرْسَلِ إليهِمْ والمَبْعوثِ إليهِمْ في مَعْرِفةِ صِدْقِهِ وحَقيقةِ دَعْواهُ أقْرَبُ مِنْ أنْ يكونَ مِنْ خِلافِ جِنْسِهِمْ، لأنهمْ إنما يَعْرِفونَ رسالَتَهُ بآياتٍ ودلالاتٍ، يُقيمُها على رسالَتِهِ بحيثُ يَخْرُجُ عنْ وُسْعِهِمْ إقامَتُها، ولا يَعْرِفونَ صِدْقَ تلكَ الآياتِ وحقيقَتَها، إذا كانتْ تلكَ مِنْ غيرِ جنسِهِمْ بِما لَعَلَّ أنَّ ما أتاهُمْ بِهِ، وزَعَمَ أنها آياتٌ، ليسَتْ بآياتٍ، لِما في وُسْعِهِ إتيانُ مِثْلِها، وليسَ في وُسْعِهِمْ ذلكَ لِما أنَّ القُوَى تَخْتَلِفُ عندَ اخْتِلافِ الجِنْسِ.

فَدَلَّ أنَّ بَعْثَ/ ٥٢٥ ـ أ/ الرسولِ مِنْ جِنْسِ المرسَلِ إليهِمْ أحَقُّ وأقْرَبُ إلى مَعْرِفةِ صِدْقِ الآياتِ والمُعْجِزاتِ، واللهُ المُوفِّقُ. ولأنَّ كلَّ ذي نَوعٍ مِنْ نَوعِهِ وكلَّ ذي شَكْلٍ مِنْ شَكْلِهِ أمْيَلُ، وبِهِ[12] آنَسُ مِنْ خِلافِ جِنْسِهِ ونوعِهِ، فكانَ الغَرَضُ[13]، وهو التأليفُ والاجتماعُ، في هذا أقْرَبَ إلى الحُصولِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُمْ: هلا بَعَثَ إلينا الرسُلَ مِمَّنْ هو عندَهُ فاسدٌ، لأنَّ الخَلائقَ جميعاً مِنْ حيثُ العِنْدِ للهِ تعالى واحدٌ، لا يُوصَفُ أحدٌ مِنَ الخَلائقِ أنهُ عندَهُ إلّا مِنْ حيثُ القُرْبُ بِهِ بالطاعةِ لهُ والائْتِمارِ بأمْرِهِ وتَرْكِ الخِلافِ لهُ. فأمّا على ما يُوصَفُ المَخلوقُ عند مَخلوقٍ فلا؛ إذْ ذاكَ وَصْفُ المُتَمَكِّنِ في المكانِ. تَعالى اللهُ عنْ ذلكَ عُلُوّاً كبيراً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) و(٤) و(٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: من أن يكون. (١٠) في الأصل وم: يحيون. (١١) في الأصل: هذا مبعوث، في م: هو مبعوث. (١٢) الواو ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: العرش.

جنة السنة

فإذا كانَ المُرادُ مِن عندِهِ مِن حيثُ القُرْبُ بهِ بالطاعةِ والقِيامِ بأمْرِهِ ممّا يُثْبِتُ أهليّةَ الرسالةِ وصلاحَها فذلكَ ممّا لا يوجِبُ الفضلَ بينَ البَشرِ والملائكةِ، بل مِن جِهَةِ البَشرِ أحقُّ لِما هُمْ يَفْعَلونَ عن غَيبِ الدلائلِ اجْمَعَ دونَ العِيانِ، واللهُ أعلَمُ بِحُجّتِهِم: أنهُ لو أرادَ إخبارَنا، كيف أماتَنا؟ ولا أحَدَ في الشاهِدِ يبني بناءً، فَيَهْدِمُهُ، ويَبْني مِثلَهُ، فليسَ بشيءٍ، لأنهُ لو لم يكنْ أماتَهُ، ثم أحياهُ، لكانَ الجزاءُ بالأعمالِ يكونُ بِحَضْرَةِ الأفعالِ، بذلكَ يوجِبُ أنْ يكونَ إيمانُهُمْ إيمانَ اضطِرارٍ لا إيمانَ اختِيارٍ وإيثارٍ، لأنَّ مَنْ عايَنَ أنهُ يدخلُ النارَ، ويُعَذَّبُ فيها أبَدَ الآبدينَ، لا يَعْمَلُ ذلكَ العَمَلَ الذي أوعِدَ بهِ، بل يَترُكُهُ. وكذا مَنْ عايَنَ أنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى، وعَمِلَ طاعةً وعبادةً، يُدْخِلِ الجنةَ، ويُكْرَمُ أبَدَ الآبِدينَ، لا يَعْمَلُ غيرَ ذلكَ العَمَلِ. فَتَرْتَفِعُ المِحْنَةُ، ويكونُ الإيمانُ بِحَقِّ الاضطِرارِ، فأخَّرَ ذلكَ ليكونَ الإيمانُ بِحَقِّ الاختيارِ، حتى يكونَ الإيمانُ بحقِّ الاختيارِ حتى تكونَ لهُ قيمةٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وَصفَ القرآنَ مَرَّةً بأنهُ كريمٌ ومَرَّةً بأنهُ حكيمٌ ومَرَّةً بأنهُ مَجيدٌ. يَحْتَمِلُ أنما سَمّاهُ بهذِهِ الأسماءِ على مَعْنى أنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بهِ يَصِرْ مجيداً كريماً حكيماً أي بِمَنْزِلةِ[1] مَجيدٍ كريمٍ حكيمٍ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ صفاتُ القرآنِ راجِعةً إلى عَينِهِ كما يُقالُ: كلامُ حِكْمَةٍ وكلامُ سَفَهٍ، وإنما يُرادُ بهِ عَينُهُ. فَعَلى هذا يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَجيدُ الماجدُ والتَّمْجيدُ التَّعْظيمُ، وأمْجَدَتِ الدابةُ مِنَ العَلَفِ إذا أكْثَرَتْ ذلكَ، وأمْجَدَ القومُ إذا أكْثَروا مِنَ الطعامِ والشرابِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي لا يكونُ؛ كَنَوا بالبَعيدِ عمّا لا يكونُ عندهُمْ.

كذلكَ قالَ القُتَبيُّ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي رَدٌّ؛ يُقالُ: رَجِعَ رَجْعاً إذا رُدَّ، ورَجَعَ رُجوعاً إذا انصرَفَ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ظاهِرُ هذا أنْ يكونَ هذا قولَ أولئكَ الكَفَرةِ؛ قالوا ذلكَ على سَبيلِ الاحتِجاجِ لِما أنْكَروا مِنَ البَعْثِ، أي قد عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ مِنْ لُحومِنا، وتأكُلُ مِنْ أنفسِنا، فأنّى يُحْيِي بَعْدَ ذلكَ، وهو كقولِهِمْ: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ونَحْوُهُ.

لكنَّ أهلَ التأويلِ بأجمعِهِمْ صَرَفوا هذا القولَ إلى اللهِ تعالى أنهُ قالَ ذلكَ جواباً لقولِهِمْ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ فقالَ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي عن عِلْمٍ مِنّا بما تأكُلُ منكُمْ، ويَنْقُصُ، قُلْنا: إنكُمْ تُبْعَثونَ، وتُحْيَونَ، على علمٍ منا، بذلكَ أخْبَرَكُمُ الرسلُ بالإحياءِ والبعثِ بَعدَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي عندنا كتابٌ يَحْفَظُ أحوالَهُمْ وأفعالَهُمْ وجميعَ ما يكونُ منهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي مع علمي فيهِمْ، هُمْ عندنا في كتابٍ حفيظٍ.

وقالَ قَتادةُ: ما أكلَتِ الأرضُ منهمْ، وكانوا تُراباً، ونحنُ عالمونَ، وهُمْ مع عِلْمِنا في كتابٍ حفيظٍ، وهو مثلُ الأوّلِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي بالقرآنِ، يَحْتَمِلُ أي بمحمدٍ[2] ﷺ وقد كَذّبوا بهما معاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ قالَ القُتَبيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مُخْتَلِطٍ؛ يُقالُ: مَرِجَ أمْرُ الناسِ، ومَرِجَ الدينُ، وأصلُ المَرَجِ: أنْ يَقْلَقَ الشيءُ، فلا يَسْتَقِرَّ، يُقالُ: مَرِجَ الخاتَمُ في يدي مَرَجاً، إذا قَلِقَ للهُزالِ، أي تَحَرَّكَ. وقيلَ: مُضْطَرِبٌ، مُخْتَلِفٌ.

وهكذا كانَ قولُهُمْ مُخْتَلِفاً مُضْطَرِباً في القرآنِ والرسولِ جميعاً: قالوا في الرسولِ ﷺ أقوالاً مُضْطَرِبةً مُخْتَلِفَةً: مَرَّةً نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ، ومَرَّةً إلى الشِّعْرِ، ومَرَّةً إلى الجُنونِ، ومَرَّةً إلى الافتِراءِ على اللهِ تعالى، وإنهُ يَتَلَقّاهُ مِنْ فلانٍ، ونَحْوُ ذلكَ مِنْ أقوالٍ مُخْتَلِفَةٍ مُضْطَرِبَةٍ في ما يَدفَعُ كلُّ واحدٍ مِنْ ذلكَ الآخَرَ.

---

(١) الباء ساقطة من الأصل وم. (٢) الباء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وكذلكَ قالوا في القرآنِ: مَرَّةً إنهُ سِحرٌ، ومَرَّةً إنهُ شِعرٌ، وإنهُ مِن أساطيرِ الأولينَ، وإنهُ مُفترًى، وإنهُ اختِلاقٌ، وكلُّ ذلكَ ممّا يدفَعُ بَعضُهُ بَعضاً. وهذا هو الاضطِرابُ والاختِلافُ والاختِلاطُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ أي ضلالٍ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ الآيةَ؛ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الآياتُ صِلَةَ ما ذَكَرَ مِن عَجَبِهِمْ مِن بَعثِ الرسلِ مِنَ البَشَرِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ بقولِهِ: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ مُرتَفِعةً مُلتَصِقةً بَعضُها بِبَعضٍ مُتَّسِقَةً بِلا فُروجٍ ولا عِمادٍ مَعَ صَلابَتِها وكَثافَتِها وغِلَظِها؟

وألَمْ يَنظُروا إلى الأرضِ كيفَ بَسَطناها، وألقَينا فيها الجِبالَ الرَّواسيَ أوتاداً لِئلا تَميدَ بأهلِها حتى عَرَفوا إنَّ مَن قَدَرَ على رفعِ السماءِ بلا عَمَدٍ معَ ارْتِفاعِها وغِلَظِها وصَلابَتِها حتى [لا][1] يَنتَهِيَ أحدٌ إلى طَرَفٍ مِن أطرافِها ولا عِلْمِ نِهايَتِها، وجَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ[2] الأرضِ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهما قادرٌ على الإحياءِ بَعدَ الموتِ، وأنهُ لا يُعجِزُهُ شيءٌ، وأنَّ مَن فَعَلَ هذا لا يَفْعَلُ عَبَثاً باطِلاً، ولكنْ يَفعَلُهُ عن حِكمةٍ وتَدبيرٍ؟

ولو كانَ على ما قالوا أنْ لا بَعْثَ، ولا جَزاءَ، كانَ خَلْقُ ذلكَ كلِّهِ عَبَثاً باطِلاً، ويكونُ فِعلُ ذلكَ فِعلَ سَفَهٍ، لا فِعلَ حِكْمةٍ.

فلمّا كانَ فِعلُ ذلكَ كلِّهِ على التَّدبيرِ الذي ذَكَرَ وعلى الاتِّساقِ الذي جَرَى حُكْمُهُ أنشأَ ذلكَ مِن غَيرِ تفاوُتٍ، دلَّ أنهُ لم يُنشِئِ الخَلْقَ مِنَ المُكَلَّفينَ لِيَترُكَهُمْ سُدًى: لا يأمُرُ، ولا يَنهى، ولا يَمتَحِنُ، فيكونَ [خَلْقُهُمْ][3] عَبَثاً، بل لِيَمتَحِنَهُمْ بالأمرِ والنَّهيِ، ليكونَ فِعلُهُ في العقلاءِ على نَهجِ الحكمةِ كما في غَيرِهِمْ مِنَ الخَلائقِ.

فإذا كانَ كذلكَ فلا بُدَّ مِن رسولٍ يُخبِرُهُمْ، ويُعَلِّمُهُمْ ما لا يَقِفُ عليهِ العقلُ مِن كَيفيَّةِ شُكرِ المُنعِمِ ومِقدارِهِ ووَقتِهِ ونَحوِ ذلكَ ومُؤَكِّدِ ذلكَ الأمرِ والنَّهيِ بالوَعْدِ والوعيدِ.

ثم كانَ لهُ وَضعُ الرسالةِ في مَنْ شاءَ وفي أيِّ جِنسٍ شاءَ لأنهُ حكيمٌ عليمٌ، لا يكونُ منهُ الخَطأُ في التدبيرِ والجَهلِ بالأصْلَحِ والأوفَقِ بالحِكْمةِ. فَدَلَّ ذلكَ على إثباتِ الرسالةِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي انْظُروا إلى ما ذَكَرَ. والثاني: قد نَظَروا بأبصارِهِمْ، ولكنْ لم يَنظُروا نَظَرَ مُعتَبِرٍ، يَنظُرُ بِقَلْبِهِ[4]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ قيلَ: مِن صُدوعٍ وشُقوقٍ، والواحدُ فَرْجٌ، وهو الموضِعُ /٥٢٥ ـ ب/ بَينَ الموضِعَينِ والفُرْجَةُ [مُثلَّثَةً][5] مِنَ الفَرَجِ؛ ومنهُ يُقالُ: فَرَّجْتُ عنهُ الغَمَّ، أي كَشَفْتُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

أخبَرَ أنكُمْ لم تَرَوا في السماءِ شُقوقاً وفُطوراً، وفي الشاهِدِ البناءُ، وإنْ عَظُمَ، وأُحكِمَ، لا يَخلُو مِن نُقصانٍ وشُقوقٍ، تَرِدُ عليه. فإذا لم تَرَوا ذلكَ فهلّا دَلَّكُمْ ذلكَ على أنَّ خالِقَهُ قادرٌ على الكَمالِ، لا يُعجِزُهُ شَيءٌ؟

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ اسمُ الزَّوجِ يَقَعُ على الشَّكلِ والضِّدِّ، وكلُّ ذي شَكلٍ، هو ذو ضِدٍّ، والبَهيجُ ما يُبْهِجُ بِهِ أهلَهُ؛ فَمَعناهُ: أنبَتْنا مِن كلِّ زوجٍ ما يُبْهِجُ بِهِ أهلَهُ، وما يُسَرُّونَ بذلكَ مِن ألوانِ النباتِ، وجواهِرِها.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الباء ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: القلب.
(٥) في الأصل وم: بهما.

جنة السنة

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ما يُبهِجُ بِهِ أهلَهُ، أي مِن كلِّ جِنسٍ حَسَنٍ؛ يُقالُ: بَهُجَ يَبْهُجُ بهاجةً[1]، فهو بَهِيجٌ، أي حَسَنٌ، وأمّا مِنَ السرورِ فيُقالُ[2]: بَهِجَ يَبْهَجُ بَهَجاً، فهو بَهِيجٌ، أي مسرورٌ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي يُبصِرُ ذلكَ كلُّ عبدٍ منيبٍ، أي مَنْفَعةُ ذلكَ تكونُ لِمَنْ ذَكَرَ، وهو العبدُ المنيبُ إلى اللهِ تعالى والمُقبِلُ على طاعتِهِ. فأمّا مَنِ اعتقَدَ الخِلافَ لهُ فلا.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ لأنهُ يُستَعمَلُ في أمرِ الدينِ والدنيا، [ويُطَهَّرُ بِهِ][3] كلُّ شيءٍ، ويُزَيَّنُ، وبِهِ حياةُ كلِّ شيءٍ ونماؤهُ. والمُبارَكُ كلُّ خيرٍ يكونُ على النماءِ والزيادةِ في كل وقتٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يقولُ: أنبَتْنا بذلكَ الماءِ المُبارَكِ المُنزَلِ مِنَ السماءِ جَنّاتٍ أي بساتينَ. والمكانُ الذي جُمِعَ فيهِ كلُّ أنوعِ الشجرِ سُمِّيَ بُستاناً وجنّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي أنبَتَ ذلكَ الماءُ كلَّ حَبٍّ حَصيدٍ؛ فَدَخَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أنواعَ الشجرِ والغَرْسِ والنباتِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ والحَصيدُ، هو الحَبُّ نفسُهُ. لكنْ أضافَ الحبَّ إلى الحَصيدِ. ويجوزُ مِثْلُ هذا كما يُقالُ. صلاةُ الأولَى ومَسْجِدُ الجامعِ، وقالَ بعضُهُمْ: هما مُتغايِرانِ[4]: الحَبُّ ما يَخْرُجُ منهُ [النباتُ][5] والحَصيدُ ما يُحصَدُ مِنَ القَصَبِ الذي يَصيرُ نَبْتاً، لأنَّ الحَبَّ، لا يُحصَدُ، وإنما يُحصَدُ الساقُ منهُ. لِذلكَ أضافَ الحَبَّ إلى الحَصيدِ، وهو ثَمَرُهُ[6]، وقِوامُهُ بِهِ. لِذلكَ أضافَهُ إليهِ كما يُقالُ: ثَمَرُ الشَّجرةِ ونحوُ ذلكَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ قولُهُ: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي طِوالاً[7]؛ يُقالُ: بَسَقَ الشيءُ بُسوقاً إذا طالَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ أي حوامِلَ؛ يُخبِرُ اللهُ ﷻ عن بَرَكَةِ الماءِ أنهُ بِلُطفِهِ قد[8] جَعَلَ الماءَ بحيثُ يُظهِرُ برَكَتَهُ ونَماءَهُ وأثَرَهُ على رأسِ النخيلِ، وإنْ طالَ، يسقي الأصلَ [والرأسَ][9] لِما جَعَلَ في سِرِّيَّتِهِ مِنَ البَرَكةِ والمَعنى ما يُظهِرُ ذلكَ، ولا تُعلَمُ حقيقةُ ذلك المَعْنى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي مَنضودٌ، والطَّلْعُ أوّلُ ما يَخرُجُ مِنَ النخيلِ، فَيَحمِلُ، والتَّنضيدُ، هو التأليفُ والتَّركيبُ، أي يُؤلَّفُ بعضُهُ إلى بعضٍ، ويُركَّبُ، ويُسمَّى ذلكَ كُفُرّى، وإذا نَضِجَ استَوجَبَ الطَّلْعَ، وتَفَرَّقَ، وصارَ رَطْباً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿نَّضِيدٌ﴾ أي مَتراكِمٌ بَعْضُهُ على بَعضٍ، والمِيلُ المُتراكِمُ؛ يُقالُ لهُ: مَنضودٌ، والتَّنضيدُ، هو جَعْلُ بَعضِهِ فوقَ بَعضٍ، ونَضَدَ الشيءَ بنفسِهِ، فهو نضيدٌ، وقيلَ: نَضيدٌ أي كثيرٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أخبَرَ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ إنما أنبَتَهُ، وأخرَجَهُ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً﴾ أي بالماءِ ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي أحْيَى بالماءِ كلَّ بَلْدةٍ مَيْتٍ وكلَّ بُقْعَةٍ مَيتةٍ وكلَّ غَرْسٍ، فَصارَ بِهِ حياةُ كلِّ حيٍّ ونَماءُ كلِّ شيءٍ.

ثم قولُهُ[10] تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي كما قَدَرَ على إحياءِ ما ذَكَرَ مِنَ الأرضِ بَعدَ مَوتِها وإحياءِ النباتِ والغَرْسِ وكلِّ شيءٍ بَعدَ موتِهِ بِذلكَ الماءِ [فَعلَى ذلكَ هو][11] قادرٌ على إحيائكُم بَعدَ موتِكُم وبَعدَ ما صِرْتُم تُراباً.

والأعجوبةُ في إحياءِ ما ذَكَرَ كلَّهُ مِنَ الأرضِ والنباتِ والغَرْسِ إنْ لم يَكُنْ أكثَرَ لم يكُنْ دونَ ما [في][12] إحياءِ الناسِ بَعدَ موتِهِم.

(١) في الأصل وم: بهجا. (٢) في الأصل وم: فقال. (٣) من م، في الأصل: ويطهره. (٤) في الأصل وم: غيران. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: شجره. (٧) في الأصل وم: طوال. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) في م: فعلى ذلك، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

فإذْ قد عَرَفوا قدرَتَهُ في إحياءِ ما ذُكِرَ، وأقرّوا بهِ، كذلكَ لَزِمَهُمْ أنْ يُقِرّوا بهِ في إحياءِ كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٢و١٣و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ ذَكَرَ هذهِ الأنباءَ لوجهَينِ:

أحدُهما: يُصَبِّرُ رسولَهُ ﷺ على أذى قومِهِ وتكذيبِهِمْ إيّاهُ كما صَبَّرَ أولئكَ؛ يقولُ: إنكَ لَسْتَ بأوّلِ رسولٍ، كَذَّبَهُ قومُهُ، بل كانَ قبلَكَ رُسُلٌ، كَذَّبَهُمْ قومُهُمْ، فَصَبَروا على ذلكَ، فاصْبِرْ أنتَ أيضاً، وهو كقولِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثاني: يُحَذِّرُ قومَهُ أنْ يَنْزِلَ بتكذيبِهِمْ إيّاهُ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ بهِ كما نَزَلَ بِمَنْ ذَكَرَ مِنَ الأقوامِ بتكذيبِهِمْ وسوءِ مُعامَلَتِهِمْ.

وعلى هذينِ المَعْنَيَيْنِ جَمَعَ ما ذَكَرَ في القرآنِ مِنَ الأنباءِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أصحابُ الرَّسِّ: اختُلِفَ في الرَّسِّ. [قالَ بعضُهُمْ:][1] هو بئرٌ دونَ اليمامةِ، وكانَ عندَها أقوامٌ، كَذَّبوا رسلَهُمْ، فأهلَكَهُمُ اللهُ تعالى. وقيلَ: الرَّسُّ، هو الوادي. وقالَ [بعضُهُمْ][2]: الرَّسُّ، هو خَدٌّ خَدُّوهُ، وجَعَلوا فيهِ النارَ، وأحرَقوا فيها نبيَّهُمْ ﷺ. وقالَ بعضُهُمْ: سُمّوا بذلكَ لأنهمْ رَسُّوا نبيَّهُمْ ﷺ في البئرِ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمْ قومُ الرسلِ الذينَ ذَكَرَهُمْ في سورةِ يس بقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤].

وعنِ الأصَمِّ أنهُ قالَ: الرَّسُّ كلُّ موضعٍ، خُدَّ فيهِ، ولذلكَ سُمّيَ الخَدُّ خَدّاً لِجَرْيِ الدَّمْعِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ أي قومُ لوطٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قيلَ: إنهُ كانَ رجلاً مُسْلِماً صالحاً، مَدَحَهُ اللهُ تعالى، وذَمَّ قومَهُ، سُمّيَ تُبَّعاً لِكَثْرةِ أتباعِهِ. ولا حاجةَ بنا إلى تفسيرِهِ بأنهُ [مَنْ][3] كانَ؟ وما اسْمُهُ؟ كما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ لِما لم يُذْكَرْ في القرآنِ، ولم يَثْبُتْ بالتواتُرِ، فلا نَزيدُ على ذلكَ القَدْرِ احْتِرازاً عنِ الكَذِبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي أعَجِزْنا عن خَلْقٍ؟ أي حينَ[4] لم نَعْجِزْ عنِ الخَلْقِ الأوّلِ، فكيفَ نُسِبونا إلى العَجزِ عنِ الخَلْقِ الثاني؟.

والثاني: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي أجَهِلْنا، وخَفِيَ علينا تدبيرُ الخَلْقِ الثاني وابْتِداءُ تدبيرِ الخَلْقِ الأوّلِ؟ وإنشاؤهُ أشَدُّ عندَكُمْ مِنْ إعادتِهِ، والإعادةُ عندَكُمْ أهوَنُ.

فإذا لم نَعْجِزْ عنِ ابْتِداءِ إنشائِهِ، ولم نَجْهَلْ، ولم يَخْفَ علينا الِابْتِداءُ، فأنّى نَعْجِزُ عنِ الإعادةِ؟

ثم قالَ بعضُهُمْ: الخَلْقُ الأوّلُ، هو آدمُ ﷺ، وقالَ عامّتُهُمْ: هو ابْتِداءُ خَلْقِهِمْ، واللهُ أعلَمُ

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هُمْ في شَكٍّ واخْتِلاطٍ مِنْ خَلْقٍ /٥٢٦ ـ أ/ جديدٍ لمّا تَرَكوا النَّظَرَ في سَبَبِ المعرفةِ لِيَقَعَ عليهِمُ العِلْمُ بذلكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ على عِلْمٍ منّا يُحَدِّثُ بهِ نفسَهُ مِنْ أنواعِ الحديثِ والوَسْوَسةِ لا عَنْ جَهْلٍ وخَفاءٍ عنْ ذلكَ. فإنْ هو كَفَّها، وحَبَسَها عمّا تَدْعو بهِ إليهِ نفسُهُ، وتَهْواهُ، وصَرَفَها[5] إلى ما يَدْعوهُ عَقْلُهُ وذِهْنُهُ، نجا، وفازَ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣] وقولِهِ[6]: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ و٤١].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: ويصرفها. (٦) في الأصل وم: وقال.

جنة السنة

وإنْ تركَها حتى تَمادَى في هواها هَلِكَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ و٣٨ و٣٩] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

والثاني: يَذْكُرُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي نحنُ مُطَّلِعونَ على ذلكَ، ليسَ عِلْمُ ذلكَ إلى الحَفَظَةِ، وهُمْ يَتَوَلَّونَ كتابتَهُ، أي لم يَجْعَلْ ذلكَ إلى أحدٍ، إنما ذلكَ إلى اللهِ تعالى، هو العالمُ بذلكَ، وهو المُطَّلِعُ عليهِ دونَ الملائكةِ، وإنما إلى الملائكةِ ما يَلْفِظُهُ، ويَفْعَلُ بالجوارحِ لِقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] [وقولِهِ في سورةٍ][1] أُخرى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ و١١ و١٢] أخبرَ أنَّ الحفَظَةَ إنما يَعْلَمونَ ما تفعلونَ ظاهراً. أمّا ما تُسِرُّونَ في قلوبِكُمْ فاللهُ هو المُطَّلِعُ على ذلكَ، العالمُ، لِتَكونوا أبداً على اليَقَظَةِ والحَذَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ يُفْهَمُ مِنْ قُرْبِ الربِّ تعالى إلى العبدِ ما يُفْهَمُ مِنْ قُرْبِ العبدِ إلى اللهِ. وإنما يكونُ قُرْبُ العبدِ إلى اللهِ تعالى بالطاعةِ لهُ والقِيامِ بأمرِهِ والانْقِيادِ والخُضوعِ لهُ. هذا هو المَفْهومُ مِنْ قُرْبِ العبدِ إلى اللهِ تعالى لا قُرْبُ شيءٍ آخَرَ. فَعَلَى ذلكَ يُفْهَمُ مِنْ قُرْبِ اللهِ تعالى إلى العبدِ الإجابةُ لهُ والنَّصْرُ والمَعونةُ والتوفيقُ على الطاعاتِ.

وعلى ذلكَ ما يُقالُ: فلانٌ قريبٌ إلى فلانٍ، لا يَعْنُونَ قُرْبَ نفسِهِ مِنْ نفسِهِ في المكانِ، ولكنْ يَعْنُونَ نَصْرَهُ لهُ ومَعونَتَهُ إيّاهُ وإجابتَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ القربَ منهُ كنايةً عنِ العِلْمِ بأحوالِهِ ظاهراً وباطناً، واللهُ أعلَمُ.

وأصلُهُ أنْ تُعْتَبَرَ الأحوالُ في ما ذُكِرَ مِنَ القُرْبِ:

فإنْ كانَ في السؤالِ فالمرادُ أنهُ قريبٌ منهُ بالإجابةِ لهُ، أي يُجيبُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإنْ كانَ في ما يُسِرُّونَ، ويُضْمِرونَ، فَيُفْهَمُ مِنَ القُرْبِ في تلكَ الحالةِ العِلْمُ بهِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وقولُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يُفْهَمُ منهُ النصرُ والمعونةُ أو العِلْمُ.

فيكونُ قولُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي أعْلَمُ وأولَى بهِ وأحَقُّ مِنْ غيرِهِ في النَّصْرِ والمعونةِ وأولَى بهِ في الإجابةِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [عنِ اللهِ ﷻ:][2] «مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ منهُ شِبْرَيْنِ» [بنحوِهِ البخاري ٧٥٣٧] على ما ذَكَرْنا مِنْ قُرْبِ الطاعةِ لهُ وقُرْبِ الرَّبِّ إليهِ بالنصرِ والمعونةِ لا قربِ المكانِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عِرْقُ العُنُقِ، والوريدُ العُنُقُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو عِرْقٌ بينَ القَلْبِ والحُلقومِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو عِرْقُ القَلْبِ، مُعَلَّقٌ بهِ، فإذا قُطِعَ ذلكَ العِرْقُ يموتُ الإنسانُ واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي اذْكُرْ تَلَقِّيَ المُتَلَقِّيَيْنِ، أوِ احْفَظْ تَلَقِّيَ المُتَلَقِّيَيْنِ، وهما المَلَكانِ المُسَلَّطانِ على أعمالِكَ وأقوالِكَ، إذْ يَتَلَقَّيانِ منكَ أعمالَكَ وأقوالَكَ، ويَحْفَظانِ عليكَ، ويَكْتُبانِ.

يَذْكُرُ هذا [ويُخْبِرُهُ أنَّ عليهِ][3] حافظاً ورقيباً، وإنْ كانَ هو تعالى حافظاً لجميعِ [أفعالِهِ وأقوالِهِ][4] عالماً بهِ فَحِفْظُ الملائكةِ وعَدَمُ ذلكَ بِمَنْزِلةٍ في حقِّ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وقال في آية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويخبرهم أن عليهم. (٤) في الأصل وم: أفعالهم وأقوالهم.

جنة السنة

لكنْ يُخرِّجُ الأمْرُ للملائكةِ بحفظِ أعمالِهِ[١] وكتابةِ ذلكَ على وجوهٍ مِنَ الحِكْمةِ:

أحدُها: ليكونَ[٢] على حَذَرٍ أبداً ممّا [يقولُ، ويَفْعَلُ][٣] ما يكونُ في الشاهدِ مِنْ عِلْمٍ أنَّ عليهِ حافظاً ورقيباً في أمرٍ يكونُ أبداً على حَذَرٍ وخوفٍ مِنْ ذلكَ الأمرِ، وذلكَ أذْكَرُ لهُ، وأدْعَى إلى الانتهاءِ عن ذلكَ. فَعَلى ذلكَ إذا عَلِمَ العبدُ أنَّ عليهِ حفيظاً، يَكْتُبُ ذلكَ عليهِ، وأنهُ يُكَلَّفُ تلاوةَ ذلكَ المكتوبِ بينَ يَدَي اللهِ تعالى يَسْتَحْيي[٤] مِنْ ذلكَ أشَدَّ الاستِحياءِ، ويكونُ[٥] ذلكَ أزْجَرَ لهُ، وأبْلَغَ في المَنْعِ.

وإلّا لكانَ[٦] إحصاءُ ذلكَ على اللهِ تعالى مَعَ الكتابِ وغيرِ الكتابِ سَواءً؛ إذْ هو عالمٌ بذاتِهِ لا بالأسبابِ، وهو تأويلُ [قولِهِ تعالى][٧]: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: مِنَ الحِكْمةِ امْتِحانُ الملائكةِ بحفظِ أعمالِ بَني آدمَ وأقوالِهِمْ وكتابةِ ذلكَ، فَيَمْتَحِنُهُمْ لِذلكَ، ويأمُرُهُمْ بهِ، ولله أنْ يَمْتَحِنَ الملائكةَ: مَنْ شاءَ منهمْ بالتَّسْبيحِ والتَّعظيمِ، ومَنْ شاءَ منهمْ بالرُّكوعِ، ومَنْ شاءَ [منهمْ][٨] بحملِ العَرْشِ والكرسيِّ، ومَنْ شاءَ [منهم][٩] بحفظِ بَني آدمَ، ومَنْ شاءَ منهمْ بِسَوقِ السحابِ وإنزالِ المطرِ ممّا في ذلكَ مَنافِعُ بَني آدمَ.

ويكونُ ذلكَ كلُّهُ بحقِّ العبادةِ لِيُعْلَمَ أنَّ مَنِ امْتَحَنَ منهمْ بالرُّكوعِ والسُّجودِ والتَّسْبيحِ والتَّكْبيرِ والتَّهْليلِ لم يَمْتَحِنْهُمْ لِمَنافِعَ تَرْجِعُ إليهِ في ذلكَ. ولكنْ يَمْتَحِنُهُمْ بِمِحَنٍ بما شاءَ وفي ما شاءَ، ويكونُ ذلكَ كلُّهُ عبادةً، وإنِ اختلفَتْ أنواعُهُ.

فَعَلى ذلكَ أمْرُهُ إيّاهُمْ بحفظِ أعمالِهِمْ وأقوالِهِمْ وكتابتِها، واللهُ أعلَمُ.

والمِحْنَةُ بحِفْظِ تلكَ الأعمالِ والأصواتِ وكتابتِها أشَدُّ مِنْ مِحْنَةِ غيرِهِمْ مِنَ الملائكةِ بالرُّكوعِ والسُّجودِ والقِيامِ أو التَّكْبيرِ أو التَّهْليلِ ونَحْوِ ذلكَ، ومِنْ مِحْنَةِ بَني آدمَ مِنْ إقامةِ العِباداتِ والامْتِناعِ عنِ المُحَرَّماتِ ونَحْوِها، إذْ لوِ اجْتَمَعَ الخلائقُ على معرفةِ كَيْفيَّةِ عَمَلٍ واحدٍ ما قَدَروا عليه. فَدَلَّ أنَّ هذا التأويلُ مُحْتَمَلٌ.

والثالثُ: وهو أنَّ اللهَ تعالى أخْبَرَهُ[١٠] بكتابةِ المَلَكَيْنِ [أعمالَهُ وبِقُعودِهما][١١] عنِ اليمينِ والشمالِ مِنْ غيرِ أنْ رأى أحدٌ مِنَ البَشَرِ إيّاهما[١٢] ولا رأى كتابَتَهُمْ، ولا سَمِعَ صوتَ كتابتِهِمْ، وقد أقْدَرَهُمْ على العِلْمِ بما في ضَمائرِهِمْ وكتابةِ ذلكَ كلِّهِ، وأقْدَرَهُمْ على رُؤيتِنا، ولم يُقْدِرْنا على رؤيتِهِمْ، وهمْ أجسامٌ [غيرُ][١٣] مَرْئيَّةٍ لِيَعْلَموا بذلكَ قدرةَ اللهِ تعالى على ما شاءَ مِنَ الفِعْلِ وألّا يُقَدِّروا قوةَ كلِّ خَلْقِ اللهِ تعالى بقوةِ أنفسِهِمْ ولا رؤيةَ غيرِهِمْ برؤيةِ أنفسِهِمْ، وأنَّ قوةَ الرُّؤيةِ تَخْتَلِفُ باختِلافِ الأوقاتِ والأشخاصِ؛ فإنَّ الملائكةَ يَرَوْنَنا، ولا نَراهُمْ في الدنيا، وإنْ كانوا أجساماً [غيراً][١٤] مَرْئيَّةٍ فَيَرَى[١٥] بعضُهُمْ بعضاً[١٦].

ثم أخْبَرَهُ[١٧]، وقالَ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] أخبرَ أنهُ يَرَى ذلكَ الكتابَ في الآخِرةِ، وإنْ كانَ لا يَراهُ في الدنيا، وكذا يَرَى الملائكةَ في الآخِرةِ؛ وهذا لأنَّ هذهِ البِنْيَةَ لا تَحْتَمِلُ أشياءَ لِضَعْفٍ فيها ولِحِجابٍ يكونُ في ذلكَ في الدنيا.

ثم تَحْتَمِلُ أنْ تكونَ في الآخِرةِ أقوى في احتِمالِ ذلكَ، فَتُبْصَرُ في الآخِرةِ.

وفي هذا رَدُّ قولِ المعتزلةِ في إنكارِهِمْ رؤيةَ اللهِ تعالى أنهُ لو كانَ يُرَى لَرُئِيَ في كلِّ مكانٍ على ما تُرى الملائكةُ في الآخِرةِ دونَ الدنيا /٥٢٦ ـ ب/ ونَحْوِ ذلكَ. فَعَلى ذلكَ رُؤيةُ اللهِ تعالى.

ثم قراءةُ العامّةِ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ وقراءةُ ابنِ مسعودٍ ﷺ: إذ يَتَلَقّى المُتَلَقِّيانِ عنهُ عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قعيدٌ.

---

(١) في الأصل وم: أعمالهم. (٢) في الأصل وم: ليكونوا. (٣) في الأصل وم: يقولون ويفعلون. (٤) في الأصل وم: فيستحيي. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مكان. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أخبرهم. (١١) في الأصل وم: أعمالهم ويقعودهم. (١٢) في الأصل وم: إيهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث يرى. (١٦) في الأصل وم: لبعض. (١٧) في الأصل وم: أخبر.

جنة السنة

فَعَلَى قراءتِهِ يُخرَّجُ تأويلُ الآيةِ على وجهٍ واحدٍ؛ أي يأخُذُ المَلَكانِ عنِ ابنِ آدمَ ما [فَعَلَ، وقالَ، وعلى][(١)] قراءةِ العامّةِ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يأخُذَ المَلَكانِ عنهُ ما أدّى إليهما مِنْ قولٍ أو فعلٍ.

والثاني: أنْ يَتَلَقَّى أحدُ المَلَكَينِ عنِ الآخرِ ما ألقَى إليهِ ذلكَ المَلَكُ على ما رُوِيَ عن أبي أُمامةَ ﷺ أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صاحبُ اليمينِ أمينٌ على صاحبِ الشمالِ، وإذا عَمِلَ العبدُ سَيّئةً قالَ لهُ صاحبُ اليمينِ: أمسِكْ، فَيُمسِكُ عنهُ مَبلَغَ ساعاتٍ، فإنِ استغفرَ اللهَ لم يَكتُبْها عليهِ، وإنْ لم يَستَغفِرْ كَتَبا سيئةً واحدةً» [الطبراني في الكبير ٧٧٨٧]

ويجوزُ أنْ يكونَ أحدُهما كاتباً دونَ الآخرِ، وإنْ كانا يَتَلَقَّيانِ، ويأخذانِ منهُ ذلكَ لِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى حينَ[(٢)] قالَ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ ولم يَقرَأْ: قريناهُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ المُتَلَقِّيانِ جميعاً يكتبانِ على ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: كاتبانِ: كاتبٌ عنْ يمينِهِ وكاتبٌ عنْ يَسارِهِ، فَيَكتُبانِ [ما كانَ مِنَ][(٣)] الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، ثم يرفعانِ إلى مَنْ فوقَهما كلَّ إثنينِ وخميسٍ، فَيُثبِتانِ[(٤)] مِنْ ذلكَ [ما كانَ][(٥)] مِنْ ذلكَ مِنْ ثوابٍ أو عِقابٍ، ويُلقِيانِ[(٦)] ما سِوَى ذلكَ.

ورُوِيَ أيضاً عنهُ وعنْ غيرِهِ مِنْ أهلِ التأويلِ أنهما يَكتُبانِ ما كانَ مِنْ خيرٍ وشرٍّ، وما سِوَى ذلكَ فلا.

ولكنَّ ظاهرَ الكتابِ يدلُّ على أنهُ يكتبُ كلَّ شيءٍ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ إلّا أنْ يُقالَ: المُرادُ ﴿مِن قَوْلٍ﴾ هو سَبَبُ الثوابِ والمَآثمِ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] أي لا يُغادِرُ صغيرةً مِنَ المآثمِ ولا كبيرةً منها إلّا مُطلَقَ صغائرِ الأشياءِ وكبائرِها. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم جَعْلُ المُتَلَقِّيَينِ اثْنَينِ يَحتَمِلُ على ما جَعَلَ في الشهادةِ اثْنَينِ في ما بَينَهُمْ في الأحكامِ والحقوقِ يَشهدانِ عليهِ في الآخرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ في ظاهرِ الآيةِ أنّ الملائكةَ إنما يَكتُبونَ ظاهرَ الأقوالِ والأفعالِ لا [ما][(٧)] في الضمائرِ. لكنهُ غيرُ مُستَنكَرٍ في العقولِ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أقدَرَهُمْ على العِلْمِ بما في ضَمائرِهِمْ، فَيَعرِفونَ ذلكَ، ويكتبونَ. ولكنَّ ظاهرَ الآيةِ يُشيرُ إلى ما قُلْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: أرادَ ﴿قَعِيدٌ﴾ مِنْ كلِّ جانبٍ منهما، إلّا أنهُ اكتَفَى بِذِكْرِ الواحدِ إذْ كانَ دليلاً على الآخرِ. و﴿قَعِيدٌ﴾ بِمَعْنَى: قاعدٍ كما يُقالُ: قديرٌ. وقادرٌ، أو يكونُ بِمَنزِلَةِ أكيلٍ وشريبٍ، أي هو مُؤاكِلٌ ومشاربٌ: ﴿قَعِيدٌ﴾ أي مُقاعِدٌ. وبِهِ قالَ أبو عوسَجةَ: قَعيدٌ مِنَ المُقاعَدةِ كما يُقالُ: قَعيدي وجَليسي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ الرقيب الحَفيظُ والعَتيدُ الحاضِرُ، أي ليسَ بغائبٍ حتى يغيبَ عنهُ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي شِدَّتُهُ. يُخبِرُ أنْ لا بُدَّ أنْ يَنزِلَ بالنفسِ عندَ الموتِ شِدّةٌ ومَشَقّةٌ. ثم الآيةُ تُخرَّجُ عل وجهَينِ:

أحدُهما: ألّا يُجزِيَ على ظاهرِ ما في الماضي، أعني لفظةَ ﴿وَجَآءَتْ﴾ أي جاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ على الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ، فوجَدْتَهُمْ غيرَ مُتأهِّبينَ ولا مُستَعِدّينَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَتْ﴾ بِمَعْنَى تَجيءُ، وكذلكَ ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [الآية: ٢١] وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي مِنْ أهلِ الشَّقاوةِ أو مِنْ أهلِ السَّعادةِ. يقولُ: عندَ ذلكَ يَتَبَيَّنُ لهُ، ويَظْهَرُ أنهُ مِنْ أهلِ السعادةِ أو مِنْ أهلِ الشَّقاوةِ أو مِنْ أهلِ الجنةِ أو مِنْ أهلِ النارِ.

---

(١) في الأصل وم: فعلوا وقالوا على. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل: ما كان، ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: فيثبتون. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: ويلقون. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وأصلُهُ عندنا أنَّ الحقَّ، هو ما وَعَدَ كلَّ نفسٍ مِنْ خيرٍ وما أوعَدَ كلَّ نفسٍ مِنَ الشَّرِّ؛ إنْ كانَ مؤمناً، وقد وَعَدَ لهُ الجنةَ، فَيَتحقَّقُ لهُ ذلكَ، وإنْ كانَ كافراً، وقد أوعَدَ لهُ النارَ، فَيَتحقَّقُ لهُ ذلكَ.

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الحقِّ ههنا، هو الموتُ نفسُهُ، أخبَرَ انهُ لا بُدَّ مِنَ الموتِ وأنهُ كائنٌ لا محالةَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] يقولُ: لم يَخلقِ الخَلْقَ للخلودِ في الدنيا، ولكنْ للآخِرَةِ، فلا بُدَّ مِنَ الموتِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهُما][1]: أي أتاكَ ما كُنتَ تَكرَهُ مَجيئَهُ، وتُنكِرُ، ولم تُؤمِنْ بهِ، وهو البَعثُ، ويومُ القيامةِ الذي يُنكِرونَهُ، ويَكرَهُونَهُ.

والثاني: يَحتَمِلُ الموتَ نفسَهُ، أي أتاكَ ما كُنتَ تَكرَهُ، وتَفِرُّ منهُ؛ إذْ هُم كانوا يَكرَهونَ الموتَ، ويَفِرّونَ منهُ، فإنهُ [مُلاقيكَ أي يأتيكَ][2] مِنْ حيثُ لا مَفرَّ لِقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] أي أتاكُم مِنْ حيثُ لا مَفرَّ لكمْ منهُ[3]. ثم الحَيدُ، هو المَيلُ والكراهةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَيدُ الفِرارُ؛ يُقالُ: حادَ يَحيدُ حَيداً، فهو حائدٌ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ النَّفخةَ الأولَى، وهي النَّفخةُ التي يَفزَعُ عندَها أهلُ السمواتِ والأرضِ، فيموتون.

ويَحتَمِلُ أنْ يُريدَ النَّفخةَ الثانيةَ التي عندَها البَعثُ وإدخالُ الأرواحِ في الأجسادِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يُريدَ عندَ ما يوضَعُ كلُّ واحدٍ في القبرِ، وهو أنْ يُسألَ على ما جاءَتِ الأخبارُ مِنْ سؤالِ مُنكَرٍ ونكيرٍ، وذلكَ أيضاً هو يومُ الوَعيدِ في حقِّ ذلكَ الرجلِ وهذا الكافرِ خاصّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي ذلكَ يومُ وقوعِ الوَعيدِ، إذْ يومُ الوَعيدِ الدنيا. فأمّا القيامةُ فهو يَومُ وقوعِ الوَعيدِ وتَحقُّقُهُ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السائقُ الذي يَقبِضُ روحَهُ، والشَهيدُ الذي يَحفَظُ عَمَلَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: السائقُ هو المَلَكُ الذي يَكتُبُ عليهِ سيِّئاتِهِ، والشهيدُ هو الذي يَكتُبُ حسناتِهِ. وقيلَ: السائقُ، هو النارُ التي تأتي، تَسوقُ الكَفَرَةَ إلى المَحشَرِ، والشهيدُ، هو عَمَلُهُ الذي عَمِلَ في الدنيا، وقيلَ: السائقُ الكاتبُ والشهيدُ جوارِحُهُ لِقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ الآيةَ [النور: ٢٤].

وأصلُهُ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [الزمر: ٧١]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ [الزمر: ٧٣] ذَكَرَ السَّوْقَ في الفريقَينِ، وذَكَرَ في الكَفَرةِ ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقالَ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ١٩].

فالسائقُ، وهو مَلَكٌ يَسوقُ إلى ما أُمِرَ مِنَ الجنةِ أو النارِ، والشهيدُ، هُمُ الملائكةُ الذينَ يَكتُبونَ علينا[4] الأعمالَ، فَيَشهَدونَ في الآخِرَةِ: إنْ كانَتْ[5] شَرّاً فَشَرٌّ، وإنْ كانَتْ[6] خيراً فَخَيرٌ، واللهُ أعلَمُ بِحقيقةِ ما أرادَ، وإنْ كانَ ما قالوا مُحتَمَلاً[7]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يقولُ: لقد كُنتَ في الدنيا في غَفلَةٍ /٥٢٧ ـ أ/ مِنْ هذا [الذي][8] تُعايِنُ، وتُشاهِدُ، أو في غَفلَةٍ مِمّا أُوعِدتَ مِنَ المواعيدِ والشدائدِ التي عايَنْتَها ﴿فَكَشَفْنَا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ملاقيكم أي يأتيكم. (٣) في الأصل وم: عنده. (٤) من م، في الأصل: لنا. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: فمحتمل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

عنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي كَشَفْنا عنكَ الشُّبَهَ التي تَمْنَعُ وقوعَ العِلْمِ بهِ والتَّجلِّيَ لهُ ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي ثاقبٌ نيِّرٌ يُبْصِرُ الحقَّ كقولِهِ تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وقيلَ: ﴿حَدِيدٌ﴾ مِنَ الحِدَّةِ أي نافذٌ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، فكأنهُ أرادَ، واللهُ أعلَمُ [بقولِهِ تعالى][1]: إنكَ كنتَ في الدنيا جاهلاً عَنْ هذا اليومِ وعَنْ هذهِ الحالِ، والآنَ قد عايَنْتَ ما كُنْتَ عنهُ في غَفْلَةٍ، وأيقَنْتَ بهِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ و٧].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي يقولُ المَلَكُ الذي كانَ عليهِ [رقيباً: إنَّ][2] كلَّ ما عَمِلَ فهو عندي حاضرٌ مِنْ تكذيبٍ وعَمَلِ السُّوءِ. فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ شهادةُ الحَفَظَةِ عليهِ هذا القولَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلك على السؤالِ للملائكةِ عمّا كَتَبوا، وحَفِظوا؛ يقولُ كلُّ مَلَكٍ: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا الذي عَمِلَ هذا عندي حاضرٌ مَحفوظٌ، إذِ الكتابُ الذي كَتَبْتُ فيهِ أعمالَهُ حاضرٌ.

ثم جائزٌ أنَّ الذي يَكْتُبُ الأعمالَ لكلِّ واحدٍ واحدٌ. على هذا حيثُ قالَ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ولم يَقُلْ قريناهُ، وإنْ كانَ قالَ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] على ما ذَكَرْنا أنهما مَلَكانِ. لكنْ يجوزُ أنْ يَتَوَلّى الكتابةَ واحدٌ، والآخَرُ شاهدٌ.

وجائزٌ أنْ يكونا يَكْتُبانِ جميعاً بقولِهِ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١] لكنهُ ذَكَرَ ههنا بِحَرْفِ التوحيدِ، فقالَ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ لِما يقولُ كلُّ واحدٍ منهما ذلكَ على حِدَةٍ، وهو كما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ بقولِهِ تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ الاثْنَيْنِ على ما هو ظاهرُ الصِّيغَةِ: الذي يَسوقُهُ والذي يَشْهَدُ عليهِ حينَ[3] قالَ: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ كانَ الأمْرُ بذلكَ لهما.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالخِطابِ، هو القرينُ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾.

لكنْ قالَ: ﴿أَلْقِيَا﴾ لوجهَيْنِ:

أحَدُهما: ما قيلَ: إنَّ العربَ قد تَذْكُرُ حرفَ التَّثْنِيَةِ على إرادةِ الواحدِ والجماعةِ.

والثاني: ما قالَ بعضُهُمْ: إنَّ المُرادَ مِنْ قولِهِ ﴿أَلْقِيَا﴾ أي أَلْقِ أَلْقِ على التأكيدِ كقولِهِ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] على الوَعيدِ في الذمِّ [وما][4] يُقالُ في المدحِ: بَخٍ بَخٍ، ونَحْوُ ذلكَ على التأكيدِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ كلَّ كفّارٍ لِنِعَمِ اللهِ تعالى حينَ[5] صَرَفَ شكرَها إلى غيرِهِ، أو كلَّ كفّارٍ لتوحيدِ اللهِ وتَسْمِيَةِ غيرِهِ إلهاً.

والعَنيدُ: قالَ بعضُهُمْ: هو الذي بَلَغَ في الخِلافِ غايَتَهُ، والمُخالِفُ أشَدَّ الخِلافِ مِنْ عَنَدَ يَعْنَدُ عُنوداً، فهو عانِدٌ، وعَنيدٌ بِمَعْنَى عانِدٍ. وقيلَ: هو الذي لا يُنْصِفُ مِنْ نفسِهِ.

وقيلَ: هو الذي يُكابِرُ، ويُعانِدُ بَعْدَ ظُهورِ الحقِّ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: مَنّاعٌ عنِ الخيرِ، وهو مَنْعُ غيرِهِ عنِ التوحيدِ وقَبولِ الحقِّ.

والثاني: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي مَنَعَ ما عندَهُ مِنَ الحقوقِ التي وَجَبَتْ في أموالِهِ ونفسِهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أرادَ بهِ الوليدَ بْنَ المُغيرَةِ المَخْزوميَّ. لكنَّ هذا عادةُ كلِّ كافرٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ و٢٠ و٢١] فلا مَعْنَى لِتخصيصِ واحدٍ بهِ.

---

(١) في الأصل: وقوله تعالى، ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: رقيب أي. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾ المُعْتَدي مِنَ الاعْتِداءِ، وهو المُجاوِزُ عن حدودِ اللهِ، والمُريبُ مِنَ الرِّيبةِ، وهي[1] الشَّكُّ والفَسادُ؛ فكانَ المُريبُ، هو الذي فيهِ الشَّكُّ والفَسادُ جميعاً.

الآية ٢٦ ثم نَعتَ ذلكَ الإنسانَ فقالَ: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ أي وَصَفَ، وذَكَرَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] وقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: ١٩] أي قالوا، ووَصَفوا أنهمْ إناثٌ، وإلّا لا يَمْلِكونَ جَعْلَ ذلكَ حقيقةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ وَصَفَ نارَ جهنمَ بالشدةِ لِما أنهُ، لا انْقِطاعَ لها. وكلُّ عذابٍ يُرْجى انْقِطاعُهُ في بعضِ الأزمانِ ففيهِ بعضُ الراحةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ أي قالَ شيطانُهُ الذي أضَلَّهُ، ودَعاهُ إلى ما دَعاهُ، فصارَ قرينَهُ في الآخرةِ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦].

ويَحْتَمِلُ ﴿قَرِينُهُۥ﴾ أي رفيقُهُ الذي كانَ معهُ، يَتْبَعُهُ، ويُصْدِرُ عن رأيِهِ.

ثم هذا القولُ مِنْ قرينِهِ إنما كانَ بَعْدَ أنْ كانَ منهُ مِنَ الكُفرِ والشِّرْكِ عنِ اختيارٍ، وقالَ: هذا الذي أضَلَّني، وأطغاني، وهو الذي حَمَلَني عليهِ كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف: ٣٨] فيقولُ رفيقُهُ: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ وكانَتِ الكَفَرةُ لِحَيرتِهِمْ وقِلَّةِ حيلَتِهِمْ أحياناً يُنْكِرونَ الشِّرْكَ كقولِهِمْ[2]: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾[3] [المجادلة: ١٨].

وأحياناً يقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وأحياناً يَلْعَنُ[4] بعضُهُمْ بعضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ أي ما قَهَرْتُهُ على الضلالِ، ولا لي قوةُ ذلكَ، ولكنِ اتَّبَعَني على ما كنتُ أنا فيهِ، وأطاعَني مِنْ غيرِ أنْ يكونَ مني إكراهٌ وإجبارٌ على ذلكَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ لا يُرْجى [منه][5] الرجوعُ ولا الانْقِطاعُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ ذلكَ الكافرَ يُكَذِّبُ الحَفَظَةَ بأنهمْ كَتَبوا ما لم يَعْمَلْ، وهُمْ كانوا يكذِبونَ في ذلكَ اليومِ لِخِزْيَتِهِمْ كقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فيقولُ[6] قرينُهُ، وهو الذي يكتُبُ أعمالَهُ: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾.

لكنَّ هذا فاسدٌ، وهذا القولُ مِنَ الشيطانِ، لا مِنَ الملائكةِ الإطغاءُ والإغواءُ؛ إذْ هُمْ لا يَدْعونَ على الملائكةِ الإطغاءَ والإغواءَ. ألا تَرى أنهُ ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾؟ [ق: ٢٨] واختِصامُهُمْ مع الشيطانِ كما أخبَرَ ﷻ في غيرِ آيةٍ[7] مِنَ القرآنِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٧ و٢٨ و٢٩] وقالَ[8] تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

فهذهِ الخُصومةُ بينَهُمْ وبينَ قُرَنائِهِمْ، وهُمُ الشياطينُ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء: ٣٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ خصومَتُهُمْ ما ذَكَرَ ما قالَتِ الأتباعُ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: ثم قال. (٤) هو قوله تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فقال. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) في الأصل وم: وقوله.

جنة السنة

﴿ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وما ذَكَرَ مِنْ لَعْنِ بعضِهِمْ على بعضٍ ومِنْ تبرّي بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ. فقالَ اللهُ تعالى ﷻ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي قَدَّمْتُ إليكُمْ مِنَ الوعيدِ في الدنيا، فما انْقطَعَتْ خُصوماتُكُمْ هذهِ، أي بَيَّنْتُ في الدنيا ما يَلْحَقُ بِمَنْ ضَلَّ بنفسِهِ ومَنْ ضَلَّ بِغَيْرِهِ.

كانَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ يَطْلُبُونَ وجهَ الاعتذارِ بما لا عُذْرَ لهمْ. فلذلكَ يقولُ[1] لهمْ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي أرسَلْتُ إليكُمُ الرسلَ، مَعَهُمُ الكُتُبُ، وفيها الوعيدُ. فلم تَقْبَلُوا ذلكَ كلَّهُ. فإنْ قيلَ: قالَ ههنا: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ /٥٢٧ ـ ب/ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] وبينَ الآيتينِ مُخالَفَةٌ مِنْ حيثُ الظاهرُ. فما وجْهُ التَّوفيقِ بينَهما؟ قيلَ: مِنْ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: ما قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ في أهلِ الكُفْرِ خاصّةً، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ في أهلِ القِبْلَةِ، وهو في المَظالِمِ التي كانَتْ بينَهُمْ في الدنيا.

والثاني: ما قالَ بعضُهُمْ: إنَّ إحدَى الآيتينِ في مَوضعٍ، فَيُؤذَنُ لهمْ بالكلامِ فيهِ حتى يكونَ جميعاً بينَ الآيتينِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٠ و٤١ و ٤٢] فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثالثُ: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ في الدينِ: في ما بينَهُمْ وبينَ ربِّهِمْ [في][2] دفعِ عذابِ اللهِ عن أنفسِهِمْ، وذلكَ لا يَمْلِكونَ، ولا يَنْتفِعونَ بهِ. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ في ما بينَ أنفسِهِمْ في المَظالِمِ والغَراماتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ما يُبَدَّلُ ما اسْتَحَقَّ كلُّ واحدٍ منكُمْ مِنَ العذابِ والثوابِ ما سَبَقَ منّي مِنَ الوَعْدِ والوعيدِ في الدنيا بأنْ أجْعَلَ جزاءَ الكافرِ الجنةَ وجزاءَ المؤمنِ النارَ؛ إذْ قد سَبَقَ منّي وَعْدي وَوَعيدي بأنْ أجْعَلَ الجنةَ مَثْوَى المؤمنينَ والنارَ مَثْوَى الكافرينَ، فلا يُبَدَّلُ ذلكَ الوَعْدُ والوعيدُ.

والثاني: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ يَحْتَمِلُ أنهُ أرادَ بهِ قولَهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣].

والثالثُ: أي لا يُبَدَّلُ اليومَ ما يَسْتوجِبُ بهِ الجنةَ والخُلودَ فيها، وهو الإيمانُ عن غَيْبٍ كما أخبَرَ تعالى، ﷻ ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] فأمّا الإيمانُ بعدَ العِيانِ فلا يَنْفَعُ كما أخبَرَ ﷻ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي في العَقْلِ والحِكْمةِ تعذيبُ مَنْ أتَى بالكُفْرِ والشِّرْكِ، فيكونُ تَرْكُ تعذيبِهِ سَفَهاً.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: على تَحْقيقِ القولِ مِنَ اللهِ تعالى ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وعلى تَحْقيقِ القولِ مِنْ جهنَّمَ والإجابةِ لهُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وذلكَ جائزٌ أنْ يُنْطِقَ اللهُ تعالى جهنَّمَ حتى تُجيبَ لهُ بما ذَكَرَ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ على ما ذَكَرْنا مِنْ شهادةِ الجَوارحِ عليهِمْ والنُّطقِ منها للكلِّ حتى أجابَتِ الجَوارحُ لهمْ لمّا قالوا ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وعلى ذلكَ ما ذَكَرْنا في قولِهِ، جَلَّ، وعلا: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] ونحوُ ذلكَ، ومِثْلُ هذا غيرُ مُسْتنْكَرٍ في العقولِ على تقديرِ أحداثِ الحياةِ منها التي هي شَرْطُ النطقِ عن عِلْمٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يقال. (٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والثاني: على التَّمثيلِ لا على تحقيقِ القولِ: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وعلى تحقيق الإجابة منها، فتقولُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ ولكنَ على التَّمثيلِ لوجهَين:

أحدُهما: أي أنَّ جهنَّم لو كانَتْ بحيثُ تَنطِقُ، وتَسمَعُ، وتَعْلَمُ؛ لو قُلْتَ لها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ يُخبِرُ عن انقِيادِ المَخلوقاتِ لهُ والطاعةِ والإجابةِ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﷻ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠ و . . .] لا يكونُ مِنَ الدنيا حقيقةُ التَّغريرِ قولاً ولا فِعْلاً. ولكنَّ مَعْناهُ أنها بحالٍ مِنَ التَّزيينِ وما فيها مِنَ الشَّهَواتِ لو كانَ لها تَمْييزٌ وعَقْلٌ لَغرَّتْهُم، واللهُ أعلَم.

والثاني: وصفٌ لها بالعِظَمِ والسعةِ، وإخبارٌ عن أنها تَحتَمِلُ المَزيدَ، وإنْ جُمِعَ مِنَ الكَفَرةِ ما لا يُحصَى على التَّمثيلِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وكذلك قولُهُ، جلَّ، وعلا: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وصفٌ لها بالتَّزيُّنِ والحُسْنِ الظاهرِ ما [لو][1] لم يَتأمَّلِ الناظرُ فيها العاقبة لاغْترَّ بها من حُسْنِها وزينتِها. فعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ يُخرَّجُ على وجهَين:

أحدُهما: هل بَقِيَ مِن أحدٍ يُزادُ فيَّ؟ فإني قدِ امتلأتُ، وليسَ فيَّ سَعَةٌ تَحتَمِلُ غيرَهُ[2].

والثاني: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ هل فيَّ سَعَةٌ عظيمةٌ؟ فهلْ مِن زيادةِ خَلْقٍ أَمْتَلِئُ بها، لأنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ أنْ يَملأَ جَهنَّمَ بقولِهِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] فتَسألُ المَزيدَ مِن ربِّها لِتُملأَ، واللهُ أعلَمُ بذلك.

وقالَ أهلُ التأويلِ: إنها تَسألُ الزيادةَ حتى يَضَعَ قدمَهُ فيها، فتَضيقَ بأهلِها حتى لا يَبقَى فيها مَدخَلُ رجلٍ واحدٍ، وروَوا[3] خبَراً عن أبي هُرَيرةَ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ في ذلكَ.

وإنهُ فاسدٌ، وقولٌ بالتَّشبيهِ، وقد قامتِ الدلائلُ العقليةُ على إبطالِ التَّشبيهِ، فكلُّ خبَرٍ وَرَدَ مُخالفاً للدلائلِ العقليةِ يَجبُ ردُّهُ لأنهُ[4] مخالفٌ لِنصِّ التَّنزيلِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثم هذا القولُ على قولِ المُشبِّهةِ على ما توَهَّموا مُخالفٌ لِلكتابِ لأنَّ اللهَ ﷻ قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وعندَهُم لا تَمتلِئُ بهِمْ ما لم يَضَعِ الرحمنُ قدمَهُ فيها.

ثم ذَكَرَ البَلْخِيُّ أنَّ مَدارَ ما ذَكَروا مِنَ الحديثِ على حَمّادِ بْنِ سَلَمَةَ، وكانَ خَرِفاً مُفَنَّداً في ذلكَ الوقتِ، لم يَجُزْ أنْ يُؤخَذَ منهُ معَ ما رُوِيَ في خبَرِ أنسٍ ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قال: «يأتي اللهُ بِبَشَرٍ، فيَضَعُ في النارِ حتى تَمتلِئَ» فهذا يُحتمَلُ إلّا ما رَوَوا، واللهُ المُوفِّقُ.

الآية ٣١ وقالَ[5] تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قُرِّبَتْ. وذكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] ذَكَرَ ههنا تقريبَ الجنةِ إلى أهلِها، وذكَرَ ثَمَّ سَوقَ أهلِ الجنةِ إليها، فبَينَ الآيتَينِ مُخالفةٌ مِن حيثُ الظاهرُ. ولكنْ يَحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما: أنَّ أهلَ الجنةِ إذا قُرِّبوا منها بالسوقِ إليها قُرِّبَتْ هي إليهِمْ لأنَّ أحدَ الشَّيئينِ إذا قُرِّبَ إلى الآخرِ قَرُبَ الآخرُ منهُ، ويَزولُ البُعْدُ بزَوالِ المَسافةِ، وذلكَ معروفٌ.

والثاني[6]: أنْ يكونَ إخباراً عن وَصْفِ الجنةِ أنها بحالٍ تُقرَّبُ إلى أهلِها، وتُزلَفُ.

ذُكِرَ في الجنةِ التَّقريبُ وفي النارِ البُروزُ والظُّهورُ بقولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]. فهو، واللهُ أعلَمُ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غيرها. (٣) في الأصل وم: وروي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) في الأصل وم: ويحتمل.

لأنّ(1) أهلَ النارِ كانوا يَجحدونَ النارَ، ويُنكِرونها ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ لِيَرَوها، ويَطّلِعوا عليها، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦].

فأمّا أهلُ التوحيدِ فإنهمْ كانوا يُقِرّونَ بالجنةِ، ولكنْ لا يَرونَ أنفسَهُمْ مِنْ أهلِها لِما بَدا(2) منهمْ مِنَ الخطايا. والزّلاتِ، ويَرونَها بَعيدةً مِنْ أنفسِهِمْ. فَذَكَرَ اللهُ تعالى التّقريبَ لهمْ، ووَعَدَهُمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها:](3) أي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منهمْ بل بحيثُ يَرَونَها وقتَ وقوفِهِمْ في القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منهمْ في الدنيا، أي يأتونَها(4)، ويكونونَ مِنْ أهلِها عنْ قريبٍ لأنَّ كلَّ آتٍ فكأنْ قد أتى، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ(5): أي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منهمْ في الجنةِ إذا دَخلوها: الثمارُ(6) والفواكِهُ، بل قريبٌ منهمْ، يَتناولونَ كيفَ شاؤوا واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ الأوّابُ الرَّجاعُ، مِنَ الأوبةِ، وهي الرُّجوعُ. فَمَعْناهُ: لكلِّ رَجّاعٍ إلى اللهِ تعالى في كلِّ وقتٍ، أو رَجّاعٍ إلى أمْرِهِ وطاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَفِيظٍ﴾ أي يَحْفَظُ نفسَهُ عنِ المعاصي والزّلاتِ سِرّاً وعَلانِيَةً، والحافظُ لِحُدودِهِ في أوامِرِهِ ونَواهيهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾/٥٢٨ ـ أ/ [آل عمران: ١٣٣ و. . .] وقولِهِ(7): ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥ و. . .] إذِ التّقْوى، هو الإئتِمارُ بِما أمَرَ والإمتِناعُ عمّا نَهى، وحَظَرَ، والإحسانُ هو العملُ بجميعِ ما يَحْسُنُ في العقولِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي خافَهُ، وحَذِرَهُ مِمّا أوعَدَ، ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي قَبْلَ أنْ يَرِدَ على ظاهِرِ ما ذُكِرَ.

والثاني: أي مَنْ خَشِيَ الرحمنَ في الدنيا التي هي حالُ غَيبِ الدلائلِ بالمَواعيدِ التي أُوعِدَها، وحَذِرَ منها قَبْلَ أنْ يُعايِنَها، إذْ هو لم يَرَ ذلكَ العذابَ، فَيُصَدِّقُهُ في ما أوعَدَ، وخافَهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي عقوبتَهُ ونِقْمَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ والمُنيبُ، هو المُقبِلُ على اللهِ تعالى بجميعِ أوامِرِهِ ونواهيهِ المُطيعُ لهُ في ذلكَ كلِّهِ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:](8) كأنهُ على الإضمارِ، أي يُقالُ لهمْ: ادْخُلوها بسلامِ الملائكةِ أي تُسلِّمُ الملائكةُ عليهمْ وقتَ دخولِهِمُ الجنةَ كقولِهِ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

والثاني: السلامُ، هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى: فَيُقالُ لهمْ: ادْخُلوها باسمِ اللهِ على ما هو الأصلُ في كلِّ خَبَرٍ أنهُ يُبْتَدَأُ باسْمِ اللهِ تعالى امْتِثالاً لحديثِ رسولِ اللهِ ﷺ «كلُّ أمْرٍ ذي بالٍ، لم يُبْدَأْ باسْمِ اللهِ فهو أبْتَرُ» [الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٩٠٢].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي سالِمِينَ مِنَ الخوفِ والحُزنِ، لا آفةَ تُصيبُكُمْ فيها، وهو كقولِهِ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦] مِنَ الخوفِ والحُزنِ.

ويَحتَمِلُ: أي ادْخُلوها، ولا كُلْفَةَ عليكُمْ [كما](9) في الدنيا، ولا أمْرَ، ولا مِحْنَةَ، سِوى الثّناءِ على اللهِ تعالى والحَمْدِ لهُ

---

(1) في الأصل وم: أن. (2) في الأصل وم: بدوت. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) من م، في الأصل: يأتوننا. (5) في الأصل وم: ويحتمل. (6) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (7) في الأصل وم: و. (8) ساقطة من الأصل وم. (9) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ونَسليم بعضِكُمْ على بعضٍ، بل تَسقُطُ عنكُمْ جميعُ المِحَنِ والأوامِرِ التي عليكُمْ في الدنيا؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَنهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وكأنهُ لا شيءَ [مِنَ][1] الذي في الدنيا على أهلِ الإيمانِ إلا[2] الثناءُ على اللهِ تعالى وتَسليمُ بعضِكُمْ على بعضٍ. فَلِذلكَ أُبقِيَ ذلكَ في الجنةِ، وأُسقِطَ ما وراءَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ يَحتَمِلُ أي ذلكَ يومُ الخلودِ لأهلِ الجنةِ بالسرورِ والراحةِ ولأهلِ النارِ بالعقوبةِ والعذابِ. ويَحتَمِلُ أي يومٌ لا انْقِطاعَ لذلكَ الذي وُعِدُوا في الجنةِ، اللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي لهمْ ما يَختارونَ فيها، لا يُجبَرون، ولا يُكرَهونَ فيها على شيءٍ، إذِ المَشيئةُ، هي صفةُ كلِّ فاعلٍ مُختارٍ، وإنْ كانتِ المَشيئةُ مَشيئةَ التَّمنّي والتَّشهّي. فكأنهُ قالَ: لهمْ ما يَتَمنَّونَ، ويَتخيَّرونَ، لِقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] وقولِهِ ﷻ: [﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١]][3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ تأتيهِمْ سَحابةٌ، فَتُمطِرُهُمْ كلَّ ما يَشاؤونَ، وذلكَ هو المزيدُ لهمْ في الجنةِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ تَنبُتُ لهمْ في الجنةِ شجرةٌ، فَتَقطُرُ لهمْ كلَّ ما يَشاؤونَ، فذلكَ هو المزيدُ.

لكنْ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: النظرُ إلى رُؤيةِ الربِّ، جَلَّ، وعَلا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قيلَ: الزيادةُ هي رُؤيةُ اللهِ تعالى في الجنةِ.

والثاني[4]: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ مِنْ نعيمِها ما لا يَبلُغُ تَمنّيهِمْ وشَهَواتِهِمْ كقولِهِ ﷺ في صفةِ نعيمِ الجنةِ: «ما لا عَينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَرٍ» [البخاري ٣٢٤٤] لأنَّ الأمانيَّ والشَّهَواتِ إنما تكونُ لِما سَبَقَ لِجِنسِهِ مِنَ الذي تَقَعُ عليهِ الرؤيةُ والنظرُ أوِ الخَبَرُ. فأمّا ما لا مَعرِفةَ لهُ فلا يُتَمنّى، ولا يُشتَهى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ لم يَملِكوا دَفْعَ ذلكَ عنْ أنفسِهِمْ ولا الانْتِصارَ على ذلكَ، فكيفَ يَملِكُ قومُكَ دَفْعَ ما يَنزِلُ بهِمْ لو أصَرّوا على التكذيبِ؟

والثاني: يقولُ: قد أهلَكَ الذينَ كانوا قَبلَ قومِكَ: الذينَ كَذَّبوا رسلَهُمْ، أُهلِكوا إهلاكَ عُقوبةٍ وتَعذيبٍ، والذينَ صَدَّقوا أُهلِكوا بآجالِهِمْ لا إهلاكَ عُقوبةٍ.

وقد كانوا جميعاً المُصدِّقينَ والمُكذِّبينَ سَواءً في هذهِ الدنيا. وفي الحِكمةِ التفريقُ بَينَهُمْ[5]. دَلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرى يُفرِّقُ بَينَهُمْ[6]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي صاروا في البلادِ، هل مِنْ مَفَرٍّ؟

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي طافوا، وتَباعَدوا ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي هل يَجِدونَ مِنَ الموتِ مَحيصاً أي مَفَرّاً؟

ويَحتَمِلُ أي تَقلَّبوا في البلادِ في تجاراتِهِمْ [فلم يَجِدوا][7] مَلجأً يَرُدُّ بهِ هلاكَهُمْ؛ يُوعِدُ بما ذَكَرَ أهلَ مكةَ أنهمْ لَمْ يَجِدوا مَحيصاً، فكيفَ تَجِدونَ أنتمْ؟

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي عِظةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. (٤) في الأصل وم: ويشبه.
(٥) و(٦) في الأصل وم: بينهما. (٧) في الأصل وم: فلا يجدون.

والثاني: [إنّ][1] في ما ذُكِرَ مِنْ إهلاكِ الأُمَمِ الخاليةِ وذهابِ آثارِهِمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ لَذِكْرى لِمَنْ ذَكَرَ.

والثالثُ: إنّ[2] في ما ذَكَرْنا[3] مِنِ اسْتِواءِ المُحْسِنِ والمُفْسِدِ في هذهِ [الدنيا][4] والصالِحِ والطالِحِ ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أنَّ هنالكَ داراً يُمَيَّزُ فيها بينَهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يَنْتَفِعُ بهِ في التأمُّلِ والنَّظَرِ، وإنما كَنّى بالقَلْبِ عنِ العقلِ، لأنَّ الناسَ اخْتَلَفوا [قال بعضُهُمْ:][5] إنَّ القَلْبَ مَحَلُّ العقلِ، وقالَ بعضُهُمْ: مَحَلُّهُ الرأسُ، لكنَّ نورَهُ[6] يَصِلُ إلى القَلْبِ، فَيُبْصِرُ القَلْبُ الأشياءَ الغائبةَ بِواسطةِ العقلِ، فلذلكَ كَنّى بالقَلْبِ عنِ العقلِ لِمُجاوَرةٍ بينَهما، وهو شائعٌ في اللغةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي يَسْتَمِعُ، وهو شاهدٌ سَمْعَهُ وقلبَهُ.

وأصْلُهُ أنَّ القَلْبَ جُعِلَ لِلْوَعْيِ والحِفْظِ بَعدَ الإدراكِ والإصابةِ.

ثم أصلُ ما يَقَعُ بهِ العلمُ والفهمُ شيئانِ:

[أحدُهما][7]: التأمُّلُ والنظرُ في المحسوسِ.

والثاني: أنْ يُلْقَى إليهِ الخبرُ، وهو يَسْتَمِعُ لهُ؛ فكأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يَطْلُبُ الرُّشْدَ والصَّوابَ، ويَنْظُرُ، ويَعِي، ويَحْفَظُ.

[ويَحْتَمِلُ][8]: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي يَسْتَمِعُ لِما[9] أُلْقِيَ عليهِ، وهو شاهدُ السمعِ والقلبِ، فتكونُ الذكرى لِمَنِ اخْتَصَّ بهذينِ أو انْتَفَعَ به هذانِ الصِّنْفانِ بالتأمُّلِ، فَيَرى بالعقلِ مَحاسِنَ الأشياءِ ومَساوِئَها، أو يَسْتَمِعُ حقيقةَ ذلكَ بالسمعِ، فَيَتَذَكَّرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ قد ذَكَرْنا فيما تَقَدَّمَ تأويلَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ في سِتَّةِ أيامٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي مِنْ إعياءٍ وتَعَبٍ ونَصَبٍ. وفيهِ نَقْضُ قولِ اليهودِ، لَعَنَهُمُ اللهُ: [في الاِسْتِراحةِ][10] ونَفْيُ. فَهمِ[11] المُشَبِّهَةِ في قولِهِ[12]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...] وتَبَيُّنُ المُرادِ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أمّا نَقْضُ قولِ اليهودِ. لَعَنَهُمُ اللهُ. فإنهم يقولونَ: خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ، ثم اسْتَراحَ في يومِ السبتِ، وهُمْ يَتْرُكونَ العَمَلَ يومَ السبتِ لهذا. فاللهُ ﷻ أخْبَرَ أنهُ لم يَمْسَسْهُ بِخلقِ ما ذَكَرَ إعياءٌ ولا لُغُوبٌ على ما زَعَمَتِ اليهودُ، لعنَهُمُ اللهُ، فيكونُ رداً لِقولِهِمْ صَريحاً.

وأمّا نَفْيُ فَهمِ[13] المُشَبِّهَةِ فإنهم تَوَهَّموا أنَّ قولَهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على إثْرِ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما في آيةٍ أُخرى / ٥٢٨ ـ ب/ أنَّ ذلكَ للراحةِ، فَشَبَّهوا اللهَ تعالى بالخَلْقِ: أنهمْ إذا فَرَغوا مِنْ أعمالٍ عَمِلوها، ثم اسْتَوَوا على شيءٍ، إنما يَسْتَوونَ للراحةِ، فقالوا بالاِسْتِواءِ على العَرْشِ حَقيقةً.

فاللهُ تعالى نَفَى التَّعَبَ عنْ نفسِهِ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ على أنَّ اسْتِواءَهُ ليسَ للراحةِ حتى يُرادَ بهِ الاِسْتِقرارُ كما في الشاهدِ بَينَ الخَلْقِ، وبَيَّنَ تَعاليَهُ وبراءَتَهُ عما تَوَهَّمَتِ المُشَبِّهَةُ، وشَبَّهوهُ بالخَلْقِ.

ويَتَبَيَّنُ بِذِكْرِ الاِسْتِواءِ على العَرْشِ بَعْدَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ أنَّ[14] المُرادَ منهُ التَّمامُ، أي تَمَّ مُلْكُهُ بَعْدَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ بِخَلْقِ العرشِ، ويُذْكَرُ الاِسْتِواءُ، ويُرادُ بِهِ التَّمامُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ذكروا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: قالوا، في م: بعضهم قالوا. (٦) الهاء ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بما. (١٠) في الأصل وم: مراحاً. (١١) في الأصل وم: انفهام. (١٢) في الأصل وم: قولهم. (١٣) في الأصل وم: إيهام. (١٤) أدرج قبلها في الأصل وم: على.

جنة السنة

قالَ أبو عوسَجَةَ: اللُّغوبُ الإعياءُ، يُقالُ: لَغِبَ يَلْغَبُ لُغوباً، فهو لاغِبٌ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ خَلْقَ اللهِ تعالى الأشياءَ لا لِمَنْفَعةٍ لهُ أو حاجةٍ تَقَعُ لهُ ولا بالآلاتِ والأسبابِ التي بها يَقَعُ التَّعَبُ والإعياءُ في الشاهِدِ؛ إذِ الإعياءُ إنما يَلْحَقُ مَنْ فِعْلُهُ الحركةُ والإنتِقالُ والسُّكونُ.

فأمّا اللهُ تعالى إنما يَخْلُقُ الأشياءَ بقولِهِ: ﴿كُن﴾ ولا يَلْحَقُهُ شيءٌ من ذلكَ. وهو قادرٌ بذاتِهِ فاعلٌ لا بآلةٍ وسَبَبٍ، فأنّى يَقَعُ لهُ الإعياءُ والتَّعَبُ؟ تعالى اللهُ عمّا يقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصْبِرْ على ما يقولونَ فيكَ: إنكَ ساحرٌ وشاعِرٌ ومجنونٌ ونَحْوَهُ؛ فأمَرَهُ بالصَّبْرِ على ذلكَ وألّا يَدْعُوَ عليهِمْ بالهلاكِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ في اللهِ مِنَ مَعاني الخَلْقِ، ولا تُحارِبْهُمْ، ولا تُقاتِلْهُمْ، ولا تَدْعُ عليهِمْ بالهلاكِ. ولكنِ اصْبِرْ فإنَّ اللهَ تعالى يَنْتَقِمُ لكَ.

وإنما أمَرَهُ بالصَّبْرِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ سريعَ الغضبِ للهِ تعالى بِما عايَنَ مِنَ المَناكيرِ، وسَمِعَ، وكذلكَ جميعُ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ لِذلكَ أمَرَهُ بالصَّبْرِ على ما يقولونَ في اللهِ أو فيهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قيلَ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي بالثناءِ على ربِّكَ أي أثْنِ عليهِ بما هو أهلُهُ وما يَليقُ بهِ.

وأهلُ التأويلِ يُفَسِّرونَ التَّسْبيحَ في هذا الموضِعِ وفي غَيرِهِ مِنَ المَواضِعِ بالصلاةِ؛ فَمَعْنى قولِهِ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صَلِّ بأمْرِ ربِّكَ. وإنما صَرَفوا التَّسْبيحَ إلى الصلاةِ لأنَّ الصلاةَ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها وَصْفُ الرَّبِّ تعالى بالتَّعظيمِ والتَّنْزيهِ والبَراءةِ مِن كلِّ عيبٍ قولاً وفِعْلاً، ولأنهُ لمّا [قامَ المرءُ][(١)] إلى الصلاةِ فقد فارقَ جميعَ الخَلائِقِ بما هُمْ فيهِ، وكذلكَ إذا جَثا[(٢)] للرُّكوعِ والسُّجودِ فقد[(٣)] فارقَ جميعَ الخلائقِ في ما هُمْ فيهِ مِنَ الأمورِ، واعتَزَلَهُمْ، واشْتَغَلَ بِمُناجاةِ ربِّهِ، جَلَّ، وعلا، فجائزٌ أنْ تكونَ تَسْمِيَتُهُمُ التَّسْبيحَ صلاةً لِهذا.

ويَحْتَمِلُ أنْ سَمَّوهُ صلاةً لِما أنَّ في الصلاةِ تَسْبيحاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قَبْلَ صلاةِ الفَجْرِ وقَبْلَ غُروبِها. وقالَ بعضُهُمْ: صلاةُ العَصْرِ. وقالَ بعضُهُمْ: صلاةُ العَصْرِ والظُّهْرِ لأنهما جميعاً قَبْلَ غُروبِ الشمسِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: [﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قولُهُ][(٤)]: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هما رَكْعتانِ بَعْدَ المَغْرِبِ، وجائزٌ مُحتَمَلٌ أنْ يكونَ ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ما ذُكِرَ في آيةٍ أخرى حينَ[(٥)] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

وتَفَيُّؤُ الظلالِ إنما يكونُ بالنهارِ، وهو تَسْبيحُ الظِّلالِ؛ فَمَعْناهُ: وسَبِّحْهُ وقتَ أدبارِ سُجودِ تلكَ الظِّلالِ.

والذي أخْبَرَ أنهُ يَتَفَيَّؤُ [قالَ:][(٦)] إنَّ تَفَيُّؤَهُ، هو تَسْبيحُهُ، وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] وإدبارُ النجومِ، هو ذهابُ النجومِ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ إي سَبِّحْهُ بَعْدَ ذَهابِ سُجودِ الظِّلالِ. فذلكَ إنما يكونُ بَعْدَ ذهابِ الشمسِ وغَيبوبَتِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ كأنَّ هذا صِلَةُ قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وانْتَظِرْ يومَ يُنادي المُنادي، ولا تُكافِئْهُمْ، ولا تَنْتَقِمْ منهم، ولكنِ اصْبِرْ، وانْتَظِرْ ذلكَ اليومَ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: جثنا. (٣) في الأصل: و، ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] أي يوم يَدْعوهُمُ الداعي إلى شيءٍ، أنكروهُ.

والثاني: ما ذَكَرَ مِنْ نِداءِ بَعْضٍ لِبَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ الآية [الأعراف: ٤٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] يقولُ ﷺ انْتَظِرْ يومَ يُنادَونَ، ويُدْعَونَ إلى ما أنكَروا، ويومَ يُنادي بعضُهُمْ بَعْضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي مِنْ مكانٍ يَسْمَعونَ ما يُنادَونَ، ويُدْعَونَ، ويَعْرِفونَ ما يُرادُ بالدعاءِ، ومَنْ يُرادُ بِهِ: يَنْتَهي ذلكَ الدعاءُ والنداءُ إلى كلٍّ في نفسِهِ حتى يَعْرِفَهُ.

وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ المُنادِيَ، هو جبريلُ ﷺ يُنادي عندَ بَيتِ المَقْدِسِ بِنداءٍ يَسْمَعُهُ كلُّ أحدٍ، وبيتُ المَقْدِسِ أرْفَعُ مكانٍ في الأرضِ، وهو يَقْرُبُ مِنَ السماءِ بكذا كذا ذِراعاً، فهو المكانُ القريبُ.

ولكنَّ هذا لا مَعْنى لهُ، فإنَّهُ يَسْمَعُ صوتَهُ جميعُ الخلائقِ، وإنْ لم يُقِمْ في ذلكَ المكانِ. وليسَ المُرادُ مِنَ القُرْبِ ما ذَكَرَهُ، ولكنْ على الأسماعِ في أيِّ مَوضعٍ كانوا، ومَنْ يَسْمَعْ شيئاً فذلكَ منهُ قريبٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ الصَّيحةُ النَّفْخةُ أوِ النِّداءُ الذي ذَكَرَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي يَسْتَمعونَ الصَّيحةَ بما أوعَدَهُمُ الرسُلُ مِنَ المَواعيدِ، فَيَتَحَقَّقُ لهمْ ذلكَ في ذلكَ اليومِ.

والثاني[1]: يَحْتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بِتَحقُّقِ ذلكَ اليومِ، لأنَّ الرسلَ ﷺ قد أخْبَروهُمْ بذلكَ اليومِ، وهُمْ أنْكَروهُ، أو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لِبَعْضِهِمْ على بَعضٍ، أي يَسْتَوفي بعضٌ مِنْ بعضٍ ما لهمْ مِنَ الحَقِّ في ذلكَ اليومِ إذْ[2] أُمِروا بأداءِ الحقوقِ في ذلكَ اليومِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ قيلَ: يومُ الخروجِ مِنْ قبورِهِمْ، وقيلَ: ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ والبروزِ إلى اللهِ تعالى.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي نُحْيِي المَوتى، ونُميتُ الأحياءَ، أي نحنُ نَمْلِكُ ذلكَ، لا يَمْلِكُ أحدٌ ذلكَ غَيرُنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ خَصَّ ذلكَ اليومَ بالمَصيرِ إليهِ، وإنْ كانوا في الأوقاتِ كلِّها صائرينَ إليهِ بِما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ في غَيرِ مَوضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ السِّراعِ، هو صفةُ تَشقُّقِ الأرضِ؛ كأنهُ يقولُ: يوم تَشَقَّقُ سِراعاً لا تَنْتَظِرُ طَرْفَةَ عينٍ، ولكنْ تَتَشَقَّقُ أسْرَعَ مِنْ لَمْحَةِ البَصَرِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ وَصْفَ سُرْعَةِ خُروجِهِمْ مِنَ الأرضِ؛ يقولُ: يومَ يُسْرِعونَ بالخروجِ مِنَ الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وغَيرُ الحَشْرِ يَسيرٌ على اللهِ تعالى أيضاً؛ ليسَ شيءٌ أيْسَرَ عليهِ مِنْ شيءٍ، لكنْ خَصَّ ذلكَ بالذِّكْرِ، لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ اسْتَبْعَدوا ذلكَ اليومَ، واسْتَعْظَموا كونَهُ، فَخَصَّ ذلكَ اليومَ باليُسْرِ لهذا؛ إذْ وجودُ الأشياءِ كلِّها بالتكوينِ الأزَليِّ، وعَبَّرَ عنْ ذلكَ بِحَرْفِ ﴿كُن﴾ لِمَعْرِفَةِ العِبادِ لا أنَّ التكوينَ الذي بهِ وجودُ المُكَوَّناتِ مِمّا يُوصَفُ بالحَرْفِ.

وذلكَ يَسْتَوي ابْتِداءُ الخَلْقِ وإعادتُهُ والحَشْرُ وكلُّ شيءٍ، ولا قوةَ إلّا باللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] واللهُ الموفِّقُ.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: و.

جنة السنة

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ / ٥٢٩ ـ أ/ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ يقول، واللهُ أعلمُ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فَنُكافِئُهُمْ. أو يقولُ: عنْ عِلْمٍ بذلكَ نَتْرُكُهُمْ على ذلكَ، ونُمْهِلُهُمْ؛ يُصَبِّرُ رسولَهُ ﷺ على ذلكَ لِيَتَسَلّى بِهِ بعضَ ما يُحْزِنُ قلبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنَ الجَبْرِ والقَهْرِ، أي ما أنتَ بقاهرٍ عليهِمْ وجَبّارٍ، تُجْبِرُهُمْ على التوحيدِ.

وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ التَّجَبُّرِ والتَّكَبُّرِ، والجبّارُ، هو الذي يَقْتُلُ بلا ذَنْبٍ ولا حَقٍّ.

وقيلَ: أي وما أنتَ بِمُسَلَّطٍ عليهِمْ، وهو كقولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام: ١٠٧] أي مُسَلَّطاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ، فَعَلَيْكَ التَّبْليغُ، وأنا المُجازي لهمْ والمُكافِئُ بما يَفْعَلونَ.

ثم لم يَخُصَّ بالتّذكيرِ مَنْ يَخافُ الوَعيدَ، لكنْ أمَرَ بتَذكيرِ الكلِّ لأنّ[1] مَنْفَعةَ الذِّكْرى تكونُ لِمَنْ يخافُ الوَعيدَ، لا لِمَنْ لا يَخافُ الوَعيدَ. فَلِذلكَ خَصَّهُ بالذِّكْرِ، لكنَّ التَّخصيصَ بالذِّكْرِ لا يكونَ تَخصيصاً بالحُكْمِ ونَفْياً عن غَيْرِهِ.

فَيَبْطُلُ بهذا مَذْهَبُ مَنِ ادَّعَى ذلكَ. واللهُ أعلَمُ بِما أرادَ [واللهُ الموفِّقُ][2].

(١) في الأصل وم: لا أن. (٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

سورة الذاريات

مكية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ ـ ٤ قولُهُ تعالى: ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ سُئِلَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ عنْ هذهِ الآيةِ، فقالَ: ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ﴾ هي الرياحُ ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ هو[2] السَّحابُ ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ هنَّ السُّفُنُ ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ هي الملائكةُ.

وعلى هذا خُرِّجَ تأويلُ عامّةِ أهلِ التأويلِ إلّا ابْنَ مَسْعودٍ ﷺ فإنَهُ قالَ: ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ هي الملائكةُ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ تُصْرَفَ هذهِ الأحرفُ كلُّها مِنَ الذّارياتِ وغَيرِها إلى الرياحِ خاصّةً؛ فالذّارياتُ هنَّ يَذْرُونَ الأشياءَ ﴿ذَرْوًا﴾ ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ هنَّ يَحْمِلْنَ السحابَ وغَيرَها في الآفاقِ.

وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ كلُّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ إلى نوعٍ وجِنْسٍ على ما حَمَلَهُ أهلُ التأويلِ، وصَرَفَهُ إليهِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ذَرَتِ الريحُ، تَذْرو ذَرْواً، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥] ومنهُ ذَرَّيْتُ البُرَّ، لأنّ التَّذْرِيَةَ لا تكونُ إلّا بالريحِ، و: تَذَرَّيْتُ أي أشْرَفْتُ مِنَ الذُّرْوَةِ، و: ذَرَأَ الرجلُ، يَذْرأُ ذَرْءاً، فهو أذْرأُ، أي أشْمَطُ، وشاةٌ ذَرْآءُ إذا كانَ في ذَنَبِها بَياضٌ ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ أي سَهْلاً، أي تَجْري السُّفُنُ في المِياهِ جَرْياً سَهْلاً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي هَيِّناً.

ثم ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ همُ الملائكةُ. واخْتَلَفوا في التَّقْسيمِ: قالَ بعضُهُمْ: أربعةُ أملاكٍ يُقَسِّمونَ الأمورَ: فَجِبْريلُ ﷺ يَنْزِلُ في إنزالِ العذابِ والشدائدِ، وميكائيلُ يَنْزِلُ في إنزالِ النِّعْمَةِ والرَّخاءِ، وإسرافيلُ في نَفْخِ الصورِ، ومَلَكُ الموتِ في قَبْضِ الأرواحِ. فكلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاءِ مُوكَّلٌ في أمرٍ على حِدَةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: همُ الملائكةُ الذينَ يَنْزِلونَ بالوحْيِ: يَأخُذُ هذا مِنْ هذا؛ إذْ للهِ تعالى أنْ يُرْسِلَ الوَحْيَ على يَدَي مَنْ يَشاءُ مِنْ ملائكتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في ذِكْرِ هذهِ الأشياءِ مِنَ الرِّياحِ والسُّفُنِ والسَّحابِ والملائكةِ، لماذا؟

قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنما ذَكَرَها على القَسَمِ بها. وقالَ بعضُهُمْ: إنما ذَكَرَها على سَبيلِ تَعْدادِ النِّعَمِ والمَنافِعِ التي جَعَلَها اللهُ تعالى لهمْ، واحْتَجَّ هؤلاءِ، وقالوا: إنّ اللهَ تعالى نَهانا عنِ القَسَمِ بِغَيرِهِ، فيكفَ يُقْسِمُ[3] بِغَيرِهِ؟ فيكونُ ذِكْرُ هذهِ الأشياءِ على الامْتِنانِ لا على القَسَمِ.

والقائلونَ بالقَسَمِ اخْتَلَفوا: فمنهمْ مَنْ يقولُ: القَسَمُ بأعيانِ هذهِ الأشياءِ لِعِظَمِ مَنافعِ الأشياءِ عندَ الخالقِ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنّ القَسَمَ باللهِ تعالى لا بِغَيرِ هذهِ الأشياءِ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: والذي ذَرَأَ الذارياتِ ذَرْواً، والذي خَلَقَ الحامِلاتِ وِقْراً ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ وقولُهُ تعالى: كقولِهِ تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٣] فيكونُ القَسَمُ بِخالقِ هذهِ الأشياءِ لا بأنفسِها، وكلُّ واحدٍ مِنَ الوجهَينِ [مُحْتَمَلٌ][4] لأنّ القَسَمَ خَرَجَ لِرَفْعِ شُبْهَةِ الكَفَرَةِ في

---

(١) أدرج قبلها في م: ذكر أن سورة الذاريات. (٢) في الأصل وم: هي. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

البَعثِ وارْتيابِهِمْ فيهِ بَعدَ ما أقامَ عليهِمْ حُجَجَ البعثِ وبَراهينَهُ على أنهُ كائنٌ لا مَحالةَ [بحيثُ لو تأمَّلوا][١]، ونَظَروا فيها لَزالَ[٢] ذلكَ الارْتيابُ.

والقَسَمُ لِتأكيدِ ما وقَعَ عليهِ بِما يكونُ عندَهمْ لهُ حُرْمةٌ وقَدْرٌ وعظمةٌ، فَيَدُلُّهُمْ ذلكَ على تأكيدِ الخَبَرِ المَقْرونِ بالقَسَمِ. فالقَسَمُ منَ اللهِ تعالى بِأنهُ خالقُ هذهِ الأشياءِ المَذكورةِ ممّا يَجِلُّ، ويَعْظُمُ عندَ الكَفَرةِ لِما كانوا يُقْسِمونَ باللهِ تعالى عندَ عِظَمِ الأمورِ كما أخبَرَ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٣ و...] فَيَصْلُحُ لِتأكيدِ ما وقَعَ عليهِ القَسَمُ.

وكذلكَ القَسَمُ بهذِهِ الأشياءِ يَصْلُحُ مؤكّداً لِعِظَمِ خَطَرِ هذهِ الأشياءِ عندَهمْ لِما تَجِلُّ مَنافِعُ هذهِ الأشياءِ؛ والعُرْفُ في الناسِ أنهمْ إنما يُقْسِمونَ بالذي عَظُمَ خَطَرُهُ، وجَلَّ قَدْرُهُ عندَهُمْ، فأقْسَمَ اللهُ تعالى بهذِهِ الأشياءِ لمّا عَرَفَ عِظَمَ خَطَرِها وجَليلَ قَدْرِها عندَهمْ:

فَمَنافِعُ الرياحِ مما يَكْثُرُ عَدُّها؛ فقد أهلَكَ بها أقواماً، وبها استَأْصَلَهُمْ، وبها تُلَقِّحُ الأشجارُ المُثْمِرةُ وغيرُها، وبها يُساقُ السحابُ في الآفاقِ للأمطارِ، وبها تَجري السفُنُ في البحارِ، وغَيرُها مِنَ المَنافعِ، وبها سَبَبُ حياةِ الحيواناتِ بالنَّفَسِ ودخولُ الريحِ فيهِمْ ونَحْوُها في تَذْرِيَةِ الطعامِ بحيثُ لولاها لَتَحَرَّجَ الناسُ في التَّذْرِيَةِ، وفيها آياتٌ.

فإنَّ الريحَ جسمٌ لطيفٌ [لا][٣] يُرَى، ولا يُدرَكُ، لِيُعلَمَ أنَّ الرُّؤيَةَ لا تُوجِبُ الإحاطةَ والإدراكَ وغَيرَ ذلكَ مِن جهةِ الآياتِ على ما تقدَّمَ.

وكذلكَ أقْسَمَ بالحاملاتِ وِقْراً، وهو[٤] السحابُ الذي فيهِ مَنافعُ الخَلْقِ مِن حَمْلِ الأمطارِ والتَّظليلِ في الحَرِّ ونَحوِ ذلكَ معَ ما فيهِ مِنَ الآياتِ؛ إذْ هو يُمْسِكُها في الهواءِ حتى[٥] لا تَقَعَ بِسَوقِ الرياحِ مَعَ ما فيهِ مِنَ الحِمْلِ والوِقْرِ.

ثم يُرْسِلُ المطرَ حيثُ أمَرَ؛ إذْ قد يُوجَدُ السحابُ، ولا مَطَرَ. دلَّ أنهُ لم يُرْسِلْ بنفسِهِ بل بالأمْرِ يَرْفَعُ، ويُمْسِكُ، ويُرْسِلُ[٦]، /٥٢٩ ـ ب/ وهو في نفسِهِ مُسَخَّرٌ. ولو كانَ عَمَلُهُ بالطبعِ لم يَختَلِفْ باخْتلافِ الأحوالِ.

وفيهِ آياتُ البعثِ؛ إذْ خَلْقُ مِثْلِهِ لا يكونُ إلّا لعاقبةٍ.

وكذلكَ أقْسَمَ بالجارياتِ يُسْراً، وهي السُّفُنُ لِما فيها مِنْ مَنافعِ الخَلْقِ؛ إذْ لولاها لانْقَطَعَتْ بعضُ المَنافعِ عنِ الخَلْقِ؛ إذْ ما يَحتاجُ المَرْءُ مِنَ المَنافعِ لا يوجدُ في مكانٍ واحدٍ، بل خَلَقَها مُتَفَرِّقَةً في أماكنَ؛ فَطريقُ تَحصيلِ هذهِ المَنافعِ والحَوائجِ سِيّانِ: الحَمْلُ على ظهورِ الدوابِّ في البَرِّ، وفي السفُنِ في البحارِ مَعَ ما فيها مِنَ الآيةِ العظيمةِ بما جَعَلَها بحيثُ لا تَتَسَفَّلُ في الماءِ مع ثِقَلِ الأحمالِ، بل تَجري بها الريحُ حيثُ ما شاؤوا بأمرِ اللهِ تعالى. والملائكةُ، منافِعُهُمْ عظيمةٌ ظاهرةٌ، وعِظَمُ قَدْرِهِمْ وجلالةُ خَطَرِهِمْ واضِحٌ.

وإذا كانَ كذلكَ، فكانَ القسمُ بهذِهِ الأشياءِ لِتَأكيدِ الخَبَرِ المُقْسَمِ عليهِ ممّا يُعْقَلُ، وهو مُتَعارَفٌ.

ولا مَعْنَى لقولِ أولئكَ: إنهُ نَهَى عبادَهُ عنِ القَسَمِ بِغَيرِهِ، فكيفَ يُقْسِمُ بنفسِهِ؟ إذْ يجوزُ أنْ يُقْسِمَ هو بشيءٍ، يَنْهانا عنِ القَسَمِ بهِ؛ إذِ القَسَمُ بالشيءِ تَبْجيلُ تلكَ الأشياءِ وتَعظيمُها، وإنها لا تَسْتَحِقُّ التَّعظيمَ بأنفسِها بل باللهِ تعالى، فأمَرَنا بالقَسَمِ باللهِ تعالى؛ إذْ هو المُسْتَحِقُّ لِلتَّعظيمِ بنفسِهِ[٧] في الحَقيقةِ، إذ هو خالقُ الأشياءِ كلِّها.

فأمّا القَسَمُ مِنَ اللهِ تعالى بشيءٍ فليسَ لتعظيمِ ذلكَ في نفسِهِ، بل بَيانٌ منهُ قَدْرَ مَنافِعِهِ التي لِلْخَلْقِ فيهِ التي عَظُمَتْ، وجَلَّتْ عندَهُمْ، فيكونُ لِذِكْرِها خَطَرٌ عندَهُمْ.

ثم ذَكَرَ أفعالَ هذهِ الأشياءِ التي أقْسَمَ بها، ولم يَذْكُرْ أنفسَها، والقَسَمُ إنما يكونُ بالأنفسِ لا بالأفعالِ؛ فإمّا أنْ عَرَفَ أولئكَ الكَفَرةُ أنفسَ هذهِ الأشياءِ بِذِكْرِ أفعالِها وقتَ قَرْعِ ذِكْرِ هذهِ الأفعالِ سَمْعَهُمْ، وإمّا[٨] إذا لم يَعْرِفوا يَسْألونَ عنها وما أُريدَ بها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لزوال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وهي. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: ويرفع. (٧) في الأصل وم: بأنفسها. (٨) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا موضعُ [جوابِ][1] القَسَمِ، أي الجزاءُ لَواقعٌ كائنٌ. وقيلَ: إنَّ المُرادَ مِنَ الدينِ الحِسابُ، أي إنَّ الحِسابَ لَكائنٌ، لا مَحالةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧ و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أقسمَ أيضاً بالسماءِ ذاتِ الحُبُكِ، ومَوضعُ [جوابِ][2] القَسَمِ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [في قولِهِ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾][3] [أنهُ][4] قالَ: حُسْنُها واسْتِواؤها، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي ذاتِ بُنْيانٍ مُتْقَنٍ مُحكَمٍ. وكلا التأويلَينِ يَرْجِعانِ إلى واحدٍ؛ فإنَّ حُسْنَ خَلْقِ السماءِ بالإتقانِ والإحكامِ، يقالُ عنِ الحائكِ إذا أحْسَنَ النَّسْجَ، وأحْكَمَهُ، حَبَكَ الثوبَ.

وقالَ الحَسَنُ: حُبِكَتْ بالنجومِ، وحُبِكَتْ بِحُسْنِ الخُلُقِ. وقالَ بعضُهُمْ: ذاتِ الشِّدَّةِ والاسْتِواءِ؛ يُقالُ: حَبَكْتُ الحَبْلَ إذا شَدَدْتُ فَتْلَهُ. كذلكَ قالَهُ أبو عُبَيْدَةَ، وقالَ القُتَبِيُّ: ذاتِ الحُبُكِ، ذاتِ الطرائقِ، وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ.

ثم هو على ما ذَكَرْنا مِنَ الوجهَينِ: إنَّ القَسَمَ بِعَينِ السماءِ، أو ربِّ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم [قولُهُ ﷻ][5]: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في رسولِ اللهِ ﷺ وفي القرآنِ ما لو كانَ ذلكَ القولُ منكمْ عن عِلْمٍ ومعرفةٍ لم يَخْرُجْ مُخْتَلِفاً مُتَناقِضاً [وهو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنهم][6] قالوا في رسولِ اللهِ ﷺ: إنهُ مجنونٌ، وإنهُ ساحرٌ، وإنهُ شاعرٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، وهذا مُخْتَلِفٌ مُتَناقِضٌ، لأنَّ الساحرَ، هو الذي يَبْلُغُ في معرفةِ الأشياءِ غايَتَها، وكذا الشاعرُ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَبْلُغَ المجنونُ ذلكَ المَبْلَغَ بِحالٍ، فتكونُ نِسْبَتُهُمْ إياهُ إلى هذهِ الجملةِ في حالٍ واحدةٍ تَخْرُجُ على التَّناقُضِ.

وكذلكَ قولُهُمْ في القرآنِ: إنهُ أحاديثُ الأوَّلينَ، وإنهُ مُفْتَرًى، والافْتِراءُ خِلافُ الأساطيرِ معَ أنهمْ عَجِزوا عن إتيانِ مِثْلِهِ، فيكونُ هذا تَناقُضاً مِنَ القولِ.

فَدَلَّ اخْتِلافُهُمْ في القولِ فيهما على أنهمْ قالوا ذلكَ عن جَهْلٍ لا عن عِلْمٍ؛ إذْ لو كانَ [عن عِلْمٍ ذلكَ لكانَ][7] لا يَخْتَلِفُ، ولا يَتَناقَضُ، وهذا الخطابُ على هذا التأويلِ يكونُ لِلْكَفَرَةِ.

والثاني: إنما قالَ ذلكَ في الدلالةِ على البَعْثِ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي في عقولِكُمُ الاخْتِلافُ والافْتِراقُ بينَ المُصْلِحِ والمُفْسِدِ والمُحْسِنِ والمُسيءِ، وقد عَرَفْتُمُ الاسْتِواءَ بينَهما في هذهِ الدنيا. دلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرى، فيها يُفَرَّقُ بينَهما ويُمَيَّزُ. وهذا التأويلُ لا يَخْتَصُّ بهِ الكافرُ، بل يَعُمُّ الكُلَّ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي قولٍ مُتَفَرِّقٍ ومَذْهَبٍ مُتَناقِضٍ؛ فإنهمْ كانوا يَعْبُدونَ أشياءَ على هَواهُمْ؛ فإذا هَوُوا شيئاً آخَرَ تركوا ذلكَ، وعَبَدوا الأخيرَ[8]. وكذلكَ يقولونَ قولاً بلا حُجَّةٍ، ثم يَرْجِعونَ إلى قولٍ آخَرَ، لا ثَباتَ لهمْ على شيءٍ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

والرابعُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي في أمْرِ الآخِرَةِ، لأنَّ منهمْ مَنْ يَدَّعي أنَّ الآخِرَةَ لهمْ، لو كانَتْ، ومنهمْ مَنْ يَدَّعي الشَّرِكَةَ معَ المسلمينَ. فَرَدَّ اللهُ تعالى عليهمْ بقولِهِ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ و٣٦] وقولِهِ[9]: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

والخامسُ: يَحْتَمِلُ أنَّ مواعيدَهُمْ ومنازِلَهُمْ مُخْتَلِفَةٌ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ الناسَ يأتونَ مكةَ مِنَ البُلْدانِ المُخْتَلِفَةِ لِيَتَفَحَّصوا عن أخبارِ رسولِ اللهِ ﷺ ويَسْمَعوا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: لأنهم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: غيره. (٩) في الأصل وم: وقال.

جنة السنة

كلامَهُ، فكانَ كفارُ مكةَ يَصُدُّونَهُم عنهُ، ويقولُ بعضُهُم: إنهُ مجنونٌ، وبعضُهُم كذّابٌ، وبعضُهُم شاعرٌ، وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أي يُصْرَفُ عنِ الحقِّ مَنْ صُرِفَ عنِ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ في العاقبةِ.

والثاني: صُرِفوا عمّا رَجَوا في الآخِرَةِ لمّا صُرِفوا عن الحقِّ في الدنيا، لأنهم كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ عبادَتُها إلى اللهِ تعالى وأنها شُفَعاؤهُم عندَ اللهِ تعالى؛ يقولُ اللهُ تعالى: صُرِفَ مَنْ رَجَا [ذلكَ][1] في الآخِرَةِ لمّا صُرِفَ عنِ الحقِّ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يُصْرَفُ مَنْ طَمِعَ في الآخِرَةِ الشَّرِكَةَ معَ المسلمينَ، وادّعى الخُلوصَ، بِما صُرِفَ في الدنيا عنِ الإيمانِ الذي بهِ يَنالُ الآخِرَةَ.

والرابعُ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي عنِ الحقِّ ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي صُرِفَ عنِ الحَقِّ مَنْ صُرِفَ لِقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ الآيةَ [التوبة: ١٢٧] وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: الخَرّاصُ الذي يكذِبُ على العَمْدِ.

ولكنْ عندَنا الخَرّاصُ الذي يكذِبُ، ويَقطَعُ على الظَّنِّ، ومنهُ يُقالُ للذي يُقَدِّرُ[2] الشيءَ، ويُفَرِّقُهُ بالظَّنِّ: خَرّاصٌ. فَعلى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾.

ثم قولُهُ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ يَحتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهما:][3] حقيقةُ القَتلِ، وذلكَ يرجِعُ إلى قومٍ خاصٍّ قُتِلوا.

والثاني: ﴿قُتِلَ﴾ أي لُعِنَ، واللَّعْنُ / ٥٣٠ ـ أ/ هو الطَّرْدُ، أي طُرِدوا عنْ رحمةِ اللهِ. وإنما سُمِّيَ اللَّعْنُ قَتْلاً لأنَّ القَتْلَ سَبَبُ التَّبعيدِ عنْ مَنافِعِ الحياةِ. وبالقَتْلِ خَرَجَ عنْ أنْ يكونَ مُنْتَفِعاً بها[4]، واللَّعْنُ هو الطَّرْدُ عنْ رَحْمَةِ اللهِ التي بها[5] تَقَعُ، وتَتَحقَّقُ المنافعُ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكاذبونَ. وكذا قالَ أهلُ الأدبِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ: قال بعضُهُم: أي في غَفْلَةٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أي في غِطاءٍ وغِشاءٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] وقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] أي في غِطاءٍ وغُلُفٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أي في عِمايَةٍ في أمرِ الآخرةِ. ولكنَّ الكلَّ يَرجِعُ إلى معنًى واحِدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَاهُونَ﴾ أي ساهونَ عنِ الحقِّ وعمّا دُعُوا إليه. وقيلَ: ﴿سَاهُونَ﴾ أي غافلونَ. وقيلَ: لا هونَ عنِ التوحيدِ والإيمانِ. وقيلَ: ﴿سَاهُونَ﴾ أي تاركونَ الإيمانَ. وأصلُ السَّهوِ، هو التَّرْكُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تَرَكوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ كانوا[6] يسألونَ عن يومِ القيامةِ سؤالَ اسْتِهزاءٍ وعِنادٍ لا سؤالَ اسْتِرْشادٍ. لذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الآية: ١٣] ولو كانَ سؤالُهُمْ سؤالَ اسْتِرْشادٍ لكانَ لا يأتيهِمْ ذلكَ الوعيدُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقدم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: به. (٥) من م، في الأصل: به. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: الآية.

جنة السنة

ألا ترى أنَّ جبريلَ ﷺ أتى رسولَ اللهِ ﷺ وسألَهُ عن الإيمانِ والإسلامِ في حديثٍ طويلٍ، وسألَهُ عنِ الساعةِ، فلم يأتِهِ الوعيدُ؟ فلا ذمَّ في سؤالِهِ ذلكَ لأنَّ سؤالَهُ سؤالُ استِرشادٍ.

وقومُ موسى ﷺ لمّا سألوا رؤيةَ الربِّ تعالى بقولِهِم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] أُهلِكوا لأنهم سألوا سؤالَ استِهزاءٍ وتَعَنُّتٍ لا سؤالَ استِهزاءٍ.

وأصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ سألوا الرؤيةَ، فبُشِّروا، ووُعِدوا في الآخرةِ لِما أنهمْ سألوا سؤالَ استِرْشادٍ لا سؤالَ استِهزاءٍ.

فعلى ذلكَ أولئكَ الكفرةُ سألوا عنِ القيامةِ سؤالَ استهزاءٍ: متى تكونُ الساعةُ التي تُوعِدنا[1] بها؟ ومتى[2] وقتُ العذابِ الذي تُوعِدُنا[3] بِهِ؟ لذلكَ قالَ جواباً لهم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الآية: ١٣] واللهُ أعلمُ.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الحكمَ لا يُبْنى على ظاهرِ المَخرَجِ؛ فإنهُ لا فَرْقَ بينَ سؤالِ الكفرةِ رسولَ اللهِ ﷺ عن الساعةِ وبينَ سؤالِ جبريلَ ﷺ إياهُ عنِ الساعةِ.

[فالجوابُ لجبريلَ][4] ﷺ «ما المَسْؤولُ بها بأعلمَ منَ السائلِ» [البخاري ٥٠]. ثم الجوابُ للكفرةِ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الآية: ١٣] ثم مَنْ شَهِدَ النوازلَ علمَ المرادَ منَ النازلَتَينِ أنَّ أحدَ السؤالَينِ خرجَ على الاسْتِهزاءِ والآخرَ على الاسْتِرْشادِ. فحملوا أحدَ الجوابَينِ على إحدَى الحالَتَينِ والآخرَ على حالِ الأُخرى.

دلَّ أنَّ الحكمَ لا يُبْنى على ظاهرِ المَخرَجِ. ولكنْ يجبُ النظرُ لِيُعْرَفَ المُرادُ إمّا بسؤالٍ[5] مَنْ شَهِدَ النازلةَ وإمّا[6] مِنْ حيثُ المَعْنى مُودَعٌ[7] فيهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يُخبِرُهمْ عنِ اليومِ الذي يُفْتَنونَ فيهِ، وقيلَ فيه بوجهَينِ:

أحدُهما: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي يُبْتَلونَ، ويُمْتَحَنونَ بالشِّدَّةِ والعذابِ.

والفِتْنةُ، هي المِحنةُ التي فيها الشِّدَّةُ والبلاءُ، فَسمّى العذابَ فِتْنَةً لِما فيهِ مِنَ الشِّدَّةِ.

والثاني[8]: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي يُحرَقونَ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي ذوقوا العذابَ [الذي][9] فيهِ الشِّدَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي تَستعجِلونَ في الدنيا، وتزعُمونَ أنهُ لا يكونُ في الآخِرَةِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ والإشكالُ كيفَ ذَكَرَ أنَّ المُتَّقينَ في جنّاتٍ وعُيونٍ، وهمْ يكونونَ في جَنّاتٍ، ويكونونَ في العُيونِ بِحيثُ يَرَوْنَها، وتَقعُ عليها أبصارُهُمْ، ويَنْتَفِعونَ بها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الدخان: ٥٣] وإنما همْ يَلْبَسونَ السُّنْدُسَ، فأمّا الإسْتَبْرَقُ فهو البُسُطُ وغيرُ ذلكَ مِنَ المُنْتَفَعِ[10] بِهِ. فَعَلى ذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ كَونِ المُتَّقينَ في جنّاتٍ وعُيونٍ؛ يكونونَ في الجنةِ، ويَنْتَفِعونَ بالعيُونِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الذينَ اتَّقَوُا الشِّرْكَ والكُفرَ، ويَحتَمِلُ الذينَ اتَّقَوا مُخالَفَةَ اللهِ على الإطلاقِ قولاً وعَمَلاً واعْتِقاداً، ويَحتَمِلُ الذينَ اتَّقَوُا المَهالِكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي قابِلينَ ما آتاهُمْ ربُّهُمْ في الدنيا مِنَ القدرةِ والقوةِ والمالِ بِحَقِّ اللهِ تعالى والقِيامِ بِشُكْرِهِ والعبادةِ لَهُ والاسْتِعْمالِ في طاعتِهِ. لِذلكَ قالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي قَبِلوا ذلكَ بِحقِّ الإحسانِ، فاسْتَعْمَلوهما في حقِّ اللهِ تعالى والقِيامِ بطاعتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: تعدنا. (٢) في الأصل وم: أين. (٣) في الأصل وم: تعدنا. (٤) في الأصل وم: أجاب جبريل. (٥) في الأصل وم: بالسؤال. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: المودع. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الانتفاع.

جنة السنة

وعلى هذا التأويلِ كأنهُ على التَّقديمِ والتأخيرِ: إنَّ المُتَّقينَ في جنَّاتٍ وعُيونٍ، إنهم كانوا قَبْلَ ذلكَ مُحْسِنينَ، آخذينَ ما آتاهُمْ ربُّهُمْ؛ أي إنما قابَلوا الجنةَ لِما أنهُمْ كانوا في الدنيا كذلكَ.

والثاني: ما قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في الآخِرَةِ، أي راضين بما أعطاهُمُ اللهُ مِنَ النَّعيمِ في الجنةِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُهُمْ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا.

الآيتان ١٧ و١٨ ثم نَعَتَ إحسانَهُمْ، فقالَ ﷻ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ جميعاً: أي يُصَلّونَ، وإنما حَمَلوا [على الصلاةِ][1] لأنَّ الاِسْتِغْفارَ طَلَبُ المَغْفِرَةِ؛ وذلكَ مَرَّةً بالصلاةِ ومَرَّةً باللِّسانِ ومَرَّةً بِدَفْعِ المالِ، ويَحْتَمِلُ حقيقةَ الاِسْتِغْفارِ أيضاً. وإنما مَدَحَهُمْ بذلكَ لأنَّ أرْجَى وَقْتٍ لِلاِسْتِغْفارِ وَقْتُ السَّحرِ لِما رُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ لِنافِعٍ: إذا كانَ وَقْتُ السَّحَرِ فأعْلِمْني بهِ، فكانَ هو يُصَلّي إلى وَقْتِ السَّحَرِ، ثم يَدْعوهُ[2]، ويَسْتَغْفِرُ في ذلكَ الوقتِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيَةَ في الزكاةِ. لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ، لأنَّ السورةَ مكيةٌ، ولم تكُنْ بمكةَ الصدقةُ المَفْروضَةُ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ السورةَ مكيةٌ إلا هذهِ الآياتِ إنْ ثَبَتَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ الحَقُّ ليسَ هو المَفْروضَ، ولكنهُ[3] حقٌّ سِوى الفَرْضِ.

وقيلَ: إنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في قومٍ خاصٍّ جَعَلوا على أنفسِهِمْ ألّا يَرُدُّوا سائلاً ولا مَحْروماً، ولا يَمْنَعوا أموالَهُمْ مِنْ أحدٍ، فَمَدَحَهُمْ بذلكَ. ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ الحَقَّ للسائلِ والمَحْرومِ؟ وقد بَيَّنَ مَصارِفَ الزكاةِ الثمانيةَ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠].

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ المَحْرومِ والسائلِ:

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: المَحْرومُ هو الذي لا سَهْمَ لهُ في الغَنيمةِ والفَيْءِ بألّا يَحْضُرَ وَقْتَ قِسْمَةِ الغَنيمةِ، فلا يَنالَ شيئاً منها، ويُحْرَمَ مِنْ ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: المَحْرومُ الذي هَلَكَ زَرْعُهُ وكَرْمُهُ بِبلاءٍ، أصابَهُ، يُحْرَمُ مِنْ ذلكَ كما وَصَفَهُ في سورةِ الواقعةِ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الآيتين: ٦٦ و٦٧] فلمّا حُرِموا زَرْعَهُمْ وُصِفوا بذلكَ.

وقيلَ: المَحْرومُ الذي لا يَعْلَمُ حِرْفَةً أو[4] كَسْباً، وهو مُحارَفٌ /٥٣٠ ـ ب/ أيضاً. وقيلَ: المَحرومُ المُتَعَفِّفُ الذي بهِ فَقْرٌ، لكنهُ لا يَسْألُ الناسَ شيئاً، والسائلُ الطَّوّافُ.

وعندَنا الفقراءُ ثلاثةٌ: السائلُ الذي يَطوفُ، ويَسْألُ الناسَ، والمُعْتَرُّ الذي يَعْتَرُّ الناسَ، ويُظْهِرُ حاجَتَهُ للناسِ، ويَتَعَرَّضُ للسؤالِ، ولا يَسْألُ صريحاً، والمَحْرومُ هو الذي يَسْتُرُ فَقْرَهُ وحاجَتَهُ عنِ الناسِ، لا يَسْألُهُمْ، ولا يَعْتَرُّ[5] لِذلكَ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ سَمّاهُ مَحْروماً بأنه[6] حُرِمَ المَكاسِبَ وأسبابَ العيشِ مِنَ التجارةِ والحِرْفَةِ وغيرِهما.

وجائزٌ أنْ يكونَ لهُ المَكاسِبُ والأسبابُ، لكنهُ مَحْرومٌ مِنْ إنزالِ المَكاسِبِ والأرباحِ في التجارةِ؛ يَكْتَسِبُ، ويَعْمَلُ بتلكَ الأسبابِ، لكنهُ مُحارَفٌ، لا يُرْزَقُ منها شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على [وجوهٍ:

أحدُها][7]: أي في الأرضِ آياتٌ يَنْتَفِعُ بها الموقِنونَ، وهمُ المؤمنونَ الذينَ عَلِموا الآياتِ بِطريقِ الإيقانِ.

[والثاني:][8] يَحْتَمِلُ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ يَعْلَمُ الموقِنونَ حقيقةً أنها آياتٌ. فأمّا غيرُهُمْ فلا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: عليها. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ولكن. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) من م، في الأصل: يعتبر. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٨) في الأصل وم: و.

جنة السنة

[والثالث:](١) تحتمِلُ آياتُ الأرضِ آياتِ التَّوحيدِ وآياتِ البَعْثِ وآياتِ القُدْرَةِ وغيرَ ذلكَ على ما ذَكَرْنا أنهُ خَلَقَ على وجهِ الأرضِ مِنَ الدوابِّ والأشجارِ وأنواعِ الثمارِ مِنْ غيرِ أنْ عَرَفَ الخَلْقُ كيفيَّةَ وجودِها وماهِيَّتَها، وأنهُ لم يَخْلُقْ مِثْلَها لِلْفَناءِ خاصَّةً، فتكون، آياتٍ لِما ذَكَرْنا.

وقيلَ: إنَّ في خَلْقِ الأرضِ آياتٍ، وهو أنْ خَلَقَها، وكانَتْ تميدُ بأهلِها، ثم أرساها بالجبالِ حتى استَقَرَّتْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ صلةُ قولِهِ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي وفي أنفسِكُم أيضاً [آياتٌ](٢) أفلا يُبصِرونَ؟ أي آياتُ الوَحدانيّةِ والرُّبوبيَّةِ وآياتُ البَعْثِ وآيةُ وجوبِ الشكرِ والعبادةِ والامتِحانِ.

أمّا آياتُ الرُّبوبيَّةِ فهي(٣) أنَّ اللهَ أنشأَ هذا البَشَرَ مِنْ نُطفةٍ، ثم قَلَّبَ تلكَ النُّطفةَ عَلَقَةً ثم العَلَقَةَ مُضغَةً ثم المُضْغَةَ عظاماً ولَحماً، ثم رَكَّبَ فيها الجَوارحَ ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦] ما رَأى الصالحَ لهُ في الاستِواءِ والصِّحَّةِ سَليمةً مِنَ الآفاتِ غيرَ مُتَفاوِتةٍ.

فدَلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ لا عَدَدٍ، وأنَّ لهُ القُدرةَ الذاتيَّةَ والعِلْمَ الذاتيَّ لا المُستَفادَ، وأنَّ ما قَلَّبَهُمْ مِنْ حالٍ [إلى حالٍ](٤) وما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ الجَوارحِ التي بها يَقْبِضونَ، وبها يأخُذونَ، وبها يَدْفَعونَ، ويُسَلِّمونَ، وبها يُبْصِرونَ، ويَسْمَعونَ، وبها يَمْشونَ؛ لم يَفْعَلْ بهمْ لِيَتْرُكَهُمْ سُدًى؛ ويُهْمِلَهُمْ فلا يَمْتَحِنَهُمْ، ولا يَأْمُرَهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ، وأنهُ حينَ(٥) سَخَّرَ جميعَ الخلائقِ مِنَ السماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما، ما سَخَّرَ إلّا لِيَمْتَحِنَهُمْ، ولِيَسْتَأْدِيَ منهم شكرَ ذلكَ كلِّهِ.

وفيهِ آيةُ البعثِ، لأنهُ لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ منهُ ما ذَكَرْنا، ثم لا يَبْعَثُهُمْ لِيُثابَ المُحْسِنُ منهم، ويُعاقَبَ المُسيءُ، ويُجازى [كأنهُ لا](٦) يَقْدِرُ عليهِ؛ إذْ لو لم يَكُنْ لَكانَ خَلْقُهُ إيّاهُمْ عَبَثاً باطلاً على ما ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ.

وقيلَ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي في خَلْقِ أنفسِكُمْ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أنهُ كيفَ سَوّى أنفسَكُمْ على أحسَنِ الصُّوَرِ وأحسَنِ التَّقويمِ بَعْدَ ما كانَ أصلُها وجَوْهَرُها مِنْ ماءٍ؟ وكذلكَ أصلُ جَواهرِ الأنعامِ والبهائمِ مِنْ نُطفةٍ أيضاً، ثم رَكَّبَها(٧) على صُوَرٍ صالحةٍ لِمَنافِعِكُمْ. ورَكَّبَكُمْ على أحسنِ الصُّوَرِ، ثم جَعَلَ فيكمْ مِنَ العَقْلِ والسَّمْعِ والبَصَرِ ما تُدْرَكُ بها حقائقُ الأشياءِ المَحْسوسةِ والمَعاني الحِكْمِيَّةِ لِتَتَأمَّلوا في ذلكَ كلِّهِ، فتكونَ آيةَ الوَحدانيَّةِ وآيةَ إلزامِ الشُّكْرِ والعبادةِ لهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي في السماءِ رِزْقُكُمْ وما تُوعَدونَ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ.

وقالَ الحَسَنُ وغيرُهُ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أيِ المَطَرُ الذي يَنْزِلُ منها في الأرضِ، فَيَنْبُتُ فيها بذلكَ المطرِ مِنْ أنواعِ الأرْزاقِ مِنَ الحبوبِ والثمارِ والفواكِهِ وغيرِها؛ كلُّ ذلكَ، سَبَبُهُ مِنَ السماءِ لِذلكَ أضافَهُ إليها، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا مِنْ أرزاقِنا أنها في السماءِ: المطرُ وجميعُ ما سَخَّرَ لنا فيها مِنَ الشمسِ والقمرِ والملائكةِ حينَ جَعَلَ صلاحَ ما في الأرضِ جميعاً مِنَ الأرزاقِ والأغذيةِ بتلكَ الأشياءِ التي في السماءِ مِنَ الإنضاجِ بالشمسِ والقمرِ وحِفْظِ الأرزاقِ والأمطارِ بالملائكةِ؛ فإنهمْ جُعِلوا مُوَكَّلينَ مُمتَحَنينَ، لِذلكَ قالَ تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤] هي الملائكةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ كلُّ مَوعودٍ مَرغوبٌ أو مَرهوبٌ مِنَ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي الساعةُ والقيامةُ، ويَحتَمِلُ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي جميعُ ما جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: ثم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: كلا. (٧) في الأصل وم: ركبهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يقولَ، واللهُ أعلمُ: كما أنكمْ لا تَشُكّونَ في ما تَنطِقونَ، فَعَلَى ذلكَ لا تَشُكّونَ في أمْرِ الساعةِ وقِيامِها وكونِها كما يُقالُ: هذا ظاهرٌ بَيِّنٌ كالنارِ.

وقالَ الزّجّاجُ: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي لَحَقٌّ مِثْلُ حُضورِكمْ ونُطقِكُمْ ومِثْلُ النهارِ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ويَحتمِلُ أنْ يقولَ: إنَّ مَنْ قَدَرَ على إنطاقِ هذهِ الألسنِ وتكليمِها حتى تُفْهَمَ منها حاجتُهُمْ، وهي قطعةٌ، وليسَ فيها شيءٌ مِنْ آثارِ النطقِ والكلامِ؛ إذْ يكونُ مِثْلُهُ للبهائمِ، ثم لا يُفْهَمُ منهُ ذلكَ، ولا يكونُ منهُ النُّطْقُ، يَقدِرُ على البَعْثِ والإعادةِ؛ إنَّ هذا في الأعجوبةِ أكثرُ وأعظمُ منْ ذاكَ. واللهُ أعلمُ والموفقُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقدَّمَ في غيرِ موضعٍ أنَّ حرفَ الاسْتِفهامِ مِنَ اللهِ تعالى على الإيجابِ والإلزامِ.

وقولُهُ ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي قد أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ، فَحاجَّ بهِ أولئكَ، وخاصِمْ.

والثاني: لم يَأتِكَ بعدُ، ولكنْ سَيأتيكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ. فإذا أتاكَ بهِ فَحاجَّ أولئكَ الكَفَرَةَ بهِ، واللهُ أعلمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ دلَّ أنَّ اسْمَ الضَّيفِ يَقَعُ على مَنْ يُطْعَمُ، ويَتَناوَلُ، وعلى مَنْ لا يُطْعَمُ، ولا يَتَناوَلُ، لأنهُ سَمّى الملائكةَ ضَيفَ إبراهيمَ، وإنْ لم يُطْعَموا، ولم يكنْ غِذاؤُهُمُ الطعامَ.

وفيهِ أنَّ الضَّيفَ اسْمٌ يَقَعُ على الواحِدِ[1] والجماعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ سَمّاهُمْ مُكْرَمينَ لأنَّ إبراهيمَ ﷺ كانَ يَخدِمُهُمْ، ويقومُ بينَ أيديهِمْ، وذلكَ، هو الإكرامُ الذي صاروا بهِ مُكْرَمينَ.

ويَحتمِلُ أنْ سَمّاهُمْ مُكْرَمينَ لأنهمْ كانوا أهلَ كَرَمٍ وشَرَفٍ عندَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ كقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٥٢].

ذَكَرَ هَهنا سلامَ الملائكةِ ﷺ، ولم يذكُرْ سلامَ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، إنما ذَكَرَ وَجَلَهُ منهمْ، وذَكَرَ في الأوّلِ سَلامَ الملائكةِ ﷺ وسَلامَ إبراهيمَ ﷺ عليهِمْ، وذَكَرَ أنهمْ قومٌ مُنكَرونَ. وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] قالَ بعضُهُمْ: إنما أوجَسَ منهمُ الخِيفةَ لِما خَشِيَ أنْ يكونوا سُرّاقاً لأنهُ كانَ بينَ إبراهيمَ ﷺ وبينَ الذينَ انْتابوا ما[3] يُعرَفُ بُعَيدَما يَحتاجُ المُنْتابُ إلى طعامٍ، فإذا امْتَنَعوا عنهُ خافَ أنْ يكونوا [سُرّاقاً][4] إذْ لا يَمتَنِعُ عنِ التّناوُلِ إلا السُّرّاقُ.

لكنَّ هذا ليسَ بشيءٍ لأنهُ قد كانَ منهمُ السّلامُ / ٥٣١ ـ أ/ والسلامُ أحدُ [علاماتِ الإيمانِ][5] لكنْ يكونُ خوفُهُ بعد ما عَرَفَ أنهمْ ملائكةٌ لِما عَلِمَ أنَّ الملائكةَ ﷺ لا ينزِلونَ إلّا لأمرٍ عظيمٍ: لإهلاكِ قومٍ أو لِتَعذيبِ أُمّةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] هذا يَحتَمِلُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا إخباراً مِنَ اللهِ تعالى أنهمْ قومٌ مُنكَرونَ، أي غيرُ معروفينَ عندَنا، لم يَعرِفْهُمْ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقدَّمَ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ قيلَ: راغَ، أي مالَ إلى أهلِهِ على خَفاءٍ مِنْ أضيافِهِ وسِرٍّ منهمْ، ولِذلكَ سُمّيَ الطريقُ المُخْتفي رائغاً، وهو مِنْ رَوَغانِ الثعلبِ، وقيلَ: زائغاً بالزاي، وقيلَ: راغَ أي رَجَعَ.

(١) في الأصل وم: العدد. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: منه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: علامة الأماكن، في م: علامة الأمان.

جنة السنة

وذَكَرَ محمدٌ في بعضِ كتبِهِ في زائغةٍ مستطيلةٍ، وقيلَ: رائعةٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ كقولِهِ في مَوضعٍ آخرَ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود: ٦٩] والحَنيذُ هو المَشْوِيُّ، وقيلَ: هو الذي يُشْوَى في الأرضِ بِغَيرِ تَنُّورٍ، واللهُ أعلَمُ. وقالَ بَعضُهُمْ: الحَنيذُ الذي أُنْضِجَ بالحجارةِ، وقيلَ: الحَنيذُ، هو الصغيرُ الذي كانَ غِذاؤُهُ اللَّبَنَ، لا غيرُ، واللهُ أعلَمُ.

وما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ في قصةِ إبراهيمَ ﷺ أنهُ لمّا قَرَّبَ إليهِمُ العِجلَ قالوا: لا نأكُلُهُ إلا بِثَمَنٍ، قالَ: كُلوهُ[1]، وأدُّوا ثَمَنَهُ[2]، قالوا: وما ثَمَنُهُ؟ قالَ: تُسَمُّونَ اللهَ، تعالى، جَلَّ، وعَلا، إذا أكَلْتُمْ، وتَحمَدُونَهُ إذا تَرَكْتُمْ. قالَ: فَنَظَرَ بعضُهُمْ إلى بعضٍ، وقالوا: لهذا اتَّخَذَكَ اللهُ خَليلاً وغَيرَ ذلكَ مِنَ الكلامِ.

فنحنُ لا نَذْكُرُ إلّا قَدْرَ ما ذَكَرَهُ في الكتابِ مَخافَةَ أنْ نُدخِلَ الزيادةَ والنُّقصانَ عمّا في كُتُبِهِمْ، ويَجِدَ أهلُ الإلحادِ في ذلكَ مَقالاً[3].

وهذهِ الأنباءُ إنما ذُكِرَتْ حُجَّةً لرسولِ اللهِ ﷺ في إثباتِ الرسالةِ.

فإذا قيلَ في ذلكَ ما يُخافُ أنْ يكونَ في ذلكَ زيادةٌ أو نُقصانٌ عمّا في كُتُبِهِمْ كانَ الإمساكُ والكَفُّ عنهُ أولَى.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ لا لِذلكَ أُرْسِلْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَلِيمٖ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي بَشَروهُ بِغُلامٍ، يَصيرُ عليماً إذا كَبِرَ.

والثاني: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ بِوَلَدٍ ﴿عَلِيمٖ﴾ يُؤتيهِ اللهُ تعالى عِلْماً في بَطْنِ أُمِّهِ، أو إذا وُلِدَ [يُؤتيهِ عِلماً][4] في صِغَرِهِ. ولِلّهِ أنْ يُؤتِيَ العِلْمَ مَنْ يَشاءُ في حالِ الصِّغَرِ والكِبَرِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﷻ في عِيسَى ﷺ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾؟ [مريم: ١٢].

فَعَلَى ذلكَ الغُلامُ، هو إسحاقُ ﷺ لأنهُ بَيَّنَ في آيةٍ أُخرَى في مَنْ كانَتِ البِشارةُ حينَ[5] قالَ: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢] دلَّ أنَّ البِشارةَ إنما كانَتْ بإسحاقَ.

ثم ذَكَرَ في سورةِ هودٍ ﷺ البِشارةَ لامْرأتِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ [الآية: ٧١] وذَكَرَ في هذهِ السورةِ البِشارةَ لإبراهيمَ ﷺ بقولِهِ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات: ٢٨].

لكنْ جائزٌ أنهُ لمّا بَشَّرَها بالولدِ بَشَّرَها بالوَلَدِ منهُ، وإذا بَشَّروا[7] إبراهيمَ ﷺ بالولَدِ [بَشَّروهُ بالوَلَدِ][8] منها. فإذا بُشِّرَ أحَدُهما بالوَلَدِ مِنَ الآخَرِ فتكونُ البِشارةُ لهما جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: دَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ إلى أنْ قالَ: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: ٧١ و٧٢] أنَّ إسحاقَ كانَ أكبَرَ مِنْ إسماعيلَ لأنها لمّا بُشِّرَتْ بالوَلَدِ أخبَرَتْ[9] أنها عجوزٌ وأنها عقيمٌ وأنَّ بَعْلَها شيخٌ. ولو كانَ إسماعيلُ هو الأوَّلَ، وكانَ الآخَرُ على قُرْبٍ منهُ، ليسَ بَينَهما زمانٌ مَديدٌ، لم يكُنْ يَبْلُغُ إبراهيمُ ﷺ في ذلكَ المقدارِ مِنَ الوقتِ ما يُخبِرُ عنْ إياسِ الوَلَدِ منهُ.

دَلَّ أنَّ إسحاقَ، هو المُقَدَّمُ، وأنهُ كانَ أكبَرَ مِنْ إسماعيلَ ﷺ إلا أنَّ هذا الاختِلافُ ما عليهِ أهلُ التأويلِ أنَّ إسماعيلَ ﷺ كانَ أكبَرَ مِنْ إسحاقَ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: قالوه. (٢) ساقطة من م. (٣) في م، في الأصل: مقاماً. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث.
(٧) في الأصل وم: بشر. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أخبر.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ذَكَرَ هٰهنا الإقبالَ، وقالَ في آيةٍ أُخرى في سورةِ هودٍ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [الآية: ٧١].

فجائزٌ ألّا يكونَ على حقيقةِ الإقبالِ، ولكن لمّا ذَكَرَ فِعلَها، وهو[1] الصَّرَّةُ وصَكُّ الوجهِ، ذَكَرَ الإقبالَ. غيرَ أنْ كانَ منها الإقبالُ مِنَ المكانِ، أي أقبَلَتْ، فَصَكَّتْ وجهَها في صَرَّةٍ كما قالَ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؟ [الفرقان: ٤٥] أمَرَ بالرُّؤيةِ والنَّظَرِ إلى الفِعلِ الذي ذَكَرَ، وهو مَدُّ الظِّلِّ، وإذا ذَكَرَ النفسَ دونَ الفعلِ فالمُرادُ منهُ النَّظَرُ إلى نفسِهِ، لا غيرُ، واللهُ أعلَمُ. فعلى ذلكَ هذا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي في صيحةٍ. وقولُهُ ﷺ: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضَرَبَتْ وجهَها بِيَدِها تَعَجُّباً منها بتلكَ البِشارةِ التي بُشِّرَتْ بالولادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ وكانَتْ كما أخبَرَتْ عَجوزاً عقيماً.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي على عِلْمٍ بالحالِ التي أنتِ بُشِّرْتِ بذلكَ لا عنْ جَهْلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي حكيمٌ واضعُ الأمْرِ[2] في مَوضِعِهِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِمصالحِ الأمورِ وعواقِبِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنُكُم؟ ولأيِّ أمرٍ أُرسِلْتُم؟ بالبِشارةِ خاصةً أو لأمرٍ آخَرَ أو لهما جميعاً.

الآية ٣٢ فأجابوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وقالوا[3] في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨ و٥٩] كانَ الاستِثناءُ هٰهنا لم يكنْ مَذكوراً في خَبَرِ الملائكةِ وإنما ذُكِرَ في الخَبَرِ الذي قالَ إبراهيمُ ﷺ حينَ[4] ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

فَدَلَّ ذِكرُ الثُّنْيا منهمْ بعد سؤالِ إبراهيمَ ﷺ وإخبارِهِ إيّاهُمْ أنَّ فيها لوطاً أنَّ تأخيرَ البيانِ عنِ الكلامِ جائزٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢ والحجر: ٧٤] أنَّ السِّجِّيلَ ليسَ هو اسْمَ المكانِ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ، ولكنَّ السِّجِّيلَ اسْمُ الطِّينِ على ما ذَكَرَهُ هٰهنا، وهو طينٌ مطبوخٌ كالآجُرِّ، إلّا أنْ يُقالَ: هو طينٌ حُمِلَ مِنْ مكانٍ يُسَمّى سِجِّيلاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي مُعَلَّمةً ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ثم الإعلامُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: مُعَلَّمَةٌ مُسَوَّمةٌ باسْمِ مَنْ تَقَعُ عليهِ، ويَهْلِكُ بها، أي مَكتوبٌ عليها اسْمُهُ.

والثاني: مُعَلَّمةٌ في نفسِها حتى يَعْلَمَ كلُّ أحدٍ أنها للهلاكِ جاءَتْ، وأنها أُرسِلَتْ لِذلكَ مُخالِفَةً لسائِرِ الأحجارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٥ و٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: قولُهُ: ﴿فِيهَا﴾ كِنايةٌ عن قريةِ لوطٍ، وقولُهُ: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هو مُنْزِلُ لوطٍ ﷺ دلَّتْ تَسميةُ الملائكةِ ﷺ إيّاهُمْ مؤمنينَ ومُسلمينَ على أنَّ الإسلامَ والإيمانَ واحدٌ، وقد بيَّنّا جِهَةَ الاتِّحادِ بينَهما في غيرِ مَوضعٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي تَرَكْنا في قَرياتِ لوطٍ ﷺ التي أهلَكْنا آيةً وعِبرةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وهي[5]

---

(١) في الأصل وم: وهي. (٢) في الأصل وم: الولد. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وهو.

جنة السنة

ما ذُكر في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ و١٣٨] أي إنكم لَتمُرّونَ على أولئكَ الذينَ أُهلِكوا، وعُذّبوا، بالليلِ والنهارِ؛ فتَعلَمون[1] أنهم لِمَ[2] أُهلِكوا؟ ولِمَ[3] عُذّبوا؟ بالتكذيبِ والعِنادِ.

والذينَ نَجَوا إنما نَجَوا بالتّصديقِ والإسلامِ؛ وذلكَ آيةٌ[4] لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وقولُه[5] تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي يكونُ ذلكَ آيةً لِلّذينَ يَخافونَ العذابَ الأليمَ، وهُمُ المؤمِنونَ أي هُمُ المُنتَقِمونَ بها.

الآية ٣٨ وقولُه تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ في ما ذُكِرَ مِنْ قصةِ موسى ولوطاً وقصةِ إبراهيمَ وقصةِ هودٍ وثمودَ، وهذهِ الأشياءُ تَفسيرٌ لِقولِهِ تعالى:/ ٥٣١ ـ ب/ ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. ثم الآياتُ في الأرضِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: في ما خَلَقَ في الأرضِ مِنَ الخَلائقِ.

والثاني: في ما في الأرضِ مِنْ أنباءِ السَّلَفِ وأخبارِهِمْ مِنْ مُكذّبي الرسلِ ومُصَدِّقيهِمْ أي في إهلاكِ مَنْ أهلَكَ مِنْ مُكذِّبيهِمْ ونَجاةِ مَنْ نَجا مِنْ مُصَدِّقيهِمْ آياتٌ لِمَنْ ذَكَرَ.

فهذهِ الأنباءُ والقِصصُ التي ذُكِرَتْ ههنا تفسيرٌ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي فتَوَلّى هو ورُكْنُهُ، وهُمْ جُنودُهُ وقومُهُ عنِ اتّباعِ موسى ﷺ وما يَدْعوهُمْ إليهِ.

والثاني: أي فتَوَلّى هو بقوةِ رُكْنِهِ، وهُمْ قومُهُ، أي تَوَلّى عنِ الحَقِّ واتّباعِ موسى ﷺ بقوةِ قومِهِ ومَعونَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ سمّاهُ ساحراً بما أتى مِنَ الآياتِ المُعجِزَةِ [إياهُ وقومَهُ لِما][6] يُعرَفُ وصفُ السِّحرِ على هذا الوجهِ، فَسَمّاهُ بذلكَ، وإنْ أيقَنَ هو أنَّ مِثلَ ذلكَ الفِعلِ لا يكونُ سِحراً، تَمويهاً على قومِهِ. وسَمّاهُ مَجنوناً لِمّا خاطَرَ بنفسِهِ بِمُخالَفَتِهِ مع عِلْمِهِ أنَّ هَمَّهُ القَتْلُ لِمَنْ خالَفَهُ في دينِهِ ومُلْكِهِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ تأويلَ قولِهِ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي تَوَلّى هو، وتَوَلّى قومُهُ وجُنودُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قال بعضهم: ﴿مُلِيمٌ﴾ أي يُلامُ عليهِ، وقالَ بعضُهُمْ: أي مَذمومٌ. وقالَ القُتَبيُّ: هو مُذنِبٌ.

ثم دلَّ قولُهُ: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ على أنَّ للهِ تعالى في أفعالِ العِبادِ صُنعاً حينَ[7] أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ، وهُمُ الذينَ دَخَلوا في اليَمِّ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ أي في أمرِ عادٍ بيّنَةٌ وآيةٌ وعِبرَةٌ للمؤمنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي أُهلِكوا بالريحِ.

وقد بَلَغَ مِنْ عُتُوِّهِمْ أنْ قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فأذَلَّهُمُ اللهُ تعالى حتى خَضَعوا لأضعَفِ شيءٍ، وأخافَهُمْ منهُ، وهي الأصنامُ التي عَبَدوها حتى خوَّفوا، وقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤] وذلكَ غايةُ الذُّلِّ والهَوانِ: أنْ خافوا مِنْ أضعَفِ شيءٍ وأعجَزِهِ بَعْدَ ما بَلَغَ مِنْ عُتُوِّهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ أنْ قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وثم. (٣) في الأصل وم: وثم. (٤) في الأصل وم: إنهم. (٥) في الأصل وم: ثم قال.
(٦) في الأصل وم: وقومه إنما. (٧) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ قال أبو عوسَجَةَ: تَفسيرُها ما ذُكِرَ في الآيةِ [التاليةِ][1]: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾.

وقالَ غيرُهُ: العَقيمُ، هو الذي لا خَيرَ فيهِ، ولا بَرَكَةَ، أي عَقِمَتْ عنِ الخيراتِ، ولِذلكَ يُقالُ للمرأةِ التي لا تَلِدُ والرجلِ الذي لا يُولَدُ لهُ: العَقيمُ لِما أنهُ ليسَ منهما مَنفَعةُ الوَلَدِ ولا بَرَكَتُهُ، فَعلَى ذلكَ الريحُ العَقيمُ، أي لا مَنفَعَةَ فيها ولا بَرَكَةَ.

فأمّا للمؤمنينَ فهي نافعةٌ حين[2] أهلَكَتْ أعداءَهُم، ولم تُهلِكْهُم. وفي ذلكَ تَطهيرُ الأرضِ مِن نَجاسةِ الكُفرِ.

وفي الخَبَرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قال: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ» [البخاري ١٠٣٥].

وقيلَ: الريحُ العَقيمُ هي الدبورُ، وهي التي لا تُلقِحُ الأشجار والسحابَ والنباتَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ وأُمِرَتْ هي بإهلاكِهِ، وأُذِنَ لها بذلكَ ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾.

ألا تَرى أنها أتَتْ على أشياءَ، لم تُهلِكْها، وقد سَلِمَ [هودٌ][3] ﷺ وقومُهُ مِنَ المؤمنينَ؟ وألا [ترى][4] أنهمْ لمّا رَأَوها مِن بُعدٍ ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقالَ هودٌ ﷺ ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] وما ذَكَرَ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] أخبرَ أنها قد أبقَتْ مساكنَهُمْ، وهو ما ذَكَرَ في [الآيةِ الأخيرةِ][5] ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ، أُمِرَتْ، وأُذِنَ لها بالتدميرِ لِيُعلَمَ أنها كانَتْ تَعمَلُ بالأمرِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو ثلاثةُ الأيامِ[6] التي ذُكِرَتْ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] يُخبِرُ أنْ كانَ قد بَلَغَ [عن][7] عُتُوِّهِمْ أنْ قد أُجِّلوا ثلاثةَ أيامٍ لِنزولِ العذابِ بهِمْ، فلم يَمنَعْهُمْ ذلكَ عن عُتُوِّهِمْ، ولم يَنجَعْ فيهمُ [الوعيدُ][8].

وقومُكَ يا محمدُ حين[9] لم يَذكُرْ لِعذابِهِمْ وَقتاً ولا أجلاً أحقُّ ألا يَنجَعَ فيهِمْ ما تَوَعَّدَهُمْ بهِ، ولا يَنفَعُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي عمّا أُمِروا بطاعةِ ربِّهِمْ. والعُتُوُّ، هو البلوغُ في البأسِ والقَساوةِ غايَتَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] أي بأساً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي ما استَطاعوا مِنَ الانتِصابِ لِعذابِ اللهِ تعالى والقِيامِ لهُ.

والثاني: ما استَطاعوا مِن دفعِ العذابِ عن أنفسِهِمْ لا بأنفسِهِمْ ولا بِغيرِهِمْ ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ بالأنصارِ والأعوانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ هؤلاءِ وإهلاكُهُمْ: آيةٌ بيِّنةٌ وحُجّةٌ للمؤمنينَ على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أي خَلَقْناها بقوةٍ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لَقادرونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُوسِعُ الواجِدَ كقولِهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] أي على الواجِدِ المُوسِرِ قَدْرُهُ. وقال بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ في التدبيرِ تَدبيرِ جميعِ الخَلْقِ [وهو قولُ أبي بكرٍ الأصَمِّ، واللهُ أعلَمُ، ويَحتَمِلُ: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾][10] عليهِمْ أرزاقَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أيضاً حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: آية أخرى. (٦) في الأصل وم: أيام. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [أي بَسَطناها، ومَهَدْناها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾][1] لكُمُ الأرضَ حينَ[2] مَهَدَها لكمْ مَبْسوطةً مُفتَرَشَةً؛ يَجِدونَها كذلكَ ما كانوا، وأينما كانوا مِن غيرِ تكلُّفٍ، ويَستَعمِلونَها كيفَ شاؤوا في أيِّ[3] مَنفَعَةٍ شاؤوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ قال بعضُهُمْ: صِنفَينِ مِنَ الحيوانِ، فإنهُ خَلَقَهُمْ ذَكَراً وأُنثى، وقال بعضُهُمْ: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي لَونَينِ نَحْوَ أبيضَ وأسْوَدَ وأحْمَرَ وأصْفَرَ، والأوّلُ قولُ الزّجّاجِ، والثاني قولُ القُتَبيِّ.

وأصْلُهُ أنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي شَكلَينِ، فَيُعلِمُ بعضُهُ بعضاً، أو ضِدَّينِ فَيُناقِضُ بعضُهُ بعضاً، واللهُ ﷻ ليسَ بِذي شَكلٍ ولا بِذي ضِدٍّ. فَيَدُلُّ ما أنشأَ مِنَ الأضدادِ والأشكالِ على وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ.

والثاني: خَلَقَ الأشياءَ [صِنفَينِ][4] مُختَلِفَينِ مُتضادَّينِ لِيَدُلَّ على إيجابِ المِحَنِ عليهِمْ مِن نَحوِ عُسرٍ ويُسرٍ وغِنًى وحاجةٍ وخَيرٍ وشَرٍّ لِيَمتَحِنَهُمْ على اختِلافِ الأحوالِ وتَضادِّها، فَيُرَغِّبَهُمْ في كلِّ مَرغوبٍ، ويُحَذِّرَهُمْ عَن كلِّ مَحذورٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَذكُرونَ آياتِ وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، أو تَذكُرونَ باختِلافِ الامتِحانِ البَعثَ والثوابَ والعِقابَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

قالَ بعضُهُمْ: فَفِرّوا إلى توحيدِ اللهِ مِنَ الشِّركِ بهِ، دليلُهُ قولُهُ على إثرِهِ ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو [قولُ][5] أبي بكرٍ الأصَمِّ.

ويَحتَمِلُ: فَفِرّوا إلى ما دعاكُمُ اللهُ تعالى عمّا نَهاكُمْ عنهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] أي فَفِرّوا إلى الأعمالِ الصالحةِ مِنَ الأعمالِ القبيحةِ.

ويَحتَمِلُ: فَفِرّوا إلى ما وَعَدَكُمُ اللهُ تعالى مِنَ الثوابِ عمّا أوعَدَ لكُمْ مِنَ العقابِ/ ٥٣٢ ـ أ/ أي فِرّوا إلى ثوابِ اللهِ مِن نِقمَتِهِ وعِقابِهِ.

ويَحتَمِلُ: فَفِرّوا إليهِ في جَميعِ حوائجِكُمْ، ولا تَطلُبوا شيئاً مِن ذلكَ مِن غيرِهِ، فإنهُ، هو القادِرُ عليها حقيقةً فيكونُ في الآيةِ تَرغيبٌ في الرجوعِ إليهِ في الحَوائجِ وقَطعِ الطَّمَعِ عَن غيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً.

يَحتَمِلُ أي نذيرٌ لِمَنْ عَبَدَ دونَهُ، أو سَمّى دونَهُ إلهاً ﴿مُّبِينٌ﴾ آياتِ ألوهيَّتِهِ وَوَحدانيَّتِهِ.

ويَحتَمِلُ ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لِما يَقَعُ لكمْ بهِ النِّذارةُ والبِشارةُ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بما نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسلِ بتكذيبِهِمْ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تُسَمّوا معَ ألوهيَّةِ اللهِ تعالى أحداً[6] دونَ اللهِ إلهاً، أو يقولُ: لا تَعبُدوا دونَ اللهِ إلهاً آخَرَ أي مَعبوداً آخَرَ فإنهُ لا يَستَحِقُّ دونَ اللهِ أحدٌ العبادةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قد ذكَرْناهُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ لم يَذكُرْ في هذا الموضعِ القولَ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أية. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لأحد.

جنة السنة

منهمْ: إنهمْ قالوا للرسولِ ﷺ: إنكَ ساحرٌ أو مَجنونٌ. ولكنْ إنْ لم يكُنْ مَذكوراً في ظاهرِهِ، لكنْ ما ذَكَرَ أنَّ أوائلَهَمْ كانوا يقولونَ لِرُسُلِهِمْ ذلكَ دلالةٌ أنهمْ قد قالوا: إنهُ ساحرٌ وإنهُ مَجنونٌ، حينَ[1] قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ ﷺ على أذاهُمْ بِنِسْبَتِهِمْ إيّاهُ إلى السِّحرِ أو الجُنونِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها الأمرُ بالصَّبْرِ على أذاهُمْ واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: إنما قالوا: ساحرٌ أو مَجنونٌ لأنَّ السِّحرَ والجُنونَ عندَهُمْ واحدٌ كقولِ فرعونَ لِموسى ﷺ لما أتى بهِ مِنَ الآياتِ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠١] فلِذلكَ قالوا مَرَّةً: ساحرٌ، ومَجنونٌ مَرَّةً.

ولكنَّ هذا فاسدٌ؛ فإنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الجُنونُ والسِّحْرُ عندَهُمْ واحداً لأنَّ الساحِرَ، هو الذي بَلَغَ في العِلْمِ في كلِّ شيءٍ غايَتَهُ، والمَجْنونَ، هو الذي بَلَغَ في الجَهْلِ غايَتَهُ.

[ونَسَبوا رسُلَهُمْ][2] إلى السِّحرِ [لِما أتوا][3] لهمْ مِنَ الآياتِ ما عَجِزَ الناسُ عنْ إتيانِ مِثْلِها، وقد عَرَفوا هُمْ أنها آياتٌ؛ أعني رؤساءَهُمْ وأئِمَّتَهُمْ. لكنْ قالوا: إنها [سِحْرٌ][4] على إرادةِ التَّلْبيسِ على الأتباعِ والعامَّةِ لِما عندَ الناسِ أنْ لا كلَّ أحدٍ يَقْدِرُ على إتيانِ السِّحْرِ، فقالوا: إنهمْ سَحَرَةٌ للرسلِ لهذا.

وإنما نَسَبوهُمْ إلى الجُنونِ لِما أنهمْ خالفوا الفراعنةَ والأكابِرَ الذينَ كانَ هَمُّهُمُ القَتْلَ وإهلاكَ مَنْ خالَفَهُمْ في المَذْهبِ والأمرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي أوصى أوائِلُهُمْ أواخِرَهُمْ في تَسْمِيَتِهِمُ الرسلَ ﷺ سَحَرةً ومَجانِينَ، وَوافَقَ[5] بعضُهُمْ بعضاً في نِسْبَتِهِمُ الرسلَ ﷺ إلى السِّحرِ والجُنونِ، أي لم يَزَلِ الكَفَرَةُ يقولونَ لرسُلِهِمْ ﷺ: ذلكَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ على التمثيلِ لا على حَقيقةِ القولِ منهمْ لِما كانَ اجْتِماعُهُمْ لأجْلِ هذا القولِ في كلِّ وقْتٍ، فصارَ ذلكَ الاِجْتِماعُ منهمْ كالتَّواصي مِنْ بعضِهِمْ لِبعضٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ يُخبِرُ أنهمْ لا عنْ جَهْلٍ وشُبْهَةٍ قالوا: إنهمْ سَحَرَةٌ ولكنْ عنْ طُغْيانٍ وتَعَدِّي حَدِّ اللهِ ﷻ والمُجاوَزَةِ لهُ، لأنَّ الطاغِيَ، هو المُجاوِزُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ والمُتَعَدِّي عليه.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: لمّا نَزَلَ هذا خافَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ ﵃ أنْ يَنْزِلَ بهمُ العذابُ حتى نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

لكنْ عندَنا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ فأعْرِضْ، ولا تُكافِئْهُمْ بإساءَتِهِمْ إليكَ بِقولِهِمْ: إنهُ ساحرٌ وإنهُ مَجنونٌ، فإنَّ اللهَ تعالى سيَكْفِيُكَهُمْ عنكَ، ويُجازيهِمْ مُجازاةَ إساءَتِهِمْ.

والثاني: يأمُرُهُ بالإعراضِ والتَّوَلّي عنهمْ عنْ قومٍ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يؤمنونَ؛ يُؤْيِسُهُ عنْ إيمانِهِمْ، ويقولُ[6]: لا تَشْتَغِلْ بهمْ، فإنهمْ لا يؤمنونَ لكَ، ولا يُصَدِّقونَكَ، ولَكِنِ اشْتَغِلْ بِمَنْ تَرْجو منهُ الإيمانَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على حقيقةِ الأمرِ، ولكنْ على التَّخْيِيرِ، أي لكَ أنْ تَتَوَلّى عنهمْ، وتُعْرِضَ، فإنكَ قد بَلَّغْتَ، وأعْذَرْتَ في التَّبْليغِ والدُّعاءِ غايَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ نَفْيِ الشيءِ إثباتَ مُقابِلِ ذلكَ الشيءِ وضِدِّهِ كقولِهِ: ﴿فَمَا

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ونسبوهم. (٣) في الأصل: إلى أتى، في م: لما أتى. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وإن يوافق. (٦) من م، في الأصل: ويقولون.

رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] [نَفى عن تِجارَتِهِم][1] الربحَ، والمُرادُ إثباتُ الخُسرانِ؛ كأنهُ قال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ بل خَسِرَتْ. فعَلى ذلكَ جائزٌ قولُهُ: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ بل بِمَحْمودٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ لأنهُ قد بَلَّغَ الرسالةَ وما أُمِرَ بِتَبليغِهِ إلى الخَلْقِ، وقالَ بأمْرِهِ، ونَصَحَ خَلْقَهُ، وخَفَضَ جَناحَهُ لهمْ، فيكفَ تُلامُ؟ أي ما أنتَ بالذي تُلامُ على صَنيعِكَ وعلى فِعْلِكَ، وإنْ كانَ بعضُ الناسِ يَلومُكَ، وهمُ الكفارُ.

وفيهِ دلالةُ الحِفظِ والعِصْمَةِ لهُ عنِ الزَّيغِ والزَّلاتِ، إذْ لو كانَ بالذي يَحْتَمِلُ الزَّيغَ والزَّلَّةَ لَكانَ يَحْتَمِلُ المَلامَةَ، فَدَلَّ أنهُ لا يَحْتَمِلُ الزَّيغَ والعُدولَ عنِ الحَقِّ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الأمرُ بالتَّذكيرِ للكُلِّ، ثم أخبَرَ أنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المؤمنينَ [لا الكُلَّ، وجائزٌ أنْ يكونَ التَّذكُّرُ للمؤمنينَ][2] فإنَّ مَنفَعَةَ الذِّكْرَى لهمْ ولِمَنْ أنصفَ دونَ المُكابِرينَ المُعانِدينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إنْ كانَ المُرادُ مِنْ ذِكرِ العبادةِ حقيقةَ العبادةِ فَيُخَرَّجُ تأويلُهُ على وجهَينِ:

أحدُهما: جواباً لِمَنْ لا يَرَى الجِنَّ والإنسَ يُؤمَرونَ بالعبادةِ، ويُمتَحَنونَ بها، فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما خَلَقْتُهُمْ على مَعْرِفَةِ المَحاسِنِ والمَساوِئِ والتَّمييزِ بَينَ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى بما رُكِّبَ فيهمْ مِنْ أسبابِ التَّمييزِ والمَعْرِفةِ لِأتْرُكَهُمْ سُدًى مُهْمَلينَ، بل لِأمتَحِنَهُمْ بالعِبادةِ والقِيامِ بِشُكْرِ ما أنعَمْتُ عليهمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ؛ إذِ الحكمةُ توجِبُ ذلكَ، وتَدفَعُ تَرْكَهُمْ سُدًى هَمَلاً واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يُخَرَّجُ جواباً لِمَنْ يَرَى العبادةَ دونَهُ جائزةً بِقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لم أخلُقْهُمْ لِعبادةِ غَيري؛ بل[3] لآمُرَهُمْ بعبادتي، لا لآمُرَهُمْ بعبادةِ غَيري كما قالَ بعضُ الكَفَرةِ بِقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] رَدّاً ونَقْضاً لِاعْتِقادِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ على حقيقةِ العبادةِ [يَحْتَمِلُ][4] وجهَينِ:

أحدُهما: على حقيقةِ فِعْلِ العبادةِ، وعلى هذا الوجهِ لم تكنِ الآيةُ محمولاً بها على العمومِ، بل على الخُصوصِ، وهُمْ مِنَ الجِنِّ والإنسِ دونَ الكَفَرةِ منهمْ، فإنهُ لا يجوزُ أنْ يَخْلُقَ الكَفَرةَ الذينَ عَلِمَ منهم أنهمْ لا يؤمنونَ للعبادةِ؛ إذْ خَلْقُهُ عنِ اختيارٍ وإرادةٍ. فإذا خَلَقَهُمْ، وأرادَ منهمُ العبادةَ، لا بُدَّ أنْ يُوحِّدَ [بَعْضٌ][5] منهمْ، وقد عَلِمَ أنهُ لا يُوَحِّدُ، فَيَصيرُ كأنهُ أرادَ تجهيلَ نفسِهِ، وهذا[6] مُحالٌ.

فَدَلَّ أنَّ المُرادَ منهُ الخصوصُ، وقد خَصَّ منهُ البعضَ بلا خِلافٍ؛ فإنِ الصغارُ والمجانينُ قد خُصُّوا فإنهُ لا تَتَحَقَّقُ منهمُ العبادةُ. فجائزٌ أنْ يَخُصَّ منهُ الكَفَرَةَ الذينَ عَلِمَ منهمْ أنهمْ لا يُؤمنونَ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][7]: يَحْتَمِلُ أنَّ المُرادَ منهُ الأمرُ بالعبادةِ، أي ما خَلَقْتُهُمْ إلا لِآمُرَهُمْ بالعبادةِ والتوحيدِ. وهذا أقربُ إلى العَمَلِ بالعُمومِ؛ فإنهُ يدخُلُ فيهِ العقلاءُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ دونَ الصغارِ والمَجانينِ.

ويجوزُ أنْ يأمُرَ بِشيءٍ / ٥٣٢ ـ ب/ ولا يُريدُ تحصيلَ المأمورِ بهِ وصيرورةَ المأمورِ مُطيعاً لهُ، بل يُريدُ أنْ يَصيرَ عاصياً، فَيَدْخُلَ النارَ بخلافِ ما إذا خَلَقَهُ للعبادةِ وإرادةٍ منهُ، فلا يجوزُ ألّا يُوَحِّدَ، وحقيقةُ هذا تُعْرَفُ في كتابِ التوحيدِ أنهُ خَلَقَ للإيمانِ والعبادةِ مَنْ عَلِمَ منهُ [أنهُ يَعْبُدُهُ][8] ويَختارُ العبادةَ لهُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وعدا. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: أن يعبد.

جنة السنة

فأمّا مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الضلالِ والغَوايةِ وصَرْفَ العبادةِ إلى غَيرِهِ فإنهُ خَلَقَهُ على عِلْمٍ منهُ أنهُ يَخْتارُ، وَيَفْعَلُ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩].

وقالَ قائلونَ: لم يُرِدْ بقولِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ حقيقةَ العبادةِ التي هي فِعْلُ العبدِ على وجهِ الاختيارِ، ولكنّ معناهُ: ما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلّا وقد جَعَلْتُ في كلِّ أحدٍ منهمْ دلالةَ وَحْدانيّتي ودلالةَ صَرْفِ العبادةِ إليّ والقِيامِ بالشُّكرِ لي في ما أنعَمْتُ عليهِمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ ما لو تأمّلوا فيها، ونَظَروا لَدَلَّهُمْ على ما ذَكَرْنا مِنَ العِلْمِ بالوَحْدانيّةِ لي والقِيامِ بالعبادةِ والشُّكرِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى هذا التأويلِ تكونُ الآيةُ عامّةً، لا خُصوصَ فيها، لأنَّ خِلْقَةَ كلِّ أحدٍ منهمْ على أيِّ وصفٍ كانَ دلالةُ ما ذَكَرْنا، واللهُ المُوَفِّقُ.

ويَحْتَمِلُ أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلّا على خِلْقَةٍ تَصلُحُ لِلْمِحْنَةِ بالأمرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوَعيدِ ولِتَحقيقِ فِعْلِ ذلكَ بما رَكَّبْتُ فيهمُ العقلَ، وجَعَلْتُ مَفاصِلَهُمْ لَيِّنَةً وقابلةَ الأفعالِ، تَصْلُحُ لِلْخِدْمَةِ مِنَ الرُّكوعِ والسُّجودِ والقِيامِ والقُعودِ ونَحْوِها على خِلافِ غَيرِ هؤلاءِ مِنَ المَخلوقاتِ، فإنها خُلِقَتْ على خِلْقَةٍ تَصلُحُ لِمَنافِعِ المُمْتَحَنينَ لا على وجهٍ يَصْلُحُ لِلْمِحْنَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في العبادةِ خُصوصيّةُ مَعنًى، ليسَ ذلكَ في الطاعةِ والخِدْمةِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأفعالِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] حينَ[1] لم يُجزِ العبادةَ لِغَيرِهِ، وأجازَ الطاعةَ والخِدْمةَ والتعظيمَ وغَيرَ ذلكَ مِنَ الأفعالِ [لِرسولِهِ][2] لِقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

دلَّ أنَّ في العبادةِ مَعنًى ليسَ ذلكَ المَعنى في غَيرِهِ، لِذلكَ وَقَعَتِ الخُصوصيّةُ لهُ، ولِذلكَ خَصَّ نفسَهُ بِتَسْمِيَةِ الإلهِ، ولم يُجزِ التَّسْمِيَةَ بهِ لِغَيرِهِ؛ إذِ الإلهُ عندَهُ معبودٌ، فكلُّ معبودٍ عندَهُمْ يُسَمّونَهُ إلهاً، وذلكَ كما خَصَّ نفسَهُ بِتَسْمِيَةِ الرحمنِ، لم يَجْعَلْ تلكَ[3] لِغَيرِهِ، وأجازَ[4] تَسْمِيَةَ غَيرِهِ رحيماً لِما أنَّ في اسْمِ الرحمنِ زيادةَ مَعنًى ليسَ في الرحيمِ، وكذا خَصَّ نفسَهُ بِتَسْمِيَةِ الخالقِ[5]، ولم يُجزْ هذا الاسْمَ لِغَيرِهِ لِما أنَّ في الخالقِ مَعنًى، ليسَ ذلكَ المَعنى في الفاعِلِ وغَيرِهِ، فكذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: ما أريدُ منهمْ أنْ يَرزُقوا أنفسَهُمْ ولا أنْ يُطعِموا أحداً مِنْ خَلْقي، إنّما عليَّ رِزْقُهُمْ وإطعامُهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

ويَحْتَمِلُ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ إنْ يَرزُقوا مَنْ لا يقومُ بأسبابِ الرِّزْقِ، وأنْ يُطْعِموهُمْ؛ إنَّ ذلكَ عليَّ، وإنما أُريدُ منهمُ العبادةَ على الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا، لأنهمْ لم يُنْشَؤوا لأولئكَ الذينَ لم تُجعَلْ لهمُ المَكاسِبُ وأسبابُ الرِّزْقِ مِنَ الدوابِّ، بل هي أُنْشِئَتْ لأجلِهِمْ رِزْقاً ومُتْعَةً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الإضمارِ على ما قالَ بعضُهُمْ: أي قُلْ يا محمدُ: ما أُريدُ منكمْ في ما أدعوكُمْ إليهِ مِنْ أجْرٍ، وما أُريدُ أنْ تُطْعِموني، فَيَثْقُلَ عليكمُ الإيمانُ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [أنْ يكونَ على][6] إخبارِ أنهُ لم يَخْلُقْهُمْ لِحاجةٍ لهُ في[7] خَلْقِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ والإطعامِ منهمْ لِما أقامَ مِنْ دَلالاتِ تَبْرِئَتِهِ مِنَ الحَوائجِ ومِنَ الرِّزْقِ والطعامِ، وإنما خَلَقَهُمْ للأمرِ والنَّهْيِ والامْتِحانِ لِيَرْجِعَ[8] مَنافِعُ ذلكَ [إليهمْ][9] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لذلك. (٤) في الأصل وم: وجاز. (٥) في الأصل وم: خالقاً.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: من. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يرجع. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٥٨ وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنَّ الأسبابَ التي بها يُرزَقونَ، ويَصِلونَ إلى الإنتِفاعِ بها، هي فعلُ اللهِ تعالى، ولهُ فيها صُنعٌ؟ صارَ بذلكَ رازقاً، لولا ذلكَ لم يَصِلوا إلى ذلكَ، وإنْ كانَ الخَلْقُ همُ الذينَ يَكُدُّونَ[١]، ويَعْمَلونَ تلكَ الأسبابَ والمَكاسِبَ. فإنما[٢] أُضيفَ إليهِ الرِّزْقُ لِما أنْشَأَ فِعلَ تلكَ الأسبابِ والمَكاسِبِ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

فيكونُ في هذا دليلٌ على أنَّ للهِ صُنعاً في أفعالِ العبدِ، وهو الخَلْقُ والإنشاءُ حينَ[٣] سَمّى نفسَهُ رازقاً، وهمْ يُرزَقونَ بتلكَ المكاسِبِ والأسبابِ أكثَرِها أو عامَّتِها[٤] بأفعالِهِمْ.

دلَّ أنَّ لَهُ فيها صُنعاً حتى تَصِحَّ إضافةُ ذلكَ إليهِ وتَسْمِيَتُهُ رازقاً، ولا يَجوزُ هذا الإسْمُ لِغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحتَمِلُ إضافةُ الرِّزقِ إليهِ لأنهُ يَرزُقُهُمْ بما جَعَلَ في تلكَ الأسبابِ والمكاسِبِ مِنَ اللُّطفِ لا بأنفسِ[٥] الأسبابِ لأنهمْ يَزْرعونَ، ويَطْرَحونَ البذرَ فيها، فيَهْلِكُ ذلكَ فيها، وكذلكَ يَسْقونَ الأرضَ، ويَهلِكُ ذلكَ الماءُ فيها.

ثم إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ بِلُطفِهِ ورَحمَتِهِ في ذلكَ مِنَ اللُّطفِ ما يَصيرُ ذلكَ رِزقاً لهمْ بَعْدَ ذهابِ عَينِهِ والقُوَّةِ التي جَعَلَها فيهِ.

وكذلكَ ما جَعَلَ فيهِ مِنَ الصَّلاحِ والنُّضجِ والطَّبخِ وما يَرجِعُ إلى الإصلاحِ لذلكَ والأكلِ والمَضغِ والإبتِلاعِ ونَحوِ ذلكَ، ليسَ في ذلكَ إلّا امْتِلاءُ البَطنِ، وفي ذلكَ فسادٌ، فَجَعَلَ فيهِ مِنَ القُوَّةِ ما يَنتشِرُ في البَدَنِ والأطرافِ قُوَّةً، فَتَبْقى[٦] بتلكَ القُوَّةِ فيهِ[٧] الحياةُ والبَقاءُ لا بِنَفْسِ الرِّزقِ، وهو ما وَصَفَ اللهُ ﷻ [نفسَهُ بقولِهِ:][٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ بتلكَ القُوَّةِ يَحْيَونَ، وبها يَبْقَونَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿الْمَتِينُ﴾ هو وصفٌ ونَعتٌ لتلكَ القُوَّةِ، فيَجوزُ وصفُ القُوَّةِ بالمَتانةِ. فأمّا اللهُ ﷻ لا يوصَفُ بها، ولا يُوصَفُ أنهُ متينٌ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] [وَصفَ العَرْشَ بالمَجْدِ][٩] والعَرْشُ غيرُهُ.

فَعَلى ذلكَ القُوَّةُ التي جَعَلَها في ما ذَكَرنا غَيرُهُ، ويَجوزُ أنْ يوصَفَ بما ذَكَرنا مِنَ المَتانةِ، وهي القُوَّةُ التي لا يَمْلِكُها الخَلْقُ، ولا يُدْرِكونَ ذلكَ اللطفَ الذي جَعَلَ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أي ذو البَطشِ الشديدِ في ما أهْلَكَ الأُمَمَ الخاليةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ فكأنهمُ استَعْجَلوا نُزولَ العذابِ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ على إثْرِ سُؤالِ العذابِ كقولِهِ تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي لهمْ نَصيبٌ مِنْ ذلكَ العذابِ مثلُ نَصيبِ أوائلِهِمْ مِنَ العذابِ؛ فيكونُ على التَّمثيلِ كما يُقالُ: حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ، وحَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، ويقالُ: صاعٌ بِصاعٍ، وكَيلٌ بِكَيلٍ، أي يُكالُ عليهِ مِثْلُ ما كيلَ لِغَيرِهِ ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الأمثالِ التي تُضرَبُ.

فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرنا مِنَ الذَّنوبِ، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ ذُكِرَ عنِ الأصَمِّ [أنهُ][١٠] قالَ: ذَكَرَ الذَّنوبَ، وهو الدَّلْوُ العظيمُ الذي كانوا يَقتَسِمونَ بهِ المياهَ، وكانَ مِنْ عادةِ العَرَبِ أنهمْ يَجتَمِعونَ، فيُرْسِلونَ دِلاءَهُمْ في البِئرِ، فكانَ كلُّ واحدٍ منهمْ يأخُذُ حَظَّهُ ونَصيبَهُ مِنَ الماءِ، فيقولُ لأهلِ مكةَ: لا تَستَعْجِلوا فإنَّ لكمْ نَصيباً مِنْ ذلكَ العذابِ كما كانَ لأولئكَ الدِّلاءِ[١١] التي تكونُ في البئرِ، فيأخُذُ كلُّ واحدٍ منهمْ نَصيبَهُ.

(١) في الأصل وم: يكتبون. (٢) في الأصل وم: فلما. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) عامتهم. (٥) من م، في الأصل: أنفس. (٦) في الأصل وم: فيبقوا. (٧) في الأصل وم: في. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: كالدلاء.

جنة السنة

وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ وأبو عوسَجَةَ: الذَّنوبُ الحظُّ والنَّصيبُ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ:][1] سُمِّيَ ذلكَ العذابُ ذَنوباً لِما يَتْبَعُ بَعضُهُمْ بَعضاً، واللهُ أعلَمُ.

فيقولُ: يَتْبَعُ العذابُ هؤلاءِ كما يَتْبَعُ أولئكَ كالدِّلاءِ يَتْبَعُ بَعضُها بَعضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي قد يَبْلُغون /٥٣٣ ـ أ/ وفيهِ فلا تَسْتَعْجِلونَ العذابَ، وهو الوقتُ الذي يَسْألونَ الرجوعَ كما أخبَرَ ﷻ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾][2] يومُ القِيامةِ، ولكنْ لم يُبَيِّنْ ذلكَ اليومَ ما هو؟ فَيَحْتَمِلُ غيرَهُ. والوَيلُ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ.

فإنْ قيلَ: كيفَ خَوَّفَ اللهُ، جَلَّ، وعَلَا، هذهِ الأُمَّةَ بما أنْزَلَ على الأُمَمِ الخاليةِ مِنَ الإسْتِئْصالِ والإهلاكِ، وقد عَفَا هذهِ الأُمَّةَ عنْ هذا، وأمَّنَهُمْ منهُ؟

قيلَ: إنما خَوَّفَهُمْ بِما ذَكَرَ لأنَّ المَعْنَى الذي اسْتَوجَبَ أولئكَ الإسْتِئْصالَ والإهلاكَ بهِ يَحْتَمِلُ أنْ يَتَحَقَّقَ ذلكَ في هؤلاءِ. وقد يَحْتَمِلُ ألّا يكونَ.

فالتَّخويفُ صحيحٌ لهؤلاءِ بهِمْ، وإنما يكونُ مِثلُ هذا التَّخويفِ في أوَّلِ الأمْرِ، ثم إنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ عَفَا عنهمْ بِفَضلِ النَّبِيِّ ﷺ ورَحْمَتِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ العَفْوُ لهمْ عنْ ذلكَ بالتَّأخيرِ عنهمْ إلى وقتٍ، وهو وقْتُ قَبْضِ أرواحِهِمْ وخُروجِهِمْ مِنَ الدنيا، وفي ذلكَ الوقْتِ يُعاقَبونَ بأنواعِ العذابِ، ويَنْزِلُ بهِمْ ما نَزَلَ بأولئكَ لا أنهمْ عُفُوا عنْ ذلكَ أصلاً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يَنْزِلُ بهِمْ ذلكَ كلُّهُ بِفَضْلٍ منهُ ورَحْمةٍ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

سورة الطور

كلها[1] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ و٢ و٣ قولُهُ تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ ثُمَّ اخْتُلِفَ بالقَسَمِ بالطورِ وما ذُكِرَ:

قالَ قائلونَ: القَسَمُ إنما هو بِمُنْشِئِ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ لا بهذهِ الأشياءِ نفسِها؛ إذِ اللهُ تعالى نَهَى الخَلْقَ بأنْ يُقْسِموا بِغَيرِهِ، فكيفَ يُقْسِمُ بنفسِهِ؟

وقالَ قائلونَ: فَيَجوزُ أنْ يُقْسِمَ، جَلَّ، وعَلا، بِما شاءَ وبِمَنْ شاءَ بالذي عَظُمَ قَدْرُهُ عندَهُمْ، وقد ذَكَرْنا أنَّ الإقسامَ إنما يكونُ بالأشياءِ التي عَظُمَتْ أقدارُها ومَحالُّها عندَ الخَلْقِ، يُقْسِمُ بها لِدَفْعِ الشُّبْهَةِ التي تَمْنَعُ وقوعَ العِلْمِ لهمْ بذلكَ والمَعْرِفَةِ بالذي اشْتَبَهَ عليهِمْ، والتَبَسَ، لِيَعْرِفوا أنَّ ذلكَ كائنٌ، لا مَحالَةَ، وأنهُ بالذي اشْتَبَهَ عليهِمْ، والْتَبَسَ، وأنهُ حقٌ بِما لو تَفَكَّروا في تلكَ الأشياءِ، وأمْعَنوا النَّظَرَ فيها على غيرِ قَسَمٍ لَوَقَعَ لهمُ العِلْمُ بذلكَ، وتَحَقَّقَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ اللهَ ﷻ أقْسَمَ بأشياءَ سِواهُ، وليسَ لِلْخَلْقِ ذلكَ لأنَّ قَسَمَ الخَلْقِ يُخَرَّجُ مُخرجَ الفَزَعِ إليهِ والتَّضَرُّعِ، ولا يجوزُ الفَزَعُ مِنْ سِواهُ والاسْتِعانَةُ بهِ.

فأمّا القَسَمُ مِنَ اللهِ تعالى حَقيقةً فهو على التَّذْكيرِ والتَّنْبيهِ لِلْخَلْقِ والتأكيدِ ما وَعَدَ لهمْ مِنَ الجَزاءِ. فيجوزُ لهُ القَسَمُ بكلِّ ما يكونُ لهمُ التَّذْكيرُ والتَّنْبيهُ والتأكيدُ، وإنْ كانَ بِغَيرِهِ وسِواهُ ممّا لذلكَ خَطَرٌ ومَحَلٌّ عندَ الناسِ وعندَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

وإنَّ[2] القسَمَ المَذْكورَ في القرآنِ لإثباتِ صِدْقِ إخبارِ الرسلِ إليهِمْ وأنهمْ[3] رسلُهُ وأنهمْ إذا فَعَلوا كذا يَنْزِلُ عليهِمْ مِنَ العذابِ كذا لأنَّ أولئكَ الرسلَ[4] لم يُكَذِّبوا اللهَ تعالى في خبرٍ حتى يكونَ قَسَمُهُ لإثباتِ صِدْقِ خَبَرِهِ. وإنما يَتَحَقَّقُ صِدْقُ خَبَرِهِمْ بما أقاموا مِنَ المُعْجِزاتِ والبراهينِ، لكنْ يَتَأَكَّدُ بالقَسَمِ، فَيَحْصُلُ ذلكَ بِذِكْرِ ما لَهُ خَطَرٌ ومَحَلٌّ عندَهمْ.

فأمّا قَسَمُ الخَلْقِ لإثباتِ أصلِ الصِّدْقِ فيجبُ أنْ يُقْسِموا بِذِكْرِ ما هو النهايةُ في العظمةِ والقُدْرَةِ في القلوبِ، وهو أسماءُ اللهِ تعالى وصفاتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ القَسَمُ بهذهِ الأشياءِ مِنَ الرسلِ ﷺ فإنْ كانَ كذلكَ فهو على الإضمارِ كأنهمْ أقْسَموا[5] بِمُنْشِئِ الطورِ ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ وما ذَكَرَ إلى آخِرِهِ، إذِ القَسَمُ مِنَ البَشَرِ يكونُ باللهِ ﷻ وصفاتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ واقعاً بالجبالِ كلِّها لِما أنَّ اللهَ ﷻ أنْشَأَ الأرضَ خَلْقاً تَميدُ بأهلِها، وأرسَى فيها هذهِ الجبالَ، وَوَتَّدَها، حتى اسْتَقَرَّتْ، وسَكَنَتْ، حتى وَصَلَ الخلائقُ إلى الإنْتِفاعِ بهذهِ الأرضِ والقرارِ، وصارتْ مِهاداً لهمْ وفِراشاً لهمْ على ما ذَكَرَ، يَتَقَلَّبونَ فيها، ويَتَصَرَّفونَ كيفَ شاؤوا، أو أرادوا، وحيثُ أحَبُّوا.

ثم إذا عَرَفوا ذلكَ لَزِمَهُمْ أنْ يَعْرِفوا أنَّ عليهِمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ. فإذا تَرَكوا ذلكَ ألْزَمَهُمْ عقوبةَ الكُفْرِ وجَزاءَهُ، وأوعَدَ لهمْ ذلكَ، فَيُؤَكِّدُ ما ذَكَرَ مِنَ القَسَمِ وقوعَ ما ذَكَرَ مِنَ العذابِ بهمْ حينَ[6] قالَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧و٨].

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر أن سورة الطور. (٢) في الأصل وم: ولأن. (٣) في الأصل وم: وأنه. (٤) في الأصل وم: الكفرة. (٥) في الأصل وم: قالوا. (٦) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالطورِ، هو جَبلٌ خاصٌ، وهو الجَبلُ الذي كلَّم اللهُ ﷻ [مِنْ فوقِهِ](١) موسى ﷺ وأنزَلَ عليهِ التوراةَ، وهو طورُ سيناءَ.

وذلكَ الجبلُ ممّا عَظُمَ قَدْرُهُ عندَ بَني إسرائيلَ حتى عَرَفوا قَدْرَهُ وفضلَهُ، فأقسَمَ بذلكَ الجبلِ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الآية: ٧]

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالطورِ [جبالاً خاصّةً](٢) وهي الجبالُ التي أوحَى عليها إلى رسلِهِ ﷺ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ: أوحَى اللهُ تعالى إلى موسى ﷺ وإلى عيسى ﷺ في جَبَلِ ساعورِ، وإلى محمدٍ ﷺ في جبلِ فارانَ، فأقسَمَ بها أنَّ ما وَعَدَ مِنَ العذابِ واقعٌ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ؛ فإنهُ أخبَرَ ﷺ عن أمكِنةِ الوَحْيِ وفَضلِ تلكَ الجبالِ؛ ومَعرِفةُ ذلكَ إنما هي(٣) منَ الكتبِ المُتقدِّمةِ، وهُمْ قد أحاطوا العِلْمَ بأنهُ لم يكنِ اختَلَفَ إلى أحدٍ مِمَّنْ لهُ مَعرفةٌ بتلكَ الكتبِ حتى يَعلَمَ منهُ. فَدَلَّ أنهُ باللهِ ﷻ عَرَفَ أمكِنةَ الوَحْيِ وفَضْلَ تلكَ الجبالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ يَحتمِلُ القَسَمُ بجميعِ الكتبِ المُنزَلَةِ على الأنبياءِ ﷺ إذْ بها يُوصَلُ إلى مَعرفةِ آياتِ الرسلِ ﷺ وإلى مَعرفةِ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى وإلى أخبارِ السماءِ ومَعرفةِ الأحكامِ والحُدودِ وغيرِ ذلكَ مِنْ أحكامٍ مِنْ وُجوهِ الحِكْمةِ؛ أقسَمَ بها ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الآية: ٧] بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتمِلُ أنَّ القَسَمَ يَرجِعُ إلى عَدَدٍ مِنَ الكُتُبِ التوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ والمَعروفةِ التي عَرَفَ أهلُ الإيمانِ بها حقَّها ونزولَها من السماءِ.

ويَحتمِلُ أنهُ راجعٌ إلى خاصٍّ مِنَ الكُتبِ، وهو القرآنُ بما عَظُمَ قَدْرُهُ عندَهُمْ لِما يَعجِزُ البشرُ عن إتيانِ مِثلِهِ على ما ذَكَرْنا في الطورِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتمِلُ ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ أنها الكُتُبُ التي تُكتَبُ فيها أعمالُ بَني آدمَ، ولم يَذكُروا جِهَةَ القَسَمِ بها، ولستُ أعرِفُ لهُ وجْهاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ أي غيرِ مَطويٍّ. وقالَ أبو عُبيدَةَ: الرَّقُّ الورقُ، وقالَ أبو عوسَجةَ: الرَّقُّ الكتابُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ يَحتمِلُ البيوتَ كلَّها جُملةً، وهي البيوتُ التي جَعَلَ اللهُ تعالى لِلخَلْقِ يَسكُنونَ فيها، ويَتَّقونَ بها الحَرَّ / ٥٣٣ ـ ب/ والبردَ، ويأمَنونَ فيها، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ الآية [النحل: ٨٠] ما عَرَفَ كلَّ منافعِها وعِظَمَ نِعْمَةِ اللهِ تعالى عليهِمْ في ذلكَ لِيَستأدِيَ شُكراً، فأقسَمَ بِما ذَكَرَ إنْ لم يَقُمْ بِوفاءِ الشُّكرِ استَوجَبَ العذابَ والعُقوبةَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ القَسَمُ بالبيتِ المَعمورِ، هو الكعبةُ، وهو مَعمورٌ، قد عَظَّمَ اللهُ شأنَهُ وأمرَهُ في قلوبِ الناسِ كافّةً: في قلوبِ الكفارِ والمؤمنينَ جميعاً، حتى كانتْ قريشٌ وسائرُ العربِ يَحُجّونَهُ، ويَزورونَهُ، ويُعظِّمونَهُ، فأقسَمَ بهِ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عُبيدَةَ: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ الكثيرِ الأهلِ، وأهلُ التأويلِ يقولونَ: البيتُ المَعمورُ، هو في السماءِ يَزورُهُ أهلُ السماءِ، ويَطوفونَهُ، لكنَّ القَسَمَ بهِ يَبْعُدُ لِما يَسبِقُ لهمُ المَعرفةُ والمُشاهدةُ بهِ، فكيفَ أقسَمَ بِشيءٍ لم يَعرِفوهُ، ولا وَقَعَ لهمُ العِلْمُ بالمشاهدةِ إلا أنْ يُقالَ: إنَّ القَسَمَ بهِ لأهلِ الكتابِ، وذلكَ في كتبِهِمْ، يَعرِفونَهُ. فأمّا مَنْ لم يَسبِقْ لهُ الخَبَرُ والمَعرفةُ بذلكَ مُشاهدةً فَبعيدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ هو السماءُ التي رَفَعَها بلا عَمَدٍ يَرَونَهُ مِنْ أسفَلَ ولا تَعليقٍ مِنَ الأعلَى على

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جبال خاص. (٣) في الأصل وم: هو.

بُعدِها مِنَ الأرضِ وسَعَتِها وعَرْضِها وشِدَّتِها وغِلَظِها لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ فَعَلَ هذا لا يَفْعَلُهُ لِغيرِ شيءٍ، بل لِيَمْتَحِنَ: يأمُرُ، وينْهى، لِيَستأدِيَ شُكْرَهُ. فَمَنْ خالَفَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ، وكَفَرَ نِعَمَهُ، وانْتَهَكَ مَحارِمَهُ، اسْتَوجَبَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ، ولِيُعلَمَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرْنا قادرٌ على كلِّ شيءٍ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، يَذْكُرُ سُلْطانَهُ وقُدْرَتَهُ وعَظَمَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قالَ أهلُ الأدبِ: هو البَحْرُ المَلآنُ الحارُ لأنهُ، جَلَّ، وعلا، مُنْذُ أنشأهُ حاراً مُمْتَلِئاً عَميقاً، لم يَتَغَيَّرْ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ ولا في حالٍ مِنَ الأحوالِ. بل كانَ على حالةٍ واحدةٍ حارًّا مالحاً مُمْتَلِئاً عَميقاً عريضاً، ليسَ كسائرِ الأنهارِ التي ربَّما تَتَغَيَّرُ عَنْ جِهتِها مِنْ قِلَّةِ الماءِ وسُكونِهِ وغُورِها في الأرضِ وامْتِلائِها مِنَ الطينِ وحاجتِها إلى الحَفْرِ وغيرِ ذلكَ مِنَ التَّغَيُّرِ الذي يكونُ بها.

فأمّا البحرُ [فهو][1] على حالةٍ واحدةٍ في الأحوالِ كلِّها.

الآيتان ٧ و٨ أقْسَمَ بهِ [ثم قالَ:][2] ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ بَيَّنَ الوقتَ الذي يَنْزِلُ بهِمُ العذابُ المَوعودُ حينَ قالَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ ودَلَّ أنَّ وقتَ تعذيبِ هذهِ الأمةِ يومُ القيامةِ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ وصفُ ذلكَ اليومِ بالأهوالِ [والشِّدَّةِ لأنهُ تعالى ذَكَرَ أنَّ السماءَ تَمورُ مَوراً، أي تَسْتَديرُ اسْتِدارةً، وتَتَحَرَّكُ تَحَرُّكاً، وذَكَرَ سيرَ الجبالِ، وهذهِ الأشياءُ مِنْ أشَدِّ الخلائقِ وأصلَبِها، فَهَولُ ذلكَ اليومِ وشِدَّتُهُ عَمِلَ فيها][3] ما ذَكَرَ مِنَ التَّحَرُّكِ والسَّيرِ والتَّغْييرِ وغيرِ ذلكَ.

وفيهِ أنَّ هذا العالَمَ كلَّهُ أنشأهُ بحيثُ يُفْنيهِ، ويُنْشِئُ عالماً آخَرَ لأنهُ ذكرَ فيهِ التَّغْييرَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ ذَكَرَ[4] مرَّةً سَيْرَها وتَحَرُّكَها حينَ[5] قالَ: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ وذَكَرَ السماءَ وتَحَرُّكَها ومَورَها، وذَكَرَ الأرضَ انْشِقاقَها حينَ[6] قالَ: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [القمر: ٤٦] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقالَ [في آيةٍ أُخرى][7]: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] وقالَ هَهنا: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

وكذلكَ قالَ في السماءِ والأرضِ اختِلافَ الأحوالِ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فدَلَّ إثباتُ التَّغْييرِ في هذهِ الأشياءِ على هلاكِها كما دَلَّ أنواعُ الأعراضِ والتَّغَيُّرِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ في أهلِها على هلاكِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي المُكذِّبينَ لِرُسُلِهِمْ ﷺ ويَحْتَمِلُ لِتَوحيدِهِ أو لِحُجَجِهِ أو لِلْبعثِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ نَعَتَهُمْ، ووَصَفَ أمرَهُمْ حينَ[8] قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ والخوضُ هو البَحْثُ عنِ الشيءِ إلّا أنَّ الخَوضَ المُطلَقَ [ذِكْرُهُ، واسْتِعْمَلَهُ][9] في الباطلِ خاصَّةً.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي يُدْفَعونَ في النارِ على وجوهِهِمْ.

وقالَ أبو عُبَيدةَ: يُدْفَعونَ دَفْعاً في القَفاءِ خاصةً.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ هو على الإضمارِ؛ كأنهُ يُقالُ لهم: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يُقالُ لهم في الآخرةِ لَمّا يُلْقَونَ[10] في النارِ: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ﴾ مقابلَ ما قالوا هُمْ لِلْحُجَجِ والبراهينِ في الدنيا: إنها سِحْرٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: و. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ذكروا واستعملوا. (١٠) في الأصل وم: القوا.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى](١): ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: يُقالُ لهمْ لَمَّا يُدْخَلُونَ(٢) النارَ: لعلَّ ما أنتُمْ فيهِ، ليسَ بعذابٍ، وإنها ليسَتْ بنارٍ، وأنتُمْ لا تُبْصِرونَ ذلكَ، كما أخبَرَ عنهمْ في الدنيا أنهمْ يقولونَ [عن حُجَجِهِ حينَ](٣) قالَ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ الآية [الحجر: ١٤و١٥] فقالَ مُقابلَ ذلكَ: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي لَعَلَّكُمْ لا تُبصِرونَ.

والثاني: يقولُ: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أنَّ هذا يَنْزِلُ بكمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذا كما قالَ إبليسُ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] فعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سَواءٌ عليكُمْ أصَبَرْتُمْ أو جَزِعْتُمْ فلا يَنْفَعُكُمْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ذلكَ استَوجَبْتُمْ بأعمالِكُمْ، لا أنْ أوجَبْتُ عليكُمْ شيئاً، لمْ تَستَوجِبوهُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ يَحْتَمِلُ في جَنّاتٍ وفي نَعيمٍ، ويَحْتَمِلُ في جَنّاتٍ، فيها نَعيمٌ، فتكونُ الواوُ بِمَعنى مَعَ أي في جَنّاتٍ مَعَ نَعيمٍ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال بعضُهُمْ: أي ناعِمينَ مُتَنَعِّمينَ، وقالَ بعضُهُمْ: مُعْجَبِينَ، وهما واحدٌ: المُعْجَبُ بهِ، والناعِمُ سَواءٌ لأنهُ إذا كانَ ناعماً مُتَنَعِّماً كانَ مُعْجَباً مَسروراً، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعِمينَ، وفكِهِينَ(٤) مُعْجَبينَ بذلكَ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

ثم ذكَرَ هَهنا: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذكَرَ في سورةِ: والذارياتِ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الآية: ١٦] فالفاكهةُ ما ذكَرْنا، وقولُهُ ﷻ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بالشُّكرِ منهُ الحَمْدِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: وقاهُمْ أي عَصَمَهُمْ في الدنيا عنِ الأعمالِ التي تُوبِقُهُمْ، وتُهلِكُهُمْ لو أتَوا بها، وعَمِلوها. فإذا عَصَمَهُمْ عن ذلكَ وقاهُمْ عذابَ الجَحيمِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: وقاهُمْ أي عَفَا عنهمْ في الآخِرَةِ، وصَفَحَ عمّا عَمِلوا مِنَ الأعمالِ الموبِقاتِ في الدنيا ما لولا عَفوُهُ إيّاهُمْ لكانَتْ تُوبِقُهُمْ، ويَستَوجِبونَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كأنهُ على الإضمارِ، أي يُقالُ لهمْ عندَما [يُدْخَلونَ الجنةَ، ويُنْزَلونَ](٥) منازِلَهُمْ: كُلوا، واشْرَبوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ أي ليسَ عليهمْ في ذلكَ خَوفُ التَّبِعَةِ ولا خَوفُ حُدوثِ مَكروهٍ في أنفسِهِمْ ولا آفةٍ، لأنَّ ذلكَ يُنَغِّصُ عليهمْ ذلكَ، ليسَ كما يُؤكَلُ في الدنيا فيهِ خَوفُ التَّبِعَةِ وخَوفُ حُدوثِ المَكروهِ والآفاتِ في أنفسِهِمْ والضَّرَرِ، فأخبَرَ أنْ يكونَ لهمْ في الجنةِ ذلكَ لئلا يُنَغِّصَ عليهمْ نِعَمَها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ذكَرَ لهمْ في الجنةِ جميعَ ما تَرْغَبُ إليهِ أنفسُهُمْ في الدنيا، ويَتَمَنَّونَ بها كقولِهِ تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٣و٣٤] وقولِهِ ﷻ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾/ ٥٣٤ ـ أ/ ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣و١٤و١٥و١٦] وأشباهَ ذلكَ ممّا يَكثُرُ عَدُّهُ ممّا تُحَدِّثُ بهِ أنفسُهُمْ في الدنيا، ورَغَّبَهُمْ فيهِ، لِيَرْغَبوا في طَلَبِها، ولِيَترُكوا ما في الدنيا مِنْ ذلكَ، لِيَصْفُوَ لهمْ ذلكَ في الآخرةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ادخلوا. (٣) في الأصل وم: لحججه حيث. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٢٥٥.
(٥) في الأصل وم: ادخلوا الجنة ونزلوا.

جنة السنة

وهذهِ الأحوالُ التي ذَكَرَ، وأخبرَ أنها[1] تكونُ لهمْ في الآخِرةِ: مِنَ الاتِّكاءِ على السُّرُرِ والمُقابلةِ في المَجلِسِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ التي ذَكَرَها في الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الباءُ في ﴿بِحُورٍ﴾ زائدةٌ، مَعناهُ: وزوَّجْناهُمْ حورَ العِينِ][2] كما يقالُ: تَزَوَّجتُ بفلانةٍ وفلانةٍ. فعلى ذلكَ هذا.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

أحدُها: ما قالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: أي يَلْحَقُ الأولادُ بإيمانِهِمْ وأعمالِهِمْ دَرَجاتِ الآباءِ والأمَّهاتِ، وإنْ قَصُرَتْ أعمالُ الذُّرِّيَّةِ عن أعمالِ الآباءِ والأمَّهاتِ، لأنَّ الدَّرَجاتِ إنما تكونُ بالأعمالِ؛ فهمْ، وإنْ لم يَبْلُغوا في الأعمالِ مَبلَغَ آبائِهِمْ، فإنهمْ يَلْحَقونَ بهمْ في الدَّرَجاتِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: ما][3] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الذُّرِّيَّةَ التَقَنُوا الإيمانَ عن آبائِهِمْ وأمَّهاتِهِمْ، وأخذوهُ منهمْ، ولم يَبحَثوا عن حُجَّتِهِ وبُرْهانِهِ حتى يكونَ أخذُهُمْ وقبولُهُمْ دونَ[4] البحثِ عنِ الحُجَّةِ والبرهانِ. فهمْ، وإنْ كانوا مُقَلِّدينَ آباءَهُمْ في الإيمانِ مُتَلَقِّنينَ منهمْ، فإنهمْ يَلْحَقونَ بآبائهِمْ، وإنْ كانَ الإيمانُ عنِ الحُجَّةِ أفضَلَ مِنَ الإيمانِ بالتَّقليدِ والالْتِقانِ.

[والثالثُ: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الذُّرِّيَّةَ، وإنْ لم يَبْلُغوا مَبْلَغاً يكونُ منهمُ الإيمانُ، فإنهمْ يَلْحَقونَ بآبائهِمْ وأمَّهاتِهِمْ في إيمانِهِمْ، وإنْ لم يكنْ مِنهمُ الإيمانُ، ولم يأتُوا بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ على تأويلِ أبي بكرٍ، أي وما ألَتْنا مِنْ أعمالِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ شيءٍ، أي ما نَقَصْنا أعمالَ آبائِهِمْ في الثوابِ، وإنْ قَصُرَتْ أعمالُهُمْ عن أعمالِهِمْ، بل يَبْلُغونَ دَرَجاتِ آبائِهِمْ، ويُوَفَّرونَ كما يُوَفَّرُ على آبائِهِمْ، وتأويلُهُ أبْعَدُ هذهِ التأويلاتِ التي ذَكَرْنا.

وعلى تأويلِ غيرِهِ أي ما نَقَصْنا مِنْ أعمالِ آبائِهِمْ شيئاً أي أنهمْ، وإنْ بَلَغوا مَبْلَغَ الآباءِ، فإنَّ الآباءَ لا يُنْقَصونَ مِنْ أعمالِهِمْ شيئاً، ذَكَرَ هذا حتى لا يُظَنَّ أنهُ يُنْقَصُ مِنْ ثوابِ آبائِهِمْ، ويُعْطى لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا صِلَةُ قولِهِ ﷺ: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٦] ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وهو يَرُدُّ قولَ مَنْ يقولُ: إنَّ الرهنَ لِصاحِبِهِ، لهُ أنْ يَحْلُبَهُ وأنْ يَرْكَبَهُ وأنْ يَنْتَفِعَ بهِ، ثم يُرَدُّ إلى المُرْتَهِنِ، ولو كانَ لهُ هذا لكانَ لا يكونُ رَهْناً، إذْ أخبَرَ أنهُ رَهينٌ أي مَحْبوسٌ، فالرَّهْنُ هو الذي يُحْبَسُ في كلِّ وقتٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ﴾ أي أمْدَدْناهمْ فاكهةً [والباءُ في بفاكهةٍ][6] زائدةٌ كما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الآية: ٢٠].

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ إخباراً عن دَوامِها وكَثْرَتِها، أي لا تَنْقَطِعُ، ولا تَقِلُّ، وليسَتْ كَفَواكِهِ الدنيا لا توجَدُ في كلِّ وقتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أخبَرَ أنهمْ يأكلونَ جميعَ ما يَشْتَهونَ، ويَجِدونَ ما يَتَمَنَّونَ، ليسَ كالدنيا، ربَّما تَشْتَهي شيئاً لا تَجِدُهُ، وتَجِدُ ما [لا][7] تَشْتَهيهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يَتَعاطَونَ فيها كأساً، ويأخُذُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ كما يكونُ في الدنيا؛ لا يكونُ لكلِّ أحدٍ كأسٌ على حِدَةٍ. وهو كما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كانَ يَغْتَسِلُ مَعَ بَعْضِ أزواجِهِ، وربما تَتَنازَعُ أيديهما.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: عن. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل: الفاكهة، في م: والباء في الفاكهة. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقالَ أبو بكرٍ الكيسانيُّ: الكأسُ هو الخمرُ، وقالَ غيرُهُ: هو الإناءُ المَملوءُ مِنَ الخَمْرِ، وأمّا الذي لا شرابَ فيه فهو الإناءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ بالرَّفعِ والتَّنوينِ. [وقُرِئَ[1]: لا لَغْوَ فيها ولا تأثيمَ][2].

قالَ أبو عُبَيْدَةَ: إنهُ خَبَّرَ بأنهُ ليسَ فيها لَغْوٌ ولا تأثيمٌ كما قالَ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] وقُرِئَ بالنَّصبِ فيهما على التَّنزيهِ، وهو وجهٌ غيرُ مَدْفوعٍ.

وتأويلُ الآيةِ: أي لا يكونُ منهمْ مِنَ اللَّغْوِ ما يُؤْثَمُ مِنَ القولِ كما يكونُ في شرابِ الدنيا مِنَ اللَّغْوِ وقولِ الإثمِ. وقيلَ: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ لأنها أُحِلَّتْ لهمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ يُرَغِّبُهُمْ فيها [في ما تَرْغَبُ إليهِ][3] أنفُسُهُمْ في الدنيا مِنَ الخَدَمِ والفواكِهِ والبُسُطِ لِيَطْلُبوها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: يَتَساءلونَ عنِ المَعاصي التي كانَتْ منهمْ في الدنيا، واسْتَدَلَّ بقولِهِ على إثْرِ هذهِ الآيةِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.

الآية ٢٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾][4] يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فِىٓ أَهْلِنَا﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

والثاني: أي كنّا قَبْلُ على أنفسِنا وأهلِنا مُشفِقينَ أي خائفينَ على ما كانَ مِنّا مِنَ الجناياتِ والمَعاصي. دليلُهُ[5] قولُهُ تعالى [على إثْرِهِ][6]: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٢٨] أي، واللهُ أعلمُ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ على أنفُسِنا لِجناياتِنا وراجينَ رَحْمَتَهُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٢٨] وَصَفَهُمُ[7] اللهُ تعالى في غيرِ آيةٍ[8] مِنَ القرآنِ بالإشفاقِ والخَشيةِ والطَّمعِ والرجاءِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] ونَحْوِ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ قُرِئَ أنهُ هو البَرُّ بنَصْبِ[9] الألفِ وخَفْضِهِ. فَمَنْ كَسَرَهُ حَمَلَهُ على الابْتِداءِ، أي ربُّنا كذلكَ على كلِّ حالٍ. ومَنْ نَصَبَ أرادَ: يَدْعوهُ ثانياً لأنهُ هو البَرُّ الرحيمُ، أي يَدْعوهُ لأجلِ أنهُ كذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أنَّ لِلّهِ أنْ يُعَذِّبَهُمْ بِعَذابِ السَّمومِ، لكنَّهُ بِمَنِّهِ وفَضْلِهِ وقاهُمْ. ولو كانَ عليهِ ذلكَ كما قالتِ المعتزلةُ: لم يكُنْ لِلْمِنَّةِ مَعْنًى.

الآيتان ٢٨ و٢٩ وقولُهُ تعالى: [﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾][10] ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي بما أنعَمَ عليكَ منَ النُّبوّةِ والقرآنِ لسْتَ بكاهنٍ ولا مَجنونٍ. ثم هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي إنكَ لم تُقابِلْ نِعْمَةَ ربِّكَ [بما يَجِبُ أنْ تُبْتَلَى بِجُنونٍ أو كهانةٍ أو ما ذَكَروا قَبْلُ.

والثاني: أي أنتَ بِنِعْمَةِ ربِّكَ][11] عوفيتَ، وعُصِمْتَ عمّا ذَكَروا مِنَ الجُنونِ والسِّحرِ وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

دلَّتْ هذهِ الآيةُ على أنهمْ قالوا: إنهُ كاهنٌ ومَجنونٌ. وكذا كانتْ عادةُ أولئكَ؛ إنهمْ يَنْسُبونَ الحُجَجَ عندَ عَجْزِهِمْ عنْ مُقابَلَتِها إلى السِّحرِ، والأنباءَ المُتَقَدِّمَةَ إلى الكهانةِ، وخِلافَ رُسُلِهِمْ ﷺ لِقادَتِهِمْ وفَراعِنَتِهِمْ إلى الجُنونِ، والكلامَ المُسْتَمْلَحَ والمُسْتَلَذَّ إلى الشِّعْرِ تَلْبيساً للأمرِ على أتباعِهِمْ. هذهِ كانَتْ عادَتُهُمْ معَ العِلْمِ منهمْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ليسَ كذلكَ لِما لم يَخْتَلِفْ إلى أحدٍ مِنَ الكَهَنَةِ ولا السَّحَرَةِ، ولا كانَ القرآنُ على نَظْمِ الشِّعْرِ، وعَجَزوا عنْ إتيانِ مِثْلِهِ، وهُمْ عنِ الشِّعْرِ غَيْرُ عاجزينَ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد وقوله تعالى. انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ٢٥٩. (٣) في الأصل وم: رغب إليهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وصف. (٨) في الأصل وم: آي. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٦/ ٢٦٠. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٣٠ ثم لمّا عَجزوا عن مُقابَلَةِ ما أتاهُم مِنَ الحُجَجِ قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ أي عن قريبٍ يَرجِعونَ إلى دينِنا وإلى ما نَحنُ فيهِ، وكانوا يقولونَ للضعفاءِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ: إنَّ محمداً يموتُ، ويَصيرُ الأمرُ لنا، وترجِعونَ إلينا.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي تَربَّصوا ذلكَ فإني مُتربِّصٌ ذلكَ بكمْ؛ فكانوا جميعاً أو عامَّتُهُمْ، أعني الذينَ قالوا [عنْ رسولِ][1] اللهِ ﷺ: إنهُ ﴿شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ أُهلِكوا قَبْلَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ فَحلَّ بهمْ ما ظَنّوا برسولِ اللهِ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبيُّ: رَيبُ المَنونِ حوادثُ الدهرِ وأوجاعُهُ ومَصائبُهُ، والمَنونُ الدهرُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: رَيبُ المَنونِ أي المَنيَّةُ، ورَيبُها ما يأتي بهِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾ [يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما:][2] قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ حَرْفَ / ٥٣٤ ـ ب/ أمْ [يُفيدُ تحقيقَ النَّفيِ، أي][3] لَيسَتْ لهمْ عقولٌ تأمُرُهُمْ بذلكَ، أي مَنْ يأمُرُ بهذا فليسَ بعاقلٍ.

والثاني: على سَفَهِ أحلامِهِمْ: أيُّ عقلٍ يأمُرُ بعبادةِ الأصنامِ، ويَنْهَى عن عبادةِ اللهِ تعالى؟ أي لا عَقلَ يأمُرُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي طاغونَ في ذلكَ، والطُّغيانُ، هو المُجاوزةُ عنِ الحَدِّ في العداوةِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي يَعلَمونَ أنكَ لستَ بمُتقوِّلٍ، ولكنْ يَنسُبونَكَ إلى التَّقوُّلِ لِتكذيبِهِمْ بآياتِ اللهِ تعالى، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بالتَّخفيفِ[4] والتَّشديدِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

يقولُ: إنهمْ لا يقولونَ: إنكَ كاذبٌ في ما تقولُ، ولا يَنسُبونَكَ إلى الكذبِ، ولكنْ إنما يُكذِّبونَ الآياتِ، ويَعتقِدونَ كِذبَها.

فعلى ذلكَ ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ على عِلمٍ منهمْ أنكَ لم تَتقوَّلْ، ولكنِ اعتَقَدوا تكذيبَ الآياتِ والجُحودَ لها، فيقولونَ: إنكَ تَتقوَّلُ.

الآية ٣٤ [وقولُهُ تعالى:][5] ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنَّ محمداً يَتقوَّلُ على اللهِ فَلْيأتوا بمِثلِ ما أتى محمدٌ.

ثم قولُهُ ﷺ: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ وإنْ خُرِّجَ مُخرَجَ الأمرِ في الظاهرِ، فهو في الحقيقةِ ليسَ بأمرٍ؛ لأنهُ لا يَحتمِلُ أنْ يأمُرَهُمْ إنْ تابوا بالكَذِبِ والافتِراءِ. ثم هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الإعجازِ عنْ أنْ يأتوا بمِثلِهِ.

والثاني: على التَّوبيخِ والتَّوعُّدِ على ما قالوا على رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ الافتِراءِ والتَّقوُّلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أي أمْ خُلِقوا مِنْ غيرِ أبٍ، ولكنْ ليسَ في ما ذكروا كَثيرُ فائدةٍ لو خُلِقوا مِنْ غيرِ أبٍ إلّا أنْ يُريدوا ذلكَ حتى لم يَعرِفوا مَنْ خَلَقَهُمْ، ومِمَّنْ خُلِقوا. بل كانَتْ لهمْ آباءٌ عَوَّدوهُمْ، وأعلَموهُمْ بأنَّ لهمْ خالقاً، وأنهمْ مَخلوقونَ، وليسوا بخالِقينَ، أو كلامٌ نَحوُهُ. فكيفَ يَتكلَّمونَ بما هو سَفَهٌ؟ وكيفَ يُصِرّونَ عليهِ.

---

(١) في الأصل وم: لرسول. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم، انظر ما ذكره المؤلف في تفسير قوله تعالى ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ [السجدة: ٣]. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٢/ ٢٦٥. (٥) في الأصل وم: من قال.

جنة السنة

وعندنا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي يَعْلَمونَ أنهمْ [لو خُلِقوا مِنْ غَيرِ][1] شيءٍ، أو خُلِقوا مِنْ تُرابٍ ولِغَيرِ مَعْنىً وحِكْمَةٍ لكانَ خَلْقُهُمْ عَبَثاً باطلاً، وهُمْ يَعْلَمونَ أنهمْ لم يُخْلَقوا لَعِباً وباطلاً.

والثاني: يُقالُ: لا يَخْلُو؛ إمّا أنْ يكونوا خُلِقوا مِنْ غَيرِ شيءٍ، وإمّا خُلِقوا مِنْ ترابٍ وماءٍ. فكيفَ ما كانَ، فَدَلَّ أنَّ قُدْرَتَهُ ذاتيَّةٌ لا مُستفادةٌ[2]، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ أي ليسوا هُمْ بخالِقِينَ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي يَعْلَمونَ أنهمْ لم يَخْلُقوهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنَّ ما يقولونَ إنما يقولونَ على الظَّنِّ لا على اليَقينِ.

والثاني: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي لا يُصَدِّقونَ؛ وذلكَ في قُوَّةِ عِلْمِ اللهِ تعالى بأنهمْ لا يُؤمِنونَ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا ففيهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ إذْ[3] أخبَرَ عنِ الغَيبِ.

وإنْ كانَ التأويلُ هو الأوّلَ ففيهِ أنَّ جميعَ ما يقولونَ إنما يقولونَ على الظَّنِّ والجَهْلِ لا على اليَقينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ الآية، أي ليسَ عندَهُمْ خزائِنُ ربِّكَ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي لم يَخْلُقوا. فَعَلى ذلكَ هذا، ليسَ عندَهُمْ خزائِنُ ربِّكَ ولا هُمُ المُصَيطِرونَ.

ثم الآيةُ تَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: تَحْتَمِلُ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي الذي مَنَعَهُمْ عنِ اتّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ هو المَنَعَةُ التي عندَهمْ، ليسَتْ تلكَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فيكونوا هُمْ لذلكَ أحَقَّ بالرسالةِ، أي ليسوا بأحَقَّ.

[والثاني][4]: يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي عِلْمُ الغَيبِ، اطَّلَعوا على ذلك، فَعَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد تَقَوَّلَ على اللهِ تعالى؟ أي ليسَ لهمْ عِلْمُ الغَيبِ.

[والثالثُ][5]: يحتملُ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي عِلْمُ الغَيبِ، ليسَ ذلكَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ بل عندَ[6] رسولِهِ ما يُخْبِرُهُ ربُّهُ، جَلَّ، وعَلا، ليسَ عندَهُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي [ليسوا هُمُ المُسَلَّطينَ][7] على أرزاقِهِمْ ولا أرزاقِ غَيرِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: المُسَيطِرُ[8] الرَّبُّ تعالى؛ يُقالُ: صَيطَرَ فلانٌ، أي صارَ رَبًّا، وهو قولُ القُتَبيِّ.

وقالَ الزَّجّاجُ: المُصَيطِرُ المسَلَّطُ؛ يُقالُ: صَيطَرَ، أي تَسَلَّطَ.

وقالَ أبو بَكْرٍ: المُصَيطِرُ الغالبُ القاهرُ. لكنَّ الغَلَبَةَ والقَهْرَ بالحُجَّةِ عليهِمْ. وهذا يُخَرَّجُ على المُقابَلَةِ برسولِ اللهِ ﷺ إلى ما ذَكَرَ، ويَحْتَمِلُ على غَيرِ المُقابَلَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أم لهم سَبَبٌ وقُوَّةٌ، فيَصعَدوا السماءَ، فيَسْتَمِعوا مِنْ أخبارِها، فيَعْلَموا بذلكِ أنَّ محمداً ﷺ تَقَوَّلَ على اللهِ تعالى؟

والثاني: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾؟ أي لهمْ حُجَّةٌ وبرهانٌ ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أنَّ رسولَ الله ﷺ على ما ذكَروا؛ فإنْ قالوا: نَعَمْ لنا ذلكَ، فيُقالَ لهمْ عندَ ذلكَ: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، اي ليسَ لهمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لم يخلقوا الغير. (٢) من م، في الأصل: مستعانة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل ،م: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٧) في الأصل وم: ليس هم المسلطون. (٨) في م: في الأصل: المصيطرون.

جنة السنة

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ هذا ليسَ مِنْ نوعِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، لأنَّ ما تقدَّمَ مِنَ الآياتِ بَينَهُمْ وبَينَ رسولِ اللهِ ﷺ على المُقابَلَةِ، وهذا راجعٌ إلى اللهِ تعالى في الظاهرِ على ما سَبَقَ منهمُ القولُ: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في نِسبتِهِمُ البناتِ إلى اللهِ ﷻ وهُمْ يأنفونَ مِنْ نِسبتِهِنَّ إليهِمْ، فَيُسَكِّنُ بذلكَ صَدْرَ رسولِ اللهِ ﷺ ويُصَبِّرُهُ على أذاهُمْ، أي إنهمْ يَتَقَوَّلونَ[1] في ما قالوا، فاصْبِرْ على ما يقولونَ فيكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ إنْ خُرِّجَ ما ذكَرْنا مِنَ المُقابَلَةِ برسولِ اللهِ ﷺ [أنْ يكونَ][2] مَعْناهُ: أمْ لرسولِ اللهِ البناتُ ولكُمُ البَنونَ، فَيَتْرُكونَ اتِّباعَهُ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي لَسْتَ تَسألُهُمْ أجراً على اتِّباعِكَ، فَيَمْنَعَهُمْ ذلكَ عنِ اتِّباعِكَ؛ يَذْكُرُ أنْ ليسَ لهمْ أسبابُ المَنْعِ، وهذهِ أسبابُ المَنْعِ، وإنما امْتَنَعوا عنِ الاتِّباعِ تَعَنُّتاً ومُكابَرَةً.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي عندَهُمْ عِلْمُ الغيبِ، فَيَعْلَمونَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تَقَوَّلَهُ، بل ليسَ عندَهُمْ ذلكَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي يُريدونَ كيداً برسولِ اللهِ ﷺ لكنْ هُمُ المَكيدونَ أي إليهِمْ يرجِعُ ذلكَ الكيدُ الذي أرادوا برسولِ اللهِ ﷺ.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ الكيدُ الذي أخبَرَ ﷻ أنهُ عليهِمْ في الدنيا على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنهمْ قُتِلوا يومَ بَدْرٍ، ويَحْتَمِلُ ذلكَ في الآخِرةِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أي أم لهمْ إلهٌ يأمُرُهُمْ بالذي يَدَّعون على رسولِ اللهِ ﷺ أي أمْ لهمْ إلهٌ غيرُ اللهِ يَمْنَعُهُم مِنْ عذابِ اللهِ تعالى، أي ليسَ لهمْ. ويَحْتَمِلُ: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يأمُرُهُم بالذي يَدَّعونَ على رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ التَّقَوُّلِ على اللهِ تعالى، أو يُطْلِعُهُمْ على ذلكَ، ويَدْفَعُ عنهمْ ما يَنْزِلُ مِنَ السماءِ مِنَ العذابِ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧و٨].

ثم نَزَّهَ نفسَهُ عمّا أشرَكوا بهِ مِنَ الأوثانِ في تَسْمِيَةِ الألوهيّةِ واستِحْقاقِ العبادةِ، فقالَ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ يُخْبِرُ عن عِنادِ أولئكَ الرؤساءِ ومكابرتِهِمْ. وإنما قالوا على التَّعَنُّتِ لا على الاسْتِرْشادِ. وإنَّ هذهِ الآياتِ مِنْ قولِهِ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [الطور: ٣٢ إلى ٤٣] كلُّها مُحاجَّةٌ مع أولئكَ الرؤساءِ المُعانِدينَ/ ٥٣٥ ـ أ/ يُبَيِّنُ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾؛ يقولُ: وإنْ يَرَوا ما يُوعَدونَ مِنْ عذابٍ يَنْزِلُ بهِمْ يقولوا لِتَعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ: إنهُ سحابٌ، ليسَ بعذابٍ، وهو كما قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١] يُخْبِرُ عن عِنادِهِمْ، وكقولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩] لا يؤمنونَ، ويقولونَ ما ذكَرَ: إنهُ ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ تَعَنُّتاً ومُكابَرَةً.

الآية ٤٥ ثم أمَرَ رسولَهُ ﷺ بأنْ يُعْرِضَ عنهمْ وألّا يَشْتَغِلَ بهِمْ لِما عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يؤمنونَ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يُؤْيِسُ رسولَ اللهِ ﷺ عن إيمانِهِمْ، ويأمُرُهُ بالصَّبْرِ على أذاهُمْ وتَرْكِ المُكافَآتِ لهمْ، ويُخْبِرُهُ[3] أنهمْ لا يؤمنونَ إلّا في اليومِ الذي فيهِ يُصْعَقونَ، أي يَموتونَ.

ثم قُرِئَ قولُهُ ﴿يُصْعَقُونَ﴾ بِفَتْحِ الياءِ وضَمِّها[4]. فمَنْ قالَ بالنَّصْبِ احْتَجَّ بقولِهِ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] ولم يَقُلْ فَصُعِقَ.

---

(١) في الأصل وم: يقولون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وضمه، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٦/ ٢٦٢.

جنة السنة

ثم تَختمِلُ الصَّعْقةُ التي ذكَرْنا ما ذكَرْنا، أي يَموتونَ، ويَحتَمِلُ أي تَنزِلُ بهِمُ الشدائدُ والأوجاعُ، ولكنْ لا يَنفَعُهُمُ الإيمانُ في ذلكَ الوقْتِ لأنهُ إيمانُ دَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ برسولِ اللهِ ﷺ عمّا يَنزِلُ بهِمْ يومئذٍ جَزاءً على كَيدِهِمْ برسولِ اللهِ ﷺ.

ويَحتَمِلُ ألّا تُغْنيَهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى الأصنامُ التي عَبَدوها رَجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ، أو تُقرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلفى، كما أخبَرَ ﷻ واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي لِمُشركي مكةَ عذابٌ[1] دونَ عذابِ النارِ؛ وهو القَتْلُ بالسيفِ يومَ بَدْرٍ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لِلكَفَرةِ عذابٌ في الدنيا دونَ الذي ذَكَرَ يومَ القيامةِ حينَ[2] قالَ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾.

ثم قولُهُ[3]: لهمْ عذابٌ دونَ ذلكَ، وهو ما داموا كُفّاراً فهمْ في عذابٍ، ويكونونَ[4] في خوفٍ وذُلٍّ وخِزْيٍ. فذلكَ كلُّهُ عذابُ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَنتَفِعونَ بِعِلْمِهِمْ، أو لا يَعلَمونَ حقيقةَ [العِلْمِ][5] لِما لم يَنظُروا في أسبابِ العِلْمِ، ولم يَتفَكَّروا فيها حتى تَمنَعَهُمْ، وتَزجُرَهُمْ عنْ صَنيعِهِمْ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ دلَّ هذا الحَرْفُ أنَّ النبيَّ ﷺ قد كُلِّفَ أمراً شديداً شاقّاً عليهِ حتى قالَ لهُ: ﴿وَاصْبِرْ﴾ إذِ الأمرُ بالصَّبرِ لا يكونُ إلّا في أمورٍ شاقّةٍ شديدةٍ، وكذلكَ[6] قالَ لهُ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أمَرَهُ بالصَّبرِ على ما كَلَّفَهُ كما صَبَرَ إخوانُهُ على ما لَحِقَهُمْ مِنَ الأمورِ الشاقّةِ. وما قالَ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] أخبَرَ أنهُ لو صَبَرَ إنما يَصبِرُ بِتوفيقِ اللهِ تعالى إيّاهُ.

[وفيهِ][7] أنهُ إذا صَبَرَ يكونُ صَبْرُهُ لِلّهِ تعالى حتى يَسْهُلَ عليهِ احتمالُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما أمَرَ مِنْ تَبليغِ الرسالةِ إلى الفراعنةِ الذينَ كانَ هَمُّهُمُ القَتْلَ لِمَنْ خالَفَهُمْ، فذلكَ أمرٌ شديدٌ، فأمَرَهُ بالصَّبرِ على ذلكَ والتَّبليغِ إلى أولئكَ.

والثاني: أمَرَهُ بالصَّبرِ على أذاهُمْ واستِهزائِهِمْ بهِ وتَرْكِ المُكافأةِ لهمْ.

[والثالثُ][8]: يحتملُ أنْ يكونَ الأمرُ بالصَّبرِ على الأمورِ التي كانَتْ عليهِ في [خاصِّ نفسِهِ][9] مِنِ احتِمالِ غُصّةِ التكذيبِ وحُزْنِهِ على تركِهِمُ التَّوحيدَ والإيمانَ. وإنّما ذلكَ كلُّهُ حُكْمُ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بِمَنظَرٍ وعِلْمٍ منّا:

فإنْ كانَ الأمرُ بالصَّبرِ على القِيامِ بِتَبليغِ الرسالةِ إلى مَنْ ذكَرْنا فيُخرَّجُ قولُهُ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ مُخرَجَ وَعْدِ النَّصرِ والمَعونةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وإنْ كانَ الأمرُ بالصَّبرِ على تَرْكِ مُكافأتِهِمْ أو على القِيامِ بالأمورِ التي في ما بَينَهُ وبَينَ ربِّهِ تعالى، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: على عِلْمٍ منّا بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ والاستِهزاءِ والأذى كَلَّفْناكَ لا عنْ جَهلٍ منّا بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: عذاب. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ولذلك. (٧) في الأصل وم: أو فيه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: خالص نهيه.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نَزِّهْهُ عن مَعاني الخَلْقِ وعمّا لا يَليقُ، واذْكُرِ الثناءَ عليهِ بما هو أهْلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من مَجْلِسِكَ أو مِنْ مَقامِكَ أو ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ لِلتَّعَيُّشِ والانْتِشارِ.

فإنْ كانَ المُرادُ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِنْ مَجْلِسِكَ، فيكونُ التَّسْبيحُ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنهُ قالَ: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً كَثُرَ فيهِ لَغَطُهُ فَقالَ قَبْلَ أنْ تقومَ مِنْ مَجْلِسِكَ: سُبْحانَكَ اللهمَّ وبِحَمْدِكَ، أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا أنتَ أسْتَغْفِرُكَ، وأتوبُ إليكَ، غَفَرَ لهُ ما كانَ في مَجْلِسِهِ ذلكَ» [الترمذي ٣٤٣٣] ولم يَذْكُرِ الآيَةَ.

وإنْ كانَ المُرادُ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِنْ مَنامِكَ، فَجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ الصلاةَ، وإنْ كانَ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ الانْتِشارَ والتَّعَيُّشَ، فَيَصيرُ كأنهُ [أمَرَ][1] بالتسبيحِ بالنهارِ في وقْتِ الانْتِشارِ.

الآية ٤٩ وعلى هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي سَبِّحْ بالليلِ في وقْتِ الراحةِ، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: وسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ في الأوقاتِ كلِّها بالليلِ والنهارِ في وقْتِ الراحةِ وفي وقْتِ الانْتِشارِ.

ورَوَى الضَّحّاكُ عن عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في الصلاةِ المَفْروضَةِ قَبْلَ أنْ تُكَبِّرَ: «سُبْحانَكَ اللهمَّ وبِحَمْدِكَ» إلى آخِرِهِ [السيوطي في الدر المنثور ج٧/ ٦٣٧].

ورَوَى الضَّحّاكُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا دَخَلَ في الصلاةِ قالَ ذلكَ، وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

ورَوَى أبو سعيدٍ وعائشةُ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ إذا افْتَتَحَ الصلاةَ قالَ ذلكَ.

وعَنْ مجاهدٍ أنهُ قالَ: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِنْ كلِّ مَجْلِسٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هو رَكْعَتا الفَجْرِ، ورُوِيَ[3] عن جَماعةٍ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ، وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ مَرْفوعاً أنهُ أراد بإدبارِ النجومِ الركعَتَيْنِ قَبْلَ الفَجْرِ [وبقولِهِ][4]: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] الركعتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ.

فإنْ ثَبَتَ فهو التأويلُ. فإنْ كانَ على هذا فَيَدُلُّ على تأخيرِ صلاةِ الفَجْرِ لأنَّ إدبارَ النجومِ إنما يكونُ ذهابَها وانْقِضاءَها. وذلكَ لا يكونُ بأوَّلِ وَقْتِ طُلوعِ الفَجْرِ وإنما يكونُ وَقْتَ الإسفارِ، فيكونُ حُجَّةً لنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و.

جنة السنة

جنة السنة

سورة النجم

مكية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قيلَ: المُرادُ هو النجمُ [نفسُهُ؛ فأقسَمَ بهِ](٢) على أنَّ محمداً ﷺ ما ضَلَّ، وما غَوَى، على ما قالَهُ الكَفَرَةُ / ٥٣٥ ـ ب/ وبهِ يقولُ الأصَمُّ.

وقيلَ: أرادَ بقولِهِ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ نُزولَ القرآنِ نَجْماً فَنَجْماً على التفاريقِ؛ أقسَمَ بالقرآنِ أنهُ لم يَضِلَّ، ولم يَغْوِ.

وقالَ مجاهدٌ: أقسَمَ بالثُّرَيّا إذا غابَ، والعَرَبُ تُسمّي الثُّرَيّا، وهي سِتَّةُ أنجُمٍ ظاهرةٍ، نَجْماً.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ: أقسَمَ بالنَّجمِ إذا سَقَطَ في الغَورِ، فكأنَّهُ لم يَخُصَّ الثُّرَيّا دونَ غَيرِها.

فإنْ كانَ التأويلُ هو الأوّلَ، فهو لِما جَعَلَ اللهُ تعالى لِلنُّجومِ مَحَلّاً في قلوبِ الخَلْقِ وأعلاماً يَسْتَخرِجونَ بها جميعَ ما يَنْزِلُ بالخَلْقِ وما يكونُ لهمْ مِنَ المَنافعِ والمَضارِّ مِنْ كَثْرَةِ الإنزالِ والسَّعَةِ والضِّيقِ وما يَنْزِلُ بهِمْ مِنَ المصائبِ والشدائدِ وما يكونُ من انْقِلابِ القلوبِ وما جَعَلَ فيها مِنَ المَنافعِ مِنْ مَعْرفةِ القِبْلَةِ وطُرُقِ الأمكنةِ النائيةِ ومَعْرِفَةِ الأوقاتِ وغَيرِها ممّا يَكْثُرُ عَدُّها؛ فأقسَمَ بِنفسِها أو بالذي أنشأَ النُّجومَ وما جَعَلَ فيها مِنَ المَنافعِ أنَّ محمداً ﷺ ما ضَلَّ، وما غَوَى.

وإنْ كانَ النَّجْمُ هو النُّجومَ التي أُنزِلَ القرآنُ فيها نُجوماً على التفاريقِ، فالقَسَمُ بالذي أنْزَلَ القرآنَ على التَّفاريقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي سَقَطَ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥] أي بِمَساقِطِها.

والأشبهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي إذا [سارتِ النُّجومُ سَيراً دائباً](٣) لأنها أبداً تكونُ في السَّيرِ، وفي سَيرِها مَنافعُ الخَلْقِ مِنَ الاهْتِداءِ لِلطُّرُقِ وغَيرِها. وإلّا(٤) ليسَ في مَساقِطِ النجومِ وغَيبوبَتِها كثيرُ حِكْمَةٍ حتى يُقْسِمَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ما ضَلَّ عمّا نَزَلَ بهِ القرآنُ وعمّا أُمِرَ بهِ لأنهمْ كانوا يَدْعونَ عليهِ الضَّلالَ، أنْ خالَفَ دينَهُمْ ودينَ آبائِهِمْ، فقالَ: ما ضَلَّ هو عمّا أُمِرَ بهِ، وما غَوَى.

والثاني: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ إذْ ليسَ بساحرٍ ولا شاعرٍ لأنهمْ كانوا يقولونَ: إنهُ شاعرٌ وإنهُ ساحرٌ، فقالَ: ليسَ هو كذلكَ، ما ضَلَّ بالسِّحرِ، وما غَوَى بالشِّعرِ على ما قالَ ﷺ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] بل رَشَدَ، واهْتَدَى:

الآيات ٣ و٤ و٥ و٦ وهو ما قالَ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي ما يَنْطِقُ عَمّا تهْوَى بهِ نفسُهُ، بل إنما يَنْطِقُ عنِ الوحيِ بقولِهِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾.

وإلّا جائزٌ أنْ يُصْرَفَ قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ إلى اللهِ تعالى، إذِ اللهُ تعالى قد أضافَ تَعْليمَهُ إلى نفسِهِ بقولِهِ ﷺ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١ و٢].

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر ان سورة النجم (٢) في الأصل وم: نفسها فأقسم بها. (٣) في الأصل وم: صارت سيراً دائماً في سيرها.
(٤) في الأصل وم: وإما.

جنة السنة

لكنْ أبانَ بقولِهِ: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ أنَّ المُرادَ غيرُهُ، إذْ هو لا يُوصفُ بأنهُ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ وهو جبرائيلُ ﷺ على ما قالَ أهلُ التأويلِ.

ثم أضافَ التَّعْليمَ مَرَّةً إلى جبرائيلَ ﷺ ومَرَّةً إلى نفسِهِ: فالإضافةُ إلى جبرائيلَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، لِما منهُ سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ وتَلَقَّفَ. والإضافةُ إلى اللهِ تعالى تُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أضافَ إلى نفسِهِ ﷻ لِما أنهُ هو الباعثُ لجبرائيلَ إليهِ والآمِرُ لهُ بالتَّعْليمِ، والخالقُ لِفِعلِ التَّعْليمِ مِنْ جبرائيلَ ﷺ.

والثاني: لِما يكونُ مِنَ اللهِ ﷻ مِنَ اللُّطْفِ الذي يَحْصُلُ بهِ العِلْمُ عندَ التَّعْليمِ ولهذا يَخْتَلِفُ المُتَعَلِّمونَ في حُصولِ العِلْمِ مَعَ التَّساوي في التَّعْليمِ لاخْتِلافِهِمْ في آثارِ اللُّطْفِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو إحكامٍ. وأصْلُهُ مِنْ قِوَى الحَبْلِ، وهي طاقَتُهُ، والواحدةُ قُوَّةٌ، وأصْلُ المِرَّةِ الفَتْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ اسْتَوَى أي محمدٌ ﷺ لِنُزولِ الوَحْيِ إليهِ.

وقيلَ: اسْتَوَى أي جبرائيلُ ﷺ على صورتِهِ لِما ذُكِرَ أنهُ ﷺ سألَ ربَّهُ ﷻ أنْ يُرِيَهُ جبرائيلَ ﷺ على صُورتِهِ، فاسْتَوَى جبرائيلُ على صورتِهِ، فَرَآهُ كذلكَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي جبرائيلُ بالأُفُقِ الأعْلَى. ثم يَحْتَمِلُ الأُفُقُ الأعلى أُفُقَ السماءِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الأُفُقُ الأعْلى مَكانَ الملائكةِ ومَسْكَنَهُمْ، فأخبرَ أنهُ ﷺ رآهُ[1] على صُورتِهِ في مَكانِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأُفُقُ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أرادَ أنْ يَرَى جبرائيلَ ﷺ في صُورتِهِ، فسألَهُ أنْ يُرِيَهُ [نفسَهُ][2] فقالَ: إنَّ الأرضَ لا تَسَعُني، ولكنِ انْظُرْ إلى الأُفُقِ الأعلَى، فَنَظَرَ، فَرَآهُ. وفي بعضِ الأخبارِ: أنكَ لا تَقْدِرُ أنْ تَراني في صورتي، ولكنِ انْظُرْ إلى الأُفُقِ الأعْلَى ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ النظرِ إلى الأفقِ الأعْلَى لِما أنَّ بَصَرَهُ كانَ لا يَحْتَمِلُ النَّظَرَ إليهِ مِنْ قُرْبٍ؛ ويَحْتَمِلُ ذلكَ مِنَ البُعْدِ، وذلكَ معروفٌ في ما بَيْنَ الخَلْقِ أنَّ الشيءَ إذا كانَ لهُ شُعاعٌ أو نورٌ أو بَياضٌ شديدٌ فإنَّ البَصَرَ لا يَحْتَمِلُ النَّظَرَ إليهِ مِنَ القُرْبِ في أوَّلِ مُلاقاتِهِ، ويَحْتَمِلُ إذا كانَ يَبْعُدُ منهُ.

الآية ٨ وعلى هذا قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ يَحْتَمِلُ دنا منهُ جبرائيلُ ﷺ شيئاً بَعْدَ شيءٍ، وقَرُبَ منهُ، كذلكَ يَحْتَمِلُهُ؛ إذْ جُبِلَ الإنسانُ على طبيعةٍ تَحْتَمِلُ الأشياءَ إذا انْتَهَتْ إليهِ على التَّفاريقِ ما لو أتَتْهُ بِدَفعَةٍ واحدةٍ في وقْتٍ واحدٍ لَما احْتَمَلَها[3]؛ كالحَرِّ يأتي الخَلْقَ بَعْدَ شِدَّةِ البَرْدِ شيئاً فَشَيئاً، وكذلكَ البَرْدُ بَعْدَ شِدَّةِ الحَرِّ شيئاً فَشيئاً حتى يَشْتَدَّ ما لو أتَيا بِدَفْعَةٍ واحدةٍ [لَمَا احْتَمَلَهُما][4].

[فَعَلَى ذلكَ جائزٌ ألَّا يَحْتَمِلَ البَصَرُ رُؤْيَةَ الشيءِ بِدَفْعَةٍ واحدةٍ][5] إذا كانَ قريباً منهُ، ويَحْتَمِلُهُ مِنَ البُعْدِ، ثم يَقْرُبُ، ويَدْنو قليلاً قليلاً، حتى يَحْتَمِلَهُ مِنَ القُرْبِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، أي تَدَلَّى، فَدَنا، لأنهُ يكونُ التَّدَلِّي أوّلاً ثم الدُّنُوُّ منهُ.

ومنهمْ منْ قالَ: بل هو على ما قالَ، وهما سَواءٌ؛ أعني: التَّدَلِّي والدُّنُوُّ بِمَنْزِلةِ القُرْبِ[6]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: القابُ هو صدرُ القَوسِ أي كانَ قَدْرَ صَدْرِ القَوسِ مِنَ الوَتَرِ مَرَّتَينِ، وقالَ بعضُهُمْ: أي قَدْرَ قَوسَينِ حَقيقةً.

---

(١) في الأصل وم: رأى. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ادرج بعدها في الأصل وم: كالأنفس. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ادرج بعدها في الأصل وم: والدنو.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿قَابَ﴾ قَدْرَ ﴿قَوْسَيْنِ﴾ عَرَبيَّتَيْنِ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: القابُ قَدْرُ الطُّولِ، وقيلَ: القَوسُ الذِّراعُ ههنا، أي كانَ قَدْرُ ما بينَهما ذِراعَينِ؛ قالَ: والأوّلُ [أقرَبُ إليّ لِما][1] رُويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: «لَقابُ قوسِ أحدِكُم مِنَ الجنةِ أو مَوضِعُ قَدِّهِ خَيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها» [البخاري ٢٧٩٦] والقِدُّ السَّوطُ.

فنقولُ: أيُّ الوجوهِ كانَ ففيهِ دليلٌ أنهُ لم يكنْ جبرائيلُ ﷺ يَبْعُدُ مِن رسولِ اللهِ ﷺ بحيثُ لا يُحيطُ بهِ لأنَّ الشَّيءَ إذا بَعُدَ عنِ البَصَرِ يَعْرِفُهُ بالاجْتِهادِ، ولا يُدْرِكُهُ حقيقةً، وكذلكَ إذا قَرُبَ منهُ حتى إذا ماسَّهُ، والتَصَقَ بهِ، قَصُرَ البَصَرُ عن إدراكِهِ، وإذا كانَ بَينَ البُعْدِ والقُرْبِ أحاطَ بهِ، وأدرَكَهُ، فَيُخبِرُ اللهُ تعالى أنهُ أحاطَ بهِ عِلْماً، وأدرَكَهُ حقيقةً، لا أنْ كانَتْ مَعْرِفَتُهُ إيّاهُ بِطريقِ الاجْتِهادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: حَرْفُ أو حَرْفُ شَكٍّ. وذلكَ غيرُ مُحتَمَلٍ مِنَ اللهِ تعالى، ولكنَّ مَعْناهُ على الإيجابِ، أي بل أدْنى.

وقالَ بعضُهُم: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ في اجْتِهادِكُم ووَهمِكُم، لو نَظَرْتُم إليهما لَقُلْتُم: إنهما بالقُرْبِ والدُّنُوِّ قَدْرُ قوسَينِ أو أدْنى.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على التَّقديمِ والتأخيرِ، أي فأوْحَى جبرائيلُ ما أوحَى إليهِ إلى محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ ﷺ.

والثاني /٥٣٦ ـ أ/: فأوْحَى اللهُ، جَلَّ، وعَلا، إلى عبدِهِ جبرائيلَ ما أوحَى هو إلى محمدٍ ﷺ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ قُرِئَ ﴿كَذَبَ﴾ مُخَفَّفَ الذالِ ومُشَدَّدَهُ[3]. فَمَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ، أي ما كَذَبَ عبدُهُ في ما رَأى، وقالَ أبو عُبَيدٍ: ما كَذَبَ في رُؤيَتِهُ أي رُؤيَتُهُ قد صَدَقَتْ.

ومَن قَرَأَ بالتَّشديدِ أي لم يَجْعَلِ الفؤادُ رُؤيةَ العَينِ كَذِباً.

وعندَنا أي ما رَدَّ الفؤادُ ما رَأى البَصَرُ. وأصلُهُ أنَّ الفؤادَ مِمّا يُوعَى بهِ يكونُ[4] قد وَعَى بهِ، يقولُ: وَعَى ما رَأى، لم يَتْرُكْهُ، ولم يُضَيِّعْهُ. وقيلَ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ أي ما عَلِمَ. والرُّؤيةُ كنايةٌ عنِ العِلْمِ. لكنْ لو كانَ المُرادُ منهُ العِلْمَ لا يُحتَمَلُ ما ذَكَرَ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [الآية: ١٣] ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يَعْلَمَ مرّتَينِ، وقد[5] ذَكَرَ أنهُ رَأى رَبَّهُ مرّتَينِ، ولا يَحْتَمِلُ العِلْمُ مرّتَينِ. فَدَلَّ أنَّ الحَمْلَ على العِلْمِ لا يَصِحُّ.

وأصلُهُ عندنا: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ مِنَ الآياتِ. دليلُهُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الآية: ١٨] وقالَ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [الآية: ١٣].

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ قالَ:][6] رأى عَظَمَةً مِن عَظَماتِ[7] اللهِ وأمراً مِن أمورِهِ[8]، وعن عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: رَأى جبرائيلَ ﷺ على صورَتِهِ مرّتَينِ، أي ما كَذَبَ ما رَأى البَصَرُ جبرائيلَ ﷺ ولقد رآهُ أيضاً مَرَّةً أُخرى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [الآية: ١٤].

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ رأى رَبَّهُ على العِيانِ بِعَينِهِ، فهو خِلافُ ما ثَبَتَ مِن وَعْدِ الرُّؤيةِ في الآخِرةِ بالكِتابِ والسُّنَّةِ المُتَواتِرَةِ، ولأنهُ لو رَأى رَبَّهُ تعالى على ما قالوا لَكانَ لا يَحْتاجُ إلى أنْ يَرَى آياتِهِ الكُبْرى [الآية: ١٨] لأنَّ رؤيةَ الآياتِ إنما يُحتاجُ إليها عندَما يُعْرَفُ الشيءُ عندَ الاجْتِهادِ.

فأمّا عندَ المُشاهدةِ وارْتِفاعِ المَوانِعِ فلا حاجةَ يَقَعُ إليها إلّا أنْ يُقالَ بِرُؤيةِ القَلْبِ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ أنهُ سُئِلَ عن ذلكَ، فَقيلَ: «هل رأيتَ ربَّكَ؟ فقالَ: رأيتُهُ مرّتَينِ بِقَلبي». وفي بعضِ الأخبارِ [أنهُ][9] قالَ: «أمّا بِعَيني فلا، وأمّا بِفؤادي فقد رأيتُهُ مرّتَينِ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/٦٤٨] ويُفَسِّرونَ رُؤيةَ القَلْبِ بالعِلْمِ، ولكنَّ الإشكالَ عليهِ ما ذَكَرْنا. فإنْ

---

(١) في الأصل: أعجب إلي، في م: اعجب إلي. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٩. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) في الأصل وم: وكذا. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: عظمة. (٨) في الأصل وم: أمره. (٩) في الأصل وم: وارد.

جنة السنة

ثَبَتَ الحديثُ فهو على ما كانَ وارداً، لا يُفَسِّرُهُ ذلكَ. وكذلكَ قولُ مَنْ يقولُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [الآيتان: ٨ و٩]: إنهُ دنا مِنْ ربِّهِ قولٌ وَحْشٌ، فيهِ إثباتُ المكانِ والتَّشبيهِ، تعالى اللهُ عنْ ذلكَ.

ولكنَّ المُرادَ ما ذكَرْنا أنَّ رسولَ اللهِ تعالى دنا مِنْ جبرائيلَ ﷺ على ما ذكَرْنا.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [الآية: ١١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [الآيتان: ١٣ و ١٤] إلى آخرِهِ ذِكْرُ خُصوصيَّةِ رسولِنا ﷺ مِنْ بَينِ غَيرِهِ مِنَ الخلائقِ: منها رُؤْيةُ جبرائيلَ ﷺ على صورتِهِ، ورُؤْيةُ الرَّبِّ تعالى بِقَلْبِهِ، إنْ ثَبَتَ الحديثُ عنهُ: وبُلوغُهُ سِدْرَةَ المُنْتَهى، إذْ لم يُذْكَرْ لأحدٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ تعالى أنه بَلَغَ هذا المَبْلَغَ سِواهُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ عنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ وابنِ عباسٍ ﷺ أنهما قرَآ: [أفتَمرونَهُ][1] مفتوحةَ التاءِ بغَيرِ ألِفٍ. ومَعْناهُ: أفتَجحَدونَهُ؟ وعنِ الحَسَنِ بالألِفِ مَضمومةَ التاءِ، وقالَ: مَعْناهُ: أفتُجادِلونَهُ؟ وعَنْ شُرَيحٍ مِثْلُهُ.

قالَ أبو عُبَيدٍ: بالأولى أنْ يُقْرَأَ بمعنى الجُحودِ؛ وذلكَ أنَّ المُشرِكينَ إنما كانَ شأنُهُمُ الجُحودَ في ما يَأتيهِم مِنَ الخَبَرِ السَّماوِيِّ، وهو أكْبَرُ مِنَ المُماراةِ والمُجادَلَةِ.

وقيلَ: أفتَمرونَهُ؟ أي أتُشَكِّكُونَهُ على ما يَرَى؟

وقالَ أبو بكْرٍ الأصَمُّ: لا تَصِحُّ القراءةُ بغَيرِ ألفٍ، ولا تأويلُهُ؛ إنما القراءةُ بالألِفِ، وتأويلُهُ: أفتُجادِلونَهُ؟ ونحنُ نقولُ: إنَّ تأويلَ ما ذُكِرَ مِنَ الجحودِ والقرآنِ صحيحٌ، وتأويلَ مَنْ قالَ: أفتُجادِلونَهُ على ما يَرى؟ لا يُحْتَمَلُ، لأنَّ مُجادلَتَهُمْ لا تكونُ في ما يَرى، لكنْ يُجادِلونَهُ على ما يُخْبِرُ أنهُ يَرى[2]؛ إذْ في الخَبَرِ يَقَعُ التَّكْذيبُ، وبهِ يُجادِلونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فهو على ما ذَكَرْنا مِنِ اختِلافِ الناسِ أنْ ما أيش هو؟ واللهُ أعلمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ قيلَ: سَمَّى ذلكَ المَوضِعَ سِدْرَةً لِما انْتَهى إليهِ عِلْمُ الخَلْقِ، فلا يُجاوِزُهُ، وقيلَ: لِما انْتَهى إليهِ كراماتُ الخَلْقِ، لا تَتَجاوَزُ كراماتُهُم عنها، وقيلَ: السِّدْرَةُ الشجرةُ، ويَرْوُونَ في ذلكَ خَبَراً مَرْفوعاً عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رأيتُ جبرائيلَ ﷺ عندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى، عليهِ كذا كذا مِنْ جَناحٍ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/٦٤٩] وقيلَ: سُمِّيَتْ سِدْرَةَ المُنْتَهى لِما تَنْتَهي إليها أرواحُ الشهداءِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ رَأى جبرائيلَ ﷺ أوّلاً عندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى مِنَ الأرضِ إمّا بِرَفْعِ الحُجُبِ عنهُ وإمّا بزيادةِ قُوَّةٍ وضِعَتْ في بَصَرِهِ، ثم رآهُ مَرَّةً أُخرى هنالكَ أيضاً بَعْدَ ما رُفِعَ ﷺ إلى سِدْرَةِ المُنْتَهى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ قُرِئَتْ بِنَصْبِ الجيمِ وخَفْضِهِ:

رُوِيَ أنهُ قيلَ لِسَعْدِ بنِ أبي وقّاصٍ ﷺ: إنَّ فلاناً يَقْرَأُ بالخَفْضِ: عندَها جِنَّةُ المَأْوى، فقالَ سَعْدٌ: ما كذا جَنَّةُ اللهِ، وقَرَأَ بالفتحِ.

وعنِ الأعْمَشِ [أنهُ][4] قالَ: قالَتْ [عائشةُ ﷺ:][5] مَنْ قَرَأ: جِنَّةُ المَأْوى [يريدُ جَنَّ عليهِ][6] فأجَنَّهُ اللهُ.

وعنْ أبي العاليةِ [أنهُ][7] قالَ: سَألني عنها ابنُ عباسٍ ﷺ فقالَ لي: كيفَ تَقْرَؤُها يا أبا العاليةِ؟ فَقُلْتُ: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ بِفَتْحِ الجيمِ، فقالَ: صَدَقْتَ، وهي مِثْلُ الأُخْرى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [السجدة: ١٩].

وعَنِ الحَسَنِ أنهُ قَرَأَ: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وقالَ: إنها مِنَ الجَنّاتِ، وتَصديقُها حديثُ الإسراءِ أنهُ أُرِيَ الجَنَّةَ، وأُدْخِلَها. قالَ: ودلَّتِ الآيةُ أنَّ الجَنَّةَ التي يَأوي إليها المؤمنونَ في السماءِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٩و١٠. (٢) من م: في الأصل: جرى. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) و(٦) من المحتسب ح٢/٢٩٣، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/١١، ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: يَغْشاها فِراشٌ مِن ذهبٍ، وكذا ذُكِرَ في خَبَرٍ مرفوعٍ: «رأيتُها يَغْشاها فِراشٌ مِن ذهبٍ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٥٥] ولكنْ لا يُفَسَّرُ ما الذي يَغْشَى السِّدْرَةَ، بل يُبْهَمُ كما يُبْهِمُ اللهُ تعالى [فما يُفَسَّرُ](١) إلّا بحديثٍ ثَبَتَ عن تَواتُرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ مِنْ أمرِ اللهِ، ويَرْوُونَ خَبَراً عن أنسِ بنِ مالكٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لمّا انْتَهيْتُ إلى السِّدرةِ رأيتُ وَرَقَها أمثالَ آذانِ الفِيَلَةِ، ورأيتُ نَبْقَها أمثالَ القِلالِ، فلمّا غَشِيَها مِنْ أمرِ اللهِ ما غَشِيَها تَحَوَّلَتْ ياقوتاً وزُمُرُّداً» [أحمد ٣/ ١٢٨] إنْ ثَبَتَ هذا الخَبَرُ ففيهِ دليلٌ أنَّ السِّدْرَةَ شجرةٌ؛ إذْ ذَكَرَ وَرَقَها، وفيهِ أنَّ الذي يَغْشاها أمرُ اللهِ تعالى.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما إذْ تَغْشَى الملائكةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قالَ أبو بكرٍ: أي ما قَصَرَ البَصَرُ عنِ الحَدِّ الذي أُمِرَ، وجُعِلَ لهُ ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما جاوزَ عنهُ، أو كلامٌ [نَحْوُهُ](٢).

ويَحتمِلُ: ﴿مَا زَاغَ﴾ أي ما مالَ، وما عَدَلَ يَميناً وشِمالاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما جاوَزَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي ما مالَ ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ مِنَ الارْتِفاعِ، طَغَى الماءُ إذا ارْتَفَعَ يَطغَى طُغياناً.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ آياتُ ربِّهِ التي ذَكَرَ أنهُ رأى جبرائيلَ عليه السلام حينَ(٣) رآهُ بصورتِهِ. وكذلكَ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه أنهُ رآهُ بصورتِهِ مرتَينِ(٤). ويَحتمِلُ غيرَها(٥) مِنَ الآياتِ، ولكنْ لا يُفَسِّرُها، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٩ و٢٠ و٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ يُخرَّجُ تأويلُ [هذا القولِ](٦) على وجوهٍ، وإلّا ليسَ في هذا المَوضعِ لظاهرِ قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ جوابٌ، ولا لِقولِهِ: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [الآية: ٢١].

أحدُها: أنْ يقولَ: أهؤلاءِ الذينَ تَعْبُدونَهُمْ مِنَ اللاتِ والعُزَّى ومَناةَ أخبَروكُمْ، وقالوا لكمْ: إنهُ اصْطَفَى لنفسِهِ البناتِ ولكمُ البَنينَ، وإنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ ونَحوُهُ. أأخَذتُمْ ذلكَ منها؟ أو مِمَّنْ أخذْتُمْ ذلكَ؟ وأنتمْ قومٌ لا تؤمنونَ بالرسلِ والكتبِ، وقد عَرَفوا أنها لم تُخبِرْهُمْ بذلكَ، [فَيُذكَرُ](٧) بذلكَ سَفَهَهُمْ.

[والثاني: أنْ](٨) يقولَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَاةَ/ ٥٣٦ ـ ب/ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ التي سَمَّيتُموها آلهةً، وعَبَدْتُموها دونَ اللهِ، ونَسَبْتُمُ البناتِ إليهِ والبنينَ إلى أنفسِكُمْ. ثم لم يَذْكُرْ جوابَها: أنهُ مَنْ أمَرَهُمْ بذلكَ؟ ومَنِ اختارَ لهمْ ذلكَ؟ أو مِمَّنْ أخَذوا ذلكَ؟.

ثم قولُهُ(٩) تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ الآية [٢٣] كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ إنما سمَّيتُموها آلهةً، واختَرْتُمُ البَنينَ، ولَهُ البناتِ بلا سُلطانٍ ولا حُجَّةٍ لكمْ؛ إنما هي أسماءٌ سمَّيتُموها أنتمْ وآباؤكُمْ بلا حُجَّةٍ ولا سُلطانٍ، إنما هو هَوَى النَّفسِ، والظَّنُّ.

[والثالث](١٠): يَحتمِلُ أنْ يقولَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أأمَرَتْكُمْ(١١) بِصَرْفِ شُكرِ ما أنعَمَ اللهُ تعالى عليكُمْ وقَبولِ ما وَهَبَ لكمْ مِنَ البناتِ على ما أخْبَرَ أنهما مِنْ مَواهِبِ اللهِ تعالى بقولِهِ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] وبِرَدِّ مَواهِبِهِ ودَفْنِها حَيّاتٍ ودَسِّها في الترابِ وبِصَرْفِ العبادةِ إلى غيرِ المُنْعِمِ وقِسْمَةِ البنينَ لأنفسِكُمْ والبناتِ لهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وتأويل الآية. (٥) في الأصل وم: غيره. (٦) في الأصل وم: هذه الآية. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: أمركم.

جنة السنة

الآية ٢٢ ثم قولُه[(١)] تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي تلكَ قِسْمَةُ جَورٍ وظُلْمٍ، أي صَرفُ شُكرِ المُنْعِمِ إلى غَيرِ المُنْعِمِ وتوجيهُ العبادةِ [إلى][(٢)] مَنْ لا يَسْتَحِقُّهُ وَرَدُّ مواهِبِهِ. على هذهِ الوجوهِ يُشْبِهُ أنْ تَخرُجَ الآيةُ، وإلا فلا يُدْرَى ظاهِرُها؟ وما تأويلُها؟ وما جوابُ هذا الحرفِ؟ اللهُ أعلمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّٰتَ﴾ قرَأ مُجاهدُ [وغيرُهُ][(٣)] مُشَدَّدَ التاءِ، فقالوا: هو رجلٌ كانَ يقومُ على آلهتِهِمْ، ويَلُتُّ لها السَّويقَ بالزيتِ، فَيُطعِمُهُ الناسَ. ورَوَى أبو[(٤)] الجوزاءِ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][(٥)] قالَ: كانَ يَلُتُّ السَّويقَ للحاجِّ.

ومَنْ قرَأ مُخفَّفَ التاءِ جعَلوهُ اسْمَ الصَّنَمِ مثلَ العُزَّى ومَناةَ، وهي آلهةٌ كانوا يَعْبُدونَها.

ذَكَرَ قَتادةُ في تفسيرِهِ: كانَ اللاتُ بالطائفِ، والعُزَّى بِبَطْنِ نَخْلَةَ، ومَناةُ بِقُدَيدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: هي في الأصلِ: ضُيزَى على وَزْنِ فُعْلَى، فَكُسِرَتِ الضادُ للياءِ، وليسَ في النعوتِ فِعْلَى، أي قِسْمَةٌ جائرةٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ أي غَيرُ مُنْصِفةٍ، والضَّأزُ في الأصلِ: الجَورُ، وقالَ أبو عُبَيدةَ: ناقصةٌ.

وقالَ بعضُ الناسِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لمّا[(٦)] تَلا قولَهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أَلْقَى الشيطانُ على لسانِهِ: تلكَ الغَرانيقُ العُلا، شَفاعتُهُنَّ تُرْتَجَى، ومِثْلُهُنَّ لا يُنْسَى، ثم قالَ بعضُهُمْ: الغَرانيقُ العُلا الملائكةُ، وقالَ بعضُهُمْ: الأصنامُ التي يَعْبُدونها على رَجاءِ الشَّفاعةِ لهمْ بقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

لكنْ لا يُحتَمَلُ أنْ يقولَ النَّبِيُّ ﷺ أو يُجْرِيَ على لسانِهِ ما ذَكَروا، واللهُ تعالى قالَ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ إلى ٤٦] ولو جازَ أنْ يُجْرِيَ على لسانِهِ لَتَوَهَّمَ منهُ التَّقَوُّلُ، وذلكَ بعيدٌ. وقالَ في آيةٍ أخرَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ولو جازَ ذلكَ لَجازَ أنْ يُجْرِيَ اللهُ الكَذِبَ على لسانِهِ، فلا يكونُ في مَنْ وَجَدَ مِنَ الحَرَجِ في قضائِهِ ما ذَكَروا، وهو الكُفرُ. دَلَّ أنَّ ما ذَكَروهُ فاسدٌ. ولو ثَبَتَ ما ذُكِرَ أنهُ جَرَى على لسانِهِ تلكَ الكلماتُ، أو أَلْقَى الشيطانُ في فَمِهِ؛ يريدُ بذلكَ الغرانيقَ العُلاَ، شفاعتُهُنَّ تُرْتَجَى عندَهُمْ وفي زَعْمِهِمْ، وهو كقولِ موسى ﷺ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] أي إلهِكَ الذي هو عندَكَ إلهٌ، وإلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ موسى ﷺ يُسَمِّي العِجلَ إلهاً، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] أي إلى [الآلهةِ التي][(٧)] عندَهمْ وقولِهِ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢و٧٤] أنها شُرَكائي؛ فقد ذَكَرْنا هذا على التَّمامِ في سورةِ الحجِّ وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية [الحج: ٥٢] واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما أنزَلَ اللهُ على تَسْمِيَتِكُمُ الأصنامَ وعبادتِكُمْ إياها ونِسْبَتِكُمُ البَنينَ إلى أنفسِكُمْ والبناتِ إلى اللهِ تعالى مِنْ حُجَّةٍ وبرهانٍ، إنما هو هَوَى النفسِ والظَّنُّ.

وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في قولِهِمْ: الملائكةُ بناتُ اللهِ أو قولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وتَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ آلهةً ظَنّوا أنَّ آباءَهُمْ كانوا على الحقِّ، واسْتَدَلّوا على حقيقةِ ما كانوا عليهِ مِنَ الدينِ حينَ[(٨)] تَرَكَهُمْ وما اختاروا، ولم يُهْلِكْهُمْ، وقالوا: لو كانوا على باطلٍ ما تَرَكَهُمْ على ذلكَ. واسْتَدَلّوا بذلكَ أيضاً على رِضاهُ منهم بذلكَ وأمرِهِ إياهُمْ كما أخبَرَ عنهُمْ بقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]. هذا ظَنُّهُمْ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي يَتَّبِعونَ هَوَى النَّفسِ؛ فالنفسُ إنما[(٩)] تَعرِفُ المَنافِعَ الحاضرةَ والمَضارَّ

(١) في الأصل وم: أخبر وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل، انظر مختصر من شواذ القرآن /١٤٧. (٤) في الأصل وم: ابن. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ثم. (٧) في الأصل وم: آلهة. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ما.

جنة السنة

الحاضرة، فأمّا [ما](١) غابَ عنها فلا تَعرِفُ، وإنما تَعرِفُ ذلكَ بالتّفكُّرِ والنّظرِ، وهي لا تَعرِفُ لِما تَكرَهُ النّظرَ والتّفكُّرَ، ولا تَرْغَبُ في الشدائدِ ولا في ما يَثقُلُ عليها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي جاءَهُمْ مِنْ ربِّهِمْ لو تفكّروا، لاهتَدَوا، ولَوِ اتّبَعوا الحقَّ والهُدَى لَعَرفوهُ.

الآية ٢٤ وقولُه تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي للإنسانِ ما تَمَنّى. ثم يَحْتَمِلُ تَمَنِّيهِمْ شفاعةَ ما عَبَدوا أو ما اختاروا مِنَ البَنِينَ لأنفسِهِمْ والبَناتِ للهِ تعالى أو ما سَمّوا، واتّخذوا الأصنامَ آلهةً، وما ظَنّوا على اللهِ، وادَّعَوا أمْرَهُ ورضاهُ في فِعْلِهِمْ وغَيرِ ذلكَ ممّا كانوا يَتَمَنَّوْنَ.

يقولُ: ليسَ للإنسانِ ما تَمَنّى أنْ يكونَ لهُ، إنما يكونُ لهُ[ما](٢) يَجْعَلُ اللهُ الذي لهُ في الدنيا والآخِرَةِ.

الآية ٢٥ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي كَمْ مِنْ مَلَكٍ، لهُ شفاعَتُهُ، وإنْ يَشفَعُ إلّا لِمَنْ ذَكَرَ.

والثاني: أي كَمْ مِنْ مَلَكٍ في السموات، لا شَفاعةَ لهُ، ولا يَشفَعُ إلّا لِمَنْ يَشاءُ اللهُ، ويَرْضَى أنْ يَشفَعَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي ليسَتْ لهمْ شفاعةٌ، تَنْفَعُ لهمْ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: إنما يَشفَعونَ في الآخِرَةِ لِمَنْ شَفَعوا في الدنيا، واستَغفَروا لهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآية [غافر: ٧] وقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨] وقد ذَكَرْنا(٣) في ما تَقَدَّمَ الوجهَ في ذلكَ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ وإنما يُسَمّي ذلكَ قومٌ، وقد أضافَ ذلكَ إلى الكُلِّ في الظاهرِ لأنَّ الذينَ يُسَمّونَ الملائكةَ تَسْمِيَةَ الأُنثى [جماعةٌ، فكانَ مَعْناهُ: إنَّ جماعةً مِنَ الذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ يُسَمّونَ الملائكةَ تَسْمِيَةَ الأُنثى](٤) واللهُ أعلَمُ.

ويَجوزُ أنْ يُذكَرَ الكُلُّ، ويُرادَ بِهِ البعضُ في اللغةِ، ومِثْلُهُ في القرآنِ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لَهُمْ بما يُسَمّونَ الملائكةَ تَسْمِيَةَ الأُنثى مِنْ عِلْمٍ، لأنَّ العِلْمَ بِمَعرِفَةِ الأُنثى مِنَ الذَّكَرِ بطريقَينِ:

أحَدُهما: المُشاهَدةُ: [يُشاهَدُ](٥) ويُعايَنُ، فَتُعرَفُ الأُنثى مِنَ الذَّكَرِ، وهمْ لم يُشاهِدوا الملائكةَ، فكيفَ يَعرِفونَ ذلكَ؟.

والثاني: خَبَرُ الرسولِ المُؤيَّدِ بالمُعجِزَةِ، وهؤلاءِ قومٌ لا يؤمِنونَ بالرسلِ، ولا يَعرِفونَ(٦) بالاستِدْلالِ طُرُقَ العِلْمِ الثلاثةَ التي ذَكَرْنا.

فإذَنْ كانَ حَصَلَ قولُهُمْ بلا عِلْمٍ، ولكنْ على الظَّنِّ، وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣] أي ما يَتَّبِعونَ في قولِهِمُ الذي قالوا إلّا الظَّنَّ، ووجهُ ظَنِّهِمْ ما ذَكَرْنا.

ثم أخبَرَ أنَّ ظَنَّهُمْ ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ذكر. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يعرف.

جنة السنة

أحدُهما: أنّ الظنّ الذي /٥٣٧ ـ أ/ ظَنّوا لا يَدْفَعُ عنهمْ ما عليهِمْ مِن اتّباعِ الحَقِّ ولُزومِهِ.

والثاني: أنّ ظَنّهُمُ الذي ظَنّوا في الدنيا لا يَدْفَعُ عنهمْ ما لَزِمَهُمْ مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: على تَرْكِ مُكافأتِهِمْ، أي [لا][1] تكافِئْهُمْ لِصَنيعِهِمْ وأذاهُمْ.

والثاني: يُخَرَّجُ على الإياسِ لهُ مِنْ إيمانِهِمْ، أي لا تَشْتَغِلْ بهِمْ، فإنهمْ لا يؤمنونَ أبداً؛ فهو في قومٍ خاصٍّ؛ عَلِمَ اللهُ ﷻ أنهمْ لا يؤمنونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يَحتَمِلُ أنهمْ كانوا لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ، فلمْ يُريدوا بِحَسناتِهِمُ التي فَعَلوا إلّا الحياةَ الدنيا، لأنهمْ كانوا يَتَصدّقونَ، ويَصِلونَ الأرحامَ، لكنْ [لم يُريدوا بذلكَ][2] إلّا ما ذَكَرَ في الحياةِ الدنيا. وجائزٌ أنْ تكونَ الإرادةُ ههنا كِنايةً عنِ العَمَلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لم يَعْمَلْ للآخِرَةِ رأساً؛ يُخْبِرُ عنهُمْ أنهمْ يَعْمَلونَ للدنيا لا لِلآخِرَةِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآيةَ[الإسراء: ١٩] ونَحْوُ ذلكَ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بألّا يؤمنوا بالآخِرَةِ، ولا يَعْمَلوا لها. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي ذلكَ مَبْلَغُ رأيِهِمْ أنّ الملائكةَ بناتُ[3] اللهِ، وأنها تَشْفَعُ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فَيَجْزيهِ جزاءَ ضَلالِهِ في الآخِرَةِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فَيَجْزيهِ جَزاءَ الهُدَى، واللهُ أعلم.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهو غنيٌّ عن عبادَتِكُمْ، وإنما يأمُرُكُمْ، لِيَجْزِيَكُمْ بأعمالِكُمْ لا لِمَنافِعَ تَرْجِعُ إليهِ.

والثاني: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنما أنشأ أهلَ السمواتِ والأرضِ لِيَمْتَحِنَهُمْ بالأمرِ والنَّهْيِ، ثم لِيَجْزِيَ الذينَ أساؤوا جَزاءَ الإساءةِ والذينَ أحْسَنوا جَزاءَ الإحسانِ.

ولو كانَ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ: أنْ لا بَعْثَ، ولا جزاءَ، لَكانَ خَلْقُهُمْ وخَلْقُ ما ذُكِرَ عَبَثاً باطلاً. وفي الحكمةِ التفريقُ بينَ المُسيءِ والمُحْسِنِ، وفي الدنيا تَحَقّقَتِ التَّسْوِيَةُ بينَهما، فَدَلَّ ذلكَ على دارٍ أُخْرَى، يُفَرِّقُ بينَهما فيها.

ثم يَحْتَمِلُ جزاءُ إساءةِ أولئكَ في الدنيا والآخِرَةِ: في الدنيا القَهْرُ والدَّبْرَةُ والهزيمةُ، وفي الآخِرَةِ النارُ، وجَزاءُ المُحْسِنِ في الدنيا النَّصْرُ والظَّفَرُ، وفي الآخِرَةِ الجنّةُ.

الآية ٣٢ ثم نَعَتَ ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ وهو التوحيدُ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ ثم يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الكبائرُ ما يَعْرِفُها كلُّ أحَدٍ أنها [كبيرةٌ والفواحشُ[4] ما يَعْرِفُها كلُّ أحدٍ أنها][5] فاحشةٌ، واللَّمَمُ على هذا يَجِيءُ أنْ تكونَ [مِنْ][6] تلكَ الكبائرِ والفواحشِ لأنهُ استثناها [منها][7] فَيَجِبُ أنْ تكونَ مِنْ جِنْسِها، لكنهُ استثناها، وعَفا عنها، لِما يَقَعونَ فيها عَنْ غَفْلَةٍ وسَهْوٍ أو عَنْ غَلَبَةِ شَهْوَةٍ ونَحْوِها، وهو الأشبهُ بتأويلِ الآيةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: يريدوا إلا ذلك. (٣) في الأصل وم: آيات. (٤) في م: والفاحشة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم الملكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم الملكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقال أهلُ التأويلِ: الكبائرُ والفواحشُ هي التي ذُكِرَ لها الحَدُّ في الدنيا والعقوبةُ في الآخِرةِ، واللَّمَمُ [هي][1] التي لم يُذكَرْ لها حَدٌّ ولا عقوبةٌ في الآخِرَةِ.

وعنِ ابنِ مَسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: «زِنَى العَينِ النَّظَرُ، وزِنَى الشَّفَتَينِ التَّقبيلُ، وزِنَى اليَدينِ البَطْشُ، وزِنَى الرجلَينِ المَشيُ، ويُصَدِّقُ ذلك ويُكَذِّبُهُ الفَرْجُ، فإنْ تَقَدَّمَ فهو زِنًى، وإلّا فهو اللَّمَمُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٦٥] وفي روايةٍ: «إنْ تَقَدَّمَ كانَ زِنًى، وإنْ تأخَّرَ كانَ لَمَماً».

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: ما رأيتُ باللَّمَمِ ممّا قالَ أبو هُرَيرَةَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ على ابْنِ آدمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنى، أدرَكَ ذلكَ، لا مَحالةَ، فزِنَى العَينَينِ النَّظَرُ، وزِنَى اللِّسانِ النُّطْقُ، والنفسُ تَمَنّى، وتَشتَهي، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ، أو يُكَذِّبُهُ» [مسلم ٢٦٥٧/ ٢١].

وعنْ أبي هُرَيرَةَ أنهُ [قالَ: «هي][3] النَّظْرَةُ والغَمْزَةُ والقُبْلَةُ والمُباشَرَةُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٧/ ٦٦] وعنهُ [أنهُ قالَ:][4] «إنَّ اللَّمَمَ النِّكاحُ» [الطبري ٢٧/ ٦٧] وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: «اللَّمَمُ لَمَمُ الجاهليةِ» [الطبري ٢٧/ ٦٤] [وهو قولُهُ][5] تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ:][6] «هو أنْ يُلِمَّ المَرَّةَ» [الطبري ٢٧/ ٦٧]. وقيلَ: اللَّمَمُ بالخَطيئةِ مِنْ جِهةِ حديثِ النفسِ شيئاً مِنْ غَيرِ عَزْمٍ. وقيلَ: إنَّ اللَّمَمَ هو مُقارَبَةُ الشيءِ مِنْ غَيرِ دخولٍ فيهِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: كانَ النَّبِيُّ ﷺ يقولُ:

إنْ تَغفِرِ اللّهُمَّ تَغفِرْ جَمّاً ... وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمّا[8]؟

[الترمذي ٣٢٨٤] وقيلَ: اللَّمَمُ: الصغيرُ مِنَ الذنوبِ لِقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [النساء: ٣١].

وقالَ القُتَبِيُّ: اللَّمَمُ الصغائرُ مِنَ الذنوبِ، وهي مِنْ ألَمَّ بالشيءِ إذا لم يَتَعَمَّقْ فيهِ، ولم يَلْزَمْهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: اللَّمَمُ ما بَينَ الحَدَّينِ: حَدِّ الدنيا وحَدِّ الآخِرَةِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وذلكَ يَحتَمِلُ، والأوَّلُ أقرَبُ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: اللَّمَمُ التي يَتوبُ عنها؛ فإنهمْ إنْ تابوا عنها يَتَجاوَزُ عنهمْ، فهو يَجْعَلُ اللَّمَمَ مِنْ تلكَ الكبائرِ والفواحشِ، لكنهُ يقولُ: إنما استَثنى لِما يَتوبُ عنها، لِما يقعونَ فيها على السَّهْوِ والغَفْلَةِ أو لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ على حُسْنِ الظَّنِّ بربِّهِ، فَيَغْفِرُ لهُ، أو يَتوبُ عنها، فَيَعْفو عنها.

وعلى تأويلِ أهلِ التأويلِ: اللَّمَمُ ما دونَ الكبائرِ والفواحشِ [وجائزٌ أنْ تكونَ الكبائرُ والفواحشُ][9] التي ذَكَرَ كبائرَ الشِّرْكِ وفواحِشَهُ كقولِهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] فتكونُ اللَّمَمُ على هذا ما دونَ الشِّرْكِ، فهي في مشيئةِ اللهِ تعالى إنْ شاءَ عَفا عنها، وإنْ شاءَ عَذَّبَ عليها كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو أعلَمُ بكمْ وبأحوالِكُمْ ووقوعِكُمْ فيها على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، عَفَا عنكمْ أي عنِ اللَّمَمِ.

وعلى قولِ أبي بكرٍ: إنَّ ربَّكَ واسِعُ المَغْفِرَةِ لِمَنْ تابَ عنها، وهو أعلَمُ بكُمْ بأنكمْ تتوبونَ عنها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كقوله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) اضطربت نسبة هذا البيت بين أبي خراش الهذلي وبين أمية بن أبي الصلت، انظر ديوان ابن أبي الصلت ص/ ١٦١ و/ ٤٩١. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وعندنا ما ذُكِرَ: هو واسعُ المَغْفِرةِ لِمَنْ شاءَ تابَ عنها، أو لم يَتُبْ. ثم إنْ كانتِ المَغْفِرةُ هي السِّتْرَ، فهي تَعُمُّ المؤمِنَ والكافرَ في الدنيا، وإنْ كانتِ التَّجاوُزَ فهي للمؤمِنينَ خاصّةً، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ﴾ عندنا هو أعلَمُ بكم بأنكم تَعْمَلونَ، وتَقَعونَ فيها على السَّهْوِ والغَفْلةِ، أو هو أعلَمُ بأحوالِكُمْ وأفعالِكُمْ وما يكونُ منكُم، وهو ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ ما لوِ اجْتَمَعَ حُكَماءُ البَشَرِ ما أدركوا مَعْنى الإنشاءِ[1] في ذلكَ، ولا أدركوا مَعْنى تَصْويرِ اليَدَيْنِ والعينَيْنِ وغَيرِها مِنَ الجَوارحِ وقْتَ ما كُنْتُم أجِنّةً في بطونِ أمّهاتِكُمْ.

ثم نِسْبَتُنا إلى الأرضِ بقولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: إمّا لِخَلْقِ أصْلِنا مِنَ الأرضِ كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الروم: ٢٠] ونَحْوُهُ، وإمّا[2] لِجَعْلِ أقواتِنا منها لِقولِهِ تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] إذ لا قِوامَ لنا إلّا بذلكَ الغِذاءِ والقُوتِ الذي يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما:][3] في ظاهرِ الآيةِ نَهى عنِ التَّزكيةِ، وأمَرَ في آيةٍ أُخرى بالتَّزكيةِ ورَغَّبَ فيها / ٥٣٧ ـ ب/ حينَ[4] قال: ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١] لكنْ في ما أمَرَ بالتَّزكيةِ أمَرَ بإصلاحِ أنفسِهِمْ في أنفسِهِمْ وتَزْكيتِها فِعْلاً، وفي ما نَهى عنِ التَّزكيةِ نَهى عَنْ أنْ يَصِفوا أنفسَهُمْ بالتَّزكيةِ والصلاحِ والتُّقى والبَراءةِ، لَعَلَّ ذلكَ ليسَ بتَزْكيةٍ في الحقيقةِ، أو يكونُ فيهِمْ مِنَ الفَسادِ مالا يَسْتَحِقُّ التَّزكيةَ والوَصْفَ بالبَراءةِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ اللهَ تعالى لمّا نَهانا عنِ التَّزكيةِ فكيفَ جازَ لنا أنْ نقولَ لأنفسِنا: إنّا مُؤمِنونَ ومُسْلِمونَ، إنَّ ذلكَ مدحٌ وتَزكيةٌ؟

قيلَ: إنهُ[5] أمَرَنا بقولِ الإيمانِ والإسلامِ ابْتِداءً حينَ[6] قال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦] وقال[7]: ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] ونَحْوَ ذلكَ، ولم يأمُرْ بِمِثْلِهِ ابتداءً في الصلاحِ؛ ونَحْوُهُ بأنْ نقولَ: نحنُ صُلَحاءُ أتْقِياءُ، فَجازَ ألّا يَمْنَعَ في الإيمانِ، ويَمْنَعَ في غَيرِهِ مِنَ الطاعاتِ.

والثاني: أنْ ليسَ في نفسِ الإيمانِ تَزْكيةٌ لأنَّ كلَّ أهلِ الأديانِ مُؤمِنونَ بِشيءٍ كافِرونَ بشيءٍ كقولِهِ[8] تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقولِ أولئكَ: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠] [وقولِهِ تعالى][9]: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] وفي نفسِ التُّقى والصّلاحِ تَزْكيةٌ.

وقيلَ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي لا تُزَكّوا أهلَ دينِكُمْ ومَذْهَبِكُمْ، وذلكَ مُتَعارَفٌ في الناسِ أنهم يُزَكّونَ أهلَ مَذْهَبِهِمْ، وإنْ كانوا لا يَعْرِفونَ صلاحَهُمْ وتَقواهُمْ، ويَذُمّونَ أهلَ خِلافِهِمْ في مَذْهَبِهِمْ، وإنْ لم يَعْرِفوا منهُمُ الشَّرَّ وما بهِ تَجِبُ المَذَمّةُ. وذلكَ مُحْتَمَلٌ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ نَهى كلاً في نفسِهِ أنْ يُزَكّيَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي اتَّقى مَحارِمَ اللهِ ومَناهِيَهُ، ويَحْتَمِلُ أي اتَّقى الكُفْرَ باللهِ والشِّرْكَ بهِ.

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا﴾ مِنْ كُبَرِ الكَفَرةِ وعُظَمائِهِمْ، وأعطى قليلاً مِنَ المالِ الضَّعَفةَ أهلَ الإيمانِ لِيَرْجِعوا عنِ الإيمانِ بِمُحَمَّدٍ والتَّصْديقِ بهِ، ويُكَذِّبوا عليهِ ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾ أي قَطَعَ عنهم في وقتٍ أيضاً. وكذا قالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾ أي قَطَعَ، وهو مِنْ كُدْيَةِ الرَّكِيَّةِ، وهي الصلابةُ فيها، إذا بَلَغَها الحافرُ يَئِسَ مِنْ حَفْرِها[10]، فَقَطَعَ الحَفْرَ.

---

(١) في الأصل وم: الإنسان. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إنا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) في الأصل وم: بقوله. (٩) في الأصل وم: وقولهم. (١٠) من م، في الأصل: حفر.

جنة السنة

[والثاني][1]: قيلَ لكلِّ مَنْ طَلَبَ شيئاً، فلم يَبْلُغ، أو أعطى، فلم يُتَمِّمْ: أكْدَى. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أكْدَى بَخِلَ، ورجلٌ مُكْدٍ بَخيلٌ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ فهو، واللهُ أعلَمُ ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ فيأمُرُ بِتكذيبِ محمدٍ ﷺ ويأذَنُ لهُ بالتَّوَلِّي عنهُ وإعطاءِ المالِ على التَّكذيبِ لهُ؟ أي ليسَ عندَهُ عِلْمُ الغيبِ لأنهمْ قومٌ لا يؤمنونَ بالرسلِ والكُتُبِ وأسبابِ العِلْمِ هذا.

الآيتان ٣٦ و٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ كأنَّ هذا مقطوعٌ مِنَ الأوَّلِ؛ كانَ أولئكَ الكَفَرَةُ يقولونَ لأتباعِهِمْ: إنّا نَتَحَمَّلُ الظُّلْمَ منكمْ والوِزْرَ فلا تأتُوا محمداً، ولا تُصَدِّقوهُ كقولِهِ تعالى حكايةً عنهمْ ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فقالَ: عندَ ذلكَ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي قد بَيَّنّا في صُحُفِهِما ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقيلَ: إنما سُمِّيَ وَفِيّاً لأنهُ بَلَّغَ ما أُمِرَ بِتَبْليغِهِ. وقيلَ: لأنهُ كانَ يُصَلّي أربعَ ركَعاتٍ عندَ الضُّحى.

وعلى ذلكَ يَرْوُونَ خَبَراً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أتدْرونَ ما وَفّى؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ، قالَ: وفّى بأربعِ ركعاتٍ كان يُصَلِّيهِنَّ من أوّلِ النهارِ، وزعَمَ أنها صلاةُ الضُّحى» [الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٧٣] فإنْ ثَبَتَ هذا اكْتُفِيَ عنْ تأويلٍ آخَرَ. وأصْلُهُ أنهُ سَمّاهُ وَفِيّا لِما قامَ بوفاءِ ما أُمِرَ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيهِ أنَّ هذا في الكتبِ كلِّها في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى وغيرِهما مِنَ الكتبِ: ألّا يَحْمِلَ أحدٌ وِزْرَ آخَرَ، إنما يَحْمِلُ وِزْرَ نفسِهِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: قالَ [رسولُ اللهِ ﷺ][2]: «لا يُؤخَذُ الرجلُ بِذَنْبِ غيرِهِ» [الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٧٢].

وعنْ عُمَرَ وابنِ أوسٍ [أنهُ][3] قالَ: كانَ الرجلُ يُؤخَذُ في الجاهليةِ بِذَنْبِ غيرِهِ حتى نَزَلَتِ الآيةُ..

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي ليسَ على الإنسانِ إلّا ما سَعَى، لأنهُ، جَلَّ، وعلا، يُثيبُ، ويُعطي الزيادةَ على ما سَعَى بِفَضْلِهِ وكرمِهِ كقولِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ونَحْوُ الصغارِ الذينَ لا سَعْيَ لهمْ قد يُعْطيهِمُ الثوابَ بِفَضْلِهِ. وأمّا جزاءُ السَّيِّئةِ[4] فإنهُ لا يكونُ إلّا بالمِثْلِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وجائزٌ أنْ يكونَ: لهُ بِمَعْنَى عليهِ في اللغةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيها.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في أولئكَ الكافرينَ الذينَ نَزَلَ فيهِمْ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يقولُ: ليسَ لذلكَ الإنسانِ إلّا ما سَعَى.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ وحَرْفُ سوفَ مِنَ اللهِ ﷻ على التَّحقيقِ والإيجابِ كَحَرْفِ لَعَلَّ وعَسَى، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي يَرَى جزاءَ عملِهِ، لا مَحالَةَ.

الآية ٤١ ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ جزاءُ الآخِرَةِ على الوفاءِ، لا نُقْصانَ فيهِ، خيراً كانَ، أو شرّاً. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ للكافرِ يُجْزَى جزاءَ الشِّرْكِ وجميعِ ما يَعْمَلُ مِنَ السوءِ. فأمّا المؤمنُ فإنهُ تُكَفَّرُ سيئاتُهُ، ويُجْزَى جزاءَ الخيراتِ كقولِهِ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦].

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ سَمَّى الآخِرَةَ مُنْتَهى ومَصيراً ورُجوعاً. ويَحْتَمِلُ أي إلى جزاءِ ربِّكَ تَنْتَهي.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الشرور.

جنة السنة

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ بيَّنَ اللهُ، جَلَّ، وعَلَا، قدرَتَهُ وسُلْطانَهُ في إنشاءِ أنفسِهِمْ وأحوالِهِمْ وأفعالِهِمْ.

أمّا بيانُ قُدْرَتِهِ في أنفسِهِمْ فحين قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [الآية: ٣٢].

وأمّا بيانُ قُدْرَتِهِ في أحوالِهِمْ فما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ [الآية: ٤٨] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [الآية: ٤٤].

وأمّا في أفعالِهِمْ فقولُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾.

يَذْكُرُ قدرتَهُ وسُلْطانَهُ بما ذَكَرَ لِيَعْلَموا أنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ يَخْرُجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: على الكِنايةِ والاسْتِعارةِ؛ جَعَلَ الضَّحكَ كِنايةً عنِ السرورِ، والبكاءَ كنايةً عنِ الحُزْنِ. وكذا العُرْفُ في الناسِ أنهُ إذا اشْتَدَّ بهِمُ السرورُ ضَحِكوا، وإذا اشْتَدَّ بهِمُ الحزنُ بَكَوا.

والثاني: على حقيقةِ الضَّحكِ والبكاءِ، فهو على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي أنْشَأَهُمْ بحيثُ يَضْحَكونَ، ويَبْكونَ.

والثاني: يَخْلُقُ منهم فِعْلَ الضَّحكِ والبكاءِ؛ فهو أشْبَهُ التأويلَيْنِ عندَنا.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ قولُهُ: ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي جَعَلَهُمْ بحيثُ يَموتونَ وبحيثُ يَحْيَوْنَ.

والثاني: ﴿أَمَاتَ﴾ بإخراجِ الرُّوحِ[1] ﴿وَأَحۡيَا﴾ بإدخالِ الرُّوحِ فيهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] وقولِهِ: ﴿خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الروم: ٤٠] فَيَحْتَمِلُ إماتَتَهُمْ في الدنيا وإحياءَهُمْ في الآخِرَةِ. وأصلُ ذلكَ أنهُ يَفْعَلُ بهِمْ كلَّ ما ذَكَرْنا.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ اسْمُ الزَّوجِ يَحْتَمِلُ الشَّكْلَ، ويَحْتَمِلُ المُقابِلَ، أي يَجْعَلُ أحَدَهما شكلاً للآخَرِ، وإنْ كانا ضِدَّيْنِ؛ يقولُ: جَعَلَهُمْ بحيثُ يَتَزاوجونَ، ويَتَشاكلونَ، أو يَتَقابَلونَ، ويَتَضادُّونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ أي تُقْذَفُ. قالَ الأصَمُّ: دلَّ قولُهُ: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ أنها إذا لم تُقْذَفْ [تَصيرُ مَذْياً، وإنما تُقْذَفُ][2] التي تَخْرُجُ على شَهْوةٍ، فأمّا الذي[3] يَخْرُجُ لا على شهوةٍ فإنهُ يكونُ مَذْياً، ولا يُوجِبُ الاغْتِسالَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي في الحِكْمةِ عليهِ النشأةُ الأُخرَى، لأنهُ لو لم تكنِ النَّشأةُ [الأُخرَى كانَتِ النَّشأةُ][4] الأُولَى باطلاً عَبَثاً غيرَ حِكْمةٍ.

أو يقولُ ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ /٥٣٨ ـ أ/ لِيُعْلَمَ أنَّ لهُ قُدْرةً عليها كما لَهُ القُدْرةُ على الأُولَى، لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ كانوا مُقِرّينَ بالأُولَى والقُدْرةِ عليها، ويُنْكِرونَ الأُخرَى، فَيُخْبِرُ أنَّ لهُ القُدْرةَ عليهِما، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي وَسَّعَ عليهِمْ ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أي صَيَّرَهُمْ [مِمَّنْ يَقْتَنونَ الخَدَمَ][5] وغيرَها، فيكونُ الإغناءُ، هو التوسيعُ بأنواعِ الأموالِ، والإغناءُ هو إعطاءُ القِنْيَةِ مِنَ الخادمِ وما يحتاجُ إليهِ لِلْمِهْنَةِ، فيكونُ في جَعْلِ الخَدَمِ لهُ فَضْلُ حاجةٍ لا غِنًى، وذلكَ دليلٌ على صِحّةِ مَذْهَبِنا في اسْتِجازَتِهِمْ دفعَ الزكاةِ إلى مَنْ لهُ الخَدَمُ.

---

(١) في الأصل وم: روحهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في م: التي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ما يقتنون من الخدم.

جنة السنة

وقيلَ: ﴿أَغۡنَىٰ﴾ أي أعطَى ما يُغْنيهِ، ويَسْتَغْني بِهِ ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أي أقْنَعَهُ، وأرضاهُ. وقيلَ على العكسِ: ﴿أَغۡنَىٰ﴾ أي أرْضَى ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أي أخدِمَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ: ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي أكْثَرَ، وقالَ: يا ابْنَ آدمَ، هو أغناكَ، وأقْناكَ، أي أعطاكَ الخَدَمَ، على ما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبِيُّ: هو منَ القِنْيَةِ والسَّيبِ، يُقالُ: أقْنَيْتُهُ كذا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: هو مِنَ القَنْوِ، قَناهُ[1]، أعطاهُ مالاً، يَقْنى قَنْواً.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ قِيلَ: إنَّ الشِّعْرَى اسْمُ كوكبٍ كانَ يَعْبُدُهُ بعضُ العربِ، فكأنهُمْ ظَنّوا أنَّ ما في ذلكَ الكوكبِ مِنَ الحُسْنِ والجَمالِ لِقَدْرٍ لهُ عندَ اللهِ ومَنْزِلةٍ، وأنَّ تدبيرَهُمْ يَرْجِعُ إليهِ، فَعَبَدوهُ لذلكَ.

ويَحْتَمِلُ أنهمْ عَبَدوهُ لمّا [لم][2] يَرَوا لأنفسِهِمْ أهليَّةً لِعبادةِ الربِّ تعالى، فَعَبدوا مَنْ دونَهُ رَجاءَ التَّقَرُّبِ إليهِ على ما يَخْدِمُ المرءُ المُتَّصِلِينَ بملوكِ الأرضِ. ولكنَّ هذا فاسدٌ لأنَّ مَنْ خَدَمَ المُتَّصِلِينَ بملوكِ الأرضِ فإنما يَخْدِمونَ[3] لِما لم يَسْبِقْ لهمْ إليهمْ مِنْ خِدمةٍ مُتَّصِلَةٍ ولا الإذنِ بِعبادةِ أنفسِهِمْ وخِدْمَتِهِمْ.

فأمّا اللهُ تعالى فقد أمَرَهُمْ بِعبادةِ نفسِهِ، ونَهاهُمْ عنْ عبادةِ غيرِهِ، فلم يَسَعْ لهمْ بَعدَ الأمرِ بعبادتِهِ والنَّهْيِ عنْ عِبادةِ غَيرِهِ عبادةُ مَنْ دونَهُ. ذَكَرَ سَفَهَهُمْ في عبادتِهِمُ الشِّعْرَى وأمثالِها، أيِ اعْبُدوا ربَّ الشِّعْرَى فإنَّ ما فيهِ مِنَ الحُسْنِ والجمالِ، هو الذي فَعَلَ، فإليهِ اصْرِفوا العبادةَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ قُرِئَ ﴿عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ بإظهارِ التَّنوينِ والهَمْزةِ، وبِغيرِ الهَمْزةِ ولا إظهارِ التنوينِ [أي بإدغامِ التنوينِ في اللامِ: عادَ اللُّولَى][4] حتى تصيرَ كأنها لامٌ مُثقَّلَةٌ.

ثم هذا ليسَ نوعَ ما ذُكِرَ مِنْ قَبْلُ، إنما ذَكَرَ هذا لهمْ لِيَنْزَجِروا عنْ صَنيعِهِمْ، أي إذا أهْلَكَ عاداً، وهُمْ أشَدُّ منكُمْ قوةً، وأكْثَرُ عدداً وأموالاً. فلمّا لم يَنْزَجِروا بِمواعِظِ الرَّبِّ تعالى أهْلَكَهُمْ. فَعَلى ذلِكَ نَفْعَلُ بكُمْ يا أهلَ مكةَ إنْ لم تَتَّعِظوا.

أو إنهُ أهلكَ عاداً فلم يَتَهَيَّأْ لهمُ القيامُ بدفعِ عذابِ اللهِ ﷻ معَ قوتِهِمْ، فكيفَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ؟

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: كانوا عادَينِ: أحَدُهُما قومُ هودٍ، وهُمْ[5] أوَّلُ، فأُهْلِكوا بالريحِ، وكانَتْ أُخرَى في زمنِ فارسَ الأوَّلِ. ومنهمْ منْ قالَ: ﴿عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ الذينَ أُهْلِكوا مِنْ قَبْلُ مِنَ الأمَمِ، وأهلُ مكةَ وهؤلاءِ عادٌ أُخرَى.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ أي أهلكَ ثموداً أيضاً. وقولُهُ: ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أيِ اسْتَأْصَلَهُمْ؛ لم يُبْقِ منهمْ أحداً، أي ما أبْقَى لهمْ نَسْلاً، يُذْكَرونَ بَعْدَ ذلكَ بَعْدَ هلاكِهِمْ ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ إلا الأنبياءَ والرسلَ ﷺ مِنَ النَّسْلِ، أو ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ لهمْ مِنْ آثارِ الخَبَرِ شيئاً كما أبقَى للرسلِ ﷺ وأتباعِهِمْ إلى آخِرِ الأبدِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ أي كانوا أفْحَشَ ظُلْماً وأكْثَرَ طُغْياناً، لأنَّ نوحاً ﷺ دعاهُمْ إلى توحيدِ اللهِ ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: ١٤] فما زادَهُمْ [دُعاؤهُ][6] إلا نفوراً واستِكْباراً على ما أخبَرَ ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾ [نوح: ٦].

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ قيلَ: قُرَياتُ لوطٍ ﷺ أي أهْلَكَها أيضاً. وقولُهُ: ﴿أَهۡوَىٰ﴾ قيلَ: أي أهْوَى إلى النارِ، وقيلَ: أي أهْوَى مِنَ السماءِ إلى الأرضِ على ما ذُكِرَ أنَّ جبرائيلَ ﷺ رَفَعَها إلى السماءِ، وأرْسَلَها إلى الأرضِ.

---

(١) في الأصل وم: قنى. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: يخدم. (٤) ساقطة من الأصل وم ، انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/٢١. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: وهو.

جنة السنة

الآية ٥٤ وقولُه تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ قيلَ: غَشّاها الحجارةَ بعدَ ذلكَ، فَسَوّاها بالأرضِ. وقيلَ: غَشّى الحجارةَ مُسافِريهِمْ ومَنْ غابَ عنهمْ. وقيلَ: المُؤتَفِكةُ المُكَذِّبةُ مِنَ الأُولِ، وهُمُ[1] الكُذُبُ. وقيلَ: التَفَكَتْ أي انْقَلَبَتْ ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أي غَشّى قَرْياتِ لوطٍ ﷺ مِنَ العذابِ ما غَشّى أولئكَ الذينَ ذَكَرَ مِنْ قَبْلُ مِنْ [قومِ][2] عادٍ ومِنْ قومِ نوحٍ، وهو قولُ القُتَبيِّ. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: المُؤتَفِكَةُ المَخْسوفَةُ.

الآية ٥٥ [وقولُه تعالى][3]: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ فظاهرُ هذا وظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣و...] مُشْكِلٌ لأنهُ ذَكَرَ آلاءَ، ولو عرَفَ أنها[4] آلاءُ ربِّهِ لَكانَ لا يُكَذِّبُهُ.

لكنْ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

[أحَدُها][5]: على التقديمِ والتأخيرِ والإضمارِ؛ كأنهُ يقولُ: فَبِأَيِّ آلاءِ مِنْ آلاءِ ربِّكُمْ شاهَدْتُموهُ، وعايَنْتُموهُ، تتمارَوْنَ؟ وكذلكَ فَبِأيِّ آلاءِ ربِّكُما الذي أقْرَرْتُمْ بهِ تُكَذِّبوني.

[والثاني][6]: يقولُ: فبأيِّ آلائِهِ وإحسانِهِ تتمارى، فكيفَ أنْكَرْتُمْ إحسانَهُ بمحمدٍ ﷺ وكيفَ صَرَفْتُمْ شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غيرِهِ.

[والثالثُ][7]: تكونُ الآلاءُ ههنا هيَ الحُجَجَ؛ يقولُ: فَبِأيِّ حُجَّةٍ مِنْ حُجَجِ رَبِّكَ تُنْكِرُ رسالةَ محمدٍ، عليهِ أفضلُ الصلَواتِ، أو تَتَمارى فيها، أي لا حُجَّةَ لكَ في تكذيبِكَ إياهُ أو إنكارِكَ رسالَتَهُ.

الآية ٥٦ وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي الذي يَدْعوكمْ، ويُنَبِّئُكُمْ محمدٌ ﷺ مِنَ النُّذُرِ الأُولى التي أنبأها الرُّسُلُ الأَوَّلونَ، وأوعَدوا قومَهُمْ. فيكونُ صلةَ قولِهِ ﷻ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [الآية: ٥٠] إلى آخِرِهِ.

وقيلَ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي [محمدٌ ﷺ ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي][8] الرُّسُلِ الأُولى، وتَمامُ هذا التأويلِ، أي هذا نذيرٌ مِنَ البَشَرِ كالذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ.

وقيلَ: هذا الذي يُنْذِرُ محمدٌ ﷺ هو مِنَ النُّذُرِ التي في اللوحِ المَحْفوظِ، أي مما يُنْذِرُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُه تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ أي قَرُبَتِ القِيامةُ؛ سَمّى اللهُ ﷻ القيامةَ بأسماءٍ مُخْتَلِفةٍ: مَرّةً الآزِفةُ، ومَرّةً الساعةُ، ومَرّةً القِيامةُ؛ فَسَمّاها آزِفةً لِقُرْبِها إلى الخَلْقِ ووقوعِها عليهِمْ، وكذلكَ الساعةُ.

الآية ٥٨ وقولُه تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ دَلَّتِ الآيةُ على أنَّ اللهَ تعالى لم يُؤْتِ عِلْمَ قيامِ الساعةِ ووقوعِها أحداً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولِلْباطِنِيّةِ أدْنى تَعَلُّقٍ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ لأنهمْ قالوا: إنَّ الآخِرَةَ للحالِ كائنةٌ، لكنّها مُخْتَفِيَةٌ مُسْتَتِرَةٌ، تُظْهَرُ، وتُكْشَفُ عندَ فَناءِ هذهِ الأجسامِ وذهابِ هذهِ الأبدانِ. ويَسْتَدِلّونَ بقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وبقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ويقولونَ: إنَّ لَفْظَ التَّجَلّي والكَشْفِ إنما يَسْتَعْمِلونَ في ما هو كائنٌ ثابتٌ، يَظْهَرُ عندَ ارْتِفاعِ التَّواتُرِ، لا يُخْفيها إلّا في الإنشاءِ ابْتِداءً.

ولكنْ عندَنا أنَّ حَرْفَ الكَشْفِ والتَّجَلّي يُسْتَعْمَلُ في ابْتِداءِ الإحداثِ والإنشاءِ وفي إظهارِ ما كانَ كامناً خافياً. فإذا كانَ كذلكَ بَطَلَ اسْتِدلالُهُمْ بذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣و...] هو عالِمٌ بما كانَ خَفِياً بِحَقِّ الخَلْقِ وما هو شاهدٌ ظاهرٌ وعالِمٌ بما يكونُ وبما هو كائنٌ للحالِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآيتان ٥٩ و٦٠ وقولُه تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ كانوا يعجَبونَ مِنْ أمرَيْنِ:

أحَدُهما: مِنْ بَعْثِ الرسلِ كقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢].

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

[والثاني][1]: مِنَ البَعْثِ بَعْدَ ما يفنونَ، ويَبْلَونَ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ الآية [الرعد: ٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ الضَّحِكُ /٥٣٨ ـ ب/ ههنا كِنايةٌ عنِ الاستِهزاءِ، ليسَ على حَقيقةِ الضَّحِكِ، ويكونُ الضَّحِكُ كِنايةً عنِ السرورِ، أي تُسَرُّونَ على ما أنتمْ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أيضاً ليسَ على حقيقةِ البكاءِ، ولكنْ كِنايةٌ عنِ الحُزْنِ، أي ولا تَحْزَنونَ على ما فَرَطَ منكُمْ مِنَ الأعمالِ وسُوءِ الصَّنيعِ والمعاملاتِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ لاهونَ مُعْرِضونَ. وعَنِ الحَسَنِ وسَعيدِ بْنِ جُبَيرٍ ﴿سَٰمِدُونَ﴾ غافلونَ، وقيلَ: ﴿سَٰمِدُونَ﴾ حَزِنونَ على رسالةِ محمدٍ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، وغائِظونَ على ما أُنْزِلَ عليهِ.

وعنْ عِكْرِمةَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [أنهُ][2] قالَ: هو [مِنَ][3] الغناءِ بلغةِ اليَمَنِ؛ يقولُ اليَمانيُّ: اسْمُدْ لنا، أي غَنِّ لنا، قالَ: كانوا إذا سَمِعوا القرآنَ تَغَنَّوا، ولَعِبوا.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي اخْضَعوا للهِ، واسْتَسْلِموا لهُ؛ إذِ الأمْرُ بالسُّجودِ عندَ التِّلاوةِ في غيرِ سُجودِ الصلاةِ أمْرٌ بالخُشوعِ لهُ والاِسْتِسْلامِ. والأمْرُ بالسجودِ ههنا التِّلاوةُ للأحاديثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وعنِ الصحابةِ والتابِعينَ، رِضْوانُ اللهِ عليهِمْ أجمَعينَ.

رَوَى الأسودُ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قَرَأَ سورةَ النجمِ، فَسَجَدَ فيها، ولم يَبْقَ معهُ أحدٌ إلّا سَجَدَ إلّا شيخٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فإنهُ أخذَ كَفّاً مِنْ حَصَى، فَرَفَعَهُ إلى جَبْهَتِهِ.

ورَوَى أبو هريرةَ والمُطَّلِبُ بْنُ أبي وَداعةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ فيها.

ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ وعُثْمانَ رضي الله عنهما أنهما سَجَدا فيها، وعَنْ عليٍّ رضي الله عنه أنهُ قالَ: عَزائمُ السُّجودِ أربعٌ: ﴿تَنزِيلُ﴾ السجدة [و﴿حمٓ﴾ السجدة][4] ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

وما رُوِيَ عنْ زَيدِ بْنِ ثابتٍ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قَرَأَها، فلم يَسْجُدْ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ التِّلاوةُ واقعةً في وقتٍ يُكْرَهُ السُّجودُ حِكايةَ فِعْلٍ، لا عُمومَ لهُ، واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ ما أرادَ [والحَمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمَعينَ][5].

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

جنة السنة

جنة السنة

سورة القمر

[﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ هي](1) مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال بعضُهُمْ: أي اقْتَرَبَتِ الساعة، واقْتَرَبَ انْشِقاقُ القَمرِ، وقيلَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ: اقْتَرَبَتِ الساعة، وإنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضوا، وإنْ كانَ انْشِقاقُ القمرِ.

فَعَلَى هذينِ التأويلَينِ لم يَكُنِ انشِقاقُ القَمَرِ بَعْدُ، ولكنْ يكونُ في المُسْتَقْبَلِ وعندَ قِيامِ الساعةِ، وهو قولُ أبي بكرٍ الأصمِّ، مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي سَيَنْشَقُّ القَمَرُ عندَ الساعةِ؛ إذْ لو كانَ قد انْشَقَّ في زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ لما خَفِيَ على أهلِ الآفاقِ، ولو كانَ ظاهراً عندَهُمْ لَتَواتَرَ القولُ(2) بهِ، إذْ هو أمْرٌ عجيبٌ، والطباعُ جُبِلَتْ على نَشْرِ العجائبِ [وأجْمَعَ](3) عامَّةُ أهلِ التأويلِ على أنَّ القَمَرَ قدِ انْشَقَّ، فكانَ ذلكَ مِنْ مُعْجِزاتِهِ ﷺ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: كنا مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ بِمِنىً، فانشَقَّ القَمَرُ، فَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ منهُ وراءَ الجبلِ، فقالَ ﷺ: اشْهَدوا، اشْهَدوا ورُوِيَ عنْ غيرِهِ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ وعبدِ اللهِ بنِ عبّاسٍ ﷺ وأنَسِ بْنِ مالكٍ وحُذَيفَةَ وجُبَيرِ بْنِ مُطْعَمٍ في جماعةٍ مِنَ الصحابةِ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجْمَعينَ، أنهمْ رَأَوُا انْشِقاقَ القَمَرِ.

وقولُ أبي بكرٍ لو كانَ لم يَخْفَ، وظَهَرَ، فَيُقالُ لَهُ: قد ظَهَرَ، فإنهُ رُوِيَ عنْ غيرِ واحدٍ مِنَ الصحابةِ ﷺ، وتَواتَرَ الحديثُ عنِ الخاصِّ والعامِّ، وفَشا الأمْرُ بَينَهُمْ حتى قَلَّ مَنْ يَخْفَى عليهِ سَماعُ هذا الحديثِ.

على أنهُ قد يُطْلَقُ ظاهرُ الكتابِ، وإنما يُكَلَّفُ حِفْظُ ما لم يَنْطِقْ بهِ الكتابُ والعَمَلُ بحقيقةِ اللفظِ واجبٌ؛ وقالَ بعضُهُمْ: يجوزُ أنْ يَسْتُرَهُ اللهُ تعالى عنْ أهلِ الآفاقِ بِغَيمٍ، ويَشْغَلَهُمْ عنْ رؤيتِهِ بِبعضِ الأمورِ بِضَرْبِ تدبيرٍ ولُطْفٍ منهُ لئلا يَدَّعِيَهُ بعضُ المُلتَبِسينَ في الآفاقِ لنفسِهِ، ويَدَّعِيَ(4) الرسالَةَ كاذباً بناءً على دَعْواهُ أنهُ فَعَلَ ذلكَ، فَيَحْتَمِلُ أنهُ أخْفاهُ(5) عنْ أهلِ الآفاقِ إلّا في حقِّ مَنْ تَظْهَرُ المُعْجِزَةُ عليهِمْ مِنَ الحاضرينَ، والكَفَرَةُ يَكْتُمونَهُ، والصحابةُ الذينَ رَأَوا قد نَقَلوهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ كأنهُ يقولُ: اقْتَرَبَتِ الساعةُ التي يُجْزَوْنَ فيها، أو الساعةُ التي يُحاسَبونَ فيها.

فإنْ قيلَ: أليسَ رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتَينِ وأشارَ إلى السَّبّابةِ والوُسْطَى» [البخاري: ٦٥٠٣] وقد قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ ولم تَقُمِ الساعةُ بَعْدُ؟

قيلَ: يَحْتَمِلُ أنَّ مُرادَهُ ﷺ أنهُ خَتَمَ النُّبُوَّةَ والرسالةَ، وتَبْقَى أحكامُهُ وشريعتُهُ إلى وقتِ قِيامِ الساعةِ، وبَقاءُ شريعتِهِ كَبَقائِهِ، فصارَ كأنهُ قالَ: شَريعتي والساعةُ كهاتَينِ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ لَمّا كانَ بهِ خَتْمُ النُّبُوَّةِ والشريعةِ صارَ بَعْثُهُ ومَجيئُهُ ﷺ علامةً للساعةِ وآيَةً لها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١] على تأويلِ مَنْ جَعَلَ بَعْثَ الرسولِ ﷺ عَلَماً وآيَةً للساعةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ ذَكَرَ تَعَنُّتَهُمْ وعِنادَهُمْ أنهمْ ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ سألوها ﴿يُعْرِضُوا﴾ فَلَمْ يُرِهِمْ تلكَ، أو مِنْ سُنَّتِهِ أنَّ كلَّ آيةٍ جاءَتْ على إثْرِ السؤالِ، فلم يَقْبَلوها، أُهلِكوا.

(1) في الأصل وم: ذكر أن سورة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ وهي. (2) في الأصل وم: النقل. (3) في الأصل وم: و. (4) في الأصل وم: وادعى. (5) في الأصل وم: أخفى.

فإذا كانَ منْ سُنَّتِهِ هذا، وقد وَعَدَ تأخيرَ عذابِ الأمَّةِ إلى الساعةِ، وعَفا عنهُم التَّعْجيلَ، لم يُرِهِمْ تلكَ الآياتِ المُقْتَرَحةَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً﴾ حِسِّيَّةً ﴿يُعْرِضُوا﴾ لأنّ آياتِ رسولِ اللهِ ﷺ عامَّتَها وأكثرَها، كانَتْ عَقْلِيَّةً وسَمْعِيَّةً، فَيُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ أنهمْ ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً﴾ حِسِّيَّةً ﴿يُعْرِضُوا﴾ عنها، وهو كقولِهِ ﷻ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا﴾ [الأنعام: ١١١] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ الآية [الحجر: ١٤و١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ اخْتُلِفَ فيه:

منهمْ مَنْ قالَ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ماضٍ لم يَزَلِ الرسُلُ ﷺ كانوا يأتونَ بِمِثْلِهِ مِنَ السِّحْرِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي قَوِيٌّ مأخوذٌ مِنَ المِرَّةِ، وهي القُوَّةُ، وأصلُ المِرَّةِ الفَتْلُ./ ٥٣٩ ـ أ/ ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهِبٌ، يذهبُ، ويَتَلاشى، ولا يَبْقى.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ كَذَّبوا الرسولَ ﷺ وما أتى بِهِ مِنَ الآيةِ على الرسالةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بالتوحيدِ ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ يُخبِرُ أنهمْ إنما كَذَّبوا ما ذُكِرَ باتِّباعِ أهوائِهِمْ لا بحجَّةٍ ولا بُرْهانٍ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي كلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرٌّ بأهلِهِ، إنْ كانَ خيراً فَخَيرٌ، وإنْ كانَ شرّاً فَشَرٌّ. ويَحْتَمِلُ: كلُّ أمْرٍ كائنٍ قارٌّ يَقِرُّ بأهلِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: لكلِّ أمْرٍ وفِعْلٍ حَقيقةُ ما كانَ: فما كانَ منهُ في الدنيا فَسَيُظْهَرُ، وما كانَ منهُ في الآخِرَةِ فَسَيُعْرَفُ][1].

الآيتان ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وجاءَتْهُمْ أيضاً حِكْمةٌ بالغةٌ، وهو القرآنُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ معناهُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وفي تلكَ الأنباءِ حِكْمةٌ بالغةٌ.

ثم الأنباءُ التي فيها مُزْدَجَرٌ حِكْمةٌ بالغةٌ، وهي ما ذُكِرَ في هذهِ السورةِ مِنْ أنباءِ عادٍ وثمودَ وقومِ نوحٍ وموسى، فقد جاءَهُمْ أنباءُ هؤلاءِ، وعَرَفوا ما نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ والإهلاكِ، وبِأيِّ شيءٍ نَزَلَ بهمْ، وهو تكذيبُ الرسلِ ﷺ لِيَرْتَدِعوا عن مِثْلِ صَنيعِهِمْ، فلا يَلْحَقُهُمْ مِثْلُ ما يَلْحَقُ أولئكَ، والبالغةُ هي[2] النهايةُ في الأمْرِ، يُقالُ بالغٌ في العِلْمِ إذا انْتَهى في ذلكَ نِهايَتَهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ أمْرٌ مُتَّعَظٌ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ أي زاجِرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: قد جاءَ هُمْ ما ذُكِرَ مِنَ الأنباءِ التي فيها مُزْدَجَرٌ وإنذارٌ، فلم يَزْجُرْهُمْ ذلكَ، ولم يَنْفَعْهُمْ، فأنّى تُغْنِ النُّذُرُ؟ ومِنْ أينَ تَنْفَعُهُمُ النُّذُرُ؟ أي لا تُغْنيهِمْ.

ثم النُّذُرُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿النُّذُرُ﴾ [الرسُلُ][3] ﷺ جَمْعُ نذيرٍ.

والثاني: ما تَقَعُ بِهِ النِّذارةُ، وهي الأنباءُ التي أنْذَرَ الرسُلُ بها، وحَذَّروا بذلكَ.

يقولُ: فما يُغْنيهِمْ قولُ الرسُلِ ولا خَوفُ ما بَلَغَهُمْ مِنَ القِصَصِ التي فيها تَعْذيبُ الكَفَرةِ بِتَكْذيبِ الرسلِ ﷺ وتَرْكِ اتِّباعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

(١) ساقطة من م. (٢) من م، في الأصل: في. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحدُها: قولُهُ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرِضْ عنهمْ، ولا تُكافِئْهُمْ بإساءَتِهِمْ.

والثاني: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي لا تُقابِلْهُمْ، ولا تُجاهِدْهُمْ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو يَحتَمِلُ النَّسْخَ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، وإنْ كانَ للأوَّلِ فهو لا يَحتَمِلُ [النَّسْخَ.

والثالثُ: يَحتَمِلُ][1] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي لا تَشتَغِلْ بهِمْ فإنهمْ لا يؤمِنونَ؛ وذلكَ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يُؤمِنونَ؛ يُؤْيِسُ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الطَّمَعِ في إيمانِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي إلى شيءٍ مُنْكَرٍ فَظيعٍ هائلٍ. ويَحتَمِلُ إلى شيءٍ أنكَروهُ في الدنيا، وهو الساعةُ، فيُقِرّونَ في الآخِرَةِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ وقُرِئ: خاشِعةً بالألِفِ[2]؛ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ [قولُهُ:][3] وتصديقُها في قراءةِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ وصَفَهُمْ بالخُضوعِ في الآخِرَةِ مكانَ استِكبارِهِمْ في الدنيا، وبالإقرارِ والتَّصديقِ بالساعةِ مكانَ إنكارِهِمْ في الدنيا، وبالإجابةِ للداعي مكانَ رَدِّهِمْ لهُ في الدنيا حينَ[4] قالَ: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [الآية: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ هذا يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: تَشبيهُهُمْ بالجَرادِ لِحَيرَتِهِمْ، لا يَدْرُونَ مِنْ أينَ يأتونَ؟ وإلى أينَ يَصيرونَ؟ كالجَرادِ الذي لا يُدْرى مِنْ أينَ [أتى][5]؟ وإلى أينَ [يَذهبُ][6]؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢].

والثاني: تَشبيهُهُمْ بالجرادِ لِكَثرَتِهِمْ وازْدِحامِهِمْ لِما يُحشَرُ الكُلُّ بِدَفعةٍ واحدةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي مُسرِعينَ، وقالَ قَتادةُ: أي عامِدينَ.

وقالَ مجاهدٌ: الإهطاعُ السَّيَلانُ، وهو بالفارسيَّةِ: يويه رفيق.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ ناظرينَ رافِعي رؤوسِهِمْ، وهو قولُ الكَلْبيِّ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: أي مُسرِعينَ مادِّينَ أعناقَهُمْ، وقيلَ: الإهطاعُ إدامةُ النَّظَرِ إلى الداعي.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩و١٠].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كذَّبتْ قبلَ قومِكَ قَومُ نوحٍ نوحاً عليه السلام وآذَوهُ، فَصَبَرَ على التَّكذيبِ وأنواعِ الأذى، ولم يَدْعُ عليهِمْ بالهَلاكِ ما لم يَرِدِ الإذْنُ بالدعاءِ عليهِمْ بالهلاكِ مِنَ اللهِ تعالى.

فاصْبِرْ أنتَ على تكذيبِ القومِ وأنواعِ الأذى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فإنْ قيلَ: ما الحِكمةُ في تكرارِ هذهِ الأشياءِ في القرآنِ، ولم يُكرَّرْ ما فيهِ مِنَ الأحكامِ؟

قيلَ: إنَّ هذهِ الأنباءَ والقِصَصَ إنما جاءَتْ لِمُحاجَّةِ أهلِ مكةَ وأمثالِهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ في إثباتِ الرسالةِ والتوحيدِ والبَعْثِ؛ إذْ هُمُ المُنكِرونَ لهذهِ الأشياءِ، وهُمْ كانوا أهلَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ، وفيهِمْ أيضاً مُستَرْشِدونَ، ومِنْ حقِّ المُحاجَّةِ مع [مَنْ][7] ذَكَرْنا وأمثالِهِمْ أنْ تُعادَ الحُجَّةُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، لَعَلَّهُمْ يَقبَلونَها في وقتٍ، وتَنجَعُ في قلوبِهِمْ، ومِنْ حقِّ المَوعِظَةِ لِلْمُستَرْشِدينَ أيضاً أنْ تُكرَّرَ لِيَتَّعِظوا[8]. ويَختَلِفُ ذلكَ باختِلافِ الأحوالِ، وقد ذَكَرْنا فوائدَ تَكرارِها واقتِصارِ الأحكامِ في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ نوحاً عليه السلام قد دَعا على قومِهِ بالهَلاكِ، قيلَ: إنما دَعا على قومِهِ بالهَلاكِ بَعْدَ ما أيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٣١. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم . (٨) في الأصل وم: ليتعظ.

حينَ[١] قيلَ: إنهُ ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] أمّا رسولُ اللهِ فلمْ يُؤْيِسْهُ مِنْ إيمانِ قومِهِ جُمْلَةً، إنما أيْأسَهُ[٢] مِنْ بعضٍ بطريقِ التَّعْيينِ، وهمْ قومٌ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يُؤمِنونَ، لا مِنَ الكُلِّ. فلِذلكَ لم [يأذَنْ لهُ][٣] بالدعاءِ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿فَكَذَّبُوا﴾ في ما ادَّعَى لنفسِهِ الرسالةَ، أو كَذَّبوهُ في ما دَعاهُمْ إليهِ [مِنَ التَّوحيدِ][٤] وتوجيهِ الشُّكْرِ إلى الواحِدِ القَهّارِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ أي قالوا لِأتباعِهِمْ: إنهُ مَجْنونٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي نوحٌ ﷺ حينَ[٥] قالوا لِقومِهِمْ: لا تَتَّبِعوهُ، وزَجَروهُمْ عنهُ بقولِهِمْ: إنهُ مجنونٌ، فهذا منهمْ زَجْرٌ لأتباعِهِمْ عَنِ اتِّباعِهِ، فصارَ لِذلكَ نوحٌ ﷺ [مُزْدَجَراً عنهُمْ][٦].

وقالَ بعضُهُمْ: زَجَروا نوحاً ﷺ أي مَنَعوهُ مِنْ إظهارِ ما آتاهُمْ مِنَ الآياتِ على رسالتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أي مَغْلوبٌ بالسَّفَهِ والمُكابَرةِ وأنواعِ الأذى؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ مَغْلوباً بالحُجَجِ ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ لِعبدِكَ[٧] عليهِمْ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي مِنْ فَوقُ، لأنَّ ما كانَ فَوقَكَ فهو سماءٌ، فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ مِنَ البَحْرِ المَكْفوفِ الذي ذُكِرَ أنهُ بينَ السماءِ والأرضِ.

الآية ١٢ [بقولِهِ تعالى][٨]: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي أنْبَعْنا الماءَ مِنَ الأرضِ، كأنهُ قالَ: [أنزَلْنا الماءَ][٩] مِنْ فوقُ، وأنْبَعْنا مِنْ أسفَلَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو حَقيقةُ فَتْحِ السماءِ وإنزالِ الماءِ منها، واللهُ تعالى قادرٌ أنْ يُرسِلَ الماءَ مما[١٠] يَشاءُ، وكيفَ [يشاءُ][١١] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قيلَ: مُنصَبٌ. وقالَ أبو عُبَيدٍ: ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ أي كثيرٍ سَريعِ الانْصِبابِ؛ يُقالُ: هَمَرَ الرجُلُ إذا أكْثَرَ مِنَ الكلامِ، فأسْرَعَ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: انْهَمَرتِ السماءُ، وهَمَرَتْ / ٥٣٩ ـ ب/ أي مَطَرَتْ، فأكْثَرَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ يَذْكُرُ أنَّ الماءَينِ جميعاً: ما أُرسِلَ مِنْ فَوقُ[١٢]، وما أُخرِجَ مِنْ تَحتُ على تَقْديرٍ وتَدْبيرٍ لا جُزافاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠] أي على قَدَرٍ وتَدْبيرٍ مِنَ اللهِ تعالى لكَ في ذلكَ لا على تَقْديرٍ منهُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ فالتَقَى على أمْرٍ قد قُدِرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي قد قُدِرَ لهم أنْ يَغْرَقوا بالماءِ إذْ كَفَروا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ أي اسْتَوَى الماءُ: نِصْفُهُ مِنْ عُيونِ الأرضِ، ونِصْفُهُ مِنَ السماءِ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ وذُكِرَ في حَرْفِ حفصةَ ﷺ: وحَمَلْناهُ وذُرِّيَّتَهُ على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ. ذَكَرَ ههنا ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ وذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى السفينةَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] ونَحْوِهِ. فيكونُ ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ تَفْسيرَ السفينةِ.

ولو لم [يَتَقَدَّمْ ذِكْرُ السفينةِ لم][١٣] يُفْهَمْ مِنْ ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ السفينةُ؛ إذْ ذاتُ الألواحِ قد تَرجِعُ إلى العِمادِ[١٤] وغيرِها. لكنْ كانَ تَفْسيرُ السفينةِ بما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يؤيسه. (٣) في الأصل وم: يؤذن. (٤) في الأصل وم: بالتوحيد. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: مزدجر عنه. (٧) في الأصل وم: عبدك. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ممن. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الفوق. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: الإعمار.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَدُسُرٍ﴾ [قالَ أهلُ التأويلِ: الدُّسُرُ][1] المَساميرُ التي تُشَدُّ بها السفينَةُ. وقيلَ: الدُّسُرُ أضلاعُ السفينةِ. وقيلَ: صَدْرُها.

وقالَ الحَسَنُ: هي السفينةُ لأنها تَدْسُرُ الماءَ بِجُؤْجُئِها. قالَ أبو مُعاذٍ: واحدُ الدُّسُرِ دِسارٌ، وجِماعُ الجُؤْجُؤِ الجآجِئُ، وهي الصدورُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ وتَسْمِيَةِ هذا المَصْنوعِ[2] سفينةً دليلٌ على أنَّ أفعالَ العبادِ مَخْلوقةٌ للهِ تعالى لأنهمُ هُمُ الذينَ رَكِبُوا السفينةَ. ثم أخْبَرَ أنهُ هو الذي حَمَلَهُمْ. وكذلكَ الخَشَبُ المُجْتَمِعَةُ لا تُسَمَّى سَفينةً، إنما سُمِّيَتْ[3] بهذا الاِسْمِ بَعْدَ الإيجادِ والصَّنْعةِ المَوجودةِ مِنَ العبادِ. دلَّ أنَّ للهِ في فِعْلِ العبادِ صُنْعاً، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بِتَقْديرِنا وبِحِفْظِنا. وقولُهُ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي حَمَلَ نوحاً[4] وأتباعَهُ في السفينةِ، ونَجّاهُمْ مِنَ الغَرَقِ جَزاءَ ما كَفَرَ بِهِ قومُهُ. كذا قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنهُ إخبارٌ لنوحٍ ﷺ حينَ كَفَرَ بِهِ قومُهُ، فلَمْ يؤمِنْ بِهِ قومُهُ.

وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ باللهِ تعالى، أي الغَرَقُ جَزاؤُهُمْ لِما كَفَرُوا باللهِ تعالى.

وقالَ أبو مُعاذٍ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ قُرِئَ بِنَصْبِ الكافِ[5]؛ وتأويلُ هذهِ القراءةِ أنَّ[6] إهلاكَ مَنْ أهْلَكَ مِنْ قومِهِ جَزاءً لِما كَفَروا باللهِ تعالى أو بنوحٍ ﷺ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: تَرَكْنا سفينةَ نوحٍ ﷺ بَيِّنَةً مدةً طويلةً حتى صارتْ آيةً لأواخِرِهِمْ ولِمَنْ بَعْدَهُمْ. وبِهِ يقولُ قتادةُ: قالَ: أبْقَى اللهُ تعالى سفينةَ نوحٍ ﷺ بَيِّنَةً للمسافرينَ مِنْ أرضِ الجزيرةِ حتى نَظَرَتْ إليها أوائلُ هذهِ الأمةِ، وكَمْ مِنْ سفينةٍ كانَتْ بعدَها، فصارَتْ رماداً.

والثاني: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ آثارُ تلكَ السفينةِ وأنباؤُها آيةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ لأنَّ أنباءَها قد بَقِيَتْ في المُتَأخِّرينَ حتى عَرَفُوا أنَّ مَنْ نَجا بِمِ[7] نَجا ومَنْ هَلَكَ بِمِ[8] هَلَكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ عنِ الأسْوَدِ[أنهُ] قالَ: قلتُ لعبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أو مُذَّكِرٍ؟ فقالَ: أقرَأني رسولُ اللهِ ﷺ ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ بالدالِ.

قالَ أبو عُبَيدٍ: وأصلُهُ في العربيةِ: مُذْتَكِرٌ؛ فإنهُ مِنْ بابِ الاِفْتِعالِ على وَزْنِ مُفْتَعِلٍ، فَثَقُلَ لاِجْتِماعِ الذالِ والتاءِ، فأُدْغِمَ الحرفُ الأوَّلُ، وهو الذالُ، في التاءِ، فانْقَلَبَ دالاً. وهو كقولِهِ: ادَّخَرَ، أصلُهُ: اذْتَخَرَ مِنَ الذُّخْرِ لِما قُلْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ أي هل مِنْ مُتَذَكِّرٍ مُتَّعِظٍ يَتَّعِظُ بما نَزَلَ بأولئكَ فَيَنْزَجِرُ عن مِثْلِ صَنيعِهِمْ؟

قالَ قتادةُ: فهلْ مِنْ طالبِ خيرٍ، فَيُعانَ عليهِ؟

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أليسَ ما وَعَدَهُمْ رُسُلي مِنَ العذابِ بالتكذيبِ صِدْقاً حَقّاً؟ وأُريدَ بقولِهِ: ﴿وَنُذُرِ﴾ أي رُسُلي.

والثاني: أليسَ وَجَدوا عذابي شديداً ونُذُري ما وَقَعَتْ بِهِ النِّذارةُ، وهو العذابُ الذي أُنْذِروا بِهِ. والنُّذُرُ على هذا التأويلِ المُنْذَرُ بِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]. أي مَوعوداً، وإلّا وَعْدُهُ لا يكونُ مَفْعولاً، إذْ هو صفةٌ أزليّةٌ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: المصنوعة. (٣) في الأصل وم: سمي. (٤) في الأصل: مع نوح، في م: نوح. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٣٤. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: لمن. (٨) في الأصل وم: لمن.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي لِلْحِفظِ، أي صَيَّرْناهُ بحيثُ يَحْفَظُهُ كلُّ أحدٍ مِن صغيرٍ وكبيرٍ وكافرٍ ومؤمنٍ، وكلُّ أحدٍ يَتكلَّفُ حِفظَهُ.

والثاني: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي لِذِكْرِ ما نَسُوا مِن نِعَمِ اللهِ تعالى عليهِمْ ولِذِكْرِ ما أنبَأهُمْ فيهِ مِن أخبارِ الأوائلِ مِن مُصَدِّقيهِمْ ومُكذِّبيهِمْ(١).

والثالث: جائزٌ أن يكونَ لِرسولِ اللهِ ﷺ خاصّةً أي يَسَّرْناه عليهِ حتى حَفِظَهُ، حتى إذا أرادَ أنْ يَذْكُرَ شيئاً منهُ يَذْكُرُهُ في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ أرادَ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦و١٧]. وقولِهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣و١٩٤]. وقولِهِ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦و٧]. أمَّنَهُ مِن أنْ يَنساهُ، ومَنَّ عليهِ بالتَّيسيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ على التأويلِ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ، وإنْ يَسَّرْنا القرآنَ لِلْحِفظِ، ولكنْ لم يُنْزِلْهُ لِلْحِفظِ، ولكنْ إنما أنزَلَهُ لِيُذْكَرَ ما فيهِ ولِلاتِّعاظِ بهِ، أي فَهَلْ مِن مُتَّعِظٍ بهِ.

وعلى التأويلِ الآخرِ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ خُرِّجَ مُخرَجَ الأمرِ، أي اذكُروا، واتَّعِظوا بما فيهِ مِنَ الأنباءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ذَكَرَ أنباءَ الأوائلِ وما نَزَلَ بهِمْ بالتكذيبِ والعِنادِ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمُ الرسولَ ﷺ وهو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [الآية: ٤] تأويلُ الآيةِ يُخَرَّجُ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهُما.

الآية ١٩

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قيلَ: باردةٌ، وقيلَ: شديدةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ إذِ استَمرَّ بهِمُ العذابُ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] وقيلَ: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي ذاهبٌ على الصغيرِ والكبيرِ، فلم يَبْقَ منهمْ أحدٌ إلّا أهلَكَتْهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ مِنَ الناسِ مَن قالَ: لَمّا اشتَدَّ بهِمُ الريحُ تَنادَوا في ما بَينَهُمْ: البيوتَ [البيوتَ](٢) فَدَخلوها، فَدَخَلَتِ الريحُ عليهِمْ، فأخرَجَتْهُمْ مِن بُيوتِهِمْ، وألقَتْهُمْ في أفنِيَتِها(٣)، فذلكَ النَّزْعُ.

ومِنهُمْ مَن قالَ: تَنزِعُ مَفاصِلَهُمْ، فَتُلقيهِمْ كأعجازِ ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ لأنهمْ كانوا أطوَلَ الخَلْقِ؛ فَذُكِرَ أنَّ كلَّ رجلٍ منهمْ كانَ طولُهُ سِتِّينَ ذِراعاً، والنَّخلُ لا يَبلُغُ ذلكَ المِقدارَ إلّا بَعدَ قَطْعِ المَفاصِلِ، فجائزٌ التَّشبيهُ بأعجازِ ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ بَعدَ انعِقارِ(٤) مَفاصِلِهِمْ، والانعِقارُ هو الانقِلاعُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ أي مُنْقَطِعٍ ساقِطٍ.

ومنهمْ مَن قالَ: شَبَّهَهُمْ بأعجازِ النَّخلِ لِعِظَمِ أعجازِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَهُمْ بأعجازِ النخلِ لِطولِهِمْ، ولكنَّ ذلكَ بَعدَ نَزْعِ المَفاصِلِ لِما ذَكَرْنا. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ ﵂ تَنزِعُ الناسَ على أعقابِهِمْ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فهو يُخَرَّجُ على ما ذَكَرْناه مِنَ الوجهَينِ.

الآية ٢٢ وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ يَحْتَمِلُ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهُما:

---

(١) في الأصل وم: مذكر. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فناتهم. (٤) في الأصل وم: انتزاع.

جنة السنة

أحدُهما: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ أي بالرسُلِ [الذينَ دَعُوهُمْ](١) إلى الإيمانِ باللهِ تعالى.

والثاني: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ بما وَقَعتْ بِهِ النِّذارةُ التي أخبَرَ بها الرُّسُلُ أنها نازلةٌ واقعةٌ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ لم يَزَلِ الأكابرُ مِنَ الكَفَرَةِ والرؤساءِ منهم يُلْبِسونَ على / ٥٤٠ ـ أ/ أتباعِهِمْ بهذا الحرْفِ ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ [وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾](٢) ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣و٣٤] ونحوَ ذلك.

وذلكَ تناقُضٌ [في](٣) القولِ لأنهم كانوا يَنْهَونَ أتباعَهُمْ عنِ اتِّباعِ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ، ويَدْعونَهُمْ إلى اتِّباعِ آبائِهِمْ والاقتِداءِ بهِمْ، وهمْ أيضاً بَشَرٌ، وليسَ مع آبائِهِمْ حُجَجٌ وبَراهينُ، ومعَ الرسُلِ حُجَجٌ وآياتٌ، فيكونُ تناقُضاً في القولِ ومُعارَضَةً فاسِدةً، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السُّعُرُ الجنونُ، أي لوِ اتَّبَعْنا بَشَراً منّا لَكُنّا في ضلالٍ وجُنونٍ، وهو مِنْ سَعْرِ النارِ إذا التَهَبَتْ؛ يُقالُ: ناقةٌ مَسْعورةٌ أي كأنها مَجنونةٌ مِنَ النَّشاطِ، وقيلَ: الضَّلالُ والسُّعُرُ واحدٌ. ويَحْتَمِلُ: أي ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ في الآخِرةِ، والسُّعُرُ مِنَ السَّعيرِ، وهو النارُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا القولُ مِنْ أهلِ مكةَ لرسولِ اللهِ ﷺ كقولِهِ تعالى خَبَراً عنهُمْ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] والذِّكْرُ هو القرآنُ على هذا التأويلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ ثمودَ لصالحٍ ﷺ والقصةُ قصةُ صالحٍ، فهو الأشبَهُ بالتأويلِ.

ولم يَزَلِ الكَفَرَةُ يُنْكِرونَ تَفَضُّلَ الرسلِ ﷺ على غَيرِهِمْ مِنَ البَشَرِ بالرسالةِ وإنزالِ الذِّكْرِ عليهِمْ مِنْ بَيْنِهِمْ، ثم يَرَونَ لأنفسِهِمُ الفَضْلَ على أولئكَ الرسُلِ ﷺ إمّا بِفَضْلِ مالٍ[وإمّا](٤) بِفَضْلِ نَسَبٍ ورئاسةٍ ونَفاذِ قولٍ بلا سابقةٍ كانَتْ منهمْ ولا تَقْدِمةِ صُنْعٍ. وما يَنْبَغي لهمْ أنْ يُنْكِروا تَفْضيلَ الرسُلِ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ بلا سابقةٍ كانَتْ منهمْ ولا تَقْدِمةِ صُنْعٍ؛ إذ هي فَضْلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يَشاءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ عن مُجاهِدٍ أنهُ قَرَأَ بِفَتْحِ(٥) الشينِ، وقرأَ العامَّةُ: الأشِرُ بِكَسْرِ الشينِ. قالَ بعضُهُمْ: الأشَرُ بِفَتْحِ الشينِ يَنْشَطُ في الشَّرِّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: وقيلَ: الأشِرُ والأشَرُ هو البَطِرُ كما يُقالُ: حَذِرٌ وحَذَرٌ، وهو المَرِحُ المُتَكَبِّرُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ قُرِيءَ بالياءِ والتاءِ(٦) جميعاً. فَمَنْ قَرَأَ بالياءِ احْتَجَّ بقولِهِ: ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [الآية: ٢٧] ولم يَقُلْ لكمْ، ومَنْ قرأَ بالتاءِ جَعَلَ الخِطابَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ لِلكَفَرَةِ، أي سَتَعْلَمونَ غداً عندَ نزولِ العذابِ بكمْ مِنَ الكَذّابُ أنا أو أنتمْ، وهذا وعيدٌ منهُ لهمْ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ يَفْتِنُهُمْ بها، ويَمْتَحِنُهُمْ، لم يُعطِهِمْ مَجّاناً جُزافاً، كقولِهِ ﷻ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقولِهِ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أي فارْتَقِبْهُمْ بما يكونُ منهمْ مِنَ التَّكذيبِ للناقةِ والعَقْرِ لها. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ هو خطابٌ لرسولِ اللهِ ﷺ في حقِّ أهلِ مكةَ كقولِهِ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أي اصْطَبِرْ على أذاهُمْ، ولاتُكافِئْهُمْ، أوِ اصْبِرْ على تبليغِ الرِّسالةِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وفيهِ مِنَ الفوائدِ والدلائلِ:

---

(١) في الأصل وم: دعتهم. (٢) في الأصل وم: وقوله تعالى. (٣) ساقطة من الأصل وم . (٤) في الأصل وم: أو. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٣٦. (٦) انظر المرجع السابق وصفحته.

جنة السنة

إحداها(١): أنَّ تلكَ الناقةَ كانَتْ عظيمةً على خِلافِ سائرِ النوقِ حتى احتاجَتْ هيَ إلى الماءِ مِثْلَ الذي احتاجَتْ إليهِ سائرُ النوقِ وأهلُها حتى قَسَمَ الماءَ بينَها[وبينَهُمْ].

والثانيةُ:](٢) أنهُ لا بأسَ بِقِسمةِ الشُّربِ حينَ(٣) ذَكَرَ في الآيةِ قِسمةَ الماءِ [وذَكَرَ](٤) في الآيةِ الأخرى ﴿شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وهو قِسمةٌ بالأيامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي كلُّ شِرْبٍ يَحضُرُهُ مَنْ لهُ شِرْبُ ذلكَ، لا يَحضُرُهُ غيرُهُ.

والثالثةُ(٥): أنَّ تلكَ الناقةَ، وإنْ كانَتْ آيةً ومعجزةً لهُ، فكانَتْ تُختلَفُ، وتُشرَبُ، كسائرِ النوقِ التي ليسَتْ هي بآياتٍ، وإنْ كانَتْ تُخالِفُ سائرَ النوقِ في عِظَمِها وقَدْرِ عَلَفِها وشِرْبِها.

[والرابعةُ: أنهُ](٦) جَعَلَ الماءَ بَينَها وبينَ أولئكَ القومِ بالقِسمَةِ [ولم يجعلِ العَلَفَ بينها وبينَهُمْ بالقِسمَةِ](٧) لِاشتراكِهِمْ جميعاً في الماءِ؛ أعني البهائمَ والبَشَرَ، وحاجةِ كلٍّ منهمْ إلى الماءِ، فكذا لم يَجعَلِ النَّباتَ مُشترَكاً بينَها وبينَ سائرِ البهائمِ لأنَّ في ذلكَ كَثْرَةً فلا حاجةَ إلى القسمةِ.

فأمّا في الماءِ في ذلكَ المَوضِعِ فغيرُهُ(٨) لِما يَسقُونَ مِنَ الآبارِ[ولِذلكَ جَعَلَ](٩) الماءَ بالقِسمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

[والخامسةُ:](١٠) أنَّ المِياهَ إذا ضاقَتْ قِسمَتُها بالأجرِ[جازَتْ قِسمَتُها](١١) بالأيامِ مِنْ حيثُ جُعِلَ لها ﴿شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

[والسادسةُ](١٢): أنَّ الماءَ، وإنْ كانَ عَيناً، فهو كالمَنْفَعةِ في جَوازِ قِسمَتِها بالأيامِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الخِطابُ لِصالحٍ ﷺ أمَرَهُ أنْ يُنبِئَ قومَهُ ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ وبَينَ الناقةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الخِطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ أمَرَهُ أنْ يُخبِرَ قومَهُ أنَّ الماءَ كانَ قِسمَةً بينَهُمْ وبَينَ الناقةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أضافَ العَقْرَ ههنا إلى واحدٍ، وفي آيةٍ أُخرَى أضافَ إلى الجماعةِ، وهو قولُهُ: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧] وقولُهُ(١٣) في موضعٍ آخرَ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

فيكونُ ظاهرُ هذهِ الآياتِ على التَّناقُضِ مِنْ حيثُ ذِكْرُ الفَرْدِ والجماعةِ، وفيهِ تناقُضٌ مِن وجهٍ آخرَ؛ فإنهُ ذَكَرَ في آيةٍ ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧] وقالَ في موضعٍ [آخرَ:] ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

ذَكَرَ النَّدامةَ، وهي خِلافُ العُتُوِّ، لكنّا نقولُ: لاتَناقُضَ، ولا اختِلافَ عندَ اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ؛ فقولُهُ ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ قَبْلَ أنْ يَنزِلَ بهمُ العذابُ، وقولُهُ: ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ إذا نَزَلَ بهمُ العذابُ، والتَّناقُضُ في وقْتٍ واحدٍ، في حالٍ واحدٍ.

وكذلكَ العَقْرُ مِن واحدٍ على الحَقيقةِ، ولكنْ إنما أضافَ إلى الجماعةِ لأنهُ عَقَرَ بِمُعاوَنَتِهِمْ، أي الواحدُ هو الذي طَعَنَها، ثم اجْتَمَعوا، فَعَقَروا جميعاً، ونَحْوُ ذلكَ، فَثَبَتَ أنهُ لا تَناقُضَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تَناوَلَ ﴿فَعَقَرَ﴾ أي ضَرَبَ عُرْقوبَها أي ساقَها. وقيلَ: العَقْرُ قد يكونُ جُرْحاً، وقد يكونُ قَتْلاً.

---

(١) في الأصل وم: أحدهما. (٢) في الأصل وم: وفيه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وفيه.
(٦) في الأصل وم: ثم. (٧) ساقطة من الأصل وم . (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم . (٩) في الأصل: فلذلك جعلوا، في م: فكذلك جعلوا.
(١٠) في الأصل وم: وفيه. (١١) في الأصل وم: القسم. (١٢) في الأصل وم: وفيه. (١٣) في الأصل وم: وقال.

جنة السنة

الآيتان ٣٠ و٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ يَحتَمِلُ أي أرسَلْنا عليهِمُ العذابَ قَدْرَ صَيحَةٍ واحدةٍ؛ يُخبِرُ عن سُرْعةِ نُزولِ العذابِ ووقوعِهِ عليهِمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ أرسَلَ عليهِمُ الصَّيحةَ، وأهلَكَهُمْ، وصاروا كما ذَكَرَ مِنْ هَشيمِ المُحتَظِرِ، وهو قولُهُ[1]: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

قيلَ: الهَشيمُ العظامُ الباليةُ، وقيلَ: كالشيءِ المُتَناثِرِ مِنَ الحائطِ. وأصلُ الهَشيمِ الانكِسارُ، أي صاروا كالشيءِ المُنكَسِرِ المُجتَمِعِ في مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْمُحْتَظِرِ﴾ بكَسْرِ الظاءِ ونَصْبِهِ[2]؛ رُوِيَ النصبُ عنِ الحَسَنِ، قالَ أبو عُبَيدٍ: بالكَسْرِ يُقرَأُ على تأويلِ الإنسانِ المُحتَظِرِ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الهَشيمُ الباقي مِنَ الشَّجَرِ، والمُحتَظَرُ الذي يُتَّخَذُ حَظيرةً، وقالَ القُتَبِيُّ: الهشيمُ يابِسُ[3] النبتِ الذي يَنهَشِمُ، أي يَنكَسِرُ، والمُحتَظِرُ بكَسْرِ الظاءِ صاحبُ الحَظيرةِ لِغَنَمِهِ، وبِفَتحِ الظاءِ أرادَ الحيطانَ، وهو الحَظيرةُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي يَسَّرنا القرآنَ لِذِكْرِ ما نَسُوا مِنْ نِعَمِ اللهِ، وأغفَلوا عنها، أو يَسَّرنا القرآنَ لِذِكْرِ ما أغفَلوا مِنَ الحُجَجِ والآياتِ، ونَسُوها، أي يَسَّرنا القرآنَ لِذِكْرِ ما نَسُوا مِنَ الأنباءِ وما نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسُلِ ﷺ بالتكذيبِ والعِنادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قد تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أليسَ الذي أُنذِروا بِهِ وَجَدوا حقّاً؟ وقالَ /٥٤٠ ـ ب/ بعضُهُمْ: أليسَ وجَدوا عذابي ورُسُلي حقّاً. وقد ذَكَرْناهُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي بالرسُلِ ﷺ أو بما تَقَعُ بِهِ النِّذارةُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ على تأويلِ مَنْ يقولُ: إنَّ تلكَ القَرَياتِ قُلِبَتْ بِمَنْ فيها ظَهْراً لِبَطْنٍ على ما ذَكَرْنا في آيةٍ أُخرى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢ والحجر: ٧٤]. أرسَلَ الحاصِبَ[4] على مَنْ غابَ عنها في البلدانِ، فأهلَكَهُمْ بها.

يُخَرَّجُ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: قَلَبْناها بِمَنْ فيها، وأرسَلْنا على مَنْ غابَ عنها ﴿حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ حتى تَستَقيمَ الثُّنيا التي استَثنَى، ويكونَ كقولِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] كأنهُ قالَ: أُحِلَّتْ لكمْ بهيمةُ الأنعامِ والصيدُ إلّا ما يُتلَى عليكُمْ غيرَ مُحِلّي الصَّيدِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى[5] تأويلِ مَنْ يقولُ: إنها قُلِبَتْ، ثم أُرسِلَ عليها الحاصِبُ، فالثُّنيا مُستَقيمٌ، فيكونُ هلاكُهُمْ بأمرَينِ، واستِثناءُ آلِ لوطٍ ﷺ النجاةَ منهما[6] جميعاً، واللهُ أعلَمُ، بقولِهِ[7] تعالى: ﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي مَنَعْنا عنهمُ العذابَ عندَ السَّحَرِ، فيكونُ فيهِ دلالةٌ أنهُ يكونُ بِمَنعِ العذابِ عنهمْ مُنجياً لهمْ، وإلّا لم تَكُنْ نَجاتُهُمْ عندَ السَّحَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ هلاكُ أولئكَ على لوطٍ وآلِهِ نِعمةً مِنَ اللهِ تعالى عليهِمْ، فيكونُ عليهِ شُكرُهُ، فهو جزاءُ شُكرِهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هلاكُ أولئكَ وإغراقُهُمْ جزاءَ ما كُفِرَ بنوحٍ، وذلكَ نِعمَةٌ على نوحٍ ﷺ

---

(١) في الأصل وم: كقوله. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/٣٨. (٣) في الأصل وم: اليابس. (٤) في الأصل وم: الحاضرين. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: منها. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنْ تكونَ نجاةُ نوحٍ ومَنْ كانَ معهُ نِعْمةً منهُ عليهِمْ، إذْ لهُ أنْ يُهلِكَ الكُلَّ: مَنْ كَفَرَ ومَنْ لم يَكفُرْ. ألا تَرَى أنهُ يُهلِكُ الدَّوابَّ والصِّغارَ، وإنْ لم يكُنْ لهمْ مأثَمٌ؟ فإذا كانَ كذلكَ كانَ إبقاءُ مَنْ أبْقَى منهمْ فَضلاً منهُ ونِعْمةً عليهِمْ، وإلّا لا كُلُّ كُفرٍ استَوجَبَ النجاةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ﴾ يُخَرَّجُ على الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهُما:

أحَدُهما: تَمارَوا بالواقِعِ مِنَ النَّذارةِ.

والثاني: ﴿فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ﴾ أي الرُّسُلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي طَلَبوا منهُ التَّخلِيَةَ بَينَهُمْ وبَينَ ضَيفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ ذُكِرَ أنَّ جبرائيلَ ﷺ مَسَحَ جَناحَيهِ على أعيُنِهِمْ، فَعَمُوا، ثم قيلَ لهمْ: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [الآية: ٣٩]

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي نَزَلَ بهِمْ صباحاً بالبُكْرةِ عذابٌ مُستقِرٌّ؛ العذابُ المُستقِرُّ، هو العذابُ الذي نَزَلَ بهِمْ، ودامَ عليهِمْ، وأهلَكَهُمْ. وأمّا [طَمْسُ][1] الأعينِ فَقَدِ انقضَى.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ النُّذُرُ هَهنا ما وَقَعتْ بهِ النَّذارةُ.

الآيتان ٤٠ و٤١ وقولُهُ تعالى: [﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾][2] ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ يَحتَمِلُ ما قالَ مِنَ النُّذُرِ أنهُ جاءَ إلى فرعونَ موسى وهارونُ ﷺ سَمّاهما باسْمِ الجَمْعِ، وهو النُّذُرُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ النُّذُرِ التي جاءَتْهُمْ هي ما نَزَلَ مِنْ أنواعِ العذابِ، فيكونُ المُرادُ بالنُّذُرِ ما وَقَعتْ بهِ النَّذارةُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ يَحتَمِلُ أنهمْ كَذَّبوا جميعَ الآياتِ التي جاءَهُمْ بها موسى مِنْ آياتِ الألوهيّةِ والوَحدانيّةِ وآياتِ الرسالةِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ هي جميعَ ما يَدُلُّ على وَحدانيّةِ الرَّبِّ وألوهيّتِهِ مِنَ الخلائقِ لأنَّ ذلكَ اللعينَ قدِ ادَّعَى الألوهيّةَ لنفسِهِ، وجميعُ ما في العالَمِ يَدُلُّ على ألوهيّةِ اللهِ تعالى؛ فهو حينَ[3] ادَّعاها لِنَفسِهِ، وصَدَّقَهُ قومُهُ، كَذَّبوا بذلكَ جميعَ الآياتِ التي تَشهَدُ على ألوهيّةِ اللهِ تعالى ووَحدانيّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي أخذَ عزيزٍ ذليلاً وأخذَ غالبٍ مَغلوباً وأخذَ قادرٍ عاجزاً وأخذَ قاهرٍ مقهوراً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ يقولُ اللهُ تعالى، واللهُ أعلَمُ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهلَ مكةَ أقوى في دَفْعِ العذابِ عَنْ أنفسِهِمْ والانتِصارِ منهُ، إذا نَزَلَ بهِمُ العذابُ مِنْ أولئكَ الذينَ كانوا مِنْ قَبلِكُمْ، أي ليسَ كُفّارُكُمْ أقدَرَ منهُمْ، بل أولئكَ أكثَرُ، ثم لم يَقدِروا القِيامَ بِدَفْعِ العذابِ عَنْ أنفسِهِمْ ولا الانتِصارَ منهُ إذا نَزَلَ بهِمْ.

فأنتُمْ يا أهلَ مكةَ أضعَفُ وأقَلُّ عدداً أحَقُّ ألّا تَقدِروا على دَفْعِ العذابِ عنكُمْ، إذا نَزَلَ بكُمْ.

أو يقولُ: ليسَ لكُمْ براءةٌ في الكتبِ أنَّ العذابَ لنْ يُصيبَكُمْ، إذا نَزَلَ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي بل تقولونَ ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي لا يَنصُرونَكُمْ كَجَمْعِهِمْ هذهِ الآياتِ الثلاثِ على النَّفيِ والدَّفعِ: أي ليسَ لهمْ ما يدفعونَ العذابَ عَنْ أنفسِهِمْ، وليسَ لهمْ ما يُنصَرونَ بهِ، ولا كُفّارُهُمْ خيرٌ مِنْ كُفّارِ أولئكَ في دَفْعِ العذابِ والقُدرةِ على الانتِصارِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآيتان ٤٥ و٤٦ ثم قولُه[1] على الابتداءِ ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ فيهِ [أدلَّةٌ:

أحَدُها][2]: أخبرَ أنَّ لهمْ جَمْيعاً يُهزَمُ ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ ما ذَكَرَ، وقد كانَ. [وقال][3] أهلُ التأويلِ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ هو جَمْعُ أهلِ بَدْرٍ، أخبَرَ أنهمْ يُهزَمونَ ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وقد كانَ ما أخبَرَ رسولُ اللهِ ﷺ دلَّ أنهُ عَلِمَ باللهِ تعالى.

والثاني: أخبَرَ أنَّ الساعةَ موْعدُ إهلاكِهِمْ واستِئصالِهِمْ لا الدنيا بقولِهِ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ وكانَ كما أخبَرَ.

[والثالثُ:][4] دلالةُ إثباتِ الرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي أعظمُ وأشدُّ.

الآية ٤٧ وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ في الدنيا وفي السُّعُرِ في الآخِرةِ، وهو السَّعيرُ. ويَحْتَمِلُ ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ في هَلاكٍ ﴿وَسُعُرٍ﴾ في حَيرةٍ وجُنونٍ وتيهٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ كأنهُ يقولُ لهُ: قُلْ لهمْ: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ أنْ خَتموا على ما هُمْ عليهِ ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يُقالُ لهمْ: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي ذوقوا عذابَ سَقَرَ، والسَّقَرُ هو اسْمُ النارِ، فَيَصيرُ كأنهُ على الإضمارِ، أي يُقالُ لهمْ: ذوقوا عذابَ النارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحَدُها][5]: على التقديمِ والتأخيرِ، أي إنا قَدَّرْنا[6] كل شيءٍ [خَلَقْناهُ][7]. فيكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٠٢و...].

والثاني[8]: إثباتُ خَلْقِ[9] كُلِّيَّةِ الأشياءِ.

والثالثُ[10]: على ظاهرِ ما جَرَى بهِ[11] الخطابُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ أي إنا كلَّ شيءٍ نُقَدِّرُهُ[12]. فإنْ كانَ على هذا فليسَ فيهِ إثباتُ خَلْقِ كُلِّيَّةِ الأشياءِ، ولكنْ فيهِ إثباتُ أنَّ ما خَلَقَهُ بِقَدَرٍ، وإلى هذا التأويلِ يَذْهَبُ المعتزلةُ.

والتأويلُ عندَنا هو الأوَّلُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ كقولِهِ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٠٢و...] ويَحْتَمِلُ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ وَحَدٍّ يَنْتَهي إليهِ ذلكَ، أو يَبْلُغُ حَدَّهُ، ليسَ كالمخلوقِ، لا يَعْرِفُ أحدٌ قَدْرَ فِعْلِهِ ولا حَدَّهُ الذي يَنْتَهي، ولا يَخْرُجُ فِعْلُ أحدٍ مِنَ المَخلوقاتِ على ما يُقَدِّرونَ.

فأخبَرَ أنَّ فِعْلَهُ يَخْرُجُ على ما يُقَدِّرُهُ خِلافاً لِفعْلِ غيرِهِ، فَيَدُلُّ على أنهُ هو الخالقُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ الأمْرُ في ما بَيْنَ الخَلْقِ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أمْرُ شأنٍ بالفِعْلِ

والآخَرُ: أمْرُ تكليفٍ لِغَيرٍ

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ إنما هو أمْرُ فِعْلٍ، يُخْبِرُ عن سُهولَةِ ذلكَ عليهِ، أي شأنُهُ وفِعْلُهُ يَسيرٌ عليهِ، لا يُعْجِزُهُ /٥٤١ ـ أ/ شيءٌ، ولا يَشْغَلُهُ.

فَعَلَى ذلكَ أمْرُ اللهِ وخَلْقُهُ عليهِ. والواحدُ: ليسَ هو اسْمَ العَدَدِ، وإنْ كانَ الحِسابُ بهِ يُبْتَدَأُ، فإنما هو اسْمُ التَّوَحُّدِ والتَّفَرُّدِ كما يُقالُ: فلانٌ واحدُ زمانِهِ، لا يُريدونَ مِنْ جِهَةِ العَدَدِ، إذْ لهُ أعدادٌ وأمثالٌ مِنْ جِهَةِ العَدَدِ، ولكنْ إنما يُرادُ بأنهُ المُتَوَحِّدُ في شَأْنِهِ وفِعْلِهِ، ولا نَظيرَ لهُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: دليلان أحدهما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفيه أيضا. (٥) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٦) في الأصل وم: خلقنا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وفيه. (٩) من م، في الأصل: كل. (١٠) في الأصل وم: والثاني. (١١) في الأصل وم: الآية. (١٢) في الأصل وم: يقدر.

جنة السنة

فَعلَى ذلكَ تَسميَتُهُ نَفسَهُ(١) واحداً لِتفَرُّدِهِ وتَوَحُّدِهِ في الوهيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ، وتَسْمِيَةُ أمْرِهِ واحداً؛ إنَّ فِعلَهُ وشأنَهُ لا يُشبِهُ أفعالَ غَيرِهِ، وإنهُ لا نَظيرَ لهُ في ذلكَ، وإنهُ يَسيرٌ عليهِ، لا حاجَةَ لهُ إلى الوقْتِ والآلةِ وغَيرِ ذلكَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿كَلَمْجِ بِالْبَصَرِ﴾؟ يُخبِرُ عن خِفَّةِ ذلكَ عليهِ وسُهولَتِهِ مِن حيثُ لا يَثْقُلُ على أحدٍ رَدُّ البَصَرِ ولا لَمْحُهُ. هذا وجْهٌ.

[ووجهٌ ثانٍ](٢) فيهِ إخبارٌ أنه لا يَشْغَلُهُ شيءٌ لأنَّ الناسَ يَشْغَلُهُمْ بعضُ أمورِهِمْ عن بعضٍ.

وأهلُ التأويلِ يَصْرِفونَ الآيةَ إلى الساعةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وهو مُحتَمِلٌ. فَيُخبِرُ أنَّ الآخِرَةَ ليسَتْ على تقديرِ أمْرِ الدنيا على إتْباعِ بعضٍ بعضاً وعلى إرْدافِ شيءٍ على شيءٍ وعلى الانتِقالِ والتَّغييرِ مِن حالٍ إلى حالٍ، ولكنَّ أمْرَ الآخِرَةِ على التَّكَوُّنِ بِمَرَّةٍ واحدةٍ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: إخوانُكُمْ وأهلُ دينِكُمْ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ ﷺ واذْكُروا أنتمْ يا أهلَ مكةَ لِئلا تَهلِكوا بِتكذيبِكُمْ محمداً ﷺ.

والثاني: أي ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ وعَرَفْتُمْ ذلكَ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يَتَذَكَّرُ، ويَتَّعِظُ، ويَعْتَبِرُ بهِ؟ وجائزٌ أنْ يكونَ مَعناهُ: ولقدْ أهلَكْنا جِنسَكُمْ، والحكيمُ لا يَخلُقُ الخَلْقَ للفناءِ والهلاكِ، فاعْلَموا أنهُ أنشأكُمْ لِعاقبةٍ.

وفيهِ إثباتُ البَعْثِ، لكنهُ لا تُدرِكُهُ أفهامُ الكَفَرَةِ وعقولُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ مِنَ التكذيبِ والعِنادِ كانَ في الكتبِ المُتَقَدِّمَةِ؛ أي عن عِلمٍ بِصَنيعِهِمْ وفِعلِهِمْ أنشأهُمْ، وبَعَثَ إليهِمُ الرسُلَ.

وهو رَدٌّ على مَنْ يقولُ: إنهُ لا يَعْلَمُ ما يكونُ منهمْ حتى يكونَ منهمْ ذلكَ، لأنهُ لو كانَ يَعلَمُ ذلكَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَبْعَثَ الرسلَ ﷺ إليهمْ، ويأمُرَهُمْ، ويَنْهاهُمْ، وهو يَعْلَمُ أنهمْ يُكَذِّبونَ رُسُلَهُ، ويُخالِفونَ أمْرَهُ.

فَرَدَّ، وبَيَّنَ أنهُ لم يَزَلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ. وقد بيَّنّا قَبْلَ هذا أنهُ تعالى بَعَثَ الرسُلَ ﷺ وإنْ عَلِمَ منهمُ التكذيبَ والخِلافَ، وذلكَ لأنَّ المَنافعَ والمَضارَّ راجعةٌ إليهمْ دونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعناهُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في الكُتُبِ التي تَكْتُبُ عليهمُ الملائكةُ، ويُؤمَرونَ بالقراءةِ في القيامةِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ هذا أيضاً يُخَرَّجُ على هذينِ الوجْهَينِ:

أحَدُهما: ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ في الكتبِ التي قَبْلَهُمْ.

[والثاني: ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ في كُتُبِ](٣) الذينَ يُمْلونَ على الحَفَظَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [القمر: ٤٧و٤٨] وقولِهِ(٤) في موضعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤].

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾](٥) اختُلِفَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَنَهَرٍ﴾

قيلَ: ﴿وَنَهَرٍ﴾ مِنَ النهارِ، أي هُمْ في ضياءٍ ونورٍ وسُرورٍ، وهو قولُ الأصَمِّ.

وقالَ الفَرّاءُ: النَّهَرُ السَّعَةُ؛ يُقالُ: أنهَرْتُ الطَّعنَةَ، أي وَسَّعْتُها.

وقالَ أهلُ التأويلِ: أي الأنهارُ.

---

(١) في الأصل وم: إياه. (٢) في الأصل وم: والثاني. (٣) في الأصل وم: أو في. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: ثم.

جنة السنة

(الآية ٥٥) وقولُهُ تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي مَوعودِ صِدْقٍ؛ كأنهُ كِنايةٌ عن راحةٍ وسرورٍ لهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] أخبَرَ أنهمْ يَستَريحونَ فيها، أو يَسْكُنونَ، ويقِرّونَ، لا يُريدونَ التَّحوُّلَ عنها.

وهو مُقابِلُ ما ذَكَرَ لِلْكُفّارِ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] أي يُجَرّونَ وقولِهِ تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] وقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧] يَطلبونَ الخُروجَ منها، وأخبَرَ أنهمْ يكونونَ أبداً في عَناءٍ وشِدّةٍ وبَلاءٍ حتى لا يَقِرّ[1] في مكانٍ.

وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] أي لهمْ مَوعودَ صِدْقٍ عندَ ربِّهِمْ، أي تَقِرُّ أقدامُهُمْ في ذلكَ، فيكونُ هو كِنايةً عنِ الثباتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ إنَّ الرَّجُلَ إذا كانَ في فَضلٍ وخَيرٍ يُضافُ بكونِهِ فيهِ إلى اللهِ تعالى نَحْوُ ما يُقالُ: في سَبيلِ اللهِ تعالى، وَوُفودُ اللهِ، وغيرُ ذلكَ مِنَ الأمْكِنةِ التي هي أمْكِنةُ الفَضْلِ والخَيرِ؛ تُضافُ إلى اللهِ، نَحْوُ بيتِ[2] اللهِ ومساجدِ[3] اللهِ لأنها أمْكِنةُ القُرْبِ والفَضْلِ.

فَعلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أضافَ كونَهُمْ في أمْكِنةِ الفَضْلِ والخَيرِ والمنزلةِ إليهِ[4] تعالى لا لأنهُ[5] يوصفُ بِمَكانٍ أو مُقامٍ بل [لأنهُ][6] هو مُمْسِكُ الأمْكِنةِ كلِّها ومُنْشِئُ الأمْكِنةِ بأسرِها، واللهُ المُوَفِّقُ.

تم بعون الله

المجلد الرابع، ويليه

المجلد الخامس والأخير، وأوله سورة الرحمن

---

(١) في الأصل وم: يقرون. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]. (٤) في الأصل وم: عند الله. (٥) في الأصل وم: أنه. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

جنة السـنة

سورة العنكبوت ٥
سورة الروم ٣٣
سورةُ لقمانَ ٦٣
[سورةُ السجدةِ ٨٣
[سورة الأحزاب ٩٧
[سورة سبأ ١٤١
[سورة فاطر] ١٦٧
سورة يس ١٩١
سورة الصافات ٢١٧
سورة ص ٢٥٣
سورة الزمر ٢٨٩
سورة [﴿حمٓ﴾] المؤمن ٣٢٩
[سورة ﴿حمٓ﴾ فصلت ٣٦٣
سورة ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ الشورى ٣٩١
سورة ﴿حمٓ﴾ الزخرف ٤٢١
سورة ﴿حمٓ﴾ الدخان ٤٥٥
سورة ﴿حمٓ﴾ الجاثية ٤٦٩
سورة ﴿حمٓ﴾ الأحقاف ٤٨٣
سورة محمد ﷺ ٤٩٩
سورة الفتح ٥١٧
سورة الحجرات ٥٣٩
سورة ق ٥٥٣

جنة السنة

سورة الذاريات ٥٧٣
سورة الطور ٥٩١
سورة النجم ٦٠٣
سورة القمر ٦١٩

جنة السنة

جنة السنة

جنة السنة

جنة السنة

جنة السنة

جنة السنة

جنة السنة